

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة وهران

كلية العلوم الاجتماعية  
قسم الفلسفة

أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة  
الموضوع:

## أخلاقيات البحث العلمي

البيولوجيا و أسلحة الدمار الشامل نموذجين

إشراف الأستاذ الدكتور:  
البخاري حمانه

إعداد :  
عبد الكاظم العبودي

أعضاء لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة وهران	أ.د. بوعرفه عبد القادر
مشرفا ومقررا	جامعة وهران	أ.د. البخاري حمانه
مناقشا	جامعة تلمسان	د. عبد الرحمن كاظم
مناقشا	جامعة الجزائر	د. شوتري أحمد
مناقشا	جامعة الجزائر	د. جمال حمود
مناقشا	جامعة وهران	د. صايم عبد الحكيم
مدعوا	جامعة وهران	أ.د. كيحل مبروك

السنة الجامعية: 2010 - 2011

الإهداء

إلى شهداء الإبادة والمظالم الاستعمارية

في وطننا العربي.

وإلى تربة الشهداء الطاهرة في

العراق والجزائر وفلسطين

إلى أرواح ضحايا أسلحة الدمار الشامل في العالم

## شكر وامتنان و عرفان

- - الى الاستاذ الدكتور البخاري حمانه على قبوله الاشراف وتأطير هذه الدراسة.
- - الى كافة الاساتذة أعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة.
- - الى كافة الزملاء والاخوة من قسم الفلسفة وقسم التقانات الحيوية ومخبر الميكروبيولوجيا التطبيقية بجامعة وهران على الدعم المعنوي والمادي، ولما لاقاه بحثنا من تشجيع ورعاية واهتمام المخبر.
- - الى ادارة ومكتبة مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد لما وفرته لنا من وثائق ومراجع واطلاع على الأرشيف بما يتعلق ببعض فصول البحث.
- - الى ادارة مكتبة جامعة لودز ببولندا على توفيرها العديد من المراجع والمصادر.
- الى مؤسسة رياض العلوم للنشر والتوزيع في الجزائر ومكتبة بيت الحكمة بغرداية وما لاقيناه من تشجيع كريم ودعم صادق بشخص الأخ الاستاذ يحيى عبونة.
- - الى ادارة ومكتبة المركز الثقافي الإسلامي في الجزائر والدكتور حمداوي مأمون مدير المركز.
- - الى الاستاذين الاخوة أحمد شاهين ومنتصر أوبترون على كل ما قدماه لنا من ملاحظات نقدية والمساعدة في ترجمة العديد من المصادر والوثائق.
- - الى زوجتي السيدة الفاضلة رتيبة عجالي العبودي تكريما لصبرها وسهرها في رقبنا واخراج هذه الرسالة وعلى التشجيع العائلي لانجاز هذه الرسالة.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) «الآية 112 من سورة النحل».

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) «الآية 41 من سورة الروم» .

صدق الله العظيم

## Abbreviations: المختصرات الواردة في الرسالة

- **AB<sub>1</sub>**: (Eng.) = Aflatoxin B1 : أفلاتوكسين ب1
- **BA**: (Eng.) Bleaching Agent: عوامل القصر
- **BA** : (Eng.) : Blood Agents : العوامل الدموية
- **CIA**: (Eng.) : Central Intelligence Agency وكالة المخابرات المركزية
- **CPD**: (Eng.) : Committee danger لجنة الخطر المائل
- **DDT**: (Eng.) *abbreviation of dichlorodiphenyltrichloroethane, also called 1,1,1-trichloro-2,2-bis(p-chlorophenyl)ethane*, مبيد حشري سام ،
- **DNA** : (Eng.) الحمض النووي الريبوزي منقوص الاوكسجين
- **DU**: (Eng.) : Dimplited Uranium اليورانيوم المنضب
- **EISI**: (Eng.) : القضايا الاخلاقية والقانونية والاجتماعية للعلم
- **FBI**: (Eng.) : U.S. Federal Bureau of Investigation مكتب المباحث الاتحادي الامريكي
- **FDA**: (Eng.) : Food and Drug Administration هيئة الغذاء والدواء
- **HDAO** : (Eng.) : Hydroxy Dimethyl Arsine Oxide.
- **HEU**: (Eng.) :High Enriched Uranium اليورانيوم عالي التخصيب
- **HGP** : (Eng.) Human Genom Projec ، مشروع الجينوم البشري ،
- **IAEA** . : (Eng.) : The International Atomic Energy Agency وكالة الطاقة الذرية الدولية
- **JINSA**: (Eng.) : Jewish Institute for National Security Affairs المعهد اليهودي لشؤون الامن القومي
- **K.G.B**: جهاز الاستخبارات السوفيتية
- **LEU**: (Eng.) : Law Enriched Uranium, اليورانيوم المنخفض التخصيب
- **LSD**: (Eng.) : حامض الليسرجيك
- **MG**: Mustard Gas: (Eng.) : غاز الخردل
- **NACP** (Eng): New American Century Project: مشروع القرن الامريكي الجديد
- **NPT**: (Eng.) : Aahidp Non-Proliferation of Nuclear Weapons معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية
- **Ppm**: (Eng.) : part per milion جزء من المليون
- **RNA**: (Eng.) : Ribonucliec Acide حمض الريبونيوكلريك
- **TNT**: (Eng.): C<sub>6</sub>H<sub>2</sub>(NO<sub>2</sub>)<sub>3</sub>CH<sub>3</sub> تعرف بالاسم العلمي ثلاثي تروتيل نيترو تولوين. تي إن تي
- **TW** : (Eng.) : Thermonuclear Weapon السلاح النووي الحراري
- **UNDDA**: (Eng.) : United Nation Deparment for Disarmaments الجمعية العامة، هيئة شؤون نزع السلاح
- **WASP**: (Eng.) : White Anglo Saxon Protestant, البروتستانت الانجلو سكسون
- **WMD** : (Eng.) :Words of Mass Dissemination=( NW +BW +CW)
- أسلحة الدمار الشامل = (الاسلحة النووية+الاسلحة البيولوجية+الاسلحة الكيماوية)

# الفهرس

## الفهرس

1	الفصل الأول: المغامرة الكونية إلى أين.....
2	أولاً: تاريخية وراهنية الموضوع:.....
6	ثانياً: أي علم نريد وأي تقانة نقتفي:.....
9	ثالثاً: تحديد المفاهيم.....
13	رابعاً: الإشكالية.....
18	خامساً: المنهج.....
21	سادساً: الأفاق التي يفتحها البحث.....
21	سابعاً: الصعوبات التي واجهها البحث:.....
22	ثامناً: مكونات الرسالة.....
	<b>الباب الأول: الأخلاق وأخلاقيات البحث العلمي:</b>
25	<b>الفصل الثاني: الأخلاق.....</b>
25	1-2: تعريف علم الأخلاق لغة واصطلاحاً.....
26	2-2: اختلافات تعريف الأخلاق وتفاوت الالتزام به.....
27	3-2: الخلق كمفهوم واسع للتداول.....
31	4-2: القيم الأخلاقية عبر العصور.....
33	5-2: الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية وفيزياء الأخلاق.....
35	6-2: علم الأخلاق وموضوعه ومفاهيمه.....
37	7-2: البعد النظري في الأخلاق.....
42	8-2: البعد العملي في الأخلاق.....
47	9-2: الاختيار الأخلاقي.....
49	10-2: الأخلاق النسبية والوضعية.....
50	11-2: الأخلاق المعيارية "المثالية".....
51	12-2: قابلية الأخلاق للتغيير.....
51	13-2: الموقف من قبول أخلاق الإنسان للتغيير.....
52	14-2: الأخلاق الحيوية جزء من علم الأخلاق في العصر الحديث.....
53	2-15: الأخلاق بين الثبات والتغير.....
53	16-2: التوجهات الأخلاقية في العلم "الأخلاق والمعرفة".....
56	17-2: المذاهب الأخلاقية في الفلسفة الغربية.....
59	2-18: المذهب الأخلاقي عند سبينوزا.....
63	2-19: المذهب الأخلاقي عند إيما نوثيل كانت.....
65	2-20: فردريك نيتشة وفلسفة القيم.....
68	2-21: الفلسفة النقدية الكانتية وانعكاساتها على الفلاسفة المعاصرين.....
69	2-22: إدغار موران والنزعة النقدية التقنوية.....
70	2-23: جيل دولوز.....

- 78 ..... 24-2: "فوكو" وتجليات هيمنة السلطة
- 76 ..... 25-2: هيدجر متلازمة الانهيار والقلق والذات
- 77 ..... 26-2: "جون رولز" ونظرية الوفاقات المعقدة
- 78 ..... 27-2: الفرويدية التقليدية والجديدة عن طبيعة الإنسان وغرائزه
- 90 ..... 28-2: من عدوانية الفرد إلى عدوانية الجموع "الحشود"
- 94 ..... 29-2: سيكولوجية العدوان
- 95 ..... 30-2: سيكولوجية الطاعة

### 103 ..... الفصل الثالث : الأخلاقيات في الحقل العلمي التطبيقي

#### 100 ..... 3- البحث العلمي وأخلاقيات العلم

- 100 ..... 1-3: العلم والتقانة وعلاقتهما بالأخلاق

#### - الأخلاقيات في العلوم البيولوجية والطبية:

- 106 ..... 2-3: الأخلاقيات في العلوم البيولوجية

- 106 ..... 1-2-3: الأخلاقيات الحيوية

- 113 ..... 2-2-3: اكتشاف الجينوم نهاية لغز عظيم

- 115 ..... 3-2-3: تقانة الاستنساخ للحمض النووي الدنا

- 120 ..... 4-2-3: على ضوء ذلك يطرح السؤال حول "من يمتلك الحياة؟"

- 125 ..... 5-2-3: تقانة الاستنساخ "الإستنسال" واستعمال الخلايا الجذعية

- 125 ..... 6-2-3: الاستنساخ الجنيني "شطر الجنين"

- 128 ..... 7-2-3: الموقف الإسلامي العام من قضية الاستنساخ البشري

- 129 ..... 8-2-3: بحوث الخلايا الجذعية

- 134 ..... 3-3: الأخلاقيات الحيوية في الطب

- 134 ..... 1-3-3: تجارب وتقنيات الحمل المساعد

- 137 ..... 2-3-3: التطبيقات العلاجية الطبية للخلايا الجذعية

- 137 ..... 3-3-3: الانعكاسات الأخلاقية لبحوث وتقانات العلاج الوراثي

- 142 ..... 4-3: قرن من الجرائم والأخطاء في خرق الأخلاقيات الحيوية والطبية

- 142 ..... 1-4-3: الغرب من اليوجينا إلى التطهير العرقي

- 143 ..... 2-4-3: جرائم النازية

- 146 ..... 3-4-3: مجازر الأسلحة البيولوجية اليابانية في آسيا

- 147 ..... 4-4-3: الجرائم الأمريكية في الولايات المتحدة والعالم

- 150 ..... 5-4-3: ضحايا تجارب شركات الدواء

- 154 ..... 6-4-3: الجرائم الصهيونية في الحرب البيولوجية ضد العرب

- 154 ..... 7-4-3: الحروب الفيروسية في زمن السلم والحرب الباردة

- 156 ..... 3-6-1: الأخلاقيات الايكولوجية

- 157 ..... 3-6-2: الفلسفة البيئية والأخلاق البيئية

- 161 ..... 3-6-3: بينات الإنسان الثلاث : هل من اخضرار للفلسفة البيئية؟

- 165 ..... 7-3: الإنسان والتكنولوجيا والمجتمع المادي

- 166 ..... 8-3: الموقف الأخلاقي في البحث العلمي لأسلحة الدمار الشامل والإبادة والحرب

## الباب الثاني: آفاق العلم ومشكلاته:

### الفصل الرابع

#### 4 - آفاق العلم ومشكلاته

169	عصر المعرفة: الوحدة والفصل بين الفلسفة والعلم.....
169	1-4: مدخل.....
174	2-4: بعض معايير النشاط الفكري كـ "علم".....
175	3-4: الجدل حول العلم و"ميتا العلم".....
178	4-4: تعددية العلماء وفلسفاتهم.....
179	5-4: الطريقة العلمية.....
180	6-4: العلم والتكنولوجيا في عصر المعرفة.....
180	7-4: الأعمدة الثلاثة لثورة العلم.....
181	8-4: ملامح المستقبل في ظل الثورات التكنولوجية.....
185	9-4: تعريف العلم وطبيعته وتقدمه وبعض من مفاهيمه.....
185	1-9-4: تعريف العلم والعلماء.....
186	3-9-4: طبيعة العلم.....
187	4-9-4: طريق العلم ومساراته.....
188	10-4: فهم العلم والتقانة بين ثقافتين.....
192	11-4: التقدم العلمي وعلاقته بالثورات العلمية والبحث العلمي.....
195	12-4: سمات العلم.....
195	1-12-4: تقدم وتقديم العلم.....
198	2-12-4: الموضوعية العلمية والاقتناع الذاتي.....
198	13-4: إشكالية التقدم العلمي.....
199	14-4: العقلانية والعلمانية في التفكير العلمي.....
205	15-4: التقدم العلمي المركب وصلته بالخطاب الاجتماعي والسياسي والأخلاق.....
205	1-15-4: التحديات والمخاطر والرهانات في التطبيقات العلمية.....
207	2-15-4: مناهضة العلم.....
210	16-4: الخطاب العلمي والتقاني.....
214	17-4: أسباب وظروف إعاقة العلم عن التقدم أو تعثره.....
214	1-17-4: إشكاليات إيديولوجيات العلم والنخب.....
217	2-17-4: مراحل وتسميات في مسار العلم.....
229	18-4: أزمة الأيدولوجيا.....
231	19-4: البيئة العلمية وتكوين النخب العلمية والتكنولوجية.....
232	1-19-4: نظام الجدارة "المريتوقراطية" تكنوقراطية العلماء.....
233	20-4: نخب الحروب والدمار الشامل.....
234	21-4: الموضوعية العلمية والأخلاقية في حقلي الفلسفة والعلوم.....
234	1-21-4: مسؤولية العلماء الأخلاقية.....
238	2-21-4: المسؤولية العلمية والمسؤولية في إساءة تطبيق العلم.....
243	22-4: المسؤوليات الأخلاقية للنخب العلمية والخبراء في الاستشارة العلمية والتقنية.....
249	23-4: المسؤولية الأخلاقية عن اختلاف تفاوت معايير القياس وازدواجية التقنيات.....

- 250 ..... 1-23-4 : الأمن الغذائي و قضايا السلامة الغذائية:
- 252 ..... 2-23-4 - تأثير المبيدات والأسمدة و المواد الكيميائية على البيئة:
- 253 ..... 3-23-4: قضايا التعريض الإشعاعي والكوارث النووية:
- 260 ..... 3-23-4: قضايا البيئة الأوزون: الانحباس الحراري والتصحر :
- 264 ..... 24-4: الموقف من أسلحة الدمار الشامل(حضور العلم والعقل ونقيضهما):
- 272 ..... 25-4 : الحقيقة العلمية...معايير العلم الاجتماعية:
- 273 ..... 26-4: حول المصير الإنساني ومستقبل العلم والتقانة:

### الباب الثالث: الحرب والأسلحة والإبادة والسلام والمستقبل

#### الفصل الخامس:

- 279 ..... 5 - الغرب، الإبادة و الحروب الاستعمار والاستيطان:**
- 279 ..... 1 - 5 : مدخل تمهيدي:
- 281 ..... 5 - 2: إرث الغزب في الإبادة و الغزو الإستدماري الدموي:
- 284 ..... 5-4 : محاكم التفتيش في اسبانيا: "هولوكوست الأندلس":
- 290 ..... 5-5 : الحروب الصليبية :
- 302 ..... 5-6: الاستعمار و الغزو، تعريض شعوب وأمم إلى الإبادة و المجازر:
- 310 ..... 5-7: التقدم العلمي و حافظ القوة دفعا إلى الحروب و الغزو البعيد:
- 313 ..... 5-8: ظهور المستوطنات الاستعمارية غير بعيد عن أوربا:
- 316 ..... 5-9: الحدود الجغرافية و الحدود التكنولوجية و الحروب:
- 319 ..... 5-10: عصر الرأسمالية، و تطوير أسلحة الإبادة الجديدة:
- 321 ..... 5-11: حروب المطامع الاستعمارية و النفوذ:
- 326 ..... 5-11-1: جدل أخلاقي عن مبررات و جدوى استخدام الأسلحة الكيماوية:
- 330 ..... 5-12: دروس الحرب الكيماوية الأولى :الجدل الأخلاقي:"القبول و الرفض"
- 330 ..... 5--13: المنظور الأخلاقي للإبادة بالحرب النووية:
- 336 ..... 5-14 : جدل حول مفهوم الإبادة الجماعية في العصر الحديث:

#### الفصل السادس

- 348 ..... 6- أسلحة الدمار الشامل :**
- 348 ..... 6-1: ما هي أسلحة الدمار الشامل WMD :
- 352 ..... 6-2: التعهدات الدولية و ازدواجية المعايير:
- 362 ..... 6-3: كرونولوجيا أسلحة الدمار الشامل :
- 366 ..... 6-4: القنبلة النووية من تجربة صحراء نيومكسيكو إلى قصف هيروشيما و نياغازاكي:
- 375 ..... 6-5: الولاء العقائدي و الديني و أخلاقيات نشر أسلحة الدمار النووي الشامل:
- 379 ..... 6-6: القنبلة الهيدروجينية" قنبلة السوبر":
- 381 ..... 6-7: القنبلة النيوترونية:
- 381 ..... 6-8: القنابل النووية القدرة و مشكلات النفايات النووية على الامن العالمي:
- 387 ..... 6-9: انهيار مؤتمر مراجعة معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية:
- 391 ..... 6-10: الأسلحة الكيماوية:
- 393 ..... 6-11: أنواع الأسلحة الكيماوية:
- 397 ..... 6-12: أهم حالات استخدام الأسلحة الكيماوية :

- 401 ..... 13-6: الإبادة بالأسلحة الكيماوية في الجزائر:.....
- 403 ..... 14-6: تسجيل أول استخدام للأسلحة الكيماوية في العالم ضد المدنيين الجزائريين العزل:.....
- 416 ..... 15-6: الهجمات الإيطالية بالغازات السامة الفرنسية في ليبيا:.....
- 423 ..... 16-6: استخدام الأسلحة الكيماوية الإيطالية في الحبشة:.....
- 432 ..... 17-6: قصف القبائل الأفغانية بالأسلحة الكيماوية من قبل بريطانيا:.....
- 433 ..... 18-6: استخدام اليابان الأسلحة الكيماوية ضد الصين:.....
- 434 ..... 19-6: استمرار إنتاج وتطوير الأسلحة الكيماوية رغم بشاعتها:.....
- 455 ..... 20-6: تجنب استخدام الأسلحة الكيماوية في الحرب العالمية الثانية:.....
- 455 ..... 21-6: استخدام الأسلحة الكيماوية في النزاعات الإقليمية:.....
- 471 ..... 22-6: النزاعات الإقليمية: ساحات تجريب الأسلحة الكيماوية:.....
- 486 ..... 23-6: اليورانيوم المنضب: "هولوكوست العراق الإشعاعي":.....
- 487 ..... 24-6: الأسلحة البيولوجية:.....
- 489 ..... 24 - 6: 1: ترسانة الأسلحة البيولوجية في العالم:.....
- 523 ..... 25 - 6: الإرهاب والتهديدات البيولوجية في العالم خلال القرن العشرين:.....
- 525 ..... 26 - 6: 2: توظيف الرعب البيولوجي لأغراض السياسات الاستعمارية:.....
- 527 ..... 27 - 6: 2: وضع الأسلحة البيولوجية ما بعد أحداث 11 سبتمبر 2001:.....
- 528 ..... 28-6: برنامج كوست العنصري وسواه بين الافتراض والواقع الفعلي:.....
- 534 ..... 29-6: الإرهاب البيولوجي في ممارسات أجهزة الدولة العظمى:.....
- 536 ..... 30 - 6: الإدارة الأمريكية هي التي استعملت سلاح دمار شامل ضد شعبها؟.....

## الفصل السابع

- 542 ..... 7 - الإباداة وصراعات الهوية والثقافة والوجود في ظل العولمة.....
- 543 ..... 7- 1: أخلاقية القوة الغالبة:.....
- 559 ..... 7 - 2: تيارات التطرف في الولايات المتحدة وتراجع الأخلاقيات:.....
- 566 ..... 7 - 3: الحرب الباردة وجرائم الإبادة:.....
- 569 ..... 7 - 4: التضليل وحجب الحقائق حول كشف جرائم الإبادة:.....
- 576 ..... 7 - 5: العبرة والعبور نحو ضفاف الوجود الإنساني والهوية:.....
- 580 ..... 7 - 6: العنصرية والتعصب والتمييز العنصري:.....
- 588 ..... 7 - 7: عصر التعصب والعنصرية وجرائم الإبادة والتمييز العنصري والعرقى:.....

- 590 ..... الخاتمة: المستقبل وفرصة الوجود الإنساني الأخير.....
- 611 ..... مسرد الأعلام.....
- 619 ..... المراجع العربية والأجنبية:.....
- 660 ..... ملخصات الرسالة باللغات العربية والانجليزية والفرنسية.....

## الفصل الأول

### 1- المغامرة الكونية الى أين؟

#### أولاً: تاريخية وراهنية الموضوع:

لا زالت بصمات العصور الوسطى تطبع بعض من ظلالها على عالمنا المعاصر هنا وهناك. وكثيراً ما تحاول المسوغات الأخلاقية التغطية على الأهداف الحقيقية المسطرة؛ ففضايا الرفاه للمجتمعات الغربية، وتوفير الموارد والطاقة التي تحتاجها تلك المجتمعات، كثيراً ما يربطها أصحابها بـ "فضايا الامن القومي" للدول المصنعة عالياً، التي تجد في ما يسمى بتوفير السرية والكتمان لأبحاثها وتجريب أسلحتها ضالتها لتحمي الجناة من علمائها وعسكرييها؛ بل تسعى الى مكافئتهم، لأنها ترى في استمرار تطوير اسلحة الدمار الشامل ضرورة هامة في بناء الاستراتيجيات بعيدة المدى. وبهذا تُخفي الأهداف وتُشوّه الحقائق في ظل من التضليل الاعلامي المقصود.

ولم تتمكن العلوم من الإفلات من الصراعات الإيديولوجية والعقائدية والمذهبية والسياسية، حتى إن الإشكاليات ما تزال دائرةً حول تسخير العلم والاقتصاد في سبيل الهيمنة والتوسع من خلال استخدام العلماء الجائر للعلم؛ وهو الأمر الذي خلق شعوراً بالحذر من "حيادية" العلم نفسه ومن "حقيقة" أحكامه وما ينجم عنها عند استخدام مبتكرات العلم والتكنولوجيا وزجها في سباق التسلح وإنتاج أسلحة الدمار الشامل وحروب الإبادة، إضافة الى الأبحاث الجارية في ميدان علم الوراثة لأغراض عسكرية، وما يمكن له أن ينتج عنها من محاذير أخلاقية؛ خصوصاً فيما يتعلق باستخدام الاستنساخ البشري لأغراض عسكرية. وهذه كلها أمور تحتاج إلى خلفيات معيارية، أخلاقية، وهي لا تنفصل أيضاً عن المنظومة القيمية للأفراد القيمين على الأبحاث نفسها. والمدافعين عن إنتاج وتجريب واستخدام أسلحة الدمار الشامل لهم توجهاتهم الأخلاقية أيضاً، التي كثيراً ما تلجأ الى نعت أفعالهم بـ "الأخلاقية"؛ من خلال وصف حروبهم ونتائجها، ويرون في مثل التجارب والحروب بأنها فرصاً لتطور الحضارة الانسانية، ومنهم من يذهب الى وصف الحرب بأنها بعجلة الحضارة.

يحمل خطاب مثل هذه النخب، التي تنتمي الى العلماء والباحثين، الكثير من "روح تبرير الافعال المرتكبة في العصور الوسطى"؛ وقد رافقت استخداماتهم لهذه الأسلحة أحداثاً دموية وكوارث بيئية وحالات إبادة جماعية، منها تمت مباشرة بنيران الأسلحة، وأخرى بقيت كامنة وسرية أو متأخرة الملاحظة، الى حين اكتشاف نتائجها المروعة لاحقاً؛ لذا فهم يلجأون الى منهج مغال به، يميل الى منطق معين، والى روح التبرير المُبتعد عن نقد الهمجية والسادية والتعصب

المقيت لتلك لأفعال الممارسة باسم العلم وتقانته، وكلها صفات عادة ما دَفَعَت الانسانية المتحضرة بسببها ثمنا باهضاً في حالات من النكوص والتراجع الى العصور الوسطى.

تسليط الضوء على الجانب السلبي للاستخدامات العلمية لا يريد أن يجنح بحال من الأحوال إلى وضع العلم في قفص الاتهام، بل حسبه أن يلفت الإنتباه إلى أن تسخير العلم لأنانية الإنسان وسلبيته الانفعالية حوّلت العلم من جانبه الإيجابي إلى جانبه السلبي. فالعلوم في وجهها الإيجابي قد تُستخدَم لترسيخ قضايا تخدم السلام العالمي من خلال القضاء على الفقر والامراض ومشكلات التغذية والحفاظ على البيئة الطبيعية إلخ.<sup>1</sup>

حالة القلق التي تسود البشرية يلخصها قول أحدهم: ( إن أغرب فكرة في العالم هي انه سوف يكون هناك بشر بعدنا). وعند التمعن بهذا القول وبالارقام الاحصائية عن البشر نجد أن هناك بشر قبلنا، فقد ولد قبل عام 1985 حوالي 78 مليار انسان، نصفهم جاء الى العالم في الالفين الأخيرين، بينما تطلب الامر الى 600000 سنة لكي يلد النصف الآخر.

ويدرك الانسان المعاصر انه يشارك في مغامرة بدأت منذ حوالي 600000 سنة، وهو يعرف أيضاً، ولو بشكل مبهم بان: مغامرة البقاء أو الفناء متعلقان به بشكل جزئي؛ إن لم يكن بشكل كبير به؛ فكل خطوة منه الى الامام باستخدام العلم، بدأت تولد له مصادر جديدة لقلق جديد، كما " إن موت الإنسان يتزامن مع الفصل التام بين العلم والثقافة"<sup>2</sup>.

تعي أجيال من العصور الحديثة، سواء بالنسبة لاوروبا أو الغرب، تماما ان بعض افعالها تُعبر عن شكل من أشكال البربرية، بأسلحتها تم إستهداف اقاليم معينة من العالم، إستهدفت أجناسا وأعرافا وفئات اجتماعية دون أخرى، وقد جرت الافعال الجرمية في مناطق جغرافية معروفة، غالبا ما كانت مُختارة ومُحددة بشكل انتقائي، لهذا سيُفرد في هذا المبحث، لموضوع الاسلحة والحرب والإبادة الباب الثالث ويقع في ثلاث فصول.

التمن الانساني للمغامرة الكونية، لايمكن تقديره؛ خصوصا عندما يُجبر العلماء والتقنيون العاملون في تخصصات عالية التقانة على تنفيذ مهام تُسيئ للعلم، ويُسهّم الاعلاميون معهم، الى تقديم شهادات غير حقيقية ومُزيفة عن حجم الاخطار الناتجة عن تلك الأفعال، وما ينجم عنها من كوارث مقترنة بتجارب ومغامرات تُنفذ باسم العلم.

وفي مجال الهندسة الوراثية قد تنطلق مورثة "جين" أو تُستزَرَع وتبدو كأنها نتاج طفرة، وتنتقل الى مصادر غذائنا، وقد تتغير مكونات عدد من الاغذية وتتغير بها ومعها أنماطنا الغذائية من دون علمنا او بخيارنا، عندها لا ندري بالضبط ماهي نتائج وعواقب ذلك مستقبلا. تُشير "ريبيكا جولدبرج"، كبيرة العلماء في صندوق حماية البيئة، الى ان هناك أكثر من 5 ملايين إنسان لديهم

1 - كريدية مروة، رُوْحنة العلوم تكامل منفتح للوجود،  
[http://www.maaber.org/issue\\_may08/spotlights1.htm](http://www.maaber.org/issue_may08/spotlights1.htm)

2 - Basarab Nicolescu, *La transdisciplinarité – manifeste*, Éditions du Rocher, Monaco, 1996, p. 119.

حساسية الآن لأغذية تبدو لهم مفيدة، وتتراوح حساسياتهم بين الحالات الخفيفة الى الحالات الخطرة على الحياة.

ان جدلا واسعا يجري بين العلماء لتحديد مسؤولية الكيمياويات والمواد المشعة المتسربة الى المحيط الحيوي. لكن هذا الجدل لازال يصطدم بأذان صماء أو يسمع تبريرات البعض ومحاولاتهم لإخفاء المعلومات الحقيقية عن الرأي العام، وتجاهل الأخطار الملموسة والمسجلة التي تهدد مكونات الوسط الحيوي، حيث تظهر هنا وهناك نباتات طافرة جديدة، تختلف تماما عن أصنافها الطبيعية والبرية المعهودة، وتظهر حيوانات وكنانات دقيقة مُخالفة لسلاسلها السابقة، فقد تعرضت العديد من تلك الكائنات الحية الى طفرات لم تُرى من قبل في محيط الطبيعة. سينجم عنها نتائج غير متوقعة<sup>3</sup>.

تبقى القضايا والتساؤلات الحقيقية حول المصير والمستقبل الإنساني قائمة وحاضرة في ضمير كثير من الباحثين الذين يشعرون برسالتهم العلمية والأخلاقية. وإن الاحتمالات الطبية والمخاوف الأخلاقية حول التلاعب بالجينوم يحتدم عليها نقاش مقلق. فهناك حقيقة علمية اكبر من ان يغفل عنها الناس، وهي ان الطاقم الوراثي "الجينوم" اليوم يشكل مسودة لا سابق لها من معرفة الذات البشرية.<sup>4</sup>

بتاريخ 11 نوفمبر 1997 أقر المؤتمر العام لليونسكو في دورته التاسعة عشرة بالاجماع " الاعلان العالمي بشأن المجين البشري وحقوق الانسان". صدر هذا الاعلان مشفوعا بقرار تنفيذي تتعهد الدول بمقتضاه باتخاذ التدابير الملائمة للترويج للمبادئ المنصوص عليها والتشجيع على تطبيقها. وهو بمثابة التزام اخلاقي تعهدت به الدول الموقعة شكل نقطة البداية لنشر الوعي على الصعيد العالمي بضرورة التفكير في الجوانب الاخلاقية للعلوم والتكنولوجيات المرتبطة بها<sup>5</sup>.

ورغم ان نص الإعلان اشار بوضوح وبتفصيل كامل الى كل مبادئ حقوق الانسان، التي صدرت عن الامم المتحدة ومنظماتها التي تمنع جرائم الابادة الجماعية والمعاقبة عليها وحضر إستحداث وإنتاج وتخزين الاسلحة البكتريولوجية والمُسَمِّمة والدعوة الى تدميرها، إلا أن سباق التسلح لم يتوقف يوماً.

كرست الفقرة ج1 من الاعلان حول البحوث في مجال المجين البشري، ومنعت السماح لأي ممارسات تتنافى مع كرامة الانسان، منها الاستئصال لأغراض انتاج نُسَخاً بشرية. لكنها لم تُشر

<sup>3</sup>. العبودي عبد الكاظم، أزمة الفكر الانساني بين البحث العلمي والوازع الاخلاقي: الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، تاليف مشترك، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وجمعية الدعوة الاسلامية، تونس، ص66. (2005)

4. - رايدلي مات ، سنة الجينوم، نهاية لغز عظيم، البداية الحقيقية للبيولوجيا الثقافية العالمية، العدد ، 107، جويليه/اوت . ص 187-194. (2001).

<sup>5</sup>. منظمة الامم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم "اليونسكو"، (اعلان عالمي بشأن المجين البشري وحقوق الانسان)، (ديسمبر 1997). ينعقد في المكسيك في 23 نوفمبر 2009 خبراء واعضاء اللجان الوطنية لاخلاقيات البيولوجيا لبلدان العالم CIB للتداول حول موضوعات عدة منها المسؤولية الاجتماعية والصحة ومنها مبدأ احترام الضعف البشري والسلامة الشخصية والاستئساخ البشري والتحكيم في قضايا الاخلاقيات البيولوجية المعاصرة.

الى إمكانية إستغلال مثل هذا المجال في صنع وتطوير الأسلحة المدمرة، التي تعتمد تقنياتها على المجال الوراثي، كما هو الحال في احتمال تصنيع الاسلحة الجينية<sup>6</sup>.

لم يعد سراً أن هناك نوعاً آخر من الاسلحة البيولوجية تستهدف المحاصيل الزراعية، لا البشر، مما استدعى الرئيس الامريكي "رينشارد نيكسون" أن يصدر إعلانه الصادر في 1969/11/25 يقضي بالتخلي عن استخدامها، لأنها، وكما وصفت في سياق الاعلان أنها مجرد: ( ... أسلحة لم تكن لها سوى أهمية عسكرية محدودة )، وقد سبق للولايات المتحدة ان استخدمتها في العديد من الحالات(في فيتنام والعراق) رغم علمها بمخاطرها. ومن خلال شهادة " س.م. ميزلسون"، الباحث المتخصص في البيولوجيا الجزيئية في جامعة هارفارد، قدمها أمام مجلس الشيوخ الامريكي عام 1989، أوجز أخطارها بالقول: (... اولا : انها لا تقل خطورة عن الأسلحة النووية، وثانيا: إن تطويرها وإنتاجها، قد يكون أبسط، وأقل كلفة، من الاسلحة النووية. ثم الأهم من ذلك هو سهولة إستنساخ برنامج الاسلحة البيولوجية الهجومية [من خلالها]).

قاد هذا التحليل الصريح الى القول: ( بان برنامج الأسلحة البيولوجية يُشكل تهديدا حقيقيا، لأمن المجتمع الأمريكي ذاته) والعالم أيضا. وهذه الحقيقة كانت معروفة منذ أوائل الستينيات، عندما أدرك ذلك "أ.ج. فان دير بلانك"، الخبير في أمراض النبات بمعهد وقاية النبات في بريوريا، جنوب أفريقيا، وكتب عنها: (... كثيرا ما نُشِبِه الوباء بالمتفجرات. إن الاطلاق المتعمد لكائنات تقتل المحاصيل الغذائية والزراعية للعدو، هو سلاح فتاك مُحتمل الاستخدام في الحروب والصراعات الدولية. ويبقى وسيلة إبادة محتملة في الحرب، وفي الأفعال الإرهابية).

واليوم تُعيد القفزة التكنولوجية الهائلة بفك رموز الشفرة الوراثية الى الأذهان، الخوف من تطور الأسلحة البيولوجية وزيادة أخطارها بإدخال العامل الوراثي في أهدافها واعتدتها العسكرية؛ فإضافة الى دمارها الشامل لكل الأجناس البشرية، فهي تضيف الى إستخداماتها الإجرامية مضمونا جديدا؛ الا وهو "عنصرية الاستخدام"، والإستهداف الانتقائي لضحاياها، شعوبا أو امما او مجموعات إثنية مميزة جينيا؛ أي ان الجراثيم المُحوَّلة وراثيا "جينيا" سوف لا تهاجم إلا جماعات عرقية معينة، أو أجناسا بشرية محددة<sup>7</sup>، مستهدفة تركيبها الوراثية.

غالبا ما أُتَهَمَت الجينات، بانها المسؤولة عن سبب شيوع ارتفاع ضغط الدم بين الأمريكيين المنحدرين من أصل أفريقي، رغم ان معدلاته منخفضة بين الأفارقة. هذا التباين يوضح الكيفية التي تتأثر فيها الجينات والبيئة؛ لذا فإن مثل هذا التباين، في كل الاحوال، ليس مبررا لاستخدامه في التأثيرات الهدامة للتمييز العرقي والعنصري.

لا زالت مشكلة فرضية العبودية تبحث عن غطاء علمي لتحقيقها لدى بعض النخب العنصرية؛ كونها توفر مدخلا مقصرا short-cut يسعى نحو البرهنة على وجود نظرية جينية وجنسية يفسر على ضوءها ويبرر وجود العديد من الظواهر الفيزيولوجية أو الامراض عند بعض الافراد، ومنها

<sup>6</sup> منظمة الامم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم "اليونسكو"، (اعلان عالمي بشأن المجين البشري وحقوق الانسان)، (ديسمبر 1997).

<sup>7</sup> كوبر ر.س.، روتيمي ن.س. و.وورد، و. ر. ( لغز فرط "ارتفاع" ضغط الدم لدى الامريكيين من اصل افريقي )، مجلة العلوم الامريكية، الطبعة العربية، المجلد 15، العدد 10، الكويت، ص: 48-55، (اكتوبر 1999).

معرفة سبب ارتفاع معدلات فرط ضغط الدم لدى الافراد السود. وللأسف فان معرفة بعض الاسباب قادت أصحابها الى قبول التفسيرات الجينية والتميز في بعض الفروق بين البيض والسود، من دون تقديم تام وكاف للدلائل البيولوجية المتوافرة الاخرى. وقد تصبح إمكانية تحديد وقياس الاختلافات الفعلية في التسلسلات الدناوية DNA-sequences المكتشفة مبررا في استغلالها في سياقات الحروب الجينية القادمة والتميز العنصري.

ليس من المبرر الاستمرار في مثل تلك البحوث وتطويرها في سرية تامة بعيدا عن الرقابة الدولية. إن تلك الأفعال، ومهما كانت مسمياتها، ماهي إلا محاولات لتغطية الأهداف الحقيقية الكامنة في مساعي البعض في تطوير أسلحة التدمير الشامل، ومنها باتت لا تخفي أهدافها وهي تستخدم رسمياً عدد من المسميات، من مثل قضايا: "الاستخدام الدفاعي أو الهجومى للجراثيم القاتلة" "والتهديد ب"الارهاب البيولوجي". تلك هي أهم النقاط عن تاريخية وراهنية موضوع هذه الرسالة.

### ثانيا : أي علم نريد وأي تقانة نقتفى؟ :

(أفضل أنواع العلم هو العلم الحر) . (العلم الموالي لأي جهة هو علم الأفاقين) . (توجيه العلم يعني استعباده) و (العلم صديقك، وصانع المستقبل).

تلك هي بعض من الشعارات التي كانت مكتوبة على اللافتات التي حملها العلماء في مظاهرات الاحتجاج إبان انعقاد قمة الأرض للعلوم والتكنولوجيا في جاكارتا عام 2002. أين كان الموضوع الأساسي للنقاش في تلك القمة: هو ضرورة وضع بعض الضوابط العالمية للاتجاهات التي تسلكها العلوم والتكنولوجيا.

يرى أنصار وضع نظام لإدارة العلوم والتكنولوجيا وأخلاقياتها: أن نطاق الآثار المقصودة، وغير المقصودة للعلوم والتكنولوجيا يتطلب وجود نُظْم عالمية؛ ونظرا لأن الآثار قد تعم العالم، فإن فكرة إنشاء نُظْم عالمية للإدارة باتت فكرة لها ما يبررها والعمل من أجلها. أما الآراء المعارضة ترى إن اللوائح المعدة لتقليص مخاطر إنفلات العلم من عقالة لن تؤدي إلا إلى تحويل البحث نحو الدهايلز السرية، أو إنتقاله إلى بلدان أخرى لا تعبأ كثيرا بتطبيق اللوائح العالمية.

وفصيل المعارضة هذا غالبا ما يتردد في الانخراط في تنظيم إضراب عالمي للعلماء ضد مشروعات التسلح، ويتحجج بعدم وجود منظمة عمل علمية متفرغة، مما يجعل مثل هذه الفكرة شبه مستحيلة. المعروف أن هناك بعض الجهود التي تُبذل لتنظيم العلماء في إطار أول منظمة عمل عالمية، لكن هذه الجهود تواجه الإحباط والعرقلة من مؤسسات وسياسات الدول الكبرى ذات العلاقة بمجالات هذا النوع من الاسلحة.

وأمام هذه العراقيل لم يبقَ أمام بعض من أطراف حركة الاحتجاج العالمية المنقسمة في مجموعات من العلماء إلا التنبيه لتدارك المخاطر المُحتملة بحمل اللافتات الفعالة والنزول الى حركات الشارع الإحتجاجية، أو الاكتفاء بإصدار البيانات المناسبة، كما حدث في اجتماع جاكارتا، وبيانه المعروف، الذي وقعت عليه 187 دولة: اعترفت بمقتضى البيان باستقلال العلم، وتُحمل أهل العلوم أنفسهم مسؤولية تحديد "الحد الفاصل" يبين المخاطر المقبولة في مجالاتهم

المختلفة. وهكذا نجحت تلك القمة في جانب منها؛ ولكنها فشلت على الجانب الآخر في كبح النوايا الشريرة غير المعلنة.

ترتبط مسيرة الحياة يوماً بعد يوم مع ازدهار العلم وتطور التقانات الحيوية وبتورة البيولوجيا الجزيئية. ويرتفع بعض من رصيد التفاؤل عند كل إكتشاف جديد، فقد أصبحت الأدوية المعدلة جينياً شائعة الاستخدام، وتبشر بأمال إختفاء بعض الأمراض، أو يصبح جزء منها تحت السيطرة على الأقل، وبفضل تطور تقانات الاتصال أصبح هناك لون من الطب للمداواة عن بعد. وظهرت أجهزة المعاونة الآلية التي تساعد على الاخصاب خارج الارحام. وتتعرف الانسانية على تكنولوجيايات جديدة دقيقة جداً، تجسدت في تكنولوجيايات فائقة الدقة، منها تثير قضايا وجدل حول الاستنساخ الايجابي والسلبي وأبحاث الخلايا الجذعية، ومنها ما يثير القلق حول التلاعب بالمجين البشري، وبالاسس الحيوية التي تقوم عليها ارادة وحرية وكرامة الافراد والمجتمعات. وهذا هو حقا العصر الذهبي للعلم، الذي يشد من أزره التمويل السخي، واحتياج عوالم الصناعة الحديثة إلى منتجات و مواد جديدة، عصر يتسم بظهور حالات من التناغم والتنسيق والتشابك والتداخل بين فروع المعرفة المختلفة. ويلعب الاعلام دوراً هاماً في شد الانتباه او التمويه حول قضايا مرتبطة بتطور العلوم والتكنولوجيا<sup>8</sup>.

سرعان ما يلتقط الإعلام مثل هذه الجوانب وأخبارها، فيشتد معها القلق الجماهيري، وتعلوا الأصوات المعبرة عن الرفض أو التأييد، وتصل الامور أحياناً أن يبدأ الإعلام بمهاجمة العلم ومؤسساته ونخبه، وتارة أخرى يهاجم الضحايا، ويلعن التخلف وأهله وقاراته، لكنه ينتاسى مسبباته وأسباب إتساع عمق الفجوة القائمة بين عالمين على كوكبنا. مرة إحتشد العامة أمام مختبرات البحث الجامعية والحكومية في بعض البلدان المتقدمة، حاملين لافتات إحتجاج كُتبت عليها مثل الشعارات التالية: (اقتلوا العلم قبل أن يقتلنا) و (العلم مجرد من الإنسانية)

منذ سنوات اقترح أحد العلماء القيام بتجربة فيزيائية لتكوين ثقب أسود صغير باستخدام جهاز تعجيل مُسرّع عالي الطاقة يعمل بتسريع حركة الجزيئات والدقائق، وهي تجربة ذات احتمالات نجاح متناهية في الانخفاض والحدوث. ولو حدث، أن تمخضت التجربة عن مثل هذه النتيجة فعلاً، فإن هذا معناه تلاشي المجموعة الشمسية نظرياً، بما في ذلك كوكب الأرض، كما تقول بعض النظريات العلمية. لكن ذلك المختبر يقول: إن التجربة يجب أن تستمر لأن احتمالات تكوين ثقب أسود لازالت واهية وضعيفة جداً. ومن ناحية أخرى يرى مخبر التجربة: أن البيانات المأخوذة من التجربة ستؤدي إلى إثراء معرفتنا عن أول 30 ميكروثانية كونية، كذلك الحالة النظرية الفيزيائية التي تلت الانفجار الكبير الذي تكون عنه كوننا. ذلك هو قول العلماء حول تجربتهم، لكن العامة سيعترضون بشدة على مثل هذه التجربة من دون علم او يقين سوى انهم متأثرون بالإعلام الذي تحركه من جانب آخر نخب علمية وإعلامية ومصالح دول سياسية في مضمار سباق العلوم وتقاناتها. مثل ذلك الجدل الاعلامي نسمعه حول قضايا لقاحات انفلونزا الطيور والخنازير وغيرها من الاوبئة.

<sup>8</sup>. البخاري حمانه ، عن الحرية وعن الفلسفة في القرن الواحد والعشرين، المستقبل العربي، العدد 309، ص 121. بيروت(2009).

وهناك في اللحظة الراهنة، وهي "اللحظة تبدو طويلة جدا في الحقيقة"، فتور كامل عند قطاعات واعية من البشر، من ضمنهم علماء وتقنيين، وهم مواطنون ومسؤولون في آن واحد، تتسم مواقفهم بالمجاملة أمام سير الأحداث المتتالية التي تجري أمامهم، وهم يرون إن مواقفهم المتفرجة على ما يجري أمامهم، حالة مفيدة لهم، دون ان يتأكدوا من إستمرار هذه الفائدة على المدى الطويل .

لكن الواقع المُراقب يوميا يؤكد نمو التقنية العلمية بصورة مرعبة، حتى شُبّهت عند البعض: ( ...أنها أضحت كمطرقة حقيقية، بدون سيد او حاكم عليها، ويزداد حجمها وضغطها على الحياة الإنسانية بشكل مُضطرد، وتتضاعف سرعتها بمعدلات، لم يعد الإنسان قادر على السيطرة على كثير من اندفاعاتها. وهكذا أضحي حال الإنسان مع التقنية، فهي كلما صارت اكثر [قدرة]، كلما أصبح الإنسان عاجزاً أمام إندفاعها نحو المجهول. وكلما ازدادت معرفة الانسان المعاصر بها، كلما ازدادت قلة معرفته بماهية تلك المعرفة، وبما سوف تكون عليه مستقبلا )<sup>9</sup>.

تُشكل التكنولوجيا في مجالاتها الحربية أحد أهم المخاطر المستقبلية المحتملة، والتصورات حولها، حتى اليوم، لازالت ذهنية صرفة، تترجمها مشاعر أخلاقية وروحية في الفعل والسلوك. من أبرز سمات عصرنا التسلح واتساعه، وتعدد وتنوع اسلحة الدمار الشامل، وتساعد كلفة وميزانيات التسلح، وازدياد عدد الأزمات والحروب والصدامات المسلحة والصراعات المختلفة. وقد حاولت هذه الرسالة أن تتوقف في أهم محطاتها.

خلفت إنجازات العلم والتقانة ورائها سلطات من التكنوقراط، تتضمن مقدره كبيرة على الفعل والتنفيذ لما تُريده سلطات أخرى عسكرية واقتصادية فوقها؛ لكن هذه المقدره العظمى في إستثمار العقل في حقول العلوم والتقانات ستظل مُصاحبة بعجز تام؛ كونها مرتبطة برغبة أقلية ، أفراد، جماعة، مؤسسة... الخ، تتمركز بيدها سلطة القرار النهائي فُتُسْتَلَب، في كثير من الحالات الأهداف التي يُسَطرها العلماء. إن تجارب الفيزياء الحديثة، بدء من "رذرفورد" ، ومروراً "بجوليو كوري" و"هان ستراسمان" سبق أن وعدت الإنسانية بعِدٍ مرفهٍ، وبإمكانية إستغلال الطاقة النووية السلمية لصالح الجميع<sup>10</sup>؛ لكن النتائج المعاصرة أوصلت الحالة الى الطريق المسدود، عندما أصبحت طاقة الذرة وأسلحتها خطرا ووبالاً على الإنسانية. لم تكن بالأمس وارده في خُلد الفيزيائيين الذين أوصلوا البحث في الحصول على الطاقة، من خلال حدوث حالة انشطار الذرة واندماج النوى، فهل يمكن إعفاء القائمين اليوم على ميادين الهندسة الوراثية، وهم يُعيدون السير في ذات المسار الذي بدأه علماء الذرة من قبلهم؟ هل يتوقعون المخاطر المُحتملة وهم يسمعون الكثير من المنطق الناقد للمسار الذي سيق اليه الباحثون في حقل الهندسة الوراثية، ومنهم ينتجون فيروسات متطورة الاخطار؟ . هل الإنسانية لا تعرف حقا الى أين تذهب؟، رغم ما توفر

<sup>9</sup> كورنيلوس كوستريادس الطريق المسدود، "العلم في نقد العلم" دار المنتخب العربي، بيروت، ص 34. (1995)  
<sup>10</sup> من الطريف ان باحثي الطاقة النووية وعدوا الإنسانية ان تكون كلفة الطاقة الكهربائية المزودة للناس في بيوتهم ستكون أقل من قيمة الورقة التي تطبع عليها فاتورة الحساب. وها هي أكثر من 60 سنة تمر على ذلك الوعد ولازال ملايين البشر يعيشون في الظلام الدامس ويقتلهم البرد والحر ومنهم من ولد ومات ولم يعرف شيئا عن الكهرباء رغم ان اوربا بدأت تستغني عن عدد من مفاعلات الطاقة النووية، درء للاخطار، بعد ان وفرت البدائل الطاقوية الاخرى .

لها من المعارف والخبرات المتعلقة بقوانين حفظ التوازن البيئي والمصير الإنساني. رغم ذلك لازالت النخب العلمية اسيرة الحيرة في تحديد الاولويات في البحوث .

المُقلق في هذا كله: ان صاحب القرار لازال مهتما بالنسبة للبشرية؛ وطالما أن كثيرا من الحكومات لازالت غير خاضعة لقوانين الامم المتحدة؛ بحكم سطوتها العسكرية والاقتصادية النافذة على العالم، تُقابلها حكومات وكيانات دولية، منسية تماما من خارطة العالم؛ لذا فان حفنة من السياسيين والعسكريين والاقتصاديين هم في الواقع من يصنعون القرار على كل المستويات ويوجهون برامج البحوث العلمية والتقانية .

وستبقى خيارات النخب العلمية مُحددة بالسياسة العامة لميزانيات التسليح وتوجهات الدولة القومية، وما ينفق عليه من مال وامتيازات. وهي بذلك، أمام كل هذا، تُكرس وتُمثل مصلحة نفعية وانتهازية لها، لتحقيق مكاسب ذاتية وشخصية، يسعى أصحابها نحو توسيع دوائر الانتفاع بإشراك وإحاق قطاعات فكرية أخرى معهم؛ قطاعات ليست ذات علاقة مباشرة بالعلوم الدقيقة أو التصنيع والتقانة، لكنها ستوفر فرصا ومجالات لإتمام التغطية العامة لما يجري في العالم من مظالم، تحت غطاء فكري وإعلامي يسعى الى أدلجة الفعل والتبرير له، يقوم به أكاديميون وفلاسفة وإعلاميون وكُتّاب ومنظرون وسياسيون، وحتى علماء في حقول العلوم الاجتماعية والنفسية، وهم يجانبون كثيراً من الصواب، ولا يكثرثون أمام الحقائق المترتبة عن عسكرة المجتمعات والبحث العلمي في أسلحة الدمار الشامل، وتوجيهه وجهةً لا أخلاقية.

العلم ليس بتقنية فحسب؛ بل هو حالة فكرية ووجدانية وأخلاقية أيضا. لابد أن تكون مرجعيتها حضارية، وأهدافها انسانية واضحة، خالية من الأغراض الأنانية والعنصرية والدينية المترتبة. وانه من الواجب الإقرار بوجود أزمة عالمية في الأخلاقيات، لها من الشمولية والتمدد ما يُقلق الكثيرين؛ وأنها لا تمس مجتمعا دون غيره؛ لكونها لا ترتبط بثقافة وحضارة معينة، أو بجنس دون آخر. وهي أزمة قائمة تتميز بعمقها، وتعدد أبعادها وتداخلاتها. سمتها الفلق الواسع على مستقبل الوجود والمصير الانساني برمته؛ فالخراب بات يُحيط بحياتنا وطرق معيشتنا وبيئتنا من كل جانب وصوب .

### **ثالثا : تحديد المفاهيم:**

مصطلح مفهوم **Concept** تعبير عن أساسيات المعرفة، والمفهوم يمكن ان يكون دليلاً يسترشد به في اختيار المحتوى والطريقة في البحث كما يجب التمييز بين المفهوم والتعميم في كثير من الحالات. تعريف المفاهيم انها حسب: <sup>11</sup> ( تركيب او تنظيم الافكار او المعاني ) ، في حين يعرف "نوفاك" **Novak** " المفاهيم في مجال العلم: ( انها تعميمات واسعة تتعلق ببعض جوانب العالم الطبيعي والبيولوجيا، وهي مركبة من حقائق وخبرات انفعالية<sup>12</sup>). ان ادراك العلاقات بين المفاهيم يتطلب عملا عقليا؛ والمفاهيم الكبرى في العلوم تدرج من البسيط الى ما هو اكثر تعقيداً.

<sup>11</sup> Science Education in American Schools,4<sup>th</sup> year book, part I, Chicago, University of Chicago press, 1947,pp.30

<sup>12</sup> Novak G. D., A Model for the Interpretation and Analysis of Concept Formation, in William D. Romey, Inquiry Techniques for Teaching Science, pp. 122 - 137, prentice Hal Inc., London, (1968).

وإذا استطاع الشخص ان يرى العلاقة التي يمكن ان توجد بين مفهومين او اكثر، وان يصل منها الى تنظيم جديد لمعارفه، فانه بذلك قد وصل الى مفهوم اكبر، " وعلى ذلك فانه يمكن القول بان المفاهيم الكبرى هي تعبير عن الاتساق والانتظام الذي يمكن ان ينتج عن رؤية العلاقات بين عدد من المفاهيم"، وهي على هذا الأساس ليست مجرد تجميع لعدد من المفاهيم، إنما هي تنظيم كيفي لمفاهيم ذات معنى تؤدي الى كليات تحمل من المعاني أكثر مما تتحملة الجزئيات المكونة لها منفردة<sup>13</sup>.

والمفاهيم العلمية لها عدة مستويات، وبصورة عامة فان الأساس في تكوين المفهوم هو أن يعرف المتعلم "العلاقات" الموجودة بين مجموعة من الحقائق. لذا باتت قضية تعريف المصطلحات وتحديد مفهومها مجرد مسألة نظرية، تُمكن الباحثين من وضع مجموعة من المحددات التي تتناسب وطبيعة البحث الذي يعتزمون القيام به، إلا أنه عندما نتعامل مع [أخلاقيات البحث العلمي في اسلحة الدمار الشامل] فان مضمون تعريف كل مصطلح في هذا العنوان سيتجاوز النقاش النظري في حقلي العلم، والأخلاق إلى نقاش أعمق يرتبط بالخلفيات السياسية والأيدولوجيا وقضايا الرواسب التاريخية ومكونات الثقافة والحضارة والبعد النفسي للفرد او الجماعة باعتبارهما هما الفاعلين في هذا المجال.

وتتبع أهمية تعريف "أسلحة الدمار الشامل" في كونه بات مصطلحا قد يستعمل في الحرب والمعارك العسكرية، أو في حروب خفية، منها غير معلنة كالحروب البيولوجية والإبادة المنظمة التي تتم عن طريق نشر الجراثيم والابوئة أو استعمال ادوية ولقاحات بقصد الابادة حتى في أوقات السلم. و تبقى مصطلحات مثل الابادة او "الحرب على الإرهاب" ... الخ كثيرة الجدل. ومن دون تعريف للمتداول منها ودون تحديد لمفهومه مما يقطع الطريق على التوصل إلى تنسيق بين الافكار والتعاون الدولي حول تثبيت مبادئ الاخلاقيات وإرساء قواعد احترام حقوق الانسان والمجتمعات والدول في المعاهدات والمواثيق الدولية.

كما أن "إشكاليات العلم" و"المعرفة" و"الحقيقة" و"السياسة" و"السلطة" تتخذ كل منها معاني أخرى. ولم تعد المسألة مسألة تحديد لمواقع الحقيقة فيها؛ بل حتى مفهوم "الحقيقة" ذاته ينعكس بتناوب في مجموع الإستراتيجيات والسيرورات التي يتم بواسطتها إنتاج القيم وتحديد نظام الخطاب وسياساته.

العلم يطرح مصطلحاته ومفاهيمه، بصورة أقرب الى التحديد الدقيق. ويتبع المنهج العلمي اليوم اسلوبا لا يقبل التأويل. وهنا لا بد ان نحدد الفروق الواضحة التي يقصدها البحث بين التجربة التي يتطلبها البحث العلمي، والمغامرة في التطبيق إستنادا الى تجارب محدودة؛ منها لم يطع الإنسان بعد على نتائجها القريبة والبعيدة، خاصة بما يتعلق بقضايا مستقبل تلويث البيئة بالسموم وإنتشار المواد المشعة والكيميائية، وتجارب التلاعب في حقل الوراثة الجزيئية على مجين الانسان والحيوان والنبات والكائنات الدقيقة. ولأن التغيرات الوراثة الجارية، تتطلب الإنتظار لأجيال من الانسال القادمة الجديدة، ولم يزل الانسان لم يطع بشكل كامل على عوامل التغيير الجديدة

13 - الديب فتحي، الاتجاه المعاصر في تدريس العلوم، ص: 115، دار القلم، الكويت، 1986.

وتأثيراتها على التوازن الحيوي؛ فان جانب التوقع مهما كانت درجة الاختصاص والذكاء والخبرة فيه لا يمكن ان يكون محتملاً، وما سيحدث مرهون بمخاطر المغامرة الكونية.

كما ان التمييز بين المفهوم المتداول، والتعميم له، وخصوصية النتائج العلمية بصياغتها أو ترجمتها الى أفكار وتعميمها كظاهرة، لا تحتمل التأويل والغموض. واذا كان العلم، قد اعتمد في بعض مراحل صياغاته على التجريبات النظرية؛ فان التجربة، وتلمس نتائجها في التطبيق التكنولوجي المباشر للنظريات العلمية في عالمنا المعاصر باتت لا تحتمل التعميمات خاصة بما يتعلق بجوانب العلم الطبيعي وتقاناته، والحقل البيولوجي التطبيقي.

وبالارتباط بين عناصر هذه الدراسة ومباحثها، فان البحث العلمي وأخلاقيات العلم، من منظور فلسفة الاخلاق، لا تحتمل الغموض في إطلاق الأفكار ومنطقها العلمي المحدد؛ فالحياة والبيئة والانسانية وما ينتظرها من احتمالات الدمار والفناء والقلق لابد من ربطها الواعز الأخلاقي وموثق النخب العلمية والممارسات البيولوجية والطبية المعاصرة. وهي موضوعات تتطلب مراجعتها وبالمام وفق بناءات عقلية ونظرية فلسفية وعلمية معاً. فلم تعد صياغة وتكوين المفاهيم من مهمة الفلاسفة والمفكرين وحدهم، بغياب العلميين. ولم يعد المفهوم والاصطلاح قضية تتم صياغتها بطريقة آلية وروتينية. فمن العلوم ما هو مقطوع تماما عن سابقاته، كما حدث ويحدث اليوم في مجال البيولوجيا الجزيئية وما تعلمناه في دروس الوراثة، وكذلك هو الحال مع طفرات حقول المعلوماتية وتطبيقات النظرية الكمية.

مثلت المفاهيم والأفكار الكبرى التي أشرنا لها في التمهيد، وفي إشكالية الموضوع وخاصة عند تحديد المفهوم والموقف الأخلاقي من المشكلة إنطلاقاً من نقاط أساسية يتطلبها البحث في حقلي الفلسفة والعلم معاً. ويواجه المنهج في كليهما إحتراسات كثيرة منها: وجوب اتخاذ مواقف واضحة وصريحة في قضية العلم والتكنولوجيا وتلازمهما الأخلاقي مع مواقف الفلسفة منهما. من هنا لابد من وجوب المعرفة المنظمة في الحقلين، لإدراك الارتباط بينهما، ماضياً، وحاضراً ومستقبلاً كقضية وجود إنساني.

ظهرت مفاهيم الأخلاق النظرية البحتة، التي طرحتها معظم المدارس الفلسفية المختلفة، عن حالات تأمل وتجريد لرؤاها المثالية خاصة حول موضوعة الخير والشر في الأخلاق، ومنها ما توقفت عند طرح الأخلاقيات العملية النسبية، مما أفضى بالفلسفة أن تتعامل مع التطورات العلمية العملية والتي طرحت نفسها بأنها لم تعد قضايا علمية يجري عليها الجدل الفلسفي بين الفلاسفة وحدهم؛ بل باتت علمية وفلسفية معاً، ستتجاوز من يتأخر عن التصدي لمشكلاتها بسرعة فارضة بعض من أخلاقيات العلم نفسه على الفلسفة. والتساؤل اليوم هل تنجز الفلسفة بعض من مهامها عند التأمل في صيرورة العالم وعن جدوى التطبيق العلمي، وحدود اندفاعاته، وفي تكريس تطبيقاته التقنية وفرضها على المجتمعات، وبمعدلات زمنية مخيفة، حتى باتت التقنية، في بعض مجالاتها تسبق العلم نفسه وتشكل قلقاً على العقل العلمي نفسه.

كما أن الرؤى الفلسفية نفسها، سيُمكنها هذا السباق التجاوز لكثير من صياغاتها السابقة حول الأخلاق في سياق المستقبل المنظور والبعيد، وعلى الفلسفة عدم التوقف عند مناحي البحث العلمي التطبيقي ونتائجها، بروح الوعظ والمسلمات القديمة حول مفاهيم الخير والشر، والمنافع والأضرار،

خصوصا : ان الأخطار باتت كثيرة، وان لم تحكمها الاخلاق ففيها من المغامرة مالا يُنتظر في مغلرة العقل العلمي في تخوم المجهول. والجانب الكبير من الاخطار هنا على الوجود الانساني يكمن خاصة في المجالات التطبيقية البيولوجية والفيزيائية والكيميائية وفي انتاج الاسلحة واستخدامها في الحروب السرية والعنوية، وبها يجري تنظيم الإبادات والمجاعات وتشويه الجينوم، والتميز العنصري بيولوجيا، وزيادة حملات الغزو الاستعماري والاستيطان بقوة العلم وتطبيقاته الشريرة.

لازالت طرق البحث العلمي والتجربة المخبرية، ممهدات الوصول الى المعرفة والحقيقة العلمية، وهي تمثل الوجه الثاني لطبيعة العلم؛ فالعلم مادة وطريقة، وجوهه، هدف الكشف عن المزيد من الحقائق من أجل فهم أفضل للطبيعة وقوانينها، مما يجعل صيرورة المعرفة علما لا بد من البحث والتخصص فيه ، وبفهم الطرق التي تُمكن الباحث للوصول الى تلك المعرفة.

تتسم التكنولوجيا المعاصرة بتزامنها المترافق مع العلم، تسعى نحو التطبيق الخلاق له، ولكنها وهي في لجة التسارع في التطبيق، بفضل توفر وسائل البحث العلمي وتكامل العلوم التجريبية تقود الى حالة من التسارع في الكشف وزيادة سريعة في تراكم المعرفة، هنا لا بد من إعادة تنظيم المعرفة العلمية وأخلاقياتها، ووضع الضوابط للتطبيقات التكنولوجية لنتائج العلم التجريبية، وهذا لا يتم الا من خلال توسيع قدرة الانسان على فهم العلم والتسلح بمعرفة تكاملية للمعرفة/المعارف العلمية المعاصرة لإدراك مستقبل المغامرة قبل حدوثها.

وفي سياق إدراك الإطار الاجتماعي للعلم والتكنولوجيا تطرح قضية العلم وتطبيقاته التكنولوجية أسئلة كبرى وجادة باعتبار العلم وطبيعته، جزء من مجموع الفكر الإنساني؛ فالعلم ومنذ نشأته الاولى تطور تاريخيا مع تطور المجتمعات الإنسانية. وطالما يظل صراع الإنسان مع بينته فهو يسعى الى تحقيق أهدافه في البقاء والقوة.

هذا الجانب، وإن كان مصدر تقدم للانسان على مر العصور، الا انه بات في عصرنا الحالي مصدر قلق للانسان نفسه. وي طرح كل يوم تحديات لا بد على الفكر أن يواجه مسؤولية إجاباتها المستقبلية؛ خاصة في تحديد الافكار والأخطار المُفرزة عنها في مسيرة العلم الانساني المعاصر، وخاصة في تطبيقاته التكنولوجية.

ومن جانب آخر، هناك من يرى أن العلم وتطبيقاته يُشبع حاجات الانسان المادية في تحقيق الرفاه والتغلب على مشاكل البيئة على النحو الافضل ، لكنه يفرز ثمنا فادحا أصبح مصدر قلق لأنه لم يشبع الحاجات العقلية والاجتماعية للبشرية على نفس القدر من اشباع الحاجات المادية.

وعندما يحقق الفرد ذاته من خلال العمل العلمي فان الدوافع والغرائز والتأثيرات الفكرية والاجتماعية والفلسفية على النخب المشتغلة في حقل العلم والتكنولوجيا لا يمكن فصلها أو التغافل عنها عند مناقشة قضية وفلسفة الاخلاق المعاصرة، وهذا ما تناوله الباب الاول بفصليه الثاني والثالث.

من هنا تُطرح قضية الاخلاق وفلسفة الاخلاق في البحث العلمي، وتستدعي مراجعة مفاهيمها المختلفة لدى الافراد أوالمجتمعات، او حتى عند الفلاسفة والعلماء المشتغلين في الجانب التطبيقي

للعلم أيضا، باعتبار ذلك قاسما مشتركا لإدراك الوجود والحياة على الارض، كقضية كونية وإنسانية لا يمكن تجزأتها او معالجتها بشكل انتقائي داخل التخصص المعرفي المحدد، كمحاولة عند البعض، في الهروب بعينه من المواجهة، بدلا من التمعن الدقيق في تفاصيلها، أو التسليم بتجريد شمولي، دون التوقف عند مفاصل العلاقات الهامة المتشابكة، خصوصا في الموقف الاخلاقي من الاسلحة المدمرة التي تتجاوز أضرارها ودمارها ساحات القتال، وصراع الافراد في ساحات المعارك، وتنتقل أضرارها الى بقية أجزاء العالم وخاصة في مجاله الحيوي المفتوح.

ان الموضوع هنا، لم يعد مشروعا مرتبطا بالعاملين في الحقل العلمية والتقنية فقط؛ بل يشمل فئات وطبقات ومفكرين وفلاسفة أيضا ومن جميع الامم؛ طالما ان التطور في هذا المجال يمس بشكل مباشر المصير والتوجهات الانسانية حوله، لذا لا بد من مراجعة:

● التفكير الفلسفي ونهاية الميتافيزيقا ، فنهاية الميتافيزيقا لا تعني نهاية التفكير الفلسفي بل تعني اتجاه الفلسفة صوب الجانب المعرفي، أي البحث في المعرفة، وحدودها، وطبيعتها، ووسائلها ... إلخ .

● أهمية مراجعة أخلاقيات العلم ، حيث تفرعت الدراسات الأخلاقية إلى فروع عديدة وجديدة لم تكن موجودة من قبل مثل : أخلاقيات علوم الحياة *bio-ethics*، وأخلاقيات المعلومات *info-ethics* ، وأخلاقيات البيئة *Ecological -ethics* وغيرها، ولم تعد الفلسفة مقتصرة على التأمل النظري المجرد، البعيد عن الواقع ومشكلاته - كما كان يُنظر لها - بل انصرفت إلى البحث في التفاصيل الجزئية للحياة الواقعية، وبدأت الإسهامات الفلسفية في المجالات العلمية الجديدة عن طريق الأخلاق العملية، لمعالجة الواقع ومشكلاته المستجدة، وصولاً إلى مستقبل أفضل .

● السبيل إلى أخلاق عملية [تطبيقية] لمواجهة تحديات العصر، فالتوسع في التطبيقات العملية يجعلنا بحاجة ماسة إلى صياغة مبادئ أخلاقية، تكون بمثابة ضمانات واحتياطات وقائية ، فإذا لم تصاحب التقدم العلمي قيم إنسانية وضوابط أخلاقية، فإنه سيؤدي بالإنسانية إلى دمار محقق .

#### رابعاً: الإشكالية:

لا بد من الإدراك ان الإشكالية هي مجموعة من المشكلات، من الصعوبات، التي لا يمكن حل الواحدة منها بمعزل عن غيرها. والطرح الإشكالي، يعني امتلاك الرؤية العقلانية والواقعية في التعامل مع الأزمات والوعي بالصلة بين موضوع وذات، ينفصل أحدهما عن الآخر انفصالاً دقيقاً، ويعارض أحدهما الآخر، ويتحد أحدهما بالآخر. وبديهي ان هذه المعرفة لا تبلغ وضوحها الكامل الا بالتدرج، بواسطة التصور الذي يتكون عن الواقع، ويعرف نفسه كذات، بواسطة ذلك التصور الذي يكونه عن فعاليته الخاصة، كتركيب للثنتين (وعي الذات ووعي الموضوع) الذي يكونه التصور عن حياته الانفعالية.

سيتكسر هذا البحث حول الإشكالية التالية لموضوعنا: إلى أي مدى يمكن التحرر من اندفاع سلطات العلم والتقانة وخضوعها للإيديولوجيا والاخلاق، باعتبار ذلك هدف من أهداف البحث في أخلاقيات العلم. ولعل أول ما ينبغي البدء به هو استبعاد الفكرة الجاهزة التي تتبادر إلى الذهن، التي

ترتبط التقابل بين الآخر وما يقابله من شعوب وامم مضطهدة، منها تعرضت لأسلحة الدمار الشامل وأخرى مهددة بـ " الارهاب العلمي التكنولوجي" من خلال منتجات العلم في مجال التسلح المكرسة للإبادة.

قد تبدو للوهلة الاولى انها فكرة جاهزة مضللة، لكنها ليست خاطئة كلياً؛ لأن الباحث يحاول التركيز على المعطيات المتفرقة التي جمعها من أكثر من بلد وجيل ليجد بينها وحدة هدف إبادي وقراءة مكررة لأخلاق ما، إتسمت بها العلاقة والصراع بين الغرب الاوربي الاستعماري الاستيطاني والامريكي الغازي من جهة، وما بين شعوب الجنوب والامم الآيلة للانقراض من جهة ثانية.

سنحاول التركيز في بحثنا في هذا الموضوع المطروح ضمن مجال أوسع من دائرتي العلم والاخلاق، وهما منفصلتين، ومن خارج ضغط تلك الفكرة التي نحسها من أننا ضحايا لهذه الاسلحة كبلدان وشعوب، معتمدين على معطيات من الواقع، وكما عبر عن ذلك أيضا باحثون ونخب وفلاسفة من الغرب نفسه، منطلقين في كل مرة بتوضيح المفاهيم الأساسية المستعملة في البحث.

يتكون عنوان هذا البحث من عدة عناصر أساسية، تتفرع منها نقاط ذات أهمية لا بد من ربطها، نعني بالعناصر الاساسية وهي : إشكالية تعني بالتطور العلمي ومؤسسته، الخطاب الإيديولوجي للنخب العلمية في مجال تبرير توجيه العلم والتقانة نحو إنتاج أسلحة الدمار الشامل. وهذه القضية هي اشكالية الموضوع. وهي ليست مشكلة يُراد التصدي لها وحلها علمياً؛ كون العلم يتصدى في مسيرته لكل المشاكل التي تعترض طريقه، ويمكنه الوصول الى حلول لها. وفي كل مرة تُطرح أسئلة جديدة لما سيبقى من مهام مستجدة أمام المؤسسات العلمية.

وما دام المجال الذي تطرح فيه المشاكل العلمية ينتمي إلى الواقع الموضوعي ويتقبل نوعاً ما من التجريب فان طريق حل المشكلة العلمية سيكون ميسراً، طالما ان اكتساب مزيد من المعرفة بموضوع ما يفتح الطريق أمام اكتشاف مجاهيل جديدة، تكون مناسبة لطرح أسئلة جديدة وهكذا هي مسيرة العلم.

أما "الإشكالية": فنحن نستعمل هنا لفظ "إشكالية" بمعنى محدد، كما وردت عند الجابري في "نحن والتراث" 1980 بما يلي: (على الرغم من أن كلمة إشكالية من الكلمات المولدة في اللغة العربية "وهي ترجمة موفقة لكلمة *problématique*"، فإن جذرها العربي يحمل جانباً أساسياً من معناها الاصطلاحي. يُقال: أشكل عليه الأمر بمعنى التبس واختلط. وهذا مظهر من مظاهر المعنى الاصطلاحي المعاصر للكلمة (ولكنه مظهر فقط). ذلك أن الإشكالية هي، في الاصطلاح المعاصر، منظومة من العلاقات التي تنسجها، داخل فكر معين (فكر فرد أو فكر جماعة)، مشاكل عديدة مترابطة لا تتوفر إمكانية حلها منفردة ولا تقبل الحل، -من الناحية النظرية- إلا في إطار حل عام يشملها جميعاً. وبعبارة أخرى: إن الإشكالية هي النظرية التي لم تتوفر إمكانية صياغتها، فهي توتر ونزوع نحو النظرية، أي نحو الاستقرار الفكري).

واسترجاع هذا التعريف للجابري لم يكن هنا جزافاً، بل نعتبره مهما بالنسبة الى الموضوع الذي نحن بصدد، [أخلاقيات البحث العلمي"البوبوجيا واسلحة الدمار الشامل نموذجين"]، والعلاقة هنا تنحصر بين مفهوم الاخلاق والاخلاقيات في مجال البحث العلمي التطبيقي ومجاله

الثقافي، وما سيحكم هذه العلاقة من ضوابط يفترض ان تكون او يتم خرقها من قبل بعض النخب العلمية التي تجد من يبرر لها، من منظور أخلاقي ايضا.

هذه النخب وما يقابلها من مواقف فكرية وفلسفية تحكمها اليوم منظومة معقدة من العلاقات، وليست علاقة بسيطة وحييدة الاتجاه: فالعلاقة بين العلم، كمؤسسة ونخب، والاخلاق كمبادئ، تحكمها اختلافات في التوجهات من منظور المصلحة لجهة العلماء والتقنيين، وقلق على المصير الانساني من منظور الحكمة والأخلاق أي الموقف الفلسفي. كما ان نتائج أسلحة الدمار الشامل وما سجله الانسان في مجال مفتوح للتجريب الوراثي نحو المغامرة الكونية لازال يُنَسَج ضمن فكر معين، قد ينسب الى فكر فرد أو فكر جماعة أو فكر أمة الخ.

وفي كل الحالات فان علاقة الفرد او الجماعة العلمية بموضوعه الاخلاق تتأثر بمحيطها الاجتماعي وموروث تراثها الثقافي ومكوناتها الحضارية. ومثل هذه العلاقة قد تبدو موضوعية فعلا، لأن لها وجود في الواقع، وسوف تتشكل منها إشكالية بعد نقلها إلى الذهن بوصفها طرح إشكالا كونيا يتجاوز قدرات الفرد او جماعة معينة لوضع لها حلول كأى مشكلة؛ فأسلحة الدمار الشامل تتجاوز المتحاربين ومواقع المعارك وبيئة المكان الملوث، والتجارب البيولوجية لا تشمل مجموعة بشرية منعزلة أو إقليم جغرافي في كوكب افتراضي تسمح للمجرب المغامرة طليقاً، بعيداً عن مراقبة بقية البشر. ان المغامرة في طريق الانتحار الجماعي باتت مشكلة عولمية حقيقية لا ننتظر لها حلا في المستقبل المنظور، كونها ذات مشاكل عديدة مترابطة ومتداخلة، منها ما يخص مؤسسة العلم نفسها، ومنها ما يخص مسألة النخب العلمية ومجتمعاتها، ومنها ما يخص الهوية للفرد والامم من حولها، خاصة تلك التي استهدفتها حروب الابداء او تلك الموضوعه على هامش البقاء كبشر، تُستخدم منهم عينات بشرية كقنران مخابر للتجارب بكل انواعها البيولوجية والطبية أو بتجريب أسلحة الإفناء عليها. وكلها قضايا مرتبطة بمشاكل اقتصادية وتكنولوجية ومعلوماتية وثقافية وحضارية عامة، لا تتوفر لها الآن إمكانية حلها منفردة. ولا تقبل الحل، - من الناحية النظرية- إلا في إطار حل عام يشملها جميعا، وهو ما ناقشناه في خلاصة هذه الدراسة في باب الخاتمة.

وسنرى أن هذه مغامرة كونية تهدد الوجود الانساني وهي عَصِيبة على الحل الراهن؛ لأنها تقع ضمن الفجوة الواسعة ما بين "عالم "متقدم" مُقَرَّر و "عالم "مُتَخَلِّف" لا يملك الا خيار المقاومة الى حين يعي الآخر دوره الانساني من خلال العلم. فلا يمكننا هنا حل المشاكل التي تطرحها عولمة أسلحة الدمار الشامل دون الاصطدام بامتيازات النخب وشركات إنتاج السلاح ومطامح ومطامع النهب الاقتصادي للشركات العابرة للقارات، ومغامرات الحروب والإبادات المنظمة من منظور عنصري.

في جميع الأحوال سيكون الحل الذي قد نتوصل إليه حلا على الصعيد النظري إعتدناه في الخاتمة لهذه الرسالة. أما النواحي العملية فلا زال ذلك شيء آخر يبدو بعيد المنال. من هنا تبدو إشكالية وضع أخلاقيات في البحث العلمي وفرض تطبيقها على المنظومة العلمية العالمية ونخبها قضية يسودها الكثير من التوتر والانغلاق والسرية وعدم الاستقرار في مواقف النخب ذاتها، كما اشرنا الى ذلك عندما تغيرت بعض مواقف العلماء الذين أسهموا في إنتاج القنابل النووية وتطوير الفيزياء والكيمياء بالتعبير عن ندمهم وإدانتهم لما فعلوه، وبما تم توجيهه من قبلهم من تطبيقات العلم

والتقانة، لكنهم رغم اعلان ندمهم، فهم في ذات الوقت ظلوا يعملون بصفة مستشارين وخبراء في كثير من المؤسسات والهيئات الوطنية والدولية، التي لازالت متورطة في خدمة الأقوياء، وفي تكريس بقاء الفجوة العلمية التكنولوجية على كوكبنا تفصل بين عالمين أولهما متقدم وآخر متخلف.

وأنا هنا لا نطمع، ويجب أن لا نطمع، في حل نهائي لهذه الإشكالية في المستقبل المنظور؛ بقدر ما نطمح فقط الى ان نسلط الضوء على عالم لازال بعيدا عن أجواء المناقشات العلمية والفلسفية الجادة في موضوعه الاخلاقيات التي لم تأخذ طريقها بعد الى المقررات التدريسية في الجامعات بشكل كاف.

ان إشكالية هذا المبحث في إطارها العام، تسعى الى تسليط الضوء على دور العلماء والفلاسفة الذين يؤرقهم مستقبل الوجود، ومدى إسهامهم معا في صياغة المبادئ الأخلاقية التي يجب أن تحكم البحث العلمي وتحديد توجهاته المستقبلية، في عالم يتسم اليوم بالصراع والإقصاء بين الدول وبين النخب العلمية والفكرية نفسها. وللأسف ان موضوعا مثل هذا لازال قليل التداول؛ بما حُكم عليه، في تفاصيله ومجالاته من غموض وارتباب، في حقيقة الأهداف العلمية التجريبية المعلنة في مجالات علمية معينة، وما يقابل البحث من غموض في الأفكار العلمية والفلسفية المتداولة حول الأخلاقيات التي ينبغي أن تسود أو السائدة فعلاً، وبما يُطرح عنها، في كثير من المفاهيم المتداولة في الفكر الفلسفي، بجانبه الاخلاقي خاصة.

آفاق مسيرة العلم والتقانة لازالت تحمل في العديد من حالات مضامينها أكثر من معنى؛ فالتوسع في فهم جزيئات الحياة بيولوجيا، سيلغي كثيرا من الاصطلاحات المورفولوجية، والروحية المرتبطة بها عند محاولة فهم طبيعة الحياة بيولوجيا، برؤية من منظور جزئي صرف . كما ان تغيير أنماط الحياة نفسها، بتدخل قوة المعرفة العلمية، صار مجالاً للبحث والتأمل في صورة مستقبل الانسان ونظرته الى الحياة، وهو ما تسعى اليه الفلسفة أيضا. فالعلوم الدقيقة تتوجه نحو تعميم مفاهيمها المرتبطة بكل حقيقة علمية مكتشفة، وتثير من حولها جدلا لا ينتهي. وكل تطبيق متلازم بالعلم يطرح جدواه من عدمه، ولا مجال للهروب وراء المصطلحات الغامضة في حقول العلم ومناحيه بعد اليوم .

كما أن الفكر الاخلاقي وفلسفته، عندما يتصدى لموضوعات كهذه، سيكون مُجبراً على اتخاذ نفس المنحى الذي سار عليه العلم وقطع به اشواطاً بعيدة. وعليه أن يستعير الكثير من تجربة العلم ومناهجه في إستكشاف وتوقع الحقائق المادية والتجريبية ووضعها في موضع التأمل.

تداخل وتكامل منجزات العلم التطبيقية تلغي يوما بعد يوم، حواجز تركيب العلم وتخصصاته وتصانيفه التقليدية السابقة المتعارف عليها. وأضحى الميل الى إستنتاج العلاقات الرابطة للعلوم المختلفة بأنماط وعلاقات جديدة، حاجة يومية، وخاصة عند تداول المفاهيم التي تحمل أفاقاً أوسع مما يتصورها البعض بحسه المجرد.

وفي عالم تتقلص أبعاده، بفضل ثورة الاتصالات والاعلام، لا بد من تقريب لغة العلم بمفاهيم تستحدث في العلوم والتقانة يوميا، وتطرح أسئلة مستجدة متواصلة. كما ان التفكير العلمي لم يعد كما كان عليه، في طرحه التقليدي، مُسمى لعملية عقلية بحتة واحدة، أو محدودة يقوم بها الفرد

للوصول الى حقائق المعرفة العلمية. إن ما نلمسه من منجزات كبرى للعلم هي محصلة تفاعلية وتشارك عقل جماعي نخبوي مترابط عبر العالم متجاوزا الحدود والقارات عبر أكثر من رابط وصيغة للتعاون.

وتقوم على تنفيذه والتنسيق حوله نُخب لها مواقفها، منها المعلنة أو المتكتم عليها. ويجري التعبير عن القضايا المطروحة، على مدار اللحظة، بصيغ وأشكال عدة. منها ما يتسم بالسكوت عند بعض النخب، ومنها يسعى الى الاسهام في الحوار العالمي الدائر حول المصير والوجود الانساني ليتفادى الاتهام له بالتواطؤ، وجعله في دائرة الإدانة او الريبة من نتائج أعماله مستقبلا .

وانطلاقا من الوظيفة الجوهرية لكل فكر أو فلسفة: هي الكشف عن معضلة الواقع عبر نقدها نقدا واعيا ينفذ إلى مكوناتها، لمعرفة قوانينها. يرى البعض<sup>14</sup> : (بأن الثورة الإعلامية والتكنولوجية أثرت بالفعل على تصورات الفكر الفلسفي في الغرب، حيث أحالت مشروعه المستقبلي إلى واقع ملموس، ومعاش فعلا ..، ولم يبقَ أمامها، في لحظتها الراهنة، ما يمكن أن يخطط له من تصورات جديدة،.... وان الفلسفة الغربية هي التي أنتجت ما هو راهن من تسريع تطوري للحياة والأشياء. فخلقت فضاء منجزا، وأصبح عليها الانتقال إلى فضاءات أخرى، شرعت في رسم معالمها. من هنا بدأ الحديث عن ما "بعد الحداثة"، وما "بعد العولمة"، وفُرضَ على الفلسفة الغربية أن تهتم بالمستقبل متخطية الحاضر ومقولاته التقليدية الجاهزة والمكررة).

وتأسيسا على ذلك فإن الفلسفة الغربية بلغت في تصوراتها أقصى مدى، بل أنجزت -حسب المرجع السابق- ما كان مُتَحَيِّلاً، وتجاوزته نتيجة السرعة الفائقة التي لم تعد تمنح فسحة للتفكير بما هو متخيل. فما هو محقق فعلا، غدى يفرض التفكير به، وتأمله قبل أن يهرب من لحظة الحاضر إلى الماضي. لقد تجاوزت سعة التصور نطاقات الخيالات ومجالاتها، وبات الفضاء الخيالي خجولا إزاء التسريع المضاعف باللحظة الآنية، لذا تضاعل الخيال وفُسيح المكان أمام التصور الفلسفي الذي لم يعد بإمكانه اللحاق باللحظة الآنية<sup>15</sup>.

فماذا إذن بقي أمام الفلسفة الغربية من مجالات للتفكير والتأمل؟ وكيف تواجه هذه اللحظة من التطور المتسارع، التي باتت منفلثة وهاربة وعصيبة على السيطرة والتحكم؟. وهل الأمر يعود إلى التقدم العلمي وما صاحبه من ثورة تكنولوجية وإعلامية؟ أم يعود إلى ما تحقق من تطور في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية؟<sup>16</sup>.

والخلاصة التي انتهى إليها علاء طاهر<sup>17</sup> : أن الفلسفة الغربية انتهت في تصوراتها الجديدة إلى "نهاية كل يقين" ومعتقد فلسفي .. أي إلى نهاية فضاءاتها التقليدية. لقد أدرك الفلاسفة في الغرب خلال الثلاثين سنة الأخيرة أن فضاءهم الفكري أشرف على نهايته نتيجة انفلات، متطلبات الحاضر الجديد، (بحكم وتيرة التغيير المتسارع) من إطار الأنظمة الفلسفية الراهنة. وانبثقت عن هذه الوضعية، ظهور العديد من الأسئلة، توزعت على مختلف التخصصات أو التيارات الفلسفية،

<sup>14</sup>.علاء طاهر، نهايات الفضاء الفلسفي - الفلسفة الغربية بين اللحظة الآنية والمستقبل. مكتبة مدبولي ، القاهرة ، (2005).

<sup>15</sup>: علاء طاهر، المرجع السابق، ص.10.

<sup>16</sup>: علاء طاهر، مرجع سابق، عدة صفحات.

<sup>17</sup>: علاء طاهر، مرجع سابق، عدة صفحات.

مثل فلسفة العلم والفلسفة السياسية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وفلسفة الجماليات والفنون الحديثة وعلم الاستراتيجيات وأخلاقيات البحث العلمي<sup>18</sup>.

إن الوعي بعمق التحولات وأبعادها جعل مفكري الغرب من علماء وفلاسفة يضعون الأسئلة التي تسائل المستقبل، وتبحث عن الأجوبة الناجعة لإشكالياته.

وفي هذا السياق سبق أن أحدث كتاب الفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو" (الكلمات والأشياء) زلزالاً في مناهج التفكير الثقافي والفلسفي، ومنظوماتها المعرفية، وبلغ هذا الوعي ذروته خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي، حيث ركزت تيارات الفلسفة الحديثة على الفكر (النيثشوي والهيغلي والكانتي والهيديغري)، ضمن محاولات لصياغة منهج جديد يتيح للبحث أن يستوفي أبعاده، وأعراضه كاملة<sup>19</sup>. أدت التطورات المسارعة على جميع الصعد على طرح أسئلة حادة ودقيقة شغلت الفكر الفلسفي مثلاً ما هو مصير الفلسفة؟ وإذا ما اختفت ملكة التفكير الفلسفي هل سيتحول الفرد إلى مجرد سلعة استهلاكية؟

إلا أن السؤال الأهم في هذا السياق هو الذي يتمحور حول دور الفلاسفة في دينامية التطور المعرفي، في اللحظة الراهنة التي تتسم بالتحولات الكبرى والتطورات المتسارعة. هذا بالفعل ما حاول علاء ظاهر رصده<sup>20</sup> من خلال تناول بعض قادة الفكر الفلسفي الحديث البارزين من أمثال:

("أدغار موران" و"جيل دولوز"، و"فليكس غوتاري"، و"ميشيل فوكو" و"كلود ليفي استروس"، و"نيثشه"، و"هيغل"، و"مارتن هايدغر" و"فرويد" و"أريك أفروم" و"هربرت ماركوز").

### خامساً: المنهج :

لما كان المنهج وسيلة الباحث لتحقيق أهداف دراسته، وهو الخطة التي يتبعها البحث بغرض تحقيق أهداف محددة تكون مقبولة فكرياً؛ لاجل ذلك وضعت استراتيجية البحث من خلال استخدام المعطيات المتوفرة والخبرة المتاحة من خلال تخصصي العلمي في الفيزياء النووية والعلوم البيولوجية لدراسة موضوعة اخلاقيات البحث العلمي في مجال اسلحة الدمار الشامل بهدف السعي الى تغيير مطلوب ومرغوب في سلوك العلماء والنخب العلمية والفلاسفة نحو مناهضة التيارات الساعية لتوظيف منجزات العلم والتقانة (في مجال البحوث البيولوجية واسلحة الدمار الشامل) في حروب الابداء والتوجهات العنصرية في البحث العلمي والمغامرة نحو المجهول خلال البحث العلمي من دون ضوابط ورقابة صارمة.

<sup>18</sup> علاء ظاهر، نهايات الفضاء الفلسفي - الفلسفة الغربية بين اللحظة الإنية والمستقبل، المرجع السابق، عدة صفحات.

<sup>19</sup> أحمد بابانا العلوي، نهاية الفضاء الفلسفي في الغرب، <http://www.doroob.com/?p=27128>،

<sup>20</sup> علاء ظاهر، نهايات الفضاء الفلسفي - الفلسفة الغربية بين اللحظة الإنية والمستقبل، المرجع السابق، عدة صفحات.

ان الارتباط بهذا المنهج يعكس فلسفته في الدفاع عن وجود الانسان والحفاظ على حق الحياة لكل الكائنات على الارض وبيئتها. وهو منهج سعت اليه الفلسفة ورسمت له مذاهب ووضعت له تصورات أخلاقية، اكتفينا بعرض جزء أساسي للموقف الفلسفي منها في الفصل الثاني من الباب الاول من هذه الرسالة، تعاملنا من خلاله كمدخل حول فلسفة الاخلاق وأهم مدارسها الاخلاقية، لما تطرحه هذه المسألة من أسئلة كبرى تحتاج الى إجابات مشتركة في مواجهة مشكلات العلم، كمشكلات للحياة نفسها . ولكي لا تكون هناك صورة مشوهة وناقصة او مبتورة عن العلم ومساره التقدمي، والعلماء ومواقفهم من قضية الاخلاقيات كان لا بد من وضع الفصل الثالث من الباب الاول حول الأخلاقيات في الحقل العلمي التطبيقي.

. والى متابعة دراسة مؤسسة العلم وتوجهاته التقانية من خلال الباب الثاني والفصل الرابع بتسليط الضوء على نواحي الوحدة والفصل بين الفلسفة والعلم في عصر المعرفة. صحيح أن هناك مناهج عدة تتناول هذا الموضوع، منها تدعو الى ترك نخب مؤسسات العلم حرة في تطبيقاتها التقانية والتجريب والاندفاع من غير ضوابط أخلاقية وتحرص على بقاء العلم كمؤسسة بيد الأقوى والأغنى والنظر الى بقية العالم كتابع وحقل تجارب لمنتجات التجريب العلمي والتقانات المنجزة، وهذا منهج ومنحى عنصري. رأينا هو ان نكون في الجانب الآخر الذي نرى منه: انه لا بد من ان يجد العلم موقعه، كمؤسسة ذات مسار إنساني وتقدمي، باعاً للأمن والحماية للانسان والبيئة، ويضع التقانة في خدمة البشر.

ظلت إهتمامات هذه الدراسة في كل مناحيها العامة تسعى وتهتم بفكرة الترابط **Correlation** والتكامل **Integral** بين اهتمامات العلم والفلاسفة في مواجهة سؤال المستقبل وتجاوز حدود المغامرة الكونية في مجالي الانتاج الجنوني لأسلحة الدمار الشامل(النوية والكيميائية والجرثومية) من جهة والمغامرة بالتلاعب بالجينوم باستخدام نجاحات الثورة البيوتكنولوجية في مجال الهندسة الوراثية. لقد أصبحت الحاجة ملحة الى فلسفة أخلاقية متجددة بتجدد العلوم وتقاناتها، واضحة، غير متناقضة، وغير غامضة المفاهيم والاصطلاحات والأهداف، تسعى نحو تحقيق أهداف تراعي قيم المجتمعات وثقافتها وظروفها وآمالها بصورة انسانية مشتركة. وتسعى الى تطوير الفرد المبدع العلمي بشخصيته واستقلالته وقدراته وتلبية حاجاته، واحترام الطبيعة العلمية بخصائصها المميزة في عصر المعرفة التي أشرنا اليها تفصيلاً في الباب الثاني.

ان أول ما يتطلبه البحث في مجال أخلاقيات البحث العلمي هو رؤية كلا من الفلسفة والعلم في جسد المعرفة المنظمة التي يمكن ان تصل بالإنسان الى مستقبل سام دون مغامرة بالوجود. فلم يعد العلم اليوم مجموعة من المعارف والحقائق المسطرة بين ثنايا الكتب والمجلات والمنشورات العلمية؛ بل هو مجتمع قائم ونخب مُفَرَّزة ووظائف تفرز قيمها في نسق/انساق منتظمة تؤدي بتنظيمها بالارتباط بالفلسفة الأخلاقية الى صياغة مفاهيم وقوانين ونظريات؛ وعندئذ سيكون للحقائق والكم المعرفي الذي يفرزه العلم إمكانية أكبر لتوظيف قدراته جميعها في التفسير والتنبؤ بالمصير الانساني من دون مغامرة.

تنقلنا هذه الدراسة من خلال منهجها هذا الى محاولة بناء نسق معرفي منظم من المفاهيم العلمية المبنية على الحقائق في مجالات شدَّ بها العلم بها عن التمسك بالأخلاقيات المطلوبة بتقدير قيمة الانسان ككائن وحمايته؛ لذا فالحقائق العلمية لا يمكن عزلها عن فلسفة لا ترى في العلم عامل تدمير شامل، وانه ليس مجرد قدرات تتضاعف في قوتها يوماً بعد يوم، وانه ليس مجرد قدرات قادرة على تفسير الظواهر ومراقبة الاحداث الكونية وتفسيرها؛ بل يجب على العلم ان يتفاعل مع متطلبات بقاء الحياة وارتباطه بها

اخترنا هذا المنهج لميزاته العلمية والفكرية، والانطلاق أولاً به من دراسة منهج الاخلاق، كعلم له أبوابه وإسهاماته الفلسفية والدينية المبكرة في تهذيب الافراد والمجتمعات، أين توقف الكثير من الفلاسفة عنده، رغم قلة تناوله من جانب العلماء المرتبطين مباشرة في المجالات العلمية التطبيقية، نظراً لحدثة تطور التقانة بوتائر متسارعة غير معهودة، لم تتح للعاملين فيها من طرح تصوراتهم النظرية والفلسفية بشكل كاف.

ولم تعد مفاهيم العلم للعلم وحده في نشاطه؛ بل ان نشاطه في الملاحظة والتجريب والاستكشاف والاستقصاء ورؤية العلاقات مع المجتمعات والأفراد تتطلب الوصول الى استجابات موضوعية، بعيدة عن الذاتية والتحيز والتعصب والحقد والتورط في الإبادة للغير.

وبارتباط موضوع هذه الرسالة بأسلحة الدمار الشامل والحروب والإبادات كان لابد من رصد تطور تلك الاسلحة واستخداماتها ونتائج دمارها الشامل الآني والمستقبلي وتوثيق حالات ضحاياها من مختلف بلدان العالم، وخصوصاً في وطننا العربي (الجزائر، العراق، فلسطين، ليبيا)؛ لذا كرسنا لهذه الموضوعات الباب الثالث، بثلاثة فصول هي الخامس والسادس والسابع، وهو أوسع الابواب من هذه الدراسة.

من أخطر التحديات التي تواجهها الانسانية ونخبها الفكرية والعلمية هي ان المعرفة تتضاعف بمعدلات لا عهد لنا بها كل بضعة سنوات. فسمه عصرنا التغير السريع والزيادة الكبيرة في المعرفة وقدرة الانسان على استخدام تلك المعرفة في الاتجاه الذي تريده النخب المتحكمة بالمؤسسات العلمية من ناحية التمويل والادارة السياسية والعسكرية والاقتصادية، وبات مقلقا ان تتجه هذه القدرات نحو المغامرة في الحروب او في التجريب والافلات من الرقابة ونواميس الاخلاقيات. وفي كل الحالات لابد من فهم العلم أكثر وقيادة مؤسساته ونخبه بشكل اخلاقي ولجم الاندفاعات الطائشة في حقل التطبيقات. لابد من الاعتراف هنا بسيادة امية تقانية في مجال فهم الاخطار الناجمة عن اسلحة الدمار الشامل وعن الانفلات في التجريب العلمي في الحقل البيولوجي الوراثي. هناك من يقول ان تجاوز العلم للميدان الاخلاقي وللflasفة نتج عنه حالة تصفنا اننا علميون ماديا أكثر منا علميين فكرياً. من هنا تدخل عوامل التربية للفرد وتوجيه المجتمعات لسد الثغرة بين عالم الفكر وعالم المادة.

هنالك الكثير من النقاط السوداء في العقل الباطن لبعض النخب، ناجمة عن رواسب التربية والتعليم الذي تلقته، وموروث ثقيل من الماضي يدفعهم الى الحرب والابادة والتدمير الشامل لغيرهم، والانسان لا يستطيع ان يتفهم مسار العلم وتطبيقاته التقانية ويعطيها حق قدرهما ما لم يكن واعياً بالجهد والفكر الأخلاقي الذي يجب ان يحكمه. من هنا يتحقق مفهوم التكامل ووحدة المعرفة العلمية والأخلاقية التي عنونا بها الباب الثاني والفصل الرابع. لرؤية معنى العلم الحقيقي وانعكاساته على السلوك الانساني لبعض النخب، وبذلك فاننا هنا ننتقل من منهج تقليدي وعظي للاخلاق الى مرحلة الانتقال الى حالة أكثر تكاملاً وشمولاً؛ لان طبيعة المعرفة العلمية تتطلب مثل هذا التكامل؛ فالانسان يتفاعل مع بيئته الطبيعية والحيوية ويرى الظواهر والاحداث وينتصر على الصعوبات بالتقانة وصولاً الى الرفاه لكنه يصطدم مرة اخرى بالخوف من العودة الى نقطة الصفر يوم يحرق كوكبه بالاشعة المؤينة وتتحول ارضه الى صحراء قاحلة يغطيها شتاء نووي.

## سادسا : الافاق التي يمكن ان يفتحها هذا البحث:

إضافة الى وضع الكثير من الحقائق بين دفتي هذا العمل . سعت هذه الدراسة لجعل بعض فصولها في موضع التوثيق العلمي والفكري لما حدث ومر من دون توثيق كامل. فإن الدراسة سعت الى الاقتراب من كل الحالات التي مستها أسلحة الدمار الشامل ومحاولة التحليل لنتائجها القريبة والبعيدة المدى. وفي بعض الحالات سعينا، بجهودنا الخاص، ولأول مرة نشر الكثير من الخفايا والإبادات الى الرأي العام الوطني والعربي والدولي، حول ظروف استباحة بلادنا وجعلها ساحات لتفجيرات وتجارب نووية في الصحراء الجزائرية في ستينيات القرن الماضي واستهداف العراق بأعدته وأسلحة الدمار الشامل، وما خلفته أسلحة الحرب البيولوجية والكيميائية في الجزائر وفلسطين وليبيا والحبشة والمغرب وغيرها من مناطق العالم، وما تركته من ضحايا قتل جماعي، تم قتلهم بدم بارد وسابق إصرار، لذا تعتبر قضاياهم جرائم إبادة منظمة، رغم أنها ظلت منسية الى اليوم.

كما سعى البحث لطرح مساهمة فكرية، استخلصت من خلال الاستنتاجات العملية والفكرية التي توصلنا اليها في العمل ضمن حقل الاختصاص العلمي والعمل التطبيقي في هذه الموضوعات ولسنوات طويلة، وفقنا من خلالها بالنشر العلمي للعديد من البحوث الميدانية، والاسهام في كتابة العديد من المراجع والمؤلفات الجامعية والأكاديمية التي تناولت الموضوع، تحدثت عنه لأول مرة، وكذلك المشاركة في العديد من المؤتمرات الوطنية والعالمية ذات الاهتمام المشترك بموضوع البحث. نرى ان المصالحة بين العلم والثقافة والروح واجب حضاري وإنساني يضعنا أمام مسؤولية طرح رؤية جديدة منفتحة على الوجود، تحدد علاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالكون، وما يتمخض عنهما من مفاهيم جديدة عن الزمن والمكان، بحيث يصبح العلم أداةً إيجابيةً تحقق مزيداً من الانسجام بين الكائنات والكون، وتصبح التقنية إستراتيجية لتحقيق كفايات الوجود.

## سابعا : الصعوبات التي واجهناها في البحث :

لابد من التأكيد هنا، ان القوى العسكرية والسياسية للدول الكبرى هي المتحكمة في الاقتصاد العالمي، وتلجأ الى تسيير العالم بمنطق القوة والترهيب والترغيب، كما ان بعض النخب العلمية المرتبطة بها تجد ضالتها بإشاعة الرعب النووي والكيميائي والجرثومي، من جهة، ومحاولة تجاهل تأثيراته الفكرية والأخلاقية والنفسية على البشرية، من جهة أخرى حفاظاً على امتيازات تلك النخب.

من هنا أصبح التضييق على الإصدارات العلمية وتسجيل الوثائق وتحليل النتائج التي تفضح حجم الدمار الانساني والحيوي المرتقب حالة وصلت الى تصفية علماء وباحثين وإعلاميين جسدياً. وعملت دوائر عليا في العالم على منع الوصول الى معرفة رأي العلماء ومعرفة مدى تفاعلهم قضية ومصير ضحايا تجاربهم وأسلحتهم عبر الأجيال. فهناك القليل مما يُنشر وما يُرصد أو يعلن عبر الصحافة والإعلام. كما أن جامعات الغرب لا تُشجع البحث فيه خوفاً من ردود فعل النخب الحاكمة وتخوفها من التجريم. التعنيم مستمر على هذا الموضوع وخاصة عند مصادر الأخبار

العالمية الكبرى التي باتت موكولة ومرتهنة بوكالات إعلامية وعلمية متخصصة مرتبطة هي الاخرى بالقوى العسكرية والنخب الخاصة، مما يعيق عملية التفاعل الفكري للوصول الى تصور أشمل للمبادئ الأخلاقية التي ينبغي أن تحكم العالم المتحضر واتفاهه حول مثل هذا الموضوع.

ولما كانت أغلب مباحث هذا الموضوع لازالت سرية في تفاصيلها وأرقامها، وخاصة في المناطق، التي توقفت عندها بحثنا في هذه الدراسة، كقضايا العراق والجزائر وفلسطين، وبلدان أخرى كانت ضحية للحروب والغزو وللإستخدامات المروعة للأسلحة المحرمة دولياً على أراضيها، والتي لازالت وثائقها رهينة أرشيف المركز الاستعماري، فلم يتسرب منها الى النشر سوى النزر القليل، لذا فان الأفكار والرؤى الفكرية لمختلف الفلاسفة والعلماء المشتغلين في حقل " أخلاقيات البحث العلمي" وما يرتبط بها لازالت قليلة جداً، وتواجه الباحث فيها مقاومة شرسة من لدن مؤسسات عديدة، بل أضحي البحث بحد ذاته في مثل هذه الموضوعات يُشكل مغامرة غير محسوبة النتائج مستقبلاً. كذلك يُحاصر الباحثون والإعلاميون كثيراً عند محاولتهم النشر والتوزيع، وتنظيم الملتقيات وحتى النشر الإلكتروني ويُمنعون من الوصول الى ضحايا المجازر لتسجيل الحقائق.

### ثامناً: مكونات الرسالة:

قسماً الرسالة الى ثلاث ابواب بسبعة فصول. جعلنا من المدخل لها فصلاً أولياً تمهيدياً عن المغامرة الكونية وتساؤلات عن مسارات العلم والتقانة وما يرتبط بهما من اخلاقيات، موضحين من خلاله أفكار ومنهجية البحث واشكاليته ومفاهيمه ومنطلقاته والمصاعب التي واجهته.

تتألف الرسالة من ثلاث أبواب بسبعة فصول ومدخل وخاتمة ومسرد بالمراجع:

**الباب الاول:** أعدناه بفصلين هما الفصل الثاني والثالث من البحث: طرح الفصل الثاني قضايا الاخلاق والموقف الفلسفي منها في جانبيه المجرد النظري التأملي والعملية بشكل خاص ومستقل. أما الفصل الثالث: فقد تناول الاخلاقيات في الحقل العلمي التطبيقي المعاصر، متوقفين بشكل تفصيلي عند مغامرة توجيه مكتسبات العلم التطبيقية والتقانات المتطورة في خدمة صنع اسلحة الدمار الشامل وتجريبها على البشر والطبيعة وما جرته تلك التطورات العلمية في مجال الاسلحة البيولوجية والكيميائية والنووية من مخاطر على الحياة والبيئة. كما توسع هذا الفصل باخلاقيات الثورة العلمية التكنولوجية وتطبيقاتها واستقراء مستقبلها والنتائج المسجلة وما يجاريها من قلق عالمي عن آفاق هذه الثورة واندفاعها في حقول لازالت آفاقها مجهولة النتائج.

**الباب الثاني:** ركز على العلم وآفاقه ومشكلاته. يقع في فصل موسع هو الفصل الرابع: يتوقف عند تحديد معالم عصر المعرفة وقضايا الوحدة والفصل بين الفلسفة والعلم والرؤى حولهما من منظور مواقف العلماء والفلاسفة وجدلها حول دور العلم والفلسفة ومساراتهما ومستقبلهما المشترك..

**اما الباب الثالث:** فقد عالج قضايا الحروب والغزو والابادات التي جرها تطور السلاح ونتائج الثورة العلمية والتكنولوجية على البشرية انطلاقاً من تصاعد الثورة الصناعية وما افرزته من امتلاك القوة والسلاح دفعت امم معينة الى الغزو والاستعمار والاستيطان وظهور القوى الاستعمارية الكبرى في الغرب خاصة، وركز على العريف بصنع اسلحة الدمار الشامل

واستخداماتها وتجربتها في كثير من الحالات القاسية على شعوب أخرى، كانت الضحايا، وما جرت به هذه الأسلحة من ويلات ومآسي ستمتد إلى المستقبل البعيد .

وسعنا هذا الباب ووضعنا بثلاث فصول مستقلة.

الفصل الخامس: حول الغرب والابادة والحروب والاستعمار والاستيطان بفضل امتلاك أسلحة الابادة وتجنييد العلم والتقانة لخدمة الحرب الشاملة.

الفصل السادس: تناول بالتفصيل أسلحة الدمار الشامل وتجربتها واستعمالاتها ومخاطرها والاخلاقيات التي تحكم أصحابها وتوقف بشكل مقصود عند التاريخ المنسي لجرائم الابادة بالاسلحة الكيماوية والنووية في الجزائر والعراق وفلسطين.

الفصل السابع : فهو إطلالة على قضايا القلق من المستقبل في ظل صراعات الهوية وحوار الثقافات والوجود الانساني في ظل العولمة واحتكار اسلحة الدمار الشامل والتهديد والترهيب والابتزاز بها من قبل الدول الكبرى بمخاطر استخدام مثل هذه الاسلحة.

تركت الخاتمة خارج الابواب الثلاث تطرح قضايا المستقبل وفرصة الوجود الانساني الاخير والجدل العلمي والفلسفي الدائر حولها. كما ضمت مسردا بالمراجع العربية والاجنبية وملخصا باللغتين الانجليزية والفرنسية لها.

### مفاتيح البحث:

- الابادة واسلحة الدمار الشامل
- الاخلاق/ أخلاقيات البحث العلمي.
- التأصيل والمعاصرة.
- توجهات العلم التطبيقي.
- الثورة البيولوجية.
- الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة.
- الحروب
- الغرب/ الغرب والآخر.
- فلسفة الاخلاق.
- المستقبل.
- النخب وسلطة العلم.



## الفصل الثاني

### 2- الاخلاق

#### تمهيد:

انطلاقاً من مفهوم علم الأخلاق: كونه العلم المتعلق بالحكم على الأفعال، من حيث كونها صواباً أو خطأ، أو إنها خيراً أو شراً. يُقصد بالأخلاق أو الأخلاقيات في هذا المبحث بصورة عامة: هو مجموعة المعايير والأحكام التي يعود إليها الإنسان، الفرد أو المجتمع، في إدراك ورؤية الكون، بشقيه المادي والمعنوي، والطبيعة الإنسانية، والعلاقة بينهما (الإنسان والكون)، ثم رؤية وإدراك علاقة الإنسان بغيره في الكون. وتأتي هذه الرؤية من مصادر متعددة، بعضها روحي ميتافيزيقي، وبعضها واقعي اجتماعي، نتيجة التطور في حياة الإنسان وتفاعله مع الكون "البيئة" ومع الآخر. فالأخلاق إذن هي مقاييس الإنسان المثالية لحفظ توازنه مع نفسه ومع غيره من الظواهر الكونية. والأخلاق بالتالي ذات شقين: مثالي وواقعي عملي، مرتبطان عقلياً وعملياً؛ فالعقل الإنساني هو واقعي، ولكنه يقيم ويقاس بحكم أو معيار ومثال عقلي أو روحي وميتافيزيقي معاً.

#### 2-1: تعريف علم الأخلاق لغة واصطلاحاً:

##### 2-1-1: الأخلاق لغة:

ورغم أن الأخلاق لغة: جمع خُلُق؛ إلا أن دلالة الكلمة اختصت بعلم معين، ويقابلها في اللغات الأوربية كلمة morale بالفرنسية و morals بالإنكليزية والمأخوذة من المصدر اللاتيني mores. الأخلاق جمع خُلُق – بضم الخاء وبضم اللام وسكونها- والخُلُق في اللغة يطلق على معاني . قال في تاج العروس: " والخُلُق ) بالضم وبضمّتين : السجية ، وهو ما خلق عليه من الطبع . وقال ابن الأعرابي ، الخُلُق : المروءة ، والخُلُق : الدين . والجمع أخلاق . قال ابن فارس: " الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر ملامسة الشيء... ومن ذلك: الخلق وهو السجية؛ لأن صاحبه قدر عليه" <sup>1</sup>.

وقال الراغب الأصفهاني: "الخلق والخلق في الأصل واحد... لكن خصَّ الخُلُق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخصَّ الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة" <sup>2</sup>.

<sup>1</sup> ابن فارس، مقاييس اللغة (2/214)، مادة (خ ل ق) ابن فارس، أحمد بن فارس . معجم مقاييس اللغة ، القاهرة : مطبعة الحلبي ، 1389 هـ .- www.rafed.net/books/olom-quran/mafahim...al.../36.html

<sup>2</sup> - الطبرسي، الذريعة إلى مكارم الأخلاق، ص 39 . كذلك: مكارم الاخلاق ، للطبرسي ، منشورات الاعلمي - بيروت 1403 هـ ط5 .و كذلك: لسان العرب (10/86).

## 2-1-2 : الأخلاق اصطلاحاً :

قال ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق: (الخلق حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية) <sup>3</sup>.

قال الغزالي: (عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية). <sup>4</sup> وقال أبو عثمان الجاحظ: (إن الخلق هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد، كالسقاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعلم، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة). <sup>5</sup> وقال الماوردي: (هي غرائز كامنة تظهر بالاختيار، وتقهر بالاضطرار). <sup>6</sup>

## 2-1-3: علم الأخلاق :

ذكروا له عدة تعريفات، من أهمها :

- 1- هو جملة القواعد والأسس التي يعرف بواسطتها الإنسان معيار الخير والشر في سلوك ما <sup>7</sup>
- 2- وقيل: علم تحديد معايير وقواعد السلوك.
- 3- أو هو علم التعرف على الحقوق والواجبات. <sup>8</sup>

## 2 - 2 : اختلافات تعريف الأخلاق وتفاوت الالتزام به:

بحثت البشرية علم الأخلاق عبر تاريخها بشيء من العلمية أحياناً وبنوع من السفسطة والغموض أحياناً أخرى، وعُدَّ بعض كبار الفلاسفة بأنهم فلاسفة أخلاق، وقد وقع جل الاختلاف في وصف هذا العلم والقواعد العامة الخاصة به، وكذلك في من يضع القيم الأخلاقية، وقد عرّف علم الأخلاق بأنه (مجموعة من المبادئ المعيارية التي ينبغي أن يجري السلوك البشري على مقتضاها) <sup>9</sup> ، بحيث تكون هذه المبادئ هي صمام الأمان الذي يحدد وجهة سير الإنسان في تعامله مع غيره وربما يتعدى هذا الغير الإنسان فيشمل باقي الكائنات الأخرى التي تتعايش معه.

<sup>3</sup> - ابن فارس، مقاييس اللغة (2/214)، مادة (خ ل ق) مرجع سابق.

<sup>4</sup> - إحياء علوم الدين (3/53)، وانظر: التعريفات للجرجاني ، ص104 .

<sup>5</sup> - ابن مسكويه ( أبو احمد) ، تهذيب الأخلاق / ، مكتبة صبح، القاهرة، ص12. (1959).

<sup>6</sup> - الماوردي، تسهيل النظر و تعجيل الظفر . دار العلوم العربية للنشر ، ط1 ، ص5 ، بيروت1987.

<sup>7</sup> - دراز، محمد عبد الله "دستور الأخلاق في القرآن" ترجمة عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص35. (1973).

<sup>8</sup> - الحمراي أسعد: الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، (ص15).

<sup>9</sup> - عبد الله موسى ، التحدى الحضاري وخيار التقنين، مجلة النبأ، العدد 47 ، (2000) ،

<http://www.annabaa.org/nba47/tahadi.htm>

وكذلك مغنية محمد جواد ، فلسفة الأخلاق في الإسلام، ط3،، بيروت،(1984).

وعرّف علم الأخلاق بعدة صيغ، ففي معجم (لالاند)<sup>10</sup> ، يصفه بأنه :  
(مجموع قواعد السلوك مأخوذة من حيث هي غير مشروطة)، أو هو (نظرية عقلية في الخير  
والشر، وبهذا المعنى تتضمن الكلمة أن النظرية تنحو نحو نتائج معيارية).  
ويعرف لوسن الأخلاق بأنها (مجموع متفاوت النسق من التحديدات المثالية، والقواعد  
والغايات التي يجب على الأنا أن يحققها بفعله في الوجود حتى يزداد هذا الوجود قيمة) ويلاحظ في  
هذا التعريف أن الإغراق في الذات بحيث تصبح هي منتجة الخلق الذي تبتغيه.  
والأخلاق عند جوليفيه هي ( العلم الباحث في الاستعمال الواجب لحرية الإنسان ابتغاء بلوغه  
غايته النهائية)<sup>11</sup> . ويرى "جورج جوسدورف" بأن الأخلاق هي : (طريقة معينة للنظر إلى مجهود  
التعبير عن الإنسان في العالم)<sup>12</sup> وهذا التعريف يفترض أن أفعال الإنسان هي التي تخلق وجوده  
بينما الأفعال فهي للتعبير عن نفسه في العالم.  
والتعريفات السابقة وإن كانت متفاوتة من حيث تحديد غاية الأخلاق ومن حيث خضوع هذه  
التعريفات لمذاهب ونظريات واضعها، إلا أن شيئاً واحداً يجمع بينها وهو أن : الأخلاق هي مبادئ  
معيارية، أي أنها ليست نظرية تصف وتصدر أحكاماً واقعية بل أحكام تقويمية (أوامر) تأخذ صفة  
الإلزام قانوناً أو عرفاً، ولا يستثنى من ذلك أي مجتمع من المجتمعات.  
والأخلاق، وإن اختلفت البنود التي يتفق عليها عقلاء المجتمع أو الموروث أو الاختلاط  
الثقافي بين الأمم، يمكن أن ترسو عند قاعدة عمومية يكون فيها الفرد محكوماً بأخلاق غيره.<sup>13</sup>  
والاخلاق تقع ضمن الحقل العام للفلسفة: الاخلاق والفلسفة الاخلاقية، تعني (الدراسة الفلسفية  
للقيم [الخيرات والسيئات] والتي يتحمل مسؤوليتها أشخاص أو شخص متسم بالمسؤولية والمعقولة  
والتفكير المتأني).<sup>14</sup>

### 2-3: الخلق كمفهوم واسع للتداول:

كثيرة هي الصفات التي يتداولها الناس المرتبطة بتقييم الخلق الانساني وغالبا ما ترتبط  
تلك الصفات بالسلوك الانساني ازاء قضية اوحادثة اوموقف من مواقف الانسان في الحياة اليومية.  
ولهذا يرى البعض في الخلق: (تغلب ميل من الميول على الانسان باستمرار). وقريب من هذا

<sup>10</sup> - أندريه لالاند موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة، تحقيق: خليل أحمد خليل/ [www.marefa.org/index.php](http://www.marefa.org/index.php)

- k48 .

<sup>11</sup> - عبد الله موسى، مرجع سابق، وكذلك: الأخلاق النظرية، د. عبد الرحمن البدوي، الكويت، (1976).  
<sup>12</sup> [www.alkhakani.org/book/asheaa17/seerah3.htm](http://www.alkhakani.org/book/asheaa17/seerah3.htm)

<sup>13</sup> - عبد الله موسى ، المرجع السابق، موقع انترنيت.

<sup>14</sup> - بارتريديج إرنست ، مقدمة الى الاخلاق البيئية، ضمن كتاب لمجموعة من المفكرين بعنوان " مدخل الى الفكر  
الايكولوجي" وزارة الثقافة، ، ص 80-81. دمشق (2007).

التعريف يقول بعض الاخلاقيين: (ان الخلق هو عادة الارادة).<sup>15</sup> ويذهب ابن مسكويه الى تعريف الخلق: (...الخلق حال للنفس داعية لها الى افعالها من غير فكر ولا روية)، وهذه الحالة تنقسم عنده الى قسمين: احدهما ما يكون طبيعيا من اصل المزاج والثاني ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب وربما كان مبدؤه بالرؤية والفكر ثم يستمر عليه اولا فأول حتى يصير ملكة وخلقا.<sup>16</sup>

و ينقسم الناس حول تكوين الخلق والمؤثرات فيه، وخاصة بعلاقة كل الوراثة والبيئة وتأثيراتها على الخلق. ويميز آخرون ما بين الخلق والسلوك من جوانب عدة فالخلق بالنسبة للبعض: (صفة نفسية أي حالة راسخة في النفس وليست شيئا خارجيا مظهريا) اما السلوك فهو(مظهر خارجي للخلق). واذا كان السلوك حسنا بمعايير مجتمع ما دل على خلق حسن.

واذا ما اعتبر الخلق هو عادة الارادة فان تلك الارادة مرتبطة بالحرية كشرط اساسي لكل الافعال الخلقية وما يتعلق بها من نوايا ومواقف ارادية خلقية.

وقد ظلت مسألة حرية الارادة موضوع جدل بين الفلاسفة بعضهم مع بعض وبينهم وبين رجال الدين من جهة اخرى. فهناك فريق يميل الى القول "بان الارادة حرة في الاختيار" وهناك فريق آخر يرى: "ان الارادة مجبرة وليست حرة في الاختيار". وفي تاريخ الفكر الاسلامي برز من بين ما ظهر من اتجاهات منذ الربع الاخير من القرن الاول للهجرة مذهبان يمثلان هذين الاتجاهين. ذهبت فرقة "القدرية" الى: (ان للانسان ارادة حرة في كل ما يصنع وقدرة على ايجاد الفعل مستقلة عن الله)، وذهبت فرقة "الجبرية" الى: (نفي الاختيار والحرية ورأت ان الانسان مجبور). وقد اتفق المعتزلة على: (...ان التكليف والمسؤولية يستلزمان قدرة الانسان وحرية فيما يريد ويفعل، والا بطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد). اما اهل السنة والاشعرية فلم يقولوا بحرية الارادة حرية مطلقة، ولا بعجزها العجز المطلق. ويعبر الامام الغزالي عن هذا الاتجاه<sup>17</sup>: (...بل الله خلق القدرة والمقدور جميعا، فاما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب، واما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له)

وقد ذهبت غالبية الفلاسفة الى القول: (حرية الارادة وإثبات الاختيار)، وان الحرية الواعية هي الاساس الذي ترتكز عليه الاخلاق.<sup>18</sup> الفلاسفة هم أولئك الافراد الذين يسألون كثيرا، ويتوقفون خصوصا عند العديد من الاسئلة من قبيل: (ما الذي تعنيه بذلك؟) و(كيف حدث ذلك؟)

15 - يوسف متي، مباحث في فلسفة الاخلاق، ص 59 و65، بغداد، 1981، ودراسات اسلامية للدكتور دراز، ص 89.

16 - ابن مسكويه، انظر تهذيب الاخلاق، مرجع سابق، ص 31.

17 - الامام الغزالي، (الاحياء 1/116).

18 - زقزوق محمود حمدي، مرجع سابق، ص 42.

(وماذا بعد؟) وهم الأكثر إقلاقاً حين يتسائلون أكثر: (... لم ينبغي علي أو عليك أو أي شخص أن يعتقد بذلك؟) ... وهكذا قيل (... ان المهمة الأولى

للفيلسوف هي طرح الاسئلة، وليس الاجابة عليها ولا تتمثل مهمته في أن يزيح القلق؛ بل في أن يُفلق المرتاح)<sup>19</sup>. علم الاخلاق الفلسفي فانه يعتمد اساسا على العقل. وتسعى الفلسفة الخلقية " الفلسفة الاخلاقية" الى تحليل ما يسمى بالوقائع الخلقية وتأسيسها تأسيساً فلسفياً، أي تبحثها بالطرق الفلسفية البحتة.<sup>20</sup> تبحث الاخلاقيات ethics مفاهيم عامة من قبيل الإلزام والعدالة والحقوق والواجبات والفضيلة والمنفعة... الخ. وتبحث الفلسفة الاخلاقية Moral Philosophy عموماً تقييم الافعال الشخصية والسلوك والبواعث والتدابير<sup>21</sup>.

ومن الناحية الوصفية تتأسس الاخلاقية Morality اجتماعياً من حيث الأصل والتوجه، وتكون نسقية Systemic على نحو ضروري. وتنشأ الدساتير الأخلاقية، كما هو حال المنظومات الاقتصادية، من خلال التنافس والتعاون: التنافس في سبيل الخيرات النادرة والخدمات وإشباع الحاجات وضمان المصالح الشخصية، والتعاون في سبيل تحقيق وتعزيز الرفاه المتبادل والسلامة. لذلك، تصف الفلسفة الاخلاقية وتفرض ضوابط وحرّيات (واجبات وحقوق) تنظم الحياة الاجتماعية بحيث يسهم الجميع ، تقريباً، في التعظيم التام للمنافع، وفي إشباع الحاجات. إن مفهوم الشخص person مركزي في الفلسفة الاخلاقية، وفي الوقت الذي تكون فيه لائحة المعايير التي تعرف " الشخصية" موضع جدال وخلاف؛ إلا أن أغلب الفلاسفة سوف يشملون أغلب الخصائص التالية في تعريفهم للشخصية<sup>22</sup>:

- الحساسية أو القدرة على الشعور بالألم.
- الوعي بالأشياء والاحداث الخارجية.
- المحاكمة العقلية، أي القدرة على حل المشكلات.
- النشاط ذاتي الدافع.
- القدرة على الاتصال من خلال استخدام منظومة تركيبية مكتملة من الرموز الدلالية" اللغة مثلاً".
- مفهوم الذات" او النفس" المستمرة عبر الزمن.
- القدرة على صياغة مستقبلات بديلة والاختيار بينها.

19 - بارتريدج إرنست ، مقدمة الى الاخلاق البيئية، ضمن كتاب لمجموعة من المفكرين بعنوان " مدخل الى الفكر الايكولوجي" وزارة الثقافة، ص 80-102 دمشق، (2007)،

20 - زقزوق محمود حمدي ، مقدمة في علم الاخلاق، دار الفكر العربي ، ص 13، 1993.

21 - بارتريدج إرنست ، مرجع سابق، ص 81.

22 - تريديجانست بار، مرجع سابق، ص 82.

- القدرة على العمل وفقا لمبدأ ما – أي القدرة على التروي في السلوك تبعا للقواعد.
- الاعتراف بشخصية الآخر.

إن السبب الذي يجعل هذا التعريف للشخصية جوهريا للفلسفة الاخلاقية، يكمن في أنه فقط مثل هذا الكائن الذي تم وصفه أعلاه يمكن أن يقال إنه "مسؤول أخلاقيا" أو " مكلف أخلاقيا" (مثلا الاطفال والحيوانات ليسوا كذلك). وبما أن "الاشخاص" الوحيدين الذي نعرفهم هم كائنات بشرية، لذلك ثمة إغراء كبير في أن تعامل مع مصطلحي الشخص **person** و الكائن البشري **Human Being** كمترادفين.

وتفقد مثل هذه المساواة غير المدروسة الى كم كبير من التشوش والارباك في المسائل الاخلاقية، وخصوصا، منها تلك المتعلقة بمسائل من قبيل الاجهاض والقتل الرحيم والاخلاق البيئية. ولكن يمكن ان نقيم تمييزا سهلا بين الشخص "كمفهوم أخلاقي" والكائن البشري" كمفهوم بيولوجي" إذا ما ذكرت هنا وهناك قضايا متعارضة.

والتساؤل عن "كائن" ما بأنه "شخص" أم لا، له تأثير أساسي على سلوكنا الأخلاقي نحوه. يتمتع الاشخاص بالكرامة ويستحقون الاحترام ويلتزمون واجبات ومسؤوليات ويملكون حقوقا الى درجة لا يصل اليها "اللا أشخاص" ( في حقل الاخلاق البيئية: مثلا هناك من يرى في الدلافين او القردة او الاشجار... الخ. ، اشخاصا او كائنات تستدعي تحديد موافقا تجاهها كس القوانين او الرعاية او الحقوق.. الخ)، لذلك فإن توسيع البحث الاخلاقي الى خارج السياقات البشرية لمجتمعات الحياة ( مثلا الى المجموعات الايكولوجية **Ecological Systems** كما أشرنا)<sup>23</sup> يطرح مشكلات عميقة مفاهيمية ومنهجية أخرى واسعة. فالباحث الاخلاقي الايكولوجي الذي يتجاهل هذه المشكلات يخاطر، إذ يفعل ذلك، بأن نظريته الاخلاقية ستبدو مبتذلة وحتى باطلة<sup>24</sup>. من هنا يقود تحديد مفهوم " الشخص" مباشرة الى التمييز بين القيمة الاخلاقية والقيمة اللا أخلاقية، الاولى هي قيمة توصف بها جدارة الشخص (أو بكلمات أخرى توصف بها فضيلته الاخلاقية). والفعل الجيد أخلاقيا هو ذلك الفعل الذي تستحته إرادة شخصية جديرة بالتقدير. يطبق مصطلح " قيم غير أخلاقية" على أي شئ آخر يمكن ان يتدرج بالوصف بالجيد او السئ يتضمن ذلك السعر(للبضائع والخدمات)، والوظيفة (للآلات) وقابلية الحياة (للأنواع أو الأحياء) والاستقرار (للمجتمعات أو

<sup>23</sup> هنا لابد من تحديد مفهوم "المسؤولية الاخلاقية" التي تستلزم عادة: المعرفة والقدرة والاختيار والدلالة القيمية. ولكي يكون شخص ما مسؤولا اخلاقيا عن عمل ما يتوجب ايضا: 1- انه يعرف العمل. 2- يكون قادرا على إدائه. 3- يستطيع أن يختار بشكل حر أدائه أو عدم أدائه. 4- عند أداء العمل يدرك انه يؤثر على صالح وحرية الكائنات الأخرى. وعند استجابته لهذه المطالب تنعكس "قيمه الاخلاقية" كشخص مسؤول. واستجابته لها تعبر عن "دلالة أخلاقية".

<sup>24</sup> - بارتريدج ارنست ، مرجع سابق، ص 83.

المنظومات الايكولوجية)؛ بل حتى الاستمتاع (بخبرات الحياة)... الخ. وباختصار اية قيمة لا توصف بها جدارة الاشخاص.

#### 2-4 : القيم الأخلاقية عبر العصور:

يعتبر البعض الأخلاق كمبحث جزئي من الاكسيولوجيا<sup>25</sup>. وما دام تحديد مفهوم "الشخص" سيقود الى التمييز بين القيمة الاخلاقية والقيمة اللا أخلاقية، ومنها وصف فضيلته الاخلاقية، لذلك فان علم الاخلاق سينظر له، وفق رؤيته أمام "الانسان كشخص" من زاويتين محددتين أيضا هما الاخلاق الفلسفية والاخلاق الدينية.

اعتبر علم الأخلاق ركناً أساسياً من أركان مباحث الفلسفة منذ نشأة الفكر الفلسفي، وقد خصص له مكانة مميزة وهامة في جميع المذاهب الفلسفية على اعتبار إن الفلسفة تبحث في القيم الثلاثة الأساسية: "الحق.. الخير.. الجمال". يرى الدكتور سد جويك في مقدمة كتابه - تاريخ علم الأخلاق<sup>26</sup> : (...إن من اخص خصائص العلم، انه نزيه موضوعي، يسعى إلى معرفة الأشياء، كما هي في ذاتها بصرف النظر عن أهوائنا الذاتية ورغباتنا الشخصية، فإذا شئنا أن نجعل الأخلاق علماً، وجب أن نخلص بحثنا من رغباتنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وجعل الأخلاق موضوعياً وذاتياً). يعود المنبع الأول الذي استمدت منه غالبية الفلسفات الأخلاقية وجودها إلى الفلسفة اليونانية، حسب رأي أندريه كرسون<sup>27</sup>.

كان الفلاسفة اليونانيين يؤسسون الأخلاق على أساس إنهم يرون أن الإنسان مزود بطبيعة خاصة، سواء كانت الطبيعة قد وهبتها له الآلهة، أو وهبتها له قوة أخرى، لا تشعر ولا يعينها من أمره شيء. هذه الطبيعة تتميز ببعض المطامح.

وكان هم الأخلاقيين في العصور القديمة تنوير الإنسان فيما يتعلق بمعرفة نفسه، وإشعاره بما يريد حقيقة، ليستخلص من ذلك قواعد للسلوك، يطبقها في حياته إلى ما يريد. ويضاف الى ذلك ان دراسة الاخلاق تكسب صاحبها القدرة على الدقة في تقدير الاعمال الاخلاقية ونقدها من غير ان يخضع في حكمه للعرف او العادة او يتأثر بحكم الزمان والمكان<sup>28</sup>. ويعد سقراط من أكثر الفلاسفة

<sup>25</sup> - يعرف "علم القيم" Axiology : هو ذلك الفرع الفلسفي الذي يعالج القيم عموماً، بينما الاخلاق كمبحث جزئي من الاكسيولوجيا، تهتم بالقيم الاخلاقية أو تهتم بالقيم غير الأخلاقية في صلتها بالقيم الأخلاقية.

<sup>26</sup> - محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق ، ص 24 و 25.

<sup>27</sup> - أندريه كرسون، 1948، "المشكلة الخلقية والفلاسفة"، مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة، ص

10.

<sup>28</sup> - أرسطو، كتاب الاخلاق، ترجمة احمد لطفي السيد، ج 2 ص 366 نقلا عن الاخلاق لاحمد أمين، ص 16 ، بيروت، 1969.

الذين استطاعوا وضع ركائز أساسية ورئيسية التي صدرت عنها كل إتجاهات التفكير الخلفي اليوناني التي تلت ذلك<sup>29</sup> .

فسر سقراط أداء الخدمات تفسيراً بسيطاً للغاية، برأيه أن أسمى الخدمات التي يستطيع صديق أن يقدمها لصديق آخر، تقوم في التهذيب الأخلاقي، كما انه شجع على طاعة القوانين "المكتوب منها وغير المكتوب" بقواعده العملية وحياته المثالية، فالتلميذ الذكي قد يساوره الشك الخاص المستمر الذي يهذبه هذا المنهج بإيمان عام دائم في تصور البشر، بينما يحمل على الرأي العام دوماً. كما أن جميع المدارس السقراطية، تتفق في الاعتقاد بأن خير ما يملك الإنسان هو الحكمة أو المعرفة، وأهم صنوف المعرفة على الإطلاق معرفة الخير. أما أفلاطون الذي حقق تطوراً ملحوظاً في التحليل النفسي بعد سقراط يقول: "إن كافة الفضائل مع استثناء الحكمة قد تنشأ في النفس عن طريق العادات والمران". نجد أن هذا الرأي لا يعارض نظرية سقراط الذي يؤكد بأن معرفة الخير تحمل معها بالضرورة الفضائل.

حسب رأي سدجويك بان سقراط وأفلاطون لم يبحثا في الخير الأقصى لإنسان ما هو سلامته أو رفاهيته. كلاهما يفترض هذا على الدوام في مناقشاته، والرأي عند كلاهما إن المسألة تستحق الاهتمام من الناحية العملية؛ والتي تحتل الشك والجدل، ليست فيما إذا كان الخير الأقصى للإنسان قائماً في سلامته، بل ما مدى نصيب الموضوعان المعينة التي عرفت بالخير.

يعتقد أفلاطون بوجود علم أو حكمة سامية غرضها الأقصى هو الخير المطلق؛ ومعرفة هذا العلم، تتضمن في وضوح معرفة سائر الخيرات، ومعرفة الفضيلة العملية التي لا يفوته أن يعرفها إنسان يعرف بحق ما هو الخير.

نرى أن أرسطو يقوم في مطلع بحثه في علم الأخلاق باستقراء سقراط أصيل إلى الفكرة الأساسية للغاية القسوى أو الخير الأقصى للإنسان، فالناس جميعاً يقصدون بأعمالهم إلى نتيجة ما، فالخير والعلم عند أرسطو يكون من خلال العقل النظري.

يلخص "هنري سدجويك" (1828-1900) الفلسفة من وجهة نظر الإغريق بأنها عبارة عن فن الحياة الخيرة، والعلم الذي يعرض لدراستها<sup>30</sup>. ويرى أن علم دراسة الأخلاق من وجهة نظر الكنيسة والعصور الوسطى هي عبارة عن "صفاء النفس" تتميز الخصائص الأساسية للأخلاق المسيحية في ( الطاعة. النفور من الدنيا، الصبر، الإحسان، المسيحية والثروة، الطهارة، الخشوع

<sup>29</sup> : <http://www.typepad.com/services/trackback>.

<sup>30</sup> - Sidgwick H.,1930, The Methods of Ethics, London.,Lectures on Ethics of Green, Spencer and Martineau by Sidgwick H.,Ed. E. C. Jones. Macmillan,London;1902،

[http://tharwacommunity.typepad.com/whereto\\_syria/2007/07/post-29.html](http://tharwacommunity.typepad.com/whereto_syria/2007/07/post-29.html)

والواجب الديني).<sup>31</sup> ؛ لكن الصراع ظل قائماً في تطور التفكير المسيحي، رغم بذل جهود جديدة لاجتناب هذا الصراع أو إتلاف مصاعبه.

باعتماد "توما الأكويني" إن كل عمل أو حركة لكافة الكائنات الناطقة واللاناطقة على السواء موجهة نحو غاية أو خير ما؛ ويتمثل هذا الخير عند الكائنات الناطقة في التفكير الذي يمكن له الانتباه.

ويرى زكي مبارك أن هناك ميل قوي في الرؤية العامة للقيم الخلقية بين الاكويني والغزالي من حيث إن كلا الرؤيتين ذات نزعة صوفية، يعتقد هذا الأخير بأن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته، لا يحتاج إلى تعليم كسائر الأنبياء، والطريق إلى تربية الخلق هو التخلق، اهتم الغزالي برياضة النفس على ما يرغب المرء من مكارم الأخلاق، وغاية الأخلاق هي السعادة الآخروية.<sup>32</sup> لكن رؤية الغزالي لا تحمل أية غاية اجتماعية، حسب رأيه كل سعادة ينتجها العمل الطيب في هذه الدنيا إنما هي سعادة مجازية<sup>33</sup>. لو عدنا إلى العقيدة البوذية، نجد إن محور الأخلاق فيها هو الخلاص عن طريق التحرر من الشهوات. لقد أدرك بوذا قيمة "الطريق الوسط" لتحقيق السعادة الروحية والطريق الوسط في العقيدة البوذية تشبه إلى حد ما الفكرة التي وردها أرسطو، الذي آمن أن سر الحياة الأخلاقية يكمن في تحقيق الوسط العادل".

## 2-5: الاخلاق الفلسفية والاخلاق الدينية وفيزياء الاخلاق:

تهدف الاخلاق الى وضع مثل أعلى امام الانسان متمثلة في قيم ومبادئ خلقية. ان تحديد العلاقة بين هذا العلم ومن رؤيته الفلسفية و علم الاخلاق الديني يرى فيها البعض: ان ليس هناك من خلاف بين هذين العلمين<sup>34</sup>. وان الخلاف بينهما هو في المنهج الذي يتبعه كل منهما، ونقطة اختلاف الباحث في الاخلاق الفلسفية تختلف عن نقطة انطلاق الباحث في الاخلاق الدينية، أي الطريق الذي يسلكه كل منهما للوصول الى الهدف الواحد سيكون مختلفاً.

علم الاخلاق الديني يعتمد على الوحي السماوي، ونقطة انطلاقه هي الاديان السماوية، الاسلامية والمسيحية واليهودية. والاخلاق الدينية لا ترى هناك حاجة الى البحث العلمي في اساس الخير والشر، والفضيلة والرذيلة؛ إذ ان الدين قد وضع مثلاً المبادئ الخلقية التي يجب على المؤمن الالتزام بها كي يكون الفرد فاضلاً. ورغم الفوارق الكبيرة التي اختلفت بها المدارس الاخلاقية في حقل الفلسفة لكن لازال البعض يرون: إن علم الاخلاق الفلسفي لا يتعارض مع علم الاخلاق

<sup>31</sup> - سدجويك د. هـ . المجلد في تاريخ علم الأخلاق، دار الثقافة بالإسكندرية.

<sup>32</sup> - مبارك زكي ، الأخلاق عند الغزالي. المكتبة العصرية، صيدا- بيروت.(بدون تاريخ).

<sup>33</sup> - مبارك زكي ، الأخلاق عند الغزالي، مرجع سابق.

<sup>34</sup> - زقزوق محمود حمدي ، مرجع سابق، ص 13، 1993.

الديني، ويستدركون بـ "لو فهم فهما صحيحا"، أي أنهم يرون بأن تؤسس المطالب الاخلاقية على تعاليم دينية. وانه من الخطأ الظن بأن علم الاخلاق الفلسفي يتعارض مع علم الاخلاق الديني<sup>35</sup>. مسألة العلاقة بين الدين والفلسفة، او بين العقل والوحي، مسألة مدروسة، او معروفة للمختصين، لكن أنصار "الاخلاق الدينية" يصرون من جانبهم على ان العقل، الذي هو اداة الفلسفة بجميع فروعها، ومنها الاخلاق، هو هبة من الله للانسان ليميز به، فان قبول أهل الاخلاق الديني مرهون بادراكهم ذلك ايضا. واذا ماكان المصدر واحدا فلا يمكن ان يكون هناك تناقض او نزاع بين الوحي الذي هو الله والعقل الذي هو من الله ايضا. ويذهب القرآن الكريم الى الاشارة الى قوله تعالى: [وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير] (سورة الملك 10).

يرى الامام الغزالي ان العلاقة بين العقل والوحي علاقة تعاون وتعاضد، لاعلاقة نزاع وتضاد. والغزالي في كتابه "معارج القدس" يشير: (... اعلم ان العقل لن يهتدي الا بالشرع، والشرع لم يتبين الا بالعقل، فالعقل كالأس والشرع كالبناء، ولن يغنى اس مالم يكن بناء، ولن يثبت بناء مالم يكن أس... فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضان؛ بل متحدان.. ولكونهما متحدين. قال الله تعالى: (نور على نور)، أي نور العقل ونور الشرع<sup>36</sup>.

من جانب آخر يطرح "جون باينس"، الفيلسوف التشيلي المعاصر افكاره حول "العقائد الاساسية لفيزياء الاخلاق"<sup>37</sup>، **Moral Physics**. والمقاربة التي تعتمدها فيزياء الاخلاق عنده تقنية بالضرورة، كما يراها "جون باينس". وتتركز على الفهم والاختبار الشخصيين لميكانيكا العمليات المتعلقة بالطاقة التي تميز العلاقة بين الطبيعة والكائن الانساني. وهو يرى في الاخلاقية التقليدية انها تعتمد على اسس دينية أو أيديولوجية وتُغرس بطريقة آلية وسلبية، وهذا يؤدي حسبها الى كبت الدوافع، ويقود ايضا الى "عواطف هدامة"، كالشعور بالذنب في الحالات التي فيها تكون التصرفات مضادة للمعايير الاخلاقية السائدة.

ويرى "جون باينس" ان: (... الاحساس بالذنب يجعلنا ضحايا سهلة لمن يبحثون عن ذنبنا من خلال هذا الشعور، بينما لو كنا على قناعة بأننا نتصرف على نحو سليم، وأخلاقي، وغير معيب، لأصبحنا أكثر ثباتا وقوة). ويرى في خلاصة استنتاجاته ( ... الانحراف عن التوجه الاخلاقي السوي يحمل كثيرا من الناس على تبني مواقف لا أخلاقية). ان نظريته تقول: (ان

35 - زقزوق محمود حمدي ، مرجع سابق المرجع ، كذلك، **H.Reiner, De Philos Ethik p.20f** .  
36 - الامام محمد ابو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج النفس، دار الافاق الجديدة، ص 59 و 60. بيروت، 1983.

37 - باينس جون ، اديب وفيلسوف معاصر من شيلي يطرح فرضيته " فيزيائية الاخلاق " من خلال السمو بأخلاق الانسان واعتماده منهجا أخلاقيا على خلاف الاخلاقية التقليدية، لا تعتمد على الايمان، "تعتمد على ادراك الانسان والمعالجة الارادية لمستوى وضعه العقلي ضمن نطاق الكون ككل". راجع جون باينس، أسس التعامل والاخلاق للقرن الواحد والعشرين، دار علاء الدين ، دمشق، ص 13، (2002).

المعرفة كلها تعتمد على الخبرة الذاتية وعلى الذات المدركة)، ولهذا فهو يطرح الكثير من الرؤى والافكار التي تتنافى مع التوجه الايماني للأديان ويرى فيها :

( ان خوف الفرد من معرفته لنفسه، ومن تقبله لأخطائه، وإخفاقاته يدفعه عادة الى تكوين رأي مُنمذج حول نفسه، إضافة الى المغالاة في تقييم قدراته، وبالمثل، فان الفرد يبرر المشكلات التي يواجهها عندما يعزوها الى اسباب خارجة عن إرادته أو مستقلة عنها. ولكن لا يمكنه ان يصل الى الامتياز الانساني دون أن يجتاز محنة ما، ويعترف بنفسه كما هو فعلا، بكل عيوبه وإخفاقاته وشوائبه، مجردا من الصورة الزائفة التي كثيرا ما يستخدمها لخداع نفسه وإعراء زملائه.) ويرى "باينس" (... إن معظم الناس يجدون في الاخلاقية عبئا ثقيلًا أو واجبا مزعجا... ونحن ملزمون بالتعايش معه.... والاخلاقية الاصلية، وهي غير معروفة اليوم، تقوم على أساس بنية الطبيعة، دستورها ملاحظة القوانين الكونية التي تسبق تاريخ الانسان، والتي هي "الآلية العليا" التي تمد الخليقة بأسباب البقاء، وبسبب الصفة الثقافية والدينية للمفهوم الذي نحمله عادة حول الاخلاقية، يمكن ان نفهم تماما ان الانسان لن يعير اهتماما لهذا المفهوم ويعتبره مزعجا، أو مملا، أو صارما، أو استبداديا، أو مجرد تعبير عن أفضلية شخصية)<sup>38</sup>.

## 2-6: علم الاخلاق وموضوعه ومفاهيمه:

عندما يُرى الناس ويتم التقييم والحكم على أفعالهم وسلوكياتهم من انها مثلا: خيرة، أو شريرة، نافعة، أو ضارة<sup>39</sup>، فهذا يعني انه في كل لحظة او عصر لا يمكن الاستغناء عن الاهتمام بالمسألة الاخلاقية؛ لانها في واقع الامر ضرورة الحياة العملية، كما ان الوصول الى تحقيق أهداف عملية لا بد ان تحكمها مقاييس تقاس بها الاحكام الاخلاقية، خصوصا من زاوية رؤية أثر الفعل الانساني للفرد على غيره من الافراد والناس. لذا ومن هذه الزاوية العملية الصرفة لا بد ان ينقسم البحث في علم الاخلاق من زاوية أخرى الى مجالين متميزين بصورة عامة. هما علم الاخلاق العملي وعلم الاخلاق النظري. و من زوايا أخرى يرى آخرون انه من المفيد أيضا التمييز بين ثلاث مستويات في البحث في ميدان الاخلاق:

أولاً: المستوى الاول: هو الاخلاق الوصفية **Descriptive Ethics**: ويتكون من أوصاف لما يعتبره الناس وثقافتهم، في الواقع، ذا قيمة. كأن يجرى مسح او استبيان لمجموعة بشرية ينقل من خلاله الآراء الاخلاقية حول قضية" كقطع أشجار الغابة" دون أن يقدم ذلك المسح حكما أخلاقيا على اعتقادات أولئك الناس. مثل هذا الاستبيان والمسح انما يعبر عن احدى الممارسات الوصفية. ومثال آخر عن تقرير انثروبولوجي عن إجلال وتقديس قبيلة بدائية او مجموعة بشرية مات للغزوات

<sup>38</sup> - باينس جون، (2002)، مرجع سابق، ، ص 13 و 19. 23، إضافة الى عدة صفحات أخرى.

<sup>39</sup> Bochenski, Wege Zum Philos, Denken, p.69

وقطع رؤوس الاعداء يعد وصفا لقيم تلك القبيلة، لذلك يمكن اعتبار الاخلاق الوصفية كنمط متخصص من العلم الاجتماعي، وهي في الحقيقة ليست جزء من الفلسفة الاخلاقية اطلاقا؛ بل ولأنها وصفية فهي في الحقيقة نمط من العلم الاجتماعي.

ثانيا: المستوى الثاني: الاخلاق المعيارية Normative Ethics : وتبحث في عصب المسألة الاخلاقية، أي تعني بالسؤال (ما الذي يجب أن نفعله؟؟). وتدعى " الاخلاق التوجيهية" أيضا. وتبحث في القضايا الاخلاقية بالمعنى التقليدي للمصطلح، أي مسائل الصواب والخطأ، الواجبات والحقوق، العدالة والظلم، الفضيلة والرذيلة... الخ. في هذا المستوى من الفكر الاخلاقي، تبنى أحكام ويدافع عنها وفقا للقيم الاخلاقية للأفعال والبواعث والسياسات، أو للأشخاص أو الجماعات المسؤولة عنها.

وفي حالات خاصة تقدم توصيات حول النهج الأفضل أخلاقيا في الفعل أو السلوك كاجابات التقرير في المستوى الاول، حول قطع الاشجار ومدى قبول المواطنين او رفضهم لذلك ومنهم من يتشبث بالاهتمام بالميراث الحيوي والبيئي على حساب توفير الخشب للحرق والطاقة او التصنيع. وإذا كانت مصلحة الكائن البشري في المثال السابق اكثر اهمية من حزمة الاشجار فانه وبشكل مقابل قد يقود الى الادانة المعيارية لممارسة الغزو لقطع رؤوس الاعداء التي يصفها التقرير الانثروبولوجي بدقة. والفيلسوف، المعتاد على طرح السؤال التالي لا يكتفي بسماع الرأي المعيارى. انه يلح على تعبير واضح ودقيق عن معاني المفاهيم المستخدمة في ذلك الرأي. وعندما يلتزم الفيلسوف توضيح معنى المصطلحات المعيارية أو فحص بنية وأسس ومسوغات الحجج المعيارية، عندما يمارس المستوى الثالث من الاخلاق، أي:

ثالثا: الاخلاق النقدية Critical Ethics: وتسمى أيضا "ميتافيزيقا الاخلاق" ميتا أخلاق"، وتهتم بمعاني المفاهيم الاخلاقية وبتسوية الدعاوى المعيارية، انه بمعنى ما، فهي شاهد عقلي على الحكم المعيارى. ومهمة الفيلسوف الاخلاقي النقدي ان يدخل في الحساب منطق ولغة ومنهج الفكر الاخلاقي وحججه. لذلك عندما يدين الشخص الاخلاقي عقوبة الاعداء باعتبارها " غير عادلة" أو قطع رؤوس الاعداء باعتبارها "بربرية" فإن فيلسوف الاخلاق النقدية سوف يتساءل عن معنى " العدالة" و " البربرية" في ذلك السياق. كما انه سوف يبحث في طبيعة ومغزى الحجج المقدمة للدفاع عن هذه المزاعم المعيارية "الاخلاقية"<sup>40</sup>.

من هنا لابد من العودة الى التقسيم النمطي المبكر الذي أشرنا اليه في تقسيم البعض علم الاخلاق الى: الاخلاق النظرية والاخلاق العملية:

## 2-7 : البعد النظري في الأخلاق :

يبحث علم الاخلاق النظري في المبادئ الكلية التي تستنبط منها الواجبات الفرعية، كالبحث عن حقيقة الخير المطلق وفكرة الفضيلة من حيث هي، وعن مصدر الايجاب ومنبعه، وعن مقاصد العمل البعيدة واهدافه العليا ونحو ذلك . يطلق على هذا القسم ايضا فلسفة الاخلاق؛ فموضوعه ليس هو انواع الافعال التي لها مثال في الخارج، كما هو الحال في علم الاخلاق العملي، وانما هو موضوعه هو (جنس العمل المطلق وفكرته المجردة التي لا يتحقق مسماهما خارجا الا ضمن الانواع التي يبحث عنها العلم العملي)، تلك الانواع التي تعتبر بمثابة وسائل لتحقيق الغايات التي يبحث عنها العلم النظري، والتي تتمثل في الخير المطلق او الفضيلة الكلية<sup>41</sup>.

وإذا كان لعلم الاخلاق دورا يقوم به فهناك اتفاق حول توظيف هذا الدور، فقد ذهب الراء في ذلك مذاهب شتى واهمها يتكرس في اتجاهين: اتجاه المذهب المثالي الذي يرى ان علم الاخلاق علم معياري. الاتجاه الاول يرى انه يجب على علم الاخلاق ان يضع قواعد اخلاقية للحياة الانسانية<sup>42</sup>.

1- اتجاه المذهب الوضعي الذي يرى ان علم الاخلاق علم وضعي تجريبي.

تعتبر الوضعية **Positivism** من المذاهب التجريبية التي لا تعترف الا بالواقع المحسوس، فهي ترد المعرفة الى التجربة، وترفض المفاهيم الميتافيزيقية العامة. وترجع تسمية هذا المذهب بالوضعية الى "اوجيست كومت" وقد مهد لهذا الاتجاه في الفلسفة "ديفيد هيوم".

الاتجاه الثاني كمذهب يتناقض للاتجاه الاول، فالوضعية ترى انه ليس من واجب هذا العلم وضع قواعد اخلاقية للسلوك الانساني، فذلك، في نظر الوضعية أمر غير ممكن، بل غير جائز، لهذا تنحصر مهمة هذا العلم في نظر الوضعية في تعزيز الوقائع الاخلاقية ووصفها وتوضيحها. ومن هنا يرى أصحاب هذا الاتجاه: ان الوضعية بان الاعتقاد بوجود قواعد اخلاقية ملزمة يرجع- تاريخيا- الى الاعتقاد بوجود اله أو آلهة، وما يتعلق بذلك من ارتباط هي العقيدة بوصايا إلهية، ونظرا الى ان الوضعية ترفض مثل هذه العقيدة، فلا يوجد بالنسبة لها ايضا قواعد أخلاقية ملزمة، وبالتالي لا تعترف باخلاق معيارية<sup>43</sup>.

من خلال التحليل المفهومي لمدلولي الأخلاق النظرية والأخلاق العملية نجد أن التركيب الأساسي لهذين المفهومين ينحل إلى بنية واحدة تقريبا يُنظر إليها بطريقتين. ويُلاحظ أن فلاسفة الأخلاق، بشكل عام، قد وضعوا علم الأخلاق وما يتعلق به تحت نطاق ما أسموه بالعقل العملي. والعقل العملي يدل على تداخل المجال النظري المتمثل بادراكات العقل المحضنة مع المجال العملي

41 - دراز، دراسات، مرجع سابق، ص 101 و102.  
42 - الطويل توفيق ، فلسفة الأخلاق نشأتها و تطورها ، دار النهضة العربية ، ص 2. القاهرة، (1979).

43 Reiner- cit, p.19(Reiner H. , Die philos. Ethik .

الذي يُعنى بالسلوك الخارجي فيتكون من خلال ذلك ما يدعى بمعيارية الأخلاق، أي كون البعد العقلي فيها موجهاً باتجاه وضع معايير وقيم للبعد العملي الذي يستهدف السلوك الإنساني في الخارج. وبهذا يكون التميز بين مفهومي النظري والعملي في علم الأخلاق تميزاً أكاديمياً تُبرره طبيعة التمايز بين ماهو ذهني عقلي، وما هو خارجي واقعي.

ومن هنا نجد أن البحث النظري في الأخلاق يتجه نحو وعي المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها التفكير الأخلاقي بوصفها نابعة من تحليل الذهن البشري لواقع الحياة الأخلاقية إذا أننا نعلم بأن مجال المفاهيم والتصورات النظرية هو المجال الذي ينفرد به عقل الإنسان صاحب القدرة على التفكير.

من هنا ننطلق لتحليل مفهوم الخير باعتباره القيمة الأخلاقية التي تمحورت حولها جميع الدراسات في مجال الأخلاق منذ نشوء هذا النوع من البحث، فكما إن الحق هو موضوع علم المنطق وعلم القانون، وإن الجمال هو موضوع علم الجمال، فإن الخير هو موضوع علم الأخلاق. ورغم أن هذا التصنيف تصنيف تقليدي ويضرب بجذوره إلى أفلاطون الذي اعتبر هذه القيم الثلاثة هي المثل العليا المطلقة التي تستند إليها جميع المثل الأخرى، ولكن بعيداً عن الجانب المثالي نجد أن مفهوم الخير بالخصوص وما يقابله أي مفهوم الشر هما القطبان اللذان يتجاذبان طرفي السلوك الإنساني في الحياة الأخلاقية ولهذا فإن: (الأخلاق ليس لها من وظيفة سوى فهم معنى الخير)<sup>44</sup>.

وعلى أية حال فإن "مفهوم الخير" ، رغم بساطته، لم يسلم من التعقيد النظري في تعريفه؛ إذ أن تعريف الخير تبع في أغلب الأحيان المبدأ الكلي الذي ينطوي عليه فكر الفيلسوف المعرف: فمثلاً نجد أن أفلاطون يرى بأن هدف الأخلاق النظرية هو أن تحدد الخير الأسمى أو الخير المطلق الذي هو احد المثل المفارقة في العالم العلوي، وهذا الخير الأسمى عنده هو مزيج من الحكمة والتأمل النظري من جهة، ومن اللذة من جهة أخرى، طبعاً ليست اللذة الزائفة إنما اللذة الصحيحة الحقيقية<sup>45</sup>.

إعتبر أرسطو اعتبر أن الخير هو حياة التأمل وقد ماثل في كتابه (الأخلاق النيقوماخية) بين الخير الأسمى والسعادة إذ أنها غاية الخير، وهي لا تتحقق إلا باكتساب الفضيلة التي هي الشجاعة والعفة بوجه خاص إضافة إلى الفضائل العقلية. لكننا نجد عند سقراط الذي سبق أفلاطون وأرسطو مفهوماً أكثر واقعية عن الخير فهو يرى بأن: (الخير هو ما يتفق الناس على اعتباره خيراً جيداً وهو ما يكون في الواقع كذلك دائماً مثل العفة والعدالة)<sup>46</sup>.

44- وهبة مراد، مستقبل الأخلاق، دار الثقافة الجديدة، ص 115. القاهرة، (1994).

45- العوا، عادل الفلسفة الأخلاقية، منشورات جامعة دمشق، ص 148. (1999).

46- العوا عادل، المرجع السابق، ص 132.

حتى أن هذا الفهم سيجد له صدى في المذاهب الأخلاقية الحديثة فمثلاً يرى "شليك" في كتابه "مشكلات الأخلاق": أن الخير محكوم برأي المجتمع؛ لأنه هو الذي ينشأ الأوامر الخلقية وبالتالي فهو الذي يحدد مفهوم الخير وما يقابله من مفهوم الشر<sup>47</sup>.

وهذا ما رأته المدرسة الاجتماعية الفرنسية أيضاً وعلى رأسها عالم الاجتماع "إميل دوركايم" التي انتقلت من ماهو أخلاقي إلى ما هو اجتماعي من خلال رد القاعدة الخلقية إلى قاعدة اجتماعية، حيث يرى دوركايم بأن الإلزام الخلفي مثلاً ليس إلزاماً خلقياً ذاتياً إنما هو إلزام اجتماعي، فالقتل أيام السلم أمر غير مشروع ويعاقب عليه، أما القتل في الحرب أمر مشروع، وبالتالي فإن هذا التحديد اجتماعي وليس أخلاقياً<sup>48</sup>.

هذا الموضوع يقود إلى بحث متعلق به هو بحث الخير كقيمة أخلاقية: وعما كان للخير قيمة مطلقة؟ أم انه يخضع لعملية التواضع الذي يتأثر ببعدي الزمان المكان؟ ، وبالتالي فإن البحث سوف يدور حول موضوع الخير المطلق والخير النسبي. وفي ذلك يتواجد، ضمن تاريخ التفكير الفلسفي والأخلاقي، صراع عميقاً، تمثل في أوج تجلياته في الصراع القائم بين المعتزلة والأشاعرة في الإسلام حول مفهومي الحُسن والقُبْح الذاتيين أو الشرعيين؛ فقد رأى المعتزلة أن الحُسن الذي يمثل الخير أحد وجوهه، والقُبْح الذي يمثل الشر احد وجوهه أيضاً. هما ذاتيان؛ أي لا يمكن أن يُفصل الخير عن الحسن؛ بمعنى انه: لا يمكن أن نتصور الخير إلا وهو مرتبط مع الحُسن ربطاً ضرورياً لا يفصل؛ أي أن هناك علاقة ذاتية ما بين الخير والحُسن.

وبالمقابل فإن هناك أيضاً علاقة ذاتية بين الشر والقبح؛ وبالتالي فإن هذا المفهوم يؤدي إلى أن إدراك الحسن والقبح والخير والشر كوظيفة عقلية محضة، لا تتدخل فيها قوى أخرى؛ لأن هذا ذلك ما تقتضيه طبيعة الأشياء. غير أن الأشاعرة رأوا خلافاً لذلك أن الحسن والقبح لا يمتلكان الأهلية الذاتية إنما هما من المفاهيم التي يضيفها المشرع على الأشياء، فلولا حكم الشرع الإسلامي مثلاً على الزنا بأنه محرم لما عرفنا عقلياً أن هذا الفعل ينطوي على القبيح؛ وبالتالي فإن الأشياء إنما تكتسب صفة الحسن أو القبح بفعل المشرع ولا يمكن أن تكون واجدة لهذه الصفة بذاتها، وهذا ما ينطبق تماماً على مفهومي الخير والشر. إذاً من هنا يرتد مفهوم الخير عند المعتزلة إلى الخير المطلق بينما يرتد عند الأشاعرة إلى الخير النسبي.

أما في العصر الحديث فيلاحظ: أن الارتداد نحو النسبية أصبح أمراً ملموساً جداً؛ لاسيما من خلال الاعتماد على مكتسبات العلم الحديث، والمنهج العلمي أصبح أكثر بُعداً عن المفاهيم المطلقة، ولكن النسبية هنا ليست نسبية أشعرية، فهي ليست على شاكلتها ولا تمت إليها بصلة، إذ أن النسبية

47 - وهبة مراد ، مرجع سابق ، ص 199.

48 - وهبة مراد ، مستقبل الاخلاق ، مرجع سابق، ص 71.

الأشعرية تنتهي إلى مفاهيم ميتافيزيقية ما ورائية، غرضها إثبات السيطرة الإلهية الكاملة على الكون والحياة بشتى إبعادها. بينما النسبية الحديثة في الأخلاق فهي نسبية اجتماعية لصيقة بالواقع الذي يعيشه الإنسان. وهذا ما تمثل في محاولة أميل دوركايم التي أرجعت الأخلاق إلى العادات الاجتماعية على اعتبار أن الأحكام الأخلاقية هي أحكام تركيبية، أي لا تستبطن العقاب أو الثواب وليست أحكاماً تأليفية أولية خارجة عن نطاق التركيب الاجتماعي<sup>49</sup>؛ وبالتالي فإن الحكم الأخلاقي لا يحمل في طياته أي قيمة ذاتية إنما يستمد بعده القيمي من خلال إضفاء المجتمع هذا البعد عليه، أي القيمة الأخلاقية ترتد في نهاية المطاف إلى قيمة اجتماعية.

لم يقتصر هذا النمط من التفكير على المدارس الاجتماعية وعلم العادات الاجتماعية فحسب، بل يُلاحظ إن بعض المدارس الفلسفية قد أدخلت مبدأ النسبية بقوة في الأخلاق، ومن هذه المدارس "الوجودية الملحدة" - كما يراها عادل العوا - بأنها ساهمت مع ما سماه بـ (أخلاق الوضع الراهن) في إحداث أزمة في الأخلاق النظرية، حيث يقول: (ويتميز مذهبنا بإيضاح سبب الأزمة الراهنة في الأخلاق النظرية وفي رسم اتجاهها: الوجودية الملحدة، وأخلاق الوضع الراهن، اللذان يمثلان شكليين من أشكال النسبية الأخلاقية التي تحدث اليوم تأثيراً كبيراً)<sup>50</sup>.

تتميز أخلاق الوضع الراهن بالابتعاد عن أي مرجعية أخلاقية، غير ما يفرضه الواقع المعاش من تداعيات، بغض النظر عن تحديد الأسس المرجعية. هذه الأخلاق لم تكن إلا انعكاساً أو إفرازا طبيعياً للمنتج الفكري والفلسفي الذي اتجه نحو النسبية بكل ثقله كردة فعل ضد تزمّت الأخلاق المطلقة من دون أية ضوابط تلفت الأذهان إلى أن النسبية لا تعني الانفلات وعدم وجود أية مرجعية أخلاقية لاسيما في القضايا التي تخص واقع الإنسان، لأن حياة الإنسان الحالية في مستوياتها الأخلاقية والفكرية هي امتداد لموروثه الحضاري الذي يجب أن يهذب بما يتوافق مع حاجات العصر لا أن يقطع من دابره لأن ذلك سيؤدي إلى مزيد من الضياع.

موضوع نسبية الأخلاق ومطلقيتها يتصل اتصالاً مباشراً ببحث الأخلاق النظرية، ورغم أهميته إلا انه لم يحسم بشكل تام، وهذه القضية في الواقع مشكلة عميقة واجهت الأخلاق النظرية إلا أنها ليست المشكلة الوحيدة في ذلك بل إن الأخلاق النظرية واجهت مشكلة أخرى هي إن أكبر فلاسفتها قد وقعوا في تجريدات وخيالات غير قادرة على أن تؤسس لوعي أخلاقي متميز في الحياة الاجتماعية، فرغم التنظير الفلسفي لأخلاق الواجب والإرادة الحرة عند "كانت" مثلاً إلا انه بقي تنظيراً فقط ولم يكن قادراً على تجاوز النطاق النظري إلى واقع عملي وهو ما دعا الدكتور محمد

<sup>49</sup> - <http://www.aawsat.com/print.asp?did=122453&issueno=8669> هاشم صالح ، الشرق الأوسط العدد 8669 الصادر في 2002/8/23 هل تنبأ كانط بالعولمة قبل سقوطها  
<sup>50</sup> - عادل العوا، مرجع سابق ، ص 271.

الجبر إلى القول بان عيب الأخلاق عند "كانت" هو مثل هذا التجريد الفارغ<sup>51</sup>. ويمكن أن نعتبر هذا التحديد صحيحاً إلى حد بعيد، وذلك لأن الأخلاق بشكلها التجريدي سوف تخرج عن مغزاها لأنها ستتحول إلى تنظير محض لا قيمة واقعية له؛ ذلك لأن الأخلاق أساساً ذات غرض عملي معياري، وليست عملية التنظير فيها إلا تحديداً للأسس الصحيحة التي يجب أن تستند إليها لكي لا تتخبط عملياً. ونفس الأمر نجده عند هيغل" ، فهو بحق، حلل المفاهيم الأخلاقية تحليلاً عميقاً وأعطاه أبعادها المتميزة، فلسفياً كانت أم أخلاقية، أم اجتماعية، كتحليله للملكية، والعقد، ومفاهيم الخير والشر، والإرادة الحرة<sup>52</sup>.

في كثير من الأحيان هناك تجريدات أو أفكار مؤسسة على رؤى فلسفية عقلية محضة. وهكذا يكون التجريد وبعد التنظير عن الواقع العملي، هو احد المشاكل المهمة التي تواجه الأخلاق النظرية. من الجدير بالذكر هنا أن تُستذكر وجهة نظر "لوفي بريل"، في إنكاره للأخلاق النظرية؛ حيث انه من أنصار النزعة الاجتماعية في الأخلاق يرى : (أن الأخلاق النظرية عديمة النفع)؛ ولهذا فهو ينكرها ويستند في إنكارها إلى ثلاثة أسباب هي:

- 1- الأخلاق النظرية تنطوي على تناقض ناشئ من أنها خليط من أحكام تقريرية، لأنها نظرية، وأحكام تقويمية لأنها معيارية.
- 2- الأخلاق النظرية عديمة الفائدة، إذ أن فلاسفة الأخلاق ينتهون جميعاً في مرحلة التطبيق إلى اتجاه واحد.
- 3- الأخلاق النظرية تستند إلى مسلمات غير مقبولة مثل أن الطبيعة الإنسانية واحدة في كل زمان و مكان<sup>53</sup>.

يلاحظ العديد من الباحثين في وجهة نظر " لوفي بريل " هذه كثيراً من الإجحاف، لأن الأسباب التي أوردها ليست مبرراً كافياً للتخلي عن البحث النظري الأخلاقي، هذا مع التسليم بصحتها، وإلا فإنها تنطوي على خلل واضح، إذ أن فرض التناقض بين الأخلاق النظرية وكونها معيارية، ليس حقيقياً إذ ما المانع أن يجتمع التنظير مع المعيار بل إن المعيار يستند إلى التنظير أساساً. كذلك فإن انتهاء الحياة العملية إلى إزالة الفارق بين آراء فلاسفة الأخلاق لا يعني أن الأخلاق النظرية عديمة الفائدة على أننا نحتفظ على قضية زوال الفارق بين الآراء الأخلاقية على مستوى العمل فإن الذي يؤمن بأخلاق الواجب كما في مذهب "كانت" لا يمكن أن يتطابق عمله مع من يؤمن بأخلاق المنفعة في مذهب " بنتام " .

51 - الجبر محمد ، الموجز في مفهومي الأخلاق والدولة عند هيغل، دار المعرفة، ص38 دمشق. (1994)

52 - الجبر محمد ، مرجع سابق، ص35-64.

53 - وهبة مراد ، مرجع سابق ، ص 72 - 74.

أما أن الأخلاق النظرية تستند إلى مسلمات غير مقبولة، فهذا تعميم غير مبرر ذلك، أن كثيراً من فلاسفة الأخلاق لهم رؤاهم التي تبتعد عن هذا النمط من التفكير، وبالتالي فإننا لا يمكن أن نعد محاولة "الفي بريل" في إنكاره للأخلاق النظرية محاولة موفقة لأنها في الواقع اشتملت على كثير من الخلل، إنما نقيمها على أساس أنها جاءت في سياق بحوث علم الاجتماع التي نحت منحى إنكار الأخلاق النظرية بشكل عام.

## 2-8: البعد العملي في الأخلاق :

مرّ سابقاً أن التميز بين الأخلاق النظرية والأخلاق العملية ليس تمييزاً معرفياً؛ بقدر ما هو تمييز تقتضيه ضرورة التأسيس النظري للفعل الخلقى لكي يندرج ضمن نسق معين وسياق محدد وإلا فإن الأخلاق النظرية تنتهي بشكل وآخر إلى الأخلاق العملية، مما يعني أن الجانب العملي من الأخلاق يحظى بالأهمية الكبرى في الدراسات الأخلاقية لأن الأخلاق أساساً صنفت كعلم معياري هدفه تقديم ما ينبغي وما لا ينبغي في الحياة العملية وتطبيقه على سلوكيات الإنسان.

يبحث علم الأخلاق العملي في أنواع الملكات الفاضلة التي ينبغي على الإنسان أن يتحلى بها ويمارسها في حياته العملية اليومية، كالصدق، الاخلاص للمثل العليا للحياة والامانة العلمية، الوفاء، الشجاعة، العدل، والرحمة... و نحو ذلك. وهذه كلها تمثل انواعا من الافعال لها مثال في الخارج. وقد عرفت كل الامم والشعوب في القديم والحديث هذا النوع من الاخلاق العملية.

من هنا يلاحظ كثيراً من فلاسفة الأخلاق لم يجعلوا المعرفة بأسس المفاهيم الأخلاقية شرطاً ضرورياً للقيام بالسلوك الأخلاقي لأن الفرد في كثير من حالاته يقوم بفعل الخير من دون أن يعرف بالضبط ماهية هذا الفعل من الوجهة النظرية وما يدخل فيه من تعدد وجهات النظر حول الأسس العقلية التي يستند إليها، فقد جاء في محاوره "مينون" التي جرت بين سقراط ومينون الذي سميت المحاوره باسمه بعد نقاش طويل: (أنه في إمكان الإنسان أن يكون خيراً من غير أن يكون على معرفة بماهية الخير)<sup>54</sup>.

ورغم أن سقراط، وكذلك أفلاطون، يؤكدان على أهمية أن العمل الفضيل لا بد أن يكون مسبوقةً بمعرفة ماهية الفضيلة؛ لأن ما لا يُبنى على أساس عقلي لا يكتب له الدوام. رغم ذلك.. فإن كلاً من أفلاطون وسقراط كان مضطراً للاعتراف بالأفعال الخيرة التي تصدر من الناس البسطاء والعاديين الذين لم يعرفوا حتى شيئاً قليلاً عن ماهية الفعل الخير كما يعرفه فلاسفة الأخلاق؛ بل هناك العكس في بعض الأحيان؛ إذ أن كثيراً من الناس يعرف الفضيلة، وماهية الخير، إلا أنه يفعل الشر، وهذا ما جعل أرسطو يقول بخطأ سقراط وأفلاطون حينما اعتبروا الفضيلة والأخلاق الخيرة هي مجرد علم، أو هي معرفة عقلية ذهنية يمكن للإنسان أن يتدارك كل ما يتعلق بها من خلال تفكيره العقلي

54 - وهبة، مراد مرجع سابق، ص 9.

(وقد اخطأ سقراط وأفلاطون حين حسبا أن الفضيلة علم، ومن المشاهد أن في وسع الإنسان أن يعلم الخير ويفعل الشر فيكون شريراً طالماً بإرادته أي مسؤولاً شريراً)<sup>55</sup>.

كل هذا لا يغير من حقيقة أن يكون البحث النظري الأخلاقي مستقلاً نسبياً عن واقع الحياة العملية وذلك من أجل أن لا تُرد الحياة الأخلاقية إلى ما هو اجتماعي من حيث السلوك العملي فتصير مهمة الأخلاق هي استنساخ الحياة العملية الاجتماعية بما فيها من معطيات وفرضها على الواقع الأخلاقي لأن هذا النمط من التعامل مع المفاهيم الأخلاقية يرجعنا إلى نسبة غير منضبطة تماثل بين ما هو أخلاقي وما هو اجتماعي فتكون الأخلاق منتزعة من الواقع وبالتالي تنتهي مسألة الأسس الأخلاقية وتصبح أخلاق الواقع الراهن على قطيعة تامة مع الأسس والمبادئ الأخلاقية التي أفرزتها مراحل تطور الإنسان وارتقائه على جميع المستويات ومنها المستوى الأخلاقي تحديداً. وعليه فإننا نعتبر ما قامت به المدرسة الاجتماعية الفرنسية من إعادة ما هو أخلاقي إلى ما هو اجتماعي ينتهي إلى أن تكون الأخلاق تجلياً من تجليات الحياة الاجتماعية فحسب، ومنتزعة منها فتفقد بذلك أصالتها ويفقد الفكر الأخلاقي كل منجزاته خلال تاريخه الطويل مما يعني بطريقة ما عودة إلى الوضع البدائي للإنسان الذي لم يكن يتمتع بفهم راقٍ لقضايا الأخلاق حيث كانت جل أعماله وأفعاله الأخلاقية مستندة إلى ما تفرضه عليه الحياة وقسوتها من انعكاسات وردات فعل، وأخلاقه هي هذا الانعكاس فحسب.

وهنا يضمحل الفارق بين الإنسان المعاصر والإنسان البدائي من الناحية الأخلاقية لأن كليهما اتبع نمطاً أخلاقياً معيناً لا يستند إلى أسس ومبادئ فكرية إنما هو إملاءات للواقع المعاش وهو ما تخوف منه الدكتور عادل العوا - كما مرّ - حينما اعتبر: أن الأزمة الأخلاقية في العصر الحالي هي (أخلاق الوضع الراهن)؛ أي المعطى الاجتماعي والحياتي من دون أن يكون لإرادة الإنسان دور في الارتقاء بهذا الوضع إلى مستوى أعلى من الناحية الأخلاقية وإن كان في أعلى المستويات من ناحية تقنية وعلمية. وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن تتعالى الحياة الأخلاقية أو الفكر الأخلاقي على الزمان والمكان بشكل مطلق كما يفهم من نظرات "كانت" الأخلاقية.<sup>56</sup>

أثبت "كانت" في كتابه الأول أن المعرفة العقلية ليست معرفة تجريبية بالكامل؛ بل لها مبادئ قبلية سابقة لكل تجربة. ولكن " نقد العقل المحض " لا يستطيع أن يثبت الحرية وبالتالي الأخلاق. فكان السؤال هو: هل الأخلاق تجريبية أم أن لها هي الأخرى مبادئ قبلية سابقة لكل تجربة؟ في كتاب سابق لهذا الكتاب هو " المبادئ الأساسية لميتافيزيقيا الأخلاق " <sup>57</sup> رفض "كانت" محاولة إقامة الأخلاق على تجربة الفرد أو النوع؛ لأن هذا الأمر يعني سلب الأخلاق " كليتها وإطلاقها"

<sup>55</sup> - العوا، عادل الأخلاق والحضارة، منشورات جامعة دمشق، ص 134، دمشق، (1999).

<sup>56</sup> - كانت إيما نونيل، أسس ميتافيزيقيا الأخلاق، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، 1979، ص 25.

<sup>57</sup> - كانت إيما نونيل، المرجع السابق، ص 25.

شرطي المبدأ الأخلاقي السليم. وأعلن : ( أنه من الواضح أن المفاهيم الأخلاقية كلها مستقرّة ومتأصلة قبليا في العقل كلية ). وهكذا جاء كتابه " نقد العقل العلمي " ليوضح تلك المفاهيم المستقرّة والمتأصلة قبليا. أي أنه سيفعل بالأخلاق والحرية كما فعل بالمعرفة<sup>58</sup>.

ينطلق كانت لإثبات المفاهيم الأخلاقية السابقة للتجربة بالتالي: نقوم أحيانا بتلبية رغباتنا الحسية وأثناء هذه التلبية نشعر بتعارض في داخلنا ، هناك صوت في دواخلنا يرتقي على طلب اللذة ويمدنا بمقولات معارضة. وهو ليس ثمرة التجربة إنما هو جزء من بنائنا النفسي الأصيل وهو محكمة باطنية حاضرة في كل شخص. وهو مطلق الحكم يأمرنا أمر غير مشروط وبغير استثناء أو عذر بأن نعمل الحق من أجل الحق، كغاية في ذاته، لا كوسيلة للسعادة أو الثواب أو لخير غيره. فأمره مطلق. ويحدد "كانت" ثلاث قواعد للأخلاق في صورة أوامر مطلقة هي :

القاعدة الأولى : ( اعمل بحيث تستطيع قاعدة إرادتك أن تظل على الدوام صادقة كمبدأ للتشريع العام). وهذا المبدأ يعني أن لا يفعل الإنسان إلا ما يصلح لأن يكون مبدأ يفعله الكل. مثلا لو أراد شخص أن ينتحر لأنه يتألم بالحياة فلكي يكون قراره سليما هل من الصحيح أن يتخذ كل الناس هذا المبدأ مما يعني انتحار كل الناس لأنهم يتعرضون لألم بالتأكيد. إذا كان الجواب لا فعليه ألا يفعل.

القاعدة الثانية : ( اعمل بحيث تعامل الإنسانية ، في شخصك وفي شخص سواك ، دائما وفي نفس الوقت ، على أنها غاية ، لا مجرد وسيلة إطلاقا ). وهذا يعني ألا نتعامل مع الآخرين كوسائل لتحقيق مصالحنا بل كغاية يجب عدم استغلالها ". يرى ديورانت أن "كانت" أعلن مبدأ أشد ثورية من أي شيء احتواه الإعلان الأمريكي أو الفرنسي لحقوق الإنسان.

ويرى "جيل دولوز" في دراسته عن "كانت" : أن "كانت" يذكر غالبا، بأن القانون الأخلاقي ليس بحاجة لاستدلالات دقيقة؛ بل يستند إلى استعمال العقل الأكثر عادية والأكثر شيوعا. حتى ممارسة الإدراك لا تفترض أي تعليم مسبق، " لا علم ولا فلسفة ". علينا إذن أن نتكلم عن حس أخلاقي مشترك. كما أن الالتزام بالقانون الأخلاقي دليل على الحرية فنحن نشعر دائما بأننا أحرار في أن نعمل أو لا نعمل. فمن أين لنا هذا الشعور لو كنا مجرد حلقات في سلسلة لا تتوقف من العلة والمعلول الميكانيكيين. والحس الأخلاقي يبرر اعتقادنا بخلود النفس من أجل تحقيق الكمال الأخلاقي الذي نلم به في الدنيا. وهذا أيضا يفترض وجود إله عادل يحقق لنا التوازن بين الفضيلة والسعادة في مكان ما. " خلود النفس و وجود إله عادل " هي مسلمات العقل العملي.<sup>59</sup>

58 - صدر "نقد العقل العملي" للفيلسوف "كانت" عام 1788.

59- كانت ايمانويل ، المرجع السابق، ص 25.

عبد الله المطيري سلسلة باربعة حلقات عن كتابات الفيلسوف كانت حول [نقد العقل المحض و نقد العقل العملي و نقد ملكة الحكم]. نشرت في صحيفة الرياض بمناسبة صدور كتاب كانت "نقد ملكة الحكم" بالعربية عام 2006:

مثل هذا التعالي سوف يبتعد بالفكر الأخلاقي كثيراً عن ملامسة المشاكل الواقعية التي تطرأ على حياة الإنسان مع تغير الزمان والمكان إذ إننا ذهبنا إلى أن الأخلاق ليست مطلقة بل هي نسبية ولكن منضبطة تستند إلى أسس و مبادئ عقلية، ومعنى أن تكون نسبية، أي أنها ليست متعالية على الزمان والمكان إنما هي تتفاعل تفاعلاً إيجابياً مع الظروف والواقع الإنساني، وتستفيد من العناصر المتحركة فيه من أجل تكيف الحياة الأخلاقية ضمن سياق معين. وبذلك، فإننا نرفض مبدأ التعالي لأنه ببساطة يرتفع بالأخلاق التي يجب أن تكون حياتية واقعية إلى مستوى الأوهام والأحلام الدافئة لتأسيس حياة ليس فيها سوى الأخلاق المثالية المتعالية.. بل إننا نرى أن هذا النمط من التفكير قد أسهم سلبياً في بروز ردة فعل قوية ضد الأخلاق النظرية ووصفها بالمثالية والتعالي وأدى في نفس الوقت إلى ظهور فلسفات ارتدت بالأخلاق إلى أدنى مستوياتها وتجاوزت كل التراث الأخلاقي الذي جاء نتيجة التطور الكبير الذي شهده الإنسان في تاريخه الطويل.

إن تمييز "كانت" بين العقل العملي الصحيح الذي يستند إلى معطيات التجربة، والعقل العملي المحض الذي لا يستند إلى التجربة إنما يقدم الإطار الأخلاقي بصورة قبلية سابقة على التجربة حيث رأى أن الثاني يمثل أخلاق الواجب وهو الوجدان الأخلاقي الصحيح<sup>60</sup>.

هذا التمييز ذو مردود سلبي على واقع التفكير الأخلاقي لأنه يبتعد بالأخلاق عن مدلولاتها الواقعية ويعتبرها مجرد نظر قبلي متعالٍ على التطور الخلفي للإنسان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى له مردود سلبي على السلوك الأخلاقي أيضاً لأن الإنسان سيجد - عملياً - فاصلاً كبيراً بين هذه الرؤية وما يمكن أن يؤديه من سلوك عملي وبالتالي فإنه سوف يشعر بالتخلل من أي إلزام أخلاقي من هذا النوع مما يعني تأسيساً للقطيعة بين الإنسان والأخلاق.

ولعلنا نجد أن التمييز بين القواعد الأخلاقية باعتبارها تتعلق بضبط السلوك الجزئي المعين للفرد، وبين المبادئ الأخلاقية التي تعبر عن الخط العام الذي يستند إليه سلوك الفرد وفق القواعد الأخلاقية<sup>61</sup>، هو ما يقينا من الخط الكبير الذي يحدث على مستوى الفهم بين ما هو مبدأ أساسي من مبادئ الأخلاق التي أفرزها العقل البشري بالاستناد إلى تطوره التاريخي.. وبين ما هو سلوك عملي جزئي يندرج تحت المبادئ الأخلاقية الأساسية وله في نفس الوقت عدة تجليات تخضع لمتطلبات الواقع. مما يعني أن المبادئ الأخلاقية قادرة في جميع الأحوال أن تأخذ موقعها المتميز

يراجع أيضاً:

كانت إيمانويل ، " نقد ملكة الحكم " ، ترجمة : غانم هنا ، المنظمة العربية للترجمة، توزيع : مركز دراسات الوحدة العربية، عدد الصفحات : 478 صفحة (2005) .

<http://www.alriyadh.com/2006/04/20/article147720.htm>

و <http://tomaar.net/vb/archive/index.php/t-16277.htm>

<sup>60</sup> - العوا عادل ، الأخلاق والحضارة، مرجع سابق ، ص 139.

<sup>61</sup> - الجبر محمد ، البنى الأساسية في علم الأخلاق، دار المعرفة، ص 45 دمشق، (1994).

في الحياة الأخلاقية ضمن واقع الصيرورة والتغير الذي تشهده كل مستويات الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية والاقتصادية والثقافية.

وفي الإطار العملي أيضا نجد أن مذهب المنفعة الذي أسسه "جيرمي بنتام" ، وتابعه "جون ستوارت مل" ، وانتهى إلى فلسفة براغماتية عملية على يد "وليم جيمس" و"جون ديوي" ... قد انطلق من واقع الحياة العملية ليؤسس المفاهيم الأخلاقية تأسيسا قائما على مفهوم المنفعة ويستند إلى مبدأ حساب اللذات وصياغة المبدأ الأخلاقي على وفقها؛ إذ اعتبر بنتام أن هدف الإنسان الأخلاقي يكمن في الحصول على السعادة، والسعادة هي الخير، والخير إنما هو اللذة التي تصاحب العمل الأخلاقي<sup>62</sup>. ولكي نصل إلى المبدأ الأخلاقي الذي يوصل إلى السعادة فإننا ينبغي أن نحسب اللذات حساباً رياضياً يستند إلى المستوى الكمي الذي تحتويه أية منفعة، وبالتالي فإننا نستنتج الأخلاق على أساس المنفعة المؤدية إلى السعادة، إلا أن هذا الحساب للذات لم يرق تماماً لسلف "بنتام" وهو "مل" ؛ لأنه رأى أن الحساب الكمي ينطوي على نقص وخلل، ولهذا فإنه سعى إلى أن يدخل الحساب الكيفي أو النوعي للذات فهو يقول : (... إن اللذات كيفية خاصة وقيمة باطنية لا تقارن بغيرها وان السعادة التي تنشأ عنها اكبر وأتم من السعادة الناشئة عن اللذات الشهوانية الوضعية)<sup>63</sup>

ما يهمنا هنا أننا نجد في محاولة النفعيين "البراغماتيين"، رغم أنهم أرادوا أن يقيموا أساساً دقيقاً للأخلاق يقوم على عمليات حسابية.. إلا أنها في الواقع تترد إلى نفعية مادية خالصة تعجز عن تفسير الفعل الأخلاقي المعنوي في كثير من الحالات، فمثلاً إذا استطاع "بنتام" أن يحسب مستوى اللذة في تذوق التفاحة، وما ينتج عن ذلك من سلوك أخلاقي، من خلال ما اقترحه من إقامة علم نبات أخلاقي تقاس بواسطته اللذات اللامتنانسة بالمال... فكيف يستطيع أن يحسب مستوى اللذة في فعل الخير ذي المنحى المعنوي أو تقديم المساعدة للآخرين أو تجنب الكذب. وهكذا من الأفعال الأخلاقية التي لا يمكن أن تخضع للمقاييس الكمية وحتى "مل" فإنه، وان دعا إلى الحساب الكيفي، كان يعلم بأن هذا الحساب لا يمكن أن يكون واقعياً، مما يعني أن الحساب سيتجه إلى عد كمي مادي نفعي يتحدد وفقاً لرغبات الفرد ذاته، وهو ما تبنته المدرسة البراغماتية النفعية سواء في الفلسفة أو في الأخلاق؛ وبالتالي فإننا اتجهنا نحو مستوى أخلاقي يماثل أخلاق الوضع الراهن.

يبقى أن نشير إلى أن السلوك الأخلاقي قد اعتبر في التصور الصوفي لاسيما عند "سورين كيركيجارد" و"كارل ياسبرز" مرحلة مقدمة من أجل الوصول إلى المرحلة الأعلى والأسمى وهي المرحلة الدينية.<sup>64</sup>

<sup>62</sup>- العوا عادل ، الأخلاق والحضارة، م. س، ص 143.

<sup>63</sup>- العوا عادل الأخلاق والحضارة، م. س، ص 144.

<sup>64</sup> العوا عادل: مستقبل الأخلاق، م. س، ص 91.

معنى ذلك أن الأخلاق، سوف تصبح تعبيراً وسليلاً من اجل الوصول إلى المرحلة الدينية، وبذلك فإن الحياة الخلقية سوف تنتهي إلى حياة دينية؛ بل إن الحياة الدينية سوف تنفي الحياة الخلقية، لأنها تعتبر في مرحلة أدنى لا بد من تجاوزها. وطبعاً فإن مثل هذا الفهم لا يستند إلى كثير من التمحيص؛ إذ يعتقد البعض بأن الأخلاق هي غاية الحياة الإنسانية، ولهذا فهي واقعية أصيلة لا تستحيل إلى غيرها؛ بل أن الدين، بحد ذاته، هو تأسيس أخلاقي قيمي، ولهذا فلا معنى لأن يكون الدين عاملاً لنفي الأخلاق في مرحلة معينة من حياة الإنسان.

إذاً فالأخلاق العملية تمثل البعد الواقعي والإنساني لسلوك الفرد وهي مع ذلك تتصل بالأسس النظرية لسلوك الأخلاقي، فالأخلاق تتأسس على قاعدة الفهم النظري المتميز لمعطيات الواقع وتستند إلى مرجعياتها في التقييم والانتقاء والحذف، وبهذا فإن الأخلاق العملية سوف تأخذ موقعها الصحيح وسوف تكون دعامة المجتمع من اجل التقدم والرقي.

## 2-9 : الاختيار الأخلاقي:

يندرج الاختيار الأخلاقي ضمن وعي الإنسان لحاجاته الأخلاقية التي يحاول من خلالها أن يسمو بنفسه ويتجاوز كل المعوقات التي تحول دون ارتقائه وتطوره. وتبرز أهمية أن يختار الإنسان المبادئ والأسس الأخلاقية من خلال الاعتراف بمسؤولية الإنسان وكونه كائناً عاقلاً حراً يجب أن يضطلع في حياته اليومية العملية بمسؤوليات ومهام تناسب ما يتمتع به من قدرات وإمكانات، مما يعني أن الاختيار الأخلاقي بالنسبة للإنسان سيكون ضرورة حياتية لا يمكن التنصل منها وهو في مجتمع يوصف أفرادهم بأنهم كائنات أخلاقية "الكائن البشري".

والاختيار الأخلاقي يعني أن يكون الإنسان سيد نفسه في أن يختار المبنى الأخلاقي الذي يناسبه لكي يؤهله للانخراط في المجتمع والناس من حوله. والاختيار الأخلاقي في الحقيقة يعبر عن الفعل الإرادي للإنسان، أي أن الإنسان حينما يقرر مصيره الأخلاقي فإنه بذلك يمارس حريته واردة في هذا التقرير؛ وبالتالي فإنه سوف يكون مسؤولاً عن اختياره.

والاختيار أيضاً يعبر عن شخصية الكائن العاقل بغض النظر عما إذا كان هذا الاختيار صائباً أو خاطئاً؛ إذ أننا مادماً قد أكدنا بأن الإنسان في هذا الاختيار سوف يتحمل ما يجره من مسؤولية أو تبعات معينة فإننا بذلك قد امسكنا بخيط ضمان على سلوكيات الإنسان الأخلاقية إلى حد ما، بخلاف ما لو كانت هذه السلوكيات تنسم بعدم المسؤولية أو عدم وعي ما يترتب عليها؛ إذ عند ذلك يصبح الأمر أكثر تعقيداً... على أن الاختيار الأخلاقي يتلازم مع الالتزام الأخلاقي، أي أن افتراض كون الإنسان عاقلاً وانه اختار مبدأً سلوكياً معيناً فعليه أن يحترم اختياره من خلال الالتزام عملياً بهذا المبدأ. وتتطلق هذه المسألة من مسألة أساسية هي الصدق مع الذات و احترام المثل والمبادئ

الأخلاقية التي يختارها الإنسان لنفسه وبالتالي فإنه سوف يتفق مع ذاته وسوف تكون شخصيته متوازنة ومنضبطة.

ضمانة الاختيار الأخلاقي الحقيقية هي ما يعرف في علم الأخلاق بـ "الضمير" أو "الشعور الأخلاقي"، مما يعني أن الضمير سوف يكون وازعاً داخلياً نفسياً للإنسان يدفعه نحو احترام اختياراته الأخلاقية وإلزام نفسه بها تمثيلاً مع الشعور بالمسؤولية والالتزام، يقول محمد الجبر بهذا الصدد: (في الحقيقة إن الضمير هنا يبرز من الناحية النفسية أمام الشخصية كصوت داخلي بصورة عميقة للأخلاقية الخاصة والسيادة في الاختيار الأخلاقي واسترشاداً به يحاكم الإنسان أفعاله باسمه الخاص لا باسم غيره).<sup>65</sup> وبناءً على ذلك فإن الشعور الأخلاقي أو الضمير يأخذ على عاتقه مهمة تناغم وانسجام الإنسان مع اختياراته الأخلاقية ليعود سيداً لنفسه وقادراً على توجيهها الوجهة التي يريد ممارستها بذلك عمق إرادته ككائن أخلاقي يفعل ما يريد ويختاره طوعاً.

التصور العميق لإرادة الإنسان وحرية في ممارسة الفعل الأخلاقي أدى بفيلسوف "أخلاق الواجب"، "ايمانويل كانت" إلى أن لا يعتبر أخلاق الواجب الصارمة وما تنطوي عليه من إلزام مطلق غير مشروط أمراً خارجاً عن نطاق حرية الإنسان؛ بل إنها في رأيه، أعمال لحرية الإنسان، لأنه سوف يقوم بهذا الفعل بمحض إرادته، لأنه اختاره بنفسه وصمم على أن يؤديه ويلتزم به، وبما يترتب عليه من مسؤوليات وتبعات: (إن الإلزام ينطوي على المسؤولية الأخلاقية؛ ومعنى هذا أن الأفعال التي تصدر عنا إعمالاً للواجب متوقفة علينا "أي على اختيارنا الأخلاقي"؛ ومعنى هذا التالي: أننا، من حيث كوننا كائنات أخلاقية، أحرارٌ، ويترتب على ذلك أن الحرية وثيقة الصلة بالأخلاق)<sup>66</sup>.

وبناء على ذلك فإن الإلزام الخلقي الذي يفرضه الاختيار الأخلاقي يدخل في صميم ممارسة الإنسان لحرية، من حيث كونه عاقلاً مسؤولاً، وهذا يعني أن الاختيار الأخلاقي ينطوي على الحرية بمفهومها الأخلاقي من جهة، ومن جهة أخرى على الإلزام بوصفه الداعم لحرية الإنسان وتوازن شخصيته.

وفي مبحث الاختيار الأخلاقي يصطدم الباحث بمشكلة يثيرها السؤال التالي: هل فعلاً هناك خيارات أخلاقية أمام الإنسان؟؛ بمعنى هل إن أمام الإنسان الذي يعيش في وسط بيئي معين أكثر من خيار أخلاقي ليمارس حرية في أن يقرر مصيره الأخلاقي أمام احد هذه الخيارات؟ . أم أن الخيارات في هذا المجال معدومة ويبقى الاختيار الأخلاقي مبحثاً يدور في أفق الأخلاق النظرية انطلاقاً من أن الإنسان إنما هو ابن بيئته الأخلاقية؟، وهو ليس له إلا اختيار أخلاقي واحد هو

<sup>65</sup> الجبر محمد ، البنية الأساسية في علم الأخلاق، م. س.، ص. 57.  
<sup>66</sup> كانت ايمانويل ، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، م. س، ص 24.

الخيار الذي تربي ونشأ عليه ضمن إطاره الاجتماعي، وبالتالي فسوف ينتهي أي اثر لحرية وإرادته في ممارسة الاختيار.

التأمل العميق يبين أن الأخلاق البيئية، بما تمثل من موروث أخلاقي مقدس تفرض سيطرتها على الإنسان وحرية في الاختيار وتحدد سقف اختياراته إلى ابعد الحدود؛ بمعنى انه سوف يكون شاء أم أبى وريثاً لأخلاقيات البيئة الاجتماعية والأسرية التي نشأ فيها ، لاسيما في الفترة الأولى لنضوجه.

ولكن كل هذا لا يعني أن يكون الإنسان أسيراً لجبرية، لا فكاك منها، لأن ذلك ليس دقيقاً على أية حال. ولكن يمكن أن يُقال بأن الإنسان، حتى مع كونه يسير ضمن السياق الأخلاقي الذي فرضه المجتمع، إلا انه في ذلك يمارس حريته واختياره الأخلاقي، لأن تماشي الإنسان مع السائد من النمط الأخلاقي لا يعني بالضرورة عدم قدرته على تغييره، بقدر ما يعني انه اقتنع إلى حد ما بهذا الإطار الأخلاقي فأخذه على انه يمثل اختياره ويمثل تقريره لمصيره الأخلاقي..

## 2-10: الاخلاق النسبية والوضعية:

يمكن ان يؤدي الفشل في التمييز بين المستويات الثلاثة للبحث الاخلاقي التي أشرنا إليها (في الاخلاق الوصفية والمعيارية والنقدية) الى أخطاء وارتباك تؤدي الى الفشل في التمييز بين الاخلاق الوصفية والمعيارية، يمكن أت تجر الى نسبية ثقافية أو حتى الى نسبية ذاتية. كما يمكن ان يقود الفشل في تمييز الاخلاق النقدية عن المعيارية الى استنتاجات أخلاقية متهورة. والامثلة عن الفشل في التمييز نجدها في الجدل الدائر في الاخلاقيات البيئية التي سندرسها لاحقا في الباب الثالث فعندما يؤكد "الاخلاق النقدية" "ميتا اخلاقيا" أن للأجيال المستقبلية حقوقا، فلا يستتبع ذلك أنهم "معياريًا" يمتلكون الحق في استخدام المساحات الخاصة بالمدن الرياضية والملاعب الخاصة برياضات عصرنا تبقى طبيعية، لتبقى تحت تصرف أجيال لا نعرف الآن اهتماماتهم الرياضية. وكذلك الحال مع موضوع دفن النفايات النووية في أعماق المحيطات عندما يحتاج أحد ما هذا الموضوع "معياريًا" : هل هو عمل "غير عادل" أصلا، فلا ينبغي أن نقبل أو نرفض مثل هذه الدعوى الى أن تقرر "الاخلاق النقدية" "ميتا أخلاقيا" ما نعنيه بعبارة "غير عادل" أصلا، والى ان نفحص بنية حجته ومقدماتها ووجهة النظر التي حاجج بالاستناد إليها.

يرى الفلاسفة الوضعيون، وخاصة الفلاسفة التجريبيون الانجليز، ان القيم نسبية ومتغيرة، وهذه النسبية تختلف من عصر الى عصر، ومن مجتمع الى مجتمع من خلال نسبية القيم نفسها وتغيرها. والقيم عند اصحاب هذا المذهب ليست شيئا آخر غير ما يترسب من التقييمات.

الجدير بالذكر هنا ان السوفسطائيين قديما كانوا هم الرواد الاوائل لذين وضعوا الاساس للنسبية الاخلاقية التي تنكر وجود اية معايير اخلاقية مطلقة.

الجدير بالتنويه هنا: ان المنهج التجريبي قد طبق في علم الاخلاق ويستند الى وجهة نظر ترى: (...ان هناك طريقا واحدا فقط للمعرفة وهو التجربة أو الخبرة) . ويقصد هنا بالتجربة، التجربة الحسية فقط. ويستخدم هذا المنهج طريقة الاستقراء، أي انه يصعد من الجزئيات الى الكليات ، أو من الخاص الى العام بتحليل الظواهر والاعمال الاخلاقية ومعرفة بواعثها للوصول الى قانون عام<sup>67</sup>. ولكن المعارف التي يؤدي بها هذا المنهج التجريبي، ليست بالمعارف التي تتصف بالضرورة والشمول المطلق؛ وانما هي معارف تتصف بالاحتمال الغالب فقط. وكمنهج مطبق في علم الاخلاق تستند هذه الطريقة التجريبية الى الاقتناع بأن الخبرة وحدها هي التي تستطيع ان تطلعنا على وقائع واسس الاخلاق. وينحو الوضعيون في بحوثهم الاخلاقية دائما نحو المنهج التجريبي. من هؤلاء الفلاسفة "جون لوك" (1632-1704): وهو اول من حاول محاولة واعية لوضع علم الاخلاق على اساس تجريبي في نطاق كتابه: [مقالة في العقل البشري] الذي ظهر ما بين (1680-1690)<sup>68</sup>.

## 2-11: الاخلاق المعيارية "المثالية" :

رغم ان "المثالية" تعترف ان التقييم الاخلاقي متغير ويمكن ان يكون مختلفا من مكان الى آخر. فما هو خير هنا يمكن ان يعتبر شرا هناك. ولكن المثالية تؤكد ان التقييم شئ مختلفا اختلافا تاما عن القيم نفسها. فالتقييم متغير ونسبي، اما القيم نفسها فهي ثابتة وغير متغيرة، وهذا امر واضح بذاته ولا تحتاج الى برهان ولا يطعن في هذا الموقف وجود اناس ينكرون مثل هذه القيم الثابتة غير المتغيرة، فكما يوجد هناك اناس مصابون بعمى الالوان يوجد هناك اناس مصابون بعمى القيم.

نظرية القيم الثابتة، غير المتغيرة، ترجع في جوهرها الى افلاطون. وقد تطورت هذه النظرية في القرن الماضي على يد الفيلسوف "ماكس شيلر" (1874-1928). مما تقدم يتضح ان رأي الوضعيين يقوم على الخلط بين التقييم والقيم. أي الخلط بين النظرة العقلية للقيم والانفعالات بها وبين القيم ذاتها.

والتقييم والقيم هما شيان مختلفان تماما، كما انه ليس لدى الوضعية اية ادلة حقيقية ضد القول بإمكان بناء أخلاق معيارية<sup>69</sup>. مما يؤخذ على النزعة النسبية في مجال الاخلاق انه يترتب عليها ما يأتي:

1- استحالة وجود معيار للحكم على قانون اخلاقي معين بأنه افضل أو أسوأ من قانون اخلاقي آخر، فلن تكون هناك عندئذ اسس سليمة لتقويم السلوك فيما عدا اتفاهه مع العرف المحلي او القومي، والعرف في حد ذاته لا يصلح ان يكون معيارا اخلاقيا حقيقيا.

67 - موسى محمد يوسف ، تاريخ الاخلاق، ص 268، القاهرة. (1953)

68 Reiner ; op.cit.p.22

69 Reiner : op.cit,19 وايضا Bochenski ; op.cit.p.78

2- يستحيل وجود تقدم اخلاقي في ظل معيار نسبي. فكيف يقال ان الغاء الرف او إبطال وأد البنات كان خيرا، او ان انتهاء الحروب سيكون خيرا.

3- لن يكون هناك مبرر لقيام شخص بمحاولة ان يحيا حياة اخلاقية "افضل"، فالسؤال عن هذه الافضلية "افضل" من ماذا؟ لن يكون له معنى. ولن يكون هناك ايضا أي معنى لمفاهيم الافضل والاسوأ والاعلى والادنى والصواب والخطأ إذا لم يكن هناك معيار ثابت وشامل تقاس عليه كل هذه المفاهيم<sup>70</sup>.

## 2-12: قابلية الاخلاق للتغيير:

هناك مجموعة من الفلاسفة يذهبون الى هذا الرأي كسقراط والغزالي وابن مسكويه: سقراط: عرف كمؤسس لعلم الاخلاق، وهو على رأس القائلين بقبول اخلاق الانسان للتغيير، والسبيل الى تغييرها هو العلم، والعلم حسب سقراط هو الفضيلة ونقيضها الجهل هو الرذيلة. الغزالي: (ت 505 هـ)، يرى ان تغيير الخلق ممكن واستند الى قول الرسول (ص): ( حسنوا اخلاقكم ) ، كدليل على إمكان تغير الخلق<sup>71</sup>.

ابن مسكويه: (ت 421 هـ)، يذهب الى القول: ( ثم اختلفت الناس اختلافا ثانيا، فقال بعضهم: من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه ، وقال آخرون: ليس شئ من الاخلاق طبيعيا للانسان للانسان، ولا نقول: انه غير طبيعي؛ ذلك انا مطبوعون على قبول الخلق، بل ننتقل بالتأديب والمواعظ اما سريعا او بطيئا. وهذا الرأي الاخير هو الذي نختاره لاننا نشاهده عيانا، ولأن الرأي الاول يؤدي الى ابطال قوة التمييز والعقل، والى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين والى ترك الاحداث والصبيان على ما يتفق ان يكون عليه بغير سياسة ولا تعليم، وهذا ظاهر الشفاعة اخيرا)<sup>72</sup>.

## 2-13: الموقف من قبول اخلاق الانسان للتغيير:

ويذهب البعض من الفلاسفة الى ان العلم ليس له من أثر في اصلاح النفوس ، منهم: 1- "هربرت سبنسر" (1820-1903): ينكر اية صلة بين الاخلاق والعلم، فالعلم حسب رأيه ليست له سلطة تهذيبية. يقول "سبنسر": (...كيف يرجى من العلم تهذيب الاخلاق واصلاح النفوس، بينما نرى من المتعلمين الذين استنارت عقولهم واتسعت مداركهم افرادا لا أخلاق لهم، ووعاظا

70 - زقزوق، مرجع سابق، ص 26 وكذلك يراجع: هنتر ميد، الفلسفة انواعها ومشكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا، ص 272 وما بعدها، القاهرة 1975.

71 - راجع ميزان العمل، ص 247.

72 - ابن مسكويه، تهذيب الاخلاق، مكتبة صبيح، القاهرة، ، ص 32/31. (1959).

قولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.... وبجانب هؤلاء نجد من الجهال والاميين من هم على جانب عظيم من الاستقامة والشرف)<sup>73</sup>.

يذهب "ماكس شيلر" الى تفسير مثل هذا التناقض الذي يشير اليه "سبنسر" بالقول: (ان ادراك القيم الخلقية لا يعتمد على العلم والموهبة فحسب، وانما يعتمد وبصفة خاصة على الارادة، ومن هنا يستطيع الانسان المستقيم ان يرى القيم الخلقية رؤية اكثر وضوحا من انسان آخر أقل منه استقامة، وان كان اكثر منه موهبة وعلما)<sup>74</sup>.

## 2-14: الاخلاق الحيوية جزء من علم الاخلاق في العصر الحديث:

كان طابع الاخلاق في العصور الوسطى دينيا صرفا وظل الحال على ذلك في أوربا حتى جاء عصر النهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر فانفصلت الفلسفة عن سلطان الكنيسة ورجالها وانفصل علم الاخلاق عن الدين واتجه الفلاسفة مرة ثانية الى العقل. وفي القرن السابع عشر تواصلت جهود الفلاسفة نحو استرداد سلطان العقل وتحرير الفلسفة والاخلاق من سلطان الدين فاتجهت دراسات الاخلاق مناحي عدة منها اعتمدت تقييم الاخلاق باعتماد علم النفس او علم الحياة او علم الاجتماع وغيرها من العلوم. فظهرت منها:

### اخلاق ما بعد الطبيعة :

يرى اصحاب هذا الاتجاه "العقل مبدأ الخلقية" وهو دليل الانسان نحو الفضائل ومن ممثلي هذا الاتجاه "ديكارت" و "مالبرانش" و "سبينوزا". ان اخلاق ما بعد الطبيعة تقوم على التفكير الفلسفي الذي يكشف للانسان طبيعته ونفسه وعلاقاته المختلفة بالعالم الذي هو جزء منه، والغاية التي يجب ان يتجه لتحقيقها.

### اخلاق الواجب :

مؤسس هذا الاتجاه الفيلسوف الالمانى "عما نوثيل كانت" انطلقا من فكرة الواجب وحده، وعلى الارادة التي تخضع له دون غيره جعل كانت الخضوع للامر المطلق مقياس الاخلاق ورفع مقام الاخلاق فوق اللذة والالم والخضوع للغايات، ورأى أن الانسانية وحدها هي الغاية العليا ولا غاية ورائها، ورفع من شأن الضمير الانساني فجعله مشرع الاخلاق وموحي السلوك.

اخلاق النفسية : يريد ممثلوا هذا الاتجاه ان يؤسسوا الاخلاق على اساس علم النفس مادامت النفس هي التي يطلب منها الاخلاق. والاساس الذي ينطلق منه اصحاب هذا الاتجاه هو الغريزة او

<sup>73</sup> - انظر: منصور رجب، تأملات في فلسفة الاخلاق، ص 36 وما بعده.

<sup>74</sup> - بوخنسكي، مدخل الى الفكر الفلسفي، ترجمة محمود حمدي زقزوق، ، مكتبة الانجلو المصرية، (1980).

الميل او العاطفة. منهم من ذهب الى ماسمي "مذهب المنفعة" مثل "هلفيسوس" و "بنتام"... وغيرهم<sup>75</sup>.

وذهب آخرون الى ما سمي "مذهب العاطفة" او "الحاسة الاخلاقية" ومنهم "شافتسبري" و "هاتشسون" و "آدم سميث".

**2- 15 : الأخلاق بين الثبات والتغير:** ومن بين كل العلوم "النظرية" ينفرد علم الأخلاق بقابليته للتغير واستبدال مفاهيمه حسب ظروف المكان والزمان، ويشبه الأمر إلى حد ما تطور اللغة في بعض الأوجه، حيث تدخل بعض المفردات الغريبة إلى اللغة ومن ثم تصبح جزءاً منها، وكذلك في القواعد الأخلاقية بصورة عامة فإنها تقع تحت تأثير عوامل التغير، فتكسر بعض القواعد الأخلاقية، لتحل محلها قواعد مهجنة او معدلة لتصبح فيما بعد قواعد أخلاقية أصيلة في بيئتها ومجتمعها. والسفسطائيون، قديما هم الرواد الاوائل الذين وضعوا الاساس للنسبية الاخلاقية التي تنكر وجود اية معايير اخلاقية مطلقة، في مقابل ذلك الرأي تمثل الاخلاق المعيارية موقف الفلسفة المثالية، رغم اعتراف المثالية بأن التقييم متغير ويمكن ان يكون مختلفا، وما يعتبر خيرا يمكن ان يعتبر شرا في مكان آخر.

نظرية القيم الثابتة غير المتغيرة ترجع في جوهرها الى افلاطون، وقد تغيرت هذه النظرية في القرن الحالي على يد الفيلسوف الالماني "ماكس شير" (1874-1928).<sup>76</sup>

## 2-16: التوجهات الاخلاقية في العلم "الاخلاق والمعرفة":

### أولا: الفلسفة اليونانية:

في محاوره "مينو"، يناقش سقراط مسألة الفضيلة وهل هي علم؟ ويتوصل الى الاجابة بنعم. والمنهج الذي استعمله سقراط هو مواصلة توجيه الاسئلة لتلميذه لكي يعينه على اداء أفعال الاستبصار ومن ثم التعلم. ان طريقة عرض سقراط للمشكلة في محاوره "مينو" تستهدف أيضا حل المشكلات الاخلاقية بنفس الطريقة، ويشير لهذا الغرض الى عملية اكتساب المعرفة الهندسية. فهو يريد ان يضرب مثلا لرأيه القائل ان المرء ينبغي عليه، لكي يعرف ما الفضيلة، وما الخير، ان يقوم بفعل استبصار من نفس النوع اللازم لفهم البراهين الهندسية. ويرى انه هكذا تعرض الاحكام الاخلاقية، كما لو كانت تكتشف بنوع خاص من الرؤية، مشابه للتبصر بالعلاقات الهندسية.

وباستخدام هذه الحجة يقدم لنا الاستبصار الاخلاقي على انه مواز للاستبصار الهندسي. فان كان ثمة معرفة هندسية، فلا بد ان تكون هناك ايضا معرفة اخلاقية، تلك هي النتيجة التي تبدو

<sup>75</sup> - زقزوق، مرجع سابق، الفصل الرابع، 78.

<sup>76</sup> - زقزوق محمود حمدي، مقدمة في علم الاخلاق، مرجع سابق، ص 24 و 25.

محتومة، عندما يتحرر المذهب السقراطي الافلاطوني من ذلك المصطلح السفسطائي الذي يصاغ به. وبهذا المعنى يمكن التعبير عن هذا المذهب في القضية القائلة ان الفضيلة هي العلم<sup>77</sup>.  
وعن طريق هذه القضية، اثبت افلاطون التوازي بين مجالي الاخلاق والمعرفة، أي اثبت النظرية القائلة : ان الاستبصار ضرب من المعرفة او العلم. فاذا ما ارتكب شخص فعلا لا اخلاقيا، فهو جاهل بنفس المعنى الذي يكون به الشخص الذي يرتكب أخطاء في الهندسة جاهلا، أي انه عاجز عن القيام بفعل الرؤية الذي يكشف له عن الخير، وهي رؤية من نفس النوع الذي يكشف له عن الحقيقة الهندسية<sup>78</sup>.

#### ثانيا: موقف الاديان والعقائد الدينية:

عرضت المبادئ الاخلاقية في ثنايا الكتب المقدسة وقبلها في كتب الاساطير للاولين .  
وظهرت الكثير من النصوص الاخلاقية في كتابات السومريين والبابليين والفراعنة. ومن الادلة المادية المبكرة على ظهور القوانين ماتركته الالواح الطينية في وادي الرافدين منذ عصر المدينة العراقية القديمة "لكش" يرجع بتاريخه الى 2355 ق.م.<sup>79</sup> كما ظهرت شرائع عديدة مبكرة منها شريعة "اورنمو"<sup>80</sup>. وكثيرة هي النصوص التي وردت في تلك التشريعات المتعلقة بعقوبة المعتدي بغض النظر عن دوافعه ضد الضحية<sup>81</sup>. ان نصوصا اخترناها هنا تشير الى الكثير من المعالجات المختلفة حول الاخلاقيات السائدة آنذاك:

- ( ... اذا قطع رجل... قدم رجل آخر، عليه أن يدفع له عشرة شقيقات من الفضة).
- (اذا قطع رجل بسكين أنف رجل آخر، عليه أن يدفع ثلثي المنا من الفضة).
- (اذا كسر رجل سن رجل آخر، عليه أن يدفع شيفلين من الفضة لكل سن).
- (اذا حضر رجل كشاهد في قضية، ونوى قبل حضوره المحكمة ان يكذب بشهادته، عليه أن يدفع خمسة عشر شيقلا من الفضة).
- (اذا تسبب رجل في اغراق حقل مزروع لرجل آخر، عليه أن يدفع 3 كور من الشعير لكل ايكو من الحقل).
- وفي مراحل اخرى من العهد البابلي مثل قانون "لبت عشتار" و"قانون حمورابي" (1792-1750) ق.م. مرتبة في 44 حقلا باللغة البابلية ، منها اقسام تناولت شؤون الحقول والبساتين

<sup>77</sup> - ريشنباخ هانز نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ، الفصل السابع، ص 56، بيروت، (1979) .

<sup>78</sup> - ريشنباخ هانز ، المرجع السابق، ص 57.

<sup>79</sup> - رشيد فوزي ، الشرائع العراقية القديمة، دار الرشيد للنشر، ، ص 11. بغداد (1979).

<sup>80</sup> - دراسة الباحث فنكل شتاين المنشورة في : *Journal of Cunelform Studies*, Vol. XXII, No. 3, and 4, pp. 66--82

<sup>81</sup> - رشيد فوزي ، مرجع سابق، ص 29.

والبيوت والغرامات بحق المعتدين بالقصاص وكذلك قضايا الطب والطب البيطري والاختفاء الناجمة عن العلاج، وكذلك ما يتعلق باجور الحيوانات والاجراء والاذى الذي يصيبهم<sup>82</sup>. وردت نصوص كثيرة تعالج شتى مناحي الحياة، وما يتعلق بالاضرار الناجمة عن خطأ او عدوان نورد منها الامثلة التالية .

- ( اذا فقأ رجل عين رجل فعليهم أن ينفقوا عينه، واذا كسر رجل عظم رجل آخر فعليهم أن يكسروا عظمه)

- (اذا اجرى طبيب عملية لرجل بسكين العمليات وأنفذ الرجل فعليه ان يستلم عشرة شقيقات من الفضة.... اما اذا اجرى طبيب عملية لرجل بسكين العمليات وسبب وفاة الرجل او فتح محجر عين الرجل وأتلف عين الرجل فعليهم أن يقطعوا يده).

- (اذا عالج طبيب ثورا او حمارا وسبب جرحا كبيرا وسبب موته، فعليه ان يدفع لصاحب الثور او الحمار خمس ثمنه).

- (اذا سرق رجل ابنا صغيرا "الرجل آخر"، فيجب أن يعدم)

- (اذا قطع رجل شجرة في بستان رجل آخر، فعليه ان يدفع نصف المنا من الفضة).

- (اذا ذهب "شخص مصاب" بوباء بارادته الى الى رجل ما ورفض هذا الرجل ملامسته" أي رفض ايواه خوف الوباء" فله "أي المصاب بالوباء" ان يذهب حيثما يشاء).

- (اذا أجر رجلا ثورا وأتلف عينه او لحمه ظهره"أي المنطقة التي يستند عليها النير" عليه ان يدفع ربع سعره في الحالة الاولى وثلث سعره في الحالة الثانية).

يبدو ان تحول القواعد الاخلاقية الى ضرب من المعرفة كان اختراعا متأخرا<sup>83</sup>. وفي مراحل موازية للفترة البابلية او بعدها ظهرت الاديان والرسل والكتب التي أنزلت مع الرسل. يعرض الكتاب المقدس القواعد الاخلاقية على انها "كلمة الله"، أي "اله العبرانيين" "الذي يوجه الوصايا العشر الى موسى على جبل سيناء"، وبصيغة: ("لا تقتل" و"لا تسرق"... الخ. ولا شك ان الصيغة الأمرة التي تنسم بها القواعد الاخلاقية في الكتاب المقدس تدل بوضوح على ان المقصود منها أمرا، لا ان تكون إقرارا لأمر واقع، و"العبرانيون كانوا خليقين بأن يروا في المساواة بين الوصايا العشر وبين قانون للطبيعة أو قانون رياضي استخفافا بكلمة "الله".

وفي الوقت الذي ظهرت فيه أسفار موسى، لم تكن المعرفة قد إتخذت صورة نسق منظم؛ إذ لم تكن هندسة المصريين القدماء سوى مجموعة من القواعد العملية التي تفيد في مسح الارض

<sup>82</sup> Borger, Bal II (Babylonisch Assyrisch Lesestucke), Band II, pp.4-46.

<sup>83</sup> Driver and J. Miles, The Babylonian Laws, Vol. II (Oxford, 1955). كما ظهرت دراسات اخرى تضمنت ترجمة النصوص عن البابلية ومنها:

وتشييد المعابد، وكان احد اليونانيين هو الذي اكتشف ان من الممكن إثبات الهندسة في شكل برهان منطقي، وعلى ذلك فان النظرة الى الفضيلة على انها علم هي طريقة يونانية خالصة في التفكير)<sup>84</sup>.  
وإذا كان لا بد من التذكير ان المعرفة عن طريق الرياضيات ، بوصفها نسفا منطقيا، قادت الى الاعتراف بأن قوانين الطبيعة والرياضيات هي قوانين بالمعنى الصحيح،( يعني أنها علاقات علينا احترامها، ولا تحتمل اية استثناءات) قبل ان يمكن ان تصور هذه القوانين على انها موازية للقوانين الاخلاقية. وان المعنى المزدوج لكلمة "القانون"، بوصفه أمرا أخلاقيا، وقاعدة للطبيعة أو العقل، ليشهد بتحقق تلك الموازاة.

يرى "ريشنيباخ " : ( ... ويبدو ان الدافع الى فكرة الموازاة هو الرغبة في إقامة الاخلاق على اساس أقوى من ذلك الاساس الذي يزودها به الدين : فقد تكفي أوامر الالهة لارضاء ذهن ساذج لا يؤرقه أي شك في علو مكانة الاب؛ غير ان الشعب الذي وضع الصورة المنطقية للرياضة قد اكتشف شكلا جديدا للأوامر، هو الاوامر العقلية. وان الطابع اللا شخصي لهذا الامر ليحمله يبدو من نوع أرفع، اذ انه يقتضي الاحترام سواء أ كنا نعترف بوجود الآلهة أم لا، وهو يستبعد السؤال عما اذا كانت أوامر الآلهة خيرا، ويحررنا من النظرة التشبيهية بالانسان، القائلة ان فعل الخير ينحصر في الامتثال لارادة أعلى. فلا عجب اذن ان بدت افضل طريقة لاثبات ان القواعد الاخلاقية ملزمة للجميع هي اقرار التوازي بين مجالي الاخلاق والمعرفة، والقول بأن الفضيلة هي العلم.)<sup>85</sup>.

## 2-17 المذاهب الأخلاقية في الفلسفة الغربية:

عند عرض أهم المذاهب التي ساهمت في إنضاج القيم الأخلاقية عبر العصور، لا يمكن تجاهل الاسهامات الكبرى من فلاسفة العصر الحديث، الذين كان لهم دور كبير في تطوير هذا العلم الذي يساهم في بناء الذات البشرية على أسس منهجية سليمة إلى حد ما. ويجمع الفلاسفة على أن أهم المذاهب الأخلاقية في الفلسفة الحديثة هو "مذهب كانت" الذي تدور محور فكرته عن " الواجب".

سبق أن أثار الدكتور محمد بدوي سؤال هام يشغل عدد كبير من المفكرين الذين يعملون في حقل النظريات الأخلاقية، وهو: ( هل الحاسة الخلقية غريزية أم فطرية؟). ثم قرر أن هناك فريقين من الفلاسفة: فريق من الفلاسفة يعتقدون بان الإنسان لا يستطيع أن يغير الصورة الخلقية التي فطر عليها، ومن مؤيدي هذا الرأي "شوبنهاور" الذي يقول: ( الناس أختياراً وأشراً، كما يولد الحمل وديعاً والنمر مفترساً، وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم، كما يصف التاريخ الطبيعي حياة الحيوان). كذلك من متعصبي هذا الرأي الفيلسوف الألماني "كانت" يقول: ( الذي يشاهد موقف الإنسان في ظرف معين، كما ينبأ العالم الفلكي بكسوف الشمس وخسوف القمر في

<sup>84</sup> ريشنيباخ هانز "، مرجع سابق، ص 57.

<sup>85</sup> ريشنيباخ هانز "، مرجع سابق، ص 57-58.

ساعة محددة). ومن أنصار هذا الرأي "سينوزا"، الفيلسوف الهولندي، الذي يؤكد بان الناس، كغيرهم من سائر الظواهر الطبيعية. بينما يلخص "هيوم"، الفيلسوف الإنكليزي، رأي أهل الجبر بقوله: ( إن شعورنا بالحرية ليس إلا وهماً وخداعاً). وكان أنصار المذهب الفطري يتساءلون: (... ما قيمة المربين في إصلاح ما أعوج من خلق؟ ما قيمة المثل العليا التي يضعها أمامنا فلاسفة الأخلاق؟ ألا يكون كل الجهود مجرد عبث لا طائل منه؟)<sup>86</sup>.

و أصحاب هذا المذهب أيضا منقسمين إلى فريقين: فريق يقول بان الإنسان خير بطبعه والشر عارض له، وهو مذهب المتفائلين أمثال جان جاك روسو، والفريق الثاني يقول إن الإنسان شرير بطبعه والخير طارئ عليه، وهو مذهب المتشائمين، كالبودية والكنيسة المسيحية. برأيهم إن الإنسان منذ ختيئة آدم انقلب شريراً لا حيلة في إصلاحه بنفسه ولا غنى له عن منقذ ومخلص إلهي. هناك "سقراط" من مذهب المتفائلين، وهو يؤكد بان الإنسان يبحث عن السعادة، وإذا عرف الفضيلة هي الطريق الذي يوصله إلى السعادة، فإنه لا يخطئ طريقه، ولا يمكن أن يعمل الإنسان ما يؤدي إلى شقائه، وبرأيه الإنسان عالم بذلك، ومختار له، والأشرار لا ذنب لهم، إلا جهلهم بحقيقة مقاصدهم، أو جهلهم بتحديد الوسائل التي تؤدي إلى الغايات الطيبة، لأنهم لا ينوون إلا خير أنفسهم، ولكنهم يجهلون حقيقة هذا الخير أو يجهلون وسائله. وهناك من يرى رأي سقراط يفتقد إلى الموضوعية، بسبب إفراطه الشديد في تفاؤله، وقد لاحظ تلميذه أفلاطون نقاط ضعف أستاذه سقراط، لذا جزم بأن العلم وحده لا يكفي ليصبح المرء فاضلاً؛ فالرجل قد لا يعرف الشر ويأتيه، ويعرف الخير ولا يقوم به. ويؤكد أفلاطون بان: لو كانت الفضيلة تنتقل بالتعليم، كما تنتقل العلوم من عقل بالأدلة والبراهين، لأستطاع حكماء أثينا أن يجعلوا من تلامذتهم فضلاء مثلهم.

يُستخلص من رأي أفلاطون: بان ليس المقصود بالمعرفة أو العلم مجرد المعرفة التلقينية أو الإدراك العقلي الجاف، بل المعرفة تنتقل من العقل إلى القلب، وتصبح إيماناً عميقاً وقوة ملهمة لكن نجد أرسطو يتوج الايجابية الشاملة لهذا السؤال، ويخالف رأي "سقراط" و "أفلاطون"، حين قرر أن الإنسان ليس عقلاً كما زعم "سقراط"، وليس عقلاً وعاطفة فقط كما أكد "أفلاطون"؛ برأيه بالإضافة إلى هذه العوامل، فالإنسان بحاجة إلى إرادة فعالة.<sup>87</sup>

يصل "أرسطو" إلى أهم نقطة، تم اكتشافها من خلال مجموعة من آراء الفلاسفة: ليست الفضلية علماً وإيماناً فحسب، لأن العلم والإيمان لا يدفعان صاحبهما إلى العمل إذا كانت همته قاصرة وإرادته ضعيفة متخاذلة. وحسب رأيه لو كانت الأخلاق سلوكاً قبل أن تكون علماً، فإن هذا

<sup>86</sup> - بدوي محمد ، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، عدة صفحات.

<sup>87</sup> - بدوي محمد ، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع. مرجع سابق، عدة صفحات.

السلوك لا يتحقق إلا عن طريق الإرادة يقول: (لابد إذن لتحقيق التربية الخلقية في تدريب متواصل على العمل بما نعلم).

لقد أدرك "دوركيم" هذه الحقيقة في تحليله للظاهرة الخلقية وبين أن الرغبة التلقائية عنصر هام من عناصر الفعل الخلقية. كما حاول "أندريه كرسون" تحليل القيم الأخلاقية لدى اليونانيين، ليؤكد: بان الفلاسفة اليونانيين قاموا بتأسيس الأخلاق على أساس: إنهم يرون الإنسان مزود بطبيعة خاصة، سواء كانت تلك الطبيعة قد وهبتها له الآلهة، أو وهبتها له قوة أخرى لا تشعر ولا يعينها من أمره شيء.

وأن هذه الطبيعة تتميز ببعض المطامح حيث وجه كل الأخلاقيين في العصور القديمة اهتمامهم ليعرف الإنسان نفسه، وتوجيهه لما يريد، ليستخلص قواعد السلوك، ويطبّقها في حياته حتى يصل إلى ما يريد، برأيه غاية الإنسان البحث عن السعادة، لكن الاختلاف يكمن في تحديد السعادة، وليست الفضيلة إذن في نظرهم هي سيطرة في الإرادة على الطبيعة كما يرى كانط. ينهي كرسون رأيه بان فلاسفة العهد الوثني لروما، سواء المتدين أو غير المتدين، لا يتخذون عن تفكيرهم الدين مبدأ يقيمون على أساسه صروحهم الأخلاقية، لقد بنوا آراءهم على أساس العقل والتجربة<sup>88</sup>.

بما أن غاية جميع الأخلاقيين هو البحث عن السعادة نجد أن الدكتور زكريا إبراهيم، يطالب أن يميز الإنسان تمييزاً واضحاً بين "سعادة" و"أخرى" يقول: "لأننا لا يمكن أن نضع سعادة "الرجل الأناني" على قدم المساواة مع سعادة "الرجل الغيري". يقول: "كما أن أهل العصور القديمة لم يكونوا يضعون سعادة "الأحمق" أو "الجاهل" على قدم المساوات مع سعادة "الحكيم" أو "الفيلسوف".<sup>89</sup>

باعتماد زكريا إبراهيم: إن المذهب الأخلاقي الذي يدعو إلى "السعي وراء السعادة"، لابد أن يكون مذهباً يهدم الإنسان بنفسه. يقول: (إن البشر اخترعوا الشيطان حتى يحملوه مسؤولية كل ما في الوجود من تنافر وتشاحن واضطراب وخصام، يجزمون إن الشيطان هو الفساد الأكبر والضلال الأعظم والشر المحض والكراهية بجميع صنوفها)، حسب رأيه إن الإنسان هو الشيطان، باعتباره ينشر الخصام، ويفضل الحرب على السلام، إلى جانب تفننه في خلق أنواع التعذيب والإيلام، يقول: (ألا يحق لنا إذاً أن نقول إن بضاعة الشر لم ترج إلا لوجود بني البشر في هذا العالم، أولئك المشترين الذين يتهافتون على ساعة الشيطان، لأن بضاعتهم رُدت إليهم).<sup>90</sup>

<sup>88</sup> - كرسون أندريه ، "المشكلة الخلقية والفلاسفة"، الاخلاق في الفلسفة الحديثة" مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية، ص 10، القاهرة، (1948).

<sup>89</sup> - زكريا إبراهيم، "المشكلة الخلقية"، دار مصر للطباعة، عدة صفحات : القاهرة، (1980).

<sup>90</sup> - زكريا إبراهيم، "المشكلة الخلقية"، مرجع سابق،

يُلاحظ أن الدكتور زكريا يميل إلى الألم، ويعتبره الجانب الأعمق في وجودنا، ويرأيه إن الخبرات الأليمة التي يعاني منها الإنسان، لابد أن تندمج في صميم وجوده، لتتحول في المستقبل إلى ثروة باطنية، والتسلح بها ضد ما يستجد من هجمات، يورد لنا اسم أشهر الفلاسفة الذين اتخذوا من الألم سيلا للتربية الخلقية، والعلو بالذات الإنسانية وهو " كبير كيجارد" الذي يقول: " كلما كان ألم الشخص أسمى وأرقى، كان الثمن الذي يدفعه لشراء أي شيء أعلى وأبهظ". وكذلك من الفلاسفة الذين اتخذوا من الألم منهجا في علو الذات الإنسانية المفكر " هارتمان" الذي يؤكد بأن الألم يعلو بالذات البشرية ويزيد من عمق الإحساس الخلقى، ويكسب الذات ضرباً من النبل الخلقى، ويمنحه قدرة على الإحساس بالسعادة.

## 2 - 18 : المذهب الاخلاقي عند سبينوزا:

كتب "سبينوزا بندكت دو" (1632-1677)<sup>91</sup> في حدود عام 1661 (رسالة في إصلاح العقل)، وهي رسالة في المنهج، غير مكتملة نشرت بعد وفاته، معتقدا انه يقدم كتابا عمليا بالكشف عن "حياة الانسان المباركة" ومحاولة الفهم الواضح لطبيعة الناس ومكانهم في الكون، وكذلك الفهم الواضح لطبيعة الكون<sup>92</sup>.

وفي عام 1673 عرض الامير الجرمانى عليه كرسي الفلسفة بجامعة هيدلبرج، ولكنه رفض العرض ورجب ان يترك ليتابع بحوثه" وفقا لتفكيره الخاص". وفي تلك الفترة حرص على إكمال كتابه "الاخلاق"، ولكنه تركه جانبا وانشغل بكتابة" رسالة في اللاهوت والسياسة " التي صدرت في 1670 غفلا عن اسمه. نقد كل حكم سياسي يحاول أن يستمد مشروعيته من مصدر إلهي أو ديني، وفي سياق معالجته للموضوع قام بتأويل التوراة تأويلا عقليا صارما مما أثار سخط اليهود عليه<sup>93</sup>. رغم أنه عرف الانجيل على "انه مصدر الحياة المعقولة"، وعقد النية على أن يبين أنه لا يجيز قط أعمال العنف والتعصب، نشر الكتاب ولكن رجال اللاهوت سرعان ما أدانوه<sup>94</sup>

وعندما إنتقل الى أمستردام، وعقد العزم على نشر كتابه " الاخلاق"، وُشي به الى السلطات فاضطر الى سحب الكتاب. كتاب "الاخلاق" يعتبره البعض: ( رسالة ميتافيزيقية فيه يظهر نظام الكون ومكان الانسان فيه على انها معقولان؛ فالانسان الحر يجد سعادته في تبينه أنه جزء من ذلك النظام المجبر جبرا يشمله بأسره؛ فترى هذا الانسان الحر يمتعه ان يجد نفسه في موضعه الحق

<sup>91</sup> - "سبينوزا بندكت دو"، ولد في امستردام من ابوين يهوديين كانا فرا من الاضطهاد في البرتغال في نهاية القرن السادس عشر. اتقن سبينوزا فن صقل العدسات وكسب منها عيشه وكان قد غير اسمه العبري "باروخ" الى ما يقابله في اللاتينية وهو "بندكت"، حرص والده على تعليمه الاسبانية والبرتغالية والعبرية وظل قليل الامام بالهولندية، التحق بمدرسة يهودية عالية في امستردام ودرس التلمود وكتب موسى الخمسة وفي سن الثامنة عشر حاول تعلم اللاتينية ودرس مؤلفات كوبرنيك وغاليليو وكبلر وهارفي وهوجنز وديكارت.

<sup>92</sup> - سبينوزا، رسالة في السياسة، ترجمة وتقديم عمر مهيب، موفم للنشر، الجزائر، ص 10، (1995).

<sup>93</sup> - سبينوزا، المرجع السابق.

<sup>94</sup> - سبينوزا، المرجع السابق.

وهي متعة تكون مصحوبة بفكرة الله او الكون، وهذا هو حب الله بالمعنى الذي اراده سبينوزا لتلك العبادة)<sup>95</sup>. نظرية سبينوزا في الاخلاق نظرية نسبية وطبيعية يرى (...فنحن نسمي خيرا ما نعرف تمام المعرفة انه نافع لنا )<sup>96</sup>.

عرض "سبينوزا" فكرة التوازي بين مجالي الاخلاق والمعرفة في صورتها المتطرفة، وبعد ان يذهب الى محاكاة طريقة اقليدس في تقديم الهندسة على شكل بديهيات ونظريات، أملا بذلك الاسلوب ان يُشيد الاخلاق على أساس متين كالهندسة. يصطنع سبينوزا في هذا الكتاب المنهج الهندسي، حيث أتى كله في شكل تعريفات، وبديهيات، ومسلمات، ومطالب، وبراهين، ونتائج، فكان أقرب في شكله لكتب الهندسة منه لكتب الفلسفة، إلا أن مضمونه كان في قمة التجريد الميتافيزيقي، وفي البحث عن الغاية الاخلاقية<sup>97</sup>.

والواقع ان كتابه "الاخلاق" المكون من خمسة أجزاء ، يبدو عند قراءته أشبه بكتاب مدرسي وتعليمي في الهندسة<sup>98</sup> ؛ فالكتاب في أجزائه الاولى، غير منشغل بقضية الاخلاق اكثر منها في تقديم نظرية عامة في معرفة الجوهر، أي "الله" في ذاته وصفاته وتجلياته بتوظيفه للمنهج الهندسي للوصول الى هذه الغاية، أي عن طرق التعريفات والبديهيات والمسلمات بغرض الوصول الى البرهنة على المطالب فهو (الجوهر الواحد الشامل علة ذاته، ويتصور بذاته، أي ما لا نحتاج في تكوين تصور عنه الى تصور أي شيء)<sup>99</sup>.

وفي الجزء الثاني وعنوانه "في طبيعة النفس وأصلها"، يناقش طبيعة النفس الانسانية التي ستكون الطبيعة المطبوعة بتعبيره. وهو يقتصر هنا فقط على مفهوم الانسان، ولا يريد التطرق الى مسألة الخلق او التوليد، فهو يرفض الفكرة من أساسها.

ثم ينتقل الى الجزء الثالث: يناقش أصل الانفعالات وطبيعتها ، يتماشى بها مع نظرية سقراط القائلة: "ان الرذيلة جهل"، وهو يحاول أن يبين، في فصل عنوانه "عبودية الانسان، او قوة الانفعالات": ان الانفعالات تُسبب الحزن والكدر، وبالتالي فهي شر، ونحن نصل الى السعادة عندما نتغلب على قوة الانفعالات. وفي فصل آخر بعنوان "قوة العقل، أو في حرية الانسان"، يوضح "اسبينوزا" : ان القدرة على هذا التحرر كامنة في العقل. ويرى ان الخير ليس الا اللذة العقلية للمعرفة، اما السعادة التي تستمد من ارضاء الانفعالات ومن متع الحياة، فهي، وان لم تكن في نظره

<sup>95</sup> - فؤاد كامل وآخرون، المرجع السابق، ص 251.

<sup>96</sup> -Spinoza B.,Ethics, tr. Boyle A.,(Everyman) Dent,London and Duton,New York,(1955).

<sup>97</sup> -Spinoza B.,Ethics, tr. Boyle A.,(Everyman) Dent,London and Duton,New

و: مهيبيل عمر ، مقدمة ترجمته لكتاب سبينوزا، رسالة في السياسة، مرجع سابق، ص 10. 1955.

<sup>98</sup> - رريشنيخ هانز "، مرجع سابق، ص 58.

<sup>99</sup> -Spinoza : Ethique , premiere partie,ed.P.U.F., , p.19, Paris (1961)

منافية للاخلاق، تبدو له خارجة عن مجال الاخلاق، وهو لا يحبذها، بقدر معتدل، الا بوصفها غذاء للبدن، لازم لحفظ قدرة الجسم على اداء كل ما تقدر عليه طبيعته من افعال.

عرض "سبينوزا" مبدأه الاخلاقي بصورة منطقية وعكس من خلال عرضه ان اعجابه بالمنطق كان يفوق مقدرته في المنطق ولا يمكن فهم استنتاجاته من دون كثير من الاضافات الضمنية والتفسيرات النفسية، كما ان نتائجه تتجاوز مضمون مقدماته بكثير، وانه كما فعل الكثير من سابقه استخدم الطابع العقلي الذي أضفاه سقراط على الاخلاق في تشييد مذهب اخلاقي يقلل من شأن الانفعالات، وربما كانت تلك الحالة، أسوأ نتائج الموازنة بين مجالي الاخلاق والمعرفة، لأن ما كان سائداً بين جماهير الناس، منذ عهد الرواقيين، من نظرة الى الفيلسوف على انه انسان بلا انفعال، وادت تلك النظرة الى شعور غير الفلاسفة من الناس بأن فيهم نقصاً، وذلك عندما يجدون انفسهم عاجزين عن تحقيق مثل هذه الحكمة<sup>100</sup>.

ان مكنم الانفعالات وأصلها، حسب سبينوزا، هو أهواء النفس الانسانية ونوازعها ومطالبها التي التي لا تروى وهي على انواع:

انفعالات أولية: وهي: الرغبة، الفرح، الحزن، وتمثل قاعدة كل الرغبات الأخرى وهي تمثل الاحوال المختلفة للنفس الانسانية.

وانفعالات ثانوية: وهي متفرعة عن الانفعالات الاولية؛ فالحب والكرهية كما يحددان في المطلب الثالث عشر ليسا انفعالين أوليين، ولكنهما مشتقان من انفعالي الفرح والحزن، وقس على هذا المنوال فيما يتعلق بباقي الانفعالات الأخرى<sup>101</sup>.

بدا مذهب "سبينوزا" ، من خلال بنائه الاستنباطي للاخلاق على اساس أمتن واكثر تفصيلا وتعقيدا لفكرة سقراط القائلة: ان الفضيلة هي العلم من خلال محاولته إثبات إمكان الإتيان ببرهان منطقي على القواعد الاخلاقية، لانه يبين: ان المعرفة الاخلاقية ليست نتاجا لإستبصار عقلي فحسب، أي الاستنباط المنطقي؛ بل انه كان يعتقد ان بديهيات الاخلاق، شأنها شأن البديهيات الهندسية : ليست إلا نقطة البداية في بناءات استنباطية تؤدي، عن طريق سلسلة من الاستدلالات، الى نتائج يتسع نطاقها بالتدرج. فالاخلاق علم، ليس فقط لأن مبادئها تبدو "صحيحة"؛ بل لانها خاضعة لمبادئ الاستدلال المنطقي، ويمكن ان يطبق عليها اسلوب البرهان المنطقي من اجل اثبات العلاقات بين القوانين الاخلاقية. تلك هي الحجة التي تعبر عن موقف "سبينوزا" مثلما تعبر عن موقف سقراط وافلاطون. في الجزء الرابع من كتاب " الاخلاق": (في عبودية الانسان او في قوة الانفعالات) يعرف "سبينوزا" العبودية في التمهيد الخاص لهذا الجزء بالقول: (... أعني بالعبودية

100 - هانز ريشنباخ"، مرجع سابق، ص 59.

101 - عمر مهيبيل، من مقدمته لكتاب اسبينوزا، مرجع سابق، ص 13.

عدم قدرة الانسان على التحكم في عواطفه وكبحها)، وهذا يعني ان سلطان العقل هو أساس سعادة الانسان وحرية، وان قمة سمو هذا السلطان هو قعر الانفعالات والتحكم فيها إذ على الرغم من ان الانسان مقهور ضرورة بالانفعالات وفق القاعدة العامة للطبيعة إلا أنه على قهرها وتحديد تأثيرها، ولا يكفي العلم بالخير والشر منع أي انفعال، فالخير كما يعرفه "سبينوزا": ( هو ما نعرف بشكل أكيد انه سينفعنا" والشر " هو مانعرفه بشكل أكيد أنه يمثل حجر عثرة في طريق حصولنا على خير ما) 102.

يرى "ريشنباخ"، وبعد ان يضرب العديد من الامثلة عن استنباطات مختارة من الميدانين المعرفي والاخلاقي، ان عملية الاهتداء الى الخير، شأنها شأن عملية اكتساب المعرفة، ذات طبيعة متدرجة، وتتم عن طريق خطوات من الاستبصار الذي يزداد وضوحا بالتدرج. وتعليم الحقيقة، او تعليم الفضيلة، ينحصر في مساعدة الشخص على ان يصعد خطوات السلم ليصل "ريشنباخ" 103 الى : (...ان الدافع الى فكرة الموازة، هو الرغبة في إقامة الاخلاق على اساس نظرة معرفية في ضوء جديد،... فالاستنباط المنطقي ليس وسيلة للاهتداء الى حقيقة نهائية، وانما هو مجرد اداة للربط بين حقائق مختلفة... وان الاستنباط المنطقي لا يمكنه ان يخلق بديهيات معطاة وانما هو اداة للربط فحسب. فهو يستمد نتائجه من بديهيات معطاة، ولكنه لا يستطيع ان يبنينا بشئ من حقيقة البديهيات...وبديهيات الاخلاق، شأنها شأن بديهيات الرياضة، ينبغي ان تميز من النظريات الاخلاقية المستنبطة منها، والعلاقة بين الاثنين، أعني العبارة الموسوعة في صيغة " اذا كان.. فإن"، وهي "اذا قبلت البديهيات فان من الضروري ان تقبل النظرية"، هي وحدها التي يمكن البرهنة عليها منطقيا. وعلى ذلك فان التحليل يبين لنا ان صحة الاخلاق يمكن ان ترد الى صحة البديهيات الاخلاقية. وكل ما يستطيع منهج الاستنباط ان يقوم به في ميدان الاخلاق، كما في ميدان الرياضة، هو ان ينقل السؤال عن الصواب من النظريات الى البديهيات، ولكنه لا يستطيع الاجابة على هذا السؤال. ... ولا بد لكي نثبت ان الفضيلة علم، وان الاحكام الاخلاقية من نوع معرفي، من ان نثبت ان بديهيات الاخلاق من نوع معرفي... وهكذا فان السؤال عن طبيعة الاخلاق يرد الى السؤال عن طبيعة البديهيات الاخلاقية)، وينتهي ريشانباخ الى انه ينسب الفضل الى "إيمانويل كانت" في ادراك الحقيقة، كون مشكلة الاخلاق هي مشكلة البديهيات الاخلاقي.

102 مهيبيل عمر ، من مقدمته لكتاب اسبينوزا، مرجع سابق، ص 13.وكذلك:

Spinoza : Traite' de l' Auctorite Politique,ch.II,p.96.

103 ريشنباخ هانز "، مرجع سابق، الفصل السابع، ص 61.

## 2- 19: المذهب الاخلاقي عند إيمانويل كانت:

أدرك "إيمانويل كانت" <sup>104</sup>: انه من المستحيل، نتيجة للطبيعة التحليلية للاستنباط، ان نجعل صحة القواعد الاخلاقية مرتكزة على الاستنباط وحده، وهي حقيقة تصدق على الرياضيات بدورها. اتجه "كانت" إلى فحص حقيقة المعرفة الإنسانية ( نظرية المعرفة ) و كانت أسئلته الكبرى : إلى أي مدى يستطيع عقلنا الوصول إلى إدراك حقيقة الكون والطبيعة الإنسانية ؟ وما هي أدوات المعرفة الصحيحة ؟ وما قيمت هذه الأدوات وأدوارها في تحصيل المعرفة الصحيحة ؟ ومن هنا اتجه كنت للعقل ليجعل منه هدفة الأول. ولكن ليس بمنهج العقلانية الدوغمائية و لا بالتجريبية البحتة ولكن في منهج ضم هاتين المدرستين. كان "كانت" يرى قصور كلا النظرتين العقلية والتجريبية وأن كل منهما ترى بعين واحدة فأراد هو أن يجمع بين العيين في نظرة فلسفية تنتظم المعرفة البشرية بعمامة. يقول بدوي " لقد أراد أن يضع حدا للميتافيزيقيا الوثوقية من ناحية ، حتى تقوم الميتافيزيقيا على أساس علمي من المعرفة الصحيحة البعيدة عن الفروض غير القابلة للتحقق

104 - ولد إيمانويل كانت في كونيغزبرج الألمانية في ( 22 إبريل 1724 ) من أصول اسكتلندية كما يحكي هو عن نفسه فهو يخبرنا عن جده أنه " هاجر في ختام القرن الماضي من اسكتلندا إلى بروسيا ، ولا أدري لم ". يعني اسم إيمانويل بالألمانية " الله معنا " مما يشير إلى نشأة دينية. تزوج أبوه يوهان جيورج من أنا رويتر وكان إيمانويل رابع أبناءهم الأحد عشر الذين ماتوا في سن مبكرة ولم يتبقى منهم إلا أربعة. ذكرنا أن كنت دخل بدفع من أمه معهد فردريك وبقي فيه لمدة ثمان سنوات ثم التحق بعد ذلك بجامعة المدينة " كونيغزبرج " في سبتمبر سنة 1740 . تعلم كنت في المعهد الكلاسيكيات الرومانية واستظهر الكثير من نصوص الأدب اللاتيني الشعرية والنثرية. أما في الجامعة فقد حضر دروس مارتن كنتوس في الفلسفة والرياضيات ، ومحاضرات شولتس في علم أصول الدين ودروس تسكه في الفيزياء. وبسبب ظروفه المادية ترك الدراسة ليعمل مدرسا خصوصا عند بعض الأسر الثرية في المدينة وريفها إلا أنه تابع دراسته في أوقات الفراغ وأعد رسالة الماجستير و أطروحة الدكتوراه سنة 1755 بعنوان " في النار " كما أعد أطروحة ثانية عن " المبادئ الأساسية للمعرفة الميتافيزيقية " سمح له بعد ذلك بأن يحاضر في الجامعة بوصفه " معلما خاصا " لا يكافأ إلا بالرسوم التي يقرر الطلبة دفعها. استمر على هذا الوضع القلق لمدة خمسة عشر سنة إلى أن خلا كرسي المنطق والميتافيزيقيا فعين فيه سنة 1770 حتى 1796 . في سنة 1780 أصبح عضوا في مجلس الشيوخ الأكاديمي وبعد بع سنوات أصبح عضوا في الملكية للعلوم في برلين. وتولى عمادة كلية الآداب خمس مرّات ، وكان مديرا للجامعة لفترتين كل فترة سنتين. استمر في عمله في إلقاء المحاضرات في الجامعة وإجراء البحوث والمشاركة في المؤتمرات إلى أن بلغ سن الشيخوخة واقتربت حياته من النهاية. كنت " هو أحد رموز التنوير الكبار وفي عصر الملك فردريك الثاني [ 1740 – 1786 ] ازدهرت أفكار التنوير وأثرت الفلسفة الكنتية في أوساط المفكرين والأدباء وبعض الأوساط في إدارة الدولة لأن هذا الملك كان مشجعا للعلم والثقافة وحرية الرأي. ولكن بعد تولي ابن أخيه فردريك فلهم الثاني ، العرش في برلين [ 1786 – 1797 ] بدأت حملة ضد التنوير وحرية الفكر وانتشرت الرقابة في أرجاء المملكة وكان كانت أبرز من استهدفتهم هذه الحملة وصدر مرسوم ملكي يمنعه من الاستمرار في الكتابة والنشر ( 1791 ) لكنه لم يتوقف عن الكتابة ووصل الأمر بالناشرين إلى رفع التماس إلى الملك . ولما نشر كنت كتابه " الدين في حدود العقل فقط " سنة 1793 صدر قرار من مجلس الوزراء مخاطبا الفيلسوف " إنك لا بد تدرك كم أنت مسئول بوصفك معلما للشباب وأمام واجباتنا وأغراضنا الوطنية المعروفة جدا . ونرجو من سيادتكم الشريفة أن تتحلى بالمسؤولية الواعية ، ونأمل منكم – تجنبنا لعدم رضانا العالي – ألا ترتكب أمرا من تلك الأمور ، بل تستخدم مكانتك وموهبتك ووفقا لما يمليه عليك واجبك – في تحقيق نوايانا الوطنية ، وإلا فإن استمرارك في هذا الطريق سيؤدي بنا حتما إلى اتخاذ إجراءات غير مرضية لك ". وتحت هذا التهديد المغلف بالاحترام قرر كنت الصمت في ما يخص الموضوعات الدينية يقول في رد على الرسالة الملكية " إن إنكار واستنكار ما يقتنع به المرء أمر مهين دنيا ، لكن السكوت في حالة كهذه هو واجب المحكومين ، وحتى لو كان كل ما يقوله الإنسان صحيحا فليس من الواجب أن يصرح بكل الحقيقة علانية ". كان شعار كنت في هذا الموقف كما يقول عبدالرحمن بدوي " لا أقول إلا ما أعتقد أنه الحق ولكني لا أصرح بكل ما أعتقد أنه حق " .

العقلي أو التجريبي. لكنه ، من ناحية أخرى كان يشعر بنوع من الحنين إلى الإبقاء على بعض المعاني الأساسية في الميتافيزيقيا. ولم يستطع الإبقاء عليها إلا عن طريق الأخلاق".<sup>105</sup>

واكد ان طبيعة الاخلاق لا تُفهم الا بعد الاجابة على السؤال على بديهيات الاخلاق. ان "كانت" لا يدعي لنفسه الفضل في تقديم السؤال، وإنما في تقديم الاجابة عنه. وانه من المفيد دراسة اجابته على مشكلة الرياضيات والفيزياء كآخر بناء قوي شيده المذهب العقلي.

كانت اجابة "كانت" تنحصر في الرأي القائل : ان بديهيات الاخلاق تركيبة قبلية، شأنها شأن الرياضيات والفيزياء. وفي كتابه "نقد العقل العملي" حاول استنباط بديهيات الاخلاق بطريقة مماثلة لاستنباطه بديهيات الرياضيات والفيزياء في كتابه "نقد العقل الخالص".<sup>106</sup>

وعلى أثر الثورة العلمية الكبيرة، التي حدثت في الفيزياء والمنهج المقنع في المنطق، تسائل "كانت": أليس من الممكن إيجاد درب آمن تستطيع الميتافيزيقا سلوكه وتحقق تقدما أسوة بالمنطق والفيزياء والرياضيات. هذا الدرب الآمن، هو ما يعتقد "كانت" أنه قد توصل إليه في النقد. لا يمكن إخضاع الميتافيزيقا للتجربة قطعا فإن كانت التجربة تتوجه للمحسوس حصرا، فإن نصيب الميتافيزيقا من المحسوسات صفرا. ولذا طرح "كانت" سؤاله الكبير " ماذا يمكن للفاهمة والعقل أن يعرفا؟ وإلى أي حد بمعزل عن كل تجربة؟".

يمكن أن ندخل من هنا. هل يكون الإنسان معرفته وفقا للموضوعات أم أن الموضوعات تنتظم وفقا لمعرفتنا؟ يقول "كانت": ( إما أن تنتظم الأفاهيم، التي من خلالها أتمكن من هذا التعيين، وفقا للموضوع فأصل إلى الارتباك نفسه بصدد كيف يمكن أن أعرف قبليا شيئا ما عنه، وإما أن تنتظم الموضوعات وما يعادلها، أي التجربة التي فيها وحدها ندركها ( كموضوعات معطاة )، وفقا لتلك الأفاهيم، وعندها أجد مخرجا أسهل، لأن التجربة نفسها نمط معرفي يستلزم الفاهمة التي علي أن أفترض وجود قاعدتها فيّ قبل أن تعطى لي الموضوعات ، أي قبليا).

في كتابه الاول يبين "كانت": ان بديهيات الاخلاق يمكن ان ترد الى بديهية واحدة، يطلق عليها اسم "الامر المطلق" **Categorical Imperative**، وصيغتها كما يلي: (افعل بحيث يمكن ان تصبح قاعدة سلوكك مبدءا لتشريع عام). وهو يوضح تلك البديهية بأمثلة. منها: (... الكذب قد يفيد بعض

105 - عبد الله المطيري سلسلة باربعة حلقات عن الفيلسوف كانت نشرت في صحيفة الرياض بمناسبة صدور كتاب كانت "نقد ملكة الحكم" بالعربية:

<http://www.alriyadh.com/2006/04/20/article147720.htm>

<http://tomaar.net/vb/archive/index.php/t-16277.html>

106 - صدر هذا الكتاب في 1781 يرى كنت كما ورد في مقدمة الكتاب ان عقل الإنسان قد ابتلي ببحث في أسئلة لا يملك أدوات الإجابة عليها فلا هو تحصل على إجابة شافية ولا هو يستطيع التخلص والانصراف عن هذا التفكير بل إن تاريخه في هذا المجال هو مجموعة من التخبطات. كان هذا بحث العقل في الميتافيزيقا.

الأفراد، ولكنه لا يمكن ان يصبح مبدأ لتشريع عام؛ لانه يؤدي عندئذ الى نتيجة ممتنعة، هي ان احدا لن يستطيع ان يثق في أي شخص آخر).

ولهذا يعتقد "كانت": ان البشر جميعا، لابد ان يسلموا بصحة الامر المطلق، لو انهم حاولوا ان يسترشدوا بالبصيرة العقلية. وان الامر المطلق تتضح صحته بفعل رؤية مماثل لذلك الفعل الذي يكشف لنا عن بديهيات الرياضيات والفيزياء، بوصفها حقائق ضرورية.

في مذهب "كانت" وصلت الموازاة بين المجالين الاخلاقي والمعرفي الى ذروتها؛ وذلك بارتكازها على معرفة تركيبية قبلية تشمل البديهيات المعرفية والاخلاقية معا. ويرجع مصدرها الى طبيعة العقل. ففي عبارة "كانت" المشهورة : (... السماوات المرصعة بالنجوم من فوق، والقانون الاخلاقي في داخلي)، يرمز "كانت" الى ثنائية القوانين المعرفية والاخلاقية، وهي القوانين التي ينبغي ان يعترف بها كل ذهن بشري.

يرى "ريشباخ" انه: لم يكن في استطاعة "كانت" ان يدرك في وقته ان هذه الموازاة ذاتها هي التي تؤدي آخر الامر الى انهيار مذهبه الاخلاقي. وذلك حسب رأيه : انه لا يوجد عنصر تركيبى قبلي في مجال المعرفة، وان الرياضيات تحليلية، وان جميع الصيغ الرياضية للمبادئ الفيزيائية ذات طابع تجريبي؛ فلو كان القانون الاخلاقي في داخلي من نوع القانون الذي تكشفه لي السماء المرصعة بالنجوم لكان اما تعبيراً تجريبياً عن سلوك البشر، واما قضية فارغة تعبر عن علاقة لزوم بين البديهيات. والنتائج الاخلاقية، كالنظريات الرياضية. ولكنه لن يعود في هذه الحالة امرا غير مشروط، او امرا مطلقا "حمليا" بلغة المنطق التقليدي التي استخدمها "كانت"<sup>107</sup>. وينتهي "ريشباخ" الى : (... اذن اخفاق مذهب "كانت" الاخلاقي يرجع الى نفس السبب الذي يرجع اليه اخفاق نظريته في المعرفة: فهو ناشئ عن الفكرة الباطلة القائلة "ان في وسع العقل ان يضع قضايا تركيبية").

## 20-2: فريدريك نيتشه وفلسفة القيم:

لا يمكن مناقشة القيم الأخلاقية، من دون أن يُثار رأي أهم فيلسوف استطاع أن يغير مجمل الآراء الفلسفية، ويضع أفكاره موضع التساؤل في مجمل تاريخ الغرب وهو الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه" (1844-1900)،<sup>108</sup> حيث كان له بصمة مغايرة في علم الأخلاق.

107 - راجع ريشنباخ هانز "، مرجع سابق ، ص 63.  
108 - فريدريك نيتشه (1844-1900) ولد في مدينة ريكين في بروسيا، ابنا لكاهن بروتستانتي وحفيدا لكاهنين. درس فقه اللغة وعين استاذا في بازل بسويسرا. اظهر عقلا مستقلا. منذ 1888 انقطع عن التدريس لاسباب صحية وعاش نصف ضريرا لكنه كرس نفسه في السنوات العشر التالية للكتابة منتصرا على ضعف بصره. اكتسب شهرته العالمية في السنوات العشرة الاخيرة من عمره دون ان يعلم بذلك. اصيب بانهيار عقلي وجثماني في جانفي 1889 وبقي مجنونا حتى وافاه الأجل في 1900.

بعد ان حاول شتى انواع التفسيرات النفسية للظواهر المتباينة استرعى انتباهه بقوة ما للسعي من أجل القوة، وما للخوف من أهمية ظاهرة. وحاول من خلال كتابه " الفجر " يرى الى اي مدى يستطيع ان يصل في محاولته لتفسير كافة انواع السلوك على أساس هاتين الفكرتين. ووصل الى نتيجة ان الحضارة اليونانية كانت قائمة على روح التنافس الخالي من العاطفة، وان "ارادة القوة" هي أكثر الدوافع الانسانية أساسية. وما يريده الانسان فوق كل شئ آخر، وكل كائن حي وفقا لكتابه " هكذا تكلمت زرادشت" هو حالة أسمى وأقوى من حالات الوجود يتغلب فيها على ضروب الخذلان التي تكتنف حالته الحاضرة. ولا يسعى الانسان الى سيطرة قوته المادية الغاشمة على الآخرين الا بعد ان يفشل في محاولته لإكمال نفسه وإعادة خلقها، وفي أن يصبح خالقا بدلا من ان يكون مجرد مخلوق.<sup>109</sup>

ليس من الممكن ان يفهم تصور "نيتشه" عن " ارادة القوة" بمعزل عن كلمة "تسامي"، فهو أول من استعمل هذه الكلمة بمعناها الحديث. وتستند مناقشاته المعادية للمسيحية، وخاصة في مؤلفاته الاخيرة، في شطر منها، على دعواه: (... بأن المسيحية لا تطلب السيطرة على العواطف، وإنما تطلب وأدها). ويقول: (ان المسيحية قد أخفقت في إدراك ان الدافع الجنسي مثلا" قابل أن يتهدب تهديبا عظيما، وانها جعلت من الحياة الجنسية شيئا قدرا)<sup>110</sup>.

وهو يرى ان المسيحية نفسها تعبير عن إرادة القوة؛ غير أن إرادة القوة التي يضمها الضعفاء والمذلولون الذين يدفعهم حقدهم الى عداوة متغلغلة، لكل امتياز جسماني وعقلي، كما يميل بهم نحو كل ما هو دني ، ونحو تسوية الأعلى بالأدنى، ونحو كراهية الجنس وتحقير الجسم والعقل لكي يرفعوا من شأن الروح، نحو إزدراء هذه الدنيا بأسرها من أجل عالم وهمي<sup>111</sup>.

يرى عادل العوا : بأن فلسفة القيم ازدهرت بعد "نيتشه" برأيه؛ ولولا "نيتشه"، ربما لم تكن القيم موجودة، فهو الفيلسوف الوحيد الذي قام بتعرية القيم الأخلاقية التي آمن بها الإنسان منذ مئات السنين؛ حيث هاجم نيتشه بشدة " العقل" والفلاسفة الذين اعتمدوا على العقل وعلى رأسهم " سقراط". ويعتقد بان سقراط ساهم بإفساد تلميذه أفلاطون، حين لقنه أهمية المشاكل الأخلاقية والمنهج الجدلي وعدم الثقة في النفس؛ جاعلا منه مفكراً جدلياً يعكس طبيعة الحقيقة<sup>112</sup>.

109 - فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص484-489. وكذلك: نيتشه فريديك - هكذا تكلم زرادشت - ترجمة وتقديم: محمد الناجي - أفريقيا الشرق - الدار البيضاء- المغرب، عدة صفحات. (2006).

110 - فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص484-489.

111 - فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص486

112 - يسري ابراهيم، " نيتشه عدو المسيح" مرجع سابق، القاهرة، (1997).

[www.neelwafurat.com/itmpage.aspx?id=lbb24164...](http://www.neelwafurat.com/itmpage.aspx?id=lbb24164...)

حاول "نيتشه": أن يخاطب جميع الفلاسفة واعتبارهم تلاميذه، وهو يشكك في جميع النظريات الفلسفية فيقول: ( ... إن طلبتي من الفيلسوف معروف وهو أن يتخذ بمعزل عن الشر والخير، وأن يترك خلفه وهم الحكم الأخلاقي)، وهذا الطلب ينتج عن نظرة، كان "كانت" أول من يصوغها، ومؤداها: أنه لا يوجد على الإطلاق حقائق أخلاقية. إن الأحكام الأخلاقية مثل الأحكام الدينية، تنتمي إلى مرحلة من مراحل الجهل، كانت تفتقر إلى تصورهما ما هو حقيقي والتمييز بينه وبين ما هو خيالي).<sup>113</sup>

يرى د. فؤاد زكريا: بأن الأذهان السطحية تفهم اللا أخلاقية عند "نيتشه" على أنه دعوة إلى نوع من الهمجية والإباحية في علاقات الإنسان بعضهم بعض، لكنه يؤكد لنا بان نيتشه "لا أخلاقي"؛ بمعنى أنه لا يعترف أصلاً بالقيم الأخلاقية السائدة، ويحاول مراجعتها من جديد. إذاً، "نيتشه" برأي د. زكريا ليس عاصياً أو منحرفاً، وإنما هو مستقل عن هذه الأخلاق. هو لا يعترف بما نسميه "خيراً"، ولكنه لا يعترف أيضاً بما نسميه "شراً". وهو المفكر الوحيد المستقل عن نطاق القيم الشائعة، وينظر إلى الخارج فحسب. وهذه الخصال برأي نيتشه هي صفات الناقد الحقيقي والصحيح. يقول: (.. فلكي يتسنى لنا أن نتأمل أخلاقنا الأوروبية من بعيد، ونقارنها بنظم أخلاقية أخرى، سابقة أو تالية، علينا أن نفعل ما يفعله السائح الذي يريد أن يعرف مدى ارتفاع أبراج المدينة).

كما يعتقد د. زكريا أن اللا أخلاقية عند "نيتشه" تعبير عن ثورة على الأوضاع الأخلاقية القائمة، ومحاولة لقلب القيم الأخلاقية التي يخضع لها الناس في عصرنا، إذا اللا أخلاقية برأيه من وحي الأخلاق، باعتبار أن هدفها الأساسي الكشف عن نواقص المبادئ الأساسية للسلوك الإنساني في شكلها الراهن، ومحاولة إصلاح هذه المبادئ أو استبدال غيرها بها، من أجل إنسانية أفضل. استطاع "نيتشه" أن ينقد فكرة الخير والشر على أساس من النسبية، والوقوف بمعزل عن الخير والشر؛ ليكون استقلالاً عن الأخلاق بوجه عام، لا عن أخلاق معينة.<sup>114</sup>

يعتقد د. زكريا: إن لا أخلاقية "نيتشه" دعوة للوصول إلى الإنسان الأرقى، الذي يجسد المثل الأخلاقي الأعلى<sup>115</sup>. بتصور "نيتشه" ليس إن الإنسان الأرقى هو ذاك الطيب الذي يخضع للقيم الأخلاقية المعترف بها، ويحاول تحقيق الخير وتجنب الشر، بل هو إنسان يسعى إلى مزيد من الحيوية في كل شيء. وينتهي زكريا إلى القول: ( نرى بحق إن نيتشه هو الوحيد الذي سار عكس

<sup>113</sup> فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص 486

<sup>114</sup> زكريا فؤاد، نيتشه، منشورات العباسية، القاهرة، (1956)، وكذلك ط2، المغرب، 1980.

[www.qamat.net/vb/archive/index.php/t-7403.html](http://www.qamat.net/vb/archive/index.php/t-7403.html)

<sup>115</sup> زكريا فؤاد، نيتشه، المرجع السابق.

التيار، وهو يحاول أن يفتح للبشر نوافذ جديدة في أهم موضوع شغل جميع المفكرين). وهذا ما أشار إليه بطريقته فؤاد زكريا بقوله:

(فليست فكرة الإنسان الأرقى بهذا المعنى إلا دعوة إلى التقدم الحيوي المطرد ، واستبدال تجدد الحياة بتجانس الأخلاقية)<sup>116</sup> .

تعبر فكرة إرادة القوة التي يطرحها "نيتشه" عن التحرر من القيود والانضباط، داخل النسق. "فإرادة القوة" تبدو الفكرة الأكثر جذرية في تاريخ الفلسفة لتضمنها مشروعية تدمير أي نسق موجود في العالم، عدا إرادة الفرد لأن الإنسان ملك نفسه يصنعها كما يريد<sup>117</sup> . فالإرادة إذن هي الأساس في مشروع "نيتشه" الفلسفي؛ لأنها الخالقة للإنسان الأعلى بكل ملامحه الصارمة التي لا يقف أمامها عائق.

ربما تكون أكثر الأبحاث الفلسفية التي أثرت من أقدم العصور ظلت تبحث عن القيم الأخلاقية، ولكن لا يمكن أن الجزم والتعميم بان أغلب النظريات التي وضعت لتربية الذات الإنسانية، قد نجحت في ترويض البشر، كما لا يمكن الإنكار أو التجاهل أيضاً، بان غاية معظم المفكرين كانت نبيلة وصادقة في إيجاد قيم أخلاقية، تساعد الإنسان وتنير ذاته، والغاية القصوى من جميع هذه النظريات تهدف الوصول إلى الحق والخير والسعادة والجمال، لبناء مجتمع إنساني راقى.

## 2-21: الفلسفة النقدية الكانتية وانعكاساتها على الفلاسفة المعاصرين:

مما تقدم نستخلص ان الفلسفة النقدية الكانتية اعتنت جدياً بعنصرين خارجيين هما:

أولاً: نقد العقل الخالص:

اي الفكر الفلسفي المتواجد على الأقل في القرنين السابع عشر والثامن عشر فمن الناحية المعرفية يعنى فيما يخص نقد العقل الخالص تصارعت في تلك الفترة ثلاثة تيارات أساسية وهي:

- العقلانية التي يمثلها "فولف" و"البينتز".

- التجريبية التي يرمز إليها "هيوم" و"لوك".

- المثالية ويجسدها "ديكارت" و"بركلى".

وفعلاً اهتم النقاد بعلاقة "إيمانويل كانت" بهذه الاتجاهات الثلاثة. وبينما يبدو أن "نقد العقل الخالص" هو بمثابة رد فعل "دولوز" عليها، وأنه يتضمن تأليفاً استرجاعياً ودحضا في نفس الوقت لها. ومن الناحية العملية إهتم فلاسفة ذلك العصر بالقانون الأخلاقي وبمفهوم الحرية وبغيرهما من المفاهيم المحددة للحياة الأخلاقية مستندين إلى جوهر الفكر المسيحي وإلى المتطلبات الموضوعية

<sup>116</sup> - زكريا فؤاد - نيتشه - منشورات العباسية ، مرجع سابق، ص. 101 .

<sup>117</sup> - ظاهر علاء ، نهايات الفضاء الفلسفي ، مرجع سابق، ص 107.

التي يجب أن تسود المجتمع المدني. وأخيرا فقد كانت قضية التوافق بين الملكات الإنسانية والغائية محل نقاش الفلاسفة والمفكرين في ذلك الوقت، وهو أمر لم يغيب عن النقاد أيضا.

### ثانيا: الفكر العلمي:

عرف القرن 17 ثورتين علميتين عارمتين، الأولى في المجال الرياضي وتتعلق بحساب التفاضل والتكامل، والثانية تهتم الفيزياء وطغى فيها اسم "نيوتن" في النهاية على غيره من الأسماء. وقد امتد تأثير مضمون الثورتين إلى القرن الموالي الذي إكتفي علماءه بتوضيحه وتطويره، دون القيام بثورة جديدة. هذا والمُلاحظ أن هذا العصر قد تميز خاصة في الشطر الثاني منه، أي القرن الثامن عشر، بنوع من الديمقراطية العلمية باعتبار أن جميع الناس كانوا يهتمون بالعلم . وكما تعارف عليه الناس، أنه لا يُعرف مفكرا واحدا ، لم تشمله مثل هذه العدوى؛ فحتى أعداء العلم كانوا عارفين بأصوله .

### 2-22: إدغار موران والنزعة النقدية التكنولوجية:

حول نهايات الفضاء الفلسفي ووضع الفلسفة الغربية بين اللحظة الآنية والمنظور المستقبلي كثيرا ما يتم تناول الفكر الفلسفي من خلال أطروحات المفكر الفرنسي "إدغار موران" المعروف بنقده الحاد للنزعات التكنولوجية العالية للحضارة الغربية الحديثة<sup>118</sup>. فهو يرى انه : أن التقدم التقني أدى إلى تراجع قيمي، مما أحدث فجوة واسعة، تكشف عن ملامح بربرية للعالم الحديث، الذي يدعي التمدن، الأمر مما يستدعي طرح العديد من الأسئلة، حول البربرية التي تهدد الكوكب الأرضي، ومن ثمة استخلاص الدروس والمعطيات التي تؤدي إلى تلافي ذلك.

وبالنظر الى موقع المفكر الفيلسوف "إدغار موران" ، الذي يضع الأزمات، داخل بناء كلي يسهل رؤيتها، لأن الفكر المجزأ، في نظره، غير قادر على أن يميز العضلات، التي تواجهها الإنسانية وأزماتها الشديدة التعقيد<sup>119</sup>؛ فعدم القدرة على إدراك حجم العضلة يساهم في عدم إدراك الواقع، مما يؤدي إلى تفاقم الأوضاع بسبب تجزئة الوعي. وتأسيسا على ذلك فإن الفرد المحاط بكم هائل من المنظومات السياسية والتقنية والمؤسسية والبروقراطية، ليس بمقدوره الكشف عن الطريق التي تقود إلى وعي كوني أو فكر كلي يسمح بروية كلية للعالم. فدور المفكر إذن يتجلى في خلقه هذا الوعي الكلي الشامل<sup>120</sup>.

<sup>118</sup>- طاهر علاء ، نهايات الفضاء الفلسفي – الفلسفة الغربية بين اللحظة الآنية والمستقبل، المرجع السابق، عدة صفحات.

<sup>119</sup>- العلوي أحمد بابانا ، نهاية الفضاء الفلسفي في الغرب، <http://www.doroob.com/?p=27128> (3 ماي 2008).

<sup>120</sup>- طاهر علاء ، نهايات الفضاء الفلسفي، مرجع سابق، ص.31.

كما إن فقدان الرؤية المتبصرة يؤدي لا محالة إلى الشك المطلق، أي إلى فقدان اليقين في أي شيء مما يعني أن الفكر الفلسفي الحديث غير قادر على تقديم إجابات ناجعة على ما تعرفه الإنسانية من أزمت العصر الحديث، بالرغم من التقدم التكنولوجي الهائل المصاحب بالثورة الإعلامية التي تغلف الأسئلة الحقيقية المصيرية والوجودية ولا تجيب عليها البتة.<sup>121</sup>

ومن هذا المنطلق فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل المقاربة الفلسفية انتهت إلى الشك المطلق أو "نهاية مطلقة لليقين"؟.. يرى "موران" بأن الأسئلة الحقيقية تم إغفالها تحت الأغلفة الخارجية للتقدم العلمي والرفاه الاجتماعي، والتقدم المذهل لوسائل الاتصال أذن للخروج من المأزق الذي يوجد فيه الفكر الفلسفي الحديث. أورد المؤلف بعض التصورات للخروج بإجابات جديدة:

أولا : استشراف انفتاحات جديدة نحو أفق فلسفي جديد

ثانيا : العودة إلى جذور العقلانية (الكانطية) واستخدامها وفق منظور يؤسس لعقلانية جديدة تواجه فلسفة نهاية اليقين.

ثالثا : الأخذ بفلسفة الحداثة للوصول إلى مرحلة ما بعد الحداثة.

رابعا : العودة إلى الفلسفة الكلاسيكية بأبعادها الروحية والدينية للإجابة على الأسئلة الميتافيزيقية المطروحة بإلحاح الآن وذلك بمنظور الفلسفة المعاصرة وإنجازاتها<sup>122</sup>.

## 2-23: جيل دولوز:

### 2-23-1 : "جيل دولوز" و فلسفة كانط النقدية :

اهتم "جيل دولوز" بمقاربة النظام الفلسفي عند كبار الفلاسفة الأوروبيين أمثال : بيكون، كانت، هوسرل، هايدغر... ، كنوع من التأسيس الفلسفي، بينما قام "ميشيل فوكو" بإعادة صياغة النظام الفلسفي.

والحقيقة أن أزمة الفلسفة الفرنسية المعاصرة تكمن بالأساس في غياب رموزها الكبيرة التي ساهمت في تألقها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وكذلك غياب المدارس الفلسفية الكبرى مثل البنيوية والوجودية والهجلية، والظاهراتية..، التي أنتجت مناهج فكرية وأطر معرفية..

ولفهم أسباب أزمة الفكر الفلسفي في فرنسا، سواء فيما تعلق بضعف إنتاجه أو قصوره وانحسار تأثيره عمدت دراسة الدكتور علاء طاهر إلى دراسة بعض رموزه اللامعين في الساحة الثقافية الفرنسية، أمثال ("جيل دولوز"، و"فوكو" و"لوفي سترأوس"...) بغرض تقديم قراءة نقدية، متجددة ومتواصلة. فتطرق إلى كتاب "ما هي الفلسفة" الذي ألفه (جيل دولوز وفيلكس غوتاري).

<sup>121</sup> - العلوي أحمد بابانا ، مرجع سابق.

<sup>122</sup> - طاهر علاء ، نهايات الفضاء الفلسفي، مرجع سابق، ص.36.

و يشكل الكتاب حدثا كبيرا في تاريخ الفلسفة المعاصرة (لأنه محطة تغيير ونقطة انطلاق نحو مساحة، ذهنية من التأمل لم تتوغل باتجاهها الفلسفة بعد)<sup>123</sup>.

وتأسيسا على أن الفلسفة قادرة على العمل المنهجي، والكشف عن الحقائق، وتحليل الظواهر المعاشة أو الظواهر الذهنية المجردة؛ يندرج الكتاب ضمن رؤية التأصيل الفلسفي التي طبعت أعمال "دولوز" فتناول المنظومات الفلسفية منذ "أفلاطون"، حتى "هابرماس"، وركز على المفاهيم، وعلى ما تنطوي عليه من مضمون ومحتوى، انطلاقا من نظرة "جيل دولوز" إلى أن الفلسفة في جوهرها هي فن، إبداع وصناعة المفاهيم.

وإذا جاز القول: لا يمكن مبدئيا لـ "كانت"، الذي درس الرياضيات وكتب في الفيزياء، أن يتجاهل المعرفة العلمية في فلسفته النقدية. وقد أكد النقاد، خاصة في فرنسا، على المرجعية العلمية لهذه الفلسفة. ولكن تجاهل "جيل دولوز" تماما لهذه المرجعية العلمية التي يؤدي إعتبارها إلى الغوص في عمق النص الكانتي، يثير الانتباه لمحاولة "جيل دولوز" أن يكون مخالفا بذلك أبناء بلده الذين تميزوا على غيرهم بالتأكيد على هذا البعد. إكتفى "جيل دولوز" ببعض الإحالات الفلسفية السريعة التي لا تساعد كثيرا على النفاذ إلى أغوار الفلسفة النقدية، وعلى ضبط الخلفيات الخارجية لقضاياها الأساسية.<sup>124</sup>

المعروف أيضا انه: اعتنى النقاد الفرنسيون المعاصرون كثيرا بأساليب عديدة، وبمناهج مختلفة عن وحدة الفلسفة النقدية الكانتيية وبمراحلها الثلاث: ويمكن أن تُذكر في هذا المجال على سبيل المثال لا الحصر<sup>125</sup> :

الفكرة النقدية عند "كانت" لـ "جوزيف كمباز" **L'idee Critique chez Kant de J. Combes** ، نقد كانت لـ "موريس كلافل" **Critique de Kant de M. Clovel** ، الفلسفة العملية الكانتيية لـ "دليوس" **La Philosophie Pratique de Kant de V. Delhes** . ويندرج مؤلف "جيل دولوز": ( فلسفة "كانت" النقدية) في هذا الإطار العام بالذات.

2-23-2: "جيل دولوز": الغائية العقلية وفلسفة "كانت" النقدية:

تبدأ المقدمة بضبط معنى العقل عند كانت في علاقته بالفلسفة باعتبارها "علم العلاقة بين جميع المعارف والغايات الأساسية للعقل البشري"، ومن ثمة يبرز "جيل دولوز" أهمية الغائية العقلية وخصوصياتها عند الفيلسوف الألماني مبينا موقعها بين العقلانية والتجريبية الكلاسيكيتين؛

<sup>123</sup> - طاهر علاء ، نهايات الفضاء الفلسفي، مرجع سابق، ص.51.

<sup>124</sup> - عبد القادر بشته، جيل دولوز و فلسفة كانط النقدية/مواقع انترنت

<sup>125</sup> - بشته عبد القادر ، جيل دولوز و فلسفة كانط النقدية/مواقع انترنت

[www.veecos.net/portal/index.php?option=com\\_content&view=article&id=548:-----12-k42-&catid...](http://www.veecos.net/portal/index.php?option=com_content&view=article&id=548:-----12-k42-&catid...)

[www.neelwafurat.com/itemsbought.aspx?id=egb4616-5004621&Page=238-k](http://www.neelwafurat.com/itemsbought.aspx?id=egb4616-5004621&Page=238-k)

فالتجريبيون يرون أن الغائية كامنة في الطبيعة، بينما يسندها "كانت" إلى العقل.<sup>126</sup> أما العقلانيون فيقررون بغائية العقل لكنهم يضعونها خارجة بجعله ينشد كينونة مطلقة أو خيرا مطلقا أو قيمة مطلقة، في حين يرى صاحب الفلسفة النقدية أن الغايات العقلية السامية موجودة في العقل. ولا غرابة إذن أن يكون لهذا الأخير حكما لنفسه فيبين طبيعة غاياته والوسائل الكفيلة بتحقيقها.

يتطرق "جيل دولوز" إلى "نظرية الملكات" عند "كانت"، فيمدنا بالمعنى الأول لكلمة ملكة **Faulte** وهو: ( كل تصور يكون في صلة ما بشيء آخر، يعنى علاقة الموضوع بالذات بشكل عام). وهناك على هذا المستوى أولا علاقة وفاق ومطابقة وتحدد ملكة المعرفة، وثمة صلة السببية، وتؤدي إلى ملكة الرغبة. وأخيرا يكون التمثل في صلة عفوية مع الذات نفسها فيعطينا ملكة الشعور باللذة والألم. والسؤال هو: هل لهذه الملكات بهذا المعنى أشكالا عليا، باعتبار أن لملكة ما شكلا أعلى، لما تتضمن القانون الذي يحدد تحركها؟. وفي هذا الإطار يتضمن "نقد العقل الخالص" تأملا في الملكة العليا للمعرفة. ويهتم "نقد العقل العملي" بالملكة العليا للرغبة. أما "نقد الحكم" فيعتني بالملكة العليا الأخيرة.<sup>127</sup>

ويذكر "دولوز" المعنى الثاني للكلمة ذاتها، وهو أن تكون الملكة مصدرا نوعيا للتصورات. وفي هذه الحالة يرتبط عدد الملكات بأنواع التصورات. يبعد دولوز على هذا الصعيد على إثر "كانت" طبعا الحدس الذي لا يمكن أن يستجيب لهذا السؤال ثم يذكر ثلاث ملكات بهذا المدلول وهي: المخيلة **L'imaginatif** والفهم **L'entendement** والعقل **Raisan**. دولوز في نهاية تلك المقدمة يناقش مسألة العلاقة بين المعنيين التي ستجد حلا نهائيا لها في خاتمة مؤلفه.

خصص "دولوز" الفصل الأول من كتابه إلى الصلة بين الملكات في نقد العقل الخالص والبدائية هي تحديد للعلاقة بين الماقبلي **a priori** والترنسندنتالي **Transcendental**. ويمكن تلخيص هذه الصلة على النحو التالي: يشي "الما قبلي" بتصورات تنشأ من التجربة. أما "الترنسندنتالي" فهو يعنى المبدأ الذي تكون التجربة بمقتضاه خاضعة لتصوراتنا الماقبلية.

وواضح هناك امتداد في مجال علاقة الذات بالموضوع التي أحدثت "كانت" فيها انقلابا كبيرا أسماه بـ "الثورة الكوبرنيكية"، لذلك ينتقل "دولوز" إلى هذا المفهوم الكانتي الخطير مبرزا: أن هذا الفيلسوف قد استبدل الفكرة الكلاسيكية القائلة بالانسجام بين الذات والموضوع بالمبدأ القائل بضرورة خضوع الثاني للأول.

<sup>126</sup> - بثته عبد القادر ، جيل دولوز و فلسفة كانط النقدية/مواقع انترنت، مرجع سابق  
[www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb169321-132149&search=books](http://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb169321-132149&search=books)  
<sup>127</sup> - بثته عبد القادر ، جيل دولوز و فلسفة كانط النقدية/مواقع انترنت.  
[www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb169321-132149&search=books](http://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb169321-132149&search=books)

ويأتي "دولوز" بعد ذلك نحو تحديد وظيفة الملكات الثلاث في عملية المعرفة؛ فالفهم يشرع عند ضبطه لشكل الموضوع، وهي مهمة لا تقدر عليها المخيلة التي تكتفي بدور الوسيط بين الموضوعات الحسية وملكة الفهم بتقديم رسوم تخطيطية لها Schimes، أما العقل فهو المسؤول عن مادة الموضوعات الحسية Phéomenes.

ويصل "جيل دولوز" هكذا إلى مشكلة العلاقة بين الملكات: يعنى إلى "العقل السليم" bon Seus وهو مصطلح كانتى هام يدل على وفاق ما قبلي بين الملكات، لا يلغى الاختلاف بينها على مستوى الطبائع. ويذكر "دولوز" في هذا الصدد: أن هذا الانسجام يقع في "نقد العقل الخالص" بقيادة ملكة الفهم وفي مصلحه العقل النظرية.

بعدها وتحت عنوان: (استخدام شرعي واستخدام غير شرعي) يعيد "جيل دولوز" إلى الأذهان تحذيرا كانتيا على غاية من الأهمية، يتعلق بمغبة انزلاق الملكات في غير الطريق المخصص لها؛ إذ يمكن للمخيلة أن تحلم، وللهم أن يخرق مجال الموضوعات الحسية، وللعقل أن يختار دور التشريع المباشر، الذي هو مسؤولية ملكة الفهم. عند ذلك تختلط الأوراق التي أراد "نقد العقل الخالص" ترتيبها بكل اعتناء.

إعتنى "جيل دولوز" بعلاقة الملكات في "نقد العقل العملي" حيث ينطلق من الحديث عن "العقل المشرع" Raison Legiolatrice ، مؤكدا أن العقل وحده هو المسؤول على شكل التشريع الكوني الذي يلائم القانون الأخلاقي المتسم بالكونية ضرورة، وهذه المهمة لا يمكن للفهم أن يقوم بها، لأنه يقتصر على موضوعات محلية. فما هو إذن موضوع التشريع العقلي؟ . إنه الكائن الحي؛ إذ يبدو أن العقل العملي يفرز مفهوم الحرية بوصفه واقعا موضوعيا ويشرعه.

لكن هل يلغى دور الفهم في هذه الحالة تماما؟ في الحقيقة تبقى هذه الملكة الفكرية مهمة جدا على هذا المستوى ذلك أننا نحتفظ في مجال فلسفة الأخلاق بشكل التقيد بالقانون كما نص عليه تشريع الفهم.

فما هو إذن العقل الأخلاقي السليم؟ . كثيرا ما يذكر "كانت" في هذا الصدد: أن القانون الأخلاقي ليس في حاجة إلى علم كبير، ولا إلى براهين بارعة؛ بل يرتبط باستخدام عادى للعقل في متناول كل الناس، يتمثل عموما في انسجام الفهم مع العقل تحت القيادة التشريعية لهذا الأخير.

وفي هذه الحالة هل نخرج الحس والمخيلة تماما من ميدان فلسفة الأخلاق؟ يؤكد "دولوز" على هذا المستوى: أننا نخطئ كثيرا لما نعتقد أن فلسفة الأخلاق الكانتية لا تكثرث بإنجازها. وهذا يعنى أننا نسترد المخيلة، بما لها من صلة مع الحس في مجال التحقيق.<sup>128</sup>

<sup>128</sup> - بشته عبد القادر ، جيل دولوز و فلسفة كانط النقدية/

للإنجاز الأخلاقي عدة شروط. وأولها أفكار العقل النظري الأساسية، وهى تلك التي تتعلق بالله والروح والحرية، والتي يتأسس عليها العقل العملي ذاته. وثانيهما الشروط المتأصلة في الطبيعة الحسية، والتي تؤدي إلى ترجمة ما فوق المحسوس، حيث يوجد القانون الأخلاقي.

يقوم "جيل دولوز" في نهاية هذا الفصل بمقارنة بين العقل النظري والعقل العملي على مستوى مصالحيهما. فيؤكد أولاً على الاختلاف بين الاثنين؛ إذ أن مصلحة "العقل النظري" ترتبط بمجال الحسيات "فينومان". أما مصلحة "العقل العملي" فهي تستند إلى الكائنات العاقلة باعتبارها أشياء في ذاتها *Chases en Soi*؛ لكن العلاقة بينهما وطيدة، وتتمثل باختصار: في أن العقل النظري يستمد جدواه من إمكانية تحقيق ما هو فوق حسي *Suhrasewale*، وهى في نهاية الأمر علاقة "الفينومان" بالشيء في ذاته.<sup>129</sup>

ويخص الفصل الأخير في كتاب "جيل دولوز" الصلة بين ملكات الفكر في نقد "ملكة الحكم". ويسأل "دولوز" أولاً: هل هناك شكل أعلى للشعور؟ وهذا السؤال يعنى: هل لدينا تصورات تحدد بصفة قبلية حالات للذات، كاللذة والألم؟ والإجابة مبدئياً كانت سالبة؛ لأن مثل هذه الحالات تعرف تجريبياً، لكن يمكن أن تكون إيجابية لما يتعلق الأمر بالانسراح *Cautevtemeut*، الذي هو شبيه فكري بالإحساس؛ بيد أن ملكة الشعور في شكلها الأعلى في هذه الحالة غير قادرة على تشريع موضوعات خاصة بها؛ بل تكتفي بأن تكون مصدر شروط ذاتية لنشاط الملكات الأخرى. يجوز على كل حال رصد هذا الشكل الأعلى للشعور في الحكم الاستطريقي، وتنسجم في هذا الباب المخيلة في حريتها الخالصة مع ملكة الفهم في تشريعها غير المحدد. ولسنا هنا على صعيد وفاق موضوعي بين الملكات بحيث تكون لدينا ملكة طاغية على غيرها، كما هو الشأن في النقيدين الأولين، وتديرها؛ بل إن الأمر يخص انسجاماً ذاتياً تتفاعل فيه المخيلة مع الفهم بصفة عفوية.<sup>130</sup>

لكن أين العقل في كل هذا؟ لقد ارتبطت العلاقة السابقة بحكم أستطريقي معين هو: "هذا جميل" *C'est beau*. لكن هناك نوعية أخرى من الحكم في هذا المجال، ويتمثل في القول "هذا سام". *C'est Sublime* وعلى هذا الصعيد بالذات يتدخل العقل. إذ إن المخيلة تقف عند عجزها أمام سمو، فيدفعها العقل إلى نهاية طاقتها، ويجبرها على الاعتراف بأن قوتها لا تساوي شيئاً، مقارنة بالأفكار العقلية. وبالتالي فإن سمو يؤدي إلى علاقة ذاتية من نوع خاص بين المخيلة والعقل.

وهذه الصلة ليست مفترضة فقط بل هي من ناحية أخرى حقيقة مولدة وتمثل الثقافة الحركة المؤدية إلى ميلادها، بينما يوجد أصل الحكم "هذا جميل" في الطبيعة. ويقف "دولوز" عند هذه

129 - بثته عبد القادر، المرجع السابق.

130 - بثته عبد القادر، جيل دولوز وفلسفة كانط النقدية/مرجع سابق.

الصلة التي تجعل من الطبيعة مصدر الجمال، مؤكداً أن مضامين الطبيعة الحسية ترمز إلى إنكار العقل، وأنها تسمح بالتالي للفهم بالتوسع، وللمخيلة بالتححرر. وهكذا فإن مصلحة الجمال شاهدة على وحدة ملكاتنا فوق الحسية التي تفضي إلى وفاقها الحر وانسجامها الذاتي.

يختتم "جيل دولوز" كتابه بالتأمل في غايات العقل متفحصاً لثلاث مسائل هي:

أ - مذهب الملكات . ب - مذهب الغايات. ج - التاريخ والتحقق.

ويذكر في الباب الأول: إلى أن المؤلفات النقدية الثلاثة تمثل نظاماً حقيقياً للتبادل؛ لأن الكتابين الأولين يعرضان علاقة بين الملكات، تحدها إحداها. في حين يكتشف النص الأخير وفاقاً حراً وغير محدد بين الملكات، هو شرط إمكان أي صلة ممكنة بينها. ويؤكد "دولوز"، من ناحية أخرى وفي نفس السياق أن طرافة مذهب الملكات عند كانط تركز على خصوصية كل ملكة عليا وعلى محدوديتها. ويعيد "دولوز" في المستوى الثاني إلى الأذهان أهم ما جاء حول مسألة الغائية والمقارنة بين الحكم الاستيطقي والحكم الغائي الخ... ويسأل في النهاية: كيف يمكن للإنسان الذي لا يمثل هدفاً نهائياً إلا في وجوده الفوق حسي *Suhraseusitle* أن يكون غاية نهائية للطبيعة الحسية؟ والإجابة باختصار شديد هي: تعد الحرية الوسيلة الفريدة للتحقيق.

## 2- 24: "فوكو" وتجليات هيمنة السلطة:

تصدى "فوكو" إلى تجليات هيمنة السلطة من خلال بحثه في موضوعات، متخصصة قد تبدو بعيدة عن موضوع "السلطة" مثل "الجنون" و"الطب العقلي"، و"أركيولوجيا العلوم الإنس" و"ولادة السجن"، وغيرها من الموضوعات التي قام "فوكو" بالغوص فيها، وإعادة النظر في مسلماتها، عبر منهج جديد أطلق عليه (أركيولوجيا المعرفة)، وتمثل بتطبيق هذا المنهج في كتبه الرئيسية الثلاثة: (تاريخ الجنون والكلمات والأشياء، والمراقبة والعقاب)، وهي الكتب التي تمثل بالفعل كشفه عن الصراع بين المعرفة والسلطة<sup>131</sup>.

وبهذا المنهج أحدث "فوكو" انقلاباً ابستمولوجياً في الفلسفة الأوروبية المعاصرة والعلوم الإنسانية بصورة عامة، وقد أتاح له التوغل في أعماق الثقافة الأوروبية، أن يبرز أن السمة الجوهرية المميزة للمجتمعات الغربية ليست في النزوع العقلاني، ولكن في إنكارها لكل ما لا يخضع لها أو يخرج عن نظامها الحضاري.

ومن ضمن أطروحاته الأساسية، أطروحة التضاد بين السلطة والمعرفة ففي كتابه (المراقبة والعقاب). يقوم بتفكيك وفذلكة آليات السلطة وجبروتها، فهو يرى: أن السلطة عبارة عن مجموعة من التدابير والحيل والوسائل والتقنيات، تمارس أكثر مما تمتلك، لأنها نتيجة مواقعها الاستراتيجية وبناء عليه فإن السلطة إنما هي مجرد أساليب وفنون، تتخلل سائر أنواع الأجهزة والمؤسسات

<sup>131</sup>- ظاهر علاء ، المرجع السابق ، ص.67.

لربطها بعضها ببعض لتتظافر، ولتكون في ممارستها أكثر فعالية. ثم إن السلطة في ممارستها هي دائماً فوق القانون، فهي التي خلقت القانون، وفقاً لمصالحها، وتطبيقاتها الاستراتيجية الطويلة الأمد. يقول "فوكو": بأن القانون لم يوضع لمنع هذا النوع من السلوك أو ذلك؛ بل سنن لتقنين طرق مراوغة القانون نفسه<sup>132</sup>.

وبالتالي فإن السلطة مهما كانت إيديولوجيتها فإنها تبقى سلطة استبدادية، وقمعية على كافة مستوياتها وفي كل ممارستها وحركيتها الداخلية، والمعرفة هي وحدها القادرة على كشف حقيقة السلطة، وتعريفها لذلك شهدت الحقب التاريخية المتوالية، صراعاً مضطرباً بين السلطة والمعرفة. إن الفلسفات التي تريد نقض الواقع أو تغييره لا بد لها من مقارنة الظواهر وفق منهج جديد يؤسس لفلسفة نقدية صلبة وقراءة دقيقة تسعى إلى إيقاظ الوعي الأوربي من قيود البديهيات و"الحقائق" التي لم تعد تقبل الجدل والمحاكمة.

وفي هذا الإطار فإن اهتمام "فوكو" بدراسة ظاهرة الجنون، كعضلة وكمرض، ثم كرد فعل حضاري "عقلاني" كان بهدف الوصول إلى جذور التفكير العقلي للثقافة الأوربية وتحديد دوافعه. وبما أن الجنون ظاهرة ثقافية، حسب رؤية "فوكو". فإن التساؤل حول أصول الظاهرة يطرح بالضرورة طبيعة المناهج التي على ضوءها يمكن التفريق بين ما هو عاقل وما هو مجنون، كما يحيل إلى الشروط التاريخية التي تولدت عنها الظاهرة ونشأ عنها كذلك فعل التفرقة واللغة المعبرة عنه<sup>133</sup>.

ومن نافلة القول: أن "فوكو" أحدث بمنهجه الاستمولوجي، ونفذه التفكيكي ثورة فكرية هائلة، قلبت المفاهيم الفكرية رأساً على عقب، وهزت البنيات الثقافية والمعايير الأخلاقية السائدة في المجتمعات الأوربية، ولعله بذلك قد قدم درساً متألقاً من دروس الفلسفة عبر عصورها الممتدة.

## 2- 25: هيدجر متلازمة الانهيار والقلق والذات:

عبرت اطروحات "هايدغر" حول الوجود والزمان عن حالة الانهيار، وبأن الشعور بالقلق، يؤدي إلى الوعي بالموضوع، أي التفاعل والترابط بين الذات الإنسانية وبين الموضوع، ارتباطاً حضارياً؛ لأن الموضوعات كأجزاء، تتمخض عن بناء حضاري عام. ووجود الذات في العالم كعلاقة وجودية يطرح قضية الذات بصحبة الذوات الأخرى أي الوجود مع الآخرين.

وهذه العلاقة تجعل الذات تعي انفراديتها، أي الانفصال النسبي عن جماعة، تفرض وجودها على الذات، فالشعور بالفرديّة يكون على نقيض الوجود الجماعي. ثم يميز بين الوجود الزائف

<sup>132</sup>- ظاهر علاء ، المرجع السابق ، ص.67. وعدة صفحات.

<sup>133</sup>- ظاهر علاء ، المرجع السابق ، ص.67. وعدة صفحات.

والوجود الأصيل وهو الوجود الذي تدرك فيه الذات مسؤولية وجودها والحرية المترتبة عن ذلك رافضة الذوبان داخل عالم الآخرين.

أما الوجود الزائف فهو الحالة التي تكون فيها الذات في توافق كلي مع العالم أي مع كل الذوات الأخرى الفاقدة لخصوصيتها وتصلها، وهذا الاندماج يجعلها، تنهرب من المسؤولية المبنية على الحرية، وبذلك تكون في موقف محمي من الشعور بالقلق الضروري لإدراك حقيقة الوجود الأصيل ومسؤولية مواجهته<sup>134</sup>. إن كل فرد معرض للوجود الزائف، إذا لم يتميز بالاستقلال والخصوصية، لأن الإنسان موجود في عالم الأشياء، ووسط حقائق متعددة ومحاصر على الدوام بخطر الاغتراب والسقوط في عالم التشيؤ، وبوسعه فقط عن طريق الحرية والمسؤولية أن يكون له إدراك أصيل يجنبه الوقوع في برائين الاستلاب من قبل الموضوع.

وانطلاقاً من فكرة التعالي، تتجاوز الذات الفردية حالة اليأس فتتطلع نحو المستقبل باعتباره المجال الذي تمارس الذات داخل مجاله الرحب إحدى إمكانياتها المتعالية فوق حقيقة وجودها داخل مجاله أي نحو إدراكها لحريتها ومسؤوليتها لصنع مستقبلها وفق النموذج الوجودي لنظرية الزمان "الهايدغري" مما يدل على أصالة هذا الفيلسوف وتفرد مشروعه التنظيري.

## 2-26: "جون رولز" ونظرية الوفاقات المعقدة:

[منهج الاختيار العقلاني]:

أهتمَّ الفيلسوف الأميركي "جون رولز"، صاحب كتاب "قانون الشعوب"، بنظرية العدالة التي طالما شغلت الفلاسفة منذ أفلاطون، حيث بحثوا عن قواعد كلية وثابتة للعدالة، يمكن للعقل أن يصل لها. ويُعد "جون رولز"، ممثلاً للاتجاه العقلاني الذي يحاول متابعة خط الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانت" الأخلاقي في تأسيس قاعدة عقلية للعدالة، ولكنها لا تستندُ هذه المرّة إلى أساس ميتافيزيقي، فأراد أن يُحررّ القيم الأخلاقية من كل ما هو مُفارق ومتعال وفي الوقت نفسه لا يضعها كمجرد محاولات تجريبية بلا سند عقلي.

جمع "جون رولز" بين نظرية الأخلاق الكانتيّة التي تقول باستقلالية الشخص، وتلك التي تقوم على فكرة العقد الاجتماعي، حيث أعاد الروابط مع التراث الفلسفي للعقد الاجتماعي؛ إنه ينطلق في البحث عن العدالة في ممارستها كإنصاف من خلال ما يسميه بمنهج "الاختيار العقلاني".

عمل "جون رولز" على استقلال المفهوم السياسي للعدالة عن المنظورات الشمولية في تصوُّرها للخير. ففصل الحقّ عن الخير في مسعى منه لتأسيس فكرة "الموقع الأصلي" الرئيسية في نظرية العدالة التي يحددها "رولز" وفقاً لمبدأين هما:

<sup>134</sup> - طاهر علاء ، مرجع سابق، ص 117.

الجسور ليست مقطوعة بينها، مثلاً في ناحية الهاجس العلمي عند كانت؛ فالقانون الأخلاقي شبيه من حيث الشكل، لا المضمون للقانون العلمي؛ إذ أن الاثنين ما قبلين وكونيان، ثم إن "نقد العقل العملي" و "نقد الحكم" يتضمنان تنظيمًا ما للملكات المُخيلة - الفهم والعقل - التي ارتبطت في "نقد العقل الخالص" بالأنموذج العلمي.

**الأول:** لكل شخص حق متساوٍ في أقصى قدر من الحرية، مقارنةً بمخطط مشابه للحرية للجميع، يلزم هذا عن الموقف الافتراضي للمتعاقدين، كمتكافئين يستحقون معاملةً متساوية، فلا يستطيعون التقاط مجموعة من الترتيبات التي تخرق هذه السمة الأساسية.

**الثاني:** فلا بد أن تفي التفاوتات الاجتماعية بشرطين، هما: لا بد أن تكون:

(أ) لأقصى فائدة للأقل حظاً.

(ب) مرتبطة بمناصب ومراكز مفتوحة للجميع في ظل شروط تكافؤ الفرص.

إن استقلال المفهوم السياسي للعدالة مسألة ضرورية لقيام الوفاقات المعقدة والإجماع المتداخل كما يراها "رولز"؛ فالوفاقات المعقدة لا تعني أن يُضبط مفهوم العدالة ويكَيَّف للتوفيق بين منظورات شاملة؛ كما لو أنه صمم بقصد إقامة التسويات بينها، أو تبنى طبقاً لأفكار كامنة في تلك المنظورات.

ولا تعمل هذه الوفاقات على أساس خلافات محض جدالية حول المفهوم السياسي للعدالة. ففي صياغته لمبادئ العدالة، لا يهتم "رولز" بمقدمات ومبادئ المنظورات الشاملة، فهو يستنتج هذه المبادئ من أفكار متضمنة في ثقافة الديمقراطية. لقد أستحضر "رولز" فكرة الوفاقات المعقدة ليكشف كيف يمكن للمفهوم السياسي للعدالة أن يكون ثابتاً ومستقراً في وجه اختلاف المنظورات الشاملة. وكذلك كيف يكون مستقلاً وسط مفاهيم متباينة للخير؛ بالإضافة إلى طريقة تحقيق انسجام العدالة مع الخير الشخصي. ومن هنا تأتي حاجة "رولز" لتفسيره: لماذا تتولد قناعة عند الأفراد تكون كافية للقيام بالفعل، وفقاً لما تتطلبه العدالة في سياق المفهوم السياسي للبرالية حيث العدالة كإنصاف، نظراً لأن الكثير منهم لا يريدون أن يكونوا فاعلين مستقلين.

فكرة الوفاقات المعقدة تقوم على أساس افتراض: إن المواطنين الراشدين في مجتمع منظم يمكن أن يتبنوا استقلالية المفهوم السياسي للعدالة لأسباب قد تكون خاصة بوجهات نظرهم والمذاهب.

## 2-27: الفرويدية التقليدية والجديدة عن طبيعة الإنسان وغرائزه:

طرحت مسألة استيلاّب الرغبة الجنسية عند كل من ("فرويد"، و"فروم"، و"ماركوز") كموضوع يندرج ضمن اهتمامات الفلسفة النقدية الغربية. وسوف نعرض لوجهة نظر "فرويد" الذي قام بالبحث في اللاشعور، والرغبات الجنسية الدفينة من خلال الخوض في عوالم الفرد الداخلية من

أجل الكشف عن الحقائق المكونة للذات. وقد انبثقت عن منهجه في التحليل النفسي نظرية الرغبة الجنسية والتفسير العلمي للأحلام. وربطها بالبنية الحضارية والبعد الديني. وتتوسع الدائرة لتضم التشكيلات الاجتماعية التي تشكل مصدرا لتوجيه أدوات السيطرة الموجهة في النهاية إلى الفرد. ويرى "فرويد" أن الفرد بحكم تكوينه النفسي إما موضوع للاحتواء من قبل التشكيل الاجتماعي أو موضوع لتثوير طاقاته، ورغباته وتوجيهها في قنواتها الطبيعية<sup>135</sup>.

طرح "فرويد" قضية الأحلام مفتاحا لتشابكات الحياة وتعقيداتها. كان لظهور افكار يونك عن اللاشعور الجمعي والنماذج الأولية والاساطير والديانات وفنون الشعوب البدائية في كتابات الفلاسفة الآخرين. [في ضوء نظرية يونج تعتبر النماذج الأولية او الانماط البدائية **Archetypes** المكونات الأساسية للشعور الجمعي وهي حسب رأيه، الصور والافكار اللاشعورية الجمعية الموروثة من تراث الاسلاف وعبر الاجيال والتي تتمثل في افكار مشتركة بين البشر مثل الافكار والصور الخاصة حول الله والشيطان والخير والشر والحياة والموت وتتجسد هذه الافكار في الاعمال الفنية العظيمة التي يطلق عليها يونج الفنون التي يكشف عنها الفنان].

وقد تكون مكامن المتعة تكمن في اللاشعور، وهناك من يجد في السلاح والصيد تسلية ومتعة بعد ذاتها اومادة للاستمتاع. وقد يكون مثل ذلك الانتفاع والاستمتاع مهدداً لأننا أو ضارة بها، لو قدمت بشكل أو بآخر. ان قادة الجيوش ينظرون الى نيران المناورات العسكرية والمدافع والصواريخ وتجاربها واستخداماتها الوانا من الوان المتع شأنهم شأن الناس الاسوياء المتمتعين بمشاهدة الاعمال الفنية التي تعتبر بالنسبة لهم اعمال ابداعية في مجال فني معين. لقد كمنت في افكار البعض صور من الحكايات الخرافية والملاحم الاغريقية والحروب التي شكلها اللاشعور المكبوت من الافكار اللاشعورية الجمعية الموروثة.

من هنا يمثل اللاشعور مكانة محورية في مخيال العسكريين ومصممي الاسلحة باعتباره وحدة او هوية دينامية تحوي بداخلها الاندفاعات الغريزية، كما تحتوي ايضا الرغبات والذكريات والصور العقلية والامنيات المكبوتة والمحرمة وغير الواقعية. ولما كان فرويد قد اهتم بدراساته حول "الهستيريا" في ما بين العامين (1894-1895)، مؤكدا في دراساته حول اهمية اللاشعور التي منها كانت منطلقاته لتطوير افكاره الخاصة حول "الكبت" و"الصراع العقلي" و"الطرح" و"الاسقاط".<sup>136</sup> أظهرت سيرة اغلب المتورطين في أفعال الإبادة وغيرها يمكن ان تشير الى انهم

<sup>135</sup> - طاهر علاء ، نهايات الفضاء الفلسفي – الفلسفة الغربية بين اللحظة الأنية والمستقبل، ص. 133.

<sup>136</sup> - إهتم فرويد بدراسة الهستيريا منذ عام 1880 بالاشتراك مع جوزيف بروير **Joseph Breuer** (1841-1925) احد اطباء فينا المشهورين. وقد اتضح لهما من خلال نتيجة تلك الدراسة "ان الاعراض الهستيرية انما تنشأ عن ذكريات مكبوتة في اللاشعور، وان هذه الاعراض تزول اذا ما استطاع المريض تذكر تلك الذكريات اثناء العلاج.

كانوا مُحبطين في واقع حياتهم، لانهم ارادوا الثروة او القوة او الشرف وحتى الحب، ولكن عندما نقصت بأيديهم الوسائل لتحقيق تلك الاشباعات لجأوا الى القوة المفرطة المدمرة للآخر وللذات أيضا.

ان مقاربات "فرويد" التحليلية النفسية يمكن وضعها موضع التطبيق على كثير من الحالات الخاصة عند تناول الاليات التي يلجأ اليها البعض بحجة الدفاع عند الهجوم. ولا تخفي تلك لمقاربات شاعر الكبت والتسامي والنكوص والتناقض الوجداني وايضا آليات الحلم وبشكل خاص التفكير والتكثيف.. الخ<sup>137</sup>.

ان اطار الممارسة ضمن العملية العامة الخاصة بمحاولة الانكار، المراوغة، او الهروب الرمزي من مسؤولية الاعمال المنفذة باسلحة الدمار الشامل... ولكن في جميع الحالات كان التنفيذ لا يبتعد عن اشباع الرغبات في المخيال او عمليات التخيل واحلام اليقظة، كما هو الحال في كثير من الحالات منها: .

- في الفضاء الافتراضي السيبري توضع تحت تصرف اليافعين برامجيات لاستخدام اسلحة افتراضية والهجوم على اعداء مفترضين لإبادتهم. ولا تخلو قاعدة أمريكية داخل العراق وأفغانستان من توفر ألعاب الفيديو والحواسيب لإشغال الجنود بألعاب تُمكنهم من قتل وابداء خصومهم على شاشات الالعاب الالكترونية تنفيسا للرغبات الكامنة في الانتقام، ولتخفيف التوتر عندهم بعد عودتهم من الدوريات والمهمات العسكرية خارج القواعد. حيث تعاد مشاهدة الافلام والتسجيلات في القواعد بساعات الراحة والاسترخاء.
- مشاهد الانتقام المدمر للقوات العراقية المنسحبة من دون قتال شمال الكويت، وجنوب العراق نهاية فيفري 1991، وتدميرها كليا من قبل الطيران البريطاني بطريقة بشعة وسادية بما سمي بمقبرة الدبابات والآليات العراقية بجنودها وحديدها.
- حرق المزارع العراقية خلال فترة الحصار(1991-2003) بالمشاعل الحرارية من قبل الطائرات الامريكية والاسرائيلية لحرمان العراقيين من الغذاء وتشديد آليات الحصار الغذائي مذابح صبرا وشاتيلا الثانية، وقتل الجنود المصريين الاسرى والمنسحبين في صحراء سيناء جوان 1967، وتركهم يسيرون حفاة وعراة على رمال سيناء الساخنة.
- تسريب صور السجناء والاسرى من سجون ابي غريب وغانتانامو الى الاعلام.
- مجازر غزة ومشاهد نقل صور القصف بالفوسفور الابيض الحارق.

---

لاحظ: فرويد سيجموند ، "الانا والهو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1981.  
137 - هامش عن رد فعل وتبرير الامريكيين باستخدام السلاح الذري بعد تعرضهم الى هجمات اليابانيين في بيرل هاربر هنا نكتب في الهامش ما كتبه الطيار الذي قصف هيروشيما على غلاف القنبلة الذرية عن امه Fat Boy

الاثار المتصلة بالعباب الاطفال والعنف واللعب الخيالي باستخدام اسلحة الابداء حضرت عند تنفيذ احلام اليقظة والتخييل خلال مناورات افتراضية الكترونية باستعمال "القوة المفرطة". كما يُلاحظ في سلوكيات الطيارين الامريكيين والاسرائيليين الكثير من "واقعية الكتاب الخيالي"، وهي انطباعات للصورة والمادة البصرية المُغذاة من الذاكرة لهم وهم صبيان وشباب اثناء التدريب والاتحاق بمعسكرات الجيش، ما كان يمنحهم المتعة والاثارة، وحتى التذوق اثناء لعبة التدمير للآخر. والتدريبات تفسح المجال للغرائز للانطلاق من مكبوتاتها واطلاق المتع الغريزية او التنفيس عن متع اخرى كامنة رهينة التحرر من التوترات النفسية والعقلية والموجودة في كوامن العقل الباطن، وهي افعال تمارس كما لو كانت فرصا للاستمتاع بأحلام يقظة خاصة بالفرد والمجموع وتمارس دون ندم شخصي او شعور بالعار او الخجل<sup>138</sup>.

ان التعلق بوضع شعار النسر او اجنحة الطيران استدلالا بالقوة الجوية "رمز القوة" (لوحظ الرئيس بوش ببدلة سلاح الطيران الامريكي على حاملة الطائرات الامريكية في الخليج العربي اثناء لحظة اعلانه انتهاء حرب الخليج بعد احتلال العراق)، وهو تعلق بالطموح والرغبة في العلو والتفوق على الغير.

كما ان وقوف القادة السياسيين امام الكاميرات الحربية، مع التعلق باظهار ابتسامة ما، امام عدسات الكامرات تعبران عن غرائز الحياة للاقوى، وغرائز الموت للآخر، وهي تشكل مركب متكامل من الشعور المعقد الذي تركته السينما الامريكية والاوربية بعد الانتصار على المانيا واليابان بتصوير الأخرمهمزوما. وبذلك مارست السينما الامريكية تأثيرها على اجيال من العسكريين، لما قدمته من دور خاص لمبدأ "اللذة والاشباع الرمزي للرجبات الغريزية البدائية"، وبذلك تكيف الى ما ذهب اليه فرويد نفسه: ( ان اللذة تستمد من النشاط السيكولوجي الخاص نفسه الذي يقوم به الانسان).

وفي حالات عديدة يكون من الصعب ازاحة تخيلات لاشعورية او تحويل افكار ومشاعر سلبية خاصة بالعدوان والكراهية والانتقام وتحويلها الى افكار ايجابية.<sup>139</sup>

لقد عالجت كتابات "كلاين" ما يسمى بنظرية "الموضوعات الداخلية" **Internal Object Theory**، وطرحت افكارا حول اليات "الاستدماج" **Introjection**. التي تقوم بها "الأنا" منذ وقت مبكر داخل التكوينات النفسية للفرد، وما تتفاعل به هذه التكوينات مع العلاقة المبكرة بصدر الام من علاقات سلبية وايجابية، ترتبط بدورها بغرائز الحياة "الاشباع" او الموت "الحرمان" فصدر الام

<sup>138</sup>-Freud, Creative Writers and Day Dreaming in P.E.,

Vernon(ed)Creativity,London,Pernguin Books,126-138

<sup>139</sup> - Klein,M. Rivere,JLove,hate,and reparation N.Y. ;W.W.Norton and Campany ,65-68, New York(1964).

هو الموضوع الاول الذي تسقط مثل هذه المشاعر عليه، كذلك هو موضوع يتم استدماجه في التكوين النفسي الداخلي للطفل. ومن خلال الاسقاطات العديدة التالية قد تتدنى او ترتقي الانا باشكال مختلفة. وكلما زاد تمكن الانا من احداث التكامل الايجابي بين دوافعها التدميرية هذه زادت قدرتها على احداث التركيب او التآلف بين الجوانب المختلفة من الموضوعات ومن ثم تصبح هذه الانا اكثر غنى.

ان الجوانب المنقسمة من الانا، وكذلك الاندفاعات التي يتم رفضها او انكارها-لأنها تستثير القلق وتؤدي الى الالم- تشتمل كلها على جوانب من الشخصية لها قيمتها الخاصة، رغم ان الجوانب المرفوضة من الذات- ومن الموضوعات الاخرى الداخلية تساهم في عدم الاستقرار او اختلال الاتزان النفسي، فانها ايضا قد تكون مصدرا للالهام في العديد من النشاطات الثقافية والفنية.<sup>140</sup> .  
لقد اكدت دراسات "كلاين" Klein,M<sup>141</sup> على غرائز العدوان والتدمير، مقابل تأكيدات فرويد على غرائز الجنس والحياة، وأشارت كذلك الى ان أي موضوع من موضوعات الحياة، وأي انفعال من انفعالاتها ينقسم في جوهره الى قسمين او شقين متعارضين: احدهما جيد والآخر سيئ، وهذه آلية او ميكانيزم له اهمية خاصة في نظريتهما، والتي تركت الاثر على العديد من المحللين النفسيين، ومن اتباعها مثلا "حنا سيغال" التي ترى:

(... ان كل اشكال الابداع هي اعادة ابداع لموضوع او شخص احببناه ذات مرة وكان من خلال تلك المرة السابقة كاملا، لكنه الان مفقود ومحطم في عالمنا، بذات محطة او مدمرة تحاول ترميم نفسها من خلال الابداع). (ان العالم الداخلي الخاص بنا عندما يتحول مدمرا، عندما يكون ميتا، عندما يكون مفتقرا الى الحب، عندما يتحول الاشخاص الذين أحببناهم الى شظايا ونثار، عندما نصبح نحن انفسنا في حالة من اليأس والافتقار التام الى المعنى، حينئذ يكون علينا ان نخلق عالما مجددا، أي ان نعيد تجميع شظاياها وقطعه المتناثرة ونبعث الحياة في البقايا الميتة منه، ونعيد ابداع حياتنا من جديد)<sup>142</sup>.

ظلت ماهية الانسان واحدة من القضايا المحورية في كثير من العلوم، الفلسفة، الاجتماع، علم النفس، علم الاخلاق النظري وعلم الجمال وغير ذلك من العلوم. فلقد سعى الانسان عبر آلاف السنين الى ان يحل لغز ذاته. ولقد طرحت هذه القضية في فترات تاريخية مختلفة وبذلت محاولات

<sup>140</sup> - عبد الحميد شاكر ، التفضيل الجمالي، عالم المعرفة، العدد 267، ص 149، الكويت، (2001).

<sup>141</sup> - Klein,M ، مرجع سابق.

<sup>142</sup> -Bucky, Ped. Essential Pappers on Object Relations N.Y. University Press, Vii New York, .(1986).

لحلها بمختلف الطرق، وارتبط ذلك اولا وقبل كل شئ بواقع ان الانسان ذاته يتطور في سياق التطور التاريخي وتطور الظروف التاريخية<sup>143</sup>.

لقد سبق لاصحاب النزعة البيولوجية عند فرويد ان نظروا الى الانسان بوصفه جوهرًا بيولوجيًا محضًا، وعلى انه مجموعة ثابتة لا تتغير من الرغبات والاحتياجات النفسية ( انظر نظرية فرويد ذات طابع نفسي بيولوجي يرتكز على الغرائز. ان نظرية الغرائز ذات الاسس الميتافيزيقي التي يرتكز عليها التحليل النفسي نظرية ساذجة يكتنفها الغموض والتجريد).

كما ان النظريات التي تتمحور حول مثل هذه المفهوم عن ماهية الانسان ظلت ذات صبغة محافظة، لأن انصارها كانوا يسعون الى تفسير كافة قصورات الممارسة العملية بإرجاعها الى طبيعة الانسان الداخلية الثابتة، التي هي مصدر كل الشرور في نظرهم. وقد استغل مفكروا الطبقات التي تمارس الاستغلال هذه النظريات لتبرير الحكم المتعسف، والمجتمع اللا انساني واللا شرعي. هذا الطابع السلبي الموصوف لمثل هذه النظريات، طالما انها تعرض لنا الاستغلال والظلم الاجتماعي والحروب وما شابه ذلك من الشرور على انه نتاج للسمات الأزلية للطبيعة البشرية.

يرى فرويد ان المجتمع نتاج لثلاث متغيرات مستقلة:

1- الضرورة النابعة من الطبيعة Ananche.

2- غريزتا الحب والموت Eros and Thantos.

3- مختلف الانظمة والمثل التي تشكل البيئة الاجتماعية أو المجتمع.

ويتشكل تقدم المدنية بتفاعل هذه المتغيرات الثلاث. كما يرى فرويد ان المجتمع ظاهرة تراجمية عميقة، طالما انه غير مستقر ولا يعتمد عليه، مفترضًا ان تركيب هذه المكونات الثلاث وتصالحها ليس أمرًا لا طائل منه فحسب، بل هو أمر مستحيل تمامًا من حيث المبدأ. وفي نظر فرويد " ان المدنية عملية في خدمة الحب "الايروس" وتهدف الى جمع البشر على مستويات عدة لاجل منافع العمل المشترك ، كذلك فان غريزة الانسان العدوانية الطبيعية-عداء كل فرد لكل وعداء الكل لكل فرد- تعارض برنامج المدنية. ان غريزة العدوان مشتقة من غريزة الموت وهي الممثل الرئيسي لها، تلك الغريزة التي نجدها جنبًا الى جنب مع الحب الذي يشاركها السيطرة على العالم"<sup>144</sup>. وجود تنوع من النظم الاجتماعية في رأي فرويد ناتج عن الصراع الفطري الناشئ عن تكافؤ الضدين، أي الصراع الداخلي بين نزعتي الحب والموت"<sup>145</sup>.

<sup>143</sup> - دوبرينكوف ف، الفرويديون الجدد، دار الفارابي، ط1، ص 35 بيروت، (1988).

<sup>144</sup> - فرويد سيجموند، في كتابه "المدنية ومنغصاتها"، ص 62.

**Sigmund Freud, Civilisation and its Discontents, pp.62**

<sup>145</sup> - فرويد سيجموند، المرجع السابق ص 80.

وفي هذا الصدد يقول عالم النفس الاميركي "نورمان براون" ملاحظة بارعة تقول (بان التاريخ في تفسير فرويد "يتشكل خارج نطاق ارادتنا الواعية، لا من خلال دهاء العقل بل من خلال دهاء الرغبة" [راجع نورمان براون "الحياة ضد الموت"].

كل فرد بنظر "فرويد" عدو محتمل للمجتمع، لا لأنه يكن في نفسه رغبات مدمرة فحسب؛ بل أيضا لأن الغالبية العظمى من الناس في رأية كسالى، سخفاء العقول، يفتقرون الى القدرة على التوافق مع الحياة الاجتماعية.

ان نظرية "فرويد" عن الوضع البشري، وعن الطبيعة البشرية تحمل سمات مقارنة للمفاهيم التي قال بها كل من ميكافيللي وشوبنهاور؛ فكل مبدأ من مبادئ الخير غريب عن ماهية الانسان، ومن هنا فإن الشر والنزعات العدوانية هما اللذان يسودان العالم. فالانسان في رأي فرويد لم تكن لديه مشاعر ودوافع انسانية وليس لديه الآن مثل هذه الدوافع والمشاعر فالذي يكبحه ويمسك بزمام طبيعته المعادية هو اجتماعي هو الخوف من العنف فحسب<sup>146</sup>.

كما ان رؤية فرويد للأمال المعقودة على تطور المدنية متشائمة بالقدر نفسه. ويمثل هذا التشاؤم عند فرويد نتيجة طبيعية لنظريته عن أصل المدنية وتطورها والمبنية على اساس التحليل النفسي. كما ان فرويد يستخدم نتائج مستخلصة من تحليل سلوك أفراد من المرضى ويسحبها على المجموعات الاجتماعية والعرقية وعلى شعوب بأكملها. ان فرويد يتجاهل الاختلاف الكيفي بين السوي والمرضي عندما يؤكد ان الافراد الاصحاء يختلفون عن العصائيين في ان الاصحاء معرضون لاشكال من العصاب مفيدة اجتماعيا<sup>147</sup>.

من هنا يتضح السبب في انه لا مكان للعقل في نظرية التحليل النفسي عند فرويد. فالدور الحاسم في نشاط الانسان العقلي المتنوع يعزى لغرائز لا شعورية بيولوجية محددة سلفا. اما العقل فانه يقدم فحسب بوصفه عنصرا تابعا، فالمثالية والميتافيزيقا يشكلان الاساس الفلسفي الذي تقوم عليه ابنية التحليل النفسي المعقدة بأكملها<sup>148</sup>.

كان " أريك فروم" أول من أشار الى أن النظرية الفرويدية التقليدية ليست مؤهلة لتفسير مسألة العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع<sup>149</sup>. ومع هذا فإن عملية اعادة التقييم للفرويدية التقليدية لم

146 - دوبرينكوف، ف.، الفرويديون الجدد، مرجع سابق، ص 16

147 - دوبرينكوف، ف.، " الفرويديون الجدد" ، مرجع سابق، ص 17.

148 - دوبرينكوف، ف.، " الفرويديون الجدد" ، مرجع سابق، ص 18.

149 - " أريك فروم" : عالم الاجتماع والنفس الاميركي، ولد في المانيا عام 1900، تخرج من جامعة هيدلبرج ودرس الفلسفة واستلهم الكثير من اعمال فرويد. وهو واحد مؤسسي الاتجاه الفرويدي الجديد في التحليل النفسي عمل في معهد الدراسات الاجتماعية في فرانكفورت من 1929 الى 1932 وتأثر فروم بما سمي بمدرسة فرانكفورت في علم الاجتماع وقد اصبح فروم معروفا كمتخصص في تطبيق التحليل النفسي على دراسة القضايا الاجتماعية بعد صدور كتابه "الهروب من الحرية" سنة 1941، بعدها صاغ افكاره الاساسية في اعماله اللاحقة مثل "الانسان لذاته" 1947، "المجتمع العاقل" 1955، "فن الحب" 1956، "هل يسود الانسان" 1961.

تتخلى عن رأي فرويد في دور الغرائز، الا انها استبدلت الغرائز البيولوجية، تلك التي تحدد السلوك الانساني عند فرويد، باحتياجات الانسان النفسية الاساسية. فالباحثة " كارين هورني " Karen Harne نادت باتجاه إجتماعي في التحليل النفسي، نظرا لاقتناعها بأن الثقافة ينبغي ان تتبوأ مكانة مركزية في نظرية تطور الفرد، وبأن الثقافة هي العامل الحاسم والاكثر أهمية في تكوين شخصية الفرد النفسية<sup>150</sup>.

صاغ "أريك فروم" نظريته النفسية الاجتماعية على اساس "مفهوم فلسفي انتروبولوجي للوجود الانساني"<sup>151</sup> للرد على انصار النزعة النسبية، وأنصار النزعة الجوهرية البيولوجية، وفي محاولة لتقديم تفسيره الخاص "الجوهري" في الانسان. فهو يرى: ( إن الشرط الوراثي المسبق لظهور الانسان كان اضمحلال قابلية التكيف البيولوجي لدى الحيوان مع بيئته، الذي جرى في مرحلة معينة من تطور العالم الطبيعي، فكلما ثبت عجز الجهاز البيولوجي للتكيف الغريزي مع العالم، كلما تطور مخ الانسان وقدرته على التفكير وقدراته الواعية على تعديل سلوكه).

وحسب "فروم": (على الرغم من ان الفرد يشكل جزء من الطبيعة فانه يتصارع معها). كتب "فروم" ايضا: (لقد جعل وعي البشرية بذاتها الانسان غريبا في العالم، منفردا، وحيدا وخائفا).<sup>152</sup> ان المدخل الاخلاقي المحض الذي صاغه "فروم" لتقييم الطبيعة الانسانية يجعل من الممكن استنتاج انه يرفض كلا من الفكرة القائلة بأن الانسان كائن شرير بطبيعته "عند هوبر"، والفكرة المناقضة لها والقائلة: بأن الانسان خير بصفة أساسية "عند روسو". وهو يعارض هاتين الفكرتين بالفكرة القائلة: بأن ماهية الانسان لا يمكن تصنيفها بطريقة أمينة، على أنها خيرة بالكامل او شريرة بالكامل. ولا يوافق في الوقت ذاته على فكرة فرويد القائلة: بان الخير والشر يوجدان على نحو متكافئ في داخل الانسان، وانهما في حرب دائمة. ( اذا اعتقد المرء بأن خيرية الانسان هي الامكانية الوحيدة، فسوف يضطر الى اضافة طابع وردي زائف على الوقائع، أو ينتهي الى صحوة من الوهم مريرة. واذا اعتقد في نقيض ذلك فسوف ينتهي الى ان يكون كلبيا، والى العمى عن امكانيات الخير في الآخرين وفي ذاته، اما النظرة الواقعية، فترى ان كلا الامكانييتين واقعتان، وتدرس شروط تطويرهما)<sup>153</sup>.

---

"مفهوم الانسان عند ماركس" 1961، "خارج قيود الوهم" 1962، "قلب الانسان" 1964، وغير ذلك من مجالات مؤلفاته الاكاديمية في حقل الفلسفة والاجتماع وعلم النفس وعلم الاخلاق النظري والدين... الخ. وقد سعى فروم الى ان "يقدم مركبا" من الفرويدية والماركسية مخضعا هذه الاخيرة لتفسير انتروبولوجي.<sup>150</sup> - كارين هورني، "طرق جديدة في التحليل النفسي"، ص 9 و 13.

Karen Harney, The Neurotic Personality of our time, p.IX, New York, 1937

<sup>151</sup> - فروم أريك، "الهروب من الحرية"، ص 22.

<sup>152</sup> - فروم أريك، "قلب الانسان"، مرجع سابق، ص 117.

<sup>153</sup> - فروم أريك، "قلب الانسان"، مرجع سابق، ص 123.

ورغم ان " فروم " كان يرى: انه توجد في كل مجتمع بنية شخصية مشتركة اصيلة، بغض النظر عن طبيعته الاجتماعية، بنية مشتركة بين غالبية جماعات وطبقات مجتمع ما، ويرى " فروم " ان هذه " الشخصية الاجتماعية " هي النواة النفسية للفرد التي لا تشكل سلوكه فحسب؛ بل أنماط تفكيره وانفعالاته ايضا، وفي الحقيقة إدراكه الكلي للعالم الخارجي وعلاقته مع هذا العالم. ويرى " فروم ": ان النسق الشخصي يمكن اعتباره " البديل الانساني للجهاز الغريزي عند الحيوان " <sup>154</sup> . وان الدور التكيفي له ذو أهمية بالغة للفرد.

ورغم تشكل الشخصية الاجتماعية في ظل تأثير عوامل اجتماعية عدة منها نظام التعليم والدين والادب والفن وعملية تنشئة الاطفال في اسرهم ومحيطهم الاجتماعي فان فروم يذهب بعيدا عن " فرويد " من خلال نتائج دراساته حول انماط الشخصية الاجتماعية فهو يرفض تأكيدات " فرويد " المسرفة على ان شخصية الانسان تتشكل تماما والى الابد خلال المرحلة المبكرة من النمو نحو (5-6) سنوات، وانه حسب " فرويد " : لا يلحق بها أي تغيير فيما بعد. ان فروم لا ينكر ذلك، لكنه يعترف بامكانية حدوث تغييرات في الشخصية بعد الطفولة، تلك التغييرات التي يربط بينها وبين الظروف الخارجية الدائمة التغيير . <sup>155</sup> .

ومن هذا يتجلى ان مسألة العلاقة بين الفرد والمجتمع حسب رؤية " فروم " ذات وجهة نظر مادية. فشكل التكيف وبالتالي الشخصية الاجتماعية شيئان متغيران ويتحددان بنمط البنية الاجتماعية، ولكن فروم يسلم " عند تحليله لتاريخ المجتمع الانساني " بوجود الانماط التالية من الشخصية الاجتماعية: النمط المتلقي والنمط الاستغلالي والنمط الاكتنازي والنمط التسويقي **marketing** . ويرتكز كل نمط من هذه الانماط المختلفة في الشخصية على آليات نفسية نوعية وأساليب يحل بها الافراد لانفسهم مسألة الوجود الانساني، آليات مازوخية وسادية وهدامة. ويشير فروم الى هذه الآليات على انها آليات دفاعية، ردود فعل قهرية من جانب الفرد على وضع محبط، السمة الاساسية له هي ان لا يسمح للفرد بتحقيق إمكاناته الطبيعية داخل البنية الاجتماعية المعينة <sup>156</sup> .

فعن طريق آليات نفسية مثل المازوخية والسادية، يتعلق الانسان بأوهام الاستقلال والقوة، حين يخضع بارادته لشخص ما، اوشئ ما، اوحين يسيطر بارادته على شئ ما او شخص ما. ومشاعر الضعف والعجز وانعدام الثقة في مواجهة مسألة الوجود يمكن تعويضها من خلال النزوع للهدم ورغبة الفرد الملحة في تدمير او القضاء على كل ما يوجد خارج ذاته على اساس انه السبب الخارجي لقلقه الداخلي. اما الازعان فهو انكار الانسان لذاته والذوبان في الجمهورن الذوبان في

154 - فروم اريك ، قلب الانسان، مرجع سابق، ص 59.

155 - دوبرينكوف، ف.، مرجع سابق، ص 74 .

156 - دوبرينكوف، ف. مرجع سابق، ص 75.

الحشد. ويرى فروم ان هذه الاساليب في حل المسألة الوجودية هي اساليب عامة. ومهما كان اختيار الفرد لأسلوب أو لآخر، فإن ذلك يحدده المجتمع بصفة مطلقة.<sup>157</sup>

وفي رأيه فان كافة الانماط التاريخية غير المنتجة من الشخصية الاجتماعية التي وجدت حتى الان تجسد القوة النفسية المحافظة في التاريخ، التي تعمل على دعم قيام الابنية الاجتماعية المعينة بوظيفتها. وانها جميعا سلطوية في بنيتها، طالما ان المنظم ما قبل الشعوري الداخلي لسلوكها هو الضمير السلطوي" الذي يشكل غرسا لكافة انواع "السلطة الخارجية" - مجموعة المعايير الاجتماعية او المطالب التي يفرضها المجتمع المعين- في ضمير الانسان الداخلي.<sup>158</sup>

ويرى "فروم" في نطاق نظريته في "التحليل النفسي" هو مفهوم الطبيعة الانسانية، ونظرية" النزعة الانسانية المعيارية" Normative Humanism التي تمكن من تقييم الانسان وظروفه الاجتماعية التي يجد نفسه فيها، عن طريق معايير ترتكز على "معيار" norm والانحرافات عن هذا المعيار وهو على قناعة تامة بأن المجتمعات التي تعيق تحقيق الاحتياجات الكامنة في الطبيعة الانسانية مجتمعات مريضة وتتسبب حتما في وجود أفراد "عصابيين" ومستلبين. ويقدم فروم تشخيصه لشروط الانسان على انها "باتولوجيا اجتماعية" و "إغتراب ذاتي فصامي" Schizoid Self Alienation وذلك في دراسته لاميركا المعاصرة وتحديدده للصراع بين الحاجات الكامنة في الطبيعة الكامنة في الطبيعة الانسانية وبين المجتمع الرأسمالي، حيث يلاحظ الاستلاب التام الذي (يشيع في علاقة الانسان بعمله، وبالأشياء التي يستهلكها وبالذات وبزميله الانسان وبذاته)<sup>159</sup>.

لقد وضعت تفسيرات عديدة لمفهوم الاستلاب وفق رؤى فلسفية ونفسية عديدة ووضعها بعض الفلاسفة من الفرويديين الجدد ومنهم فروم الذي وضع مقولة "الاستلاب" كتعبير عما يميز ماهية الشخصية من الداخل ويفهمه من زاوية نفسية على انه: (... نمط الخبرة التي يجد الانسان نفسه فيها مستلبا"، أي انه أصبح غريبا عن ذاته، وانه لم يعد يرى نفسه مركز عالمه وخالق افعاله، بل ان افعاله وعواقبها قد اصبحت سيدة عليه، ينبغي عليه اطاعتها، بل ينبغي عليه عبادتها. فالشخص المستلب لا يتواصل مع ذاته، كما انه لا يتواصل مع الآخرين)<sup>160</sup>.

ان المجتمعات الرأسمالية، بحكم اندفاعها نحو زيادة انتاج "الأشياء" بالجملة. وان نمط حياة الانسان في المجتمعات الاستهلاكية تزرع تحت وطأة الأشياء المادية التي ابدعها بنفسه، كما لو اصبحت ارقى منه، خلال هذه العبادة الشاملة للأشياء، ليس في وسع الانسان سوى ان يتحول

157 - دوبرينكوف، ف. مرجع سابق، ص 74.

158 - دوبرينكوف، ف. مرجع سابق، ص 74.

159 - دوبرينكوف، ف. مرجع سابق، ص 124.

160 - فروم، المجتمع العاقل، ص 120.

بالتدرج الى شئ : (الاشياء لا ذات لها، والناس الذين يصبحون أشياء، يمكن ان يصبحوا بلا ذات<sup>161</sup> .

ان النظام الراسمالي المرتكز على السوق حول الانسان الى سلعة فهو يبيع جهوده باكثر الطرق الممكنة ليربح ويعقد الصفقات وتصبح تعاملاته وفق رؤى وتفسيرات اخلاقية تحكمها قواعد السوق ايضا، وبذلك يصبح موقف الانسان من حياته وحياته الاخرين تتصف باللامبالاة والسطحية والآلية ويبنى موقفه من الحياة ومن زملائه من البشر على اساس من الحسابات المجردة من العواطف وبذلك يلغي الحب والرحمة والشفقة لبقية البشر بل يكف عن منح الثقة للآخرين ولم يعد يرى لحياته أي معنى.

ان مركزة التكنولوجيا والملكية لانتاجها وتوظيف راس المال بشكل مركز عبر الشركات المتعدية الجنسيات فان هذا التضخم في مركزية الحياة يدفع بالادارات التكنوقراطية والبيروقراطية نحو تطبيقات على الانسان يتم املائها وفق رغبات مصنعة وتجري تنميط شخصية الانسان وعقله وردود افعاله وصولا الى تحويل البشرية الى قطع انساني يخضع لقوانين تداول السلع. وفي هذا المنحى المتدهور لمنظومات القيم والاخلاق لا يشعر الفرد بذاته بوصفه الحامل والفاعل للقدرات التي تثري الطبيعة وتثري الحياة الانسانية. ان هذه الحياة اضحت مفعمة بالخوف والقلق والعجز والشك وحتى الشعور بالذنب. ويتوصل فروم وهو يستعرض سمات المجتمع الراسمالي باستقراء التاريخ المتلازم مع التطورات العلمية بالقول: (المشكلة كانت في القرن التاسع عشر هي موت الله، اما في القرن العشرين فان المشكلة هي موت الانسان).

نجح النظام الراسمالي وبكل اسف في تحويل المجتمع الراسمالي الحديث، وهو يضم ذلك الانسان الذي بات يُعرف اليوم بأسماء مثل "انسان التنظيم" و"انسان الاتمة" و"الانسان المستهلك" **Homo Consumens** ؛ لكنه ليس في حقيقة الامر، لا يكون سوى "الانسان المُستلب". والاستلاب الشامل يتغلغل داخل حياة المجتمعات الراسمالية ويثبت جوهره المعادي للانسان والظروف المرضية السائدة فيه.

ليس في وسع مجتمع ما ان يكون سويا او عاقلا او راشدا، اذا ما تحول العديد من افراده، ومنهم يشكلون نخبا هامة في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية، وهم يتجهون نحو قبول تنامي ظواهر الفساد، والإفساد الاخلاقي، والخضوع لسيطرة العصابات، واعمال العنف وتجريب الاسلحة المحرمة دوليا ، وتوسيع نطاقات استخدامها، ويتخذون موقفا تتسم باللامبالاة ازاء ما يجري من تدمير الجنس البشري.

161 - فروم، المجتمع العاقل، ص 143.

ان هذه النخب وان كانت مقررة في مجتمعاتها، لكنها تعكس خصائصها، كونها كائنات مستلبة ومضطربة في الواقع، رغم ان مجتمعاتهم لاتضعهم في خانة العصبيين. انهم يشاركون في المصير المأساوي للغالبية العظمى من المجتمع الانساني، ولا يدفعون عن هذا المجتمع اخطاراً، لم تعد مجهولة اليوم في نتائجها الوخيمة.

لم تعد الواجهات الاخلاقية التي يتستر بها هؤلاء ان تغطي وجه الباثولوجيا المرضية المميزة لسلوكياتهم. كما ان رفع الحالة المرضية لهؤلاء الافراد، تدفعهم الى الشعور الحاد والشعور بالعزلة الاجتماعية والانسانية، والنقص في المعارف الانسانية، وانعدام الهوية التي يشعر بها الفرد عند انتسابه الى حضارة وثقافة ذات بعد انساني. ان المنحى العام للسلوك المرضي لهؤلاء يعكس حالة العجز عن فرزحالة نقدية متقدمة قادرة على وقف التدهور الاخلاقي.

ان سيادة "المنطق المقلوب" لتبرير المسارات الاخلاقية، والتبرير للتطبيقات الضارة بالحياة لا يخفي عند العقلانيين: ان السراب والخداع الذاتي السائد في تلك الاوساط بات يتسع الى حد بعيد، رغم تجليات العديد من النصوص الاخلاقية والهيئات المعنية بالامر التي تعبر في مضامينها الكثير من الوعي الزائف بالاطار.

وبعيدا عن الاستخدامات المموهة لمفهوم الاستلاب في النصوص الاجتماعية للفرويديين الجدد، التي تصف افعال الجانب الذاتي النفسي لوعي الانسان في العالم الغربي، فإن مقولات "الاليات القهرية" الموصوفة بـ "اللاشعورية" التي تشكل الاساس الدافعي لنزعات الالتزام بقواعد أخلاقية معينة ذات صلة بجوهر سلوك الانسان ودوره في الحياة على هذا الكون. لم يعد قبول تفسيرات "الانسان المستلب" في العالم الراسمالي، كونه نتاج، لما يسمى بالحرية السلبية التي تُشكل الناتج النهائي للتطور العلمي في ظل الراسمالية.

الراسمالية التي بشرت بتحرير الانسان ومنحته الاستقلال الذاتي من جهة قاداته الى إحساسات جديدة هو شعوره بالفوقية والوحدة والعجز عن وقف الكارثة والقلق من نتاج تفكيره ومكتشفاته.

إن افتقاد الانسان "المستلب"، حسب مفهوم "فروم" وغيره من الفرويديين الجدد الى الإطار التوجيهي أفقده فرصة إقامات علاقات معقولة مع ذاته ومع الآخرين من البشر ومع الطبيعة في مجملها، مما جعله عرضة لمشاعر العجز والوحدة والقلق التي تجثم على صدره فتعذبه وهو يخافها في كوامنه المعبر عنها بالتسلط على الآخرين، وإن أية محاولة بالشعور بالذنب في مواجهة مثل هذه الاستحالات والخوف من مصير "الحرية السلبية" يجعلانه يهرب من ذاته، فيسعى بأسرع ما يُمكن الى دفن ذاته في طوايا النسيان، وأن يكتف في نفسه مشاعر القلق والوحدة والإنعزال الذي لا يرحم. ان الهروب من هذه الحالة سيتخذ طابعا قهريا يقود الى اربع آليات حسب ما يرى "فروم"

هي:

- المازوخية.
- السادية.
- النزعة التدميرية.
- النزعة الانقيادية الآلية.

التي تركز عليها مختلف أنماط الشخصية وتحدد سلوك الانسان الاجتماعي.

ان صورة إنحطاط الشخصية العلمية في العالم الراسمالي أضحت مُشخّصة، وتواجه اليوم بالنقد في كثير من الكتابات التي ترى في مثل هذا السلوك هو "حالة انفصام" وإرتباط مع الطبيعة والبشرية ايضا. يرى "هاري ك. ويلز" Harry K. Wells ان "فروم" كان محقا عندما كان يقول بانفصام الانسان عن الطبيعة: (... ان انفصام الانسان عن الطبيعة هو نوع من الخطيئة الاصلية اللاشعورية، يتغلغل في الاحساس الواعي للانسان في كافة العصور في صور مشاعر الوحدة والعجز واليأس والقلق والاحساس بالذنب والخلج)<sup>162</sup>

ان إقتراب الفرويديين الجدد من الفلسفة الوجودية حول قضية "عقدة المشاعر"، التي يعبر عنها بالوحدة والاحباط والشعور بالذنب والقلق واليأس<sup>163</sup> ومن قضية الانفصام، بين ماهية الانسان، وبين وجوده يدفع الفلاسفة الى التأمل واتباع اساليب التنوير العلاجية من اجل اعادة تربية اخلاقية للشخصية المستلبة.

## 28-2: من عدوانية الفرد الى عدوانية الجموع "الحشود" :

شهدت البشرية على مرّ التاريخ غزوات وحروب وصراعات دموية بين قوى متصارعة و بين إمبراطوريات كانت تسعى كل منها الى التوسع وإخضاع الشعوب والممالك الى دائرة نفوذها. إكتسحت جيوش أسكندر الكبير كل البلدان والأمصار الممتدة ما بين ماسادونيا (مقدونيا) والهند وكانت تفني وتهلك كل من يواجهها أو يعرقل مسيرها. وغزت حشود جنكيزخان و تيمورلنك وهولاكو معظم بلدان آسيا وهم يقتلون وينهبون و يحرقون ويعيثون في الأرض دماراً وخرابا. وفي أوروبا المسيحية وتحت ظل الكنيسة، أبيدت الملايين من سكان أمريكا الأصليين من قبل الإسبان عقب إكتشاف كريستوف كولومبس للقارة الجديدة، ثم أعقبهم الإنكليز في إكمال مهمة الإبادة بكل الوسائل، حتى وصل الأمر الى الفتك بهم بنشر وباء الجدري بينهم .

واتبعت القوى الإستعمارية نفس السياسات اللإنسانية ضد السكان الأصليين في المكسيك وبقية دول أمريكا اللاتينية وكندا وأستراليا. واثناء المد الإستعماري الأوربي، أخضعت شعوب آسيا

<sup>162</sup>-Harry K. Wells, The Fallure of Psychoanalysis, p. 176

<sup>163</sup>Harry K. Wells, The Fallure of Psychoanalysis, p. 191

وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بأقصى أنواع العنف والقسوة لسيطرة القوى الاستعمارية، التي تنافست فيما بينها لنهب الثروات الطبيعية. وراحت الملايين من البشر ضحايا تلك الغزوات والحروب التي كانت تشعلها نزوات وميول وأطماع الأباطرة والملوك والحكام وقادة الجيوش. وارتكبت جرائم نيعة ومجازر جماعية استهدفت بعضها الإبادة الكاملة لمجموعات أجنبية أو طوائف دينية أو مذهبية . ورغم صدور ميثاق الأمم المتحدة لعام 1948 الذي هدف الى منع تكرار تلك الجرائم ضد الإنسان، لكن جرائم بشعة أخرى ارتكبت في النصف الثاني من القرن الماضي في بلدان عدة من العالم كانت الاسلحة الكيميائية والاستهداف بقصد الابادة الجماعية مرصودا. لقد أصبح مصطلح الابادة الجماعية متداولاً ويعد من جرائم الحرب. وحسبما عرفه "رافائيل ليمنكين" (1900-1959) **Raphael Lemkin** فإن الابادة الجماعية **Genocide** هي: ( ممارسة قديمة في تطورها الحديث، وتتضمن إجراءات طويلة الأمد تهدف الى تدمير المقومات الأساسية لحياة مجموعات قومية، ويحدد المفهوم محاولات التدمير لمجموعات بأكملها).<sup>164</sup>

من المسلم به أنه ليس بإمكان فرد متسلط أو مجموعة متنفذة معينة من الأفراد قتل الملايين أو حتى المئات من البشر، وتدمير المدن والقرى كاملة، دون إشراك أعداد كبيرة من الناس وتوريطهم في تنفيذ الأوامر والقيام بإرتكاب جرائم القتل أو الإبادة الجماعية دون وعي أو إدراك منهم حول ما تم التخطيط له من قبل أصحاب النفوذ والسلطة الذين تلقى الأوامر منهم. فلا "نيرون" أو "الحجاج" أو "تيمورلنك" أو "هولاكو" في العصور الماضية، ولا الزعيم النازي "هتلر" أو الفاشي "موسوليني" أو ستالين الشيوعي، أو الزعيم الكمبودي "بولبوت" أو رئيس حكومة رواندا "هابري مانا" في العصر الحديث، قد نفذوا جرائمهم الكبرى بأنفسهم أو من قبل أفراد حاشيتهم أو ممن حولهم من رجالات السلطة من دون جمهور منحاز ومستعد لممارسة القتل تحت أي شعار كان.<sup>165</sup> ويتضح إن هناك بجانب العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مجموعة عوامل وأبعاد سيكولوجية لعبت دوراً رئيسة في حدوثها، وتعدّ كعوامل مشتركة في إرتكاب جميع جرائم الإبادة الجماعية عبر العصور وفي كل المجتمعات والثقافات. ومن العوامل والابعاد السايكولوجية ماتتوفر عند الفرد الحاكم والافراد المدعمن له بتكوين سلطة استبدادية تحاول إخضاع الناس لطاعتها أو كسب ولائهم بكافة الوسائل<sup>166</sup>.

<sup>164</sup> -Crane, John *The Psychology of Genocide*. (2007). Available at:

[http://www.cranepsych.com/Travel/Bosnia/Genocide\\_psych.html](http://www.cranepsych.com/Travel/Bosnia/Genocide_psych.html)

<sup>165</sup> - Lifton, JAY,). *The Nazi Doctors: medical killing and the psychology of genocide*. NY, Basic Books. (1986).

<sup>166</sup> -Jay Y. Gonen. *The Roots of Nazi Psychology: Hitler's Utopian Barbarism*. Lexington: University of Kentucky Press, pp. 224, 2000

حيث إن الأفراد يتأثرون بمجالات السلطة ويتوحدون معها. يرى عالم النفس الألماني "كيورت ليفين Kurt Lewin" (1890-1947) مؤسس نظرية المجال النفسية: إن الأفراد يختلفون فيما بينهم باختلاف المجال الذي يتواجدون فيه، أي إن السلوك وظيفة المجال الموجود وقت حدوث السلوك. وللسلطة الإستبدادية خصائص وسمات سيكولوجية تتميز بها عن غيرها مثل: الخوف والحذر وفقدان الثقة بالجمهير، واللجوء الى أساليب الخداع والمكر وإستخدام أشكال العنف ضد المناوئين لها، وضيق الخناق على كل من لا يظهر الولاء لها وبالتالي عزلهم بعيداً عن دائرة النفوذ والتأثير.

و تميل السلطة المستبدة الى نزع الإنتقام من كل من يحاول النيل منها أو يهدد وجودها. وتسيطر نظرة الدونية على السلطة الشمولية تجاه أعدائها ومناوئبيها. وإصاق الدونية لاتمت بصلة بالجوانب العسكرية أو الإقتصادية؛ بل تقوم على أساس فكري وأيديولوجي. وبتكريس النظرة الدونية يموت الضمير والواعز الأخلاقي ويغيب الشعور الإنساني وتؤدي الى ترسيخ العنصرية وإبادة الشعوب، ورغم ذلك فإن قادة السلطة الشمولية يشعرون بأنهم يؤدون عملاً حضارياً<sup>167</sup>. وهذه النظرة الدونية كانت هي نظرة هتلر وقادة الحزب النازي تجاه اليهود والعجز والسلاف والمثليين جنسياً في محرقة "الهولوكوست". ان القادة الذين اقترنت بأسمائهم مجازر الابادة غالباً ما يتصفون بسيكولوجية وشخصية طاغية<sup>168</sup>.

وقد أظهرت الدراسات إن مثل هؤلاء القادة من الذين تسببوا في حدوث الحروب والمآسي لشعوبهم أو إرتكبوا جرائم الإبادة الجماعية سواءً ضد شعوب بلدانهم أو شعوب البلدان الأخرى، كانوا يعانون من خلل وإضطرابات في شخصيتهم<sup>169</sup>. وتؤكد تلك الدراسات وجود أنماط شخصية معينة لدى هؤلاء القادة الذين يميلون إلى السلوك الإستبدادي. وينتمون الى ثلاثة انواع من الشخصيات التي جلبت انتباه الباحثين<sup>170</sup>.

وهذه الانواع من الحالات هي:

Narcissism

النرجسية

Machiavellianism

الميكافيلية

<sup>167</sup> - كرميان صلاح ، 2008، الجدور السايكولوجية لجرائم الابادة الجماعية، ورقة مقدمة الى المؤتمر العالمي للتعريف بجرائم الابادة الجماعية ضد شعب كوردستان المنعقد في هولير/ إقليم كوردستان العراق للفترة من 2008/1/26 ولغاية 2008/1/28.

<sup>168</sup> Hall, Calvin S. & Lindsey, Gardner. Theories of Personality. Wiley, New York, (1978).

<sup>169</sup> - كرميان صلاح ، الجدور السايكولوجية لجرائم الابادة الجماعية، ورقة مقدمة الى المؤتمر العالمي للتعريف بجرائم الابادة الجماعية ضد شعب كوردستان المنعقد في هولير/ إقليم كوردستان العراق للفترة من 2008/1/26 ولغاية 2008/1/28.

<sup>170</sup> -Kowalski, R. M. (Ed).. Behaving badly: Aversive behaviors in interpersonal relationships. Washington, DC: American Psychological Association. (2001)

ورغم الاختلاف في منشأ تلك الأنواع الثلاثة التي يطلق عليها "باولهوس و وليم" Paulhus, D., & Williams<sup>171</sup>، بـ "الثالوث المظلم" **The Dark Triad of personality** ، فإن تلك الشخصيات تشترك بعدة مميزات منها<sup>172</sup> :

تتصف كل الأنواع الثلاثة بخاصية الحقد الإجتماعي، مع نزعات سلوكية نحو الإرتقاء بالذات، والبرود العاطفي، والإزدواجية، والعدوانية. وبرهنت التطورات الأخيرة للمقاييس غير الكليينكية لكل المتغيرات الثلاثة على وجود علاقة مترابطة بين الميكافيلية والسيكوباتية، والنرجسية بالسيكوباتية، والميكافيلية بالنرجسية وكما موضح في الشكل التالي.

وفيما يلي تعريف موجز لأنماط الشخصية الثلاثة:

#### الشخصية النرجسية :

الفرد ذو الشخصية النرجسية هو من يكون لديه شعور مفرط بحب الذات والإعجاب الشديد بنفسه وبمواهبه وقدراته، ويتصور بأنه هو الأفضل في كل شئ وهو المبدع والمبتكر والفنان ويتوقع من الناس تقديره وكيل الثناء والمدح له وإبداء الإعجاب بشخصيته وفق ما يتصوره هو عن نفسه .

#### الشخصية الميكافيلية:

الفرد ذو الشخصية الميكافيلية هو ذلك الشخص الذي له مواصفات تلك الشخصية التي أوصى به المؤلف الإيطالي "نيكولا ميكافيلي" (1469 – 1527) وحدد سماته في كتابه "الأمير". ومثل هذا الفرد يحاول تحقيق أهدافه بكل الوسائل وشعاره هو "الغاية تبرر الوسيلة"، أي إن الشخص الميكافيلي يهمل الوصول الى الغاية أو الهدف الذي يريده مهما بلغ الثمن .

الشخصية السيكوباتية : وهي شخصية الفرد الذي لا يراعي النظام والقوانين، ولا يهتمه المصلحة العامة ويتمتع في الخروج على كل العادات والتقاليد والقوانين المرعية. ومثل هذا الشخص لا يهتمه إلا نفسه وإشباع أهواءه ورغباته.

إن القادة التوتاليتاريين من مختلف الحالات والبلدان، يتميزون بوجود صفات الشخصيات الثلاث التي سبقت الإشارة إليها لديهم، رغم إختلاف الثقافات والبيئة الإجتماعية لبلدانهم.

<sup>171</sup>- Paulhus, D., & Williams, K., **The Dark Triad of personality: Narcissism, Machiavellianism, and psychopathy.** *Journal of Research in Personality.* Elsevier Science). 36 PP.556–563 , . (USA (2002).

<sup>172</sup>- Hall, Calvin S. & Lindsey, Gardner. **Theories of Personality.** New York: Wiley, (1978)

يرى "رومل" Rummel : ( بأنه ليست مصادفة، أن نرى عمليات الإبادة الجماعية والحروب في القرن العشرين، حدثت في الدول غير الديمقراطية. وإن أحد أهم مميزات الدول التي ارتكبت فيها الإبادة الجماعية هي وجود قادة لأنظمة وحكومات شمولية "توتاليتارية". إن تأثير هؤلاء القادة يكون في تحوّل أو تعظيم المقومات القائمة ضمن المجتمع الى "ثقافة عملاقة Monolithic Culture كما يطلق عليها "ستاوب" Staub. 173

فمثل هذه الثقافات غالباً ماتكون لها تاريخ من الخضوع للدولة والحكام التوتاليتاريين؛ فضلاً عن ضعف روح التسامح مع التنوع الثقافي. ويلعب القادة التوتاليتاريون دوراً كبيراً في تحريك الثقافة نحو العنف الجماعي، وغالباً ما يتم ذلك بهدف تقوية السلطة، وتمركزها، وإنهاء المعارضة، وتمتين الإقتصاد لمصالح ذاتية، وخلق بنية تحتية وأيديولوجية هدامة. وعدوانية على الغير.

## 2-29: سيكولوجية العدوان:

أظهرت الدراسات الحديثة أن اللاوعي الفرويدي لا يعطي تفسيراً مقنعاً لأشكال العنف المتطرفة عند الإنسان على المستويين الفردي والجماعي. ويبدو أن جذور ظاهرة العنف تصل الى ما هو أعمق من مستوى فترة الولادة الأولى التي يؤكد عليها نظرية التحليل النفسي الفرويدي. تكشف البحوث الخاصة بالوعي، مصادر مهمة أخرى للعنف والعدوان. ويمثل العدوان Aggression ظاهرة سلوكية منتشرة يُمارسها الأفراد والدول والمجتمعات وبعض الجماعات على السواء. ويطال العدوان حتى مكونات الطبيعة، حيث لم تقلت من العدوان المتمثل بإبادة بعض عناصرها وتلوّث البعض الآخر. 174 .

يبقى العدوان كمفهوم غامض الى حد ما، لتداخله مع مفاهيم سايكولوجية أخرى: كالعدائية والعنف والارهاب. والعدوان في نظر "باندورا" Bandura : هو السلوك الذي يؤدي الى إحداث الضرر الشخصي أو تدمير ممتلكات. وهناك فرق بين العدوان والعدائية Hostility، التي يقصد بها الميل التي تحرك العدوان كالحقد والكراهية والغضب. أما العنف فهو استعمال القوة أو التهديد بأستعمالها، وهو نهاية مطاف السلوك العدوانية.

يربط "دولارد" و" ميللر" 175 Dollard and Miller بين الإحباط والسلوك العدوانية، ويعتقد بأن السلوك العدوانية بصوره المختلفة يرجع الى أنواع من الإحباطات. إن العوامل التي

173- Staub, E. The Roots of Evil: The Origins of Genocide and Other Group Violence: Cambridge, University Press). , New York, (1989)

174 - كرميان.. المرجع السابق، وكذلك:

- Stanislav Grof, "Planetary Survival and Consciousness Evolution: Psychological Roots of Human Violence and Greed." Primal Renaissance: The Journal of Primal Psychology 2(1):pp3-26.

175 - كرميان، مرجع سابق، عدة صفحات.

تؤدي الى تعقيد الظروف الحياتية لدى المجتمعات التي لم تعند مثل هذه الظروف تشعرهم بالإحباط، وتمثل أكبر تهديد بإنشار مظاهر العنف والعدوان. فقد ارتبطت معظم عمليات الإبادة الجماعية في القرن العشرين بأزمات عدم الإستقرار ومشاعر الإحباط، التي من شأنها تهيئة الأرضية لتغييرات في بنية تلك المجتمعات. ونتيجة الحروب، ظهرت الى الوجود أزمات إقتصادية وسياسية وإفرازات نفسية وإجتماعية في السنوات التي سبقت أو صاحبت جرائم الابادة الجماعية الانفة الذكر أو الحروب العدوانية .

العدوان مرفوض في كثير من أشكاله لدى المجتمعات، يبدو ذلك منطقياً، ولكنه أيضاً قد يكون مقبولاً عند بعض ها، عندما يكون الهدف منه الحفاظ على الذات وتحقيق الوجود والحرية والبقاء. لذا يلجأ كثير من الناس الى إخفاء السلوك والنزعات العدوانية السلبية تحت شعارات وأهداف إيجابية. فعلى سبيل المثال، دُعي المشاركون في الحروب الصليبية الى "التضحية بحياتهم من أجل المسيح لإسترجاع الأرض المقدسة من أتباع محمد". وإستغل هتلر الحوافز الميثودولوجية في التفوق للعنصر الآري، وفي إستعماله "الصليب المعقوف"، الذي يمثل الرمز الآري القديم. وإعتبر النازيون أنفسهم، ومن ينتمي الى العنصر الآري، متفوقين، وإن الأعراق الأخرى كالسلاف واليهود والغجر يلوثن المانيا، وكانوا يُشبهون اليهود بالفئران التي تنتشر الطاعون. وفي الامبراطورية العثمانية أُعتبر الأرمن خطراً داخلياً، وعملاء للقوات الروسية والأرمنية المحتلة. وقادة الهوتو في رواندا إعتبروا قبائل الهوتو متفوقين على التوتسي (حيث كانوا يوصفون التوتسيين بالصراصير)، أثناء مجازر الإبادة الجماعية التي جرت لهم في عام 1994. <sup>176</sup>

إن اكثر جرائم الإبادة الجماعية في القرن العشرين أرتكبت من قبل الدول التي لها تاريخ حافل بالعنف والنزاعات العدوانية. وهذا يدل على أن السلوك العدواني لا يقتصر على الأفراد وإنما يمكن أن يشمل كذلك، الدول والشعوب. ففي غياب التفاهم وتبادل الأفكار وقبول الطرف الاخر، فإن الدول ذات التوجه العدواني تفترض بأن جماعة ما تشكل خطراً ويتوقعون منها الكراهية والعدوان، وبما أن العدوانية تغطي على سلوك قادتها، فأنهم يلجأون الى إبادة مصادر الخطر الذي يهدد مصيرهم وكيانهم دون إكترات لنتائج جرائمهم. <sup>177</sup>

## 2-30: سيكولوجية الطاعة:

176 - يلاحظ ان التمايز العرقي والسوكات العنصرية تنتشر حتى بين المجتمعات المتخلفة وتعمل الجهات الاستعمارية على رفع وتيرة الاحقاد وتغذية بعض الجماعات بالحقد الاثني او الديني وحتى الطائفي في مجال الدين الواحد والقومية الواحدة كصراعات السنة والشيعه التي سعتها قوات الاحتلال الامريكي في العراق والاكراد مع كل من العرب والفرس والأتراك... الخ.

177 - المهدي، محمد. سيكولوجية الاستبداد. موقع المحائين على الانترنت. (2004).

<http://www.maganin.com/articles/articlesview.asp?key=168>

هناك أسئلة كثيرة تتبادر الى الذهن، وتفرض نفسها عند التفكير في الأسباب التي تؤدي الى حدوث الجرائم التي تستهدف إبادة مجاميع كبيرة من البشر: ماهي دواعي إنصياع الآلاف من الناس ممن ليسوا في مواقع السلطة، لرغبات والميول العدوانية لأصحاب القرارات والامور في المواقع العليا للسلطة، الذين يخلقون الظروف والأجواء السياسية والنفسية لتنفيذ الجرائم الكبرى؟. وماهي الدواعي وراء الرضوخ والطاعة العمياء لتلك الامور؟. هل هي الروح العدوانية لديهم؟ أم هي الخوف والرغبة؟ أم هي الانتهازية والأنانية والطمع بنيل مكاسب مادية أو معنوية من أصحاب النفوذ والسلطة؟. أم فاشية الحشود والتعصب القومي او الاثني او الطائفي؟؟.

تشير الدراسات الى أن الناس يميلون الى الإبتعاد عن التفكير العميق حول القضايا والأمور التي ليست لها تأثير مباشر على حياتهم ويتابعون المعلومات التي تعكس معتقداتهم؛ بدلاً من تلك التي تنافي نظرتهم الواقعية الى الامور<sup>178</sup>. ولتفسير الإبادة الجماعية، فإن الأفراد غالباً ما يلقون اللوم على القادة الذين يصدرن الأوامر، أو ينسبونها الى الأحقاد المتأصلة لدى طرفي النزاع. و يؤكد " ليفين" على أن الطقوس والمعايير، سواء في مؤسسات تربوية أو دينية، أو تعاونية أو إجتماعية، تساعد على إدامة الإلتزام والإمتثال والطاعة؛ وغالباً ما تكون هناك عقوبات شديدة تتراوح بين النبذ والتوبيخ، إلى العنف الجسدي عند عدم الإلتزام بتلك المعايير التقليدية. وهكذا يتعرض أفراد الجماعة للضغوط بغية المشاركة في أعمال الكراهية والعنف، وهم يعرفون تماماً نتائج عدم إمتثالهم. أكدت دراسات ميلجرام (Milgram 1965-1975)<sup>179</sup> حول الطاعة، على التأثير القوي الذي يمكن لنوع السلطة أن يطبعه على سلوكنا. ويقول ميلجرام: إذا كان تعرض ملايين الناس للقتل وإعدام أعداد كبيرة من البشر يأتي حسب ما يمليه أفكار شخص ما، إلا أنه ليس بالمستطاع تنفيذها على هذا النطاق الواسع لولا خضوع أعداد كبيرة من الأشخاص للأوامر.

وهنا لا بد من الإشارة الى دور الثقافة والدين والتربية والتعليم في المجتمع في ترسيخ الطاعة والخضوع لاسيما عندما تستغل لصالح السلطة الإستبدادية. فحسب نظرية التنسيب<sup>180</sup>: العزو attribution أو التنسيب لـ " فريتز هيدر Fritz Heider " (1896-1988): حول تنسيب أو عزو الفرد سلوكياته الى أسباب خارج عنه، لا سيطرة له عليها، حيث تلجأ الكثير من الناس الى تبرير خضوعهم وإذعانهم لأوامر الأنظمة الإستبدادية، ويقومون بتنفيذ جرائم بشعة دون قناعاتهم، تحت ذرائع وتبريرات شتى وينسبون ذلك الى كونهم مأمورين وعليهم تنفيذ الواجب.

2-31: خوسيه أورتيغا، سيكولوجية الجموع "الجماهير" أو "الحشود":

<sup>178</sup> - المهدي، محمد (سيكولوجية الاستبداد. موقع المحائين على الانترنت 2004).

<http://www.maganin.com/articles/articlesview.asp?key=168>

<sup>179</sup> -Milgram, S and Row Harper, *Obedience to authority*. New York. (1974) .

<sup>180</sup> -Attribution theory, available at: [http://en.wikipedia.org/wiki/Attribution\\_theory](http://en.wikipedia.org/wiki/Attribution_theory)

يتناول "غوستاف ليوبون" **Le Bon, Gustave** <sup>181</sup> تصوراته عن "سيكولوجية الجماهير" في ظل السلطة في كتاب له نشره عام 1895 بنفس العنوان، بتحليلات قيمة، إثر الفوضى التي أحدثتها الثورة الفرنسية، وكان "ليوبون" يخاطب الحكام ويحذرهم من غضب الجماهير، ويقول: أن الجماهير حينما تنتفض فإن الروح الجماعية هي التي تتحكم بهم، وإن الجمهور يصبح، ككائن بدائي واحد، ورغم إنه يتألف من عناصر متنافرة، لكنها مترابطة الصفوف من أجل أهداف أنية، وتتلاشى شخصية الفرد الواعية عند إنخراطها بين صفوف الجماهير التي تسيرها الأفكار والعواطف الآنية وتطغى عليها النزعات العدوانية.

تمرد الجماهير" من أكثر أعمال الكاتب الإسباني "خوسه اورتيجا إي غاسيت" شهرة . بدأ نشره منذ اولى سنوات القرن الماضي 1930م . واضيف له ماكتب لاحقا عن نفس الموضوع في منتصف القرن الماضي 1951. ومثل هذا الموضوع يبقى مهما لا يطل منه تقادم الزمن، شأنه شأن ما تبقى في الذاكرة من تلك الانتفاضات الجماهيرية العاصفة التي غيرت مسار التاريخ والامم . تبقى عبارة "خوسه اورتيجا": (... ان تمرد الجماهير هو اكثر وقائع القرن العشرين ايجابية) <sup>182</sup>، رغم كل مافي كل تلك العبارة من مضامين تكتنز ميولا الى العنف حتى وان اطلق عليه "العنف الثوري". ويعتبر كتاب "سيكولوجية الجماهير" أول دراسة في علم النفس الاجتماعي ظهرت حول ثقافة الجماهير وسيكولوجيتها. ورسخت هذا الجانب ظهور دراسة "سيجيموند فرويد" بعنوان "سيكولوجية الجماعة وتحليل الأنا" في عام 1921.

ويشير "جاي كونين" **Jay Gonen** " عام 2000: الى أن هتلر كان على إطلاع بنظرية ليوبون، وكذلك بدراسة فرويد والدراسات المشابهة. ويقول "كونين": (... لم تكن تعبئة الجماهير من قبل النازية باستعمال الخوف والإرهاب فحسب، وإنما كانت بالأحرى بسبب الخطابات الأيديولوجية النازية المستهدفة، التي كانت تتضمن جوانب سيكولوجية) ؛ فالوعي واللاوعي للشعب الألماني تحت النازية لم يكن يمثل غير تعلق الألمان برجل واحد وبفكرة فرويد عن الأب المثالي **Ideal Father**. يمكن إعتبار الجماهير ككيان ذات العقل الجمعي، مثلما تتجمع بالإتفاق والتألف بين أعضاء أفرادها، تتفرق عندما تدرك بأنها تتعرض الى تهديد مباشر. وتهتم قادة السلطة الإستبدادية بالعقل الجمعي نتيجة إهتمامهم بسيكولوجية الجماهير، وذلك لكي تمرر سياساتها العدائية ضد الجماهير ويسهل لها السيطرة علي تحركها وتفريق شملها قبل أن تشكل تهديداً جدياً

<sup>181</sup>-Le Bon, Gustave **The Crowd: A Study of the Popular Mind**, (1895).

<sup>182</sup> - أورتيجا خوسيه ، "تمرد الجماهير" ، مرجع سابق

للسلطة<sup>183</sup>. وكثيراً ما يلجأ مرتكبي جرائم الإبادة الجماعية الى خلق الذرائع لتبرير جرائمهم بالقاء التبعية واللوم على الجماعات المستهدفة<sup>184</sup>.

إن الكثير من البحوث ركزت على فهم العلاقة بين التحامل والعنف ووضعت عدة نظريات التي خلصت الى شرح هذه العلاقة. ومن أقدم المحاولات لفهم تلك العلاقة هي نظرية تعرف بـ "كبش الفداء" لـ "رينيه كيرارد Rene Girard" التي تفترض أنه عندما تشعر الناس بالإحباط، كما في حالة تدهور الإقتصاد فإنهم يتوجهون بالقاء اللوم على جماعات مهمشة في داخل المجتمع. وعلى أساس ذلك فإن الموجودين في مواقع السلطة العليا يستخدمون الأساليب النفسية-الإجتماعية مع الجماهير على نطاق واسع لإحكام السيطرة على السلطة أو يقومون بإنشاء مؤسسات حكومية جديدة ذات برامج سياسية خاصة ويحكمون السيطرة على قنوات الدعاية والإعلام. وهكذا وعند استعمال العنف الجماعي أو القيام بالإبادة الجماعية، تكتمل عملية الإقصاء بإستبعاد الضحايا من دائرة الأخلاق، فلا ينظر اليهم كبشر منذ تلك اللحظة، وهم ليسوا الا ديدان ضارة لا بد من إفناءهم أو أعضاء متفسخة يتوجب بترها.<sup>185</sup>

العامل المهم الآخر هو تأثير الإجماع الخاط **False Consensus Effect** عندما تعتقد الناس بشكل خاطئ بأن اتجاهاتهم أو إعتقاداتهم ستنتم الإجماع عليها من قبل أغلبية الناس الآخرين. طبقاً لـ "باندورا Bandura"، إن مثل هذه الإعتقادات الجماعية تعطي تبريراً إجتماعياً للتحرر الأخلاقي، وبالتالي تخدم كبوادر للعنف الجماعي. ومن خلال نظريته يناقش "باندورا" دور كل الأطراف: الضحايا، مرتكبي الجرائم، المساهمون فيها، والناس المتفرجون. وقد أكد بأن علاج الضحايا، أمر أساسي للتقليل من إحتمال تحوّلهم الى مرتكبي جرائم. وغالباً ما يشار الى نظريته بـ "نظرية الحافز الثقافي الإجتماعي **Socio-cultural Motivation Theory**" لأنها تركز على تعدد التأثيرات المتفاعلة التي تؤدي الى إزدياد حدة عنف المجموعة. وتركز النظرية على التغييرات لدى الفرد والمجموعة، وكيفية تفاعل العوامل المؤثرة.

<sup>183</sup> - العبودي عبد الكاظم ، الاستبداد الثيوقراطي في العراق من إجتثاث البعث الى إجتثاث الشعب

[http://www.iraq4allnews.dk/index.php?sec=articles&act=view\\_article&id=1614](http://www.iraq4allnews.dk/index.php?sec=articles&act=view_article&id=1614)

<sup>184</sup>-Woolf, Linda M and Hulsizer, Michael R. **Psychosocial roots of genocide: risk, prevention, and intervention. Journal of Genocide Research, 7(1), 101–128, 2005)**

العبودي عبد الكاظم ، الاستبداد الثيوقراطي في العراق من إجتثاث البعث الى إجتثاث الشعب، مرجع سابق.

كذلك: العبودي عبد الكاظم ، منظمات المجتمع المدني مساحيق بشعة على وجه الاحتلال

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=123478>

العبودي عبد الكاظم ، دوامة المتاهات في أرخبيل الاحتلال،

<http://www.thawabitna.com/authors/abdulkadum/abdulkadum3.htm>

<sup>185</sup>- Woolf, Linda M and Hulsizer, Michael R. **Psychosocial roots of genocide: risk, prevention, and intervention. Journal of Genocide Research, 7(1), 101–128, (2005)**

Woolf, Linda M and Hulsizer, Michael R. **Psychosocial roots of genocide: risk, prevention, and intervention. Journal of Genocide Research, 7(1), 101–128, . (2005)**

## الفصل الثالث

### 3- البحث العلمي وأخلاقيات العلم

#### 1-3: العلم والتقانة وعلاقتها بالاخلاق:

أصبح الحديث عن أخلاقيات العلم والتقانة الحديثة موضوعا مشتركا بين العلم والفلسفة، ويتجاوز ذلك الإشتباك الى مناحي أخرى منها سياسية وعسكرية وتجارية وقانونية وإعلامية وتربوية ويشترك في الجدل الدائر حول موضوعاتها علماء وفلاسفة ورجال دين .

وبطبيعة الحال فإن القيم الأخلاقية هي ما تفسره المذاهب الأخلاقية المختلفة التي ظهرت في الفلسفات والثقافات المتعددة؛ تجلى منها في مبادئ مختلفة، كالغيرية "حب الذات"، والنفعية "المنفعة واللذة"، ومذهب "الإثر والواجب"، و"الإتجاه البراغماتي" أو العملي... وغيرها .

وعلى الرغم من الاختلافات بين هذه المذاهب، فإنها تلتقي جميعها عند قاعدة واحدة: " أن تُحبَّ لغيرك ما تُحبُّ لنفسك". لقد انتصرت فلسفة العلم على النظرة الى العلم من الداخل، التي كانت تتمثل فقط في منهجه ومنطقه، ولا شأن لها بأية مقولة تتجاوز الإطار المعرفي لنسق العلم الى الأخلاقيات والمعايير والقيم. وظل الحال هذا حتى الثلث الأخير من القرن العشرين، حين تحررت فلسفة العلم من مرحلة الافتتان والانبهار بالعلم واسرار نجاحه وتقدمه المُطرد حين أدركت ان العلم ليس نسقا واحدا ووحيدا؛ بل هو أيضا ظاهرة اجتماعية متغيرة عبر التاريخ الإنساني، تتدخل فيه عوامل خارجية، ثقافية منها وحضارية وأيديولوجية.

لا يستغني العلم عن منظومة القيم؛ لهذا فالعلم يحتاج إلى معالجة حضارية شاملة ومعاصرة، بوصفه ظاهرة إنسانية لها كل متطلبات وشروط واحتياجات الظاهرة المرتبطة بحياة الإنسان في جميع مراحل حياته، وعلى رأسها النسق الاخلاقي للمجتمعات، ومنظومة القيم. ومهما أحرز العلم من نجاحات، فإنه يظل مستحقا للمساءلة وحسن التطويق والتشغيل والتوجيه<sup>1</sup>.

وإذا كانت الأخلاقية التأسيسية لحقوق الإنسان، أخلاقية عامة تتصل بتصورنا عن الإنسان، وهو النّصور الذي تعاضدت لتشكيله، مرجعيات متشابكة، منها الكوني الإنساني، ومنها الذاتي الديني، ومنها الخلقي الاجتماعي، فقد طُرحت منذ بداية الستينات، ولاسيما بالقارة الأمريكية أولاً، ثم بأوروبا، تساؤلات عديدة ومُلحّة تُريد ربط الأخلاقية العامة التي تُمثلها حقوق الإنسان، ومبادئ

<sup>1</sup> - الحديدي حلمي عبد الرزاق، "أخلاقيات العلم والتقانة الحديثة في مجال الطب، المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، تونس، ص 101-، تونس، (2008)

الكرامة الأصلية، والجدارة القصوى للذات الإنسانية بضروب جديدة من السلوكات الخاصة بالأفراد والتي تستدعي بدورها أخلاقياتٍ مخصوصة<sup>2</sup>.

العلاقة بين العلم والأخلاق في حاجة ماسة الى مُعالجات فلسفية أعمق بعيدا عن الرؤية المحددة للمفاهيم بلبوس معان وتعريفات سائدة، غالبا ما تكون في العديد من حالاتها مُربية تُحاول حصار الفكر العلمي، بلبوس الدين تارة، ولبوس المنفعة العامة للمجتمع تارة أخرى، وما هو سائد في المضمار الثقافي من أفكار متداولة يتأرجح ما بين هذين الحقلين تبرير أو تنظيراً.

ومثل سائر القضايا الشائكة في فكر عالمنا المعاصر، تبدو القضايا من مثل العلاقة بين الفن والأخلاق<sup>3</sup>، والعلاقة بين العلم والأخلاق هي بعينها، لدى البعض، كما هي العلاقة بين الفن والدين، والعلم والدين. وهذا مفهوم، مادامت هناك فلسفات خَلقية لاهوتية لا تزال تنظر إلى مصدر التشريع الأخلاقي، إنما هو الله نفسه<sup>4</sup>. وما دامت هناك من ناحية أخرى، إجتهدات في فلسفة الدين المعاصرة، لا يرى فيها أصحابها في الدين إلا مجموعة من الوصايا والقواعد الاخلاقية<sup>5</sup>.

ولا شك توجد هناك أشكال من المقاومة باسم الدين، واجهتها بخطاب أخلاقي ووعظي باسم الأخلاق؛ لان فكرة "الحرام" قد سبقت فكرة "العيب"، أي أن الرقابة الدينية سبقت الرقابة الأخلاقية، فانها في الواقع هي التي أدت إليها. وكما هو في الفن، طُرحت ثنائية الفضيلة والرذيلة، ويمكن إعادة توظيف الثنائية القديمة : المقدس Scared والديني أو المدنس<sup>6</sup>.

وربما يقابل هذا ، " على الصعيد الاخلاقي النظري"، ما يُلاحظه بعض علماء الأخلاق من ثنائية أخرى بين الاخلاق الميتافيزيقية Metaphysical Etheics ، التي تحصر نفسها في مشكلات محددة مثل: مشكلة "الله"، ومشكلة حرية الإرادة، ومشكلة خلود النفس، وغيرها من المشكلات ذات الطابع الديني، وبين الأخلاق المستقلة Independent Etheics<sup>7</sup>، التي لا تقوم على أية فروض دينية.

يقسم الفلاسفة "حبهم للحكمة" بطرق متنوعة. وثمة ثلاثة ميادين معروفة هي :

<sup>2</sup> - صدر الاعلان العالمي لحقوق الانسان سنة 1948 ، ثم اعلان هلنسكي 1964 عن الجمعية الطبية العالمية، يتضمن توصيات الى الاطباء والعلماء الباحثين في مجالات الطب والبيولوجيا، ثم مصادقة اليونسكو في 1997/11/11 على وثيقة "الاعلان العالمي حول المجين البشري وحقوق الانسان".  
<sup>3</sup> - حسن طلب، الفن ... ورجل الاخلاق، فصول، العدد 58، شتاء 2002، ص 76-91.

<sup>4</sup> - <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=123478>

Hisk;J, Philosophy of Religion, Prentic Hall,Inc, ,pp 87 ,( 1983).

<sup>5</sup> - Kaplan,A.,In pursuit of Wisdom, the Scope of Philosophy,Glencone Press, p.524 , US.1977

<sup>6</sup> -AjdukiewiczProfan,K.,Problems and Theories of Philosophy, trans. From polish by H.Skolimowski and A. Quinton, Cambridge Univ,Press, , p158,( 1973).

<sup>7</sup> -Johnson,Oliver A. „Editor,, Ethics, Selections from classical and contemporary writers, Holt, Rinehart and Winston, ,pp.2,3 U.S.,1978

1- الانطولوجيا: أي ما نعرفه، كواقعي وهام.

2- الابستمولوجيا: أي الطريقة التي نحصل بها تلك المعرفة.

3- الأخلاق: أي كيف نُمارس ذواتنا في ضوء تلك المعرفة.

وترتبط هذه الميادين الثلاث كرؤوس مثلث، مهما اختلفت أضلاعه وزواياه، يظل كل طرف منه يرتبط ويعزز الطرف الثاني والثالث. وهكذا فإن كلاً من " الحماقة" أو " الحكمة" تتبدلان عبر العصور بالاعتماد على ما يُعرف، وعلى كيفية معرفته، وعلى شعور الناس بواجب العمل وفقاً له.<sup>8</sup>

منذ عصر النهضة تأثرت نظرية المعرفة بقوة العلم وطريقته الموضوعية التحليلية في تحصيل المعرفة. في الفترة ذاتها، ومع "ذبول الايمان" بالالهة، إنتقلت البشرية لتصبح مركز مرحلة انطولوجية جديدة<sup>9</sup>. رغم ذلك فلا زال هناك من اللبس الكثير ينزلق اليه البعض عند دراسة علاقة العلم بالدين عند تناول أخلاقيات العلم والبحث العلمي. وعندما يكون الإنسان العاقل **Homo Sapiens** هو الحقيقة المركزية في الكون، تصبح الحقوق البشرية هي البؤرة الوحيدة للاهتمام الأخلاقي، وأكثر من ذلك، يصبح العلم الطريقة الملائمة للمعرفة؛ لأنه ليس ثمة ما يُعزز، بمثل فعاليته المصالح البشرية والسلطة البشرية على كل شيءٍ آخر.

والرؤية القائدة للبشرية والموجهة، أمامها العديد من الأسئلة المُثقلة بالقلق والإحتمالات، وتلك الاحتمالات تدفع إلى وجوب تدارك رؤية العالم من الداخل إلى الخارج؛ يعنى تجاوز مرحلة فيها كثير من الأخطاء، طالما كان المنظور داخلياً، وقد إستخدمه الناس لتفسير أدوارهم. اما الآن فالرؤية الجديدة، ترى لا بد من ان نرى العالم من الخارج الى الداخل، ونتصور بشكل أدق الواقع البيئي "الايكولوجي"، وتمظهر البشرية بمجتمعاتها ومؤسساتها، معتمدة على السياق الشامل للأرض ومحيطها الحيوي.

الاخلاق كمصطلح، سيخلق مشكلة في تحديه اللغوي العربي مقارنة مع إستخدامه في اللغات الأوربية؛ فاللغة العربية تعتمد مصطلحاً واحداً هو "الاخلاق" لتدل به على الأخلاق نفسها، وعلى العلم الذي يدرسها في الوقت نفسه، بينما نجد في اللغة الانجليزية مُصطلحين إثنين على الأقل، هما مصطلح **Molarity** الذي يشير الى الجانب العملي المرتبط بقواعد الأخلاق وآداب السلوك، ومصطلح **Ethics**، الذي يُشير غالباً الى علم الأخلاق وقضاياها الفلسفية النظرية.<sup>10</sup>، أي

<sup>8</sup> - ستان رو، ما الذي على الارض يدعى بيئة، من مدخل الى الفكر الايكولوجي، وزارة الثقافة، دمشق،

<sup>9</sup> - ستان رو، المرجع السابق، ص (13-29).

<sup>10</sup> - Parker, Dewitt H., The Principles of Aesthetics, Greenwood Press Publishers, 1974, pp271

ان المصطلح الأول كما هو واضح، يتعلق بالمعنى القريب المتداول للأخلاق؛ كما ناقشناه تفصيلاً في الفصل الثاني السابق. أما الثاني، فيتعلق بمعناها الأبعد غوراً.

ولا شك في أن وجود هذين المصطلحين ومشتقاتهما في اللغات الأوروبية في مقابل المصطلح الوحيد في اللغة العربية يساعد الباحث على التفرقة بين المستويات المختلفة لمعنى الأخلاق؛ ولذا فهو يمكنه الى حد كبير من حل المعضلات أو المسائل الملتبسة في قضية مثل قضية العلاقة بين العلم والأخلاق<sup>11</sup>.

كما يمكن الإشارة إلى مصطلح آخر في اللغة العربية، ذو صلة بالموضوع، وهو استعمال مصطلح السلوك؛ بمعنى التصرف الأخلاقي العملي. فبينما لا تملك العربية غير هذا المصطلح اليتيم "السلوك"، نجد في الانجليزية مثلاً تمييزاً واضحاً بين "السلوك" بمعناه العام، كما يُستخدم في علم الانسان **Anthropology**، وعلم النفس **Psychology** وعلم الاجتماع **Sociology**، ليبدل على أفعال الإنسان وأنشطته الإرادية، وغير الإرادية جميعاً، الى آخر ما يعنيه مصطلح **Behavior**، وبين مصطلح السلوك بمعناه العام، الذي يُعبر عن الإرادة والاختيار، ومن ثم فهو يشير الى السلوك الخلقى، وهذا ما يعنيه في الانجليزية مصطلح **Conduct**.<sup>12</sup>

وربما أمكننا ان نُشير أيضاً في هذا السياق إلى مصطلح **Manners**، الذي يدل على آداب السلوك، واتباع القواعد والعادات الخلقية، أو يدل على طباع المرء. كما تبدو من سلوكه، حسب الترجمة التي أقرها فؤاد زكريا.<sup>13</sup>

وعلى هذا المنوال سنواجه مصطلحات أخرى تبدو مفرداتها مضللة لغوياً كالمحيط أو كالبينة **environment** عند ترجمتها بالمحيط أو الوسط... الخ. ونتساءل هل نحن بحاجة الى رموز لفظية جديدة؟ فالكلمات القديمة لازالت مترسبة في الأذهان، تحمل معاني وأفكار قديمة، لا تكفي الاطلاع لمثل هذه المهمة خلال الصياغات في مجالات دراسات العلم والأخلاق<sup>14</sup>.

وكما اشرنا في المثال السابق، هل يمكن اعتبار كل ما هو على الارض بيئة **Environment**. وكيف نتعامل مع النطاق الايكولوجي العالمي **World Ecospher** المتطور، ثلاثي الأبعاد، والمتفاعل مع الارض، المؤثر، والمُتأثر بما يحدث على سطحها وحتى في أعماقها. كل هذه العناصر متماسكة ومتطورة ومغلقة للحياة. وهي ككيانات إيكولوجية وفيزيائية حيوية، وكتجمعات

11 - العبودي عبد الكاظم، (2004)، تأملات في الخطاب الجامعي، منشورات المجلس الاعلى للغة العربية. الجزائر، ص77 و123.

12 - جيروم ستولنتيز، "النقد الفني" دراسة جمالية فلسفية، ترجمة فؤاد زكريا، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، 541

13 - راجع مقدمة: جيروم ستولنتيز، "النقد الفني" دراسة جمالية فلسفية، ترجمة فؤاد زكريا، مطبعة جامعة عين شمس، ص.541، القاهرة،

14 - العبودي عبد الكاظم، تأملات في الخطاب الجامعي، مرجع سابق، صفحات عدة.

فوق عضوية، يحيا ضمنها البشر فرديا وجماعيا، يتحركون ويحققون وجودهم كأجزاء مؤلفة لهذا الكوكب.

لقد ضلّت البيولوجيا ذات الرؤية الاحادية، والمفتقرة الى الإدراك العميق، عندما تصورت العالم مقسوما إلى جزء حي، وآخر غير حي، والذي من إحدى خصائصه: الظاهرة المدعوة "حياة". أليست الحياة خاصة لجزيئات الحمض النووي الريبوزي منقوص الاوكسجين "الدنا" DNA . تلك الجزيئة للحامض النووي المركبة من طفيرة مزدوجة تحمل كل خصائص ووظائف الحياة. وهي ليست مجرد خليط من الذرات والمركبات الكيميائية التي يُصنفها البعض أحيانا في خانة الجوامد أو أشباه السوائل أو الجوامد.

واليوم ما الذي يمكن وصفه بالحي والعضوي والحيوي من دون حضور وتفاعل طاقة ضوء الشمس ومكونات الماء والتربة والهواء؟. وتلك مركبات أساسية وحية وهامة، كما هي الأحياء التي تتنفس وتتحرك وتنمو، والتي لا يمكنها إنجاز تلك الوظائف من دون كتلة وطاقة مثل هذه المركبات وغيرها.

نتفق مع البروفسور ستان رو Stan Rowe<sup>15</sup>: ان الكرة الأرضية هي "كينونة إيكولوجية"، ونطاقها الأيكولوجي " البيئي" يشكل الناس كأفراد وجماعات محلية في بيئاتهم ومحيطهم الحيوي والجامد، وكل ما يمس هذه المكونات من أخطار يجب أن تنصفه اخلاقيات الإنسان. من هنا لابد من إعادة سؤال الاخلاقيات إزاء كل عملية يقوم بها الإنسان، إن كانت جيدة بالنسبة للنطاق الايكولوجي بكل مكوناته؟ أم انها تجلب الضرر والتلويث والدمار الجزئي او الشامل؟.

وإزاء ذلك يعاد السؤال: هل يخضع العلم للأخلاق؟ أم أن الأخلاق غير معنية بزحزحة موقفها وفرض شروطها في العلاقة مع العلم؟. وما هي توسعة حدقة العين لرؤية المشهد بينهما من زاوية أكبر من نطاق تعاريفهما الأكاديمية؟ .

هل إن "الاخلاق" معنية بالإزاحة عندما خطا العلم خطوات جبارة متجاوزا الكثير من المعايير والاعتبارات الأخلاقية المعروفة؟.

كانت العصور القديمة والوسطى مقيدة بنظرة الأخلاق الصارمة لتطور العلم؛ لذا فهي قيدته بالعلاقات الإنسانية، وتجاوزته قليلا في بعض الحالات الى المحيط الحيوي، ولكن من دون توسع. لكن العصور الحديثة كرسست حضور ملموس من الميول في التقاليد الانجلو - سكسونية إلى ترجيح المغزى الأخلاقي من رابطة أخرى تتجلى في تراث المذهب النفعي Utilitarianism، وقد حدثت تجاه ذلك التأثير النفعي مقاومة شديدة، لازالت مستمرة بالرغم من ارتفاع تجليات الروح النفعية Utilitarian التي وسمت بميسمها الثقافة الاوربية منذ مطلع العصور الحديثة؛ فكثير من الحروب

15 - ستان رو، مرجع سابق، ص 13-29.

والإبداعات والكوارث لم تخفُ غاية البراجماتية منها؛ خصوصاً منذ عصر: "دعه يعمل" Laissez faire ، الذي لم يُعدْ من الممكن بعده النظر إلى أي نشاط إنساني: "مجرد مصدر للبهجة"، ومنحه براءته من أية أعراض غير معلنة، كي يتم إقراره والسماح به في عالم أصبح يتميز بالحرص الاقتصادي وامتلاك القوة لفرض النفوذ والسيطرة.

وللأسف تجاوزت النظرة النفعية والبراغماتية، في كثير من الحالات، المقاومة التي تواجهها؛ بل وجدت من يُنظر لها، ويستغل لها مجموعة من الأفكار والرؤى والنظريات، وحتى يُسخر لها التقنيات والعلوم؛ بل هناك من يُوظفها أحياناً بلبوس سياسي وديني وحتى أخلاقي.<sup>16</sup>

لم يكن ظهور الحركة التجريدية في الفن وانتشارها، وكذلك شيوع ظاهرة الغموض في الأدب والفكر والرؤى، سوى بعض من أمثلة عن أخرى من ردود الفعل الحادة التي نشأت لمواجهة سائر أنواع الاستجابات الزائفة للفن؛ لاسيما عند الاستجابة الخلقية. أما على الصعيد الفلسفي، فقد زامنت مثل هذه الحركات الفنية والأدبية، تيارات فلسفية عدة، حاولت بدورها أن تتصدى للتيار البراجماتي النفعي في مجمله، أو في ميدان الفن والأخلاق خاصة.

يمكن أن نُشير في هذا السياق إلى محاولات بعض المثاليين الهيجليين، ولعل أهمها محاولة "برادلي" F.H. Bradley [1846-1924] في كتابه [دراسات أخلاقية Ethical Studies]، الذي ظهرت طبعته الأولى عام 1876م، والذي عدّه "بوزانكيت" B. Bosanquet [1848-1923] نقطة تحول، تغيّر عندها مجرى تاريخ علم الأخلاق Ethics. كما عدّه "إليوت" محاولة عميقة لهدم معبد الأخلاق النفعية من أساسه، وإقامة معبد أخلاقي آخر بهندسة مُغايرة وتصميم مختلف.<sup>17</sup> وفي عصر العولمة تولدت الكثير من المُدركات، أهمها: إن البشرية باتت لا تحكم العالم كمجموعة؛ بل تفردت في حكمها وتوجيهها نُخبٌ وقوى وسلطات ودول ومجتمعات معينة واسعة التأثير والنفوذ. ومنها من تعامل مع الكوكب، وحتى مع الفضاء القريب منه وتوابعه كالقمر وأطرافه في المجرة كالمريخ، كملكية حصرية له. وهناك من يُحاول تشكيل الوعي الإنساني، من خلال الأدوات الثقافية للعلم أو التقانة وربطهما بالقوة ومصادرهما.

من خلال ذلك يمكن للثقافة أن تتنوع بشكل غير محدود، وأن تتغير بسرعة أكبر بكثير من تغير السمات البيولوجية في عالمنا.<sup>18</sup> غير أن هذه التيارات المعارضة للنظرة السائدة على أساس أخلاقي، أو على أساس جدواه ونتائجها المباشرة في الحياة فحسب، لم يقدر لها أن تفرض كلمتها

16 - جنكنز، إيردل، الفن والحياة، ترجمة احمد حمدي محمود ومراجعة علي أدهم، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، 1963، ص 246.

17 - جنكنز، إيردل، الفن والحياة، مرجع سابق، ص 246.

18 - بل ديفال و جورج سيشنز، النظرة المهيمنة الحديثة على العالم ونقادها، فصل من كتاب. لمجموع من المفكرين بعنوان، مدخل الى الفكر الايكولوجي، وزارة الثقافة ، ص 30-42. دمشق(2007).

بصورة حاسمة، فظلت دعوتها الى تقويم ذلك من خلال القوانين واللوائح وحدها، وليس بقوانين مفروضة عليه من مجال آخر، وهي دعوة/ دعوات محدودة، تبقى عاجزة، في معظم الاحوال، عن التصدي للروح النفعية العامة السائدة في حضارتنا المعاصرة؛ وبقيت في النهاية دعوة محصورة بين دوائر المثقفين. وسيظل اتساع هذه الدوائر مشروطا بظروف المجتمعات، ومدى تحضرها ورقبها الثقافي<sup>19</sup>.

- الاخلاقيات في العلوم البيولوجية والطبية:

2-3 : الاخلاقيات في العلوم البيولوجية:

1-2-3: "الاخلاقيات الحيوية" Bioethics:

يترك التقدم العلمي والتطور التقني آثارا واسعة وتوجهات قوية تدفع بالمزيد نحو التأمل والنقاش، لما يحمله هذان المستجدان في طبيتهما من مسائل وقضايا تلامس في عمقها وأبعادها جذور الإرث الثقافي والقانوني والفلسفي والروحي لمختلف الجماعات البشرية، وتخرق بتشعباتها حدود الضوابط والمعايير التي تظم قواعد عمل تلك الجماعات وتحكم توجهاتها.

منذ 1979م، تساءل المفكر الألماني هانس جوناكس Hans Jonas<sup>20</sup>. من خلال كتابه الشهير (مبدأ المسؤولية : أخلاقية الحضارة التكنولوجية)، عما آل إليه التقدم العلمي والتكنولوجي :

( ... لقد انقلب وعدُّ التقنية الحديثة إلى وعيد؛ فأخضع الطبيعة التي كانت مُسخرة لتحقيق السعادة الإنسانية، إنما أدّى، بنجاحه المُشيط، الذي بات يمتدُّ اليوم إلى الطَّبيعة البشرية ذاتها، إلى أعتى التَّحديات التي يواجهها الكائنُ البشري بفعل عمله. إن هذه الوضعية الجديدة غيرُ مسبوقة . . ، وما أضحى الإنسان اليوم قادرا على فعله... ليس له نظير ضمن تجربته السابقة...؛ فأخلاقيتنا التقليدية لم تُعد تُرشدنا إلى معايير الخير والشر، التي يجب أن نُخضع لها ما إستحدثناه من ضروب التَّحكم في الطبيعة، وما يمكن أن نبتدعه منها، بفضل ذلك التحكم. إن الأرض الجديدة التي غزوناها بتكنولوجيا طلائعية ما تزال أرضا بكرًا من كلِّ نظرية أخلاقية).

ما أن شاع خبر إستنساخ النعجة "دوللي" عام 1997 في معهد روزلين في مدينة أدنبرة البريطانية، من دون تزاوج جنسي، ومتابعةً مع تسارع مستجدات علمية أخرى في ميدان الهندسة الوراثية تصاعد قلق عالمي يدعو الى وضع الممارسات والتدخلات العلمية في مجال الوراثة والصحة والحياة تحت المراقبة الى فرض مراقبة أخلاقية على جميع أشكال عمليات التدخل

<sup>19</sup> - حسن طلب، الفن...ورجل الاخلاق، مجلة فصول، العدد 58 القاهرة (2002) .

<sup>20</sup> - Jonas Hans *Le principe responsabilité, une éthique pour la société* .trad.fr. par J. Greisch, Flammarion, , pp16-15 ,technologique , Paris 1990

والتصرف في المجين البشري، خوفاً من أن تُنتهك حقوق الانسان وحرمة وتتهدد منظوماته الأخلاقية بالانهيار.<sup>21</sup>

نشطت وتشكلت لجان "أخلاقيات البيولوجيا" على المستويات الوطنية والدولية، وكذلك تشطت مجامع ومجالس الهيئات المُمثلة للشرائع والاديان الكبرى، ومنها منظمات اسلامية ومسيحية ويهودية، كما نشطت منظمات دولية مثل الامم المتحدة واليونسكو ومنظمة الصحة العالمية والفاو والاتحاد الاوربي في مجال الحوار والنقاش الدائر.<sup>22</sup>

صدر الاعلان العالمي حول المجين البشري "الطاقم الوراثي للانسان" وحقوق الانسان، يشمل 25 بنداً، تتضمن معايير عالمية لتنظيم الأبحاث العلمية في ميدان المجين البشري وضبطها. وهو تعبير عن إرادة دولية لتحمل المسؤولية تجاه ما يجوز إعتبره من أعظم الرهانات العلمية للبشرية في مطلع الألفية الثالثة<sup>23</sup>. ونعني به هنا رهان ثورة الهندسة الوراثية، ومدى إرتباطه بمصير الجنس البشري.

ان الغاية الرئيسية من إستصدار الإعلان هي حماية المخزون الوراثي البشري ضد جميع أشكال التجاوز والخرق التي يقوم بها علماء الهندسة الوراثية، والتي تتمثل بشكل خاص، في التدخل والتصرف وفق أهداف، نادرا ما تُعلن حقيقتها صراحة<sup>24</sup>. لكن الاعلان العالمي حول المجين البشري لا يتمتع بقوة الإلزام القانوني، ولم يتعرض بصورة مباشرة حول الاستنساخ البشري، ولا يحدد موقفه بشكل واضح ودقيق، رغم إن هذه الإشكالية تُعدُّ من أعقد وأخطر الرهانات التي تطرحها ثورة الهندسة الوراثية. وهي من أكبر الإشكاليات حالياً في مجال أخلاقيات الطب والبيولوجيا، رغم أن هناك تنصيص يؤكد البند العاشر: يؤكد على أن (... جميع الأبحاث المتعلقة بالجينوم "المجين" البشري وبتطبيقاته، وبصفة خاصة في ميادين البيولوجيا والهندسة الوراثية والطب، لا يمكن أن تعلق على إحترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، وعلى إحترام كرامة الافراد والمجموعات<sup>25</sup>.

<sup>21</sup>-CIOMS , « International Guidelines on Ethics of Research Involving Human Subjects »,Geneva,2002/

<sup>22</sup>- European Commission , « Ethical legal and Social Aspects of Genetic Testing : Research,Development and Clinical Applications »,Brussels,2004

WHO, « Genomics and World Health :Report of Advisory Committee on Health Research », Geneva,2002)

<sup>23</sup> - الدواي عبد الرزاق ، اخلاقيات التعامل مع التقانات الحيوية، الاليسكو، ، ص 179-192. تونس (2008).

<sup>24</sup> - الدواي عبد الرزاق ، اخلاقيات التعامل مع التقانات الحيوية، الاليسكو، ، ص 185 تونس. (2008)

<sup>25</sup> - حمدامد خلف ا، المجين البشري، الانعكاسات الاجتماعية والاخلاقية" منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم، اوت/أب، تونس،(2005).

وإذا كانت التحديات الأخلاقية التي تطرحها الاكتشافات العلمية والانجازات التقنية باتت مدركة ومقلقة في آن واحد، فهي تتسم بتطورها بوتائر متسارعة، ولا سيما في مجال علوم الحياة والصحة وفي مسائل هامة مثل: زرع الأعضاء، واستكمال خريطة المجين البشري "الجينوم"، واختبارات الرصيد الجيني، والهندسة الوراثية، والتلقيح الاصطناعي، وإعادة تكوين الأنسجة والأعضاء عبر إستزراع الخلايا الجذعية، والاستنساخ التناسلي، والاستنساخ العلاجي.

وقد أُشير سابقا إلى أن التقدم التقني كان مصدر القوة والرخاء، وتبقى الديانات والفلسفات تمنح الحكمة؛ والحصول على كلا الثمرتين معا بات من الصعوبة، إن لم يدرك كل طرف عمق أهداف الآخر. وإن التقدم التقني، دون أن يُصاحبه تقدم اجتماعي، سيزيد بصورة آلية من شقاء الإنسانية وتعاستها. لقد أشار الى ذلك الفيلسوف برتراند رسل مبكرا : (إن العلم وحده لا يمكن أن يزودنا بالقيم الاخلاقية). مثل هذه الاقوال، لم تُعدُّ مُستغربة طالما أن القوة في عصرنا، لم تعد مطابقة لسيطرة الانسان وتحكمه؛ فالقلق ناجم من أن تدفع القدرة التكنولوجية بطغيانها إلى جشعه وهلاكه أيضا.

ولكن ثمة رؤى متفائلة، كتلك التي طرحها ألدوس هكسلي **Aldous Huxley** في نبوءته (العالم الجديد الشجاع **Brave New World**)، الذي سينتزع المرض والعدوان والألم والقلق والمعاناة، ليحل بدلها التجانس والاعتدال والتهدئة والأدوية الناجعة، والرضى عن الحياة.

وإذا كان واقع الحال قد افرز عالما ميدانا لصراع قاس، تتنافس فيه الدول والشعوب على إمتلاك أسلحة الدمار الشامل وإشعال حروب غير متكافئة أودت بحياة الملايين من الناس<sup>26</sup>؛ ألا انه: لا تستبعد ان تتم الغزيلة لجيناتنا بما يكفل عدم ولادة طفل مريض أو متخلف عقليا. وإنه سيكون ممكنا تحقيق ذلك الإعلان الذي بشر به عالم الوراثة "جلاس بنتلي" في خطابه 1971 أمام جمعية التقدم العلمي الامريكية : (من حق كل طفل يولد بمستوى فيزيائي وعقلي مبني على بُنية وراثية مقبولة... وانه لا أحد من أولياء الامور له الحق في المستقبل أن يُرهبَ المجتمع بطفل مريض أو متخلف عقليا<sup>27</sup>).

إن ماحتمه التطور العلمي والتكنولوجي من الحيرة، جعلت الفرد مهموماً، بمعنى فعله في وضعية محدّدة، لا يبدو أن التطور العلمي قد قرأ حسابا لتغييرها والحكم عليها، فضلا عن كونه لم يقرأ حسابا لظهورها إطلاقا: ( مثل القيمة الخلقية للإستفادة الإستشفائية من زرع عضو من

<sup>26</sup> - الشيباني مصطفى الفيتوري ، اخلاقيات التقانة (اخلاقيات التعامل مع التقنيات الحديثة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ،ص( 39-58). ، تونس، (2008).

<sup>27</sup> - Glass Bentley , , « Science : Endless Horizon or Golden Age Science,Vol.171,pp.23-29 (1971).

الأعضاء، أو العلاقة الخلقية بين الألم الكبير واليأس من الشفاء، أو مختلف وضعيات الصحة الإنجابية، أو معرفة أثر المحددات الجينية على المستقبل الصحي والنفسي للإنسان، إلخ).

هذه الوضعيات الجديدة، وما يُرافقها من إنجازات هائلة في الهندسة الوراثية تفرز أسئلة كبرى ومتراكمة بتسارع الاستكشافات؛ لذا فهي تتطلب إجابات متساوقة معها، وعلى ضوء ذلك ستكون نتائج تفاعليتهما ذات نتائج ثقافية وكونية هائلة. وفي تقييمهم لهذه التطورات لاحظ " جيريمي ريفكين" و" نيكومور بيرلاس" : ان الحضارة تشهد بداية عصر تاريخي جديد؛ حيث أن هندسة الحياة وتصميمها سوف تكون معياراً للإجراءات العملية في سلوكنا. ومع بداية تشكيل الحياة فإن قِيمنا وأخلاقنا قد أُعيد تشكيلها هي الأخرى، لكي تعكس التغيير العميق لتنظيم البشرية في العالم<sup>28</sup>.

وإذا كان العلم نفسه منبهراً بما تحقق، فإن الفلسفة والعلوم الاجتماعية لم تعد متفرجة فقط؛ بل باتت معنية بإحرازات التقدم العلمي وتعظيم آثاره على الحياة في شتى مناحيها؛ لذا ترتب عليها أن تكون في سباق مع الزمن، لكي تسعى لحفظ طبيعة وحدود وكرامة البشرية من منظور أخلاقي يدرك ويقدر مواقع الحدود الفاصلة بين ما هو متاح علمياً وتقنياً من جهة، وبين ما هو مقبول من منظور المخزون القيمي والأخلاقي الذي تدين به البشرية بمختلف شعوبها ومجتمعاتها من جهة، أخرى.

أصبحنا نتحدث اليوم عن أخلاقيات "تطبيقية"، أو "مطبقة" : هي تطبيقية أو مطبقة، في معنى أول، لأن أحكامها، أي القوانين التي تُسنّ ضمنها لتنظيم ممارستها، تطبيقاً لمبدئيتها العامة القائمة في كرامة الإنسان وحرمة. وهي تطبيقية أو مطبقة في معنى ثان، لأن أنموذج التشريع فيها لا ينطلق من العام إلى الخاص، وإنما هو دراسة الحالة في فرادتها المخصوصة، وإفراز الحكم من الحالة الفردية تلك. إن النظر الأخلاقي ضمن هذه الأخلاقيات الخاصة قد بات يحتكم إلى معيارية المسؤولية، وهي المعيارية المتأتية من تساؤل الإنسان عن عاقبة الفعل واستتبعاته. "فالأمور"، ضمن هذه الأخلاقية "بعواقبها"، وذلك هو معنى المسؤولية التي إغتنى مفهومها فمرّ من المسؤولية عن البشر الآخرين (وهو معنى الكونية الكانتية) إلى المسؤولية عن الطبيعة كلّها وعن الأجيال اللاحقة خصوصاً.

إن ما يؤخذ عليه الإعلان العالمي للمجين البشري عند تناوله في البند الحادي عشر منه قضية الاستنساخ بالصيغة : (من الواجب ألا يُسمح بالممارسات التي تتعارض مع كرامة الإنسان، مثل استنساخ كائنات بشرية بغرض التكاثر)، وهذه صيغة غير آمرة بالنهي، والغموض يلف الأسباب التي اعتمدها الإعلان في منعه الاستنساخ البشري.

<sup>28</sup> Rifkin, Jeremy and Nicamor Parlas, :VikingAlgeny New York (1983).

يخلص البعض عند قراءته إلى أن الأسباب يغلب عليها الطابع البيولوجي، أكثر منه من الطابع الاجتماعي والثقافي؛ في حين أن المنظور التاريخي والحضاري يقضي بان العكس هو الصحيح.

وما حدث ضمن التفكير الأخلاقي هو، بصفة لافتة، إدراج بعد الزمن ضمن التفكير: فالعبرة لم تعد بحقيقة ثابتة أزلية فقط؛ بقدر ما أصبحت أيضا بحقيقة يُعدّلها الزمان. إن السيطرة على الطبيعة اليوم لا بدّ أن تعتبر إن عين تلك الطبيعة ملكاً لأجيال لاحقة، وإن فعل الإنسان في تلك الطبيعة اليوم يُسأل عن عاقبته، أي عن نتيجته وعواقبه.

من هنا كان التشريع العالمي الصادر في 2003/10/15 تحت اسم " الاعلان العالمي بشأن البيانات الوراثية البشرية" يهدف لحفظ وكفالة كرامة الانسان في عمليات جمع ومعالجة وإستخدام وحفظ البيانات الوراثية، والمعلومات والبيانات المتعلقة بالبروتينات البشرية والعينات البيولوجية المستخدمة في الحصول على البيانات. وبالنسبة الى هذا الإعلان:(لكل فرد تركيب وراثي مميز له؛ بيد أنه لا ينبغي إختزال هوية شخص ما في مجرد خصائصه الوراثية نظرا إلى أن هذه الهوية تتأثر بعوامل تربوية وبيئية مركبة، وبالعلاقات العاطفية والاجتماعية والروحية والثقافية مع الآخرين كما أنها تنطوي على بعد ذي علاقة بالحرية)<sup>29</sup>. لا بد من ترشيد التقدم العلمي والتطور التقني وملازمته ومساعدة أصحاب القرار في عالم السياسة والأعمال والتجارة لكي يعمل الجميع على إدماج البعد الأخلاقي والقيمي في مبادراتهم.

ربما يرى البعض إن القضايا الأخلاقية في مواجهة مستجدات التطور العلمي والتقني لازالت قاصرة على اللحاق بوتيرة تطور العلم، الا ان هذا التصور لا يمنع ابدأ الانتظار والتعديل المطلوب إزاء ما يستجد يوميا؛ بل وحتى على مدار الساعة في العالم. إن الأخلاقيات بمجملها تُشكل منظومة من الآداب والقيم وقواعد التعامل مع المنجزات العلمية والتقنية المعاصرة. ولا أخلاق هنا من دون قيم حضارية، ومن دون تشريعات وقوانين، وسلطات ضبط ومراقبة ومتابعة ومحاسبة، وقبل كل ذلك لا بد من توفر الرادع الأخلاقي الذاتي الذي يعول على المنظومات التربوية والدينية غرسه في الفرد لكي يتفادى الجنوح والسقوط الأخلاقي.

إن مجال الحرية الذي يطلق العنان للبحث النظري والمخبري يبدو مُحاطاً بمطلب التّعقل الذي يحكّم مبدأ المسؤولية والمعنى. وفي هذا السياق بالذات برزت الأخلاقيات المخصوصة والتي يمكن أن نذكر منها على وجه الخصوص أخلاقيات العلوم البيولوجية **Bioethics** ، حيث تقوم هذه

<sup>29</sup>- الدواي عبد الرزاق ، في 15 اكتوبر/تشرين اول 2003: الاعلان الدولي بشأن البيانات الوراثية البشرية. اليونسكو راجع ايضا المرجع سابق، ص 187.

الأخيرة على نقطة التقاطع بين الممارسات العلمية والتقنية المحضة من جهة، والإشكاليات المعيارية والخلقية التي تطرحها هذه الممارسات من جهة ثانية.

ويمكن تلخيص الإشكالية التي يطرحها هذا التقاطع في السؤال التالي: هل كل ما يمكن إنجازُه تقنيا مشروعٌ خلقياً؟ فالأمر يتعلق إذن بمدى تعارض الممكن "العلمي/التقني" الذي ينزَعُ نحو اللانهاية، لأنه محكومٌ فقط بمنطق الاكتشاف والاستزادة من المعرفة وإرادة السيطرة على الطبيعة، مع الممكن "الخلقى/الإيثيقي" الذي منطقه هو منطق المتاح خلقياً، وحده هو مبادئ كرامة النفس الإنسانية.

لابد من الاعتراف أيضاً ان الجميع هنا أمام مأزق أخلاقي ناجم عن طبيعة وواقع طغيان اقتصاديات السوق والتجارة وجشع الرأسمال والتفاوت بين المجتمعات من خلال منظوراتها القيمية والفلسفية إزاء العديد من القضايا التي سيطرحها هذا المبحث. فمسائل مثل القرصنة البيولوجية المتاجرة غير المشروعة بالأجنة والأعضاء البشرية والأنسجة والخلايا والعينات الوراثية والمواد ذات الصلة وتقنيات الإخصاب، والإستنساخ وتجارب الأدوية على البشر من دون علمهم ليست مرهونة بأخلاقيات الصحة والتقانة والتجارة فقط؛ بل كثيراً ما تكون في تعارض مع المنظومات القيمية والأخلاقية للمجتمعات، وحتى مع قواعد اقتصاديات السوق نفسها.

إن التأمل الأخلاقي ينبغي ان يصاحب البحث العلمي باستمرار ويدعو الى "عولمة" الأخلاق اذا صح التعبير لمواجهة إنحرافات التقدم العلمي الذي لم يعد يعترف بأية حدود. إن العولمية بما تطرحه حول المواطنة العالمية والديمقراطية من منظور مبادئ حقوق الإنسان لا يمكن لها ان تصبح مجتمعات وشعوب وافراد خارج المركز الاوربي والغربي ساحات وحقول للتجارب والإبادة بشتى انواع الأسلحة، ومنها الأسلحة البيولوجية والكيميائية.

راودت فكرة إنتقاء السلالات البشرية الكثيرين ممن صنفوا الإنسان إلى متحضر، وآخر بدائي، ودعت بعض العقائد السياسية، كالنازية الى تصفية بعض الأعراق. وبعد النجاحات الكبرى في حقل الهندسة الوراثية عادت أحلام البعض من هؤلاء تطرح من جديد، منهم طائفة الرائلين الأيديولوجية التي: ترى في الإستنسال وسيلة لتكاثر سلالات معينة وانتشارها، وجعلها بالتالي تستعبد وتستغل باقي الأجناس الأخرى "المخلوقة بطريقة فطرية طبيعية"، وبذلك ينحو العلم ببعض تطبيقاته منحى فنويا وعنصريا ومنبوذا لأنه يتعارض مع الاخلاق والأعراف الدولية.

كما أن إحتكار تقنيات الهندسة الوراثية والعمل بها من دون شفافية وأهداف معلنة تذهب بدعاة " الحتمية البيولوجية" الجدد الى التفكير بتكوين وتخليق افواج من البشر الحاملين لصفات معينة تجعل منهم من ذوي القدرات الفائقة تماما على شاكلة افلام "السوبرمان" في الخيال العلمي. وهذا لايمنع دعاة التطبيقات العنصرية من تخليق كائنات بشرية هشة تأكلها الأمراض التي يمكن أن

تؤدي بها الى الأنقراض عن وجه الارض، وهي ذات الأهداف التي سعت اليها مشاريع الاستعمار في القرون السابقة في إبادة شعوب قارات بكاملها كما حدث في الامريكيتين واستراليا وغيرها. ان حروب الفيروسات والبكتيريات الموجهة للخصوم على شكل اتقائي ووراثي وعنصري لا تستبعد المغامرين عن خوضها. كما ان المعالجات الجينية المستقبلية بتوفير أدوية تتوافق مع مجين الفرد لازالت تحوم حولها كثير من الشكوك من أن تصبح تلك الادوية أو حتى الاغذية المعدلة وراثيا موجهة وتصبح أدوات إبادة شاملة وأسلحة فتاكة تقتل المُعَفَّلين عن معرفة مدى تطورات وسائل الحرب البيولوجية المستقبلية واستخداماتها.

لقد باتت الاختلافات بارزة ، تشكل جزء من واجهة صراع الحضارات وتباين الثقافات، وتزيد من هوة التباينات في إدراك ماهية العلم والتقانة وتوجهاتها المعاصرة والمستقبلية.

ولتفادي مثل هذه الانحرافات وسوء استخدام نتائج البحوث في ميادين علوم الطب والصحة والحياة إعتد المؤتمر العام لليونسكو بتاريخ 2005/10/19 وثيقة "الاعلان العالمي لأخلاقيات البيولوجيا وحقوق الانسان". وحسب المادتين الاولى والثانية فإن هذا الإعلان يهتم بالقضايا الأخلاقية التي يطرحها التقدم العلمي المعاصر في الميادين المذكورة، وبما يرتبط بها من تقانات وتطبيقات على البشر مع إبراز إنعكاساتها الإجتماعية والقانونية والبيئية.

إن التّقدم الذي حقّفته المعرفة الطبيّة، تقدّم مذهلاً وليس أقلّ من مظاهر هذا التّقدم ما بات اليوم مُتاحا من المعالجات التطبيبية والجراحية التي شكّلت تحولا نوعيا في معالجة حالات كانت تعدّ يائسةً . فتحت الثورة الوراثية وهندسة التناسل والتكاثر او الانجاب... وغيرها من تقانات أطفال الاناييب والارحام البديلة وبنوك النطف والبويضات والاجنة المجمدة وكذلك العلاج المورثي، بالاستفادة من نجاحات الهندسة الوراثية، التي جعلت بأيدينا مفتاح التّحكّم في الجينات البشرية تحكّما يتراوحُ إمكانه بين المعالجة والاستشفاء من جهة ورسم خارطة المجين البشري **Génome Humain** من جهة ثانية، وابتكار صنوف جديدة من النباتات والحيوانات المعدلة وراثيا والمطالبة بتسجيل براءات الاختراع للمورثات سواء للانسان او لكائنات لها خصائص مستجدة لم تكن من قبل مع ما قد يُطمع فيه هذا التطور من إغراءات التنقية والإستصفاء والتمييز وما يمكن ان تندفع فيه حقول التجارب على الإنسان والحيوان ومنها قضايا الاستنسال والتقانات الطبية من مثل زراعة الأنسجة والأعضاء ونقلها من أجساد الموتى أو من الأحياء.

من المعلوم أن هذه الأدوات والتقنيات والوسائل الجديدة تطرح جملة من الأسئلة والقضايا التي تبقى في مدار تفكير معمّق في صلب اللجان الطبية والبيولوجية الوطنية والدولية المختصة، فضلا عن كونها تمثّل موضوع جدل فكري علمي لا يقلّ عمقا بين المهتمّين على اختلاف مشاغلهم

من أطباء ممارسين وباحثين مخبريين ومفكرين فلاسفة، إلخ<sup>30</sup>... وصاحبت هذه التطورات انعكاسات اخلاقية تتعلق بكرامة الانسان وحرياته ومعتقداته وشريعته الدينية وموروثه الثقافي والحضاري<sup>31</sup>.

باتت مفاهيم "الخير" الاخلاقي، و"الشر" اللا أخلاقي أكثر نسبية على الفهم من منظور كل زاوية يراها الأفراد أو المجتمعات من خلال الاختلافات في الحجج والمبررات لكل طرف وموضوع الأخلاقيات البيولوجية لم تعد قضية تعني العلماء والفلاسفة او مجتمعات بعينها؛ بل أصبحت قضية عولمية بحكم علاقتها الحساسة بمستقبل الانسان، والمس بتكوينه وبرمجته الالهية كمخلوق لان هناك من البحوث والممارسات الفعلية ما تغير طبيعة الجسم البشري وحقائقه الثابتة، وما إرتبط بها من عادات وتقاليد وثقافات. وإن أكثر تلك المسائل ما يتعلق بالسعي الى تغيير الطابع البشرية نفسها.

هنالك اليوم معالم مواجهة حقيقية بين مؤسسات التقدم العلمي من جهة وبين الأخلاق والقيم الإنسانية من جهة اخرى. وقد تبلورت في العقود الاخيرة معالم تبلور أخلاقيات العلوم البيولوجية والطبية وتتوافق على المستويات الوطنية والقومية والدولية معطيات لخطاب اخلاقي معاصر سمته القلق على المصير الانساني والحرص على استمرار التطور العلمي في الوقت نفسه.

وإذا كانت سمة هذا الخطاب الأخلاقي تركز على مبادئ حقوق الإنسان، بصفتها الشمولية للبشرية جمعاء او للفرد ككائن، فإنها لا تغفل أيضا حقوق البيئة، سواء المحيط الطبيعي أو الكائنات الحية غير الانسانية من نباتات وحيوانات، وحتى الكائنات الدقيقة، بما يشمل التنوع البيئي أو الحيوي من مكونات حية أو جامدة.

لذا يتعين على أن تكون منطلقات العلم، الى جانب تعاليم الشرائع السماوية، والفلسفة عموما، وفلسفة الاخلاق خاصة، والعقائد السياسية المعاصرة، ان تُسهم في إثراء مبادئ حقوق الانسان وتطويرها، لان انجازات التقدم العلمي أضحت في عصرنا مشوبة بالشك والحذر الى حد ان هناك اتهامات توجه للمؤسسات العلمية والتقنية بانها تخرق حقوق الانسان وتصبح سببا في العديد من الكوارث التي حلت بالبشرية في عصرنا؛ لذا افرزت هذه المواجهة الانسانية إشكاليات أخلاقية جديدة متعلقة بالمصير الانساني وبالمس من كرامة الانسان وانتهاك لحقوقه بالوجود والعيش بسلام وهناء. ان الشك بدأ يتسرب الى نظرة التفاؤل التي طبعتها افكار التنوير حول اهمية العلم.

### 3-2-2: اكتشاف الجينوم نهاية لغز عظيم :

<sup>30</sup> - البخاري حمادة، عن الفلسفة وعن الحرية في الزمن الحادي والعشرين، المستقبل العربي، العدد 309، ص 121، بيروت، يناير (2009).

<sup>31</sup> - الحديدي حلمي عبد الرزاق ، مرجع سابق، ص 102.

## البداية الحقيقية للتقانة وللمتاهة البيولوجية:

ان أهم التقانات الحيوية وتطبيقاتها على الانسان والكائنات الحية هي:

(1) تقانة جراحة المورثات او "التعديل الوراثي".

(2) تقانة استنساخ الدنا.

(3) تقانة الاستنساخ الخلوي "الاستنسال".

(4) بحوث الخلايا الجذعية

(5) الكائنات المعدلة وراثيا.

(6) الاغذية المعدلة وراثيا.

اولا : تقانة جراحة المورثات " التعديل الوراثي":

تعتمد هذه التقانة على إضافة أو تغيير مورثة او بعض المورثات في موروث الكائن الحي، مما يعني انه يمكن برمجة الكائن الحي لهدف ما. وباعتماد هذه التقانة، أصبح بإمكاننا برمجة البكتيريا لهدف معين. استعملت هذه التقانة لأول مرة لهدف علمي سنة 1983 من قبل الباحث برينستار **Brinstar** / حيث ادخل المورثة البشرية المسؤولة عن صنع هرمون النمو في مورثة فأرة، فكانت النتيجة فأرة كبيرة الحجم سميت **Super Mous**، كما يمكن إدخال المورثة التي نريد معرفة آليتها الى احد الفيروسات غير الضارة، ثم يدخل الفيروس الناقل للمورثة الى احد الخلايا التكاثرية للحيوان او العضو المصاب بالمرض عند الانسان وبمجرد دخول الفيروس الناقل داخل الخلايا تندمج المورثة الدخيلة داخل مورث الخلية التي يراد تغييرها وراثيا.

هذه الطريقة سلاح ذو حدين:

(1): الفوائد الايجابية:

بواسطة هذه التقنية يمكن ادخال المورثات المطلوبة الى البكتيريا والى الحيوان المعدل وراثيا لتحديد طبيعة بعض الامراض، كما يتم تحويل تلك البكتيريا الى مصانع حيوية تنتج البروتينات والهرمونات النافعة، ومنها ما يُستعمل دواء للانسان، كهرمون النمو، وهرمون الإنسولين. ويُعَوَّل على هذه الطريقة تعديل المورثات أو إستبدالها بمورثات سليمة دون التعرض للخلايا التكاثرية او إصلاح الخلل الوراثي في الخلايا الجسمية.

(2): النواحي السلبية:

يمكن استخدامها لأغراض خطيرة ومدمرة للبيئة وللحياة بالاعتماد على نفس الطريقة بانتاج كائنات معدلة وراثيا تسبب العدوى ونشر أمراض معينة، كأسلحة بيولوجية.

### 3-2-3 : تقانة الاستنساخ للحمض النووي الدنا:

بحلول عام 1981 اكتشفت طريقة استنساخ عدد لا نهائي عمليا من الدنا ومن قطعة واحدة من المادة، سميت "تفاعل البوليميراز المتسلسل"، يمكن الحصول على مائة مليون نسخة في سويغات، ولا يتطلب الامر سوى مخبر عادي للكيمياء الحيوية مزود بعدد من الاجهزة والمواد الكيميائية. تقول كلمات "كاري موليس"، الحائز على جائزة "نوبل" 1993<sup>32</sup>. يلعب انزيم دنا بوليميراز دورا في تناسخ "تكاثر" الدنا، وكان "موليس" يستخدمه في تعيين مخطط الترتيب (طريقة استنساخ تتابع الجين في جزئ الدنا)، كان يفكر في تسخين الدنا ليفصل بين الظفيرتين ويباعد بينهما، ثم يضيف المُطعم (جين صغير له تتابع خاص يرتبط بالقواعد المكمل له) ثم بعد ذلك يستخدم أنزيم دنا بوليميراز ليزود الظفائر لتضاف الى المُطعم. وهكذا سيجري انتقاء في المحلول للكبسولات التي ستضاف الى المُطعم، وستقوم الكبسولة المختارة بتزويدنا بمعلومات عن كيفية تتابع "ترتيب" الدنا الاصلي.

يُنسب الى تفاعل البوليميراز المتسلسل امكانيات هائلة يمكن تحقيقها وفي تطوير مجالات جديدة بالكامل من الدراسات والابحاث، منها مثلا امكانية استنساخ نسخ من دنا لنحلة عاشت منذ 40 مليون سنة ونملة عاشت منذ 25 مليون سنة حفظتا في الكهرمان<sup>33</sup> قبل استكمال اكتشاف الجينوم بالكامل خطت هندسة الكيمياء الحيوية خطوات عملاقة في ميدان البيولوجيا الجزيئية. يطلق مصطلح الهندسة الوراثية على استخدام الدنا المُجمَع (أي المجمع من اجناس مختلفة)، وقد قامت مؤسسة "جيننتك" Genintek ببرمجة بكتريا لتنتج الانسولين البشري، وذلك بإقحام جين الانسولين في دنا البكتيريا، وبالطريقة نفسها اصبح من الممكن انتاج هرمون النمو البشري<sup>34</sup>.

ربما تستخدم تقنية الدنا المجمع في المستقبل القريب لمعالجة الامراض الوراثية، فقد تطورت في السنوات الاخيرة طرق تصميم الادوية التي بدأها "بول إيرليش" ، وتضم الان طرق تصميم أدوية على اساس بنائي جزيئي. في هذه العملية يتم تحديد البنية الفراغية للانزيم الهدف أو الفيروس، أو أي كيان آخر مسبب للمرض، ثم يصمم الدواء الذي عند تناوله أو أخذه الى الجسم

<sup>32</sup> - يمكن الحصول على الدنا من نقطة دم مجفف، او من انسجة مخ محنط، او من ماموث مغطى بالصدف ومتجمد في مجرى احد الانهار الجليدية منذ اربعين الف سنة. Kary B. Mullis, Scientific American, Apr. 1990, p.56 .

<sup>33</sup> - (بعض الاحجار الكريمة التي تكلست منذ ملايين السنين وفي ثناياها بقايا لحشرات كالنمل او النحل وغيرها) Sharon Begley, Newsweek (June 14, 1993), p.57 ; Svante Paabo, Scientific American (Nov. 1993), p.86 ; and Philip E. Ross, Scientific American, p.115, (May 1992) .

<sup>34</sup> - دانييل كيجلس،، الشفرة الوراثية للانسان، القضايا العلمية والاجتماعية لمشروع الجينوم البشري، عالم المعرفة العدد 217، ص78 و 132 الكويت. (1997).

بحيث يستهدف ويرتبط بتلك البنية الفراغية الجزيئية ويتدخل في نشاطها<sup>35</sup>. والامل معقود على هذه الابحاث في تطوير علاجات لامراض عديدة بما فيها السرطان والصدفية والجلوكوما؛ بل وحتى نوبات البرد العادية.

لقد أثارت هذه الأبحاث قضايا أمن حيوي وقضايا اخلاقية في اوساط العلماء وعامة الناس، غير ان الباحثين قطعوا مشوارا طويلا في اتجاه التنظيم الذاتي<sup>36</sup> في 1953/4/25 تم اكتشاف الدنا DNA ، و في 2001/6/26 اعلن "فرانسيس كولينز" Collins F. مدير مشروع الجينوم البشري Human Genom Project و"كريغ فينتر" Venter G مدير شركة سيليرا جينوميكس Celera Genomics ، اعلنا معا انهما قد أنجزا قراءة"مسودة"الجينوم البشري (المجموعة الكاملة للحمض النووي الريبي المنزوع الاوكسجين"الدنا" DNA ، وجاء هذا الاعلان قبل سنتين من الموعد المحدد له، مما احدث سبقا ضخما في المنافسة العالمية الضارية<sup>37</sup>. وباكتشاف الجينوم، نقف على حافة قارة جديدة للمعرفة. وعن علاقة الوراثة بالطب، على ان علاقتهما بـ " اليوجينيا" قد تكون جذبت معظم الباحثين اجتماعيا وشجعتهم وظيفيا.<sup>38</sup>

ترجع فكرة تربية أناس أفضل الى أفلاطون، لكن الصيغة الحديثة لليوجينيا قد نشأت على يد "فرانسيس جالتون" "ابن اخت داروين"، وكان من علماء القرن التاسع عشر، إقترح : (... انه من الجائز ان نتمكن من تحسين الجنس البشري بنفس الطريقة التي يُربى بها النبات والحيوان)، وهو الذي اطلق على برنامج تحسين البشر اسم "اليوجينيا" (مشتقة من اصل اغريقي بمعنى "نبيل المحند" او "طيب الارومة" وكان يهدف منخلال اليوجينيا الى تحسين سلالة الانسان بالتخلص مما يسمى الصفات غير المرغوبة واكثر الصفات المرغوبة<sup>39</sup>.

ومع كل الحملة العلمية والاعلامية التي كرسنا لهذا الحدث الفريد في تاريخ العلم بدأ التفاؤل يطرح احلامه في علاجات للسرطان، وأدوية مفصلة على مقياس العلل، وعقارات مصنوعة للافراد وليست لعموم الناس، لكن في ذات الوقت بدأت الأسئلة المؤرقة تتسائل عن سؤال المصير الإنساني

<sup>35</sup> - Charles E. Bugge, William M. Carson, and John A. Montgomery, Scientific American, p.92 Dec.1993.

<sup>36</sup>-Michael D. Jones and Jeffrey T. Feyerman, J.Chem. Ed.64,p.337. (1987)

<sup>37</sup> - مات رايدلي، جويليه/اوت 2001، سنة الجينوم، نهاية لغز عظيم، البداية الحقيقية للبيولوجيا الثقافية العالمية، العدد 107، ص 187-194 نشر في مجلة:

Discover, jen, The Year of the Genom, End of Great Mystery, 2001, -The Real Beginning of Biology

<sup>38</sup> - اليوجينيا: هي مجموعة الافكار والانشطة التي تهدف الى تحسين نوعية جنس الانسان عن طريق معالجة وراثته البيولوجية .

<sup>39</sup> - دانييل ج. كيفلس، " من تحت معطف اليوجينيا"، بحث في كتاب "الشفرة الوراثية للانسان"، 1997، سلسلة عالم المعرفة، العدد 217، ص 13-50، الكويت، 1992.

في الرحلة الجديدة في تخوم القارة الجديدة، فيها من الاطفال المنتخبين وفق مواصفات الطلب، والتقليل من ذوي العاهات وارتباط التأمين الصحي على مدخرات المعلومات الوراثية في الجينوم. كل هذه القضايا والتساؤلات حولها حقيقية؛ إذ أن الاحتمالات الطبية والمخاوف الأخلاقية بدأت تتصدر النقاش الدائر، لكن هناك حقيقة فلسفية اكبر من أن يتغافل عنها الناس، وهي ان الجينوم يشكل مسودة لا سابق لها من معرفة الذات البشرية، وله آثار تتجاوز الطب والعلاج والهيئة والشكل والعنصر والجنس.. الخ الى الغوص أيضا في ماضيها كجنس حي لازال يكتم في أعماقه الكثير من الأحاجي والأغاز الفلسفية.

الجينات نوافذ تطل على الماضي البيولوجي والتجاوب البيئي والطبائع المتفردة عند جنس وآخر والتشابهات بين جينات تطور الأجنة. وكل هذه القضايا لا يمكن أن تُعزل عن الجدل الفلسفي، خاصة حول موضوعه: هل ان الجينات محرك دمي Puppet Master ونحن دماها؟.

إن منطق حقوق الإنسان يمتدّ امتدادا كاملا إلى مجال الاخلاقيات البيولوجية، ففي تناولها لقضايا المجين البشري ذكّرت اللجنة الفرعية لتطوير حقوق الإنسان وحمائتها، وهي اللجنة المنبثقة عن لجنة حقوق الإنسان بمنظمة الأمم المتحدة، بما كان عبّر عنه الفيلسوف الألماني "يورغن هابرماس Jürgen Habermas" من خشيته أن يؤدي الخلط بين الطبيعي فينا و"المعالج" إلى تشويش فكرتنا الأخلاقية عن أنفسنا، إذ لا قبل للإنسان بأن يتحمّل أن تكون حياته ومستقبله محددين جينياً، مع ما نعلم من مدلول ذلك بالنسبة إلى حرّيته، حيث لا يمكن للفرد أن يظلّ مؤمنا بحرّيته إذا كان مستقبله ومآل أفعاله معلومين له من قبل، فتمّة ضرب من الحقّ الأساسي لكل فرد في أن يكون مستقبله غير محدد.

هل نعيد النظر في قضايا متعلقة بلغز الارادة الحرة؟ أم تكون أفعالنا محتومة؟، وفي هذه الحالة فنحن غير مسؤولين، أو ان افعالنا تأتي نتيجة لأحداث عشوائية، وفي هذه الحالة أيضا نحن غير مسؤولين عنها. ولكن الجينات تبين لنا كيف نهرب من هذا المأزق، وان كانت الجينات واقعة تحت رحمة السلوك، فان السلوك تحت رحمة الجينات ايضا، ولهذا فان افعالنا تحددها قوى مصدرها مؤثرات من داخلنا، ومن الخارج في الوقت نفسه، وهذا ما يجعلها حتمية ومسؤولة، ولكن لا يسهل التنبؤ بها.<sup>40</sup>

تحمل الخلايا البشرية نحو 24000 جينة. تُشكل برنامج مئة الف مليار (مئة تريليون) من الخلايا التي تكون الجسم. من المفترض ان تكون هذه المورثات ملكنا كبشر، لكن حقيقة اخرى مزعجة تأتي من الطرف الثاني للقرية الكونية تريد إقناعنا: أنه ومنذ عامين في عام 2005 حرر

40 - مات رايدلي، جويليه/اوت2001، سنة الجينوم، نهاية لغز عظيم، البداية الحقيقية للبيولوجيا، مجلة الثقافة العالمية، العدد 107، ص 187-194 نشر في مجلة Discover، jen.2001, The Year of the Genom, End of Great Mystery-The Real Beginning of Biology

مكتب الولايات المتحدة للبراءات والعلامات التجارية براءات اختراع لصالح الشركات والجامعات والوكالات الحكومية والمجموعات غير الربحية شملت ما يقرب 20% من الجينوم البشري<sup>41</sup>. وإذا توخينا الدقة، وطبقا لدراسة نشرت في مجلة العلوم Science الامريكية العدد 2005/10/14 من قبل (ورتي ف.و جينس ل.ك.) من "معهد ماساتشوستش للتقانة" فان هناك 4382 من أصل 23886 جينة، التي أُخترنت تسلسلاتها في قاعدة بيانات المركز الوطني للتقانة الحيوية والمعلومات في الولايات المتحدة، تحمل براءة واحدة على الاقل، وتمتلكها شركة "إنسايت" بمفردها، وهي نسبة تقترب من ما يقارب 10% من مجمل هذه الجينات البشرية. وكذلك ان 50% تقريبا من الجينات المُسرطنة المعروفة سُجلت في براءات أخرى، وإن المؤسسات والجامعات والشركات هي في الولايات المتحدة وكما يعكسها الجدول التالي المسجل لعدد براءات الاختراع حتى تاريخ 2005/9/14. المُلحَظ إن أغلب براءات الاختراع في الولايات المتحدة ذات صلة بالحمواض النووية، الدنا أو الرنا.

جدول يبين كبار مالكي براءات الجينوم البشري في الولايات المتحدة لغاية 2005/9/14<sup>42</sup>.

عدد البراءات	كبار مالكي البراءات
1018	University of California
926	U.S. government
587	Sanofi Aventis
580	Glaxo Smith Kline
517	Incyte
426	Bayer
420	Chiron
401	Genetech
396	Amgen
388	Human Genome Science
371	Wyeth

41 - ستيكس جي. "تملك مادة الحياة Owning The Stuff of Life" مترجمة عن مجلة "ساينتفك امريكان" لمجلة العلوم الطبعة العربية، المجلد 22، العددان 9/8، ص 60-68. اوت/سبتمبر 2006

42 - ستيكس جي. "تملك مادة الحياة Owning The Stuff of Life" مترجمة عن مجلة "ساينتفك امريكان" لمجلة العلوم الطبعة العربية، المجلد 22، العددان 9/8، ص 60-68. اوت/سبتمبر 2006.

Merck	365
Applera	360
University of Texas	358
Novartis	347
Johns Hopkins University	331
Pfizer	289
Massachusetts General Hospital	287
Novo Nordisk	257
Harvard University	255
Stanford University	231
Lilly	217
Affymetrix	207
Cornell University	202
Salk Institute	192
Columbia University	186
University of Wisconsin	185
Massachusetts Institute of Technology	184

ولا شك ان معلومة مثل هذه التي يحاول أصحابها ترسيخها كحق ملكية في الأذهان تُشكل صدمة، وأمر غريب، لا يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى؟.

عموما لقد تم تجاهل القضايا الاخلاقية المرتبطة بالبراءات لدى تطبيق واتباع سياسات وقرارات قانونية، في حين لا تزال هذه الموضوعات في حيز اعتبارات كل من اوربا وكندا. ويتابع الاخلاقيون والقضاة والعلماء ومتفحصوا البراءات المناقشات التي تأخذ حدة وجدلا واسعا، خاصة في حقبة جديدة من طب يتسم بالتوجه الشخصي ويبحث في الجينوميات والبروتيوميات التي تتفحص في آن واحد فعاليات الكثير من الجينات والبروتينات المختلفة. اذاً سيعول الاطباء، بشكل متزايد على اختبارات مسجلة في براءات تتيح للسريبيين "الكلينيكين" أن يطابقوا المرضى، ذوي السمات الوراثية المحددة، مع العقاقير الأفضل، وبالفعل يقوم الباحثون حاليا عمل جينات بأكملها ومن المحتمل إذا ان ينتهي عدد كبير من الجزيئات البيولوجية المستعملة في هذه الدراسات

المعقدة مثقلا باشتراطات الترخيص التي ستحول إما الى عدم إجراء أبحاث تقود الى علاجات جديدة والى تغذية تضخم كلفة الرعاية الصحية.

### 3-2-4 : على ضوء ذلك يطرح السؤال حول "من يمتلك الحياة"؟:

منذ قرابة ثلاثين عاما كتب عالم البيولوجيا الجزيئية "سيدني برينر" تعليقا جاء فيه :  
(... يمكنك ان تقول، بطريقة ما، ان البحث البيولوجي الجزيئي والجيني للأعوام الستين الاخيرة يمثل فاصلة طويلة... أما وقد اكتمل ذلك البرنامج فقد دخلنا في دائرة مغلقة بالعودة الى المشكلات التي خلفناها وراءنا دون حل. كيف يمكن للمتعضية المصابة أن تعيد تجديد البنية نفسها التي كانت لها من قبل؟ وكيف تشكل البويضة متعضية؟... اعتقد انه في غضون الاعوام الخمسة والعشرين القادمة سوف نضطر الى تعليم علماء البيولوجيا لغة أخرى... لا أعرف بالضبط ماذا تدعى، ولا أحد يعلم ذلك أيضا... وقد يكون من الخطأ بأن المنطق بأكمله يتوضع على المستوى الجزيئي، ربما نحتاج الى المضي الى ما هو أبعد من آليات اساعة). ومنذ طرح "سيدني برينر" تعليقاته تلك حتى بدأت بالفعل تتشكل لغة جديدة لفهم المنظومات المعقدة فيها كثيرا من المصطلحات من مثل : الشواش، الجواذب، الفراكتالات، البنى المبددة، الانتظام الذاتي... الخ.

وقد طرح "فريتجوف كابرا Fritjof Capra"، استاذ الفيزياء النظرية من جامعة فيينا أفكاره في العقود الثلاث الاخيرة بحضور ملموس لفحص المضامين الفلسفية والاجتماعية للعلم المعاصر وعلاقتها بالازمات البيئية المستعصية. وفي مقالته المعروفة (شبكة الحياة) يقدم كابرا تصوراته في نظرية علمية متماسكة توفر للمرة الاولى رؤية موحدة للعقل والمادة والحياة<sup>43</sup> تتجاوز الفصل الديكارتي بين العقل والمادة الذي هيمن على المجتمعات الصناعية وفق نموذج إرشادي ميكانيكي طوال 300 عام. وهو ينطلق من فكرة فهم تنظيم المنظومات الايكولوجية (المجتمعات الطبيعية للنباتات والحيوانات والمتعضيات المجهرية) التي نظمت ذاتها بطريقة تبلغ باستدامتها الايكولوجية حدها الاقصى. وينبغي أن نتعلم الكثير من حكمة الطبيعة هذه.

وبالتوصل الى دراسات اكثر عمقا في مجال المنظومات الحية، أي الكليات المتكاملة التي لا يمكن اختزال خصائصها الى خصائص أجزائها الصغيرة يكون التفكير المنظوماتي بطبيعته، اكثر مقاربة "بينمناهجية" او لنقل بشكل أفضل "عبر مناهجية" بين تخصصات لازالت تتجادل حول مفاهيمها، و لانهاء الجدل بين علماء الفيزياء والكيمياء من جهة والبيولوجيا من جهة ثانية، اين ذهب المذهب الميكانيكي بالقول: ( الكل ليس سوى مجموع أجزائه... وكل الظواهر البيولوجية يمكن تفسيرها بواسطة قوانين الفيزياء والكيمياء) ويقابلهم مفكرو المذهب الحيوي على هذه الدعوى

43 - فريتجوف كابرا Fritjof Capra، مقالته "شبكة الحياة" ضمن كتاب من تأييف مجموعة من المفكرين، بعنوان (مدخل الى الفكر الايكولوجي)، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ص 62-79. (2007).

وذهبوا: (... الى ضرورة إضافة كينونة غير مادية "قوة حيوية أو مجال" الى قوانين الفيزياء والكيمياء لتفسير الظواهر البيولوجية). لذا ولدت البيولوجيا العضوية "الكيمياء والفيزياء الحيوية" كطريق ثالث من رحم تلك المناظرة بين أنصار المذهب الحيوي والمذهب الميكانيكي باقتراح يدعو الى (إضافة شئ ما الى قوانين الفيزياء والكيمياء لكي نفهم الحياة)، وهذا الشئ، وفق نظرتهم، لم يكن كينونة جديدة؛ بل معرفة لتنظيم المنظومة الحية، او كما يقولون عادة (علاقات التنظيم). وهكذا يقوم علماء البيولوجيا العضوية بصياغة الرؤية المنظوماتية للحياة لأول مرة وتبنوا الرأي القائل : (... بأن خصائص المنظومة الحية، هي خصائص الكل التي لا يحوزها أي من أجزائه. تثبتق هذه الخصائص من التفاعلات والعلاقات بين الاجزاء؛ وتتحرب عندما يتم تشريح المنظومة، سواء ماديا أم نظريا، الى عناصر معزولة. وعلى الرغم من اننا نستطيع ان نتبين اجزاء مفردة في اية منظومة فإن هذه الاجزاء ليست معزولة، وطبيعة الكون دوما مختلفة عن مجرد مجموع أجزائه).

من هنا دخل مفهوم الشبكة عند النظر الى المجتمعات الايكولوجية باعتبار ان أي مجتمع منها يترايط باسلوب شبكي من خلال علاقات التغذية. وفكرة الشبكة فكرة قديمة تحدث عنها الشعراء والفلاسفة والمتصوفة عبر العصور لكي ينقلوا إحساسهم بالتواشج والتواكل بين الظواهر كافة. ويعاد صياغة هذا المبدأ بنموذج مشترك بين اشكال الحياة كافة، فحيثما تكون الحياة، تكون الشبكات.

التفكير المنظوماتي هو تفكير بلغة العلاقات، تتطلب النقة في المنظور من الاجزاء الى الكل نقلة في التركيز من الاشياء الى العلاقات. وقد اسهم في تطوير هذه النقلة علماء من مثل برتالانفي عالم البيولوجيا النمساوي وخصوصا عندما اعتبر المنظومات الحية هي منظومات مفتوحة من وجهة نظر الديناميكا الحرارية، أي ان تلك المنظومات تحتاج في بقائها حية الى حالات من التدفق المادي والطاقي. واقترح دراسة الظواهر البيولوجية بطريقة جديدة تتطلب بناء "علم عام للكلائية" كفرع رياضيات شكلائي. ولكن لم يحقق "برتالانفي" تصورات الرياضيات التي كان يفترق اليها حتى جاء "ايليا بريغوجين" بعد ثلاثين سنة لسد تلك الثغرة مستخدما رياضيات التعقيد.

وهذه الرياضيات اللاخطية التي تحل مشاكل الحركات المعقدة تطورت بفضل تطور علوم الحاسبات وصياغة نماذج رياضية متقدمة للنماذج والعلاقات وتطبيقها على المنظومات الحية. خاصة ان المنظومات الحية تتضمن آلاف السيرورات الكيميائية المترابطة وهناك تدفقات مادية وطاقوية لا تتوقف عبر ومن خلال المنظومة المفتوحة. ولهذا كان لابد من ان تكون السيرورة هي المعيار الثالث من اجل وصف شامل للحياة. ان سيرورة الحياة هي الفعالية المتضمنة في التجسيد المستمر لنموذج تنظيم المنظومة. وبذلك يكون معيار السيرورة هو الرابط بين النموذج والبنية.

ان دراسة العلاقات بين مكونات المنظومة ككل والمنظومات الاوسع المحيطة بها هي بتعبير آخر دراسة العلاقات بين المنظومة وبيئتها، وهو ما نعينه بمصطلح "السياق". ان كلمة "سياق" تتضمن فكرة "الشبكة"، وهي ربما اكثر ملائمة لوسم التفكير المنظوماتي في مجمله.

التفكير المنظوماتي "تفكير سياقي". وان التفكير المنظوماتي بلغة السيوررات هو تفكير سياقي وسيروري معاً<sup>44</sup>. لقد سبق لباحث يدعى "شاكراباتي" عام 1972 ان طلب براءة اختراع متمثلة لبكتيرة "بسيديموناس" قادرة على تفكيك بقع النفط بكفاية أعلى مما ينجزه مختص بالمعالجة الحيوية ومنذ ذلك الوقت احتدم جدل بعدم إمكانية تسجيل سلالات بكتيرية، هي في الحقيقة كائنات حية، و"نتاج الطبيعة"، ولكن الحال قد تغير بحدود عام 1980 عندما أقرت المحكمة استئناف قضية "شاكراباتي" لان واقع البيولوجيا الجزيئية قد تطور بفضل تطور الهندسة الوراثية عندما يتمكن البيوتكنولوجي اليوم من تعديل الدنا، وقد تمكنت شركة " أمجين Amgen " من قطع الدنا ولصقه، وتطورت ايضا طرائق التاشيب في تركيب الانترفيرون<sup>45</sup>، وحاز على اثرها الباحثان "كوهين اس" و "بوير ه" على براءة تقنية مفتاحية لمناولة الدنا.

لقد كان الجو مفعماً بالرغبة في تعزيز التقانات الحيوية لذلك وافق الكونغرس على تشريع Bayh – Dole يتيح للجامعات الانخراط في اتفاقيات خاصة بالترخيص الحصري للتقنيات التي تملك براءتها، كما أجاز تشريع ستيفنسون- وايدلر Stevenson-Wydlar لمعاهد الصحة الوطنية الامريكية والوكالات الفيدرالية الاخرى ما اجازه للجامعات<sup>46</sup>.

ان هناك رأي عام يتشكل ضد منح براءات الاختراع للحياة ومنها مساعي "هيئة مصالح الاهالي Poeples Business Commission التي يشارك في رئاستها الناشط "ريفكين ج". شجبت بشدة تحويل الحياة، ووصفت كوارث بيئية وشيكة كعواقب لذلك التحويل. في حين ظل رئيس المحكمة العليا "بركر و" الاعتراضات حول تسجيل الحياة في براءات واعتبر تلك الاعتراضات في غير موضعها قائلاً: (...إن أي شيء على الارض من صنع الانسان) يمكن تسجيله في براءة، وبقي التساؤل الوحيد المطروح من قبل المحكمة العليا، فيما اذا كانت لبكتيرات من "نتاج الطبيعة" او انها "ابتكار بشري"؟.

تستمر قرارات القضاة الامريكيين لا في تسجيل براءات الاختراع فحسب؛ بل ايضا تسجيل مواد الحياة الاخرى، كمجمل الكائنات الحية والخلايا بما في ذلك الخلايا الجذعية، وهذه أمثلة فقط ضمن

44- فريتجوف كابرا Fritjof Capra، مقالته "شبكة الحياة" ضمن كتاب من تأليف مجموعة من المفكرين، بعنوان (مدخل الى الفكر الايكولوجي)، وزارة الثقافة السورية، ص 62-79. دمشق، (2007).

45- The Bio Fab Group ; Engineering Life : Building a Fab for Biology,(2006),Malallat Aloloom,vol.22, No. 11/12, pp. 66-73. dec.2006.

46 - ستيكس جي. "تملك مادة الحياة Owning The Stuff of Life " مترجمة عن مجلة "ساينتفك امريكان" لمجلة العلوم الطبعة العربية، المجلد 22، العددان 9/8، ص 60-68. اوت/سبتمبر 2006.

قائمة غير مكتملة. لقد اتبعت البراءات الاولى التي حررت لتسجيل الجينات، عن كثب التقليد المتبع في تسجيل براءة المواد الكيمياوية، ففي الواقع ان شركة "إنسايت " لا تمتلك، الحقوق في جينة مُستقبل الهستامين الموجودة في اجسامنا؛ بل هي تمتلك فقط حقوق الشكل "المعزول والنقي" لهذه الجينة.

وفي بعض الاحيان، استند فاحصوا البراءات او المحاكم الى ما ورد في الدستور الامريكي، من تحريم العبودية، كي يبرروا عدم امكانية تسجيل براءة مضمونها إنسان ما أو أجزاء من جسده. ان البراءة بجينة معزولة ومستنسخة "مُنسلة" والبروتين الذي تنتجه توفر لمالكها الحقوق الحصرية لتسويق بروتين (كالانسولين أو هرمون النمو البشري) بالطريقة ذاتها التي تتيح لمالك مصنع مواد كيميائية تنقية الفيتامين B وتقديم طلب تسجيل براءة بذلك<sup>47</sup>.

في عام 1996 اتخذ علماء كل من القطاعين العام والخاص من جميع انحاء العالم المنخرطين في ابحاث سلسلة الدنا قرارا سمي "قواعد بيرمودا **Bermuda Rules** تبنت مبدأ "المصدر المفتوح في العلوم الطبية الحيوية"؛ كتلك التي اعتمدت في تقنيات المعلوماتية، ينص على: ( انه يتعين ان تكون جميع المعلومات المتعلقة بتسلسلات الجينوم البشري، التي يتم جمعها في المراكز الممولة لسلسلة جينوم الانسان على نطاق واسع، متاحة مجانا وتحت تصرف الجميع)<sup>48</sup>.

في السنوات الاخيرة تراجع زخم تسجيل البراءات، وقد انعكس ذلك من خلال مسح قامت به الاكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة نشر ضمن جزء من تقرير: "جني ثمار ابحاث الجينوميات والبروتيوميات" **Reaping the Benefits of Genomic and Proteomic Research** الذي نشر في نوفمبر 2005 من خلال جمع آراء 655 باحث بصورة عشوائية من الجامعات والمختبرات الحكومية والصناعة، حول تأثيرات البراءات الخاصة بالحياة في أبحاث الجينوميات والبروتيوميات، وتطوير الدواء.

تبين ان 8% فقط من الاكاديميين يرون أن ابحاثهم في العاملين السابقين، كانت على علاقة بالبراءات التي يمتلكها الآخرون، في حين ان 19% لم يكونوا اصلا على علم فيما اذا كانت ابحاثهم قد تداخلت مع البراءات، و73% اعربوا عن كونهم في غنى عن استعمال براءات الآخرين، وانتهى التقرير باستنتاج انه: "في الوقت الحاضر، يبدو ان مقدار حرية الوصول الى البراءات أو الى زاد المعلومات في الابحاث الطبية الحيوية، نادرا ما يفرض عبئا ذا شأن على الباحثين الاكاديميين في هذا المجال"<sup>49</sup>.

47 - ستيكس جي. "تملك مادة الحياة **Owning The Stuff of Life**" المرجع السابق، ص 60-68.

48 - ستيكس جي. "تملك مادة الحياة **Owning The Stuff of Life**" ، مرجع سابق، ص 60-68.

49 - ستيكس جي. "تملك مادة الحياة **Owning The Stuff of Life**" مرجع سابق، ص 60-68.

ولوحظ أن عدد البراءات التي يسعى إليها الافراد قد هبط ايضا هبوطا جوهريا، ووفقا لتقرير نشر في مجلة "بيوتكنولوجيا الطبيعة Nature Biotechnology"، فان عدد البراءات المتعلقة بالحموض النووية أو بالمصطلحات ذات الصلة الوثيقة بها قد وصل الى اقصاه في عام 2001 مع ما يقرب 5004 براءة، ثم هبط في السنوات الاربع التالية. وهذا النزوع قد يكون جزئيا نتيجة تشدد مكتب البراءات في معيار المنفعة. جعلت من الباحث "فنتر س."، الذي كان رأس الرمح لجهود القطاع الخاص لسلسة الجينوم البشري يغادر شركته "سيليرا"، ويتحول الى ناقد صريح. وفي مؤتمر علمي 2003 نراه يقول: (لقد اثبت التاريخ ان براءات الجينات لم تكن تساوي قيمة الورق الذي كتبت عليه، والوحيدون الذين كسبوا المال من هذه البراءات هم محاموا البراءات)<sup>50</sup>.

ان تكتلات للبراءات حاولت عرقلة الابحاث الاساسية وقد فشلت لان الاكاديميين يميلون الى عدم احترام الملكية الفكرية، فالابحاث اللا تجارية في نظرهم مستثناة، مع ان قرارا اتخذته المحكمة CAFC في 2002 بشأن احدى الحالات، جرد الجامعات والمعاهد الاخرى اللاربحية من أي امتياز او وضع خاص. لقد قررت المحكمة : (ان الابحاث اللاتجارية تعزز " الاهداف التجارية الشرعية" للجامعة، وهكذا فان كلا من ادوات البحث ومواده- قد يتضمن ذلك الدنا- لا تستحق أي اعفاء" باستثناء اعفاء يتناول الابحاث الخاصة بتحضير الطلب بهدف تقديم ملف بعقار جديد).

إن علم الوراثة، على عظمة الفتح الذي أتاحه للإنسانية ابستيمولوجيًا، يمكن أن يُستخدم لغايات لا أخلاقية أصلا، من جنس التّعقيم القسري، أو التّصفية الجماعية أو التّنقية النسلية، ذلك أنّ رسم خارطة المجين البشري لا بدّ أن يصاحبه إطار أخلاقي محيط. ولعلّ أبرز عناصر هذا الإطار الأخلاقي أنّ المجين الإنساني ليس ملكا للإنسان بما هو فرد، وإن كانت بنيته وخارطته حاضرين في كل فرد. فكما أنّ بعض المعالم الأثريّة قد بلغت من الدّلالة للإنسانيّة قاطبة، ما يجعلها ملكا للبشريّة بأكملها رغم كونها في هذا البلد أو ذلك، وكما أنّ أعماق البحار ملك للإنسانية جمعاء، فكذلك المجين البشري ملك للإنسانية جمعاء، ممّا يجعله خارج طائفة التملّك الخاصّ، وخارج دائرة الاستعمال غير المشترك.

وهذه الفكرة من أرقى ما بلغه التفكير الإنساني في مجال الأخلاقيات. فإن اشتراك كل فرد، من جهة كونه بشرا، في معطيات المجين البشري لا تسمح له مع ذلك باستخدام خاص لخارطة ذلك المجين. إنّنا هاهنا لعلّ مشارف فكرة رفيعة ودقيقة. فالمجين البشري هو بمثابة الوديعة التي استودعت في كلّ واحد ممّا. ولكنّا في صوننا لها، كأنما نصون الطبيعة برمّتها في طبيعتنا الخاصّة. إنّ هذا الإقرار ليدعم أيما تدعيم فكرة حقوق الإنسان الأساسية في حرية الإنسان الفرد وكرامته. ولا بد من الاحتياطات في العمل في مختبرات آمنة تمنع المجرمين من المقدرة على تشكيل الدنا

<sup>50</sup> ستيكس جي. "تملك مادة الحياة، مرجع سابق، ص 60-68.

وبناء ممرضات "عوامل ممرضة"، ولا بد من نظام مراقبة صارم في حقل البيولوجيا التركيبية **Genetic Combinations**، وتسجيل الباحثين الذين يعملون في حقل العوامل المنتقاة جينيا ومراقبة بيع وشراء كائنات حية مصممة **Designer Organisms** وتجهيزات وطلائع مواد خاصة بالبيولوجيا التركيبية<sup>51</sup>.

ولكن الأخطار التي تشير إليها الهندسة الوراثية متعدّدة ومتنوّعة : فهي تذهب من التأثير على البنية الجينية للإنسان إلى الاستنساخ ولاسيما الاستنساخ الموجّه نحو غايات توالدية. وتطرح هذه المخاطر عدّة مشاكل مبدئيّة : فعلى مستوى المنهج لابدّ من التّساؤل عن مدى أخلاقيّة التجريبات المخبرية. وعلى مستوى النّاتج والاستتباعات لابدّ من التّساؤل عمّا يمكن أن ينجرّ عن تحكّمنا في الجينات وتأثيرنا عليها من النّاتج بالنّسبة إلى الأجيال اللاحقة. أمّا على مستوى الموضوع، فلا بدّ من التّساؤل عن مدى احترامنا لوحدة النّفس البشرية وكرامتها وحرمتها وحقوقها عندما نخضعها إلى تجارب الهندسة الوراثية أو عندما ننشر معطياتها، وبخاصّة إذا علمنا أن عدم حفظ سر المعطيات الخاصّة يمكن أن يكون معبرا لضروب من التمييز الجيني قد تتجلّى بعض آثارها في تضاربها مع أخلاقيّة أخرى، أعني أخلاقيّة المعاملات الاجتماعية، ولاسيما عندما يتعلّق الأمر برفض تأمين الأشخاص أو بتعطيل تشغيلهم أو بما شابه ذلك مما يمكن أن يترشّح له الأفراد من الأوضاع الاجتماعية ( *statuts sociaux* ) التنافسية بسبب ما قد يُعرف عنهم من "العيوب" الجينية .

### 3-2-5: تقانة الاستنساخ "الاستنسال" واستعمال الخلايا الجذعية:

هذه التقانة تسعى الحصول على نسخة أو أكثر من الكائن الحي مطابقة للاصل. والاستنساخ آلية حيوية للتكاثر عُرُفت في الكائنات وحيدة الخلية، مثل الاميبيا والبكتيريا وغيرها، وهوصورة من صور التكاثر اللاجنسي "الانشطار الثنائي"؛ حيث تنشط الخلية لتكون خليتين يصبح كل منهما فردا جديدا يشبه الاصل تماما. الاستنساخ والاحصاب خارج الجسم يشاع بينهما خلط واسع فهناك تقانة انتاج افراد عن طريق الاحصاب خارج الجسم، وهناك انتاج افراد بتقانة الاستنساخ الانجابي عن طريق نقل نوى خلايا جسمانية. وهناك اعتقاد بسهولة انتاج افراد مستنسخة في مراكز نقل الاجنة والاحصاب خارج الجسم. الاستنساخ هو تكوين مخلوقين او اكثر متشابهين وراثيا، يكون كل واحد منهما نسخة في تركيبته الوراثية من الآخر. وهناك طريقتان للاستنساخ.<sup>52</sup>

<sup>51</sup>-The Bio Fab Group ; Engineering Life : Building a Fab for Biology,(2006),Malallat Aloloom,vol.22, No. 11/12,,pp. 66-73. dec.2006

<sup>52</sup> - الزغل فتحية ، التطور التقاني البيولوجي ومستقبل الانسان، اخلاقيات التعامل مع التقانات الحديثة، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ، ص95-99: تونس (2008)

### 3-2-6 : الاستنساخ الجنيني "شطر الجنين" :

من المعروف انه يحدث شطر الجنين بصورة طبيعية في حالة التوائم المتطابقة. تم لأول مرة فصل جنين بشري في المختبر عام 1993. وافضل تسمية لشطر الجنين هي "فصل الفلجات" ، حيث يتم بشق بويضة مخصبة الى شطرين او تقسيم الجنين المبكر حين يكون مكونا من عدد قليل من خلايا التكوين الجنيني (2-16) فلجة لتنمو كل فلجة الى جنين بعدها. وهذا لا يعتبر استنساخا، بمعناه الحرفي، حيث انه يتم في مراحل جنينية مبكرة، وبالتالي لا يوجد هنا فرد بعينه سيتم تخليق نسخة منه. فكل خلية او "مجمع خلايا" منفصلة قادرة على اعطاء جنين كامل مستقل لان هذه الخلايا المنفصلة تحتفظ بقدراتها الكاملة مثلها مثل البويضة، فتتصرف وكأنها الخلية الام. توضع بعدها الاجنة في رحم الام أو امهات مختلفات. ينتج عن هذه العملية تطابقا بنسبة 100% (توائم متشابهة) لانها تتقاسم كل الدنا DNA بما في ذلك دنا الميتاكوندريا "دنا السبحيات"

#### . DNA Mitochondrial

1- الاستنساخ غير الجنسي "التكاثري" : هو استنساخ بهدف التكاثر، تعتمد هذه الطريقة على وضع نواة خلية جسمية" تحتوي بالطبع على العدد المزدوج من الكروموسومات (2N) (خلية جلدية مثلا) داخل غلاف بويضة منزوعة النواة لتحل نواة الخلية الجسمانية محل نواة البويضة. يتم تحفيز البويضة لتبدأ عملية الانقسام لتكوين الجنين ثم الفرد المتكامل. في البدء تتكاثر الخلية الناتجة عن هذه العملية لتتحول الى مرحلة "البرعمة الكيسية Blastocyte" المتكونة من "الادمة البرعمية" Blastoderme وهي خلايا كاملة القدرات تسمى "الخلايا الجذعية الجنينية" يمكنها من النمو والتكاثر والتخصص لتكون جنينا كاملا.

2- الاستنساخ اللا تكاثري: ويسمى ايضا الاستنساخ العلاجي وهو لا يهدف الى انتاج كائن كامل بل تكوين جنين مستنسخ بطريقة نقل النوى حتى طور "البرعمة الكيسية" Blastocyte الكيس الاصلي" للحصول على "الخلايا الجذعية الجنينية" .

يمكن الانطلاق للحصول على الخلايا الجذعية الجنينية عبر الاستنساخ، هناك حالتان:

الحالة الاولى : زرع البرعمة الكيسية في رحم الام والنتيجة ولادة كائن حي يكون نسخة مورثية لصاحب الخلية الجسمية. وهو ما يطلق عليه "الاستنساخ التكاثري" الذي يجب منعه منعاً باتاً بالنسبة الى الانسان. بهذه الطريقة تم نسخ النعجة دوللي عام 1996.

الحالة الثانية: لا يتم زرع البرعمة الكيسية في رحم الام، لان الغاية هنا الحصول على الخلايا الجذعية التي تمتاز بالقدرة على التخلق الى جميع الانسجة البشرية ويتم ذلك بالتحكم في برنامج عمل المورثات.

لهذه التقنية فوائد ومخاطر:

اولاً: الفوائد التطبيقية: استعمال الخلايا الجذعية في عملية الاستنساخ العلاجي في الانسان **Cellular Therapy** تستعمل الخلايا الجذعية الجنينية لتعويض الخلايا التالفة او التي يحتاجها المريض كالمصابين بمرض باركنسون **Parkinson** تنقل النواة من خلية (مريض جسمية) لتوضع داخل بويضة منزوعة النواة، وعند بلوغ الجنين مرحلة البرعمة الكيسية، يتم الحصول على خلايا جذعية من الادمة البرعمة مطابقة وراثيا لخلايا المريض، صاحب الخلية الجسمية. تزرع الخلايا في العضو المصاب بدون أي رفض مناعي. يمكن استعمال نفس الطريقة لاصلاح أي خلل آخرن وذلك بالقيام بالتعديل الوراثي اللازم قبل زرع هذه الخلايا في العضو المريض.

يستفاد من هذه التقنية في استنساخ الحيوانات في انتاج الادوية. مثل "البروتينات الثديية" التي يتم استخلاصها من حليب الماعز المعدل وراثيا. وأخيرا الاستنساخ العلاجي لتوفير انسجة او اعضاء للشخص المنسوخ او لغيره"بالتعديل الوراثي المناعي" قد يحل هذا النوع من التداوي الخليوي مشاكل كثيرة للعديد من المرضى.

اما الفوائد المتوقعة من الاستنساخ الحيواني، وعلى وجه الخصوص بالنسبة الى حيوانات المزرعة، وستزداد فوائدها بالمزاوجة مع عمليات التجويد الوراثي المرتبطة بالهندسة الوراثية تحسين السلالات الحيوانية ونتاجيتها وفي مجالات علاجية لصالح الانسان. وهو مجال يطلق عليه "استنساخ الكائنات المحورة وراثيا" التي ترى التقانات الحيوية اهميتها للمعنيين بالدوائيات البروتينية، لان هناك ادوية بروتينية كالمثيط الانزيمي بروتيياز **Protease** وعوامل التجلط يصعب تصنيعها، اضافة الى مشاكل الرفض المناعي. ان البروتينات البشرية عادة ما تكون اكثر توافقا مقارنة مع لبيروتينات الحيوانية، تصبح المشكلة عندئذ هي كيفية الحصول على كميات كبيرة من البروتين البشري.

احدى الطرق الناجحة في ايلاج المورثات البشرية التي يتم تشفيرها في الدنا **DNA** بويضات النعاج او الماعز او الابقار. لذا تسمى هذه الحيوانات في هذه الحالة حيوانات محورة وراثيا. لذا سيتمكن الاستنساخ شركات الادوية من تخليق نسخ عديدة من تلك الحيوانات المحورة وراثيا نظرا لعطائها الكبير من البروتين البشري في لبنه.

ثانياً: المخاطر: يتمثل الخطر في استعمال الخلايا الجذعية في عملية الاستنساخ التكاثري البشري في ان نواة أي خلية قادرة على إعطاء انسان كامل اذا ادخلت في بويضة منزوعة النواة. ويتمثل الخطر الكبير في امكانية ادخال او تعديل بعض المورثات في هذه الخلايا قبل عملية الاستنساخ، وذلك بقصد تحسين النسل وما يترتب عن ذلك من اخطار على مستقبل البشرية.

وإذا كان الاستنساخ الحيواني اضحى ضرورة وحاجة كما اسلفنا الا ان الاستنساخ البشري يواجه رفضا واسعا من منظور اخلاقي وديني واجتماعي. ويرى البعض فيه مغامرة غير محسوبة المستقبل.

لان استنساخ الانسان سيصنع هوة كبيرة بين حياتين، حياة الاصل (السابق)، وحياة النسخة (اللاحق)، كما ان بداية التوأم اللاحق تختلف تماما عن بداية الاصل (السابق)، وهاتان البدايتان تختلفان شكلا ومضمونا عن البداية الواحدة والمشاركة والمواكبة والمتوقعة لحياة التوائم المتطابقة الناتجة عن الانجاب الطبيعي.

كما ان الاستنساخ البشري سيكون تهديدا لنظام الحياة الذي يقوم على تباين الخلق انه تهديد للتنوع الحيوي في الجنس البشري. كما ان الاستنساخ يعمل على تقويض الصلة بين الجنس والانجاب، فالطفل لا يمثل نسخة من الاب او الام، وانما يجسد توحيدهما. كما ان الاستنساخ يعتبر صناعة لكائن، يتم تشكيله في مكوناته منذ اول لحظة، وحتى يتم اتقان الصناعة فان الانتقاء يبدأ بتحديد الجنس. ان الاستنساخ ما هو الا تحويل الانجاب الى صناعة، يمتد ليحكم في اختيار المحتوى الوراثي الكامل للفرد، انه الفرق بين انجاب طفل وصناعة طفل، وهنا تنشأ علاقة غير متوافقة مع الوالدية الفطرية الطبيعية.

كما تطرح القضية مسألة الهوية الاجتماعية والقانونية للطفل داخل الاسرة؟ هل هو اخ ام اخت لوالديه؟ ام ابن او ابنة لوالديه؟ هل يعتبر حفيدا لاجداده ام ابنا لهم؟ كل هذه الاحتمالات تجعل الشكوك تحيط ليس فقط بوضع الطفل المستنسخ الاجتماعي وحالته النفسية، بل وبكينونته ايضا. انه سيصبح توأم لشخص قد يكون والد (أم أب) اعتباري. ان كل ذلك يطرح الغموض والالتباس يحيطان على مفهوم الوالدية مما يشوه احساس الطفل المستنسخ بهويته الاجتماعية. ان الاستنساخ تمبيع لمفاهيم الامومة والوالدية والحياة الاسرية<sup>53</sup>.

### 3-2-7: الموقف الاسلامي العام من قضية الاستنساخ البشري:

اتخذ في الشأن موقف مجمع الفقه الاسلامي المنعقد في جدة في شهر جويليه/تموز من العام 1997 الذي عرف هذا القرار الاستنساخ بأنه : (توليد كائن حي أو أكثر، إما بنقل النواة من خلية جسدية الى بويضة منزوعة النواة، وإما بتشطير بويضة مخصبة في مرحلة تسبق تمايز الانسجة والاعضاء).

ثم نص في بنده الاول على: (تحريم الاستنساخ البشري بطريقتيه المذكورتين، أو بأي طريقة أخرى تؤدي الى التكاثر البشري). كما نص في بنده الثالث على: (تحريم كل الحالات التي يقم

<sup>53</sup> المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية، "ندوة الوراثة والتكاثر البشري وانعكاساتها: رؤية الشرائع السماوية ووجهة نظر العلمانية"، فبراير، القاهرة. (2006).

فيها طرف ثالث، على العلاقة الزوجية، سواء أكان رحماً، أم بويضة، أم حيواناً منوياً، أم خلية جسدية للاستنساخ). وورد في البند الرابع كذلك انه: (يجوز شرعاً الأخذ بتقانات الاستنساخ والهندسة الوراثية، في مجالات الجراثيم وسائر الأحياء الدقيقة والنبات والحيوان في حدود الضوابط الشرعية بما يحقق المصالح ويدرك المفسد)<sup>54</sup>.

### 3-2-8 : بحوث الخلايا الجذعية:

في العالم كله كما في الولايات المتحدة انتقلت الخلايا الجذعية من مادة بيولوجية غامضة الى الواجهة في الجدل السياسي والتقني والاخلاقي. في عام 1998 فقط عين العلماء لأول مرة هوية الخلايا الجذعية لجنين الانسان وقاموا بعزلها<sup>55</sup>. الخلايا الجذعية هي خلايا غير متخصصة، وغير مكتملة الانقسام، ولا تشابه أي خلية متخصصة. الا انها قادرة على تكوين خلية بالغة بعد ان تنقسم عدة انقسامات في ظروف مناسبة. وتأتي أهميتها من كونها تستطيع تكوين أي نوع من الخلايا المتخصصة، بعد ان تنمو وتتطور الى الخلايا المطلوبة.

تمتلك الخلايا الجذعية القدرة على الانقسام والتخصص لإنتاج أكثر من نوع واحد من خلايا الانسجة في الانسان. وهي خلايا لها صفة التجديد الذاتي يمكنها التحول الى خلايا متخصصة الوظيفة. ومن ضمن مميزات استمراريتها بقائها خلايا ثابتة، وانها تتطور لتكون جميع انواع الخلايا المطلوبة لتكوين اعضاء وانسجة الجسم بدون التزام اولي لنسيج محدد.

### هناك ثلاث طرق للحصول على الخلايا الجذعية:

1- عزل الخلايا الجذعية المورثية **Pluripotent** مباشرة من كتلة الخلايا الداخلية للأجنة البشرية في مرحلة البلاستوسايت **Blastocyte** الخلية الاصل ومن ثم تنميتها في مزارع خلية منتجة خطوطاً خلية من الخلايا الجذعية الجنينية، وفعلاً، تتحول بعض هذه الخلايا الى انواع من الانسجة المختلفة.

2- عزل الخلايا من الانسجة الجنينية التي تم الحصول عليها من الاجنة المجهضة ( تؤخذ الخلايا من المنطقة التي تكون الخصي والمبايض في الجنين، لاحقاً الخلايا المنشئة الجنينية).

3- طريقة الاستنساخ العلاجي: هي طريقة تعتمد على نقل نوى الخلايا الجسدية ونقلها الى بويضة حيوان منزوعة النواة. تتميز الخلية الجديدة بأنها ذات قدرة كاملة على تكوين كائن حي كامل. فهي خلايا كاملة الفعالية، وانها سوف تنمو الى طور البلاستوسايت **Blastocyte** "الخلية الاصل". خلايا الكتلة الداخلية يمكن ان تكون مصدراً للخطوط الخلية. تتبع هذه الطريقة تقانة الاستنساخ

<sup>54</sup> - المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية، " الميثاق الاسلامي للعالمى للاخلاقيات الطبية والصحية"، الكويت، (2005).

<sup>55</sup> - تقرير خاص، ، مستقبل الخلايا الجذعية، مجلة العلوم **Scientific American**، المجلد 21 العدد 12، ديسمبر. ص 28-57، الكويت، (2005).

المعروفة نفسها، الا ان الهدف منها هنا ليس انتاج كائن حي كامل؛ وانما الحصول على الخلايا الجذعية الجنينية لاستخدامها في العلاج.

وتمتاز هذه الطريقة بأن الخلايا الجذعية الناتجة متطابقة جنينياً مع الفرد الذي أُخذت منه نواة الخلية الجسدية وزرعت في البويضة المنزوعة النواة، هذا ما يساعد في حل مشكلة رفض زراعة الانسجة من قبل الجهاز المناعي. كما تعتبر البويضة المخصبة من الخلايا الجذعية الاكثر بدائية وقدرة على التمايز؛ إذ لديها القدرة على تكوين أي نوع من انواع الانسجة.

تساعد بحوث هذه الخلايا لاستكشاف اساليب النمو والانقسام للخلايا عامة، والجذعية على الخصوص وفتحت ابوابا واحتمالات العلاج المورثي للعديد من الامراض، مثل الضمور العضلي، ومرض السكري، ومرض الزهايمر، والشلل الرعاش.

كما يمكن زرع هذه الخلايا داخل الانسجة والاعضاء، حيث يمكنها النمو، وتعويض النقص المتسبب في حدوث المرض. واصلاح الانسجة البالغة وترميم التالف من الانسجة.

انواع الخلايا الجذعية:

تصنف هذه الخلايا على ضوء ما يسمى "العمر الوراثي" للجسم، فهناك خلايا جذعية التي تولد بقدرة تمكنها من صنع أي من الانسجة المطلوبة منها "القدرة الكلية"، وهناك خلايا جذعية بالغة التي يمكن ان تتكاثر لتصنع نسيجاً محدداً من انسجة الجسم مثل الكبد او نخاع العظم او الجلد... الخ. وعلى ضوء ذلك هناك نوعان من الخلايا الجذعية:

#### 1- الخلايا الجذعية الجنينية Embryonic Stem Cells :

كما سبق ان وضحنا يتم الحصول عليها من الجزء الداخلي للخلايا الاصل "البلاستوسيت" Blastocyte، وهي احدى مراحل انقسام البويضة المخصبة. تتكون الخلايا الاصل هذه من طبقة خارجية من الخلايا المسؤولة عن تكوين المشيمة والانسجة الداعمة الاخرى التي يحتاجها الجنين اثناء نموه وتكوينه في الرحم. بينما تكون الخلايا الداخلية من الخلايا الاصل مسؤولة عن تكوين انسجة الجسم المختلفة فقط، وهي في ذات الوقت غير قادرة على تكوين المشيمة والانسجة الداعمة لها التي يحتاجها الجنين خلال عملية التكوين. ولكن في ذات الوقت لها القدرة على تكوين أي نوع آخر من الخلايا الموجودة داخل الجسم. تخضع الخلايا الجذعية هذه بعد ذلك الى مزيد من التخصص لتكوين خلايا جذعية مسؤولة عن تكوين خلايا ذات وظائف محددة.

#### 2- الخلايا الجذعية البالغة:

وهي خلايا جذعية توجد في الانسجة التي سبق وان تميزت وتخصصت كالعظام والدم... الخ، وتوجد هذه الخلايا عند الاطفال والبالغين على حد سواء. وهذه الخلايا مهمة لامداد الانسجة بالخلايا التي تموت كنتيجة طبيعية لانتهاؤ عمرها المحدد في النسيج.

لم يتم اكتشاف جميع الخلايا الجذعية البالغة في جميع انواع الانسجة. وهناك مشاكل يواجهها العلماء في الاستفادة من الخلايا الجذعية البالغة، منها انها موجودة بكميات قليلة ومحدودة، مما يصعب عزلها وتنقيتها، كما ان عددها يقل مع تقدم عمر الانسان، وليس لها نفس القدرة على التكاثر التي تمتلكها الخلايا الجذعية الجنينية، كما انها قد تحتوي على بعض العيوب نتيجة تعرضها لبعض المؤثرات كالتسموم.

#### الفروق الاساسية بين الخلايا الجذعية الجنينية والبالغة:

وهناك بعض الفروق المهمة بين النوعين من الخلايا الجذعية الجنينية والبالغة: هو ان الخلايا الجذعية الجنينية تنتج إنزيم تيلوميراز **Telomerase** الذي يساعدها على الانقسام باستمرار، بينما لا تنتج الخلايا الجذعية البالغة هذا الانزيم الا بكميات قليلة أو على فترات متباعدة، مما يجعلها محدودة العمر. كما ان الخلايا الجذعية الجنينية تكون قادرة على التحول والتميز الى جميع انواع الانسجة الموجودة في الجسم، بينما الخلايا الجذعية البالغة لا تتمتع بهذه المقدرة، مما يجعل الخلايا الجذعية الجنينية عي الافضل.<sup>56</sup>

حتى عام 2005 وبعد سبعة سنوات من بدء العمل في 1998 من العمل المكثف العالمي النطاق امتلك العالم أقل من 150 خطا جيدة التوصيف من الخلايا الثابتة المتكررة "المتنسخة" من الخلايا ES البشرية من قبل "تومسون" من جامعة ويسكونسن<sup>57</sup>. وفي محاولة لتجنب الاعتراضات الاخلاقية المتعلقة بتدمير الاجنة الخاصة بالابحاث يستكشف العلماء بعض مصادر بديلة للخلايا ES. كما ان استزراع هذه الخلايا في حيوانات المخبر قد ادى الى تزايد نسبة الخلايا البشرية في الحيوان. لقد تمكن الباحث "وايزمان وزملاؤه" من جامعة ستانفورد عام 1988 من تكوين فئران اجهزتها المناعية بشرية كليا. وهو يعتقد انه سيأتي يوم يُصنع فيه فأر بنسيج دماغي مؤنس **humanised** كليا.

ولا تتوافر الآن معايير عالمية لتوجيه "التجارب الخيمرية"<sup>58</sup>. وعندما حَضَرَ الرئيس الامريكي بوش في شهر اوت 2001 انشاء خطوط جديدة من الخلايا الجذعية الجنينية.

56 - الحديدي حلمي عبد الرزاق ، مرجع سابق، ص105  
57 - استخدم "تومسون" من جامعة ويسكونسن تقنية استخراج الخلايا من جنين عمره اسبوع (او ما يعرف بالكيسة الأريمية blastocyt ) وهي كرة مجهرية تتألف من (50-100) خلية تم زرعها في طبق مختبري مع مغذيات وعوامل نمو مختلفة. وتعطى الأجنة في الحالة السوية من قبل أزواج يخضعون لمعالجة الإخصاب في المختبر **in vitro fertilization** اختصارا (IVF) والاستهمل.  
58 - الخيمرة، في الاسطورة اليونانية، هي مسخ يضم أجزاء من المعزة والاسد والافعى. ويمكن للخيمرات المتوالدة في المختبرات ان تبدو بسبب هذه السمية " سمي: شخص اسمه كاسم شخص آخر " **namesake** وكأنها فكرة شريرة ولدت من غطرسة علمية محضة. وهذه الخيمرات البشرية-الحيوانية **Human-Animal Chimeras** تبدو محتومة عند استعمال الخلايا الجذعية كمواد علاجية. وتيسر الخلايا الجذعية خيمرات متطورة بين الانواع: أي كائنات حية تتألف من خلايا بشرية وحيوانية. ويمكن للمسائل الاخلاقية التي يطرحها مجرد

تبين ان هناك 22 خطا من الخلايا الجذعية ES اجيز استعمالها وظلت متاحة للباحثين وطرحت حولها تساؤلات حول نوعيتها في ضوء تقدمها بالعمر، وكان يفترض بهذه الخطوط ان تبقى "خالدة" ولكن تبين ان استبقاء هذه الخلايا في الزرع لمدة طويلة يحرض على تشوهات في الخلايا الاخرى، لذا كانت المفاجأة لم تكن متوقعة كليا فيما يتعلق بالعلماء عندما اخذت تتوالى التقارير عن شذوذات جنينية في بعض الخطوط المسجلة لدى معاهد الصحة الوطنية الامريكية وقد فقدت بوضوح بعض الخطوط الخلوية المسجلة الاخرى مقدرتها على انتاج أنماط خلوية متميزة. وقد تم التأكد منذ سنوات من ان بعض الخلايا المسجلة من الخلايا الجذعية الجنينية التي نمت في المختبر بمواد انتت من الخلايا الفأرية الداعمة في وسط الزرع، قد تلوثت بجزيئات فأرية، الامر الذي يجعل منها في معالجات مستقبلية موضع شك. والدراسة اظهرت ان الخلايا ES البشرية التي نمت بهذه الطريقة قد امتصت فعلا بروتينا فأريا ووضعت على سطحها، وعندما تم تعريض تلك الخلايا ES اظهرت ان هذا البروتين لمصل الدم البشري وان الاجسام المضادة الموجهة ضد البروتين الحيواني هاجمت الخلايا ES وقتلتها<sup>59</sup>.

مازال العلم غير اكيد على الاطلاق كي يكشف لنا الكيفية التي ستتطور وفقها ابحاث الخلايا الجذعية والطب التجديدي. وقد تنجو الخلايا الجذعية البالغة من الجدل الاخلاقي الذي يدور حول نظيراتها ذات الاصل الجنيني، ولكن كما تلاحظ الباحثة "سوزر" فان اهميتها السريرية العملية لازالت شديدة الغموض.<sup>60</sup> العلم معقد، ومثله البعد الاخلاقي، ولكن المشكلة تكمن في الخلافات الرئيسية في الرأي حول أي من الاجزاء من العلم يمكن اعتباره معقولا. فموضوعات النقاش هي الخلايا الجذعية الجنينية البشرية، والاستنساخ التوالدي، والاستنساخ العلاجي، فبالنسبة الى البعض تعد الموضوعات الثلاث مرفوضة بالقدر نفسه. وللبعض الآخر، فان المواضيع على درجة كافية من الاختلاف بحيث يستحق كل منها دراسة مستقلة.

وإذا كانت نقطة الخلاف الاساسية هنا: ان الخلايا تؤخذ من أجنة لا يتجاوز عمرها اياما قليلة ويجري الحصول عليها من اجنة خلفتها معالجات الخصوبة. ولكن هذا يقيد ايضا انماط الابحاث التي يمكن اجراؤها. وثمة بديل ممكن يتمثل في انتاج اجنة مستنسخة، ولكن هذا البديل يتسبب في مآزق اخلاقي اضافي.

---

وجود هذه المخلوقات ان تصبح مقلقة على نحو خطير. راجع: ريني، 2005، الخيمرات البشرية- الحيوانية، مجلة العلوم، المجلد 21 العدد 12 ديسمبر، ص 32. الكويت، (2005).

<sup>59</sup> - سوزر، ، الخلايا الجذعية ملوثة ومائتة ولكن مصادق عليها امريكا، مجلة العلوم، المجلد 21 العدد 12 ديسمبر 2005، ص 34، الكويت، 2005.

<sup>60</sup> - سوزر، ، الخلايا الجذعية: عمال التصليح من داخل الجسم، مجلة العلوم، المجلد 21 العدد 12 ديسمبر 2005، ص 36-39، الكويت، (2005).

لقد اعلنت بعض الدول حظر شاملا على جميع اشكال الاستنساخ البشري وحظر بعضها الاستنساخ التوالدي ولكن سمح بالاستنساخ العلاجي واخفقت دول اخرى في وضع أي تنظيم. ان موقع المواجهة مستقبلا ينحصر في جوانب تجارية واخلاقية تخوضها الشركات ذات التقانات العالية حول حقوق ملكية التقنيات وحول حقوق الملكية الفردية وبراءات الاختراع وحقوق الاستثمار في المعالجات الطبية المبدلة للحياة<sup>61</sup>. لقد جذب "هورلبات" (من جامعة ستانفورد وعضو المجلس الرئاسي للاخلاق الحيوية في الولايات المتحدة والمدافع العنيد عن "الاحترام الاخلاقي لكرامة الجنين") الانتباه في اقتراحه الى ضرورة تضافر الهندسة الوراثية والاستنساخ في مسعى يسمى " النقل النووي المغاير " **Altered Nuclear Transfer** حيث تستخلص في احد البرامج البحثية نواة خلية بالغة وتحوّل لايقاف عمل جينة "مورثة" أو اكثر اساسية في اثناء تنامي الجنين. تحقن النواة عندئذ في خلية بيضية جاهزة لتنشط كهربائيا، تماما كما في الاستنساخ. واذا سارت الامور كما يجب، فان هذه الكينونة الحيوية التي يقول عنها "هورلبارت" انها: (لن ترقى ابدأ الى المستوى الذي يمكن تسميته بدقة الكائن الحي) ستصبح في احسن الحالات كتلة غير منتظمة من الخلايا الجذعية ملائمة للأبحاث العلمية ولربما للعلاجات السريرية يعترض كثيرون على هذه الفكرة خوفا من ان تشبه الكتلة الخلوية الناتجة وربما مسخيا **Teratoma** ، وربما بشعا عبارة عن خليط من خلايا مختلفة الانماط: من خلايا الشعر الى خلايا العضلة الى خلايا الاسنان. وبالرغم من ان هذا الشئ لا يمكن تصنيفه جنينا في نظر العديدين فانه بالتأكيد حسب تسمية "كاس" (رئيس المجلس الرئاسي للاخلاق الحيوية في الولايات المتحدة) العامل المنفر "المقرز" **Yock Factor** لانه يشخص بعمق الممارسات اللا اخلاقية. ولقد تساءل النقاد ايضا فيما اذا كان إنشاء شئ هالك ومقيت عن قصد هو من الناحية الاخلاقية أفضل من إتلاف اجنة ليس لها مستقبل.

واذا ما ترك النفور **yuckiness** جانبا فمن اجل انجاح خط واحد من الخلايا الجذعية بهذه الطريقة نحتاج الى مئات البيوض البشرية والتي تستثير بذاتها مشكلات فنية واخلاقية<sup>62</sup>. كثيرة هي المقاربات من اجل الوصول الى جنين خلايا جذعية جنينية كانتاج اجنة خارج الجسم وغيرها تصطدم باليقين الاخلاقي والمرحلة التي يكتسب فيها الكائن منزلة الجنين البشري منزلة اخلاقية وهذه الانماط من المقاربات في انتاج مسوختات قربانية على مستوى صناعي لا يرضي اولئك الذين يؤمنون بأن أي عبث بالمادة البدنية للحياة هو أمر خطأ<sup>63</sup>.

61 - والدمابير، الخلايا الجذعية موقع المواجهة القادمة، العلوم ، مرجع سابق، ص 41، الكويت ، (2005).

62 - سنكس ، مرجع سابق، ص 42

63 - سنكس ، المرجع السابق،

### 3-3 : الاخلاقيات الحيوية في الطب:

أفرزت وثائق واحداث الحرب العالمية الثانية الكثير من المواقف المخجلة في الميدان الطبي، فاضافة الى الاخلال بمواثيق جنيف وغيرها بمعالجة ورعايا الاسرى وسكان المناطق المحتلة وضحايا الحروب فان الاخلاقيات الطبية توسعت في مجالات اخرى اعتبارا من عام 1960 الذي شكل منعطفًا تاريخيًا لعلم الاخلاق الحيوية والطبية نتيجة للمسائل التي أثارته التطورات التكنولوجية في قضايا عملية وتطبيقية مستجدة فرضتها التقنيات الجديدة في التشخيص والعلاج الطبي والدوائي: مثل:

1- قضايا الاجهاض.

2- الانجاب بالمساعدة.

3- زراعة الاعضاء.

4- إطالة الحياة بوسائل صناعية واصطناعية.

5- الموت الرحيم.

6- الابحاث الطبية على الافراد. خاصة القاصرين أو المرضى وفاقدى الوعي... الخ..

7- قضايا التوزيع العادل للموارد الطبية.

وسنتناول بعض النقاط التي تشكل وضعا اخلاقيا للعلوم الطبية لازال الجدل حوله واسعا ومنها:

#### 3-3-1: تجارب وتقنيات الحمل المساعد:

- منذ ولادة الطفلة لويز براون في بريطانيا عام 1987 بعد حمل نجم عن تلقيح بويضة خارج الجسم. كان ايذانا برد الفعل الذي كان يرى ان هذه الطريقة "تخلق" انسانا خارج الرحم الانساني، وان عملية الانجاب تلك مغايرة للاعراف والديانات.

- خلال العقود الثلاث الاخيرة حدثت تطورات هامة زادت من القلق والحذر وطرحت معضلات بيولوجية واخلاقية جديدة، وهي استعمال الهرمونات المنشطة بقصد زيادة البويضات، وان هذا التطور انعكس على زيادة عدد الاجنة وادى بالتالي الى حمل متعدد التوائم والى وفرة في اعداد الاجنة المبردة في مختبرات مراكز الانجاب المساعد.

في البداية كانت نسبة النجاح لا تتجاوز (3-6)% ولكنها ازدادت في السنوات الاخيرة الى (30 - 40)% ونسبة الحمل بتوأمين هي 24% ونسبة الحمل بثلاثة توائم 5% والاطفال المواليد عبر هذه التقنيات يتعرضون الى نسبة أعلى من التشوهات الخلقية وكذلك الى احتمال الولادة بوزن ناقص.

ان تلك البويضات والاجنة الزائدة غدت مثار جدل أخلاقي وديني وقانوني حول مصيرها<sup>64</sup>. في السنوات الاخيرة ازدادت حالات الحمل المتعددة التوائم كثيرا(الحمل بتوأمين تضاعف والحمل بثلاث توائم ازداد باربعة اضعاف وهذه الزيادة تعزى الى الازدياد المفرط في استعمال الادوية المنشطة للاباضة والى تقنيات الحمل التي تنقل عدة اجنة والى التقدم في عمر المرأة عند الانجاب).

### تساؤلات حول الموقف الاخلاقي من التلقيح خارج الجسم وانتاج البويضات والاجنة الزائدة

والاشكاليات المترتبة عن التلقيح خارج الجسم والولادة من رحم مستأجر:

من المعروف ان القيم المجتمعية في كافة المجتمعات، بما فيها العلمانية، كانت تعتمد على ان الانجاب هو حصيلة علاقة بين رجل وامرأة في كنف الزوجية او خارج العقد الزوجي. والفصل بين العلاقة والانجاب والعلاقة الجنسية الذي وفرته التقنيات تطرح امكانية الانجاب لاي كان. كما يمكن شراء حيوانات منوية وبويضات انثوية كأية سلعة من السوق وتأمين رحم لقاء أجر، اي لقاء مبلغ من المال يتفق عليه. وفي الوقت الذي تحرم به كافة القوانين المعاصرة شراء طفل، فانها، بواسطة هذه الطريقة تسمح بشراء العناصر المكونة لانجاب طفل.

وفي دراسة حول التشريعات التي تتناول تقنيات الحمل المساعدة شملت 39 بلدا في العالم اظهرت ان 25 دولة سنت تشريعات وطنية و8 دول اعتمدت على معايير ومبادئ تضعها الجمعيات المهنية العلمية ويتم تبنيها من قبل السلطات الصحية، وفي 8 دول لا تشريعات ولا إرشادات ومعايير ترعى هذه الانشطة. العلاقات الزوجية كانت شرطا ضروريا لاجراء عمليات الحمل المساعدة، الا ان نسبة كبرى لا تشترط الزواج وانما علاقة ثابتة بين رجل وامرأة. وفي دول مثل فنلندا يسمح لمرأة غير متزوجة الحصول على هذه الخدمات ومؤخرا تمت الموافقة كذلك لفئات اخرى مثل مثليي الجنس **Lesbians**<sup>65</sup>.

### الاشكاليات الاخلاقية المترتبة عن تعدد الاجنة وعن تربيدها وحفظها واستعمالاتها لغير الانجاب:

ان اشكالية الحمل المتعدد لما ينطوي عليه هذا الحمل من محاذير هامة بالنسبة الى صحة الام والعائلة والمجتمع والنظام الصحي تبقى مثار جدل واسع. كما ان اشكالية تقنية تقسيم الجنين الى نصفين ينتج عنهما توأمين منشابهين او لهما نفس المخزون الجيني واختيار عدد الاجنة الملائمة

<sup>64</sup> - مروة، عدنان 2003، تقنيات الحمل المساعدة والبعد الاخلاقي لها، ندوة الاجتماع التاسيسي للجنة العربية لاخلاقيات البيولوجيا والتقانة، بيروت، وثائق الندوة صادرة بنفس العنوان من قبل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واللجنة الوطنية اللبنانية لتربية والثقافة والعلوم "اليونسكو"، وجمعية الدعوة الاسلامية، ط1، عدة صفحات بيروت. 2004

<sup>65</sup> - عدنان مروة، 2003، تقنيات الحمل المساعدة والبعد الاخلاقي لها، ندوة الاجتماع التاسيسي للجنة العربية لاخلاقيات البيولوجيا والتقانة، بيروت، وثائق الندوة صادرة بنفس العنوان من قبل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واللجنة الوطنية اللبنانية لتربية والثقافة والعلوم "اليونسكو"، وجمعية الدعوة الاسلامية، ط1، ص 45. بيروت، (2004).

للزرع في الرحم والانعكاسات الناجمة عن حمل متعدد التوائم وتقليص عدد الاجنة عبر حقن قلب الجنين بسائل يؤدي الى وفاته، وحفظ الاجنة المبردة كلها معضلات اخلاقية تواجه الفريق الطبي<sup>66</sup>. لقد تبين بسبب الوفرة في اعداد الاجنة توفر اعداد منها يتم اتلافها او استعمالها للبحث العلمي والتجارب المخبرية. وهنا تطرح معضلة اخلاقية هي في كيفية التعامل مع الجنين البشري؟، وهل يمكن انتاج اجنة لهدف البحث العلمي؟، وهل يمكن إتلاف الجنين؟.

وهل يعتبر الامر اجهاضا، وبالتالي يكون خاضعا للقوانين التي ترعى الاجهاض؟<sup>67</sup>. يرى الدكتور عدنان مروة ان ثمة رأيين في التعامل مع هذه القضية: الرأي الاول: يرى بان الجنين "مشروع" انسان؛ وبالتالي يجب ان يحظى بالحرمة التي تكفلها الشرائع والقوانين لأي كائن بشري وتستدعيه الحماية، ولذا فاي تدخل تقني (تجليدها او اخذ عينات منها) من شأنه ان يؤثر على قدرتها على النمو وبذلك يغدو الامر مرفوضا اخلاقيا. الرأي الثاني: يرى بان الجنين لا كيان له، ففي الطبيعة مثلا تسقط (30 - 40)% من هذه الاجنة خلال الحمل الطبيعي. يكتسب الجنين **Preembryo** الذاتية البيولوجية **Biologic Individuality** بعد 14 يوم من التطور. قبل هذا ينقسم الجنين الى توأم، وفي هذه المرحلة فان الـ **Preembryo** لا اعضاء له ولا اطراف ولا **Sentience**؛ ولذا فلا كيان أخلاقي له.

وعن حمل البديل او الحمل بالوكالة، **Surrogacy** فهذه الحالة تثير جدلا فقهيًا وقانونيا حول هوية الام. هل هي التي وهبت سماتها الوراثية الى المولود ام المرأة التي حملت به وانجبتة؟. الحمل بالوكالة مسموح في 12 من 39 بلد وضعت له شروط قانونية خاصة، منها في استراليا يمنع الاعلان عن هذه الخدمة في وسائل الاعلام، وفي اسرائيل يشترط عدم استعمال امرأة بديلة غير متزوجة. وفي البلدان التي تسمح بتعدد الزوجات سمح باستعمال احدى الزوجات كبديل، الا ان هذا القانون عدل لاحقا بسبب مشاكل الطلاق او الوفاة وبالتالي منعت هذه التقنية.

وفيما يتعلق بالانجاب بعد الوفاة، فهناك عدة معنيين بهذه التقنية، كما جاء في أول تقرير عن هذا الامر نُشر في عام 1980 وهم الشخص المتوفي نفسه، الفريق الذي أمر بسحب الحيوانات المنوية، الطفل الذي يولد نتيجة هذا التلقيح، الطبيب الذي يسهل وساهم في العمل، واخيرا المجتمع. وحول هذا الموضوع في عام 1997 اوصت لجنة الجمعية الامريكية لطب الانجاب قرارها التالي: (... ان طلب احد الزوجين باستعمال الحيوانات المنوية او البويضات بعد وفاة أحدهما لا يجب ان يلبى نظرا الى تعدد اصحاب العلاقة )<sup>68</sup>.

<sup>66</sup> - عدنان مروة، مرجع سابق، ص 45.

<sup>67</sup> - عدنان مروة، ص 45.

<sup>68</sup> - مروة عدنان، مرجع سابق، ص 13.

كما ان التدخل في صنف المولود قبل الحمل بات يطرح اعتراضات اخلاقية واسعة تتمحور حول تشجيع التمييز الجنسي وحول زيادة المصاريف الطبية. وهنا ايضا ثمة رأيين مختلفين: الرأي الاول: ثمة من يعتبر انه لا يمكن للطبيب ان يكون "خالقا" متجاوزا لمشئئة الله. الرأي الثاني: يرى انه لما كانت حرية الازواج في اختيار ازواجهم وعدد اولادهم هي حقوق مقدسة، فلماذا لا تكون الحرية كذلك شاملة لمزايا الجنين؟ الفلسفة الاخلاقية تقول بجواز القيام بأي عمل طالما لا يشكل أذى للآخرين او افتئات على حقوقهم.

### 2-3-3 : التطبيقات العلاجية الطبية للخلايا الجذعية:

يتجه الطب في بعض علاجاته لبعض الامراض نحو العلاج المورثي البشري (و يسمى ايضا النقل المورثي البشري او العلاج الخليوي)، وهو بذلك يخطو نحو استخدام تقانات بالغة الدقة تعرف "العلاج الجيالمورثيني". والهدف من تقانة العلاج المورثي هو إحداث تغيير في تأثيرات وتعبيرات بعض المورثات في محاولة لعلاج بعض الامراض المستعصية ومنع حدوثها. ولجل ذلك اتجهت الدول الكبرى لتأسيس مصارف خاصة بالخلايا الجذعية كنظام "للتأمين البيولوجي" يرجى منه امكانيات القضاء على ما لا يقل عن 60 مرض مستعصي او قاتل. ومن الدول التي التحقت بهذا التأمين الولايا المتحدة، وبريطانيا ، وروسيا، وعدد من الدول الاخرى.

### ولجل توفير متطلبات هذا العلاج لا بد ايضا من التمكن من:

1- الوصول الى حالة التمكن من استخدام التقانات الحيوية لتحديد المورث المستهدف لايقاف عمله او استبداله او تنشيطه.

2- الحصول على المورثات العلاجية، وهي مورثات طبيعية كاملة تستخرج من مكتبة المورثات ( وهي مكتبة مخبرية تشمل المورثات الطبيعية التي تم تقطيعها بواسطة إنزيمات القطع وتم حفظها مرتبة) واما مواد جنينية ذات تسلسل قاعدي قصير (قليلات النويدات) من الحمض النووي الدنا او الحمض النووي الرنا.

3- التحكم في ايجاد الوسيلة او الوساطة التي يتم بها نقل المورث العلاجي الى الهدف او الموضع المستهدف بطريقة آمنة، وبتركيز كاف للتوصل الى المطلوب. وناقلات المورث التي تستخدمها التقانات الحيوية هي اما استخدام فيروسات معالجة او بلازميدات او لبيوسومات. يتم اختيار ناقل المورثات المناسب بناء على الكفاءة في نقل المورث مع عدم احداث عوارض جانبية، وايضا نوع النسيج والعضو المصاب المستهدف، وكذلك حجم المورث.

### 3-3-3: الانعكاسات الاخلاقية لبحوث وتقانات العلاج الوراثي:

يعكس الموقف الاخلاقي من العلاج بالخلايا الجسدية تفاوت ما بين القبول والرفض. عبر عن الترحيب رونالد كرسنال، معتبرا هذا العلاج بمثابة الامل والوعد لاصحاب الامراض الوراثية التي

لم يكن لها من قبل أي علاج، ومن ثم في رأي الباحث ان أي تأخير في تطور هذه التقنية لن ينتج عنه سوى المزيد من المعاناة التي لاداعي لها، وربما سيؤدي هذا التأخير الى زيادة لاداعي لها من الموتى<sup>69</sup>. كما اعتبر تقرير رئيس الولايات المتحدة لدراسة المشكلات الاخلاقية في الطب والطب الحيوي والبحث السلوكي في 1982 ان : ( "العلاج بالخلايا الجسدية" تنطبق عليه معايير العلاج الطبي الاخرى)، ومن ثم فهو مقبول من الناحية الاخلاقية)<sup>70</sup>. رغم وجود العديد من اللوائح والضوابط الاخلاقية والعلمية والطبية حول هذه المجالات الطبية والعلمية والتشدد في اتخاذ قرار المعالجة الا ان هناك جملة من التحفظات والادعاءات حول بحوث العلاج المورثي منها انه علاج غير عادي ولم يخضع بعد الى تجارب طويلة ولم تتوفر بعد الخبرات العلمية والطبية الكافية التي تضمن سلامة استخدامه وتطبيقه على البشر. فتجد مواقف مثل:

- مجلس البحث الطبي في كندا عام 1990: (يقبل استخدام العلاج بالخلايا الجسدية للأمراض الوراثية الناتجة عن خلل في مورث واحد، شرط الا يكون لهذه الامراض علاج آخر متوفر).<sup>71</sup>  
- لجنة اخلاقيات العلاج المورثي في بريطانيا 1992: جاء في تقريرها انها : (توصي بتأسيس هيئة حكومية استشارية تقدم نصحا طبيا وعلميا بشأن سلامة وكفاءة التعديل المورثي واستخدامه)<sup>72</sup>.  
ومن منظور اسلامي يرى الدكتور علي القره داغي: (إن أي تغيير أو تبديل في المورثات، وما يترتب عليه من آثار إن كان في حدود العلاج او منع المرض أو اصلاح الخلل أو العيب، فهو جائز)<sup>73</sup>.

هذا القبول المشوب بالحذر، مرجعه اختلاف العلاج المورثي عن العلاج التقليدي بالادوية، من حيث انه علاج سيحدث تغييرا، لا رجعة، فيه في خلايا المريض، وذلك بالمقارنة بالعلاج التقليدي

<sup>69</sup>-R.G « Transfer of Genes to Human :Early Lesions and Obstacles to Success ,Science 270,404-410 .(1995).

<http://www.ndsu.nodak.edu/instruct/mcclean/plsc431/students/dewolf.htm>

<sup>70</sup>Abdel Aziz El Bayoumi and Khalid El Ali, «Gene Therapy, The State of the Art ISESCO 1421H/2000 » p.44, «مشروعية وحدود العلاج الوراثي"المورثي"، اخلاقيات التعامل مع التقانات الحديثة، ص 260-239.

<sup>71</sup>-Canada Medical Research Council , «Guidelines for Research on Somatic Cell Gene Therapy in Humans »,Ottawa :Minister of Supply and Services, p.44.,Canada , (1990).

<sup>72</sup>-Great Britain:Committee on Ethics of Gene Therapy(Chairman: Cecil Clothier) Report of the Committee on the Ethics of Gene Therapy: Recommendations(1992).

<sup>73</sup> - القره داغي علي محي الدين ، "فقه القضايا الطبية المعاصرة"، دراسة فقهية طبية مقارنة، دار البشائر الاسلامية، ط1، 2005. عن:

[www.csu.edu.au/learning/ncgr/gpi/grn/edures/scope.24.2html](http://www.csu.edu.au/learning/ncgr/gpi/grn/edures/scope.24.2html)

بالدواء الذي يمكن إيقافه متى ثبتت عدم فعاليته<sup>74</sup>. ومن المواقف المعارضة لهذا النوع من العلاجات الموقف من ارتفاع كلفته ويرى بعض المهتمين بالاخلاقيات الحيوية ان دعم مشاريع العلاج المورثي سيرفع من تكاليف مالية كان يمكن توجيهها لدراسة الاسباب المسببة لامراض اكثر شيوعا مثل الفقر ونقص التغذية وظروف المعيشة المتدنية<sup>75</sup>.

كما ان العلاج المورثي بالخلايا المشيجية" عن طريق تعديل الخلايا في الجنين المبكر" ما قبل الزرع او عن طريق ادخال مورث جديد في بويضة الانثى او الحيوان المنوي للذكر بحيث يصبح هذا التغيير المورثي مسجلا في الخلايا الجنسية، وهو ما يترتب عليه ان ينتقل التغيير الى الاجيال اللاحقة<sup>76</sup>.

ان المخاوف من اية تعديلات وراثية قد تكون مفيدة لعلاج مرض مستعصي لدى فرد ولكن قد تكون هذه الطريقة سببا محدثا لاضرار في الاجيال التالية، فهو يؤدي الى تصحيح المورثات المصابة لكنه سيسبب طفرات<sup>77</sup> غير محسوبة النتائج من هذه الزاوية ترى بعض المواقف ان الخلية المشيجية "الانشائية" تساهم في التراث الوراثي للاجيال المتتالية وعلاج المورث عن طريق الخلية الانشائية لا يؤثر فقط على المادة الوراثية الشخصية؛ بل على المخزون الوراثي لذريته ايضا<sup>78</sup>.

ثم على مجموع الصفات الوراثية للبشرية جميعا "الحصيلة الارثية المشتركة Gene Pool" وهي نتاج آلاف؛ بل ملايين من السنوات من عمليات التطور المتوازن **Balanced Evolution** والعلاج الوراثي بالخلايا المشيجية قد يضعف هذا التطور المتوازن بطريقة غير مقصودة، ويحدث نتائج غير متوقعة، مثل فقداننا لمميزات وجود لاقحة متباينة **Heterozygote**<sup>79</sup>. من هنا يرى الكثير من العلماء انه لا يجوز القيام باية محاولات في هذا النوع من العلاج، ووصل الامر ببعض الباحثين انه يرى ان العلاج بالخلايا المشيجية صورة من صور التدخل بالشأن الالهي **Playing**

<sup>74</sup> - Lappe, Marc: « **Ethical Issues in Manipulating the Human Germ Line** », in « **Bioethics : An Anthology** », ed. by : Helga Kuhsoe Peter Singer , Blackwell Publishers, reprinted, p.157, (2001).

<sup>75</sup> - Bryant Jone et. Al, « **Introduction to Bioethics** » John Wiley and Sones , Ltd. p.11, 2005.

<sup>76</sup> - Lappe Marc , « **Ethical Issues in Manipulating the Human Germ Line** » , in « **Bioethics : An Anthology** » ed. by ; Helga Kuhsoe Peter Singer, Blackwell Publishers, reprinted, , p.155. , (2001).

<sup>77</sup> - بيومي رياض ، " **التقدم الحديث في ميدان العلاج الوراثي**" ، اعمال ندوة الانعكاسات الاخلاقية للابحاث المتقدمة في علم الوراثة، الدوحة، قطر، المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم، بالاشتراك مع جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، ، ص 333. الرباط، المغرب، (1993).

<sup>78</sup> - الطيبي محمد ، **افق وحدود وتكنولوجيا العلاج الوراثي في المجتمعات الاسلامية**، ندوة الانعكاسات الاخلاقية... الدوحة، مرجع سابق، ص 394.

<sup>79</sup> - Nielson Torsten, « **Human Germline Gene Therapy** » McGill Journal of Medicine, , p.127, (1997).

God، والحقيقة ان هذا المصطلح غير واضح، وقد تم إستعماله باكثر من معنى كما يرى "بريانت وزملائه [ Bryant et al ] وان هذا الاصطلاح غالبا ما يتم استخدامه كتعبير عن الاعتراض التام على أي تعديل وراثي على مستوى الخلايا المشيجية<sup>80</sup>. ينما ترى "شبيك إمرا"<sup>81</sup>. ان المقصود به هو أن التدخل الوراثي على مستوى الخلايا المشيجية تدخل في خلق الله، أو دخول في منطقة إختصها الله لنفسه.

الى قريب من هذا المعنى يرى "مارك لاب" Marc Lappe ان هذا المصطلح يعني رفض أي تدخل في خلق الله، للدرجة التي يرفض معها البعض، حتى إجهاض جنين مشوه تشويهاً خطيراً، من حيث أن الخلق شئ مقدس، لا يصح المساس به، وهو ما ينسحب بالمثل على التدخل الوراثي على مستوى الخلايا المشيجية<sup>82</sup>.

تعتقد مجموعة اخرى من الباحثين ان العلاج باستخدام الخلية المشيجية "الانشائية" هو الطريقة الوحيدة للقضاء على الامراض الوراثية العديدة التي يعاني منها ملايين من البشر.<sup>83</sup>، وهم يقللون من كمية التأثير الملحوظ على الحصيلة الارثية الضخمة للانسانية، ووفقا لتقرير البعثة الملكية الكندية للتقانات الحديثة للتكاثر، يذهب الرأي لهم بهذا الخصوص: (ان هذه المبالغة تصدر غالبا عن اشخاص غير متخصصين في علم الوراثة، فالامر مبالغ فيه، وذلك لضخامة هذه الحصيلة الارثية المشتركة)، وهو ما يعني بالنسبة للجنة، ان علاج بعض الافراد باستخدام تقانات نادرة الاستخدام لن يكون له ذلك التأثير الملحوظ على هذه الحصيلة الارثية الضخمة<sup>84</sup>. ويرى بهاء درويش، وخالد العلي<sup>85</sup> : انه ومن واقع العلم الحالي ومنحيث الحجة نفسها حول رفض العلاج الوراثي من اجل الحفاظ على الحصيلة الارثية المشتركة بين البشر... الخ تظهر عدم اتساق يعاني منه المجتمع الطبي أو المهتمين بالاخلاق الطبية، اذا ما قبلوا هذه الحجة، ذلك ان الاجهاض الذي تتم ممارسته بشكل واسع في كثير من بلدان العالم، لاجل منع ولادة طفل يعاني من اختلالات عقلية او بدنية، هو الاخر عمل قد يؤثر في الحصيلة الارثية مع الوقت، وذلك انه مع تزايد عدد الاجنة المصابة باختلالات وراثية سائدة، والتي يتم اجهاضها، سينتج عن ذلك اختفاء هذا المورث السائد.

<sup>80</sup> -Bryant John et al. »Introduction to Bioethics, ibd, p.129

<sup>81</sup>Szebic Imre, »Ethical Questions in Human Germline Gene Therapy, », McGill University, pp.11-12., Monterial, Quebec, January ,1999.

<sup>82</sup> - Lappe Marc ibd.p 163

<sup>83</sup> - بهاء درويش، وخالد العلي، مرجع سابق، ص 249 .

<sup>84</sup> - Nielson Torsten, »Human Germline Gene Therapy , ibd , p.127

<sup>85</sup> - بهاء درويش، وخالد العلي، مرجع سابق، ص 251..

من هنا كان العلاج المورثي للجنة قبل الولادة أكثر اخلاقية او بديلا اخلاقيا، كما يرى كامل عبد الحميد من الاقدام على إجهاض الاجنة ذات العيوب الوراثية<sup>86</sup>.

يطرح الباحثان درويش والعلي<sup>87</sup>: (اما ما يتعلق بالقول ان واجبنا تجاه الاجيال المستقبلية هو عدم تغيير الصفات الوراثية وتركها كما هي، وانها حق لهم لا يمكن لأحد تغييره، فان السؤال الذي يطرح هو الآتي: إذا تعارضت حقوق الاجيال المستقبلية مع حقوق الجيل الحاضر، لمن الاولوية؟ وبحقوق من نضحي؟). ويجيب الباحثان: (وفقا للممارسات الفعلية فاننا عادة ما نضحي بالقدام لصالح الحياة الموجودة، ففي حالة تعرض كل من الام الحامل والجنين للخطر يتم التضحية بالجنين لصالح الحياة القائمة بالفعل. وبالتالي فانه متى كان هناك شخص يعاني من مرض وراثي يمكن علاجه وراثيا سينجم عنه تغير احدي الصفات الوراثية للجيل التالي، فنعتقد انطلاقا من معيار الاتساق الذاتي يجب علاج الحياة الحالية.... يتفق "مارك لابي Marc Lappe" معنا في هذه الحجة، ويرى ان هناك مبدأ كاثوليكيًا يبرر هذه الحجة. هذا المبدأ مفاده: قبول فعل، في ذاته غير مقبول اخلاقيا "كإجهاض الجنين مثلا" إذا كان هو النتيجة الحتمية، وغير ممكن تجنبها لفعل اخلاقي مقبول "حماية حياة الام". يرى لابي قياسا على ذلك او اعتمادا على هذا المبدأ: انه متى ثبت نجاح علاج مورثي بالخلايا الجسدية له تأثير غير مباشر على الخلايا المشيحية للشخص ونسله سيكون من الصعب الاعتراض على التغيرات الوراثية في الخط المورثي التي تنشأ كنتيجة لعلاج في الخلايا الجسدية، مادامت ستقل احتمال الانتقال المستقبلي للعيوب الوراثي، وهو في ذاته هدف اخلاقي<sup>88</sup>. وقد سجلت التقارير الطبية وفاة صبي لم يتجاوز عمره 18 عاما في الولايات المتحدة سنة 1999 بعد اربعة ايام من تناوله اولى جرعات العلاج المورثي<sup>89</sup>.

وهناك خوف من سوء استخدامه ايضا لانه سيمهد الطريق امام الاساءة الى نظام التحكم المورثي والخط من قيمة الانسان كحقل تجريبي. كما يتسائل القانونيون حول من سيتحمل المسؤولية عن المشاكل غير المرئية والبعيدة المدى الناجمة عن تغييرات مورثية في صلب الانسان. واما ان تلك اللابقينيات التي تكتنف التدخل في التركيب الوراثي للخلايا الجنسية وما ينطوي عليها من مخاطر غير محسوبة في عملية الاخصاب، حيث ينتقل التغيير المورثي من جيل الى آخر ويؤثر بالتالي على مسار توريث الصفات الوراثية. كما يتوقع الاصابات بامراض مورثية

86 - كامل عبد الحميد، " الكائنات المعدلة بيولوجيا"، ضمن "الاخلاقيات العلمية التكنولوجية" المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص 280. تونس، 2005.

87 - درويش والعلي، مرجع سابق، ص 252.

88 - Lappe Marc, pp.159-160

89 - Lehrman,S., « Virus Treatment Questioned after Gene Therapy Death », Nature,1999.

غير معروفة، ويرى البعض ان استخدام الاجنة البشرية للتجارب تلك هي بمثابة موافقة وقبول على الاجهاض المتعمد.

إن تحضير الناقلات الفيروسية لمورثات وإدخالها في خلايا البشر تطوي على مخاطر واحتمالات قد تهدد من سلامة البشر او البيئة في الحاضر والمستقبل. لاضمان من أن استخدامات تقانات التعديل المورثي للخلايا البشرية لا تقود الى إكساب البشر صفات مدمرة. ان الموضوع بكل متطلباته ومراحله وتطبيقاته يتداخل مع قضايا ومدونات الاخلاق وضوابط البحث العلمي من جوانب عدة منها على سبيل المثال، لا الحصر: تحديد النسل، الاخصاب خارج الجسم، الاجهاض، النقل للخلايا والاعضاء، والانغراس او الاستزراع في جسم آخر، حقوق الجنين البشري وقضايا اخلاقية اخرى منها مصادر الانسجة وتعريف الموت وندرة الاعضاء ومصادرها وحقوق الواهب سواء كان حيا او ميتا وتجارة المواد الحيوية والام الرحمية وقضايا تتعلق بمسائل مثل تأجير الرحم واخلاقيات الاخصاب الطبي والاخصاب المساعد والتبرع بالبويضات او الاجنة الحية منها والمجمدة. ولا شك ان موضوعات مثل هذه لازالت ترفع من حدة النقاش والجدل في الأوساط العلمية والدينية والاجتماعية.

#### 4-3: قرن من الجرائم والاطء في خرق الاخلاقيات الحيوية والطبية:

##### 3-4-1: الغرب من اليوجينيا الى التطهير العرقي:

تعود فكرة تربية اناس أفضل الى افلاطون، ان لم يكن قبله، ولكن الصيغة الحديثة "اليوجينيا"<sup>90</sup>. نشأت على يد فرانسيس جالتون في القرن التاسع عشر، لكن التوجه الى التحسين وظفته نخب عنصرية وجدت في بعض مظاهر الانحلال الاجتماعي والسلوكي بالمجتمع الصناعي المدني، من خلال الجريمة المنتشرة في احياء الفقراء القذرة والامراض المتفشية فيها مثلا في الانحلال. ورأوا: (ان اسبابه تكمن اساسا في البيولوجيا أي " في الدم")، هكذا ظل يشاع منذ بداية القرن العشرين. وقد تم توجيه الدراسات الوراثية بما يخدم التوجهات العنصرية للعلم اليوجيني وتمت اشاعة مفاهيم مغلوطة باسم العلم البيولوجي تتحدث عن الابعاء الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن صفات نفسية تتضمن بالمزاجية والسلوكية واعتبار القصور الذهني موضوعا عنصريا ذي صلة وسبب في ادمان المخدرات والكحول وحى البغاء والاجرام والفقير. وكان المصطلح الشائع له " ضعف العقل" وتحديد ما يسمى " اختبارات الذكاء"، وفق ضوابط وأهداف عنصرية كذبها العلم الوراثي. وفي مطلع القرن العشرين وفي الولايات المتحدة أشرف "تشارلس

<sup>90</sup> - اليوجينيا: مجموعة من الافكار والانشطة التي تهدف الى تحسين نوعية جنس الانسان عن طريقة معالجة وراثته البيولوجية. راجع دانييل كيجلس، الشفرة الوراثية للانسان، عالم المعرفة، العدد 217، مرجع سابق، ص 50-13.

ب. داجينورت" على "العلم اليوجيني" في معهد كارنجي بواشنطن. وفي بريطانيا أدار العالم البيولوجي "كارل بيرسون" مخبر جالتون لليوجينيا القومية .

وفي ألمانيا، بدءا من عام 1918 انشئ معهد القيصر فيلهم لبحوث الطب العقلي، واستمر حتى 1923 عندما أنشئ في ميونيخ كرسي لصحة السلالة بإشراف البيولوجي "فريتس لينتس" وفي عام 1927 تأسس في برلين معهد القيصر فيلهم لانتروبولوجيا ووراثة الانسان واليوجينيا برئاسة الانثروبولوجي "يوجين فيشر" <sup>91</sup>.

سقطت دراسات اليوجيني في متاهة الميز العنصري وعمت مقولات التحامل والضعينة الطبقيّة وحاولت تسييد الرجل الابيض والطبقة الوسطى والبروتستانتية ووضعت معايير لارضاء العرق الآري ومرروا قانين التطهير والتعقيم اليوجيني حتى وصلت تلك القوانين الى وضع دستوري في احكام المحكمة العليا في قضية "باك ضد بيل" المعروفة عام 1927، عندما اعلن القاضي "اوليفر وينديل هولمز" : (...ان من رأيه ان ثلاثة أجيال من البلهاء تكفي) وكانت الولاية القائدة في هذه المساعي هي ولاية كاليفورنيا التي عقت يوجينيا، بدءا من عام 1923 عددا من الناس يزيد على كل ما عقته الولايات المتحدة مجتمعة.

### 3-4-2: جرائم النازية:

استغلت النازية الالمانية بقوة اندماج البحث اليوجيني والايديولوجيا والسياسة النازية اثناء طرح هتلر موقفه من السلالات ونقاوتها وسيادة العنصر و(أس أس) والجستابو الالمانى وحاولت الفرقة تحليل بيانات وعينات جلبت من معسكرات الاعتقال ولموتى الاطفال والهياكل العظمية لبعض اليهود والعجزة. ساهم بها "جوزيف مينجلي" <sup>92</sup>. وفي عام 1942 خلف "فيشر" استاذة اوتمان فون فيرشاور في رئاسة المعهد وحث على تعقيم بضع مئات الالاف من الناس، وساعدت هذه السياسة وافكارها اليوجينية على التمهيد لارسال الخصوم الى معسكرات الموت.

<sup>91</sup> - دانييل كيجلس، من تحت معطف اليوجينيا، الشفرة الورثية للانسان، مرجع سابق، ص 13-50.  
<sup>92</sup> - مينجلي جوزيف ولد في 16 مارس/ آذار من عام 1911 . درس علم الدراسات القديمة وعلم الأجناس البشرية في جامعة ميونيخ، كما حصل على دكتوراه في الطب وشارك في الحروب النازية لكنه أصيب على الجبهة الروسية فنقل إلى داخل ألمانيا . وعندما وصل إلى معتقل اوشفيتز في بولندا عمل فيه لمدة 21 شهرا . اذاع صيته وفاقت شهرته الحدود وهناك بالتحديد عرف بمندوب الموت . نجح بالنفاذ بجلده ولم يعاقب على جرائمه ، فمع نهاية الحرب العالمية الثانية، نجح في الهرب إلى الأرجنتين وعاش متخفيا طوال الوقت وانتقل إلى الباراجواي ثم استقر في ايمبو وهي مدينة صغيرة قرب ساوباولو بالبرازيل . تزوج وأنجب رغم كل المحاولات الدولية لتعقبه، إلا انه نجح في العيش متخفيا لمدة 35 عاما مستخدما عدة أسماء مستعارة، وفي عام 1979 أصيب بجلطة قلبية خلال سباحته في بيرتيوجا بالبرازيل ومات غرقا ، وتم دفنه هناك تحت اسمه المستعار، وفي أواخر العام 2004 م تم اكتشاف 85 رسالة ومذكرة كتبها مينجلي لكن حتى الآن لم يتم الإفصاح عن فحواها .

في 19/8/1947 جرت أول محاكمة في نورمبرغ، شملت عدد من العسكريين الالمان، إضافة الى 23 من الاطباء، لإستعمالهم آلاف الناس للتجارب داخل معسكرات الاحتجاز والاعتقال، وبدون موافقتهم. كما كشفت عن عدد من العمليات اللا أخلاقية في المجال الطبي، الى جانب مثير من التجارب السرية الأخرى، نتج عن تلك المحاكمات "اعلان نورنبرغ 1948"، الذي يشمل على العديد من المبادئ في التجارب الطبية والدوائية. في عام 1964 استحدث " اعلان هلسنكي" بأكثر تفصيلية للبحث العلمي، وتناول مشاركة الانسان في التجارب وخطوات التجارب السريرية.

لعب الاطباء والعلماء النازيون دورا بارزا في إجراء التجارب العلمية والطبية على البشر، وفي استخدام أسرى الحرب والسكان المحليين في مناطق الاحتلال النازي، ومنها تجارب تعذيب بحق السجناء. إشتهر الطبيب الألماني النازي "جوزف مينجيلي" الذي أجرى العديد من العمليات والتجارب على الأحياء من السجناء في معسكرات الاعتقال والأسرى.

في بداية عام 1942 تم استخدام السجناء بواسطة سلاح الجو الألماني لقياس قدرة الجسم البشري على تحمل الارتفاعات العالية فكان يتم وضع السجناء في غرف ذات ضغط هوائي منخفض لتوفير نفس الظروف التي تحاكي الضغط الجوي عند ارتفاع 68 ألف قدم " حوالي عشرين كيلومترا".

وفي أواخر العام 1942 بدأ الجيش الألماني بإجراء تجارب حول تحمل الأجساد البشرية لانخفاض درجات الحرارة عبر وضع السجناء في حوض من مياه الثلج لفترة تتجاوز الثلاث ساعات. وفي تجربة أخرى تم وضعهم عراة لعدة ساعات في العراء وسط درجات حرارة تقارب درجات انجماد الجليد وتكون الصقيع. كان هدف تلك التجارب الخطيرة إيجاد طرق لإعادة تدفئة أجساد الذين ينجون من الموت في هذه التجارب. وصلت التجارب الى تجميد الضحايا في غرف مثلجة حتى الموت. كما وصل الأمر إلى تقطيع أجسادهم . كما إشتملت تجارب أخرى على وضع الأشخاص في غرف لقياس الضغط مع تجارب لتأثيرات بعض الأدوية عليهم، وتعرض الضحايا الى ظروف انخفاض حادة في درجات الحرارة .

كما انصب اهتمام النازيين في تجاربهم على التوائم والعجز والأقزام والأطفال. وبدء من عام 1943 كان يتم انتقاء التوائم ووضعهم في تكنات خاصة، كان من العبث العلمي في كثير من التجارب ان كثيرا من تلك التجارب لم تكن لها أي فائدة علمية ملموسة؛ كمحاولات تغيير لون العيون، عبر حقن بعض المواد الكيميائية في عيون الأطفال وإخضاعهم لعمليات بتر للأعضاء، بالإضافة الى كثير من العمليات الجراحية الوحشية التي كان الضحايا يخضعون لها وهم أحياء ومن دون تخدير أحيانا .

وفي بعض التجارب تمت محاولة خلق توأم صناعي متحد عبر خياطة أوردة التوأم بعضها ببعض، ومثل تلك العمليات لم تكن ناجحة لأنها أدت بأضرار جسيمة الحقت الأذى بأيدي الطفلين. ظلت الكثير من نتائج تلك العمليات التجريبية البشرية غامضة لأن كل البيانات والتقارير حولها تم إتلافها. أما الأشخاص الذين تعرضوا للتجارب فأما ماتوا جراء تلك العمليات أو تم قتلهم لتحليل النتائج والبيانات. ومن التجارب الأخرى التي كانت تجري على السجناء محاولات لتقصي واستكشاف رد الفعل المناعي لمعالجة الملاريا، لذا يتم تعريض السجناء الذين يتمتعون بصحة جيدة للسعات البعوض أو حقنهم بمستخرجات سمية من الغدة المخاطية للبعوض. وبعد إصابتهم بالملاريا، تتم معالجتهم بعدد من الأدوية لتبيان مدى فعاليتها .

تبلغ تقديرات الضحايا في هذه التجارب الى ما يقارب 1000 سجين ، بالإضافة إلى تعريض بعض السجناء لغاز الخردل، لاستكشاف العلاجات للإصابات الناجمة عن التعرض لهذا الغاز. وتعرض ضحايا آخرون الى تجارب التعريض للسلفوناميد ؛ إذ كان يتم إضافة بعض أنواع البكتريا كالستريبتوكوكس والتينانوس للجروح في أجساد السجناء، ثم يتم قطع مجرى الدم عبر ربط الأوردة الدموية من الاتجاهين المعاكسين للجرح لخلق حالة تشبه حالة الجرح في المعركة.

وتتم مفاقة الالتهاب، عبر وضع قطع خشب وزجاج الأرض داخل هذه الجروح، ومن ثم تتم معالجة هذا الالتهاب المفتعل بالسلفوناميد أو غيره لاستيضاح فعاليته. كما أُجريت جراحات العظام والأعصاب، وزرع العظام وتجارب لجعل مياه البحر صالحة للشرب.

الأخطر من تلك التجارب فكانت تجارب الحمى واللقاحات المضادة لها ، وكان يؤتى بالسجناء الذين يتمتعون بصحة جيدة ويحقنون ببكتريا التيفوس لإبقاء البكتريا حية . ولكن حوالي 90% من الضحايا قد توفوا، بعد ان كان يتم حقن لقاحات مضادة للحمى بعد تلوئتهم بالحمى الخطرة، مجموعات أخرى كان يتم حقنهم بالبكتريا مباشرة لأجل مقارنة حالة الذين لا يحقنون باللقاح مع حالة الذين يحقنون به. توفى المئات من الضحايا منهم، بخلاف تجارب أخرى حول الحمى الصفراء والجذري والكوليرا والدفثيريا. كما كان يتم ضخ السموم في طعام السجناء لتشريح أجسادهم .

حاز الدكتور "جوزيف مينجيلي" لقب المهندس، الفعلي لعمليات التجارب البشرية التي كانت تجري في معسكرات الاعتقال النازية التابعة للجيش الألماني خلال الحرب العالمية الثانية، ونال منها شهرة واسعة، كونه أحد الضباط الأطباء العسكريين الذين أشرفوا على اختيار مهمات الأفواج الواصلة من السجناء، فهو الذي كان يختار من الذي يتوجب قتله، ومن الذي يجب أن يصبح عاملا في المناجم، ومن الذي يجب أن يخضع لعمليات بشرية، لها أهداف علمية ضئيلة تخدم أبحاثه وأبحاث النازيين .

استغل "مينجيلي" فترة وجوده بالمعتقل لإكمال أبحاثه حول الوراثة باستخدام السجناء، فركز على دراسة مرض يسمى "نوما" يصيب العجر، خاصة الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية، والناجم عن جهاز مناعي ضعيف؛ وغالبا ما يصاب به الاطفال بعد إصابتهم بالحصبة والسل . كان مينجيلي يوهم ضحاياه بأن الخضوع للتجارب يريحهم من عناء العمل المتعب الذي كانوا يؤديونه، كما كان يقتل بعض ضحاياه لمجرد رغبته في تشريح جثثهم . وكان بحق سفاح العمليات البشرية التجريبية.

### 3-4-3 : مجازر الاسلحة البيولوجية اليابانية في آسيا:

تعتبر الفرقة 731 التابعة للجيش الياباني أثناء الحرب العالمية الثانية الأكثر خطراً، ليس لأن مقاتليها كانوا شديدي البأس والقوة؛ بل لأن مهماتها كانت الأكثر رعباً بين أقرانها ، فهي الفرقة التي كانت تحمل وزر جميع جرائم الحرب التي ارتكبتها القوات اليابانية خلال المعارك . تميزت مهمتها ايضا بإجراء تجارب ضمن برنامج الحرب البيولوجية، لذا استخدمت الكثير من الصينيين الأسرى والمسجونين كفئران تجارب بالإضافة إلى تجارب أخرى أجريت على الكوريين والمنغوليين والروس ، وتقدر موسوعة ويكيبيديا عدد ضحايا هذه الفرقة بحوالي 200 ألف شخص .

وقد تنوع الأشخاص ( الذين تم استخدامهم في التجارب ) بين الأطفال حديثي الولادة إلى كبار السن، إلى النساء الحوامل وحتى الأجنة التي لم تسلم من جرائم هذه الفرقة. كما اشتملت العمليات التي أجرتها الفرقة على انتشار أعضاء داخلية من أجساد الضحايا لدراسة آثار ونتائج المرض على الجسم البشري، وهذه التجارب كانت تجرى في بعض الأحيان على النساء الحوامل اللواتي كن يحملن بفعل الاغتصاب من قبل الأطباء من أعضاء الفرقة ومن ثم يتم إجراء الفحوص على المرأة والطفل في رحمها .

وكان يتم قطع وبتر أطراف السجناء لدراسة كيفية وتقدير خسارة الدم من الجسد. وأجريت تجارب حول تغيير أوضاع هذه الأطراف المنزوعة ووضعها في أجزاء مختلفة من الجسد في غير مواضعها الطبيعية، وذلك لدراسة ردة فعل الجسم، حتى إن بعض الأطراف كانت تبتتر بالمنشار ويتم تجميدها للاستخدام المستقبلي . بعض المساجين كان يتم نزع أمعائهم بالإضافة إلى نزع المخ والكبد والرئتين والقلب من الجسد.

وكان يتم وضع أهداف بشرية "سجناء" للتدريب على رمي القنابل اليدوية من مواقع مختلفة ومن مسافات متنوعة، هذا عدا تعريضهم للنيران واللبث وإجراء الفحوص عليهم بعد ذلك. تعاونت هذه الفرقة مع فرق أخرى بتعدي مرحلة التجربة إلى ما هو أسوأ من ذلك عندما جربت أسلحة بيولوجية على الشعب الصيني عندما رمت براغيث محملة بأوبئة فوق مناطق صينية مأهولة

بالسكان مثل مدينة نينجو الساحلية عام 1940 ومدينة شانجدي في مقاطعة هونان عام 1941 مما أدى إلى انتشار الطاعون الدبلي أو ما عرف بإسم " الموت الأسود " الذي أودى بحياة الآلاف من المدنيين الصينيين الأبرياء.

والأمر لم يتوقف عند هذا الحد ، فكان يتم منع اطعام بعض السجناء لاكتشاف الوقت الذي يستغرقه التوقف عن الأكل قبل الموت، عدا تجارب اكتشاف العلاقة بين درجات الحرارة والحروق ومدى تحمل الانسان لذلك، وأيضا حقن السجناء بدماء الحيوانات ودراسة المتغيرات وتعريضهم لإشعاعات الاشعة السينية وحقنهم بفقاعات هواء لإحداث أزمات قلبية وحقنهم بمياه البحر لدراسة إمكانية حلولها محل الملح في الجسم. حوكم أعضاء من هذه الفرقة داخل روسيا وحكم عليهم بالسجن بينما تم تهريب آخرين للولايات المتحدة الأمريكية حيث عملوا هناك .

### 3-4-4: الجرائم الامريكية في الولايات المتحدة والعالم:

حتى الشعب الأمريكي لم يسلم من التجارب؛ فلولايات المتحدة الأمريكية تاريخ إجرامي أسود في مجال التجارب البيولوجية والطبية على البشر من مواطنيها أيضاً. إمتد ذلك الإجرام لعقود طوال ، وكان فئات معينة من الشعب الأمريكي أختيرت لتكون " فئران مخبرية للتجارب". من أشهر فضائح الحكومة الأمريكية، "تجربة توسكيجي" لمرض الزهري عام 1932 م عندما تم تشخيص 600 شخصا من أصول افريقية، ومن ذوي الدخل المحدود، منهم 400 مصابون بمرض الزهري، السفسلس، ولم يذكر لهم أي شيء عن حالة مرضهم ، ولا طريقة علاجهم ، كما تم منع العلاج عنهم أيضا. وبذلك فقد أستخدموا كفئران للتجارب لمتابعة تطور المرض وعوارضه عليهم حتى الموت، حين توفوا جميعهم، نتيجة الإصابة بالمرض، وبقائهم من دون تدخل علاجي أو طبي. كما لم يتم إخبار عائلاتهم بحالتهم المرضية وطريقة علاجهم. وكان بالإمكان إنقاذهم لو تم علاجهم حينها.

إستمرت التجارب عليهم حتى عام 1972 الى ان تسربت قضيتهم الى الرأي العام، حتى اضطر رئيس الولايات المتحدة، بعد سنوات عديدة للاعتذار علانية لعوائل المصابين، ونتج عن ذلك صدور مايعرف: "قانون البحث الوطني 1974"<sup>93</sup>. وفي عام 1955 إجتاحت منطقة تامبا باي في فلوريدا موجة حادة من حالات السعال، مما أدى إلى مقتل 12 شخصا، وذلك إثر قيام وكالة الاستخبارات المركزية بالتعاون مع مختبر الجيش للأسلحة الكيميائية والبيولوجية بنشر بكتيريا في البيئة. ولم يعرف شيء عن فحوى أسرار هذه التجربة .

<sup>93</sup>- المرزوقي نجيب علي (2008)، "منظور اخلاقي لادوية العلاج الوراثي"، بحث منشور ضمن اخلاقيات التعامل مع التقانات الحديثة، الاليسكو، ، ص 229-238. تونس، (2008).

وخلال نفس الفترة أطلق الجيش الأمريكي غيوما من الغازات غير السامة فوق ست مدن أمريكية وكندية، كجزء من إتخاذ إجراءات وقائية ضد سيناريوهات الحرب البيولوجية، مما أدى إلى إصابة العديد بعوارض استنشاقية.

في عام 1956 وفي سافانا بجورجيا و أفون بارك بفلوريدا، أجرى الجيش الأمريكي تجارب عملية، خارج المختبرات التابعة له، بإطلاق العديد من البعوض في الضواحي السكنية من الأرض ومن الجو، حيث تعرض الكثيرون من السكان للدغات البعوض، ومنهم من مرض، ومنهم من مات أيضا. وبعد كل هذا قام عدد من رجال الجيش الأمريكي بالتنكر على هيئة مسؤولي صحة عامة بتصوير وفحص المصابين. و يُعتقد أن البعوض تم حقنه بالحمى الصفراء؛ ألا أنه، حتى الآن، لم تكشف حقيقة ما حدث في تلك التجربة.

وفي عام 1965 ولأجل دراسة تجريبية استمرت ثلاث سنوات ، تطوع سبعون سجيناً في سجن هولمزبيرج في فيلادلفيا للخضوع لتجارب حول تأثير مادة سمية "دايوكسن"، وهو أحد المواد الكيميائية الضارة ، ولم تتم معالجة الجروح التي تعرضوا لها جراء التجربة لفترة استمرت سبعة أشهر، كما لم يتم إخبار أي منهم بأنهم سيُدْرَسون من ناحية تطور مرض السرطان.

وفي عام 1990 تم حقن أكثر من ألف وخمسمائة طفل أسود، ومن أصول إسبانية، تبلغ أعمارهم ستة أشهر في لوس أنجلوس، بلقاح تجريبي ضد الحصبة، لم يكن مسموحاً استخدامه بعد في الولايات المتحدة الأمريكية، واعترفت الجهات المسؤولة لاحقاً بأن أهل الأطفال لم يبلغوا بأن اللقاح الذي تم استخدامه على أولادهم كان بغرض التجربة فقط. كل ذلك بخلاف الكثير من التجارب التي ما زالت تجري تحت عنوان ("سري جداً" لأغراض الأمن القومي الأمريكي)، واعتبرت إنجازات طبية كثيرة تحققت عملاً بمبدأ "التجربة العلمية التي من دونها لن تتقدم الممارسات الطبية". ويرى المبدأ الأخلاقي لأصحابها: انه من دون إجراء تلك التجارب العلمية (كشكل من أشكال البحوث والدراسات العلمية الطبية)؛ فسيقف الطب عاجزاً أمام الكثير من الأمراض بالتشخيص والعلاج والتأهيل، وقبل ذلك كله الوقاية.

وللتجارب العلمية تلك وجهتان، إما المؤسسات العلمية والبحثية أو إنفاق لشركات الدواء الملايين على الأبحاث المتواصلة لتطوير الأدوية بصورة مستمرة والاستفادة من كل تقدم علمي بجميع الحالات لإنتاج الادوية واحتكار انتاجها وتسويقها.

قد تظهر الحاجة للمتطوعين من البشر كمرحلة ضرورية من مراحل البحوث والتجارب الطبية ، لذا يوجد في مثل هذه الحالات من بين البشر أناس يبدون إستعدادهم للتجربة العلمية والطبية، وهم كثر ، وبعضهم من يتفرغ تماماً لهذه المهمة إما أملاً في العلاج من مرضه أو لتلقي مالا أو مساعدة ما وبالاتفاق والتراضي مع الشركة المنتجة للدواء.

ان الجانب الاخلاقي هنا يستوجب اعتماد الاعتراف بنجاح أي دواء من خلال تسجيله وتجريبه على مجموعة من المتطوعين الذين يجب أن تتوفر فيهم عدة شروط: أهمها أن يكونوا على علم ودراية تامة ووعي بما سيخضعون له من علاج تجريبي ومعرفة فوائده ومخاطره أيضا ، كما ينبغي أن يكون للمتطوع كامل الإرادة والحق بالمعرفة قبل أن يوافق على المشاركة ، وألا يكون مقيد الحرية أو مسلوب الإرادة أو غير متمتع بالأهلية الكاملة: (يتمثل في الحالات التي يكون فيها سجيناً أو أسيراً أو محكوم عليه بالإعدام أو بعقوبة مقيدة للحيات)، أو يصبح في وضع المريض الضعيف أو المعاق أو غير المدرك، ولا يستطيع إعطاء موافقته على الاشتراك في البحوث الطبية بشكل واع وبكامل إرادته.

أن الضوابط المتشددة في حالات استخدام البشر للبحوث الطبية والعلمية نشأت وتبلورت لمكافحة الطموح غير المحدود للعلماء والذي يصل للجنوح أحيانا ، لأن ذكاء العالم وشغفه بالعلم وحرارة المنافسة ربما تدفعه إلى عدم التوقف عند محطات ينبغي التوقف عندها والنظر مليا في قضايا حقوق الإنسان أو حدود حقوق المرضى، ولأن بعض العلماء يعتبرون أن تلك الحقوق مجرد مبادئ صغيرة أمام رسالته وهدفه وحركته . كما أن هروب كثير من الشركات والمؤسسات البحثية والطبية في الدول المتقدمة من الالتزام بالقيود والضوابط المتعلقة بحقوق الإنسان والمرضى وقيامهم بدفع تعويضات مادية لمرضى ضعفاء استخدموا قسرا بالبحوث الطبية يشكل جريمة أخلاقية مضاعفة. وما ظهر من فضائح انتهاكات حقوق الإنسان في مجال البحوث الطبية يكشف عن مستوى اخلاقي متدنٍ، ويعبر عن جشع تلك المؤسسات واستهتارها بحق الحياة التي من أجلها يصنع الدواء. وهناك الكثير من المخاوف من أن تصبح الدول النامية ذات الطبيعة الهشة - التي يسهل الالتفاف حولها - مرتعا خصباً لنشاط وتجارب الشركات الدوائية وتوفر الفرص، عن علم او بدونه، لإجراء التجارب العلمية على البشر من مواطنيها، باستغلال ظروف هؤلاء البشر المعاشية او جهلهم باهداف المعالجة، ولا سيما الضعفاء منهم الذين اصبحوا رغما عنهم مجرد حيوانات مخبرية لاجراء التجارب للأبحاث الطبية.

لقد ظهر اخيرا اصطلاح "الاستعمار الاخلاقي **Imperialism Ethical**" يصف الممارسات التي تصدر عن مسؤولين أو جهات في بلدان متقدمة تجاه تجريب الدواء على اشخاص أو جماعات في البلدان المتخلفة. ومن الممارسات التي تدخل ضمن إطار "الاستعمار الاخلاقي" مايلي<sup>94</sup>:

- 1- إجراء بحوث على افراد في البلدان المتخلفة، كان من الممكن اجراء مثلها في البلدان المتقدمة.
- 2- التساهل في تطبيق الاشتراطات الأخلاقية عند اجراء تلك التجارب في البلدان المتخلفة.

94 - سيف الدين حسين، "اخلاقيات الممارسات الطبية، الفصل العاشر من كتاب (الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وجمعية الدعوة الاسلامية، ص 284-354: تونس، (2005).

3- تنفيذ مشروعات ما تسمى بـ "الباراشوت" وأحياناً بـ "الهليكوبتر"، والتي يقصد بها استغلال المجتمع المتخلف بإجراء أبحاث على أفرادها ونقل نتائج هذه الأبحاث إلى العالم المتقدم دون إتاحة هذه النتائج أو فوائدها أو التطبيقات الناتجة عنها للسلطات المسؤولة في ذلك المجتمع المتخلف أو لأبناء ذلك المجتمع من الباحثين أو المتعاونين في تلك المشاريع.

4- الكسب المادي غير العادل من أرباح أدوية تباع إلى مجتمعات الدول النامية "أو المتخلفة" سبق أن قد دراستها وتجربتها على أفراد من تلك المجتمعات.

3-4-5 : أطفال مدينة "كانو" النيجيرية ضحايا تجارب شركات الدواء :

#### نموذج تطبيقات "الاستعمار الأخلاقي"

في العام 2007 رفعت الحكومة النيجيرية دعوى على شركة صناعة الدواء **Pfizer** و طالبتها بدفع 7 مليار دولار كتعويضات لأسر وضحايا التجارب غير المرخصة وغير الأخلاقية التي أجرتها تحت غطاء "العمل الإنساني" على الأطفال النيجيريين المصابين بالتهاب السحايا في مدينة كانو شمال نيجيريا عام 1996 .

تفاصيل الحادثة:

في عام 1996 انتشر وباء التهاب سحايا جرثومي، و كوليرا ، وحصبة في مدينة كانو شمال نيجيريا. وبعد ستة أسابيع من بداية الوباء أرسلت شركة **Pfizer** فريق طبي بحجة تقديم المساعدة الإنسانية للعمل في مستشفى كانو للأمراض المعدية. وبجانب **Pfizer** كانت هناك منظمات إنسانية أخرى مثل "أطباء بلا حدود" وغيرها. اشتغلت هذه الفرق الطبية في ظروف سيئة، حيث ينعدم توفر الكهرباء والماء عن كثير من أبنية المستشفى، كما أن عدد المرضى الكبير أدى إلى اكتظاظ رهيب يفوق طاقة استيعاب المستشفى ، فقد كان المرضى ينامون على أرضية المستشفى.

باشرت "أطباء بلا حدود" علاج الأطفال المصابين بالتهاب السحايا الجرثومي بعقار أمين ، فعال، تعتمد منظمة الصحة العالمية في حالات الأوبئة اسمه الكلور امفينيكول. أما **Pfizer** فقد استغلت ظروف الكارثة الصحية لتبدأ تجاربها على عقار جديد من صنعها لم تتم إجازته بعد من أجل الاستخدام البشري. يحمل هذا العقار اسم "تروفان" . **Trovafloxacin**

كانت الشركة للتو قد انتهت من تجربته على الحيوانات، وقد أشارت التجارب على الحيوانات إلى آثار جانبية هامة محتمل أن تصيب الأطفال، مثل أمراض المفاصل، وخاصة التأثير على غضاريف الاتصال التي تشكل مناطق نمو العظام عند الأطفال، وأي خلل بها قد يؤدي لتوقف نمو عظام الطفل، كما أن العقار في تلك التجارب الحيوانية سبق أن سبب أذيات كبدية. ورغم كل تلك الأخطار بدأت **Pfizer** تجاربها على البشر في كانو النيجيرية .

قبل اختبار الدواء على أطفال "كانو" لم تكن الشركة قد استعملته على البشر سوى على طفل واحد تناوله بعد أن فشلت كل الأدوية الأخرى المعروفة في علاجه. لكن ما جرى في كانو يشكل فضيحة أخلاقية مرعبة، فقد انتقت **Pfizer** عينة أطفال تتراوح أعمارها بين سنة و ثلاث عشرة سنة ظهرت عليهم أعراض التهاب السحايا وهي : صلابة النقرة، صلابة المفاصل ، حمى مع صداع. قسم هؤلاء الأطفال إلى مجموعتين ، كما هي العادة في كل الاختبارات المماثلة. فأعطيت المجموعة الأولى الدواء الإختباري وأعطيت الثانية، التي تسمى مجموعة الشاهد " مجموعة تستخدم لمقارنة فعالية العلاج" عقار السفترياكسون.

وكي تظهر الشركة فعالية دوائها خفضت جرعة السفترياكسون المتعارف عليها لعلاج التهاب السحايا إلى ثلث الجرعة المطلوبة، وهذا مما أدى لتدهور وضع كثير من الأطفال. إدعت الشركة أنها أجرت تقييماً للأطفال عند الدخول، وفي اليوم الخامس ، فإن لم يستجب الطفل لدواء التروفان كانت تحوله إلى العلاج بالسفترياكسون مع العلم أن منظمة "أطباء بلا حدود" كانت تعالج بدواء رخيص ومعروف وفعال وتقره منظمة الصحة العالمية وهو الكولورامفينيكول و بدون مشاكل تذكر.

وهنا أشار المدعي العام النيجيري: إلى أن الشركة لم تهتم بتقييم المرضى بعد خمسة أيام، و بالتالي لم تحولهم إلى معالجات أخرى إلا بعد ظهور أذيات عضوية مثل : العمى ، أو الصمم ، أو الشلل. كما أن الجرعة المنخفضة من السفترياكسون التي عولج الأطفال بها سببت وفيات وأذيات مشابهة، كما أن الشركة لم تقم بأي شرح لأهل الاطفال الذين أخضعوا للعلاج، ولم تحصل على موافقتهم. وفي الحالات التي قامت بذلك إكتفت بتوزيع استمارات باللغة الإنكليزية لأهل لا يقرأون ولا يكتبون بهذه اللغة، وذلك لخشيتهما أن يرفض الأهل تجربة عقار جديد على أولادهم في حين هناك من يعالج وبشكل مجاني بعقار فعال و في نفس المكان .

بعد أسبوعين غادر فريق **Pfizer** مدينة كانو ولم يعد أحد منهم أبداً لتقييم حالة المرضى ومتابعة تأثيرات الدواء. أكد المدعي العام النيجيري إن خمسة من الأطفال تلقوا التروفان من أصل خمسين قد توفوا، إضافة الى ستة أطفال آخرين كانا قد توفوا بسبب الجرعة المنخفضة من السفترياكسون. وهناك عدد آخر من الاطفال عانى من العمى والصمم و الشلل .

كان يمكن لهذه القصة أن تندثر، فلا يسمع أحد بها؛ لأن الضحايا فقراء من أبناء العالم الثالث ولا أحد يهتم بمصيرهم. لكن ما حدث بعد ذلك لهذا لدواء في الولايات المتحدة أعاد نبش هذه القضية من جديد ، فبعد أن أجازت فيدرالية الدواء الامريكية **FDA** عقار التروفان في الولايات المتحدة بدأت مشاكله تظهر على الكبد هنا وهناك، قد تلقت **FDA** أكثر من مائة إخبار عن حالات سمية كبدية للدواء ، فأوصت في كانون الثاني من عام 1999 أن يستعمل فقط في المستشفيات

وللمرضى الذين يعانون من تهديد للحياة. و في حزيران من نفس العام أصدرت تحذيراً للعموم من سمية الدواء الكبدية، وبعد يومين سحبته المفوضية الأوروبية من أسواقها ومنعت تداوله.

وهنا بدأت مراجعة تاريخ العقار فكشفت جريدة الواشنطن بوست عام 2000 عن دراسة كانوا وما إعتراها من فضائح أخلاقية تتعلق باستغلال حالة الفقراء في التجارب عليهم تحت غطاء "المساعدات الانسانية".

والقضية هنا قضية جشع ومال بالدرجة الأولى، لأن الدواء عندما أنزل إلى الأسواق في نيسان/أفريل 1998 زادت أرباح الشركة بنسبة 15% عن العام السابق، وقد جلب الدواء في ذلك العام من الأرباح قرابة 160 مليون دولار، وتوقعت الشركة أن ترتفع الأرباح إلى قرابة مليار دولار.

يشكل اختبار الدواء على البشر قبل طرحه في الأسواق خطوة أساسية على طريق إجازة الأدوية الجديدة ، فبعد اختباره في المختبر تنتقل الاختبارات إلى الحيوان، وأخيراً إلى البشر. و بسبب خطورة الاختبارات على البشر من الناحية الأخلاقية و الصحية ، فقد وضعت ضوابط معقدة لها أولها و أهمها أن يوافق الشخص الذي سيتناول الدواء على إجراء الاختبار بكامل حريته الشخصية و بعد أن تبين له الشركة أهداف و مخاطر هذا الاختبار، يضاف إلى ذلك أن الشركة، إن كانت أمريكية يتوجب عليها أن تحصل على موافقة مكتب الـ **FDA** ، وعلى موافقة سلطات البلد المعني الذي سيجرى فيه الاختبار<sup>95</sup>.

وعندما إدعت الشركة المتهمه **Pfizer** من أنها قامت بكل الإجراءات القانونية، صدمت بحقائق التزوير الفاضح لادعاءاتها ، لأن المدعي العام النيجيري أثبت إن الموافقات قد تم تحصيلها بتاريخ لاحق للتجارب، وأهم من هذا أنها لم تشرح لذوي الأطفال الذين أجري عليهم الاختبار مخاطر الاختبار، ولم تبين لهم أنه دواء تجريبي، ووقعت أولياء أمور بعضهم على أوراق كتبت باللغة الانجليزية التي يجهلها الناس هناك.

صحيح انه لا يمكن الاستغناء عن التجارب الدوائية على الإنسان، ولا يمكن التوصية بأخذ أي علاج جديد من دون تجربته لذلك اعتمدت قواعد صارمة توصي بعدم استخدام أي دواء الا بعد تجربته وإثبات فاعليته على الحيوانات أولاً، ومن ثم تجرب على الانسان من خلال بحوث تجرى على عدد محدود من البشر الأصحاء ووفق شروط ومعايير محددة ، منها إعلام المتطوعين بالإيجابيات والسلبيات المترتبة على البحوث والدراسات. أن هذه اللوائح والقواعد منصوص عليها في دساتير الأدوية العالمية ومنها الدستور الأمريكي - المعتمد عالمياً - والدستور الأوروبي -

وفحوى هذه الدساتير تنص على المحافظة على صحة الإنسان وضمان سلامته وحقوقه فيما لو حصل له أذى ، كذلك عليه أن يوقع موافقته على تجريب الدواء عليه بالعلم والفهم والمعرفة .

لابد ان يكون الباحثون والمجربون على مستويات علمية وطبية عالية تؤهلهم الاطلاع جيدا على بعض الجوانب الخفية حول العلاقة بين جنس ونوع الحيوانات المجرب عليها والمتطوعين من البشر وعن طبيعة التجارب المعملية لصالح اكتشاف الدواء. ولا يمكن إستخدام الانسان والحيوان فقط في عمليات التوافر الحيوي والتأثيرات الجانبية لمركباته الكيميائية الحيوية:

( وهو ما يقصد به مدى تأثير الدم وأجهزة الجسم المختلفة كالكلب والكلبي والانسجة المختلفة للدواء، ثم مدى طرح الدواء الى خارج الجسم) . بالنسبة للإنسان فإنه عادة ما يكون الحافز المادي وراء قبوله التطوع ، كما أن المدمنين على المخدرات وعلى الكحول هم من أكثر الفئات من أمثال هؤلاء المتطوعين ، وفي الغالب فهم ليسوا أصحاء مما سيشكل نقصا في دقة تلك التجارب التي من المفترض أن تستهدف الأصحاء بالدرجة الأولى نتيجة التجربة على إنسان. ولا بد أن تجرب على أكثر من شخص ومن مناطق وأعمار وألوان وأجناس مختلفة كما يجب أخذ وضع النساء الحوامل والأطفال في الاعتبار.

في الستينات من القرن الماضي طرحت إحدى الشركات دواء دون تجربته على الحوامل فنتج عن ذلك ولادات بتشوهات خلقية بمواليد مشوهي الخلق، أشبه بفقمة البحر ومن دون أطراف ، لذا تحملت الشركة مسؤولية تعويض من لحق بهم أدى من جراء ذلك الدواء دفع التعويضات لهم حتى اليوم ، و بناء على تلك الكارثة وكوارث أخرى مشابهة فإن الدول المتقدمة كالولايات المتحدة وكندا لا تصرح بأي دواء حتى تثبت فعاليته بالكامل ومعرفة تأثيره في الأجنة والحوامل ، كما إنهم يركزون اليوم أكثر على اختبار نوعيات الأدوية التي قد تكون سببا للسرطان "المحفزة على تكوين السرطانات" .

إن المضاربات في سوق الدواء كثيرا ما فضحت انتاج العديد من الشركات العربية والاجنبية نتيجة عدم الالتزام بالضوابط العلمية والأخلاقية عند صناعتها لتلك الأدوية لذا تم سحب كميات كبيرة من الدواء بعد طرحها في الأسواق بعد أن تم الكشف عن أن التجارب العلمية التي أجريت عليها كانت غير وافية ، أو تم اكتشاف آثار جانبية لتلك الأدوية أثناء الاستخدام. كما أن هناك شركات أخفت، وبشكل متعمد ذكر بعض الآثار الجانبية للدواء .

كشفت العديد من الدراسات الميدانية حول بعض التصرفات اللا أخلاقية وغير المسؤولة من بعض الفئات العلمية والمؤسسات البحثية وشركات الأدوية والاطباء في تقديم التركيبات العلمية المزورة عن نجاعة الدواء، كما تم تجريب الدواء من خلال تعاون بين بعض الاطباء والشركات المنتجة من دون علم المرضى. إن ما يجري خلف أبواب شركات الأدوية يطرح الكثير عن

الأزمة الأخلاقية لتلك المؤسسات التي تستظل باسماء وثناء المؤسسات العلمية والبحثية عليهم، ومن خلال تعاونهم مع بعض الجامعات العلمية والمؤسسات البحثية المستقلة يستحصلون على تصريحات وتوصيات إما زائفة أو غير مؤكدة، توصي باستعمال هذا الدواء ورفض ذلك، تلبية لإحتياجات التجارة والربح، وهذا لا يتم خفية او؛ بل من خلال تقديم الدعم المادي المباشر أو غير المباشر لتلك المؤسسات وبالإنفاق على تطوير الأجهزة العلمية، وحتى الى تنظيم المؤتمرات العلمية التي طالما ما كانت حلبة صراع او لترويج أسماء وماركات ادوية بعينها على حساب أخرى.

ان الجانب المقلق هنا ان كثيرا من الشركات تمنع باحثيها العلميين من نشر نتائج أبحاثهم داخل المعامل أو خارجها ، واذا كان لابد من نشر تلك البحوث والنتائج والتعريف بها فإنها ستكون خاضعة ومراجعة من قبل الشركة قبل نشرها علميا، ومن مصلحة الشركات التجارية انها تخفي بعض المعلومات، خاصة ما يرتبط بالجوانب المتعلقة بالتأثيرات الثانوية او الضارة للدواء، وقد يصل الأمر ببعض الأطباء إلى تجربة الدواء على مرضاهم بالاتفاق مع الشركة بشكل سري، الأمر الذي يجعل من المرضى فئران تجارب دون علمهم.

### 3-4-6: الجرائم الصهيونية في الحرب البيولوجية ضد العرب:

على مدى سبعين سنة لم تتوانى اسرائيل بعدقيامها وقبلها العصابات الصهيونية، كشتيرن والهاغاناه في الاربعينيات من القرن الماضي عن استخدام الأسلحة البيولوجية والجرثومية وتعريض حياة السكان في المناطق المحتلة الى الامراض والموت والابادة الجماعية. كما تم استخدام الاسرى والمعتقلين في التجارب الطبية والدوائية في المستشفيات الاسرائيلية. (راجع الباب التالي فصل الحرب والابادة)<sup>96</sup>.

في الفترة ما بين(9-22) فبراير من العام 1991، وخلال انشغال العراق بصد الهجوم الثلاثيني الذي شنته الولايات المتحدة وحلفائها على العراق، ألقت الطائرات الاسرائيلية قنابل وحاويات وعبوات تشتمل على جراثيم وفيروسات وتوكسينات لنقل عدد من الاوبئة والأمراض الى

<sup>96</sup> - العبودي عبد الكاظم ، كتاب: بشر نعم فئران مخبرية لا ، دار الغرب، 2000 . وكذلك : العبودي عبد الكاظم :تأليف مشترك: كتاب الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، مرجع سابق. الفصل الثاني، ص 66-112. ومن (نشرة دراسات تصدرها الدار العربية للدراسات والنشر والترجمة، العدد 65، القاهرة/ ص 38-46، ابريل 1991. راجع ايضا الباب الخامس من هذه الرسالة حول الاسلحة البيولوجية و فصل الابادة .

نهر دجلة، كما استخدمت أسلحة جرثومية ضد المزروعات، وخاصة أشجار النخيل في جنوب العراق<sup>97</sup>.

### 7-4-3 : الحروب الفيروسية في زمن السلم والحرب الباردة:

شهدت السنوات الأولى لللفية الثالثة، وبعد انتشار فيروس "مرض نقص المناعة المكتسبة" الأيدز. وهو من احتمالات إنتاج المخابر العلمية العسكرية. تتالت اخبار الأوبئة كجنون البقر وسارس والحمى القلاعية والاصابات النباتية بامراض البيوض وتعرية الأشجار وصلت الى انتشار اوبئة مثل سارس وانفلونزا الطيور ومن ثم الخنازير وغيرها. لاجال في الدخول التفصيلي بها لانها حسب قناعتنا جزء متمم من الحروب السرية الجديدة يشارك فيها الاعلام وشركات الدواء وبتواطؤ من منظمات عالمية تسهم في عملية التضليل لتمرير صفقات بيع الادوية او المساهمة في الدعايات السياسية والضغط النفسي مثل حادثة انتشار جرثومة الجمرة الخبيثة في الولايات المتحدة التي كرسنا لها فقرة متميزة كمثال عن التضليل الاعلامي لخدمة الاغراض السياسية.

### **5-3 الانعكاسات الاخلاقية للامن الغذائي والوراثي:**

منذ السبعينيات من القرن الماضي وبعد ان خطت التقانات الحيوية في إمكانية تقطيع الحمض النووي الحامل للمعلومات الوراثية الدنا DNA ثم اعادة تركيبه بواسطة الانزيمات اصبح الطريق مفتوحا لاحداث تغييرات مستهدفة ومعروفة في التركيب الوراثي للكائنات الحية. صحيح تم تحسين انتاجية ونوعية ومقاومة الكثير من الاصناف الحيوانية والنباتية .

ظهر مفهوم "الكائنات المعدلة وراثيا" نتيجة لهذه القفزة في التقانات الحيوية وفي نفس الوقت تثير هذه التقانات الكثير من المخاوف التي تكون الكثير منها مؤسسة علميا ومنها:

1- يمكن ان تسبب هذه الكائنات عند اتصالها الطبيعي مع الانواع القريبة منها او الانواع البرية انتقال المورثات والصفات الوراثية، منها ما تحدث توافقات وراثية غير محسوبة النتائج، كسيادة صفة من الصفات، اوخلل مرضي او وراثي...الخ. جميع امثال تلك الحالات قد تسبب ظروفًا تؤدي الى القضاء على التنوع الحيوي. كثيرا ما تؤدي تجارب الهندسة الوراثية الى حدوث توافقات غير مسيطر عليها وتكون غير مرغوب فيها او حتى خطيرة، وقد تنتج موادا ساما في المنتج الغذائي، او تكون ذات تأثيرات مستقبلية على صحة الانسان والبيئة.

2- ان غياب ضوابط اخلاقية وتحكم بالنتائج العلمية والتقانية تفتح المجال واسعا بالاخلاق بالامن الغذائي وفرض انماط غذائية معينة او التسبب في الأوبئة والمجاعات والتحكم في الفائض الغذائي لاجل تحقيق اغراض معينة استراتيجية منها او سياسية او اقتصادية وحتى حربية

<sup>97</sup> - العبودي عبد الكاظم ، تأليف مشترك: كتاب الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، مرجع سابق. الفصل الثاني، ص ( 66-112). وكذلك: (نشرة دراسات تصدرها الدار العربية للدراسات والنشر والترجمة، العدد 65، القاهرة/ ص 38-46.

وعدائية. ان الغذاء يشكل احد اسلحة الدمار الشامل اذا ما نظرنا اليه من منظور التحكم في انتاجه او استهلاكه او توزيعه.

3- ان التوسع بامتلاك ملكية تقانات انتاج الغذاء وتوزيعه وبيعه يؤدي الى زيادة الفجوة الغذائية بين عالمين متفاوتي التنمية والتطور، كما ان فرض انماط من الزراعات لاصناف معدلة وراثيا كشف عن تغييرات بيئية بدأت تؤثر في حالات التوازن البيئي التي صاحبها هجرات وفناء وتحويل في كثير من الكائنات كالحشرات والطيور واختفاء الكثير من المنتجات الزراعية البرية والاصناف المحلية بسبب سياسات الجشع والتحكم بتوزيع وبيع اصناف معينة من البذور.

4- كما ان الاندفاع بعولمة الانتاج الزراعي والحيواني والتحكم به لصالح الشركات المتعددة الجنسية والعبارة للقارات بدأ يقضي على البيئات والحيوانات الزراعية الصغيرة في الريف والقضاء على كثير من انماط الانتاج الزراعي في ارياف العالم ودفع الكثير من الفلاحين الى هجرة الارض والفلاحة مما يسبب الكثير من الازمات الزراعية والاجتماعية والتوسع في مساحات التصحر.

5- بحكم روح الاحتكار للتقانات الحيوية فان الشمال والغرب المصنع والمتسلح بالمعارف يحرص على ترويج افكاره وتقنياته وانماط غذائه واستهلاكه الغذائي ويفرضها على بقية العالم وقد عبر علماء العالم الثالث عن قلقهم من هذه المخاطر التي تحاول فرض النباتات المعدلة وراثيا من دون ان تعطى فرصة لبلدان النامية والفقيرة من امكانية الاختيار بل دفعت بعض سياسات البنك الدولي الى رفع الدعم عن المشاريع الزراعية المحلية والاقليمية لتصبح هدفا لاملاءات الشركات المتعددة الجنسية وفرض شروط المشاريع المستوردة من الخارج مما زاد من حجم الفجوة الغذائية والاقتصادية معا.

### 3-6-1: الاخلاقيات الايكولوجية:

كلمة بيئة من أكثر الكلمات غموضا من بين جميع الكلمات الشائعة في المناقشات حول الاخلاق او السلامة الايكولوجية وتفاوتت في التحديد بين بلد وآخر. فقانونحماية البيئة الاسترالي مثلا يعرف البيئة: (تضم كل مظاهر ما يحيط بالانسان ويؤثر عليه كفرد او جماعة). وتركز مجموعة البحث الكندية على طابع الملكية عندما تعرف البيئة كـ (ملكية جماعية مشتركة) وتشارك تعاريف كثيرة على اعتبار الهواء واليابسة والماء والحياة النباتية والحيوانية بما فيها البشر ومنها تصنيف مثلا الشروط الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤثر على حياة الناس او المجتمع.

### -3-6-2 : الفلسفة البيئية والاخلاق البيئية الى أين؟؟:

يرى مايكل زيمرمان<sup>98</sup> ، انه يمكن تقسيم الفلسفة البيئية بشكل عام الى ثلاث حقول رئيسية:

#### الحقل الاول: يشمل الاهتمام بالاخلاق البيئية:

يعتبر عام 1973 منعطفا هاما يبشر باعلان "الاخلاق البيئية" ودخوله مسرح الفلسفة البيئية، فقد اقترن في ربيع ذلك العام، بنشر مقالة الفيلسوف الاسترالي الشاب، آنذاك، "بيتر سينغر" المعنونة (تحرير الحيوان)<sup>99</sup> تلاه في صيف ذلك العام ظهرت مقالة: (الضحل العميق: حركة الايكولوجيا بعيدة المدى) وهي خلاصة افكار الفيلسوف النرويجي المميز "آرني ناييس" في المجلة الفلسفية الدولية **Inquiry**. وفي خريف ذلك العام خاطب فيلسوف استرالي شاب آخر هو "رينتشارد سيلفان" زملاءه في المؤتمر العالمي الخامس عشر للفلسفة في فارنا "بلغاريا" متسائلا:

(هل ثمة حاجة الى أخلاق جديدة "بيئية"؟). وعلى مدى السنوات التالية ظهر العديد من المقالات والدراسات في هذا الحقل الجديد المثير من البحث في مجالات اختصاصية من قبيل **Journal of Philosophy Ethics** ثم في عام 1979، أسس "يوجين ي. هارغروف" مجلة فصلية جديدة هي "الاخلاق البيئية" **Environmental Ethics**، وما ان حل العقد الثامن من القرن الماضي الا واتسعت حركة النشر وبدأت المقررات الجامعية تشملها في تدرجاتها. بل شكلت مقالة الفيلسوف النرويجي آرني ناييس منطلقا لتشكيل "الحركة الخضراء الجذرية" ومن ضمنهم الناشطون السريون "المحاربون البيئيون" من منظمة "الارض أولا" **Earth First** .

اصبحت فكرة "الايكولوجيا العميقة" **Deep Ecology** تهدف الى الاختبار المباشر لارتباط بالطبيعة، وطبقا لذلك، بدت "الايكولوجيا العميقة" مضادة للعقل على نحو غامض، ومعادية على نحو صريح "للاختزال الاخلاقي" الموضوعي، كما يرى مفكروها، ؛ لما يعتقدون " انه يجب ان يكون علاقة بالعالم الطبيعي أكثر حميمية من تلك الخلقية النمطية السائدة. وقد اصبحت النظرية الاخلاقية حول تحرير وحقوق الحيوان الجناح الفلسفي لحركة أكثر وضوحا، ونضالية على نحو مطرد، لكن اهداف تلك الحركة لم تختلف وحسب عن أهداف الحركة البيئية؛ بل اصبحت غالبا على نزاع معها، ومن جهة الفلسفة الخلقية، تعد الآن حركتا تحرير/حقوق الحيوان والاخلاق البيئية، لكل منه برنامجا الخاص<sup>100</sup> .

ومن الناحية المنهجية، يتوحد أخلاقيا البيئة واخلاقيا تحرير/حقوق الحيوان من خلال التزام مصمم على مواجهة طرائق الفلسفة الغربية التقليدية. وينسج كل منهما نظرياته بغير خطوط الافكار الموجودة في الفكرين الاوربي، والامريكي - الاوربي. ويطور كل منهما فلسفة خلقية تتكل

<sup>98</sup> - مايكل زيمرمان، " الفلسفة البيئية"، مرجع سابق، ص 18.

<sup>99</sup> - نشرت في مجلة **The New York Review of Books**

<sup>100</sup> - زيمرمان مايكل ، " الفلسفة البيئية"، مرجع سابق، ص 26.

على نظريات اخلاقية تستلزم بدورها وصايا عملية. كما يعتقد كل منهما بقدرة الافكار على توجيه الفعل الفردي وتغيير القيم الاجتماعية، وصوغ مُثل جديدة<sup>101</sup>.

ترى مجموعات الاخلاق البيئية انه يمكن ان يحصل تقدم في انهاء الازمة البيئية عندما نتحدى المعايير الاخلاقية للمركزية البشرية، ونوسع الاعتبارية الاخلاقية لتشمل الكائنات غير البشرية. وكما ان هناك العديد من الخبراء الذين يواجهون مشاكل علمية جديدة ومسائل اخلاقية مستجدة لم يعهدوا بمثلها من قبل، ولم يتمكنوا من حلها، فان بعض الاخلاقيين وهم ينشدون استخدام أدواتهم المتاحة" أي النظريات الاخلاقية الحديثة"، في دراسة الازمة البيئية.

وحين ينطلق كثير من الاخلاقيين البيئيين من تصورات ترى: "تماما، كما أن الانسان اليوم ملزم خلقيا وقانونيا بالاحكام عن إيذاء أو قتل البشر، ربما يكون [اليوم] وغدا ملزم خلقيا وقانونيا بالاحكام عن إيذاء أو قتل الكثير من انواع الكائنات الحية. الا بالطبع لأسباب غير مبتذلة. فأن العلماء والخبراء في مجالات العلوم والتقانة يتموضعون، شأؤوا ام أبوا، لأخذ مسؤولياتهم بالإنصات الى الايكولوجيين الذين بدأوا يركزون، لا على الانسان فقط؛ بل الانواع الحية والمنظمات البيئية من نباتات وحيوانات لذا لا بد من الانصات الى "مذهب التوسع الخلفي" لمواجهة عدد من الاحتمالات المتعلقة بمصير الطبيعة باعتبارها وحدة ايكولوجية غير متجزئة.

وبعيدا عن بعض قضايا التهريج السياسي التي ترفعها بعض المجموعات الايكولوجية من احزاب الخضر في بلدان الغرب المصنع، وشعارات الدفاع عن حقوق الحيوان. والحفاظ على البيئة. الخ، لا بد من الاعتراف أولا ان هناك كثير من السكوت إزاء ممارسات "المركزية البشرية الغربية" في الحاق الدمار الشامل بالبيئة، وسيادة ثنائية المعايير الاخلاقية في هذا الجانب أو ذاك؛ كونه ان البعض من الفاعلين والمقررين في هذه "المركزية البشرية الغربية" يتناسون ان هناك مخلوقات بشرية لازالت تعيش في "أطراف المركز"، لا زالت تعامل وفق منظور اخلاقي عنصري انهم: "كبقايا بشرية" و "امم قابلة للانقراض"، وافراد من اطراف المركز هم من "اشباه الكائنات البشرية". لقد مهدت لمثل هذه الافكار، الانتروبولوجيا العنصرية<sup>102</sup>. ولم يصل المستوى الاخلاقي للمركز في التعامل مع هذه "أشباه الكائنات البشرية" الى مستوى حقوق الحيوان التي يطالبون بتحقيقها. وعندما تحدد الاطراف الدولية شروط الحفاظ على البيئة في بلدان خارج المركز فان الاهتمامات ستنصب على المحميات الطبيعية: "حماية الموائل البرية وفي التطوير او الدفاع

101 - كاليكوت ج. بايرد، الاخلاق البيئية الباب الاول من كتاب الفلسفة البيئية تأليف نخبة من الكتاب،

تحرير كاكيل زيمرمان، مرجع سابق، ص 27.

102 - روز ستيفن وآخرين، علم الاحياء والايديولوجيا والطبيعة البشرية، عالم المعرفة، العدد 148، الكويت، ص 97، و 117، 286. الكويت، (1990).

عن الانواع المهددة من الانقراض"، اما البشر خارج تلك المحميات فلا يشكلون حتى جزء من سياج تلك الحماية.

والاغرب من ذلك ان اتهامات " بشر المركز" تحاول ادانة "بشر الاطراف" تتزايد عن تحميلهم المسؤولية الناجمة عن "ابادة حيوانات معينة، وانواع مختلفة من النباتات، وتغيير معالم الغابة الطبيعية، وقضايا اخرى تشمل إمتداد وتوسع التصحر، والرعي الجائر لبعض المناطق العشبية . واختلالات التوازن البيئي.. الخ.

### الحقل الثاني: الايكولوجيا الجذرية:

غالبا ما ترتبط بالحركة المضادة للثقافة السائدة، ويتفرع مناصروها في بمسائل: الايكولوجيا العميقة، والنسوية الايكولوجية والايكولوجيا الاجتماعية، اضافة الى فروع اخرى. ويعتبر الفلاسفة الجذريون انفسهم كذلك لسببين على الاقل:

- اولاً: لأنهم يزعمون ان تحليلاتهم تكشف عن الاصول الثقافية والسياسية والاجتماعية والمفهومية والموقفية للأزمة البيئية.

- ثانياً: لأنهم يحاجون بأنه، فقط، ثورة أو إنزياح ثقافي في النموذج الارشادي يمكن ان ينقذ كوكب الارض من الخراب البيئي. ومع انهم يعترفون ببعض الجهد الانساني المبذول من اجل التحكم بالتلويث الصناعي والمحافظة على البيئة، لكنهم ايضا يشخصون، رغم تبايناتهم في هذا المجال : (...أن أحد جذور هذه الجذور " في الازمة" هو المركزية البشرية، تلك النظرة التي ترى البشر وحدهم أصل ومقياس كل قيمة، فمثل هذه النظرة تولد غطرسة تدفع الناس الى التعامل مع الكائنات غير البشرية"المقصود هنا الحيوانات فقط"، على انها مجرد مواد خام مكونة لإشباع الحاجات والرغبات البشرية)<sup>103</sup> .

وفي رأينا ان هناك ثمة وهم متعمد في اعتبار مفهوم "المركزية البشرية"، أي وضع البشر على الارض ككتلة واحدة متساوية امام المسؤولية؛ لأن "المركزية البشرية الاوربية" تعاملت في سنوات الإستعمار مع "بشر الاطراف" أنهم مجرد مواد خام، تعكسها سنوات المتاجرة بالرقيق، والتحكم بأبناء المستعمرات في أعمال السخرة، سواء في بناء وتخريب طبيعة المستعمرات المفتوحة في "العالم الجديد" أو في بلدانهم بالذات واستخدامهم ككائنات بشرية، شبه عاقلة، للعمل في مستوطنات ومستعمرات الأوربيين الزراعية والصناعية.<sup>104</sup>

يعتقد العديد من مفكري النسوية الايكولوجية الى : (ان الجذر الرئيسي للازمة البيئية هو البطريركية"النظام الابوي": تلك البنية الاجتماعية الجائرة التي تسوغ استغلال النساء والطبيعة، اذ

<sup>103</sup> - زيمرمان مايكل ، الفلسفة البيئية، مرجع سابق، ص 19.  
<sup>104</sup> - راجع فصل الابداء التالي.

تعتبرهما في مرتبة أدنى من الرجال... وفي بعض الحالات، يشير مفكرو النسوية الايكولوجية الى ان التراتبية الجائرة عموما هي المسؤولة عن السلوك الاستغلالي، سواء كان هذا السلوك موجها نحو النساء والطبقات الدنيا او نحو الحيوانات او المنظومات البيئية<sup>105</sup>. ان تحميل هذا التيار النسوي الايكولوجي التراتبية الاجتماعية لجور الخراب، لا يعفي الطبقات المستغلة في المجتمعات الاوربية والغربية من الرجال والنساء على حد سواء في مجتمعات سمت نفسها بـ "مجتمعات الوفرة" من مأساة البيئة العالمية.

ان ما يعيب على الايكولوجيين الجذريين، رغم حماسهم الزائدة للحياة ولو كانت متجسدة بالحضور الحيواني وعافيته على الارض، لكن لا يمكن الاتفاق مع "سيلفان" في مَثَلِي "الناس الأخيرين" و"الانسان الأخير" في أن "الفئة القاعدية" للاحلاق الغربية التقليدية تتطابق حدودها مع فئة الكائنات البشرية، وبهذا فحسب منظور كاليكوت<sup>106</sup>، الذي يرى: ان تبني مصطلحات الحركة النسوية الليبرالية "الحركة التي سبقت النسوية الايكولوجية"، يعني ان النظرية الأخلاقية الغربية التقليدية مذنبه، بما سماه " الشوفينية البشرية" [اضافة الى الذكورية]؛ لذا فان المشكلة النظرية الرئيسية التي يبسطها "ريتشارد سيلفان" "روتلي آنذاك" أمام الفلاسفة الذين يرغبون بالإستجابة للتحدي الذي طرحه تتمثل في كيفية توسيع الفئة القاعدية للأخلاق، بحيث تشمل الكائنات غير البشرية الى جانب البشر<sup>107</sup>.

ويذهب "بيتر سينغر" في مقالته: (كل الحيوانات متساوية، محاولة منه للانكباب على المشكلة الفلسفية التي بسطها سيلفان.) على الرغم ان "سينغر" لم يكن يرد بالتفصيل على دعوى "سيلفان"، ففي الفلسفة الخلقية الغربية التقليدية لم تكن قضايا مثل "الشوفينية البشرية"، او ما يدعوه "ريتشارد رايدر" (اللدان كانا مغرمين بمصطلحات وبلاغة الحركة النسوية المعاصرة)، مثل "النوعانية **Speciesm**" على غرار "الجنسية **Sexism**".

"النوعانية **Speciesm**" تعني التحيز الى احد الانواع الحية "الانسان هنا"، وتفضيله على الانواع الاخرى موضع جزم ساذج من غير دفاع. لقد انفق الفلاسفة الخلقيون من افلاطون الى راؤول جهدا كبيرا لتفسير ما يجعل الكائنات البشرية ذات خصوصية، وما الذي يجعلنا وحدنا جديرين بالمعاملة الخلقية. يستغل "سينغر" هذه السمة المنتشرة في كامل نسيج الفلسفة الخلقية الغربية الكلاسيكية لي طرح المعضلة التالية: (على أي أخلاق شوفينية بشرية).

105 - مايكل زيمرمان، " الفلسفة البيئية"، مرجع سابق، ص 18.

106 - كاليكوت بايرد ج.، "الأخلاق البيئية" الباب الاول من كتاب "الفلسفة البيئية" تأليف نخبة من الكتاب،

تحرير كايكل زيمرمان، مرجع سابق، ص 28

107 - كاليكوت بايرد ، مرجع سابق، ص 28.

### الحقل الثالث : الاصلاحية المتمركزة بشريا:

يرى ان جذر المشكلات لا يكمن في المركزية البشرية، ولا المعايير البطريركية "النظام الابوي" أو التراتبية الاجتماعية، ولا في المؤسسات والممارسات المجسدة لها، ولا في الوهن الخلفي الذي يمنح الناس من تمييز الاعتبارات الخلقية أو القيمة الاصلية للكائنات غير البشرية؛ بل ان قضايا التلويث والاستخدام المسرف للموارد، والممارسات المؤذية بيئيا تنبع من السلوك الجاهل والجشع، وغير الشرعي والقليل البصيرة. ويمكن كبح مثل هذه الممارسات الحمقاء، الملامة خُفيا، عبر تشريعات وتغيير السياسة العامة وزيادة التعليم... والتأكيد على الالزامات الخلقية نحو الاجيال المستقبلية، وتشجيع الادارة الحكيمة للطبيعة.

ان أي فلسفة تتجاهل تحديد مسؤوليات الفاعلين على مسرح الحياة والكون، انما هي ميتافيزيقا حاملة - او يوتوبيا فاضلة. اما الواقع فإن مساره لازال محفوا بالمخاطر، لكن إعادة قراءة المقاربات التي بذلها فلاسفة وعلماء عن الاخلاق البيئية تبقى تذكرة يشكل تراكمها اداة فعل منتظر، كلما تحسنا مصيرنا ومنعنا اللعب بهذا المصير.

### 3-6-3: بيئات الإنسان الثالث : هل من اخضرار للفلسفة البيئية؟:

منذ اربعة عقود كان اغلب الفلاسفة الانجلو- اميريكيين يدرسون الابستمولوجيا واللسانيات و"الميتا اخلاق" ، بينما كان الفلاسفة الامريكيون يدرسون الفلسفة الاوربية ويركزون اهتمامهم على الفينومينولوجيا والوجودية. ولم يعتد فلاسفة ما بعد الحرب، خلافا لفلاسفة حقبة ما قبل الحرب العالمية الثانية، البحث والتدريس في القضايا السياسية او الاجتماعية او الثقافية الرئيسية. لكن عقدي الستينيات والسبعينيات ادخل افكار "الثورة الثقافية المضادة" وبضمنها "الحركة المعارضة للحرب" اضافة الى حركات الحقوق المدنية، وحركة النساء، والحركة البيئية. وشكلت افكار الحركات البيئية اسئلة تجاوزت علاقة البشر بالطبيعة الى اسئلة الوجود البشري وجدواه في ظل اجواء التسلح والحرب والابادة وتدمير البيئة. وشكل كتاب راشل كارسون **Rachel Carson** المعنون " الربيع الصامت" **Silent Spring** الصادر عام 1962، المحفز للحركة البيئية التي اجتاحت العالم ، كما ان تأكيدات كارسون حول الاستخدام الواسع للمبيدات لا يقتل ملايين العصافير المحببة في كتابها "الربيع الصامت" بل يشكل مع ما سواه من الاسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية التبشير بخريف الاحتضار النهائي للانسانية.

نشأت الايكولوجيا " علم البيئة" في أواخر القرن التاسع عشر في سياق التشعب المتزايد للتخصصات العلمية. وقد اشتق إرنست هيكل **Ernest Haeckle** المصطلح من الكلمة اليونانية **Oikos** "منزل الاسرة" ونقل دلالتها الى كوكب الارض باعتباره منزلنا نحن البشر، وكان المصطلح يشير الى هذا الميدان الجديد من البحث البيولوجي الذي يتناول العلاقات التي تربط

عناصر الارض. وحاليا تعرف الايكولوجيا : بأنها العلم الذي يدرس العلاقات المتبادلة بين الكائنات الحية والبيئة التي نعيش فيها<sup>108</sup>.

يرى "ألكساندر كنج" : ان الفرد يعيش في الوقت نفسه في بيئات منفصلة لكنها متفاعلة:  
البيئة الخارجية : هي بيئة الطبيعة الجسمانية، و البيئة الأبطن: فهي بيئة الحياة السرية للفرد وحسب. بذلك تُرى خصائص الأمم والمجتمعات كإسقاطات للخواص الأناثية للفرد. ويشار إلى أن مستقبل البشرية لا يمكن ضمانه إلا بتربية تضامن إنساني كلي بوصفه تنوراً مشتركاً للاهتمام بالذات<sup>109</sup>.

لهذا نُحتت كلمة "إيكولوجيا" في الأصل لوصف ذلك الفرع من العلوم البيولوجية الذي يستقصي علاقات العضويات بعضها مع بعض ومع ما يحيط بها. أما اليوم فيستعمل المصطلح في الدارج من الكلام، وفي وسائل الإعلام، بمعانٍ متنوعة، مبهمة غالباً، وتكاد تكون دائماً محمّلة بالقيمة. وقد ارتبط تطور مفهوم ومنظور الايكولوجيا بنشوء وتطور نظرية المنظومات العامة، التي يتلخص مبدؤها الاساسي في القول الشهير: "الكل اكثر من مجموع اجزائه المكونة له"، نظراً لأن ميزته الاساسية: هي علاقات التفاعل بين مكوناته المختلفة<sup>110</sup>.

ويبدو ان موضع تركيز الايكولوجيا هو العلاقات، ومن خلال هذا المنظور ترى ان الازمة البيئية تعبر عن خلل(اضطراب، تصدع، تخرب، ودمار) في العلاقات الداخلية للنطاق الايكولوجي. ويكاد يجمع الباحثون اليوم على ان منشأ الخلل يعود الى الانسان نفسه بكونه انه بات مشكلة البيئة. ان الواقع الذي تدرسه الايكولوجيا، أي المنظومات البيئية، يتسم بالتعقيد لأنه يشمل العلاقات المتبادلة بين ثلاثة مستويات متداخلة:

- المستوى المادي "العناصر المادية في الطبيعة".

- المستوى الحي "الكائنات الحية".

- مستوى الانسان الذي انبثق بالتوازي مع ما يسمى عصر الانسان Age of man ، أي الفترة الزمنية من تاريخ الارض التي ساد فيها الانسان، وهي تمثل الدور الجيولوجي الحالي منذ حوالي مليوني سنة وحتى الان. وارتباطاً مع تعقيد الواقع الايكولوجي مر التفكير في الازمة البيئية، سعياً في سبيل فهمها، ودرءاً لعواقبها، بثلاث مراحل: اخضرار العلوم، واخضرار الدراسات الاجتماعية، واخضرار الفلسفة<sup>111</sup>.

108- زيمرمان مايكل ، الفلسفة البيئية، ج1، سلسلة عالم المعرفة، ، ص 1. الكويت، اكتوبر 2006

109 - كنج، أ المجلة الدولية حول وحدة العلوم، ص 59، 1991.

110 - مايكل زيمرمان، مرجع سابق ، ص 1.

111- زيمرمان مايكل ، الفلسفة البيئية، المرجع السابق، ص 8.

وفي المرحلة الثالثة، اخضرار الفلسفة، يعني وجوب مطلب جديد يجدر بالفلسفة ان تتعهد به وتخضر به لايجاد مفهوم موحد يمتلك القدرة على تركيب هذه المعارف الجزئية في حقيقة قابلة للتأمل والفهم، وبالتالي للنقد، بكل ما يحمله من احتمالات. ولعل مفهوم النظرة الى العالم **world view** قادر على تجسيد هذا المسعى، فهو مفهوم خصب يشمل عناصر التجربة المعرفية والقيمية وما يرافقها من ممارسات ومواقف إزاء انفسنا وإزاء الآخرين من البشر أو غير البشر، أفراد المجتمع والكائنات الحية والطبيعة عموماً.

ويكون في صميم الفلسفة البيئية ربط الازمة البيئية بالنظرة الحديثة الى العالم التي حدثت في إطارها، أي محاولة ربطها تحديداً بالنظرة الحديثة الى العالم التي نشأت وهيمنت في الغرب الاوروبي وامتدت تأثيراتها الى بقية انحاء العالم، وشكلت في الوقت نفسه نواة الحضارة الحديثة "والمعاصرة" وانماط التحضر والاجتماع والتمدن التي نشرتها في العالم. وان فهم اصول الازمة البيئية الراهنة، يمر عبر نقد هذه النظرة، وهذا يتطلب العودة الى اللحظة الفلسفية التأسيسية للعصور الحديثة، أي بالضبط الى ديكرت والقسم الثنائية التي أقامها بين جوهرين: الأنا المفكر، والمادة الممتدة. وتلك الثنائية فرخت لها ثنائيات وضعت الأنا مقابل العالم والإنسان مقابل الطبيعة والذات مقابل الموضوع. فإثبات الأنا لوجوده، كجوهر مفكر متقوم بذاته، عنى في الوقت نفسه فصلاً واستقلالاً له عن العالم/ الطبيعة؛ وهذا ما شكل الخروج الثاني للإنسان على الطبيعة بعد الخروج الأول الذي دفعته اليه قواه البيولوجية التي اكتسبها في سياق التطور<sup>112</sup>.

غالبا ما تعد الفلسفة البيئية متطابقة مع الاخلاق البيئية، أي كجهد في سبيل فحص نقدي لفكرة: ان الطبيعة تمتلك قيمة أصلية، وكبحث في امكان وجود واجبات خلقية على البشر فيما بينهم وبين الكائنات الحية التي تعيش في محيطهم.

بعيد نشر تقرير "حدود النموّ في عام 1972"،<sup>113</sup> جرت سلسلة من المناقشات حول ما اصطلح على تسميته بـ "الحدود الخارجية" **The Outer Limits**، وتحديد المدى الذي كان بوسع النطاق الإيكولوجي **Ecosphere** أن يبلغه في توفير المتطلبات المتزايدة لسكان العالم والنمو الاقتصادي. ومن ثم دعت الحاجة إلى مفهوم "الحدود الداخلية" **The Inner Limits**، قدرة تنظيمنا وابتكارنا الاجتماعي والسياسي على الإحاطة بالوضع المتطور للتعقيد المتنامي والتغير السريع بكل ما يولدان من انعدام اليقينيّات. من أجل هذين النطاقين الواجب استكشافهما، هنالك أولوية لتركيز الانتباه على استقصاء "الحدود الداخلية القصوى" **The Innermost Limits** داخل كل فرد بشري، التي من شأنها أخيراً أن تعيّن الأداء البشري الجمعي ومستقبل المجتمع والكوكب.

<sup>112</sup> - زيمرمان مايكل ، الفلسفة البيئية، ج1، مرجع سابق، ص 10.  
<sup>113</sup> - Alexander King, **The Limits of Growth**، مرجع سابق.

إن اهتمام الجمهور العام بتدهور البيئة إهتمام جديد نسبياً. لقد كانت لدى الآباء الأولين للثورة الصناعية رؤيا عن القضاء على الفقر وعن العدالة الاجتماعية الشاملة، لكن المستغلين في مآل الأمر، هم الذين تسلّموا مقاليد الأمور بدون اعتبار يذكر للبيئة وللصالح الاجتماعي، مما نجم عنه ظهور "الطواحين الشيطانية القاتمة" لإنكلترا الفيكتورية وسحائب "حساء البازلاء" اللندنية. كانت هذه ظواهر محلية نسبياً، وعلى مدى القرن التالي أدت البيّنات الطبية والضرر العام إلى تحسينات لا يستهان بها، لكن ظواهر التلوث لم تُعتَبَر من الجميع شاملة من حيث مغزاها ومهدّدة للمستقبل قبل ستينيات القرن العشرين. عندما لفتت منشورات مثل كتاب "راشيل كارسون" (الربيع الصامت) وكتاب (شوماخر الصغير)، الانتباه الشعبي، وساعدت على توسيع إدراك الناس أن مقاربات جديدة للتكنولوجيا وللطبيعة باتت ضرورية.

نتجت تحسينات عديدة، بالطبع، من بروز الحركات البيئية والمحافظة؛ ففي الدول المصنّعة، برزت سياسات بيئية ووزراء بيئة : ساعد التشريع على إزالة المظاهر الأكثر فظاظة للتلوث، وأقنعت مبادئ من نحو "الملوث هو الذي يدفع" في الصناعة بالحاجة إلى تحمل مسؤولية اجتماعية جديدة، وتم تنظيف بعض الأنهار، بينما صارت مجموعات محلية في كل مكان متيقظة فيما يخص التّمنيات التي قد تهدد البيئة، تارة بحس مشترك عظيم، وطوراً بتعصب أعمى.

وقد برز وضع جديد أصعب، نتيجة ظهور "التلويث الكبير" **Macropollution**، وظواهر ذات مغزى شامل، أعصى من أن تقدر الأمم على إزالتها منفردة. كان أولها الانتشار في العالم بأسره لكيميائيات من نحو المبيدات الحشرية مثل **DDT**، التي هي في الواقع غير متحلّلة بيولوجياً، ويمكن أن تدخل ضمن السلسلة الغذائية. في مثل هذه الحالات يمكن تأمين الإزالة، من حيث المبدأ، بالعديد من التشريعات، لكن هذه سيرورة تبدو بطيئة ومعقدة.

وفي الوقت الحاضر، يُعتَبَر المطر الحامضي، وتدمير طبقة الأوزون، والأثر المسمى بأثر البيت الأخضر **Green House Effect** الأمثلة الثلاثة الأكثر إلحاحاً على التلويث الكبير. كما لوحظ أن تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو ظل بازدياد منذ بداية القرن. وهذا يعود جزئياً إلى حرق الوقود الأحفوري، الفحم الحجري، النفط، إلخ، وجزئياً إلى انخفاض امتصاص الطبيعة لثاني أكسيد الكربون عبر الورقة الخضراء من جراء القطع الواسع للغابات المدارية، وهو تدهور بيئي ذو عواقب مناخية ممكنة. إن ثاني أكسيد الكربون يمنع انعكاس الإشعاع الشمسي إلى الفضاء الخارجي، وهذا يؤثر على حرارة سطح الأرض. ويُعتَبَر أن المزيد من تراكم هذا الغاز سوف يفضي إلى ارتفاع محسوس في حرارة الأرض. ويشير عدد من النماذج المختلفة والمعقدة أن ازدياد المحتوى الحالي للجو من ثاني أكسيد الكربون بمقدار الضعف سوف ينجم عنه ارتفاع في الحرارة الإجمالية بين (1.5% - 4.5%) درجة، وأن التوقعات تشير إلى بلوغ الضعفين هذا قبل منتصف

القرن القادم، زد على ذلك أنه قد تبين مؤخراً أن غازات أخرى، مثل الميثان وأكاسيد الآزوت باتت هي الأخرى تُبدي تراكيز متزايدة في الجو؛ الأمر الذي سوف يعجل كثيراً في حدوث النتيجة المتوقعة.

تترتب على هذا السيناريوهات ، المحتملة، إنما غير المؤكد، عواقب هائلة على الكوكب – بشرية، اقتصادية، وسياسية. فإذا سُمح له أن يبلغ أبعاد التأزم، فلا مفرّ من أن يصير غير قابل للعكس في الممارسة، إذ لقد قُدّر بأنه إذا تمّ إيقاف كل حرق للوقود الأحفوري عند نقطة تضاعف تركيز ثاني أكسيد الكربون مرتين، فسوف تستغرق الطبيعة حوالي 900 سنة لإعادة التوازن الحالي إلى نصابه. كل هذا يوضح صعوبة التخطيط في حالة الارتياح، التي يتزايد احتمال مواجهتنا لها باطراد.

**3-7: الإنسان والتكنولوجيا والمجتمع المادي:** أما البيئة الثانية، الداخلية التي تفتتت بالأولى، وقد بدأت بتعريض وجودها المدعوم كقاعدة للموارد. لقد صرح دنيس غابور، مخترع الهولوجرافيا الحائز على جائزة نوبل، وواحد من أوائل أعضاء نادي روما: "إن مجتمعنا الحالي قائم مادياً على تكنولوجيا هائلة النجاح وروحياً على لاشيء عملياً."

الاعتراف بأن للتكنولوجيا دور حاسم في التنمية العالمية، أمر حديث العهد تماماً، حتى إن المنظومة الاقتصادية التي تعتمد اعتماداً هائلاً على الحلول التكنولوجية للمشكلات لم توطن نفسها عليها تماماً بعد. إذ مازال العديد من الاقتصاديين يعتقدون ضمناً أن التكنولوجيا الجديدة تبرز كجواب على التفاعل بين القوى الاقتصادية، وأنها، إذا جاز التعبير، واحدة من العضلات في ذراع يد "آدم سميث" الخفية. هناك، بالطبع، شيء من الحقيقة في هذا؛ بيد أن عدداً متزايداً من التنميات التكنولوجية نشأ عن الاكتشافات في مختبرات البحث التي ما كان بالإمكان التنبؤ بها ولا ترتبط بمتطلبات المستهلك المعلنة. فمنذ بداية التاريخ البشري، مع الأدوات الصوانية الأولى، ظلت التكنولوجيا العامل الرئيسي في الكفاح صعوداً من البقاء، وحتى بوضوح أكبر، في بلوغ التفوق في الحرب والغزو. ينبغي أن نعتبر التكنولوجيا، إذن، كأداة من أدوات الإنسان، وليس كقوة مستقلة. واليوم بنتنا نشهد الذهن والذاكرة، في ثورة الميكروإلكترونيات والمعلومات، يندمجان في بنية الآلة، يترافق ذلك بإمكانية عظيمة للتححرر من العمل أو، على غير ذلك، بخطوة إضافية نحو سحق الإنسان، بحسب ما تكون عليه حكمتنا في استعمالها.

الأدلة على أي زيادة في الحكمة الإنسانية عبر الأربعة آلاف سنة الأخيرة قليلة للغاية، بينما تتطلب سعة المجتمع المعاصر وتعقيده بصائر جديدة ومحاكمة ثاقبة في قيادة مصير البشرية. لدينا فائض رهيب من المعلومات وكذلك من المعرفة، لكن علينا أن نسأل، مع "ت. س. إليوت" : ( أين المعرفة التي ضاعت في المعلومات وأين الحكمة التي ضاعت في المعرفة؟).

يبدو إذن أن جسم المجتمع مختل التوازن – إذ إن عناصره العاطفية، والروحية، وحتى العقلية، يطغى عليها وزر النجاح المادي – وأن التأسيس لتوازن صحي لا يمكن أن يأتي إلا من فهم أعمق لطبيعة الكائن البشري الفرد، من إدراك تام لدوافعنا، قبول مخلص لمكوناتها السلبية والإيجابية، وإنشاء قاعدة لنموّ الحكمة والإبداع.

إن محاولات نزع السلاح، على سبيل المثال، على ضرورتها العاجلة، لا يمكن أن تقضي على الحرب قضاء مبرماً، إلى أن نفهم أسباب الحرب الكامنة في كل منّا. تتجلى على نحو ثابت في السلوك الأناني ضد اجتماعي، في القسوة، في التعطش إلى السلطة، في استغلال الآخرين والسيطرة عليهم. والصراع بين الأوجه الإيجابية والسلبية للأنانية هو الدراما الفلوسوفية الأبدية، وتحقيق توازن دينامي بين الجانبين هو الغاية المركزية للسياسة الاجتماعية – إذ إن إعطاء هامش أوسع مما يجب لنشاط القوى الأنانية قد ينتج مجتمعاً دينامياً، لكنه قد يؤدي إلى الفساد، ونقص العدالة الاجتماعية، والاستبداد.

إننا مسكونون بأصولنا البيولوجية. لقد لعبت الأوجه السلبية لطبيعتنا، التي يصعب علينا أن نعترف بها لأنفسنا، بما فيها الجشع، والغرور، والغضب، والخوف، والكرهية، وكذلك، عبر السيرورة المضنية للتطور العضوي، دوراً لا يستهان به في تحقيقنا السيطرة على أنواع الخليقة الأخرى كلها وعلى الأجناس البشرية الأضعف للإنسان العاقل *Homo Sapiens*.

لقد ظل الأفراد قرونًا طويلاً يحاسبون أنفسهم، رغبة في الجنة ورهبة من النار، إنما، مع فقدان الواسع الانتشار للإيمان بالدين، وكذلك بالأيديولوجيات والنظم السياسية، تبخرت الروادع، وباتت الأقليات ترفض الأخذ بقرار الأكثرية، وهناك فقدان لاحترام القانون يترافق بتصاعد للإرهاب والجريمة. هذه السمات، مطروحة من المستوى الفردي على المستوى الجمعي، تفعل فعلها في البيئة الاجتماعية سواء بسواء.

### 3-7: الموقف الأخلاقي في البحث العلمي لأسلحة الدمار الشامل والابادة والحرب :

طرحت قضايا اسلحة الدمار الشامل جدلا سياسيا وعلميا واستراتيجيا واسعا ومتجددا. وهي في الوقت نفسه تشهد اهتمامات غير مألوفة مرتبطة بالمشكلات الفلسفية التي تشتمل ضمن اهتمامات فلسفة الاخلاق بجوانبها المتعلقة بأخلاقيات البحث العلمي ذاتها.

هذه القضايا لم تعد مطروقة ضمن نطاق التخصص المعين للعلم واخلاقياته وتطبيقاته التقانية في مجال التسلح والحرب والصناعات الحربية؛ بل انها بدأت تتسع نحو شمول موضوعات الحرب والابادة والعنصرية والدوافع الكامنة وراء الانتقام وتوسيع دائرتها او حصرها حسب ما هو مطلوب من السلاح من انجاز للمهام الموكولة له في الزمان والمكان المعين.

ومن البديهي سيرى البعض ان الموضوع له اتصال باصحاب الثقافات المتباينة وقد لا يكون له اتصال مباشر بميدان الفلسفة وحدها. لكننا نرى ان الاهتمام بموضوع اسلحة الدمار الشامل وما ارتبط بها من علوم وتطبيقات فيزيائية وكيميائية وبيولوجية باتت تشكل اخطارا؛ بل تسعى لآبادة الجنس البشري، فان تسليط الموقف الفلسفي من منظوره الاخلاقي سيفيد كل من العلم والفلسفة معا. ولم تعد الفلسفة موضوعا للتأمل الفكري عند الفلاسفة بل مبحثا عضويا عند العلماء والتقنيين ايضا. ان هذا المبحث لا يهدف في فصوله الى تقديم او إعادة كتابة، أو عرض المذاهب الفلسفية المتعلقة بالاخلاق، وخاصة الفلسفة في جوانبها الاخلاقية العملية، ولا تقديم تصورات، او شروح علمية، صرفة لحقول العلم التطبيقي للفيزياء والكيمياء والبيولوجيا في مجال اسلحة الدمار الشامل في مجالاتها وأسلحتها[الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية]، وانما سيعرضها، بقدر من الضرورة التوضيحية، لأجل عرض نقدها وتوجهاتها التدميرية للانسان وأثارها السلبية على المستقبل والمصير الانساني والبيئة وموقف الباحث منها علميا وفلسفيا.

وبقناعة تامة ان طرح الموقف الاخلاقي من الفلسفة ونقدها للعلم، وللعلم ونقده، تتطلب الموضوعية، بمعنى "النسبية الفلسفية"، وهذه النسبية الفلسفية، في موضوع الاخلاق؛ بقدر ماهي مؤمنة بأن الحقيقة كلها نسبية، فان العلم المعاصر قد اعتمد النسبية طريقا لتلمس اكتشاف الحقائق الكونية او محاولة تعميمها.

وفي كلتا الحالتين فان الموضوعية هنا ، ما بين الطرح الفلسفي والعلمي، تتطلب صبرا للوصول الى اعتماد معايير فلسفية وعلمية صارمة، قدر المستطاع، معا في النقد العلمي والفلسفي. نعتزف أن إشكالية التوافق في استخدام المعايير النقدية للفلسفة والعلم في مثل هذا الموضوع تبقى معقدة ما بين طروحات الفكر الفلسفي ومصطلحاته واغراءاته في الكلام المجازي وتأويلاته اللفظية واللغوية، وما بين الاسلوب العلمي وكتابته، بما وصل اليه العلم من دقة وإحكام في استخدام المفاهيم والمصطلحات.

إن العالم المدرب على استخدام ألفاظه بطريقة يكون لكل جملة فيها معنى محدد. وان عباراته تصاغ بحيث يكون في وسعه دائما أن يثبت صوابها، ولا يضيره ان يكون البرهان منطويا على سلاسل فكرية طويلة، فهو لا يخشى التفكير المجرد، ولكنه يشترط ان يرتبط التفكير المجرد، على نحو ما، بما تراه عينه وتسمعه أذنه وتلمسه أصابعه.<sup>114</sup>

<sup>114</sup> ريشنباخ هانز "، مرجع سابق، الفصل السابع، ص 17.

## الفصل الرابع

### 4 - آفاق العلم ومشكلاته

#### عصر المعرفة

#### الوحدة والفصل بين الفلسفة والعلم

##### 1-4: مدخل:

ترد في سياقات هذا الفصل والكتاب كلمات مثل: العلم والعلوم والمعرفة وغيرها من المصطلحات والمفاهيم ذات الصلة بموضوعات العلم الحقيقي. ولأن هناك " علوم مزعومة"، رغم انها جزء من الفروع المعرفية، لكن قد لا تتوافر فيها بعض السمات التي تتوفر في العلم الحقيقي، لهذا لا بد من التأكيد على تحديد تعريف العلم، ولا بد من التنبه هنا ان هناك العديد من العوامل وراء الصعوبات التي حالت دون اتفاق الفلاسفة على تعريف محدد للعلم، وتتمثل إحدى هذه الصعوبات في كون العلم نشاطا فكريا ومادة معرفية في وقت واحد.

ومعظم الفلاسفة اليوم يركزون، في تعريفهم للعلم، على الشق الأول ممثلا فيما يجربه العلماء من استطلاعات وشروح واختبارات، بينما يركز فلاسفة آخرون على الشق الثاني فيعرفون العلم بأنه: (تنظيم المعارف وتصنيفها على أسس إيضاحية).

ويرى باحثون معاصرون: ان التركيز على جمع البيانات وتكديس المعلومات هو من مخلفات الأيام الأولى من عصر الثورة العلمية، عندما كان الاستقراء هو الاسلوب السائد.

ان فلاسفة اليوم يكادون أن يجمعوا على أن الحقائق المجردة لا تكفي وحدها لتفسير شيء؛ بل انهم كثيراً ما يتجادلون حول ما إذا كان لهذه الحقائق وجود فعلي أصلا، ويتسائلون : (أو ليست كل الملاحظات تنطوي على نظريات؟)، وهم حتى في هذا التساؤل، لم يأتوا بجديد. فمنذ 1861 كتب "تشارلز داروين" : (ما أغرب أن يغيب عن البال انه إذا كانت للمشاهدات وظيفة فلا بد من أن تكون إما تأييدا لوجهة نظر معينة أو تنقيدا لها).

ومما لا شك فيه ان معظم الكتاب في استعمالهم كلمة "معرفة" لا يعنون الحقائق وحدها، بل يقصدون أيضا تفسير هذه الحقائق. ولعل استعمال كلمة "فهم" بدلا من كلمة "معرفة" يُزيل بعض

اللبس الذي يشوب المعنى الحقيقي المقصود، ومن ثم يُمكن من تحديد هدف العلم بأنه: (إحراز بعض التقدم في فهمنا للطبيعة). ويضيف بعض الفلاسفة جملة الى التعريف السابق مثل: (... عن طريق حل بعض القضايا العلمية)، كما أضاف آخرون في قولهم: (... إن أهداف العلم هي: الفهم والتنبؤ والضبط)، ان فهم العلم وضبطه سيكون لهما مراجعة أشمل في الفصول التالية لابد أن نشير بعجالة الى دور التنبؤ في كثير من فروع العلم الذي ما زال متواضعا جدا، كما ان مسألة "ضبط" هذه ليست واردة في كثير من العلوم غير التطبيقية<sup>1</sup>.

أما فيما يخص مسار تقدم التقنية فيبدو أن التنبؤ فيه أكثر صعوبة من مجالات العلم التطبيقية كاككتشافات الذرة وعلوم الحاسب وتكنولوجيا الفضاء والليزر والهندسة الوراثية. يرى "جاك أول" : ان الملمح العام لتطوراتها معروف خير المعرفة، رغم أن حقيقته التقنية بالغة الغموض، ان لم تكن مذهلة في واقع الامر. لقد حدثت ثورة ابتكارات في كل مجال، قدمت وبشكل متزايد أنواعا وطُرازا قوية متعددة الابعاد والاستخدامات من الاجهزة. وينسجم ذلك مع القانون الذي وضعه " جاك ألون" عام 1950، وهو تحديدا: ان التقنيات تتطور وفق متواليه هندسية.

يعترف " جاك ألون" أيضا عن تصوره الخاطئ الذي أعلنه عام 1977 في اعتقاده: (... أن الأمور إذا بلغت مرحلة معينة من الفعالية والاتفاق فلسوف تتجه صوب الاستقرار...) ، ويقول: (... كنت أعتقد ان فاعلية وسرعة الحاسب في ذلك الوقت ستكون كافية، ولن تكون هناك حاجة لمزيد من التقدم. وكنت مخطئا، فقد وجد العلماء أنهم بحاجة لأجهزة حاسب لإتمام الحسابات الجبارة المعقدة اللازمة للأبحاث الجديدة، وينطبق هذا على كافة مجالات الابتكار التي أوردتها أنفا" علوم الذرة والحاسب وتكنولوجيا الفضاء والليزر والهندسة الوراثية" ). وإذا كان الحاسب قد خلف الذرة في مجال التفوق والسيادة، وهو يتطلب دراسات جديدة لتقنياته، لكن مجالات الليزر والهندسة الوراثية وتكنولوجيا الفضاء هي الاخرى تنافس الحاسب في الأهمية<sup>2</sup>.

وإذا كانت الحقيقة ضالة رجل العلم كما يقال، ولكن كثيرا ممن ليسوا من العلميين يزعمون انهم يبحثون عن الحقيقة، لذا يتوجب وضع الحدود الفاصلة بين مجالات ينشط فيها مثل رجال الدين، والساسة، والشعراء، والفلاسفة واهتمامات رجل العلم.

كما يشير الرهان عند البحث عن الحقيقة الى إدراك المخاطر والاستعداد للتخلي بالجرأة، فالعلم هو الاخر يتعرض للمخاطر في كل رهان. وعلى حد قول " مورين Mirin " :

( ... إن لعبة الحقيقة تنطوي على مخاطر، كما هي لعبة الديمقراطية ايضا التي تنطوي على مخاطر، وكذلك لعبة الثورة، كما ان تأدية تلك الألعاب مجتمعة ينطوي على مخاطر جملة. ان

<sup>1</sup>- ماير أرنست، هذا هو علم البيولوجيا ، سلسلة عالم المعرفة العدد 277، ص 42. الكويت، (2006).  
و أيلول جاك ، خدعة التكنولوجيا، الاعمال العلمية، مكتبة الاسرة، القاهرة، ص 8، (2004).  
<sup>2</sup>- أيلول جاك ، المرجع السابق ، ص 8.

الاستجابة للتحديات التي يفرضها عالم مضطرب ومتحرك هي سمة من سمات العلماء، لان العلم لا يتعامل مع التطور بكونه مسألة سلطة أو قوة، بل حسن تقدير وحكمة قرار وجرأة.

وإذا ما إكتشف العلم حدوث أخطاء في تقديراته فان أهم سمة لديه هو مكافحة الخطأ وتصويب الافكار. وربما يرى البعض في مصطلح المخاطرة stake مصطلحا غامضا، لكنه يعني اولا ان كل شئ ما هو الالعبة الى حد ما، وليس لجديتها حد نهائي، وأي لعبة نلعبها لا تعتمد على مهارتنا او معرفتنا او قوتنا فقط؛ بل تعتمد ايضا على أشياء اخرى تعزى الى الصدفة المختصة مثلا. على العلماء ان يضعوا في الحسبان ان المشكلة في اللعب يجب ان لايبعد عن الازهان المخاطر وشئ من اليقين بالقدر الذي يضعونه في طاقة اللعب. كما ان حجم الانفاق من الطاقات والاموال يعتمد على جدية أو خطورة اللعبة، الالهم ان تدرك النخب الابعاد التي يمكن عندها عدم السيطرة على اللعبة و إلا فسنخسر كل شئ أو نربح كل شئ.

ان العنصر الاساسي هنا، هو ان يرى العلماء بوضوح، ليس قواعد اللعبة فحسب؛ بل مايقررونه عند المخاطرة استجابة لتحد ما.

لكل مجال نخبته، ونخبة العلم لها مميزاتها، واذا كان من الممكن الفصل بين العلم واللاهوت؛ فان الفصل بين العلم والفلسفة يكون أصعب، وهو أحد أسباب التوتر بين العلماء والفلاسفة. وقد شهدت ذلك معظم سنوات القرن التاسع عشر. وقبل ذلك، ظل العلم والفلسفة نشاطا فكريا واحدا، ثم بدأ الفصل بينهما في عصر الثورة العلمية؛ وإن كان أكثر من أسهموا في التقدم العلمي هم فلاسفة ايضا. كان من آخرهم أمثال "كانت"، و "ويليام وول" **William Whewell** و "ويليام هرشل" **William Herschel**، ثم جاء بعدهم مؤلفون بدأوا علماء ثم تحولوا الى الفلاسفة، ومنهم "ارنست ماخ" **Ernst Mach** و "هانز دريش" **Hans Driesch** وآخرين.

ان أهم ما يميز العلم عن الفلسفة: هو أن المهمة الأولى للعلم هي بالتأكد استكشاف الحقائق، اما فيما عداه فالمجال واسع للتداخل بينهما، فمعظم العلماء يعتبرون ان مهمتهم وضع الاسس والنظريات ورسم أطر العمل في الحقل العلمي.

صحيح أن توافر هذه الأركان هو ما يصنع العالم الحقيقي؛ ولكن كثيرا من فلاسفة العلم يرون ان هذه الأنشطة الفكرية تقع في دائرة الفلسفة أيضا، ومع ذلك اضطلع بها العلماء في العقود الاخيرة، بينما اشتغل نفر من الفلاسفة بدراسة بعض المفاهيم الأساسية التي أرساها العلماء.<sup>3</sup> لا خلاف بين العلماء والفلاسفة على ان الهدف النهائي للعلم هو تطوير فهمنا للحياة؛ فالمشتغل بالعلم يُثير الأسئلة حول كل مجهول وغامض، ثم يحاول الاجابة عنها. وتبدأ الاجابة عادة بما

<sup>3</sup> - ارنست ماير، مرجع سابق ، ص 53 .

يسمى "فرضا" أو "إحتمالا"، يُفيد كتفسير إستطلاعي، ولكننا غالبا نفسر ما يحيرنا في ضوء ما نعرفه أو نراه منطقيا.

منذ عصر الاغريق، حتى العصور الحديثة، كان الخلاف بين الفلاسفة مُنصبا على الكيفية التي يتم بها تفسير ما يحدث في العالم الطبيعي، ثم تمحيص هذا التفسير. ولقد حاول عشرات الفلاسفة صياغة أسس لتطوير فهمنا للعالم بغية الوصول الى الحقيقة، ومن هؤلاء "ديكارت" و "ليبنز" و "كانت" و "خرشلي" و "وي وول" و "ماخ" و "رسل" و "بوير" ومنهم ايضا "لوك" و "هيوم" و "ميل" و "جيفونز".

يتسائل بعض العلماء عما أن العديد من الفلاسفة كانوا يريدون توصيف مناهج العلم من وجهة نظر الفلسفة؟، ام كانوا يسعون الى "تعليم" العلماء بإرشادهم الى الطريقة التي يرونها صحيحة لعمل الاختبارات وصياغة التفسيرات الضرورية لكي تتوافر في أعمال العلماء اركان العلم الحقيقي؟.

يتسائل بعض العلماء ايضا: لو كان الاحتمال الثاني هو هدف الفلاسفة؟، ويجيبون: فما أقل مما حقق الفلاسفة حتى الان. إن تاريخ العلم لم يقدم لنا مثلا، أن بيولوجيا واحدا تأثر في وضع نظرياته بأي من المعايير التي يقترحها فلاسفة العلم؛ فالعلماء عادة يواصلون أبحاثهم من دون انتباه الى التفاصيل المنهجية، والاستثناء الوحيد هو "بوبر" في التزامه بأسلوب التخطيطة **Falsification** الذي نادرا ما ظهر في أعمال البيولوجيين، بالرغم من قبول بعضهم به من حيث المبدأ.

ان العاملين في الحقل الفلسفي من العلماء يعترفون بأن حواسنا غير معصومة، وطريقتنا في الاستقراء أكثر من حواسنا عرضة للخطأ، ولذا فان المهام المشروعة للفلسفة تمحيص الطرق التي يتبعها العلماء لإكتساب المعرفة، وإرشادهم الى أفضل الطرق لصياغة النظريات واختبارها، وهذا هو الشاغل الرئيسي لفكر العاملين في مجال فلسفة العلوم اليوم، وهو ما يسمى بنظرية المعرفة **.Epistemology**

ان الحدود الفاصلة بين العلم والإنسانيات، وكما يشير اليها "سنو" **C.P. Snow** في كتابه الشهير [ثقافتان]: إن الفجوة بين الفيزياء والإنسانيات هي بالفعل غير قابلة للردم؛ فببساطة، لا يوجد ممر يؤدي من الفيزياء الى علم الأخلاق أو غيره من اهتمامات المُشتغلين بالإنسانيات؛ مما ساعد في خلق جدار العزلة بين كلا المجالين. لكن "ارنست ماير" يرى: أن الامر يختلف بالنسبة لعلوم الحياة التي تتضمن فروعاً كثيرة وثيقة الصلة بالإنسانيات<sup>4</sup>. ان "الجفوة" بين العلم والإنسانيات كثيرا ما يتسبب فيها إخفاق العلماء في تقدير العنصر الإنساني وهم يجرون أبحاثهم؛ ولكن اللوم لا

<sup>4</sup> - ماير ارنست ، مرجع سابق. ص 54.

يقع بالكامل على أكتافهم؛ فالمشتغلون بالإنسانيات لم يوفّقوا أيضا في اكتساب الإلمام الكافي بالمنجزات العلمية في مجالات لا غنى لهم عنها، مثل البيولوجيا التطورية، والتطور البشري، وعلم السلوك. وهذا النقص واضح بصورة مخجلة في كتابات نفر من المشتغلين بالإنسانيات.

تبقى مشكلة الهوية المفاهيمية للعلم قضية جدل بين الفلاسفة والعلماء؛ خصوصا عند التوقف للإجابة على اسئلة عديدة منها : هل العلم عبارة عن مفهوم موحد؟. وقد سبق ان طُرحت صيغا عديدة منها ما فضلها رجال العلم الذين يدعمون الفكرة التي تقود الى المادية، والى "الارجاعية المادية" **Reductionnism Materialiste** التي ترى في هذه الصيغة " في آخر تحليل " اساساً للعلم. في نفس الوقت نجد رجال العلم من ذوي النزعة الفكرية الرياضية أو البنوية يرفضون جملةً كلاً من المادية والارجاعية. وفي نفس السياق يلح البيولوجيون من جهاتهم على التساؤل باستمرار عن إمكانية وجود ضرب من التفكير الحيوي الخاص، ومستوى من التحليل البيولوجي النوعي "أي الخاص بهم"، ولهذا فما كاد عالم الحشرات " أ. أ. ولسون " **E.O. Wilson** يُعلن عن برنامج جديد لتوحيد العلوم الطبيعية والإنسانية أو تنشيطه، حتى خرج بعض العلماء متمردين عن الإرجاعية، ومناهضين لفكرة أن " الكل هو حاصل أجزائه"، و ضد تلك المظاهر المعزولة في البيولوجيا الجزيئية.

ان أحلام الوحدة في التوحيد المفاهيمي، لم تحظ اليوم بإجماع رجال العلم. ويذهب الكثير منهم الى رفض كل تصريح "ميتا علمي". ويرون إنهم يركزون على ما يفعلون، أو يجربون أكثر مما يركزون على ما يقولون. ويتركون حقل "الميتا علم" للإجتماعيين والمؤرخين والفلاسفة، وهم ليسوا مرغمين بتاتا على قبول التنظيرات حول العلم من حولهم.

وفي المقابل إن المشتغلين في الفلسفة وتاريخ العلم واجتماع المعرفة ليسوا مُلزَمين بالإقرار إن رجال العلم يعرفون العلم أفضل منهم. وفي كل الحالات ينبغي احترام التخصص والخبرة العلمية الخاصة، وعدم الخوض في الهراءات لموضوعات يعرفها أصحاب الاختصاص العلمي الدقيق، ولا تتحمل التنظير، من دون معرفة معمقة خاصة في الكيمياء الحيوية النباتية المعاصرة والإكتشافات المتلاحقة في حقول العلوم التجريبية... وغيرها.

لا بد من فك الارتباط والتداخل الفكري والمعرفي عند بعض الدراسات الإنسانية التي تجد نفسها مرهقة، وهي تحاول فهم الاكتشافات المتتالية في العلوم الصرفة والدقيقة والتجريبية. إن احترام دقة الوقائع والانتظار لحسم النتائج واجب عند تناول تأثيرات العلم الاجتماعية.

ولا بد من حوار أعمق للمكاشفة والتمعن المشترك للنتائج المحصل عليها. فالعلوم في تقدمها المتسارع لا تحتاج في كل لحظة من يكتب لها ويفسر ويترجم مقاصدها الوصفية والتفسيرية. والعلم يطرح أدوات معرفية جديدة ستسهم في الارتقاء ببقية العلوم الإنسانية. وعندما يطرح العلماء

والمشتغلون في الحقل التجريبي أفكارا يضعها البعض في خانة "ألميتا علم"، لا بد من الاحتراز في تصنيفها في الخانة العلمية، وليست هي "العلم ذاته" لأن الاعتقادات العلمية الحقيقية تبقى دوما إشكالية معقدة وكما يقول ألبرت اينشتاين : (في معبد العلم، هناك أكثر من قبلة).

وفي كل الأحوال لازالت وحدة العلم من الموروث المنهجي لعصر الحداثة، وفكرة توحيد العلوم تحتفظ دوما بجاذبية لدى البعض، لكن رجال العلم، في الأغلب، لا يؤيدون مناهجاً، كتلك التي ترمي الى تحديد ماهية العلم او وضع تعريفا محدد له، يأخذ بنظر الاعتبار اهتمامات ومباحث العلوم الإنسانية.

إن كثيرا من المجالات والأنشطة الفكرية يمكن أن تكون صحيحة ومناسبة لعلم ما، لكن ليس للعلم ككل، لأنه بكل تأكيد لا توجد عبارة واحدة منسجمة ومتسقة يمكن أن تكون صحيحة ومناسبة لوضعها تعريفا عاما وشاملا للعلم.

إن المعارف والعلوم وضعت لها تحديداتها بالارتباط دوما مع السياق الذي وردت فيه؛ لذا لا بد من توفر "النسبية المنهجية" لدى المؤرخين وعلماء اجتماع المعرفة. كما أن "النظرة والنزعة الشكية" للحقائق المعروفة لدينا في كل لحظة، لا بد من ان تصاحبنا في البحث؛ كون أن العالم لازال معقدا وعصيا على الفهم المباشر.

كما ان البعد الاجتماعي للعلم يبقى ضروريا، في تأسيس العلم ذاته، بالإضافة إلى أن توفير الثقة هي الأخرى شرط ضروري لإنتاج المعرفة العلمية والحفاظ عليها وتضاعف تراكمها. البحث في الشروط الضرورية لكل أنواع المعرفة هو علم بحد ذاته، ولا يستلزم ذلك التمسك بماهية "أحادية العلم"، التي يمكن أن تنسحب على التخصص الدقيق ويحدده كعلم، مثل الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا... الخ. وسواء أخطأنا ام أصبنا فنحن ننظر يوميا ونأمل كل في زاويته الى انواع معرفية مختلفة يربطها الكون.

#### 4-2: بعض معايير النشاط الفكري كـ "علم":

سبق أن وضع "جون مور" John Moorر ثمانية معايير كمسوغات للاعتراف بأي نشاط

فكري كعلم وهي :

- 1- أن يكون أساسه بيانات ميدانية أو معملية، وكانت حصيلة مشاهدة أو تجربة.
- 2- أن يستهدف جمع البيانات الاجابة على أسئلة، وان تستهدف المشاهدات إزالة شك.
- 3- الالتزام بالموضوعية في المنهج والوسائل.
- 4- تمشي الفروض مع المشاهدات، وانسجامها مع فكرة البحث.
- 5- صلاحية جميع الفروض والاحتمالات، وتمحيص المتداخل منها بالمقارنة والمفاضلة.

- 6- صلاحية التعميمات للتطبيق على كل الموضوعات المتداخلة في نطاق العلم محل الدراسة، وان تكون الظواهر الشاذة قابلة للتفسير من دون تبريرات غيبية.
- 7- عدم التسليم بأي اكتشاف كحقيقة الا بعد تأكيده من عدة مصادر خارجية.
- 8- القدرة على تقديم حلول للمشاكل المحيرة، وإحلال نظريات صحيحة محل نظريات معيبة أو ناقصة، مما يؤدي الى التحسين المتنامي للمعرفة.
- وهكذا وضعت قائمة للعلوم منها الفيزياء والكيمياء و علم الحياة... وغيرها.

#### 3-4 : الجدل حول العلم و"ميتا العلم" :

غالبا ما كانت النزعات والأصوات المناهضة للعلم تأتي من خارج الحقل العلمي؛ خصوصا من طرف الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين، وحتى رجال الدين. لكن ومع التطور المثير الذي عرفته مختلف المباحث العلمية في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، خصوصا في مجال الفيزياء، ثم البيولوجيا بدرجة أقل، تحولت تلك النزعات والأصوات الى داخل الحقل العلمي نفسه. وتجلى ذلك في العديد من الآراء والكتابات، أعلنها علماء لامعون لا يمكن التشكيك في نزاهتهم، ولا في تكوينهم العلمي، تحدثوا عن أمور ميتافيزيقية تنتمي الى عالم اللامعقول وتتناقض مع العقلانية العلمية السائدة.

وهذه القضايا ناقشها "س . شابين" S. Shapin في مقالته المعنونة : ما معنى ان نكون مناهضين للعلم؟<sup>5</sup> . ان المناوشات بين الفريقين، وكما أطلق عليها "شابين" عبارة "حرب العلوم". إنطلاقا من تصوراته وإستنادا الى نشاطه العلمي من عالم وراثته، وتأثيره في تكوينه العلمي الى مؤرخ وعالم اجتماع، مهتما بالعلوم. وهو يشير في كتاباته الى ضرورة التمييز بين القضايا المتعلقة بالعلم"، وليست العلمية"، بمصطلح "ميتا علم" metascienc ، ويستند بذلك الى قائمة من المزاعم الميتاعلمية والأفكار المثيرة للجدل حول العلم، جمعها عن أحد عشر باحثا ورجل علم لامعين في القرن العشرين، منهم من حصل على جائزة نوبل، ومنهم من تخصص في نواحي علمية عميقة، كما تشير الهوامش المشاركة لهم في كل اختصاص مرفقة مع النصوص العائدة لهم منشورة في المراجع العلمية العالمية عند النصوص التالية:

- لا وجود لشيء يمكن تسميته " الطريقة العلمية". (عالم مناعي)<sup>6</sup> .

<sup>5</sup>- شابين، س. مامعنى ان نكون مناهضين للعلم، مجلة الحوار الفكري، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة العدد 1، ص 112-125.

<sup>6</sup>- Nombresuses sources , dont Peter B. Medawar (Immunologist), The Art of the Soluble, Mathuen, ,pp,132. Londers, (1957).

- تحيا العلوم الحالية يوما بعد آخر، وهي تشبه المضاربة في البورصة أكثر منها تقصيا للحقيقة حول العالم. (كيميائي حيوي)<sup>7</sup>.
- لن تصبح المعارف الجديدة جزء من العلم، إلا إذا أضيفت عليها صبغة اجتماعية. (انطولوجي وعالم اجتماع)<sup>8</sup>.
- لا نستطيع أن نعزو الظواهر المشاهدة الى حقيقة واقعية مستقلة بالمعنى الشائع في الفيزياء الا بالنسبة الى الملاحظ فقط. (فيزيائي)<sup>9</sup>.
- ان القاعدة المفاهيمية للفيزياء هي إبتكار حر من طرف الفكر البشري. (فيزيائي)<sup>10</sup>.
- إن رجال العلم لا يكتشفون النظام في الطبيعة، إنهم يضعونه (رياضياتي)<sup>11</sup>.
- إن العلم ليس أهلا لصفة الموضوعية الكاملة التي إشتهر بها عند الكثير من الناس (رياضياتي)<sup>12</sup>.
- ان صورة رجل العلم ذي الفكر المتفتح، والذي يقلب معطياته على أكثر من وجه هي مجرد هراء شائع (رياضياتي)<sup>13</sup>.
- تركز الفيزياء المعاصرة على عدة أسس اعتقادية باطنة (فيزيائي)<sup>14</sup>.
- ان المجتمع العلمي غالبا ما يتسامح مع بعض الخرافات التي تفتقر لأي أساس(تطور وراثي)<sup>15</sup>.

<sup>7</sup>.Erwin Chargaf(biochimiste) Heraclitaen

Fire:Sketches, From a Life before Nature,:The Rockefeller University Press, ,pp.138. New York , (1978).

<sup>8</sup>.Edward O. Wilson(entomologiste et sociologiste)Naturaliste ,Warner Book, ,pp.210 New York, (1995).

<sup>9</sup>.Niels Bohr,Niels Bohr s Times in Physics,Philosophy,and Polity, Clarendom Press, ,pp.314. Oxford,( 1991).

<sup>10</sup>. Albert Einstein (physicien) Out my Later Years ,Philosophical Library, ,pp.96 New York, (1950).

<sup>11</sup>. Jacob Bronpwski (mathmaticien) ,Science is Human,dans The Humanist Frame,Julian Huxley(2 ds) ,Harber and Brothers, ,pp.83-94. New York, (1991).

<sup>12</sup>. Warrner Weaver (mathmaticien et administrateur scientifique) , Science and People, dans Paul C. Obler et Herman A. Estrin(eds) ,The Scientist : Essays on the Methods and Values of Modern Science ,pp.95-111,citation p.104. Garden City Anchor, ( 1962).

<sup>13</sup>. Gunther Stent (biochimiste) , Interview dans Lewis Wolpert et Alison Richard, A Passion for Science, University Press, ,pp.116., Oxford, (1988).

Brian Petly (physicien),The Fundamental Physical Constants,: Adam Hilger, pp.2. Bristol, ( 1985).

<sup>14</sup>. Brian Petly (physicien),The Fundamental Physical Constants,Bristol: Adam Hilger,1985,pp.2.

<sup>15</sup>. Richard Lewontin(geneticienne ewolutionniste) , Billions and billions of demons, (voir ref.1) pp.2:

• في كل الحقب التاريخية، ما كان يعتبر تفسيراً علمياً مقبولاً ومعتمداً كان في آن واحد محدداً اجتماعياً ويؤدي وظيفة اجتماعية. (علم النفس).<sup>16</sup>.

عند التأمل في النصوص السابقة، مع معرفتنا أنها ليست آراء أو كتابات علماء اجتماع المعرفة نتوقع ردود الفعل إزاءها ستأتي من جانب العلم، كمؤسسة Institution، ترى فيها "كترهات خالصة"، يرميها الآخرون على العلم ومكانته. وتدفع إلى كثير من الجدل من جديد حول قضايا "مناهضة العلم" لإظهار الحقيقة حول "طبيعة العلم"<sup>17</sup>.

إن موضوع السجال حول تلك القضايا لم يحسم بعد تماماً، لأن أعضاء الأسرة العلمية يرون في كثير من مثل هذه السجلات فيما بينهم هي من باب النقد، ولا يعتبرون الأفكار المتداولة عن هذا العالم أو ذاك تُؤسس إلى تحديد صفة من صفات العلم، ووضعها تحت باب مفهوم "ميتا علم" حتى وإن وافق مثل هذا المفهوم أفكار العاملين خارج المجالات العلمية.

وفي الحقيقة إن أعضاء الأسرة العلمية يواجهون صعوبة في إخفاء نزعة طبيعية خالصة في خطابهم حول العلم، وهم لم يصلوا إلى هذا الخطاب دفعة واحدة. وعليه فإن بعض علماء الاجتماع يدافع عن فكرة مفادها أن التصورات العلمية هي "إنشاءات اجتماعية". وهو ما يرى فيه بعض رجال العلم تضيقاً غير صريح يحصر العلم في مجرد "إنشاء اجتماعي"؛ إذ إن الزعم أن العلم ذو نشأة اجتماعية هو بالنسبة لهم طريقة في الحط من قيمة القضايا العلمية بالتشكيك في إمكانية تطابقها مع العالم الطبيعي. وعلى هذا يلح علماء اجتماع المعرفة، وخاصة منهم أعضاء مدرسة "إدمبورغ" Edimbourg الذين انتقدتهم بشدة "ستيفن وينبيرغ" وزملائه في عدة مناسبات على تنفيذ هذه الآراء واعتبارها محاكمة للنوايا، فقد كتب "دافيد بلور D. Bloor" مثلاً: (... كل معرفة اجتماعية متسقة تمتنع عن تقديم معارفنا الحالية على أنها وهم منفصل تماماً عن تجربتنا وعن العالم المحيط بنا)<sup>18</sup>. أما "باري بارنيز Barnes B" فيرى أنه: (... يوجد حقيقة وبالفعل "هنالك" عالم وحقيقة واقعية هما مصدرًا جميع إدراكاتنا الحسية).<sup>19</sup>

وفي سير التطور العلمي تطرح العديد من الأسئلة حول السيرورة العلمية ومنها: ماذا يفعل رجال العلم أنفسهم حين يهدمون نظرية علمية في ميدان علمي ما؟ هل يرجعونها إلى مجرد رغبة

<sup>16</sup>.Richard Lewontin, Steven Rose(neorobiologiste) et Leou J. Kamin, (psychologue),Not in our Genes: Biology,Ideology, and Human,Nature, , Pantheon, , pp.33. New York,( 1984).

<sup>17</sup> Shapin Steven, Etre ne pas être anti scientifique,La Recherche,no.319,( avril 1999).

<sup>18</sup>.David Bloor,Knowledge and Social Imagery,2<sup>nd</sup>,Chicago University of Chicago press, ,pp23, Chicago, (1991).

<sup>19</sup>.Barry Barnes.Interests and the Growth of Knowledge, ,Routledge et Kegan Paul, ,pp.25,26,:voiraussi Barry Barnes,,Realism,Relativism and Finitism,,dans Cognitive,Relativism and Social Science,Diedrick Raven, London,( 1977).

ذاتية، خالوها في فترة ما حقيقة واقعية، أم صيغة مواضعائية، أم مجرد إنشاء اجتماعي؟. إنهم بلا شك يفعلون ذلك من أجل ممارسة التفكير العلمي، ومن أجل تمييز الصواب من الخطأ في الميدان العلمي، ونادرا ما يفعلون ذلك تحت سلطة ما يمكن ان يسمى "نية انضباطية" والمتمثلة في وصف وتفسير طبيعة العلم من اجل العلم والمعرفة لا غير.

#### 4-4: تعددية العلماء وفلسفاتهم:

وفي المجال العلمي، رغم صورة الانضباط العالي التي تبدو على واجهته، ألا ان التعددية هي سمة العلماء في تصوراتهم حول واقع العلم، فبعضهم يرى في العلم مشروع واقعي، ويلح آخرون على إعتباره ممارسة فينومينولوجية أداتية وبراغماتية أو مواضعائية؛ إذ وعلى ضوء ذلك يعتبر "ماكس بلانك M. Planck" إن النزعة الراسخة : (.. في افتراض وجود عالم واقعي "بالمعنى الميتافيزيقي كمؤسسة" للعنصر الميتافيزيقي، لا تستطيع العلوم الدقيقة التخلص منه أبدا). ويذهب الكيميائي " ميكائيل بولاني M. Polanyi " الى نفس الرأي تقريبا.

وحسب رأي الفيزيائي "ج. روبير أوبنهايمر J. R. Oppenheimer" : فان الأخطار المدنسة قد تجد في إصرار رجال العلم على إستعمال ألفاظ مثل: " واقعي" أو " نهائي" أمرا مزعجا: لان استعمال مثل هذه المفاهيم يدل على شكل من الميتافيزيقا، في حين العلم في نظره " فاعلية ليست ميتافيزيقية".<sup>20</sup>

كل هذه المواقف في الواقع لا تتوافق مع التحدي الاخير لـ " ستيفن وينبرغ" الذي صرح:  
(... بالنسبة لي، وبصفتي فيزيائيا، قوانين الطبيعة هي واقعية، مثل هذه الحصى في الطريق).<sup>21</sup> وعليه يبدو إن الإتفاق بين الفيزيائيين لا زال بعيدا عن التحقق. من هذا وذاك يبدو ان التعددية السائدة بين رجال العلم تُقسمهم الى فئات عدة، منها :

- (1) منهم من يريد: التأكيد على ان العلم مشروع واقعي، وهو بذلك يوحي انهم يؤيدون الموقف الفلسفي الذي بحسبه تكون المفاهيم العلمية النظرية تحيل الى موجودات حقيقية في العالم الواقعي.
- (2) بعضهم يظهر: ان مرجعيتهم هي نوع من الواقعية المغالية والتي تصل مباشرة مجموعة كبيرة من العلوم بممارسات الحياة اليومية.
- (3) في حين يرى البعض الآخر: ان العلم لا يصل سوى الى حقائق جزئية متعددة.
- (4) بالنسبة لآخرين منهم: يكون العلم ما "يؤدي وظيفة"، ويرون ان مسألة حقيقة القضايا العلمية، بل وحتى اتفاقها مع العالم الخارجي، ليست هي مشكلتهم: لان الأخيرة تختزل في " ما يكون

<sup>20</sup>.Oppenheimer J.Robert,La Science et le Bonsens,Gallimard,Paris,(1963).

<sup>21</sup> Resolved:Science is at end or is it,The; Times ,D5, New York , ( 10November 1998).

الحالة " ce qui est le cas ؛ أي في " ما يبدو انه الحالة في ضوء أحسن معارفنا واعتقادنا الحالية".

(5) إن بعض رجال العلم المعاصرين يعيدون تبني فكرة رائجة منذ القدم مفادها : "ان العلم اقترب من نهايته"، أو "هو على وشك الانتهاء".

(6) فريق يرى: ان العلم مشروع لحل كل المشكلات دون نهاية محددة له، حيث ان الحلول المتوصل اليها حاليا تنتج مشكلات جديدة، وهكذا دواليك الى ما لانهاية.

#### 4-5: الطريقة العلمية:

على ضوء ما سبق تباينت مواقف العلماء حول تحديد الطريقة العلمية ومدى قابليتها للتطبيق، فهناك عدة مواقف منها:

(1) من يلح عدم وجود ذلك بقوة، لكن يظهر اختلاف هؤلاء جليا حين يتعلق الامر بتحديد " ماهية الطريقة العلمية"؛ ففريق يؤيد " فرنسيس بيكون"، وآخر يفضل " رينيه ديكارت". ونجد منهم الاستقرائيين، كما نجد الاستنباطيين؛ بل وحتى الافتراضيين- الاستنتاجيين.

(2) ونتيجة لذلك يؤكد بعض العلماء الى ما ذهب اليه كل من "ت. هـ. هكسلي T.H. Huxley" و"ماكس بلانك" و"البرت اينشتاين A. Einstein" وغيرهم: من ان التفكير العلمي هو في حقيقته شكل من أشكال "الحس المشترك" Sens Commun ، ينبثق عنه عشوائيا عن طريق الاستدلال عليه. وهكذا فحسب البرت أينشتاين: (... كل العلم بدون استثناء ليس سوى غريلة للتفكير المادي)<sup>22</sup>

(3) يذهب آخرون مثل "الويس فولبرت Lewis Wolpert" ، فيرون ان الموقف السابق يدل على جهل وعدائية، لذلك يرفضون بشدة كبيرة كل ارتباط بين العلم و"الحس المشترك"؛ ألا انه، ومهما كانوا مؤيدين أو معارضين لهذا الارتباط فان القليل منهم فقط من يدفعهم الفضول الى البحث عن طبيعة "الحس المشترك" في حد ذاته؛ لانهم مرتابون من ان يكون هذا الاخير غير متجانس وليس له شكل واحد.

(4) لقد وجد البعض في الطريقة العلمية التي يستعملها اختصاص ما انه الافضل ووجدوا في الفيزياء، العلم الاكثر صرامة واصالة عن سائر العلوم الاخرى، ومع هذا فان أهواء الفلاسفة واتجاهاتهم قد طبعت هنا وهناك تصوراتهم عن مفهوم الطريقة العلمية.

لهذا فحسب الفيزيائي "بيرسي بريدجمان Percy Bridgman" الذي يرى: [ ... يبدو لي ان هناك الكثير من اللغظ حول الطريقة العلمية. انني اجازف بالاعتقاد ان من يتحدث عنها أكثر هم أولئك الذين يلتزمون بها أقل... فالطريقة العلمية هي ما يقوم به رجال العلم في عملهم، وليس ما

<sup>22</sup>. Albert Einstein, Ideas and Opinions, Crown Publishers, pp.319, New York , (1954)

يمكن قوله من طرفهم، أو من طرف غيرهم. فحين يُحضر رجل العلم أثناء عمله تجربة مخبرية لا يتسائل إن كان ما يقوم به موافقا للشروط العلمية فعلا؛ لأن طريقته في حد ذاتها لا تهمه... إن رجل العلم خلال عمله مستعجل جدا للدخول في صلب الموضوع، لذلك تراه لا يجهد نفسه في البحث في العموميات...، ان الطريقة العلمية هي شئ يتحدث عنه غرباء عن العلم، حيث يتساءلون كيف يشتغل رجل العلم؟<sup>23</sup>.

#### 4-6: العلم والتكنولوجيا في عصر المعرفة:

يتميز عصرنا بكونه عصر المعرفة Knowledge ، والمعرفة هنا ليست تجميع المعلومات أو حفظها أو مجرد الإطلاع عليها فحسب؛ بل لها مفهوم أشمل، وتتشكل من عوامل متفاعلة ومتراطة فيما بينها وتشمل:

1- العلم بشتى مجالاته.

2- التكنولوجيا في مجالات المعلوماتية والاتصالية والحياتية وتكنولوجيا المواد.

3- الثقافة.

مكن تطور العلم والمؤسسات العلمية من قيادة وتسيير ألتكنولوجيا وظهور ما يسمى بـ "تكنولوجيا كثيفة المعرفة". وحول هذه النواة من الصناعات الالكترونية والاتصالية خطى العلم خطوات عملاقة في الاكتشافات الجديدة، خاصة في صناعات المواد والألياف البصرية، والوصلات الفائقة والليزر، ومصادر الطاقات المتجددة.

أصبح التقدم يتجسد في الأصغر، وأصبحت الكفاءة مقترنة بتصغير الحجم من استخدام المعالج الالكتروني الدقيق الى تقنيات النانومترية. ولم يعد الهدف يكمن أيضا في إنتاج السلع المنظورة؛ بل إنتاج ومعالجة وبث وتفسير وتخزين المعلومات. وحتى في عالم صناعات السيارات والطائرات، فان الأبحاث تتوجه نحو توفير وسائل بسيطة ومثالية يمكنها ان تعمل بشكل متواصل على خلق المزيد والمزيد من النظم المعقدة، وحل توفير الطاقة، محل الاستهلاك المتزايد لها. إن عالم تكنولوجيا الغد سيكون شديد الفعالية والكفاءة ومُنتج قوي، لكنه يستهلك طاقات ضئيلة للغاية في نفس الوقت.

#### 4-7: الاعمدة الثلاثة لثورة العلم :

لا بد من الإشارة هنا، وقبل كل شئ، إن الأعمدة الثلاثة للعلم في عصر المعرفة ممثلة بـ :  
المادة والحياة والعقل. كان القرن العشرين قد سجل قمة الانجازات العلمية التي تعتمد عليها هذه الاعمدة التي تمثلت في شطر نواة الذرة، وفك شفرة مورثات الخلية في طاقمها الوراثي " الجينوم"،

<sup>23</sup>. Bridgman P.W., Reflection of a Physicist, 2ed. , Philosophical Library, p81, New York, (1955).

وتطوير أجهز الاعلام الآلي. كما شهد القرن العشرين أهم ثلاث ثورات في تاريخ العلوم. كانت ثورة الكم أولى ثورات القرن العشرين، وأكثرها أساسية، وهي التي ساعدت بعد ذلك على زرع بذور الثورتين العلميتين الكبيرتين الاخريتين، وهما الثورة البيوجزيئية وثورة الكمبيوتر.

حلت، وستحل نظرية الكم في الفيزياء مشاكل علمية وتكنولوجية معقدة جديدة تحل مكان سيطرة المعالج الدقيق بتوفير نماذج جديدة من الأجهزة الكمية أو المبنية على نظرية الكم.<sup>24</sup> ان الليزر يبشر بمستقبل منظور يجتاح الجراحة والصناعات الثقيلة والتسجيلات الموسيقية والفضاء والتجهيزات العسكرية. هذه التقنية غاية في الاهمية كونها تتسم بمرونة خيالية وقوة ودقة لم تتح للانسان من قبل.

#### 4-8: ملامح المستقبل في ظل الثورات التكنولوجية:

تتمثل الثورة التكنولوجية الشاملة في ثلاث مجالات تتداخل يوما بعد يوم رغم تمايزها كل في حقله التطبيقي المباشر وهي:

(1) **ثورة تكنولوجيا المعلومات:** والتي تتحقق من خلال التقدم الهائل في الالكترونيات الدقيقة، والآلات الحاسبة، والانسان الآلي، وصناعة المعلومات، والاتصالات، وما يرتبط بها من تقدم في مجالات اخرى، مثل: الطاقة النووية، وتكنولوجيا الفضاء، والطيران ذو الدفع النفاث.

(2) **ثورة البيوتكنولوجيا:** وفيها يتم استخدام منجزات علم الاحياء، والهندسة الوراثية، وأبحاث الفضاء المتعلقة بتأثيرات الجاذبية والسرعة العالية على الاحياء... الخ.

(3) **ثورة تكنولوجيا المواد:** وهو مجال تخليق المواد الجديدة وإحلالها محل المواد الطبيعية القديمة، على أساس التكنولوجيا الصناعية الكيميائية والبتروكيميائية، وترشيد الاستخدام للموارد الطبيعية، وخصوصا موارد الطاقة.

إن الأطر الزمنية للمستقبل، من أجل وضع تصورات وتنبؤات حول شكل وملامح المستقبل على ضوء تطور وتقدم تلك الثورات ليست دائما مطلقة ومحددة؛ خاصة فيما يتعلق بتطور التقانات المرتبطة بالثورات العلمية الثلاث السابقة واكتشافاتها الكبرى؛ لكن المتوقع أن هناك فترات ملموسة التحديد ستصل فيها تكنولوجيات وعلوم معينة إلى مرحلة من النضج وإمكانية من التطبيق والانتشار الواسع، وكذلك الاستخدام الواسع لها في شتى مجالات الحياة.

يرى المهتمون بالرؤى المستقبلية، انه حتى عام 2020 ستتكمال حلقات الاكتشافات والتطبيقات لها بشكل لم يسبق له مثيل، خاصة في حقل تكنولوجيا المعلومات الوراثية " البيوتكنولوجيا"، والمعلوماتية في حقل زيادة وتنوع قدرات الكمبيوتر واستخداماته.

<sup>24</sup>. كاكو ميتشيوي ، 2001 " رؤى مستقبلية"، مرجع سابق، ص 24- 25 .

لا يمكن فصل أي تطور في المجالات اعلاه عن غيره بما تؤثره هذه المجالات في تطورها على بعضها البعض؛ فقد قفز الكمبيوتر بقدراته خلال 50 سنة الأخيرة إلى 10 مليارات ضعف قدرته التي كان عليها. كما ان قدرة الكمبيوتر ساهمت في الإسراع في فك سلاسل الحمض النووي الريبوزي منقوص الاوكسجين "الدنا" DNA، التي تتضاعف سرعتها مرة كل عامين؛ لذا فإن التنبؤات حول مستقبل الكمبيوتر والتكنولوجيا الحيوية يمكن حسابهما كميًا بدقة إحصائية معقولة حتى عام 2020م.

### (1) ثورة تكنولوجيا المعلومات:

بعد ان نجحت التكنولوجيا في مناحي التشغيل الذاتي ظهرت أهمية الأوتوماتية في معالجة المعلومات. من هنا تم الاندماج التدريجي بين تكنولوجيا الاتصالات وتكنولوجيا الحاسبات فظهرت تكنولوجيا المعلومات التي اتسعت أمامها فرص التطبيق فشملت مناحي واسعة تتعلق بجمع وتوصيل وتخزين واستعادة ومعالجة وتحليل المعلومات، وبذلك فهي تقوم على الربط بين التكنولوجيات المعتمدة على الالكترونيات الدقيقة وصناعة المعلومات. وتتصف تكنولوجيا المعلومات والالكترونيات الدقيقة بسمات أهمها: أنها ذات كثافة علمية شديدة، وكثافة رأس المال فيها، والتركيز الشديد على النطاق العالمي. وهكذا أصبحت المعلومات موردا اقتصاديا في حد ذاتها، تتطلب مستوى عاليا من الكفاءة حتى يمكن جمعها ومعالجتها وبنها وتوزيعها مرة أخرى في الشكل المطلوب بالنسبة للمستهلك والمستخدم النهائي لها.<sup>25</sup>

كما أخذت المعلوماتية تحتل مواقع ووظائف في الإدارة والمراقبة والتحليل للمعلومات وأزاحت الانسان من كثير من الوظائف التي كان يديرها جسديا وذهنيا. وتقوم الوسائل التكنولوجية المعلوماتية ببعض وظائف ذهنية من وظائف الانسان.

### (2) ثورة البيولوجيا من خلال قفزة التكنولوجيا الحيوية:

عرفت الإنسانية التكنولوجيا الحيوية منذ فجر التاريخ واستغل الانسان ظواهر النشاط البيولوجي الطبيعي للبكتريا والخمائر في صناعة الخبز والألبان والأجبان والخل والبيرة والمشروبات الكحولية.

اما التكنولوجيات الحيوية الجديدة فقد تطورت إثر تطور البيولوجيا المجهرية واكتشاف السلالات والانواع البكتيرية والفطور النافعة للحصول على مجموعة متنوعة من المنتجات شملت المضادات الحيوية والاحماض الامينية والفيتامينات والالبان النوعية وطرق عديدة من التخمر.

<sup>25</sup> حسيب خير الدين وآخرون، مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، التنمية العربية، ص 387، وما بعدها بيروت، (1987).

وقفزت التكنولوجيات الحيوية نتيجة إحداث تغييرات محدثة اصطناعيا ومؤثرة في النشاط البيولوجي للخلايا بغية الحصول على منتجات او عمليات جديدة، خصوصا عندما تم التعرف على المادة الوراثية والتحكم في بعض مجالات العزل والفصل والهندسة في المادة الوراثية والاندماج الخلوي وهندسة العمليات البيولوجية الجديدة مما فتح الافاق نحو استخدام التكنولوجيا الحيوية في مجالات الانتاج والاقتصاد.

تتميز هذه التكنولوجيا بانها أقل كثافة في استخدام الطاقة وان مخلفاتها أقل أضرارا في البيئة، وهي تقلل وتنوع من الاحتياجات من المواد الاولية، كما تقلل من الخسائر، وتطور اسواقا للمواد التالفة والتخلص ايضا من بعض النفايات عند الاستخدام لها في مكافحة البيولوجية والتنقية البيئية للتخلص من نفايات المواد العضوية والكاربونية والبترولية في عمليات التحلل والتفكك والتخمر لتلك المواد.

ان اعادة هيكلة المورثات أصبح جزء متخصصا من الهندسة الوراثية؛ لهذا تُفرد لها تسمية تكنولوجيا الهندسة الوراثية. كما أن تطور المعلوماتية ساعد على تطور علوم البيولوجيا، وخصوصا في الاسراع بفك الشفرة الوراثية والمعارف في علم الاحياء تتضاعف كل ثلاث سنوات، وقل من ذلك في مجال المعلومات الوراثية. ان صناعات التكنولوجيا الحيوية الجديدة لم يمر عليها اكثر من عقدين، ومع ذلك فهي تغزو الاسواق في منتجاتها وستزداد وتيرة التطور في هذا المجال مع زيادة اعتماد التكنولوجيا الحيوية على طرائق الهندسة الوراثية القائمة على تطعيم الحمض النووي الديوكسي ريبوزي "الدنا" DNA وهما طريقة القطع وطريقة الوصل والإدماج.

ان التطور في هذا المجال لا يقتصر على الكائنات الدقيقة؛ بل يشمل النباتات والحيوان من خلال طرق التهجين والحصول على مزج جيد للصفات الوراثية المطلوبة لتحسين الانتاج الحيواني والنباتي والحصول على السلالات المقاومة للأمراض. وتبشر الآفاق في الهندسة الوراثية نحو انتاج اكبر، وبنوعية أفضل، من خلال نجاح عمليات الاستنساخ للإنسان والحيوان وتنمية انتاج البذور المحسنة للمحاصيل الزراعية ذات الاهمية والقيمة الغذائية لسد الفجوة في الإنتاج الغذائي أمام تصاعد تزايد السكان.

المستقبل القريب يشير إلى إمكانيات واسعة في الاختبارات التشخيصية للأمراض على ضوء معلومات الطاقم الوراثي للفرد، كما يتطور إنتاج الادوية والعقاقير على ضوء العلاج الذي يتناسب مع الطاقم الوراثي للفرد وحالة جهازه المناعي. إن البيولوجيا الجزيئية هي حجر الأساس في تطور التكنولوجيا الحيوية.

طبعا لا يمكن التغافل عن أخطار هذه الثورة الجامحة في نتائجها الخطرة والمدمرة لو سعى علمائها بالاتجاه المعاكس لفوائدها ووضع اكتشافاتهم في خدمة الدمار الشامل في تطبيقات الحرب

الجرثومية والاعتداء على النواميس الطبيعية وتجاوز أخلاقيات البحث العلمي في هذا المجال<sup>26</sup>، حيث سناقش ذلك في الفصول التالية من باب الأخلاقيات العلمية في كل فصل من فصولها على ضوء من الحقائق والتوثيق والتفصيل.

وسيكون نمو منحى التكنولوجيا الحيوية مدهشا خلال هذه الفترة. سيتسارع البحث البيوجزيئي؛ بفضل إدخال الكمبيوتر والانسان الآلي لأتمتة عملية تسلسل الدنا DNA . وسيتم الكشف عن البنية الجزيئية الوراثية لآلاف الكائنات الحية بالكامل. في ذلك الوقت سيكون بإمكان أي شخص على سطح الارض أن يخزن شفرة الدنا DNA الخاصة به على قرص مدمج CD، وعندها ستكون لدينا موسوعة الحياة مسجلة لكل فرد يحملها معه كبطاقة تعريف وهوية.

وسيكون لهذا الحدث معان عميقة في الطب والبيولوجيا، وعلاج الامراض، وإختيار الدواء، وتعويض الاعضاء التالفة من الجسم، وحل مشكلة تقادم الخلايا وقضايا الشيخوخة وأمراضها، وإطالة العمر بتطوير وسائل العلاج وصناعة الادوية على أسس الاحتياجات والتركيب الوراثي للفرد... وغيرها من المجالات التي تطرح الآن على ضوء مستقبل العلم والرؤى المستقبلية حول طبيعة ومسار الحياة في المستقبل. كما ان تطور طرق التخصيب ومعالجة قضايا العقم ستؤدي الى ثورة بيولوجية مرتقبة في الآفاق<sup>27</sup>.

### (3) ثورة تكنولوجيا المواد:

تتسارع مكتشفات المواد الجديدة والبدائل وتعرف الصناعات والاسواق موادا جديدة كل يوم للتعويض الافضل عن كثير من المواد الطبيعية خاصة في مجالات الثورة الكيميائية والبتروكيميائية. الكيمياء هي أرض المستقبل، كانت حتى الامس القريب تتعامل مع 30 عنصرا وهي تتعامل اليوم مع اكثر من 200 عنصر في مركبات وخلائط عديدة يتم انتاجها وفق خصائص مطلوبة عالية النوعية. تشهد السبائك والخلائط المعدنية الجديدة تغيرات في نسب وكثافة وأوزان العناصر للحصول على خصائص ميكانيكية وكيميائية عالية الجودة.

والأمر كذلك مع السليكون والسيراميك وتطبيقات ميكانيكا الجزيئات ومقاومة المواد للحصول على مواد عالية الجودة تستعمل في دعم تكنولوجيات اخرى. خاصة في مجالات أشباه الموصلات وتطبيقاتها في الالكترونيات الدقيقة.

كما ان الصناعات البتروكيميائية تسعى نحو انتاج مواد جديدة وتجديد المواد المصنعة يتضاعف بتجديد وأساليب تجميع مبتكرة. كما ان انتاج المواد البلاستيكية والمطاطية تدخل استخداماتها في ميادين جديدة كالبناء وصناعات السيارات والطائرات ومركبات الفضاء والمجالات

<sup>26</sup> العبودي عبد الكاظم وكحل مبروك، أخلاقيات البحث العلمي والأخطار الناتجة عن استخدام أسلحة الدمار الشامل، المجلة العربية للعلوم العدد 39 السنة 72 (94-). تونس، (17 مارس 2002).  
<sup>27</sup> - البخاري حماته، عن الفلاسفة وعن الحرية في القرن 21، المستقبل العربي، ، العدد 3009، مرجع سابق، ص 121. بيروت ، 2009.

العسكرية والمدنية الاخرى عند الحاجة الى مواد في العوازل والتصفيح... الخ، وفي كل مجال تطبيقي يحتاج الى مواد عالية المقاومة، والمرونة، وخفيفة الأوزان .

#### 4-9 : تعريف العلم وطبيعته وتقدمه وبعض من مفاهيمه:

##### 4-9-1: تعريف العلم والعلماء :

##### أولا : تعريف العلم:

يمكن ان نجد الكثير من صيغ التعريفات للعلم منها:

انه مجموعة من المعارف والحقائق والخبرات الإنسانية التي تشمل العلوم كلها (الطبيعية والإنسانية والاجتماعية). وكلما تقدمت العلوم الطبيعية والتطبيقية لاكتشاف الجديد والمجهول ولاختراع وسائل أفضل تسهل على الإنسان حياته. وفي ذات الوقت فان تلازم تقدم العلوم الإنسانية والاجتماعية مع تطور العلوم الطبيعية والتطبيقية يوفر للإنسانية الفكر الذي تحتاجه كل نهضة وكل حضارة.

والعلم الحديث، باعتباره مسعى مستمرا من البحث الذي يصحح نفسه بنفسه فهو يستقطب اهتمامات جماعات وافراد ينتشرون في جميع بقاع العالم ومشاركتهم. لقد أسهمت اغلب بقاع العالم وشاركت بتقديم هؤلاء الافراد او الجماعات التي يمكن ان نطلق عليهم "العلماء". ومنهم من أظهر اصالة علمية فاستحق الالقاب والجوائز<sup>28</sup> .

والعلم من وجهة النظر هذه كان ولا يزال نشاطا انتقاليا ونتاجا مرحليا يمضي في تقدمه على رغم الاختلافات اللغوية والمنافسات القومية؛ بل ربما بسببها. ولذلك فإن هذا النشاط هو نشاط حضاري بالدرجة الاولى، ولا يمكن فهمه بمعناه الاجتماعي الأكمل الا في السياق الحضاري. والعلم ايضا: نشاط ثقافي يمارسه افراد وجماعات يعيشون في مجتمعين او اكثر<sup>29</sup> .

عبر الزمان والمكان. وتشترك هذه المجتمعات بقبولها لبعض المسلمات الميتافيزيقية الجوهرية، ولمعايير الدلالة والبرهان، وقواعد "الاتيكيت" والمعاملة بالمثل. وليس هناك خليقة علمية فقط؛ بل هناك أيضا مجموعة اكبر بكثير من المسلمات الميتافيزيقية التي " لا يكون المرء عالما دونها" كما يقول توماس كون . وهذا الجهاز المؤسسي غير المنظور، القائم على أسس حضارية، هو بالذات الذي يمكن جهود العلم من النجاح<sup>30</sup> .

<sup>28</sup> - يمكن الرجوع الى العديد من المراجع الخاصة بمنح جوائز نوبل مثل :

harriet Zuckerman ;Scientific Elite :Nobel Laureates in the United States :the free press ; ;New York (1974).

<sup>29</sup>Toby E Huff ;On the Roads to Modernty :Conscience Sconscience and Civilizations ; Selected Writing by benjamen Nelson chaps 5 and 13. ;Litlfiled (1981).

<sup>30</sup> - توبي هف، ، " كتاب فجر العلم الحديث " ، ط2، عالم المعرفة، ، ص 27. الكويت، (2000).

## ثانيا : تعريف العلماء والجماعة العلمية:

خط الفكر العربي القديم بين مصطلحي رجال الدين وعلماء الدين وأضحت كلمة عالم وعلماء متبادلة دون تحديد مرجعي لها، ثم أصطلح تدريجيا على إعتبار الدور الذي يعمل به الشخص كونه أستاذا في كلية أو جامعة ومدرسا لطلبة جامعين، وعضوا في قسم علمي، وباحثا وكاتبا ومؤلفا، وربما مراقبا لنتائج الآخرين، يحكم على أبحاث غيره من العلماء، وعلى صلاحية ما يكتب للنشر، جميعها منحت له دور العالم، بوصفه شخصا يعرض للعامة من معرفة موثوقة، ولاسيما عندما تُنشر الأبحاث التي تدعي الإضافة للمعرفة. وعندما تتخذ الأبحاث هذا الشكل المعروض على الناس فإنها تكتسب صفة القبول لدى طائفة العلماء الذي ينتمي لها ذلك العالم<sup>31</sup>.

لم تكن كلمة "عالم" موجودة في اللغة الإنجليزية، حتى صاغها "وليم وول" في القرن التاسع عشر عندما إرتبطت شخصية الفرد بخليقة العلم التي يُعرّفها "ميرتن" : (...هي ذلك المركب من القيم والمعايير الذي تلونه المشاعر، والذي يعتبر ملزما للعالم . ويعبر عن هذه المعايير على شكل أمور مطلوبة أو محضورة أو مفضلة أو مسموح بها، وهي تكتسب مشروعيتها من القيم المؤسسية وهذه الموجبات التي تنتقل بواسطة النصيحة والأسوة الحسنة وتدعمها العقوبات، يستوعبها العالم بدرجات مختلفة، فتشكل له ضميره العلمي أو أنه العليا، إن شئت)<sup>32</sup>.

### 4- 9 - 3: طبيعة العلم :

وتثير هذه العبارة على نحو نمطي الى إبستيمولوجيا: (...الابستمولوجيا دراسة نقدية لمبادئ العلوم المختلفة وفروضها ونتائجها وتحديد أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية. كما يطلق المصطلح أيضا على نظرية المعرفة بوجه عام) العلم، أي العلم كطريقة للمعرفة، أو القيم والمعتقدات المتأصلة في المعرفة العلمية وتناميها<sup>33</sup>.

ان المشكل المركزي في نظرية المعرفة "الإبستمولوجيا" كان ولا يزال نمو المعرفة، ولكي نستطيع دراسة هذا النمو لا بد من دراسة نمو العلم، أي تقدمه. هناك إدراك لعدم وجود اتفاق حول الجوانب المحددة لطبيعة العلم سواء بين فلاسفة العلم أو مؤرخي العلم، والعلماء، ومعلمي العلم.

<sup>31</sup> توبي هف، المرجع السابق، ص 33 .

<sup>32</sup>Merton ;The Normative Structure of Science in The Sociology Science pp 267-280 at p 268. Chicago, (1973).

<sup>42</sup>Lederman,N.G. "Students and Teachers' Conceptions of the Nature of Sciences „A Review of the Research. " Journal of Research in Science Teaching 29,331[1992]

الا ان عدم وجود اتفاق هكذا أمر ينبغي ألا يكون فيه ما يثير الارتباك او الدهشة؛ حيث ان الجهد العلمي معقد وله طبيعة ذات أوجه متعددة<sup>34</sup>.

أحد الجوانب الإضافية لطبيعة العلم، له صلة وثيقة بالتمييز بين المشاهدة والاستنتاج، وهو جانب التمييز بين النظريات العلمية والقوانين العلمية. و"القوانين" هنا " تقرير أو توصيف للعلاقات" بين الظواهر التي تلاحظ. و"النظريات" هي "تفسيرات مستنتجة" للظواهر التي تُلاحظ. 4-9-4: طريق العلم ومساراته:

طرحت نقاشات واسعة حول طريق ومسار العلم. وتحديد الطريق او المسار/المسارات اعاد النقاش الى تصور نمذجة او إتجاه لوصف المسار. ومن الملاحظات الاوفر اقناعا كما يرى "كارل بوبر": (ويرتقي تطور الفيزياء"متجها من النظريات الاقل عمومية الى النظريات الأكثر عمومية). يسمى هذا الاتجاه عادة"الاتجاه الاستقرائي" بحيث يمكن التساؤل: ألا يشكل تقدم البحث وتطوره في إتجاه إستقرائي حجة لصالح الطريقة الاستقرائية؟<sup>35</sup>. وان هذا التطور في الاتجاه الاستقرائي لا يعني في أي حال من الاحوال تقدما ناتجا عن الاستتباع الاستقرائية.

ان الانضمام الى ركب العلم لا يتأتى عادة إلا إلى النظريات المرتبطة بموقف إشكالي معين او بتناقضات وتفنيدات معينة. وتخلق هذه النظريات التجربة الحاسمة المرجوة في ذات الوقت الذي تحل فيه المشاكل التي تعترضها<sup>36</sup>. ويمكن للتقدم العلمي ان يتحقق في اتجاهين: بتجميع الإدراكات الحسية الجديدة وبتنظيم الادراكات التي لدينا على نحو أفضل<sup>37</sup>. هذا الوصف يعيد الذاكرة الى الاستقراء، كما عند بيكون، وكما يقول " بوبر"، في الكد في جمع" العناقيد التي لاحصر لها"<sup>38</sup>، والتي يعطي عصيرها خمر العلم<sup>39</sup>.

لكن"بوبر" يرى: (... لايعود الفضل في التقدم العلمي الى التراكم المستمر لإدراكاتنا الحسية، ولا الى تعلمنا مع الزمن في استعمال حواسنا على نحو أمثل. إن أخذ إدراكاتنا الحسية على عواهنها لا يؤدي بنا بتاتا الى العلم مهما بذلنا في تجميعها وترتيبها. إن وسيلتنا الوحيدة لوعي الطبيعة هي الأفكار، وهي التوقعات اللامبررة والتأملات الجسورة التي لاتتوقف لحظة واحدة عن طرحها والرهان عليها: إن من لا يعرض أفكاره لخطر الدحض لا يشارك في العملية العلمية)<sup>40</sup>.

<sup>34</sup>- نورمان ج. ليدرمان " البحث العلمي وطبيعة العلم كسياق له معناه من اجل تعلم العلم"، تعلم العلم في القرن الواحد والعشرين، مرجع سابق، ص 107..

<sup>35</sup>- بوبر كارل ، منطق البحث العلمي، مرجع سابق، ص 296.

<sup>36</sup>- بوبر كارل ، منطق البحث العلمي، مرجع سابق، ص 297.

<sup>37</sup> *Philipp Frank, Das Kausalgesetz und seine Grenzen, Schriften zur Wissenschaftlichen Weltauffassung, Wien: J. Springer, 1932*

<sup>38</sup> *Becon Franz, Baco's Neues Organom, Art. 123, p.173*

<sup>39</sup>- بوبر كارل ، مرجع سابق ، ص 299.

<sup>40</sup>- بوبر كارل ، مرجع سابق ، ص 299.

#### 4- 10 : فهم العلم والتقانة بين ثقافتين:

منذ ما يقارب نصف قرن الف "سي بي سنو" كتابه المعنون: (الثقافتان والثورة العلمية)<sup>41</sup> ، بحث فيه الانفصال المتزايد بين الثقافة العلمية وغير العلمية. ولم يكن الحال كما هو الان، فقد اعتاد الناس منذ ايام نيوتن على اعتبار العلم "الفلسفة الطبيعية"، وكان البعض يتوقع ان كان المرء متعلما حقا سيكون ضليعا في معرفة تحركات الكواكب، بمثل ما يكون ضليعا بالادب والفلسفة. ولكن واقع الحال، أنه لا توجد، حتى في أرقى مجتمعات الأرض، إلا قلة من المتعلمين، ومن الكتاب والفنانين، ولا حتى بعض العاملين في الحقل الفلسفي او اللساني من يفهم النظرية النسبية وميكانيكا ونظرية الكم كما يفهم موضوعاته التي يشتغل عليها. ومن المثقفين، غير العلميين، من الذين يرتعدون خوفا عند سماعهم مثل هذه المصطلحات.<sup>42</sup>

ينشأ الكثير من الانفصام بين الثقافتين العلمية، وغير العلمية بسبب فشل الناس في فهم التفرقة بين العلم والتكنولوجيا وعدم التحرر التام من التعميمات الزائفة للمعرفة المتخلفة في الأذهان البشرية عبر عقود او قرون. والبحث عن المعرفة قديم، قدم التاريخ البشري، إرتبط مع إستخدام الادوات من أجل المزيد من الارضاء للحاجات اليومية؛ حيث نشأت الرغبة في المعرفة، مادامت المعرفة لم تنفصل عن محاولات سيطرة الانسان على البيئة وتسخيرها لخدمته.

أساس المعرفة هو التعميم، والإدراك لكثير من الظواهر، إرتبط من معارف مستخلصة أصلا من تجارب الافراد، وورثتها المجتمعات، حتى عُممت وأصبح فن الاستكشاف لا يقل أهمية عن فن التعميم الصحيح، حتى قيل: "التعميم إذن أصل العلم"، و"التعميم هو قوام التفسير ذاته، وما يقصد بتفسير واقعة ما، ملاحظة، هو إدراج هذه الواقعة ضمن قانون عام. وهكذا أدى التفسير الناجح لكثير من الظواهر الطبيعية الى تكوين ميل الى زيادة التعميم في الذهن البشري، وعندما تتزايد الوقائع الملاحظة يكون السعي الى المعرفة يتجاوز نطاق الملاحظة نفسها، ويحتاج الى التعميم، ولهذا فالتفسير العلمي يقتضي ملاحظة واسعة النطاق، وتفكيراً نقدياً فاحصاً ودقيقاً.

اما في الحالات التي كان التفسير العلمي يخفق فيها، نظرا الى قصور المعرفة المتوافرة في ذلك الوقت عن تقديم التعميم الصحيح، فقد كان الخيال يحل محله ويقدم نوعا من التفسير يُشبع النزوع الى العمومية، عن طريق ارضائه بمشابهات ساذجة.<sup>43</sup>

من هنا نشأت ثقافتان، وبينهما انفصال، وكأنه برزخ، ومنها كانت المحاولة للوصول الى العموميات عن طريق تفسيرات وهمية شقت فيها فروع من الفلسفة طريقها بمعزل عن العلم التجريبي وتطبيقاته. ولكن الرغبة في فهم العالم الفيزيائي من قبل الفلاسفة كان حافزا على إثارة السؤال في كل مرة: عن كيفية بدء العالم؟. واليوم يتكرر سؤال فلسفي مستقبلي: وكيف والى اين سينتهي العالم؟.

ان أساطير الشعوب البدائية عن قصة الخلق، ستشبه الى حد ما أساطير عن مجموعة التصورات التي تواجهنا مستقبلا، من تلك التي نرسمها وفق سيناريوهات يكتبها العلماء أو كتاب الخيال العلمي، وحتى بعض أفكار الفلاسفة والمنظرين.

والواقع ان الفلسفة والثقافة العامة ظلنا تتراوح على الدوام في مواقع منفصلة عن العلم؛ لذا فهما تتعرضان، مثلا لأخطار جسيمة، مثل الخلط بين المنطق والشعر، وبين التفسير العقلي

<sup>41</sup>. C. P. Snow, The Two Cultures and Scientific Revolution, Mass. Cambridge University Press, Reissue Edition, Cambridge, ( 1960).

<sup>42</sup>. ملفين شوارتز، مقالة "حالة الثقافتين" من كتاب "تعلم العلم في القرن الواحد والعشرين" ،، تأليف نخبة من المؤلفين الامريكيين، مكتبة الاسرة ، القاهرة، (2004).

<sup>43</sup>. ريشنباخ هانز، "نشأة الفلسفة العلمية" ترجمة فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 18. بيروت، (1979).

والخيال، وبين العمومية والتشبيه، مما سيجعلهما تفتقران الى القدرة على الإيضاح العلمي، وهي القدرة المنبعثة من التفسير العلمي. من هنا منشأ وجود ثقافتان عند محاولة فهم جدل العلم والتقانة ومساراتهما الحاضرة والمستقبلية.

والمثقفون يشكلون حالة اجتماعية خاصة، مؤلفة من جملة أشخاص يتحددون بوظائف معترف بها اجتماعيا، ونظرا الى إفتقارهم كل سلطة اقتصادية او إجتماعية تراهم يعدون أنفسهم نخبة مدعوة الى تقييم كل شئ والحكم عليه، والحال انهم ليسوا كذلك؟! من هنا مصدر نزعتهم الاخلاقية والمثالية ( فهم يفكرون كما لو أنهم يعيشون من الآن في المستقبل البعيد، ويحاكمون عصرنا من وجهة نظر المستقبل المجردة. ناهيك عن نزعتهم الدوغمائية، فهم يصدرن عن مبادئ، مجردة لا تقع تحت لمس ليقرروا ما ينبغي ويتوجب عمله)<sup>44</sup>

كلما واجه المثقفون موقفا من الحياة يجدون واقعية السياسيين في مواجهتهم، وهي التي تحاول رسم الموقف بروح براغماتية ولهذا فإن التبشير والتكهنات بزوال هؤلاء الناس الذين يدعون انهم يعرفون كل شئ تنتبأ بزوال مثل ذلك المثقف المتأرجح ما بين العلم واللاعلم، والادعاء انهم يعرفون كل شئ. لأن العلم بطبيعته، سيفضي لا محالة، الى الإستغناء عن هؤلاء الموسوعيين المزعومين بتفريقهم وتمييزهم عن الباحثين المختصين صارم التخصص.

لقد مر زمن فيه من الناس، من كان بين المثقفين، منهم في الاصل والمنشأ أفراد نالوا الشهرة في اعمال ذات صفة فكرية<sup>45</sup> (العلوم الرياضية، العلوم التطبيقية، الطب، الادب... الخ)، ولكنهم استغلوا هذه الشهرة ليتخطوا حدودهم المعلومة، ولينقدوا المجتمع والسلطات القائمة، بإسم تصور إجمالي ودوغمائي (مبهم او واضح، اخلاقي النزعة او ماركسي) عن الانسان... لو أردتم مثلا على هذا التصور الشائع للمثقف لقلت ان صفة "المثقف" لا تطلق على علماء يعملون في حقل انشطار الذرة لتطوير اسلحة الحرب الذرية وتحسينها: فهم محض علماء، لا اكثر ولا اقل. ولكن اذا إنتاب هؤلاء العلماء أنفسهم الذعر، لما تنطوي عليه الأسلحة التي تُصنع بفضل جهودهم وأبحاثهم من طاقة تدميرية، فاجتمعوا ووقعوا بيانا لتحذير الرأي العام من استخدام القنبلة الذرية، غدوا من فورهم مثقفين، وذلك، بالفعل، لأنهم:

اولا: تجاوزوا صلاحياتهم، على اعتبار صنع قنبلة شئ، والحكم على استعمالها شئ آخر.

ثانيا: إستغلوا شهرتهم، أو الصلاحية المعطاة لهم ليتعدوا على الرأي العام، مخفين بذلك الهوة السحيقة التي تفصل معارفهم العلمية عن التقييم السياسي الذي يجرونه انطلاقا من مبادئ أخرى للأسلحة التي يخترعونها.

44. سارتر جان بول ، "دفاع عن المثقفين، دار الاداب، ط1، ، ص 10 و 11. بيروت، (1973).

45 - معلوم ان لفظة مثقف Intellectuel مشتقة في الفرنسية من كلمة العقل او الفكر او الذكاء

ثالثاً: انهم لا يدينون في الواقع، استخدام القنبلة لاكتشافهم فيها عيوباً تقنية؛ بل يدينونه باسم نظام من القيم قابل كل القابلية للنقض والدحض، وضابطه الاعلى ومعياره الاسمى الحياة البشرية<sup>46</sup>.

ومنذ ان بنيت فلسفة أفلاطون (427- 347) ق. م. على نظرية تعتبر من أغرب النظريات الفلسفية، وأقواها تأثيراً مع ذلك، ونعني بها "نظرية المثل"، والتي هي لا منطقية في صميمها، لأنها نشأت من محاولة إيجاد تفسير حاول أفلاطون به، من خلاله، إثبات التوازي بين مجالي الاخلاق والمعرفة، أي إثبات النظرية القائلة: "ان الاستبصار ضرب من المعرفة والعلم. فاذا ما ارتكب شخص فعلاً لأخلاقياً، فهو جاهل بنفس المعنى الذي يكون به الشخص الذي يرتكب أخطاء في الهندسة جاهلاً؛ أي انه عاجز عن القيام بفعل الرؤية الذي يكشف له عن الخير، وهي رؤية من نفس النوع الذي يكشف له عن الحقيقة الهندسية<sup>47</sup>.

وعلى الرغم مما قد تبدو عليه "نظرية المثل" من غرابة في نظر الذهن الحديث، فينبغي ان يُنظر إليها في إطار المعرفة السائدة في عصر أفلاطون، لكن المهم الذي نستخلصه منها هو ان بتعميمها لتصور الوجود لا تأتي إلا بتفسير وهمي. وبهذه التفسيرات الوهمية تُكتب نهاية العلم التي تأتي عندما نعمل على إرضاء رغباتنا في المعرفة بتقديم تفسيرات وهمية للظواهر والمسارات العلمية للبحوث التطبيقية.

من هنا يحق للفيلسوف ان يستخدم ألفاظاً معينة من اللغة اليومية، مثله مثل لغة العلم، التي كثيراً ما تستعير الفاظ الحياة اليومية؛ نظراً الى تشابهها مع بعض التصورات الجديدة التي يحتاجها العالم، كلفظة "الطاقة" مثلاً، التي نستخدمها في الفيزياء، بمعنى مجرد مشابه الى حد ما لمعناه في الحياة اليومية كالقوة والقدرة وغيرها من مصطلحات عامة لها تعريفاً دقيقاً في الفيزياء.

والفيلسوف عندما يتحدث لغة غير علمية، لأنه يحاول الإجابة على الاسئلة، في الوقت الذي تعوزه الإجابة العلمية. كما هو الشأن مع العالم الذي يريد التوصل الى صياغة افكاره فلسفياً من دون الاطلاع على الفلسفة، سيجد نفسه في متاهة الألفاظ والدلالات والمفاهيم التي تُفسد عليه خطابه العلمي وفلسفته العلمية. كما ان لجوء الفلاسفة والعلماء اللجوء الى استخدام اللغة المجازية، ريثما تتوفر عند الفلاسفة وسائل الوصول الى الحل والتفسير العلمي، وريثما تتوفر عند العلماء رؤى فلسفية نابغة عن تفاعل الثقافتين التي يستند إليها.

وطالما ظلت الفجوة بين الثقافتين العلمية وغير العلمية سنعيش عقوداً اخرى في فوضى المفاهيم والمصطلحات العلمية واللغوية والفلسفية. غير ان إعادة استخدام الالفاظ وتكرار

<sup>46</sup>- سارتر جان بول ، "دفاع عن المثقفين، دار الاداب، بيروت، ط1، 1973، ص 10 و 11.  
<sup>47</sup> ريشنباخ هانز ، "نشأة الفلسفة العلمية"، مرجع سابق، ص 57.

المصطلحات وتداخل العبارات لا يخلق جسورا بين الثقافتين ولا يفعلهما؛ بل سيسهم في إشاعة عدم الدقة العلمية والأدبية معا.

ان موضوع بحثنا هذا مُجبر على الصياغة بلغتين هما لغة العلوم البحتة" وتحديد لغة الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وتداخلات هذه العلوم فيما بينها"، ولغة الفلاسفة وسيكون من العسير التوافق بينهما في الاسلوب والتعبير بالشكل المطلوب تماما<sup>48</sup>.

كان "كارل بوبر" من أشد أنصار الوضوح والبساطة في التعبير والكتابة، وإنه كان من ألد أعداء "التخصص" ولغة "المتخصصين"، ثم انه كان أبعد ما يكون عن الجدل في المصطلحات؛ لأنه كان يرى، كما كان الفيلسوف "كانت"، يرى من قبله: "ان منشأ النزاع في الامور، والفلسفية على نحو خاص منها، ليس نزاعا حول الكلمات، إلا انه اذا كان من مقتضيات البساطة الابتعاد عن اللغة"المتخصصة" المولعة بأكثر الكلمات غرابة وبعدا عن التداول، فإن من مقتضيات الوضوح أيضا إختيار الكلمات؛ بحيث لا تحمل أكثر مما يُراد لها ان تقول وبحيث لا يدعو إستعمالها إلى أي لبس.<sup>49</sup>

وفي مقدمته للطبعة الانجليزية كتب " كارل بوبر" :

(... لا يعتقد المحللون اللغويون بوجود مشاكل فلسفية حقيقية، ويرون أن مشاكل الفلسفة، إن وجدت، هي مشاكل استعمال الألفاظ، أو مسائل معنى الكلمات. أما أنا فأعتقد بوجود مشكلة فلسفية واحدة على الأقل تهم كل ذي فكر، وهي مشكلة الكوسمولوجيا: مشكلة فهم العالم، بما في ذلك فهم أنفسنا وفهم معرفتنا. وعلى هذا الاساس فكل علم في اعتقادي "كوسمولوجيا"، ولا تهتم الفلسفة، مثلها مثل العلوم الطبيعية، إلا في اسهامات هذا العلم في الكوسمولوجيا).

وانا اشارك "كارل بوبر" في قوله : (... ان اهتمامي بالعلم والفلسفة آت من رغبتني بالتعلم والدراسة لأسرار العالم الذي نعيش فيه وأحاجيه، وكذلك لأسرار المعرفة الانسانية لهذا العالم. إن إحياء الاهتمام بهذه الأسرار هو وحده الكفيل بتحرير العلم والفلسفة، من حكم المتخصصين ومن إيمانهم الخرافي والخطير بسلطة معرفة المتخصص الشخصية).<sup>50</sup>

على اللغة ان تجدد مصطلحاتها وتنبني استخدام الألفاظ بمعانيها الجديدة والدقيقة وبذلك ستردم جزء من الهوة بين لغة الثقافتين العلمية وغير العلمية.<sup>51</sup>

<sup>48</sup> العبودي عبد الكاظم ، تأملات في الخطاب الجامعي ، المجلس الاعلى للغة العربية ، ص 12,30 الجزائر، (2003).

<sup>49</sup> بوبر كارل ، منطق البحث العلمي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، ص 21و35. بيروت، (2006).

<sup>50</sup> من مقدمة الطبعة الانجليزية لكتاب " منطق البحث العلمي" كارل بوبر، ص 43، (1959)

<sup>51</sup> العبودي عبد الكاظم ، تأملات في الخطاب الجامعي، مرجع سابق. 47-74. الجزائر، (2003).

#### 11-4 : التقدم العلمي وعلاقته بالثورات العلمية وبالبحث العلمي:

حتى القرن الرابع عشر، على وجه التقريب، كان رجال اللاهوت يحوزون على العلم والمعرفة وكان اغلب الناس بما فيهم الاقطاع والفلاحون لا يعرفون القراءة. كانت القراءة من اختصاص رجال الدين، بيد ان للكنيسة سلطانها الاقتصادي [أوقافها] وسلطانها السياسي "ارتباط الحكم بالكنيسة"، كانت الكنيسة حارسة وقيمة على أيديولوجيا محددة هي المسيحية، تنطق بلسانها وتلقفها للطبقات الاخرى<sup>52</sup> وبتحالفها مع الاقطاع اصبحا ايديولوجيا مشتركة.

كان الاكليروس يحافظون على العقائد الدينية ويرعونها، وما كان بوسعهم ان يكونوا من اختصاصي العلم والمعرفة. وهكذا كانت الصورة للعالم صورة اسطورية، اسطورة كلية تعين مكان الانسان ومصيره في كون تغلفه القداسة بأسره وتحدد تسلسل المراتب الاجتماعية، وتعبّر في الوقت نفسه عن وعي الكنيسة الطبقي.

وظهر اختصاصي المعرفة العلمية الى حيز الوجود مع نمو البرجوازية وتطورها، لذا فان هذه الطبقات الاجتماعية الصاعدة وهي في طور تشكلها نمت واشتبكت مع الكنيسة تحت واجهات عدة منها الاكتشافات العلمية التي رفضتها الكنيسة ولكنها في النهاية استسلمت لها من خلال قبول تدريجي ادخله اليها رجال الاصلاح، فالبروتستانتية هي ايديولوجيا الرأسمالية التجارية الصاعدة والمتطورة بفعل الاكتشافات والاختراعات التي أخذت طريقها الى التطبيقات الصناعية.

عرف "فرنسيس بيكون" التقدم العلمي بأنه: التخلص من أخطاء الماضي المتراكمة، أو "أوثان العقل"<sup>53</sup>. وفي الحقيقة: ان التخلص من أوثان العقل كان يجبر الايديولوجيا المقدسة على قبول التكيف ويشترط أن يحظى ذلك برضى البرجوازية، التي ما كانت مصلحتها، تتمثل إلا في نزع الصفة المقدسة عن سائر القطاعات العملية، والحال، إن ذلك ماكان يحدثه تقنيوا المعرفة العلمية، بصرف النظر عن المنازعات والخصومات فيما بين رجال الدين والكنيسة وما ينتجونه.

وهكذا تمت علمنة قطاع من القطاعات التي كانت مقدسة، ( حيث أخذ الإله أهيته للصعود من جديد الى السماء، وبالفعل أضحي الرب منذ نهاية القرن السابع عشر، الرب غير المنظور. وعند هذه المرحلة شعرت البرجوازية بالحاجة الى توطيد نفسها وتوكيد ذاتها في شكل طبقة، إنطلاقاً من تصور إجمالي عن العالم، أي ايديولوجيا ما: وهذا بالضبط معنى ما أطلق عليه اسم "أزمة الفكر في اوربا الغربية"، ولم يتولّ تشييد هذه الايديولوجيا، إختصاصيوا المعرفة العلمية، وانما رجال قانون "مونتسكيو"، ورجال أدب (فولتير، ديدرو، روسو)، ولارجال رياضيات "دالامبير"،... الخ وقد حل هؤلاء الاختصاصيون محل الاكليركيين وتسموا بالفلاسفة، أي "محبّي الحكمة"، وما

<sup>52</sup> ماي سي. جيمسون، " تعلم العلم وخيارات المجتمع، تعلم العلم في القرن 21"، مرجع سابق، ص 211.  
<sup>53</sup> ماي سي. جيمسون، المرجع سابق، ص 211.

الحكمة الا العقل، وكان شاغلهم، فضلا عن أعمالهم المتخصصة، ابتكار تصور عقلائي عن الكون والعالم يحتوي ويبرر أفعال البرجوازية ومطالبها....ولسوف يلجأون الى المنهج التحليلي، المبحثي، الذي برهن على نجاحته وفعاليتها في ميدان العلوم وتقنياته. كان غالبية الفلاسفة، بوصفهم اختصاصيين في المعرفة العلمية، متأثرين بالمعتقدات التي رسخت في أذهانهم منذ نعومة أظفارهم. ( 54 .

ويحاول البحث العلمي على فهم الكون من حولنا وتأثير تفاعلاتنا معه. ويتطلب ذلك منهجا حديثا بصفة عامة ان تكون المعلومات التي تضاف الى قاعدة المعرفة العلمية المتفق عليها معلومات يمكن ملاحظتها على نحو مستقبلي بواسطة أكثر من شخص واحد.

وانها عند توفر نفس الظروف تكون مما يمكن تكراره بثبات. بعد تحليل هذه الملاحظات ينطلق العلماء إلى إنشاء توصيفات "فروض" عن العالم، يمكن لها ان تتنبأ بما ينتج عن أحد الاحداث "نتائج"، وكيف يحدث ذلك "السبب"، وبالتالي فإن التقدم يحدث في نوبات ويبدأ عند صنع ملاحظات جديدة وانشاء ادوات جديدة لاختبار النظريات واكتساب تبصرات جديدة<sup>55</sup>.

على الرغم من ان البحث العلمي له علاقة وثيقة بالمعالجات العلمية، الا انه يمتد الى مدى أبعد من مجرد تنمية مهارات المعالجة مثل الملاحظة والاستنتاج والتصنيف والتنبؤ والقياس والتساؤل والتفسير وتحليل البيانات. فالبحث العلمي يتضمن المعالجات العلمية التقليدية ولكنه يشير ايضا الى توليف هذه المعالجات بالمعرفة العلمية<sup>56</sup>.

(وتقوم مهمة الباحث العلمي على وضع قضايا أو نظمة قضايا، وعلى التحقق منها الواحدة بعد الأخرى، أما في العلوم التجريبية على وجه الخصوص فيضع فرضيات ونظم نظرية يتحقق من صحتها بالرصد والتجربة... وان وظيفة منطق البحث أو منطق المعرفة هي إخضاع الإجراءات العلمية وطرق البحث الى التحليل المنطقي)<sup>57</sup>. وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين، ومستهل الألفية الثالثة شهدت البشرية تقدما علميا متسارعا وهائلا في مجالات عدة ونتائجها التطبيقية، في السلم أو الحرب، باتت مذهلة ومقلقة في آن واحد، وهناك صعوبات ملموسة في استيعاب ومواكبة التطور وخاصة في المجالات الثلاث المشكلة لأعمدة الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة في:

1- نظرية الكم.

2- البيولوجيا الجزيئية.

3- المعلوماتية.

54 سارتر جان بول ، دفاع عن المثقفين، مرجع سابق، ص 16 و 18

55 ماي سي. جيمسون، تعلم العلم وخيارات المجتمع، مرجع سابق، ص 223.

56 ليدرمان نورمان ج. البحث العلمي وطبيعة العلم كسياق، مرجع سابق، ص 108.

57 بوبر كارل ، منطق البحث العلمي، مرجع سابق، ص 63.

ولم يعد قياس القفزات العلمية والتكنولوجية بالعقود من السنين؛ بل ان كل لحظة ودقيقة تحمل أخبار التطور العلمي الهائل، ومعها تطرح الكثير من الأسئلة التي تلح على الإجابة على كل المشكلات، فتضاعف أخطار أسلحة الدمار الشامل من نووية وكيميائية وجرثومية ومشاكل البيئة وإفرازات تلويث المحيط الحيوي وتضاعف الإصابات بأمراض كالسرطان ومرض نقص المناعة المكتسبة "الايدز" وغيرها من الأمراض المكتشفة منها والغامضة الأسباب تضاف إلى قلق الإنسانية حول مشاكل أخرى كالجوع وزيادة عدد السكان والتصحر والتغيرات البيئية المفاجئة وغير المعهودة كلها مظاهر ومدعاة للقلق حول المصير الإنساني والحياة على الكوكب وهي في ذات الوقت محفزات تدعو إلى إنقاذ الإنسان من الآثار السلبية الجانبية للتقدم العلمي التي تهدد حياته ومعيشته ووجوده، خصوصا في تطبيقات العلم والتقانة في مجال الحرب والابادة<sup>58</sup>.

ان الذي يشغل بال الفلاسفة والعلماء في آن واحد هو تحديد مسؤولية كل منهما عن المصير الإنساني أمام تحديات لا عهد لنا بها، شاملة، سواء من اجل خلق الرفاه الإنساني، أو في التحديات التي تمثلها تطورات العلوم تطورات احادية القطب في التحكم والسيطرة، وفي اندفاعات لبعض النخب العلمية والسياسية لا يمكن السيطرة عليها.

وإذا كانت ثورة ميكانيكا الكم، والنظرية النسبية والتحكم في الانشطار والاندماج النووي واكتشافات الدقائق والطاقات النووية تترك بصماتها على حياتنا المعاصرة بثورة من المفاهيم الفلسفية والأخلاقية منها، فإن حركة تطور علوم البيولوجيا الجزيئية ستكون الحدث الأهم في تأريخنا العلمي والأخلاقي المعاصر.

فتطبيقات البيوتكنولوجيا والهندسة الوراثية والاستنساخ الجيني سواء الكامل للكائنات أو السعي الى إستنساخ الأعضاء البشرية واستخدامها كقطع غيار للأعضاء التالفة ستعيد الجدل من جديد حول خط العلم المادي بالمفاهيم الفلسفية والدينية والأخلاقية منها. ومن هذا المنطلق أو ذاك فإن العالم منشغل اليوم بوضع الاطر القانونية لمعالجة النتائج المترتبة على نجاح تجارب التعديل الجيني والاستنساخ. في ذات الوقت تنشغل الهيئات الدينية والمجالس الأخلاقية في التعامل مع هذه الأحداث ضمن أطر قنوتها الشرعية ورؤاها الفلسفية<sup>59</sup>.

<sup>58</sup> مجموعة كتاب، الثقافة العالمية، العدد134 ملف خاص عن الوباء القادم، الكويت، (فبراير 2006).  
<sup>59</sup> معرفي مصطفى، لتقدم العلمي المعاصر، عالم الفكر، العدد 2، المجلد 29، ديسمبر2000، ص 10. الكويت، 2000.

#### 12-4 : سمات العلم:

تقدمية وديناميكية العلم وعلاقته بالفلسفة في مساراتهما التاريخية:

#### 1-12-4 : تقدم وتقدمية العلم:

تستخدم كلمة "التقدم"، *progress* بالانجليزية و *progre's* بالفرنسية بصفة عامة، بمعنى الحركة للأمام، ولا سيما تجاه هدف محدد سلفاً. وهي من اصل لاتيني *Progresus*. مشتقة من الفعل *progardi*، بمعنى "السير الى الأمام" او "التقدم في الزمان او المكان أو فيهما معاً". وردت كلمة "تقدم" في "المقولات عند أرسطو"<sup>60</sup>، وتستخدم لوصف التغيير في حركة الجسم واتجاه الحركة له، كما شاع إستعمالها، خاصة في حركة الافكار والنظريات العلمية.

فإن " التقدم العلمي" يعني بالمثل حركة للأمام في حدود المعرفة العلمية، والتي تعرف غالباً بوصفها إقتراباً أكثر الى حقيقة العالم. أي ان التقدم العلمي ينظر اليه بوصفه "إقتراباً إلى الصدق أو تمثيلات للواقع أفضل وأكثر شمولاً"<sup>61</sup>. كما يرد مصطلح "التقدم" في الفلسفة ليعني "الارتقاء من وضع الى آخر يعتبر أفضل من الأول"، وهو وصف لحالة تتصف في حراكها انها "ضد التراجع والتأخر".

لم يكد طلب العلم في الغرب خلال القرون الخمسة الماضية يصادف أي عقبات تذكر، ولو أضفنا ثلاثمائة سنة أخرى في ضوء الدراسات الحديثة الخاصة بحرية الفكر والبحث العلمي التي وجدت في جامعات القرنين الثاني عشر والثالث عشر لأمكننا القول ان طلب العلم في الغرب استمر دون انقطاع أو تراخ زهاء 900 سنة.

لقد أصبح من اليقينيّات اليوم، من خلال الاستمرارية في البحث والجدل العلمي: ان العالم الطبيعي عالم عقلائي منظم، وإن الانسان مخلوق عاقل قادر على فهم هذا العالم ووصفه وصفاً دقيقاً. وترى هذه النظرة: ان البشر قادرون على تعميق الفهم البشري الى حد بعيد، باللجوء الى العقل والوسائل العقلانية وإستخدامها لفهم العالم الذي نسكنه سواءً أكانوا قادرين على حل مشكلة الوجود أم لم يكونوا.<sup>62</sup>

لهذا يعد العلم صورة من المعرفة التي تنمو باستمرار. ووجهة النظر هذه يرى من خلالها، مناصرون لها، من يعتبرون العلم هو النشاط العقلي الوحيد المتقدم، وقد يستخدم التقدم كمعيار لتمييز المعرفة العلمية عن غيرها من المعارف.<sup>63</sup>، وربما كان " كانت" هو أول الاصوات التي

<sup>60</sup> أرسطو: منطق أرسطو"، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، ص 98. بيروت، (1980).

<sup>61</sup> السيد نفاذي، التقدم العلمي ومشكلاته، عالم الفكر، العدد 2، المجلد 29، ص : 13-4914. الكويت، (2000).

<sup>62</sup> توبي أ. هف، مرجع سابق، ص15.

<sup>63</sup> السيد نفاذي، 2000، "التقدم العلمي ومشكلاته"، مرجع سابق، ص 13-49.

تعتبر ضمناً عن وجهة النظر هذه. فلقد أكد: على أن صورة المعرفة هي فقط في " الطريق الآمن لعلم من العلوم".<sup>64</sup> .

ان المشكل المركزي في نظرية المعرفة "الابستمولوجيا"، كان ولا يزال نمو المعرفة، ولكي نستطيع دراسة هذا النمو لا بد من دراسة نمو العلم، أي تقدمه.

وفرت الفتوحات العلمية المناخات لحرية البحث العلمي، ومهدت لإنفجار أخطر الثورات الفكرية والاجتماعية في تاريخ البشرية، ولقد أعطي العلم ، بصفته الشكل النموذجي للبحث الحر، مهمة وضع مجالات الفكر كلها في الوضع الصحيح؛ لذا فان العلم هو العدو الطبيعي للمصالح القائمة كلها، سواء الاجتماعية أو السياسية أو الدينية، بما فيها مصالح المؤسسة العلمية ذاتها، ذلك أن العقلية ترفض التسليم ببقاء الأشياء على حالها، والشك المنظم الذي تتصف به الطبيعية العلمية أمر دائم الحضور، ودائم التشكك بآخر الاقتناعات الفكرية، بما فيها تلك التي طال بها التسليم.<sup>65</sup> .  
ومع نشأة العلم الحديث في القرنين السادس عشر والسابع عشر تم الإدراك بصورة أكثر لفكرة " التقدم المستمر". تميزت الثورة العلمية في هذين القرنين، ضمن أشياء أخرى، بالتقارب الكبير بين العلم والفلسفة، وهي نتيجة مباشرة للطريقة التي نوقش بها العلم في كل العصور القديمة والوسيلة معا.

وقد كان رد الفعل ضد "علم العصور الوسطى"، والذي لم يكن في العديد من الحالات سوى رد فعل ضد أشكال معينة متحجرة له، قد أدى الى تطوير مبادئ فلسفية حديثة. وكانت الفلسفة الحديثة، التي تطورت تدريجياً، تستخدم بالطبع لتحطيم وإزالة معتقدات المدارس المتزمتة. ومع ذلك فقد كان لها دور حاسم في بناء العلم الحديث، وفي الدفاع عن نظرياته الحديثة ضد أسلافها المتحصنة جيداً. على سبيل المثال لعبت الفلسفة دوراً في طرح الحجج التي أيدت النظام الكوبرنيكي، وفي تطوير علم البصريات، وفي بناء علم ديناميكا غير أرسطي، وكانت أعمال "غاليليو" تقريباً خليطاً من المبادئ الفلسفية والرياضية والفيزيائية تزاملت معاً دون إعطاء انطباع بعدم الاتساق بينهما.

يتابع الباحثون تطوير أنساق تفكيرهم العلمية في المجالات كلها، وهي أنساق من شأنها أن تُثير قضايا أخلاقية، وقد تسبب بعض الأذى "من خلال سوء الاستخدام او الجهل العلمي المستمر" ولكن هناك دائماً قدراً كبيراً من المنفعة لبني البشر. وأمام انساق كهذه، حظي العلم بتأثيره أنشطته ومؤسساته ومسلماته الفلسفية والميتافيزيقية، ليتمكن من متابعة بحثه الحر نحو المستقبل. وإذا كان

<sup>64</sup> Pera Marcello, " In Praise of Cumulative Progress", In Change and Progress in Modern Science, J.C.P.H. Reideel(edi),Publishing Company, Virginia, USA ,p.267.  
<sup>65</sup> توبي أ. هف، " فجر العلم الحديث"، مرجع سابق، ص 15.

التفكير لدى الكثيرين من الباحثين في الحقل الفلسفي منصبا على إفرزات "العلم الغربي"، ومنهم من إعتبر العلم الحديث "مرضا غربيا"، وبات يخافه، فما العمل ازاء هذا القلق الذي بات كونيا؟. ان الصراعات الفكرية الكبرى التي عملت على تشكيل الاسس المؤسسية للعلم الحديث هي ذاتها التي شكلت بُنى الحداثة بشكل أعم. وقد اشارت كتابات "ماكس فيبر" إلى أن مشكلة نشوء العلم الحديث ظلت موازية لمشكلة نشوء وتطور الراسمالية في الغرب. كما أن الغرب الحديث تميز عن الشرق، بإباحتها المجال لميلاد العلم الحديث؛ بل في دفعه نحو التقصي العقلاني لكل اشكال التفكير والعمل العلمي الحر<sup>66</sup>.

لم تفتنع الفلسفة الحديثة، بأن تكون مجرد مرآة لعلم يتطور باستقلال عنها، ولا هي قد إبتعدت عنه بالقدر، الذي جعلها تتعامل مع فلسفات بديلة تماما، وإنما لعبت دورا أساسيا في بناء العلم الحديث الذي حل محل المذاهب السابقة<sup>67</sup>.

يرى "نيلز بور": ان التقدم العلمي يكمن في اختيار تعريفات أفضل للمفاهيم العلمية. ويقول في ذلك: (إن الدرس الذي استقيناه من مجموع تقدم العلوم الفيزيائية هو أن بذرة التقدم المثمر تكمن في حسن اختيار التعريفات). كثيرة هي النماذج التي قدمها فلاسفة العلم في القرن العشرين حول التقدم العلمي من داخله، من واقع البنية المنهجية والمفاهيمية والنظرية للعلم. تميز التطور العلمي والتقاني المعاصر بعدة خصائص أبرزها<sup>68</sup>:

- سرعة التطور وتسارع وتيرة الاكتشافات والاختراع والتطبيق وتقلص الفارق الزمني بين الاختراع وتطبيقاته.
- تراكم أسي في المعارف العلمية والتقانية وفي التجديد الصناعي وانتشاره.
- تزايد عمق الاثار المختلفة للتطورات العلمية والتقانية على مختلف جوانب الحياة.
- تزايد الاتباط بين التقدم العلمي والتقاني والتطور الاقتصادي والاجتماعي. - تعاضم قدرة الدول والجهات المتفوقة علميا وتقانيا على التحكم في توجيه مسارات التطور بما يخدم مصالحها، وبشكل خاص من يمتلك التفوق العلمي والتقاني على مستوى العالم والاقطار والمؤسسات ونشوء فجوة متزايدة عمقا واتساعا فيما بين الدول الصناعية "دول الشمال واليابان" ودول الجنوب.
- تزايد دور الشركات المتعددة الجنسيات في توجيه الاقتصاد عموما وفي توجيه التطور العلمي والتقاني على وجه الخصوص.

<sup>66</sup> Max Weber, The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, Scribners, New York, 1950.

<sup>67</sup> Feyerabend, P., K., Philosophy of Science, A Subject with a Greet Past . In Historical and Philosophical Perspective of Science. Roger H. Stuewer(edi) Gordon Breach Science Publishers, pp.172-173. New York,(1989).

<sup>68</sup> مركز دراسات الوحدة العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. "استراتيجية تطوير العلوم والتقانة في الوطن العربي. التقرير العام". ص 45 و 46. بيروت، (1989).

- شيوع الحضارة المادية التي تركز على أوجه الانتاج المادي وتهمل القيم والجوانب المعنوية والانسانية للتقدم، وبالتالي، اخلال توازن النمو بين العلوم البحتة والتطبيقية والهندسية من جهة، والعلوم الاجتماعية والانسانية من جهة ثانية.

- الاتجاه الواضح نحو التركيز على المجالات الواعدة مثل الالكترونيات الدقيقة ، التقانة الحيوية- الاستشعار عن بعد، المواد الجديدة.

#### 4-12-2: الموضوعية العلمية والافتناع الذاتي:

ان الكلمتين "موضوعي" و "ذاتي" كلمتان فلسفيتان مُثقلتان بالاستعمال المتناقض لهما وبالمناقشات الحادة، التي لا تتوقف حولهما. أما نحن فنستعملهما بمعنى قريب من المعنى الذي اعطاه " كانت" <sup>69</sup>، فقد استعمل " كانت" كلمة موضوعي للقول: (...إن ما يميز المعرفة العلمية هو إمكانية وضع أسس مستقلة عن أهواء الأفراد، تقوم عليها. يجب أن تكون في وسع كل فرد التحقق مبدئياً من هذه الاسس وتفهمها." ان كان أمر ما صحيحا بالنسبة لكل امرئ ذي عقل فقد أصبح أساسه الموضوعي كافياً).

(ولعل "كانت" أول من رأى ان موضوعية قضايا الاختبار العلمي ترتبط ارتباطا وثيقا ببناء النظريات وبوضع الفرضيات والقضايا العامة. إذا أمكن تكرار بعض الاحداث "او التجارب" أو أمكن استعادتها، بسبب خضوعها الى نظام قانوني ما، فمن الممكن حينئذ، من حيث المبدأ، ولكل الناس تمحص الارصاد التي قمنا بها والتحقق منها... كما ان التساؤل عما اذا كانت توجد أحداث منفردة لا تتكرر، أم لا توجد، ليس تساؤلا يمكن للعلم من حيث المبدأ، أن يبت في أمره، إنه تساؤل ميتافيزيقي... انه لا يمكن للشعور بالافتناع الذاتي ان يكون أساسا تقوم عليه حقيقة قضية علمية) <sup>70</sup>. ويرى "كارل بوبر" <sup>71</sup>: (... ولكننا لا نؤمن بأن النظريات العلمية قابلة للتأسيس، أي أنه لا يمكن التأكد من صحتها إلا أنه يمكن تمحصها، ولذا سنقول: إن موضوعية القضايا العلمية تكمن في قابلية تمحيصها من قبل أناس عديدين).

#### 4-13: إشكالية التقدم العلمي:

إشكالية التقدم العلمي هي إشكالية تناولها فلاسفة العلم والإبستمولوجيين، وخاصة عند مؤرخي العلم. تتمحور حول سؤال رئيسي هو كيفية تقدم العلم؟ وتتفرع عنه اسئلة مكملة تحاول الاجابة عن طبيعة تراكماته، وهل ان المعرفة العلمية سارت على نحو منفصل ام منقطع؟ أم هي نتاج ثورات متفرقة ومتتالية؟. كما ان المشتغلين في هذا الحقل من العلماء والإبستمولوجيين يرون في تقدم

<sup>69</sup> Immanuel Kant, Kritik der reinen Vernunft, Methodeniere, 2. Aufl, p.848..

<sup>70</sup> بوبر كارل ، مرجع سابق، ص 80.

<sup>71</sup> بوبر كارل ، مرجع سابق، ص 80.

الانسانية هدفا مرتبطا بتقدم العلم، ويسعى العاملون فيه، ومن خلال تطبيقاته التقنية الى تحسين مستوى العيش الانساني.

#### 14-4 : العقلانية والعلمانية في التفكير العلمي:

"الانسان، أو "الجنس العاقل" *Homo Sapiens* ، كما يدعو نفسه بشئ من العجرفة، أكثر أجناس الحيوان التي تعيش على كوكب الارض مدعاة للاهتمام، كما انه أشدها إثارة وإزعاجاً<sup>72</sup>. يرى "برتراند رسل" : (... غير انه من المفيد لنا ان نحاول بين حين وآخر ان نفكر بمثل تفكير هذا "المريخي" المفترض، وان نثمن على ضوء هذا التفكير ماضي جنسنا ومستقبله)<sup>73</sup>.

وفي الصراع العام الذي خاضه الانسان من أجل البقاء وتميز سيطرته على هذا الصراع؛ الا انه كان وما يزال من الأجناس النادرة، الذي رغم محدودية قدراته الجسمية في منافسة الحيوانات الاخرى على الغذاء، وحرمانه من الحماية الطبيعية، من فرو وشعر يحميه من غوائل الطبيعة القاسية وظروفها المناخية، إلا ان ميزته الوحيدة على الآخرين كانت تتجلى في دماغه.

وقد ثبت الانسان تدريجيا، ان هذه الميزة التي فضلتها على الآخرين ظلت تصاعديا، تراكمية، حولته من صيد طريد من الحيوانات المفترسة والصواري الى سيد الارض، منذ أن تعلم استخدام النار حتى الى صنع القنبلة الذرية، واختراع السلاح، الرمح والقوس والسهم ثم استخدم البارود والبنادق وتوصل الى إكتشاف الصواريخ العابرة للقارات والغازية للفضاء.

وبموازاة ذلك طور الزراعة، ودجن الحيوان، وتحكم في انتاجه الغذائي. ونقل الخبرات والمهارات المكتسبة والمنقولة بواسطة التقليد والتعليم عبر أجياله، بواسطة اللغة اولا، ومن ثم الكتابة، حيث خزن المعرفة وحفظها من جيل الى جيل، وبذلك حَسَّنْ، من الناحية البيولوجية، من إداء الوظائف الفيزيولوجية، وخاصة العقلية.

ان اسس هذا التقدم تم وضعها في عهود ما قبل التاريخ، ويفترض ان ذلك تحقق دون خطة مرسومة وهدف مقصود. ويبدو انه منذ حوالي نصف مليون سنة لم يتقدم الذكاء الفطري عما كان عليه قبل ذلك رغم ان الثورات العلمية والتكنولوجية أضحت في تقدم مستمر ومتسارع في حقول المعرفة وفي السيطرة على الطبيعة والتحرر من الخرافة والسحر والشعوذة. وباكتشافه أخطار المجاعات، والفيضانات، وانفجار البراكين، حاول استعمال طريقتين للنجاة: تعلم التقنية التي تحميه كبناء السدود وتخزين وحفظ الغذاء والابتعاد عن مواقع الأخطار المحتملة واستكشاف بيئات مناسبة

<sup>72</sup> تفكير افتراضي يضعه فيلسوف افتراضي من المريخ متخصص في علم العلوم البيولوجية على الارض. يستشهد به برتراند رسل في مقدمة خطابه الذي القاه رسل عام 1965 ونشره في كتابه هل للانسان مستقبل ، مرجع سابق.

<sup>73</sup> رسل برتراند ، مرجع السابق ، ص23. 1985

للعيش والرفاه؛ في حين لجأ انسان آخر الى الأساطير والخوف واللجوء الى تقديم القرابين الى الالهة لتحيمه شرور الطبيعة وهذان الطريقتان الطويلان لمواجهة الطبيعة ، مليئان بالعمل والخوف والترقب إمتدا الى عصور قريية جدا.

كان القرن الثامن عشر هو عصر "زعزعة الثقة في السحر والخرافة والسلطة الفكرية للكنيسة". أعاد التأكيد على سلطة وإمكانيات العقل والابداع الانساني اللامتناهية، وهي الفكرة التي جعلتنا نتحول من الماضي والتمثل به وتوقيره، الى النظر الى المستقبل ومحاولة صنعه ليتلائم واحتياجاتنا وآمالنا".<sup>74</sup> .

ساهم العلم في التحول في موقف الانسان، وخاصة في الغرب، من الكون وكل ما فيه في ذلك العصر، القرن الثامن عشر، وساهم في نقل الفكر الإنساني من نعيم المسيحية الغيبي في السماء بعد الموت الى النعيم العقلاني الطبيعي على الارض.

وهنا يمكن القول، بشكل عام، إن مصدر العقل والعقلانية في أي حضارة من الحضارات يوجد في ديانتها وفلسفتها وقوانينها، وهذه الحقول من الخطاب والبحث تتفاعل قبل ظهور العلم المستقل بذاته، لتنتج مركبات مختلفة من الخطاب العقلي القائم على أساليبها التعبيرية واستعاراتها ومفردات حقولها<sup>75</sup>. وهذا يعني ان كل حضارة، بمكونات ثقافتها، تشيد هندستها الميتافيزيقية الخاصة بها.

إن الأسلاف الذين استغرقوا في عالم الطبيعة، ثم عالم المجتمع، إنتهوا الى الأساطير والغيبيات؛ فالطبيعة غير عقلانية جوهريا وتقوم على عامل الصدفة، والتغيرات غير المفهومة وغير المتوقعة، وعلى غياب السببية.

اما نحن، وفي عصرنا الحديث، نميل الى تأكيد العقلانية على التحكم التقني ونميل الى إضفاء التماسك على هذه الظواهر باستعمال ذات الاسطورة التي ردها الأسلاف بمحاولة تبيين القوى الخفية خلف ما يحدث، بحيث يمكننا التأثير فيها والسيطرة عليها بدلا من السيطرة على الظواهر نفسها: قوى مثل الآلهة او الجن والشياطين التي تصنع على هيئة الانسان. وكانت هذه وسيلة مبكرة لأنسنة الطبيعة وعقلنتها.

فالتطبيعة، رغم قوانينها الفيزياء الصارمة، لازالت مجالاً له نظامه الخاص تترجمه ايضا صورا شديدة الفوضى، كالزلازل، والتفجيرات النووية، والظواهر المناخية، من عواصف وأعاصير وتغيرات مناخية متطرفة وغير متوقعة في كثير من الأحيان.

ان احداث الطبيعة هذه قابلة للتفسير على يد بشر يستخدمون وسائل المنطق والمَلَكَة التي وهبهم الله إياها، "العقل البشري". وان هذه الطبيعة والعقلانية ظلتا الدوافع للحياة الانسانية نحو الاكتشاف

<sup>74</sup> Brown, The Widson of Science, Op, cit.p.101.

<sup>75</sup> Crombie A. C., "Designed in the Mind, Western Vision of Science, Nature and Human Kind ",History of Science 26, ,p. 1-12., 1988

والتجريب. وفي التراث الاسلامي كان هناك عقلانيون مسلمون، منهم المعتزلة الذين كانوا رواد المذهب العقلي في تاريخ الفكر الاسلامي<sup>76</sup>، والذين كانوا على استعداد أن يدركوا: ان للانسان قوى عقلية كاملة، وآمنوا ان العقل عندهم "مَلَكَةٌ" جعلت من الانسان "خالق افعاله" و"الحكم على الخير والشر"<sup>77</sup>.

ونسب هذا الموقف للإنسان ( القدرة الذاتية على الفعل والقدرة الداخلية على فهم المعايير الاساسية للخير والشر)، وقادهم هذا التفكير في الوقت ذاته الى الاعتقاد: بأن(الله لا يمكنه أن يفعل ما يجافي العقل والعدل)، ولكن هذا الاتجاه العقلي هزمه الانتصار السني، الذي جاء نتيجة لتعاليم الاشعري (ت 935 م) في القرن العاشر؛ فقد أعطى الاشعري للشريعة السلطة الكاملة، بحيث غدت كل المسائل العملية، بما فيها الشرع والاخلاق، التي لها مساس بالحياة المعيشة من مسؤولية (الشرع)<sup>78</sup>.

هناك مجتمعات غير عقلانية، رغم بلوغها سن الرشد الحضاري والتقاني وصلت الى درجات من الرفاه الاقتصادي يحميها من غوائل الجوع والامية والمرض؛ لكنها لازالت تعيش على موروثاتها التاريخية والإثنية والدينية. وان التقنية لم تُهَدَّب بعد الكثير من الرواسب التي تتناقض مع الشأن العقلاني في اعتماد أخلاقيات، تتحاشى الإبادة والتدمير الشامل للذات وللغير أيضا. ان إجتياز الانسان منعطف الاخطار التي جابهته في المحيط الطبيعي لم يتحرر من عقد الخوف والريبة والقلق من المستقبل فقد كان قد جلب معه الى عوالمه الجديدة ذلك التركيب الغريزي والعاطفي الذي مكنه من البقاء عبر العصور الماضية بما كان فيه من اليقظة والحذر إلى ان ظل يراقب في خوف وانتباه دائم؛ إذ حول مشاعر الريبة والعداء ضد الحيوانات التي كان يخشاها إلى عداء نحو بني جنسه من البشر. ولم يكن هذا العداء ضد كل الناس لأنه أدرك أيضا ان كثيرا من العوامل التي ساعدته على البقاء تتطلب التعاون الاجتماعي مع الذين تترابط مصالحهم في ذلك التعاون، وعليه اقتصر عدائه على أولئك البشر من الذين خارج الجماعة التعاونية التي ينتمي اليها. وهكذا استطاع ان يوفق بين الحاجة إلى التعاون الاجتماعي عن طريق التماسك العائلي والقبلي من جهة، وبين العنف الغريزي وروح الشك والحرب المنظمة التي غرستها الصراعات القديمة في نفسه.

<sup>76</sup> زينة حسني ، "العقل عند المعتزلة" ، دار الافاق الجديدة ، ، عدة صفحات والفصل السابع والثامن من كتاب

وات بيروت، 1980 ، انظر وات : **Watt, The Formative Period of Islamic Thought**,

197 Edinburgh, Edinburgh, 3University Press,

<sup>77</sup> المرجع السابق، وكذلك حوراني جورج "العقلانية الاسلامية" يعالج فيه المؤلف الناحية الخلقية من فكر

القاضي عبد الجبار -: **George Hourani, Islamic Rationalism, "The Ethics of Abd al-**

**Jabar, Oxford Clarendon Press, 1971,**

<sup>78</sup> توبي هف ، مرجع سابق، ص 87.

وقد أدت الحرب الى قيام اتحادات بين القبائل ثم الى ظهور الاقوام، فالامبراطوريات، فالاحلاف، وكثيرا ما كان التماسك الاجتماعي والضروري لحفظ المجتمع يتهدم، وفي هذا الحال كانت الهزيمة تأتي في أعقاب ذلك الانحلال، ونتيجة لذلك أصبح الانسان، سواء عن طريق الانتقاء الطبيعي أو بادراكه لمصلحته الذاتية أصبح أكثر اقتدارا على التعاون في مجموعات كبيرة وصار يظهر نزعة الى العيش الجماعي في كتلة من ابناء جنسه مما كان يفقده اسلافه. ان العالم الذي نعيشه صاغته وكيفته بشكله الحالي اكثر من ثمانية الاف من الحروب المنظمة. وكقاعدة كانت الشعوب المغلوبة تباد عن بكرة أبيها، أو تفقد قسما كبيرا من إعدادها. وكان النصر في الحرب يعتمد على عوامل شتى، أهمها كثرة عدد السكان وزيادة البراعة التكنولوجية لآلات الحرب، إضافة الى التضامن الاجتماعي الارقى والحماسة الأشد.

وهكذا منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا كانت المهارات التي يبتدعها الذكاء البشري مبعثا لتغير مستمر في المحيط الذي يعيشه الانسان، في حين استمرت الغرائز والعواطف "الى حد كبير" على نفس الحال الذي صور لها ابتداءا لتلائم عالما اكثر بدائية وأشد همجية. وهكذا ونتيجة لذلك، "انه كلما زادت المهارة التقنية تضاعلت الحكمة البشرية واطمأنت... وان قليلا من الحكمة قد تجعل حياة الانسان كلها متمسة بالمرح<sup>79</sup>.

والى أن تتم الهيمنة على كل ما هو غير عقلائي تكون البشرية قد حققت امكانية بقائها ووجودها. وطالما يتم تقسيم البشر الى امم متنافسة متعادية وفق معايير بالغة السوء تمنح هذا وصف "متحضر" وآخر "متخلف" وتمنح الامم لنفسها وصفات التفوق والرقاء ورسالة استعمار الغير وتجعل من اسماء القتلة من قادتها رموزا للبطولة والخلود. فالغرب يخصص الانصاب التذكارية لتخليد نلسن وولنكتون وديغول وبن غوريون.. الخ؛ في حين نجد شعوبا اخرى تنظر الى مثل هذه الاسماء انها رموز قتلة وقادة مجازر ضد الجنس البشري.

لقد طرحت الفلسفات الاستعمارية والعنصرية التي ادانها الفيلسوف البريطاني "برتراند رسل" عن اقوالهم في : (... ان ذبح الأجانب ربما كان ضروريا في بعض الاحيان لمصلحة الجنس البشري عموما، على انه عندما تم تبرير العمل البوليسي، كان في الغالب "التبرير" يأتي تعبيرا عن "الضراوة والكبرياء القومي"، ان العنصر البشري لم يستحق الاحترام بسبب براعته في القتل. وان اية حجة يستطيع ان يقدمها من قد يكون آخر انسان حين يتقدم أمام قاضي العالم السفلي، كما جاء في "كتاب الموتى" المصري الفرعوني، مترافعا عن الجنس البشري مدعياً: ان انقراضه مدعاة للأسف)<sup>80</sup>.

79 - رسل برتراند ، مرجع سابق، ص 25 و 26.

80 - رسل برتراند ، هل للانسان مستقبل، مرجع سابق، ص 29.

والعصر بدأ بقناعات فلسفية هامة عن الطبيعة البشرية، بدأ يتعود نحو إلزام أخلاقي، لكي يتماهى البشر مع الكون والعالم الذي ابتدعوه واكتشفوه في نطاق كرتهم الارضية على الاقل. لكن هذا العالم، وهذا الكون المستكشف، لازالت نخبه العلمية والتقنية في أبراجها، ولا ترى منها إلا فرض الإيرادات الدولية على الحقائق الاقتصادية، والسيطرة عليها بأسلحة التقنية نفسها، نتاج عقلانية العلم العقل البشري، كما يطرحون . (هؤلاء أسكرتهم سيطرتنا المعاصرة على الطبيعة فضلوا الطريق وأخذوا يسعون للتحكم بغيرهم من البشر<sup>81</sup>).

(ان هذا هدف مخادع كالضوء الذي يبدو في الليل أحيانا فوق المستنقعات، وهو يعمل على ارجاعنا الى المستنقع الذي نجونا منه مؤخرا بعض النجاة<sup>82</sup>)". تتجلى أفضلية العلم في نشر التقدم على الأرض وانتشار المنطق والعقل<sup>83</sup> .

لقد بدأ اكتشاف الكون الجديد، وفق مدركات العقل وفهمه للواقع، وبذلك ادرك الناس ضرورة إخضاع السلوك وفقا للطبيعة والسيطرة على البيئة وعلى قدرات الانسان نفسه<sup>84</sup>. وبحلول القرن التاسع عشر أضحت عقيدة التقدم في العلم أكثر ثورية، بدعم جزئي ونتيجة للمثالية المطلقة عند هيجل (1770 - 1830)، التي قدمت فلسفته الطبيعية، ونظرية في التطور كانت جزئية؛ لكنها سبقت داروين، ثم تحققت بصورة أكثر، كنتيجة قال بها "تشارلز داروين" (1809 - 1882) ، وهي التي أثرت بدورها تأثيرا كبيرا في فلسفة كل من "اوجست كونت"، و " جون ستيوارت مل"، و " هربرت سبنسر"، و"كارل ماركس"، والعديد من المفكرين الشارحين لمذهب التقدم<sup>85</sup>، من أمثال "وويل" (1794 - 1866) ، الذي عني بالاستقراء، وإعتقد: ان الاتجاه الكلي للبحث العلمي يتضمن منحى تقديما تجاه تأسيس ناجح للأفكار الأساسية وكشف "الحقيقة". وتقدمية العلم، حسبه: انه من حين لآخر يمكن انجاز عمليات ناجحة للاستقراءات، وهو الاتجاه نفسه الذي يأخذ به التجريبيون والوضعيون والوضعيون المنطقيون<sup>86</sup> .

81 - رسل برتراند ، مرجع سابق، ص 30.

82 - رسل برتراند ، مرجع سابق، ص 30.

83 - برنتون كرين ، تشكيل العقل الحديث، سلسلة عالم المعرفة، ص 177. الكويت، (1984).

84 - برنتون كرين ، مرجع سابق ، ص (181-182)، (1984).

85 - Durbin, Paul, T, Scintific Progress in Dictionary of Concepts in the Philosophy of Science, Greenwood Press Inc., ,pp. 278. USA, 1988

86 - السيد نفادي، مرجع سابق، ص 16] و The Arch of Knowledge، O . David, Ldroyd, Methuen and Co.,Ltd, New York, ,pp.159-160 London, 1986.

اما "دوهيم" (1861 - 1916) فقد عبر عن عقيدة التقدم في كتابه الشهير "هدف وبنية النظرية الفيزيائية"، وطرح من خلاله: ان التقدم العلمي في اغلب الاحيان في مد متصاعد<sup>87</sup>. منذ أوائل الستينيات، وبالتحديد منذ ظهور كتاب "لودان كون" الشهير: (بنية الثورات العلمية) برزت على السطح خلافات كثيرة حول طبيعة التقدم العلمي: هل هو تراكمي أم ثوري؟ وما هي نماذج تقدمه؟.

لقد اثارت مثل هذه الاسئلة نقاشات واسعة، أفرزت موقفين متعارضين:

الاول: يرى التقدم في العلوم، بوصفه سيرورة متصلة وهو ما يطلق عليه "التصور التراكمي للتقدم". أي هناك تطور متواصل (التطور العلمي يتمثل في تراكم المعارف والنظريات وكل نظرية جديدة هي التالية لنظرية سابقة لها، وتكون كل نظرية جديدة هي محاولة لاصلاح او تعديل سابقتها... وهكذا دواليك تتراكم الحقائق فتؤدي الى تقدم العلم).

الثاني: يرى المسار للتقدم في العلوم متقطعا تتخلله ثورات<sup>88</sup>.

أضحت العقلانية جزء من الخطاب العلمي والتقني لاجل بعث الطمأنينة ومحاولة للبرهان على حتمية التعايش مع التقنية<sup>89</sup>.

وأصحاب هذا الخطاب يرون: ان التقنية التي هي نتاج للعلم الذي يتسم بالعقلانية؛ لذا فان التقنية التي يتم التوصل اليها بعمليات عقلانية، هي ذات طبيعة عقلانية؛ إلا أن العقل يعني، ضمنا، البشرية. والعقلانية هي العامل المشترك بين البشرية والتقنية. وبما ان التقنية نتاج سيرورة عقلانية بشرية تحديدا، فكيف نقول بوجود تناقض بينهما، أو ان التقنية قد راوغتنا وأثبتت أنها أمر سيء<sup>90</sup>. وفي الغرب حينما يقال، عن حق: ان العقل والعقلانية أنهما شديدا الاختلاف "ميتافيزيقيا" ينجم عن هذا اعتباران:

أولا: رغم انه قد يكون للتقنية أصلها في العمليات العقلية، فإن الخطاب عن العقلانية، الذي أضحي الآن إحدى البديهيات، له هدف تبرير التقنية وتطبيقاتها بواسطة سلطة عليا، وفي نظرها أيضا.

ثانيا: هذه السلطة، هي العقل البشري، وهم في الغرب، قد تم تدريبهم على العقل وبالعقل، لكنهم يعترفون أيضا "وليس لدينا إجابة على هذا الخطاب بما فيه من تشويش متعمد بين العقل

<sup>87</sup> - السيد نفادي، مرجع سابق ص 12 انظر كذلك: Duhem Pierre, The Aim and Structure of Physical Theory, Princeton Univ. Press, , pp.38-39. New York.1962

<sup>88</sup> - هو عكس التصور التراكمي يرى ان التقدم العلمي يتمثل خلال الثورات العلمية.

Kuhn T., , la Structures Re'volution des Scientifiques, p.92, 1983

<sup>89</sup> Crombie A. C., Designed in the Mind, Western Vision of Science, Nature, and Human Kind , History of Science 26, , , op. pp . 1-12, 1988

<sup>90</sup> الول جاك ، خدعة التكنولوجيا، مرجع سابق، ص 185.

الحقيقي والعقل البرجماتي.<sup>91</sup> وبهذا الصدد يوضح Dupuy و Dumouchel جيدا ( ان العنف الذي يمارس تحت راية العقلانية الادائية التقنية هو في الحقيقة، وبشكل أكثر عمقا، نتاج توجه دائم لا يملك وسائل التعبير عن نفسه، أي "الحضور الطاغي للمحاكاة الذي يستحث تجريد الطبيعة البشرية من العلاقات الانسانية وعقلنتها الباردة غير المبالية")<sup>92</sup>.

ينتهي "جاك الون" إلى: (... لهذا، لا أرى ان العلم يمكن أن يكون شاهدا على براءة التقنية الجديدة أو أن باستطاعته إضفاء المصدقية عليها. فكل ما بوسع العلم فعله هو أن يحل إحدى المشاكل الانسانية الجوهرية، أي مشكلة التكيف مع الفوضى التي تسببت فيها عقلانية التقنية نفسها، لهذا، أفضل التحدث عن نقيض العقل بدلا عن لا عقلانية التقنية)<sup>93</sup>.

#### 4-15 : التقدم العلمي المركب وصلته بالخطاب الاجتماعي والسياسي والاخلاق:

##### 4-15-1: التحديات والمخاطر والرهانات في التطبيقات العلمية :

تتسم تطورات العلوم في الحاسب والهندسة الوراثية والفيزياء والتقانة المرتبطة بها بطرح خطاب سياسي تكثر فيه المصطلحات الثلاث التالية:

1- التحديات .

2- المخاطر.

3- الرهانات.

4- الخيارات.

وفي جميع الحالات هناك اصطلاح له من الدوافع والاستجابات ما يدعو الى إستعداد ما تجاه كل حالة؛ فالرهان يعني الاستعداد بالجرأة، والتحدي يتطلب شجاعة الاستجابة للتحدي الذي يفرضه عالم مضطرب متحرك يدعو مجتمعا للتنافس والصراع. والمخاطر، من مصطلح "المخاطرة"، stake يبقى مصطلحا غامضا. فهو يعني أولا: ان كل شئ ما هو الا لعبة الى حد ما. وليس لجديتها حد نهائي، فلعبة monopoly ، ماهي الا لعبة على شاكلة الواقع؛ لكن الواقع أصبح الآن لعبة، وعندما نفكر في الطبيعة المحتملة لألعاب حاسب جديدة، فاننا ندرك ان الألعاب التي نلعبها لا تعتمد على مهارتنا او معرفتنا او قوتنا لكنها ليست ايضا أشياء تعزى الى الصدفة المختصة.

وبغض النظر عما قد تكون عليه جدية الموقف فانه مجرد لعبة فقط. لكن المشكلة تكمن في ان نعرف على وجه اليقين قدر ما نضعه في اللعب. فحجم إنفاقنا يعتمد على جدية او خطورة اللعبة. والأهم هو ان نعرف أبعاد ما نخاطر به في هذه اللعبة التي لا نسيطر عليها. فربما تشمل كل

<sup>91</sup> الول جاك ، مرجع سابق، ص 196.

<sup>92</sup> الول جاك ، مرجع سابق ، ص 196.

<sup>93</sup> الول جاك ، مرجع سابق ، ص 197.

مستقبلنا وانه اذا تحددت المخاطرة جيدا فيمكننا ان نخسر كل شئ او نكسب كل شئ. ثم ما تلبث اللعبة ان تصبح لعبة الفوز بالكل أو لا شئ. والعنصر الاساسي هو أن نرى بوضوح، ليس قواعد اللعبة فحسب؛ بل ما نقرر المخاطرة به.<sup>94</sup>

أما الرهان: فهو هل سيستطيع البشر من السيطرة على التقنية، وكبح جماح الحروب بأسلحة الدمار الشامل بواسطتها؟.

الامر المرتبط بالاجابة على مثل هذا السؤال يتخذ أشكالا مختلفة: فثمة رهان يعتمد على سياسة مُدبّرة مُعينة، ويراهن آخرون على الديمقراطية، بحيث يمكن توجيه التقنية بإضفاء الديمقراطية على المجتمع: ويرى في ذلك نموذج السيطرة على الطاقة. ولا يزال آخرون يراهنون على أن القانون يمكن ان يتسيد التقنية: أي القانون الدولي، في صورة مؤسسات دولية جديدة ومعاهدات دولية ومواثيق وقواعد تحدد المسؤولية. فعولمة القانون سترقى الى حد عولمة الاقتصاد، وكما لاذ أخير يفضي الرهان إلى لامركزية المجتمع وتنظيمه الذاتي.<sup>95</sup>

ومن الرهانات ايضا تعول على التكنولوجيا نفسها التي ستنتج في النهاية ثقافة تقنية سنتيح لنا التنبؤ بمراحل التطور المتلاحقة والاثار العكسية للتقنيات ومخاطرها.

وهناك، من يراهن أيضا على ابتكار وخلق بشر جُدد يمكنهم استخدام التكنولوجيا على الوجه الصحيح، حتى يمكن تحقيق أفضل نتيجة، لا تؤدي الى إبطاء التقدم أو تولد آثارا عكسية.

وإذا كان ما يحدث أماننا من ابتكارات يتجاوز ثورة علمية وصناعية ثالثة، وما يجري يتجاوز ماهو صناعي فكيف سنصف المجتمع. هل هو مجتمع القوة النووية؟ ام انه مجتمع استهلاكي؟ ام مجتمع التعليم، ومجتمع التقدم؟. وفي كل مرة لا يمكننا قياس التغيير والتقدم، فهما غير قابلين للقياس؛ بمعنى انعدام مقارنتيهما بأي شئ آخر. ومن هنا فان نسبية المعايير الأخلاقية ستكون هي السائدة، رغم ان كل شئ يبدو متغير ظاهريا، لكنه لا يتغير جوهريا.

هناك تناقض بين المجتمع التقني والنظام التقني، ولا يجوز الخلط بين الاثنين، والظن بتناسقهما ؛ فللنظام التقني مواضعه المحددة في المجتمع، فهو يهيمن على كافة التوجهات والبنى الاجتماعية ، لكنه لا يتضمن كل شئ. وهكذا يظل المجتمع خارج النظام، كما ان مؤسساته ليست تقنية محضة؛ فالمجتمع يحمل بين جنباته مجموعة كاملة من الأيديولوجيات، وميراث الماضي والاساطير.<sup>96</sup>

ورغم ان الزمن المعاصر تجاوز الاساطير ويجري التحول كل يوم والانسانية تتغير ويحاول"الخداع التكنولوجي" تحييد الاخلاق بطريقة يصعب ان يكون فيها بعد الان أي صراع

<sup>94</sup> الول جاك ، خدعة التكنولوجيا ، مكتبة الاسرة ، ص 15. القاهرة ، (2004).

<sup>95</sup> الول جاك ، خدعة التكنولوجيا، المرجع السابق، ص 17.

<sup>96</sup> -مجلة "تايم"، العدد الصادر بتاريخ 31 (ديسمبر/كانون الأول 2005).

صريح أو مستتر. والتغير في العقلانية، وكبح الاحكام الاخلاقية مع صياغة ايدولوجية جديدة للعلم فيها من خطاب إغواء التقنيات الذي يصنع الخداع التكنولوجي على الجانب الآخر.

#### 4-15-2: مناهضة العلم : " نرجو إقفال المنظم " (Spigot)

في عام 2005 اختارت مجلة "تايم"<sup>97</sup> العالم البرازيلي " جاكوبو مينسكوف" <sup>98</sup> ، البطل المناهض للعلم، ليكون شخصية لذلك العام. ويرجع إلى "مينسكوف" الفضل في إثارة الشعور العالمي المتنامي بالنفور من "محراب العلم".

يرى مينسكوف: ( أن العلم والدين متوازنان، ولكن كلا منهما له نسقه المعرفي الخاص به، فالعلم والدين يسعيان إلى إستكناه أسباب الوجود، ولكل منهما أحباره ومريدوه وأساتذته، وكلاهما يحاولان التأثير على القيم والتربية. والدين، سواء أكان حقاً أم باطلاً، يعطي الأمل والمغفرة، أما العلم، [كما يقول مينسكوف] فيولد الشهوة إلى المزيد من العلم).

ويهاجم "مينسكوف" ( الجهد العلمي الذي يتميز "بعزلته المتعالية المتغطرسة، ولغته المنفصلة عن لسان العامة، وقواعده التي لا تسمح بدخول الرواد الجدد إليه كالأندية الخاصة، وقواعد السلوك غير المكتوبة وارتباطه بالإحساس المتضخم بالذات).

وكما قال "مينسكوف" في خطابه الذي ألقاه بمناسبة تسلمه لجائزة الإنسانية: إنه يهاجم العلم لأنه ( يشجع على الإفراط في الاستهلاك، ويبعث الآمال الكاذبة في نفوس المرضى وخصوصا الفقراء منهم، ويبعد التمويل المحدود عن الأهداف الاجتماعية الأكثر أهمية، ويحصر العالم في نزعة استعمارية جديدة قائمة على الاستهلاك)<sup>99</sup>.

وأسوأ ما في الأمر، أن ما يسميه العلم بالتقدم له جانب خفي مظلم يتمثل في نتائجه غير المتوقعة، التي يمكن أن تدمرنا جميعاً لأول مرة في التاريخ. وإذا كان "مينسكوف" أحياناً يتعرض للاستنكار والنقد، على أنه من أعداء التقدم التكنولوجي المحدثين، فإن مقولاته البليغة المقنعة تتجاوز أصدائها في شتى أنحاء العالم، حيث تمثل الأساس لما يعرف "ببقايا العلم". ويقول أيضاً: (... إن العلم السليم لا علاقة له بالأخلاق).

وبعد أبحاثه التي أجراها في مرحلة ما بعد الدكتوراه في جامعة بيل، بدأ حياته المهنية الواعدة عندما توصل إلى إنتاج نوع فائق الصفات من القمح، عن طريق التحكم في الصفات الحيوية. ولكن راعه أن يرى بحثه المنشور يُستغل في إنتاج "نسخة إرهابية من هذا القمح" ، أي ذات نوعية بها

<sup>97</sup> جاك الول، خدعة التكنولوجيا، مكتبة الاسرة، ص 23. القاهرة، (2004).

<sup>98</sup> ولد مينسكوف جاكوبو في مدينة ساو باولو 1987 ودرس العلوم في معهد برازيليا للفيزياء الحيوية حيث تعرف على علوم الوراثة والتكنولوجيا الحيوية الحديثة.

<sup>99</sup> مجلة "تايم"، العدد الصادر بتاريخ 31 ديسمبر/كانون الأول 2005.

"ثغرة"، تمكن الإرهابيين من طلب فدية، وإلا دمروا المحصول. وكان ذلك هو نواة ما أصبح الآن يعرف بالمصطلح الشهير "مكائد الخبز" التي حكمت منذ أعوام وأدت إلى حدوث مجاعات ضخمة دون مبرر، وأفضت إلى تدمير النوعية الفائقة من القمح، وفي آخر الأمر إلى القبض على الإرهابيين، بعد أن حصلوا على مليار من الدولارات، لم تُسَرَّدُ حتى الآن. ولم يكن "مينسكوف" بالطبع يقصد حدوث كل هذا عندما نشر بحثه، لكنه حدث على أي حال.

وكانت الحقيقة واضحة جلية في كل مكان حوله، فالكائنات المعدلة جينيا والمفرج عنها بصورة عفوية أو مقصودة أدت إلى تدمير الغلاف الحيوي للأرض. والتكنولوجيا الحيوية أصبحت تستخدم لبناء أنواع جديدة من أسلحة الدمار الشامل. والتنوع الحيوي أصبح يعاني من التسويق الفج للنوعيات المعدلة جينيا والمسجلة بالبراءات لأصحابها واحتكارها من لدن الشركات عابرة القارات..

ورأى "مينسكوف"، هذا الحال في مجالات أخرى أيضاً، فقد أصبحت العلوم موضوعاً "ساخناً"، وأصبح الاكتشاف يؤدي إلى اكتشافات أخرى تتناغم معا لتفتح مجالات جديدة تماماً من البحث بين عشية وضحاها. لكن البعض أساءوا استغلال الاكتشافات العلمية الجديدة فانحرفوا بها عمداً أو سهواً عن مقاصدها الأصلية، حتى أصبحت هذه "الزلات" في آخر الأمر وسيلة جديدة لقتل أعداد كبيرة من البشر، وأسر سلوكياتهم أو السيطرة عليها، وتكوين أفكار جديدة أو تشويه أفكارهم الأصلية.

وهكذا بينما كانت الوعود المبكرة بخصوص شفاء الأمراض وعودا واقعية وحسنة النية، فإن التوقعات المبالغ في التفاؤل أصبحت في آخر الأمر أداة لزيادة التمويل المخصص للأدوية والمنتجات الجديدة، أو لتبرير ارتفاع أسعارها.

راع "مينسكوف" ما رأى وعندما زار مسقط رأسه في ساو باولو ذات مرة، وسأله أساتذته القدامى (يا جاكوب، كيف سيؤدي ما تفعله إلى القضاء على الفقر والمرض؟). لم يجد جواباً شافياً. وسرعان ما أدرك "مينسكوف" أن هناك شكاً كامناً في النفوس من قيمة العلم في عالم الواقع، وأن هناك حفنة من العلماء يفكرون على شاكلته في أماكن مختلفة من العالم، فأتجه إلي الإنترنت، وخرج إلى الشارع وأروقة السلطة، وقال ما معناه (كفانا من العلم ما لقينا). وعلى أثر نشاطه السياسي المبكر تكونت اللجنة الدولية لمراجعة العلوم؛ بهدف مراجعة المقترحات العلمية المثيرة للجدل، ووضع حدود للمخاطر المتوقعة، وإدانة العلماء الذين يتجاوزن الحدود التي تضعها اللجنة. لكن اللجنة لم تسلم من القصور، فقد اعترضت السياسة طريق التقييم السليم للمخاطر. وكان التمويل هو العامل المهيمن عليها؛ حيث إن التمويل السخي يمكن أن يغطي على الكثير من

المخاطر. كما أن العقوبات المفروضة على العلماء بصفتهم الفردية كادت أن تكون نوعاً من التكريم لهم.

وكانت هذه الظروف كفيلة بأن تقود أي شخص أقل عزمًا من مينسكوف إلى الاستسلام، لكن "مينسكوف"، الذي مر بحالة من الإحباط استمرت ثلاثة أعوام عاد لمناصرة القضية مرة أخرى، فكشف في العام ما قبل الماضي عن فساد اللجنة التي ساعد على إنشائها (وهذا هو سبب اختياره شخصية العام في مجلة "تايم" تكريماً له)، وقال قولته المشهورة: (إن الهواء مشبع برائحة الفساد العفنة في كل مكان. لقد فشلت إدارة العلم، أعطونا إدارة العلم).

وفي العام الحالي انكشفت فضيحة جديدة اجتذبت انتباه الرأي العام، فقد كشف معهد البرازيل للأمن عن وجود مختبر متطور مخنف داخل جامعة برازيلية مرموقة يعمل على تطوير سم غير محدد الهوية، ولكن يبدو أنه نوع قاتل ويمكن أن ينتشر عبر الهواء، وهو نوع شديد الفتك من الجمرة الخبيثة. وزعم مدير المختبر: أن البحث مشروع، ولكن عندما طلب معهد الأمن منهم الإفصاح عن رعاة المشروع لم يستطيعوا إلا أن يسيروا إلى شركة أدوية كغطاء للبحث. وهذه الشركة معروفة لدى المعهد بارتباطها بالقضايا الإرهابية؛ لكن مدير المختبر قالوا: إنهم لا علم لهم بهذه الروابط الإرهابية، لكن الجهل، ليس بعذر كما قال المعهد. ومن ثم دعا "مينسكوف" وآخرون إلى مقاضاة مديري مختبر الجامعة والباحثين فيه، متهمين إياهم بالمساعدة على ابتكار أسلحة الدمار الشامل. ولا تزال القضية مفتوحة حتى الآن ولم تنته إلى حل.

تحتل المناقشات السياسية أو الاقتصادية، وخاصة حول البيئة والطاقة أو نظم الدفاع الصاروخي والتسلح بأسلحة الدمار الشامل تكشف أن كل فريق يعمل نمطياً على حشد العلماء لدعم حججه وتوضع قضية الأمن القومي الدفاع عن الرفاه والتقدم العلمي مبررات لصنع الخيارات لكل فريق.

كثل "دونالد ستوكس"<sup>100</sup>: (يجري البحث بصنع الخيارات) على أن الباحثين أنفسهم لا يصدر عن كل هذه القرارات، ولا حتى أغلبها. لأن التمويل العام لأبحاث العلم والتقانة، وخاصة في الولايات المتحدة، تفرضها خيارات وتوجهات معينة، سواء من وكالات التمويل الحكومية أو الصناعة أو الشركات الكبرى التي تستثمر بما يسمى اقتصاد المعرفة.

وان البشر يتكيفون بصورة سيئة مع التقنيات الحديثة بسبب طبيعة روحهم التراجعية فهم لا يطوعون أنفسهم للألات مثلما لا يتم تطويع الآلة للبشر. ورغم أن سوء التكيف مع التكنولوجيا الذي يفرز اضطرابات فيزيولوجية وحتى نفسية واختلالات في منظومة القيم والسلوكيات والأخلاقيات؛

<sup>100</sup> - Donald Stock, "Pasteur' s Quadrant, Basic Science and Technological Innovation,,Brookings Institutaion Press, ,p.6, Washington, D.C, 1977

الا ان التضاد بين الآلة والإنسان قد طرأ عليه تغييرا كبيرا ليصبح متركزا في الجهاز العصبي مسببا الاضطرابات العقلية والذهان او قلة النوم واضطرابه.

#### 4-16: الخطاب العلمي والتقاني:

هذا الحقل يسميه " يانيكود " Janicaud "صبغ الخطاب التقني بالتكنولوجيا"، أي اضافة الطابع التكنولوجي على الخطاب التقني فيقول " يانيكود": (... الخطاب التقني ليس خطابا تقنيا أو مستقلا تماما، بل هو لغة طفيلية تستند الى التقنية وتساعد على انتشارها أو تجعل أي تراجع جذري أو تساؤل محدد يحيط بالظاهرة التقنية شبه مستحيل، فلكل تقنية مفرداتها وشفرتها وقوائم وقائعها ومشاكلها وسيناريوهات تشغيلها الخاصة).

وأمام هذا يقول "جاك الول": (... وهذا ليس بالخطاب التقني، فهو ليس خطابا علميا أو فلسفيا أو شعريا... انه في الجانب الاكبر توظيف للغة المسموعة المرئية، انه اعلان)<sup>101</sup>. الخطاب التقني يشتمل على "التفكير" التكنوقراطي؛ لكنه يحمل ايضا الاطراء والمدح السياسي الايديولوجي السمعى البصري المتعلق بالمنافسة الكونية والانتاجية وسيادة بعض الدول، واذا ما ساد هذا الخطاب، فان له وظيفة اجتماعية وتقنية، يوظف بدور ناقل المعلومة تبعا لارادات اصحاب الخطاب الذين يتلاعبون به.

ولا يخلو هذا الخطاب من اثاره القلق الانساني عندما يستغل للتمويه عن اهداف اسلحة الدمار الشامل الخفية المستعملة في ظروف السلم ومن دون حرب. وخطورة هذا الخطاب في مثل هذه الحالة لا تقل عن خطورة الاسلحة نفسها، طالما ان الجنس البشري يقف الآن على حافة مغامرات خارقة ستولجنا من جديد الى عالم الاسطورة، ولكن في عوالمها السفلية حيث الخوف من المجهول القادم.

والاخطر ما في هذا الخطاب انه يدعو الى استعمال الخطاب الاخلاقي والفلسفي وطرح قضايا حقوق الانسان ويدعو الى تمجيد الجنس البشري، ولكن مثل هذا الخطاب ظل يحمل انتقائية تشير في العديد من مفرداتها الى تمجيد وتعظيم اصحاب القوى النووية ومالكي القدرات الاقتصادية المتحكمين بقراب سكان العالم. لقد أضحى التعظيم للتقنية مرادفا للتعظيم لمالكها.

وان "حقوق الانسان" التي هي جزء من التوجهات الانسانية الحديثة باتت شعارا إعلاميا اكثر مما هو عدالة تشمل الجميع. والحقوق هذه تثير جدلا، ان كانت مجرد مصطلح قانوني لا ينطوي الا على دلالة قانونية يمكن الادعاء والمطالبة بها للجميع وليست حكرا على القوى العظمى فقط. خاصة في ما يتعلق بحق امتلاك وتجريب اسلحة الدمار الشامل ومنع الغير من الوصول اليها.

<sup>101</sup>- الول جاك ، خدعة التكنولوجيا، مرجع سابق ص138

لا توجد نصوص مباشرة بين الأخلاقيات التي تحكم البحث العلمي في اسلحة الدمار الشامل والحقوق المترتبة لضحايا استخدام تلك الاسلحة والعقوبات التي يمكن إنزالها بمن ستسبب في الدمار والأضرار، وكذلك بمن يرفض منح تلك الحقوق ومن يسعه القانون الدولي من احالة السلطات أول الدول أو المجتمعات المقصرة الى العدالة الدولية وأمام أي محكمة طالما ان الفيتو "حق النقض" لأي قرار لمجلس الامن إمتياز للدول الخمس الدائمة العضوية وهي التي تمتلك أسلحة الدمار الشامل.

وإذا كانت قضايا "حقوق الإنسان" قد أثّرت في نفس المكان والزمان التي تفجرت منه التقنية "بعد الحروب المروعة"، فقد جرى التأكيد على "كرامة الانسان" في كل وقت كانت فيه الانسانية تستحوذ على مزيد من القوة غير المسبوقة. ولهذا فليس مصادفة ان يثار لغط حول حقوق الانسان وان يصبح الموضوع جزء متأصلا من خطاب التقنيات النووية خاصة<sup>102</sup>.

ومنذ مقولة "كارل ماركس" "الإنسانية أئمن رأس مال" *Humanity, The Most*

*Valuable Capital*

والبشر "هم الثروة الحقيقية"، على حد قول "جون بودن" *Jean Bodin*، فإن مثل هذه المقولات كانت تتوافق مع وجهة النظر الصناعية، ومع من كانوا يعتقدون: "ان قوة أي بلد تكمن في عدد ونوعية سكانه". ومن وجهة النظر الصناعية يعني ايضا: ( ان البشر هم أئمن عناصر الانتاج، والتي يعتمد عليها كل شئ آخر. ولهذا فإنهم أئمن العناصر، ويجب حمايتهم واستخدامهم بحكمة، ويجب الحصول منهم على ما يمكنهم تقديمه والحرص على عدم فقدانهم).

من هذا النص وغيره يعود خطأ الاستغلال الرأسمالي الى انه يبدد البشر ويجعل ظروف الحياة مستحيلة لدرجة مات الملايين من العمال وهم في شرخ الشباب. وإذا ما عومل البشر معاملة جيدة من قبل بعض الرأسماليين الجدد الا لاعتبارهم جزء هاما من رأس المال النقدي والتقني للمؤسسة الرأسمالية.

ساد الخطاب الإنساني منذ حوالي عام 1900، ولكن نظرة متفحصة له من زاوية موضوع هذا المبحث نجد نقيضه تماما، فقد كشفت الممارسات الاستعمارية والغزو الامبريالي القديم والمعاصر أبشع أنواع الاستغلال، وفي كل مرة كانت قوة السلاح وتفوقه هي الحاسمة لفرض الاستسلام او الابداء. وفي أوروبا شهد العالم حربين عالميتين وحشيتين سقط خلالهما ملايين البشر، بشكل لم يشهده العالم من قبل. وشهدت جبهات القتال تمييزا عنصريا في ابداء الخصوم. فقد حشدت فرنسا الاستعمارية آلاف الجنود المجندين بالقوة من أصل جزائري، وضعتهم في الخطوط الامامية عندما

<sup>102</sup>: *Hammana Boukhari , Bio-Ethique et Défis Scientifiques, Actes du XXIX éme Congrès de l'ASPLF , Nice, France, édit. J. Vrin, Paris. (2004).*

علمت ان القوات الالمانية تتهيا لاستخدام الاسلحة الكيمائية في جبهات الحرب العالمية الاولى.<sup>103</sup> وقبلها في عام 1852 تم إحتلال مدينة الاغواط بعد إبادة ثلث سكانها باستخدام الأسلحة الكيمائية. وشهدت سنوات الاحتلال الفرنسي صنوف التجارب والاسلحة في معسكرات الاعتقال ومراكز التعذيب الاستعمارية لتطوير أساليب تعذيب مسعورة ، استخدمت فيها التقنيات لكسر صلابة الخصوم والمقاومين.

وفي كل مرة يكتشف النقيض في الخطاب الانساني، ولم نجد تفسيراً له الا انه كلما أفاض الناس في الحديث عن القيم والاخلاق والفضائل، والحق في الاسهام في المشروع الانساني للرفاه الجماعي للبشر؛ ألا أن الواقع يكشف الادلة على غياب ذلك الخطاب. وكلما زادت قتامة الواقع صارت الإفاضة عن حديث الحريات والمساواة والحق أكثر، ويكون الخطاب براقاً أكثر.

ان التقنيات الحربية في أسلحة الدمار الشامل أتاحت توسيع دائرة الكوارث وإطالة أزمنا العذابات المتسببة عنها. والتقنية تظل وراء طلب المزيد من الخامات والطاقات التي تحتاجها فهي ايضا دفعت نخبها الى اتخاذ القرارات السياسية لتهور الدول البوليسية لكي تمارس دور الدركي والجلاد والوصي في آن واحد، وهي تغطي بإمكانياتها الإعلامية وملكيته لوسائل الاتصال عمليات التضليل والخداع التكنولوجي لتمرير إرتكاب أبشع مجازر العصر الذري مستخدمة خطاب الأخلاقيات وهيئاتها الدولية.

لا بد من كشف دور التكنوقراط و"خطابهم الانساني" عن التقنية ودورها الانساني من خلال خطاب يسعى الى التمهيد المتقن لتمرير خداع التكنولوجيا. إن التقنية بيد قطب واحد من هذا العالم ستبقى غير محايدة وتشكل خطراً لا على الغير فقط؛ بل على أصحابها أيضاً لان نخبها وفلاسفتها تحدثوا عن ما قبل عام 1880 عن لسان ماركس بأن: "لم يكن لدى الإنسانية تأريخ بل ما قبل التاريخ فقط ؛ لأن التاريخ الحقيقي لن يبدأ الا مع إقامة المدينة الاشتراكية"<sup>104</sup>

بعدها تحدث "فوكوياما" عن نهاية التاريخ والانسان الاخير.<sup>105</sup> ان كثير من الاعتبارات المقلفة يعزها البعض ، "على إعتبار التقنية مرآة للبشرية يعكس الناس أنفسهم فيها"، ولكن النخب التكنولوجية، وخاصة العاملة في صناعات الحرب الشاملة تعيش في عزلة تامة عن العالم، وحتى عن نخب بلدانهم الفكرية الراضة للحرب والعنف.

وبهذا فهم مغتربون اغتراباً مضاعفاً، وليس لهم سيطرة على بيئتهم ويعتمدون على من لديهم "المعرفة" من مستشاري مراكز الابحاث من خلال التقارير الدورية المقدمة لهم والتي تحجب عنهم الكثير من مشاعر القلق والخوف السائدة في العالم من استخدامات اسلحة الدمار الشامل ولو

<sup>103</sup> سبيرز ادوارد ، "الحرب الكيمائية" المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 2-30 بيروت، (1991).

<sup>104</sup> الول جاك ، خدعة التكنولوجيا ، ص 145.

<sup>105</sup> فوكوياما، الانسان الاخير، او مدونة العبودي ، مقالات على الانترنت.

بصورة محددة النطاق او تجريبيا في بعض الحالات لحسم المعركة للقوة العظمى من دون خسائر بشرية في جنودها.(معركة مطار بغداد خلال غزو بغداد عاصمة العراق).<sup>106</sup>

يُعرّف التّسيّد: بأنه القدرة الارادية على التصرف في مقدرات شخص ما. واذا لم يكن التّسيّد يعني هذا فانه لا شيء. وهكذا يجب ان تكون هناك قوة غير تقنية أعظم قوة من التقنية تمكننا، كما نشاء، من توجيه وكبح وتسريع أو تعديل النظام التقني. ولكن لا أحد ممن يتحدثون عن التّسيّد في التقنية يجرؤ على التفكير في مثل تلك المصطلحات.

وكل ما يطرح هو مقترحات خجولة حول لامركزية القرار أو تشكيل لجان مراقبة، يمكنها أن تضع قواعد أخلاقية لتنظيم البحث العلمي وتطبيقاته. أما القرار النهائي فيبقى لدى مراكز اتخاذ القرار السياسي او التقني والعسكري. وان أي حديث عن المؤسسات الديمقراطية او المنتخبة في مؤسسات التشريع والحكم فلم تعد عملية وباتت كلمة المشاركة او حتى الاستشارة في صنع القرار مخادعة للتضليل الإعلامي لا غير.

ان التّسيّد السياسي على التقنية يشكل، في كثير من الحالات مصدر قلق ايضا، وكما يعتقد "روكبلو" **Roqueplo** : (ان السياسيين يصرون الاوامر وما على التقنيين سوى التنفيذ). وعملية الانتقاء هذه أو تلك، والاستخدام لتقنية ما من بين التقنيات المستعملة، هي عملية اقتصادية وسياسية واجتماعية، ان لم تكن ايضا عسكرية او ذات دوافع استراتيجية قريبة وبعيدة المدد وهي مرتبطة بمجموعة القيم والاخلاقيات، وان ردود أفعال الافراد والمجتمعات تحكمها منظومة القيم والاخلاقيات السائدة في مجتمع ما. وتبقى حرية الاختيار والقدرة البشرية على السيطرة التقنية منوطة في كثير من الاحيان بقرار الفرد او مجموعة محددة من الناس.

ان الفرد يشكل، الوحدة الاساسية في عالم النخب، فهو مدير المشروع او المكلف بالاشراف عليه. وفي كل الاحوال يمكن ان يسقط هذا الفرد في هوة من اليأس من الحياة او يكون أسير عدد من المعتقدات والرواسب النفسية التي تدعوه في لحظة ضعف الى الانتقام الجماعي؛ وما لم تصل الانسانية وهيئاتها الحاكمة الى سلطة القرار على قدم المساواة فان المغامرة الفردية لإحداث الدمار الشامل قائمة الحدوث في كل لحظة.

وفي واقعا المعاصر فان التّسيّد على التقنية او التقنيات صار أمرا صعبا وخاصة في ظل احتدام النقاش والاختلاف وصراع النفوذ على السيطرة. وعندما تتعارض التقنيات مع المسائل الاخلاقية، ومنها أخلاقيات البيولوجيا، والتلقيح الصناعي والاحصاب في الانابيب والاستنساخ... الخ، لابد من تشكيل لجان للاخلاقيات والرقابة، "وان كانت لا تفعل"، وأجراء

<sup>106</sup> تشير تقارير عديدة ان القوات الامريكية حسمت معركة احتلال بغداد بعد لجونها لاستخدام اسلحة نيوترونية في احتلال مطار بغداد يومي 10 و 11 من أفريل 2003.

المناقشات "كتلك التي جرت عالميا حول اخلاقيات البيولوجيا في افريل 1985"، لإرساء قواعد ونقاط مرجعية ليست اكثر إفادة من ميثاق حقوق الانسان؛ ذلك لأنه رغم كل حسن النوايا فإن تلك التقنيات ماهي ببساطة الا جزء من مجمل النظام التقني الشامل، ولا يمكن السيطرة عليها ما لم تتم السيطرة على كل النظام.

وفي مجال الاسلحة البيولوجية والكيميائية، فان المخططين والمبرمجين والقائمين على الانتاج والتركيب هم تقنيوا المؤسسة العسكرية والامنية وتربطهم عقود طويلة تلزمهم الصمت عن ما يجري في مخابر البحوث ومصانع الانتاج العسكري وهم تحت أعين الرقابة والحماية الامنية والمخابراتية كجزء من اسرار الدولة العليا.

#### 4-17: أسباب وظروف اعاقه العلم عن التقدم او تعثره :

##### 4-17-1: اشكاليات ايديولوجيات العلم والنخب:

عصرنا موصوف بأنه عصر تهاوي الايديولوجيات الاساسية للحضارة الصناعية وهو انعكاس لأزمة حضارية معاصرة تعبر عنها مظاهر القلق والخوف من المستقبل<sup>107</sup>.

بدء، ولادراك ماهية أزمة الحضارة وكيف عبرت عنها الايديولوجيا لابد من تعريف مصطلح "ايديولوجيا" باختصار انه : أي مجموعة الافكار والتصورات التي بمساعدتها يفهم الانسان المجتمع والنظام الاجتماعي وذاته في هذا المجتمع وهذا العالم.

وفي كل البلدان الغربية التي جرت فيها الثورات البرجوازية الكبرى ساهم العلماء الى جانب الفلاسفة والادباء بقسطهم في "برمجة" سلوك الجماهير عن طريق الايديولوجيا. فنيوتن واتباعه استنبطوا افكارا عن "الطابع الطبيعي" للدستور الذي يجب ان يحد من سلطة الملكية على قاعدة نيوتن القائلة (... فالشمس تخضع لقانون الثقالة)، والفيلسوف "توماس هوبس" في اسطورة المجتمع البرجوازي الاساسية السائدة حول الانسان: (... باعتباره ذرة أنانية ووحيدة تخوض "حرب الجميع ضد الجميع" ( Bellum Omnium Contra Omnes )<sup>108</sup>.

وفي فرنسا ظهر التحكم بالوعي، كحركة كبيرة منظمة بأكثر الاشكال وضوحا، فهناك، كان المجتمع مهياً لكسر "النظام القديم" نتيجة نصف قرن من التنوير. والى جانب القضية العظيمة الرامية الى تحرير فكر الانسان وجعله يستوعب العقيدة العلمية الجديدة فإن رجال التنوير أجروا

<sup>107</sup>- العبودي عبد الكاظم ، 2004 ، "الخوف من المستقبل" بحث مقدم الى جامعة فيلادلفيا عمان، المؤتمر الدولي حول الخوف . ورقة بحثية قدمت إلى مؤتمر فيلادلفيا الدولي الحادي عشر "ثقافة الخوف"، جامعة فيلادلفيا، كلية الآداب، الأردن، 24-26/4/2006.

[www.startimes2.com/f.aspx?t=11462472](http://www.startimes2.com/f.aspx?t=11462472)

<sup>108</sup>- مورزا سيرغي كارا ، جدلية الايديولوجيا والعلم ، مرجع سابق ، ص 7.

عملية غسل دماغ عميقة بطريقة سياسية خالصة، مهئين جيلا من الثوار الذين أغرقوا فرنسا بعدها في أنهار من الدم.

وبما ان "أصحاب السلطة على العقول" أنشأوا مجتمعا متراصا فقد ظهر فيه بسرعة الوعي الذاتي وبدأ العمل النظري، وهكذا برزت هناك لأول مرة كلمة "أيديولوجيا" وأسست منظمة ذات نفوذ سميت بـ "المعهد" **Institute** الذي كان يديره الايديولوجيون بأنفسهم . (كانوا يسمون أنفسهم "اصحاب الايديولوجيا" وفيما بعد كان نابليون يصفهم بازدراء ناعتا اياهم بـ "الايديولوجيين"). .  
وبعد ان انضم نابليون اليهم، في بداية صعوده نحو السلطة عام 1797 م. كان يوقع باسم (الجنرال نابليون بونابرت القائد العام، عضو المعهد)، لكنه بعد أن اختلف معهم، أمر بوقفهم مانحا اياهم رواتب عالية، بشكل غير عادي. وعندما لم يكف احدهم عن نشر البلبلة رغم استلامه المرتبات، عندها نشر نابليون مقالة هامة ضد الايديولوجيين ناعتا اياهم من خلال عنوانها: "يلعبون بعقول الناس"، نشرت المقالة من دون توقيع، ولكنها صيغت بشكل واسلوب، عرف فيه الجميع من هو كاتبها ومؤلفها الحقيقي.

وهكذا أفل نجم الايديولوجيين؛ لكن القضية استمرت، وتحدد مكان الايديولوجيين في السلطة بدقة مقتصرًا على "الحصول على رواتب عالية ، بشرط بقائهم في الظل" .. لقد أنشأوا الايديولوجيا، "علم أفكار الناس"، كما عرفه الناس. عرف كذلك، أنهم أدخلوا الى نوع الفكرة، كلا من الشعور والرغبة والذكريات، (مؤسس هذه الحركة هو "ديستيت دي تراسي **Destutt de Tracy**" الذي غير صيغة ديكرات: "انا افكر إذا أنا موجود" الى: " أنا أشعر إذا انا موجود" ).<sup>109</sup>

كان مؤسسوا "المعهد" يؤكدون ان: (... على الايديولوجيا أن تغير وجه العالم). ألف "ديستيت دي تراسي" كتابا عنوانه ( عناصر الايديولوجيا) عام 1801، مخصصا للمدارس المركزية التي كانت تعد فيها نخبة البرجوازية الفرنسية، قدمت فيه الايديولوجيا باعتبارها علما عن: الخلق والتعبير وانشاء الافكار.

وكانت هناك ثلاثة اقسام في المعهد هي: العلوم الطبيعية، علم اللغة والايديولوجيا نفسها .(في الحقيقة كان يقال: "ان الايديولوجيا هي جزء من علم الحيوان"، يهتم بدراسة الانسان).  
سعت الايديولوجيا الى برمجة الافكار، وفق مقاييس ولغة معتمدة بصرامة؛ مما استدعى الفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو": ان يؤكد سلطتها بشكل قطعي معبراً عنها باللغة، وصلتها باللغة فهي: (لغة الدقة [لغة الارقام] ضرورية جدا من أجل "الهيمنة عن طريق الايديولوجيا").

<sup>109</sup> مورزا سيرغي كارا ، المرجع السابق.

تطور العلم على مراحل وحقب ثبتتها دراسات وأبحاث تاريخ العلوم. اما العلماء فلم يُحَقَّبوا لأنفسهم، وهم ينغمسون في خضم البحث العلمي. وتعد العلاقة بين العلم والايديولوجيا موضوعا هاما غالبا ما طرح من زوايا مختلفة وخاصة حول الخلافات التي اعطيت طابعا ايديولوجيا باسم العلم او الدين او العقائد السياسية : مثل موقف الكنيسة ضد غاليليو أو "جوردانو برونو" وقضية " ليسينكو" ضد علماء الوراثة السوفيت... وغيرها من الحوادث التي سجلت اسماء بعض العلماء كشهداء او ضحايا الآلة الايديولوجية.

وهناك من يرى بأهمية تثبيت تاريخ موثوق عن الايديولوجيا العامة للعلم، أو تمييز مراحلها وتوجهاتها منذ منتصف القرن التاسع عشر على الأقل، أي منذ عام 1850.

كانت الفرصة مؤتية امام "فيلسوف" القرن الثامن عشر ليكون مثقف طبقتة العضوي، وهذا يعني ان ايديولوجيا البرجوازية الصاعدة التي كانت تنكر وتعارض الاشكال البدائية للسلطة الاقطاعية، كانت خلالها الافكار تبدو، وكأنها تولد عفويا من المبادئ العامة للبحث العلمي، وهو وهم متأ من ان البرجوازية كانت تطالب بالشمولية، كنفويض للارستقراطية التي كانت تريد ان تكون ذات صبغة خصوصية متميزة مرتبطة بالدم او العرق او العوائل النبيلة في بنيتها الاقطاعية. وما ان حل القرن التاسع عشر حتى كشف: عن وكيف كان أيديولوجيا كل الاتجاهات"، وهم جميعا كانوا في إطار عام واحد يلهمهم، هو المجتمع الصناعي القائم على الايمان بالتقدم وبقوانين التطور الاجتماعي. وهم، وأن كانوا " ينهلون حججهم من نبع لا ينضب، هو العلم، ويحولونها الى سلاح ايديولوجي، بمساعدة لغة الكلمات ولغة الارقام التي انشأت لهذا الغرض<sup>110</sup>. لكنهم ظلوا في أطر وظائفهم الجديدة ، كباحثين، أي بعلمهم ومعارفهم ومناهجهم وطرائقهم ينهجون نحو نزعات شمولية ، لذا كانوا يبحثون عن معارف وممارسات شمولية، ولكن ما ان طبقوا مناهجهم وطرائقهم لإجلال الطبقة السائدة وايديولوجيتها فلن يسعهم الا ان يخفوا على انفسهم ويكتموها ان تلك الطبقة وهذه الايديولوجيا لها وجهها الخصوصي النزعة، المستتر عن الانظار، ومنذ بدأوا يكتشفون، خلال ابحاثهم بالذات، مظاهر من الاستلاب لهم ، على اعتبار أنهم مجرد وسائل لغايات تظل غريبة عنهم، لذا يحضر عليهم، محيطهم، ان يضعوا تساؤلاتهم موضع استفهام واستجواب للايديولوجيا التي كانوا يتحدثون باسمها.<sup>111</sup>

لذا اعتبر البعض ان ذلك العصر كان عصرا ذهبيا؛ فقد كان "الفلاسفة" الذين ولدتهم، وربتهم، ورعتهم، وكونتهم، البرجوازية، يكافحون، بموافقتها، في سبيل ابراز ايديولوجيتها الى حيز الوجود، ولأن حركة البحث العلمي، العملي، وحركة الطبقة البرجوازية الصاعدة تتوافقان

<sup>110</sup>- مورزا سيرغي كارا ، جدلية الايديولوجيا والعلم مرجع سابق ص 8 .  
<sup>111</sup>- سارتر، مرجع سابق، ص 27.

وتتزامن وتتطابقان؛ فروح النقض والرفض، ونبذ مبدأ السلطة الاقطاعية ، وقبلها الكنسية، ما كان يعيق البحث العلمي وشمولية القوانين العلمية وعموميتها، لأن عمومية الانسان تتعارض مع الخصوصية الاقطاعية ومجتمعها المحدود.

#### 2-17-4: مراحل وتسميات في مسار العلم:

كما ان هذه المنظومة من الافكار افضت في نهاية المطاف الى منحى انساني، برجوازي، حمل اسما هو "الانسانية البورجوازية"<sup>112</sup>. ولكن تربع البرجوازية على سدة السلطة لم يعد اعتبارها طبقة عامة شمولية، ذلك وحده جعل من "انسانيتها" مذهباً بالياً وبائداً مع مرور الزمن وخفوت وهجها تدريجياً، فقد اضحت هذه الايديولوجيا، التي خدمت الرأسمالية في أوج صعودها خلال فترة الاستعما، أنها لم تعد هي الاخرى تلائم وتوافق زمن الاحتكارات والمرحلة الامبريالية، لذا فقدت تدريجياً سمتها ، رغم انها ظلت تدعي، مكابرة، انها "انسانية النزعة"، وظل الغرب وراء تلك المكابرة الزائفة يطلق على نفسه، حتى يومنا هذا يتسمى بـ "العالم الحر"، ولا يفصح الغرب عن تسمية العالم/العوالم التي تقابله أو تواجهه؟.

ان التناقض الملحوظ لدى اختصاصي المعرفة العملية [البحث العلمي التجريبي والتقانة] نَجَم وتولد عن المستلزمات والمقتضيات المتناقضة للطبقات السائدة نفسها. هذه الطبقات أنشأت وربت رجالاً متناقضين؛ بحكم اختلاف توجهات مدارسها وموروثها الاستعماري.

وفي المجال العلمي التطبيقي كثيراً ما تجد نفسها في صدام ناتج من صلب ايديولوجيتها وأفكار "العالم الحر" الذي دعت اليه وتبشر له. فمن جهة دعت الايديولوجيا الى تكريس نزعة تدعو الى الانصياع والامتثال للدولة ولسياسة قبول سيادة بعض الطبقات والنخب، ومن جهة أخرى أدركت، ان كل ذلك الامتثال والانصياع المطلوب يتعارض مع روح البحث العلمي، الحر، الشمولي النزعة، والانساني التوجه في جوهره وأغراضه.

ان "العالم الحر" يكتشف زيف الايديولوجيا والوضع الحقيقي للـ "النزعة الانسانية" عندما يضع الاعلام والكتابات الليبرالية خلف ستار وحجب من التمويه والكذب والتزوير للحقائق، بما فيها العلمية. وتجد الايديولوجيا ان مأزقها يكمن في سقوطها في أفخاخ العنصرية وخانات التمرس المعادي للعالم /العوالم الاخرى للبشرية خارج المنظومات الغربية.

#### المرحلة الأولى

وتتميز بما يسمى "العلمية" Scientism ، ويتلخص هذا التوجه: في فكرة مقدره العلم على اكتشاف كل الحقائق، حيث تتساوى فكرة الحقيقة مع الواقع الملموس للعالم الذي نعيش فيه. وهذا العالم محدود وبالامكان تحليله وفهمه وتفسيره. والحقيقة، تخضع لقوانين ثابتة باستطاعتنا، من

<sup>112</sup>- سارتر، دفاع عن المثقفين، مرجع سابق، ص 21.

خلالها، التنبؤ بالاحداث، حيث ان تلك الاحداث تكرر نفسها بنفس الاسلوب، والعلم يتطور دونما توقف باتجاه اكتشافات أكثر، ومن ثم فسيلم العلم بكل شئ، ويستوعب كل المشاكل. فليس ثمة غموض، ولا شئ يستعصي على المعرفة. وقوانين الطبيعة، أي تلك التي أرساها العلم، لا تُكسر أبدا.

وكانت تلك الفكرة القائلة بالمعرفة الكلية، حاضرة حتى في مباحث ، لا نستطيع القول عنها بأنها علمية بأي معنى.<sup>113</sup> . وكان الاعتقاد هو ان العلم معصوم عن الخطأ، وانه يتقدم بتراكم معارف معينة. وحينما يتم البرهان على عدم كفاية نظرية علمية ما تحل أخرى محلها ويردي هذا الى التقدم المضطرد. وكان المتعلمون يتحمسون للعلم ونظرياته وما بين 1860 و1900 اندفع الناس نحو تبني الأفكار العلمية وباسمها يهاجمون الافكار الزائفة ويدعون الى التخلي عن الديانات والتقاليد الثقافية البالية ونبذ الاساطير وإحلال التفسير العلمي للظواهر الطبيعية بدل اللجوء الى الغيبيات.

#### المرحلة الثانية:

ما بين عامي 1900 و1918 شهدت خفوت وإضعاف للعلمية العامة. ورغم ان هذه الفترة شهدت اكتشافات اينشتاين والنظرية النسبية وعدد من الاكتشافات الهامة إلا أن الناس يبدو اعتمدوا على القناعات العامة بقيمة العلم المطلقة وخفت الجدل والاشتباك واضحت هذه الفترة تحتكم الى الجدالات العلمية والفلسفية وخاصة في أروقة الاكاديميات العلمية، مثل تلك المعارك التي ثارت حول العلمانية ودور الكنيسة والعلمانية التي ظهر من خلالها ان العلم ومؤسساته اثبتت قدرتها من انها ذات رسوخ وحصانة لدرجة ان الكنيسة الكاثوليكية قد بدأت تخلي مواقعها ولم تتجرأ كما كانت على مهاجمة العلم ومؤسساته وأفكاره وتطبيقاته.

#### المرحلة الثالثة:

كانت الحرب العالمية الثانية ونتائجها الشغل الشاغل للناس واحتلت الجدالات السياسية الموقع الاول. أكد "كارل مانهايم"، أحد مؤسسي علم اجتماع المعرفة، في عام 1929: " ان المنهج العلمي كان نتاجا جانبيا لعقيدة البرجوازية الصاعدة" [ذلك لا يعني ان العلم بوصفه نموذجا للنشاط المعرفي يحمل من حيث المبدأ طابعا طبقيًا، مع ان مثل هذه التأكيدات ظهرت في هذه المرحلة في خضم الحرب الايديولوجية، فمثلا عبر سارتر "ان العلم كان دائما برجوازيا" تعبيرا عن موقفه اليساري آنذاك، وفي الاتحاد السوفيتي طرحت مفاهيم ونظريات تتحدث مثلا عن " العلوم البروليتارية".

ورغم ان الاسلحة الكيميائية قد ظهرت واستخدمت على الجبهات الالمانية والفرنسية، الا ان الاهتمامات التقنية للمدافع والبنادق الالية والطائرات قد أشعرت الناس بتقنيات الحرب الجديدة واتساع نطاق تدميرها. وبدأ البعض يحذر ويتخوف من مغبة استخدام أسلحة الدمار الشامل. وطرحنا الافكار، التي تجنب العلم مسؤولية شن الحروب واتساع نطاق دوائر القتل والدمار للمدينة. وكان الاهتمام قد ركز على تحميل الانظمة السياسية والنظام الاقتصادي مسؤولية شن الحروب. والحقيقة ان الصناعات الحربية دفعت الرأسماليين الى مزيد من الانتاج في ظل تفاقم الصراعات السياسية في أوروبا ما بين ظهور الشيوعية في الاتحاد السوفيتي من جهة والنازية والفاشية في أوروبا، المانيا وايطاليا واسبانيا والديمقراطية الليبرالية في بقية بلدان الغرب والولايات المتحدة.

كان العلم والعمية في هذه الفترة يأخذ منحى ايديولوجيا معيناً ليخدم أغراض وأفكار الحركات السياسية والنظم الاقتصادية.

ان تقني المعرفة العلمية يُجند من الأعلى، ولئن ما عاد ينتمي الى الطبقة السائدة، فان هذه الاخيرة كانت تسميه وتعينه في كينونته، إذ هي تقرر طبيعة عمله ووظيفته: تبعا لطبيعة مشروعها أو منشأتها، وتبعا للحاجات الاجتماعية، منظورا اليها من زاوية اختياراتها الخاصة ومصالحها. وهكذا تقرر الطبقة السائدة عدد تقني المعرفة العمليّة واختصاصاتهم، بدلالة الربح الذي هو أسمى غاياتها. كما تقرر في الوقت ذاته ما ستخصصه من فائض القيمة لاجورهم ورواتبهم. <sup>114</sup> ؛ فالصناعة، وهي تضع يدها على الجامعات ومراكز البحوث من خلال التمويل والتوجيه فانها ترغما تدريجيا على هجر "المذهب الانساني" القديم البالي للتعليم واستبداله بعلوم وتقنيات متخصصة، الغاية منها خدمة التوجهات العولمية الجديدة التي بدأت إرهاباتها غداة نهاية الحرب العالمية الثانية.

وكما يشير احد الفلاسفة فإن (... غالبية الايديولوجيات المعاصرة، وبغض النظر عن منشئها، تؤكد انها تقوم على العلم، بل انها تشكل قاعدة للعلم نفسه، وبهذا الشكل تسعى الى ان تضمن لنفسها الشرعية من قبل العلم) <sup>115</sup> ، لذا يتحدد التأهيل الأيديولوجي والتقني للاختصاصي في المعرفة العلمية سلفا من خلال اعادة النظر في منظومات التعليم بكل مراحلها بشكل اصطفائي بالاحتم والضرورة لكي تنظم الطبقات السائدة الجديدة التعليم على نحو يوفر للمؤهلين:

أ - الايديولوجيا التي تراها مناسبة (من خلال التعليم الابتدائي والثانوي).

ب - المعارف والتقنيات التي ستؤهلهم لممارسة وظائف المستقبل.

<sup>114</sup> - سارتر، مرجع سابق ص22.

<sup>115</sup> - مورزا سيرغي كارا ، جدلية الايديولوجيا والعلم ، دار علاء الدين ، ص 6 . دمشق، (2005).

وبهذا فان انماط التأهيل تلقن، بصورة مبكرة، دورين: فهي تجعل منهم في آن واحد اختصاصيين في البحث وخادمين للهيمنة. والدور الثاني حسب تعبير "غرامشي انهم مجرد" موظفين في البنى الفوقية"، "ونراهم يمنحون سلطات محددة في ممارسة الوظائف التابعة في الهيمنة الاجتماعية والحكم السياسي".<sup>116</sup>، ورغم أن صورة العلم أصبحت أقل إدهاشاً؛ لكن ايدولوجيا "العلمية" قد استمرت في جدلها مع الآخرين، من خلال الفلسفة وخطاب التقنية الواعد بالرفاه والسعادة للبشرية.

سجلت النجاحات في مجال الطب والجراحة والكشف الطبي وعلاجاته ثقة الناس بالعلم، رغم أجواء الحرب، فقد نما التعاون بين الامم والعلماء وتزايدت الدعوة الى نبذ الحرب، والعمل على وقف الكراهية والدعوة الى الحروب ومواجهة العقائد السياسية المتطرفة الداعية الى التطهير العرقي والديني.

وفي خضم واجواء الجدل السياسي تراجع اهتمام الناس ومتابعتهم للمناظرات المهمة لعلماء الفيزياء والرياضيات وما يرتبط بها من فلسفة. ورغم ان اسماء هامة من امثال "بلانك" **Planck** و"هيزنبرج" **Heisenberg** كانت معروفة ومتداولة الا ان غالبية الناس لم يكونوا على علم باكتشافاتهما وتضمينات هذه الاكتشافات.

شهدت هذه الفترة وصف بعض المجالات التي كانت تنتمي الى الدراسات الانسانية، مثل علم النفس والاقتصاد بأنها تنتمي الى العلوم، ووظفت تلك المباحث مناهج العلوم الطبيعية والرياضيات والإحصاء الرياضي. وكان هذا يرجع، بشكل أساسي الى رسوخ الاعتقاد بأن العلم سيساعد على منع التشويش المرتبط بفوضى القرارات السياسية ويقود الامم ونخبها الى تنظيم أكثر عقلانية يضمن السعادة للبشرية. وتجدد أمل بأن الراحة والاستقرار والاستهلاك والحرية هي نتاج تطبيقات العلم.

#### المرحلة الرابعة:

تلت الحرب العالمية الثانية والناس في صورة المجازر والهلع الذي كان للتكنولوجيا الحربية الدور الحاسم فيها. وكان القول بأن اكتشاف البنسلين لا يعوض مأساة هيروشيما النووية. من هنا دخل العلم مرحلة حرجة وطويلة اتسمت بايدولوجيا الشك وتحدي العلم نفسه. وما بين 1945 و 1975 لم تخف المناقشات الدائرة حول العلم من ان الاكتشافات الهائلة خلال تلك الفترة وما رافقها من نمو اقتصادي مذهل لكن هناك كان الكثير من النكوص والخوف من سباقات التسلح النووي ومستقبل غزو الفضاء وغياب الحماس لكثير من العلماء لأول مرة على الصعيد النفسي والايدولوجي. وفي هذه الفترة تمايزت الرؤى الفكرية، وخاصة بين العلماء، وتميزت بينهم رؤى

<sup>116</sup>- سارتر، مرجع سابق ص23 .

الاختلاف والشك في مناحي واتجاهات التطور والتقدم العلمي، وأصبح الحديث والجدل الفلسفي حول مآزق العلم الذي لم يمس تطوره وتقدم مناهجه ونتائجه.

وكان المآزق يتعلق بالايديولوجيا، إذ ان للعلماء ايديولوجيا للعلم خاصة بهم، وهكذا تراجع الحديث عن مساواة الاكتشافات العلمية بالحقيقة. فلم تعد الحقيقة هي هدف العلم الرئيسي. هذا المآزق الايديولوجي عبر عن نفسه من خلال رؤى عكست توجهاتهم ولم تعكس وحدة مواقفهم ومنها:

**اولا :** إعترف العلماء بأن من يلاحظ الظواهر من العلماء ينتمي الى نفس النظام الذي تنتمي اليه الظاهرة، ومن ثم يؤثر فيها بمجرد حضوره. وتجددت الفكرة الجديدة الخاصة بعدم امكان الفصل بين الظاهرة ومن يلاحظها او يكتشفها. والمثير ايضا للاهتمام هنا ولو بدرجة اقل عن تأثير الايديولوجيا ليس على سلوك العالم في المجتمع؛ بل على العملية المعرفية: على اختيار الموضوع، صياغة المشكلة، قبول او رفض هذه او تلك من النظريات. كيف نفهم مثلا لماذا أصبح "جوردانو برونو" داعية متحمسا لنظرية "كوبر نيكوس"؟، لكن القراءة المتمعنة لنصوصه تظهر انه كان قبل التعرف على هذه المنظومة مصلحا متطرفا سياسيا دينيا ينبذ ايديولوجية الآلهة المصرية القديمة التي كان أهمها إله الشمس، وهو تقبل نظرية كوبرنيكوس التي وضعت الشمس في مركز الكون كحقيقة مطلقة تقدم برهاننا قاطعا على هدفه الأيديولوجي.

تذهب بعض الاراء المتطرفة بعدم وجود الحقائق كحقائق في حد ذاتها، إذ اننا نقيمها ونحن نلاحظها. ورغم ذلك، فلا تعني هذه الاشياء بمفردها مآزقا علميا، وعلى العكس، كان ثمة تقدم عظيم في المعرفة حقق العلم به انتصارات كبيرة جديدة. ولكن العلماء واجهوا ظواهر ونظريات معقدة تجاوزت بساطة فيزياء نيوتن وكان على العلماء ايجاد موقف لتبرير اعمالهم وافكارهم ولم يجدوا في الاسس الفلسفية التي ورثوها من فلسفة القرن التاسع عشر ما يوجد لهم بكفاية تامة رابطة بين العلم وفلسفة ما، او مفهوم معين عن العالم او من اجل استخلاص نظرة أخلاقية أو قواعد للسلوك منه.

شهدت سنوات السبعينيات من القرن الماضي الكثير من الاعمال الفكرية حول هذه الجدلية تعبر عن استجابة من نوع ما لشعور بالقلق داخل المجتمع العلمي.

**ثانيا:** ان سنوات الحرب العالمية الثانية، وخصوصا ما بين (1940 - 1945)، وما تلاها ايضا تضاعف انتاج الاسلحة بشكل مفرط وازدادت تجارب وتفجيرات الاسلحة النووية وتوجهت الابحاث لربط الكيمياء والبيولوجيا في برامج ومشاريع الحرب الجرثومية والكيميائية.

ان سنوات الحرب الباردة، وكما نرى في الفصول والابواب التالية من الرسالة، كشفت: ان بعض العلماء والتقنيين، أستغلوا، بالاعتماد على معارفهم العلمية والتقنية، لكي يصبحوا وكلاء

لنزعات خصوصية مؤدلجة، أو صاروا واجهات للنزعات القومية المتعصبة "كالنازية والشيوعية"<sup>117</sup> تارة في حالات مجاهر بها وتارة في الظل، ومنهم من تجلبب بالليبرالية وحقوق الانسان وصاروا ممثلين عن ما يسمى: "النزهة الانسانية الليبرالية، أي الشمولية الزائفة". وفي هذه المستويات يُلاحظ، أنهم كانوا مكلفون بالاهتمام بما لا يعنيههم من الامور الدعائية، ولا يخصهم الاختصاص، أي انهم صاروا يمارسون النشاط الايديولوجي باسم العلم، وبذلك يرى "سارتر": (... ومع ذلك لن يدور في خلد أحد أن يسميهم مثقفين، ومرد ذلك انهم يمررون، عسفا وبهتانا الايديولوجيا السائدة على انها قوانين علمية).<sup>118</sup>

وفي فترات الاستعمار وُظفَت كتابات الانتروبولوجيين وأبحاث اطباء النفسانيين، والنتائج المزعومة لإرجاع الافارقة والهنود الحمر والسكان الاصليين في استراليا الى الصنف المتخلف من البشر بسبب" التخلف الناتج عن تركيب ادمغتهم" والى وظائفهم الفيزيولوجية.<sup>119</sup> لقد اسهمت تلك الابحاث، والنظريات العنصرية الى تعزيز بعض الافكار البرجوازية الصاعدة، المتطلعة الى الاستعمار، منها التي ترى: (... فالبشر اجمعين متساوون باستثناء المستعمرين اللذين ليس لهم من الانسان غير ظاهره... ولقد اجريت دراسات اخرى للبرهان بالطريقة ذاتها على دونية النساء: وكأن الانسانية لم تكن تتألف الا من بورجوازيين بيض وذكور)<sup>120</sup>.

وانتشرت تطبيقات العلم والتقانة في انتاج أسلحة الابادة الشاملة. لقد أصبح من المؤكد ان أيادي العلم قد أضحت ملوثة، ولم يعد العلماء هم هؤلاء البشر المنتسكين في محاربي مخابرهم العلمية وتجاربهم"العلمية" يبحثون عن "الحقيقة" بشكل موضوعي، أصبحوا خالقي أسلحة وسموم بدلا من أدوية وأسمدة ومبيدات حشرية. أصبح البشر من ضحايا التجارب عينات للتجارب مثلهم مثل الفئران والارانب والجرذان<sup>121</sup>.

لم يعد هناك علم بحت أو رياضيات صرفة او مصانع دوائية حين تورط العلماء في العمل والتعاون مع معسكرات الاعتقال النازية والإسرائيلية وعملوا في مؤسسات السياسة والحرب والشرطة السرية.

<sup>117</sup>- ارينا كاروزينا ، مبادئ البيولوجيا، دار مير للطباعة والنشر ، عدد من الصفحات التي ربطت بها المؤلفة بين الاكتشافات البيولوجية ومانسبته الى العلم الماركسي ودوره في تطوير الرؤى العلمية وخاصة في مجال نظرية التطور، موسكو. (1982).

<sup>118</sup>- سارتر، مرجع سابق، ص 24.

<sup>119</sup>- روز ستيفن وآخرون ، علم الأحياء والايديولوجيا والطبيعة البشرية ، عالم المعرفة -، العدد، 148، ص 33. الكويت، (1990).

<sup>120</sup>- يانج روبرت ، 2005، اساطير بيضاء، كتابة التاريخ والغرب، سلسلة لفكر مكتبة الأسرة، القاهرة الصفحات 323-349.

<sup>121</sup>- العبودي عبد الكاظم، بشر نعم ... فئران بشرية لا ، دار الغرب ، صفحات متعددة. وهران، (1996).

ان افتراضات مازق أيديولوجيا العلم في مجتمع العلوم واوساطها دعت بعض العلماء الى تعليق الأبحاث التي يدور حول نتائجها جدل الى ان يتمكن الجميع من الوصول الى رؤية واضحة للموقف الاخلاقي منها. ولكن ثمة قناعات اخرى ترى ان الاسلوب الذي نستخدم به العلم والذي لازال بمقدورنا كبح جماح المغامرة تدعو الى استمرار العلم والثقة به رغم الغموض المحيط بقيمة العلوم وطبيعتها الايجابية. اما مصدر القلق الدائم فيرى ان قوة العلم الطاغية يجب ان توضع بايدي امينة وبإشراف هيئات تلتزم بالمعايير الاخلاقية المعتمدة والمقبولة انسانيًا.

رغم ان هذه الفترة شهدت نشاطا كبيرا قاده العلماء بأنفسهم برفض التسلح النووي والبحث فيه بعد ان سارت البشرية بقدميها وعقول نخبة من علمائها ووصلت على شفا حفرة قبرها النهائي بعد تفجير القنبلة الهيدروجينية الامريكية في بكيني عام 1954، وسار على ذات الطريق في التسلح الاتحاد السوفيتي والصين. التقى علماء الشرق والغرب وانضم اليهم علماء عدم الانحياز، الالجان مثل "الجنة الامن الداخلي" سواء في مجلس الشيوخ الامريكي، وهي لجنة فرعية عن اللجنة الحقوقية للمجلس المذكور" ومثيلاتها في الاتحاد السوفيتي في اروقة الكرملين والحزب الحاكم الوحيد ظلت تطارد وتحاسب هؤلاء العلماء من ذوي الافكار الحرة غير المقيدة او المرتبطة بإملاءات الايديولوجيا المتنفة في دواليب الحكم.

ففي الغرب نظرت السلطات السياسية الى العلماء بمنظار العقل القاصر الواجب وضعه تحت الوصاية، وخاصة الايديولوجية السائدة او الحاكمة، وما محنة بعض العلماء او عزلهم او احتجازهم او منعهم من السفر او العمل في الجامعات او اتصاتهم بالجمهور من خلال الاعلام، إلا اشكال من الحصار والعقوبات.

هذه السلطات مثل: "الجنة الامن الداخلي" في الكونغرس وريثة التقاليد وممارسات المكارثية سيئة الصيت في الولايات المتحدة في سنوات الثلاثينيات من القرن الماضي حذت بنفس سلوك الحزب النازي والفاشي في الامعان في محاربة الشيوعية، واعتبرت ان أي شخص من الغرب يرغب في تخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب سيكون مدفوعا بالانحياز الى الشيوعية؛ إن لم يكن عميلا للسوفيت. حتى وإن كانت الثقة موجودة حول ذلك العالم ووطنيته وسمعته القومية، فإنه في تصورات النخب السياسية والعسكرية ومخابراتها، يمكن ان يتأثر بالأخر، في أي اتصال ودي بين عالم شيوعي وآخر غير شيوعي. وكانت انه: من المُحتم ان يتمكن الشيوعي من إستمالة غير الشيوعي وخداعه/ مهما كانت وعظمت قدرات وذكاء العالم غير الشيوعي.

وان مشاركة أي عالم شيوعي، مهما علت مكانته وقدره في بلاد السوفيت، فانه لا محالة سيعبر عن سياسة السوفيت والحزب الشيوعي؛ ان لم يكن عضوا فاعلا وتابعا للمخابرات السوفيتية" الكا جي بي.K.G.B. ورغم البيانات الصادرة عن مؤتمرات السلم التي حضرها العلماء

والمفكرين، وكانت مفتوحة الجلسات وقراراتها معلنة، إلا أن الشك ظل يدور في رأس السلطات السياسية والعسكرية، والظن ان الآخر يُريد الحرب، ويتاجر بالسلم لأغراض دعائية لا غير، خدمة لتمرير ايديولوجيته السياسية.

لقد كانت انتقادات الادارات الامريكية لمؤتمرات بوكواش، تتجلى وتتنحصر: "ان هنالك علماء شيوعيون يشاركون في مؤتمرات لوكواش"، وكأن هذه الحقيقة وحدها تجلب العار لتلك المؤتمرات<sup>122</sup>. يستعرض "برتراندرسل" العديد من أمثال هذه الحالات والحوادث، وينتقد بمرارة عقلية الوصاية الامريكية على العلماء الغربيين: (... على كل حال، ان هذه كلها انتقادات جزئية، قد لا تتعدى ان تكون دليلا على ان العلماء الغربيين، كما يقول التقرير،[تقرير لجنة الامن الداخلي للكونغرس الامريكي]، اناس بسطاء يؤمنون بأن مساهمة العلماء السوفيت، إنما كانت مدفوعة برغبة علمية صافية في سبيل تقدم العلم، وبدافع مثالي لخدمة حركة نزع السلاح والسلم العالمي. إن عيون النسر التي تمتلكها [لجنة الامن الداخلي للكونغرس] قد اخترقت الأعماق الى الدوافع الخفية لعلماء بوكواش... هناك فصل في التقرير تحت عنوان "الدافع للعمل الخياني" يسرد اعمال "الان نون ماي Alan Nunn May" و "جوليوس روزنبرك Julius Rosenberg" و "كلاوس فوخ Klaus Fuchs"، بهدف إعطاء القارئ إنطباعا بأن هؤلاء " العلماء" الخونة مرتبطون بشكل من الاشكال بحركة بوكواش. انني قلما التقيت بنموذج من الدعاية أكذب وأخزى من هذه. ان نغمة التقرير كلها: هي ان الروس الشريرين يمتدحون السلم، بينما كل الوطنيين الاميركان يمدحون الحرب. ان كل شخص غير متحيز اذا ما قرأ التقرير وصدق لما جاء فيه، سوف ينساق حتما الى تأييد روسيا. ان الغرب، لحسن الحظ، ليس من السواد الاعظم، بالدرجة التي يظهره فيها التقرير، ولكن ليس من الحكمة ان نتغاضى عن حقيقة ان لجنة مجلس الشيوخ تمتلك قوى هائلة من الاضطهاد، وانها تستخدم بالدرجة الاولى في تثبيط ونبذ كل محاولة نحو العقلانية)<sup>123</sup>.

لقد كان مجرد استحسان المعسكر الثاني لأفكار او اطروحات عالم غربي كافيا الى اثاره الشكوك حوله، ما يؤدي به الى الشبهات، كما حدث لكتاب العالم باولنك Pauling المعنون (لاحرب من بعد)، بمجرد استحسان موسكو له و"اعتباره دليلا على روح الشر التي يحملها باولنك وذلك على ما يظهر على اعتبار انه لا يمكن لرجل سالم العقل ان يقاوم الحرب الذرية"<sup>124</sup> وفي الأتحاد السوفيتي كانت التهمة ضد الخصوم الأيديولوجيين للشيوعية هي تهمة الأنشقاق أو موالاته الغرب أو الخيانة كما هو الحال مع العالم النووي السوفيتي الشهير سولجنستين .

<sup>122</sup> - رسل برتراند ، مرجع سابق، ص 85.

<sup>123</sup> - رسل برتراند مرجع سابق، ص 85 .

<sup>124</sup> - رسل برتراند مرجع سابق، ص 85 .

## المرحلة الخامسة: الأيديولوجيا الجديدة للعلم:

منذ 1975 بدأت تتغير متلازمة وثنائية العلم والتكنولوجيا، من حيث ان التكنولوجيا كانت تعتمد كلياً على العلم، وقد ظل التصور دائماً ان العلم مستقل وصاحب سيادة وان النجاج التقني ثانوي مرتبط بالعلم حيث كانت تعتمد التكنولوجيا على العلم. وهذه نظرة يستحيل تحقيقها تماماً، فلكي يتقدم العلم فلا بد من اعتماده على تقنيات تزداد دقة. ان الاكتشافات الجديدة مدينة لتقنيات عالية الدقة كالمجاهر الالكترونية ومسرعات الدقائق الذرية والنوية وكذلك اباحات الهندسة الوراثية والبيولوجيا واستخدام الحواسيب عالية التحليل.

كما ان طبيعة الابحاث العلمية تجاوزت المخبر الواحد والبلد الواحد الى منظومة من مراكز البحوث تشمل جميع القارات. كما ان الاستثمارات في العلم والتقانات الجديدة ارتبطت ايضا بمدى مستقبل المردود الاقتصادي لها. لكن الثرثرة عن عالم الوفرة تكذبه حقيقة ان ثلثي البشرية يعيشان في حالة مزمنة من سوء التغذية والمجاعات، وعلى هذا النحو يعدو العلم الخاضع للنزعات الخصوصية إيديولوجيا عنصرية. وعلى هذا النحو ايضا تبقى الاختراعات والتقانات الحديثة، لحقبة طويلة من الزمن نسبياً، أدوات حرمان وكبت بالنسبة الى الغالبية، وهذا ما يسمى بـ " الإفقار النسبي" على حد تعبير سارتر. وهكذا لا تعدو التقنية من أجل الجميع؛ بل عاملاً من عوامل إفقار الغالبية من سكان الارض بسبب احتكارها وطموحها نحو زيادة ربحها ومضاعفته على حساب الجياع.<sup>125</sup> ومن هذه الزوايا لم يعد العلم حراً، فقد اصبح مستقطباً وملزماً لخدمة غايات اقتصادية اولاً واستراتيجية كبرى في مجال التنافس بين الامم، ولم يعد ثمة وجود للعلم من أجل العلم.

اصبح العلم موجهاً ايضا من اجل تعزيز مكانة الامم والدول والتوجهات القومية ايضا وهو الطريق المعتمد في التنمية الاقتصادية بفضل ارتفاع الانتاجية المتوخاة من تطبيقاته التقانية.

رغم الامل المعقودة على العلم لحل مشاكل الجوع وضعف المردودية والانتاجية الزراعية والحيوانية الا ان تطبيقاته اصبحت حكراً للاغنياء والشركات الاحتكارية المنتجة للغذاء والوقود الحيوي مما يثير المخاوف حول بعض تطبيقات التقانات الحيوية، مثل انتاج الاغذية المعدلة وراثياً واختفاء انماط من الزراعات التقليدية لبعض المحاصيل وبذورها وسلالاتها المحلية واختفاء التنوع في الغطاء النباتي للارض وحرق الغابات والتصحر والتغيرات المناخية والتلويث للمحيط الحيوي وارتفاع درجة حرارة الارض من خلال ظاهرة الاحتباس الحراري واتساع ثقب الاوزون. كلها الان تسبب مجاعات عالمية وانتشار أمراض لاعهد للبشر بها وبتاسعها وانتشارها كاللايدز وامراض البيئات الملوثة كالسرطانات.

<sup>125</sup>- سارتر جان بول ، مرجع سابق ، ص 29.

كما ان هناك فروقا شاسعة بين اطراف الكرة الارضية وهوة وفجوة علمية وتقانية وغذائية ورقمية... الخ. كما ان قوة التدمير ومخزونها من اسلحة الدمار الشامل اصبحت تشكل اخطار غير محتملة مع اتساع ظاهرة ارهاب الدول العظمى وردود الفعل اتجاهها سواء من قبل دول او جماعات تحاول الانتقام لكل حيف او ظلم الحق بها<sup>126</sup>.

ولأن اصبحت الحرب النووية بين الدول محالة اليوم نظرا لقناعة المجتمع الدولي ان سياسة الردع النووي هي الكفيل لحفظ التوازن العسكري ولكن الاستخدامات التكتيكية لبعض اسلحة الدمار الشامل ولو في نطاق محدود كاستخدام الاسلحة الكيميائية والجرثومية لتدمير الموارد الغذائية وخلق الازمات [سارس وانفلونزا الطيور وحتى نشر الايدز بصورة متعمدة]، كلها مظاهر ومدعاة للقلق وهي جزء من ذخيرة وخطاب ايدولوجيا العلم المعاصر.

ان الدعوة الى تطبيق صارم للاخلاقيات في استخدام هذه الاسلحة ومنع التهديد النووي والحد من انتشار الاسلحة النووية من دون تفكيكها باتت جزء من مأزق العلم التجريبي ولا تحل مشكلاتها المعاهدات والاتفاقيات الدولية مالم تكون هناك عدالة ومساواة بين الامم.

مع تطور فكرة "العلم هو ملاذنا الاخير" فقد وصلنا الى أدلجة العلم باعتباره مخلص من شرور البشر وشرورهم، وبهذا نمحه الوهية معاصرة لحل مشاكلنا المتفاقمة. وهذا الملاذ الاخير يواجه عصيان بشري بسبب القلق من التهديد النووي وما تعانيه حركات البيئة من انتكاسات وهي توجه الاتهامات للدول الكبرى عن مسؤولياتها عن ظواهر عديدة استعرضنا قسما منها وما اختفاء غابة من غابات أفريقيا أو الامازون وسقوط الامطار الحمضية وتضاعف معدلات الامراض البوائية كلها مؤشرات لسقوط حلم ان "العلم ملاذنا الاخير" طالما ان الانسانية لم تتخلص بعد من جبروت وطغيان الانظمة السياسية وبيروقراطيات النخب العلمية وتكرار شن الحروب والتسبب في الابدات سواء بالسلح المباشر او بتقنيات اقتصادية وسياسية أثبتت قصورها في إدارة ازمات الكوكب .

رغم التقدم الا ان الضمائر غير مرتاحة لهذا الانهيار في منظومة القيم الاخلاقية وعدم الاحتراس من المغامرات غير المحسوبة بدقة رغم الاحتراسات الموضوعية لها ولاحتماالاتها. ولكن في ذات الوقت لاندعو الى وقف الابحاث ولو مؤقتا كما يطلب البعض. لكي نتوقف ونفكر قبل تواصل ابحاث الهندسة الوراثية في كل الاتجاهات كما يتسائل **J.Jestar** .

صحيح ان بعض العلماء قد عبروا عن ندمهم وانخرطوا في حركات السلام لوقف التجارب النووية، ولكن آخرين، قليلون، مثل عالم الفيزياء اللامع **Peter Hagelstien**، الباحث في حقل

<sup>126</sup> -**Hammana Boukhari**, **Violence et Nouvelles Technologies de l'information et de la Communication**, Publ. , Université d'Oran, Semaine Scientifique, Oran, (Avril. 2004).

اللايزر لبرنامج "حرب النجوم" قرر التوقف عن الابحاث لأمر يتعلق بضميره. وقد حذر علماء مبرزون من مخاطر المغامرة في العلم فقد رفض "أوبنهايمر Oppenheimer" مواصلة الابحاث الى تصنيع القنبلة الهيدروجينية وقام احد عشر عالما امريكيا عام 1974 بنشر التماس يدعون فيه زملائهم الى التوقف المؤقت عن أبحاث الهندسة الوراثية.

وفي عام 1975 حاول 150 متخصص ان يفرضوا اجراءات أمنية وحدودا على تجارب الهندسة الوراثية الا ان احدا لم يستمع اليهم، كما لم ينصت أحدا الى توصيات لجنة أخلاقيات العلم الشهيرة. هل علينا ان نبدد أو هامنا. فلن يتقبل العلماء أحكاما فلسفية أو دينية أو اخلاقية. فالعلم يسير في طريقه بدون هوادة حتى ينتج الكارثة النهائية كما يتوقع البعض. والدعوة ستبقى تلح على علماء وفلاسفة آخرين للكف عن التظاهر بأن البحث العلمي لازال محايدا، وان تطبيقاته فقط، هي التي توصف بأنها طيبة أو خبيثة. ان جوهر الاسباب يكمن ان الطبقات السائدة انتجت الكثير من تقني المعرفة العلمية في سياقات معينة وهم يعانون من تناقضات لا حصر لها:

**اولا:** فهم في أمرهم المنوط مباشرة، بوصفهم موظفين صغار في البنى التحتية لسلطات رأس المال الاحتكاري، خصوصا بعد تراجع سلطات الدول عن ادارة الانتاج والتمويل للبحث العلمي لصالح الشركات متعددة القومية، وهم غير أحرار في توجهاتهم الانسانية. وان الطبقات السائدة تتجاهله ولا ترى منه سوى موظفا عاملا في البنية الفوقية، وليس في وسع الطبقات المحرومة، ان تكون ابنائها او تنتجهم، خصوصا بعد سقوط الانظمة الاشتراكية وتراجع الكثير من دول العالم الثالث في حقل التنمية عموما، والتنمية البشرية خاصة.

**ثانيا:** ان الاجور المتدنية و غلاء تكاليف المعيشة والحياة يمكن ان تحمل المرء على المزيد من التخلي عن استقلاله وقبول التخلي عن اخلاقيات البحث العلمي والمهني وقبول املاءات الطبقات السائدة وتوجهاتها الايديولوجية. يعني ذلك ان يبيع هؤلاء انفسهم منقادين الى نقض الايديولوجيا التي ارتضوا بها حتى ذلك الحين.

**ثالثا:** ولأنه ليس في مقدور أغلب اختصاصي المعرفة العلمية المعاصرة الا أن يتحدروا من الطبقات الوسطى التي ينتمون اليها، وهذه الطبقات تعيش تناقضاتها الان بشكل صارخ نتيجة تسارع الفرز الطبقي الذي سرعته تفاعلات العولمة واقتصاديات السوق، ولما كان المثقف يتحدد بأنه ذلك الانسان الذي لا يحمل تفويضا من أي إنسان، ولا تعين له كيانه أي سلطة وانما هو نتاج مجتمع. لذا بات إعادة تعريف "المثقف" على ضوء العديد من القرائن التي قدمها سارتر حول هذا الموضوع<sup>127</sup> : (... المثقف إذن هو ذلك الانسان الذي يدرك ويعي التعارض القائم فيه وفي المجتمع بين البحث عن الحقيقة العلمية" مع كل ما يترتب على ذلك من ضوابط ومعايير" وبين

<sup>127</sup>- سارتر جان بول ، مرجع سابق ، ص 33 و 36 .

الايديولوجيا السائدة" مع منظومتها من القيم التقليدية". وما هذا الوعي، بالرغم من ان المفروض فيه، حتى يكون فعليا وواقعيا، ان يتم لدى المثقف على مستوى نشاطاته المهنية ووظيفته :

**أولا:** ما هذا الوعي سوى كشف للنقاب عن تناقضات المجتمع الجهرية، أي المنازعات الطبقية، وعن صراع، عضوي، داخل الطبقة السائدة بالذات، بين الحقيقة التي تحتاج إليها لإنجاح مشروعها وبين الاساطير والقيم والتقاليد التي تصونها وترعاها، والتي تريد ان تعتدي بها الطبقات الأخرى ضمانا لهيمنتها. ان المثقف هو الشاهد إذن على المجتمعات الممزقة التي تنتجها، لأنه يسبطن تمزقها بالذات، وهو بالتالي ناتج تأريخي، وبهذا المعنى لايسع أي مجتمع أن يتدمر ويتشكى من مثقفيه من دون أن يضع نفسه في قفص الاتهام، لأن مثقفي هذا المجتمع ماهم الا من صنعه ونتاجه<sup>128</sup> .

**ثانيا:** تناقض النزعات الخصوصية لبعض النخب عن توجهات العلم نفسه ، كمحرك وخالق للرفاه الانساني، بحكم تأثير تلك النزعات التي حقنوا بها في مراحل التعليم والتدريب، للاستثمار بنتائج العلم والتقانة لمجتمعات معينة دون غيرها، وبذلك يقبل تقنيوا هذه النخب، وبسوء نية، الى وضع العام في خدمة الخاص. ونظرا لاستحالة معاشة كهذه، استحالة أن يكون المرء تقنيا من تقني المعرفة العلمية خالصا في مجتمعاتنا. لذا لا يسعه الا ان يكون عضوا في نخبة أو صفوة ما سرعان ما تعاني من حالة انفصال وانسلاخ حتى عن انتماءاتها السابقة لتختفي حول عباءة الاحتكار وتلوذ في محمياته الواعدة بالرغد والحياة الافضل.

وإذا ما اكتشف وتحقق العلماء بأن تلك النزعة الخصوصية الايديولوجية قد وضعتهم في قفص الاستجواب والالتهام للايديولوجيا التي كونتهم واكتشفوا انهم مجرد وكلاء ثانويين وتابعين للهيمنة ووسيلة لغايات كانوا يجهلونها فإن وكيل المعرفة العملية يغدو في مثل هذا الحال مسخا، وحشا مدانا من قبل نفسه والمحيط العلمي ذي التوجه الانساني.

ومثل هذا يمكن قوله على العديد من الامثلة التي استعرضها هذا البحث من مواقف وسيرة لعلماء ارادوا ان ينزعوا مئزر المخبر العلمي والتقني الذي انتج اسلحة الدمار الشامل وطور تقنيات الابادة الجماعية ليصبحوا ضيوف صالونات الثقافة الداعية الى السلم والانسانية. ان العالم هو في المقام الاول، وكيل للمعرفة العلمية، ويندر أن يكون كذلك حين يصبح مثقفا او داعية لتطبيق أخلاقيات البحث العلمي حين يغادر ابواب قاعدته العلمية والبحثية الى التقاعد او بسبب الابعاد القسري. حينها يتكلم خارج الايديولوجيا السائدة يطرح مواقفه على شكل قيم توصف بأنها أخلاقية. منهم من عمل في ابتكارات وتطبيقات الانشطار النووي في تطبيقاتها العسكرية، ومثلهم سيقال عنهم حينها، ممن يتسترون على الآثار المحتملة لتطبيقات الهندسة الوراثية، وما يمكنها أن تأتي به

<sup>128</sup>- سارتر جان بول ، مرجع سابق، (ص 33-34).

من أضرار في المجالات الخلقية للإنسان. بيد أن هدف المثقف من هذا النوع، هو أن يحقق الذات العملية ويعيد اكتشاف مبادئ ذلك المجتمع، وبانتظار ذلك يقوم بتحقيق الأهداف التي تجاوزها بحثه العلمي وليغير قي أفكاره وتوجهاته كي ينتج في ذاته، ولدى الآخرين، بقدر الامكان، وحدة الشخص الحقيقية واستعادة وجوده الانساني من خلال إلغاء كافة انواع الاستلابات التي كبلت بحثه العلمي وتوجهت به نحو الحساسيات العنصرية الغنية والمتعددة الاشكال والمضامين.

وقد لا يكون مقدرًا له أن يتوصل إلى ذلك على أكمل وجه، بيد أنه على كل حال طريق لا بد منه يرشد إليه ويرشد ذاته إليه. ولئن كان ينقض فإنما ينقض الايديولوجيا "ونتايجها العملية" بقدر ما تمثل الايديولوجيا، أي كان مصدرها ومن أينما جاءت، بديلاً كاذباً ومشوشاً للوعي واستلاباً للعقل. فالايديولوجيا يعطيها الحدث العلمي والممارسة باسمها طابعاً أنياً وراهنية تتبدى في شكل معقد ومركب من جملة من القضايا المحددة غالباً ما طرح في شكل واسلوب يعبر عنها ولا يخفي أهدافها القريبة والبعيدة. فالعنصرية في العلم تتجلى في أحيان كثيرة تقودها مسارات تحاول أن تخفي الدافع والحافز الخفي المعبر عن كوامن مظلمة في النفس البشرية<sup>129</sup>. وفي أعمال العنف العنصرية عند استعمال الاسلحة المحرمة أو تجريبها على الغير لا بد على المثقف ادانتها لا كسلاح أو تجارب بل الوقوف ضدها لأنها استهدفت الضعفاء وباسم الحضارة والتمدن أو جرى اتهام الضحايا بها ولم يُدان الجلادون<sup>130</sup>.

#### 4-18: أزمة الايديولوجيا نفسها:

صار الاهتمام بتأثير الايديولوجيات شائعاً اليوم أكثر من أي وقت مضى. فالعلاقة بين الايديولوجيا وبين السياسة، بين الايديولوجيا وبين الدين، بين الايديولوجيا وبين العرق، بين الايديولوجيا وبين العلاقات الثقافية، موضوع مناقشات جارية كثيراً في الدراسات والابحاث وكذلك بين الناس ايضاً<sup>131</sup>.

ولا بد من الإشارة هنا أن لفظة "الايديولوجيا" باتت تشمل اليوم دلالات كثيرة ومتباينة. نشير بهذا الصدد إلى الدراسات التي أول من استخدمت "الايديولوجيا" هو "ديستيت دي تراسي" Destutt de Tracy<sup>132</sup>.

والتي تعني "علم الافكار": أي العلم الذي انكب عليه العديد من "الايديولوجيين" في القرن الاسبق.

<sup>129</sup>- العبودي عبد الكاظم ، "البحث العلمي التكنولوجي بين موضوعية العلم وعنصرية التوجه" مجلة الحضارة الاسلامية، العدد الخامس، نوفمبر، 1998، ص 236 - 262

<sup>130</sup>- الحروب الاهلية والتجارب والنفائيات ورواندا كلها ظلت مواضيع يلفها الغموض وتثار بين فترة وأخرى كاوراق ضغط بين أيدي القوى الدولية الكبرى رغم معرفة العالم بكثير من تفاصيل تلك الجرائم.

<sup>131</sup>- برياتيروبارتوي و مانسي ماريا ، ما بعد الاحكام المسبقة، مرجع سابق، ص 139.

<sup>132</sup>- Antoine Louis Claude Destutt de Tracy, Ele'ments d'Ide'ologie, Paris, 1804

وكان نابليون قد هاجم هؤلاء الايديولوجيين ملصقا بهم تهمة "الميتافيزيقيين". كما استخدم ماركس وانجلز هذا التعريف الاخير للكلمة في كتاب "الايديولوجيا الالمانية"، كما ان هناك مدلولات اخرى للفظ لدى العديد من الكتاب.

ومن العسير ان يتم تناول الايديولوجيا وتطبيقاتها من دون توقف عند مسألة "الايديولوجيا العنصرية"، خصوصا ان هناك من اراد توظيفها بشكل او آخر وخصوصا في قضايا العلاقات بين الاجناس<sup>133</sup>.

يقرر "ميشيل بانتون" في كتابه "العلاقات بين الاجناس" من : (ان النظرية العنصرية حازت في النهاية على منزلة هائلة من نظرة الانسان الى نفسه)<sup>134</sup>. ويعترف الكاتب ايضا: (...صحيح ان النظرية العنصرية ستدوم بعض الوقت، وربما تتفاقم في بعض الفترات، ولكن سيجوز للمؤرخين في المستقبل القول بأن الفترة الممتدة بين عامي 1850 و1950 كانت تعكس عصر العنصرية)<sup>135</sup>. و خلاصة القول فان الحديث عن التعامل المنهجي بين العلم والايديولوجيا في ايامنا هذه تشير الى حقيقة ان احد أسباب أزمة الايديولوجيا هو الاستيعاب البطئ للنماذج الجديدة والاستعارات وطرق الشرح التي يقدمها العلم مع رؤية منهجية للطبيعة والانسان والمجتمع، ذلك ان العلم تجاوز الصورة الميكانيكية للعالم والمنهج المرتبط بها على حد سواء.

اما الايديولوجيا الليبرالية الجديدة المتطرفة المهيمنة في الوقت الحاضر، فباعتقادها في غالبية الحالات على شروحات ميكانيكية وإحصائية قديمة للظواهر الاجتماعية لا تتلاقى مع بنى المعارف العلمية الحديثة وتمنى بالفشل الواضح في محاولة شرح الظواهر المنهجية التي تقلق المجتمع الآن مثل الازمات والنزاعات والعنف والارهاب وغير ذلك.

أفرزت الايديولوجيا الليبرالية الجديدة المتطرفة أسماء لعلماء وخبراء ومثقفين مزيفين، كلاب حراسة، لايديولوجيا الميز العنصري والابادة. منهم من ينتسب الى مؤسسات قومية معروفة في بلدانهم ومهم خبراء في المنظمات الدولية، هم في المنشأ والاصل من تقنيي المعرفة العملية، عندما يخرجون من تلك المؤسسات العلمية ينضمون الى ماكنة الاعلام والتأليف والكتابة ويعبرون عن مواقفهم كمثقفين. تفرز كتاباتهم عند المقارنة مع مواقفهم السابقة أنهم من طراز المثقفين المزيفين، المثقف المزيف، مثقف مباح، يظل ككلب حراسة وفيما الى مرؤوسيه في البنى الفوقية للمؤسسات العلمية ليحصد بعض الوجاهة والحضور وتلميع السيرة الذاتية السابقة. هؤلاء وان طرحوا مواقف تناقض مع الايديولوجية السائدة ويتزينون بزى المثقف الانساني والاخلاقي، لكنه سيبقى نقضاً مغشوشاً ومركباً يحمل سمات التمويه على ما يجري فعلا.

<sup>133</sup> -Michael Banton, Sociologie des relations raciales ;,p.7 Paris,1971

<sup>134</sup> -Michael Banton, Sociologie des relations raciales ;,p.7 Paris,1971

<sup>135</sup> - المرجع السابق.

وهكذا فالمتقف المزيف امامه امرين لاثالث لهما: إما أن ينقض مبادئ الطبقة السائدة بالذات، واما ان يعمل في خدمة هذه الطبقة من خلال تظاهره بنقضها. وقد تعرت انتهازية هؤلاء المتقفين المزيفين من خلال محطات تاريخية هامة وإزاء مواقف تطلبت الافصاح عن موقف واضح كما هو الحال مع جرائم الحرب والاستعمار والاحتلال الفرنسي في الهند الصينية والجزائر. ان كتاباتهم ساوت بين الضحية والجلاد. كالنص التالي الذي كتبه أحدهم: (إنني مع العنف المزمّن الذي يمارسه المعمرون على المستعمّرين [استغلال، جشع، بطالة، نقص تغذية، وما الى ذلك مما يفرض بالارهاب]، وعلى كل الاحوال، انه أهون الشرين، وهو زائل يوما لا محالة، لكنني ضد العنف الذي قد يمارسه المستعمّرون ليحرروا انفسهم من المعمرين الذين يضطهدونهم) <sup>136</sup>.

وعندما انتمى الكثير من المتقفين الفرنسيين المزيفين الى "حركة غاري ديفيس" وكان غرضهم من ذلك ان يصلحوا على الفور مواطنين عالميي الجنسية، وأن يجعلوا السلام العام يخيم على ربوع الارض، قال احد الفيتناميين لمتقف فرنسي مزيف، عضو تلك الحركة: (... على رسلكم، ابدأوا إذن بالمطالبة بالسلام لفيتنام ما دام القتال يدور هناك)، فأجاب الآخر: (... هذا من رابع المستحيلات، لو فعلنا ذلك لكان هذا تشجيعا منا للشيوخ عيين) <sup>137</sup>.

ان خطابا كهذا يفصح عن انتهازية الموقف؛ لان الرغبة في السلام لا تعني ان هناك ادانة للحرب ولا للمعتدي. وهو لا يختلف عن خطاب المتقفين المزيفين الذين يتحدثون عن "الوفرة" وتجاهات التطبيقات البيوتكنولوجية وزيادة الانتاج الزراعي والحيواني ويتجاهلون ان ثلثي سكان المعمورة يتضورون جوعا وان سياسات الوفرة قد حرمت الجياح من فائض الانتاج الزراعي في الغرب الذي يتلف او يحرق او يقدم اعلافا او يقدم الى مصانع انتاج الوقود الحيوي.

#### 4-19: البيئة العلمية وتكوين النخب العلمية والتكنولوجية

تلعب البيئات المختلفة ادوارا في تطور العلم او اعاقته، والفجوة العلمية التكنولوجية، المعاصرة بين عالم متقدم علميا وتكنولوجيا وأخر ناتجة عن ظروف بيئية وجغرافية واقتصادية. يرى "برنال" في كتابه [العلم في التاريخ] حول المسار الخاص للتقدم الصناعي والعلمي، "انه في داخل حدود معينة، لا يمكن لمنطقة من المناطق أن تكون مركز تقدم اقتصادي أو ثقافي، وان تستمر كذلك طويلا دون أن تتوافر لها مصادر طبيعية كافية: أراض صالحة للصيد، حقول وغابات ومناجم فحم وحديد وآبار بترول... الخ"، ويشير ايضا الى شرط أساسي مساو في الاهمية، وهو عدم وجود مناخ يؤدي الى أمراض متوطنة أو انهاك شديد <sup>138</sup>.

<sup>136</sup>- سارتر جان بول ، مرجع سابق ، ص 44 و 45.

<sup>137</sup>- سارتر جان بول ، مرجع سابق ، ، ص 46.

<sup>138</sup>- برنال، ج، د، العلم في التاريخ، المجلد الرابع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ، ص 282. بيروت، (1982).

اما أي من المناطق الممكنة جغرافيا ستصبح بؤرة التقدم فأمر يعتمد، في رأيه، على أشكال المجتمع: علاقاته الانتاجية ومصاحباته الاقتصادية والسياسية. كما ان العزلة الجغرافية الكاملة اعاقت كثيرا من الحضارات القديمة من التطور كما في حضارات امريكا القديمة، ومن ناحية اخرى فان سهولة الوصول الى منطقة ما، كما هو الحال مع بابل وجنوب شرق أوروبا، قد يؤدي الى تراجع التقدم بسبب الغزو او التغلغل لاهل القبائل والبدوابة والجيران الاقل تحضرا. اما العامل الاشد حسما، خاصة في العصور الاخيرة، فهو استمرار وجود دافع داخلي للتغيير، ففي تعاقب الصراعات الطبقيّة، تصبح التقنية والثقافة أسلحة سيطرة كل طبقة بدورها، ويحدث التقدم خلال هذه العملية<sup>139</sup>.

#### 1-19-4 : نظام الجدارة "المريتوقراطية" تكنوقراطية العلماء :

ظهرت مصطلحات مثل الديمقراطية والادواتوقراطية وكذلك التكنوقراطية، والاخيرة: تعني الرجال والنساء الذين اعتقدوا ان بإمكانهم توجيه الامة على اساس كفاءتهم التقنية. الا ان التطور افرز نخبة من التقنيين يرون ان لا شئ يمكن انجازه بدونهم، فهم يملون القرارات التي على السياسيين والاداريين اتخاذها إملاء تاما. ومع تعاظم دور التقنية زاد من اختراق تلك النخب لجميع مجالات العمل السياسي واصبحوا في وضع يتجاوز الاستشارة للسياسيين الى مقرر يملي القول "هذا هو الحل ولا يوجد غيره، وعليكم ان تأخذوا به" وهم هنا يضيفون السلطة الى الكفاءة وهذا ما يجعل منهم تكنوقراط يملكون أعظم الكفاءات التقنية وخاصة وهم يمتلكون افضل القدرات على زيادة تطبيقات ونتائج التقنيات. واذا كانت الانظمة الديمقراطية لاتتسامح مه اخطاء السياسيين ولكن هناك من يجد الاعذار لاطياء التقنيين.

واذا كانت لوائح القوانين والاخلاقيات تطبق على العديد من المهن، فان هؤلاء حتى في حالة الاخطاء الخطيرة او الاضرار واسعة المدى فاننا لم نسمع ابدا ان وقف مهندس طاقة نووية او مهندس صواريخ او مدراء مشاريع لاسلحة الدمار الشامل أمام المحاكم ولجان التحقيق وصدرت ضدهم أحكام، فأحد ملامح الارستقراطية هذه هي انها فوق القانون، وينطبق نفس الملمح على التكنوقراطيين اليوم. والقانون بالنسبة لهؤلاء عديم الجدوى والاهمية، فهو اختراع من الماضي. وليس للقانون اهمية في مواجهة الالزامات التقنية التي يصدرها التكنوقراطيون مثلا: نادرا ما تفرض بالقوة المعاهدات العديدة الخاصة بالانتشار النووي، فالتكنوقراطيون، مثلهم مثل الارستقراطيون يمتازون بانهم يملكون حق الممارسات القصرية. وهم وحدهم على علم بممارسات

أنظر أيضا :

بور، نيلز الفيزياء الذرية والمعرفة البشرية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1997 ص 283.

<sup>139</sup> بور نيلز، المرجع السابق، ص 283، القاهرة، (1997)

معينة ولديهم الحق في ممارستها ولهم الحق باللعب بتقنيات وبيرومجون تجاربهم بغض النظر عن فداحة النتائج واضرارها الوخيمة على غيرهم.

#### 4-20: نخب الحروب والدمار الشامل:

لا يمكن اندفاع العلم التطبيقي في انتاج اسلحة الدمار الشامل الا بمحاولة انتحار مجهولة العواقب والنتائج. واذا استمر هذا الاندفاع الجنوني باستغلال تقدم العلم فسيصل العالم الى الكارثة الحتمية التي وصفها كتاب " الشتاء النووي" <sup>140</sup>، مثل هذه العثرة الكبرى يمكن ان تعيد النظر لاعتقادات "بوبر" حول المعوقات الرئيسية التي تقف حجر عثرة أمام تقدم العلم، والتي يراها أنها ذات طبيعة اجتماعية، ويقسمها الى مجموعتين: منها عقبات اقتصادية، وعقبات ايدولوجية.

ربما تسعى بعض النخب التكنولوجية الى تقوية اقتصاديات الحرب من خلال بيع منتجات الابداء كأسلحة توخيا لجلب الارباح، ومنها تسعى لاكتساب وتطوير وانتاج السلاح مدفوعة بالتعصب الايدولوجي او القومي او العنصري او الديني. "ان الإسناد المادي المتصاعد الذي يتمتع بع العلم في كثير من البلدان يعود بصورة رئيسة الى أهميته المباشرة وغير المباشرة، بالنسبة الى قوة الامة العسكرية ودرجة نجاحها في سباق التسلح، وهذا يحول العلم عن هدفه الصحيح، وهو ان يزيد من معرفة الانسان وينمي سيطرته على قوى الطبيعة لمنفعة الجميع"<sup>141</sup>.

ومن الاخطار الكبرى ان تتحول النظرية العلمية في مجال معين تدعو الى نمط فكري مؤدلج. وفي هذه الحالة من انعدام الثقة بين الامم والسباق في سبيل التفوق العسكري الناشئ عن ذلك، أصبحت كافة فروع العلم، الفيزياء، والكيمياء، والبيولوجيا "علم الحياة" وحتى علوم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا تتراجع في منظوراتها الاخلاقية الصارمة في البحث لتخلي الطريق امام التدخل المتزايد للطموحات العسكرية والتصنيع العسكري في شؤون العلماء والبحث العلمي .

وللأسف أيضا، قاد ذلك التفكير الى تغيير في نظرة بعض الشعوب للعلم ومهمته الاساسية في رفاه وسعادة البشر، فأيدت توجيه نخبها السياسية والعسكرية في توجيه مؤسسات البلاد البحثية والعلمية والتقنية والصناعية نحو تطوير اسلحة الدمار الشامل ووضع العلماء والنخب التكنولوجية تحت امرة وحماية ونفوذ منتجي هذه الاسلحة. ( فالعلماء اما ان ينالوا الاعجاب لما قدموه للأمن القومي، أو يلعنون لأنهم عرضوا البشر للخطر باختراعهم اسلحة الدمار الجماعي) <sup>142</sup>.

<sup>140</sup>- هارول مارك ،جوزيف دري ، دوريا دوردن ، هربرت غروفر ، كرستين هارول ،ستيفن بانسكا ، دافيد بيمانتل ،، الشتاء النووي ، دار الرقي ، ص 41 و ص 159 ، بيروت، (1986).

<sup>141</sup>- رسل برتراند جزء من قرارات "تصريح فينا" الذي اتخذه مؤتمر لوكواش الثالث بالاجماع ماعدا استثناء لصوت امريكي استنكف عن التصويت، مرجع سابق، ص 79. في 20 سبتمبر1958.

<sup>142</sup>- رسل برتراند من "تصريح فينا" مقتبس ، ص 79.

ان مشكلة التعصب الايديولوجي تكون أكثر تعقيدا إذا ما نشأت روابط معينة بين العلم والايديولوجيا، ظهرت في البلدان الشيوعية وفي الراسمالية باستخدام التنظير للايديولوجيا من خلال استخدام المعطيات والنظريات العلمية لتبرير الايديولوجيا<sup>143</sup>، مثل تلك الروابط التي أدت بالناس الى الخلط بين العلم والايديولوجيا، ومن ثم الى اختلاط التمييز بين الثورات العلمية والثورات الايديولوجية<sup>144</sup> ومن الوجوه العديدة للتمييز بين العلم والايديولوجيا، يشير "بوبر" الى وجهين، أحدهما: هو ان النظريات العلمية التي يمكن تمييزها أو تعيين حدودها من النظريات غير العلمية التي قد يكون لها مع ذلك تأثير قوي على العلماء لأنها تلهمهم في عملهم، وربما يكون مثل هذا التأثير بالطبع حسنا أو سيئا أو بين بين<sup>145</sup>. أما الوجه الاخر المختلف تماما فهو اتخاذ موقف دفاعي قوي: فقد يكون للنظرية العلمية وظيفة مثلها مثل الايديولوجيا إذا ما تم الدفاع عنها اجتماعيا بصورة قوية. وهذا هو السبب الذي يجعله عند الحديث عن التمييز بين الثورات العلمية والثورات الايديولوجية، يدخل ضمن الثورات الايديولوجية تغيرات في الافكار العلمية التي ربما تلهم العلماء في عملهم، وأيضا في الدفاع الاجتماعي كما قد يكون نظرية علمية من نوع آخر.<sup>146</sup>

#### 4-21 : الموضوعية العلمية والاخلاقية في حقل الفلسفة والعلوم :

##### 4-21-1: - مسؤولية العلماء الاخلاقية:

قراءة تاريخ العلم والتقانة والاختراع يمكن ان تتوقف عند مواقف ساذجة وجاهلة للبعض إزاء احتمالات التطور العلمي ومستقبله، فقد طرح في منتصف القرن التاسع عشر إقتراح جاد كان يدعو الى إغلاق مكتب الولايات المتحدة لبراءات الاختراع لأن أصحاب الاقتراح ظنوا أن أي إختراع له أهمية قد تم إنجازه<sup>147</sup>.

وبعد ذلك الاقتراح ظهرت مخترعات مثل التلغراف والتلفون والراديو والتلفزيون والطائرات واجهزة الكمبيوتر. ومنذ اكثر من ثلاثة عشر سنة (1996) عاد صحفي أمريكي اسمه "جورج هورجان" فأصدر كتابا عنوانه (نهاية العلم)، اعتقد به : ( ان الاسئلة المهمة حول طبيعة المادة والحياة قد تمت الاجابة عنها، وان ما تبقى من أسئلة حول الطبيعة والعقل ليست مما يقبل

<sup>143</sup>- ستيفن روز وآخرون ، المرجع السابق ص 19، 31.

<sup>144</sup>- بوبر كارل ، عقلانية الثورات العلمية، تحرير إيان هاننج، ترجمة السيد نفادي، دار المعرفة الجامعية، ص، 151 الاسكندرية، (1996).

<sup>145</sup>- لاحظ حركات السلم ومناهضة التسليح النووي والخضر ومجموعات البيئة.

<sup>146</sup>- بوبر كارل ، عقلانية الثورات العلمية، مرجع سابق، ص 152.

<sup>147</sup>- جاردر هوارد ، مسؤولية العلماء الاخلاقية، مجلة حوارات عدد يناير 1999، مترجم في كتاب تعلم العلم في القرن العشرين، مكتبة الاسرة، ص (197 - 208) القاهرة، (2004).

إجابة علمية)<sup>148</sup>. ولا ندري ما سيقوله آخرون حول نهايات العلم بعد عقد أو عقدين من بداية الألفية الثالثة<sup>149</sup>.

ونحن بالتأكيد لا نستطيع التنبؤ بتفاصيل أوجه التقدم في العلم والتقانة. حالنا حال من ذا الذي كان يتوقع في نهاية القرن التاسع عشر اكتشافات مثل النظرية النسبية أو تكتونيات الواح الارض او فك الشفرة الوراثية او الاكتشافات في البيولوجيا الجزيئية وبنية الحمص النووي الريبوزي منقوص الاوكسجين "الدنا" DNA، طبيعة الجينات ،واستنساخ كائنات بأكملها وتعديل التتابع الوراثي البشري والتحكم وراثيا بكل صفة منتقاة للبقاء أو الحذف؟. وقد أصبح هناك تقدم له قدره ينفذ في علوم الاعصاب والإدراك، فانه يبدو مرجحا إلى درجة كبيرة إن العلم سيواصل إمطة النقب عن أسرار التفكير، وحل المسائل، والتنبه، والذاكرة، ثم، أكبر الغنائم كلها مراوغة، طبيعة الوعي<sup>150</sup>، ومن ذا كان يمكنه أن يتوقع ميكانيكا الكم ودلالات مبدأ عدم اليقين لـ "هايزنبرج" وابحث فيزياء الجسيمات التي اجراها "ليون ليدرمان" وآخرون، او تحقيق ظاهرة الانشطار النووي والاندماج النووي والتحكم بها سلما أو حربا. ومن الصعب على من يكونون على صلة وثيقة في المشروع العلمي أن ينكروا مدى ما يوجد من إثارة في المشروع العلمي.

رغم أن هناك نصيب كبير لفلاسفة التخصص والرؤى الاخلاقية للاجابة عن كثير من التساؤلات الملحة حول العلم وطبيعته وآفاقه، ولكن الإجابات الحقيقية تبقى بيد العلماء، وما كان سرا في المخابر بالأمس البعيد والقريب صار اليوم من المسائل المتداولة، وهي مسائل قابلة للحل والجدل عليها، ومع ذلك فمن الخطر إتخاذ وجهة نظر مفرطة في التفاؤل بالنسبة لمسار العلم. يواصل العلم مسيرته ولكن ليس هناك من ضمان من أن العلم سيسهم طبيعيا في خير البشرية بصورة مطلقة ومضمونة، كما علق "ليون ليدرمان 1992": [هذا استشهد من لقاء اجراه "ليون ليدرمان" عالم الفيزياء في مؤتمر "اتخاذ طريق من خلال الدنا" في جامعة كاليفورنيا في سان فرنسيسكو 1992 وهناك نسخة جزئية منه متاحة في موقع على الأنترنت<sup>151</sup> من أنه: (...عندما ننظر الى ايام العلم المبكرة، نجد انه كانت للعلم تأثيرات مدمرة في الطريقة التي يعيش بها الناس. ولست أعني بكلمة "مدمرة" أنها سلبية؛ وإنما أعني فحسب أنها تأثيرات درامية في الطريقة التي يعيش بها الناس، ولكن لم يكن من المعروف وقتها ان ذلك سوف يحدث). ويرى "هوارد جاردر:152

<sup>148</sup> -Horgan J." The End of Science", Reading Mass , Addison Wesley,1996

<sup>149</sup> - كاكو متشيو، رؤى مستقبلية، عالم المعرفة العدد 270، ص157 وصفحات أخرى الكويت،(2001).

<sup>150</sup> - جاردرنر هوارد، مسؤولية العلماء الاخلاقية، تعلم العلم في القرن العشرين، مرجع سابق، ص 197.

<sup>151</sup> -<http://www.accesse xllence.com/AB/CC/lederman.html>.

<sup>152</sup> - جاردرنر هوارد، "مسؤولية العلماء الاخلاقية"، مرجع سابق، ص 198.

(... العلم محايد أخلاقيا، وهو يمثل أفضل محاولات أفراد البشر لتوفير إجابات يعتمد عليها عن أسئلة يهمننا أمرها: من نحن؟ كيف وصلنا الى أن نكون؟ ما الذي صنع العالم منه؟ من أين أتى؟ ما الذي سيحدث له؟ ومتى؟ ، "أفينبغي أن أنقش التاريخ في مفكرتي؟"، ما الذي يحدد أوجه هذه الاسئلة؟ ، هل يكون نوعا من مخلوق أخلاقي أو لا أخلاقي أو بلا حس أخلاقي؟) . ويرى "هوارد جاردر" <sup>153</sup> : (... ولكن ماذا يحدث عند الاجابة عن هذه الاسئلة؟ أحيانا تكون الاجابات ببساطة مما يشبع الفضول البشري، وهذا هدف مهم جدا، إلا أنه في أحوال أخرى تؤدي الاجابات الى أفعال ملموسة، بعضها ملهم وبعضها مفرع.

أدت معادلة أينشتاين: الطاقة = الكتلة x (سرعة الضوء)<sup>2</sup>

$$E=mc^2$$

الى إثارة نتائج كثيرة "تمت بنا لا يمكن إنكاره بطريق غير مباشر". تراوحت هذه النتائج ابتداء من استخدام الطاقة النووية لتوفير الطاقة "الكهربائية والتدفئة" للمدن، وكذلك تفجيرات نووية على حساب حياة الآلاف في هيروشيما ونيغازاكي، ثم وصولا الى نشر التلوث الذي تبع كارثة تشيرنوبيل. وقد حدث هذا بعد اكتشاف المضادات الحيوية أن شهدنا ظهور أدوية رائعة تستطيع التغلب على أمراض مروعة، كما شهدنا أيضا ظهور كيانات "أوساط" سامة ثبت أن لها مناعة ضد تأثير العلاج بالمضادات الحيوية).

إذن فإن العلم غير مسؤول ولا يستطيع أن يقرر أي الاستخدامات سيتبعها، وأيها التي لن يتبعها، فهذه قرارات يتخذها أفراد البشر، وهم يتصرفون بناء على أي مما تكونه القدرات الرسمية وغير الرسمية المتاحة لهم. وقد أعطى أينشتاين مثلا جيدا لهذه النقطة. ومن المشكوك فيه أنه كان يفكر في تطبيقات النظرية الذرية عندما كان يطور أفكاره حول الخواص الأساسية لعلاقة الطاقة والمادة. وعندما إتصل به في أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي عالم الفيزياء "ليو زيلارد" ، الذي كان له صبغة سياسية معينة، كان قد أصبح واضحا بالفعل وقتها أن الطاقة النووية يمكن السيطرة عليها لإنتاج أسلحة قوية جدا. وافق أينشتاين على أن يوقع على خطاب موجه إلى الرئيس الأمريكي "فرانكلين روزفلت"، وأدى هذا التصرف بدوره الى إنطلاق مشروع مانهاتن والشروع ببناء أول سلاح ذري. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وفي أعقاب تفجير القنابل النووية فوق المدن اليابانية، أصبح أينشتاين زعيما في حركة السلام الداعية إلى نزع السلاح. ومثال آخر عندما تلقى العالم "جاردر" ، الذي عمل قرابة ثلاثين سنة عن نظرية حول الذكاء البشري سماها (نظرية

<sup>153</sup>- جاردر هوارد ، المرجع السابق، ص199.

الذكاوات المتعددة)<sup>154</sup> رسائل من زملاء له أخبروه عن مشاريع هناك : (...تستخدم افكارك عن الذكاوات المتعددة في استراليا، الا انك لن تحب الطريقة التي تستخدم فيها)، وقد تحرى "جادر" بنفسه عن تطبيقات نظريته فاكتشف ان تطبيقات النظرية، تم اعتمادها بمشاريع بحث، وبطريقة انتقائية وعنصرية، وطبقت على المجموعات العرقية والأثنية هناك. وتوصل القائمون بالبحث في استراليا الى: (الى وضع قائمة من الذكاوات المصنفة، تزعم فيها النتائج إلى وجود مجموعات ضعيفة الذكاء) .

يعلق "جاردنر" على تلك النتائج في استراليا: (... كانت هذه القوالب النمطية، تمثل تحريفا كاملا لما أو من به شخصيا، وإذا لم أتكلم أنا فمن الذي سيفعل ذلك؟ وبالتالي ظهرت في التلفزيون في استراليا وانتقدت ذلك البرنامج ووصفته بأنه "علم زائف"، وكان في هذا النقد، هو وغيره، ما يكفي لأن يُنتج عنه إلغاء المشروع، ومع ذلك فان "التحرك" الذي أديته، هو في اعتقادي الخاص تحرك حاسم. وبدلا من انظر في "التطبيقات"، على أنها مهمة شخص آخر، توصلت إلى أن أدرك أن لدي مسؤولية عن التأكد، من ان افكاري تستخدم على نحو بنائي بقدر الإمكان. والحقيقة اني منذ ذلك الوقت قد كرس بعض طاقتي في دعم ما أوافق عليه من الأبحاث التعليمية على الذكاوات المتعددة، وفي أن انتقد أو أبتعد بنفسني عن الأبحاث التي تكون لها استخدامات لا شرعية أو يصعب تبريرها، كما أنني بقدر ما يمكنني، أخذت أعمل في اصلاح التعليم على نحو أوسع... وفي هذا السياق كان لي كعالم اجتماع شرف أول لقاء بليون ليدرمان عالم الفيزياء الفائز بجائزة نوبل).<sup>155</sup> .

ترد كلمة علم في لسان العرب لابن منظور بأنها: صفة من صفات الخالق، إستنادا الى ماجاء في الذكر الحكيم من نصوص: "وهو الخلاق العليم"، "عالم الغيب والشهادة"، "علام الغيوب"... الخ، فالله هو العالم والعليم، وإن الأنسان قد تعلم من الخالق تلك العلوم. والعلم نقيض الجهل<sup>156</sup>.

وفي عالمنا الاسلامي والعربي يضع الجمهور غير المتخصص العلماء في مرتبة رفيعة جدا. انطلاقاً من نصوص الاسلام الذي وضع العلماء في مراتب الانبياء: (اشارة الى الايات القرآنية بهذا الخصوص "انما يخشى الله من عباده العلماء"، ومقولة "العلماء ورثة الانبياء"... وغيرها) .

وفي الولايات المتحدة تجري "اللجنة القومية للعلم" مسوحا، كل عامين، لأهم الشخصيات الامريكية، ويحدث على نحو ثابت أن نجد ان مرتبة العلماء هي من بين أكثر المجموعات التي

<sup>154</sup> -Gadner,H."Frames of Mind",The Theory of Multipe Intelligences. ,, New York; Basic Books,1983\1993.

<sup>155</sup> - جاردنر هوارد ، مرجع سابق، ص 202 - 203.

<sup>156</sup> - ابن منظور ،لسان العرب ،المحيط ،تقديم عبد الله العلايلي ،دار لسان العرب بيروت 1970 ، صفحات 870،871.

يثور الاعجاب بها، بما يعلو كثيرا حتى على مرتبة الساسة. ويتأسس إعجاب الجمهور بالعلماء ورغبته في دعم العلم، ليس فقط على اعتقاده بأن العلم سيفيد المجتمع؛ ولكن ذلك يتأسس أيضا على أنه يمكن الوثوق في أمانة العلماء في إجراء وتسجيل البحوث. وعندما يعلن علماء عن نتائج أبحاث متضاربة يثير ذلك التضارب الريبة لدى الجمهور الذي باتت قطاعات هامة منه تدرك أن هناك مصالح لجهات سياسية او اقتصادية لتوجيه النتائج وسياسة العلم في هذا المجال أو ذاك وفق مصالحها. ولا زالت الكثير من النتائج المتداولة إعلاميا تثير شكوكا متزايدة حول دوافع تضاربها وأحيانا تناقضها<sup>157</sup>.

شهدت العقود الثلاثة الاخيرة نموا اقتصاديا سريعا في اقتصاديات عدد من الشركات، الامريكية خاصة، والتي كان ورائها علماء بارزون وباحثون تقنيون تطبيقيون بارعون، أسهموا في التسويق التجاري لمنتجاتهم العلمية والتقنية من خلال تلك الشركات التي يمكن ان تتعاون مع الجامعات ومراكز البحوث لتمويل تلك الابحاث والاستثمار في تطبيقاتها، مما خلق بيئة مشتركة بين العلم ورأس المال التجاري، تتطلب من الجماعة العلمية أن تكون أكثر يقظة من أي وقت مضى فيما يتعلق بأكثر المعايير صرامة في السلوك الأخلاقي. وأن يكون ذلك بطرائق واضحة ومقنعة للجمهور<sup>158</sup>، ورغم ذلك فما زالت هناك نخب علمية توظف عقولها من أجل كسب الارباح للشركات الامريكية حتى ولو تجاوزت على المعايير الاخلاقيات العلمية كما هو حاصل الآن مع التطعيمات ضد انفلونزا الطيور والخنازير واحتكارها من اجل ارباح لجهات وشركات امريكية معينة.

كتب "جاكوب برونوفسكي" في كتابه (العلم والقيم البشرية)<sup>159</sup>: (. الحقيقة هي الدافع الموجود في المركز من العلم. يجب أن يتصف العلم، باعتياده للحقيقة، ليس بواسطة الدوجما، وإنما بواسطة العملية العلمية).

#### 4-21-2 : المسؤولية العلمية والمسؤولية في اساءة تطبيق العلم:

كانت مهمة العلماء حتى القرن الماضي هي اضافة معارف جديدة لتعميق الوعي البشري إزاء قضايا الطبيعة والحياة، ولم يصدرها قرارات حول السياسة أو الحرب، وفي أغلب النجاحات العلمية والقفزات التكنولوجية الكبرى لم يخطر ببالهم مشروعا مدركا للمخاطر التي تجلبها الاستخدامات العشوائية للتطبيقات العلمية والتكنولوجيا وإساءة استخدامها أو إستغلالها إستغلالا ضارا ضد البشرية والبيئة. ( ان المعرفة لا تنفع الا اذا كانت بايادي أولئك الذين يملكون قدرا كافيا

<sup>157</sup> لاحظ ما يتداول حول الاغذية المعدلة وراثيا وأضرار الجرعات الإشعاعية المنخفضة.

<sup>158</sup> "والتر إ. ماستي"، "المسؤولية العلمية" تعلم العلم في القرن 21، مرجع سابق، ص 212 - 213.

<sup>159</sup> Bronowski, Jacob, "Science and Human Values", Rev. ed., , Harper and Row Publishers, New York, 1965.

من الحكمة يمكنهم من حسن استعمالها... وهذه الحكمة ايضا موجودة، ولو بصورة مشتتة وبدون قوة تمكنها من السيطرة على الاحداث، ان الحكماء والانبيااء أشاروا في وعظهم الى حماقة النزاع، ولو أصغينا لهم، لخرجنا الى عالم السعادة الجديد).<sup>160</sup>

وفي زمن العولمة وتجاوز الابعاد الجغرافية للحدود المرسومة سياسيا فان مهمة العلماء أضحت معقدة فهم :

اولا: علماء ومواطنين في بلدانهم، وهم:

ثانيا: جزء من منظومة العلماء في العالم ومواطني الكوكب تبقى مسؤوليتهم الرئيسية الحفاظ على صحة وحيوية العلم نفسه تضاف لها السهر على تقدم الاكتشافات ونشر المعرفة والتيقن من ان المشروع العلمي سيواصل التقدم.<sup>161</sup> واطافة الى الافراد والمؤسسات التي تتكامل مع دور العلماء ينبغي على العلماء بذل جهود خاصة لكي يتم الحفاظ على صحة وحيوية العلم:

1- العمل على جذب وتشجيع ألمع العقول في بلدانهم والعالم على حد سواء، وهذا يعني ايضا جذب أفراد من كل المجموعات ذات الخلفيات الثقافية والحضارية والإثنية.

2- ان تسهم المجموعة العلمية في تعزيز نشر وتحسين وسائل تعليم الناس لضمان جمهور اكثر تعلمًا وتعلقًا بالعلم.

3- تمسك المجموعة العلمية التي تقود البحث، التدريس، ونشر العلم، بأرفع مستويات الامانة العلمية والسلوك الاخلاقي.

4- ضمان توجه العلم نحو التطبيقات الخيرة ومنع استخدامه كسلاح او وسيلة إيذاء للغير بشرا كانوا او بيئة.

وما يتعلق بالنقطة الرابعة بموضوع البحث نجد لها إثراء أوسع ضمن ابواب وفصول هذه الرسالة، وخاصة بما يتعلق بالاسلحة النووية والجرثومية والكيميائية. فان الواجهة للبحوث في هذا المجال تغفل اسماء الاشخاص والعلماء الذين يسهمون في مشاريع الابداء البشرية من خلال تطوير اسلحة الدمار الشامل لاسباب امنية واخلاقية معا. اما تحمل المسؤوليات فلم نجد بعد ذلك النقد الذاتي الصريح من لدن من شاركوا لادانة ذلك.

ناقش العالم النووي الكبير "جوزيف روتبلات" خبراته أثناء إنشاء إنشاء الاسلحة النووية في مقال له نشر في مجلة "العلم"<sup>162</sup> بعنوان: (تحمل المسؤولية)، سرد شعوره المتنامي بالقلق بشأن الاستخدامات التي تستعمل فيها هذه الاسلحة، وكانت خبراته في ذلك مماثلة لخبرات علماء آخرين كثيرين ممن شاركوا في مشروع مانهاتن. يقول "روتبلات" :

<sup>160</sup> رسل برتراند ، هل للإنسان مستقبل، مرجع سابق، ص 30 .

<sup>161</sup> ماستي والتر ، المسؤولية العلمية، تعلم العلم في القرن 21 ، مرجع سابق ص 209.

<sup>162</sup> Rotblat, Joseph. Taking Responsibility , Science no. 289, p. 729, USA, 2000

(... يتزايد ما ينتابني من قلق حول دور العلم والتكنولوجيا في كل من الحياة اليومية، وكذلك في مصير البشرية. يتهدد الخطر مستقبل الحضارة وصميم وجود النوع البشري، سواء كان ذلك مباشرة من خلال إنشاء قدرات عسكرية جديدة أو بطريقة غير مباشرة من خلال التوزيع غير المتساوي لفوائد التكنولوجيات الجديدة. يجب على العلماء أن يتحملوا المسؤولية عن هذا الخطر، وأن يتخذوا الخطوات من أجل إزالته. "يجب أن تصبح الاعتبارات الاخلاقية جزء من روح الجماعة في العلماء").<sup>163</sup>

تلك التكنولوجيات التي أُعتبرت ثمار التقدم العلمي؛ ولكن الإنحدار الاخلاقي في سوء التطبيقات العلمية وتجريبها على البشر بدا في إساءة تطبيق العلم. هذا الانحدار يُواجه بمقاومة تجلت في ثلاثة أوجه منها:

- معارضة قيم المجتمع، وخاصة الموروث والاعتقاد والقيم الدينية التي رفضت استخدام الاسرى والمساجين في تجارب التعريض للمواد السامة. على اعتبار الدين ان للحياة البشرية حرمة.

- القوانين في دول كثيرة ، ونصوصها التي تحمي الاسرى والمساجين من أي امتهان لحياتهم وكرامتهم الإنسانية ومنها ترفض كل أشكال المعاملة السيئة والعقاب.

- هناك حس بدافع داخلي ومثل ومعايير أخلاقية لدى المهنيين والعلماء، وبوسع العالم ان يتخذ موقفا رافضا من استخدام العلم الذي يستهدف رفاه وحماية الانسان من ان يكون وسيلة للتعذيب والتجريب في التجارب الضارة.

لقد رفض العلماء استخدام الاكتشافات العلمية وإجراء التجارب على البشر في المعتقلات النازية. هذه الحالات والعوامل الثلاث وفئاتها العاملة فيها يفترض ان تشكل قاعدة صلبة للرفض الاجتماعي والاخلاقي لأي "إساءة للعلم في التطبيق. ولكن يبدو ان هذه القاعدة تتآكل وتضعف نتيجة لهشاشة القيم وتراجعها فحتى الوازع الديني بدا متراجعا اما تغيرات العصر اما القوانين، رغم تشريعاتها الوطنية والدولية، فقد ظل الكثير منها عصيا على التطبيق.

وفي ظل انتصار قيم نموذج السوق والتجارة الدولية وبعض مظاهر الحريات الليبرالية والعولمة فان كل تلك العوامل الثلاث تراجعت وأصبح من الصعب تماما على المهنيين والعلماء التمسك بالمعايير الاخلاقية النابعة من حسهم الداخلي ومواقفهم إزاء مسائل الحياة البشرية والبيئية ومستقبلها. بات التمويل والاستثمار في هذه الحقول متحكما حتى في تشريعات القوانين الاخلاقية

<sup>163</sup>- النص من روتبلات 2000 والتنصيص الداخلي مضاف من " ماستي والتر "، مرجع سابق، ص 209-219.

واللوائح التشريعية الخاصة بكل حقل ومنها الجدل الدائر حول مسائل حساسة كالاستنساخ وابعاث الخلايا الجذعية والاذنية المعدلة وراثيا والهندسة الوراثية.

ولا يختلف اثنان من العلماء او الفلاسفة او كليهما، إننا نواجه مازقا انسانيا في أخرج فترة من التأريخ الانساني؛ فأمام التطورات العاصفة في التقدم العلمي والتكنولوجي وسرعتها، وافتتاح العلم لجهات جديدة، نجد ان القيود التقليدية والاذلاقية المتعارف عليها ضد التجريب الوحشي أو سوء استخدام التطبيق العلمي والتقانة قد ضعفت وبات القلق يطرح اسئلة اخرى وفي مقدمتها من المسؤول؟ أهو العلم؟ ام المجتمعات ونخبها العلمية والسياسية والاقتصادية والعسكرية؟.

ورأينا رغم كل الضغوط والمغريات تبقى المسؤولية تقع على عاتق العلماء والخبراء والعاملين في حقول التقانة وتطبيقاتها العلمية. ولا بد من صياغة موانيق بين العلماء انفسهم ومع القوى الاجتماعية في مجتمعاتهم من تلك القوى الواعية بمخاطر انحدار العلم. ولا بد من توفير المال والبيئات المناسبة للعلماء من ان يواصلوا ابحاثهم من دون خوف او املاء او تسيير من النخب السياسية والمالية المتحكمة بالاستثمار العلمي والعسكري.

كما يجب على العلماء ان يثبتوا أيضا تخليهم عن المبررات التي كانت تقول انهم غير مسؤولين عن تطبيقات العلم؛ لذا يجب ان يبذلوا جهدا صادقا وأخلاقيا للتأكد من أن ثمار العلم يمكن ان يتم تطبيقها بحكمة، بعيدا عن الحماقات والمغامرات في المجهول برغبة فردية من بعضهم أو بضغط المصالح العليا والعبث العلمي والإيديولوجي. وهذا يتم على عدة مستويات :

اولا: التركيز على ما يحتمل من تطبيق او سوء تطبيق لأبحاثهم الخاصة.

ثانيا: التركيز على العلاقة بين العلم وبين المجتمع/المجتمعات الذي يتموقع العلم فيها وتوجيها ببعده انساني يتجاوز العنصرية والحقد والطمع.

ثالثا: تفهم تعامل العلماء والمهنيون المبرزون مع المؤسسات ومراكز البحوث والخبرة لوظائفهم وتحسينهم ضد الإغراءات بتوفير فرص العمل لهم في مؤسسات اخرى تحميمهم من الابتزاز بكل أشكاله، وخاصة بتوفير القوانين المتعلقة بأخلاقيات البحث العلمي التي تحمي الباحثين من الأخطار والتصفية والابتزاز.

ان تعزيز الحس الداخلي للباحث وخلق رأي عام عالمي يؤمن بقيم الأخلاق في بحث علمي إنساني نزيه يوفر المناخ والفرصة للعلماء والباحثين حرية وضع أسمائهم الصريحة على نتائج أوراقتهم العلمية من دون خوف وعليهم الاحتراس وفضح كل محاولة لتحريف نتائج البحث نحو الدمار والاذنى للإنسانية ومستقبل العلم من قبل آخرين<sup>164</sup>

<sup>164</sup> Gardner,H., M. Csikshentmihaly. And W.Damon, "Good Work When Excellence and Ethics Meet, Basic Books, New York ( 2001).

رابعاً: عدم غفران أي بحث يستهدف الدعوة الى وجود الفروق العرقية في الذكاء والتفاوت البيولوجي بين البشر من منظار انتقائي، لوسم بعض الامم والجماعات والشعوب بصفة التخلف والإرهاب والشر... وغيرها من نتائج بعض الدراسات الأنثروبولوجية والمتمسحة بالعلم، التي حولت العلم الى حاضنة عنصرية للأفكار والايديولوجيات العنصرية.

خامساً : مسؤولية العلماء في تعليم العلم واشاعته وجذب أفضل العقول البشرية من كل الخلفيات، والثقافات، والجماعات الاثنية والعرقية. فالعلم على نحو متأصل هو جهد من التعدد الثقافي ولا يقتصر وجود القدرة العلمية، والاهتمام العلمي، والعرقية على جماعات معينة عرقية أو إثنية أو ثقافية، وإنما تبين الأدلة التاريخية ان الانجازات العلمية هي والإسهامات ذات القيمة قد أداها وساهم في خلقها وابتكارها أفراد من أصول عديدة وواسعة من حيث تنوع الخلفيات الثقافية والقومية والاثنية. وجوائز نوبل في الفيزياء منحت خلال السنوات الثلاثين الأخيرة لعلماء من اصول : فرنسية، يابانية، دانماركية، روسية، باكستانية، هندية، ايطالية، المانية، سويسرية، صينية، هولندية، بريطانية، وأمريكية. وهذا يشمل عملياً كل اصول الامم. وعلى نفس المنوال نجد أسماء أخرى تنتسب الى العديد من الامم في المجالات العلمية الأخرى. إن دمج أفراد من خلفيات متباينة ومختلفة قد يخفف من الاستخدامات الضارة للعلم. سنجد أن الأضرار التي تترتب على تطبيق الابحاث العلمية، تكون من الوجهة العلمية دائماً غير مقصودة وغير متوقعة، على الاقل بالنسبة للجماعة العلمية، "وذلك باستثناء أبحاث الاسلحة". فهذه التطبيقات كثيراً ما تكون نتيجة عدم الاحساس أو الجهل أو القسوة تجاه من يتعرض لها من أقوام.

ويمكن للمرء ان يحاج بأن هذه النتائج الضارة يمكن التخفيف منها لو كان العلماء ينتسبون الى ثقافات ومجموعات ومناطق تتأثر بهذه الابحاث يشكلون جزء من جهود هذه الابحاث والتطبيقات، وعلى الأقل فإنه يبدو من المعقول أن مخاطر ما لا يتوقع من نتائج ستكون أقل عندما يتم هذا الادمج على نطاق واسع.<sup>165</sup> ، لكن واقع الحال ان الاستحواذ على أفضل العقول في الولايات المتحدة والغرب عامة أضحى سياسة تبدو ملامحها انها تنحو نجوا عنصرياً وحتى فئويًا. فهناك مجموعات قليلة التمثيل في المجموعة العلمية وفرق البحث العلمي المستأثرة بتمويل المشاريع. [يُلاحظ ان هناك انخفاض في تمثيل النساء، والامريكيين من اصول افريقية، والهسبانيين ، والهنود الحمر، والافراد المنتمين من اصول طبقيّة دنيا او من ابناء المناطق الجغرافية الريفية. وتلاحظ الدراسات ان تمثيل هذه الفئات في مجالات العلوم والتقانة العالية والهندسة منخفضاً بشكل ملموس عند مقارنة نسبهم المئوية في تلك المؤسسات مقارنة مع نسبهم على المستوى السكاني. وحسب

<sup>165</sup> ماستي والتر إ. ، " المسئولية العلمية" ، ورقة بحث القيت في ندوة "عن العلم والتكنولوجيا والمجتمع في القرن 21" ، سانت اندر ، (سبتمبر، اسبانيا 2000).

احصائيات عام 1997 تبلغ نسبة النساء 23% من قوة العمل في العلم والهندسة، في حين تبلغ نسبة العمل لهن 46% من قوة العمل في الولايات المتحدة. ويبلغ عدد السود والهسبانيين والامريكيين المحليين 24% من سكان الولايات المتحدة ولكنهم يتواجدون بنسبة 7% في إجمالي قوة العمل في مجالات العلم والهندسة].<sup>166</sup>

سادسا: الابتعاد عن نشر أية دراسات او تقانات أو تطبيقات تستخدم من اجل إشعال الحروب والفتن والإبادة البشرية للغير مهما كانت المبررات والأسباب .

سابعا: العمل على الحد من الدراسات البيولوجية والتجارب على البشر أو هندسة وراثتهم أو استنساخهم وتضمين نتائج الأبحاث والدراسات من إشارات إلى فروق بيولوجية بين البشر والأجناس والتبشير لسيادة بعض الأعراق وتدني أخرى مما يؤدي إلى خلق أزمات اجتماعية ونفسية او طبية في الأفراد موضع هذه التجارب او على المجتمعات التي تعاني من أزمات في التطور العلمي والتقني.

#### 4-22: المسؤوليات الاخلاقية للنخب العلمية والخبراء في الاستشارة العلمية والتقنية:

تتناقض الوظائف الايديولوجية للعلم مع معايير المعرفة العلمية. يتجلى ذلك من خلال مراقبة كيف يدافع العلماء المشغولون، كما يعتقد، بالبحث، عن الحقيقة بحرارة عن مواقف متباينة لدى مواجهة وحل بعض المشكلات العلمية المثيرة للجدل، مما يدفع الكثير من الناس بالشك في اسس المعرفة العلمية، أو على الارجح في أخلاق العلماء أنفسهم.<sup>167</sup>

ويشكل سلوك العلماء الذين يتلقون دعوات، كخبراء عن المؤسسات التي يعملون بها او الانتداب للعمل في المنظمات الدولية وفرق التفتيش، ويحصلون منها على مكافئات ومرتببات، قضية على غاية من الحساسية من ناحية الضمير العلمي واخلاقيات البحث العلمي، خاصة عندما تستغل تلك الجهات موقف وتصريحات هؤلاء العلماء لأجل تمرير مواقف سياسية معينة لمصالح دول وفئات نافذة في المجتمع الدولي.

ويُفترض في هؤلاء العلماء، وهم في عملهم الاستشاري هذا، سيخدمون الحقيقة العلمية بدلاً من خدمة تلك المؤسسات أو دولهم؟ العديد من الحالات رأيناها يتجاوزون ما أقسموا عليه عليه يوماً: في العمل من أجل الموضوعية العلمية، ناهيكم الالتزام بالأمانة العلمية واحترام حرية المعلومات وتداولها وسط بيئاتهم العلمية. ان الأخطر من هذا ان هذه الفئات من العلماء والتكنوقراط مكنتهم بعض الازمات السياسية الوطنية في بلدانهم وحتى الدولية من أخذ دور باسم العلم للسيطرة

<sup>166</sup> ارنتجتون فرجينيا، المؤسسة القومية للعلم، ، الفصل الثالث، "قوة العمل في العلم والهندسة" ، والفصل الرابع، التعليم العالي في العلم والهندسة، (2000).

<sup>167</sup> - ستيفن روز وآخرون ، مرجع سابق كذلك سيرغي كارا مورزا "جدلية العلم والايديولوجيا ص 83 .

على وعي الناس وتوجيه الافكار والرأي العام، كما يحلو للجهات التي إنتدبتهم، وبذلك فانهم صاروا من فئات مؤدجي العلم وفق الدور والمرتب والمصلحة.

ومقابل هؤلاء، بالطبع، هناك من العلماء من رفض مثل هذا الدور والامتيازات والمرتب للحفاظ على موضوعيته العلمية، ومن اجل الانتصار للحقيقة العلمية، خلاف أولئك والعكس الذين جنّدوا انفسهم لمهمات قذرة من أمثال بليكس والبرادعي وبتلر وايكوس من اعضاء ورؤساء فرق التفتيش لأسلحة الدمار الشامل في العراق ممن عملوا ضمن لجان الامم المتحدة في العراق مابين 1991 الى 2004.<sup>168</sup>

يقول عالم الاجتماع " بارنز ب. Barnes B": (... من المعروف ان العالم الذي يعمل لمصلحة الحكومة او شركة صناعية لا يفصح علنا عن رأيه، إذا لم يكن هناك أمر من القيادة بالدفاع عن مصالحها. وبالطبع فإن القيادة يمكن ان ترغمه على تنفيذ هذا الشرط، وهذا ما تؤكد منه الكثير من العلماء من خلال تجربتهم الخاصة كما في بريطانيا على سبيل المثال، وكذلك في الولايات المتحدة الامريكية، حيث وجد خبراء الطاقة الذرية الذين عبروا عن شكوكهم في المجال التقني انفسهم مباشرة من دون عمل)<sup>169</sup>.

في جميع الحالات التي يكون فيها الارتياب مطلوب في صحة التقارير المطلوبة هناك من الموظفين العلميين غير الاخلاقيين الذين يوافقون بسهولة على لعب دور الخبراء "المحامين" مع إدراكهم للعواقب الوخيمة التي تسببها قراراتهم وتقاريرهم بالنسبة للانسان والطبيعة في الكثير من المشاريع التكنولوجية او الاجتماعية التي يدافعون عنها، ولا يهتمهم الحديث يدور عن انتاج تاليدوميد، او خصخصة الصناعة السوفيتية و تعليمات صندوق النقد الدولي، او منظمة الصحة العالمية والمنظمة الدولية للزراعة "فاو"، او بعض خبراء هيئات الامم المتحدة.

يعتقد "بارنز ب.: Barnes B": ان القرارات التي تلحق الضرر بالمجتمع تُتخذ، ليس بسبب قلة المعلومات وأخطاء العلماء؛ بل نتيجة الفساد، فالأخطاء تحدث بالطبع. "، لكن "بارنز" يعطي دورها أهمية أقل بمئات وآلاف المرات من دور الرشوة والضغط.... (غالبا ما تضيع مئات الملايين بسبب الثقة بخبراء "ليسوا مؤهلين بالقدر الكافي"، ولكن هذا المبلغ ليس كبيرا بالمقارنة مع المليارات التي يبذرها السياسيون نتيجة أخطاء خبراء "رفيعي المستوى، مستأجرين لدعم وإرضاء مصالح معينة بوسائل فاسدة")<sup>170</sup>.

<sup>168</sup> العبودي عبد الكاظم: مقالتنا برد وسلام على اولاد العم سام ، وكتابتنا بشر نعم فئران مخبرية لا . مراجع ومقالات صحفية منشورة سابقة للمؤلف وفي المدونة الالكترونية.

<sup>169</sup> Barnes B., *Sobra la Ciencia, Labor, Barcelona. 1987*

<sup>170</sup> *Ciencia, Barcelona, Labor. 1987* راجع

مثل هؤلاء الخبراء، من غير الموضوعيين، مطلوبون طالما يمنحون الشرعية للسياسيين والعسكريين. ولا يهم ما الذي يعرفونه من علم في حقيقة الامر للمهمة الموكولة لهم. المهم تنفيذ الامر الذي يـطلب منهم، وهو قول كلمة، أو تقديم تقرير، أو تصريح له وزنه وهو الشئ الوحيد الذي يمكن ان يقدم "برهاناً مزيفاً أو معدلاً وفق الطلب" لكي يمنح الشرعية للآخرين من استكمال ما يريدون تنفيذه بغطاء شرعي وبلغة علمية وبأسم خبير معروف [العراق وخلوه من اسلحة الدمار الشامل] يكمن جوهر الامر ان السياسيين والعسكريين غالباً ما يستطيعون ايجاد أولئك العلماء الذين يؤيدون "بإخلاص" وجهة نظرهم، وفي حالة وجود الاموال والاعداد الايديولوجي يمكن ان يطوروا منظومة كاملة للبرهنة عليها.

يرى "مورزا سيرغي كارا" <sup>171</sup>: (... ان الفرضيات الاولية التي درسها الخبراء عندما كانوا طلاباً، غالباً ما يلفها النسيان في وقت تكون فيه ضرورية جداً لدى إتخاذ قرارات سياسية، ويحدث أن يكون الأمر أسوأ حين لا تصاغ الافتراضات المرئية فقط؛ بل لا تقدم تعاريف للمفاهيم أيضاً، وغالباً ما تتحول النقاشات ليس فقط الى تمثيلية بل الى مسرح للعبث. فلا أحد يفهم الآخر وكل واحد يتحدث عن شأنه الخاص. فعلى سبيل المثال في اساس الخلافات حول تأثير الاشعاعات على صحة الانسان نموذجان مختلفان تماماً. الاول حدي والثاني خطي، فحسب النموذج الاول لا يظهر على صحة السكان تأثير ملحوظ حتى بلوغ حد معين من الاشعاع. وحسب النموذج الثاني فإن التأثير الضار (إحصاء عدد مرضى السرطان على سبيل المثال) يزداد خطياً مهماً بدأ مستوى التلوث ضئيلاً، ولهذا لا ينبغي الحديث عن مستوى "آمن"، وتنجم عن هذين النموذجين إستنتاجات سياسية مختلفة تماماً (منها على سبيل المثال ما يتعلق بعواقب كارثة محطة تشرنوبيل الذرية في اوكرانيا)، فكيف إذا يختار الخبراء هذا النموذج أو ذاك؟ إنهم يختارونه إنطلاقاً من الاولويات السياسية (أو تبعاً للجهة التي تدفع أو تهدد أكثر). وكان يبدو ان السياسيين قادرين على تمويل تجارب اضافية ومطالبة العلماء باتخاذ خيار واضح من بين النماذج المختلفة، ولكن غالباً ما يتضح ان ذلك غير ممكن من حيث المبدأ: جرت صياغة المسألة المتعلقة بالامن الاشعاعي بشكل بسيط للغاية: هل يزيد ارتفاع الاشعاع الى مستوى 150 ملي رنتجن من عدد التشوهات الخلقية عند الفئران بنسبة 50% (هذا الازدياد في عدد التشوهات الخلقية يمكن اعتباره تأثيراً واضحاً على الكائن الحي). وأظهرت الابحاث والنماذج الرياضية ان الامر يتطلب 8 مليارات فأر من أجل الحصول على معطيات تجريبية دقيقة تسمح بإعطاء الجواب على هذا السؤال، وبمعنى آخر: فإن الخيار التجريبي للنماذج غير ممكن مثلما لا يمكن رفض أي من الافتراضات الاساسية، وبهذا الشكل فإنه بسبب التقييدات المميزة للطريقة العلمية نفسها لا يمكن للعلوم أن تحل محل القرارات

<sup>171</sup> مورزا سيرغي كارا " ، مرجع سابق ص 86.

السياسية. وتحصل السلطة [أو المعارضة] على فرصة التضليل مستترة بهيبة العلوم. وقد أظهر ذلك بجلاء عند وقوع كارثة المحطة النووية في تشرنوبيل.

غالبا ماتتقل الصحافة الامريكية والتلفزة الروسية أنباء تتحدث عن مقتل 300 ألف شخص نتيجة الاشعاعات بعد كارثة تشرنوبيل. وعادة ما يلف الصمت حقيقة ان هذه الحسابات جرت انطلاقا من النموذج الخطي لتأثير الاشعاعات. أما الواقع فهو مغاير تماما، ذلك ان المعطيات الحقيقية تصدر دائما في نشرات خاصة، ولكن بسبب اعتبارات إيديولوجية فإن وسائل الاعلام لا تنشرها ، بيد أنه من زمن قريب قامت صحيفة "نيزا فيسيميايا غازيتا" بنشر هذه المعلومات من تقرير روسي قدمه الاكاديمي الروسي "ليونيد إيلين" مدير المركز العلمي الوطني من معهد الفيزياء الحيوية في فيينا عام 2000 الى الدورة التاسعة والاربعين للجنة العلمية المختصة لدى الامم المتحدة.

يتضمن التقرير استنتاجين أساسيين. الاول ينص على انه لم تسجل أي حالة مرضية حادة بسبب الاشعة بين الاشخاص الذين قاموا بتصفية آثار الحادثة خلال العامين الاولين(1986 - 1988) وبين السكان القاطنين فيما يسمى بمنطقة تشرنوبيل، وحسب تقديرات المختصين في معهد الفيزياء الحيوية فإن عدد المشاركين في اعمال محطة تشرنوبيل في تلك الفترة وصل الى نحو 227 ألف شخص، نصفهم تقريبا من العسكريين. [أما المعلومات الاخرى التي تشير الى 600 ألف شخص أو 800 ألف شخص فهي حسب رأينا مبالغة واضحة]، وفي الوقت نفسه فإن أكثر الجرعات قد تعرض لها هؤلاء في عام 1986، أما في عام 1987 فقد تعرضوا الى جرعات أقل بمرة ونصف تقريبا.

ونكرر بأنه وسط هؤلاء الأشخاص، حسب كل المعطيات الرسمية والعلمية- لم تسجل أي حادثة مرضية حادة أو مزمنة بسبب الاشعاع. وقد تم الوصول الى النتيجة المهمة مبدئيا على اساس ابحاث واسعة النطاق لاوضاع أولئك الاشخاص الصحية في روسيا واورانيا وبييلوروسيا. والاكتر من ذلك انه وفق تقديرات العلماء الروس الاخيرة فإن عدد الوفيات وسط المشاركين في تصفية آثار حادثة تشرنوبيل أقل في كل الحالات من أقرانهم من سكان روسيا في مناطق أخرى. وحسب السجل الحكومي شبه الكامل للجرعات الطبية الذي يضم 179 ألف من المشاركين في تصفية آثار حادثة تشرنوبيل فإن عدد الوفيات أقل بنسبة 16% ، وحصل نتائج تحليل المعطيات في بيلوروسيا فان عدد الوفيات أقل بـ ( 30%- 40%)، وفي سجل عمال الصناعات الذرية المشاركين في تصفية آثار

حادثة محطة تشرنوبيل الكهرو نووية فان عدد الوفيات أقل بكثير أيضا. لقد جرى الوصول الى هذه النتائج عن طريق دراسة دقيقة لكل حالات المرض والوفاة<sup>172</sup>.

ينتهي المرجع السابق، رغم انه ليس اختصاصيا اشعاعيا، الى الجزم بنفس الروح التي انتقد بها الايديولوجيين ليقدم تأكيدا قاطعا ما نصه الى :<sup>173</sup>

(وبهذا الشكل يمكن التأكيد بأنه حتى الوقت الحاضر لم يسجل ارتفاع في المعدل العام للاصابة بالامراض الخبيثة او حالات الوفاة التي ينمت ان تعزى الى تأثير التعرض للاشعاع، كما لم يلاحظ بين المشاركين في تصفية آثار حادثة تشرنوبيل وبين الأطفال أيضا ارتفاع ملحوظ لخطر الاصابة بسرطان الدم وهو احد المؤشرات الحساسة للتعرض للأشعة).

كثير يظل الجدل حول تشرنوبيل سواء لعلماء الاتحاد السوفيتي السابق، أو خصومهم. وفي كثير من التقارير لمسنا صور الخداع والتضليل التي تعتبر تجاوزا للقيم الاخلاقية سواء بسرد ارقام مبالغ فيها او التقليل ، الاولى بهدف الضغط السياسي على السوفيت، والثانية بهدف تجنب تسديد التعويضات المالية للضحايا داخل وخارج الاتحاد السوفيتي والتقليل من المخاوف في المناطق الملوثة. وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي نشرت دراسة " منظمة الغوث الروسية" في مارس 1996 فقدرت عدد القتلى فور وقوع الحادث بانه تجاوز 7000 شخص، وعدد المشوهين 30000 على الاقل. واصيب بالامراض والعاهات اكثر من 30% من العاملين في تنفيذ الاجراءات الفورية عقب الحادث في سلك وحدات الحماية من مخاطر العرض الاشعاعي، في حين يقدر العدد الحقيقي للاشخاص الذين تعرضوا بهذا القدر او ذاك للاشعاع حوالي 600000 . وهذا كله تجاوز على القيم الاخلاقية لانصاف الضحايا. اما وزارة الصحة الاوكرانية فقدرت عدد الوفيات الناجمة عن الكارثة بحدود 125 ألف ، وهو عدد اقل من نظيرتها روسيا البيضاء. وفي مؤتمر جنيف في الفترة من 18 الى 22 مارس قدرت الوفيات بحدود 15 ألف سنويا من اصل 7 ملايين مصاب وهو يعادل 14.5% من سكان اوكرانيا البالغ مجموعهم 52 مليونا. ومن هذه الاصابات ما لا يرجى منه شفاء بالمقاييس البشرية. ويعادل مليونين من الاشخاص، علاوة على ذلك يولد 800 طفل مشوه خلقيا، وارتفع عدد الاصابات السنوية بسرطان الغدة الدرقية بين الاطفال نتيجة التعرض الاشعاعي من 5 اصابات فقط عام 1980 الى 500 اصابة سنويا في الوقت الحاضر<sup>174</sup>.

<sup>172</sup> مورزا سيرغي كارا ،المرجع السابق، ص 88.

<sup>173</sup> المرجع السابق ص 88.

<sup>174</sup> Kumagai, J; IEEE Spectrum, Weapons of Mass Destruction, pp.30-37, January, 2002.

أخذت حادثة تشيرنوبيل المدى الأوسع في الإعلام، رغم أنه كانت قبلها العديد من الحوادث النووية المسجلة رسمياً، وهي متفاوتة الخطورة، تصل بعضها إلى حالة استخدام النظائر المشعة في الطب إلى حوادث واسعة الخطورة والتلويث الإشعاعي منها حادثة 1999 في منطقة "توكايمورا" اليابانية في مصنع لإنتاج الوقود النووي عندما قام عامل بوضع 16 كيلوغراماً من اليورانيوم في إحدى حاويات المصنع التي لا تتجاوز سعتها 2.3 كغ مما أدى إلى حدوث حريق صاحبه تسرب إشعاعي استمر 18 ساعة متوالية، وأدى الحادث إلى إصابة 69 شخصاً إحتاج اثنان منهم إلى عملية زرع نخاع. وتم إجلاء السكان عن منطقة الحادث. وقبلها عام 1969 في الولايات المتحدة كانت حادثة "روكي فلاتس" في وحدة تصنيع البلوتونيوم نجم عنها تلوث واسع شكل خطورة على الصحة وكان دفن النفايات الناجمة عن تلك الحادثة قد تسبب في تسرب الإشعاعات إلى المياه الجوفية وتلوثها..

وليست حادثة تشيرنوبيل الوحيدة الناجمة عن انصهار قلب المفاعل النووي **Reactor Core** فقبلها أيضاً "حادثة فيرمي" **Fermi Accident** عام 1970 في الولايات المتحدة، ومثلها حوادث ناجمة عن الأخطاء البشرية وخلال أعمال الصيانة مثل "حادثة براونزفيري" وحادثة مفاعل **SL-1K** التي أدت إلى حريق في المحطة النووية؛ في الأولى وتسرب إشعاعي في الثانية. وكانت حادثة مثل "ثري مايل ايلاند" النووية في ولاية بنسلفانيا في 28 مارس 1979 نجمت عن سلسلة من الأخطاء أدت إلى تلف شديد في قلب المفاعل. ونجم عنها هلع وقلق واسع أدى إلى تراجع الصناعة النووية الأمريكية والغاء العديد من العقود لإنشاء مفاعلات جديدة.<sup>175</sup>

في جميع الحالات عن جدل في الأوساط العلمية والاجتماعية الأوروبية عن مدى التفاوت في تقدير الأخطاء والمسؤولية عن إعلان الحقائق أو التكتّم عليها خدمة لأغراض الأمن القومي أو سياسات الدول فقد تفاوتت آراء الخبراء عن حجم التلوث، وطريقة التداول الإعلامي، وفرص وصول السحابة المشعة أو المواد المشعة إلى التربة والمياه... الخ. وقد تتم المبالغت الإعلامية والحديث عن توسع دائرة الأخطار إلى هذا البلد أو ذاك. وقد قيل حينها عن حادثة تشيرنوبيل مثلاً: مثلاً "إنها سوف تغطي معظم أوروبا باستثناء فرنسا"، و"كان انزعاج الألمان يفوق انزعاج الفرنسيين" بسبب التداول الإعلامي لتقارير وتصريحات الخبراء المتفاوتة، ومنها بعيد كل البعد عن الحقائق العلمية المتعارف عليها حول أخطار الإشعاع وحدوده..

وكانت الإجابات حينها وبعدها مبررة بالشكل التالي: (...هي أنهم [الألمان] قد ثبتوا حدوداً للتفاوت المسموح به في الإشعاع أقل كثيراً عن مثيلتها في فرنسا).

<sup>175</sup> عبد العزيز محمد عزت ، أخلاقيات العلم والتكنولوجيا: أمثلة عن الخروج عن القواعد الأخلاقية لاستخدام الطاقة النووية، عن كتاب: الأخلاقيات العلمية والتكنولوجية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ص 203-226، تونس، (2005).

واليوم نتساءل أيضا هل كان الالمان، ومعهد فيينا النووي محقين في ذلك؟ وإن كان الأمر علميا بحتا؟ وأي المعايير اعتمدت في تقدير الأخطار المحتملة؟ وما السبب في أن البعض يحدد عتبة التعريض للإشعاع الضارة لدى نقطة معينة؟. وأي من الخبراء كان على حق؟... الخ من مثل هذه الاسئلة. وكان الاعلام المتلفز في فرنسا يكرر كلمة "بكريل" Beequerel [إحدى الوحدات الفيزيائية لتقدير وحدة قياس كمية الإشعاع] كوحدة قياس معتمدة من قبل المفوضية العليا للطاقة الذرية الفرنسية.

ومن الخبراء من ذوي المسؤولية الاخلاقية يرى من الافضل إعلان رأيه، باعتباره عالما مؤهلا، بدلا ان يبدو محتالا من الذين تلجأ السلطات اليهم عند الحاجة، ولكنه يدرك بحكم الخبرة والوعي ان تقاريره التي لاتلبي رغبات "صاحب الطلبيبة" سيكون مصيرها الاهمال ان لم ترمى في سلة المهملات. ففي حادثة من مشروع "حرب النجوم" في الولايات المتحدة في عهد الرئيس الأمريكي "رونالد ريغان"، أجرى العلماء الأمريكيون حسابات تؤكد بطلان النظرية نفسها. فقد كان من المفترض ان تسبب التفجيرات النووية في الفضاء القريب من الأرض وفق هذه النظرية موجة "صعقة" كهرومغناطيسية تحمي ذاكرة الحاسبات الالكترونية على وجه الارض، محطة كل المجال التقني للولايات المتحدة. وبذلك ستعاني الولايات المتحدة من الخسائر أكثر من خصومها المحتملين عند تلك الصعقة لانها كانت الدولة الأكثر استعمالا للحاسبات في ذلك الوقت. لذا تراجعت سياسة الولايات المتحدة عن تبني فكرة مشروع "حرب النجوم"، وهذا دليل ان المعرفة العلمية بمسائل خاصة يمكنها ان تحدد اندفاع السياسة.

لا ترتبط، بمعايير العلمية المعرفية، ان يكون العالم، كإنسان، متمسكا بهذا الموقف أو ذاك من مسألة سياسية ما، ولكن هذه العملية تشكل منظومة مرنة بما فيه الكفاية، ويمكن ان تتغير بشكل غير ملحوظ تحت تأثير الاولويات الايديولوجية. لكن بأي شكل من الأشكال يصل العالم المشغول بصدق في البحث عن الحقيقة دون ان يخالف المنطق او يزيغ المعلومات الى نتائج مخالفة تماما لتلك التي حققها زميله الذي يجري بحوثا مشابهة وبصدق ايضا، ولكنه ينطلق من أولويات أيديولوجية أخرى. ولكن هل يمكن في هذه الحالة تبرأتها كعالمين؟.

يظهر التحليل الدقيق لعدد من الحالات ان ذلك يمثل ظاهرة طبيعية، فهنا لا توجد مؤامرة أو خداع يمكن تلافيهما بإشاعة جو صحي "تطهير" المؤسسة الاجتماعية للعلم. وتكمن الاسباب في المنهج العلمي نفسه، كطريقة معرفية لها تقييداتها. وهذا بالذات ما يشكل تحذيرا مهما في وجه الثقة

الزائدة بالطريقة التكنولوجية لاتخاذ القرارات. وكلما لامست هذه القرارات القيم الاخلاقية ومصالح الناس أكثر إزداد خطر الوقوع تحت تأثير الخبراء<sup>176</sup>.

#### 4-23: المسؤولية الاخلاقية عن اختلاف تفاوت معايير القياس وازدواجية التقنيات:

نسوق هنا ثلاث أمثلة بصورة عامة/

- 1- الامن الغذائي و قضايا الغذاء واحتمالات الكفاية والمجاعة في العالم.
- 2- تأثير المبيدات والاسمدة على البيئة.
- 3- قضايا التعريض الاشعاعي والكوارث النووية.
- 4- قضايا البيئة كثقب الاوزون والانحسار الحراري والتصحر واسباب التغيرات المناخية والتصحر.

#### 4-23-1: الامن الغذائي و قضايا السلامة الغذائية:

عرفت المالتوسية من نظرية روبرت مالتوس (1766-1834) التي يرى فيها : (ان التناقض بين " قدرة السكان على التزايد" و"قدرة الارض على إنتاج الغذاء" يمثل فحوى" المعضلة السكانية") في العالم ، وفي الطبعة الثانية من " المقال" الذي نشر فيها نظريته ، التي ظهرت في 1803، أي بعد خمس سنوات من صدور " المقال" الاول ، راح مالتوس يصوغ الحلول في شكل "موانع إيجابية" و"موانع سلبية". تتمثل "الموانع الايجابية" في تلك العوائق التي من شأنها زيادة معدل الوفيات، كالحروب والمجاعات والأوبئة.

اما "الموانع السلبية" فتتمثل في تلك العوائق التي من شأنها تخفيض معدل المواليد، مثل تأخير سن الزواج وكبح الشهوة الجنسية لدى الانسان واتخاذ السبل والاجراءات التي من شأنها منع الفقراء من الزواج وكثرة الانجاب. وقد نظر مالتوس الى هاتين المجموعتين من الموانع " على انها أمور حتمية ينبغي تحقيقها لإعادة التناسب بين حجم السكان وحجم الموارد"<sup>177</sup>.

ومن خلال نص واقتراحات مالتوس التي تتوافق مع الداروينية بتأكيد لها لنظرية النشوء والارتقاء، ووظيفتها النزعة الفاشية في عدائها الجنوني للشعوب والاجناس غير الالمانية، والتي استفادت من التفكير المالتوسي في صياغة أفكارها حول الابادة والتمييز العرقي. كل هذه الافكار تتوافق في النظرة وتطلعها الى "مجتمع انساني يقوم على الصراع" و" ان الحياة فيه تكتسب لمن هو أصلح"، و"ليست الثروة والملكية الا مكافأة للبارعين في هذا الصراع"<sup>178</sup>.

<sup>176</sup> المرجع السابق سيرغي كارا مورزا ص 84.

<sup>177</sup> رمزي زكي، المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة، عالم المعرفة، العدد 84، ص: 21-44. الكويت، (1984).

<sup>178</sup> John D. Bernal, Die Wissenschaft in der Geschichte, VEB Deutscher Verlag der Wissenschaften, S 419, Berlin (1967).

ثم يأتي طرح آخر لهذه الاشكالية من طرف "يوليان سيمون" Julian Simon، وهو خبير اقتصادي، يدعي انه شخصية علمية صارمة، يتهم خصومه في تقرير "نادي روما"، ومحري تقرير "حدود النمو" بالخداع والخطأ العلمي. كتابة "الملاذ الاخير" الذي يتناول فيه النمو الديموغرافي والموارد الطبيعية ومستوى المعيشة في العالم ظهرت طبعته الفرنسية بعنوان شيق "الانسانية: فرصتنا الاخيرة L' Homme, Notre Derniere Chance" يوصف الكتاب من عدد من النقاد: بأنه عمل انساني وسط أخطار العصر، لكونه ركز على النمو السكاني في العالم الذي توقع له انه سيتضاعف بثلاثة او اربعة أمثال ما هو عليه حالياً. ووفق اعتقاد "يوليان سيمون": إن كون المرء علمياً يعني يعرض حججه مقترنة بالاحصاءات والرسوم البيانية والنسب المئوية للوصول الى الاستدلالات والاستنتاجات ذات الفائدة.

ولكي يكون المرء علمياً حقيقة، عليه ايضاً أن يطرح فرضيات ويتوصل الى نتائج. وفرضية "يوليان سيمون" الاساسية منذ البداية ظلت تشير نظرة تفاؤلية حول حدود الموارد، والى أن: (ليست هناك مشكلة غذاء في العالم، والوضع في تحسن مستمر منذ الخمسينيات وحتى الثمانينيات، حيث أضيفت أراض زراعية جديدة وستتوسع الزراعة تبعاً للحاجة، وان الموارد الطبيعية غير محدودة وتُنتج بشكل متزايد، وينتظر الطاقة مستقبل باهر فليست هناك حدود لتنمية الموارد، ولا وجود للتلوث، فالهواء والماء أكثر نقاء عما كانا عليه في 1850، وليس هناك سبب يدعو الى كبح معدلات التلوث لأن الكثافة السكانية لا تسبب أي آثار باثولوجية "مرضية" ولا تثير عقبات). تلك هي الفرضيات الاساسية التي استعرضها كتاب "الملاذ الاخير" في الفصول العشرين الاولى منه

179

المهم نفهم من طرح "يوليان سيمون" انه تمسك بحججه بروح تفاؤلية، وخطأً تقديرات الخبراء حول الاحتياجات البترولية، وخامات المعادن كالحديد والصلب والنحاس والفحم... الخ. وهو يثق بالتقنية وتحولات موارد الطاقة المختلفة والاستكشافات الجديدة للموارد في توفير الموارد؛ لذا يرى: ( ان مصطلح "محدود" غير ذي معنى). وباعتماده عملية الاستقراء وفق معيار الاسعار وحركة السوق في العرض والطلب منهجا لذا يستنتج... فالحقيقة إذن هي ان وضع الغذاء العالمي يتحسن) ولا خوف من حدوث مجاعة او قصور المعروض من الغذاء في السوق العالمية.

ان ثقة "يوليان سيمون" بالايديولوجية التكنولوجية، والابتكارات التكنولوجية: بأنهما ستجدان حلولاً لكل الازمات. من هنا كان مصدر تفاؤله؛ لكن واقع السياسات التكنولوجية سارت كما نرى نحو المجاعة لا الرفاه حيث تُحول ملايين الاطنان من الغذاء الى الوقود الحيوي، وبدأ القلق حول

179 سيمون جوليان، الملاذ الاخير او الانسانية فرصتنا الاخيرة؟؟ له عدة طبعات وفي لغات عدة..

Julian Simon, L' Homme, Notre Derniere Chance,

مستقبل الطاقة وتأمينها يثير حروبا، كغزو العراق وافغانستان، ونضوب الاحتياطات البترولية يطرح مشاكل جمة أمام توفير البدائل مستقبلا. كما ان الصراع الدولي وظف ميزانيات ضخمة من الاموال تتوجه نحو البحث في صنع اسلحة الدمار الشامل.

صحيح أن كل ابتكار او إكتشاف سيكون جيدا وايجابيا حتما اذا كان هناك معيار اخلاقي لتطبيقه. لكن ازدواجية التقدم العلمي باتت أكثر تعقيدا مما يتصور البعض من الخبراء والباحثين طالما ان التقنية تسير الآن بطريق غير محايد تماما بين عالم جائع متخلف وآخر متطور ومترفه ومُبذر في أنماط استهلاكية لا تحس بمجاعة الآخر وجهله وأمراضه.

وعندما يركز المتشائمون على الآثار السلبية، غالبا ما يحاولون الاستناد الى وضعية فلسفية وسياسية ايضا. والمشكلة هنا أكبر وأشد تعقيدا في واقع الامر، فنحن هنا إزاء مجال ليس علميا صرفا؛ رغم انه يكتسي بملامح علمية وجدلا فلسفيا إنسانيا وفق منطق التفاؤل بالخير تجوده. ولو اننا اكتفينا بالنظر الى مفاهيم ومعايير الخير البشري، وهو الايسر على الفهم والقياس، فسنرى مدى عقم محاولة تحديد وتقييم آثار التقنية على اطلاقها بالكامل.

ويبدو ان التحليلات التي تبدو بالغة الدقة المستندة الى الاحصاءات، والتي لا تشير الى تلك المشكلات هي تحليلات بالغة الخطورة؛ لأنها أيديولوجية، لكنها تتظاهر بانها علمية محضة وتكتسي بتمظهرها وخطابها، وثوقا موهما في كثير من قضاياها، بصرامة لا يجدها المرء في الدراسات الاكثر بلاغة واكثر صدقا.

ان كل شئ سيعتمد على المغامرة التقنية. ولا يمكن ان نقف على الحياد، بانتظار المجهول؛ فالمخاطر جسيمة، ونحن مشاركون في تلك الحركة مباشرة، أو بشكل غير مباشر، لكننا معنيون في كل الاحوال بما يجري من حولنا. والتحول كوني، "بتأثيره على البشرية قاطبة، وعلى كافة جوانب المجتمع والحضارة والثقافة والبيئة"، وهو شخصي أيضا، "على مستوى الفرد، بتغييره الافكار ونمط السلوك والاخلاقيات.

ان الخبراء والعلماء لا يطرحون الحقائق كلها؛ لهذا لا يمكن صياغة منظور اخلاقي مُركب إزاء المشكلات، ولا يمكن تحديد صيرورتنا الا من خلال ادراك شامل، لا من خلال حفنة متناثرة من التوقعات والدراسات المتفائلة فقط. رغم ان التطور الانساني في المجالات التقنية لم يزل ليس كله سيئا او جيدا او محايدا، فهو مزيج من العناصر السلبية والايجابية ولكن كل اشكال التقدم التقني لها ثمنها الاخلاقي.

#### 4-23-2- تأثير المبيدات والاسمدة والمواد الكيميائية على البيئة:

إستحالة التنبؤ، واحدة من السمات العامة للتقدم التقني في المجال الزراعي. ومحصلة كل عملية تقنية مجموعة من الآثار الجانبية فلا بد من حساب الحسبة الجامعة بين المخاطر والمزايا

المنتظرة. ويشعر المزارعون الآن من حقيقة استخدام كميات كبيرة من الاسمدة الكيميائية في التربة وبشكل خاص الاسمدة الازوتية. يزيد المحصول في البداية زيادة كبيرة، لكن لا تلبث ان تدمر المحاصيل نتيجة تكاثر "نباتات شيطانية" الى جوار المحاصيل الرئيسية يرافقها تلوث واسع للبحيرات والانهار والمياه السطحية وحتى الجوفية.

كما بات من المعروف ان السلالات الجديدة تتطلب كميات ضخمة من المياه والمخصبات. لهذا فقد عرفت بعض البلدان بسبب ذلك شحة في المياه والمخصبات. وفي بعض البلدان التي تستخدم الاسمدة بلغت بها المياه حد الشح، كما ان سكانها وصلوا الى حالات من الفقر لدرجة انهم باتوا عاجزون عن شراء المخصبات. اضافة الى الاثار التسممية لهذه المواد. ولهذا اطلق الفلاحون عليها تسمية "الثلاثية الشيطانية": أي (السلالات المحسنة والمخصبات والمبيدات الحشرية).

الاخيرة منها هناك مثال نموذجي عنها هي مادة "دي دي تي DDT" اشيع عنها في سنوات الاربعينيات انها غير ضارة وفي عام 1958 اثير حولها الذعر كونها سامة وتسبب الكساح لدى الاطفال وان قدرتها على التراكم داخل انسجة الجسم الحي باتت مقلقة حيث اظهرت تحاليل وزارة الصحة الامريكية عام 1965: ان المواطن الامريكي العادي لديه 12 جزء من المليون من تلك المادة في انسجته. بينما اظهر تقرير لمجلس اوربا ان معدل التركيز عند 44 جزء من المليون يكون قاتلا، ذلك اجبر السلطات الامريكية على وضع أنظمة صارمة على استخداماتها منذ 1969

180

ان انتشار وتلويث كثيرا من المواد الكيميائية في البيئة اضحى مقلقاً بدء من المصنوعات البلاستيكية والمنظفات والمطهرات وما تطرحه المصانع الى شبكات الصرف الصحي ومنها الى التربة والانهار والبحار. ان كثيرا من تقارير الخبراء عن تدني مستوى سمية الكثير من المواد بعيدا عن الحقيقة العلمية فلا يوجد عنصر كيميائي الا وله درجة من الاخطار

#### 4-23-3: قضايا التعريض الاشعاعي والكوارث النووية:

يرى برتراند رسل: (... ان العصر النووي الذي يعيش به الجنس البشري، والذي قد يموت فيه قريبا، بدأ بالنسبة الى عامة الناس عندما القيت قنبلة ذرية على هيروشيما في 6 أوت/أب من عام 1945 ولكن علماء الذرة وبعض رجال السلطة في اميركا كانوا على علم بإمكان الحصول على مثل هذا السلاح قبل ذلك بـ 181 سنة. ان احتمال وجود قوة متفجرة تنبعث من نواة الذرة كان متوقعا منذ ان اوضع " أرنست رذرفورد Rutherford " تصوره الجديد عن تركيب الذرة

180 وير جورج ، مبيدات الآفات، النشر العلمي والمطابع ، جامعة الملك سعود، ص 357، الرياض، (2003).  
181 رسل برتراند ، مرجع سابق، ص 31.

عام 1920،<sup>182</sup> وعلى ضوء معادلة اينشتاين حول العلاقة بين الكتلة والمادة:

$$E=mc^2$$

تم تقدير الطاقة الضخمة الناتجة عن تحول كتلة صغيرة من المادة الى طاقة كبيرة. كان لابد من الوصول الى التحكم في ظاهرة "الانشطار النووي" واكتشاف المواد ذات القدرة على الانشطار بمعدل ثابت للسرعة ومنها نظير اليورانيوم  $U^{235}$  وبعدها تم اكتشاف البلوتونيوم كمادة انشطارية نووية ايضا. كان علماء الفيزياء الذرية على علم بإمكان التوصل لصنع القنبلة النووية منذ اكتشاف سلسلة التفاعلات قبل ابداء الحرب العالمية الثانية. ورغم جميع محاولات التكنم على ذلك الا ان الكثيرين كانوا يعلمون ان العمل جار لاننتاج القنبلة. لعبت "الخلفية السياسية" لما قام به العلماء دورا لقناعتهم وتصميمهم على دحر النازية، بما فيهم "اينشتاين"؛ لانهم كانوا يرون ان انتصار النازية سيكون كارثة على العالم لاعتبارات عديدة. وكان الاعتقاد في الغرب ان العلماء الالمان قد أحرزوا تقدما في هذا المجال وان المانيا قد تربح الحرب على الحلفاء<sup>183</sup>.

ولما انتهت الحرب، كانت دهشة العلماء الامريكيين والانجليز كبيرة، حين تبين ان الالمان كانوا يعيدون عن احراز التقدم في هذا المجال. وعندما خسرا المانيا الحرب واعلنت استسلامها وغيرها من حلفائها ومن ضمنهم اليابان. كانت الاغلبية العظمى من العلماء الذين ساهموا بصنع القنبلة النووية يرون عدم استخدامها ضد اليابانيين الذين كانوا على وشك الاندحار بعد سقوط المانيا الهتلرية. وقد تقدم كثيرون منهم باعتراضات ونداءات ملحة تدعو الحكومة الامريكية الى تفجير القنبلة في صحراء بعد الاعلان عن ذلك بدلا من استعمالها كسلاح حربي، كما دعوا الى وضع السيطرة على الطاقة النووية في المستقبل ووضعها في ايدي سلطة دولية. وقد حرر سبعة من ابرز علماء الذرة ما عرف باسم "تقرير فرانك" وقدموه الى وزير الحرب في جوان/حزيران 1945. أي قبل قصف هيروشيما بالقنبلة النووية بشهرين.

هذا التقرير وثيقة هامة تستحق التقدير والاعجاب. ولو ان الساسة الامريكيين وافقوا على هذا العمل لما وقعت أحداث الرعب في هيروشيما ونيواغازاكي. جاء في "تقرير فرانك": (... ان النجاح الذي حققناه في الحصول على الطاقة النووية أعظم بدرجة لا حد لها من جميع المخاطر الناتجة عن كافة مخترعات الماضي). كما اشار التقرير: ( انه لا يوجد سر يمكن الاحتفاظ به الى الابد... وان روسيا سوف تتمكن حتما من صنع القنبلة النووية خلال سنوات قليلة). و فعلا وبعد اربع سنوات فقط استطاع الاتحاد السوفيتي من تفجير قنبلته النووية الاولى تلتته دول اخرى وسط تزايد الخوف من سباق التسلح والرعب النووي؛ مما دفع العالم الفيزيائي "نيلز بوهر"، وهو ابرز عالم فيزيائي

<sup>182</sup> النعيمي نعمان سعد الدين ، نرى العلم في القرن العشرين، دار الشؤون الثقافية، ص 80 بغداد، (2001).

<sup>183</sup> النعيمي نعمان سعد الدين ، مرجع سابق، ص(43-51).

في القرن العشرين بعد اينشتاين، الى تقدم بتداء الى كل من تشرشل وروزفلت يناشدهما بأشد ما يمكن من عبارات الجد الاستجابة الى تلك النداءات دون أن يعير أي منهما اهتماما لندائه. وعندما توفي روزفلت كان كتاب استغاثة بوهر ملقى على طاولته وهو ما يزال مغلقا من دون فتح. واصل علماء الذرة الساخظون على حادثة هيروشيما نداءاتهم من خلال اصدارهم مجلة شهرية هي "نشرة علماء الذرة" التي استمرت لعقود طويلة. وفي 28 نوفمبر 1945 القى برتراند رسل خطابا في مجلس اللوردات البريطاني عبر فيه عن وجهة نظر مماثلة للأفكار التي وردت في "تقرير فرانك"، من غير ان يطلع عليه في حينه، محذرا من مخاطر التوجه النووي على مستقبل الجنس البشري. وقد ظهرت عبقرية برتراند رسل وهو في السبعينيات من عمره ويقود حملة عالمية ضد التسليح النووي وهو في التسعينات. ان الكثير من فقرات خطابه في مجلس اللوردات في 28 نوفمبر 1945 وما نشره لاحقا في كتابه حول مستقبل الانسان قد تحققت كنبوءات خارقة منها:

- ان القنبلة النووية ستصبح أكثر طاقة للتدمير.

- سيتم انتاج اسلحة اكثر فتكا تعتمد على ظاهرة الاندماج النووي ، أي صنع القنابل الهيدروجينية.[القنبلة الهيدروجينية اقوى الاف المرات من القنبلة الذرية، والطاقة التي ولدها الانفجار الذي وقع في بكيني بتاريخ الاول من مارس 1954 تجاوز كل التوقعات التي افترضها الامريكيون. قدرت بما يعادل الطاقة المنبعثة من (15 - 20) مليون طن من مادة الـ ( تي ان تي) TNT ، ورغم تسميتها بالهيدروجينية فهي تسمية شاعت خطأ؛ إذ ان الطاقة الكبرى من التفجير انما تستمد من اليورانيوم. والانفجار يحدث في مراحل ثلاث يمكن مقارنتها باشعال النار من الورق، فالخشب، فالفحم. ان اشعال الخشب اصعب من اشعال الورق، والفحم اصعب اشعالا من الخشب. وفي القنبلة الهيدروجينية كما هو الحال في القنبلة الذرية . انفجار مقدار من اليورانيوم 235 يكفي سببا حراريا لاندماج ذرات الهيدروجين وتحويله الى هيليوم. ان اليورانيوم 235 والهيدروجين محاط كلاهما بغلاف سميك من من اليورانيوم الاعتيادي. والحرارة المتولدة من التحام الهيدروجين وتحوله الى هليوم كافية ان تفجر اليورانيوم العادي الذي يؤلف ويكون الغلاف الخارجي للقنبلة. لذا فان معظم الطاقة المتولدة عن انفجار القنبلة الهيدروجينية يرجع الى القشرة الخارجية. لذا تعود الافضلية للقنابل الهيدروجينية الى استخدام اليورانيوم العادي، او بالأصح اليورانيوم الذي أُستخلص منه اليورانيوم 235 الثمين. والحرارة العالية هي العامل الوحيد الذي يدفع الامريكيين الى استخدام اليورانيوم العادي في مثل هذه الطريقة.

- توقع ان روسيا ستملك القنبلة النووية يوم كانت أمريكا تحتكرها لوحدها؛ بل حدد الوقت لذلك، وهو ماحدث فعلا. وقال ان السلاح الذري سينتشر وان فرنسا والصين واسرائيل ستحصل عليه، وهو ما حدث فهلا.

- قال ان الانسان سيبدأ القمر ويتصل بالمريخ، وهو ما حدث فعلا.

- وتوقع ايضا "انه لن يكون من الصعب رش المناطق الريفية بمواد ذات اشعاع ذري تقتل كل شئ حي على مساحات واسعة، لا البشر فقط، بل كل حشرة وكل نوع من الاحياء. وهي نبوءة طبقت في انتشار اليورانيوم المنضب. واحتمالات صنع القنابل الذرية القدرة<sup>184</sup>.

- وتحدث ايضا عن "قنبلة يوم الحساب" التي بإمكانها القضاء على الحياة في الارض.

وكسابقه، نداء نيلز بوهر، الى الساسة البريطانيين والامريكيين، لم يظهر خطاب برتراند رسل في وثائق ومحاضر وقائع مجلس اللوردات البريطاني<sup>185</sup>.

وهكذا عُرف القرن الماضي، من ضمن مسمياته العديدة بـ " عصر الذرة "، وإتسم النصف الثاني للقرن العشرين بسباق التسلح النووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وظهرت دول نووية جديدة رسمياً، مثل الهند وباكستان خارج النادي النووي الخماسي الرسمي، المُتمثل بالدول الدائمة بمجلس الأمن وهي: (الولايات المتحدة، روسيا، بريطانيا، فرنسا، الصين)، مع عدم اعلان اسرائيل رسمياً امتلاكها للسلاح النووي رغم الكثير من الادلة عنها .

ان الضرر الناجم عن انفجار القنابل النووية، والهيدروجينية خاصة، لا ينحصر في الموقع الذي اجريت فيه التفجيرات. إذ تقذف المواد المشعة الى ارتفاعات عالية في الجو ومنه تتوزع على جميع اطراف العالم ثم تترسب وتنتشر تدريجياً مسببة اخطاراً باتت معروفة من الامراض والتعريضات الاشعاعية القاتلة منها والمرضة. ان سيناريوهات الحروب الذرية وضعت وحسبت النماذج مدى اخطارها البيئية والصحية. و منذ الخمسينيات نشرت تقارير منها تقرير لوزارة الدفاع الامريكية نشر عام 1958 يلخص الحالة بعد حرب نووية افتراضية بين دول حلف وارشو ودول حلف الاطلسي فقدر عدد القتلى بـ 160 مليون قتيل امريكي و 200 مليون روسي، وكل فرد في اوربا الغربية وبريطانيا. وكان البعض يخشى ان مثل هذه التخمينات ستقلل من اندفاعات المتهورين والمغامرين لاجل اشعال الحرب النووية. ولكن شسناً من ذلك لم يقع واستمرت معدلات التسلح النووي تتصاعد. وبعدها نشرا العديد من الدراسات والتصريحات والاستجابات مع العسكريين والعلميين، كلها اكدت النهاية المأساوية للعالم اذا ماحدث صراع نووي<sup>186</sup>.

<sup>184</sup> مصطلح القنابل النووية القدرة يشار به الى تفجير تقليدي بعبوات ناسفة في وسط من المواد النشطة اشعاعياً كاليورانيوم والبلوتونيوم، وهي قنابل ذات قدرة تلوين هائلة للبيئة. وقد استخدمته دعاية الولايات المتحدة بحجة الخوف من سقوط المعدات والمواد النووية بيد " الارهاب" لصنع قنابل سُميت بالقدرة.

<sup>185</sup> Hansard, Official Report, Hous of Lords, Vol. 138, No.31, Wednesday, 28 November, 1945.

<sup>186</sup> Bulletin of Atomic Scientists No.12, p.270, 1956

وكذلك هارول مارك وآخرون، الشتاء النووي دار الرقي، ص.41، بيروت، (1986)

ان قضية البقاء بعد الكارثة النووية، تبقى موضع خلاف وجدل. يمكن ان تُصعد فيها المخاوف الى حد خرافي، موصوفة بـ "أهوال القيامة"، كما يمكن التخفيف من الأهوال فيها، والاستهانة بها الى درجة السذاجة، وكأن الحرب النووية باتت حرب عصي وحجارة. فهناك من يرغب في التشجيع على خوضها مثل "هيرمان كان" **Herman Kahn**، في كتابه الضخم المكرس والمعنون حول: "حول الحرب النووية الحرارية" **On Thermonuclear War**، يدعي فيه: (... بأن في الامكان إنقاذ قسم كبير من السكان بواسطة ملاجئ ضخمة عميقة). وهو يختصر تكاليف بناء ملاجئ الحرب النووية بحدود 30 مليار دولار.

ان وقائع الدراسات والسيناريوهات عن حرب نووية مُحتملة تُكذِّب أفكار "هيرمان كان" حول نجاعة حماية الملاجئ النووية، فهذا "جون فاولر" **John Fowler** في كتابه "الغبار النووي" **Fall Out** يرى: <sup>187</sup>: (...إن شخصا أو عائلة من ذوي المهارة والحيلة خارج دائرة الدمار الكلي، وعلى حافة مظلة الغبار الذري المميت قد يبقى على قيد الحياة بعد الأسابيع المرعبة الأولى. فقد ينجو من الموت باختبائه في زاوية من جدار لطابق أرضي، أو بأن يجثم تحت وقاء مهلهل أقيم إرتجالا وبسرعة، وذلك لأن العالم الخارجي حوله أصبح فرنا لموت صامت).

وحتى هذا الوصف يضعه برتراند رسل: ( يقتضي إعتبره خاطئا بسبب ميله الى التفاؤل؛ وذلك نظرا لتسمم الغذاء والماء، وإنعدام كافة وسائل النقل، وتدمير المستشفيات، وقلة الاطباء الباقين على قيد الحياة . وعلى المرء ان لا ينظر الى الصحة الجسدية فقط لمن يبقى حيا بعد الحرب النووية؛ بل الى ما قد ينتظر ان تكون عليه درجة الصحة العقلية بعد رجة عاطفية أعظم من أية رجة تحملها الانسان حتى الان. ومن المنتظر ان الكثيرين، إن لم يكن معظم الذين يبقون أحياء، سيصبحون مجانين، وربما أصبحوا مخربين). <sup>188</sup>.

ان اكثر السيناريوهات حول احتمالات البقاء ما بعد الحرب النووية جاءت في سياق كتاب "مردخاي روشولد" **Mordecai Roshwald** " في كتاب لم ينل الكثير من الدعاية بعنوان: "المستوى سبعة" **Level Seven** ، يُبقي فيه المؤلف شمعة في آخر النفق النووي، وبشعاع من الامل : (هو ان الغبار الذري الذي لايميل الى عبور خط الاستواء الجغرافي للأرض، إذا ما اقتصرت الحرب الذرية بصورة رئيسة على نصف الكرة الشمالي، فإن امبراطورية العالم قد تنتقل الى حكومة جنوب أفريقيا، وسيعتبر ذلك دون شك نصرا "للعالم الحر" يستحق التهليل والهناف).

هذه صور الرعب النووي التي عُرفت منذ ستينيات القرن الماضي، ألا ان السير بإتجاه الجحيم النووي لازال يحدث حُطى بعض المجانين والمغامرين. وعلى مدى نصف قرن من زمن الرعب

<sup>187</sup> فاولر جون " John Fowler في كتابه "الغبار النووي" **Fall Out** ص 175.  
<sup>188</sup> رسل برتراند ، هل للانسان مستقبل، مرجع سابق، ص 48

النووي عُقدت وتُعدّ عشرات المؤتمرات الساعية الى نزع السلاح، فمنذ الخمسينيات من القرن الماضي ظلت ظروف الحرب الباردة بين المعسكرين تتأجج وتدفع المعسكرين الى التصعيد في انتاج المزيد من أسلحة الدمار الشامل، يرى البعض في تلك الحالة المقلقة في سباق التسلح انها حفظت توازن الرعب على حاله، حتى يعد سقوط الاتحاد السوفيتي في 1991<sup>189</sup>.

لتبدأ مرحلة جديدة بدت فيها مرحلة تحكم وسيادة "القطب الواحد" وتفرد الولايات المتحدة في سياسة العالم وسياساته والتفرد في اتخاذ قرار شن الحرب ضد من تحسبه من أعدائها كما حدث في غزو العراق وافغانستان وتفكيك يوغسلافيا وفي جميع هذه الحروب فان الاسلحة التقليدية التي استخدمت كانت تحمل اعتدة أكثر اطلاقاتها تحمل نفايات اليورانيوم المنضب من جهة ولجوء القوات الامريكية الى استخدام اسلحة نووية وصفت "تكتيكية"، كما في معركة مطار بغداد الدولي التي واجهت فيها القوات الامريكية مأزقا صعبا من الخسائر بين قواتها، لذا استعملت " القنابل النيوترونية" واسلحة موجهة باللايزر لتحسم المعركة لصالحها وتحتل العاصمة العراقية في التاسع من افريل/نيسان 2003. كما ان عملية نهب وتدمير المركز النووي العراقي في منطقة التويثة جنوب بغداد وتسرب النفايات النووية الى المحيط والمزارع والمياه يهدد حياة ملايين العراقيين ولاجيل متعاقبة بالامراض والتشوهات الخلقية.<sup>190</sup>

ورغم اتفاقيات وقف التجارب النووية في البر والبحر والجو الا ان دولا عديدة ظلت تجرب الى سنوات متأخرة تحت البحر كما هو الحال مع تجارب فرنسا النووية جنوب المحيط الهادي في بولينيزيا. وظهر دول اخرى في تجارب وتفجيرات نووية تحت الارض، كالهند وباكستان واسرائيل. ان عنفوان التلوث النووي حصل في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات من سنوات القرن الماضي، وخاصة بعد سلسلة التجارب النووية السطحية في صحراء رقان الجزائرية التي سجلت تساقط المواد والغبار النووي على مناطق واسعة، شملت أجواء إفريقيا وأوربية وآسيوية حتى وصلت عبر المحيط الاطلسي لتسجل تأثيراتها في الولايات المتحدة الامريكية<sup>191</sup>.

انتشر الغبار الذري الحامل للنويدات المشعة في طبقات الجو العليا وانتقل بين القارات بتأثير الامطار والرياح وحركة دوران الارض، وبفعل الجاذبية الارضية البطيء، وهو يسبب اضطرابات متعددة على مناخ العالم، منها سقوط الامطار الحامضية والمشعة، وانتشار سرطانات العظام والدم،

<sup>189</sup> من يقرأ كتاب فيليب بيكر Philip Backer "سباق التسلح" The Arms Race سيضطر الى الاستنتاج ان لا الشرق ولا الغرب كان جادا من اجل نزع السلاح، وان كلا منهما كان يبث ويمارس دعاية سياسية ليتمر من خلالها معتقداته السياسية وايدولوجياته باسم الدعوة الى السلام العالمي .

<sup>190</sup> العبودي عبد الكاظم ، 2003، مقالات عديدة نشرناها، حول فضيحة الاحتلال الامريكي للعراق واجتياح المركز النووي العراقي من قبل الغوغاء وما ادى ذلك الى انتشار المواد المشعة في مناطق مجاورة من المركز. سميت تلك الحادثة بحادثة التويثة.

<sup>191</sup> العبودي عبد الكاظم ، 2000، "،يرابيع رقان وجرائم فرنسا النووية في الصحراء الجزائرية"، دار الغرب، وهران، ص 118-155 .

والأذى الذي يلحق بالخلايا الجرثومية "التناسلية"، مما يُسبب تغيرات وطفرات وراثية وتشوهات خلقية، وأمراضاً جسدية وعقلية ونفسية ناجمة عن تأثيرات جينية على مستوى الخصوبة والعقم والأمراض الوراثية المختلفة<sup>192</sup>. عُرِفَت هذه الحقائق والأمراض وسُجِلَت منذ خمسينيات وستينيات القرن الماضي<sup>193</sup>.

رغم كل ذلك، فهناك من القادة العسكريين والسياسيين؛ بل وحتى بعض الخبراء المحسوبين على العلميين النوويين والبيولوجيين، يكررون عبارة "الادميرال ستراوس" الشهيرة: (... لا وجود لخطر بايولوجي من تأثير الجرعات القليلة "الواطنة" من الإشعاع العالي الطاقة)، ويمثل هذه المغالطات تكمن التغطية على الدوافع الأيديولوجية والسياسية والاعلامية. وهو نفس الخطاب الذي لم يكف عن تكرار مثل هذه المغالطات<sup>194</sup>.

من جديد، ومع بداية الألفية الثالثة في ماي 2001 وضعت مجموعة رئاسية للتنمية يرأسها نائب الرئيس الأمريكي "ديك تشيني" قضية القوة النووية الأمريكية الاهتمام المركزي الأول من سياسة الولايات المتحدة في القرن الواحد والعشرين. وبطبيعة الحال وصفت قضية "احتياجات الطاقة من المفاعلات الكهرونوية كونها من الاهتمامات الأمريكية، باعتبارها قضية مصير للحصول على مصادر الطاقة المستدامة للولايات المتحدة.

يقدم تقرير "ديك تشيني" "تقرير السياسة القومية للطاقة" "National Energy Policy," Report المزايا البيئية والاقتصادية لهذه الطاقة، ويدعو الى زيادة التعاون الدولي ومضاعفة البحث العلمي من أجل الإقلال من وجود نفايات ذرية بمستوى عال من الإشعاعات ومن أجل معالجتها. في الوقت الذي يسجل العالم فضاءات دفن نفايات محطات الطاقة الكهرونوية في اراضي بلدان فقيرة ويجري التخلص منها بطرق سرية مؤدية الى كوارث تدفعها شعوب العالم الأخرى.

<sup>192</sup> العبودي عبد الكاظم، التجارب النووية الفرنسية في الجزائر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954، التجارب النووية الفرنسية ومخاطر التلوث الإشعاعي على الصحة والبيئة، ص 81-186، الجزائر، (2000).

<sup>193</sup> منها مقال عالم الوراثة الشهير أ.إيج.ستورتيغانت A.H.Sturtenant الذي اشار(لا مجال هنالك للتهرب من الاستنتاج بأن القتابل التي فجرت حتى الان"1954 آنذاك" سوف تؤدي بالنهاية الى انتاج عدد كبير من الاشخاص المصابين بالنقص، وذلك إذا بقي الجنس البشري على قيد الحياة اجيالا عديدة... وذكر هذا العالم في خطاب له: "انه يحتمل ان 1800 من الاطفال الذين ولدوا في عام 1954، وهو العام الذي جربت فيه القنبلة الهيدروجينية قد تمت اصابتهم بنتيجة الدرجة العالية للإشعاع النووي المنطلق) وفي العام نفسه صرح عالم الحيوان "كورت سترن" Curt Stern في كتابه "أسطع من ألف شمس" "Brighter Than A Thousand Suns pp.303-4 (... أصبح كل فرد في العالم حتى الآن يحمل في جسمه قدرا ضئيلا من الإشعاع الذري الناتج عن التجارب التي اجريت لقنبلة1954 الهيدروجينية مثل السترونتيوم الحار Hot Strontium في العظام والاسنان واليود الحار Hot Iodine وفي الغدد الدرقية.

<sup>194</sup> العبودي عبد الكاظم، الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وجمعية الدعوة الاسلامية العالمية، ص 66-113. تونس، (2005).

وخلافا عن الحروب والتسلح النووي واستخداماته فان قضية التلويث الناجم عن التجارب النووية والكيميائية والجرثومية وافرازات النفايات من الوقود النووي اضحت حربا غير معلنة رسميا على بعض دول العالم الثالث. وعلى قاعدة " انا ومن بعدي الطوفان"، تترجم مرة اخرى بـ "انا ومن بعدي الاشعاع"، تتهرب الدول النووية وخبرائها من المسؤولية المباشرة عن مواجهة الحلول لمشكلة النفايات النووية وتطهير المناطق التي نكبت كمواقع اجريت عليها التجارب النووية<sup>195</sup>. يجب احد الخبراء الفرنسيون على ذلك بكل برود"انه بإمكاننا ترك هذه المشاكل ليحلها اولادنا"<sup>196</sup>.

لازال اعضاء النادي النووي وخبرائهم يقللون من اخطار الاشعاع حتى في اكثر المناطق الملوثة في العالم كالصحراء الجزائرية والجمهوريات السوفياتية السابقة والثري مايل والبولينيز والعراق، أو بقايا تشرنوبيل<sup>197</sup> بالقول انه "اشعاع بسيط"، ويجري وضع وافترض النماذج الرياضية والفيزيائية التي تنتهي في كل مرة بالبرهنة على وجود "بقايا من الاشعاع المؤين منخفضة الجرعات الاشعاعية" وهي "غير ضارة"، مُتناسين ما علموه لنا يوما في مؤلفاتهم العلمية: ان الاعمار الطويلة والمتوسطة والقصيرة المدى للمواد المشعة لها اعمار تقاس بالدقائق والساعات والايام والسنوات والوف وملايين السنوات. وان المواد المشعة ودقائقها تنتشر وتنترب وتتراكم سواء في البيئة او الجسم الحي او في السلسلة الغذائية للكائنات. وقد لا يكون الاشعاع ضارا بصورة مباشرة ومسرطنا حالا، لكنه له من التأثيرات والآليات التي لا تخفي على أصحاب الاختصاص؛ خصوصا بما يتعلق بالسرطانات والتشوهات الخلقية وتشوه البنية الوراثية للكائنات، وهذه الاخيرة قد تظهر في مديات قصيرة او طويلة المدى عبر اجيال من الانسال المتعاقبة.<sup>198</sup>

#### 3-23-4: قضايا البيئة الاوزون: الانحباس الحراري والتصحر :

بدت ازالة الغابات في الامازون، لأول وهلة، مشروعاً جيداً ومربحاً من وجهات نظر اقتصادية بإحلال زراعة محاصيل اخرى كالقطن والحبوب بدل أشجار الغابات، واعتبر البعض ان هذا تقدماً تقنياً هائلاً.

ولم يكن بالاستطاعة التنبؤ بان القطن والحبوب ستدمر التربة، ليس بالقضاء على خصوبتها؛ بل بمهاجمة بنيتها، فالجذور تدمر العلاقة العضوية للدبال (مادة سمراء تنتج من تحلل المواد النباتية

195 العبودي عبد الكاظم، يرابيع رقان،، مرجع سابق، ص 118.

196 الؤل جاك، مرجع سابق، ص 268..

197 العبودي عبد الكاظم، كيجل مبروك، المجلة العربية للعلوم، العدد 39، اخلاقيات البحث العلمي والاختطار الناتجة عن استخدام اسلحة الدمار الشامل، ص 72-94. تونس، (2002).

198 العبودي عبد الكاظم، المرجع السابق. ص 76.

والحيوانية وتشكل الجزء العضوي من التربة<sup>199</sup>. فقترب المناطق المزروعة بالقطن والحبوب تتحول بعد ثلاثين الى اربعين عاما الى رماد تذروه الرياح التي لاتخلف ورائها سوى الصخور، وقد حدث هذا في الولايات المتحدة عام 1930 لكن الظاهرة اصبحت عالمية.

كلما زادت جراءة التقنية وتعاضمت انجازها تزايدت اخطارها منها مثلا: اتخاذ قرار بشق طريق يخرق غابات الامازون بربط الاطلنطي ببيرو، وسيتعين ازالة الغابات بطول 3000 كم وهو عمل تقني عملاق لكنه سيعرض للخطر كافة السكان الهنود الحمر الكثير ثمنا لمجرد الاتصال بالحضارة وعلينا ان نضع في الاعتبار ما سيعنيه هذا الطريق من كارثة بشرية وبيئية ايضا.

تقع اربعة اخماس الغابات في امريكا اللاتينية وسيبيريا وافريقيا الاستوائية. وتعاني نتظفتان منها من فقر الطاقة البترولية. لهذا اصبحت اشجار الغابات مصدر الوقود للتدفئة والطهي. يتم اقتلاع حوالي 7.5 فدان في كل ثانية و 7200000 فدان في اليوم الواحد. واذا استمرت معدلات قطع الغابات فستختفي غابات العالم في ظرف خمسين عاما ان القضية لم تعد مشكلة تصحر وانحسار الغطاء الاخضر للارض بقدر فقدان الارض لمصدر الاوكسجين الوحيد المتجدد عن عملية التخليق الضوئي في اوراق الاشجار والنباتات. ان البلدان الافريقية تحرق ما تبقى من غطائها النباتي نتيجة الحاجة الى الوقود المنزلي والتدفئة. ذكرت احصائيات مؤتمر نيروبي ان مليارين من البشر في المناطق غير الحضرية من العالم يستعملون الاخشاب للتدفئة وان اربعمائة مليون من هؤلاء يعيشون في مناطق تندر فيها الاخشاب واذا ما استمرت مثل هذه الحالة فان مصير 53% من مساحة افريقيا في سبيلها الى التصحر. ان حرق الغابات والوقود الاحفوري يضيف كميات اخرى من ثاني اوكسيد الكربون بذلك يسهم في ظاهرة الاحتباس الحراري وما يجره من اضطرابات المناخ.

#### 4- : التطورات العلمية التكنولوجية وفلسفات العبث بالمصير الانساني:

ظهرت وتطورت فلسفة العبث في فرنسا وفي انحاء اخرى من الغرب في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، وشكل هذا ظاهريا، تناقضا في الالفاظ: فالفلسفة والعبث لا يتوافقان. وأضحت الفلسفة والعبث بها، لا تتوافق مع معناها المعجمي اي الحكمة.

تطورت فلسفة العبث جنبا الى جنب مع الوجودية ومن خلالها. وبالطبع فهي تميز فلسفة العبث الوجودية ككل، ولكنها كانت ذات علاقة بفلسفة جان بول سارتر. كان توجهها الرئيسي هو: (ان الحياة وكل الانشطة والفكر الانساني أمور عبثية، لا معنى لها على الاطلاق، كما ليس ثمة معنى منطقي لأي شيء).<sup>200</sup> و: (الحياة واقع محض، وليس ثمة معنى لما يحدث، وليس لنا ان

<sup>199</sup> العبودي عبد الكاظم ، وآخرون، علم التربة، دار الغرب عدة صفحات، (2002) .  
<sup>200</sup> الول جاك ، خدعة التكنولوجيا، مرجع سابق، ص 231.

نبحث عن معنى لما يحدث، أو أن ننسبه لأي شيء. فليس للتاريخ معنى، كما أنه لا يتحرك باتجاه أي هدف، ولا يتبع أي قوانين، وليس له صفة الدوام. فليس ثمة وجود للخير والشر، ومن ثم فباستثناء أخلاقيات الغموض، فالأخلاقيات غير ممكنة، كما أنه ليس هناك معنى للعلاقات مع الآخرين؛ إذ أنها مستحيلة استحالة تامة من جميع أوجهها. فليس بوسع الانسان أن يفهم إنسانا آخر، أو يستطيع ذلك، إذ إن ثمة سوء فهم دائم؛ كما ان ما نفعله هو حماقة بالنسبة الى الآخرين رغم معقوليته التامة بالنسبة لنا، فمن المحال ان نتواصل، وجهنم هي الآخرين. ونحن في موقف عبثي لا يتأتى لنا الهروب منه حيث ان كل محاولة للهروب محاولة عبثية. كما أنه ليس ثمة وجهة نظر ثابتة يمكننا منها تقييم حدث ما أو فعل ما. وليس هناك ايضا كائن أعظم نحيل اليه. فالحقيقي هو فقط الموجود. بيد ان هذا ايضا متقلب مثل الماء والرمال، ولا يوجد قوام لأي شيء. وباستطاعتنا النظر الى هذا على انه حرية، فما نفعله، بعد كل شيء، لا يهيم. وليس لفلننا هذا الشيء او ذاك اية دلالة. ونحن أحرار أن نعمل شيئاً ما بعينه أو شئنا آخر لأن كليهما يتسمان بعدم الأهمية. وليس على الاختيارات ان يكون لها ما يبررها. فببساطة، هي موجودة).<sup>201</sup>

خطاب مثل هذا: يؤدي بلا شك الى سلوك مفكك ومتناقض: يرى فيه جاك الول موقفاً، فيسود عدم اليقين في العلاقات، ولا يبقى امام حالة مثل هذه سوى الصدق مع النفس وهو الأمر الوحيد المتبقي لكي يوصف أمر المستقبل بانه غير عبثي. كان سارتر دائم التغيير لمقالاته، "التي وصفت انها لحظية"، وكان باستطاعته أحيانا ان يكتب مقالين متناقضين يفصل بينهما اسبوعان فقط. فالإخلاص والالتزام لا يكونان سوى للحظة فقط. وبالإمكان ان تكون هناك أشكال تنبعية للإخلاص في كل محاولات الحياة. وبالطبع فهناك: زعم انه ليس بمقدور العلوم نفسها ان تمنحنا أي يقين.

في مناقشة لسارتر على مائدة مستديرة أتى سارتر بمقولته الشهيرة للعلماء الفيزيائيين المرموقين فقال: (... إنني كفيلسوف أعلم عن ماهية المادة أكثر كثيرا مما يعلمه الفيزيائيون). فلسفة العبث تعني رفضا لكل الفلسفة السابقة التي حاولت ان تجد معنى ونقاط إحالة من أجل تقدير الحياة وتذوقها واحترام منطقية الفكر الانساني. ورغم ان فلسفة العبث تسببت في ظهور أعمال أدبية وفنية مذهشة ومفعمة بالمشاعر أرادت ان توحى من خلال تلك الاعمال: من ان الحياة، في واقع الامر، عبثية، غير ذات معنى<sup>202</sup>.

كما ان التطور الآخر الذي انبعث من فلسفة العبث هو العدمية: (لا قيمة لأي شيء، وعلينا ان نخترل كل شيء الى لاشيء) [هذا هو شرح العدمية Cioran]. ان العدمية التي تتأتى من فلسفة العبث

<sup>201</sup> الول جاك ، خدعة التكنولوجيا، مرجع سابق، ص 222 .  
<sup>202</sup> سارتر جان بول، مرجع سابق. عدة صفحات .

باستطاعتها التأثير في هؤلاء الذين ليسوا فلاسفة او فنانيين. فتؤدي بالبعض الى الانتحار [لاحظ نسبة ارتفاع الانتحار بين فئات الشباب]، وبآخرين الى الارهاب ( لحق البعض بالعدميين الروس في القرن التاسع عشر، وقد نظر اليهم كاموا بتعاطف وتفهم في "العادلون" Les Justes)، وهذا لايعني ان الإرهابيين الفعليين أو الإنتحاريين في العالم لديهم ادنى فكرة او معلومات عن فلسفة العبث. ولكن يمكن القول ان هذه الفلسفة اخترقت عقول بعض الافراد بعمق أكبر كثيرا مما يتصور، وخلقت مناخا في المجتمع ككل يمكن للارهاب والمغامرة ان تتطورا فيه الى حد بعيد.

تزدهر فلسفة العبث في مناخات سياسية، كالاحتلال والغزو واطلاق اليد لقسوة المحتلين، كما في سنوات الاحتلال النازي، وعند سياسات الخوف من الجستابو واجهزة الامن والمخابرات وعند العجز عن المقاومة والاستسلام لليأس والإحباط وفي الاحساس بالضيق، واكتشاف بشاعة السجون والمعتقلات والمجازر البشرية. في مثل هذه الظروف، ووسط فيض الشرور الانسانية، تصبح الحياة عبثية المعنى والوجود. ويفقد الفرد رؤية ضوء في نهاية نفق الحياة، ولا يرى من خلال وجوده أية قضايا عادلة وانسانية، وليس هناك ثمة خير او شر.

والبشر في مثل هذه المحن تميزهم بشاعتهم. و"كاليجولا" هو "ممثل الانسانية"، وكان على "مالرو" ان يلجأ لتاريخ الفن القديم في محاولة منه للعثور على معنى في البشرية وتاريخها. ثمة احتمال ان فلسفة العبث كان لها بعض الاثر على التفكير العلمي، وقد يبدو هذا أمرا يصعب تصديقه. ولكن التحري الدقيق في بعض الفرضيات في السنوات الاخيرة في الفيزياء والبيولوجيا وغيرها سندهشنا ان نجد في العديد من الابحاث مثل العقد او العراوي loops "مفاصل" والدوامات والاضطرابات. أين يجري تعميم وسوء استخدام ظواهر وقوانين الديناميكا الحرارية التي اعتدنا من خلالها تمييز وتقدير درجات الفوضى والنظام في الطبيعة من خلال قوانين الأنتروبيا والانتشار .

فالانتروبيا عُرِفَت كحالة فيزيائية تعني: دراسة حالة الفوضى المطلقة، تقابل تحلل المعلومات وغيابها الكلي. وقد كان عدم النظام **disorder** في الكون ببساطة يعني "فوضى". ومثل الضوضاء في الحركة الموجية، كان للفوضى تضمينات سلبية. إلا ان هذا قد تغير الآن، فأصبحت الفوضى ظاهرة ايجابية، ولا بد من إدماجها في أبحاث الفيزياء "لا حذفها منها". وبدأ الفيزيائيون في القول إن النظام باستطاعته ان ينتج في النهاية الفوضى: "مثلما تأتي المعلومات من الضوضاء وظواهر الشواش" وغيرها.

لابد من الاشارة هنا أن الفيزيائيين لا يتوصلون عن طريق الابحاث العلمية الخالصة الى المفاهيم التي تدافع عن فكرة الفوضى في الكون، او كما اعتقد العلماء، ولكن هؤلاء العلماء هم جزء من مجتمعاتهم، وهم ينتمون الى ثقافات وبيئات حضارية مختلفة، وهم يتأثرون، لامحالة، بها. وفي

كثير من المجتمعات يعيش الناس في مجتمعات شديدة التحكم والقمع، رغم التسييس الاخلاقي والديمقراطية وبعض المظاهر الليبرالية التي يتمتع بها هؤلاء العلماء.

ورغم ان العلوم، التي لم تكن عبثية البتة، وقفت في تضاد مع فلسفة العبث وبدت التقانة أيضا نموذجاً للعقلانية والصرامة والكفاءة والدقة، ولم يكن ثمة ماهو عبثي فكل شئ يبدو منطقياً وعقلانياً ولكن هذا لا يمنع من ان يصبح بعض الافراد غير القادرين على التكيف، وغير منطقيين في ردود أفعالهم "العنف مثلاً". لكن التقنية في العقدين الاخيرين أخذت منحى وسلوكاً عبثياً وتتطلب تدخل مجالس الاخلاقيات ومراقبتها واذا ما ارتبطت التقنية الحديثة مع فلسفة العبث فان التنبؤ بنتائج وخيمة عن ذلك ستكون صعبة.

ان طوفانات التقانة سيجعل منها عبثية، وان التسارع في نمو التقانة يستحث العبث أيضا في بعض الميادين، وخاصة في مجال تطبيقات الهندسة الوراثية، واسلحة الدمار الشامل وتجاربها السرية. إن مجمل علماء الهندسة الوراثية، ومنهم من حملة جائزة نوبل، ومنذ عقدين لازالوا مترددين عن الاجابة التامة حول نجاعة بعض التقنيات الجديدة، وعن النموذج البشري الذي يمكن ان سَيُنَجَز بالتلاعب في المورثات . ولكن الاعلام التقني العبثي، ما فتأ يردد تفاهات حول تكوين وتخليق بشر أكثر ذكاءً، أو تخليق كائنات بشرية وفق مواصفات مطلوبة سلفاً.

هل سنكون بهذا التخليق البشري الموعود أكثر انسانية، وقد سبقت النازية ذلك بالتفكير الاحمق بمحاولتها فرض أيديولوجيا البقاء للأفضل والأقوى أو ضرورة الإنتقاء الآري المُحَسَّن للبقاء البشري على حساب إبادة الاخرين؟.

#### 4-24: الموقف من أسلحة الدمار الشامل:

##### حضور العلم والعقل ونقيضهما:

هنالك انطباع لدى قطاع واسع من الناس ان اللوم الأخلاقي يقع على العلماء بسبب الاخطار الناجمة عن اسلحة الدمار الشامل. وفي هذا اللوم الكثير من تحديد المسؤولية التي طالما يحاول البعض التنصل منها بل يخجل من تاريخ بشاعتها.

هناك فئتان من هذه العينة من العلماء، وما بينهما تتوزع مجموعات تراوح في مواقعها، حسب ظروفها الشخصية او السياسية أو المهنية :

أولاً: - فئة استخدمتهم حكوماتهم في البحث واكتشاف وبناء ترسانة الاسلحة النووية والجرثومية والكيميائية.

ثانياً: - فئة، وهم اغلبية ساحقة من العلماء البارزين قاموا بكل ما في استطاعتهم لمكافحة اخطار اسلحة الدمار الشامل، وخاصة الاسلحة النووية. ولكن الساسة والاعلام قد حالوا دون

الاطلاع على مساعيهم بشكل واسع. أثار إكتشاف القنبلة الهيدروجينية منتهى الرعب بين جميع العلماء الذين لم يكونوا في خدمة مشاريع حكوماتهم العسكرية.

أضحت معرفة أهوال القنبلة الهيدروجينية بمثابة الصدمة التي أفقت الكثيرين، بدءاً من عام 1955، الذي بدء فيه تشكل رأي عام عالمي رافض للتسلح النووي، وولادة حركة سلم عالمية قادها العلماء وانظم اليهم مفكرون وفلاسفة من كافة انحاء العالم، من المعسكرين الشرقي والغربي. وبمبادرة من الكونت برنادوت إجتمع عدد من أبرز العلماء، من مختلف البلدان والمعتقدات الدينية والسياسية ومن مختلف الإختصاصات العلمية، وأغلبهم قد حصلوا على جوائز نوبل، في الغرب في جزيرة ماينو **Mainu** بتاريخ 15 جويليه/تموز 1955 وحينها أصدروا بياناً جاء فيه : (...إنفد اسعدنا ان نكرس حياتنا من اجل العلم، لاننا نعتقد ان العلم هو طريق لحياة أكمل للجنس البشري. ولكن يرهينا ان ندرك ان هذا العلم نفسه هو الذي يمون الانسان بالوسائل لتدمير نفسه. فبالحرب الشاملة وباستخدام الاسلحة المتيسرة الان قد يصبح العالم ملوثاً بالاشعاع الذري بدرجة تؤدي معها الحرب الى تدمير امم بكاملها، وابداء المحايدين والمتحاربين على حد سواء...) <sup>203</sup>.

وضمن ذلك البيان التاريخي الهام أشير الى جملة من المخاطر المستقبلية، منها :

- 1- " ان الانسان يخدع نفسه إن تصور انه مازال بالامكان تسوية الاصطدامات الصغرى باستخدام الاسلحة التقليدية. فلن تحرم اية دولة متحاربة نفسها من استعمال أي سلاح تستطيع التقنية العلمية تجهيزه عندما يبلغ الخطر الذي تتعرض له حده الأقصى".
- 2- " اذا ما دخلت الدول الكبرى في حرب فانها ستؤدي الى تدمير نفسها وتهديد العالم بأسره".
- 3- "وان أي حكومة تخدع نفسها كثيراً اذا اعتقدت ان الخوف من مثل هذه الاسلحة وامتلاكها يمنع وقوع الحرب على المدى البعيد".

في أوت/ آب 1955 عقد اجتماع هام في لندن باسم (الرابطة البرلمانية من اجل حكومة عالمية)، حضره اربعة ممثلون من الاتحاد السوفيتي، منهم البروفسور سي. أ. كولونسكي، **C.A.** **Golounsky** عضو اكااديمية موسكو للعلوم، والبروفسور أ. في. توبجيف **A.V.Topchiev** السكرتير العلمي للأكاديمية السوفيتية، والعالم البروفسور برتراند رسل من بريطانيا، وممثلون عن جميع الدول المستقلة. لم يقتصر الاجتماع على اعضاء البرلمانات؛ بل ان العلماء هم الذين نظموا ووضعوا له جدول الاعمال، وانضم اليهم علماء من تخصصات مختلفة ، وعلماء اجتماع، وفلاسفة.

دعت البحوث المقدمة الى " تخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب، وحذرت من سباق التسلح، وركزت على اهمية فحص مدلول التطورات العلمية واهميتها للبشرية عموماً، واثرها في

<sup>203</sup> رسل برتراند ، ص 66.

تقدم الوسائل السلمية لتسوية المنازعات الدولية". ان قرارات مؤتمر لندن لم تملك قوة قانونية، وان أهميتها التاريخية تنحصر في القيمة الادبية والاخلاقية، والأهم فيها انها اتخذت لا بأغلبية الاصوات؛ بل بالاجماع، تعبيراً عن مسؤولية جماعية للعلماء وبعض الساسة عن قلقهم حول مصير الانسانية.<sup>204</sup>

هذه الاجواء وغيرها سادت في الاشهر الثمانية من عام 1955 انعشت الامل ومهدت الى عقد واحد من أهم مؤتمرات حركة السلم في العالم قادها العلماء والفلاسفة وهو مؤتمر هلسنكي باسم "الجمعية العالمية من أجل السلام"، ساهم فيه الشيوعيون وغير الشيوعيين. وساده جو من التفاؤل لبناء حركة عالمية لرفض الحرب النووية وغيرها والدعوة الى فض النزاعات بروح السلم الا ان الحكومات الغربية سرعان ما بادرت الى سحب مقترحاتها حول نزع السلاح حالما وافق الاتحاد السوفيتي عليها من غير توقع الغرب.

ويبدو ان حكومات الغرب، اولاً، ارادت من غرض تقديم اقتراحاتها للعب بمناورة سياسية لتضليل الرأي العام العالمي حول تبني الخيار السلمي، ولتحميل السوفيت وحدهم مسؤولية سباق التسلح، مما دفع الاتحاد السوفيتي، وخلال الاشهر الاربع التالية، ان يتبع نفس الاسلوب لمنع التوصل لمعاهدة تحرم اجراء التجارب النووية<sup>205</sup>.

برزت جهود كثيرة لنخبة من العلماء في الغرب، لتبني موقف اخلاقي علمي وفكري من الحرب النووية وسباق التسلح والمصير الانساني، وحجبت الدعاية السوفيتية بروز اسماء علمائها نظراً للسياسة الشمولية للحزب الشيوعي السوفيتي والدولة السوفيتية والمعسكر الشرقي. لكن مبادرات النخبة الغربية من العلماء تواصلت فردياً وجماعياً، نشير الى جهود علماء وفلاسفة بارزين منهم روتبالت، برتراند رسل، جليوت كوري، مولر، اينشتاين... وغيرهم ممن سنشير اليهم لاحقاً.

وللأهمية التاريخية والاخلاقية نتوقف عند نشاط "حركة بكواش" **The Pugwash Movement** التي نشأت إثر مبادرة العالم الرياضي والفيلسوف البريطاني الداعية الى الحرية والسلام ووقف التسلح برتراند رسل بارساله مسودة بيان الى عدد صغير من ابرز رجال العلم، ومنهم البرت اينشتاين الذي وقعه قبل وفاته بيومين فقط. كان غرض المبادرة ان يتعاون العلماء الشيوعيون منهم والمعارضين للشيوعية حول القضايا التي تقع ضمن مؤهلاتهم وتخصصاتهم التقنية ولأجل المساهمة في الاجراءات الدولية المتعلقة بالاسلحة النووية ان امكن.

<sup>204</sup> رسل برتراند ، ص 68

<sup>205</sup> رسل برتراند ، مرجع سابق، ص 71.

نشر البيان بتوقيع عدد محدود من العلماء من خلال مؤتمر صحفي نظمه اعضاء هيئة جريدة الاوبزرفر باسناد ودعم مادي من الجريدة في 9 جويليه/تموز 1955 وترأس المؤتمر البروفسور روتبالت **Rotbalt** . وضمن ما جاء في البيان المطول نقتبس منه ما يلي : (... في الحالة المأساوية التي تجابه البشر، اننا نشعر بأن على العلماء ان يجتمعوا في مؤتمر لتقدير الاخطار التي نجمت عن نشوء اسلحة الدمار الكلي وللبحث في مشروع قرار وفق الروح الواردة في المسودة المرفقة).

وأكد المنظمون لحركة بكواش على جملة من النقاط لتحديد اغراضهم وتوجهاتهم منها:

1 - انهم لا يتكلمون باسم امة او قارة او عقيدة بعينها؛ بل كبشر، كأعضاء في الجنس البشري الذي أصبح استمرار وجوده موضع شك.

2 - ان العالم ملئ بالاصطدامات، وفوق كل النزاعات الثانوية يقف الصراع الكبير بين الشيوعية وخصومها.

3 - الدعوة لمن يحمل وعيا سياسيا ان يتركوا جانبا مواقفهم السياسية المتحيزة واعتبار انفسهم فقط اعضاء من جنس بيولوجي كان له تأريخ جدير بالذكر، ولا يرغب احد باختفائه.

4 - ان عامة الشعب، وكذلك الكثير من الرجال الذين هم في مواقع السلطة، لم يدركوا ما ستؤدي اليه الحرب بالقنابل النووية. فعامة الناس ما تزال تفكر في نطاق تدمير مدن من وجه الارض كمدينة هيروشيما بقنبلة نووية واحدة ، ولكن يجب العلم ان قنبلة هيدروجينية واحدة ستزيل من الوجود كليا اكبر المدن مثل لندن ونيويورك وموسكو. اننا نعلم الان، بعد تجربة بكيني الهيدروجينية، ان القنابل النووية تستطيع نشر الخراب تدريجيا على بقاع اوسع بكثير مما كان يفترض. ان قنبلة هيدروجينية واحدة تعادل 2500 قنبلة ذرية من طراز قنبلة هيروشيما، وان تفجيرها قرب سطح الارض او تحت سطح البحر سترسل الدقائق والمواد المشعة الى كل ارجاء اجواء الكرة الارضية وستسقط نواتج السقوط الذري بشكل غبار ودقائق مشعة وامطار قاتلة. ان مثل هذا الغبار اصاب صيادي السمك اليابانيين وصيدهم من السمك.

5 - ان احسن الثقةا مجمعون على القول: بأن حربا بالقنابل الهيدروجينية من المحتمل ان تضع نهاية للجنس البشري، واذا ما تفجرت اكثر من قنبلة هيدروجينية فإنها ستؤدي الى موت شامل لا يقضي فورا على اقلية فقط؛ بل يأتي على الأكثرية بعذاب بطئ من الامراض والانحلال والتفسخ.

6 - حذرمن بعض التوقعات المتفائلة المنسوبة لبعض رجال علم ومن خبراء الاستراتيجيات العسكرية التي لم تقل او تشير منهم عن "حتمية أسوأ النتائج" و: "ان ما يقولونه هو ان هذه نتائج ممكنة" و: "ان لا احد يستطيع ان يؤكد بأنها لن تتحقق". ويؤكد البيان: (... اننا لم نجد حتى الان ان آراء الخبراء حول هذه القضية تعتمد بأية درجة على هوى في السياسة او تحامل وتحيز؛ بل أنها

إعتمدت دوماً، حسبما توصلت إليه تحرياتنا، على القدر الذي توصل إليه الخبير المختص من المعلومات. وقد وجدنا ان الرجال الاكثر إطلاعاً هم الأكثر تشاؤماً).

7 - ان الغاء الحرب، يستوجب تقييد السيادة القومية. ويتطلب هذا تفهماً أكثر من قبل الناس؛ لأن عبارة "الجنس البشري" تبدو غامضة مجردة، والناس نادراً ما يدركون في مخيلتهم ان الخطر يمسهم ويمس أولادهم وأحفادهم ولا يقتصر على "بشرية" غامضة المعنى.

8 - لا بد من ادراك الخطر الداهم المصاحب بعذاب شديد اذا ما استعملت هذه الاسلحة وعلى من يعتقد ويأمل ان الحرب ممكنة الوقوع شريطة ان يمنع استخدام الاسلحة الحديثة فهو واهم . وهذا أمل خادع، فمهما كانت الاتفاقات التي تعقد في زمن السلم وتقضي بعدم استعمال القنابل الهيدروجينية، فانها سوف لن تعتبر ملزمة في زمن الحرب، وسيبدأ كل من الطرفين العمل لانتاجها حالما تنتشب الحرب، اذ انه اذا ما قام احد الطرفين بانتاج القنابل دون الآخر فإن الجهة التي تنتجها ستنتصر حتماً.

ويختتم البيان نصه:

(... ان معظمنا غير محايد في شعوره، ولكن علينا ان نذكر كبشر، ان المشاكل بين الشرق والغرب اذا اريد حسمها، بأية طريقة يمكن ان تحقق رغبة لاية جهة، سواء تلك الجهة شيوعية او ضد الشيوعية، وسواء كانت آسيوية أو أوربية أو أمريكية، او كانت بيضاء أو سوداء، فإن هذه المشاكل يجب ان لا تحسم بالحرب، إننا نود ان يكون هذا مفهوماً لكل من الشرق والغرب)<sup>206</sup>.

أصدرت الحكومة الهندية تقريراً وضعه مجموعة من علماء الهند بعنوان (التفجيرات النووية وأثرها) ، نشر في دلهي عام 1956 واعد طبعه 1958، ورغم موضوعيته ودقته العلمية، تم تجاهله، لانه لم يخدم أغراض السياسة في الشرق أو الغرب. لهذا لم يعرف على المستوى العالمي لأن الإعلام لم يشر إليه بشكل كاف.

يعتبر الدكتور العالم لينوس باولنك **Linus Pauling** من انشط العلماء الذين سَعَوْا الى تقليل اخطار الحرب النووية. ففي عريضة له وقع عليها اكثر من 9235 من العلماء رفعت الى الامين العام للامم المتحدة داك همرشولد في جانفي/كانون الثاني 1958. طالبين فيها فوراً عقد اتفاقية دولية لايقاف التجارب النووية. وضمن ما جاء فيها من التحذير من المخاطر:

أ- " إن كل قنبلة تجري تجربتها تنشر عناصر اضافية مشعة على أطراف العالم كلها، وكل زيادة في كمية الاشعاع تلحق أذى بصحة الانسان اينما وجد على الارض، وتسبب ضرراً لمجموع خلايا البلازما البشرية، مما يؤدي الى زيادة عدد الاطفال الذين يولدون متخلفين في المستقبل.

ب - : "هنالك احتمال بالتوصل الى اتفاق طالما بقيت هذه الاسلحة في حوزة دول ثلاث(كانت الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتي السابق)؛ غير انه اذا استمرت التجارب، واذا انتشر تملك هذه الاسلحة الى حكومات اخرى فان خطر انفجار حرب نووية هائلة سيزيد بنتيجة عمل طائش يقوم به زعيم قوم عديم الشعور بالمسؤولية".

ج - : "اننا نشاطر بقية ابناء جنسنا، الاهتمام العميق برفاهية البشر جميعا، وكعلماء، لدينا معلومات بالاخطار الكامنة، ولذلك تقع علينا مسؤولية خاصة في كشف تلك الاخطار".

ومن العلماء الذين برزوا في مواجهة التسلح النووي عالم الذرة البروفسور الفرنسي "جلبوت كوري" وموقفه الراض من المشروع النووي العسكري الفرنسي جسده بالرفض في التعاون مع المؤسسة العسكرية في مسعاها تجنيد علماء الفيزياء الفرنسيين للانخراط في المشروع العسكري النووي المنفذ فوق الاراضي الجزائرية.

ثالثا: - فئة تورطت وساهمت في ابتكار واستخدام الاسلحة النووية واسلحة الدمار الشامل ثم اكتشفت ورطتها وما جرّه استخدامها فندمت واعترفت بفداحة الخطأ وتجنبت لاجل تدارك الاخطار مستقبلا.

عرف اوبنهايمر انه العالم الذي اشرف وادار مشروع مانهاتن، وكان العنصر الرئيسي في المشروع الذي انجز انتاج وتفجير اول قنبلة نووية أمريكية، وله الفضل الكبير في تدريب الكوادر التقنية والخبراء النوويين لدولة اسرائيل لكنه عارض مشروع بناء أول قنبلة هيدروجينية عام 1954؛ ما أثار غضب السلطات الامريكية فأجرت تحقيقا أمنيا عن ماضيه وسيرته فحصلت على قرار عام 1954 باعتباره "خطرا على الامن القومي" الامريكي، لذا عزل وابتعد عن المواقع المتنفذة والمطلعة على الاسرار الجديدة.

هناك من يبرر لسلوك اوبنهايمر المزدوج هذا ما بين الاستعداد لصنع قنبلة نووية ورفض، او عدم الاستعداد لصنع القنبلة الهيدروجينية، ومنهم رسل بتبريره لاوبنهايمر، يحمل تناقضا في جملة اعتراضية ايضا ضمنها ما بين القويسات<sup>207</sup> بالقول: (... ان القنبلة الذرية صنعت زمن الحرب حين كان يظن "خطأ ومع ذلك لسبب مقبول" ان هتلر كان على وشك اكتشاف طريقة لصنعها، اما الاقدام على صنع القنبلة الهيدروجينية فقد جاء في وقت السلم).

ولكننا نرى ان هذا التبرير غير موفق [وهنا ينطبق عليه ماقاله يوماً ابو الحسن عبد الجبار المعتزلي (الواجب هو ما اذا لم يفعله القادر عليه استحق الذم على بعض الوجوه... وهو ان تقع ممن يعلم قبها، او يتمكن من العلم بذلك وهو ان لا يكون لفاعلها من الثواب قدر ما كان عقاب

هذه الصغيرة... ولولا هذا الاحتراز لانتقض الحد، ولا نقض مع اعتباره<sup>208</sup>، لأن الحقائق بعيدة عن الواقع؛ فالالمان كانوا يملكون اسلحة كيميائية وجرثومية، ورغم خسارتهم الحرب، فلم يلجأوا اليها حتى لحظة الاستسلام النهائي يوم 8 ماي 1945 للحلفاء من دون قيد او شرط 1945. وان صنع الفنبلة الهيدروجينية اتخذ قرار صنعها عندما اصبح الاتحاد السوفياتي وبريطانيا تمتلكان اسلحة نووية وكانت فرنسا في طريقها نحو ذلك.

رابعا: - فئة تواقنت وساهمت في التضليل الايديولوجي والعلمي فقدمت معطيات تخدم اهداف الساسة والقادة العسكريين وهم ما نطلق عليهم الخبراء.

اقترحت حركة بوكواش " **The Pugwash Movement** " قرارا طلبت تبنيه من خلال مؤتمر للعلماء ولأهمية النص والاسماء العلمية الموقعة عليه" أغلبهم من الحائزين على جائزة نوبل آنذاك " ندرجه هنا تقريبا<sup>209</sup>. أرسل مذيلا بتوقيع العالم والفيلسوف برتراند رسل الى مختلف رؤساء الدول.

### قرار

[اننا ندعو هذا المؤتمر، وندعو عبره كل علماء العالم وعامة الشعب ان يساهموا بالقرار التالي:  
(بالنظر الى حقيقة ان الاسلحة النووية سوف تستعمل فعلا في اية حرب عالمية في المستقبل،  
وان تلك الاسلحة تهدد استمرار بقاء الجنس البشري فاننا نناشد حكومات العالم ان تدرك وان  
تعترف علنا بأن أهدافها لا يمكن ان تتحقق بحرب عالمية وندعوها بالنتيجة ان تجد وسائل سلمية  
لتسوية كافة قضايا النزاع فيما بينها).

بروح هذا القرار سادت مؤتمرات بوكواش التي تلت.

وكان الموقعون على الوثيقة كلها:-

البروفسور ماكس بورن **Max Born** بروفسور الفيزياء النظرية في برلين، فرانكفورت، وكونتكن.  
بروفسور الفلسفة الطبيعية، ايدنبرك(1936 - 1953)، حائز على جائزة نوبل.  
البروفسور بي. دبليو. بردكمان **P.W.Bridgman** بروفسو الفيزياء في جامعة هارفارد، حائز على  
جائزة نوبل.

البروفسور البرت اينشتاين **Albert Einstein** .

البروفسور ايل انفلد **L.Enfeld** بروفسور جامعة وارشو، عضو الاكاديمية البولونية للعلوم، إشتراك مع  
اينشتاين في تأليف "تطور الفيزياء" و "مشكلة الحركة".

<sup>208</sup> المعتزلي عبد الجبار، شرح الاصول الخمسة، ج1، موفم، 1990، ص [2].

<sup>209</sup> رسل برتراند ، مرجع سابق، ص 75.

البروفسور جي. اف. جوليوت كوري **H. F. Currie** بروفسور في الكلية الفرنسية **College De France** ، عضو معهد وأكاديمية الطب، رئيس الاتحاد العالمي للعاملين العلميين، جاز على جائزة نوبل في الكيمياء.

البروفسور ايج. جي. مولر **H.J. Muller** عمل بروفسورا في جامعات موسكو والهند وغيرهما. وفي جامعة انديانا. حائز على جائزة نوبل في الفيزيولوجيا والطب.

البروفسور لينوس باولنك **Linus Pauling** مدير مختبرات كيتس وكريلين **Gates and Crellin** معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا. حائز على جائزة نوبل في الفيزياء

البروفسور سي. اف. باول **C.F. Powell** بروفسور جامعة بريستول. حائز على جائزة نوبل في الفيزياء.

البروفسور جي. روتبالت **J. Rotbalt** بروفسور الفيزياء في جامعة لندن، الكلية الطبية، لمستشفى سانت بارتولوميو.

البروفسور برتراند آرثر رسل **Bertrand Russel** فيلسوف ورياضي، عضو مجلس اللوردات البريطاني، حائز على جائزة نوبل.

البروفسور هيديكي يوكاوا **Hideki Yukawa** بروفسور جامعة كيوتو، حائز على جائزة نوبل.

عندما نشر البيان كان عدد الموقعين عليه احد عشر فقط، وهم قد دعوا بقية العلماء من الشرق والغرب وكذلك من الدول غير المنحازة. والمشكلة التي واجهت الكثير من ارادوا تلبية الدعوة للحضور كانت التكاليف المالية لدفع نفقات السفر والاقامة. وكان من المقرر في البداية رفض التبرعات من اية جهة للحفاظ على استقلالية المؤتمر. ولكن الصعوبات تذلت بفضل تمويل تقدم به سيروس ايتون **Syrus Eaton** الذي وضع مزرعته في "بكواش" (نوبا سكوشيا) تحت تصرف المؤتمر وقدم تبرعات سخية في تأمين المال اللازم.

أهم قرارات المؤتمر الاخرى التوصية بعقد مؤتمرات أخرى عالمية يتم تناول القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ولا يتم حصر النشاط على علماء التخصصات العلمية الصرفة وقد تتالت هذه المؤتمرات خارج بوكواش واجتمعت في آراء العلماء من جميع انحاء العالم منها مؤتمر فينا في 20 سبتمبر/ ايلول 1958 الذي اصدر ما سُمي بـ "تصريح فينا"<sup>210</sup>

اعيدت فيه الدعوة الى وقف التسليح النووي، او التخفيض من معدلات انتاج اسلحة الدمار الشامل، والتحذير من المخاطر واحتمالات الفناء الشامل من تكديس الاسلحة النووية وغيرها من

<sup>210</sup> وقع على هذا التصريح عالم من كل من استراليا والنمسا وبلغاريا والدنمارك والمانيا الديمقراطية وهنغاريا وهولندا والنرويج ويوغسلافيا، كما وقع عليه اثنان من كندا وجيكوسلوفاكيا وايطاليا ز ثلاثة من الهند واربعة من فرنسا وخمسة من جمهورية المانيا الغربية واليابان وسبعة من بريطانيا وعشرة من الاتحاد السوفيتي وعشرين من الولايات المتحدة.

اسلحة الابداء. واكدوا بتفاؤل ايضا: (... ان النمو السريع لأهمية العلم في الشؤون البشرية يزيد من أهمية التفاهم المشترك. ان قابلية العلماء في العالم كله للتفاهم والعمل سوية، اداة ممتازة لسد الثغرة بين الامم ولتوحيدها حول اهداف مشتركة... اننا نؤمن بان العلم يستطيع ان يقدم احسن خدمة للانسان، اذا كان حرا، من مداخلة اية عقيدة تفرض عليه من الخارج،] هذه الفقرة من البيان وقع عليها جميع اعضاء الوفد السوفيتي العشرة] واذا فهو مارس حقه في مناقشة جميع المبادئ، بما فيها تلك التي يرتبط بها.<sup>211</sup>

#### 25-4 : الحقيقة العلمية...معايير العلم الاجتماعية:

العلم الحديث هو نتاج وثمره صلات الحضارات الانسانية، شملت اليونانية والعربية الاسلامية وصولا الى الاوربية، ولا يمكن قبول مقولات بعض المستشرقين من ان العلم الحديث مدين الى اليونان وان العرب لم يكونوا مجرد نقلة او مترجمين<sup>212</sup>.

القليل من الدراسات (ميرتن، وبن دافيد، وكون، ونيدم، وبينجمان نلسون) قد تكرست او تناولت سوسيولوجيا العلم المقارنة والتاريخية، وما عدا تلك الدراسات التي اهتمت بتاريخ العلم المقارن فقد درست في سياق ذلك بيناته الاجتماعية ومنها دراسة "روبرت ك. ميرتن" المعنونة "العلم والتكنولوجيا والمجتمع في انجلترا في القرن السابع عشر"، وهو الكتاب الذي لم ينشر الا عام 1938<sup>213</sup>. كما تناولت دراسة "جوزف بن دافيد" دور العالم، من حيث اصوله وتطوره ولكن الاخير اهل التاريخ الديني والقانوني التي تصف التراث الغني للعلم القروسطي الذي كان موجودا. ورغم انه عاد الى اليونانيين "ولكنه لم يشر ولو باشارة واحدة لطبيعة الممارسة العلمية وموقعها المؤسسي عند العرب في الالف سنة التي مرت بعد الحضارة اليونانية، ولهذا فإن تحليله لا يعطينا أي تفسير لانطلاق العلم المفاجئ في الغرب، بينما كانت النظرية والممارسة العلميتان بين العرب والمسيحيين واليهود في الحضارة العربية الاسلامية، ولا سيما في علم الفلك والرياضيات، تتفوقان تفوقا هائلا على الغرب حتى القرنين الثالث عشر الرابع عشر"<sup>214</sup>.

اما الباحثين من امثال "جوزف نيدم" و"بنجامين نلسون"، فانهم بعد ان القوا نظرة على حضارات اخرى على امل الحصول على فهم أعمق لنشأة العلم الحديث وتفرد الغرب، وجدوا من الضروري بحث أمور مثل فلسفات الطبيعة، ومفاهيم القانون، والقانون الطبيعي، فضلا عن التصورات الخاصة بالانسان وعقلانيته. وكلما تعمق المرء في هذه المسائل وفي كتب التاريخ

<sup>211</sup> رسل برتراند، مرجع سابق، ص 82 و 83.

<sup>212</sup> Crombie A. C., " Designed in the Mind, Western Vision of Science, Nature, and Human Kind ", History of Science 26, 1-12, (1988).

<sup>213</sup> Merton R., " Technology and Science in Seventeenth Century in England, The Journal for Scientific Study of Religion 14 , no. 1 , , p. 2-70, ( 1975).

<sup>214</sup> توبي أ. هف، فجر العلم الحديث، الاسلام، الصين، الغرب، عالم المعرفة، ص 63، الكويت، 2000

المتخصصة زاد اعجابه بقوة المفاهيم العلمية المحلية في الفترات السابقة وبإصالتها وحيويتها وزاد من احترامه للنجاحات الفكرية لشعوب العالم المختلفة، في المقابل أدرك ضخامة العقبات الاجتماعية والمؤسسية والاخلاقية التي اعاقته، وهي تعيق اليوم شعوب ومجتمعات متفتحة على العلم وتطوراته، ومنها لازالت تترجح تحت سلطات التخلف وتتوقف عندها عوامل التنمية والحراك الاجتماعي.

كتب ماكس فيبر منذ 1904<sup>215</sup> (... ان الاعتقاد بقيمة الحقيقة العلمي لا يستمد من الطبيعة؛ بل هو نتاج الثقافات نفسها)، وبعدها باكثر من ثلاثين عاما أضاف "ك. ميرتن" التعديل التالي: (... هذا الاعتقاد "بالحقيقة العلمية" ينتقل بسهولة الى الشك والانكار. ويكون خاضعا لمركب خاص من المسلمات الضمنية والضوابط المؤسسية. وما هو عندنا ظاهرة لا تحتاج الى تفسير ويثبت الكثير من القيم الثقافية البينة، كان في أوقات أخرى وما يزال في أمكنة عدة شادا غير شائع. وتتطلب استمرارية العلم مشاركة نشيطة من أشخاص يتصفون بالكفاءة ويهتمون بمتابعة الامور العلمية. ولكن هذا الدعم للعلم لا يتحقق الا اذا توافرت الظروف الثقافية المواتية).<sup>216</sup>

#### 4-26: حول المصير الانساني ومستقبل العلم والتقانة:

##### صورتان من النخب: قلق وجدل متنامي في صفوف النخب العلمية

الشرائح الاجتماعية التي تمتلك قوة السلطة، او قوة المال، او قوة الافكار تسمى النخبة. وهي بهذه القوى تؤثر في حياة الناس علي كل المستويات. والمتفقون هم الشريحة التي تستمد مكانتها من قوة الافكار.

وإذا كان الجهل بالآخر شكل سمة لدى أعضاء بعض النخب العلمية في الغرب، ويدفع هذا الجهل الى التعويض، بما يرضي الغرور الذاتي لأولئك الافراد من تلك النخب بأن سعوا الى وضع " أخلاقيات أيديولوجية محددة للعلم" ؛ أي محاولة أدلجة العلوم التطبيقية والاستنثار بنتائج المعرفة لصالح فئاتهم ومجتمعاتهم. ومنهم من يشير الى تحفظاته حتى في اشاعة العلوم وتوفير المعارف لكل البشرية، ومنهم من لديه تحفظات على تعليم العلوم الاساسية أو البحتة وتوجهاتها في إشاعة المعرفة لدى المجتمعات المختلفة.

انهم يرون في مناحي توفير فرص التربية والتعليم لكل الاطفال والشباب مجانيا ، وعلى حساب الدولة، إتجاها يجعل من المعرفة وتكويناتها الحديثة عاملا هاما قادرا على إزاحة وقلقلة مخزونهم الآمن من المعرفة ومواقعهم في صدارة العالم.

<sup>215</sup> Max Weber, The Methodology of the Social Science, New York, Free Press.p.110 ; New York,(,1949).

<sup>216</sup> Merton,"The Normative Structure of Science",in the Sociology of Science,p.254

وهم يطرحون دوماً، من خلال ايدولوجياتهم ، استحالة الاستغناء عن العلم والتقنية، وان التقنية تبقى حتمية في كل مجال من مجالات الحياة، حتى وان كانت في بعض نتائجها التطبيقية ضارة، أو ستقود، في بعض مباحثها، الى المغامرة بالمصير الانساني نحو المجهول.

ومنهم لا يضعون أذنا صاغية الى الاخلاقيات التي يجب أن تحكم البحث العلمي ونتائجه؛ لذا فهم يعيرون على بعض العلماء والنخب الانسانية الدعوة الى وضع معايير أخلاقية في البحث العلمي أو عند توسيع استخدامات التقنية في مجالات الحياة المختلفة دون رقابة أخلاقية صارمة، فهم ضد الدعوة لوقف التجارب النووية والجرثومية والكيميائية، ويمتنعون عن سماع الدعوات الى وقف التوسع في بناء المزيد من مفاعلات الطاقة النووية لانتاج الكهرباء أو تخزين المواد الاشعاعية على نطاق واسع والتي يمكن ان تسبب، في أي خطأ بشري أو تقني، في إحداث كوارث لا يمكن توقع نتائجها الوخيمة والمتوقعة مثل حادثة "تشرنوبيل".

ان هاجس النمو وتصاعده بمعدلات عالية في بلدانهم يجب ان يستمر في نظرهم حتى وان حصل ذلك لدى مجتمعات الثروة والرفاه وبقيت الملايير من البشر في الطرف الثاني من القرية الكونية من دون ماء صالح للشرب وكهرباء وغذاء يسد الرمق ورعاية صحية وطبية تليق بالانسان. وهم بذلك يجددون الدعوة الى "مالتوسية جديدة" وبأدوات ووسائل إبادة جديدة عبر أمراض وفيروسات مصدرة وحروب أهلية وفتن طائفية وحصارات اقتصادية وتقنين للمعارف وغيرها من وسائل الفتك والابادة البشرية.

من دون شك فان التكنوقراط يتضامنون مع بعضهم البعض ويمدون بعضهم البعض بالغطاء والحماية وفقا للحاجة. وحينما يخطأ أحدهم فانه يجد من المسوغات والمقالات والجدل الذي يحميه ويجنبه اية مسؤولية عن خطأه.

وهم يتآزرون حتى في مناحي اجتماعية كثيرة أخرى، قد لا تبدو واضحة دائماً لغير المراقب لحالتهم، منها وراثه المناصب وتبادلها وتوفيرها لبعضهم البعض وفق تدرج وتداخل المصالح؛ فكم من النخب العلمية الوطنية وفي العالم وقد قادها وتحكم بها أبناء منطقة أو طائفة أو دين معين؛ فأطفال التقنيين وأقربائهم في المركز العلمي أو التقني، قد يسمح لهم أن يتبعوا تخصص آبائهم وأقربائهم. وقد انتبهت الجاليات اليهودية في الغرب الى ذلك مبكرا فحصنت مواقعها بهدوء وتكتم وسرية وتسلمت الى كثير من النخب العلمية والتقنية والاقتصادية في العالم، بل وأستأثر العديد منهم على قيادة أغلب المراكز العلمية والتقنية المرموقة في هذا البلد أو ذاك. وهم بذلك يشكلون نخبة عالمية متماسكة، تمتد في السطوة والنفوذ من مواطنهم الاصلية وتنتهي في دولة الكيان الصهيوني.

وليس بالضرورة ان يكون ابن العالم أو التقني عالما أو تقنيا، لكن في جميع الاحوال كثيرا ما استفاد أبناء العلماء والتقنيين من المواقع الوظيفية والفرص التعليمية والعمل في وظائف المنظومة الارستقراطية التكنولوجية التي عمل بها آبائهم وأقربائهم أوفي ما جاورها من مؤسسات. صحيح ان التنمية بالتقنية أضحت أمرا لا يبدل عنه، لكن في جميع الاحوال لا بد من تكامل الحرية والديمقراطية والعدالة والتطور المتوازن لكل البشرية وتتوقف المصالح الانانية عن احتكار العلم والتقنية.

مذ ان لاحظ "كارل بوبر" شيوع التناقضات بين العلماء اقترح عليهم في عام 1981 مجموعة من "آداب المهنة"، وهو ما يطلق عليه هذه الايام "ميثاق شرف" او "صيغة إلتزام" يحاول افراد النخب المختلفة الإلتزام به. ان ادراك "كارل بوبر" لاهمية تكوين النخبة العلمية دعاه الى تصليب وحدتها من خلال الإلتزام بما يلي:

أولاً: حضر الوصاية على التفكير العلمي، حتى وان صدرت عن مختص.  
ثانياً: الاعتراف باحتمال وقوع العلماء في الخطأ بشرط تحليل الاخطاء والتعلم منها بدلا من التستر عليها.

ثالثاً: احترام المشتغل بالعلم لحرية الاخرين في النقد والاعتراف بحقهم في تنبيهه الى أخطائه، فذلك أدعى الى تصحيحها من الاكتفاء بالنقد الذاتي.

رابعاً: الا يكون اهتمام المشتغل بالعلم بتنبية الاخرين الى أخطائهم شاغلا له عن الانتباه الى أخطائه هو. يشعر اعضاء النخب العلمية بالفخر والسعادة بين اقرانهم من العلماء، رغم محاولة نفر منهم الى تشويه صورة منافسيهم. الا ان النشاط العلمي لا يتوقف ازاء المنافسة بين اعضاء النخب العلمية الوطنية منها والعالمية. ان طبيعة العلاقات بين العلماء واعضاء النخب والمجتمعات العلمية استرعت انتباه باحثوا "علم اجتماع العلوم" *Science Sociology* وفي مقدمتهم "روبرت ميرتون" **Robert Merton** المؤسس الفعلي لهذا العلم، ووفقا لما أوضحه "روبرت مرتون" فان جانبا كبيرا من العلم الحديث هو من صنع مجموعات بحثية أو تحالفات لكل منها شعارها العقائدي ولوائها الذي يظللها.

ومع تجاوزنا عن تلك الخلافات الداخلية المحدودة، فان النصف الاخير من القرن العشرين شهد وفاقا جماعيا ملحوظا بين بعض العلماء، هو أقوى ما انطبع في نفوس كل من هم خارج الوسط. كثيرا ما نسمع ان العلم يستطيع، او لا يستطيع، صنع هذا الشئ او ذاك؛ والمقصود بهذا بالطبع هم المشتغلون بالعلم.

ان رجال النخب العلمية هم جمع من رجل العلم الامثل، الذي يجب اولا ان يتجرد لرسالته، وان يتمتع برهافة الحس وحسن التصرف ويتحرى الكمال في الامانة والسخاء والتعاون، لكن

العلماء، ولأنهم بشر ليسوا دائما على مستوى مثل هذه المثاليات، ولهذا فهم عرضة للتأثر بما يغزو عالمهم من الخارج من تيارات سياسية ودينية واقتصادية، وهذا أمر ينبغي ألا يكون من زاوية العلم الانساني.

ورجال العلم اليوم يسلكون اسلوبا انتقاديا تجاه ما يسمونه هم انفسهم: سطحية البرامج الاختزالية، والطغيان الاعمى للمحاولات التي تهدف الى اِضفاء صبغة بيروقراطية على العلم، اضافة الى الانجذاب نحو التخصصات العلمية الدقيقة وما ينتج عنه من تفكير او اضعاف لنظرتنا العامة الى العلم وتدهور مخيلتنا المبدعة، ثم تسلط " العلم الكبير " على " العلم الصغير " وسيادة عدة أمراض وسلوكيات يشيرون الى وجودها في الميدان العلمي المعاصر.<sup>217</sup>

ان للعلماء تقاليدهم وقيمهم الخاصة التي قد يتعلمها الواحد منهم من زميل أعرق في المهنة والاختصاص يتخذ منه قدوة له؛ ومن هذه القيم: الاعتراف بالريادة لمن سبق الى كشف معين ولو كان من المتنافسين والعالم الصالح لا يكتفي بالحرص على حقوق السبق الخاصة به وحده وانما هو ايضا حريص على الاعتراف بالسبق لمن ارتادوا مجال تخصصه قبله، بل والاقرار بالتبعية لهم مهما عرضه ذلك لما يززع مكانته.

الغش ليس احتمالا واردا في دنيا العلم، لان أي تلفيق في البيانات سيكشف عاجلا او آجلا، وعندئذ تحل بداية النهاية لمرتكب هذه السقطة؛ والتناقض بين القول والعمل سقطة اخرى قد تكون اكثر انتشارا. وعلى اسس من التقاليد الصارمة نشأت وتطورت وتميزت النخب العلمية عن غيرها من النخب.

هذا الوفاق ينعكس بصورة جيدة فيما يمكن ان نسميه " عالمية العلم ". لقد تقاربت كثير من النخب العلمية في اهتماماتها العلمية والانسانية المشتركة<sup>218</sup>.

. ساهمت اللغة الانجليزية المشتركة في ان تصبح لغة تفاهم بين العلماء والنخب؛ ففي فرنسا والمانيا واسكندنافيا اصبحت المجالات تنشر موضوعات بالانجليزية، بل ان أي مشتغل بالعلم عندما يسافر الى غير وطنه، اصبحت لا يحس بالغربة بين زملائه من اهل البلد الذي انتقل اليه. وفي الوقت الحالي تنشر في بعض المجالات العلمية موضوعات عديدة اشترك في تأليفها افراد من جنسيات مختلفة، على عكس ما كان شائعا منذ قرن، عندما كان للمؤلفات العلمية طابع قومي واضح.

ان قادة النخب والفرق العلمية الوطنية منها والعالمية حققوا انجازات علمية مرموقة معروفون بالطموح وكثير منهم يعمل الساعات الطوال يوميا(خصوصا في مرحلة معينة من مسيرتهم وتكوينهم العلمي)، ومع ذلك فان سيرتهم الذاتية تعكس اهتماماتهم الثقافية المتنوعة، فمنهم كتاب

<sup>217</sup> شابيين، س.، مامعنى ان نكون مناهضين للعلم ، مرجع سابق ، العدد 1، ص 112-125).  
<sup>218</sup> حركات مناهضة الحرب والاسلحة النووية والقلق حول اخلاقيات البحث العلمي... الخ.

وشعراء وموسيقيون، والكثير منهم منفتحون على المجتمع، وفيما عدا ذلك فهم مختلفون كغيرهم من فئات البشر والنخب الأخرى، فبعضهم منفتحون على المجتمع وبعضهم انطوائيون، بعضهم غزير الانتاج، بينما يقتصر انتاج البعض الآخر على قليل من الكتب والنشرات العلمية. وعلى العموم لا توجد قاعدة عامة مشتركة تصلح للتعميم على شخصية افراد النخب العلمية سوى انهم يولون اهتماما كبيرا لاختصاصاتهم ومجالات بحثهم .

## الفصل الخامس

### 5 - الغرب، الإبادة و الحروب

#### الاستعمار والاستيطان

(الأوربي لم يستطع ان يكون انساناً الا من خلال خلق العبيد والوحوش)

" جان بول سارتر "

#### 5 - 1: مدخل تمهيدى:

ليس من السهل تناول هذا الباب بعنوانه الواسع من دون مرجعية واضحة، طالما ان الخطاب العربي المعاصر لازال محكوماً، في الغالب، بمرجعيتين:

الاولى: النموذج عن الذات المنطلقة من كوامن الانا وحرقتها بالانسحاق ودمارها الشامل. وخطابها، بلا شك مأزوم في أكثر مناحيه الفكرية. نعترف، بلا شك نحن ننتسب الى امة لا زالت مأزومة بفقد ماضيها، وغيابها عن حاضرها، ضائعة من ركب مستقبلها. وليس هذا الخطاب ممارسة لجأ ذاتي، بقدر ماهي محاولة لمراجعة أشمل لاستيحاء الحل المطلوب، زمانيا ومكانيا، ووفق منظور علمي - تقني صرف يتطلع نحو مستقبل انساني مجهول كمستقبل امتنا.

الثانية: هي ان الآخر "الغرب" يفرض حضوره وخياراته ويمتلك "أناه" بقوة فاعلة، حدثية المنحى والمسار، وهو الذي يمتلك العلم والتقانة، ولا يمكن تناول اشكاليات العلم والتقانة والحدثية والمستقبل بعيدا عن تأثيرات منظوره ومنظومة أفكاره وقيمه العقلية منها والعبثية<sup>1</sup>. وأمام هذا وذاك، ولا بد من عملية تفكير جادة لا تتم الا داخل مخبر ثقافة معينة، ومنظومة مرجعية تتشكل إحدائياتها من محددات ثقافة إنسانية، مشتركة يشكل العلم والتقانة أهم مشتركاتها الاساسية، من خلال النظرة الإنسانية الى مستقبل العالم، والموروث الثقافي والمحيط الاجتماعي، وتلك هي

النظرة الى المستقبل البشري المشترك؛ نظرة الى الكون والانسان معا، كما تحددتها محددات الثقافة المشتركة، في عالم لم يعد الفصل بين مكوناته أمرا سهلا. لم يعد هناك مهربا من تمازج المرجعيات دون انتقائية مُتَقَصِّدة، فلا إستلاب وإنبهار بالآخر، ولا إعتبار لمرجعيته، كفكر

<sup>1</sup> توملينسون جون، العولمة والثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان، عالم المعرفة، العدد 354، ص 127. الكويت، (2008).

وكنموذج حضاري، ولا في فلسفة وعلم، الا بنسبية حذرة وصارمة الوعي، ولا سيما عند تبني المناهج الحدائيه في البحث والتحليل والاستنتاج.

لابد من رفض البقاء في سجن الماضي، وغلق باب النجاة المفتوح أمامنا دائما للخروج من حلقات التخلف المتشرنقة حولنا، متمركزة في أعماق ذواتنا.

طالما خاض العلم صراعه الطويل مع كل الموروثات والأوثان حتى توصل الى الفكر الحديث وراهنيته الخلاقة، وحرر العقل من أوثان الماضي لكي يحقق البشر المنجزات الحضارية الكبرى والمنتظرة، والقناعة بوحدة الوجود والمستقبل الانساني<sup>2</sup>.

ان الأيديولوجيات الضيقة كلما حاصرت هذه الوحدة " وحدة الوجود والمستقبل " دفعت العقل الى المزيد من الانعتاق من سلطة العقل المجتمعي، وحفزت استعدادات العقل المُنفَعِل للانفعال الايجابي والتغيير لكي يأخذ دوره في مشاركة العقل الفاعل في بناء الحضارة الانسانية.

و بقدر ما كان التاريخ الأوربي والغربي الحديث لامعاً بالعقلانية والتنوير، وحرية الفكر، والديموقراطية، والدعوة الى المساواة ورفض الظلم الانساني، وحل مشكلة نقل السلطة وتداولها السلمي، وحرية المرأة النسبي، وتطور الثورة العلمية التكنولوجية، والدعوة الى التسامح الثقافي والديني، والايمان بالتعددية، وتحرير آليات النقد الاجتماعي، التي ترى: أن ليس هناك حقل أو مؤسسة أو شخص فوق النقد؛ الا ان ظلال المظالم الكبرى التي أفرزتها العقلية الأوروبية تحثنا على التذكير بها طالما ان الغرب لم يحرر نفسه بعد من عقده المستدامة<sup>3</sup>.

وبقدر ما تخلصت أوروبا من الوثنية السياسية وعبادة الفرد، بقدر ما كانت تَرَكَتْها المتوارثة عن قرون من التطرف، لازالت، تشكل عبئا وميراثا أسودا لا يمكن للبعض ، في الشرق أو الغرب، من تجاوز الكثير من عقده الباقية والمترسبة عن عهود من تاريخ ظلامي، استعماري، كان مروعا ومثقلا بحجم خرافي من الجرائم التي، ربما، لم تمارسها أمم من الأمم الاخرى، عاشت خارج القارة الأوروبية والولايات المتحدة كإمتداد سكاني أوربي، في عصورنا الحاضرة، وخاصة ما بعد عصر التنوير والحداثة وما بعدها. هذا في الوقت نفسه، لايمكن تجاهل أسباب التنافس والبغضاء والاطماع ذات الطابع الاقليمي والديني بين الامم المسيحية الغربية نفسها، وهي ظلت في تناحر وحروب مستمرة فيما بينها، وبينما حدثت حروب أخرى مع غيرهم من الامم ، كالمسلمين في الحروب الصليبية، وبين الأمم الأخرى كحروب المغول وحضارات الهند الهندوسية القديمة، إلا أن عامل السلاح والإبادة الجماعية إتسع على نحو مرعب.

<sup>2</sup> العبودي، مستقبل الحوار الحضاري ، مرجع سابق، مدونة العبودي،  
<sup>3</sup> شونو بيير ، الحضارة الاوربية في عصر الانوار، دار كنعان للدراسات والنشر، ، عدة صفحات، دمشق،(2003).

## 5 - 2: إرث الغرب في الإبادة والغزو الإستعماري الدموي:

أقام الغرب حضارته المعاصرة، ولا زال يبشر بعصور الانوار والديمقراطية وحقوق الانسان، ورغم أنه مر أيضا بمراحل وممارسات تاريخية وَسَمَت أخلاقياته بالدموية والحروب والغزو والاستعمار والاستيطان، والتهور في تقرير مصير الجنس البشري، إلا انه لم يتخلص بعد من عقده تلك حتى اليوم. تجلت ممارسات الغرب بفصول دموية عدة أبرزها:

(1) محاكم التفتيش والتطهير الديني في "هولوكست الاندلس".

(2) الحروب الصليبية.

(3) سياسات الغزو والاستعمار، وتعريض الشعوب والامم الى الابادات والمجازر الدموية

تجلت في مناطق ومحطات عدة تمت فيها:

(أ) إبادة الملايين من البشر والكائنات الحية، ودمار المحيط الحيوي في حملات نهب

واستعمار، وصفت من قبل بعض مفكري الغرب بأنها كانت: "رسالة تحضر قام بها الغرب".

(ب) تفرغ قارات بأكملها "أمريكا وأستراليا" من سكانها، وتدمير مكونات هامة من

حضارات الارض، والقضاء على ثقافات محلية متنوعة.

(ج) تدمير مكونات المحيط الحيوي للانسان، والإستنزاف المفرط لثروات الأجيال، وإشاعة

التلويث الشامل على الكوكب الارضي.

(4) إشعال الحروب العالمية، وإستخدام وإبتكار وتطوير أسلحة الدمار الشامل بغرض إبادة

الآخر.

(5) إبادة ملايين البشر، تحت ظل تسعير الخلافات الفكرية والعقائدية أثناء سيادة الأنظمة

الشمولية والدكتاتوريات، وتسلط الرأي الواحد وأنماط الحضارة الوافدة.

(6) محارق النازية، وقمع المكارثية وظهور مسارات التطرف الممثلة في الاصوليات

المسيحية واليمين المتطرف في العديد من دول الغرب.

## 3-5 : من محطات الإبادة :

كثيرة محطات تنفيذ هذا الميل الدموي بدأ منذ محاكم التفتيش والتطهير الديني تجلت في إبادة

المسلمين في الاندلس مروراً بـ "هولوكست الاندلس" الى غزو الامريكيتين وأستراليا وأفريقيا الى

محاكم التفتيش **Inquisition** أسسها البابا " انوسنس الرابع **Innozenz IV** " عام 1252م،

وبقيت تعمل لمدة خمسة قرون، أرسلت خلالها الى المحرقة والعذاب والتهجير القسري ملايين

البشر، منهم مليون امرأة، منها والدة الفلكي المشهور "يوهانس كبلر **Kepler** " وقد انقذها من

الموت بإعجوبة<sup>4</sup>. وتتفاوت الأرقام والإحصائيات عن عدد ضحايا فرق التفتيش ممن قتلوا بأشع وسائل التعذيب. ورغم تفاوت الأرقام المسجلة، فإنها بلغت حجماً إجمالياً يرتفع إلى مستوى "الإبادة الإنسانية" كما تعكسها إحصاءات الموسوعات وسجلات المؤرخين. ومنها موسوعة الويكيبيديا الحرة. موقع الموسوعة الحرة<sup>5</sup>.

في القرن الثالث عشر، قام البابا بتسليم مهمة محاكم التفتيش للدومينيكانين، فقام المحققين بالعمل "باسم البابا والإستخدام الكامل لسلطته"، فإتبعوا إجراءات للتحقيق كانت شائعة في ذلك الوقت، كانوا يحاكمون "المهرطقين" عن طريق السلطات المحلية التي كانت تؤسس المحاكم لتقاضي "المهرطقين".

وفي نهاية القرن الخامس عشر، كانت محاكم التفتيش يترأسها من يسمى "المفتش الأعظم". وإستمرت على تلك الأحوال في ممارستها حتى القرن التاسع عشر<sup>6</sup>.

أفزع ما في فصول الظلاميات الأوروبية يبقى تأريخ محاكم التفتيش باستخدامها كل وسائل التعذيب والقهر الإنساني، ومنها حرق الناس أحياءً بسبب آرائهم ومعتقداتهم الفكرية والعلمية والدينية<sup>7</sup>. كان حرق الناس من أجل آرائهم ليست أفكاراً من بنات الخيال أو " فبركة تاريخية مضادة" أثارها البعض ضد المؤسسة الكنسية الأوروبية. هناك مئات الآلاف من الناس أنهوا حياتهم فوق أكوام من القش والخشب الملتهب، وماتوا في أشنع صور من التعذيب السادي حتى الموت. تلك جرائم لا يمكن تصورها، وهي التي دفعت العالم "غاليليو غاليليو Galilie Galileo"<sup>8</sup>، "رأس الحداثة وعصر التنوير الأوروبي" عام 1633، على حد وصف الفيلسوف البريطاني برتراند رسل، اضطر أن يفقد جرأته الأدبية وقناعته العلمية أمام ألسنة النيران الراقصة، معلناً التراجع عن معتقداته العلمية الصائبة، ليركع خاشعاً أمام الترهيب بالموت حرقاً، ويدون ما أملاه عليه الرهبان بكلمات حزينة وذليلة، وبالاعتراف الكامل لهم، "أنه كان في ضلال مبين".

وإضافة إلى "غاليليو"، مثلوا أمام محاكم التفتيش الفيلسوف الإيطالي "جيوردانو برينو" والفيلسوف ميشيل سيرفيه والعالم الفلكي "كوبرنيكوس" (القائل بدوران الأرض حول الشمس)،

<sup>4</sup> كيلر يوهانس (1571- 1630) عالم رياضيات وفلك ألماني عمل استاذاً للرياضيات في جنوب النمسا، ولم يلبث أن هاجر إلى براغ نتيجة الاضطهاد الديني للبروتستانت. وبفضل قوانينه الثلاث حول حركة الكواكب تمكن اسحق نيوتن من صياغة قانون الجاذبية العام.

<sup>5</sup> <http://ar.wikipedia.org>

<sup>6</sup> [http://es.geocities.com/historalia/consejo\\_de\\_inquisicion.htm](http://es.geocities.com/historalia/consejo_de_inquisicion.htm)

<sup>7</sup> باجنوديز جاكين مارتان: محاكم التفتيش، الأسطورة والحقيقة، ص 97 وما بعدها باريس، (1992).

<sup>8</sup> Galilie Galileo. غاليليو غاليليو رياضي وفلكي ومخترع إيطالي (1564 - 1642) تعرض لاضطهاد الكنيسة بسبب تعارض آراءه وإبتنتاجاته العلمية التي قطع بصحتها مع نظرة الكنيسة الدينية إلى الكون. ادخل إلى السجن وهدد بالموت حرقاً.

الذي لم ينج منها إلا بسبب حذره الشديد. فقد أجل نشر كتابه الذي يحتوي على نظريته الجديدة حتى يوم وفاته بالضبط!. ولكن الحظ الخائب كان مع "جيوردانو برينو" الذي هرب من إيطاليا بعد ان انخرط في سلك الرهبنة لفترة من الزمن، وبسبب من تعلقه بالافكار الفلسفية وتبنيه لنظرية كوبرنيكوس المدانة من قبل البابا ، فانهم راحوا يشتبهون به ويلاحقونه، وعندئذ اضطر للفرار والعيش متنقلا بين فرنسا وسويسرا وإنجلترا وألمانيا. كان يشتغل استاذاً في جامعات هذه البلدان التي مر بها. وإشتهر بالتفوق والنبوغ العلمي، بل واستبق في الكثير من النظريات الحديثة التي ثبتت صحتها فيما بعد.

وبعد ان غاب سنوات طويلة عن بلاده وشعر بالحنين اليها استدرجه أحد التجار الاغنياء من البندقية. وطلب منه العودة لتعليم اولاده والعيش بأمان في بلاده إيطاليا، ولكنه سرعان ما غدر به وسلمه إلى محاكم التفتيش في الفاتيكان. فقطعوا لسانه واحرقوه. اصبح "جيوردانو برينو" منارة مشعة على مدار التاريخ الاوروبي. إن التاريخ يحفظ لنا مثل هذا الحدث وغيره، وكما حصل مع المفكر الإيطالي "جيوردانو برونو" الذي شوي هو الآخر على النار، في 17 فبراير عام 1600 ميلادي، في افتتاحية متناقضة " مشؤومة " للقرن السابع عشر، "قرن التنوير". حصل أيضا للفيلسوف ميشيل سيرفيه الذي أحرقه حيا في جينيف بتهمة التشكيك بعقيدة التثليث، (وهي من العقائد الاساسية في المسيحية). فبمجرد ان شكك بصحتها، ألقى وقودا للنيران، ولم يشفع له علمه ولا فلسفته ولا انسانيته<sup>9</sup>.

أشعلت النار جسد "برونو" المحترق بروح تعصب القرن في وجهته الكنسية. لأنه رأى: أن مفهوم مركب الأقانيم الثلاثة **Trinity** لا يتوافق مع نظام كوني فسيح أكبر من تصورات الكنيسة، وان معتقدات الكنيسة المتحجرة أحدثت شرخاً بين الإيمان والعلم، وخلفت ظلالها الكئيبة على كل العقل الإنساني. فأصبح العقل والدين في تضاد ونقيض وتنافر؛ بل في حروب قادت كل منها الى حروب أخرى.

<sup>9</sup> باجنوديز جاكين مارتان، مرجع سابق، ص 97 وما بعدها.  
محاكم التفتيش **Inquisition**، ديوان أو محكمة كاثوليكية نشطت خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مهمتها اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم. استُخدمت بشكل عام لمحاكمة المهرطقين بواسطة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وكان ذلك من خلال محاكمات إكليريكية أو المحاكم التي كانت تقيمها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لقمع أو مكافحة الهرطقة، وكانت مهمتها اكتشاف "السحرة" ومعاقبتهم حيث قامت محاكم التفتيش بحرق 59 امرأة باسبانيا، 36 بايطاليا و4 بالبرتغال، بينما قامت محكمة القضاء المدني الأوروبي بمحاكمة 100 ألف امرأة، 50 ألف منهم تم حرقهم، 25 ألف بألمانيا خلال القرن السادس عشر بواسطة أتباع مارتن لوتر وكانت سلطة محاكم التفتيش على أتباع الكنيسة من المعمدين فقط، والذين كانوا يشكلون الغالبية من السكان، لكن كان ممكناً لغير المسيحيين أيضاً أن يحاكموا بتهمة سب الدين.

<http://www.crisismagazine.com/october2001/feature1.htm>

وكان استخدام وسائل التعذيب في حق من كان يُظن أنه من "الهرطقة" أمر مألوف كاسلوب بشع للعقاب من قطع أوصال وحرق الناس أحياء، فوصلت الأعداد التي تم تعذيبها ثلاثمئة ألف من البروتستانت ومئة ألف بلغاري وفرنسي وأرثوذكسي.

وعندما شق العلم طريقه، ولم يعد ينحصر في "اصول فقه وتفسير" كما اراده اللاهوت الكنسي الاوربي وغيره؛ ذهب أبعد من حدود تلك المعتقدات والغيبيات التي كانت سائدة ورافضة للتغيير. بدأ العلم يفتح على الكوسمولوجيا والانثروبولوجيا "علوم الفلك والانسان" وسواها من الاختصاصات الاخرى، ويضمها متفاعلة الى رصيده المتنامي. لكن الكنيسة قامت بخطيئتها التاريخية عندما رسمت في علاقتها مع العلم والتقنية صراعاً وإشكالية من منظور لاهوتي، لم يتحرر منه العقل الانساني أو يتعافى من رواسته لقرون عدة، وما زالت الكثير من آثاره شاهدة حتى اليوم.

ظل البابا "لاكتانتانيوس" يضحك على كل من يرى ويعتقد بكروية الأرض ودروانها، ويتساءل متهمكاً: كيف لا يسقط الناس ممن هم في الاسفل؟! وظل على جهالته في الوقت الذي كانت أوربا تطارد القبط، وتحرق الساحرات والكتب في الساحات العامة، وتعالج السعال الديكي بحليب الحمير.

#### 5-4 : هولوكوست محاكم التفتيش في اسبانيا: "هولوكوست الاندلس":

سقطت غرناطة، آخر قلاع المسلمين في إسبانيا- شتاء (897 هـ/1492م)، بعد معركة باسلة خاضها المسلمون<sup>10</sup> ، وابتدأ عذاب فكري جديد تولته اسبانيا بشكل رئيسي، مطالبة بالاقتصاص ومطاردة الهرطقة، فأعطاها البابا "سيكستوس الرابع Sixtus IV" الضوء الأخضر، وبدأ الحريق المريع للتعصب الديني المسيحي، إجتاح اسبانيا أولاً، دشنه راهب دومينيكاني، ضيق الأفق هو "الفونسو دي هوخيدا Alfonso de Hodjeda" ، وابتدأت معه نيران المحرقة تاكل أجساد "اليهود الهرطقة المرتدين" ( Conversus )، وعلى الشكل الذي أظهرته مقدمة فيلم " كولومبوس " . وقبلها شهدت اشبيليا بتاريخ 6 فبراير 1481م وبمناسبة عيد " مسرح الإيمان "، أو ما يسمى Autofade تم شوي ستة من الضحايا من أولئك الموصوفين بـ "الهرطقة" على النار. ولم يطل عام 1490 م حتى كانت المحرقة قد التهمت أجساد أكثر من 400 من "الهرطقة" الآخرين.<sup>11</sup>

وبعد وفاة فرناندو الخامس ملك إسبانيا في (17 ذي الحجة 921 هـ/23 يناير 1516م) أوصى حفيده شارل الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة واختيار المحققين الذين وصفو أنهم من (... ذوي الضمائر الذين يخشون الله لكي يعملوا في عدل وحزم لخدمة الله، وتوطيد الدين الكاثوليكي، كما يجب أن يسحقوا طائفة محمد). ومن هؤلاء الذين تسلطوا على أمر المسلمين وغيرهم من ضحايا محاكم التفتيش القس "فرناندو". وقد لبث " فرناندو" زهاء عشرين عامًا بعد سقوط الأندلس ينزل

<sup>10</sup>. إيرفينج واشنطون ، سقوط غرناطة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 463. الجزائر، (1988).

<sup>11</sup>. [http://www.infidels.org/library/historical/robert\\_ingersoll/spain\\_and\\_spainiard.html](http://www.infidels.org/library/historical/robert_ingersoll/spain_and_spainiard.html)

العذاب والاضطهاد بمن بقي من المسلمين في أسبانيا، وكانت أدواته في ذلك محاكم التحقيق التي أنشئت بمرسوم بابوي صدر في (رمضان 888 هـ/ أكتوبر 1483م) وعين القس الدومينيكاني "توماس دي توركي مادا Thomas De Torquemade" محققاً عاماً لها والذي ووضعت دستوراً لهذه المحاكم الجديدة وعدداً من اللوائح والقرارات. قفزت الى الواجهة هذه الشخصية المرعبة التاريخية التي لازالت المخيلة الجماعية ترتجف منها هو الذي أحرق في عام واحد ، (عام 1481 م) ما يقارب 12000 "اثني عشر ألفاً" من اليهود " بتهمة أنهم رفضوا التعميد والتمسح".

تتابع المسلسل الدموي في طريقه المرعب، فكان يلقي القبض على كل من " تُشَمُّ منه رائحة النظافة" فهو في استنتاجهم، "لا شك كان يتوضأ"، وكل امرأة صبغت يداها بالحناءة "باعتباره تقليداً إسلامياً لزينة المرأة فهي مسلمة"، وإذا كان في تاريخها أن جدها الرابع كان مسلماً، فهي لاشك كانت تحن الى دين آباءها.

نشط "ديوان التحقيق" أو "الديوان المقدس" الذي يدعمه العرش الاسباني والكنيسة في ارتكاب الفظائع ضد الموريسكيين "المسلمين المنتصرين"، وصدرت عشرات القرارات التي تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم، فقد أحرق الكردينال "خمينيث" عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية، وصدر أمر ملكي يوم (22 ربيع أول 917 هـ/ 20 يونيو 1511) يلزم جميع السكان، الذي تنصروا حديثاً، أن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم، ثم تتابعت المراسيم والأوامر الملكية التي منعت التخاطب باللغة العربية وانتهت بفرض التنصير الإجباري على المسلمين،<sup>12</sup>.

يرى "لوي كاردياك"<sup>13</sup> : (...ان الاهانات التي يلحقها المسيحيون بمحمد والقرآن والاسلام متماشية في نفس اتجاه الصراع ضد الاتراك، وهي تعكس صورة من النزعة الانتصارية الساذجة والمتولدة من الانتصارات الاخيرة لحركة الاسترداد).

ظلت قضايا التحقيق تهز الوجدان وترتجف بالحياة و(...انه من الصعب على موريسكي وسيدة مسيحية من سلالة عريقة ان يتعايشا معا تحت سقف واحد ولو كانا متحدين برباط الزواج، ذلك ان الجانب المسيحي يعرف جيداً المعتقدات السرية لقرينه، وسوف لا يتردد تحت ضغط دواوين التحقيق الاخلاقي أن يكشف عن جريمة الكفر)<sup>14</sup>. لقد خشي الموريسكيون لقرون طويلة حتى من

<sup>12</sup> هارفي ليونارد باتريك- تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي. (دراسة في كتاب الحضارة العربية في الأندلس التي أشرفت على إعدادها الدكتور سلمى الخضراء الجيمي)، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، عدة صفحات. (بيروت -1419-1998).

<sup>13</sup> كاردياك لوي ،، الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، ص 17. الجزائر، (1983).

<sup>14</sup> كاردياك لوي، الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، ص 17. الجزائر، (1983).

اطفالهم كي لا يسقطوا تحت قسوة محاكم التفتيش وعيونها، وكم هي الوشايات جاءت من الجيران والاصدقاء بعد نقاش أو اصطياذ هفوات اللسان، لذا طبق الموريسكيون قانون الصمت حماية لانفسهم من مزالق الحديث والتهم الجاهزة امام محاكم التفتيش، وخصوصا "تهمة الارتداد الى دين محمد" فالحرق والشنق العلني وارقامهما تسود قوائم الاحكام و تاريخ الاسبان الاسود بعد "استرداد الاندلس".

الارقام لم تمس فقط الموريسكيين من العرب المسلمين فقط؛ بل شملت ايضا اشخاصا آخرين، من ذلك نورد مثالا بسيطا من عينة واحدة كان من بين 48 "شخصا تم إحراقهم " خلال عملية تنفيذ بالحرق سنة 1560، 22 ضحية بسبب يهوديتهم، و 12 بسبب اسلامهم، و 5 بسبب لوثيريتهم ، و 7 بسبب تعدد زوجاتهم و 2 بسبب الشتم الصادر عنهم. ومن بين 17 شخصا من عينة أخرى، احرقوا سنة 1563 كان من بينهم 16 بسبب يهوديتهم وواحد فقط بسبب الاسلام. غالبا ما تكون التهم جاهزة، بغض النظر الى التدين من عدمه، وصارت التهم المستفزة تهدف الابتزاز المالي ولنهب ثروات الموريسكيين، ومصادرة الاملاك والارزاق لسد نهم رجال الكنيسة، والوقوع تحت طائلة التهديد بالطرد سواء تعمدوا أو حضروا قداس الكنائس أم لا.

ظلت بقاياهم في اسبانيا، وأضحت وضعيتهم تثير الفزع، وتحكي عن نهايات مأساوية مروعة. وبقيت اخبار المجازر الجماعية متكتم عليها حتى اليوم رغم تناقلها من جيل الى جيل طوال خمسة قرون ونيف. شاعت الاقذار في عام 1980م أن أذاع التلفزيون الألماني خبراً مرعباً عن اكتشاف ألف جثة وجدت في سرداب سري في أقبية كنيسة مهجورة في مدينة طليطلة " توليدو " **Tolido** واكتفى التلفزيون الألماني بالتعليق: انهم" من بقايا حكم المسلمين في الاندلس" لا غير؟؛ ولكن الحكومة الاسبانية سارعت، كعادتها، الى إغلاق الملف بسرعة، وغلقت مصادر تسريب الخبر؛ كي لا يثير أي ضجة عن نزع الغطاء عن ذلك التاريخ الهجري الدموي المرعب لممارسات محاكم التفتيش، التي برعت فيها اسبانيا وفاقت الجميع<sup>15</sup> .

كل مسلم اعتنق المسيحية تم التدقيق عنه: هل يشرب الخمر أم لا؟ هل يصلي خفية؟ هل يحرك إصبعه بالشهادة؟ هل تتمم شفثاه باستغفار أو تسبيح؟ هل يعف عن تناول لحم الخنزير؟ ... الخ من تلك الشبهات الكافية للإدانة والموت أو التهديد بالترحيل او دفع الإتاوات والتنازل عن الأملاك. استمرت رحلة الموت البطيء ما يزيد عن قرن كامل، حتى عام 1609 م ولم يقتنع الاسبان بجدوى أي أثر للتراجع عن الإسلام، و حتى إظهار التنصر، وممارسة شعائر المسيحية،

15 المزيد تراجع أعداد من جريدة الرياض السعودية 11091 و11098 و11105 بتاريخ 12 و19 نوفمبر 98، وكذلك مجلة الشبيجل العدد 23 \ 98 ص 74 - 91 . إضافة الى :  
عنان محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة، القاهرة (1408هـ/1987م).

من رسم علامة الصليب، والذهاب الى الكنيسة... الخ؛ حتى صدر "فرمان " الملك فيليب الثالث بترحيل 40% من "الشعب الاسباني"، خلال ثلاثة أشهر، أي حوالي "ثلاثة ملايين من أصل ثمانية ملايين ". كانت محاكم التفتيش وسيلة ملوك أسبانيا الصليبيين لتطهير أسبانيا من الكفرة [و يقصد المسلمين]. و ذلك برغم المعاهدة الموقعة منهم. ولكن حتى هذا الحل لم ينجح كلياً في حل المشكلة الإسلامية في اسبانيا فكان ان لجأوا إلى الطرد الجماعي. صدر مرسوم في (16 جمادى الأولى 931 هـ=12 مارس 1524م) يحتم تنصير كل مسلم بقي على دينه، وإخراج كل من أبى النصرانية من إسبانيا، وأن يعاقب كل مسلم أبى التنصر أو الخروج في المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة، وأن تحول جميع المساجد الباقية إلى كنائس.

ففي عام ( 1609- 1610) تم طرد ما لا يقل عن (275,000) مسلم إلى البلدان الإسلامية المجاورة كالمغرب وتونس والجزائر؛ بل وحتى الى بعض البلدان المسيحية الأخرى. وهكذا تم إجثاث المسلمين في الأندلس في واحدة من اكبر ممارسات (التطهير الديني) و العنصري أيضاً لأن الاندلسيين المورسكيين " الأندلسيين الذين تنصروا" لم يسلموا من الأذى أيضاً رغم تنصرهم<sup>16</sup>. يكفي ما سطره "غوستاف لوبون" في كتابه "حضارة العرب" عن محاكم التفتيش: (... يستحيل علينا أن نقرأ دون أن ترتعد فرائضنا من قصص التعذيب و الاضطهاد التي قام بها المسيحيون المنتصرين على المسلمين المنهزمين ، فلقد عمدوهم عنوة، و سلموهم لدواوين التفتيش التي أحرقت منهم ما استطاعت من الجموع. و اقترح القس "بليدا" قطع رؤوس كل العرب دون أي استثناء ممن لم يعتنقوا المسيحية بعد، بما في ذلك النساء و الأطفال، و هكذا تم قتل أو طرد ثلاثة ملايين عربي). قتل الراهب "بليدا" في قافلة واحدة للمهاجرين قرابة مئة ألف من الضحايا، وفي كمائن نصبها مع أتباعه. و كان "بليدا" يطالب بقتل جميع العرب في أسبانيا، بما فيهم المنتصرين، و حجته أن من المستحيل التفريق بين الصادقين والكاذبين، فرأى أن يقتلوا جميعاً بحد السيف، تاركاً يحكم للرب أن يحكم بينهم في الحياة الأخرى، فيدخل النار من لم يكن صادقاً منهم.

يقول " غوستاف لوبون" ايضاً: ( الراهب "بليدا" أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من 140 ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى إفريقيا). وكان "توماس توركوما دا"، وهو رجل دين منتسب للمسيحية يرأس هيئة التفتيش للبحث عن هؤلاء "الهراطقة" ، فيقوم بوعظهم وتعذيبهم وقتلهم؛ إن لم يعودوا إلى كنف الكنيسة الكاثوليكية. وكان يسمى بالمفتش العظيم، أو "جراند إنكويستر"، وكان يعدم واحداً على الأقل من كل عشرة أشخاص يمثلون أمام محكمته بأسلوب خجلت منه حتى الكنيسة الكاثوليكية واعتذرت عنه للعالم.

<sup>16</sup> عنان محمد عبد الله، الحرجع السابق. عدة صفحات..

و يكفي ما أشار اليه "غوستاف لوبون" في كتابه "حضارة العرب" حيث يقول عن محاكم التفتيش: ( يستحيل علينا أن نقرأ دون أن ترتعد فرائضنا من قصص التعذيب و الاضطهاد التي قام بها المسيحيون المنتصرين على المسلمين المنهزمين، فلقد عمدوهم عنوة، وسلموهم لدواوين التفتيش التي أحرقت منهم ما استطاعت من الجموع. و اقترح القس "بليدا" قطع رؤوس كل العرب دون أي استثناء ممن لم يعتنقوا المسيحية بعد، بما في ذلك النساء و الأطفال، و هكذا تم قتل أو طرد ثلاثة ملايين عربي). و كما يقول المثل الروماني "الويل للمغلوب"، أو كما يشير احد المؤرخين " الى اختفاء حجة من يغيب عن مسرح الأحداث" ؛ فالموتى الراحلون، لا يتكلمون، وبشهاداتهم لا يدلون ، والى محاكم التاريخ المعاصر لا يحضرون، هم أموات غير أحياء، وما يشعرون وما يشكون مظلومياتهم أيان يبعثون .

إن ما حدث في تاريخ الكنيسة الأوروبية، لا يمكن السكوت عنه بأي حال من الأحوال. كان عارا كبيرا قد حدث وتمت انتهاكات صارخة لحقوق الانسان، تركت صورا من الوحشية باسم الدين و حفظ العقيدة والإيمان؟ . غدت الكنيسة كوامن الحقد ضد الآخر، وشجعت على ممارسة العنف في صورة "حروب دينية" كانت تشن نحو المشرق العربي والشمال الإفريقي، وباسمها تنصب محاكم تفتيش، وتصب العذاب على البشر باسم الإيمان واسترداد العقائد الضائعة. وتتكلم تلك المحاكم ودواوينها بخصوم الرأي؟. وبعدها أصبحت تشرع حججا شرعية تُبرر بها قتل الآخرين، منها المروق عن الدين أو الوثنية او رفض قبول التمسح وحضور قداس الكنائس.

أفعال محاكم تفتيش العصور الوسطى كان الممهدات الفعلية لقيام أنظمة توتاليتارية " شمالية" لاحقة، تلتها في القرن العشرين في أوروبا والعالم. فعلى ذات الآليات من القمع والتنكيل قامت السلطات الاستعمارية في فرض سلطاتها في المستعمرات لاحقا، أين بنت أنظمتها القمعية والسلطوية، وحتى داخل أوروبا الخارجة من اتون الحرب العالمية الاولى والثانية ظهرت أنظمة من نوع "الجستابو النازي"، و"جهاز الاستخبارات السوفيتية" K.G.B. و"استخبارات ألمانيا الشرقية" السابقة STASI، قبل انهيار النظام الشيوعي، وكذلك عملت وفق بعض آلياتها وكالة المخابرات الامريكية CIA التي بدأت فضائح التعذيب والتصفيات التي قامت بها، خاصة في عهدة الرئيس الامريكي السابق جورج بوش، تظهر في تحقيقات وزارة عدل جديدة في عهد الرئيس الامريكي الحالي أوباما.

الاعتراف باجرام الكنيسة في محاكم التفتيش لم يصرح به خصوم للكنيسة، ولم تصرح به هيئات اسلامية أو يهودية مناوئة للمسيحية، ولم يقله ملحد غربي أو شرقي معادي للمسيحية والكاثوليكية فحسب؛ بل جاء على شكل تصريح نطق به رأس الكنيسة الكاثوليكية، البابا البولوني الاصل "كارول فويتايلا Karol Wojtyla يوحنا بولس الثاني Paul II" ، حين صرح وإعترف

في عام 1994م : (...على الكنيسة، وبمبادرة ذاتية، إستعداداً لدخول القرن الجديد أن تُعيد فحص الزوايا المظلمة من تاريخها، وتقييمها على ضوء البشارة النبوية وأعمال الانبياء)<sup>17</sup> .

وقبلها، يذهب الفيلسوف الفرنسي "فولتير" الى تقديرات أكبر من أرقام الضحايا من ماتوا تحت الآلة الجهنمية لتعذيب محاكم التفتيش ويقدرها بعشرة ملايين من البشر. تلك الإبادة تمت "باسم الدين"، وكانت بمثابة الجنون الجماعي الأعظم الذي إستشرى في القرن الخامس عشر للميلاد في الأرض الألمانية ضد النساء بتهمة السحر، مما يذكرنا بمعنى محارق النازيين في الحرب العالمية الثانية، أو حرق النازيين الجدد للأجانب في أيامنا الحالية وقبلهم حرق القبائل الثائرة على الاستعمار في الجزائر كجريمة حرق قبيلة أولاد رياح في منطقة الظهره على يد القوات لفرنسية، وإبادة مجاهدي ليبيا من أنصار المجاهد عمر المختار بالأسلحة الكيماوية والحديثة وما جرى للعراق حتى اليوم.

كانت الحرائق الانسانية في اوربا تمتد الى أماكن أخرى، قبلها، وخلال فترات متفاوتة ؛ ففي عام 1275 م أحرقت أول ضحية في تولوز، المدينة الفرنسية. وفي فرنسا أحرقت أيضا جان دارك **Jeanne d Arc** عام 1431 م في اورليان **Orlean**، وهي المرأة التي عُرفت لاحقا بانها "المكافحة لإخراج البريطانيين من فرنسا"<sup>18</sup> وبانت رمزا للحرية للفرنسيين أنفسهم . واعتبر القديس " ميشيل " (الذي ظهر لها في المنام، انه لم يكن الا الشيطان بعينه، في شهادة صاعقة عن معنى التوظيف الايديولوجي للعقائد في خدمة السياسة والحرب). وفي ألمانيا أحرقت في بامبرج **Bamberg** في عام واحد 600 امرأة بتهمة المروق. ووصفت كل منهن بأنها "ساحرة". وفي **Sieburg** أحرقت 200 امرأة أخرى بتهمة انهن من "الساحرات" أيضا. وفي فولدا أحرقت خلال ثلاث سنوات 205 "ساحرة" أخرى... وهكذا كان الفرن مفتوحا لشواء النساء تلبية لرغبة الكنائس ورهبانها بالانتقام من النساء.

كان حرق "الساحرات" يغذيه مصدران: سيادة روح الأساطير في القرون الوسطى، وتخيلات الجن، وحضور الغيلان. والمرأة في نظر رهبان الكنيسة هي مصدر الفتنة والاغراء والغواية . آخر "ساحرة"، أحرقت كانت في سويسرا عام 1782 م في كانتون جلاروس **Canton Glarus**. كتب فيلسوف الحداثة الفرنسي " فوكو " كتاباً كاملة عن تاريخ الجنون والجنس . وتحدث عن ترك اللغة لبصماتها التاريخية عن ارتباط " المرأة " و "أعضائها التناسلية " بالجنون ؛ وإذا

<sup>17</sup> من وعظ كنسي من شرفة الفاتيكان، موقع الفاتيكان على الانترنت، خطب البابا يوحنا الثاني.  
<sup>18</sup> دارك جان (بالفرنسية: **Jeanne d'Arc**) ولدت عام 1412 م بمدينة "دومريمي" شمال شرق فرنسا، وقتلت عام 1431م وهي في التاسعة عشر من عمرها بمدينة "روون" في إقليم نورماندي شمال فرنسا بإعدامها حرقاً من قبل قوات الاحتلال و التي اتهمتها بالإلحاد. تعتبر جان دارك أبرز وجوه مقاومة الاحتلال الإنجليزي لقطاعات من بريطانيا أثناء حرب المائة عام، بين بريطانيا وفرنسا (1337-1453).

كان بعض الأطباء لا ينتبهون إلى مثل هذا التقارب الشديد والعجيب بين مسمى " الهستيريا"، واستئصال الرحم في بقايا المصطلحات الطبية اللاتينية، وبين مصطلح " الهستيريا" Hysteria و "استئصال الرحم" Hysterctomy، لكنه أضحى، لدى البعض، أنه يعني" انتزاع واستئصال الرحم Hysterctomy "، هو ما يقابل: ( تطهير للمرأة من المس والجنون ونبات الانفلات العاطفي الجموحي)<sup>19</sup>.

### 5-5 : الحروب الصليبية :

"الحملات الصليبية" أو "الحروب الصليبية"، بصفة عامة عناوين تطلق حالياً على مجموعة من الحملات والحروب التي قام بها أوروبيون في أواخر القرن الحادي عشر إلى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (1096 - 1291)، ومنهم من يمددها إلى عام 1303 وحتى إلى 1830 عندما قامت فرنسا بغزو الجزائر، وكانت الكنيسة حاضرة في كل الممارسات الاستعمارية. يرى الجنرال سعد الدين الشاذلي أن آخر الغزوات الصليبية، هي الحملة الثامنة، على المشرق العربي هي غزوة الولايات المتحدة وتحالفها الدولي للعراق<sup>20</sup> التي بدأت عام 1991 وانتهت باحتلال بغداد في 9 أبريل 2003 .

سميت بهذا الاسم "الصليبية" ؛ لأن الذين اشتركوا فيها تواروا "تحت رداء الدين المسيحي" ورفعوا "شعار الصليب من أجل الدفاع عنه" ، تغطية لهدفهم الرئيسي، وهو الاستيلاء على ارض المشرق ،الذي كان فيه المشرق منبع الثروات، ولذلك كانوا يخيطنون على ألبستهم على الصدر والكف علامة الصليب من قماش أحمر.<sup>21</sup> امتدت الحروب الصليبية على مدى قرنين مظلمين إمتد زمانهما (1095 حتى 1303)م. ، ولفظة"الحروب الصليبية"، كما يستخدمها المؤرخون، عن قصد او بغيره، فيها من المغالطة والتضليل الكثير، إن لم يكن الجهل؛ فمسار الاحداث طيلة القرنين كانت محاولات غزو اوربية ذات أطماع بثروات المشرق، إتخذت الدين واجهة للصراع والحرب والتعبئة عموماً وتركزت الحملات ضد المسلمين. حَمَلَ الصليبيون راية الدين للتستر وراءها لتحقيق أهدافهم التوسعية وكسب منافع اقتصادية وتجارية وعسكرية وإستراتيجية وتسليح الصليبيون في احتلالهم الأرض العربية بأيدولوجية دينية، مثالية، كواجهة أمامية لمصالحهم الاقتصادية المادية لم يصبح الإسلام (رمزا للرعب، والدمار، والشيطاني، والعرب والمسلمين مجرد افواج من

19 - جلي خالص تراجيديا العلم والايمان، مواقع انترنت ومقالات عديده له في صحف عربية ومواقع الكترونية.

20 الشاذلي سعد الدين ، الحرب الصليبية الثامنة على العراق، 1992، في جزأين ، ط2، الجزائر، عدة صفحات يعنونها الباحث بعنوان فرعي ثانوي للكتاب"تدمير أكبر وأقوى جيش بناء المسلمون منذ ظهور الاسلام".ص 570. وغيرها من الصفحات

21 زابوروف ميخائيل، الصليبيون في المشرق ، دار التقدم / موسكو (1986). وكذلك : أمين معلوف. الحروب الصليبية كما رآها العرب .

البرابرة الممقوتين بصورة اعتباطية) ؛ فبالنسبة لأوروبا، كان الإسلام عبارة عن رجة مأساوية دائمة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كان "الخطر العثماني" متربصاً بأوروبا ممثلاً بالنسبة للحضارة المسيحية كلها تهديداً دائماً.<sup>22</sup>

وإذا كانت فلسطين الهدف الأول للإحتلال الأوربي المسيحي بحجة "تحرير القبر المقدس للسيد المسيح". إن الغايات كانت تستهدف خيرات الشرق ولما في هذا الموقع من أهمية إستراتيجية لأوروبا، ولموقع فلسطين في قلب العالم الاسلامي. وعلى ذات النهج سارت بعدهم الحملات الاستعمارية التي انتهت باستيطان اليهود وقيام الحركة الصهيونية بخمس قرون<sup>23</sup>.

استغل الصليبيون حالة تمزق العالم العربي والإسلامي وضعفه، وهو منقسم وممزق الى ولايات ودويلات صغيرة متناحرة. كانت دمشق وحلب والموصل والقدس وغيرها تشكل ولايات مستقلة وتحت سلطان مستقل لكل منها. وأغلب الولاة والسلطين كانوا من الأجانب كالسلاجقة ومماليك الاتراك. وهم غرباء عن العالم العربي حتى في أسمائهم ولغاتهم وتشكيلات جيوشهم. وكان دفاع السلطين الأجانب الحاكمين في الولايات العربية اثناء فترة الحروب الصليبية ضد تلك الغزوات مسلحاً أيضاً بالدين للحفاظ على سلطاتهم. ولم ينتصر العرب والمسلمين على الصليبيين الا بعد ان تم ذلك بمقدرة صلاح الدين الايوبي على توحيد الصفوف والجيوش.

وصلت أوروبا الجنوبية والغربية الى أوج مرحلتها الاقطاعية المتحالفة مع الكنيسة. في عام 1095م وجه البابا "أوربان الثاني" في روما نداء يدعو به المسيحيين وملوكهم ورجال إقطاعهم وامراءهم لتحرير "القبر المقدس" من ايادي المسلمين "الكفرة"، فكانت تلك الدعوة إشارة لبداية الغزوات الصليبية الاستعمارية ضد العرب والمسلمين.

وليس التشبث بـ "القبر المقدس" وحده تبريراً يستحق الغزو وحده، فالحروب الصليبية، في منظومة الفكر والإستشراق الأوربي، ظلت تطرح كـ "عدوان"؛ بل كانت وظلت تطرح الى عهد قريباً انها "مقابلاً مسيحياً عادلاً لدخول الشرق". وقد جابه الناس من خلال تعبئة الكنيسة والبابوية شكلاً مرسوماً للعرب وحضارتهم بوصفها نموذجاً ومسالماً للانحطاط والبربرية والضدية "للحضارة الاوربية"، بحيث ان هذا الشرق بات يستحق الغزو من جديد، وان الفتح الغربي للشرق ليس فتحاً بعد كل حساب؛ بل حرية. يضع "شاتوبريان" الفكرة على حد تعبير ادوارد سعيد: (في إطار لغة الخلاص الرومانسية، لغة رسالة مسيحية لإحياء عالم ميت، لتحريك إحساس فيه بطاقته

<sup>22</sup> سعيد ادوارد ، الإستشراق، ط2، مؤسسة الابحاث العربية، ص 89. بيروت، (1984).  
<sup>23</sup> الشيخ حسين مرتضى، الحروب الصليبية وعبرها في كفاحنا ضد الصهيونية، آفاق عربية، العدد1، السنة الخامسة، ص(80-93)، بيروت، (أيلول1979).

الذاتية، إحساس لا يقدر الا أوربي على تلمسه تحت سطح متفسخ خال من الحياة) ، ويستشهد ادوارد سعيد بنص "شاتوبريان" التالي:

(لم تدر الحروب الصليبية حول إنقاذ كنيسة القيامة وحسب؛ بل دارت حول معرفة من الذي سينتصر على هذه الارض: مذهب تعبدي هو عدو الحضارة، محبذ باطراد الجهل "وذلك هو الاسلام، طبعاً" وللطغيان، وللعبودية، أو مذهب تعبدي أدى الى ان يوقظ في البشر المعاصرين عبقرية الزمن الغابر الحكيم وألغى العبودية)<sup>24</sup>.

في الحملة الصليبية الاولى كان الدور التنظيمي والسياسي بيد كنيسة روما. وقد لمس القياصرة والملوك الاوربيون بعد ذلك الامتيازات والمنافع في مساهمتهم بهذه الحروب لتعزيز مكانتهم الداخلية والحصول على الحضوة الدينية والتطلع الى المكاسب والمغانم الاقتصادية من الغزو. منهم هنري الرابع وفرديريك الثاني اللذان وجدا الفرصة مواتية لهم لتقوية امبراطورياتهم، انضم اليهم ملوك فرنسا وانجلترا للتنافس على امتيازات الغزو والاحتلال للشرق العربي.

وعلى نفس المنوال انخرط امرء ونبلاء وبارونات كبار وصغار اضافة الى تجار المدن الايطالية وجنوب فرنسا وكاتالونيا من المرتبطين بمصالح الاقطاع والكنيسة. لقد كان التحالف واسعا تمكن من زج مئات الالوف من الفلاحين لاجل الطمع بخيرات المشرق باثارة الحماس الديني ومعاداة العرب والمسلمين.

وككل حرب عدوانية، اعتمدت "الحروب الصليبية" ايدولوجية عنصرية تدعو الى "تقديس الحرب" و"الدعاية لها باسم الدين"، ووصف العرب والمسلمين بـ "الكفرة" والدعوة الى "تطهير الارض التي وقفت عليها رجلا المسيح"، وتحرير "الارض التي قُدمت بإراقة الدم الواهب للحياة"، واعتبروا غير المسيحيين "أعداء الصليب المسيحي" وهم "شعوب غضب الرب عليهم"؛ لكونهم "منفذين لإرادة الشيطان الوحشية".

بدأت الدعوة في نوفمبر 1095م عندما دعا البابا اوربان الثاني Urban II رجال الدين بدعوى التشاور لاصلاح الكنيسة الفرنسية، واشترط ان مقدمة ذلك الاصلاح يتطلب تحرير "القبر المقدس"، قبلها كانت تجري تهيئة خطط الغزو والتدخل العسكري في الشرق. فقد عزم "غريغور السابع" على الزحف على السلاجقة في آسيا الصغرى الذين باتوا يهددون الحكم البيزنطي بالحرب، فوجه القيصر البيزنطي "اليكسوس الاول" رسل الى البابا والإقطاعيين في غربي أوروبا في مارس/آذار

<sup>24</sup> سعيد إدوارد ، الاستشراق، مرجع سابق، ص186. وانظر ايضا:

Chateaubriand, Oeuvres, 2 : 702 and note 1684, pp. 1011, 979, 990, 1052

1095م طالما دعمه بالسلاح والمدد "للدفاع عن الكنيسة المقدسة ضد "الكفرة"، السلاجقة المسلمين الذين كانوا على وشك احتلال المنطقة حتى جدران القسطنطينية"<sup>25</sup>.

في 27 من نوفمبر من نفس العام القى الباب خطابه المتضمن إعلان الحرب على الإسلام والمسلمين، قائلاً امام حشد من الناس ورجال الدين وبصفته يمتلك أعلى سلطة دينية: (... لقد هاجم الأتراك والعرب اخواننا في منطقة بيزنطيا متقدمين نحو اليوسفور وما زالوا يتغلغلون في الأراضي المسيحية وقد انتصروا سبع مرات في المعركة وقتلوا واسروا عددا كبيرا منهم ودمروا الكنائس وحولوا البلاد الى صحراء، فإن لم تقدموا المعونة والمساعدة والدعم الان فان عباد الله المخلصين في الشرق لن يستطيعوا مقاومتهم، لذلك التمسكم وأحذركم كما يلتمسكم الرب، فقراء واغنياء بأن تسارعوا لطرد هؤلاء الرعاع الشريرين من المناطق التي يقطنها إخوانكم )<sup>26</sup>.

قاد هذه الحملات التعبوية المؤدلجة بخطاب عنصري ولاهوتي حاقد رجال دين كبار مثل الكاردينال "هاينريش فون البانو" والاساقفة "هاينريش فون شتراسبورغ" و "غوتفريد فون فورسبورغ" في الحملة الصليبية الثالثة والقس "مارتين" في الحملة الصليبية الرابعة و"فيليب فون اوكسفورد" وغيرهم.

لا نريد عرض تفاصيل تاريخ هذه الحروب؛ لكن نود التركيز على طبيعة التعبئة العنصرية والحقد الذي أضحى سمة اوروبية انتقلت الى أجيال تالية منها مواظ القس "مارتين" وتحريضاته ما وصف به آلام "ابن الله" (المقصود السيد المسيح عليه السلام) وموته من اجل الإنسانية وقد جاء في أحد المواظ: (.. هناك تسود بربرية شعب كافر، يا للشقاء، يا للدموع، يا لعمق الأسى، لقد هدمت الكنائس ولطخت القداسة بالفذارة، فعليكم ايها المحاربون الأشداء أن تتقدموا لمساعدة المسيح الانسان، سجلوا أسماءكم في الجيش المسيحي، انخرطوا في صفوف المعسكر السعيد بكل ابتهاج<sup>27</sup>

لا تخلوا اية حرب تخاض باسم الدين الا بالوعود بالغفران من الذنوب والوعد بالفردوس ليتحول البسطاء مادة حريق الحرب التي استعرت في ضجيج الصراخ ومطالبة قداسة البابا هاتفين: (الصلبان... الصلبان ... قدموا لنا الصلبان). وما بين الحملة الاولى الى الحملة (الصليبية- الصهيونية) الاخيرة على العراق سجل التاريخ ان كل الأقوام الاوربية ساهمت بالحرب، وحاولت توسيعها نحو العراق ومصر وتركيا والشمال الإفريقي، وتؤكد للجميع ان قبر المسيح ليس هو الهدف. كما ان تغيير التحالفات على مدى قرنين أكدت ان المصالح والنهب وتثبيت السلطة لهذا العرش أو ذاك، ليس له علاقة بالاديان التي أعلنت الحرب باسمها. سقطت بغداد على يد المغول في

<sup>25</sup> الشيخ حسين مرتضى، المرجع السابق ص 84.

<sup>26</sup> الشيخ حسين مرتضى، المرجع السابق ص 84 .

<sup>27</sup> تسولنر فالتر ، كتاب بالالمانية صدر ببرلين بعنوان " الحروب الصليبية" وترجم قسم منه مرتضى الشيخ حسين. راجع المرجع السابق(مرتضى الشيخ حسين، ص (80-93)).

10 فيفري/شباط1258م ، وقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس مخنوقا بسجادة لثلا يسبح دمه ثم احتلت بغداد مرة أخرى في ربيع 2003، وكان المال والجهد العربي والقواعد على الارض العربية حليفا للغزاة هذه المرة.

ظلت اطراف من الدولة الاسلامية محتلة من قبل الصليبيين حتى عام 1291م حين وجه سلطان المماليك الاشرف هجوما على عكا التي كانت آخر معقل للصليبيين، فدامت المعركة عدة اسابيع بعدها سقطت بيد الجيش المملوكي في 18 ماي/ايار 1291م ، منيت بتدميرات واسعة ساوت بيوتها ومعالمها بالأرض. وتعرضت الى اراقة دماء وقتل فضيع لم ينج منه حتى آخر رجل في المدينة. وفي اوت/اب من نفس العام تم الاستيلاء على صور وصيدا وبيروت وطرطوس دون معارك عنيفة.

ان محاولة اوربا تثبيت وجودها من خلال محميات ودول في المشرق العربي ظلت مستمرة حتى 1303م، حيث انتهت سيطرة الصليبيين كليا في المشرق العربي، ولكن لم تنته مطامع الاوربيين في هذه المنطقة لذا انتظروا وعادوا الى قبر صلاح الدين قائلين له: (ها نحن عدنا ياصلاح الدين). من الصعب تقديم احصاء عن حجم الإبادات والضحايا والأموال والأرزاق التي اشتعلت بها نيران تلك الحروب.

شهدت تلك الحروب اول استعمال للأسلحة الجرثومية في التاريخ من خلال نشر الامراض بواسطة الجثث المتعفنة والموبوءة بمرض كالتاعون والتيفوس التي نشرتها جيوش الصليبيين في مناطق دار الاسلام. وما بين 1095م والى 1305 كانت مطامع اوربا لم تتوقف من اجل غزو الشرق والقضاء على الإسلام. ولكنها لم تتوان ان تنهب حتى الكنائس المسيحية وتعيث فسادا في المدن. وخير مثال على ذلك الغزوة الصليبية الرابعة وما سمي بـ "فتح القسطنطينية". نترك شهادة مؤرخ أوربي جمع أحاديث وكتابات الرواة من الاوربيين أنفسهم لتبيان مقاصد وإهداف تلك الحروب التوسعية الهادفة إلى النهب والتدمير بطرق بربرية. رصد "ميخائيل زابوروف" في كتابه "الصليبيون في الشرق"<sup>28</sup> ما كتبه رواة الاخبار الاوربيين عن سقوط القسطنطينية وسجل منها ما يلي:

حظي فتح العاصمة البيزنطية (المسيحية الشرقية) الذي تم في 13 نيسان/ افريل 1204 بمصادقة الكنيسة الكاثوليكية ورعايتها وتحريضها. وعشية إقتحام القسطنطينية، غفر الاساقفة والكهنة المرافقون للمقاتلين، بدون أي تحفظ، عن جميع خطايا المشتركين في المعركة المقبلة، من (... الذين عززوا ايمانهم في الاستيلاء على العاصمة البيزنطية، انما هو عمل مشروع ويرضي

<sup>28</sup> زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة الياس شاهين .

[www.everyoneweb.com/bararem](http://www.everyoneweb.com/bararem)

الرب). و ينقل عن "جوفروا فيلاردوان" بالتفصيل خطابات رجال الدين في مجلس الزعماء المنعقد عشية الهجوم، ويتطابق مع ما كتبه مدون أخبار فرنسي ان موقف البابوية: (... الأساقفة وجميع رجال الدين، وجميع من كانوا يخضعون لأوامر الحبر الأعظم كانوا متفقين، وهم رعاة القوات الصليبية الروحيون ويؤكدون بالحاح ومثابرة من أن الحرب المقبلة حسنة وعادلة. وجميع الذين كانوا يعتزمون فتح هذه الأرض واخضاعها لروما وعدوا بغفران جميع خطاياهم).

ويضيف "فيلاردوان" بعد عرض العديد من نصوص وخطب ووصايا الرهبان والاحبار في تغطية هدف الحرب والحملة الصليبية بخطاب قدسي مخاطباً القراء : (...إعلموا ان هذه المواعظ كانت دعماً كبيراً سواء للبارونات أم للفرسان) ليس غير<sup>29</sup>.

"اجتياح القسطنطينية"، يبقى عنوان العديد من مدونات الأخبار اللاتينية التي تصف افعال الفرسان الغربيين اللصوصية في العاصمة البيزنطية. فما ان استولى الفرسان على القسطنطينية، حتى انقضوا على القصور والكنائس ومستودعات التجار، وقد أحقدهم ونفس عن غيظهم، هو الانتظار الطويل للوصول الى الغنيمة، كما شجعهم رعاتهم الروحيون من الكهنة والرهبان. فلم يتوانوا عن نهب البيوت، واندفعوا نحو نهب المدافن والأضرحة والمقابر، كما هدموا آثاراً فنية تفوق التقدير، واحرقوا كل ما كانت تطاله أيديهم. أحرق الغزاة البيوت لكي يطردوا منها سكانها ويدروا بالتالي معارك الشوارع. ودام جنون المقاتلين العاصف لمدى ثلاث ايام عاثوا في المدينة فساداً، من اغتصاب للنساء، الى اقامة حفلات. قتلوا خلالها بضعة آلاف من سكان القسطنطينية ولا فرق بين محارب ومسالم من السكان.

وبعد التوثيق لتلك الحملة الاجرامية على القسطنطينية وافتضاح مراميها، حاول كثيرون من مدوني الأخبار ان يخففوا بجميع الوسائل من حدة الصورة البشعة التي رافقت اجتياح المدينة المسيحية، ولكي يبرروا للصليبيين أفعالهم. هناك "روبر دي كلاري" يرسم صورة معاكسة تماماً بقوله : (... عندما تم الاستيلاء على المدينة بمثل هذه الروعة ودخلها الإفرنج، تصرفوا هناك بكل هدوء) ن ولم تحدث، حسب زعمه، (... اية من أعمال الشطط، وان الإفرنج لم يتسببوا بأي ضرر واية اهانة، لا للفقراء ولا للأغنياء). ويزعم غونتر من بيرييس: (... ان الفرسان كانوا يعتبرون على العموم، انه من المعيب وغير الجائز للمسيحيين، الهجوم على المسيحيين وارتكاب اعمال القتل والنهب والسلب والحرق بينهم). لكن كثيرين من شهود العيان والوثائق تشهد على العكس.<sup>30</sup> يكتب "فيلاردوان" بوضوح : (...ان الصليبيين استولوا على غنيمة هائلة، وقتلوا كثيرين من

<sup>29</sup> زابوروف ميخائيل ، كتاب الصليبيون في الشرق ، المرجع السابق.

<sup>30</sup> زابوروف ميخائيل ، كتاب "الصليبيون في الشرق" مرجع سابق.

الناس)، ويضيف : (...لم يكن ثمة عدد للقتلى وللجرحى ومقياس للقتل). هناك شاهد عيان آخر، روى بالتفصيل عن مذبحه سنة 1204، وهو "نيقيتاس الخونيائي"، ويبدو انه قد كتبها فيما بعد الحدث، وكأنما تذكر بعجب وذهول تلك المشاهد الوحشية التي توالى آنذاك على القسطنطينية: (...لا أعرف بما أبدأ، وبماذا أنتهي في وصف كل ما فعله هؤلاء الناس الكفار). و...كأن البارونات الأعيان وتجار البندقية والفرسان وحملة الأسلحة أخذوا يتنافسون ويتبارون في نهب وتبديد ثروات العاصمة البيزنطية)<sup>31</sup>، ويضيف : (... إنهم لم يرحموا أحدا ولم يتركوا لاحد ما كان عنده؛ بل أنهم مساوا مدافن الأباطرة البيزنطيين بما في ذلك تابوت الإمبراطور "قسطنطين الأول"، حيث سرقوا مختلف المجوهرات. ولم تتجنب، لا الكنائس ولا أشياء العبادة، أيدي الصليبيين الجشعة).<sup>32</sup> إنهم (... يحطمون المدافن والنعوش حيث ترقد رفاة القديسين ويأخذون منهم الذهب والفضة والاحجار الكريمة) و (... ولم يكونوا يأبهون للرفات فقد كانوا يرمونها في أماكن بكل خساسة وسفالة... ولم تستثن حتى كنيسة آجيا صوفيا... فقد نهب الفرسان كنوزها التي تفوق التقدير... ومنها سلبوا الآنية المقدسة، والمصنوعات الفنية الرائعة، وانتزعوا الفضة والذهب التي كانت تلبس بهما الكراسي والأبواب والبوابات). لم يختلف النهابون سواء كانوا في جُيب الرهبان والكهان أو خلف دروع السفاكين والجزارين المجلبين بدروع الفرسان. كان الرهبان والكهنة الكاثوليك يجوسون المدينة بحثا عن ذخائر القسطنطينية الشهيرة.

وبقيت أسماء بعض "من أنشط من خدم الرب الذين اندفعوا في السرقة" في "التقية" دون أي خبز في الضمير وكأن الحمى تملكهم. كان منهم مارتين، رئيس دير لينتس، مثلا، الذي انضم الى عصابة من الفرسان، ونهب معهم دير بانتوكراتور الشهير الواقع في القسطنطينية.<sup>33</sup> ويستفاد من أقوال "غونتر" من بيرس، أحد الرواة عن أفعال هذا الأب في مؤلفه "تاريخ القسطنطينية" يشير الى ان رئيس الدير "مارتين" تصرف بأكبر قدر من الجشع والبخل، فقد كان يمسك ويحمل الغنائم "بكلتا يديه". ويروي مدون أخبار مجهول من هالبرشتادت انه عندما عاد اسقف هذه المدينة المدعو كونراد في سنة 1205 الى موطنه تورينغيا، كان أتباعه يسوقون أمامه عربة محملة، حتى أقصى حافاتها، بذخائر القسطنطينية. وبعدها، جرى تدوين ووصف سلوك الأحيار من الكاثوليك بصور مفصلة للغاية، وضبط ما سرقوه في القسطنطينية من الأشياء المقدسة على وجه الدقة. مثل هذه الأوصاف جمعها في السبعينيات من القرن التاسع عشر العالم الكاثوليكي الفرنسي "ريان"، وضمنها في مجلدين وعنوانها بدون سخرية : [الغنيمة المقدسة من القسطنطينية].

<sup>31</sup> زابوروف ميخائيل : [www.everyoneweb.com/baraem/](http://www.everyoneweb.com/baraem/)

<sup>32</sup> زابوروف ميخائيل ، مرجع سابق : [www.everyoneweb.com/baraem/](http://www.everyoneweb.com/baraem/)

<sup>33</sup> زابوروف، ميخائيل ،مرجع سابق : [www.everyoneweb.com/baraem/](http://www.everyoneweb.com/baraem/)

وفي أوروبا الغربية. وكما يُلاحظ المعاصرون، أنه لم يبق على الأرجح، أي دير وأي كنيسة لم يغتن من الذخائر المسروقة من تراث وكنوز القسطنطينية المنكوبة ومتاحف أوروبا مملوءة خزائنها بكنوز نهبت باسم الدين والحرب المقدسة.

وحتى إذا وافقنا أولئك المؤرخين الذين يعتبرون: ان الكاتب البيزنطي "نيقيتاس الخونيائي" قد كَتَفَ الأصباغ، وبالغ بصورة لا مناص منها، في معرض حديثه عن هيجان الفرسان وفحشهم وإستهتارهم، فقد بقيت هناك كثرة من أخبار المدونات كتبها مؤلفون آخرون، من غير البيزنطيين، ممن وصفوا الحالة بأقبح النعوت لتلك الأعمال التي اقترفها الصليبيون في العاصمة البيزنطية. واطلقوا على "غزوتهم الصليبية الرابعة" بالفتح. تلك الصورة، وان لم تسجل بكامرات الفيديو، كما يحدث في عصرنا، لكننا نشاهدها في عملية نهب بغداد والآثار العراقية وكنوز الحضارة العراقية التي تستقر في خزائن دول الغزاة اليوم، أمام مشهد عدسات التصوير وعلى المباشر وبعلم اليونسكو والامم المتحدة ومنظماتها.

وخلافا للكاتب البيزنطي "نيقيتاس الخونيائي" الذي شهر بمرارة وغضب بعنف اللاتين، كان هناك شاهد عيان آخر من الروس كتب ايضا عن اجتياح القسطنطينية، في مؤلفه [قصة الاستيلاء على تسارغراد من قبل الفرياخ]، وهو كاتب غير متحيز نسبيا، في وصف ما رآه بأعينه، أو سجل ما سمعه من شهود العيان والمشاركين في الأحداث. وهو لم يستطع أن يلتزم الصمت عن وقائع انتهاك حرمة المقدسات الدينية ونهبها من قبل الصليبيين. كتب: (...الكنايس في المدينة وخارج المدينة نهبت جميعها، ولا يسعنا، لا أن نذكر عددها، ولا أن نصف جمالها) <sup>34</sup>.

وإذا كان "جوفروا فيلاردون" قد تحدث عن أعمال النهب التي اقترفها زملاؤه؛ فإنه أيضا يكون قد لزم الصمت عن مآثمتهم، أو خفف من غلوائها. ورغم أنه أورد، على لسان البارونات، كلمات الأسف عن مصير المدينة، ووصفه لها ولمعالمها: (... هذه الكنائس الرائعة والقصور الغنية التي التهمت النيران وإنهارت... وهذه الشوارع التجارية الكبيرة التي تلتفها اللهب الشديد)؛ لكنه لم يستطع امتناعاً، عن إبداء العجب أيضا من حجم الغنيمة الوفيرة المنهوبة في القسطنطينية. فوصفها: انها كانت من الضخامة، إلى درجة: أنهم: (عجزوا عن حسابها). وكانت تلك الغنيمة تنطوي على الذهب والفضة، والأحجار الكريمة، والأنية الذهبية والفضية، والألبسة الحريرية، والفراء، وكل ما في ذلك العالم من جميل وبديع. وهكذا أكد "مارشال شمبانيا"، "فيلاردوان"، وصف هذا النهب "بأنه لم يسبق له مثيل منذ خلق العالم". وبتعابير مماثلة تحدث كذلك الفارس البسيط "روبر دي كلاري" الذي تملكه العجب والابتهاج لجمع "ثلثي ثروات الأرض" من هناك.

<sup>34</sup> [www.everyoneweb.com/baraeem](http://www.everyoneweb.com/baraeem)

بقيت شهادة رفيعة المكانة على موبقات ومآثم الصليبيين، نوردها هنا هي رسالة البابا "اينوشنتيوس الثالث"؛ فالبابا عبر عن غضبه إنطلاقاً من تخوفه من أن يُشكل عنف الصليبيين اللاتين في القسطنطينية عقبة في وجه اتحاد الكنيسة الأرثوذكسية مع الكنيسة الكاثوليكية؛ لأنه سيكون حسب قوله: (حق الروم أن ينظروا إلينا باشمئزاز كما إلى الكلاب).

ولهذا انفجر البابا برسالة غاضبة فأعرب عن استيائه من (...لصوصيات الصليبيين) الذين فضلوا، على حد قوله: (خيرات الأرض على نعم السماء، ولهذا سعوا، لا إلى فتح القدس، بل إلى فتح القسطنطينية حيث "سلبوا الصغار والكبار". ناهيك بأنهم "مدوا أيديهم إلى أملاك الكنائس وما هو أسوأ إلى مقدساتها، إذ سحبوا من المذابح الألواح الفضية، وحطموا غرف المقدسات، وإستولوا على الأيقونات والصلبان والذخائر). ان الغنيمة التي اجبر القادة الفرسان على حملها إلى الأماكن المخصصة لها كانت حقا وفعلا كما في الحكايات المروية. أهل البندقية، إذا صدقنا رواية "فيلاردوان"، قد عرضوا على الصليبيين لقاء حصتهم وحدها من الغنيمة، 400 ألف مارك، ولكن هذا العرض اعتبر غير مجزي وقوبل بالرفض. لم تتحمل القسطنطينية خسائر مادية فادحة بفعل اللصوص وقطاع الطرق الذين وشحوا بالصلبان عباءاتهم وستراتهم وحسب؛ بل أيضا نكبتها بضياح إبداعات رائعة لقدماء الرسامين والنحاتين التي بقيت محفوظة في القسطنطينية لمئات السنين.

ولم يكن البرابرة الصليبيون يفهمون شيئا عن ذلك الفن وقيمه، كانوا لا يعرفون ولا يستطيعون أن يقدروا غير المعدن الثمين من فضة أو ذهب. أما المرمر والخشب والعظم وما سواها من المواد التي صنعت منها التحف فيما مضى وظلت كآثار بديعة من الهندسة المعمارية والمنحوتات، فقد تعرضت جميعها للإبادة التامة. لم يقر البرابرة الغزاة إلا المعدن الذي حظي عندهم بتقييم واهتمام فريد. ولكي يعيّن ويحمل الصليبيون قيمة الغنيمة بمزيد من السهولة، لجأوا إلى تحويلها إلى سبائك معدنية بصهر تلك المجموعات الكبيرة من المصنوعات والتحف الغنية الفنية المعدنية التي نهبها ونقلها كسبائك معدنية. وهذا ما حل مثلا، بالتمثال البرونزي الرائع للآلهة هيرا من ساموس الذي كان منصوبا في إحدى ساحات القسطنطينية. فقد حول الصليبيون تمثال هيرا، زوجة سيد الآلهة واله الرعد زيوس، إلى فتات مهشمة. فبعد ان خلعه عن القاعدة وحطموا تمثال هرقل البرونزي الهائل الذي أبدعه الفنان العبقرى "ليسيب"، "الفنان في بلاط اسكندر المقدوني" والذي مثل به البطل اليوناني الشهير بصورة وهو تعب من المآثر وجالس، ملقيا على كتفه جلد أسد نيمه الذي قتله.

لا المقاييس الاخلاقية للتاريخ، ولا المعايير الجمالية أنقذت معالم بطل اسطوري آخر من أبطال اليونان، هو تمثال "بيليروفون" الراكب على الحصان المجنح بيغاس، والمندفع إلى مقام

الآلهة في جبل الاولمب. كان هذا التمثال على درجة من الضخامة، بحيث " كانت هناك عشرة من طيور مالك الحزين"، كما يروي "روبر من كلارى": (تبنى أعشاشها في كفل الحصان، وكانت الطيور تعود كل سنة الى أعشاشها وتضع بيضها هناك). ولم يعفّ البرابرة والهمج الغربيون لا تمثال الذئبة، التي تغذي بحليبها "رومولوس" و "ريموس"، التوأمن الأسطوريين، مؤسسي الدولة الرومانية، ولا تمثال الشاب الجميل "باريس" الذي رمى التفاحة الى "فينوس"، فصارت سببا للشقاق، ولا حتى تمثال العذراء مريم المنصوب في وسط المدينة.

وما سلم، نقلوا معظمه، ولا سيما البندقيون، الى أوروبا لأجل تزيين الكنائس والقصور عندهم، فمثلا، وبأمر من "دندولو"، أرسلوا الى البندقية مجموعة نحتية عجيبة من صنع "اليسيب" ايضا - مجموعة برونزية مطلية بالذهب مشكلة من أربعة أحصنة واقفة على المنصة الأمبراطورية في ميدان سباق الخيل. فكم وكم من الأماكن ظهرت فيها هذه الأحصنة المسكينة! ومنّ من الغزاة في مختلف الأزمنة، استطاع ان يبقى عديم الاكتراث بمنتوج الفنان اليوناني العظيم! ففي أواخر القرن الأول، حمله من الاسكندرية في مصر الى روما الامبراطور "أغسطس اوكتافيوس" لكي يزين به قوسه، "قوس النصر". ثم نصبوا الأحصنة تارة على قوس "نيرون"، وطورا على قوس "ترايان"، الى ان نقلها الامبراطور "قسطنطين" نهائيا الى ميدان سباق الخيل في عاصمة الأمبراطورية الرومانية الشرقية (أمبراطورية الروم أو الأمبراطورية البيزنطية)، وقد أقيمت على بوابة ميدان سباق الخيل وبقيت هناك على مدى ثمانية قرون.

ولكن أسفار تحفة الفنان اليوناني لم تنته محنتها. ففي سنة 1204 أقيمت مجموعة الأحصنة الأربعة على البوابة الرئيسية بكاتدرائية القديس مرقص في البندقية. وكان ذلك مكانا يشرف على المدينة، حيث كان الدوق والخاصة معه يشاهدون منه في المعتاد الاعياد المقامة في المدينة. وبعد ستة قرون أغرت الأحصنة البرونزية الابية والقوية، اللامعة بالذهب نابليون الطموح. وعندما احتل البندقية في سنة 1797 نقل الأحصنة الى باريس حيث زينت في البدء، مدخل قصر التويليري، ثم قوس النصر في ساحة كاروسل. وبعد 18 سنة، عندما أسقطت امبراطورية "نابليون"، أرسلت مجموعة الأحصنة الأربعة من جديد الى البندقية. وإبان الحربين العالميتين في القرن العشرين اضطرت هذه الأحصنة الى مفارقة مكانها، ولمرتين أنزلوها الى ملجأ خاص لوقايتها من قصف الهتلريين، ولا تزال الى الآن موجودة على مصطبة القديس مرقص.

في سنة 1204، لم يكتف البرابرة الغربيون، العاملون تحت ستار الصليب، بإبادة آثار الفن؛ فقد حولوا المخطوطات التي وقعت بأيديهم الى رماد ودمروا المكتبات الفائقة الغنى في القسطنطينية. كان الفرسان الأميين والجهلة يرمون، من دون تردد ودون تفكير، الى المواقف المتأججة أمامهم، برزم المخطوطات التي كانت تفوق التقدير، منها مؤلفات الفلاسفة والكتاب

القدماء، والنصوص الدينية، والأنجيل المزينة الثمينة، لاشئ بالنسبة لهم، كنوز العبقرية البشرية ومنتوجات عملها وابداعاتها الفكرية؟ نعم أحرقوها بكل بساطة، كما أحرقوا معها كثيرا من الأشياء الأخرى. يقول كاتب آخر من ذلك الزمن يدعى "رومانين"، الذي وصف معركة القسطنطينية: ( ...من يتتبع الحديث عن هذه المآثم، يرتعش العقل ويحمر وجه البشرية منها خجلاً). كذلك كان "اجتياح القسطنطينية" الذي جرى تحت راية الصليب بدا لبعض من المعاصرين الاوروبيين عملا مخالفا لإرادة الرب، فهكذا قَدَّر البعض: إن أحداث سنة 1204 مثلا، كما أشار مدون الأخبار " اوجيري"، من جنوه، في مؤلفه "الحوليات". وحين أعطى هذا التقدير لإجتياح العاصمة البيزنطية، كتب طبعا بروح العداء لمنافسي جنوه، من البندقيين، ولكنه لم يفترق في الرأي من حيث الجوهر، مع جميع الشرفاء في ذلك الزمن؛ بل بالعكس فقد أعرب عن وجهة نظرهم.<sup>35</sup>

ينتهي " زابوروف" الى خلاصة ( ...تجدد الإشارة الى ان مآثم الصليبيين الوحشية كانت تتناقض بحدة مع مسلك الفاتحين المسلمين المتمالك نسبيا حيال المقدسات المسيحية في الشرق. وحتى مسلمو اوروبا وافريقيا، كما قال نيقيناس الخونيائي، كانوا أكثر شفقة ورحمة). ان تاريخ الحملة الصليبية الرابعة كان تاريخ انتهاك ملهميها وقادتها والمشاركين فيها انتهاكا سافرا لاهداف الدينية التي أعلنوها. لقد داس الصليبيون راياتهم الدينية ذاتها، وشعاراتهم "التحريرية". وبرهنوا عن ازدراء لبرنامج الحملة الصليبية الرسمي، وأظهروا انهم ليسوا حماة أتقياء للدين المسيحي، بل مغامرون جشعون وغزاة وهمج. ان أحداث (1202 – 1204) تبدد كليا تلك الهالة من القداسة والورع والتقوى التي أحاطت بها الكنيسة الكاثوليكية في سياق القرون هذه المشاريع الاغصابية.

نفس المشاهد والصور تكررت في حملة صليبية تالية، عشية احتلال الجزائر في جويليه 1830 على يد الجيش الفرنسي المُدعم بمباركة الكنيسة ورهبانها، نقرأها بشكل تفصيلي وبتوثيق الشاهد الذي عاش الاحداث، من خلال كتاب " المرأة" لحمدان خوجة<sup>36</sup>. وما ورد في مذكرته الى اللجنة الافريقية الفرنسية التي جاءت من باريس " للتحقق من جرائم الحرب التي ارتكبتها الجيش الفرنسي ضد حقوق الانسان في الجزائر"<sup>37</sup>. فضح حمدان خوجة في تلك المذكرة جرائم الجيش

<sup>35</sup> ميخائيل زابوروف، "الصليبيون في الشرق" المرجع السابق:

[www.everyoneweb.com/bararem/](http://www.everyoneweb.com/bararem/)

<sup>36</sup> خوجة حمدان، المرأة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، (1982).

<sup>37</sup> هنالك ملاحظات وجدل حول موقف حمدان خوجة من الاحتلال وشرعيته، وموقف خوجة من المقاومة المسلحة من الاحتلال... الخ. راجع كتابات:

الفرنسي: (... حدث أكثر من مرّة أن دُبِحَ الرُّضْعُ على صدور امهاتهم، وأحرقت المساكن، وسُلِبَت المواشي، وامتألت أسواقنا بالأمتعة المنهوبة. ولقد شوهدت في هذه الاسواق أساورُ ما تزال على أزندتها الدّامية، وقرط مخضبة بدماء الأذان التي انتزعت منها... ويقال أيضاً: إنّ بعض النساء تمّ بيعهنّ كما تباع الحيوانات) <sup>38</sup>. وقد ذكر حمدان خوجة ايضاً: (... انه صار من المتداول بين الاهالي: " ان الفرنسيين ليس لهم هدف غير إبادة العرب، وتجريدهم من أملاكهم الإرتثية<sup>39</sup>). وترد هنا لفظة " ابادة" في أول نص جزائري يُعتبر الوثيقة الاولى للجزائر: تاريخيا، واقتصاديا وعسكريا في النصف الاول من القرن التاسع عشر، وفي السنوات الاولى من الاحتلال الفرنسي <sup>40</sup>. اما صورة تخريب مدينة الجزائر وشيوع الفوضى، فرغم العهد الذي منحه الغزاة للاهالي من خلال توقيع معاهدة تسليم الجزائر ومفاتيحها وثرواتها وخيراتها وأهاليها الى السّفاح "كونت بورمون" في الخامس من جويليه 1830، فما ان دخل الجنود الفرنسيون مدينة الجزائر حتى عمدوا الى: (... اقتلاع سياجات الحديد، وتهديم الحمامات، وحملوا الى الاسواق ما تبقى من أشياء، فباعوها أمام أعيننا، وبذلك يكون الفرنسيون قد اتبعوا طريقة البرابرة؛ بل انهم كانوا أكثر فساداً؛ لانهم هدموا ما كان مبنياً، وخرّبوا ما كان موجوداً<sup>41</sup>). ولم يتعفف قائد الجيش الفرنسي "بورمون" وضباطه من نهب كنوز المدينة و"دار العملة" بما فيها من الودائع والاموال الضخمة من ذهب وفضة، وتخريب المنشآت العمومية واحتلال أجمل وافخم الدور والقصور ومنها دار الأغا ابراهيم ودار احمد باي قسنطينة، وتم سلب ما فيها من الاثاث والاواني الفاخرة. ومن المقتنيات والكنوز ما باعها الضباط وجنودهم في الاسواق التي كانت تعج بالتجار اليهود الذين كانوا يساومون على أثمانها بأثمان بخسة. يكفي القول (... ان قيمة المقتنيات والاثاث والملابس التي كانت بدار احمد باي الجزائر كانت تزيد على مليون فرنك، في حين ان الضابط الذي احتل داره باعها لليهودي "ابن دران" بمبلغ الفين ومائتي فرنك<sup>42</sup>).

- مرتاض عبد الملك، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954. و احمد باي، مذكرات، ترجمة محمد العربي الزبييري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973. ومقدمة الزبييري لكتاب "المرأة".

<sup>38</sup> خوجة حمدان، المرأة، مرجع سابق، ص 149.

<sup>39</sup> خوجة حمدان، مذكرته الى اللجنة الافريقية، المرجع السابق.

<sup>40</sup> مرتاض عبد الملك، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954، ص: 31، الجزائر، (2003).

<sup>41</sup> خوجة حمدان، مذكرته الى اللجنة الافريقية، وردت في مذكرات احمد باي ص 148- 149 - راجع ، ص 74 من (المرجع السابق). وكذلك: احمد باي، مذكرات، ترجمة محمد العربي الزبييري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973.

<sup>42</sup> خوجة حمدان، المرجع السابق، ص 216.

## 5-6: الاستعمار والغزو، تعريض شعوب وامم الى الإبادة والمجازر:

عندما تقترن ثقافة ما بالعنصرية في ممارساتها، فلا بد من البحث المعمق في الجانب الأيديولوجي المؤسس لها، وإكتشاف البعد الساعي لدوافعها الكامنة والمعلنة التي تتكامل من خلال انجاز المهمة الأساسية للدافع الاستعماري الا وهو الإستعباد الاقتصادي للاستعمار وفي ممارسة سياساته التي تتسم بالتهب والاستغلال اللذان لا يتوقفان عند حدود معينة.

ولا تتوانى تلك الممارسات عن الاقدام نحو تنفيذ الجرائم المنظمة وتطبيق سياسات الاقصاء والالغاء للآخر " الشعب المضطهد" بما فيه ابادته بدنيا وانهاؤه من الوجود الانساني أو وضعه على هامش التطور الانساني والتاريخي للعصر من خلال " ... توالي عمليات النهب والاستغلال والتعذيب والعنصرية والتصفية الجماعية والقمع العقلي، على مستويات مختلفة لتجعل من الشعب "المضطهد" شيئاً جامداً بين ايدي الامة المحتلة"، وكما وصف "فرانتز فانون" الحروب الاستعمارية بأنها (عملية تجارية ضخمة)<sup>43</sup>، وهو بذلك يؤكد ذات الرؤية الماركسية القائلة: ( ان استغلال الانسان للانسان هو اساس النظام الاستعماري الرأسمالي).

في جميع التجارب الاستعمارية الماضية، كانت اوربا هي القارة الوحيدة التي حاولت ان تتركس الاستعمار الاستيطاني بعد إبادة السكان الاصليين بمختلف وسائل واسلحة الابادة لاجل تسهيل الاستيطان البشري، [ أمثلة عدة لا تحتاج الى ادلة مثل أباداة السكان في القارة الامريكية، استراليا ، الجزائر، فلسطين وجنوب أفريقيا].

التي هي صورة من صور تطور اشكال الاستغلال الاستعماري، في محاولة إجتثاث الآخر من ارضه أو موطن رزقه أو مصادر ثرواته<sup>44</sup>، ليتم التمهيد لتلك التصفية الاستعمارية بأبشع صورها اللاحقة من خلال انكار وجود تلك التجمعات البشرية المتميزة في أمم وشعوب وأقوام وعشائر وتبرير نظريات التبشير الفكري والتنظير الأيديولوجي، لمحو الآخر بالانكار المتعمد المطلق للشخصية الوطنية وثقافتها وتاريخها والاعتراف بحضارتها أو حتى مساهمتها في الثقافة والحضارة الانسانية.

اندفعت النخب الفكرية والثقافية والعلمية المرتبطة بالسياسات الاستعمارية نحو طرح النظريات الاستعمارية والتشبث بالمقولات الانثروبولوجية ذات البعد الثقافي العنصري لانكار

<sup>43</sup> فانون فرانتز ، معذبوا الارض، مرجع سابق، ص 16.

<sup>44</sup> نشير الى كتابات Alexis de Tocqueville ودفاعه المستميت عن مشروع قانون يتعلق باستعمار الجزائر امام لجان المجلس الوطني الفرنسي منذ سنة 1828 وبعدها اقتراحاته الملموسة (... للحد من مقاومة" الاهالي" ... وابادة قائداهم الرئيسي عبد القادر) والدعوة الى : (حرب يرى فيها انها عملية" صيد عارمة" تستوجب اللجوء الى وسائل فريدة، لا تقارن بالحروب التقليدية آنذاك بين الدول في أوربا). راجع : غرانميزون اوليفي لوكور، الاستعمار الابادة، دار الرائد، الجزائر، 2007.

اصول الشعوب المضطهدة وتشويه اصولها الاثنية والقومية واللغوية وانتماؤها الحضارية وحتى تبرير عدم جدوى وجودها الانساني والعضوي على الكرة الارضية<sup>45</sup>.

لقد اشار الى ذلك مبكرا "فرانتز فانون"، من دون توسع، باشارته الى بنيات ثقافية وفكرية استعمارية حاولت الحديث والاشارة الى وجود "بعض الثقافات المفروزة بكيفية انفرادية"، والى محاولات البعض في الاشارة ضمن سياقات معينة الى الاعتراف بـ "وجود تكتلات بشرية دون ثقافة" او تناول البعض لملاحم ورؤى وصفت بوجود "تحديد ثقافات متدرجة" او الحديث عن "نظرية النسبية الثقافية" تمهيدا لطرح منظور استعماري يبشر ويمهد لعملية القضاء على الشخصية الثقافية للآخر ممثلة للجوانب السلبية له<sup>46</sup>. ما كان لأوربا ان تمتد شرقا وغربا، لولا التطور في الحصول وانتاج الطاقة والسلاح، اضافة الى التكاثر السكاني في القارة. فبعد سقوط غرناطة كانت الحرب تستبدل الاسلحة المصنوعة من المعادن ببنادق ومدافع وغازات سامة وخانقة، ومع إتساع استخدام البارود "اختراع صيني" ومن ثم استخدامه في الاسلحة النارية تغيرت طبيعة القتال تغييرا جذريا واتسعت امكانيات الابداء والسيطرة والقضاء على الضعفاء والعزل بواسطة هذه الاسلحة.

بعد دخول الطباعة الحديثة مجال التطبيق سنة 1450 م بدأت أوربا تمسح أميتها وتعلم جنودها فنون الحرب. في عام 1464م استخدم "ايرل وارفيك" البارود والمدافع في دك حصون بامبورو، مغيرا بذلك وجه الحرب وأساليب القتال بين البشر مرة واحدة والى الابد. وفي عام 1453 سقطت القسنطينية بيد العثمانيين. وفي 1492 استقرت اسبانيا نهائيا بيد "فردينالد" و"ايزابيلا".

بعد الجلاء الأوربي التام عام 1305 عن المشرق العربي، أدركت الكنيسة الاوربية ومطامح النبلاء ان لا مستقبل للغزوات الصليبية شرقا، فكان يجب التوجه نحو الشمال الافريقي، أوغربا في تخوم الاطلسي نحو العالم الجديد. بارك البابا اسكندر السادس، إحتلال الاسبان للعالم الجديد، وأقر تقاسمهم الهنود كغنائم حرب. وأصدر البابا نيقولا الخامس عام 1510 قرارا بابويا: ( يصرح فيه للبرتغاليين بمهاجمة العرب والمغاربة واستعبادهم)، وكذلك: ( الكفار وغيرهم من أعداء المسيح في جنوبي"راي بوجادور" وبلدان افريقيا على سواحل الاطلسي). وشددت تعاليم البابا: (على ان يكون مفهوما، ضرورة تحويل الاسرى الى المسيحية)<sup>47</sup>. واعتبرت البابوية ظاهرة العبودية حينذاك ظاهرة طبيعية، يتضمنها قانون الغزو والفتح. كان التبرير الايديولوجي لشرعية العبودية والرق،

<sup>45</sup>- العبودي عبد الكاظم، موقف اليسار الكلاسيكي الاوربي من القضية الجزائرية والعالم الثالث، الملتقى الدولي فرانس فانون، جوان، 2008، ولاية الطارف، الجزائر.

<sup>46</sup> من كلمة فرانتز فانون في أول مؤتمر للكتاب والفنانين السود الذي انعقد بباريس في شهر سبتمبر 1956، ونشرت في العدد الخاص لمجلة "الحضور الافريقي" الصادر عن الفترة ما بين جوان/حزيران و نوفمبر/تشرين ثاني 1956. انظر ايضا فرانتز فانون، من أجل افريقيا، ترجمة محمد الملي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1980، ص 13.

<sup>47</sup> Pierre Parraf, La Racism dans Le Monde, Pbp, ,p.26 , Paris, 1981

العودة الانتقائية، بالاستناد الى النصوص التوراتية، ومنتقيات من كتابات ارسطو في كتابه "السياسة"، وكذلك القديس توماس الاكوييني الذي دعا الى استعباد اليهود والهرطقة.

ما بين (1400-1600م) قفزت المبادلات بين اوربا "القارة" وباقي العالم الى مائة مرة، ثم تضاعفت اجمالا بعشرة مرات في الفترة بين (1750-1800م). وقد حققت الدول الغربية تقدما هائلا في بناء السفن الملاحية، ونتيجة لشجاعة ومثابرة التجار؛ الامر الذي مكنهم من ولوج بحار ومحيطات العالم الجديد بالنسبة لهم.<sup>48</sup> حصلت خلالها طفرة في المبادلات التجارية في حدود منتصف القرن الثامن عشر والاتساع الاستعماري نحو بلدان جديدة وضمها بالقوة المسلحة والغزو الى الامبراطوريات الاوربية الاستعمارية.

واذا ما صادف الاوربيون ارضا جديدة، يسيطرون عليها حالا ويستعمرونها، ويقتلون سكانها الاصليين، او يتم قهرهم واخضاعهم لأعمال السخرة والعبودية. كانت الفتوحات الاسبانية للعالم الجديد خلال القرنين الخامس عشلا والسادس عشر موصوفة بأنها الأكثر من وحشية، وعندما احتلّ الأسبان كوبا، مطلع القرن السادس عشر، عام 1511، كان عدد سكانها الأصليين مائة ألف نسمة، وبعد أقلّ من خمسة أعوام من انطلاق عملية الإبادة والاستيطان، ما بين العامين (1514 – 1519)، هبط عدد أصحاب البلد الأصليين من مائة ألف إلى بضع مئات الأشخاص، أي أنّهم زالوا من الوجود، حيث تمّ القضاء عليهم بطرق منهجية على أيدي المتحضرين الغربيين، وانفرد المستعمرون الأسبان بالثروات الهائلة من الذهب الكوبي، الذي سرعان ما نفذ ، فبدأوا بشحن الأفارقة كالمقطعان إلى كوبا لتشغيلهم كعبيد، ، في زراعة التبغ وقصب السكر في الجزيرة النائية.

في القرن التاسع عشر بدأ سكان كوبا الجدد المستعبدون بدورهم نضالهم لإلغاء نظام الرقّ الاسباني، وبالفعل أعلنت المساواة بين البيض والسود في العام 1893، ثم اندلعت الثورة ضدّ الأسبان بقيادة خوسيه مارتى في العام 1895، وفي العام 1898، وهو تاريخ تحوّل الولايات المتحدة إلى دولة إمبريالية، تدخلت واشنطن وسيطرت على تجارة السكر في كوبا وتصادمت مع الاستعمار الاسباني القديم. وفي العام نفسه أبرمت معاهدة تخلّت مدريد بموجبها عن كوبا لواشنطن. اما سجل البرتغاليين، فقد بدا مختلفا بعض الاختلاف، ففي افريقيا أقام البرتغاليون، في البداية، علاقات ودية وسليمة مع الافارقة. وتبادل ملوك البرتغال السفراء مع حاكمي الكونغو، ولكن تزايد الطلب على العبيد خلال القرن السادس عشر للزراعة في البرازيل وغرب الانديز، وكذلك توسع مستعمرات انجلترا في جنوب امريكا الشمالية، التي اضحت تتطلب استهلاكا اكبر لطاقت العبيد.

<sup>48</sup> كالن سير روي ، عالم يفيض بسكانه مرجع سابق، ص 114 و 115.

وقد بلغت اوجها في القرن السابع عشر، واستمرت تلك الحالة حتى منتصف القرن التاسع عشر.<sup>49</sup> من المفارقة هنا ان الاوروبيين ينسبون للعرب وحدهم ممارسة تجارة الرقيق الافريقي ويستنون أدوارهم فيها .

ولعل أكثر الاحداث مأساوية لعمليات الابداء هي تلك التي حدثت للهنود الامريكيين في كل من النصف الشمالي والجنوبي من القارة الامريكية، والمصير البائس نفسه لقبائل السكان الاصليين الأبوريجينيا Aboriginal في استراليا. وعندما تتالت اخبار الفضائع والمجازر الواردة من العالم الجديد الى اوربا، اضطر الاب "فراي انتونيو مونتزينوس" Fray Antonio Montesinos " بذكرى الاحد الاخير السابق على عيد الميلاد من عام 1511م أن يستنكر تلك الوحشية وهو يلقي عظته في كنيسته الاسبانية ليقول: (... أنتم جميعا خطاة، وخطيئكم قاتلة، بسبب قساوتكم على هذا الجنس البرئ، أليسوا بشرًا؟).<sup>50</sup>

وكان مثل هذا التساؤل الصارخ قد بدأ يثقل ضمير البشرية وتساؤلاتها حول مصير السكان الاصليين الهنود في العالم الجديد، وعن زواج أفريقيا التي حملتهم سفن الرق والعبودية، منذ بدأت الحقبة الكولونيالية والاستعمار الاوربي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر وقيام الامبراطوريات الكولونيالية ثم الامبريالية في العصر الحديث. ومنذ ذلك الحين بدأ يثور جدل حول تعريف ومفهوم الابداء؟. فاذا كان البعض قد اعتبر: (الهنود كائنات منحلة، وهم عبيدا بالطبيعة)، فإن رد البعض الآخر جاء بالقول: (ان ديننا موجه الى جميع الامم... لا يسلب احدا حريته بدعوى انه عبد بالطبيعة).<sup>51</sup>

بعدها وفي عام 1537م، اضطر البابا بولس الثالث في قرار للكنيسة التصريح: (... ان الهنود هم في الحقيقة بشر، وأهل لتلقي العقيدة، فهم أبناء آدم). والنص بدلالته الشرطية يلزم الهنود بتلقي العقيدة المسيحية، ليكونوا بشرا من ابناء آدم وحواء. اما الرق فظل على ماكان عليه طالما كان يخدم التوسع الاستعماري والحاجة الى يد الارقاء لاستصلاح الاراضي، وفتح الطرق في المستعمرات الجديدة.

اما افريقيا فقد تعرضت لعملية ابداء اخرى، تظل عارا على الجنس البشري، تجسدت في استغلال المواطنين الافارقة، والاتجار بهم كعبيد، ونقلهم الى بلدان أمريكا وجزر الكاريبي . اما العلاقة اوربا/حضارة وثقافات مع العالم، فحتى منتصف القرن الثامن عشر، ظلت كما كانت عليه في النصف الثاني من القرن السادس عشر. إقتصرت الاتصالات بحدود التعارف وتبادل التأثير

<sup>49</sup> Encyclopedia Britannica, Racism الموسوعة البريطانية/ العنصرية

<sup>50</sup> France De Fontette, Que Sais – Je?, Paris, 1984, p.35

<sup>51</sup> Pierre Parraf, La Racism dans Le Monde, Pbp, Paris, 1981, p.26

على مستوى التمثيل والأفكار. عندما كانت بعثات الاستطلاع والاستكشاف والتجارة تتعامل مع المناطق الواقعة على ضفاف القارات من دون التوغل في الاعماق بعيدا عن السواحل والموانئ؛ وكانت آسيا وبحكم كثرة وتعقيد ممراتها البحرية وخلجانها بدت وكأنها لم تمس بشئ من التأثير الاوربي<sup>52</sup>. تأخر استعمار أفريقيا اقتصاديا، مقارنة مع آسيا وامريكا. استعمار آسيا كان سياسيا والوصول الى مواقع النفوذ والسيطرة على الاسواق ونهب الخيرات والمواد الاولية اينما كانت، اما امريكا فقد كان احتلالا اباديا للسكان، واقتصاديا لنهب الثروات، وسياسيا لاقامة مستعمرات تابعة للامبراطوريات الاوربية الممتدة شرقا وغربا.

بدأ استعمار آسيا المدارية بصورة فعلية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بينما تأخر الاستعمار الفعلي الحقيقي في افريقيا حتى القرن التاسع عشر. ورغم ان الشرق الاسيوي كان الهدف الاصلي لأولى محاولات الاستعمار، بدت الحملات الاستعمارية غريبة في انها تخطت افريقيا وهي متوجهة في طريقها الى آسيا البعيدة، تماما كما تخطى البرتغاليون جنوب افريقيا وهم في طريقهم الى الهند<sup>53</sup>. والاستعمار لأفريقيا امتد نحو ثلاثة قرون، ومَرَّ بمرحلتين: من القرن (15 / 16) الى القرن التاسع عشر، حيث بدأ الاستعمار الكامل لافريقيا. والبدايات كانت في مرحلة "الاستعمار الساحلي"، من دون التمكن من النفاذ الى الداخل، ثم جاءت (مرحلة النفاذ والتوغل الى تخوم الداخل).

هذا التأخير ناتج بسبب الجغرافية الطبيعية للقارة الافريقية وتنوعاتها الغابية والصحراوية وطبيعة وكثرة انهارها، لهذا اقتصر الاستغلال الاستعماري في مراحله الأولى على أخذ وحمل أخف وأعلى السلع الساحلية، وخاصة الرقيق من البشر، أي تجارة الرقيق. و بذلك يدشن الاوربيون إستعمار ابادي، من نوع جديد لم تعرفه قارة أخرى يمكن ان يطلق عليه "الاستعمار الديموغرافي". ومرحلة الاستعمار هذه اصبحت "مرحلة استعباد" بشري قبل كل شئ<sup>54</sup>. يقدر عدد المستعبدين المنتزعين من ابناء افريقيا بحدود 100 مليون إنسان، بمن في ذلك من نقل حيا ومن مات في الطريق<sup>55</sup>. ولئن صح هذا الرقم، الذي قد يرى البعض فيه انه مبالغ فيه بدرجة أو أخرى، فلا شك ان عمليات الاتجار بالرقيق وخطفهم ونقلهم عنوة الى خارج بلدانهم كانت أعظم موجة في حركات السكان *Volkerwanderung* في التاريخ القديم أو الحديث. ولأن أضخم هجرة سكانية حديثة، تجلت في خروج الاوربيين طوعيا الى القارات الجديدة خلال قرن، كانت ذروتها ما بين أعوام

52 شونو بيبير ، الحضارة الاوربية في عصر الانوار، مرجع سابق، ص 70.

53 حمدان جمال ، افريقيا الجديدة، مكتبة الاسرة، ص 24، القاهرة، (2005).

54 حمدان، جمال "افريقيا الجديدة"، مرجع سابق، ص 24 .

55 Beaujeu –Garnier, J., *Geo. De Is Pop.*, , tom. 2, p.39 ,Paris,(1958).

(1820- 1920) م. لم تتجاوز 60 مليوناً<sup>56</sup>. فإن تهجير الافارقة، مهما كانت الاعداد المتفاوتة التي تقدمها الاحصاءات التقريبية كان اكبر من ذلك.

عملية اقتلاع البشر عن بيئاتهم وثقافتهم ولغاتهم وعاداتهم إنما هي شكل من أشكال العبودية والابادة معا. تعتبر افريقيا موقعا وطبيعة "قارة مدارية" بالضرورة، فهي بين المداريات الثلاث تحتل موقع القلب. ومساحة المداريات فيها تبلغ 75 % وتنوع مناخها ومساحتها تعادل مساحة استراليا وامريكا الجنوبية، أي 117 مليون ميل مربع<sup>57</sup>. اما تاريخا وجنسا فأفريقيا عرفت بـ "القارة السوداء"، وسميت ايضا "القارة المظلمة"؛ لان هذا المركب الطبيعي وما اشيع عنها اوربيا ساعد على قطعها عن العالم طويلا وبقيت خارج الاطماع الاوربية الاستعمارية المبكرة. حتى إستراليا، تلك "القارة الجنوبية" البعيدة التي كانت توصف بأنها "تحت وأسفل"<sup>58</sup>. دخلت دائرة الحضيرة الاستعمارية قبل القارة الافريقية، لذا فالقارة المظلمة ظلت طويلا، نوعا من الارض المجهولة **Ultima Thule**. وإذا كانت القارة الافريقية هي موطن الجنس الاسود فقط منذ البداية، لكن الغزوات الاستعمارية تدخلت في انتشار هذا الجنس فنقلت هذا الجنس الى الاصقاع البعيدة ونقلت الى افريقيا سكانا من اجناس عدة وأصبحت افريقيا موطننا لخلائط بشرية من اجناس شتى.

وكما كان مصير السكان الاصليين لقارات استراليا وامريكا هي الابادة وانتشار الامراض الفتاكة وانتقال اوبئة لا عهد للقارات السابقة بها، فان افريقيا لم تشذ عن بقية القارات الاخرى سوى انها قاومت عوامل الانقراض والابادة وحدها،<sup>59</sup>. لعزوف الهجرات الاستيطانية المرافقة للفتوحات الاستعمارية من الاستيطان في عمق بلدان القارة. لهذا فان افريقيا السوداء تعتبر اليوم مجتمعا متعدد الاعراق والاجناس **Plural Society Multi Racial**. وإذا ما إنتزع "الاستعمار الديموغرافي" من القارة عشرات الملايين من البشر الافارقة، ونقلهم قسريا الى "العالم الجديد" فقد فرض عليها ايضا إستيطان معاكس لبضعة ملايين من الدخلاء المستوطنين الاوربيين.

ليس هذا كان تبادلا سكانيا او نتاجا للهجرات البشرية، بل كان إقتلاعا للسكان الاصليين من مزارعهم وارضيتهم الخصبة وإحلال الغرباء فيها من الغزاة، مما شكل نزيفا رهيبا لأهلها ودشن

<sup>56</sup> هكسلي جوليان ،كان مديلا عاما لليونسكو، قال في محفل دولي " لابد من تحقيق التوازن بين السكان والموارد الاقتصادية، وإلا فعلى الحضارة الفناء" راجع كالن سير روي ، "عالم يفيض بسكانه"، عالم المعرفة، ، العدد 213، ص7، الكويت 1996،

**Huxley Julian, A. C. Haddon and A. M. Carr –Saunders, We Europeans, Pelican Books, 1939, p.201**

<sup>57</sup> جمال حمدان، "افريقيا الجديدة"، مكتبة الاسرة، القاهرة، 2005، ص14. **Mackinder, H. J., Democratic Ideals and Reality, Pelican Books, 1944, p.46**

<sup>58</sup> **Davis, D.H., Earth and Man, , p.350, New York, (1950).**

<sup>59</sup> أرنولد دافيد، مجموعة مؤلفين، " الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية"، سلسلة عالم المعرفة العدد 236، ، ص14. ص260 وغيرها من الصفحات. الكويت، (1998).

مسلسل الابدات المنظمة لسكان القارة، فأصاب حيوية القارة بفقر دم بشري، ما لم تصب به قارة أخرى<sup>60</sup>. أفريقيا هي القارة الوحيدة التي شهدت أدنى "ثورة ديموغرافية"، واشدها ضئالة في إزدياد عدد السكان في العصر الحديث؛ بل ان أغلب تاريخها السكاني الحديث شهد تناقضا في معدلات النمو وتأخرا في تزايد السكان الطبيعي. فلم يتقرر التزايد السكاني الا حديثا نسبيا منذ عام 1800م، في حين كانت قد بدأت كل من أفريقيا وأوربا بقدر متساو من السكان حوالي (100 مليون نسمة بحدود عام 1650م)<sup>61</sup>. ويلاحظ ان أفريقيا لم تضاعف نفسها سكانية الا مرتين، خلال ثلاثة قرون، مقابل تضاعف سكان اوربا أمامها بست مرات؛ حتى ان نسبتها المئوية من سكان العالم اليوم هي الأقل، وهي النسبة الأقل مما كانت عليه عند نقطة الابتداء. ويبقى تداول تعبير "ثورة افريقيا الديموغرافية" مبالغا فيه في كثير من الادبيات العلمية والسياسية والاعلامية، ومن قبيل التجاوز على الحقائق؛ لأنها تبقى، إن صح التعبير، "ثورة منقوصة" مقارنة مع "الثورة الديموغرافية الاوربية" التي تضاعفت كما أشرنا<sup>62</sup>: (ومن المؤكد ان العلاقة بين "الثورتين الديموغرافيتين" علاقة سببية مباشرة؛ بمعنى ان الثانية لم تكن مضاعفة إلا لأن الاولى كانت منتقصة)<sup>63</sup>.

افريقيا هي القارة الوحيدة المنقردة في الجانب الاقتصادي - السياسي الذي وصل الى أذناه. فرغم لان الاستعمار إجتاح العروض والبلدان المدارية عامة، فان افريقيا كانت النمط والمثل الكلاسيكي للـ "القارة المستعمرة".

وهنا نجد مظاهر التفتيت السياسي والنزيف الاقتصادي الذي خضعت له القارة، يكرر في صورة متبلورة ما حدث في المستعمرات المدارية بصورة مركزة؛ فالتخلف الحضاري والمادي والمركب الاقتصادي الاولي المتخلف، بكل ما يعني من أنماط الانتاج والتصدير والتسويق، وكل ما يحمل من اقتصاديات تابعة ومشاكل تنمية. تلك عناصر مشتركة بين المداريات المُستعمرة، ولكنها

<sup>60</sup> Garnier, J Beaujeu, Geo. De Is Pop., tom. 2, p.39, Paris, 1958

<sup>61</sup> Saunders Carr, A., World Population, London, 1936

<sup>62</sup> ترى النظرية الديموغرافية الانتقالية، وهي احدى النظريات السكانية الحديثة واكثرها رواجاً وقبولاً بين علماء السكان ان شعوب العالم تمر بثلاث مراحل كبرى في تاريخها السكاني وهي: المرحلة البدائية، والمرحلة الانتقالية، ومرحلة النضج السكاني. المرحلة الاولي تشهد ارتفاعا بمعدل المواليد مع ارتفاع معدل الوفيات وخاصة الاطفال الرضع ونتيجة الاوبئة والمجاعات والثانية، المرحلة الانتقالية هي مرحلة الانفجار السكاني او "الثورة الديموغرافية" نتيجة النمو السريع للسكان والانخفاض المطرد في معدل الوفيات مع بقاء ارتفاع معدل المواليد في ارتفاعه. وقد مرت اوربا بهذه المرحلة من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر، بينما لازالت افريقيا تعيش هذه المرحلة. وعندما وصلت اوربا الى مرحلة النضج السكاني التي تتميز بالنمو المعتدل او البطئ للسكان بفعل نجاح وسائل الاصلاح وارتفاع مستوى المعيشة يصل النمو السكاني الى ادنى حد له (يتراوح بين 7 و 10 بالالف. وتسجل اوربا الان ادنى المعدلات بحدود 0,2% بينما تسجل افريقيا اعلى معدلات النمو السكاني بحدود 2,9%).

<sup>63</sup> حمدان جمال، "افريقيا الجديدة"، مكتبة الاسرة، 2، ص 14. القاهرة، (2005).

من القوة في أفريقيا بحيث أصبحت هي بالضرورة "القارة - المشكلة"<sup>64</sup>. وكل هذا لا يبرر مطلقاً "متتالية رينز" الكاسحة والقاسية التي يقول فيها ما نصه: (...إن أفريقيا ثانياً القارات مساحة، وربعتها سكاناً، وفي الحضيض حضارة، بعد انتاركتيكا اللا معمورة)<sup>65</sup>. معنى ما سبق: إن أفريقيا رغم أنها تشترك مع المداريات الأخرى في أغلب خصائص المركب الطبيعي البشري، كما أنها بهذا تمثل تركيزاً قوياً، بحيث تعد من أكثر المداريات مدارية في كل مجال. لكن التحليلات السياسية تحط من مكانة هذه القارة، خاصة بما يتعلق بأسس ومقومات "الشخصية الإفريقية".

وإذا كانت القارات الشمالية تتناقض في جملتها مع القارات الجنوبية، في أن الأولى خارج مدارية أولاً، وأكثر جزرية، وأطول تاريخاً، وأرقى حضارة، وأكثر تصنيعاً وتمديناً، وأكثر استثماراً وسكاناً، وإنها كانت مهد القوى السياسية الاستعمارية، بعكس الثانية باستمرار، فإن هذه النقائض مثلما تتبلور في أوروبا بشكل حاسم، فإنها تتبلور جداً في أفريقيا في الجانب الآخر<sup>66</sup>.

بقيت أمريكا، المجال المتميز لأوروبا خارج أوربا، مجال الأراضي المفتوحة **Conquista** تحقق ما وراء الأطلسي المزيد من التوسع والاستيطان، وتحقق معه كثيراً من التطلعات الاستعمارية الجديدة وعلاقة البشر بالأراضي المفتوحة. وفي أوربا، عند الانطلاق للحملات الاستعمارية، لم يكن من وجود الإمبراطوريتين "الروس والبولون والألمان، بمحاذاة العثمانيين. ولم يكن من وجود إمبراطوري خارج أوربا المتوسطية والبرتغال وإسبانيا. أما التوسع الهولندي فأخذ مداه إلى النهاية القصوى للقرن السادس عشر. وفي 1680م. كان هذا التسلسل التاريخي لا يزال له الأمر والنهي؛ فالهولنديون والفرنسيون والإنجليز كانوا في مركز الشبكات التجارية الهامة، وكانوا حاضرون في أمريكا، وفي المحيط الهندي، واندونيسيا والفلبين "انسيلاند" وفي بعض المراكز الدائمة.

وما بين (1670 - 1680م.) إحتل الهولنديون بشكل دائم ستة مراكز تجارية على شاطئ مالابار، وكوروماندل: كولومبو وجافنا تُطبق على الشواطئ الغربية والجنوبية لسيلان. أما جزيرة موريس أصبحت تحت الاحتلال اعتباراً من 1638م. أما مالقا فتتحمك في العبور إلى الصين وطريق التوابل، كما تمت السيطرة على أجزاء من شواطئ فرموزا التي تؤمن التوازن مع تأثير مكاو البرتغالية. وكان عشر جزيرة جاوا تحت الإشراف الدقيق، ويؤمن التحكم الفعلي في أرخبيل موليك الاتصال السنوي. وكان الافتتاح الجزئي في اليابان لميناء ناغازاكي من بين أنشطة أحد

<sup>64</sup> Stamp, L.D., Africa, A Study in Tropical Development, p.3 New York (1953).

<sup>65</sup> Renner, G.T., Africa: A Study in Colonialism in World Political Geo., ed. G. Etzel Percy and R. H. Fifield, p.393. New York, (1951).

<sup>66</sup> حمدان جمال، مرجع سابق، ص 18.

فروع الشركة الهندية الشرقية المتحدة **Vereenigde OostIndische Compagnie** التي كان نفوذها يتصاعد منذ 1620. ظل البرتغاليون في أماكن عدة، من بينها غوا ومكاو، وفي نقاط عديدة من تيمور، وفي أقصى شرق الأنسيلاند<sup>67</sup>. أما الانجليز فكانوا في بومباي منذ 1660م. وهم كانوا يسعون الى موضع قدم لهم في كورومانل منذ 1626م، وفي 1639م. منحهم حاكم دويلة فياناغار امتيازاً في مدراس، فبنوا فيها حصن سان جورج. الا ان جميع محاولات شركة الهند الشرقية **East India Company** للحصول على موطن قدم في خليج البنغال باءت بالفشل في القرن السابع عشر. وقد تم احتلال هزيهاربور، بالازور، موغلي بنتا، كسيمبازا، على التوالي ثم تركت لاحقاً.

تمركزت فرنسا في الربيون ( 1638 - 1639م.) ولكنها انتهت الى الفشل على الشاطئ الجنوبي لمدغشقر في فور-دوفان. اما شندرناغور فاحتلت في 1673م. وبونديشيري في 1688م.<sup>68</sup> ظلت شركة الهند الشرقية الهولندية تحتفظ بما لا يقل عن (75 - 100) موقعا لتأمين الاتصالات البحرية المباشرة بين اوربا الى آسيا والأنسلاند.

وفي افريقيا، أحكمت القوى البحرية الاستعمارية قواعد لها في خليج غينيا والى حدود انغولا باكونغو وسوفالا، وذلك لتأمين التجارة وتحصيل الرسوم. أما جزر الانتيل الصغرى في الكاريبي فتوزعها الغزاة فيما بينهم بعد ان تخلى عنها الاسبان، الفرنسيون، والانجليز والهولنديون. تواجد الانجليز في جامايكا منذ 1658م وانهمك الفرنسيون على الشاطئ الغربي على آثار<sup>69</sup> "إخوان الشاطئ".

وهكذا امتدت الامبراطوريات الاستعمارية شرقاً وغرباً، توسعات وامتدادات بحرية وبرية ومبادلات ضخمة "توسع في النهب الاستعماري"، استصلاح اراضي جديدة واستغلال مئات الالوف من الافارقة المجلوبين قسراً او بتجارة الرقيق الى المستعمرات الجديدة وزراعة اصناف تحتاجها بلدانهم المستعمرة والمواد الاولية التي تحتاجها الصناعات الجديدة .

#### 7-5 : التقدم العلمي وحافز القوة دفعا الى الحروب والغزو البعيد:

بلغت الملاحة البحرية الاوربية في اعالي البحار في القرن السادس عشر وفي النصف الاول من القرن السابع عشر ما بين (40000 - 45000) رحلة بحرية. تدوم الرحلة من شهرين الى اربعة أشهر، فيكون الاجمالي 3000000 "ثلاثة ملايين" يوم ملاحه/سفينة ما بين اعوام (1500 -

<sup>67</sup> شونو بيير، الحضارة الاوربية في عصر الانوار، مرجع سابق، ص 71.

<sup>68</sup> شونو بيير، الحضارة الاوربية في عصر الانوار، مرجع سابق، ص 71.

<sup>69</sup> تتثار هذا اليوم قضية القرصنة الصوماليون، ويجري التنكير الأوربي بأيام الحرية الجزائرية وسيادة الرياس على البحر. لكن لفظة القرصنة والقرصنة في الكتابات الاوربية تطرح بكثير من السلبية والعنصرية ناسين أدوارهم التاريخية في القرصنة البحرية في المتوسط وما وراء البحار. يراجع: وولف جون ب، الجزائر وأوربا 1500-1830 ترجمة د. ابو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 413، 419 وغيرها من الصفحات، الجزائر، (1986).

1650م. وما بين أعوام (1650-1750)م. بلغت 80000 رحلة بحرية؛ أي 6000000 "سنة ملايين" يوم ملاحه/سفينة. في اليوم مساحة ما مساحته 1200000 كم<sup>2</sup>. وما بين سنوات (1650 - 1750)م. يكون التقدم الملاحي بمعدل سفينة في اليوم تقطع مساحة 450000 كم<sup>2</sup>. من الغرابة والمفارقة بمكان ان الاوربيين، وهم يقدمون حصيلة غزواتهم وفتوحاتهم البحرية، الى اليوم<sup>70</sup> ، لا يتوانون عن ذكر الشعوب الأخرى بوصفهم : "قراصنة" و "برابرة" عندما تتعرض سفهم الى الهجوم، رغم أنهم كانوا يمارسون القرصنة ، وأحيانا يدفعون الاتاوات لتأمين الحماية لسفنهم المارة عبر البحر المتوسط. وعندما يذكرون، مثل تلك الحوادث البحرية، لفترات طويلة ، حتى القرن الثامن عشر والتاسع عشر "حتى احتلال فرنسا للجزائر" ظلوا يطلقون عليها تسمية: (غارات البربر من اجل الرقيق في البحر المتوسط وعلى شواطئ المشرق الاسباني)، وقد احصاها المؤلف<sup>71</sup>. بعشرات الالاف من الغارات على سفن الامبراطوريات الاوربية خلال تلك الفترات تناقصت تدريجيا حتى وصلت الى 20000 غارة هاجمت سفنا ورحلات البحر لسفن الامبراطوريات التي كانت تصل الى 80000 رحلة بحرية.

تمكنت القوة الاستعمارية من تأمين سفنها وتجاريتها ومرافئ الامداد تدريجيا، وخاصة بريطانيا التي حققت السيادة الفعلية على البحر في وقت متأخر من الفترة ما بين (1792 - 1814)م. أما الاراضي التابعة لامبراطوريات ما وراء البحار فقد تمددت مساحتها من 2,5 كم<sup>2</sup> في حدود عام 1600م. وفي داخل هذه المساحات بدأت تستوطن جماعات من القطاع الاوربي، حتى المناطق الامريكو- هندية، تفرض الاتاوات المعلومة وغير الثابتة. وخارج مساحة 2,5 كم<sup>2</sup> تلك في امريكا، تتراعى مساحات اخرى قيد الترقب ودون عداوة معلنة، ثم تحركت الامور عام 1680 م. في منطقتين فقد ضمن امريكا الشمالية التابعة للفرنسيين والانجليز ما يقرب من 100000 كم<sup>2</sup> ضما فعليا، وفيها امتداد عبور بمقدار مليون كم مربع. وكانت القطاع الخاضع للبرازيل يقرب من نصف مليون كم<sup>2</sup>. فكان ان ازدادت امريكا الاسبانية، بغية المحافظة على العدد نفسه من السكان بمقدار نصف مليون كم<sup>2</sup>.

وصلت مساحة المستعمرات في امريكا في حدود عام 1600م. الى أكثر من 3 مليون كم<sup>2</sup>. وفي نفس العام كان عدد الاوربيين خارج اوربا أقل من 200000 أوربي، وفي عام 1680 م. ما بين (600000 - 700000) اوربي، وارتفع العدد الى مليون في الفترة (1710 - 1720)م.

<sup>70</sup> يراجع: **Wolf John B., The Barbary Coast Algeria under the Turks** . ترجمه الى العربية ابو القاسم سعد الله، المرجع السابق. وكذلك:

وولف جون ب. ، ، **الجزائر وأوربا 1500-1830** "ترجمة د. ابو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ص 413، ص 419 وغيرها من الصفحات، الجزائر، (1986).

<sup>71</sup> شونو بيبير ، الحضارة الاوربية في عصر الانوار، مرجع سابق، ص 74.

واعتبارا من عام 1750 م. كان البيض في امريكا الشمالية يتجاوز عدد المستوطنين من أصول تعود الى الامبراطوريتين الايبيريتين "اسبانيا والبرتغال" في أمريكا.

وعندما بلغ سكان اوربا الى 85 مليونا كان سكان آسيا ما بين (280 - 350) مليونا، وافريقيا بحدود 60 مليونا وأمريكا "المفرّغة من سكانها بالصدمة الجرثومية والفيروسية في القرن السادس عشر بحدود 13 مليونا واستراليا مليونين، وكان تعداد نفوس اوربا وامتداداتها وراء البحار حوالي 120 مليون من اصل 550، أي 22%.<sup>72</sup>.

ومقابل اوربا، عندما بدأ عصر الانوار، لم تكن هناك سوى الصين التي كانت خارجة من اشد الازمات بعد الغزو المنشوري ومجموعة الكوارث والانقسامات. لكن هذه المقارنات لا تعني سوى معادلات غير متساوية، اذا ما نظرنا الى استمرار اتساع الهوة التكنولوجية الفاصلة بين المتوسط المرتبط باوربا وباقي العالم. وظهور التفوق الاوربي من جميع المناحي، تحسن في الغذاء والانتقال الى استهلاك اللحوم، وتساعد نسبة البروتينات الحيوانية في الاغذية الاوربية، وتوفر مستهلكات الطاقة التي بلغت 25 ضعفا عند الاوربي مقارنة مع الآخرين بفضل المحرك البخاري والآلات الدافعة.

تعتبر سنوات (1680 - 1690)م. التقريبية هي سنوات القارة الأمريكية بامتياز، فخلالها استقرت الحدود الامريكية منذ منتصف القرن السادس عشر وعاودت تقدمها الى الامام. البداية كانت في البرازيل التي تبلور قوامها وكثافتها بعد قرن كامل من فترة أمريكا الاسبانية، اقتربت مساحة البرازيل من نصف مليون كم<sup>2</sup> ولكنها توسعت وامتدت في جميع الاتجاهات حتى بلغت في حدود عام 1750م. قرابة 3 مليون كم<sup>2</sup> ضامة اليها أطراف غابة الامازون البكر. وسيطرت على المناجم ومكتشفات الذهب والماس.

ومن خلال مقارنة بسيطة حول كميات الذهب الواصلة الى لشبونة من مكتشفات المناجم في سفوح وهضاب مينااس جيراس ارتفعت من 725 كيلو غرام في عام 1699م. الى 4,35 طن في 1730 م. و 14,5 طن في 1715م. ثم الى 25 طن في 1720م. ليستقر الرقم بين (14 - 16) طنا بشكل منتظم في سنوات (1740 - 1755)م.

كما شهدت سنوات (1675 - 1677)م. حروبا طاحنة، كادت ان تقتلع الاستيطان الابيض، وتلك هي أول حرب هندية كبرى في امريكا غير الايبيرية، والبرهان الذي يؤكد انها أرخت تقدم الحدود الاستيطانية والاستعمارية بعد سلسلة من الصراعات المحتدمة التي تزايدت وتساعدت يوما

<sup>72</sup> شونو بيير ، الحضارة الاوربية في عصر الانوار، مرجع سابق، ص 75. وكذلك: أرنولد دافيد ، مقدمة المرض والطب والامبراطورية، مرجع سابق، ص 11-45. وكذلك: نيكولسون مالكولم ، الفصل الرابع من " الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية"، مرجع سابق، ص 103-154. الكويت، (1998).

بعد يوم منذ القرن الثالث عشر، فيما يطلق عليه الاوربيون" بين الحضرة المقيمين وبين الهنود الحمر"<sup>73</sup>. وهكذا شهدت تلك الفترة الطفرة الاستعمارية الكبرى، وفي التوسع الاوربي الاستيطاني، في نهاية القرن السابع عشر على حساب تصاعد معدلات إبادة السكان الاصليين للبلدان المحتلة. ومع حلول عام 1750 كانت الموجات المتتالية تشهد تنافسا، لا على الاستيطان الاوربي فقط ؛ بل أوج التنافس الفرنكو-بريطاني، وهو تنافس، تصاعد مع ازدياد المساحات المستولى عليها من قبل الاوربيين البيض على حساب تدمير شامل لباقي الحضارات والثقافات.

وفي نفس العام 1750م. امتدت حدود الاستيطان الى المكسيك، وبذلك تضاعفت مساحة امريكا الاسبانية بكل هدوء، ومن دون ضجيج، حتى وصلت المساحات المستولى عليها الى 8 مليون كم<sup>2</sup> تحت السيطرة والاشراف في عهد الهامبولت (1799 - 1804)م.

وفي امريكا الشمالية كانت المرحلة الاخيرة من "الصراع الفرنكو-انجليزي" نتيجة لتمدد الحدود واتساع الاراضي المستولى عليها وسلبها من سكانها الاصليين لتتقدم "الحدود الانجليزية" عليها باتجاه اليغاني والمسيبيي. خلال السنوات (1689-1697)، و (1702-1713)، و (1745-1748)، و (1754-1763)م. : كانت هناك 29 سنة من مجموع 74 شهدت حروبا امبراطورية، ليست امريكا الا ساحة من ساحاتها. لقد حملت الاطماع الاستعمارية سلاحها لتبيد أهل الارض وسكانها الاصليين، ومن ثم تلقت الى منافسيها لتخلق ادوات الحرب الجديدة وتطورها. هذه الحروب تترافق مع الفترات الكبرى للنمو والتوسع معا، مقترنة ايضا مع تقدم مستمر تم على يد أوربا ما بين (1885 - 1890)م. خلالها تم ابتلاع المساحات الخاوية من الكرة الارضية، والانتقال من المساحة المفتوحة الى المساحة المغلقة، الى غير رجعة.

#### 5-8: ظهور المستوطنات الاستعمارية غير بعيد عن اوربا:

اهم ما يمكن لفت الانتباه اليه في هذا الصدد هو ظهور استعمار إستيطاني جديد، بدأ في الجزائر، بسلب الاراضي ووضعها بيد الكولون"المستوطنين" الغزاة ثم ظهرت الحركة الصهيونية فحفزت ونظمت الهجرة الى فلسطين. وقد حمل مثل هذا الاستعمار، كل خصائص الاستعمار الاستيطاني الكلاسيكي، مثل ما هو في جنوب افريقيا وروديسيا مثلا، بالاضافة الى صفة خاصة به ، هي نزعة الاجلانية المتأصلة في التعامل مع سكان البلاد المزمع الحلول بها والاستيلاء عليها<sup>74</sup> ، وكما كانت كتابات الرواد الاستعماريين حول بلدان "العالم الجديد" سار على منوالهم قادة الحركة الصهيونية الاوائل في أوربا، بالدعاية الى ان فلسطين عبارة عن أرض غير مأهولة بالسكان؛ لذا رفعوا شعارا "ارض بلا شعب"، فطالبوا باعطائها الى "شعب بلا أرض". اما أولئك

<sup>73</sup> شونو بيبير ، الحضارة الاوربية في عصر الانوار، مرجع سابق، ص 78.

<sup>74</sup> العظم صادق جلال ، الصهيونية والصراع الطبقي، ، دار الطليعة ص172، بيروت، (1975).

القادة واليهود الذين يدركون الحقائق السكانية على ارض فلسطين فأقنعوا الاخرين من خلال دعايتهم : (...بأن سكان البلاد سيقبلون بانشاء الوطن القومي اليهودي على ارضهم "فلسطين" بكل رحابة صدر ودون ابداء اية مقاومة تذكر).<sup>75</sup>

ورغم ان تلك المزاعم جميعا مخالفة للوقائع التاريخية من جهة، فان الواقع يؤكد ان قادة الحركة الصهيونية من خلال كتابات هرتزل في كتابه "الدولة اليهودية" وغيره كانوا على علم تام بأن فلسطين بلاد مأهولة، وان سكانها لن يتقبلوا الاستعمار الاستيطاني دون مقاومة شديدة. وتحسبا لهذه المقاومة حذر هرتزل من الاستيطان باسلوب "التسلل" ودعا الى الهجرة على اساس واسع بعد تأمين التفوق المسبق للقوى المستعمرة عدة ومالا وسلاحا ودعمًا أوروبيا.

يقول في معرض مناقشته لاقتراحات الحركة الصهيونية لاقامة الدولة الصهيونية إما في الارجننتين أو فلسطين: (... لقد تم اجراء تجارب هامة في الاستعمار في كلا البلدين، لكن على اساس المبدأ الخاطئ القائل بتسلل اليهود التدريجي اليهما. ولا بد للتسلل من ان ينتهي الى نهاية سيئة، لأنه سيتوقف عند مجيء اللحظة المحتومة التي يشعر فيها السكان الاصليون بأنهم مهددون، فيرغمون الحكومة على وقف المزيد من التدفق اليهودي، نتيجة لذلك تبقى الهجرة بلا طائل مالم تستند الى تفوق مضمون).<sup>76</sup>

ثم أكد بان الحركة الصهيونية ستقدم مكاسب كبيرة لمالكي الارض الحاليين . ولما سأله وزير الدولة الالمانى "فون بالون" بعد سنتين من صدور كراسه "الدولة اليهودية": عن هوية مالكي الارض التي يريد استعمارها؟. أجاب هرتزل بعبارات مفعمة بالعنصرية: (عرب ويونان، دهماء الشرق المختلطة برمتها)<sup>77</sup> . و"الدهماء" في تعبير هرتزل، ك "البربر" أو "العرب" هم سكان البلاد الاصليين ولا احد منهم يستحق الذكر وفق وجهة نظر المستعمر الاوربي الغربي؛ ولهذا فان الحركة الصهيونية حملت معها كل الخصائص العنصرية والشوفينية والاستغلالية التي كانت تحملها عادة الحركات الاستعمارية الاستيطانية الاوربية ازاء شعوب عالم المستعمرات واشباه المستعمرات.

عبر هرتزل عن ذلك بوضوح في يومياته، حيث أكد ضرورة استغلال سكان البلاد الاصليين والاستفادة من عملهم في الاعداد للاستيطان اليهودي، ومن ثم العمل على اجلائهم عن وطنهم

<sup>75</sup>. Elon Amos, The Israelis :Founders and Sons, Weidenfeld and Welson, pp. 148 -151, London, (1977).

<sup>76</sup> هرتزل، ثيودور " الدولة اليهودية"، الترجمة العربية "الفكرة الصهيونية" ص 119 وكذلك كتابات "يوميات هرتزل الكاملة" الترجمة العربية، مركز الابحاث والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973 صفحات مختلفة.

<sup>77</sup> هرتزل ثيودور، يوميات هرتزل الكاملة، ج2، مرجع سابق ، الترجمة العربية، ص 98.

بصورة تدريجية. وعندما كانت الارجننتين أو جنوب افريقيا وردوديسيا واوغندا محطات استيطان فكرت بها الحركة الصهيونية لنقل اليهود. نرى أن هرتزل ظل يفكر بالاستصلاح للاراضي المقترحة للاستيطان كالتالي: (...إذا رحلنا الى منطقة تعيش فيها حيوانات متوحشة لم يعتد عليها اليهود - الافاعي الكبيرة... الخ- سأستخدم السكان الاصليين، قبل تشغيلهم في بلاد العبور لإبادة تلك الحيوانات، مكافئات كبيرة مقابل جلود الافاعي) <sup>78</sup>.

وثناء زيارته الى فلسطين لاحظ "هرتزل" أن المستوطنين اليهود الاوائل كانوا يعانون من حمى المستنقعات، وإنخفاض مناعتهم، على العكس من صحة سكان البلاد الفلسطينيين العرب، اقترح تشغيل العرب في تجفيف المستنقعات واستصلاحها، حتى تصبح البلاد ملائمة لمزاج المستوطنين الاوربيين<sup>79</sup>. وعندما زار الكاتب اليهودي الصهيوني المعروف "آحاد هاعام" فلسطين عام 1891 وصف سلوك المستوطنين اليهود في فلسطين تجاه سكان البلاد: (.. انهم يعاملون العرب بروح العداة والقسوة، ويحرمونهم من حقوقهم، ويسئون اليهم دون أي سبب كما انهم يذهبون الى حد المفاخرة بتلك الافعال، ولا أحد بيننا يعارض هذه الميول الخسيسة).<sup>80</sup> وهكذا عملت الحركة الصهيونية على انجاز مشروعها الاستيطاني لليهود الاوربيين في فلسطين، وفق تعليمات وبرنامج "هرتزل" الاستعماري الاستيطاني الاجلائي على النحو التالي :

(... عندما نحتل البلاد يجب علينا تجريد اصحاب الارض المخصصة لنا من ملكيتهم لنا، وذلك بلطف في البداية. سنحاول دفع السكان المعدمين خلسة عبر الحدود عن طريق تأمين الاشغال لهم في بلدان العبور وحرمانهم من أي عمل في بلدنا... يجب تنفيذ عمليتي التجريد من الملكية، وترحيل الفقراء بتكتم وحذر. وليعتقد اصحاب الملكية غير المنقولة، بانهم يخدموننا، ببيعنا أشياء بأكثر من قيمتها، لكننا لن نعيد بيع أي شئ لهم)<sup>81</sup>.

ورغم ان "هرتزل" لم يشر في برنامجه الى بناء القوة العسكرية للمستوطنين للسيطرة على الاراضي، وترهيب السكان، إلا ان العمل على بنائها قد بدأ فعليا قبل وخلال وبعد إتمام الهجرات المقررة للاستيطان. واذا كان الاستيطان الاوربي قد حول اليد العاملة المحلية من السكان الاصليين والعبيد الذين جلبوا من افريقيا لاستصلاح وبناء المستوطنات وانشاء المزارع باجور رخيصة، فان الحركة الصهيونية وهجراتها الاوربية الاولى كانوا يعتمدون على اليد العاملة العربية اعتمادا شبه

<sup>78</sup> هرتزل ثيودور، "يوميات هرتزل الكاملة"، ج2، مرجع سابق، الترجمة العربية، ص 77-78.

<sup>79</sup> هرتزل، "ثيودور يوميات هرتزل الكاملة"، ج2، مرجع سابق، الترجمة العربية، ص 740-741.

<sup>80</sup> ابو لغد ابراهيم، تهويد فلسطين، مركز الابحاث، صفحات عدة، بيروت، (1972).

<sup>81</sup> هرتزل، يوميات هرتزل، مرجع سابق، ج1، ص 76، ص 76.

كلي في مستوطناتهم الزراعية او في الاعمال الاخرى التي يمارسونها مثل المقاولات وبناء المشاريع والمستوطنات الصهيونية<sup>82</sup>.

وما ان انجزت الحركة الصهيونية وصول موجة الهجرة الثانية [بلغ عدد السكان اليهود حوالي 56000 نسمة "منهم 12000 من المستوطنين، وحتى 1918 كان السكان العرب 644000 عربي فلسطيني، وكانت ملكية الاراضي لليهود لم تتجاوز بعد 2.2% من مساحة فلسطين.

في الفترة ما بين صدور وعد بلفور وسنة 1924، لم يهاجر الى فلسطين سوى حوالي 34000 يهودي، بينما هاجر في الفترة نفسها من يهود أوروبا الشرقية الى الولايات المتحدة وحدها ما يقارب 240000 يهودي، وخلال فترة صعود الفاشية في اوربا أغلقت ابواب الهجرة امام اليهود نحو الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وجنوب افريقيا، وتم توجيه الهجرة نحو فلسطين بمساعدة سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين. ففي عام 1935 لم تسمح الولايات المتحدة بهجرة اكثر من 6252 مهاجرا يهوديا من الهاربين من الاضطهاد النازي، واستقبلت الارجننتين 3159 والبرازيل 1758 وكندا 624. وفي المقابل استوعبت فلسطين 61854 بموافقة سلطات الانتداب البريطاني.<sup>83</sup>

تصاعدت الهجرة الى فلسطين (1905-1914)، حيث أستكملت عمليات دمج المستوطنات اليهودية في فلسطين التابعة لكل من البارون "ادموند دي روتشيلد" والبارون "دي هيرش"، وافتتاح البنك الانجليزي الفلسطيني 1903 ونشاط المؤسسة الفلسطينية اليهودية للاستثمار، وابتداء الصندوق القومي اليهودي بشراء الاراضي في فلسطين 1905 حينها بدأت تنفيذ مخططات طرد العرب . يترك لنا كاتب يهودي هو "م. سميلانسكي" سجلا لمناقشة جرت بين مجموعة من المستوطنين في ذلك الوقت تعكس بوضوح تام سيادة عقلية الاستيطان بالقول: (...يجب علينا أن نذهب شرقا، [أي الى شرقي الاردن]، سيكون ذلك امتحان لحركتنا... وحالما تصبح لدينا هناك مستوطنة كبيرة سنستولي على الارض، وسنغدو أقوى، عندها سنهزم بالضفة اليسرى [من النهر]، سنطردهم من هناك ايضا، ليعودوا الى البلاد العربية<sup>84</sup> .

## 5-9: الحدود الجغرافية والحدود التكنولوجية والحروب:

أفرزت الثورة العلمية وتقدم التكنولوجيا حدودها. وإعتبارا من العملية التي بدأت بين (1745 - 1750 م). أصبح في أوروبا نوعان من "الحدود": "الحدود" المكانية، و"الحدود" التكنولوجية، وهما

<sup>82</sup> من المفارقة ان نفس الفكرة لازالت مستمرة باستغلال العمال العرب والفلاحين الفلسطينيين في اسرائيل حتى اليوم حتى في بنا جدار الفصل العنصري والمستعمرات الصهيونية الجديدة سواء في داخل اسرائيل او في الاراضي الفلسطينية المحتلة الاخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة.

<sup>83</sup> Laqueur W., A History of Zionism, Weidenfeld and Nicolson, pp.507 London,(1972).

<sup>84</sup> العظم، صادق جلال مرجع سابق، ص 179، المرجع The Lobel,Elie,,Palestine and Jews , Arab World and Israel, Monthly Review Press, ,p.120, New York,(1970).

في تنافس فيما بينهما. فقد بدأ العهد النهائي والحصري لـ " الحدود الجديدة" منذ عهد المساحات الارضية المغلقة مع نهاية القرن التاسع عشر. إنه الإيقاع الجوهري في سنوات (1689 - م 1713). و (1745 - 1763 م) ، ولا يجوز ان تُخفى التوابع الثانوية لهذا التطور ومنافساته؛ فالحروب "الفرنكو- انجليزية" كانت أيضا مزدوجة التواريخ (1689 - 1697) م. و (1745 - م 1748) ، وقد ربحت فرنسا منها أكثر مما خسرت، رغم عدم تفوق مواقعها. وفي سنوات (1702 - 1713) م. و (1745 - 1763 م). كانت الهزيمة الفرنسية، وهي الجزئية، في عام 1713 م.، رغم خسارة مراكز في خليج هدسون وأكادي، وتحولت الى نقطة انطلاق لأوديسة عجيبة، كانت أوديسة كاسحة وكلية في عام 1763م<sup>85</sup>. هذه الحروب الاطلسية والاوربية هي ايضا أمريكية بالكامل، فهي ناجمة عن التقاء جبهة استيطان بمناطق رحلات وعبور. وقد انجلى وتوضح ببطئ الخطر الفرنسي المهدد لطرق التجارة الهندية، وكان ذلك التهديد على النفس الطويل الذي تصادم مع الطموحات البريطانية في كثير من المواقع في القارة الامريكية. كانت امريكا الفرنسية أعاققت الانجليز من مد اطماعهم الى ما وراء الأبالاش. واعتباراً من عام 1702 توضح الخطر جليا على بريطانيا، من خلال التحالف الفرنكو- اسباني. لقد اصبحت "اسبانيا الجديدة" مرتكزا لفتح جديد، أبعد من "حدود" المناجم، وعلى اعاققة مستكشفي الغابات وإعاققة توسعهم على حساب الهنود.

والخطر الفرنسي تجلى لبريطانيا، بمقدار ما كان مكتشفوا الغابات يطيب لهم، في الغالب، تقديم الكوادر والوسائط الى المقاومة الهندية. إذن تلك الحرب هي حرب "حدود"، النصر فيها لمن يانتف من الخلف. كانت فرنسا، لتأمين مراكزها، خارج وادي سان - لوران، ومصب المسيسيبي مضطرة، لافتقارها الى البشر، ان تلجأ الى تطويع هنود من اجل التجارة. وذلك، ما كان يُشكل خطرا على "الحدود" [المصالح] الانجليزية: الاصطدام بسكان محليين منظمين، مدعمين، مع المساندة للاستمرار في اسلوب المعيشة القديم، فهم بحاجة الى مساحات مفتوحة، بالاضافة الى تزودهم بالاسلحة النارية.

وبسبب ذلك فشلت المحاولات المضطربة لرواد الحدود في فرجينيا، من وضع اشارات

الطريق للاستدلال نحو المسيسيبي (الشركتان: **Loyal Cyreenlier Company** و **Ohio Company** ، وغيرها الكثير من الحالات التي أعاققت تقدم الاستيطان. لكن البريطانيين تمكنوا في النهاية من تقدم فرقهم حتى سقوط كويبك في 1760م. وجاءت معاهدة باريس 1763م. لتُلغى المنافسة "الفرنكو- انجليزية"، لتتقدم بريطانيا في مستعمرتها الامريكية، وتتزايد امريكا الانجليزية من 890000 نسمة في 1740م. الى 1207000 نسمة في 1750م.، والى 1610000 نسمة في

<sup>85</sup> شونو بيير ، الحضارة الاوربية في عصر الانوار، مرجع سابق، ص 80.

1760م، والى 2205000 نسمة في 1770م. الى 2781000 نسمة في 1780م. ثم الى 3930000 نسمة في 1790م.<sup>86</sup>

وفي الشرق الاسيوي انعطفت المنافسة بين الشركات الفرنسية والانجليزية نحو الهند، واتخذت منحى دراميا منذ 1740م. عندما تمكنت "الشركة الفرنسية" من إقامة محمية لها، غير معادية على القسم الاكبر من "دكان" واتحاد "مهرات"، كان سكانها ما يقارب 30 مليون نسمة. وكانت بلا مستقبل لفرنسا، لكنها فتحت الطريق امام "الشركة الانجليزية"، وامام الجنرال "كليف" ليضع له موطأ قدم ينطلق منه الى احتلال شريطا كثيف السكان أضعفته المنازعات الطائفية بين الهندوس والمسلمين. وهكذا تقدمت الشركة البريطانية وتغلغت في الاراضي الهندية عن طريق التحالفات والمحميات، محققة بذلك العزل التدريجي واضعاف مقاومة مستميتة قادها تيبو- صهيب بمساعدة الفرنسيين، انما من دون أمل، وهكذا نجحت "الشركة الانجليزية" في حدود 1790م، لتوسيع دائرة الاحتلال البريطاني للهند وبممارسة الاشراف على قرابة 50 مليون نسمة.<sup>87</sup>

ان نجاح الاوربيين في اجتياح دول العالم وبحاره منذ بداية القرن السادس عشر لاسباب عدة اهمها:

1- النمو السكاني: (75 مليون نسمة يسكنون 15 كم مربع). أي تقريبا (45-50)% من السكان الاوربيين في اوربا عام 1780 م : 75 مليون نسمة بينهم 7 مليون من البيض، واكثر من ذلك التاريخ من الخلاسيين. يعني ان الطفرة التي حصلت بين (1750 - 1780)م. بتضاعف المساحة مرتين وتضاعف السكان بخمس مرات. في عام 1780م.

كانت اوربا "داخل وخارج الحدود" تشرف على 30% من مجموع البشر. "فكانت عملية الحت والتآكل في باقي الأمداء الثقافية الزمنية قد بدأت". وفي خلال تلك الفترة ضاعفت اوربا سيطرتها على مساحات من المحيطات بلغت ما بين (120 - 130) كم مربع على الاقل. وتضاعف عدد السفن المبحرة عشرات المرات. والفضل بذلك يعود الى التقدم العلمي والتكنولوجيا التي أثرت على الملاحة من خلال: استخدام اجهزة الكرونومتر "مقياس الزمن" بدقة، بحيث يحافظ البحارون، خلال اشهر، من الابحار على ساعة التوقيت كمرجع. هنا كان "الوروا" و "برتو" ما بين (1767 - 1772)م. وهكذا كان استخدام الكرونومترات، التي تتحلّى بالدقة، وصناعتها ليست باهضة الثمن قد قفز بالملاحة الى اقتحام البعيد دون خوف من المتاهات، ولم تعد الجزر النائية حلما يعوم في المحيطات على الخرائط. لقد ترافق اكتشاف المحيط الهادي مع ظهور الكرونومتر وجزره وخلجانه وموانئه ويكملوا رسم خرائطه. ومع نهاية القرن السادس عشر أنجز الاوربيون الطواف حول

<sup>86</sup> شونو بيير ، الحضارة الاوربية في عصر الانوار، مرجع سابق، ص 81.

<sup>87</sup> شونو، بيير الحضارة الاوربية في عصر الانوار، مرجع سابق، ص 81.]

الأرض بحراً. و كانت اغلب خطوط الملاحة خطيرة وفيها من المغامرات ما كان يكلف حياة (15 - 25) % من حياة البحارة من الذين تطول فترة رحلاتهم عامين. وارتفعت هذه النسبة الى (20 - 35) % عندما تدوم رحلة الذهاب والاياب لثلاث سنوات، كالرحلة بين المكسيك والفلبين. وكان حظ النجاح ضعيفا إبان القرن السادس عشر برحلة ذهاب واياب من اشبيلية الى ما نيلا. وما بين (1760 - 1770)م. اضحى التوسع الاوربي فيما وراء البحار حقيقة استعمارية مطلقة. والواقع أن احتلال اسبانيا موانئ المدن على ساحل شمال افريقية قد بدأ في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر، وذلك عندما إحتل الدوق " دي مادينا سيدونا" **De Medina Sidona** مليية؛ غير أنه كان قد مر ت حوالي عشر سنوات قبل أن تحتل قوة اسبانية المرسى الكبير (1505) لإيجاد ميناء مناسب للسفن الاسبانية. وبعد ست سنوات وبدافع من الاسقف " دي سيسنيروس" **Cisneros** وغيره استطاع "بيدرونافارو" **Navarro** أن يحتل وهران وبجاية وبادس وطرابلس (1508-1511).

وكان عنف الهجمات الاسبانية القاسية للسكان المحتلين قد أحدث رجة من الرعب على طول الساحل، وأسرعت المدن التي لم يزرها الاسطول الاسباني الى "فيردينالد" تطلب دخولها في طاعته كتوابع لسلطانه. ورغم اقامة "فيردينالد" حصون ومراكز محصنة **Prisidios** في أهم الموانئ على طول الساحل وتركه لقوات احتلال في مدن بجاية والجزائر وبادس وهران والمرسى الكبير ومليية واكتفاه بترك حصون اسبانية مع مدافع تستطيع ان تتحكم في كل التحركات في مدن ظلت بيد الاهالي الا ان تلك الاستراتيجية ظهرت انها غير صالحة حيث افتك الاهالي كل الحصون المذكورة من ايدي الاسبان ولم تبق الا وهران والمرسى الكبير.<sup>88</sup> ولم تتوقف المقاومات ضد الاسبان وغيرهم طوال تلك الفترات رغم ان المراكز والحصون الاسبانية كانت قوية وكانت لها مدافع تستطيع ضرب المراسي وقنبلة المدن. وكانت المعسكرات مسلحة بالقربينات، ولم يكن المسلمون يعرفون هذا النوع من الاسلحة ولا يملكون سوى الرماح والسيوف. كان ذلك الحال قبل ظهور الرياس ومنهم خير الدين عروج سنة 1510 وتطويرهم لاستراتيجية الهجوم في البحر. ورغم فارق نوعية وحجم المدافع وقوة الحصون الاسبانية والاوربية الا انهم تمكنوا أخيرا من نجدة اخوانهم في الجهاد وصد غزوات الاوربيين والاستيلاء على سفنهم وطردهم من أغلب المدن الساحلية ومنعهم من التوغل الى الداخل.<sup>89</sup>

#### 10-5 : عصر الرأسمالية، وتطوير أسلحة الإبادة الجديدة:

رغم إرتفاع شعارات الاخوة، المساواة، العدالة وظهور تباشير الثورة الفرنسية، عن حقوق الانسان والداعية الى "تحرير اليهود واطلاق سراح السود". ورغم اعلان حق هؤلاء في جلسة

<sup>88</sup> وولف جون ب. ،1986" الجزائر واوروبا 1500-1830"، مرجع سابق، ص 26 و 27.

<sup>89</sup> وولف جون ب. ،1986" الجزائر واوروبا 1500-1830"، مرجع سابق، ص 26 و 27.

خاصة للجمعية التأسيسية في فبراير 1794م، كان "دانتون" و"روبسبير" من أبرز المدافعين المتحمسين يطالبون بتجسيد وإعتبار (زوال المستعمرات ، مسألة مبدأ). وقد عبروا عن ذلك بأن: (... فضلوا فقد مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار على عار عبودية تحمل وزرها الجمهورية)؛ ألا أن ذلك الحماس لم يدم طويلا، فقد ثار الكولونون "المستوطنون" على الغاء إمتيازاتهم، وكان يعني ذلك، خراب مستعمرات فرنسا، لذا تراجع نابليون عن قرارات تحرير العبيد، وأحمد الجنرال "ليكيلترك" ثورة هايتي عام 1802م.<sup>90</sup>

وإذا كانت "عواصم الانوار والحرية"، لم تخلو من اصوات لاصدقاء السود او العرب الا أن الهمس ضد "العنصريات الفاقعة اللون" ظلت تغذيها "الاساطير البيضاء"<sup>91</sup> ؛ فالعبودية اضحت تقنن على بلدان العالم، وشهدت سنوات القرن التاسع عشر إتمام وتنفيذ مخططات الاحتلال العسكرية للجزائر وليبيا وغيرها، وتم ضم الاراضي بالقوة واحتلال البلدان بكامل مساحاتها والعمل على استيطانها واستمرار الهجرات للمستوطنين اليها للعمل على إنتقال النهب نحو الاراضي الزراعية الخصبة ومواقع الخامات والمواد الاولية التي تحتاجها الصناعات الرأسمالية . كشفت الاحتلال الاستعمارية عن حقبة جديدة، جرى التراجع بها عن تشريعات وقوانين الغاء العبودية خارج اوروبا، وكما تراجع نابليون والاحرار الفرنسيون عن قراراتهم حول قضايا العبودية، هاهي دولهم وحكوماتهم ونخبهم وفلاسفتهم يستسلمون لقوانين الاستعمار الاقتصادية والثقافية والفكرية ويتراجعون عن النظريات التحريرية لعصر التنوير والثورة ضد الاستعمار.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأ عصر الرأسمالية، عصر التوسع الاستعماري ونمو الصناعة وحاجة التجارة الى الاسواق وتنافس الدول الاوربية على اقتسام العالم بالغزو والاستعمار واستمرار نهب المواد الاولية من وراء البحار باسعار زهيدة واحيانا كثيرة من غير مقابل،اصبحت الشعوب الملونة مجبرة بالقوة على العمل لفائدة الرجل الابيض،واستمرت السفن الاوربية بنقل الزوج على سفن"السيد المسيح" وتحت مباركة صلبان الكنيسة يتعلمون أولى اشارات الصلاة المسيحية برسم الصليب وهم مكبلين بالحبال وتحت الشمس الحارقة. استمرت تجارة الرقيق، ولم تحرم تجارته الا في المؤتمر الدولي في بروكسل عام 1876م.

وخلال تلك الفترات المظلمة من التاريخ الانساني استمرت الرطانة الاوربية وتوابعها في الاطراف تردد محامد عصر الانوار وتلهج بالشكر لرسالة التمدن وتفتخر الكنيسة الاوربية

<sup>90</sup> يانج روبرت ،أساطير بيضاء كتابة التاريخ والغرب ، المقدمة، ص(7-53)، مكتبة الاسرة، القاهرة، (2005).

**Young Robert ,White Mythologies Writting History and the West ,  
Routledge, London and New York. ( 2003).**

<sup>91</sup> أديب ديمتري، " نفي العقل ، ج2، مرجع سابق، ص 12.

والغربية بدورها الرسالي والتبشيري بتعداد احصاءات نجاحاتها "لتحويل الوثنيين الى المسيحية في أطراف العالم من آسيا وافريقيا والانتيل وحمل "نعم" الغرب الى المتوحشين والبرابرة".

حمل جذر الكولونيالية الجديدة ماضل يخفيه من عقدة تفوق الرجل الابيض، فكان لا بد من ان تتحول الفكرة الى عقيدة إبادة لتبرير عمليات الغزو والفتح الاستعماري، ثم السلب والنهب، لم تتغير عقدة الغرب، منذ قرون، ولم يتم التخلي عن المقاصد الاستعمارية وآليات تنفيذها حتى باستعمال الأسلحة الجديدة المحرمة دوليا وتنفيذ مجازر الابادة الجماعية كما سنستعرضها في الفصل اللاحق

### 5-11: حروب المطاعم الاستعمارية والنفوذ:

#### من الاطراف الاستعمارية الى الحروب الكونية على القارة الاوربية نفسها:

القليل من مراجع تاريخ العلم والتقانة تشير الى تسمية العصر بعصر "الاسلحة النارية" وما بعدها من مسميات "عصر الابادة بأسلحة الدمار الشامل". كان ظهور بارود المدافع فوق ساحات المعارك في نهاية العصر الوسيط ايدانا بتسارع وزيادة سرعة تطور الاسلحة النارية وامتداد الطموحات الاستعمارية والغزو مهما كانت التكاليف للروح البشرية.

الواقع ان الصينيين هم أول من إستخدموا البارود في حدود ضيقة جدا منذ القرن الحادي عشر الميلادي. وأدخل العرب البارود الى اوربا في القرن الثالث عشر، ومن المرجح انهم استخدموا مدفعا بدائيا جدا<sup>92</sup>، وسرعان ما اخذت الاسلحة النارية المتنوعة تحل محل السلاح الابيض تدريجيا، وتحولت معظم الاسلحة القديمة الى اسلحة مساعدة واختفى بعضها نهائيا من أيادي المتحاربين. كانت المدافع في طليعة الاسلحة النارية التي دخلت ساحات المعارك، ولم يكن تأثيرها كبيرا جدا في البداية. ففي معركة كريسي<sup>93</sup> عام 1346م كان قصف المدافع يحدث الكثير من الضجيج فيخيف الخيول، ولم يكن له تأثير على نتيجة القتال في تلك المعركة. وكما جاء في تعليق أحد الصحف الفرنسية عن استخدام المدفعية اثناء حصار مدينة كاليه وصف كالتالي: (.. الحمد للرب ومريم العذراء، ان المدفعية لم تجرح رجلا ولا امرأة ولا طفلا).

لكن اهمية المدفع تطورت في القرن الخامس عشر، وازدادت عندما اصبحت الوسيلة الفعالة بيد الملوك لتدمير حصون أتباعهم من الفرسان الاقطاعيين المتمردين.<sup>94</sup> وما ان انتهت حرب المائة عام إلا وكانت المدفعية قد ساعدت الملك شارل السابع على تحرير ما يزيد عن 60 قلعة محصنة في النورماندي، خلال عام واحد، قلاعا كان يحتلها الانجليز. وفي عام 1492 اجبرت

<sup>92</sup> المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني، مجموعة مؤلفين، "الحروب والحضارات"، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ص242. دمشق، (1984).

<sup>93</sup> كريسي مدينة فرنسية تقع على نهر السوم، تقابل عندها وانتصر فيها جيش ملك انجلترا ادوارد الثالث على جيش فيليب ملكفرنسا، في احدى غابات هذه المدينة، وكانت تلك المعركة بداية حرب المائة عام.

<sup>94</sup> المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع، "الحروب والحضارات"، مرجع سابق، ص 243.

المدفعية الاسبانية العرب في الاندلس على تسليم آخر مدينة من ممتلكاتهم وهي مدينة غرناطة<sup>95</sup> وبسقوط غرناطة حل عصر جديد على المسلمين والعرب سمته التراجع أمام الاعداء لم يتوقف بعد. وفي 1543، وأثناء حصار القسنطينية، مكنت مدافع السلطان محمد الثاني من فتح ثغرات واسعة في اسوار المدينة لم يتمكن البيزنطيون من سدها. أنهت المدفعية تفوق اسلحة الفرسان ومكنت الحضر من رد الهجمات البربرية في شمال الصين وغزوات الرحل والتتار على الروس وبدأ معه زحف الامبراطوريات في اوربا وخارجها. انه عصر المتفجرات أنهى صفة الحرب والفروسية، تحولت فيه كثير من التقانات الى علوم وسميت تقانات حرب؛ لذا اعتبر اتساع نطاق هذه الاسلحة في الحرب الايطالية (1494-1516)، إيذانا ببداية عصر جديد هو "عصر الاسلحة الحديثة"<sup>96</sup> الذي استبدل السيوف والرماح والسهام والمنجنيق بالبنادق والغدارات "الرشاشات" بيد جيوش المشاة والفرسان.

ولا شك ان هذه الاسلحة امتلكت قوة تدميرية هائلة بالمقارنة مع الاسلحة القديمة، وقد وجهت ايضا ردود فعل لدى الخصوم إزاء تصاعد عدد القتلى والجرحى بسببها وبقدرتها العالية على تدمير الممتلكات والحصون والمدن. ورغم إدانتها من رجال فكر ودعاة سلام، الا أنها استمرت في تصاعد إستخداماتها الجهنمية في قتل الناس وتدمير البيئة. ومما قاله احد شعراء النهضة في أوربا ويطاليا، الشاعر الايطالي "أريوست" (1474-1533) حولها محتجا: (... ايتها المخترعات الملعونة، انك ادوات خسيصة)، ووصف "بليز دومونلوك" بندقية الفتيل بأنها: (... أداة الشيطان التي تُسلمنا للقتلة).

ورغم تلك المعارضات وغيرها؛ ألا ان جميع الاسلحة النارية طورت آلياتها ووسائل إستخداماتها بشكل جنوني، واخذت طريقها مع نهاية القرن الخامس عشر بيد الجنود والجيوش مندفعة في حروب لاحصر لها ، وصولا الى ظهور مصانع متخصصة للسلاح، وجيوش كثيرة العدد والعدة والعتاد، مستعدة لخوض حروب عالمية لا نهاية لها، ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أصبحت أداة قمع وابادة وقوة للغزو والاحتلال.

خلال هذه الفترة تطورت صناعة ثلاث اختراعات حربية بدلت طبيعة ساحات المعارك وهي : تعميم استخدام البارود الذي لا دخان له، والمتفجرات المدمرة، والرشاش سريع الطلقات. وبازدياد فعالية الانتشار وانتاج المزيد من الشظايا توسعت دائرة القتل والتدمير<sup>97</sup>.

<sup>95</sup> واشنتون ايرفنج، سقوط غرناطة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص191. الجزائر، (1988).

<sup>96</sup> المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني، 1984، "الحروب والحضارات، مرجع سابق، ص245.

<sup>97</sup> تطورت وتائر الحروب مع تصاعد امكانيات الانتاج الصناعي للأسلحة النارية وكانت الغلبة تترجح لصالح الحضارات والمجتمعات الصناعية على المجتمعات والحضارات الزراعية والريفية، منها: الحرب الاهلية الامريكية(1861-1865)،حروب البلقان (1875-1878) وحروب الترانسلفاك (1899-1902) وحرب

سجلت الحرب العالمية الاولى قفزة نوعية لمنتوج السلاح بفضل اختراع واستخدام الفولاذ في صناعة الالة الحربية، وبذلك تعتبر هذه الحرب اول حرب صناعية بامتياز. ومع اختراع نوبل للديناميت والمتفجعات شديدة الانفجار سجلت هنا أيضا اول حرب كيميائية تقليدية بامتياز أيضا قبل ظهور الغازات الخانقة والسامة. كان البارود التقليدي مادة التفجير حتى نهاية القرن التاسع عشر رغم محاولات قام بها "بيرثوليت" و"لافوازييه" باجراء تجارب على كلورات البوتاسيوم كبديل لنترات البوتاسيوم في مسحوق البارود. الا ان المصائب التي تسبب فيها التفاعل الذي لا يخضع للتحكم بالتفاعل وضعت نهاية لتلك التجارب.

وفي منتصف القرن التاسع عشر تمكن الايطالي "اسكانيو سوبريو" من اضافة مجموعات نيترو( $NO_2$ ) الى الجليسيرول (مركب عضوي مؤكسد يتم الحصول عليه في صناعة الصابون) وذلك بمعالجته بحمضي الكبريتيك والنتريك. وكان هذا المركب الذي شاع بتسميته النيتروجليسيرين (من الاصح ان يطلق عليه نترات الجليسيريل) مادة متفجرة اقوى بعدة مرات من مسحوق البارود الاسود؛ غير انه، فيما يبدو كان غير ثابت بشكل لا يمكن التحكم فيه. وقد عانت الورش التي كانت تنتجه من كوارث مُسببة الموت للعاملين فيها. ثم جاء "فردريك آبل" فاثبت ان النيتروسيليلوز المحضر من معالجة الانسجة النباتية "السللوز" بخليط من حمض الكبريتيك والنتريك مادة متفجرة مستقرة اذا ازيلت منها بقايا الاحماض بالضغط، وهكذا وجدت هذه المادة المتفجرة المعروفة باسم "المسحوق عديم الدخان" لتأخذ طريقها الى الصناعات الحربية والذخائر الحربية.

بعدها واصل احد رجال الصناعة السويدية المدعو ايمانويل نوبل في الستينيات من القرن التاسع عشر مع ابنائه الاربع تطوير ابحاثهم على انتاج النيتروجليسيرين.

ورغم ان الفريد نوبل، الطفل الثالث من ابناء نوبل، كان مريضا ولم يستطع الالتحاق بالمدرسة بشكل منتظم، الا انه واصل تعلمه متأخرا في جامعة سانت بطرسبرج متخصصا في الكيمياء الصناعية وقام بمواصلة ابحاثه على النيتروجليسيرين، وفي احد تجاربه تسبب بقتل اخيه واربعة من مساعديه بسبب احد الانفجارات، لكنه لم يتوقف عن الاستمرار في ابحاثه بعد ان نقل مخبره الى ظهر مركب راسية في الشاطئ السويدي.

كان استخدام النيتروجليسيرين في حفر قناة السويس ومد خطوط السكك الحديدية في الولايات المتحدة نجاحا كبيرا لكنه نجاح مخادع بسبب موت العديد من الارواح مما دعى حكومات عدة الى منع استخدامه. غير ان نوبل استمر على ابحاثه وتوصل الى جعل النيتروجليسيرين ثابتا وذلكمن خلال امتصاصه في النشارة او في التربة المحتوية على بقايا متحجرة. وقد اطلق نوبل على المادة

---

منشوريا (1905-1902)ن وحروب البلقان الثانية(1912-1913) ومن ثم الحرب العالمية الاولى (1914-1918).

الجديدة اسم "ديناميت" (بالإشارة الى طاقتها الديناميكية) وحصل على براءة اختراع باسمه، ولما كانت هذه الصورة المستقرة الجديدة أصبحت في حاجة الى مفجر، فقد اخترع واحدا منها على اساس فولمينات الزئبق، وقد أصبحت المادة المتفجرة الجديدة هي المادة المستخدمة روتينيا في عمال التعدين والهندسة وأصبح نوبل واحدا من اغنى الناس في العالم<sup>98</sup>.

رغم الهالة العظمى عن جائزة نوبل لكن لا بد من الإشارة الى جوانب من شخصية صاحبها والاسباب التي دعت له لوضعها. رغم اهتمامه بالكيمياء وعاش مرفها وعازبا في اماكن اقامته الفاخرة لكن (... يروى انه كان مقتنعا بأن شكله فضيع ولا يمكن ان يحبه احد، لذا لم يتزوج ابدا)، رغم انه كانت له علاقة بصوفي هيس، وهي امرأة قامت بخدمته قرابة 18 عاما. بعدها نشر في عام 1876 اعلانا في الصحف يقول فيه : ( رجل مثقف غني متقدم في السن يطلب للعمل سكرتيرة ومشرفة على المنزل في باريس بشرط ان تكون ناضجة على المستوى نفسه وتجيد اللغات).<sup>99</sup>.

استجابت للعمل "بيرتا كينسكي"، ولم تخدمه سوى بضعة ايام، تزوجت من بارون شاب لكنها حافظت على صداقتها بنوبل، وداومت على الكتابة له، ووصفته في احد اوراقها: (...كان وقتها في الثالثة والاربعين... طوله على الأرجح اقل من المتوسط، له لحية كثيفة وتقاطيعه ليست بالقبيحة ولا بالوسيمة، وطريقته في التعبير عابسة لا يخفف منها الا عيناه الطيبتان الزرقاوانن وكانت تتناوب على صوته الكأبة والسخرية)<sup>100</sup>. كانت "كينسكي" تعتنق مذهب السلمية وضد حمل السلاح، وكان نوبل اشتراكيا وملحدا، وله نظرة اكثر محافظة تجاه البشرية، ولكنه فكر بموته ، وتيقن (ان الناس سيتذكروته كتاجر للموت)، لذلك وضع امام "كينسكي" تحديا ان تخبره وتقنعه بما يجب تقديمه للحركة السلمية.

وبعد جدال معها كتب اليها قراره : (انني اود ان اخصص جزءا من ثروتي لتكون رصيذا لجائزة... تمنح للرجل او المرأة الذي يطور فكرة السلام عموما في أوروبا اكثر من غيره)، وهكذا اوصى بجائزته في مجالات الفيزياء والكيمياء والفيزيولوجيا او الطب، وللدب واخيرا الى .. الشخص الذي يساعد اكثر من غيره الامم في الغاء وانقاص الجيوش وفي تكوين وزيادة أعداد مجالس السلام).

#### 5-2-10: تبرير لا أخلاقي لهولوكوست الجزائر بعد هولوكوست الاندلس:

لم تبدأ الحملة الاستعمارية لاحتلال الجزائر وتطبيق اغراض الاحتلال من دون تهيئة فكرية ومقولات للتنظير لها، وشيوع مفاهيم عنصرية مسبقة والحديث عن وجود "سكان أصليين" وصفوا

<sup>98</sup> كوب كاتي ، ابداعات النار، مرجع سابق، ص 323-326.

<sup>99</sup> كوب كاتي ، ابداعات النار، مرجع سابق ص 322-326. راجع، Biography(Orion Press,New York,1959), p.111

<sup>100</sup>Halash Nicolas,Nobel, A, Biography, Orion Press , p.114, New York,1959

بالانديجان "الاهالي" متكونين من "عرب" و"برابرة" ، ووصفهم على أنهم (... كانوا على وشك الانقراض... وهم بقايا من السكان أين طواهم التاريخ، وقذف بهم الغزاة المتلاحقون الى اقاليم منيعة، هم الشعوب القديمة الساكنة في الكهوف، التي تحدث عنها "هيرودوت"، أو هم الغرامنت Garamants الذين قاوموا جيوش الاسكندر)،<sup>101</sup>.

وطالما انهم يعيشون في بقعة جغرافية تشكل المحيط الحيوي الهام القريب من الحضارة الاوربية فهم خطرون على الحضارة الاوربية.

إن فكرة "الرسالة التمدنية"، التي انطلقت كمبرر ايديولوجي،<sup>102</sup> وظهرت بشكل مركز في عشرينيات القرن التاسع عشر شارك في حملها والترويج لها كثير من الكتاب الفرنسيين ومنظري الحقبة الاستعمارية، وارتبطت أفكارهم بالتبشير، ومحاولات نشر المسيحية والادعاء بمقاومة انتشار الاسلام.

لذا فان اغلب المعنيين بقضايا الابداء والعنصرية وحقوق الانسان، وما اكثرهم في وسط النخب الفرنسية سيحيدون عن مبادئهم؛ عندما يتعلق الامر بالجزائر، فهم يبتعدون عنه؛ لذا لم يُعر الفرنسيون الموضوع أهمية كبيرة ، كونه يرتبط بجزء من التاريخ المخزي للممارسات العنصرية والثقافية الاستعمارية التي استهدفت في مقدمة أهدافها الشخصية والثقافة الوطنية والقومية في الجزائر في الوقت الذي رفعت به فرنسا للعالم شعارات حقوق الانسان والديمقراطية والحرية والمساواة والاخوة... الخ<sup>103</sup>.

لم يكن الغزو والاحتلال الا نتيجة للأطماع الاستعمارية وصراع النفوذ في المجال الحيوي للمنطقة، لكن هناك من المبررات التي إستند اليها الغزاة بالتذكير الى الجذور التاريخية للصراعات التي عاشتها المنطقة منذ الغزو الروماني، مروراً بالحروب الصليبية، وما تركته دعايات المستشرقين والمؤرخين المتعصبين والكهنوت المسيحي في دفع العسكريين لتبني سياسات الحقد والطائش، وسيادة روح الانتقام والتشفي لالغاء وابداء الكيان الجزائري القائم ما قبل الغزو والاحتلال. ولم يخف قادة التبشير المسيحي، وهم يتلقون الدعم من جميع بابوات روما خلال تلك الفترة إنهم يريدون نشر المسيحية في الجزائر من جديد، بعد التخلص من اهل الجزائر المسلمين،

<sup>101</sup> أقوال تنسب الى "ماكس لوجون" Max Le Geune وزير الصحراء الفرنسي خلال الفترة(1957-1959)، أنكر وجود السكان في الصحراء ليبرر تحويل الصحراء الى قواعد عسكرية ومساحات واسعة للمحرقة النووية وتفجيرات القنابل الذرية، وتجريب كل اسلحة الدمار الشامل هناك خلال عهده الوزارية. والسكان بنظر: ( تم اكتشافهم في حقيقة الامر ليكونوا مواطنين فرنسيين). راجع ايضا: عبد الكاظم العبودي، رابع رقان، وجرانم فرنسا النووية في الصحراء الجزائرية، مرجع سابق، ص 6-26.

<sup>102</sup> مع بداية استعمار الجزائر وصف "كليرمون توتيز" هذا العمل بأنه : (عمل عظيم انعمت به العناية على فرنسا لتمدين العرب وجعلهم مسيحيين).

<sup>103</sup> غرانميزون أوليفي لوكور ، الاستعمار والابادة، دار الرائد للكتاب، عدة صفحات ، ص 6، عدة صفحات. الجزائر(2007).

وطردهم الى الصحاري، ان لم يرتدوا عن إسلامهم نحو المسيحية. يصف الكاردينال "لافيجري" الموقف بكل وضوح من خلال قوله :

(نحن نعيش وسط شعب كافر، على ضفاف قارة غارقة كلها في البربرية "الوحشية".

نحن امام ابواب هذا العالم المجهول الذي سلمه الله فرنسا).

وعلى ضوء تلك المواقف الكنسية وغيرها، ومنذ الايام الاولى للاحتلال الفرنسي لأرض الجزائر شرعت الادارة العسكرية الفرنسية بتنفيذ استراتيجية الاحتلال من خلال وضع المخططات التي استندت الى معلومات التجسس والاستكشاف المسبق ومن ثم الشروع بمخطط إبادة للسكان. ان قضية إحتلال الجزائر هي محصلة نهائية لقرون من الانتظار الفرنسي للحظة التاريخية السانحة لها لاحتلال الجزائر؛ وظهر ذلك في العلاقات الفرنسية العثمانية منذ عهد السلطان العثماني سليمان القانوني وملك فرنسا "فرانسوا الاول" ولكن ثمار تلك العلاقات قد جنتها فرنسا مع بداية القرن التاسع عشر عندما اصبحت الدولة العثمانية في مراحل تدهورها الاخيرة، وكانت عاجزة عن نصره ولاياتها التابعة لها ومن بينها "دار السلطان بالجزائر أيام الداوي حسين"، آخر دايات الحكم العثماني في الجزائر. وتطور السلاح بيد الغزاة.<sup>104</sup>

#### 5—11-1: جدل اخلاقي عن مبررات وجدوى استخدام الاسلحة الكيماوية:

تعرضت الاسلحة الكيماوية لانتقادات حول مدى اخلاقية استعمالها، اكثر من الحديث عن فعاليتها التكتيكية. ورغم انها استخدمت في حادثة الاغواط 1852 من قبل القوات الفرنسية الا انها ظلت بعيدا عن التوثيق والتعريف بمدى دمويتها. ورغم انعقاد عدد من المؤتمرات

<sup>104</sup> اتخذ قرار غزو الجزائر يوم 31 جانفي 1830 بتوافق اوروبي، فمع تحمس القيصر الروس وعدم ممانعة المانيا، وضعف الدولة العثمانية واستعدادهم لحث الداوي على التنازل بتأثير ودور القنصل البريطاني في الاستانة رغم إحتجاج السفير الانجليزي الشكلي بباريس. وخلافا لحملي شارل الخامس "شاركان" و"أوريلي" الفاشلتين السابقتين، فان الحملة الفرنسية عام 1830 كانت معدة إعدادا محكما، فقد كان "بوتان" منظما دقيقا، ومهندسا جيدا، بدأ تحضيراته النهائية منذ افريل مجهزا حوالي 600 سفينة، منها 300 سفينة حربية، مستعدة للابحار. وبحلول (11-18) من شهر ماي التحق الجنود بالسفن وفي 22 ماي ابحرت هذه الارمادة من القوات كلها الموانئ الفرنسية. رغم حدوث عاصفة كان الاسطول امام ساحل الجزائر يوم 12 جوان. وفي 14 جوان نزلت الدفعة الاولى من الجنود. القوات الغازية كانت مجهزة بالخيول والرجال ومعدات الاسعاف والمدافع والطعام والبارود والرصاص وكل انواع المؤونة الحربية، في حين كانت المقاومة الجزائرية لا تمتلك الا امكانيات رمزية وقوات غير مكتملة التحشيد ارسلها البايات الثلاث سرعان ما تعرضت الى الانهيار امام قوات تعلمت فنون الحرب الحديثة ويقودها جنرالات حرب. ولكن الجيش المحتل وجد نفسه في واقع الامر لا يسيطر الا على قطعة الارض التي يسيطر عليها، مواجهها رفض الارياف والمدن التي أصبحت مسرحا للثورات والانتفاضات طوال 132 عاما. وبدلا من ان تدخل فرنسا، كما ادعت رسالتها الحضارية الى الجزائر، فان قواتها وجدت شعبا رافضا لهذه الحضارة معبرا عنها بكل اشكال المقاومة وهي إذ لجأت الى استعمال كل انواع ترسانتها العسكرية للدمار الشامل والابادة المنظمة محولة الارض المحروقة الى هولوكوست حقيقي بدأ بالنار يوم 4 جويليه 1830 مرورا بالحرق الجماعي للقرى على يد كافنيك ثم محرقة اولاد رياح 1845 في الظهره على يد الجنرال بيليسيه الذي قاد المحرقة بالاسلحة الكيماوية والغازات الخائقة في ابادة الاغواط 1852، لتنتهي فرنسا هولوكوستها النووي (1960-1966) وما بينها آلاف الجرائم وحروب الابادة بكل انواع السلاح. انظر دراسات عبد الكاظم العبودي المنشورة حول هذه الجوانب، مراجع سابقة.

حول حضر انتاج واستخدام هذه الاسلحة في اوربا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الا ان السنوات التي تلت الحرب العالمية الاولى شهدت جدلا واسعا وقلقا متصاعدا منها . وصف الذين سعوا الى منعها بانها "غير انسانية"، وقد ساهمت حكومات الحلفاء في نشر مثل هذا التصور بمحاولة إدانتها العنيفة للهجوم الالمانى على الفرنسيين بالغاز في 22 افريل 1915، وفي إحاطة العمليات السرية اللاحقة لكل من الالمان والحلفاء بسرية تامة. ولمواجهة الانتقادات الموجهة لاستعمال أغاز السام في الحرب، بدأ الضباط الكيماويون، والمستشارون العلميون، ومعهم المؤرخون العسكريون، في مناقشة ذلك والتبرير للاستخدام لها، وصل بهم الامر للقول المُستغرب :

(ان الغاز كان، في واقع الامر، أكثر انسانية من أسلحة أخرى، وربما أكثر الاسلحة التي استخدمت في ميدان القتال، انسانية)<sup>105</sup> .

إعتمد أصحاب مثل هذا التبرير، مقدمين حججهم ومعززين دفاعهم عن الاستخدام، على الاحصائيات المقارنة، لأعداد الضحايا من الاموات بمختلف أنواع الاسلحة، لأجل التقليل من حجم ومقدار الآلام عند الضحايا الذين تعرضوا لها.

وانطلاقا من مقولات ومعايير يضعها اصحاب ودعاة " الضرورة في الاستخدام"؛ فهم يطرحون الموقف إنطلاقا من ايمان مسبق لديهم: يرى (... بأن الحرب، بكل اسلحتها، وكأنها قدر الانسانية، أو شر لا بد منه)، وعلى إعتقاد منهم من : (...ان الحرب هي بالكاد ممارسة انسانية، فإن بالامكان القيام بها بوسائل لا تسبب آلاما زائدة ولا ضرورة لها... والانسانية في هذا السياق قد تقاس بدرجة المعاناة عند الاصابة، ودرجة المعاناة من الآثار الدائمة التي تتركها الاصابة، ونسبة الوفيات التي قد يسببها السلاح مقارنة مع أسلحة أخرى).

وعلى ضوء ذلك فهم يطرحون جملة من المبررات التي يدحضها الواقع والتجارب والنتائج المسجلة ضد مثل هذه المقولات :

1- ان الالام التي يسببها الغاز، هي اقل من تلك التي تسببها الاسلحة الاخرى. ومع ان التعرض لغازات مثل الكلورين والخردل والفوسجين تسبب الاختناق، وآلاما شديدة، ونسبة عالية من الوفيات تقع بين الجنود غير المحميين، فان بعضها يصبح غير مؤذ تقريبا؛ اذا ما استخدمت وسائل الوقاية، كالاقتعة والمعالجات الطبية والفورية والتطعيمات المسبقة. وهم يجهدون أنفسهم ويقدمون امثلة وقرائن وإحصائيات لدعم تبريرهم للاستخدام العسكري، منها مثلا :

<sup>105</sup> سبيرز، الحرب الكيماوية، مرجع سابق، ص 48.

أ- كانت آثار استخدام الغازات السامة محصورة ومحدودة. ويشار بذلك الى رأي العميد "أدموندز": (... ان الغاز لم يحقق سوى نجاح محلي، وجعل الحرب غير مريحة، ودون أي هدف). لكن مثل هذا الرأي، هناك من يعارضه، حيث كتب مؤرخ آخر، ممن خدموا في خنادق اير، بالقول: (... الغاز كان فعالا جدا موضعياً، وأوحى استعماله بفوائد محتملة كثيرة في النزاعات المستقبلية. واذا ما توفر عنصر المفاجأة، وأمكن تركيز كميات كافية منه، واختيرت الاهداف المناسبة له، حسب رأي العميد "هارتلي"، فله "امكانات رائعة") حسب اقوالهم.

2- مع احتمالية شفاء الضحايا من الاحياء، فالاحصائيات المقدمة تُشير الى غموض يكتنف الوصول الى الحقائق ويتجسد هذا الغموض في واقع الاحصائيات حول هذا الموضوع مثل: (... وفي الجيش الامريكي بلغت الاصابات بالغاز 26,8% من مجموع الاصابات؛ لكن هناك 11,3% منهم سُرحوا لعدم صلاحيتهم للخدمة). واطافة الى مقارنة اخرى: (... كانت فترة البقاء في المستشفى نتيجة الاصابة بالغاز لا تزيد في المعدل عن نصف الفترة المطلوبة للاصابات بغير الغاز).

و يتوصل اصحاب هاتين المقارنتين الى نتيجة إجمالية لا تخلو من المفارقة الغريبة والمتناقضة في آن واحد: (...ان معدل الوفيات نتيجة للغاز تبدو أقل بكثير من الاسلحة الاخرى). بهذا الاتجاه سجل "برنتس" في مقارنته الموثقة بالاحصاءات الرسمية: (... ان البريطانيين عانوا من موت ما لا يزيد عن 4,3% من مجموع الاصابات بالغاز؛ في حين مات 24% من مجموع من أصيبوا بالاسلحة الاخرى، ومات من الجنود الفرنسيين الذين اصيبوا بالغاز 4,2% مقابل 32% ممن اصيبوا بالاسلحة الاخرى، ومات 2% من الجنود الامريكيين الذين تعرضوا للغاز مقابل 25,8% من مجموع من اصيبوا بالاسلحة الاخرى، في حين بلغت الوفيات عند المانيا نسبة 4,5% من مجموع من اصيبوا بالغاز مقابل 36,5% من مجموع من اصيبوا بالاسلحة الاخرى).<sup>106</sup>

تبين هذه البيانات والتصريحات الاسس التي استند عليها القائلون: ( بأن الاسلحة الكيماوية كانت أقل قسوة في مفعولها من القنابل شديدة الانفجار وغيرها من الاسلحة التقليدية).

مقابل مثل هذا الاستنتاج ما يدحضه من آراء وأرقام وحقائق ترى:

1- ان امكانات الاسلحة الكيماوية في القتل كانت مرعبة، لذا اخفيت الحقائق المرتبطة بها، عن عمد، في الاحصائيات الرسمية. وجرى تجاهل تسجيل الاصابات بها ونشرها ، ماعدا ماسجل في تقارير قادة الحرب والضباط الميدانيون وهم يرفعون تلك التقارير الى رؤوسهم. 2- غياب اية معلومات عن اول هجوم الماني بالغاز، ويستشهد البعض بالارقام الالمانية التي نشرت بعد الحرب

<sup>106</sup> سبيرز، الحرب الكيماوية، مرجع سابق، ص 50.

مفادها: ( من ان الحلفاء خسروا 5 آلاف قتيل و 10 آلاف جريح). ويؤكدون ان الاحصاءات الرسمية قللت كثيرا من عدد الرجال الذين قتلوا، او تعرضوا للاصابات بالغاز. ولكن جميع الكتابات الاوروبية تجاهلت في أول حادثة لاستخدام الجيش الفرنسي للأسلحة الخائفة في قصف مدينة الاغواط للفترة من 22 نوفمبر الى 2 ديسمبر 1852 بآبادة ثلثي السكان(حوالي 3760 من مجموع 4800) وباعتراف كتابات وتقارير فرنسية رافقت الحملة على الاغواط آنذاك.<sup>107</sup>

وبعد الحرب يرى " هاريس وبكسمان": (.. ان الاحصاءات البريطانية أغفلت هؤلاء الذين تعرضوا للاصابة بالغاز عام 1915 من الذين ليست هناك سجلات عنهم، فلا يوجد شيء عن أي ضحية للغاز أسره العدو، أو أي شيء عن أي جندي قتل على الفور في ميدان المعركة بالغاز، أو أي جندي أصيب بالغاز من بين الربع مليون الذين ابغ عنهم، انهم فقدوا اثناء العمليات، أو أي رجال احتفظ بهم في محطات اسعاف الميدان مصابين اصابات طفيفة، أو أي اصابة بالغاز مات الذي تعرض لها في بريطانيا بعد إخلائه من الجبهة، أو اية اصابة بالغاز مات صاحبها نتيجة مرض عَجَل موته بعد تعرضه للغاز).

وأخيرا فان هؤلاء الباحثين وغيرهم أصرروا : (...على ان النتائج بعيد الاثر والتعرض للتسمم بالغاز، هي أسوء بكثير مما يفترض في البيانات الرسمية... وان تلك البيانات وَضَعَت معايير" قاسية بشكل غير عادي"؛ ... بأنها حددت عدد المؤهلين للحصول على تقاعد لاصابتهم اثناء الخدمة... وهناك عدة آلاف من الرجال ظلوا يعانون طيلة حياتهم من نتائج اصابتهم خلال الحرب نتيجة تعرضهم للغاز<sup>108</sup>). ويدعم اصحاب هذا الرأي موقفهم وبطلان حجج خصومهم على مجموعة من الحقائق منها: (...ان القيود الطبية لم تكن كاملة... والمعلومات بشكل عام تفنقر الى المصادقية وخاصة فيما يتعلق بهجمات سحب الغاز الالمانية الاولى والمزاعم التي ظهرت بعد الحرب من ان الالمان قتلوا 5000 رجلا، وجرحوا عدة آلاف آخرين تحتاج الى برهان، رغم ان نتف المعلومات المتوافرة تشير الى ان تلك الارقام كانت أعلى من ذلك بكثير، والبيانات البريطانية عن العام 1915 غير ملائمة، ولا شك إن الاحصائيات الرسمية قللت من عدد الجنود الذين قتلوا أو أصيبوا بالغاز خاصة، اضافة الى الكثير من النقص ايضا في كامل البيانات الطبية، التي لاتستطيع

<sup>107</sup> العبودي عبد الكاظم ، مجموعة مقالات، وتقرير تحت الاعداد والبحث ضمن مشروع بحث مقدم الى مركز الدراسات التاريخية للحركة الوطنية وثورة نوفمبر 2008. تحت الاعداد.

<sup>108</sup> غالبا ما توضع اللجان الطبية الخاضعة للجيش معايير غير منصفة لجميع من تعرضوا لهذه الاسلحة لتفادي الاحراج لقيادات تلك الجيوش.

[قد يكون هناك بعض التحفظ على الارقام، كما ان للنسب دلالة على الاقل هنا، عند مقارنة سلاح الغاز بالاسلحة الاخرى: فبحلول اذار/مارس 1926 لم يكن هناك سوى 683 رجلا يتلقون مخصصات تقاعدية عن اصابتهم بالغاز، في حين كان هناك، حتى ، وحتى نهاية عام 1929 حوالي 65 ألف جندي يعانون من "صدمة القذائف" في المستشفيات النفسية. ماتعكسه هذه النسب ليست "انسانية" استعمال الغاز، بل نتيجة للدور المحدود لاستخداماته، والثانوي جدا، الذي لعبه الغاز في ميدان المعركة.

الا أن تستثنى الاسرى والمفقودين والذين يقتلون أثناء العمليات الحربية. والاحصائيات الألمانية تنتهي يوم 31 جويليه/تموز 1918، والمعلومات عن الجبهة الشرقية لا يمكن الاعتماد عليها.<sup>109</sup>

## 5-12: دروس الحرب الكيماوية الاولى: الجدل الاخلاقي: "القبول والرفض"

سياسات إفشال نزع السلاح الكيماوي من قبل الدول العظمى خلال فترة ما بين الحربين:

جوزا استخدمنا تسمية الحرب العالمية الاولى بـ "الكيماوية" لأنها أول حرب كبرى استخدم فيها السلاح الكيماوي وتم تثبيت ذلك رسميا. وبغض النظر لما انتهت اليها الحرب الاولى، وخسارة المانيا لها فان مستجدات المواقف الاخلاقية منها، عكست توجه المنتصرين والمنهزمين الى الاعداد المبكر لجولة أخرى من الحروب القادمة ولو بأسلحة كيماوية، لذلك ظلوا مستمرين في تطوير الاسلحة الكيماوية والجرثومية، بذات الوقت الذي كانوا يوقعون موثيق السلام مع بعضهم البعض ومع موثيق عصبة الامم ويتصلون منها فرادى وجماعات.

ورغم ان مقررات مؤتمر السلم في فرساي عام 1919 وموافقة الدول المنتصرة على اقامة "نظام دولي جديد" والمصادقة على ميثاق يعهد الى عصبة الامم يدعو الى (... خفض التسلح القومي الى أدنى حد بما لا يتعارض مع السلامة القومية) "البند الثامن"، وهو بند كان يستهدف بالاساس تخفيض قوة المانيا "المهزومة" وتجريدها من أسلحة الحرب الكيماوية التي كانت موضوعا يتطلب الحسم، وخاصة الموقف من منع انتاج واستخدام الاسلحة الكيماوية. ان الفترة ما بين الحربين شهدت استخدام الدول الكبرى للاسلحة الكيماوية في مستعمراتها سوف نتناول تفصيلاتها لاحقا ومنها ضرب الايطاليين للواحات والمدن الليبية والمدن الحبشية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وكذلك ضرب القوات اليابانية للصينيين وبريطانيا للأفغان.

## 5-13: المنظور الاخلاقي للابادة بالحرب النووية:

يتجاهل بعض من منظري الحروب والداعين الى الحرب والغزو الاستعماري قضايا أخرى مرتبطة بالاستعمار وخاصة في جوانب التفجيرات النووية على ارض الغير ويتعاملون معها ( على انها كانت فرصا للتقدم العلمي والانساني) .

وفي الستينيات لم يعد التفجير النووي للاسلحة حقا جديدا للاكتشافات، أو مجرد محاولات تجريب في المجال الذري بعد ان ظهرت وسجلت أخطاره المرعبة للعيان في هيروشيما ونيواغازاكي ونيومكسيكو واستراليا وكازاخستان... وغيرها من البلدان التي تتالت عليها النكبات النووية من قبل الدول الكبرى. ولم توقف تهور المندفعين في الايغال في الجرائم النووية اشتداد

109 تشير بعض الدراسات العسكرية ان القوات الروسية التي كانت تفتقر الى الحماية من الاسلحة الكيماوية (475 ألف إصابة و 56 ألف قتيل) فإن آثارها التكتيكية كانت في أغلب الاحيان تضعف بسبب انخفاض درجة الحرارة والبرودة الشديدة.

الحملة العالمية للحد من التسلح النووي والمظاهرات التي شهدها العالم في نهاية الخمسينيات والستينيات من أجل وقف التجارب النووية، السطحية منها والباطنية. لذا فإن الاصرار على تنفيذ البرامج العسكرية في المجال الذري كانت وظلت محاولات حمقاء للغرور العسكري من أجل امتلاك القوة النووية ومن اجل بسط النفوذ الاستراتيجي والسياسي على الغير.

كما إن اجراء التجارب النووية على ارض الغير تعتبر جرائم كبرى ضد الانسانية، وان ظل الكثير منها منسيا في التدوين والتسجيل وابقائه موضوعا على هامش ما سجل من فضائع في حروب القرن العشرين المعروفة. التجارب والتفجيرات على أراضي الغير، بعلمه أو بغفلة منه، تبقى جرائم حرب وبإمتياز، ايا كان حجمها، وموقعها، وتوقيتها وتأثيراتها المباشرة أو غير المباشرة، حتى وان بدت للبعض أنها معزولة، أو أنها أجريت في أماكن نائية وبعيدة ومنعزلة عن مراكز المدن الكبرى مثل مناطق الصحراء التي تقل فيها الكثافة السكانية وتخلو من المدن والحوضر الكبرى ومناطق المحيط الهادي وصحارى قرغيزيا والصين وغيرها.

ميزة "الحرب النووية" على اراضي الغير، حتى وان شنت بدون إعلان حرب رسميا، أنها تبقى سواء في ميزاتها التدميرية، أو خرابها الشامل هي حرب تُشن لا على الموقع او البلد المستهدف فقط ومحيطه الجغرافي الأقرب؛ بل هي حرب على الانسانية جميعها. ولا يمكن التعامل معها بانها قضية إقليمية أو محصورة بالبلد الضحية؛ لأن التفجيرات النووية، لا كما تسمى "تجارب" كما هو الحال مع ما تعارف على تسميته خطأ: (التجارب النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية)، لا يمكن التعامل معها بكونها قضية معزولة ومحصورة بين الجزائر "المستعمرة" أو "المستقلة" من جهة وفرنسا الاستعمارية، لأن خرابها شمل العالم كله وتعدت أخطارها مواقع التفجيرات في الصحراء.

ان إقدام فرنسا على تنفيذ تفجيراتها النووية الواسعة على ارض الجزائر، بدون مراعاة لحجم الخراب النووي على الارض والانسان والبيئة من جهة، وسعة البرنامج النووي العسكري الفرنسي وسرعة تنفيذه، في فترة زمنية قصيرة جدا من جهة ثانية، تثير الانتباه لها، وتدعو الى استنكارها وادانتها ومحاسبة منفيديها ومخططيها.

ومهما كانت تداعيات القضية، فاتها كانت نتاجا لشعور فرنسي ذاتي كامن لأمة مأزومة كانت تعيش في حالة من الاحباط الذي تركته فيها هزائم قادتها العسكرية المتتالية على مدى قرنين من الزمن، وخاصة في حروبهم ومغامراتهم الاستعمارية في القرن العشرين، خاصة بعد سقوط باريس فريسة سهلة للاحتلال الالمانى الهتلري، من دون مقاومة عسكرية تُذكر، ثم تلتها هزائمها المنكرة في الفيتنام وانسحابها المخزي بعد معركة "ديان بيان فو" ، ثم عجزها عن مواجهة الثورة الجزائرية المتصاعدة، وحركات التحرر الوطني في أفريقيا المطالبة بالاستقلال، ثم توجت فرنسا

سلسلة الهزائم تلك، بهزيمتها العسكرية الكبرى في العدوان الثلاثي على مصر مع حليفتيها اسرائيل وبريطانيا في حرب السويس 1956 عام من دون تغيير في الموقف المصري من الثورة الجزائرية واستمرار واشتداد الثورة.

ولأن مراجعة ودراسة موضوع الملف النووي الفرنسي والحرب النووية الفرنسية على أرض الجزائر هي ليست مجرد قضية توثيق لحالة من الماضي الاستعماري البغيض أو متابعة لجريمة متعلقة بعدد من جنرالات الحرب ممن أشرفوا على تنفيذ الملف النووي العسكري على أرض الجزائر، لكنها تبقى قضية مستقبل أيضا مرتبطة بماضي عسكري ونووي بغيض للعنجهية الاستعمارية وحمقاتها وهي تستخدم العلم في الدمار الشامل ضد بلد محتل كان يعاني من إحتلال طال 130 سنة وتعرض لانواع من الابدات والمجازر.

ذلك ما يدفعنا للبحث الجاد في كل تفاصيل هذا الموضوع ماضيا وحاضرا ومستقبلا لأجل إستشراف تداعيات نتائجه المستمرة الوخيمة على حياتنا جميعا. فهي أولا تبقى جريمة حرب تظل مرتبطة بشبكة من التداخلات والتشابكات مع أخلاقيات البحث العلمي وتتجمع فيها تفاصيل كثيرة في تداخلاتها البيئية من مجالات الاستبصار واستشراف المستقبل، وبما يرتبط بها من علاقات متشابكة في السياسة والقانون ونظريات البيولوجيا والطب والانتروبولوجيا والاقتصاد والجغرافية والتاريخ والاثولوجيا.<sup>110</sup>

ولأن نتائج التفجيرات والتجارب النووية الامريكية والبريطانية قبل أن تبدأ فرنسا مشروعها النووي العسكري على الاراضي الجزائرية قد كشفت عن حجم الدمار والخراب النووي على الاراضي المجرب عليها فإن تبرير الاعذار لفداحة الجرم الفرنسي لا يمكن قبوله ولا نستطيع تقبله أخلاقيا. وربما يجد البعض تبريرات أخرى مخففة عن الاستعمالات الاخرى لانواع من الاسلحة الاخرى التي استعملها الجيش الفرنسي في حربه على الشعب الجزائري الاعزل لاتقل بشاعتها عن الاسلحة النووية ببررها الطرف الفرنسي بأنه كان يمارس حربا ضد جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير وهذه الحرب حولها المستعمر الى حرب إبادة ضد الشعب الجزائري كله؛ رغم ان الدولة الفرنسية تدعي أنها تعاملت مع الجزائريين وفق قوانينها الاستعمارية بانهم: (... من مواطنيها، والتراب الجزائري جزء من اراضي الاقاليم الفرنسية عبر البحار) آنذاك. ولكن هؤلاء المواطنين "الفرنسيين" من المسلمين، أصحاب البلاد، عوملوا حقلا للتجارب ومورست عليهم كل

110 والاثولوجيا **Ethology** مصطلح ابتكره الفيلسوف الانجليزي "جون ستوارت" للدلالة على العلم الذي يدرس أشكال السلوك البشري في أنواع شتى من التنظيمات الاجتماعية. فهي مسألة ذات ارتباط بمنظومة الاخلاق والسلوكيات وأحكام القيم. ولكونها واحدة من المسائل الهامة التي لا يمكن طرحها وفق رؤى معيارية تختص بمسائل تتسائل عن مواقع الخطأ والصواب في الممارسة على أرض الغير

وسائل القمع والابادة. وتلك الاراضي مورست عليها تجارب الخراب والحرق بكل أشكالها بما فيها الكيماوية والنووية .

ولهذا تعد الممارسات الكيماوية وبعدها النووية الفرنسية على الاراضي الجزائرية لا أخلاقية ومتعارضة مع الاخلاق والقوانين وحتى الدساتير الفرنسية ذاتها.

ولاشك ان العنف المنظم والمبرمج ضد الشعب الجزائري مارسته الدولة الفرنسية وسلطاتها الاستعمارية وجيشها منذ سنوات الاحتلال المبكرة، وامتد وتطور هذا العنف وأساليبه لأكثر من 130 سنة؛ لم تتوان الدولة الفرنسية عن إستعمال كل سلاح توفر بيد عساكرها بموازاة التوسع المستمر لاستعمالات تكنولوجيا السلاح بكل أنواعه، وما افرزه العلم التطبيقي من تطورات وتطبيقات في زيادة فتك آلة الحرب وممارسة العنف والقتل والدمار الجماعي بها.

نسجل هنا محطات هامة من مثل هذا الاندفاع الطائش ضد الحياة بكل تفاصيلها وتنوعاتها. يسجل التاريخ ان الفرنسيين هم أول من استعمل المواد الكيميائية كسلاح إبادة في التاريخ الانساني المعاصر، أستعمل ضد المدنيين العزل من قبل الجيش الفرنسي. حدث هذا في الاغواط عام 1852 وعلى مدى سنوات الاحتلال الطويلة التي استعملت بها القوات الفرنسية كل ابتكارات التكنولوجيا العسكرية المتطورة كالالغام والنابالم والقنابل العنقودية وكهربية الحدود، وإتلاف المحاصيل وتخريب الدورة الزراعية ونمط الانتاج الزراعي؛ مما خرب الاقتصاد الزراعي وأفقر السكان، وصولا الى حرق السكان في الافران بمحارق الكهوف والمغارات التي لجأ إليها السكان خوفا من القمع، ولكنهم أبيدوا بشكل جماعي باستعمال الغازات السامة والكيميائية.

ان منظور النظريات التجريبية، التي تعرف بالنظريات السببية، في مجال الحرب والسياسة، يحاول ويهدف الى تفسير سلوك الحرب. والنظرية التجريبية في علم السياسة على أقل تقدير تحتوي ضمنا اتباع " المنهج العلمي " للبحث. وهذا البحث في المجال النووي لا يستند في نتائجه على الحدس او الشعور الداخلي طالما ان نتائج كانت متطابقة ومشابهة لما توصلت اليها دول اخرى سبقت الفرنسيين في تفجير القنابل النووية، وحذر العلماء النوويون أنفسهم من مغبة الاندفاع في تكرار نفس الحماقات النووية وعلى اراضي أخرى طالما ان النتائج المتوصل اليها واحدة في حجم الكوارث والخراب النووي. نشير بهذا الصدد الى موقف كثير من العلماء النوويين الفرنسيين أنفسهم والذين واجهوا كثيرا من التضيق وعزلوا عن البرنامج النووي ومنهم من همشوا في مجالات الابحاث النووية، ومنهم العالم كيوري نفسه.

وبعيدا عن محاولات النظريات الاجتماعية لإيجاد تفسيرات معنية بأسباب السلوك البشري وعلاقتها بالحرب وأسبابها، وتحديد الصلة بين تلك الاسباب ونتائجها لابد من التوقف أمام محصلة

ثقيلة من المعطيات والمثاسي التي أفرزتها التفجيرات والتجارب النووية الفرنسية وغيرها في هذا البلد أو ذلك وتدعو إلى اكتشاف ذهنية واخلاقيات أولئك العلماء المتورطين في تنفيذها، ومن بعدهم العسكريين الذين خاضوا حروبا من نوع جديد ضد الانسانية. وبهذا المدى الواسع من الخراب النووي وما جره من مصائب لا بد من مناقشة الوازع الاخلاقي الذي دفع هؤلاء الى ارتكابها.

( أين تكمن الحرب؟؟... وما الذي جعلها تبدو شديدة الحقارة؟؟... لقد أدركنا الآن أين يكمن أصل الحرب، انه داخل نفوسنا). هكذا تسائل الكاتب الروائي الفرنسي "البير كامو"، وهكذا أجاب هو نفسه ايضا.

وعلى هذا المنوال هناك من يوعز البعض المسألة الى الطبيعة العدوانية للأفراد، أي يذهب بالتحليل الى "المستوى الفردي" للممارسة، ويرى أن العدوانية كامنة في الخصائص الشخصية لسايكولوجية الزعماء القوميين، ويرفضون بأن مقولة: " ان البشر ليسوا جميعا متماثلين في الطبيعة العدوانية".

سعى الفلاسفة وعلماء اللاهوت الى تفسير الطبيعة البشرية من زاوية فلسفية، واخرى لاهوتية. فمنذ القرن السابع عشر عبر "توماس هوبز" في كتابه "اللواتيون" عن الاحوال المعيشية في حالة الطبيعة قبل ظهور الحكومات في المجتمعات البدائية التي تتصف بأنها كانت: (... حرب يشنها كل آدمي ضد الآدمي الآخر). هكذا كانت رؤية "توماس هوبز" سابقة لوصف البشر في صراعهم المستمر بكونهم: (...مشغولون بأنفسهم وأنانيون وطماعون ولا يهتمون بغير إشباع شهواتهم، والدافع الاساسي للانسان هو الكسب الشخصي والمجد"<sup>111</sup>.

قبلها ومنذ قرون بعيدة لاحظ القديس "أوغسطين" : ان هناك قدرة فائقة للانسان على إلحاق الأذى بالآخرين والإعتداء عليهم، وبدا ذلك الميل للشر حسب أوغسطين في حاجة الى تفسير لاهوتي، يعني إرجاعه للخطيئة الأزلية؛ إذ ترتبط الطبيعة العدوانية للانسان ارتباطا مباشرا بالسقطة من عناية المشيئة الالهية في جنة عدن. وجاء الفيلسوف الهولندي "سبينوزا" في القرن السابع عشر برد مقابل لذلك القول، تضمن قوله بوجود صراع هائل داخل الانسان ، بما أسماه، "بين قوى الهوى والقوى العاقلة"، ومن سوء الطالع ان الهوى غالبا ما ينتصر على العقل.

وفي بدايات علم النفس، لاحظ علماءه ان القتال والحرب يشبعان احتياجات ممتدة الجذور عند الافراد والمجتمعات. إنها احتياجات، من المفروض أن تكون فطرية عند جميع البشر؛ وليس

<sup>111</sup> كاشمان، جرج "لماذا تنشب الحروب"، سلسلة الالف كتاب، الهيئة المصرية للكتاب، ج 1 ص 32 القاهرة.

بالامكان قمع مثل هذا الدافع العدوانى، ولكن بالاستطاعة ترويضه وإعادة توجيهه وتحويله صوب أنشطة أكثر إساما بالمسالمة، تتضمن بالمثل تحديات وجهودا مبذولة. وهكذا رأى "وليم جيمس" الحاجة الى ما أسماه "مكافئ أخلاقي للحرب"<sup>112</sup>.

ربما يمكن تجنيد الشباب لزرع الاشجار وانشاء الطرق او الخزانات والسدود بدلا من تجنيدهم لقتل شباب المجتمعات الاخرى. وقد تساعد مثل هذه البرامج وغيرها على تطعيمهم بنفس "الفيثامينات الاجتماعية" أي تضطلع بدور مشابه لدور الحرب دون أن تلحق أي دمار للحياة أو الممتلكات للآخرين.

يذهب "سيجموند فرويد" الى ان منبع السلوك العدوانى للبشر من دوافع لا شعورية، بعيدة الغور في النفس الانسانية، واعتقد أيضا : (ان العدوان يبدو كأنه صفة سلوكية عند جميع الأدميين). وكما رأى "فرويد": (...ان تفسير مثل هذا العدوان قد يكون مرتبطا بوجود غريزة الحياة "ايروس" في الحياة. وفي الغريزة التي تسعى للحفاظ على البشرية وتحقيق وحدتها)، وهناك أيضا غريزة الموت "تاتانوس" التي أشار اليها "سيجموند فرويد" في مقالته المعروفة : "لماذا الحرب؟"<sup>113</sup> ؛ حيث إفترض: (ان غريزة الموت تهدف الى إزالة كل توتر وإثارة انتباه الفرد). وتتركز هذه الغريزة الخاصة بالموت في أعماق الانسان. وعندما تسيطر على نفوسنا، فان ما يتمخض عن ذلك هو الانتحار؛ يعني يتجه العدوان الى النفس، على ان هذه الدوافع لا توجد منعزلة بعضها عن بعض، ولكنها تتفاعل سويا وتعديل كل منها مسار الدوافع الاخرى. فالانسان يحيا، حسب "فرويد"، (...بفضل تصدي غريزة الحياة لغريزة الموت، ويغير مسارها من الاتجاه نحو النفس إلى الاتجاه نحو الآخرين).

وهكذا تكون الحرب، ويكون العدوان السافر، حصيلة لدوافع عدوانية باطنية أعيد توجيهها نحو الآخرين. يرى "فرويد": (... انه من الواجب، ليس فقط انطلاق العدوان على نحو أو آخر، ولكن يتعين أن يجني الانسان قدرا من الإشباع من هذا الانطلاق، وبعبارة أخرى: يحتاج الانسان الى إشباع هذه الدوافع العدوانية، وإن كان لا يلزم أن يتحقق ذلك عن طريق العدوان السافر). ثمة كتاب آخرون يرون: ان اختلاف الفرد له أثره؛ فثمة إختلاف بين تزعم "أدولف هتلر" لألمانيا، وتزعم " هلموت كول" لها مثلا. وعلى شاكلة مثل هذا المثال وغيره، ينظر البعض الى العدوان كخاصية فردية أكثر من كونه خاصية جماعية، أو يدرك أثره على الحرب في المستوى الاصغر "الميكرو" لصناع القرار الذين يمسون بزمان القدرة على الاختيار بين الحرب والسلام.

<sup>112</sup>-William James, "The Moral Equivalent of War", from book;"Gothals and Bramson, "War ,,Studies from Psychology,Sociology, and Anthropology,1968

راجع كذلك الباب الثاني في فصول الاخلاق من هذه الرسالة.

<sup>113</sup> Sigmund Freud, من مقالة لماذا الحرب, Why War.

وهناك من يذهب إلى شمولية الاتهام إلى : (... أن البشر عدوانيون بطبعهم). ويبررون هذا الاتهام الجماعي إلى أن القادة القوميين المتعصبين الذين يجرون معهم جماهير عريضة من عامة الشعب، لأنهم يشتركون معهم بالصفات العدوانية، التي يتصف بها النوع البشري. وتؤثر هذه الخاصية الجماعية للعدوان البشري على عملية الحرب في المستوى الأكبر للفعل الجماعي.

وعند ألخوض في موضوع مثل هذا، لا بد من تصحيح ما يطرح التصورات المعبر عنها بالمصطلحات أو الكلمات والدلائل التي تحاول الاستهانة بالعقل الانساني لتبرير "الحرب النووية" أو "الكيميائية" من مثل هذه الجريمة أوتلك، ووصفها بمصطلحات مضللة عند تناولها تاريخيا وسياسيا وإعلاميا، وحتى علميا أحيانا. فكلمات مثل "تجارب" و "صحارى" و "مناطق خالية من السكان" الخ. واستبعاد كل تلك الافعال من سلوك "الحرب" و"الانتقام" و "القتل العمدي" و "التخريب" الخ باتت اطروحات سمجة، إن لم تكن مغفلة؛ فترجمة "التجارب" Tests في حالة تجريب الاسلحة النووية هي ليست ممارسات علمية محدودة التأثير يتم تجريبيها داخل غرف المخابر وبطاقات محدودة؛ بل شاهدها العالم وصورتها كامرات التصوير وسجلتها أجهزة الرصد الزلزالي على مسافات مئات الكيلومترات وهي تجاوزت ما وصفت به "التجارب" بطاقتها التفجيرية الكلية لعشرات الاضعاف بالكيلو طن من تفجير مادة TNT، وتجاوزت حدود " التجربة"، وصارت جرائم أيضا عندما إستعملت البشر والبيئة الحيوية والمحيط لاختبار نتائجها وراح ضحيتها في عين المكان مئات من البشر والحيوانات ومئات الالاف من الكيلومترات المربعة. وهي ليست "تجارب علمية" عندما استغلت جهل آلاف الافراد من الحنود والمستخدمين في تنفيذ هذا "المشروع النووي العسكري" المرادف لـ " الحرب النووية" على أراضي الغير وأجبرت السكان على البقاء في محيط متماس مع منطقة التفجيرات.

ان الافعال العسكرية الممارسة كانت قد تجاوزت جسامة وأخطار الحروب التي شنتها جيوش الغزو الاستعمارية في كل العصور. وعندما تطورت الأسلحة والمعدات الحربية بشكل مذهل. فالقدرة التدميرية للصواريخ والقنابل زادت عشرات الأضعاف وأصبحت إنتاج الأسلحة النووية تشكل خطراً كبيراً على السلام العالمي. ولم تعد إنتاجها تقتصر على الدول الصناعية الكبرى؛ بل دخلت دول أخرى في مضمار إنتاجها وإجراء التجارب عليها وكذلك في إنشاء المفاعلات النووية، كإسرائيل والهند وباكستان وكوريا الشمالية وإيران. فيما لاتزال هناك بؤر للنزاعات والصراعات السياسية والعرقية. كما وإن المنافسة الاقتصادية بين الدول على أشدها تدفع الى الغزو والاحتلال كما حدث للعراق وافغانستان من قبل قوات الولايات المتحدة ومعها تحالف دولي لا يستهان بعدته وامكانياته وتسليحه.

#### 5- 14 : جدل حول مفهوم الإبادة الجماعية في العصر الحديث:

يفترن الإعلان عن حصول بعض الدول لواحد أو أكثر من أسلحة الدمار الشامل بالحديث عن استخدامها وحدوث " إبادة جماعية" بسببها. وصار هذا المصطلح السياسي القانوني

الاعلامي كثير التداول، كونه يرتبط بالموقف الاخلاقي من إنتاج واستخدام تلك الاسلحة ونتائجها. ومهما كانت درجة محدودية استعمال أي سلاح من أسلحة الدمار الشامل، فإنه لا محالة سيؤدي الى قتل جماعي وحتى إبادة عند تجاوز استخداماته الحدود القصوى كما يعتقد مستخدموه. يُعزى الى "رافائيل ليمنكين" **Lemkin**<sup>114</sup> أنه أول من استخدم مصطلح "الإبادة الجماعية" **Genocide**، للإشارة إلى (...تدمير العنصر البشري بشكل تام أو بشكل جزئي، ولكن جماعي) ، وذلك لأسباب عنصرية أدينية أو إستعمارية. ولا شك إن دوافع ونشاط رافائيل ليمنكين لا يبرئه من إستغلال وجوده في لجان صياغة القوانين والقرارات الدولية من التلميح الى "إبادة اليهود"، دون غيرهم من المجموعات البشرية، خلال أحداث الحرب العالمية الثانية<sup>115</sup>.

في 22 يونيو/حزيران من عام 1941 غزت ألمانيا النازية أراضي الاتحاد السوفيتي. ومع تقدم القوات الألمانية باتجاه الشرق، نفذت القوات العسكرية والبوليس الألماني والقوات الخاصة أعمالاً وحشية، دفعت رئيس الوزراء البريطاني آنذاك، ونستون تشرشل، إلى التصريح في أغسطس/آب 1941 قائلاً: (نحن أمام جريمة لا أجد لها تسمية).

في ديسمبر/كانون الأول 1941، دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء. وقد سمع رافائيل ليمنكين، الذي وصل في عام 1941 إلى الولايات المتحدة كلاجئ، حديث تشرشل، وقال فيما بعد: ( إن إدخاله لكلمة "إبادة جماعية" ، كان في جزء منه، مدفوعاً بمقولة تشرشل). .

#### 5-14-1: صياغة مصطلح "الإبادة الجماعية" 1944 : لجأت القيادة النازية الألمانية إلى

مجموعة من الاجراءات والسياسات المتعلقة بالكثافة السكانية، تهدف إلى إعادة بناء التكوين العرقي لأوروبا بالقوة باستخدام القمع أو الترحيل الجماعي بالقوة المسلحة كأداة. وقد شملت هذه السياسات أشكال عدة من الممارسات، من بينها، إعتقالات واسعة شملت اليهود، وتعرض بعضهم للأسر وإرسالهم الى المحتشدات والمعقلات النازية، ومنهم تعرض للموت حرقاً، وهو مايجري

<sup>114</sup> رافائيل ليمنكين 1900: ولد رافائيل ليمنكين، والذي صاغ فيما بعد مصطلح "الإبادة الجماعية"، في أسرة بولندية يهودية عام 1900. وتشير مذكراته إلى أن التعرض لتاريخ الهجمات العثمانية ضد الأرمن (والتي تمثل [حسبه] في نظر الكثير من العلماء إبادة جماعية)، والبرامج المضادة للسامية وحالات العنف ضد المجموعات في المراحل المبكرة من حياته ساهم في تشكيل معتقداته حول الحاجة إلى الحماية القانونية للمجموعات. وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية في 1 سبتمبر/أيلول، 1939 إثر قيام ألمانيا بغزو بولندا مؤدية إلى إعلان كل من إنجلترا وفرنسا بموجب معاهدة بينهما الحرب على ألمانيا. وفي 17 سبتمبر/أيلول من عام 1939، احتل الجيش السوفيتي النصف الشرقي من بولندا. فر حينها " ليمنكين " من بولندا عبر الاتحاد السوفيتي ليصل أخيراً إلى الولايات المتحدة .

<sup>115</sup> صعود أدولف هتلر 1933 : كان تولى أدولف هتلر لمنصب مستشار ألمانيا في 30 يناير/كانون الثاني 1933 إيذاناً بسيطرة الحزب النازي على مقاليد الحكم في ألمانيا. وفي أكتوبر/تشرين الأول من نفس العام، انسحبت الوفود الألمانية من مباحثات نزع السلاح في جنيف وأعقب ذلك انسحاب ألمانيا النازية من عصبة الأمم المتحدة. وفي أكتوبر/تشرين الأول، في مؤتمر القانون الدولي بمدريد، اقترح رافائيل ليمنكين (الذي صاغ مصطلح "الإبادة الجماعية" فيما بعد) تدابير قانونية لحماية المجموعات، غير أن اقتراحه لم يجد الدعم .

الإشارة إليه الآن وإشباع استعماله بـ "الهولوكوست"، رغم ان الاعتقالات، وسياسات التهجير الجماعي شملت مجموعات قومية عديدة منها روسية وبولونية وأقليات إثنية كالغجر وغيرهم. كما تمت التصفية الجسدية لمجموعات قومية وعناصر وجماعات سياسية تنتمي الى المقاومة للاحتلال النازي في بولندا والاتحاد السوفيتي وسائر البلدان التي تعرضت للاحتلال. كما شملت تلك السياسات العديد من المجموعات من السكان وإعادة التوطين لهم في مناطق محدودة النطاق، سواء بالأوامر أو بالإستخدام الوحشي للقوة والقتل. وهو ما يُنظر له الآن كأشكال من أشكال التطهير العرقي.

في تلك الاجواء والظروف من عام 1944، صاغ "رافائيل ليمكين" [الذي كان وقتها قد انتقل إلى واشنطن العاصمة وعمل مع وزارة الدفاع الأمريكية]، مصطلح "الإبادة الجماعية" في مؤلفه (حكم المحور في أوروبا المحتلة). وقد سجل في هذا المؤلَف صور التدمير والاحتلال عبر المناطق التي استولت عليها ألمانيا وشملها الاحتلال الالمانى.

تبنت الأمم المتحدة عام 1948 إتفاقية منع الجريمة والإبادة الجماعية والمعاقبة عليها. وقد وقعت إتفاقية من قبل الدول الأطراف التي تزايدت بالانضمام اليها سنوياً. دخلت الإتفاقية حيز التطبيق بحلول عام 1951. ونصت الإتفاقية على الجرائم التي تندرج تحت تسمية "الإبادة الجماعية"، منها قتل أفراد من مجموعة إثنية محددة، أو تشريدهم، والاستيلاء على ممتلكاتهم، والإعتداء عليهم جسدياً، أو إجبارهم على إتباع طريقة معيشية تؤدي إلى انقراضهم، بشكل كلي أو جزئي، وفرض تدابير لمنع تناسلهم أو تكاثرهم، أو خطف أبنائهم بشكل جماعي لإذابة كياناتهم الإثنية، كما جاء في المادة (33) من إتفاقية جنيف الرابعة بشأن حماية الأشخاص المدنيين التي عُقدت سنة 1949 بمنع الهجمات العشوائية التي تنتهك حقوق المدنيين وتعرضهم إلى مخاطر جسدية أو في ممتلكاتهم<sup>116</sup>. نفس الشيء ورد في الفقرة الأولى من المادة (57) من البروتوكول الإضافي الأول لإتفاقيات جنيف المعقودة عام 1977، معتبراً الأعمال العدائية العسكرية إنتهاكاً خطيراً لإتفاقية جنيف الرابعة بشأن حماية المدنيين.

عُرِفَت "جريمة الإبادة الجماعية": بأنها (الأفعال التي تُرتكب عن قصد لتدمير كل أو جزء من جماعة قومية أو إثنية أو عنصرية أو دينية)، من خلال قتل أعضاء هذه الجماعات، أو إلحاق

116 طالباني نوري ، الاستاذ في كلية القانون والسياسة بجامعة بغداد (سابقاً) ، هذا البحث القانوني بعنوان " جريمة الابادة ، نشر قبل اكثر من (34) عاما في مجلة (القضاء) التي تصدرها نقابة المحامين في العراق ، نشر هذا (البحث القانوني) في مجلة (القضاء) التي تصدرها نقابة المحامين في العراق، العدد الثالث، آب - ايلول 1970.

انظر بهذا الخصوص مقال الدكتور يونس العزاوي، حاجة المجتمع الدولي الى محكمة جنائية دولية، مجلة العلوم القانونية، المجلد الاول، العدد الاول، 1969، ص 141 وما تليها.

أذى جسدي أو روحي خطير بأعضائها، أو إخضاعها عمداً لظروف معيشية يُراد منها تدميرها كلياً أو جزئياً.<sup>117</sup>

وقد سبق أن حددت المادة الثانية من الاتفاقية التي أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في جلستها المنعقدة بباريس في 9 كانون الأول 1948، جريمة الإبادة : ( بأنها كل عمل يرمي الى إفناء شامل أو جزئي لإحدى المجموعات القومية أو العنصرية أو الدينية).<sup>118</sup> كما أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة: ( ان الإبادة تُعتبر من الجرائم التي تُرتكب بحق الانسانية جمعاء، وهي جريمة يُدينها العالم المتمدن، لذلك يجب معاقبة فاعليها وشركائهم في الجريمة بشدة).

وبعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية أخذت منظمة الامم المتحدة دراسة هذه المسألة الهامة على عاتقها، مسترشدة بالمبادئ التي من أجلها تشكلت "محكمة جرائم الحرب" في نورمبرغ لمحكمة "مجرمي الحرب"، وفقا لقانون العقوبات الدولي<sup>119</sup>. وهكذا اقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة اقتراحا في 11 كانون الأول 1946 يُدين (جريمة الإبادة باعتبار، أنها ترفض حق الوجود لمجموعات بشرية، كجريمة القتل التي تسلب هذا الحق عن الانسان الفرد)، كما أوصت بضرورة إتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع إعادة ارتكاب هذه الجرائم ضد البشرية. وجاء في القرار المُشار اليه آنفا: ( إن الابادة تُعتبر من الجرائم التي تُرتكب ضد حقوق الانسان؛ لذلك يجب معاقبة مرتكبيها بشدة، فاعلين اصليين كانوا أم شركاء، أفرادا كانوا أم موظفين عموميين أم رجال دولة، وأيما كان الغرض من ارتكاب الجريمة، إجتماعيا كان أم سياسيا أم دينيا أم أي غرض آخر).

أوصت الجمعية العامة أيضا المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة بدراسة هذه المشكلة، وتقديم اقتراحاته بغية تهيئة مشروع اتفاقية دولية بهذا الشأن. وتم فعلا تهيئة المشروع الذي أقرته الجمعية العامة بالاجماع في جلستها المنعقدة في التاسع من كانون الأول 1948<sup>120</sup>.

<sup>117</sup> طالباني نوري ، المرجع السابق.  
- انظر بهذا الخصوص مقال الدكتور يونس العزاوي، حاجة المجتمع الدولي الى محكمة جنائية دولية، مجلة العلوم القانونية، المجلد الاول، العدد الاول، 1969، ص 141 وما تليها.

<sup>118</sup> انظر Branchu، مشاكل الأقليات في قانون العقوبات الدولي منذ الحرب الثانية، رسالة لنيل الدكتوراه في جامعة ليون 1959، ص 120 وما تليها.

<sup>119</sup> المحكمة العسكرية الدولية: (1945-1946): قامت المحكمة العسكرية الدولية في نورمبرج في الفترة ما بين 20 نوفمبر/تشرين الثاني 1945 و1 أكتوبر/تشرين الأول 1946 بمحاكمة 22 من كبار القادة الألمان النازيين بتهم الجرائم ضد السلام وجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية والتآمر لارتكاب كل واحدة من هذه الجرائم. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تُستخدم فيها المحاكم الدولية كآلية لما بعد الحرب تعمل على إحضار القادة الوطنيين أمام العدالة. وقد كانت كلمة "إبادة جماعية" ضمن عريضة الاتهام، لكنها كانت مصطلحا وصفيا وليس قانونيا.

<sup>120</sup> عند إنشاء اتفاقية دولية حول الإبادة الجماعية (1947-1948):سعى "رافانيل ليمكين" بقوة لإدخال مصطلح "الإبادة الجماعية" أمام منظمة الأمم المتحدة المنشأة حديثا في ذلك الوقت، حيث كانت الوفود من أرجاء العالم تناقش مصطلحات القانون دولي حول الإبادة الجماعية. وفي 8 ديسمبر/كانون الأول 1948 تم تبني النص

أورد مشروع الاتفاقية ثلاث صور محتملة لجريمة الإبادة:

- الإبادة الجسدية **Genocide physique** بهدف افناء مجموعة بشرية.
- الافناء البيولوجي **Genocide biologique** عن طريق منع التكاثر.
- تدمير الثقافة **Genocide culturel** الذي يشمل: (كل عمل يرتكب بقصد ازالة وافناء لغة او ديانة او ثقافة جماعة قومية او عنصرية او دينية).<sup>121</sup>.

وقد أثارت الصورة الأخيرة لجريمة الإبادة مناقشات حادة عند تهيئة مشروع "رافائيل ليكين" وهو أحد الخبراء الثلاثة الذين ساهموا في تهيئة المشروع، كان يرى: (إن من الضروري إعطاء مفهوم واسع لجريمة الإبادة، بحيث تشمل الإفناء الثقافي أيضا؛ ذلك ان أية جماعة قومية أو عنصرية أو دينية لا تستطيع البقاء، [حسب رأيه]، دون وحدة روحية وثقافية). بينما أكد غيره على أن الإفناء الثقافي يعني توسيع نطاق الجريمة دون أي مبرر والرجوع بالتالي، تحت ستار جريمة الإبادة، للفكرة القديمة الخاصة بحماية الاقليات.

وعلى كل حال فإن النصوص التي اقترتها الجمعية العامة بصيغتها النهائية لم ترد فيها اشارة للإفناء الثقافي؛ فالفقرة الثانية من المادة الثانية من الاتفاقية لا تعتبر الاعمال الموجهة ضد أية جماعة قومية أو عنصرية أو دينية داخلة ضمن نطاق جريمة الإبادة الا اذا اتخذت احدى الصور التالية:

- أ- قتل ابناء تلك الجماعة.
  - ب- الاعتداء الصارخ الذي يشكل تهديدا لسلامتها الجسدية او الفكرية.
  - ج - اخضاعها لظروف تستتبع هلاكها وانحلالها الجسدي كلياً او جزئياً.
  - د- اتخاذ اجراءات من شأنها منع التكاثر ضمن نطاق الجماعة.
  - هـ - نقل اطفال جماعة بشرية لجماعة اخرى قسراً.
- ولم يرد في الاتفاقية نص يقضي بنفاذ بنود الاتفاقية في التشريعات الداخلية بحكم القانون؛ غير ان المادة الخامسة منها ألزمت الاطراف المعنية بضرورة إتخاذ الاجراءات التشريعية الكفيلة بادخالها ضمن تشريعاتها الداخلية<sup>122</sup>.

---

النهائي بالإجماع. وقد أصبحت اتفاقية الأمم المتحدة بشأن منع ومعاقبة الإبادة الجماعية سارية المفعول في 12 يناير/كانون الثاني 1951، بعد تصديق أكثر من 20 بلداً حول العالم عليها .  
<sup>121</sup> Kerner، تحفظات بصدد الاتفاقية الخاصة بجريمة الإبادة، مجلة القانون الدولي للعلوم الدبلوماسية والسياسة *Rev. droit inter. Scic. Dip. Poli*. عدد كانون الثاني- مارس 1952، ص 214 وما تليها.  
<sup>122</sup> Kerner، تحفظات بصدد الاتفاقية الخاصة بجريمة الإبادة، مجلة القانون الدولي للعلوم الدبلوماسية والسياسة *Rev. droit inter. Scic. Dip. Poli*. عدد كانون الثاني- مارس 1952، ص 214 وما تلاها.

لقد شهد العالم العديد من الجرائم المدرجة تحت باب " جرائم الإبادة الجماعية" واختلف حولها فقهاء القانون بدوافع سياسية، لكنها تبقى في الجانب الاخلاقي مثيرة للجدل، لما تضمنته الممارسات من مواقف تدين العديدين الذين وضعوا العلم والخبرة العلمية في خدمة الايديولوجيا أو الظرف السياسي. نشير الى بعض الحالات:

#### **5 - 14 - 2 : الحرب الباردة (1950-1987):** كانت الجرائم الشاملة ضد السكان المدنيين

شائعة على نطاق واسع في الأعوام التي تلت الحرب العالمية الثانية، وخلال الحرب الباردة في بلدان المعسكرين. ونادرا ما كان يتم التطرق لها من قبل البلدان المنضمة الى أحد المعسكرين، التي تعهدت كل منها بمنع ومعاقبة هذه الجريمة من خلال انضمامها إلى اتفاقية الإبادة الجماعية، إلا ما إذا كانت هذه الجرائم تمثل "إبادة جماعية".

#### **5 - 14 - 3: الولايات المتحدة الأمريكية توقع على اتفاقية الإبادة الجماعية: 1988:** في 5

نوفمبر/تشرين الثاني من عام 1988، وقع الرئيس الأمريكي "رونالد ريجان" على اتفاقية الأمم المتحدة بشأن منع ومعاقبة الإبادة الجماعية. وكان هناك معارضون لهذه الاتفاقية، بزعم أنها تنتهك السيادة الوطنية الأمريكية كما كان لها مؤيدوها. وكان السيناتور وليام بروكسمير من ويسكونسن من المؤيدين للاتفاقية بشدة وقد ألقى ما يزيد على 3.000 خطاب مناصر للاتفاقية في الكونجرس في الفترة 1968-1987 .

#### **5 - 14 - 4: حروب يوغسلافيا السابقة (1991-1995) تعيد الذاكرة الى الإبادة الجماعية:**

اتسمت حروب يوغسلافيا السابقة بجرائم الحرب الشاملة وجرائم ضد الإنسانية. وقد أدى الصراع في البوسنة (1992-1995) (إلى نشوب أعنف المعارك وأسوأ المذابح في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية. وفي إحدى المدن الصغيرة، سربرينيتشا، قتل 7.800 من الرجال والشباب البوسنيين على يد القوات الصربية . وردًا على الأعمال الوحشية التي ارتكبت في البوسنة، أصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار رقم 827 لسنة 1993، والذي يقضي بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة (ICTY) في لاهاي. وكانت هذه هي أول محكمة جنائية دولية، منذ محكمة نورمبرج. والجرائم التي يمكن للمحكمة نظرها والبتّ فيها هي : الانتهاكات الخطيرة لاتفاقيات جنيف 1949، وانتهاكات قوانين وأعراف الحرب، والإبادة الجماعية، والجرائم ضد الإنسانية. ويقتصر نطاق سلطة الاختصاص القضائي لدى هذه المحكمة على الجرائم التي ارتكبت في منطقة يوغسلافيا السابقة .

#### **5 - 14 - 5 :الإبادة الجماعية في رواندا1994 :** فيما بين أبريل/نيسان ويوليو/تموز، قتل ما

يصل إلى 800.000 شخص أغلبهم ينتمون إلى مجموعة التوتسي التي تمثل جماعة أقلية في رواندا. لقد كان القتل يتم على مستوى ونطاق مدمرين وسرعة رهيبية. وفي أكتوبر/تشرين الأول،

مد مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة تفويض المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة لبتضمن محكمة منفصلة لرواندا ذات صلة بنفس الأمر، ألا وهي المحكمة الجنائية الدولية لرواندا (ICTR) في أروشا، تنزانيا .

**5 - 14 - 6 : أول حكم إدانة بالإبادة الجماعية 1998:** في 2 سبتمبر/أيلول من عام 1998 ، أصدرت المحكمة الجنائية الدولية لرواندا أول حكم إدانة بالإبادة الجماعية في العالم يصدر عن محكمة دولية عندما توصلت المحكمة إلى أن جان بول أكاسيو يعد مذنباً بالإبادة الجماعية وجرائم ضد الإنسانية عن الأعمال التي شارك فيها وأشرف عليها كعمدة لبلدة تابا في رواندا . ورغم أن هذه المحاكمات إلى جانب المحكمة الجنائية الدولية الناشئة تساعد في إنشاء سوابق قانونية والتحقيق في القضايا التي تقع ضمن سلطة الاختصاص القضائي لها، إلا معاقبة الإبادة الجماعية تبقى مهمة صعبة. وربما الأصعب من ذلك هو التحدي المستمر المتمثل في منع الإبادة الجماعية .

**5 - 14 - 7 : الإبادة الجماعية في دارفور 2004:** للمرة الأولى في تاريخ حكومة الولايات المتحدة، يشار إلى أزمة راهنة بأنها "إبادة جماعية". في 9 سبتمبر/أيلول 2004 ، أدلى وزير الخارجية الأمريكي كولين باول بشهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ حول الوضع في دارفور قائلاً: ( لقد انتهينا - انتهيت - إلى أنه تم ارتكاب جريمة الإبادة الجماعية في دارفور وأن حكومة السودان وجماعة الجنجويد يتحملون المسؤولية - وأن الإبادة الجماعية قد لا تزال مستمرة).

#### **5 - 14 - 8: تكييف القانون الدولي حول الإبادة الجماعية لقضايا اسلحة الدمار الشامل:**

لا بد من تكييف قراءة القانون الدولي حول الإبادة على ضوء الامر القسدي لاستخدام أسلحة الدمار الشامل، ذلك لأن أغلب الدراسات القانونية لا تتناول أداة الإبادة المنوه عنها أعلاه، ومنها اسلحة الدمار الشامل، التي تبقى هنا من دون تحديد ولكنها: تتناول جرائم الإبادة الجماعية وآثارها والمسؤولية القانونية تجاهها، باعتبارها جرائم ضد الإنسانية، وتقصد التدمير الكلي أو الجزئي لجماعة قومية أو دينية أو عرقية، وموقف القانون الدولي منها وطريقة التعاطي معها، بما يتعلق بالأفراد أو الجماعات، خصوصاً أن المجتمع الدولي توصل إلى قناعات تامة يعتبر جريمة الإبادة الجماعية من أخطر الجرائم الدولية.<sup>123</sup>

<sup>123</sup> سلامة أيمن عبد العزيز، "المسؤولية الدولية عن ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية" رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، 2008 بإشراف بطرس غالي.

لا يختلف اثنان أن اسلحة الدمار الشامل عند استخدامها لا تميز بين جماعة قومية أو دينية؛ بل هي جريمة جماعية القصد والاهداف<sup>124</sup>. الأمر الذي لا خلاف حوله، إن الحق في الحياة ليس مجرد أحد الحقوق الأساسية للإنسان وحسب؛ بل إن هذا الحق هو حق جوهرى لازم للمجتمع بأسره، فكل ما يعتبر ضرورياً لاستكمال الهياكل اللازمة للمجتمع يعتبر أمراً أساسياً ويتمتع بالقيمة الدستورية. وتكمن خطورة هذه الجريمة في تعداد الفعل بقصد القضاء على جماعة معينة، وطنية كانت هذه الجماعة أو عرقية أو دينية، وفي هذا التعدد يكمن شذوذ فاعلها أو فاعليها؛ فالإبادة الجماعية هي نوع من الممارسة السادية، تعكس من خلالها أخطر ما في النفس البشرية من وحشية ضارية وحقد. تكمن سادية المقاصد إن الفاعلين في استخدام اسلحة الدمار الشامل يعرفون حجم العذابات البشرية والأهوال التي تمس الضحايا سواء من يتوفون منهم، أو يبقون على قيد الحياة. والأثر لأسلحة الدمار الشامل يتجاوز المكان والزمان عند مكان وزمان حدوث الجريمة<sup>125</sup>. وحرى بالذكر أن القرار 96(أ) الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في الحادي عشر من ديسمبر/كانون الأول عام 1946 جسد مدى الخطورة الشديدة التي تمثلها هذه الجريمة للبشرية جمعاء حين نص القرار على: (.إن إبادة الجنس البشري هي إنكار حق الوجود لجماعات بشرية بأكملها، كالقتل الذي يمثل إنكار حق الشخص في الحياة. هذا الإنكار لحق الوجود، يتنافى مع الضمير العام للجماعة الدولية، ويصيب الإنسانية بأضرار جسيمة؛ الأمر الذي لا يتفق والقانون الأخلاقي وروح ومقاصد الأمم المتحدة. إن استهداف بلد أو جماعة أو منطقة جغرافية بقصد التجارب عليهم أو شن الحرب علنا أو سرا هو إنكار لحق الوجود)<sup>126</sup>.

ولما كانت هناك أمثلة كثيرة لجريمة الإبادة الجماعية، أبيدت فيها كلياً أو جزئياً جماعات بشرية لصفاتها العنصرية أو الدينية أو السياسية أو غيرها، ولما كانت معاقبة مرتكبي جريمة الإبادة الجماعية هي مسألة ذات اختصاص دولي؛ لذلك أكدت الجمعية العامة: ( إن إبادة الأجناس جريمة في نظر القانون الدولي، يُدينها العالم المتمدن، ويُعاقب مرتكبوها، سواء كانوا فاعلين أصليين أو شركاء فيها، وبغض النظر عن صفاتهم، حكماً كانوا أو أفراداً عاديين، سواء قاموا بارتكابها على أسس تتعلق بالدين أو السياسة أو الجنس أو أي أساس آخر )<sup>127</sup>.

وإذا كانت جريمة الإبادة الجماعية قبل صدور اتفاقية الأمم المتحدة للإبادة الجماعية، تُعد أحد الجرائم ضد الإنسانية؛ بيد أنها، بعد صدور الاتفاقية صارت الجريمة مستقلة عن الجرائم ضد

124 العبودي، بشر نعم، فئران مخبرية، لا، مرجع سابق، عدة صفحات.  
125 العبودي، "بشر نعم، فئران مخبرية لا" دار الغرب 1994، ط1، عدة صفحات.  
126 العبودي، يراييع رقان، جرائم فرنسا النووية في الصحراء الجزائرية، مرجع سابق، ص118-155.  
127 سلامة أيمن عبدالعزيز، المسؤولية الدولية عن ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية، رسالة دكتوراه، مرجع سابق.

الإنسانية، حيث ان الهدف من إتيان الجريمة، هو إبادة على الأقل جزء مهم من الجماعة المستهدفة، وفي المقابل لا يتحقق هذا الهدف في الجرائم ضد الإنسانية.<sup>128</sup>

ولكي تتحقق تهمة جريمة الإبادة الجماعية، ينبغي:

أولاً: أن يرتكب فعل من الأفعال التي تم تعدادها في المادة الثانية من نظام المحكمة "المأخوذة حرفياً من المادتين 2 و3 من اتفاقية الإبادة الجماعية".  
ثانياً: أن يرتكب هذا الفعل ضد جماعة قومية أو إثنية أو عنصرية أو دينية، مستهدفة بصفتها هذه.

ثالثاً: أن يرتكب الفعل بقصد تدمير الجماعة المستهدفة كلياً أو جزئياً.

ولا تقتصر المسؤولية الجنائية الفردية عن ارتكاب جريمة الإبادة الجماعية على الفاعلين المنفذين للجريمة، ولكن تمتد هذه المسؤولية إلى المشاركين، والمحرضين والمتآمرين على ارتكاب الجريمة.

إن المؤسسة العلمية وخبرائها وتقانيها، اضافة الى القيادات العسكرية والاعلامية المتكتمة عن أبعاد جرائم استخدام اسلحة الدمار الشامل وتجريبها مشاركون فاعليون في مثل هذه الجرائم. وإذا كانت هذه الجرائم توصف بـ "الجماعية"، فإن المشاركين في الفعل الجنائي هنا سيكونون كثيرين، الا من كان جاهلاً بالسلح ونوعيته، فهو سيكون في تعداد الضحايا، وليس من الفاعلين المُدانين<sup>129</sup>.

ويشترط لتحقيق جريمة الإبادة الجماعية، إضافة لركنها المادي، النية الإجرامية، فيشترط أن يكون لدى الفاعل نية إجرامية تنصرف إلى تحقيق الإبادة، لأنها جريمة، وإن كانت تتفق في طبيعتها مع الجرائم العمدية كافة، بيد أنه يشترط فيها إلى جانب القصد العام، القصد الخاص، وهو تحقيق الإفناء للجماعة المستهدفة، وبالتالي يمكن القول إن القصد الخاص لمرتكب جريمة الإبادة الجماعية، يهدف لتحقيق غاية معينة، وهي هنا الهدف البعيد للإبادة، والمتمثل في إفناء الجماعة المستهدفة. جميع حالات تجارب وتفجيرات الاسلحة النووية والاسلحة الكيميائية والبيولوجية منذ منتصف القرن التاسع عشر والى اليوم معروفة نتائجها المدمرة سلفاً.<sup>130</sup> ولا يمكن إعفاء الفاعلين بفعل التقادم الزمني، عندما يحاول الفاعلون إنكار مقاصدهم ومعارفهم المسبقة للفعل الذي ارتكبوه.

128 سلامة أيمن عبدالعزيز ، المسؤولية الدولية عن ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية، مرجع سابق.

129 العبودي، يرابيع رقان، جرائم فرنسا النووية في الصحراء الجزائرية، ص118-155.

130 العبودي، يرابيع رقان، جرائم فرنسا النووية في الصحراء الجزائرية، ص118-155.

تفرد جريمة الإبادة الجماعية، عما سواها من جرائم، يكمن في اشتراط العمدية، والتي هي خصيصة محددة للجريمة، حيث تضيف على تلك الجريمة ثوب التميز والتفرد عما سواها من جرائم أخرى. وجريمة الإبادة الجماعية تتميز عن غيرها من الجرائم، من حيث أنها تُجسد القصد الخاص في ارتكاب الجريمة. فهناك عدد من الجرائم لا ترتكب الجريمة فيها إلا إذا ارتكب المجرم الفعل بقصد خاص، وذلك القصد الخاص يكون محددًا في الجريمة. والجرائم من مثل هذا النوع تُسمى جرائم القصد المحدد، وتلك الجرائم تختلف عن جرائم القصد الأساسي، والتي يتطلب قصدها الخاص فقط النية لتنفيذ الأفعال المادية المكونة للجريمة.<sup>131</sup>.

وفي الموضع ذاته تنتمي جريمة الإبادة الجماعية إلى الجرائم ذات القصد المباشر، والذي يعبر عن حالة إرادية أي اختيارية لدى الجاني حيث تعبر الجريمة هنا عما يريده مرتكب الجريمة، سواء لمصلحته الشخصية، أو كوسيلة لمصلحة شخص آخر. إذًا فالقصد المباشر ضروري للجرائم ذات القصد الخاص، والتي منها جريمة الإبادة الجماعية.

جريمة الإبادة الجماعية تعول بشكل كبير على نية مرتكب الجريمة، والعلاقة بين هذه النية والأفعال الهادفة لتدمير الجماعة، فالنية المحددة لارتكاب الجريمة هي العامل الفارق بين جريمة الإبادة الجماعية الجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب والتي تركز على الأفعال الناتجة. وفي ما يتعلق بإثبات القصد الجنائي الخاص لجريمة الإبادة الجماعية، يشير بعض الفقهاء إلى أنه يمكن استجلاء ذلك القصد بالنظر إلى دمار الجماعة، وأعمال الإبادة الثقافية والإبعاد القسري، ورغم أن تلك الأعمال الأخيرة لا تعد أعمالاً إبادية، إلا أنها يمكن أن تدل بشكل كبير على ثبوت نية الإبادة<sup>132</sup>. ويعترف القانون الدولي المعاصر بمبدأ مسؤولية الفرد الجنائية عن ارتكاب الجرائم الدولية، ويعتبرها من ضمن مبادئه العامة ويستوي في ذلك الجرائم التي يرتكبها الفرد بصفته الشخصية أو تلك التي يرتكبها بصفته مسؤولاً رسمياً في هذه الدولة.<sup>133</sup> وحين يرتكب الفرد جريمة دولية، ومنها جريمة الإبادة الجماعية، يدفع ذلك الفرد حين ثبوت مسؤوليته والادعاء

<sup>131</sup> العبودي عبد الكاظم، يرابيع رقان، جرائم فرنسا النووية في الصحراء الجزائرية. ص 118-155.

<sup>132</sup> بعد اكتشاف أهوال أسلحة الدمار الشامل لا يمكن منطقيًا أن نجد أية مبررات تحمي الفاعلين والمالكين لهذه الأسلحة من تحمل المسؤولية حتى وإن لم يستخدمها البعض. إن التهيب باستخدامها جزء من التهيب النفسي.

<sup>133</sup> جرائم استخدام أسلحة الدمار الشامل لا يمكن أن تعفي المؤسسات وقادة الجيوش واختصاصي التقانة النووية والجرثومية والكيميائية والتسلح والخبراء لأنها أسلحة تتصف بعدم استخدامها من قبل فرد أو أفراد معدودين ولا يُبطلها بقرار فرد أو قائد أو مسؤول

عليه بعدة دفعات قانونية، وذلك لنفي الجريمة عنه وإعفائه من المسؤولية عن ارتكاب الجريمة، وبالتالي مطالبته بعدم توقيع العقوبة عليه.<sup>134</sup>

وقد يدفع الأفراد المتهمين بارتكاب جريمة الإبادة الجماعية بامتناع المسؤولية، وبالتالي تبرئة ساحتهم أمام المحاكم الجنائية الدولية أو الوطنية والمعنية بالإدعاء عليهم ومحاكمتهم. وتتمثل هذه الدفوع، في الدفع بطاعة الأوامر العليا، والدفع بالإكراه، والدفع بالصفة الرسمية، والدفع بحالة الدفاع الشرعي، أو الدفع بحالة الضرورة، والدفع بالتدابير المضادة، والدفع بالجهل بالقانون والخطأ في الواقع.<sup>135</sup> فإذا كانت التدابير المضادة، وحالة الضرورة، ورضا الضحية، وحالة الدفاع الشرعي، وتنفيذ الأوامر العليا وأمر القانون يمكن أن يعتد بها كأسباب للإباحة تنفي عدم مشروعية الفعل، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة لانتهاكات القانون الدولي، وعلى وجه التحديد جريمة الإبادة الجماعية، أما حالة الإكراه وتنفيذ الأوامر العليا تحت ذلك الإكراه وفقاً للشروط التي تم شرحها، فتعتبر عذراً مخففاً للعقاب لا يعفى منه ولا ينفي أيضاً المسؤولية الجنائية لمرتكب الجريمة.<sup>136</sup>

لذا فلا يجوز لأية دولة أو نظام أو فرد أياً كان: قائداً أو زعيماً أو مسؤولاً أو فرداً عادياً، أن يتوسل بأية وسيلة أو يلجأ لأي عذر ينفي عنه مسؤوليته عن ارتكاب جريمة الإبادة الجماعية، حيث ان ارتكاب تلك الجريمة يعد انتهاكاً لمبادئ وأعراف القانون الدولي الإنساني الأساسية، وهي المبادئ والأعراف التي تأتي ضمن قواعد القانون الدولي الأمرة.

ولقد بدا واضحاً من خلال تصاعد الاهتمام العالمي بهذا الموضوع وغيره، أنه بالرغم من أن المجتمع الدولي يعتبر جريمة الإبادة الجماعية من أخطر الجرائم الدولية، إلا أن هناك نكوصاً من جانب المجتمع الدولي عن النهوض بمسؤولياته بمكافحة ذلك الخطر الداهم الذي يهدد السلم والأمن الدوليين، خاصة لما يتعلق باستخدام وتجريب أسلحة الدمار الشامل، حيث تواني المجتمع الدولي في حالات عديدة عن معاقبة المسؤولين عن ارتكاب هذه الجريمة، وذلك لمصلحة سياسة في معظم الحالات.

134 سلامة أيمن عبدالعزيز، المسؤولية الدولية عن ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية رسالة دكتوراه، مرجع سابق.

135 ان واقع الحال يبقى بعيداً عن تحقيق العدالة لان الدول الكبرى تتحكم بقرارات المحاكم الدولية وتدفع بالغير الى اقفاص الاتهام لتضليل الرأي العام الدولي عن المجرمين الحقيقيين.

136 لم تسجل لحد الان حالة تعويض او اعتراف او اقتصاص من مستخدمى اسلحة الدمار الشامل، القانون الدولي رهينة الدول النووية خاصة.

أعلن وزير الدفاع الفرنسي بداية افريل 2009 نية الحكومة الفرنسية وضع 10 ملايين يورو لتعويض بعض من ضحايا التجارب النووية في الجزائر وبولونيزيا. ووضع شروطاً مسبقة لمن يشملهم التعويض.

# الباب الثالث

## الفصل السادس

### أسلحة الدمار الشامل

## الفصل السادس

### 6- أسلحة الدمار الشامل

#### 1-6: ما هي اسلحة الدمار الشامل WMD :

إنتشر إستعمال اصطلاح اسلحة الدمار الشامل WMD على نطاق واسع، إثر صدور قرار مجلس الامن رقم 687 للعام 1991 في المسألة العراقية بعد اجتياح القوات العراقية للكويت، لكن البداية لاستخدام هذا المصطلح وردت في مشروع البيان الدولي بشأن قانون الحرب الذي صدر في بروكسل في 1874/8/27، والإشارة الى منع (استخدام الاسلحة السامة او المسمومة). ثم جاء إعلان لاهاي الاول في 1899/7/29 الذي حرم استخدام الغازات الخانقة.

لم تنضم الولايات المتحدة الى ذلك القانون. كما تم حظر استخدام القذائف التي تُطلق غازات سامة في المادة 23 من ملحق الاتفاقية الرابعة لمؤتمر لاهاي في 1907/10/18. وبعدها جاء بروتوكول جنيف في 1925/6/17 ليحظر استخدام الغازات الخانقة او السامة وغيرها من الغازات، وكذلك الوسائل البكتريولوجية للحرب؛ ومع ذلك استخدمت الغازات الحربية من قبل الايطاليين في إثيوبيا عامي 1935 و1936 وبواسطة اليابانيين في الصين عامي 1938 و 1942. وفي الحرب الكورية (1950-1953) إستخدمت الطائرات الامريكية بكتيريا الانثراكس المسببة للجمرة الخبيثة على نطاق تجريبي بالتعاون مع مركز "فورت دترك" في الولايات المتحدة.

في عام 1952 اتهمت الصين الشعبية وكوريا الشمالية معا القوات الامريكية باستخدام الذخائر البيولوجية في مسرح الحرب بواسطة الطائرات، لاطلاق بكتيريا الطاعون والكوليرا، وايضا الريش الحامل لبكتيرة الجمرة الخبيثة. ثم لجأت الولايات المتحدة في فيتنام طوال السنوات

الممتدة بين (1961-1973) الى استخدام غازات الازعاج (CN, DN, CS)، والغازات التنفسية التي شهدت الحرب الفيتنامية أول استخدام حربي لها في الميدان في مارس/آذار 1965 (حامض الليسرجيك LSD ، كما كانت اخطر حالات إستخدامها بواسطة ابروسول غاز (BZ) في منطقة (Bong-San) في مارس/آذار 1966.

وفي مجال المواد المضادة للنباتات اختار الامريكيون الكيمياويات في الهجوم على الغابات وحقول الرز. وفي عامي 1965 و 1966 أتلّف الامريكيون، 150 ألف فدان مزروعة بالرز في دلتا نهر الميكونج، وتوسعوا في استخدام عوامل وهرمونات تثبط النمو، والعوامل المجففة مثل حمض الكاكوديل Hydroxy Dimethyl Arsine Oxide ومسقطات الاوراق النباتية من الاشجار. كما تم استخدام "المشتارد الكاوي" أي "غاز الخردل" وغاز الفوسجين الخائق في اليمن في العامين 1966 و 1967<sup>1</sup>.

كذلك استخدم هذا التعبير لأول مرة في الصحف البريطانية في وصفها للطائرات الألمانية القاصفة، عندما كانت تدمر مدنا تدميرا شاملا، مثل مدينة غيرنيكا الاسبانية، فوصفت هذه الطائرات النازية بأسلحة الدمار الشامل<sup>2</sup>. ولما استخدم الرئيس الامريكي "هاري ترومان" القنابل النووية ضد اليابان في اوت/آب 1945، وانهى الحرب في الشرق الاقصى، ظهر تعبير "اسلحة الدمار الشامل" WMD أو "أسلحة الرعب والترهيب" لأول مرة. كان المقصود بها: تلك الاسلحة التي تؤدي الى خسائر بشرية ضخمة Mass Casalties ، والى دمار مادي كبير، من خلال عدد قليل من الاسلحة والمعدات ووسائل الاطلاق. ويمكنها في زمن محدود أن تحسم الحرب او بعض معاركها.

<sup>1</sup> سليم، صلاح الدين في تعقيب حول موضوع اسلحة الدمار الشامل احتلال العراق في ندوة نظمها مركز دراسات الوحدة العربية حول احتلال العراق وتدايعياته عربيا واقليميا ودوليا، ص 199. بيروت، (2004).  
<sup>2</sup> انظر المستقبل العربي، السنة 27، العدد 306، أوت/آب 2004، ص 57/40.

ومن خصائص هذه الاسلحة ان تأثيراتها تعتمد على الانتشار في منطقة الهدف، وعلى عدم وجود أى آثار متبقية او مستمرة لها بعد فترة أنتشارها وزوالها عن المنطقة بفعل حركة الرياح. تصاحبها كثيرا انعكاسات نفسية مروعة في صفوف الخصم.

بدأ الروس في ستينيات القرن الماضي استخدام مصطلح "اسلحة الدمار الشامل" في مراجع العقيدة والاستراتيجية العسكرية لهم، واعتبروها تشمل (الاسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية): ( $WMD = NW + BW + CW$ )، بينما توسع الامريكيون في استخدام مصطلح NBCW واختلفت تصنيفات الجانبين بالنسبة الى الغازات الحربية منها، ولا سيما تلك التي حرمها بروتوكول جنيف. وفي عام 1962 اسست الامم المتحدة، بناء على توصية من الجمعية العامة، إدارتها وهيئتها لشؤون نزع السلاح **United Nation Department for Disarmaments Affairs** ، على ان تشمل مهامها قضايا (نزع اسلحة الدمار الشامل)، وشمل تنظيم هذه الادارة فرعا (لأسلحة الدمار الشامل). كما ورد المصطلح في مذكرة مصرية باسم "مبادرة الرئيس حسني مبارك لاخلاء منطقة الشرق الاوسط من تلك الاسلحة" في افريل/نيسان 1990 كتطوير لمقترح "مصري-ايراني" يعود الى عام 1974.

شاع الاستخدام للمصطلح أكثر في مداوات الامم المتحدة وظهر لأول مرة وبكثافة عام 1991 في القرار 687 الذي إشتراط التخلص من أسلحة الدمار الشامل في العراق مقابل رفع الحصار، فذكر ذلك القرار: (... أن هذه الأسلحة تشمل الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية). وإشتراط أيضا التخلص من الصواريخ العراقية ذات المدى الأبعد من 150 كم .

وكي لا يبقى هذا التعبير مبهما، لابد من اعطائه وصفا فنيا وقانونيا؛ إذ صدر عن اجتماع قمة دول حلف شمال الأطلسي عام 1994. وردَ وصف لهذا السلاح بالنص التالي : (ان تعبير أسلحة الدمار الشامل تعبير عام يشمل العناصر المشعة، والعوامل أو المواد الكيميائية

والبيولوجية، وان تعبير اسلوب إيصال هذه الأسلحة يتضمن انتاجها واستخدامها لأغراض غير سلمية ، مما يحدث موتا لأعداد كبيرة من الناس، او يحدث أضرارا مادية بمقياس واسع)<sup>3</sup> .

وصدر عن المشرع الامريكي عام 1998 ما نصه : (ان تعبير سلاح الدمار الشامل يعني: ذلك السلاح الذي يحدث الموت او الأذى الجسماني لعدد كبير من الناس. ويشمل هذا السلاح بعض المواد الكيماوية او الجرثومية او المشعة)<sup>4</sup> . من الواضح ان كثيرا من التعاريف المبسطة تُتيح للمفسر ان يتوسع في تصنيفه للمواد التي يمكن ان تدخل ضمن قائمة أسلحة الدمار الشامل، فلقد ذهب مكتب المباحث الاتحادي الامريكي FBI الى القول: ( بأن أي سلاح يمكن ان يجتاز عتبة كونه سلاحا تقليديا، وينتقل الى مصاف أسلحة الدمار الشامل، عندما يتسبب استخدامه في

إرباك من يتلقاه، ويغدو خارج نطاق إمكانياتهم الذاتية) أي **WMD :Words of Mass Dissemination.** قبل ذلك ساد، خلال سنوات الحرب الباردة في النصف الثاني من القرن الماضي، عُرف يقوم على تحديد سلاح الدمار الشامل الوحيد هو السلاح النووي الحراري **Thermonuclear Weapon** باعتباره السلاح الاكثر رهبة وتدميرا، وما عداه اما سلاح تقليدي او سلاح ترهيب<sup>5</sup>. ومن الواضح ايضا ان تعبير سلاح الدمار الشامل غير دقيق وخاضع للاجتهاد، فثمة رأي يقول إن هذا التعبير يجب ان يتضمن أقل عدد من أصناف السلاح، وليس أكبر عدد. ويذهب هذا الرأي الى التحديد بان السلاح الوحيد ذا الدمار الشامل هو السلاح النووي لما يمتلكه من قدرة تفجيرية هائلة، ولما يصاحبه من مقدار كبير من الحرارة والاشعاع والمواد المشعة<sup>6</sup>.

ولكون هذا التعبير قد أسئ استخدامه، فلقد أُدرج ضمن القائمة الكبرى للكلمات التي تحظى بأكثر قدر من كثرة الاستخدام، أو من سوء الاستخدام، او من كونها غير ذات قيمة، تلك القائمة

<sup>3</sup> - **Torsten Sohns, Protection against Weapons of Mass Destruction ,August 2000**

<http://library.fas.de/fulltek/id/00714014.htm>.

<sup>4</sup> - **WMD :Words of Mass Dissemination.**

<sup>5</sup> - جعفر ضياء ، نعمان سعد الدين النعيمي، "أسلحة الدمار الشامل الاتهامات والحقائق" 2004، احتلال العراق، من بحوث الندوة الفكرية التي نظمتها مركز دراسات الوحدة العربية، ، اوت/آب 1ط، بيروت،(2004).

<sup>6</sup> - **WMD :Words of Mass Dissemination.**

التي أصدرتها جامعة "ليك سوبيرير" الحكومية State University Lake Superior<sup>7</sup> . ولاشك ان تلك التعاريف حاولت تجاهل بعض انواع من الاسلحة والذخائر الذكية التي تميزت بتطورها التكنولوجي، وتأثيرها التدميري الخطير ضمن الاسلحة فوق التقليدية، ولا سيما ان هذه الاسلحة ادوات فعالة للردع المتميز (حتى ضد الدبابات وعربات القتال المدرعة باستخدام الذخائر BA، وتذكر هنا الاستخدام المكثف لمقذوفات اليورانسيوم المنضب) التي استعملت على نطاق واسع في حرب الخليج الثانية "العدوان الثلاثيني على العراق" بحجم DU وعلى نطاق واسع، وصل مئة الف مقذوف لطائرات الهجوم الارضي (A-10) عيار 30 ملم، وستة الاف دبابة وبضعة الاف اخرى من مقذوفات المدفعية الصاروخية، وقنابل الطائرات باجمالي 900 طن من ذخائر اليورانسيوم المنضب. كذلك استخدم الامريكيون في غزوهم الاخير للعراق 19948 قنبلة موجهة بالاقمار الاصطناعية واللايزر بواسطة قواتهم الجوية وحدها<sup>8</sup> .

## 2-6 : التعهدات الدولية وازدواجية المعايير:

كثرت التعهدات الدولية حول منع إنتشار أسلحة الدمار الشامل ولكن هذه التعهدات تصطدم بجملة من الحقائق والمعايير منها:

اولا: لاضمانات من تواقع الدول الكبرى: لم تمنع معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية NPT أو إتفاقية الضمانات الشاملة للوكالة الدولية للطاقة الذرية والبروتوكول الإضافي لها من انتشار القدرات النووية العسكرية في مناطق شتى من العالم. إنضمت أربع دول جديدة إلى النادي النووي وهي: إسرائيل والهند وباكستان وكوريا الشمالية ولم تلتزم رسميا أمام العالم لوقف نشاطاتها في هذا المجال. كما رفضت الولايات المتحدة الانضمام إلى معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية. وصممت إداراتها تماما عن التجربة النووية التي أجرتها إسرائيل وجنوب إفريقيا في جنوب المحيط الهادي في 22 سبتمبر/أيلول 1979 بعد أربع سنوات من إبرام مذكرة

<sup>7</sup> - مرجع سابق/مواقع الكترونية عديدة .WMD :Words of Mass Dissemination.  
<sup>8</sup> - سالم صلاح الدين ، مرجع سابق، ص 198-202.

التفاهم بين واشنطن وتل أبيب، والتي حظرت إجراء تجارب نووية إسرائيلية في مسرح عمليات الشرق الأوسط، مقابل موافقة الولايات المتحدة على استمرار البرنامج النووي الإسرائيلي لإنتاج الأسلحة التكتيكية، حتى استقرار التسويات السياسية بين إسرائيل والدول العربية المحيطة بها.

ثانيا: الكيل بمكيالين وانتقائية المواقف: عطلت الدول الخمس العظمى البند السادس من معاهدة حظر انتشار الاسلحة النووية الذي ينص على تخلي هذه الدول تدريجيا عن تلك الاسلحة. ولم تتحمس الولايات المتحدة لاقامة نظام دولي لمراقبة على المواد النووية وتداولها، لكنها سمحت لنفسها وبالاتفاق مع روسيا عبر مذكرة تفاهم تتيح لقواتها البحرية من اعتراض السفن التجارية التي يشك في نقلها موادا نووية ولا سيما اليورانيوم والبلوتونيوم.

ثالثا: حروب الضعفاء وتزكيات إتهامات الاقوياء: تبادل العراق وايران استخدام الغازات الحربية السامة. والحقائق تؤكد زيارة "دونالد رامسفيلد"، مبعوث الرئيس الامريكي الاسبق رونالد ريغان الى العراق في ديسمبر/كانون اول 1983 لتقديم الدعم الغربي للعراق وقتها، لوقف الهجومات الايرانية على اراضيها. وقد قدمت الولايات المتحدة المساعدة المباشرة لانتاج العراق لغاز الاعصاب "التابون" بتنسيق ومتابعة من جانب المخابرات المركزية الامريكية CIA. كما قدم الامريكيون الخبرة التقنية للعراقيين في استخدام الغازات الحربية في صد الهجوم الايراني لاحتلال جزر مجنون في 19/3/1985، وبعدها في معركة شبه جزيرة الفاو في 17/4/1988 التي استخدم فيها العراق غازات الاعصاب والغازات الكاوية بواسطة الطيران والمدفعية العراقية، ولم تحتج الادارة الامريكية حينها ضد هذه الاستعمالات. ولكن الادارة الامريكية عادت فاتهمت العراق وحده باستخدام الاسلحة الكيماوية ضد الاكراد وسكنت تماما عن دورها ودور دول عديدة وشركات غربية كانت من أهم مصادر التزويد للعراق بالمواد والمعدات انتاج تلك الاسلحة.

رابعا: حماية إسرائيل والتستر عليها: وكما ان اليابان استخدمت الاسلحة البيولوجية على نطاق معين في الحرب العالمية الثانية، كان الصهاينة ممثلين بنواتات جيشهم "العصابات الصهيونية

كاليهاغاناه وشتيرن" قد سبقت ذلك بأن لوثت بعض مصادر المياه الفلسطينية بميكروب مرض الديزنتري "الزحار" **Bascillary Dysentery** اثناء المواجهة العربية- الاسرائيلية الاولى عام 1948، ومرة ثانية عندما تعمدت اسرائيل، بعد انسحابها من ثغرة الدفرسوار شمال مصر التي احتلتها في حرب 1973 وانسحبت منها في عام 1974 ان أطلقت بمناطق غرب قناة السويس اعدادا كبيرة من الفئران المصابة ببكتيريا الطاعون **Yersinia Pestis** لمحاولة احداث اصابات وبائية بالمرض بين العسكريين من رجال الجيش الثالث الميداني المصري وبين سكان مدينة السويس وما حولها.

خامسا: الفضائح الاخلاقية للخبراء والمفتشين في الوكالات الدولية: ثبت للعالم بعد غزو العراق خلوه من اسلحة الدمار الشامل التي تم تدميرها عقب غزوه الكويت في عام 1991، لكن خبراء و علماء الامم المتحدة ودول التحالف المعادي للعراق من المكلفين بمهمات التفتيش تواطؤوا مع الادارة الامريكية لاجل استمرار التفتيش وإبقاء الحصار الاقتصادي على العراق. كما ساهم خبراء و علماء من الولايات المتحدة وحلفائها في التواطؤ مع وكالة المخابرات الامريكية واسرائيل، فبالغوا في تصوير قدرات العراق التسليحية، والادعاء بإملاكه اسلحة الدمار الشامل، واتهامه مؤخرا باستخدام الاسلحة الكيماوية في حلبجة<sup>9</sup>.

وقد تبين بعد احتلال العراق زيف تقارير اولئك الخبراء ومن يُنسبون الى العلماء والخبراء والاختصاصيين والاعلاميين وعدد من الساسة الذين تجندوا في تضخيم دور العراق التسليحي حتى اضطر الرئيس بوش ان يتخلى عن تصريحاته التي ادلى بها في 2002/9/14 عن حجم مخزون العراق الكيماوي والبيولوجي، ثم تصريحاته التي سبقت الغزو في 2003/3/17، والذي اعاد فيها تأكيده السابق عن (حيازة العراق لبعض اسلحة الدمار الشامل).

<sup>9</sup> - محمد العبيدي جرائم حلبجة !إيران وليس العراق تقرير مهم جدا- <http://www.sqr-al3rb.com/vb/showthread.php?p=2486>

Halabja and the chemical weapons بثينة الناصري\* فضائح زعماء الاكراد \* <http://www.aljazeeraatalk.net/forum/archive/index.php/t-27425.html>

كما تورط "كولن باول" وزير الخارجية الامريكية الاسبق في عهد إدارة جورج بوش الابن في خطابه الشهير امام مجلس الامن يوم 2003/2/5 محاولا تضليل الرأي العام العالمي حول اسلحة العراق من خلال وثائق وصور مفبركة قدمها على المباشر الى العالم كله من منبر الامم المتحدة. لقد سُجلت مواقف الاخلاقيات العلمية والسياسية وأظهرت مدى تدنى البراجماتية الامريكية وحلفائها عندما تم تدمير العراق بغزوه واحتلاله لتعلن نتائج التفتيش الشامل للعراق من قبل 1400 مفتش وخبير وعالم وباحث وضابط مخابرات بان العراق كان خاليا من اية اسلحة للدمار الشامل. واكذوبة شراء العراق 500 طن من اوكسيد اليورانيوم من النيجر، وحكاية عدسات ومكثفات التفجيرات النووية المهربة الى العراق كلها كانت من نسج تقارير المخابرات الامريكية وتمريرها الى العالم بشكل مضلل. لقد عبر "كولن باول" عن ندمه متأخرا، مصرحا بانه ارتكب افضع خطأ له طوال حياته المهنية كعسكري وكدبلوماسي رفيع المستوى.

توصلت بعدها تحقيقات لجنتي الاستخبارات في مجلسي النواب والشيوخ الامريكيين، على ضوء تقرير "دافيد كاي" قصور وتقادم ومغالطات الادارة الامريكية ووكالة المخابرات. وتجراً "دافيد كاي" بأن طالب الرئيس الامريكي جورج بوش بأن يعترف أنه كان مخطئا في تقويم خطورة البرامج الكيماوية والبيولوجية للعراق ومدى تطورها.

سادسا: استراتيجية المحافظين الجدد:

التوجه نحو الضربات النووية التكتيكية والحروب السرية والحصار الاقتصادي والعلمي

والتقائي وفرض الامر الواقع بالارهاب النووي:

بحلول اكثر من 160 الف جندي امريكي مع تحالف عسكري دولي لاحتلال العراق ربيع 2003، تم ضم عشرات الألوف من المرتزقة، جاؤوا بصيغة شركات حماية خاصة، وباستخدام ضربة نووية تكتيكية في مطار بغداد الدولي، سبقتها ضربات بيولوجية وكيماوية سرية على القوات والمدن العراقية، أعلن المحافظون الجدد عن تحقيق اهدافهم، لا في افغانستان والعراق، فحسب بل في يوغسلافيا والصومال ولم يخجلوا بأنهم صاروا يبررون الجراة الامريكية الجديدة

بانها "مصير جلي" من ناحية، وبأنها التأثيرات العسيرة للنزعة الواقعية الجديدة في الامور السياسية الدولية من ناحية اخرى تستدعي القيام بما وصف بالضربات الإستباقية، وبكل الاسلحة المتاحة بأيديهم . (وبتعبير ادق هو فرض الامر الواقع) على العالم خارج الشرعية الدولية<sup>10</sup> .

عبر عن هذا التوجه منظروا المحافظين الجدد ومنهم "روبرت كاغان"، كواحد من أكثر المحافظين إمعانا في التفكير: (... ان هذه سياسة مدفوعة بأمرين محتومين: الامن في حقبة ما بعد 11 سبتمبر/ايلول 2001 ، والاحساس الايديولوجي برسالة اخلاقية، يمكن الرجوع اليها باصولها الى البدايات الاولى للجمهورية الامريكية)<sup>11</sup> .

هذا التوجه الراديكالي الجديد في السياسة الامريكية قد حسم الامر لصالح من سموا أنفسهم " المحافظين الجدد"، وبتبني ما يسمى: (استراتيجية الامن القومي للولايات المتحدة المعتمدة، المصرة على العمل الاستبائي ، "ان لم يكن الوقائي"، الانفرادي ليحل محل سياسات " العزل والاحتواء والردع" . تلك المبادئ التي اعتمدها السياسات الامريكية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين)<sup>12</sup> .

اعتبر الشرق الاوسط حقل اختبار للمشروع الامريكي الجديد، والعالم العربي في داخله هو "قاعدة الانطلاق Ground Zero"؛ باعتباره الخطر الجديد، الاسوأ، حتى من التهديد السوفيتي القديم. وحسب رؤى مفكري المحافظين الجدد ان الشرق الأوسط هو حقل تربية وتحضين للإرهاب ويرون في "الأرهابيين الإسلاميين"، بأنهم غير عقلانيين، وبالتالي لا يمكن ردعهم- عندما يتمكنون من حيازة أسلحة دمار شامل متدنية المستوى ألتقاني "التكنولوجي" التي يمكن حملها؛ وبالتالي فهي أسلحة غير قابلة للاحتواء.

<sup>10</sup> مايكل هدسون، مدير مركز الدراسات العربية، جامعة جورج تاون، واشنطن "الرؤية الاستراتيجية الامريكية الجديدة للمنطقة العربية والعالم، سياسات السلام الامريكي في العراق والشرق الاوسط" ، عن كتاب احتلال العراق، اصدار مركز دراسات الوحدة العربية، 2004، بيروت، ص81-65.

<sup>11</sup> **Kagan Robert, Of Paradise and Power : A merica and Europe in the New World Order pp.85-88 New York : Knopf, (2003).**

<sup>12</sup> **Hous White , The National Security Strategy of the United States of America, September 2002,**  
<http://usinfo.state.gov/topical/pol/terror/sectrat.htm>

وعلى ضوء هذه الفرضية تابعت سيناريوهات منظري المحافظين الجدد، بأن هؤلاء الإرهابيين، من العالم الإسلامي، يمكن ان ينقلوا الحرب بأسلحة الدمار الشامل الى الاراضي الامريكية؛ ما لم تتم تصفيتهم بطريقة إستباقية. وينبغي: (ليس فقط اجتثاث التنظيمات الارهابية من جذورها؛ وانما لا بد من نزع "المستنقع" الذي تتربى فيه)<sup>13</sup>؛ فالمهمة الجديدة للسياسة الخارجية الامريكية ليست استخدام القوة على نحو نشط فحسب؛ بل إعادة تشكيل البيئة الداخلية للعديد من "الدول الفاشلة" في الشرق الاوسط. تلك الدول التي ترعى أنظمتها التربوية، ومنظماتها الدينية، وحكوماتها التي تفتقر إلى الكفاءة، واقتصاداتها المصابة بالجمود، الارهاب المعادي للولايات المتحدة.<sup>14</sup> وبهكذا خطاب، وبأقل من سنتين بعد 11 سبتمبر 2001 شنت الولايات المتحدة ثلاث حروب: في افغانستان، و"الحرب على الارهاب" عالميا، وغزو العراق واحتلاله. والآخر كانت مبررات احتلاله من قبيل: (... انه يمتلك اسلحة دمار شامل ضخمة، ويملك الارادة لاستخدامها... وهو نظام دعم بنشاط إرهاب القاعدة)... الخ. وجميع هذه التهم سبق للعراق أن فندها، كما أن ظرف العراق بعد الاحتلال بيد الأمريكيين قد أثبتها كليا، وفشلت كل فرق التفتيش للجيش الامريكي العاملة في العراق منذ اكثر من 6 سنوات، التي اعلنت بنفسها، مضطرة، فشل اثبات أي دليل مادي لكل تلك التهم التي وجهت ضد العراق.

المحافظون الجدد ، ليست عصابة انقلابية، تسلمت مقاليد السلطة في البيت الابيض ووزارة الدفاع الامريكية ومؤسسات المخابرات الامريكية او أنهم أغلبية او أقلية في مجلسي النواب والشيوخ؛ انما هم تيار فكري راديكالي محافظ نجح في مشروع صنع الحرب وشنها على العراق رغم إرادة العالم كله، ولهم منظومة من الخبراء والعلماء الذين جندوا كل امكانياتهم لخدمة مشروع الحرب وخوضها. وبطبيعة الحال، لا يمكن اخفاء دوافع الحنين للفكر الاستعماري القديم، والسيطرة من جديد على المواقع الاستراتيجية وعلى منابع الطاقة لصالح الشركات

<sup>13</sup> هيدسون مايكل ، مرجع سابق، ص 66.

<sup>14</sup> هيدسون مايكل ، مرجع سابق، ص 66.

الامريكية المرتبطة بالمشروع والتي مولته وغذته بالمال والاعلام ووفرت له المرتزقة من كل الاختصاصات المطلوبة لانجازه.

نشأ هذا التيار وتبلور منذ الخمسينيات من القرن الماضي، كما ان الاعداد لمرحلة الحرب الاستباقية ومواجهة الاسلام، كان معدا منذ عقود، وليس بسبب حادثة 11 سبتمبر 2001 كما يظن البعض. يمكن اقتفاء جذور المحافظين الجدد منذ سنوات الحرب الباردة، فقد تأسس "الوبي للمواطن" اطلق على نفسه اسم "لجنة الخطر المائل" CPD في العام 1950 لدعم جدول اعمال مجلس الامن القومي- 68، عبر وثيقة سرية لهذا المجلس، اقترحت حينها تحشيدا عسكريا امريكيا ضخما ضد "الخطر الشيوعي"، لكن حرب الفيتنام ونتائجها أضعفت هذا التيار، ثم عادت المجموعة الى الحياة في العام 1976، متقمصة مجموعة خرجت من "الفريق ب".

وكان هذا الفريق مجموعة اسسها الرئيس الامريكي جيرالد فورد، ورئيس المخابرات المركزية في عهده آنذاك جورج ووكر بوش الاب؛ كي تقدر وقتها تقديرا مستقلا للقدرات السوفيتية. وكان "الفريق ب" هذا تحت هيمنة الصقور في الادارات الامريكية، ولا سيما الدكتور "ريتشارد بايبس" Richard Pipes ومن اعضائه ايضا "بول وولفويتز"<sup>15</sup>.

دأبت مجموعة الصقور تعمل وتعبر ضمن تقاطعات خدمة الرؤساء من جمهوريين أو ديمقراطيين. وفي منتصف السبعينيات وثقت مجموعة "المحافظين الجدد" وتشابكت علاقاتها مع اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة، وأسست منظمة اطلق عليها "المعهد اليهودي لشؤون الامن القومي JINSA". وعلى غرار "لجنة الخطر المائل"، أصبحت فزاعة، تدعو الى التشدد في السياسة الامريكية، سواء نحو الاتحاد السوفيتي او نحو "أعداء اسرائيل". ومن بين مجلس مستشاري "جينسا JINSA" اختارت إدارة "جورج بوش" ابرز قادتها المتنفذين: منهم "ديك

<sup>15</sup> Public Eye Political Research Association, « Groupe Watch : Committee on the Present Danger », [http://www.publiceye.org/research/group\\_watch/entries-42.htm](http://www.publiceye.org/research/group_watch/entries-42.htm)

شيني"، و"ريتشارد بولن" و"جون بولتون"، و"دوغلاس فيث"، و"جيمس وولسي".<sup>16</sup> وثمة مجموعة اخرى اصغر تسمى نفسها "مركز سياسة الامن CSP" الذي اسسه "فرانك غافني" Frank Gaffney في عام 1988 ويسعى هذا المركز الى توجهات مماثلة.

وحال سقوط الاتحاد السوفيتي، فان المجموعة ركزت على تضخيم حجم الاخطار المنتظرة على الولايات المتحدة، بسبب الفراغ الذي تركه سقوط السوفيت. صاغ "بول وولفويتز"، الذي كان آنذاك وكيلا لوزارة الدفاع في العام 1992 وثيقة استراتيجية للبنتاغون، المح البعض إلى انها حددت مسبقا خطوط وثيقة إدارة "ج. دبليو بوش" للامن القومي لعام 2002<sup>17</sup>. ورغم نزعة وثيقة "بول وولفويتز" الانفرادية، ودعوته الى "اقامة نظام جديد وحمائته" من احتمال ظهور قوة عظمى منافسة، يمكن ان تهدد اوربا الشرقية أو الغربية، وشرق آسيا والاقليم التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي وجنوب غربي آسيا، فان احتمالات بروز قوى من اليابان والمانيا كانت مستبعدة، في حين تم تجاهل الصين.

وفي ذلك الوقت لم يظهر "الارهاب" كخطر مفهوم أو محتمل، لذا خففت إدارة كلنتون من الاندفاع في توجهات الوثيقة التي كانت تلح على زيادة تمويل البنتاغون. خلق المحافظون الجدد لهم، منظمة اخرى في عام 1997 هي: "مشروع القرن الامريكي الجديد New American Century Project" الذي أصدر دعوة زاعقة الى: (... العودة الى "سياسة ريغانية" تعتمد القوة العسكرية، والوضوح الاخلاقي من اجل "البناء على انجازات القرن الماضي وعلى عظمتنا في القرن التالي). ويعني ذلك "اعلان مبادئ"<sup>18</sup>.

وبعد انقضاء عام ونصف على تأسيسها، بعثت برسالة الى الرئيس كلينتون انتقدت فيه سياسته الرامية الى "إحتواء" نظام صدام حسين في العراق. وبعد ان قدمت تضخيما لمخاطر

<sup>16</sup> Jason Vest, « The Men from JINSA and CSP », Nation (2 September 2002).

<sup>17</sup> Barton Gellman, « Keeping the U.S First : Pentagon Would Preclude a Rival Superpower, » Washington Post, 11/3/1992.

<sup>18</sup> Project for the New American Century, « Statement of Principles , », 3, June 1997, <http://www.newamericancentury.org/statementofprinciples.htm>

نظام الرئيس صدام حسين من خلال الرسالة التي جاء فيها: (... اذا ما اكتسب صدام بالفعل قدرة اطلاق اسلحة للدمار الشامل، وهو أمر من المؤكد ان يفعله، إذا ما واصلنا مسارنا الحالي، فإن سلامة القوات الامريكية في المنطقة، وسلامة أصدقائنا وحلفائنا مثل اسرائيل والبلدان العربية المعتدلة، وسلامة قسم كبير من إمدادات النفط ستصبح كلها معرضة الى الخطر). ودعت الرسالة الى : (... إزالة صدام حسين ونظامه الحاكم من السلطة)<sup>19</sup> . وقد وقعت على هذه الرسالة مجموعة من الأسماء ، أصبحت في ما بعد، تشكل قائمة أسماء الدائرة الداخلية للسياسة الخارجية والأمنية في ادارة جورج دبليو بوش، بمن فيهم "اليوت أبرامز"، و"ريتشارد ل. أرميناج" ، و"جون بولتون"، و"فرانسيس فوكوياما"، و" روبرت كاغان"، و"زالماي خليل"، و"وليام كريستول"، و"ريتشارد بيرل"، و"بيتر رودمان"، و"دونالد رامسفيلد"، و"بول وولفويتز"، و"جيمس وولسي" ، و"روبرت ب. زروليك". وكانت هذه الشبكة في مراكز عالية تؤهلها لدفع تنفيذ مخططاتها بشأن العراق والشرق الاوسط قداما. وعندما وصلت الى السلطة في واشنطن عام 2000 مع الرئيس بوش الابن كانت بحاجة الى حافز هائل لتنفيذ مخططاتها. فانتظرت حتى جاء هذا الحافز ممثلا بضربة 11 سبتمبر 2001. في برج التجارة العالمي في نيويورك.

سابعاً: أسلحة الدمار الشامل من مبررات غزو العراق : استنادا الى تقارير خبراء امريكيون ودوليون شاركوا في لجان تفتيش الامم المتحدة تم غزو العراق ظاهريا. وتعتبر شهاداتهم وتقاريرهم هزيمة اخلاقية للامانة العلمية لهؤلاء الخبراء ولدولهم التي اعتمدتهم في التمثيل كأعضاء في لجان الامم المتحدة . فعلى مدى 12 سنة دفع العراق مئات الالوف من ضحايا الحصار الظالم على شعبه، وخلالها انتشرت الامراض الناتجة عن الاشعاعات والمواد الكيماوية والبيولوجية التي كانت تنشرها اسلحة الولايات المتحدة الامريكية. كما مارس خبراء الامم

<sup>19</sup> Project for the New American Century, « Letter to President Clinton, », 26 January 1998.

<http://www.newamericancentury.org/iraqclintonletter.htm>

المتحدة دور الجواسيس والمتواطئين ومزوري التقارير العلمية والامنية والاعلامية، كثير منهم من اعضاء فرق "ايكيوس" و"بتلر" و"بليكس" و"البرادعي". وقد نشرت كثير من الحقائق عن فضائحهم الاخلاقية من خلال كتاب "سكوت ريتز"، بل وحتى من خلال كتابات وتصريحات "رولف ايكيوس" الذي أقر مؤخرا عبر الاعلام العالمي: (بان هناك دور تجسسي واضح ومصوب لتلك الفرق كان مركزا لكشف امكانيات العراق العلمية والاقتصادية والاجتماعية) قبل كل شيء، وثبت ذلك الدور القذر بعد الاحتلال، حيث تم تدمير كل شئ على ضوء معلومات مسبقة تركتها تقارير لجان التفتيش التي كانت تعرف حقيقة خلوع العراق من "اسلحة الدمار الشامل"، لكنها استمرت في المماطلة والتسويف لاجل تمديد الحصار على العراق، تمهيدا للاجهاز عليه، بغزوه.

وحتى تقرير محمد البرادعي واللجنة الدولية للطاقة الذرية، التي أكملت زيارتها التفتيشية منذ العام الاول لمهمتها 1991 تحت غطاء تنفيذ قرارات الامم المتحدة بنزع اسلحة العراق النووية، فقد اشرف عليها خبراء وعلماء لجنة الطاقة الذرية وهم الذين أوكلت لهم مهمة تدمير ونسف بنايات ومنشآت الطاقة الذرية العراقية، وبعد تدمير كل شئ نووي بالعراق ظلوا يكذبون من خلال تدبيج التصريحات والايحاءات الكاذبة عن قدرات محتملة لدى العراق، فلم يقدموا تقاريرهم الا يوم 11 افريل 2003، أي بعد يومين من دخول القوات الامريكية للعاصمة بغداد واحتلال العراق، ذرا منهم للرماد في العيون، وبذلك لم تخجل اكبر هيئة علمية نووية في العالم من كذب وتزوير تقاريرها، ومماطلتها، وتسويقها للحقائق. والمفارقة أن تم تكريمها، بشخص رئيسها محمد البرادعي لنيل جائزة نوبل للسلام.

تكررت مبررات الولايات المتحدة اتهامها للقيادة العراقية بشخص الرئيس الراحل صدام حسين بوصفه (الرئيس الذي استخدم الاسلحة الكيماوية ضد شعبه)، وجرى تضخيم ما سمي بمأساة "الهولوكوست الكردي" في حلبجة؛ رغم ان الادارة الامريكية كانت تعرف تماما اين

ومتى وكيف استخدم العراق الاسلحة الكيماوية؟ وقد تم كل ذلك باشراف مباشر وتعاون مع الجانب الامريكي وخبرائه واستشاراته.

وعندما اقتربت فرصة دفاع صدام حسين عن نفسه ونظامه السياسي امام المحكمة الجنائية الخاصة في قضية الانفال سارع الامريكيون الى إعدامه، خشية ان يفضحهم بكل القرائن والادلة المتوفرة لديه، وكان يكفي لصدام حسين، المتهم، طلب حقه بشهادات من "رامسفيلد" و"ديك شيني" و"كوندوليزا رايس" امام المحكمة، لافتضحت كل الحقائق المستورة عن قضية" اسلحة الدمار الشامل العراقية"، ومن الذي قصف حلبجة بالاسلحة الكيماوية. كثيرة هي الادلة حول هذا الموضوع ولكن من اهمها مقالة الكاتب "ستيفن بليتيتير" المنشورة في 31 جانفي/كانون الثاني 2003 في جريدة نيويورك تايمز<sup>20</sup>. هذا الكاتب عُرف بموثوقيته العالية جدا، لقد كان مسؤولا عن مكتب العراق في وكالة المخابرات الامريكية CIA لسبع سنوات (1985-1992). يقول في تلك المقالة: (ان جميع التقارير عن الحرب العراقية الايرانية كانت تمر عبر مكتبه)، وحول استخدامات السلاح الكيماوي، وهو السلاح الوحيد الذي استخدم في الحرب العراقية الايرانية منذ عام 1984 يقول "ستيفن بليتيتير" حول موضوع حلبجة : (ان العراق لم يكن مسؤولا عن الاستخدام في حلبجة). ويقول ايضا: (انه جرى تحليل لبعض الاشخاص الذين قتلوا من جراء استخدام السلاح الكيماوي، فاتضح ان العوامل الكيماوية التي استخدمت كانت "عوامل دم" Blood Agents، وهي تعتمد مركب السيانيد، ولم يكن العراق يمتلك هذا النوع من العوامل، في حين كانت ايران تمتلك هذا النوع)، حسب قوله. هذا الكلام أكده "ستيفن بليتيتير" ولم يتراجع عنه، فاضافة الى موقعه، الذي اشرنا اليه، فهو خبير معتمد واستاذ في كلية الحرب في الولايات المتحدة، والمقالة موجودة وموثقة في صحيفة نيويورك تايمز في عددها 2003/12/31، وتم نشرها في ذروة الحملة الاعلامية والسياسية لتسويد صفحة النظام العراقي السابق.

### 3-6: كرونولوجيا اسلحة الدمار الشامل :

<sup>20</sup> بليتيتير ستيفن في جريدة نيويورك تايمز. في (31 جانفي/كانون الثاني 2003).

يقول الباحث "ليونارد كول": (... راودني خاطر ذات مرة في سنة 1995 ان اسأل صديقا عن أي السلاحين يسبب له خوفا أكبر، الكيميائي أم البيولوجي؟ فنظر الي باستغراب، ورد قائلا: صدقتي ان ما أخاف منه هو أن أصاب بالخراف) <sup>21</sup>.

وكلما أعدت سؤال "ليونارد كول" بإضافة الاسلحة النووية الى السلاحين الكيميائي والبيولوجي أشعر بتفاهة مثل هذه الاسئلة؛ لان العقل عندها يتوقف ان يقوم بوظائفه الفيزيولوجية. للأسف، ان موضوع اسلحة الدمار الشامل لا يطرأ على بال الناس في المجتمعات المتحضرة دائما، فيكاد ان يكون نسيا منسيا، وهناك تجهيل متعمد بأخطارها. اما المجتمعات المتخلفة فلا تعرف عنه شيئا. وفي كلا المجتمعين هناك مسؤولية يتحملها العلماء والسياسيون والعسكريون، ويتصدرهم، قبل ذلك، الاعلاميون لكشف أبعاد استخدام هذه الاسلحة، لا في وقت الحرب؛ بل في أوقات السلم أيضا. وتكرار الحوادث النووية والكيميائية والجرثومية الطارئة منها والمفتعلة تظل مؤشرات لأخطار خارج أوقات الحروب لا يمكن تجاهلها رغم التعطيم عليها وينبغي إدانتها أخلاقيا.

ومن الحوادث ما مرت بشكل اعلامي كخبر يومي فقد اهتزت اليابان والعالم في 20 مارس من عام 1995 عندما اطلق مغامرون السارين ، "الغاز المضاد للاعصاب"، في شبكة مترو انفاق طوكيو، رغم كل الاحترازات الامنية المعروفة في اليابان. قبلها بتسعة شهور تعرض سكان أحد الأحياء من منطقة ماتسوموتو **Matsumoto** ، وهي منتجع يبلغ سكانه 200 الف نسمة، ويقع على بعد مائة ميل غرب طوكيو، الى حادث مماثل اطلق فيها غاز السارين ايضا يوم 27 يونيو 1994. قال بعض الضحايا: ان الاعراض بدأت بشعور غريب في العينين والحلق". كما افاد عدد كبير منهم عن " شعور بالغثيان والقئ وصعوبة التنفس".

وفي نفس العام 1994 ، شكلت قضية جريمة رواندا حدثا ظل غامضا، فبركته وسائل الاعلام الفرنسية وغيرها، تحت باب اشتعال الحرب الاهلية بين الروانديين من قبيلتي الهوتو

<sup>21</sup> كول ليونارد، السلاح الحادي عشر، الالف كتاب، الهيئة المصرية للكتاب، ، ص 19. القاهرة ، ( 2000 )

والتوتسي . ورفض الغرب استخدام تعبير " ابادة بشرية" عنها، وأصر على استخدام تعبير (...). تصرفات قد تدلل على حدوث إبادة جماعية)، رغم مقتل أكثر من 800000 انسان من قبيلة التوتسي وحدها فيها في أقل من مائة يوم. وتعتبر تلك الجريمة أكبر عملية قتل للبشر بهذا الحجم منذ القاء القنابل الذرية على مدينتي هيروشيما ونيغازاكي. حينها أرسلت ثلاث بلدان أوربية هي فرنسا، وبلجيكا، وبريطانيا بارسال قوات الى رواندا، لا لوقف المذابح الدائرة؛ بل لإجلاء رعاياها من المدنيين. اما في واشنطن فقد تحدث الرئيس الامريكي بيل كلنتون عن قلقه البالغ عن حماية 225 اميريكيا كانوا متواجدين هناك.

وحسب بعثة "اليونامير"<sup>22</sup>: (... فان المذبحة قد نجحت لأنها حدثت في وقت فراغ سياسي وأخلاقي، وسرعان ما قررت الامم المتحدة أن تسحب كل قواتها تقريبا من هناك).

وقضية رواندا مثال حي للمعيار المزدوج المستخدم من قبل واشنطن وعواصم اخرى للحكم على قيمة حيوات الافارقة بالمقارنة مع نظرائهم من الغربيين، أوالمنتمين للعرق الابيض. وبمقارنة السرعة التي تدخل بها الغرب في البوسنة، بعد انهيار يوغسلافيا، والتعامل معها كقضية عنف تعرض له اوروبيون على ايدي اوروبيين مثلهم، فان قضية رواندا لم يأبه لها الغرب على الاطلاق كعنف مارسه افارقة ضد افارقة غيرهم، فوفقا للمفاهيم الغربية ليس لهؤلاء الافارقة

22 "يونامير" اختصار لتسمية (بعثة الامم المتحدة لتقديم المساعدة في رواندا، تألفت من الفين وخمسمائة فرد من البلدان المختلفة ، منها بلجيكا، وغانا بقيادة الميجور جنرال روميو دالبيير من كندا وكان الاخير قد زرع له عيوناً للتجسس في محيط الطاقم الامني للرئيس الرواندي هابياريمانا، وكان مخبر الجنرال دالبيير يخبره أولا بأول منذ يناير 1994 بكل الخطط التفصيلية بالغة الدقة التي تتعلق بالتحضيرات لآبادة كل التوتسيين، حيث تنص الخطة على تدريب اربعين خلية سرية، تتألف كل منها من اربعين رجلا، تم تدريبهم من قبل الجيش الرواندي، بمساعدات وخبرات اجنبية، كانوا جاهزين للقتل تسمى تلك الفرق بمليشيا انترهاموي وترجمتها " الذين يهاجمون مجتمعين". كانت الامم المتحدة عبر جنرالها الكندي دالبيير تعرف قوائم جميع التوتسيين المقرر قتلهم، ومعرفة الاماكن التي يخفئ بها بالسلح. وكان الرؤساء الاممين يعرفون عبر تقارير دالبيير لن كل وحدة من وحدات القتل المدربة كانت مستعدة لقتل الف شخص خلال عشرين دقيقة فقط، ورغم تعهد دالبيير واستعداده لوقف المذبحة الا ان الامم المتحدة رفضت القيام بأي اجراء، مذكرة بأحداث الصومال التي قتل فيها 18 اميريكيا وعدد اكثر من ذلك من الباكستانيين، او كما قال إقبال رضا رئيس ادارة الامين العام للامم المتحدة "بأن الشعور في نيويورك كان (لن تتكرر الصومال ثانية). والاعرب من كل ذلك ان دالبيير أمر بابلاغ الرئيس الرواندي هابياريمانا بما يعرفه من خطط القتل، وتم تبرير حدوث المذبحة (...الخطة خرجت في الاساس من الدائرة المقربة من الحاكم الهوتي)، لم تقم قوات الامم المتحدة في الميدان بأي تحرك، وكان يمكن تفادي المذبحة، والقضية كانت قضية وقت لاغير. (

وجوه أو هويات محددة وعلى العموم كان للعنف الذي يتسرب عبر الحدود في أوروبا تأثير أكبر على صناعات السياسات الأمريكية أكثر من العنف الذي يتسرب عبر الحدود في أفريقيا<sup>23</sup>.

اغضب العالم، وقبله فرنسا، عينيه عن تجارب واسلحة وحرب أهلية قيل عنها انها تمت بالذبح بالسواطير والرماح.. ولم يكشف بعد عن بقية ادوات الابداء، يحتمل منها، بالاسلحة الكيميائية الفرنسية؟؟. حتى اليوم لازالت الحقائق مضيعة، ورواندا لازالت تفتش عن الحقيقة، "حتى يوم 6 أوت 2008" عندما اعلنت محاكمة الجناة الفرنسيين المسؤولين عن تلك المجزرة والابادة المرتبطة بها وجرى تجميع الحقائق وابعاد الشهود ومنهم وزير الخارجية الفرنسي الحالي كوشنير ومنظمة "أطباء بلا حدود" وغيرها من المنظمات العاملة في "حقل الاغاثة" في رواندا<sup>24</sup>.

في حالات الحروب السابقة او في حالات السلم، كتبت مئات المقالات عن معاناة الناس كتبها علماء، وافراد من القوات المسلحة من مختلف البلدان، وشارك في مناقشتها أيضا سياسيون، وخبراء حكوميون، وحتى اشخاص من الضحايا، تضرروا بسبب التجارب التي اجريت عليهم بهذه المواد والاسلحة وكانوا من ضحاياها؛ الا ان الادارات الامريكية والدول الاخرى، التي سببت مثل هذه المناسي لم تعترف باخطائها وخطيئاتها، ولم تعتذر، ولم تقدم تعويضات للضحايا سواء من الاحياء او من الاموات. وفي كثير من الحالات، بل اغلبها، توفرت وقدمت أدلة دامغة، لكن الصمت كان يقابل صراخ الضحايا<sup>25</sup> في أغلب الحالات.

جرى تناول استخدام اسلحة الدمار الشامل في أوروبا، لأول مرة "رسميا"، في الحربين العالميتين في القرن العشرين؛ ففي الاولى استخدم الالمان الاسلحة الكيميائية ضد الفرنسيين على الجبهة البلجيكية، وفي نهاية الحرب العالمية الثانية استخدمت الولايات المتحدة القنابل النووية ضد

<sup>23</sup> هالبرستام ديفيد ،، الحرب في زمن السلم، بوش، كلنتون، والجنرالات، الفصل 24، التدخل في هايتي، رواندا اين الابداء، ص414-422، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس، ليبيا. (2003)

<sup>24</sup> هالبرستام ديفيد ، المرجع السابق، ص414-422،

<sup>25</sup> ، كول ليونارد ، مرجع سابق ص20 .

اليابان. بدأ بعدها سباق التسلح النووي والكيميائي والجرثومي، حيث ينتشر اليوم أكثر من مئة ألف سلاح نووي - إضافة إلى ترسانة ضخمة من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية.

انتشر السلاح النووي عند دول قليلة، وتسرب إلى بعض حلفائها خلال الستين سنة التي تلت الحرب العالمية الثانية. ورغم أنه لم يحدث تدمير نووي شامل، كالذي حدث في هيروشيما ونيغازاكي، لكن الاستخدامات التقنية النووية الحربية، يمكن أن تستخدم في مجالات حربية محدودة، توصف أحياناً بأنها أسلحة نووية تكتيكية أو ضربات نووية محدودة، وفي أحيان أخرى تستعمل أعتدة وقذائف حربية تقليدية ولكن تحمل في تراكيبها مواد مشعة كاليورانيوم المنضب مسببة تلوثاً واسعاً وخطيراً لا يقل عن أخطار التجارب والهجمات النووية المعروفة.

ولا يستبعد وصول المواد النووية الإشعاعية إلى يد الإرهاب، ومنها اليورانيوم المخصب 235 أو البلوتونيوم ويتم تفجيرها بواسطة تقنيات منها بدائية تشبه البنادق والقنابل التقليدية "القنابل القذرة" أو تتفقق عقليات الشر عن آليات معقدة لممارسة الإرهاب النووي، بالمواد المشعة فتسبب يوماً ما الكارثة النووية الموعودة<sup>26</sup>.

#### 4-6: القنبلة النووية من تجربة صحراء نيومكسيكو إلى قصف هيروشيما ونيغازاكي:

أصبح النشاط الإشعاعي منطقة ساخنة للبحث العلمي بعد اكتشاف ظاهرة الإشعاع في ختام القرن التاسع عشر. عملت مجموعات عديدة من العلماء لتقصي الظاهرة ومحاولة تفسيرها، منهم من ألمانيا وإنجلترا والنمرك وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة وكندا وروسيا واليابان. كان "انريكو فيرمي" يدرس ظاهرة الإشعاع. وفكر أن النيوترونات أكثر كفاءة في إختراق وتحويل الانوية للعناصر الثقيلة من جسيمات ألفا؛ لأن النيوترونات دقائق متعادلة الشحنة "غير مشحونة". لذا شرع في برنامج لتشجيع كل العناصر المعروفة بالنيوترونات، ليرى ما تعطيه عملية التفاعل تلك. بدأ بالعناصر الأخف أولاً فلم يلاحظ تكون عناصر جديدة ولا نشاطاً إشعاعياً مع العناصر

<sup>26</sup> كلارز ا. وفون هيل، إحياء الإرهاب النووي، مجلة العلوم "ساينتفك أمريكان"، المجلد 22، العددان 9/8، أوت/سبتمبر، ص (46-53)، الكويت، 2006

الاولى. وفي النهاية، وبحلول ربيع 1934 كانت مجموعة فيرمي قد وصلت حتى تشييع اليورانيوم مارة بعناصر الجدول الدوري كله، واليورانيوم كان أثقل العناصر المعروفة وقتها. وقد سبق أن عُرف اليورانيوم كعنصر، منذ زمن طويل، منذ 1789 عندما إكتشفه الالماني كلابروث. وفي عام 1936 أجرى "اوتوهان" و "ليز مايتنر" تجاربهما في معهد القيصر ولهم للكيمياء ببرلين، بإعادة تجربة سبق للايطالي "إنريكو فيرمي" أن أجراها عام 1934 لإستحداث اشعاع اصطناعي بقصف اليورانيوم بالنيوترونات<sup>27</sup>. وكان الهدف اصطناع عنصر كيميائي جديد يكون أثقل من اليورانيوم. بعدها انضم الى "اوتوهان" و"ليز مايتنر" عالم الماني ثالث، هو "فريتز ستراسمان"، فواصل مع "اوتوهان" تلك التجارب<sup>28</sup>. وفي 1939/1/6 لاحظا نتيجة غريبة ، وهي ان قصف اليورانيوم بالنيوترونات يشطر ذرة اليورانيوم الى شطرين، فاعتقدا أنهما ذرتا عنصر الباريوم (عدده الذري 56)، وذرة عنصر الكربتون (عدده الذري 36)، ولكن الشئ الاكثر إثارة من التجربة كان انطلاق مقدار هائل من الطاقة يعادل 200 مليون الكترون فولت Mev . فنشروا النتائج في شهر مارس من نفس العام. وحرار العلماء في هذه الظاهرة، وفسرتها حينها الفيزيائية "ليز مايتنر" من ان الانشطار أدى الى تحول في كتلة اليورانيوم وفق قانون اينشتاين

$$E=mc^2 \quad \text{الشهير بمعادلة الطاقة والكتلة :}$$

تلاحقت التجارب متسارعة، وخلال شهر واحد، في اماكن مختلفة من العالم، منها تجارب الفرنسيين "فردريك جوليو-كوري" وزوجته "آيرين كوري" ، ابنة عالمة الذرة البولندية الاصل "ماري كوري" فتوصلا الى نفس نتائج "هان وستراسمان". واعيدت التجربة في مخبر بوهر في كوبنهاغن في الدانمارك في 1939/1/15. وتحقق "فيرمي" و"داننغ" في مختبرات جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة من صحة التجربة في 1939/1/25. كما اعاد "توفا" و" هفستاند" التجربة في مؤسسة كارنجي في 1939/1/28، واجريت التجربة ذاتها، وفي نفس اليوم

<sup>27</sup> Ruth Lewin Slime, J.Chem.Ed.66), p.373, (1989).

<sup>28</sup> كوب، كاتي ابداعات النار، ص 428.

بمختبرات "جون هوبكنز". وخلال تلك الفترة الحاسمة من تاريخ المصير الانساني، كان هناك انعقاد مؤتمر الفيزياء النظرية في واشنطن في 1939/1/26، تحدث فيه العالم الايطالي "أنتريكو فيرمي" الى العالم "بوهر"، وذكر له ان انشطار النواة قد ينطلق معه نيوترونات، ستقوم بدورها بإحداث انشطار جديد، وهكذا يبدأ تفاعل تسلسلي مؤديا الى انشطارات جديدة متتالية. ورأى "فيرمي": (... ان ذلك قد يكون مفتاح انطلاق مقادير هائلة من الطاقة). ولم يدرك فيرمي خطورة ما سيجري من أحداث في المستقبل بسبب هذه الظاهرة الفيزيائية. وتساءل العلماء حينها: لِمَ لَمْ يقع مثل هذا التفاعل المتسلسل عندما أُجريت تجربة أخرى على اليورانيوم؟.

وفي 1939/2/17 تقدم "بوهر" و "ويلر" الى الجمعية الفيزيائية الامريكية، التي اجتمعت في جامعة كولومبيا برأي مفاده: (... ان الانشطار يحدث لنظير اليورانيوم 235 فقط، ولا يحدث للنظير الثاني لليورانيوم 238 والذي يشكل ما نسبته 99.3% من مجمل اليورانيوم الطبيعي). إقترح "فيرمي" تهدئة سرعة النيوترونات (التي تنطلق من نواة الذرة المنشطرة بسرعة كبيرة تصل الى 18000 كم/ثا)، من خلال إمرارها عبر طبقة من الغرافيت، أو الماء الثقيل، لتصل الى سرعة بطيئة لا تتعدى 2 كم/ثا، لكي تحدث انشطارات أخرى لنوى جديدة. وقد اثبت أيضا "فريدريك جوليو-كوري" في ربيع 1939 ان التفاعل المتسلسل شئ ممكن الحدوث.

تمكن "نير" في احد المخابر الامريكية من الاسراع بفصل كمية صغيرة من اليورانيوم 235. لم تتجاوز (0.02 ميكروغرام)، من اليورانيوم الطبيعي، وارسله الى "فيرمي"، الذي جمعه الى مقدار ضئيل منه، جاءه من شركة جنرال الكتريك، فقصفها بنيوترونات بطيئة في معجل، فتطابقت نتائج العملية في 1940/3/5 مع أفكار "بوهر" و "ويلر". في ذلك الوقت تواجد عدد كبير من علماء الفيزياء والكيمياء، ممن جاؤوا من بلدان اوربية، من بينهم "تيلر"، و"فايسكوف" و"فيرمي"، و"زيلارد"، و"البرت اينشتاين"... وغيرهم في الولايات المتحدة. كما كانت ادارة الاسلحة الحربية الالمانية بدورها قد جمعت مجموعة من العلماء الآخرين من بينهم "بوتا"، و"غايجر"، و"هان"، و"ارتك"، و"فايزيكر" وكان الجميع في سباق محموم نحو الدمار الشامل.

وفي ذروة إستعمار الحرب العالمية الثانية، إرتاع كل من "زيلارد" و"ساخس" في امريكا من احتمالات تسخير العلماء الالمان لتجارب الانشطار النووي لاغراض حربية، فاتفقا على ضرورة تدارك الامر الخطير بقرار سياسي كبير. فنقل "ساخس" خطابا من أينشتاين (مدعوما بثلاثة من الفيزيائيين الامريكيين من اصل مجري، بمن فيهم "ادوارد تيلر") الى الرئيس الامريكي روزفلت في اكتوبر/تشرين اول من عام 1939 تضمن ما يلي:

(... لقد ظهر في غضون الاشهر الاربعة الاخيرة انه: بناء على اعمال "جوليو-كوري بفرنسا وفيرمي وزيلارد بأمریکا" يمكن إحداث تفاعل متسلسل في كتلة كبيرة من اليورانيوم تنتج عنه طاقة هائلة ومقادير كبيرة من عناصر مشعة جديدة تشبه اليورانيوم. ونرى اليوم إن هذا الأمر يمكن بلوغه في المستقبل القريب. وهذه الظاهرة الجديدة قد تؤدي الى صناعة قنابل قد تكون قوية للغاية، ومن نوع جديد تماما. ان هذا ممكن ، ولكنه ليس محققا. وقنبلة واحدة من هذه يحملها قارب ويفجرها في ميناء قد تنسف كل الميناء، ومعه شيئا مما حوله. إلا ان هذه القنابل قد تكون من الثقل بحيث لا تستطيع حملها الطائرات).

إستجاب روزفلت للخطاب فعين (لجنة استشارية لشؤون اليورانيوم) في ربيع العام 1940 ، تألفت من العلماء "ساخس"، و"فاغنر"، و"تيلر"، من جامعة جورج واشنطن ومن "فيرمي"، و"زيلارد"، وعدد من رجال الجيش والبحرية.

إجتمعت اللجنة في 1939/10/21، غير ان العمل فيها سار بطيئا في اشهره الاولى، ثم توسعت في جوان/حزيران 1940. وفي بريطانيا تشكلت مجموعة عمل مماثلة للموضوع ذاته، ضمن العلماء "طومسون"، و"فريش"، و"روتبلات"، و"فيذر"، و"بريتشر"، والتحق بالمجموعة عالمان فرنسيان من مجموعة "جوليو-كوري"، وهما "هالبان" و"كوفارسكي". وتوصلت المجموعة البريطانية في منتصف 1941 الى: (... ان صناعة القنبلة الذرية شئ ممكن).

توسعت اللجنة في بريطانيا لاحقا، وانضم اليها في ربيع 1941 علماء بارزون من بينهم السير "جون أندرسون"، والسير "تشارلس دارون"، و"كوكروفت"، و"اليفانت"، و"بيرلز"،

و"سايمون". وتأكد للامريكيين والبريطانيين في تلك الفترة: ان العلماء الالمان يجرون تجارب على منظومة لليورانيوم، مستخدمين الماء الثقيل، كمهدئ للنيوترونات، يقودهم العالم الالمانى "هايزنبرج"، وهو من اكبر علماء الفيزياء في العالم آنذاك.

وقصة الماء الثقيل، إبان الحرب العالمية الثانية معروفة، شغلت العلماء، كما شغلت العسكريين. فعندما إعتقد الحلفاء أن الالمان كانوا في طريقهم الى صنع القنبلة الذرية، وكانوا قد حصلوا على سبق في ذلك بتحضيرهم بضعة ألتار من الماء الثقيل، ليستخدموه في تهدئة سرعة النيوترونات، وأنهم أنجزوا ذلك في مصنع نورسك هايدرو بالنرويج. لذا قرر الحفاء تدمير المصنع، وفعلوا ذلك بإنزال فريق مغاوير بالمظلات في خريف 1942، وأعادوا الكرة مرتين في شتاء وربيع 1943، الا ان الالمان أصلحوا ما دمره رجال المغاوير، وأخيرا هوجم المصنع مرة أخرى بالطائرات الامريكية في 1943/11/16، فقرر الالمان تفكيك المصنع ونقله، مع ما انتجه من ماء ثقيل الى ألمانيا، لكن رجال من حركة التحرير النرويجيين نسفوا السفن الصغيرة التي حملت الماء الثقيل في فيفري/شباط1944.

وفي بداية شهر جانفي/كانون ثاني 1942 ، تقرر ان تتم في جامعة شيكاغو تجربة لمراقبة تفاعل انشطاري يمكن ضبطه والتحكم فيه بمفاعل، أشرف على بنائه فيرمي بنفسه، وفي 1942/12/2 سجل التاريخ العلمي اول يوم استطاع فيه الانسان أن يحدث تفاعلا نوويا متسلسلا، مسيطرا عليه، داخل مفاعل نووي، ولم يعلم به حينئذ سوى "فيرمي" وفريقه.

وهناك في جانب آخر واصل العاملون في مشروع مانهاتن بحوثهم للحصول على اليورانيوم235 بالطريقة الكهرومغناطيسية للفصل. واستحدث "أوري" و"دانغ" من جامعة كولومبيا طريقة الانتشار الغازي لذات الغرض لفصل اليورانيوم 235 عن اليورانيوم238.

كان مشروع ما نهاتن هائلا: انفق المشروع مليار دولار حتى العام 1944 ، وانتهى بإمكانات وإنشاءات منتشرة من جنوب كارولينا في الجنوب الشرقي الى واشنطن في الشمال الغربي. وكان يمثل تحديات هندسية وعلمية كبيرة. وقد قدم المشروع فرصا للعديد من المهندسين

والعلماء، بمن فيهم القليل من الامريكيين من اصول افريقية، مثل الكيميائيين "مودي دانيال تايلور" و"لويد البرت كوارتمان".<sup>29</sup> بلغ مشروع مناهاتن أوجه، وتجند في تنفيذه قرابة 125000 شخص، بينهم 12000 من خريجي الجامعات. اقيم معمل لصنع ألقنبلة الذرية بجوار لوس الاموس بولاية نيومكسيكو. والى هذه المجموعة من العلماء جاء في مارس/اذار العالم النووي الموهوب "اوبنهايمر" ليكلف بادارة المعمل، بمساعدة "اليسون". وجمع المشروع من العلماء والتقنيين من بينهم "اندرسون"، و"كومبتون"، و"دافيسون"، و"اينشتاين"، و"لانغيمور"، و"لورانس"، و"ميليكان"، و"رابي"، و"شتيرن"، و"أوري"، وكلهم علماء أمريكيون حائزون على جائزة نوبل.<sup>30</sup>

وكان من بينهم ايضا "بوهر"، و"شادويك"، و"بيثا"، مكتشف التفاعل النووي الذي يجري في الشمس"، و"باخر"، و"كستياكوفسكي"، و"فيرمي".

توصلت التجارب في آخر مراحلها الهامة باكتشاف: ان التفاعل المتسلسل لا يحدث الا اذا بلغ مقدار مقدار المادة الانشطارية في القنبلة كتلة محددة تسمى "الكتلة الحرجة"، ولتفادي ذلك استخدموا قطعتين من اليورانيوم 235. كل منهما أقل من "الكتلة الحرجة"، ليقتصوا القطعة بالآخرى، وعندئذ يحدث الانشطار المتسلسل، فتنفجر عندئذ القنبلة في جزء من الثانية.

ان القنبلة النووية لم تكن متاحة قبل 1945؛ الامر الذي جعل اليابان هي الهدف، بدلا من المانيا التي كانت على وشك الاستسلام. وبحلول شهر يوليو/تموز 1945، كانت القنبلة ذات الانفجار الداخلي جاهزة للاختبار قبل موعدها بأيام عدة. كان الاسم الحركي للاختبار القنبلة هو (الثالوث المقدس)، وليس معروفا من الذي اختار لها هذا الاسم ولماذا؟؟.

في 16/7/1945 تم تفجير القنبلة النووية التجريبية الاولى في المطار الحربي لبلدة ألاموغوردو بصحراء نيومكسيكو، على قمة برج من الصلب. وعندما انفجرت تبخر البرج

<sup>29</sup> كوب كاتي وهارولد جولد وايت، ابداعات النار صفحات عدة.  
<sup>30</sup> النعيمي نعمان سعد الدين راجع الملحق 1 و 2، في كتاب، نرى العلم في القرن العشرين، دار الشؤون الثقافية، بغداد، (2001).

الفولاذي الذي كان يحملها، وحدثت حفرة في الارض قطرها بحدود كيلومتر، وتغطت المنطقة بمنصهرات الرمل الذي ذاب وكون طبقة زجاجية خضراء.

كتب "فريش" وصفا للانفجار: (... فجأة غمرت التلال أضواء شديدة، كما لو ان احدا قد أضاء الشمس، لم يكن هناك أي صوت... كان الامر مفاجأة لي؛ فقد كنت اتوقع ومضة ضوء وجيزة، لكن هذه استمرت بضع ثوان، بعدها فقط بدأ الظلام... ثم عندما ظننت ان الأمر قد انتهى، إستدرت، فرأيت هذه الكرة النارية الرائعة تامة الاستدارة في حجم الشمس وترتبط مع الارض بساق رمادية قصيرة<sup>31</sup>. لمع ضوء شديد غطى كل المنطقة، وقد احس مراقب آخر اسمه "كينيث بيمبريدج" بسخونة في رقبته، لكنه لم يهتم. فقد كان المسؤول عن اكتشاف السبب لو اخفقت القنبلة. وعندما رأى الانفجار إستدار ناحية "اوبنهايمر" وقال: (الآن كلنا اولاد كلب)<sup>32</sup> وفي الصباح الباكر من يوم الاثنين 1945/8/6 القيت القنبلة الذرية الاولى المسماة (الصبي الصغير) **The Little Boy** كانت محمولة على قاذفة من طراز (B-29)، اسمها "اينولا جايفي" في تمام الساعة الثامنة والرابع صباحا بالتوقيت المحلي، أي بوقت الذروة الصباحية لخروج اليابانيين الى اعمالهم في مدينة هيروشيما اليابانية. كان وقودها النووي من اليورانيوم 235، وانفجرت بطاقة تعادل تفجير مابين (15-25) كيلو طن من مادة TNT ثديدة الانفجار، وقتلت اكثر من 50000 من السكان، وبذلك حقق مشروع ما نهاتن عمله.

كتب شاهد عيان من اليابانيين وصف المشهد قائلاً: (... كان الناس في هيروشيما قد بدأوا يوم العمل لتوهم. فجأة انطلقت صافرات الانذار محذرة من اقتراب طائرة، لكن الصافرات توقفت وانصرف الجميع الى اعمالهم... اعتقدت اني سمعت صوت طائرة، لكنها بدت بعيدة ومرتفعة جدا.. ضربتني فجأة ومضة ضوء رعدي و صوت انفجار هائل.. إحترقت عيناوي، واطلم كل شيء حولي، أمسكت بشقيقتي، أخذ كل شيء يتلاشى، ظننت اني ملاقي حتفي. استيقظت، كنت على قيد

<sup>31</sup> Bickel Lennard, The Deadly Element,the Story of Uranium(Stein and Day,New p.257 York,(1977).

<sup>32</sup> Bickel Lennard , The Deadly Element,the Story of Uranium(Stein and Day,New),p.257 York, (1977).

الحياة، لكن منزلي قد انهار تماما، وعندما زحفت الى الخارج إكتشفت ان كل هيروشيما قد انهارت، تطاير كل شئ واصبح ممزقا، كل شئ يحترق. كانت شواطئ النهر مزدحمة بالناس، فقد اراد كل واحد ان يكون قرب الماء، كانت هناك طفلة تصرخ وهي تحاول ايقاظ امها الميتة. كنت محظوظا جدا، فقد كانت أسرتي على قيد الحياة. وكنا معا نستظل في كهف. كان وجه ابي محترقا بشدة ومتورما. وكان ظهر أخي مليئا بقطع الزجاج من النافذة التي كان يجلس تحتها. اما شقيقتي الكبرى فقد انغrust اسنانها في شفتيها، لانها كانت تأكل باستخدام عيدان الطعام)<sup>33</sup> .

احتوت قنبلة هيروشيما على نحو 60 كغ من اليورانيوم التسلسلي التفاعل عندما فجرت قنبلة "الصبي الصغير" **Little Boy** في السادس من اوت/آب 1945 . أُطلق قسم من شحنة القنبلة – دون الكتلة الحرجة- على القسم الآخر بوساطة آلية بسيطة نسبيا تشبه آلية البنوقية، مما سبب زيادة كتلة اليورانيوم 235 في القسمين عن الكتلة الحرجة وانفجارها بقوة تعادل 15000 طن من مادة TNT . اما القنبلة التي فجرت بعد ذلك بعبء ايام فوق نياغازاكي، فقد استعملت شحنتها المنفجرة مادة البلوتونيوم، بدلا عن اليورانيوم مما تطلب تقانة أكثر تعقيدا لتفجيرها. بلغت قوة الانفجار مايقارب 40% إلى 60% من الطاقة الأجمالية للقنبلة النووية حيث تؤدي الحرارة و الضغط الشديدين الناجمة عن الانفجار إلى حركة سريعة للهواء الموجود في الجو نحو خارج منطقة الانفجار مسلطا ضغطا هائلا على المناطق المجاورة على شكل موجات متعاقبة دائرية الشكل.

تكون سرعة هذه الموجات المتعاقبة مئات الكيلومترات في الساعة؛ وبهذا يمكن القول ان هناك نوعين من الضغط يتولدان في لحظة الانفجار هما: ضغط مرتفع ساكن نتيجة للارتفاع المفاجئ والهائل لدرجات الحرارة تعقب مباشرة هول انفجار القنبلة. ضغط مرتفع متحرك نتيجة للاهتزازات وحركة الغازات في الجو بشكل دائري باندفاع شديد نحو خارج نقطة الانفجار.

<sup>33</sup> Junko Morimoto, **My Hiroshima**(Puffin books), This is a well –written and well –illustrated children's boks, New York,(1987).

لقياس قوة الانفجار الأولي يستعمل عادة أسلوب المقارنة مع قوة انفجار مادة "تي. إن. تي. TNT". وعلى هذا القياس فان طاقة انفجار قنبلة نووية هي معادلة ما بين ( 10 - 20 ) كيلوطن من تفجير مادة "تي إن تي". ولتوضيح أكثر، فان مقدار طاقة تفجير 10 كيلوطن كافية لتدمير مدينة عصرية صغيرة الحجم ، ويمكن أن تمتد الطاقة التدميرية لمقدار 10 كيلوطن حتى مسافة تصل الى 2.4 كم من نقطة الانفجار "نقطة الصفر". تعتمد طاقة الانفجار الأولي للقنبلة النووية على عاملين مهمين: اولهما طاقة القنبلة مقارنة بطاقة تفجير مادة "تي إن تي" . TNT ،والعامل الثاني: هو موقع "الأرتفاع" ، الذي فجرت فيه القنبلة فوق سطح الأرض. ويعتمد اختيار الأرتفاع المناسب لتفجير القنبلة على تقدير مدى طاقتها التفجيرية. على سبيل المثال: تم اختيار ارتفاع 580مترا لتفجير القنبلة التي القيت على مدينة نياغازاكي في اليابان، حيث كانت القنبلة من قنابل الانشطار النووي، ذات الانضغاط الداخلي، وطاقتها مساوية إلى طاقة تفجير 20 كيلوطن من مادة "تي إن تي" . وهذه المسافة تتناسب طرديا مع طاقة القنبلة؛ فقنبلة من طراز طاقة 30 كيلوطن على سبيل المثال: تحتاج إلى ان تفجر من إرتفاع أعلى، لكي يكون تأثير الانفجار في أكبر حالات التأثير والخراب والتدمير الشامل.

بعدها بثلاثة ايام القيت قنبلة التفجير الداخلي [البلوتونيوم-239] باسم "الرجل البدين" على نياغازاكي. في صباح ذلك اليوم كان المجلس الاعلى لادارة الحرب في اليابان مجتمعا في ملجأ رئيس الوزراء المحصن، وكان المجتمعون في ورطة حول الرغبة باستمرار الحرب أو وقفها، غير ان اللقاء القنبلة الثانية على اليابان قد فرض الاستسلام الكامل ومن دون اية شروط. واذا ما تركنا جانبا قضايا الحرب، ومواقع إسقاط القنابل النووية، فان الغريب هنا من يجادل حول من يجب ان يموت ؟ وبأي الاعداد تحصد الارواح؟ وما هي التقنية المستعملة؟.. الخ من الاسئلة؛ لكن السنوات التالية التي تصاعدت فيها حمى الحصول على الاسلحة النووية وإجراء التجارب النووية كشفت ان الانسانية ذاهبة برجليها الى الدمار الشامل. وظهرت مشاكل كونية

مرتبطة حول ما تتركه التجارب وكميات السقط الغباري المشع على ارجاء واسعة من الكرة الارضية، وليس في موقع التفجير وحده.

ورغم ان هذا السقف الذري الغباري المتساقط، بات حقيقة ملموسة، الا ان الجدل حول تأثيراته على البيئة والصحة إستمر وقتا طويلا رغم ادراك العلماء بطبيعة الاشعاع واضراره المباشرة وغير المباشرة. والمفارقة هنا انه عندما كان "لينوس بولنج" يؤكد ان الاشعاع يسبب زيادة في الاصابة بالسرطان، كان هناك "ادوارد تيلر"، يقول عجا ويتحدث عن "فائدة الجرعات المنخفضة" ووجود القليل من الاشعاع. ووصل الامر به، انه يشبه خطورة الاشعاع، بشئ من المقارنة مع الازدياد الطفيف بوزن الجسم لا غير؛ غير ان "لينوس بولنج" قاد حملة لإيقاف التجارب النووية السطحية أو في الجو؛ خصوصا بعد التفجيرات النووية السطحية الاربع التي قامت بها فرنسا في الصحراء الجزائرية بدء من 13/2/1960 الى ربيع 1961.

دعى " لينوس بولنج" الى حملة العصيان المدني في العالم ضد تلك التجارب. وقد منح جائزة نوبل للسلام في 10 اكتوبر من عام 1962 ، وهو اليوم الذي بدأ فيه سريان اتفاق حظر التجارب النووية.

## 6-5: الولاء العقائدي والديني وأخلاقيات نشر اسلحة الدمار النووي الشامل:

وما ان انتهت الحرب العالمية الثانية الا وكانت الولايات المتحدة تنفرد في امتلاكها السلاح النووي علما وتقانة وتنفيذا، كسلاح في يد قوتها الضاربة الاستراتيجية. وبضربة اليابان في هيروشيما ونيغازاكي بدأ عصر الوعيد والترهيب النووي. وقد أثار هذا التفرد الامريكي ومخاوفه عددا كبيرا من العلماء والمشاركين او المطلعين على الاسرار النووية من ذوي الاتجاهات والميول والعقائد اليسارية والشيوعية.

وعندما قام الاتحاد السوفيتي باختبار قنبلته النووية الاولى سنة 1949، رافقتها حملة من الشكوك والتشكيك حول تعاون أو تجسس لعدد من العلماء أو التقنيين في الغرب مع الاتحاد السوفيتي، ومنهم من اتهموا بتسريب معلومات وأسرار نووية للسوفيت؛ بحكم انتمائهم او صلاتهم

بالحزب الشيوعي، أو بشبكات المخابرات السوفيتية. ففي جانفي/كانون الثاني من العام 1950 جرى القبض على ما يسمى "قضية جاسوس هارويل" (مركز البحوث النووية البريطاني)، حيث اتهم احد العلماء البريطانيين العاملين في فريق المشروع Y ، يدعى "كلاوس فوتشس" كان " ألماني الاصل" ، وكان عضوا في الحزب الشيوعي، أُتهم بانه قدم معلومات الى العلماء السوفيت. وقد أُدين في شهر مارس من العام 1950 بنقل كمية غير محددة من الاسرار الذرية الى الاتحاد السوفيتي على مدى ثمان سنوات، تشمل طول مدة وجوده في بريطانيا، ثم في نيويورك، وأخيرا في لوس الاموس.

وقد اعترف " كلاوس فوتشس" بأنه أقدم على ذلك بمحض ارادته ، في اطار قناعاته بالنظام السياسي السوفيتي، ورغبة منه في دعمه، والإقلال من الهيمنة الامريكية المتوقعة بعدالحرب على العالم. وقد ثبت أنه لم يتقاض أي مبالغ مالية هامة في مقابل ما قدم من معلومات الى السوفيت. لم يُحكم "كلاوس فوتشس" بالاعدام، وانما بالسجن 14 عاما؛ لان الظرف الدولي والعلاقات الدولية ساعد على ذلك لأن بريطانيا، كانت حينها، لم تزل تعامل الاتحاد السوفيتي دولة غير معادية، وانه كان دولة صديقة للحلفاء، اضافة الى خفايا الدبلوماسية والجوسسة، وتبادلاتها في مثل هذه الحالات.

بعدها هرب عالم آخر من هارويل" مركز البحوث النووية البريطاني" ، وهو العالم الايطالي الاصل ، البريطاني الجنسية "برونو بونتيكورفو" الى الاتحاد السوفيتي. يعتقد ان كمية الاسرار التي نقلها الى السوفيت على مدى سنوات كانت كافية للاسراع بإعلان أول تفجير سوفيتي حراري تم عام 1953.

وفي سبتمبر/ايلول 1955، نشرت تقارير عن هروب واختفاء إثنين من كبار موظفي وزارة الخارجية البريطانية هما "بيرجس" و"ماكلين" في عام 1951، ولم يظهر عنهما أي أثر بعد ذلك. وقد قادت التحقيقات الى وجود آخرين ممن تعاونوا مع السوفيت مثل "هاري جولد" ، الكيميائي من فيلادلفيا، و"ديفيد جرينجلاس"، العريف السابق بالجيش الامريكي . كان يعمل في

لويس آلاموس، وكذلك الزوجين " إيثيل" و ،جوليوس روزنبرج" الذين واجها حكم الاعدام بعد ذلك. ونتيجة القلق الناتج حول الشكوك في ولاء الشيوعيين العاملين في المشروعات النووية، تمت تنحية "جويو" من رئاسة لجنة الطاقة الذرية الفرنسية، لانه، وزوجته كانا قد إلتحقا بالحزب الشيوعي في أثناء الاحتلال النازي لفرنسا. كما احتجزت سلطات الهجرة في الولايات المتحدة العالمية "كوري"، اثناء رحلة لها هناك . ورفضت عضويتها في الجمعية الكيميائية الامريكية. وفصل "روبرت اوبنهايمر" من مشروع الطاقة الذرية الامريكية لإرتباطاته السياسية السابقة. وقدم آخرون للمسائلة أمام لجان الكونجرس أو مكتب التحقيقات الفيدرالية ومنهم من فقدوا بالتالي وظائفهم أو سمعتهم او كليهما معا.

لابد من التنويه هنا باختصار ان المشروع النووي الاسرائيلي قد استفاد من ازدواجية الولاء والجنسية لدى العديد من يهود العالم ووظف لخدمة اسرائيل وتطلعاتها النووية مما مكنها أن تشارك فرنسا بخبرة علمائها في تفجيرات الصحراء النووية في الجزائر عام 1960.<sup>34</sup> واذا مانظر لهذا الامر بصورة معمقة فسوف نلاحظ هنا عدة ظواهر مشتركة في عمليات الجوسسة والتعاون وتسريب الاسرار والتقانات كمثل امثل هذه النوعيات والنخب من العلماء وافعالهم من أهمها:

1- ان معظمهم في ذلك الوقت كانوا من اليهود، وقد يبين ذلك عدم وجود لرابطة الولاء الوطني لديهم للدول التي يقيمون بها، باعتبار انهم لا يدينون بأي ولاء سياسي سواء لأوربا او امريكا؛ بالرغم ان تلك الدول التي استقبلتهم وقد منحتهم كل ما يتطلعون اليه من مناصب ووظائف عمل بمسؤوليات مهمة ووضع اجتماعي متميز... الخ، وهذا أمر يتعارض مع جميع القواعد الاخلاقية والسلوكية.

<sup>34</sup> العبودي عبد الكاظم ، الجذع المشترك للمشروعين النوويين الفرنسي والاسرائيلي، يرابيع رقان ، مرجع سابق، ص 26-114، وهران، (2002).

2- ان غالبيتهم في ذلك الوقت عانوا من الاضطهاد النازي والتمييز الديني، وكثير منهم وجد في الشيوعية عقيدة سياسية تتجاوز تمييز حاملها من ناحية العرق او الدين او المواطنة بطرحها مبدأ الاممية. من هنا كان الانحياز للسوفيت، قد تجلى في مواقفهم لاحقا من اجل مشروعات حركة السلام العالمي، والدعوة الى وقف الحرب، والدعوة الى حظر استخدام وتطوير الاسلحة النووية.

3- ان عددا منهم إقتنع فعلا بمخاطر القطبية الواحدة ووجود الاسلحة النووية بيد الولايات المتحدة فسعى الى التوازن النووي، كحل وحيد لعدم تكرار مأساة هيروشيما ، إذا ما اقدمت الولايات المتحدة بقصف بلدا آخر بعد اليابان.

تختلف نظرة المعايير حول الافعال التجسسية، وموقعها من القواعد الاخلاقية السليمة لاختلاف النظرة الى تلك الافعال من مختلف الزوايا السياسية والعقائدية . فمن جهة لا شك ان تلك الافعال قد أضرت بمصالح الولايات المتحدة وحلفائها ضررا بليغا، حرمتها من فرصة التفرد والاحتكار بامتلاك تلك الاسلحة ، التي تحملت لأجلها أعباء كبيرة للوصول اليها وامتلاكها، وبالتالي قد يكون "كلاوس فوشتس" خائنا في نظر الولايات المتحدة واتباعها بكل المقاييس. اما من وجهة نظر أنصار الاتحاد السوفيتي فلا شك ان "كلاوس فوشتس" يُعد رفيقا متميزا، وشجاعا، مضحيا ومخاطرا بحياته في سبيل مبادئه ، وله مكانة رفيعة عند السوفيت والشيوعيين آنذاك في كل الاوقات، وقد عومل كبطل من ابطال الاممية الاشتراكية والشيوعية.

اما من وجهة نظر "كلاوس فوشتس" نفسه، فهو يعتبر نفسه، أنه خدم افكاره وقناعاته السياسية بدرجة كبيرة، وانه ساعد على إحداث توازن كبير بين القوى العظمى، وهذا العمل انما خدم به السلام العالمي بعد الحرب الثانية. وبذلك يعتقد "كلاوس فوشتس" انه قام بواجب هام كان ضروريا القيام به، خاصة، وانه لم يتربح ماديا مقابل ما قام به للسوفيت، مما يؤكد بالفعل، ذاتية

دوافعه، وقد اثبتت التحقيقات والمحاكمة التي أُجريت له، انه عمل ذلك، وخاطر بحياته، من دون مقابل مادي يذكر<sup>35</sup>.

#### 6-6: القنبلة الهيدروجينية "قنبلة السوبر":

تعود المصادر العلمية الى ان فكرة استخدام الاندماج النووي، ولصنع قنبلة جاءت اثناء حوار على مائدة الغداء دار بين العالمين النوويين "فيرمي" و"تيلر" عام 1924. كما اجريت عدد من الابحاث حول الاندماج النووي كجزء من مشروع مانهاتن؛ غير ان الأولوية والتركيز كان على مشروع الانشطار النووي، وصنع قنابل اليورانيوم والبلوتونيوم. وبعد الحرب خُفِضت ميزانيات مشروعات القنابل، وما ان اعلن الاتحاد السوفيتي عن تجربته النووية حتى شهدت لوس الاموس اسابيع عمل مكثفة، وبدأ الكيميائيون في هانفورد يبحثون في طرق تشغيل التريتيوم، وهو احد نظائر الهيدروجين. يحدث الاندماج النووي بين نوى العناصر الخفيفة لتوليد عناصر أثقل، ونتاج طاقة، تصل درجة حرارتها الى 15 مليون درجة مئوية، ويصاحب الانفجار ضغط هائل يصعب تقديره. وفي تلك الظروف تنتزع البروتونات والنيوترونات انتزاعا من نوى الذرات الخفيفة لتندمج ببعضها مكونة نوى وعناصر أثقل. ومن بين نظائر الهيدروجين الثلاث يظهر الديوتيريوم  ${}^2\text{H}^1$  والتريتيوم  ${}^3\text{H}^1$  امكانية الاندماج لتوليد الهيليوم  ${}^4\text{He}^2$  ونتاج طاقة هائلة. ويحدث هذا الاندماج بظروف عالية من درجات الحرارة تقدر بالملايين، ويزداد الاندماج مع زيادة درجات الحرارة فيسمى هذا بالتفاعل النووي الحراري. وهوما يحدث في القنبلة الاندماجية المسماة "القنبلة الهيدروجينية".

وهكذا تقوم فكرة تفجير القنبلة الهيدروجينية على مبدأ معاكس لتفجير القنبلة الذرية؛ حيث يعتمد انفجار القنبلة الذرية على إنشطار مادة التفجير "اما اليورانيوم المخصب او البلوتونيوم"، بينما يعتمد تفجير القنبلة الهيدروجينية تعتمد على مبدأ الاندماج، فعند دمج نظائر الهيدروجين

35 بركات محمود ، (2005)، "السلح النووي واخلاقيات العلم والتقانة"، الفصل الثامن من كتاب لعدد من المؤلفين والعلماء العرب: الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، من اصدار الاليسكو وجمعية الدعوة الاسلامية العالمية، تونس (2005).

(الديتيريوم، التريتييريوم) ينتج عنها الحصول على طاقة هائلة. وعملية الدمج تلك تحتاج إلى ارتفاع لدرجة الحرارة يقدر بعدة ملايين من الدرجات المئوية. لذا لابد من تفجير نووي لتوفير عملية التسخين هذه. أول تجربة ناجحة للقنبلة الهيدروجينية واسمها الحركي "مايك" تمت في المحيط الهادي بتاريخ 1952/11/1، لقد تمت تسوية الجزيرة المرجانية الصغيرة في سلسلة جزر مارشال في المحيط عندما حدث فوقها الانفجار. بطاقة تعادل ملايين الاطنان من مادة TNT، وربما يكون هذا السلاح قد حقق نبوءة الفريد نوبل: (... ربما تتمكن مصانعي من انهاء الحرب أسرع مما تستطيع مؤتمراتكم للسلام )، ووصلت آثارها الاشعاعية على بعد مئة كيلو متر. وبهذا اصبحت الحرب في الخمسينيات باردة ومحدودة، رغم أن هناك تساقط اشعاعي ذري هنا وهناك استغله كل طرف في نقد الاخر، ولم يرد من الانباء هول التدمير الشامل لتجربة "مايك" سوى بعض الاخبار التي تناقلتها وكالات الانباء مثل : (... توفي على اثرها صياد ياباني بعد حوالي عشرة ايام من التعرض الاشعاعي. كما طفت الاسماك الميتة على سطح الماء بسبب تعرضها الى الاشعاع) . والمفارقة هنا، ايضا ، انه، بعد سماع وتداول مثل هذه الاخبار الجانبية عن التفجير الهيدروجيني وعن تأثيرات الاشعاع الناجم عنها ومنها خبر: (... أقيمت القداسات والصلوات في أرجاء من الولايات المتحدة على ارواح تلك الاسماك النافقة والطافية فوق مياه المحيط الهادئ بعد التفجير)، مما استدعى تعليق الرئيس السوفيتي جوزيف ستالين على ذلك الخبر، المفارقة بتعليقه : (... عجا كيف يصلون على الاسماك في البحر ولا يصلون على البشر في اليابان)، مشيرا إلى تفجير القنبلتين النوويتين التين رميتا على هيروشيما ونيغازاكي في اوت من عام 1945م.

وفي أوت/أب 1953 فجر السوفيت قنبلتهم الهيدروجينية الاولى، بطاقة ملايين الاطنان، تلتها الولايات المتحدة مرة اخرى في تفجير قنبلة هيدروجينية في مارس 1954 بطاقة 15 ميغا طن، وكانت عبارة عن قنبلة (انشطارية-حرارية-نووية-انشطارية) ، أي ان مرحلتها الاولى مكونة من قنبلة انشطارية كبيرة تعمل كقادح لمرحلة ثانية هي عبارة عن قنبلة اندماجية لتوليد طاقة عالية

تؤدي لاحقا الى تفاعل النيوترونات السريعة مع اليورانيوم 238 الموجود في غلاف القنبلة فيؤدي الى تولد افجارا انشطاريا آخر.

#### 6-7: القنبلة النيوترونية:

القنبلة النيوترونية هي قنبلة نووية تخرج طاقتها على شكل حزم من النيوترونات "دقائق نووية عديمة الشحنة الكهربائية"، وهي بخلاف القنبلة الهيدروجينية "الاندماجية العادية" التي ينتج عن انفجارها قدر هائل من الطاقة الحرارية والاشعاعية.

تصدر عنها نيوترونات التي يمكن ان تخترق سماكة 30 سم من الفولاذ من دون اي تأثير بالابنية. و ميزة تأثيرات وتفاعلات النيوترونات عن تأثيرات الحرارة انها جسيمات غير مشحونة قادرة على اختراق الاجسام بسهولة وقدرتها "كأشعة مؤيونة". و إن هذه القنبلة يمكن أن تقتل الكائنات الحية.

#### 6-8: القنابل النووية القذرة ومشكلات النفايات النووية على الامن العالمي:

رغم تسميتها بالقذرة، فهذا لا يعني ان هناك قبلها وجدت قنابل نووية، يمكن ان تسمى نظيفة، لكن التسمية تحمل مدلولاً عنصرياً آخر حتى لو انتسب الموضوع الى الابداء والالام البشرية. لأن مثل هذه القنابل قد يلجأ اليها يائسون وانتحاريون وارهابيون.

ومنذ بداية السبعينيات من القرن الماضي حذر عالم الذرة الامريكي المشهور "تايلور"<sup>36</sup> من خطر الارهاب النووي<sup>37</sup>. ولكن كثر الحديث عنه الان وعن صنع مثل هذه القنابل بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، وضمن حملة ادارة الولايات المتحدة المسماة "الحرب ضد الارهاب"، ومن ضمنها منع دول "محور الشر" و"الدول المارقة" من الوصول الى انتاج اواستخدام المواد والاسلحة الكيماوية والجرثومية والنووية في صنع "القنابل القذرة". والاخيرة تعد من اخطر

<sup>36</sup> مصمم الاسلحة النووية السابق في مختبر لوس الاموس الامريكي.

<sup>37</sup> Charles D. Ferguson and William C. Potter Routledge(Taylor and Francis), The Four Faces of Nuclear Terrorism. 2005

الحالات عندما يرتبط الموضوع بقضية تخصيب اليورانيوم أو الحصول عليه بواسطة السطو والسرقة أو الشراء عبر وسطاء السوق السوداء ومنه السعي لإنتاج قنبلة ذرية من نمط البندقية<sup>38</sup>.  
الجدير بالذكر ان الفيزيائيين الذين صمموا "قنبلة الصبي الصغير" لم يجروا إختبارا نوويا على التصميم البسيط قبل القاء القنبلة فوق هيروشيما، إذ لم يكن لديهم أدنى شك في انفجارها بمجرد قذح زناد "البندقية"، لذلك يُقِرّ الخبراء بأنه في مقدور أي مجموعة ارهابية، منظمة جيدا إنتاج آلية حسنة الاداء من نمط البندقية، فيتوصلوا الى طريقة لتفجير قنبلة نووية بدائية الصنع، ولكنها لا تقل تأثيرا عن قنبلة هيروشيما. ويذهب بعض الخبراء الى ابعد من ذلك في طرح مخاوف في محلها حول امكان اختراق بعض الانتحاريين لمنشآت تخزين اليورانيوم العالي النخصيب، وانشاء ما يشبه الجهاز النووي المرتجل، ليفجروا اليورانيوم قبل ان يتمكن الحراس من التصدي لهم<sup>39</sup>.

باختصار يجمع الكثير من الخبراء النوويين ان أية مجموعة او منظمة ارهابية يمكنها ان تحصل على كمية من اليورانيوم العالي التخصيب "بحدود 100 كغ، وتنشئ صاعق بسيط من نمط البندقية ثم يمكن استعماله كسلاح نووي ضد منشأة عسكرية كانت ام مدنية.

لم يعد اليورانيوم عالي التخصيب بعيد المنال لمن يسعى اليه ، فالمنشآت والقواعد والمفاعلات والمخازن النووية عبر العالم لديها اكثر من 1800 طن من هذه المادة، تم انتاجها في حمى سباق الحرب الباردة من قبل الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. ويمكن الوصول اليها من دون صعوبة كبيرة في بعض الحالات ضعيفة الحراسة أو غير مؤمنة بشكل حصين، فهي موزعة بين مواقع عسكرية ومدنية على حد سواء، ومنها موجود في منشآت مدنية كوقود في المفاعلات النووية البحثية. وما يسمى اليورانيوم عالي التخصيب المدني متوفر في منشآت محروسة

<sup>38</sup> Docudrama produced by, The Nuclear Threat Initiative on the danger of nuclearterrorism ,, Last Best Chance, Free DVD s can ordered at [www.lastbestchance.org/](http://www.lastbestchance.org/);2005

<sup>39</sup> كلارز ا. وفون هيبيل، "إحباط الارهاب النووي"، مجلة العلوم "ساينتفك امريكان"، المجلد 22، العددان 9/8، اوت/سبتمبر ، ص 46-53، الكويت، (2006).

بحمايات اقل من حماية المخازن العسكرية<sup>40</sup>. كان سقوط الاتحاد السوفيتي إيذانا بحدوث فوضى كبيرة، حول احتمالات تسرب اليورانيوم الى دول وجهات عدة، إضافة ان عمليات الجرد والتسليم والنقل لليورانيوم عالي التخصيب والمواد والمعدات النووية الاخرى التي رافقت انفصال الجمهوريات السوفيتية رافقتها فوضى كبيرة، ولا يستبعد تسرب كميات كبيرة من اليورانيوم الى دول اخرى. ولا احد خارج روسيا "وربما داخلها"، يعرف كمية المواد المسروقة.

ومن المعروف ايضا فان مجتمعات المفاعلات الروسية المزودة باليورانيوم عالي التخصيب تشكل ثلث عدد المفاعلات في العالم، ويوجد فيها ما يزيد عن نصف مجموع اليورانيوم العالي التخصيب. يكفي القول ان معهد روسيا لفيزياء وهندسة الطاقة في مدينة اوبنيسك **Obninsk** يوجد فيه أكبر مخزون من اليورانيوم العالي التخصيب مقارنة مع أي موقع للمفاعلات البحثية الأخرى في العالم، ويقدر بحوالي 8,7 طن، وهي في معظمها مواد متوافرة في عشرات الآلاف من الاقراص المغطاة بالالمنيوم والفولاذ المقاوم للصدأ، يبلغ قطرها نحو بوصتين، يضع الفنيون الاقراص في أعمدة تفصل بينها أقراص اخرى من اليورانيوم المنضب **depleted uranium** لكي تحاكي مختلف مستويات معدل تخصيب الوقود.

ولما كانت هذه العناصر لا تصدر الا مستويات منخفضة من الاشعاع فيمكن للفنيين تكديسها باليد. ولكن التأكد من عدم خروج شخص ومعه قرص منها يبقى هاجسا أمنيا حقيقيا<sup>41</sup>.

يرى الخبراء النوويون، ان لاحل أمام مثل هذه المشكلات النووية الا بزيادة الحراسات المشددة، أو اللجوء الى تخفيف تراكيز ودرجة تخصيب مئات الاطنان من اليورانيوم عالي

40 لا بد من الإشارة هنا ان وقود اليورانيوم في مفاعلات الطاقة النووية يكون مخصبا بقدر طفيف يراوح بين (3-5%) من وزنه من اليورانيوم 235، ويتوافر اكثر من 50 طنا من اليورانيوم عالي التخصيب في الاستعمال المدني حول العالم في اكثر من 140 مفاعلا تستعمل لاغراض البحث العلمي او المجالات الصناعية وفي انتاج النظائر المشعة اللازمة للاغراض الطبية والصناعية. وحتى 2005 قدر وجود 10 أطنان مترية من اليورانيوم عالي التخصيب" ( يحتوي على 90% من اليورانيوم 235) " الذي يمكن استعماله في صنع القنابل النووية متوافرا عند دول لا تملك أسلحة نووية، وهذه الكمية تكفي لصنع ما يراوح بين (150-200) متفجرة نووية. والى عام 2005.

41 كلارز ا. وفون هيبيل، "إحباط الارهاب النووي"، مجلة العلوم "ساينتفك امريكان"، المجلد 22، العددان 9/8، اوت/سبتمبر، ص 46-53، الكويت، (2006).

التخصيب ( يحتوي على 90% من اليورانيوم 235)،<sup>42</sup> ومنع تحويل وقود المفاعلات البحثية الى أسلحة نووية وتشجيع برنامج مفاعلات الابحاث والتجارب المقلصة للتخصيب لتحويل المفاعلات الامريكية التصميم بحيث يمكنها العمل بوساطة وقود اليورانيوم المنخفض التخصيب. *Reduced Enrichment for Research and Test Reactors (RERTR) program*. ومع نهاية 2005 يكون قد تم تحويل اكثر من 41 وحدة منها، حيث تقلصت كمية اليورانيوم عالي التخصيب الى 250 كغ في السنة. وسبق العمل نحو استبدال عشرات المفاعلات النووية لإستخدام وقود اليورانيوم منخفض التخصيب. وهذه الجهود تتطلب تحديات تقنية كبيرة.

ويجب ان يركز مجهود آخر على الوقود المستنفذ للمفاعل من اليورانيوم عالي التخصيب *spent HEU reactor fuel*، وعلى الرغم من استهلاك نصف كمية اليورانيوم 235 عبر تفاعل انشطار نووي تسلسلي داخل لب "قلب" المفاعل، فإن الوقود المستعمل يُنزع بعد مضي وقت معين، وتظل نسبة اليورانيوم 235 تشكل 80% من اليورانيوم المتبقي، أي التركيز ذاته المستعمل في الشحنة الذرية لقنبلة هيروشيما. يظل الوقود المستنفذ سنوات عديدة بعد نزعها من المفاعل في حماية ذاتية من السرقة، فهو مشع جداً؛ بحيث انه يميّت من يحاول التعامل معه في غضون ساعة من الزمن. ويعالج الفنيون النوويون هذه المادة بوسائل التحكم عن بُعد فحسب. وهم يحمون أنفسهم بدروع سميكة، حيث تقل شدة خطر الاشعاع مع الزمن، فبعد نحو 25 سنة تحدث الجرعة المميّتة، التي تصيب شخصا يتعامل عن قرب مع كتلة من وقود مفاعل بحثي تبلغ نحو 5 كغ، في غضون 5 ساعات عند نصف عدد الاشخاص المعرضين للاشعاع. وعند هذه المرحلة

<sup>42</sup> للحد من كمية اليورانيوم العالي التخصيب في روسيا والتي تتواجد في متناول اشخاص لا صلاحية لهم، انشأت الولايات المتحدة عام 1999 برنامج تجميع المواد وتحويلها لحيازة نحو 17 طناً من الفائض الروسي لليورانيوم عالي التخصيب المدني ثم مزجها. ومع حلول 2005 يكون قد تم تخفيف نحو سبعة اطنان الى مستويات 20% من محتواها من اليورانيوم 235.

يقر الخبراء الذين يوصون وكالة الطاقة الذرية الدولية، بأنه لا يمكن اعتبار الوقود ذاتي الحماية<sup>43</sup>.

ولاجل التغلب على خطر وقود اليورانيوم المستنفذ ذي التخصيب العالي في انحاء العالم دعت الولايات المتحدة عام 1996 على الدول الاجنبية التي سبق ان حصلت على اليورانيوم عالي التخصيب الامريكي الى استعادة نوعين من الوقود المستنفذ. وبعد ست سنوات توحدت جهود الولايات المتحدة وروسيا مع وكالة الطاقة الذرية الدولية لارجاع شحن وقود اليورانيوم العالي التخصيب والمستنفذ الى روسيا، ولكن التقدم في هذا المجال مازال متواضعا. فقد أُعيد الوقود المستنفذ، الذي يحتوي على نحو طن واحد من اليورانيوم عالي التخصيب الامريكي؛ في حين تظل نحو 10 أطنان منها خارج الولايات المتحدة الامريكية، كما أُعيدت 100 كغ من وقود اليورانيوم عالي التخصيب الصالح الى روسيا، وبقي طنين من اليورانيوم العالي التخصيب من الوقود الصالح او المستنفذ من أصل روسي مخزونا عند دول مختلفة، حيث يُخزَن وقود المفاعلات البحثية المستنفذ الذي اعيد في منشآت وكالة الطاقة الامريكية في ولايتي كارولينا الجنوبية وإيداهو، في حين تفصل روسيا اليورانيوم العالي التخصيب من الوقود المستنفذ ثم تمزجه لتشكيل الوقود المنخفض التخصيب الصالح للاستعمال في محطات الطاقة النووية<sup>44</sup>.

بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 كثفت الهيئات غير الحكومية وعدد من اعضاء مجلس الشيوخ الضغط على وكالة الطاقة الامريكية لكي تضاعف من جهودها في حماية مخزون اليورانيوم العالي التخصيب المدني عبر العالم. ويتم توسيع عدد من البرامج وتعجيلها، منها إعادة مجمل وقود اليورانيوم العالي التخصيب الصالح منه والمستنفذ من منشأ روسي بحلول عامي 2006 و 2010 على التوالي. وإعادة مجمل وقود اليورانيوم العالي التخصيب من منشأ أمريكي بحلول

<sup>43</sup> دوتش ومونيز، الخيار النووي، مجلة العلوم، المجلد 22 العددان 12/11 نوفمبر/ديسمبر ص 12-19، الكويت، (2006).

<sup>44</sup> اليورانيوم المنخفض التخصيب (LEU) Law Enriched Uranium يحتوي على اقل من 20% من اليورانيوم 235، ولا يمكن استعماله في الاسلحة.

عام 2019. ويتصور المخطط أيضا تحويل جميع مفاعلات الابحاث المدنية الامريكية الى وقود منخفض التخصيب بحلول عام 2014.<sup>45</sup>

وبشكل عام قدر احد خبراء وكالة الطاقة الذرية الدولية (IAEA) ان هناك اكثر من 85% من مجموع المفاعلات البحثية المتقدمة في العالم سُتُحال على التقاعد. ويجري التفكير جديا نحو شيوع استخدام المفاعلات النووية التي ستستعمل وقودا نوويا من اليورانيوم منخفض التخصيب نظرا للمزايا العديدة ولكن هذا الانتقال يتطلب تعديلات هندسية وتقنية عالية وهذا يرتبط اساسا بزيادة التخصيصات المالية لتعجيل تحويل تلك المفاعلات..

يرى بعض الخبراء ان الاعتمادات المالية في الولايات المتحدة لتنفيذ هذه المخططات تبقى زياداتها ضئيلة ومحدودة جدا (حوالي 70 مليون دولار في سنة 2005)، وتبقى ضئيلة وتافهة مقارنة مع تكلفة الحروب الامريكية في افغانستان والعراق والاموال المصروفة على بناء منظومة الدفاع الصاروخي في وسط أوروبا. وما يصرف على الحروب والامن، وما يسمى "الحرب على الارهاب" قد بلغت مئات المليارات من الدولارات. اما في روسيا فهو أسوأ بكثير، ويبدو ان الحكومة الروسية، غير معنية بالأمر وغير قلقة، إزاء ما يقال من حيازة الارهابيين لمواد نووية متفجرة، لكن المؤشرات تبين ان روسيا قد تعهدت بتحويل مفاعلاتها البحثية الى وقود اليورانيوم المنخفض التخصيب.

وفي ظل تصاعد حمى الحرب الباردة من جديد حول قضايا صربيا وجورجيا وبناء الدرع الصاروخي في بولندا ودول شرق اوربا التي تنظم تباعا الى الناتو فان جو الوفاق بين موسكو وواشنطن قد تراجع كثيرا. وإهم ملامح هذا التراجع تزايد ممانعة الادارة الروسية لبرامج تفوض زيارات الأجانب للمنشآت الروسية، خصوصا بعد تراجع تقديم مبالغ كانت الولايات المتحدة

<sup>45</sup> Frank Von Hippel in Science and Global Security, vol.12,No.3pp.137-164.(2004) Available at [www.princeton.edu/globsec/publication/pdf/von\\_Hippel\\_SGS\\_137\\_164\\_1.pdf](http://www.princeton.edu/globsec/publication/pdf/von_Hippel_SGS_137_164_1.pdf)

قدمتها لروسيا اوانها كانت تعد بدفعها عند الاستجابات الروسية للسياسة الامريكية كما حدث في سنوات التسعينيات من القرن الماضي ، عند غزو العراق وافغانستان وتقسيم يوغسلافيا.

#### 6-9: انهيار مؤتمر مراجعة معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية 2005 (NPT):

انتهى، في السابع والعشرين من ماي/آيار 2005، مؤتمر مراجعة معاهدة عدم انتشار السلاح النووي، الذي تم ترتيبه لتجميع الالتزام الدولي بخلق عالم خالي من السلاح النووي، إلى خرائب. وطبقا للدكتور محمد البرادعي، مدير وكالة الطاقة الذرية الدولية، وصف الانجاز: (أنجز التجمع "لأشياء ، بشكل مطلق). وأضاف: (نختتم أعمالنا بعد شهر من الضغائن... وتستمر نفس القضايا تحمق في عيوننا).<sup>46</sup> ومعاهدة منع انتشار السلاح النووي، الموقعة في الأصل عام 1968، دخلت حيز التنفيذ الجبري عام 1970، تورد أن الأمم الغير نووية سوف تتغافل عن تطوير أسلحة نووية، وأن الأمم النووية سوف تخلص نفسها من سلاحها النووي من خلال تدابير لنزع السلاح. تحدث مؤتمرات للمراجعة كل خمس سنوات، بترتيبات تضمن تلبية البلدان لشروط المعاهدة لمدة عقود. عملت المعاهدة بشكل جيد بدرجة معقولة. عام 1997، لم تمتلك بلدان إضافية أسلحة نووية، ومن خلال الرقابة على التسليح ومعاهدات نزع الأسلحة أو التصرفات أحادية الجانب، خفضت القوى النووية بشكل ملموس من أعداد الأسلحة النووية في مخازنها. إبان مؤتمر مراجعة معاهدة انتشار السلاح النووي عام 2000، اعترفت القوى النووية المعلنة بالتزامها "الذي لا لبس فيه"، بإنهاء التسليح النووي.

ولكن، منذ ذلك التاريخ، فإن مجلس الشيوخ الأمريكي، الذي سيطر عليه الجمهوريون، رفض التصديق على معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية (الذي تفاوض عليها ووقعها الرئيس بيل كلينتون)، وأصبحت الهند وباكستان قوى نووية، وسحبت إدارة الرئيس بوش الولايات المتحدة من معاهدة مكافحة الصواريخ الباليستية، واندفعت قدما بنشر نظام الدفاع الوطني

<sup>46</sup> لورنس س ويتنر History News Network؛ 29 مايو 2005. لورنس س ويتنر History News Network؛ 29 مايو 2005. لورنس ويتنر هو أستاذ التاريخ بجامعة نيويورك لولاية ألبراني. كتابه الأخير هو "نحو إلغاء التسليح النووي": تاريخ حركة نزع السلاح النووي العالمية، 1971 حتى الحاضر (مطبعة جامعة ستانفورد) عدة صفحات.

للسواريخ (نسخة من يوم آخر من " حرب النجوم" )، وأسقطت مفاوضات نزع السلاح النووي، واقترحت تطوير أسلحة نووية جديدة للولايات المتحدة. أكثر من ذلك، أمتان جديدتان ربما تسعيان الآن إلى اكتساب قدرات لتطوير أسلحة نووية هما: كوريا الشمالية، (كما تدعي هي)، وإيران (التي تدعي ، أنها لا تدعي).

إنحلال معاهدة عدم انتشار السلاح النووي مسألة خطيرة، أصبحت نقطة بؤرية لجدال لاذع بين وفود 188 أمة في مؤتمر مراجعة عدم انتشار النووي، الذي افتتح في الثاني من مايو من العام الماضي، بالأمم المتحدة.

ضربت الأمم غيرالنووية بحدة على وتر فشل القوى النووية، وخصوصا الولايات المتحدة، لحفظ شرف التزاماتها بنزع السلاح النووي. أكثر من ذلك، فإن عددا من البلدان، تقودهم مصر وإيران، طالبت القوى النووية أن تتعهد بأنها لن تهاجم أبدا بلدانا غير نووية، وأن تصدق واشنطن على معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية.<sup>47</sup>

في المقابل، سعت حكومة الولايات المتحدة على تسليط الضوء على السعي المزعوم لكوريا الشمالية وإيران ليصبحا قوتان نوويتان. وفي أحد الخطب الافتتاحية للمؤتمر، إتهم نائب مساعد وزير الخارجية الأمريكية "أندرو سيميل" أيضا الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالفشل في وضع تقارير عن عدم التزام إيران بالمعاهدة وتقديمها إلى مجلس الأمن للأمم المتحدة. في نفس الوقت، اتخذ المسؤولون الأمريكيون موقفا في الجدل بأن الولايات المتحدة كانت متوافقة مع متطلبات المعاهدة.

العديد من حلفاء واشنطن التقليديين وجدوا أن موقف الولايات المتحدة غير مقنع. " بول ماير"، الممثل الكندي في المؤتمر، قال عدة ملاحظات بشكل وعبر عنها بشكل مرير، مشيرا بوضوح إلى إدارة بوش: ( لو تغافلت الحكومات ببساطة أو تخلت عن التزاماتها ،حينما يثبت لهم أن هذه الالتزامات غير مريحة لهم، لن نكون قادرين أبدا على بناء صرح للتعاون الدولي).

دمرت مصداقية الولايات المتحدة بصورة أكبر بقرار إدارة بوش إرسال مسئولين بمستوى تمثيل منخفض، بدلا من وزيرة الخارجية "كوندوليسا رايس" لتمثيلها في المؤتمر. طبقا للمراقبين، هذا الموظف الصغير مثل محاولة لتخفيض أهمية ومغزى مؤتمر المراجعة، وبالتالي، إسكات الانتقاد الذي قد ينشب هناك من استهانة الولايات المتحدة بنزع السلاح النووي، أو على الأقل نزع سلاح الولايات المتحدة النووي.

كان الإنتقاد لدور الولايات المتحدة في المؤتمر حادا على نحو خاص بين جماعات السلام ونزع السلاح. (كان لدى الولايات المتحدة أربعة أسابيع لإظهار زعامتها الدولية في نشر السلاح النووي)، كان هذا تعقيب "سوسي سنايدر"، السكرتير العام لعصبة النساء الدولية من أجل السلام والحرية. ( بوضوح، وفد الولايات المتحدة لم يكن يريد أبدا تدعيم المعاهدة. بدلا من ذلك، لقد أمضوا أربعة أسابيع... يرفضون الاعتراف بمعاهدة صنعوها من 5 و10 سنوات مضت). وطبقا لـ "ألين وير" من لجنة محامي السياسة النووية، كان أمرا: ( مستحيلا منع" انتشار السلاح النووي"، بينما الدول التي تحوز على الأسلحة النووية تصر على الاحتفاظ بمخزون هائل من الأسلحة النووية لأنفسهم). لقد كان الأمر (مثل والد يطلب من طفله ألا يدخن بينما يدخن علبة سجائر كاملة)<sup>48</sup>. مع الأخذ في الاعتبار الطبيعة التي تهزم نفسها لسياسة الولايات المتحدة النووية، لماذا تتعلق إدارة بوش بهذه السياسة بهذا الشكل العنيد جدا؟ لماذا إذا رفضت بازدياد جهود ليس فقط المجتمع الدولي ولكن حتى جهود أقرب حلفاء حكومة الولايات المتحدة لتدعيم معاهدة عدم انتشار السلاح النووي واستمرار تقدمها نحو عالم خال من السلاح النووي؟

أحد التفسيرات المحتملة هو أن إدارة بوش تعتقد أن لديها الطاقات العسكرية لتلجيم الأمم النووية الحالية ولتدمير الأمم المعادية التي قد توشك على أن تصير قوة نووية. مثلا، لو استمرت إيران في إنتاج المادة الانشطارية، سوف تشن الولايات المتحدة ببساطة هجوما عسكريا شاملا

<sup>48</sup> لورنس س ويتنر [History News Network](http://www.historynewsnetwork.com)؛ 29 مايو 2005. لورنس س ويتنر [History News Network](http://www.historynewsnetwork.com)؛ 29 مايو 2005. لورنس ويتنر هو أستاذ التاريخ بجامعة نيويورك لولاية ألباري. كتابه الأخير هو نحو إلغاء التسليح النووي: تاريخ حركة نزع السلاح النووي العالمية، 1971 حتى الحاضر (مطبعة جامعة ستانفورد).

على المنشآت النووية الإيرانية. لذلك، ترى إدارة بوش عدم حاجة لتأكيد استمرار المقايضة بين القوى النووية والغير نووية التي قامت منذ عقود مضت من خلال معاهدة عدم انتشار السلاح النووي. كما يقول مسئولو إدارة بوش بشكل متكرر، الظروف في العالم قد تغيرت، وسياسة الولايات المتحدة سوف تتغير معها.

التفسير المحتمل الثاني، الذي لا يستبعد التفسير الأول، هو أن إدارة بوش على وشك أن تكون جاهزة لاستخدام السلاح النووي في حروب المستقبل. رغم الميزة الكاسحة التي تتمتع بها حكومة الولايات المتحدة على باقي الأمم الأخرى في القوات العسكرية التقليدية، تلك القوات الأمريكية هي الآن أصبحت مستنفذة بشكل يتجاوز الطاقة لمحاربة التمرد في بلد صغير مثل العراق. أكثر من ذلك، إرسال أعداد ملموسة من قوات الصراع الأمريكية وراء البحار هو أمر مكلف للغاية، وموتهم بأعداد كبيرة يدمر التأييد السياسي للحرب – كما يفعل الآن. في هذا السياق، تطوير واستخدام السلاح النووي للمحافظة على استمرار ما تحده إدارة بوش على أنه "مصالح وطنية" للولايات المتحدة، يبدو منطقيا تماما لمديري الأمن القومي في الولايات المتحدة. بشكل رهيب، تعتبر الأسلحة النووية الجديدة التي تطلب إدارة بوش من الكونجرس تمويلها تعتبر أسلحة نووية "قابلة للاستخدام": ما تسمى "القنبلة النووية البيبي" أو "مقتل الأوغاد" - ("mini"-nukes) و("bunker busters").<sup>49</sup> كنتيجة، إنهار مؤتمر المراجعة لمعاهدة منع انتشار السلاح النووي لعام 2005 والسياسات النووية المتشددة لإدارة بوش التي ساهمت بها في المؤتمر قد نسفا بشكل خطير إرادة الأمم للتخلص من السلاح النووي.

فعلا، هذه العوامل يبدو أنها تعيد أمم العالم مرة أخرى إلى حلبة التسابق من أجل التسلح النووي، وربما، على الطريق نحو حرب نووية. بالطبع، الاحتجاج الجماهيري والتصرف الحكيم لرجال الدولة قد تغلبا على حالات مثل هذه فيما سبق، وربما يفعلون ذلك مرة أخرى اليوم. ولكن،

<sup>49</sup> لورنس س ويتنر History News Network؛ 29 مايو 2005. [لورنس س ويتنر History News Network؛ 29 مايو 2005. لورنس ويتنر هو أستاذ التاريخ بجامعة نيويورك لولاية ألباني. كتابه الأخير هو نحو إلغاء التسلح النووي: تاريخ حركة نزع السلاح النووي العالمية، 1971 حتى الحاضر (مطبعة جامعة ستانفورد).

في نفس الوقت، يجب أن ندرك أن التهرب من الالتزام بنزع السلاح والتدهور باستمرار نحو تطوير الأسلحة النووية واستخدامها هي وصفة أكيدة ونارية من أجل الكارثة حتى لو تسرعت لجنة نوبل للسلام بمنح الرئيس الأمريكي اوباما جائزتها للسلام خريف عام 2009.

#### 10-6: الأسلحة الكيماوية:

ينسب الى الاسبارطيين خلال حصار بلاتيا وفيليم (431 - 401) قبل الميلاد انهم أول من استخدم الأسلحة الكيماوية، خاصة الدخان السام أو المهيج لاختراع المدينتين بواسطة دخان الكبريت. كما عرفت استخدامات لانواع مختلفة من سحب الغاز السامة قبل ظهور الصناعات الكيماوية. وعرضت خلال حرب القرم اسلحة كيماوية أخرى مثل الزرنيخيات العضوية **Organoarsnical** والقذائف الفوسفورية، وسحب كلوريد الهيدروجين وقنابل زجاجية تحتوي الزرنيخ خلال الحرب الاهلية الامريكية.

ورغم ان أيا من هذه الافكار لم ينفذ على نطاق واسع؛(ماعدا حادثة إحتلال الاغواط في الجزائر)، الا ان مواضيع الاسلحة السامة والخانقة قد طرحت بوضوح وقلق من مخاطرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في مؤتمرات السلام للاعوام 1868، و 1874، و 1899 ما بين الدول الاوربية والولايات المتحدة. وفي مؤتمر هوغو للسلام عام 1899 تم الاتفاق على قواعد وقيود حول السلوك في الحرب. الجدير بالذكر هنا ان أكدت جميع الدول الرئيسية المشاركة في المؤتمر، باستثناء بريطانيا والولايات المتحدة على انها: (...ستمتنع عن استخدام القذائف التي يقتصر الهدف منها نشر الغازات الخانقة والمؤذية) .

وهكذا ومنذ قرابة قرن وموضوع الاسلحة الكيماوية لا يعكس بغض الانسانية لها فحسب؛ بل ايضا الإحباط الناجم عن حضرها ووقف إنتاجها، وعن امكانية انتشارها على نطاق واسع، وصعوبة التحقق من وجودها<sup>50</sup> ؛ فهي الاسلحة الموصوفة: "البشعة" و " البغيضة" ، وهي

<sup>50</sup> اذا حامت الشكوك حول احتمال استخدام الاسلحة الكيماوية السامة، فان من الصعوبة بمكان تأكيد تلك المزاعم والعمليات العسكرية التي تستخدم فيها الغازات نادرا ما يتم الاعلان عنها ويمكن ملاحظتها بشكل مستقل.

"أسلحة دمار شامل" بكل معنى الكلمة بما لها من آثار تدميرية تمس ضحاياها من دون تمييز، وتعمل على تفويض الجسم من داخله. وبدلاً من استخدام الكيمياء لفائدة وعلاج الإنسان أضحت قاتلة ومدمرة له. من الناحية النظرية، يمكن استخدام الكيمياويات السامة، والتي لا حصر للانواع الموجودة منها، لانجاز العديد من المهام الحربية والعدائية، فبعضها معطل فقط، وبعضها يعطل ويقتل، والبعض الآخر مهيج، ومنها ماله تأثير مؤقت. ويستطيع بعضها أن يلوث منطقة ما لبضعة ساعات أو أيام، الى عدة أسابيع.

وهي قادرة على ايقاع الاصابات في مساحات واسعة، وبإمكان الاسلحة الكيماوية ان تلاحق القوات التي تشتت نفسها في محاولة لتجنب هجوم نووي، او الاهداف الصغيرة التي لا تُعرف مواقعها بالتحديد، فهي اسلحة ملاحقة، تستطيع اختراق الملاجئ، والابنية، والخنادق، وغيرها من التحصينات، وخلافا للمتفجرات، تستطيع سُحب غازات الاعصاب ان تُفاجئ العدو بهجوم غير مباشر (أي باطلاق العوامل الكيماوية في منطقة وتركها تنساب مع الريح الى موقعه). واذ ما أُطلقت الاسلحة الكيماوية في أعتدة ودخائر نحو الهدف، فانها يمكن ان تمد سحابة منها فوق الخصم في فترة تتراوح ما بين (15 - 30) ثانية، ويمكن ان تتراكم وتتضاعف الاصابات بسببها اذا لم يفتن الخصم لها. وهي "كالاسلحة النيوترونية" تُتيح لمستخدميها إبادة العدو أو إعاقته من دون الاضرار بالمنشآت الاقتصادية الحيوية أو الاهداف العسكرية مثل الجسور، المصانع، الموانئ، والسكك الحديدية والمطارات التي يمكن الاستفادة منها بعد الحرب او الهجوم. والاهم من ذلك فان الاسلحة الكيماوية تبث رعباً، يفوق ما تبثه الاسلحة التقليدية، فتحط من معنويات الوحدات المقاتلة في حالة الشك بوقوع هجمة كيماوية.<sup>51</sup>

يكتنف الغموض أية تقديرات عن مخزون ومدى انتشار الاسلحة الكيماوية سواء كمعدات حربية او وسائل ردع ، كونها محاطة بدرجة عالية من السرية والتكتم.

51 سبيرز ادوارد م. ، " الحرب الكيماوية" المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ، ط1، ، ص 7. بيروت، (1991).

## 6-11: أنواع الاسلحة الكيميائية:

### أولاً: - العوامل الكيميائية المهيجة او المعوقة Harassing Agent

غالباً ما تنتشر على شكل دخان، وتتميز بمفعولها الفوري، وعدم الاستمرارية والتأثير الذي لايدوم طويلاً، مقارنة مع غيرها من العوامل. وهذه العوامل لا تكون قاتلة الا اذا ما أُستخدمت بكميات عالية التركيز. وهي تحدث انواعاً من الاحاسيس المهيجة.

بعضها مهيج للعيون (المسيلة للدموع **Lachrymators**)، وبعضها يثير نوبات من العطس والسعال (المعطسة **Sternutators**)، وبعضها يثير الحساسية والحكة او الوخز (**Orticants**)، ويتسبب بعضها، اذا ما أُبتلع، في نوبات حادة متلاحقة من الاستفراغ. والمهيجات الرئيسية تثير جميع هذه الاحاسيس بدرجات مختلفة، فغاز كلوروأسيتوفينون **Chloro Acetophenone** "CN" هو النوع الكلاسيكي من الغازات المسيلة للدموع.

كما ان هناك غاز "الادماسايت" **Admasite "DM"**، الذي تم تطويره ايضاً في عام 1918م. يعمل ببطء اكثر من غاز CN؛ ألا انه اقوى مفعولاً، ويسبب اضافة الى السعال وانهمار الدموع واوجاع شديدة في الرأس والغثيان والعطس والاستفراغ. أما غاز كلوروبنزالمالونونتريل - **Chloro Benzalmalononitrile "CS"** فهو أكثر فاعلية من الغازين السابقين، تم تطويره في بورتون داون في الخمسينيات من القرن الماضي. قلة من الاشخاص تستطيع تحمل الاعراض التي يحدثها تركيز يزيد عن 2 مغ في المتر المكعب، علماً بأن التعرض لهذا الغاز بأكثر من 10 مغ في المتر المكعب مُهلكاً.

وقد استخدمت العوامل المهيجة او المعوقة على نطاق واسع خلال حرب فيتنام. ولا يُستبعد استعمالها على نطاق واسع في الاراضي الفلسطينية المحتلة. ومن غير المحتمل استخدام أي منها

باستثناء CN في حرب كبرى بين قوات حسنة التدريب ومجهزة بأقنعة حديثة مضادة للغازات<sup>52</sup>.

### ثانياً: العوامل الكيميائية المُعطلّة : Incapacitating Agent

تمارس تأثيراتها على عقل ضحاياها وأجسادهم، مُسببة الذهول، والاضطرابات العقلية، والنعاس، وعدم القدرة على التركيز. ولا يمكن التنبؤ بمدّة تأثيرها، ولكنه يمكن ان تدوم تأثيراتها لساعات أو أيام بعد التعرض لها.

ومن هذه العوامل غاز " BZ " والذي صنف ذات مرة كغاز أمريكي للحرب الكيماوية. وهو يُحفظ في حالة الصلابة، ويمكن إطلاقه على شكل رذاذ، ويبدأ مفعوله بعد حوالي نصف ساعة، ويسبب الهلوسة، وعدم القدرة على التركيز، وتصرفات اخرى لا يمكن التنبؤ بها، تبلغ ذروتها بعد فترة تتراوح ما بين اربع الى ثمان ساعات، وتستمر لمدة اربعة أيام. ورغم ان تأثيرات غاز "BZ" مؤقتة فلا يمكن التنبؤ بها. والضحايا الذين قد يتجرعون كميات ضئيلة منه قد يتصرفون بشكل عشوائي، قد يصل الى حد الهوس أو الجنون قبل ان يعودوا تدريجيا الى حالتهم الطبيعية.

ثالثاً: الغازات القتالية: وهي الأهم للاغراض العسكرية، والغازات الكلاسيكية للحرب الكيماوية هي، الغازات الخانقة والمسببة للبتور، وقد استخدمت على نطاق واسع في الحرب العالمية الاولى، فالكورين وغاز الفوسجين الأشد سُمية يسببان تهيج الرئة، وبذلك تسمح بدخول كميات متزايدة من السوائل الى الرئتين من الدم المتدفق عن طريق الدورة الدموية. وفي حالة الاصابة الشديدة تموت الضحية اختناقاً، وتغرق في بلازما دمها هي شخصياً. ومن غير المحتمل استخدام هذه العوامل في حرب حديثة؛ لأن درجة السمية فيها منخفضة، حسب المقاييس المعاصرة، كما ان رائحتها تُنذر بوجودها، مما يسمح بوضع أقنعة الغاز قبل تجرع كميات قاتلة منها. والغازات المسببة للبتور أكثر فاعلية في إحداث الإصابات، وهي قادرة على إيذاء أي نسيج في الجسم. وتؤدي بشكل خاص العيون والجلد، مُسببة الحروق، والقروح، وحتى العمى المؤقت، الذي قد يستمر لمدة اسبوع أو أكثر. وحيث أنها غير متطايرة، فإنها يمكن ان تدوم في الميدان

52 سبيرز ادوارد م. ، مرجع سابق ، ص 9.

لفترة طويلة، محتفظة بفاعليتها لعدة ايام وأسابيع بعد نثرها. وفي حالة تركيزها بقدر كاف، فانها قاتلة اذا ما جرى امتصاصها عن طريق الجلد. وإذا ما كانت مُتطايرة بقدر كاف، فانها تكون قاتلة اذا ما ابتلعت. هناك فصيلتان رئيسيتان من مسببات البثور وهما : الزرنيخيات (اللوزايت وثنائي الكلوراسين)، والخردليات. يعتبر اللوزايت عند ابتلاعه، أكثر سمية بقدر بسيط من الخردل المقطر "HD". ويعمل كسُم شامل للجسم كله اذا ما امتص من خلال الانسجة. تنتشر الزرنيخيات روائح مميزة وتُسبب آلاما فورية في العين، وهي بمثابة إنذار بوجودها.

يبث الخردل رائحة أقل، خاصة الانواع التي انتجت بوسائل طورت خلال الحرب العالمية الثانية. وهو بطيء التحلل بالماء، ويمكنه اختراق الجلد والقماش والبلاستيك ومواد اخرى بسهولة. ولكونه غازا يسمم الخلايا بشكل عام، فهو يتسلل الى الجسم، ويعمل على شكل سائل او بخار خطر، وتظهر اولى الاعراض على المصاب بعد(4 - 6) ساعات. ولما كان الخردل النقي يتجمد عند درجة 57 فهرنهايت، لذا فبالإمكان خلطه مع مسببات بثور اخرى مثل اللوزايت والعامل T لتسهيل نثره في الاجواء الباردة.

ومن مخلفات اسلحة الحرب العالمية الاولى ايضا، غازات الدم، سيانيد الهيدروجين، كلوريد السيانوجين. ومن الاسلحة الكيماوية التي يمكن ان تضاهي غاز الخردل أو سيانيد الهيدروجين مركبات الاورجانوفوسفورس **Organophosphorus** المعروفة باسم غازات الاعصاب. أول هذه المركبات هو التابون ، أُكتشف عام 1936م من قبل العالم الالمانى الدكتور "جيرهارد شريدار" اثناء بحثه عن مُبيد حشري جديد. وما ان حل افريل/نيسان من عام 1945 حتى كان الالمان قد أنتجوا ما يقارب 12 ألف طن من غاز التابون ، تم اخفائها عن الحلفاء.

ووقتها، بدأ الالمان ايضا أبحاثهم على نوعين من أقوى غازات الاعصاب: السارين والسومان، المعروفان باسم العاملين G . وهذان العاملان يخزنان على شكل سائل، ويمكن إطلاقهما على شكل سحب من البخار أو على شكل رشات من الرذاذ، وهما عمليا لا لون لهما ولا

رائحة، ويمكنهما النفاذ الى الجسم اما بإبتلاعهما عن طريق الفم أو الانف أو إمتصاصهما من خلال الجلد.

وهذه العوامل تتفاعل مع عدة انزيمات داخل الجسم؛ ألا انها تتفاعل بشكل رئيسي مع الاستيل كولين استراز **Acetyl cholin esterase** ، وهو أنزيم مسؤول عن تدمير الاستيل كولين **Acetylcholine** بعد ان تكون قد انجزت وظيفتها في بث المراسيل العصبية. وبمنع نشاط هذا الانزيم تُفقد السيطرة على الجزء المصاب من الجهاز العصبي. ويتراكم الاستيل كولين، وهو سم قوي، بسرعة. وتسبب جرعات ضئيلة من هذا الغاز سيلان الانف، وانقباض الصدر، وعشي البصر، وضيق بؤبؤ العين. وإذا كانت الجرعة أكبر فإن الأعراض تتقدم بشكل اسرع من خلال صعوبة التنفس والغثيان والاستفراغ والتبول والتغوط اللا إراديين، والرعدة وأوجاع الرأس والتشنج ثم الموت " عادة على إثر توقف التنفس". أما الجرعة القاتلة فتقتل خلال 15 دقيقة اذا ما ابتلعت. أما إذا امتصت من خلال الجلد، فقد لا تقتل قبل مرور ساعة او ساعتين. والضحايا الذين يتعرضون لجرعات غير قاتلة من المحتمل أن يشفوا تماما خلال بضعة أيام. ومع ذلك فإن الذين يتعرضون لفترات طويلة من التشنج قد يعانون من تلف في الدماغ لا يمكن شفاؤه بعدها.

وتعتبر الغازات من النوع **V** أكثر سمية من العاملين **G**. اكتشفت في بريطانيا خلال الخمسينيات من القرن الماضي. ويتم تخزين العامل **XV** كسلاح كيميائي حربي. ويمكن نشره على شكل رشات خطيرة عند ملامستها الجلد المكشوف. ويمكنه تلويث سطح الارض والأسطح الأخرى. وهذا الغاز **XV** يُمكن أن يُعطل بحدود التركيز 5 مغ/دقيقة. متر مكعب. ويقتل بحدود التركيز 15 مغ/للشخص. ويمكنه اختراق ملابس الميدان الصيفية والاحذية (حوالي 100 مغ/للشخص)، واذا ما نثر بواقع 300 كغ للكيلو متر المربع الواحد فإن غاز **XV** يمكن ان يُشكل خطرا قاتلا مستمرا لمدة عدة اسابيع أو أيام، وحسب حالة الطقس.

ان غازات الاعصاب في الترسانة الامريكية هي غاز السارين و **XV** ؛ في حين كان السوفيت يعتمدون على اربعة انواع، خاصة غاز السومان، الذي تماثل درجة تطايره درجة تطاير

غاز السارين. كما ان هناك عامل اطول أثرا هو VR-55 والذي قد يكون غاز سومان كُثف بواسطة بولميرات صناعية.

هناك مجموعة من التوكسينات Toxins (هي مواد كيميائية سامة تنتجها عادة احياء بيولوجية)، وهي اقوى فاعلية من غازات الاعصاب، منها مثلا: ستافيلوكوكال انترتوكسين ب *Staphylococcal Enterotoxin B* الذي ينتج عن المكورات العنقودية *Staphylococcal* المسممة للغذاء. والساكسيتوكين *Saxitoxin* (تُسمم المحار المسبب للشلل)، والبوتولينال توكسين *Botulinatoxin A* (أحد اخبث السموم المعروفة للانسان).

منع تطوير وانتاج وتخزين هذه الاسلحة بموجب اتفاقية الاسلحة البيولوجية والسمية (كما ان استخدامها ممنوع بموجب بروتوكول جنيف). رغم ذلك المنع، فقد أثارت المزارع عن استخدام التوكسين، حتى الانواع الاقل تأثيرا منه مثل ثلاثي كوشين التوكسين الفطري *Trichothecene* *Mycotoxin* في افغانستان وجنوب شرق آسيا معارضة دولية شديدة.

#### 6-12: أهم حالات استخدام الاسلحة الكيميائية :

أولا : ينسب الى الاسبارطيين خلال حصار بلاتيا وفيليم (431 - 401) قبل الميلاد، انهم اول من استخدم الأسلحة الكيميائية، خاصة الدخان السام او المهيج لاختضاع المدينتين لواسطة دخان الكبريت. كما عرفت استخدامات لانواع مختلفة من سحب الغاز السامة قبل ظهور الصناعات الكيميائية.

ثانيا: في ديسمبر من عام 1852 قُتل ثلثي سكان مدينة الاغواط الجزائرية خنقا بعد قصف القوات الفرنسية لهم بغازات سامة، مستغلة اتجاه الريح نحو المدينة، على الأرجح كان بخار الكلوروفورم وبعض "الغازات الخانقة". وبذلك سجلت قوات فرنسا الاستعمارية السبق الاول في التاريخ، بقصف المدنيين الابرياء بهذا النوع من الاسلحة الكيميائية.<sup>53</sup>

53 العبودي عبد الكاظم ، ملف لاسبوعية القادسية العدد 48. كذلك بحث مقدم الى المركز الوطني للدراسات التاريخية لثورة نوفمبر والحركة الوطنية، تحت الاعداد ضمن مشروع بحث حول الاسلحة المحرمة دوليا في الفترة الاستعمارية.

ثالثا: وفي عام 1912م طور الفرنسيون اول سلاح كيميائي عملي، وهو عبارة عن قنبلة يدوية تحتوي على برومو اسيتات الايثل، وهو غاز خانق متوسط الفعالية ومسيل للدموع غير سام، استخدمته الشرطة الفرنسية ابتداء من العام 1912، وما ان حل اوت/آب 1914 حتى كان لدى الجيش الفرنسي حوالي 30 ألف قذيفة من عيار 26 مم معبأة بذلك السائل، يبلغ وزنها حوالي نصف رطل "225 غ" ويمكن اطلاقها من بنادق خاصة. اما القنابل اليدوية التي تحتوي السائل ذاته، فسرعان ما طورت واستخدمت في قاطع الارجون في مارس/آذار 1915.

#### رابعا : الحرب الكيميائية: (1914 - 1918) :

استخدم ما مجموعه 124200 طن من الغازات السامة في ميدان المعركة خلال الحرب العالمية الاولى، مقارنة مع انفاق 2 مليون طن من المتفجرات شديدة الانفجار، و 50 مليار طلقة من ذخائر الاسلحة الصغيرة. ورغم ان كمية المواد الكيميائية التي استخدمت تبدو كمية صغيرة لكن الغاز كان سلاحا فتاكا جديدا. تصاعدت في الاستخدام مع تطور سنوات الحرب واستعملت منها الاسلحة المهيجة (المسيلة للدموع والمعطسة) و الغازات القاتلة (الكورين، الفوسجين). وبعدها الخردل التي اصبحت اداة الحرب الكيميائية. ظهرت نشكليات الحرب الكيميائية في مختلف الجيوش ودعمت الحكومات الابحاث المكثفة وتطوير الوسائل.

وفي عصر 22 أبريل من عام 1915 وقف جنود فرنسيون، كانت غالبيتهم من الجزائريين المسلمين المجندين في الجيش الفرنسي، في خنادقهم القريبة من إيبريس Ypres ببلجيكا وهم يرقبون السحابة الغريبة الصفراء المائلة للخضرة وهي تزحف نحوهم. كوفئ العالم هابر ليكون مديرا لمعهد القيصر ويلعلم في برلين، لا لإنتاجه بطريقة تصنيعية انتاج الامونيا فحسب؛ بل لحماسته الوطنية، فهو الذي قدم اقتراحا بإنتاج غاز الكلور الذي استخدم في أول هجوم كيميائي بواسطة الالمان في 1915/4/22. وكان السلاح الكيميائي الجديد عبارة عن عبوات الكلور المعبأة في مصانع فاربن I.G. في الخنادق، وغطيت بأكياس من نسيج نباتي نصف متفحم مشربة في محلول البوتاسا الكاوية لتمتص أي تسرب للغاز، كان مقدر الهجوم لن يبدأ قبل ذلك التاريخ،

غير ان الرياح لم تكن مواتية، وعندما أصبح اتجاه الرياح مواتيا اطلق القناصة النار على العبوات، فانبعثت سحابة كثيفة خضراء اللون أخذت تزحف من الخطوط الالمانية باتجاه اعدائهم<sup>54</sup>.

كانت القوات الالمانية بمواجهة القوات الفرنسية والانجليزية والكندية في مواقع تبعد عن موقعهم مئات الياردات، وعندما حانت اللحظة المواتية أطلقت عليهم غاز الكلور من 6000 إسطوانة مستغلة اتجاه الرياح نحو الخطوط العسكرية الفرنسية. وأخذ الغاز في التحرك وينتشر بالقرب من سطح الارض، حتى أحاط خلال دقائق بخنادق الجنود " كان اغلبهم من المجندين حديثا وغير محترفين " الذين اضطرت انفسهم واخذ الزبد في التدفق من أفواههم المفتوحة.

(... القتنا المفاجأة والفضول على الارض بشدة، ولم يكن أحد منا يعرف ما الذي يدور بالضبط كانت سحابة الدخان تزداد كثافة، مما جعلنا نعتقد ان هناك حريقا في الخنادق الالمانية).<sup>55</sup> يشير الكتاب الاوربيون<sup>56</sup> الى الحادثة بالشكل التالي: "اصاب الغاز اول الامر فريقا من الزواف، وهي قبائل افريقية من افريقيا الفرنسية (وهم جزائريون وليس غيرهم)، وقد وصف الكابتن بولارد الوضع": (... سقط المئات منهم، وماتوا اثناء ركضهم الاعمى في سحابة الغاز، وقد اطبق على صدورهم.. بينما رقد آخرون عاجزين عن أي شيء، مصابين بنوبات من القئ على فترات قصيرة وماتوا بعد ذلك)<sup>57</sup>.

وكان مما جاء في وصف الحالة: " انهم كانوا يتلون على الارض من فرط الالام التي يعجز اللسان عن وصفها، وقد كست وجوههم حمرة داكنة ويصقون دماء رئاتهم المعذبة"<sup>58</sup>. ان هذه الحادثة تسجلها وثائق الحروب والاسلحة باعتبارها الاولى من نوعها باستخدام مادة كيميائية

<sup>54</sup> كاتي توب، ابداعات النار، تاريخ الكيمياء المثير من السيميائ الى العصر الذري، عالم المعرفة العدد 266، ص328، الكويت، (2001).

<sup>55</sup> Sterling Seagrave,,yellow Rain, (Evans,),p.42,From Yellow Rain1981 by Sterling Seagrave. Reprinting by permission of the publisher,M.Evans and Company,Inc: NewYork,1981

<sup>56</sup> كاتي كوب، ابداعات النار، مرجع سابق، ص 329.

<sup>57</sup> Sterling Seagrave,,yellow Rain, (Evans,),p.43,From Yellow Rain1981 by Sterling Seagrave. Reprinting by permission of the publisher,M.Evans and Company,In NewYork,1981

<sup>58</sup> كول ليونارد ، مرجع سابق ، ص23.

"الغاز" كسلاح ابادة جماعية ويتناسى حادثة الاغواط 1852 التي حدثت قبلها بستين عام. مع الفارق ان الاولى كانت قد استخدمت من قبل قوات جيش غازي اوريبي جاء غازيا من قارة الى اخرى، والأخرى جرت بين متحاربين أوربيين ينتمون الى قارة واحدة.

هذه هي اذن اولى تطبيقات العالم الالمانى هابر في أنه أصل الحرب الكيماوية على البشر، كانت الصدمة ان زوجته الاولى، وهي كيميائية ايضا، أقدمت على الانتحار سنة 1915 احتجاجا على استخدام الغازات السامة، لكن جائزة نوبل في الكيمياء كانت من نصيبه اعترافا بابحاثه لتصنيع الامونيا. وقد قوبل هذا المنح بمعارضة شديدة، لكن لا احد قد أثار قضايا جرائم حرب ضد هابر. اما التجربة الروسية في الحرب العالمية الاولى فكانت رهيبة: (لحقت بالروس 475340 إصابة بالغاز، مات منهم حوالي 56 000 شخص).

اختار الفرنسيون غاز الفوسجين ليحل محل الكلور، "وهو مركب مكلور" مثير للجهاز التنفسي بقسوة، ويحدث أضرارا بالغة واحتقانا بالرئتين، وذلك في فيردون، في فبراير 1916، وقد رد الالمان في يوليو 1917 بغز كبريتيد ثنائي كلوروثنائي الايثيل، او غاز الخردل، الذي يسبب القروح والبثور ويهاجم كلا من الجلد والرئتين، ولا تنفع معه اقنعة الغازات "الكمامات" الواقية. وفي المرة الاولى إعتقد الجنود خطأ أن الغاز لن يؤثر في العينين، لذلك استخدموا مواسك لاغلاق الانف، وقطعا من القماش لوقاية الفم، الا انهم وجدوا انفسهم قد اصابوا بالعمى وبتقرحات شديدة تحت الابط وبين الساقين. وتسبب القروح الداخلية الانتفاخ والورم، وهي أشياء لا تقل عن مخاطر القتل؛ فالاصابات لم تكن تشل الجنود فقط؛ ولكنها كانت تجعل الاشخاص المسؤولين عن النقل والعلاج غير قادرين عن تقديم المساعدة للضحايا الاخرين.

ومع استمرار الحرب ادخل الالمان غاز الخردل **Mustard Gas** سنة 1917. وغاز الخردل لا يؤثر على الرئتين فقط؛ بل وعلى الجسم كله، اذ كان الجنود يصابون بالعمى وتظهر على

جلودهم البثور المائية المؤلمة رغم ارتدائهم الملابس الواقية. والبعض منهم يموت والبعض الآخر يصاب بعاهات مستديمة<sup>59</sup>.

### 6-13: الإبادة بالأسلحة الكيماوية في الجزائر:

قبل ألمانيا مورست الإبادة بالحرق بغرف الغاز استعملتها فرنسا في الجزائر بمجازر الحرق

#### البشري في المغارات والكهوف:

منذ أن صادق البرلمان الفرنسي سنة 1999 على قانون عوض فيه مجرد التسمية من " أحداث الجزائر الى "حرب الجزائر" من اجل تمكين ما يسمى قدماء المحاربين بأفريقيا الشمالية و"الحركي" من منح وعلاوات وامتيازات اخرى، بدأت قنوات فرنسا التلفزيونية العمومية منها، والخاصة، تبت صور وافلام المخرج الفرنسي "ريني فوتيي" التي صورها مع المجاهدين الجزائريين، في محاولة لإيهام الرأي العام ان هناك نسبة كبيرة من الفرنسيين كانت تناهض الاستعمار. لكن المخرج فوتيي سرعان ما أقصي من ستوديوهات القنوات الفرنسية لكونه صرح ذات يوم في حصة حول "إبادة اليهود": (إن غرف الغاز أستعملت لأول مرة في التاريخ بالجزائر لإبادة قبيلة اولاد رياح بمغارات الظهرة في شهر جويلية من العام 1845)<sup>60</sup>؛ حينها احدثت مجزرة أولاد رياح ضجة بالغرفة العليا للبرلمان الفرنسي، حيث قدم بعض النواب مساءلة للحكومة طالبين فيها توضيحات عن الجريمة التي اعتبروها مهينة لفرنسا والقيم الانسانية بعد ان إطلعوا على تفاصيل نشرتها جريدة المبشر الجزائري الصادرة عن جيش الاحتلال الفرنسي. الجريمة ارتكبها الجيش الفرنسي، بامر من قائده الجنرال بيجو، ونفذها العقيد "بيليسي" الذي شارك في أول حرب كيميائية لاحقا ضد سكان الاغواط، سبعة سنوات ونصف بعد محارق الهولوكوست الأول في الجزائر بغرف الغاز العملاقة بمغارات الظهرة<sup>61</sup>. إبادة نساء وأطفال

<sup>59</sup> كول، ليونارد السلاح الحادي عشر، الالف كتاب، الهيئة المصرية للكتاب، ص 23. القاهرة 2000  
<sup>60</sup> العبودي عبد الكاظم ومنتصر اوبترون، المحرقة في الجزائر، مجموعة مقالات في الصحافة الوطنية، تحت الطبع.

العبودي عبد الكاظم، جرائم الاسلحة الكيماوية في الجزائر، عدد خاص، اسبوعية القادسية، العدد 48  
أواخر ديسمبر 2008.

ورجال وماشية قبيلة أولاد رياح خنقا بالدخان تبناها بيجو وبيليسي، لكن وزير الحرب  
المرشال "سولت" رد بلباقة على النائب الفرنسي الغاضب والمتقزز من الجريمة قائلا :

(... اوافقك، أنه لو حدث كل هذا في أوروبا، لكان شيئا خطيرا جدا، وغير مقبول؛ لكن في  
أفريقيا ماذا تريد... إنها الحرب). في السابع عشر جوان من العام، 1845 أطلق بعض رجال  
قبيلة أولاد رياح عيارات على فيلق العقيد "بيليسي" المكون من حوالي 10000 عسكري، كانوا  
يقطعون الأشجار ويحرقون القرى شمال واد جراح بين ماكان يسمى " اورليان فيل" الشلف،  
ومستغانم ، لإجبار السكان على الاستسلام والطاعة<sup>62</sup>. وبعد هذه المناوشة انسحب أولاد رياح  
الى مغارات نكريمية بواد الفراشيش ليحتموا من الغزاة كما إعتادوا، فأخذوا معهم أبقارهم  
وماشيتهم ونساءهم وشيوخهم لتفادي الاستسلام لوحوش فرنسا الذين جاؤوا لإستعبادهم وسلبهم،  
باسم "الحضارة والمبادئ السامية للثورة الفرنسية". لم يكن أفراد قبيلة أولاد رياح الجزائرية ،  
ذات الاصول العربية، يتصورون حجم المصيبة التي ستلحق بهم، ولا درجة الحقد والاجرام التي  
يتسم بها الاعداء المهاجمون. في الثامن عشر من جوان 1845 صباحا كانت المغارات كلها  
محاصرة، ولم يفلح جيش "بيليسي" العرمرم، المدجج بالمدفعية والاسلحة المتطورة في إخضاع  
قبيلة اولاد رياح المحصنة في ثلاثة مغارات "في كهوف طبيعية" والعزلاء من السلاح، عدا  
بضع بنادق صيد بدائية الصنع. على الساعة العاشرة أمر العقيد بيليسي أفراد جيشه الضخم بقطع  
الاشجار والحطب، وكذا جمع التبن الجاف من الحقول المجاورة للمنطقة ليغلق بها مداخل  
المغارات ويسدها سدا محكما، ثم يامر باضرام النار.

في شهادة لضابط اسباني، كان شاهدا على الواقعة، نشرتها جريدة "هيرالدو الاسبانية" في  
عدد صادر عام 1845 يقول: (.. بعد ثلاث ساعات، حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، إرتفعت  
ألسنة النار، وكان الجنود يزودونها بالحطب والاشجار، سمحت لهم الرياح التي كانت تدفع  
السنة النار الى إتجاه داخل المغارة ، فيشتعل الحطب الى داخل المغارة فأضى الحال تماما مثل

الفرن. وتواصلت عمليات الإشعال وتغذية النيران بالحطب بإشراف ضباط الهندسة طوال النهار واللييلة التي تلتها). في يوم 19 جوان، على الساعة التاسعة صباحا، تمكنت مجموعة من المحاصرين من الخروج من المغارة، لتتفاوض، عرضت على جيش بيليسي قيمة مالية قدرها 75000 فرنك كفدية، مقابل أن ينسحب الجيش، فرفض العقيد بيليسي الشرط المرفوق بالعرض، وعاد الوفد الى المغارة ليزيد العقيد بيليسي من شدة إشعال النيران داخل المغارة .

في رسالة بعث بها أحد الجنود الفرنسيين لأهله: ( نشرتها المجلة الافريقية في عدد خاص بالمغارات عام 1930 ) جاء فيها ما يلي : (...النار تم تزويدها بالوقود طوال الليل ...أرى كتائب الجيش منهمكة في تقوية نار جهنمية ، ويُسمع أنين أصم للنساء والرجال والحيوان ، وأصوات فرقة الصخور التي بدأت تتفتت وتنهار من شدة وقوة الاحتراق فتتهاوى...). في صباح اليوم الموالي، دخل الجندي صاحب الرسالة الى داخل المغارة ووصف المشهد كالتالي : ( ...في مدخل المغارة رأيت ركاما من الابقار والحمير والاعنام الميتة، دفعتهم الغريزة والتعلق بالحياة للتوجه نحو مدخل المغارة، بحثا عن الهواء للتنفس. بين هذه الحيوانات وتحتها كانت جثامين نساء واطفال موتى ...رأيت رجلا ميتا ساقطا على ركبته ويده ممسكتان بقرون ثور، وبجانبه إمراة تمسك طفلا بين ذراعيها. هذا الرجل إختنق هو والمرأة والطفل والثور وماتوا ...عندما كان يحاول حماية عائلته من هيجان الحيوان [...]. قمنا بتعداد 760 جثة في هذه المغارة ). شهادة رسالة الجندي الفرنسي تؤكد شهادة الضابط الاسباني الذي أعلن : (... إن عدد قتلى أولاد رياح تجاوز الالف) ووضح: (... انه تم حساب 600 جثة فقط كانت قرب مغارة واحدة، دون حساب الجثث التي كانت مكدسة ومتداخلة داخل المغارة . وكان جميع الرضع تقريبا لصقين بأثناء امهاتهم او ملفوفين في اثوابهم).

## 6-14: تسجيل أول استخدام للأسلحة الكيماوية في العالم ضد المدنيين الجزائريين العزل:

تم في الجزائر على يد القوات الاستعمارية الفرنسية الغازية بعد حصار الجيوش للأغواط [22 نوفمبر - 2 ديسمبر 1852] نُفذ أول هولوكوست كيماوي في التاريخ لإبادة السكان المدنيين العزل.

لابد من التأكيد هنا، أن الفرنسيين كانوا أول من استخدم القتل، بالحرق المباشر للأحياء بعد تسميمهم وشلهم، حدث هذا قبل قرن من ما يسمى "المحرقة الألمانية"، التي يكون النازيون الألمان قد أبادوا من خلالها أعدادا من اليهود والأسرى الآخرين لديهم خلال الحرب العالمية الثانية. وعكس المزاعم والإدعاءات الفرنسية واليهودية فإن كلمة "الهولوكوست" أو "المحرقة" أُستخدمت لأول مرة في أدبيات وتقارير قادة وضباط الحرب الفرنسية الواردة من الجزائر في خمسينيات القرن التاسع عشر، حيث وردت في كتاب مارسيل ميليا Marcel Melia (الأغواط بيوت محاطة بالجنان) <sup>63</sup> الذي استخدم فيه مصطلح "الهولوكوست"، إشارة إلى تقرير عسكري كان مرسلا من القائد الفرنسي العسكري الميداني الجنرال بيليسي Pelissier إلى ريفي Rivet القائد العام للقوات الفرنسية في الجزائر آنذاك يخبره أنه قد نفذ التعليمات الموجهة له بالإبادة مستخدما في تقريره مصطلح " هولوكوست". للعلم ، الكاتب "مارسيل ميليا" كان شاهدا ورافق الجيوش الفرنسية في الجزائر كمراسل حرب. ونقل عن لسان الجنرال الفرنسي بيليسي ما نصه: (... لو لم أحصل على تلك النتائج "الإبادة" لكنت أحرقت البلاد بنخيلها وهجرت أهلها إلى مكان لا يوجد فيه حتى الهواء). واصلت فرنسا حرب احتلالها للجزائر على نفس المنوال للوصول الى بقية المدن التي كانت عصية عليها بسبب تعنت السكان في المقاومة. فأحرقوا العوائل والقرى والأعراس الجزائرية ودفن الضحايا الى المغارات والكهوف والآبار العميقة وحتى الى السجن

<sup>63</sup> Jean Me'lia, Laghouat Ou les Maisons entourees de Jordains; Nourret et vie, Paris. , 1923 .

والاحتجاز في أقبية خزن النبيذ ، لما في تلك الأماكن من إنتشار لكميات كبيرة من ثاني أوكسيد الكربون الخانق.

ولم يخف كبار الضباط والقادة العسكريين الفرنسيين جرائمهم ضد الإنسانية في الجزائر؛ بل وصفوها بدقة وافتخار في كتبهم ومراسلاتهم وأعطوا تفاصيل دقيقة لاستخدامهم السلاح الكيميائي في الأغواط ، خاصة بعد مقتل الجنرال "بوسكرين" قائد مركز معسكر ومن قادة الحملة الرئيسية، الذي مات بعد إصابته بجراح.

وبمقتل "بوسكرين" والكومندان "موران" وآخرين من القوات الفرنسية قرر الجنرال "بيليسي"، كما يعترف هو (ان يسلط " الجحيم" على المدينة) ، مستخدماً كلمة " المحرقة" " الهولوكوست"،حرفياً: أين قتلوا آلاف السكان بشكل جماعي. وصلت هستيريا التلذذ بالقتل والنهب بأن المجرمين كتبوا شهاداتهم للافتخار بما فعلوا . فمن وصف لمشاهد الموت المرعبة التي حلت بالمدينة وأهلها نقرأ نصوص وشهادات فرنسية عديدة تتحدث عن (... مشاهد للفتيات وهن مطروحات أرضاً في كل مكان من المدينة، وفي بيوتهن على السلام وعتبات البيوت). كما أن مشهد هروب كلاب المدينة ولجئها الى الجبل الواقع في الجنوب الغربي الذي أطلق عليه الفرنسيون "جبل الكلاب"، إشارة واضحة لهروب جميع هذه الحيوانات ذات الحاسة الشمية العالية الى ذلك الموقع، هروبا من الغازات الخانقة التي قصفت بها المدينة، واستمرارها النباح لأيام عديدة، أين كانت جثث القتلى والحيوانات الأخرى تملأ طرق المدينة وأبارها حيث لجأ الجنود الى دفنها بشكل جماعي، أو رميها في الآبار خشية الروائح المتصاعدة عن التعفن للجثث. يقول أحد الضباط : أنه دفن في بئر واحدة ما يقارب 250 جثة. ويذكر الكومندان " بين" في مذكراته: (... مقتل 2300 بين رجل وأمرأة وطفل، وبأن عدد الجرحى"لايكاد أن يُذكر") لأن الموت كما تبدو الشهادات لم يكن بالاسلحة البيضاء أو الاصابات بالاسلحة النارية .

يتذكر سكان الاغواط حكايات الرعب عن الاجداد والمسنين تفاصيل المجزرة ويسمونها " عام الشكاير"، أين عبأ الجنود الجثث والاحياء من الأسرى في أكياس وحملهم خارج المدينة أين

يتم حرقهم بعدها، ولا بد من أن تلك الأكياس كانت تحتوي موادا كيميائية و تقتل الضحايا خنقا بالمواد الكيميائية قبل حرقهم. لازال شيوخ وعجائز المدينة بعد أكثر من 150 سنة يتحدثون عن " عام الخلية" "بكسر الخاء"، أي تفريغ المدينة من ساكنيها بالابادة التامة. وفي تحقيق ميداني لنا تعرفنا على مواقع وقبور جماعية لازالت تحت المساكن قرب الكنيسة التي بناها الفرنسيون والتي أصبحت متحفا للأسف تتحدث جميع محتوياته عن تاريخ الأغواط ومقاومتها الا ذكر حادثة القصف الكيميائي.

ومما كتبه السفاح الجنرال "بيليسي" في تقريره الى الحاكم العام الجنرال "راندون": (...إن هذا الهجوم الموفق ليذكرنا بأعز أيامنا. لا أقدر على التعبير عن مدى فخرنا. أمرت بتشديد الخناق على المدينة، وان المعركة متواصلة في البساتين حيث يقضي المشاة على آخر المقاومين، بينما يُطوق الفرسان محيط النخيل فلا سبيل للنجاة أمام هؤلاء المتعصبين).

ومما جاء في مذكرات النقيب "ديباراي"، وهو الضابط الذي عين حاكما للمدينة بعد إحتلالها، وترقى بعدها الى رتبة جنرال : (ان الجنرال "بيليسي" إتخذ بعد المجزرة قرارا بهدم المدينة وإقتلاع نخيلها وترحيل من بقي من السكان الى منطقة أخرى في الجزائر). ومما سجله "مونجان أ." في كتابه "تقييدات حول تاريخ الاغواط"<sup>64</sup>: (...كان لسقوط الاغواط دوي كبير في جميع أرجاء الصحراء، جعل العرب يقولون: ان الفرنسيين أحرزوا مدينة جزائر جديدة في الجنوب... استغرق إخلاء المدينة من ضحاياها وقتا طويلا جدا، وكان هذا عملا كريها تناوبت على القيام به عدة كتائب في اليوم الواحد... بعد ثلاثة أو أربعة أيام من وقوع الهجوم تفقد الجنرال "بيليسي" مواقع المجازر، فوجد أن العمل لا يسير كما يريد، فاستدعى الضابط الكبير المكلف بتلك السخرة المقيمة، وكان هو الرائد "شاربون" من الخط الخامس، فوبخه الجنرال "بيليسي" بلهجة حادة على البطئ الذي يبديه رجاله في تنفيذ المهمة المسندة اليهم [التخلص من الجثث]، فرد

64 العبودي عبد الكاظم ، ملف لاسبوعية القادسية العدد 48. كذلك بحث مقدم الى المركز الوطني للدراسات التاريخية لثورة نوفمبر والحركة الوطنية، تحت الاعداد ضمن مشروع بحث حول الاسلحة المحرمة دوليا في الفترة الاستعمارية. راجع " "مونجان أ." "تقييدات حول تاريخ الاغواط"، المجلة الافريقية "بالفرنسية"، نشرة أعمال جمعية التاريخ الجزائرية، العدد 38، أدولف جوردان للطباعة والنشر، الجزائر، 1894.

عليه الرائد قائلا بلا وجل، وبكثير من الهدوء: ( مهلا سيدي الجنرال، فنحن لا ندفن الموتى بمثل السرعة التي تقتلوهم بها).

المشاهد الموصوفة تؤكد موتا غير عادي، ولا مألوف في الحروب والغزوات السابقة.<sup>65</sup> وحتى بعض من الجنود الفرنسيين لم يكونوا على دراية بما جرى، واستغربوا ما رأوا. لكن أخبار نتائج استخدام الكلوروفورم، وصلت إلى مراكز القرار، وإلى الشخصيات العليا في الجيش والإدارة والمعامل الكيميائية الفرنسية لمواصلة تطوير السلاح.

ظلت ترسانة فرنسا من الأسلحة الكيميائية وتجاربها على الأراضي الجزائرية من الأسرار العسكرية الإستراتيجية، ومن أكثر الأسرار، تلك نتائج تجاربها وأماكن تفجيرها وأساليب إستخداماتها، في مناطق عديدة من الجزائر؛ سيما وأن الأسلحة الكيميائية كانت متنوعة التأثير في الإستخدام والأهداف

بعضها صممت لكي تكون قاتلة او معطلة أو مهيجة أو مخيفة ومرعبة. لقد خصصت مجلة "الأبحاث" الفرنسية عددا خاصا بموضوع الأسلحة الكيماوية الفرنسية، وإعترفت أن التجارب على هذه الأسلحة وتطويرها استمر حتى عام 1978. في وادي الناموس بالصحراء الجزائرية. وقبلها ومنذ 1939 عرفت مناطق بني ونيف وجود قاعدة للتجارب الكيماوية بولاية بشار.

منذ القرن التاسع عشر استخدمت القوات الفرنسية الأسلحة الكيماوية في قذائف مدفعية. لاستخدامها بطريقة الرش بالطائرات أو التسميم في المحتشدات والمغارات والآبار خلال القرن

<sup>65</sup> Jean Me'lia, Laghouat Ou les Maisons entourees de Jordains, ; Nourret et vie, Paris. 1923

راجع : العبودي عبد الكاظم ، ملف بحث مقدم الى المركز الوطني للدراسات التاريخية لثورة نوفمبر والحركة الوطنية، تحت الاعداد ضمن مشروع بحث حول الاسلحة المحرمة دوليا في الفترة الاستعمارية. وكتاب "أوجين فرومانتان" الذي زار المدينة بعد ستة أشهر وسجل مشاهداته منها : (أنه وجد المدينة مازالت تفوح من جنباتها رائحة الجثث المتعفنة، وإن الكلاب تأتي ليلا لنهش أشلائها) كما سجل في موضع آخر من كتابه "صيف في الصحراء، رحلة الى الواحات في الجنوب الجزائري في 1853" الذي صدرت منه الطبعة الثالثة عام 1874 واعيد طبعه مرة اخرى عام 1992 بباريس: (جميع الاملاك المصادرة وضعت مؤقتا في عهدة حارس قضائي، أما فيما يخص تلك الغنائم العظيمة من السجاد والأسلحة والحلي... فيمكن القول أنه لم يبق منها شيئا في الاغواط... كل البيوت فارغة، من أفقرها لى أغناها، وتخالها مدينة رحل كل ساكنيها). انظر كتاب "أوجين فرومانتان":

Fromentin Eugene, , Un ETE Dans Le Sahara , Voyage dans les Oasis du Sud Algerien en 1853, ;print, ,Ed ;France Empire 1922,

العشرين بعد حشر الضحايا من السكان أو الأسرى في أماكن، جرى التخطيط المدروس لها ليساق الضحايا إليها وإعدامهم خنقا. في بادئ الأمر، إستخدمت فرنسا الكلوروفورم ، وهو مادة معروفة، مخدرة سريعة الإستنشاق، استخدمتها فرنسا في هولوكوست الأغواط الكيماوي، لتصبح قاتلة بزيادة تركيزها ورشها في الأماكن المغلقة وحتى المفتوحة. وخطورتها تكمن في أنها تسبب عند استنشاقها تهيج الرئة، وتحدث إلتهابات حادة في أنسجتها؛ مما يسبب اندفاع كميات متزايدة من السوائل الجسمية التي ينقلها الدم إلى الرئتين لتحدث إختناقات تؤدي الى موت الضحية.

ولأن الكلوروفورم مادة متطايرة سريعة التبخر في درجات الحرارة العادية، فإن البخار أو الغاز الناتج عنه يبقى ويدوم إنتشاره في الجو والميدان لفترات طويلة عند توفره بكميات كبيرة وتراكيز عالية. وهو من المواد التي يمكن حفظها وتعبئتها في القذائف على شكل سائل، يمكن إطلاقها على شكل سحب من البخار والغازات أو على شكل رشات من الرذاذ يمكن استنشاقها بسهولة. فهي مادة لا لون لها ولا يشعر الضحايا بوجودها.

مأساة الأغواط جزء هام من الذاكرة الجماعية للعرب والولايات والمآسي التي تركها الفرنسيون في النفوس ولاتزال الذاكرة الشعبية تتناقلها الذاكرة الشعبية باسم " حادثة الشكاير " في إشارة إلى مذبحة ديسمبر 1852. فضاة فرنسا بالأغواط أريد بها الإبادة من جهة والتجريب وترهيب الشعب من جهة أخرى. الفرنسيون وضعوا الضحايا في أكياس غير نفاذة، مشبعة بأبخرة الكلوروفورم لتشلهم وتخفقهم قبل هلاكهم. وتشير الشهادات المنقولة والقصص، أن الفرنسيين أحرقوا ضحاياهم بعد خنقهم وشل مقاومتهم في الأكياس أمام الناس ليتم نقل الأكياس الى الغابات والأحراش القريبة بهدف الترهيب وزرع الرعب في قلوب سكان المدن الأخرى.

في مذكرات أحد القادة الفرنسيين المشاركين بجريمة إستخدام الأسلحة الكيماوية في مدينة الأغواط في ديسمبر 1852 تقرير السيد " راير " جاء فيه مايلي<sup>66</sup>:

<sup>66</sup> Jean Me'lia, Laghouat Ou les Maisons entourees de Jordains, 1923 ; Nourret et vie, Paris.

[يضع السيد راير Rayer على المكتب ملاحظة مبعوثة من الجزائر العاصمة من طرف الدكتور أوسينال Aucinelle الى السيد المارشال "فيالانت" Vaillant يطلب منه معلومات دقيقة حول الظروف المتعلقة باستعمال الكلوروفورم في العمليات العسكرية المطبقة في الأغواط. تم بعث تلك الملاحظة لتحليل اللجنة المكلفة بالتعرف على مذكرات المسيو جوبير Jobert، والسيد لومبال Lamballe والسيد بودنز Baudens].

الأسماء المذكورة في التقرير على دراية بتفاصيل جريمة أول استخدام للأسلحة الكيماوية في التاريخ. " مادة الكلوروفورم" (الكيماوي) قتل بالأغواط في اليوم الثاني من ديسمبر 1852 أكثر من 3637 من النساء والرجال والأطفال والشيوخ، زهقت أرواحهم ظلما وعدوانا لبياد ثلاثة أرباع السكان الذين قُدرُوا بـ 4800 نسمة.

الأرمادا الفرنسية التي احتلت مدينة الأغواط تجاوز تعدادها 16 مرة العدد الكلي لسكان الأغواط الشهيدة. قادها عسكريون متمرسون خريجون مدارس عليا للتقنيات الحربية مثل العقيد القتيل في الاغواط "بوسكارين" والمارشال "فيالانت" Vaillant الذي إستلم من قادة الوحدات الفرنسية تقريرا يؤكد الإستخدام المكثف للكلوروفورم في قصف المدينة. التقرير موجود اليوم في خزان وزارة الحرب الفرنسية في علب أرشيف حرب إحتلال الجزائر<sup>67</sup>.

فشلت محاولات كل من الجنرال " لادميرو" Ladmirau والجنرال " ماري نونج" المتكررة لإحتلال الأغواط ودفعها للإستسلام. كما حاول الفرنسيون بكل الوسائل لإحتلالها من

67 العبودي عبد الكاظم ، ملف لاسبوعية القادسية العدد 48. كذلك بحث مقدم الى المركز الوطني للدراسات التاريخية لثورة نوفمبر والحركة الوطنية، تحت الاعداد للنشر، ضمن مشروع بحث حول الاسلحة المحرمة دوليا في الفترة الاستعمارية.

وكتاب " فرومانتان أوجين " الذي زار المدينة بعد ستة أشهر وسجل مشاهداته منها : ( أنه وجد المدينة مازالت تفوح من جنباتها رائحة الجثث المتعفنة، وان الكلاب تأتي ليلا لنهش أشلائها) كما سجل في موضع آخر من كتابه "صيف في الصحراء، رحلة الى الواحات في الجنوب الجزائري في 1853" الذي صدرت منه الطبعة الثالثة عام 1874 واعيد طبعه مرة اخرى عام 1992 بباريس: (جميع الاملاك المصادرة وضعت مؤقتا في عهدة حارس قضائي، أما فيما يخص تلك الغنائم العظيمة من السجاد والأسلحة والحلي... فيمكن القول أنه لم يبق منها شيئا في الاغواط... كل البيوت فارغة، من أفقرها لى أغناها، وتخالها مدينة رحل كل ساكنيها). انظر كتاب "أوجين فرومانتان":

Fromentin Eugene , Un ETE Dans Le Sahara , Voyage dans les Oasis du Sud Algerien en 1853, ;print,Ed ;France Empire , , 1922.

خلال المفاوضات مع سيد أحمد التيجاني مرة ومع خليفة الأمير عبد القادر في الأغواط أحمد بن سالم خلال سنوات 1848 الى 1849م ولكنهم فشلوا أيضا. في ذات الوقت لم يستبعد الجنرال "لادميرو" الخيار العسكري فتمركز شمال الأغواط على بعد 20 كم منذ سنة 1850 م.

تم إتخاذ القرار لإحتلال الأغواط بعد أن ضم الجنرال ريفي **Rivet** حاكم هيئة أركان الجيش الفرنسي في إفريقيا بمساعدة فيلق بقيادة الجنرال " بيليسي " الذي توجه من وهران إلى الأغواط مارا بمعسكر وسعيدة وبمساعدة الجنرال " بوسكرين " الموجود في معسكر، والكولونيل "كلير" انيطت قيادة الحملة الى السفاح الجنرال "بيليسي" **Pelissier** الذي توجه من المدينة بتاريخ 21 نوفمبر 1852 كقائد عام للحملة على الاغواط. والجنرال " دوليني" من بوسعادة. وجيش من الشرق بقيادة الكومندان " بين " قائد حامية بوسعادة. وجيش من الشمال بقيادة الجنرال المجرم المرتزق "يوسف" **Vantine** .

محصلة القوات الفرنسية المتوجهة إلى الأغواط وصلت الى قرابة 60 ألف جندي. وتقدرها إحصائيات أخرى بقرابة 65 ألف جندي حسب تأكيد الجنرال " دي باراي" **Dubarrail** . وبهذه القوة الإستعمارية الضخمة واجهت الأغواط المحتلين بمقاومة متواضعة لا تملك الا مدفعا واحدا، لكنها اختارت المقاومة رغم فرق الامكانيات والتقنيات. بدأت المقاومة يوم 21 نوفمبر 1852 م وانتهت بتاريخ 6 ديسمبر 1852م بالإبادة التامة لسكان المدينة.

حاول الغزاة إرهاب السكان من خلال تنفيذ سياسة الأرض المحروقة. تجاوز عدد القتلى من سكان المدينة 3670 شهيدا من مجموع سكانها المقدر 4800 نسمة سنة 1852. كانوا يعيشون من الزراعة والتجارة مع مدن الجنوب والشمال. بعد استباحة المدينة جرى التنكيل بالعلماء وطلبة القرآن الكريم ودفن البعض من الضحايا أحياء ومنهم من فر هاربا إلى منطقة جبل عمور. ومن الضحايا من أحرقوا بدم بارد في أكياس خاصة.

كانت الساعة تشير الى السابعة في ذلك الصباح الأسود من الثاني من ديسمبر. فيالغ عسكر الإحتلال الفرنسية استكملت الهجوم العام على مدينة الأغواط الذي مهدت له بمجازر أريد

بها قبل كل شيء ترهيب السكان وصدمتهم كي لا تسول لهم أنفسهم التفكير في المقاومة مرة أخرى.

الجنرال يوسف **Vantine** وفيلقه تقدم من الشمال، و العقيد "ترميلي" **Trumelet** على رأس عساكره جاء من الشمال الغربي. في حين تموقع الجنرال "بيليسي" المشهور بإبادته قبيلة أولاد رياح بمغارات الظهرة في 19 جوان 1845 غرب المدينة. كما عسكر "بوسكاران" **Bouscaren** جنوب غرب الأغواط. والعقيد "بين" **Pain** والرائد "موران" **Morand** من الشرق.

المدينة المحاصرة تعرضت لقصف مدفعي كثيف دام 12 يوما كاملا، من 21 نوفمبر إلى 2 ديسمبر 1852م. وخلال القصف وبعده عاشت الأغواط الجحيم، مجازر بشعة وصف وقائعها العقيد "ترميلي" **Trumelet** بدقة: كانت عنيفة، فضيعة، وشنعاء إلى درجة كبيرة جدا. البيوت والخيام والملاجئ كانت مليئة بجثث الموتى. والعقيد تريميلي وحده أحصى 2300 جثة، ناهيك عن مئات الجرحى والأسرى.

الجنرال السفاح العنصري "ديباراي" **Dubarrai** الذي نصب حاكما للمدينة بعد احتلالها إكتفى، بتبرير القتل والتنكيل قائلًا: ( ... ليس هناك من قانون أو إتفاقية تحمي الأرواح والممتلكات... كل شيء تعرض للسلب والنهب، الممتلكات والأعراض مستباحة). يضيف ديباراي: (.... أن مدينة الأغواط عاشت محنة عظيمة، سويت بيوتها بالأرض).

" إيجين فرومانتان" **Eugene Fromentin** الرسام، الرحالة، الذي زار المدينة بعد ستة أشهر، كان أكثر حساسية من "ديباراي" قال نقلا عنه: (... إنها محنة مروعة رهيبية). وأضاف أنه رأى: (... جنديا واقف أمام الباب يملأ بندقيته التي اصطبغت بالدم ... وجنديان فرنسيان آخران... يجريان وهم يملئون قبعاتهم العسكرية بالحلي المنهوبة من جثث النساء... فتاتان مسكينتان مطروحتان أرضا بلا حراك، واحدة مطروحة على الأرض، ... والأخرى ملقاة على درج رأسها يتدلى نحو الارض عارية.. ينزع عسكري من جسدها ما تحمله من مصوغات وحلي

ذهبية وفضية.... امرأة ثالثة كانت تحتضر...وبقبضة يدها زر بدلة عسكرية ، ... إنها اقتطعته من بدلة قاتلها).

لا يمكن لفرنسا أن تدعي جهلها عن نتائج "تجريب " أسلحتها الكيماوية، أو عدم علمها بما فعلت باستخدام سلاح تدمير كيماوي شامل لأول مرة في التاريخ العسكري الحديث، لأنها تعرف نتائج تجارب هذا السلاح في مخابر الكيمياء الفرنسية. جندت علمائها في المؤسسة العلمية الفرنسية التي تأسست منذ 1666<sup>68</sup>. وقررت فرض ماسمي " الذكاء التقني الفرنسي" منذ 1737 في التكليف للعلماء والباحثين، ومنهم لافوازييه وغيرهم بصنع مواد حربية، ولإنتاج اسلحة كيماوية، و منها غازات خانقة. نشير بذلك الى مذكرات الكيماوي الفرنسي "بيرثلوت مارسيلين" **Berthelot Marcellin** (1827-1907)، وهو يشير الى عمله في مجال التحركية الكيماوية، كأختصاص، ويتحدث عن المكان الذي كان يعمل به كباحث علمي: (... في هذا المكان الذي أعمل به كباحث... سبق أن كان المكان بحالة رثة... هنا تم التأكد من فعالية الغازات الخانقة... هنا تمت ابادة 16000 كلبا، قتلت على مراحل... تلك الكلاب كانت تحت تصرف المجربين).<sup>69</sup> وفي توقيت مع عام "هولوكوست الاغواط الكيماوي"، يكون عمر السيد "بيرثلوت مارسيلين" 25 عاما، لا شك انه كان في ذلك المخبر المنتج للغازات الخانقة التي جُرِبَت في الاغواط أو غيرها. إبان الحرب العالمية الأولى إستخدمت فرنسا وأوربا ما يناهز 124200 طن من الغازات السامة في ميادين القتال الأوربية، وأضعاف هذا الرقم استعمل في المستعمرات، ولا يزال حبيس

---

68- موريس باريس **Maurice Barres** من الاكاديمية الفرنسية (1862-1923) مؤلفة كتاب "ذروة الذكاء الفرنسي" **La Haute Intelligence Francaise** الصادر في باريس بعد وفاتها 1925 كتبت عن دور العلماء الفرنسيين الفيزيائيين والكيميائيين في خدمة الحرب واسلحتها الجديدة قاتلة ص 65: (... ان هؤلاء الفيزيائيين والكيميائيين هم جنود بدون أسلحة في المعارك) وأشارت الى اعمال "الكونت بيرثلود كلاود" الكيماوي (1748-1822) باكتشاف تفجيرات مركبا الكلور وتجاربه على الهيبوكلورات **hypochlorites** وقد رافق نابليون بوناپرت في حملته على مصر.  
69 - المرجع السابق، ص 54.

السرية والتكتم. ما بعد الحرب الاولى استعمل الايطاليون منذ عام 1923 الغازات الخانقة وهي من انتاج فرنسي. "راجع حوادث ليبيا المماثلة لاحقا من هذه الرسالة".

ويقول "إدوارد م سبيرز؟" في كتابه "الحرب الكيماوية": (... أن الفرنسيين طوروا أول سلاح كيماوي عملي الإستخدام، عبارة عن قنبلة يدوية تحتوي على مادة برومو إسيئات الأثيل، وهو غاز خانق، متوسط الفعالية، ومسيل للدموع، غير سام، إلى درجة القتل، استخدمته الشرطة الفرنسية ابتداء من عام 1912. وفي أوت 1914 كان بحوزة الجيش الفرنسي 30 ألف قذيفة من عيار 26 مم معبأة بذلك السائل استخدمت على الجبهة الغربية في تلك السنة. أما القنابل اليدوية من ذات السائل فطورت بسرعة واستخدمت في قاطع الأرجون في مارس 1915). ولا يستبعد أن تكون فرنسا استخدمتها في الجزائر لقمع مختلف الإنتفاضات ضد التجنيد الإجباري للأهالي ، مما أجبر آلاف العائلات الجزائرية على الهجرة الى المشرق العربي. أما الجزائريين " لحم المدافع" الذين واجهوا أقدارهم مجندين في صفوف الجيش الفرنسي فقد لقوا مصرعهم بالسلاح الكيماوي الألماني.

ففي مساء 22 أبريل سجلت يوميات الحرب أن الألمان أطلقوا في أول هجوم كيماوي لهم بالغازات السامة، ضد مواقع الجيش الثاني الفرنسي في لانجمار Langemarck ، وسقط الجزء الأكبر منها على الدفاعات الفرنسية المتقدمة المشكلة من الجزائريين في الفرقة الخامسة والأربعين " الجزائرية " وعلى الفرقة السابعة والثمانين الإقليمية. وبأشع الصور المرعبة إختناقا بالغازات السامة فقد المجندون الجزائريون في الجيش الفرنسي حياتهم، وهم غرباء عن وطنهم، كانوا قتلى في تلك الجبهات الاوربية من الحرب، أبيدوا دفاعا عن فرنسا التي كانت على علم مسبق بنية الألمان شن هجوم كيماوي على قواتها بالغازات السامة.

الجيش الألماني استخدم ما يقارب 57 ألف طن من الغازات السامة، أي ما يعادل نصف وزن الغازات التي أطلقها جميع المتحاربين . كانت فرنسا قد أنتجت هي الأخرى ما يعادل نصف إنتاج ألمانيا، تتبعها بريطانيا بمقدار الخمس.

أقام البريطانيون والفرنسيون مصانع كيميائية متخصصة لإنتاج غاز الخردل، ففي منطقة روسيون **Roussillon** كان المصنع الفرنسي الرئيسي الذي كان يزود قوات الحلفاء بثلاثة أرباع احتياجاتها من غاز الخردل. كانت الأوضاع العمالية في المصنع مزرية وسيئة وكثير منهم كانوا من العمال الجزائريين المهاجرين .

وللأسلحة الكيماوية تأثيرات وخيمة حتى على صحة العاملين بالمصانع، حيث تشير الأبحاث إلى أن 90% من القوى العاملة في المصنع كانوا فاقدون للنطق، و50% الباقية كانت تسعل باستمرار، وهم مصابون بالتهاب ملتحمة العين.

هذا المرض يكاد ان يكون شاملا بين العمال. وأغلب العاملين في المصنع الفرنسي كانوا يشكون من بشرة حمراء متسلخة تشعرهم بحكة شديدة تجعل النوم مستحيلا. بنفس تلك الاسلحة الكيماوية الفرنسية، قامت ايطاليا موسوليني بآبادة ثوار ليبيا بقيادة عمر المختار، كما تسجل الاحداث ان ذات الاسلحة قد استخدمت للقضاء على ثورة الريف في المغرب العربي الاقصى .

#### فرنسا استخدمت الكيماوي من 1954 الى 1962.

تظهر شهادات جزائريين سُجلت مؤخرا أن أعراضا مماثلة لما كشفته الأبحاث حول تأثيرات الأسلحة الكيماوية على صحة العاملين بمصانع الأسلحة، هي نفسها التي يعاني منها سكان العديد من المناطق الجزائرية التي تعرضت للقصف خلال حرب التحرير (1954-1962). رغم إخفاء السلطات الفرنسية البيانات والمعلومات حول تلك الأسلحة وظروف تجريبها ومواقعها وتأثيراتها على البشر والبيئة، فإن مجلة " البحوث" الفرنسية قد خصت قبل سنوات عددا خاصا حول الموضوع مشيرة الى أن التجارب الجرثومية والكيميائية الفرنسية استمرت في الجزائر في ولاية بشار في منطقة وادي الناموس حتى سنة 1978، ولم تعقب السلطات الجزائرية رسميا على مدى صحة ذلك التقرير وكان وزير الدفاع الفرنسي الاسبق بيير مسمير أكد في حصة تلفزيونية أن التجارب الكيماوية في الصحراء الجزائري لم تخرج السلطات التي كانت موافقة.

بروتوكول جنيف الموقع في 17 جوان 1925 ينص: (...ان إستعمال الغازات الخائفة، والسامة او غيرها من الغازات وجميع السوائل والمواد والأجهزة المماثلة في الحرب قد أُدين عن حق، من قبل الرأي العام في العالم المتمدن؛ و ... منع هذا الاستخدام... يجب أن يكون مقبولا من الجميع كجزء من القانون الدولي، ملزما لضمير جميع الأمم ولممارساتها).

البروتوكول صادق عليه 41 دولة فيما سمي باتفاقيات جنيف، ومنها دول كفرنسا والولايات المتحدة واليابان وبريطانيا وإيطاليا... وغيرها؛ إلا أن فرنسا قد إستخدمت النابالم وغيره من الاسلحة المحرمة دوليا، وفي فترات عديدة في الجزائر خلال الفترة الإستعمارية، وخاصة في سنوات حرب التحرير ما بين (1954-1962)، كما أن ترسانتهم من الأسلحة الكيماوية، وغيرها من الأسلحة المحرمة دوليا، عبر سنوات إحتلالهم للجزائر قد تطورت وجربت على رؤوس صواريخ حاملة للأسلحة الكيماوية المختلفة، منها سقطت في أطراف الصحراء الجزائرية، ومنها كانت تحمل غاز الخردل، والتي جربت في قاعدة التجارب الصاروخية في حماقير ورقان منذ 1956 .

الفرنسيون إهتموا أيضا بتطوير مدفيعتهم ومقذوفات الأسلحة البرية بتطوير قاذف للغاز مداه 3000 متر، وركزوا على أهمية إنتاج غاز الفوسجين السام والقاتل الذي يستخدمونه في ملئ قذائفهم وقنابلهم وقنابل الطائرات الضخمة. كما عرضوا إمكانيات واسعة في استخدام الخردل وتعبئته في رمانات كانت تطلق من الجو، وتسقط في مجموعات كالعناقيد ، تتكون كل واحدة منها من 50 رمانة. وكان لديهم 4.5 مليون رمانة جاهزة للتعبئة، والكثير من غاز الخردل خلال الحرب العالمية الثانية.

صحيح أن الفرنسيين وغيرهم من المتحاربين الأوربيين لم يستخدموا أسلحتهم الكيماوية ضد بعضهم البعض، بسبب حالة التوازن والرعب في هذا المجال بين القوى الغربية والشرقية الأوربية التي أقنعتهم جميعا بالتخلي عن الإستخدام لما سيجره من وبال على الجميع، لكن هناك الكثير من المعطيات والأدلة عن إستخدام الدول الاوربية للأسلحة الكيماوية ضد شعوب

المستعمرات كفضيحة إستعمال قوات موسوليني الإيطالية للغازات السامة في أثيوبيا والصومال وليبيا لإخماد حركات التحرر وبؤر المقاومة. ولا نظن أن فرنسا الإستعمارية إستثناء عن غيرها من المستعمرين الاوربيين بعيدا عن إقتراف مثل تلك الجرائم.

واصلت فرنسا تطوير تجاربها ومخزونها من الأسلحة الكيميائية والجرثومية واستخدمت الأراضي الجزائرية أماكن تجارب في كثير من الفترات . في عام 1939 أجرت فرنسا اختبارات لأسلحة كيميائية في منطقة بني ونيف في الصحراء الكبرى. وفي 1956م استخدمت مناطق واسعة في حماير بولاية بشار لإطلاق الصواريخ وتجريب الرؤوس التقليدية والكيميائية كما واصلت فرنسا تجاربها المشتركة مع إسرائيل بإطلاق عددا كبيرا من المقذوفات والصواريخ الحاملة لرؤوس غير تقليدية وهناك مناطق يحتمل أن تكون ملوثة بسبب ترك النفايات فيها ومنها النفايات النووية والكيميائية في مناطق رقان والهوقار قرب إينيكري في تاوريرت بولاية تمنغست.

#### 6-15 : الهجمات الإيطالية بالغازات السامة الفرنسية في ليبيا :

##### الهجمات الكيميائية الإيطالية على ليبيا:

دخلت إيطاليا في صراع مع القوى الأوربية لتقاسم النفوذ والمستعمرات التي تساقطت نتيجة إنهيار الإمبراطورية العثمانية. فمنذ عام 1863 بدأ التلويح في الصحف الإيطالية الرجعية بضرورة توسع إيطاليا خارج حدودها لحلّ مشاكل البرجوازية الصناعية النامية فيها والمتمثلة في التكاثر السكاني والحصول على مواد أولية وأسواق ومواطن للهجرة. وبذلك دخلت في حلبة التنافس المحموم مع فرنسا التي سبقتها الى الجزائر عام 1830 وتونس عام 1881<sup>70</sup> وفي نفس الوقت كانت بريطانيا تتسلل لتحتلّ مصر ومن ثمّ السودان، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا.

فبعد إبرام اتفاقات ومساومات مع التحالفات والدول الأوربية- حتى قبل اجتياحها لليبيا- شرعت السلطات الإيطالية في تنفيذ المخطّط التمهيدي له عن طريق زرع شبكات التجسس واستمالة أعيان البلاد وشيوخ القبائل بل وزعماء الحركة السنوسية في محاولة لاستعمال امتيازات

<sup>70</sup> من ورقة خاصة للباحث الليبي السيد مفتاح السيد الشريف. [مخطوط خاص ارسل الى الباحث].

ورشاولى بنك روما الذي فتح فروعه في بنغازي وطرابلس منذ عام 1907 - إيفاد الرحالة والمستكشفين، الذين تبعهم الصحفيون فكتبوا تحقيقات وتقارير مليئة بالدعايات المضللة التي صورتها بأنها جنات من النعيم - تدعيم مكانة الجالية الإيطالية المقيمة في البلاد بفتح معاهد تعليمية لأبنائها وإرسال البعثات الدينية. ومن ثم أخذت الحكومات الإيطالية تتحجج بمضايقة السلطات العثمانية الحاكمة لهذه الجالية ولمصالح إيطاليا الاقتصادية، وهو ما ساقته حكومة جولييتي في إنذارها النهائي لإسطنبول بتاريخ 26 سبتمبر 1911، والذي قررت فيه عزمها على احتلال ليبيا. وهكذا ومنذ 28 سبتمبر أطلت الأساطيل الإيطالية على السواحل الليبية وبدأت في قصف المدن ثم إنزال جنودها الغزاة على الشواطئ حيث دومت طرابلس يوم 2 أكتوبر وطبرق يوم 4 أكتوبر، ودرنة يوم 16 أكتوبر، والخمس يوم 17 أكتوبر، وبنغازي يوم 18 أكتوبر<sup>71</sup>. وقد فوجئت قوات الغزو بالمقاومة الشعبية المستبسة في المعارك الشهيرة المعروفة مما جعل الجنرالات الإيطاليين يرتكبون أعمال القتل العشوائي والشنق الجماعي في الساحات العامة للمجاهدين الليبيين. وقد لا يعلم الكثيرون أن أول طائرات استعملت في الحروب كانت في ليبيا، ففي يوم 22 أكتوبر 1911 قام الكابتن **Piazza** بقصف المجاهدين في عين زاره ووزنور، وفي 10 مارس 1912 استخدم الإيطاليون المنطاد P1 و P2 في قنبلة المجاهدين المتحصنين بفندق التوكار، وفي يوم 12 سبتمبر 1912 أسقط المجاهدون في المنطقة بين (المايه) و(القديم) المنطاد P2، وكان يقوده الكابتن "ماوزو" **Moizo**.

وقد نددت الصحف الأوروبية ومراسلوها الذين صاحبوا الحملة بفضائح الشنق التي اقترفها الجيش الإيطالي، وتظاهر إيطاليون ضدّ العدوان الوحشي حيث أضرب العمّال في الشمال الإيطالي عن العمل يوم 23 سبتمبر، واصطدموا مع الشرطة. ومن المفارقة هنا أن موسوليني الإشتراكي يومها كان معارضا لإرسال الجنود بالقطارات لتدعيم الحملة على ليبيا؛ الأمر الذي ترتّب عليه أول إنشقاق داخل الحزب الإشتراكي الإيطالي الى تيارين: يساري معارض للحملة

<sup>71</sup> من ورقة خاصة للباحث الليبي السيد مفتاح السيد الشريف.

بزعامه تريفييس، والإصلاحي توراتي ونيني، وتيار مؤيد لها بزعامه بيسولاتي وبونومي. ولم تصنع الحكومة الإستعماريّة لنصيحة الجنرال كانيفا قائد الحملة نفسه بتلمس أساليب سلمية للتفاهم مع السكّان، لما استشعره من استمرار حرب طويلة ومريرة بسبب شراسة مقاومتهم - كما جاء في بيانه بتاريخ 6 نوفمبر أي بعد مرور شهر على بداية الغزو<sup>72</sup>.

وفي أكتوبر 1922 انفجر الوضع في إيطاليا نفسها باستيلاء الفاشيست على الحكم. وبقدوم الفاشيست تغيّرت السياسة الإيطاليّة تجاه المستعمرة الليبيّة، خاصة وأن شيخ المجاهدين عمر المختار تولّى قيادة الكفاح المسلّح، وحقّق فيه الانتصارات المتلاحقة، فصمّم الفاشيست على اتباع سياسة الإبادة والسحق للمقاومة، ففي الفترة من (1923-1931) أستطاع الفاشيست من توسيع رقعة الإحتلال حتى شمل كل طرابلس وفزان بعمليّات استمرت حتى 1930. وفي برقة أجتاحوا أغلب أراضي الإقليم. ومارس المارشال بادوليو العنف، مع المطالبة باستسلام المقاومة، فاستدعى السيّد الرضا الذي كان في روما منذ عام 1928 محاولا وساطته مع قائد المقاومة عمر المختار.

تمسّك شيخ المجاهدين بتطبيق اتفاقيّة الرجمة التي ألغاها الفاشيست في مايو 1923، وإشراك بريطانيا وفرنسا وألمانيا في هدنة جديدة. ثم أرسل الى الوالي رسالة أخرى بالمطالب الوطنيّة المشروعة. ولمّا رفض الفاشيست الردّ عليها استأنف القتال في 8 نوفمبر 1929. وجاء الردّ على لسان وزير المستعمرات "دي بونو": (إن المتمرّدين أرادوا الحديث عن السلام والضمانات، ولكن الإيطاليين الفاشيست لن يحموا المتمرّدين ولا ممتلكاتهم.. إنهم يقبلون الخضوع فقط، وإلا فالرشاشات، وإذا دعت الضرورة فالمشائق)<sup>73</sup>. وهو ما طبّقه السفاح "جرازاني" الذي عيّن نائبا للوالي في مارس 1930 ليعلن أمام جنوده: (لن يكون هناك سلام لأي متمرّد ولا لعائلته ولممتلكاته أو مواشيه.. دمّروا كلّ شيء الناس والأشياء..). وفي حربه الوحشيّة استخدم "جرازاني" أيضا القصف الجوي بالغازات السامة والمشعة من نوع "إبيبرتي" - نسبة الى

<sup>72</sup> من ورقة خاصة للباحث الليبي السيد مفتاح السيّد الشريف (مرجع سابق).

<sup>73</sup> من ورقة خاصة للباحث الليبي السيد مفتاح السيّد الشريف. أرسلها لي الباحث الليبي في جامعة سبها د. عبد القادر الفيتوري.

المدينة الفرنسية المصنَّع بها yepres وهو القصف الذي شمل العديد من القرى والواحات من القبله الى زنور والنوفليّه ثم الكفره وتازربو. ولم يُكشف عن ذلك إلاّ في وثائق إيطاليّة نُشرت متأخرة عام 1979.

وهكذا استطاعت إيطاليا الفاشيّة أن تنتصر عبر عشرين سنة من كفاح مرير غير متكافئ بكلّ المقاييس، إذ تمكّنت من أسر عمر المختار الذي سقط جريحا من جواد في موقعة (عين لافو) بالقرب من شحات يوم 11 سبتمبر 1931، وجاء العقيد "دايوديتشي" المذكور ليتعرّف عليه. ثمّ نُقل الى بنغازي بالباخرة وخفّ اليها "جرازياني" - وكان في روما- لمقابلته وإجراء المقابلة الشهيرة معه. وأجريت المحكمة له في مقر البرلمان المنحلّ يوم 15 سبتمبر وفي فجر يوم 16 سبتمبر شنق شيخ الشهداء على مرأى من أبناء شعبه الذين أُجبروا على مشاهدة جريمة العصر النكراء<sup>74</sup>.

#### وصف جريمة الإبادة الكيماوية في ليبيا:

يعتبر كتاب " حرب الإبادة في ليبيا " للدكتور الايطالي "ايريك ساليرنو" الذي صدر عام 1979 " ترجمة. الصادق حسنين " من المؤلفات الفريدة التي تضمنت سردا لاهم احداث الحرب التي اشعلت ايطاليا نيرانها في ليبيا. إضافة الى ان المؤلف انفرد بأستقاء جل معلوماته من مصادر ايطالية وممن قيض لهم ان يعيشوا مآسي العدوان الغاشم واهواله . فقد انفرد ايضا بالقاء الضوء على فداحة الجرم بابرار ووثائق لاول مرة تشير وتؤكد على استخدام المحتل لاسلحة الابادة الجماعية متمثلة في الغازات السامة المحرمة دوليا . وقد خصص الفصل الثالث من الكتاب لهذا التطور المرعب في اساليب الحرب . هذه جملة من الاعترافات التي حملتها الوثائق التي رفعها العسكريون الى قياداتهم، وكما اوردها المؤلف<sup>75</sup> :

1- بتاريخ 6 يناير 1928 بعث دي بونو الى وزارة المستعمرات بالتقرير المقتضب التالي :

<sup>74</sup> . ساليرنو ايريك ، 1979، " حرب الإبادة في ليبيا"، ترجمة الصادق حسنين، عدة صفحات.  
<sup>75</sup> من ورقة خاصة للباحث الليبي السيد مفتاح السيد الشريف.

" 263 اوب . الادارة الحكومية / سري / احدث اخبار اليوم / تتواصل مسيرات فصائلنا بانتظام . قامت صباح اليوم – كما هو مقرر – اربع طائرات كابروني وثلاث اخرى من نوع روميو بقصف واحة جيفة الى حد التدمير الظاهر للعيان . وقد توغلت الطائرات كابروني الاربع نحو سبعين كيلو مترا جنوبي النوفلية واصابت حوالي اربعمائة خيمة بقنابلها المتفجرة وبقابل الغاز السام ... "

2- رواية اخرى ضمن كتاب " اجنحة فوق الصحراء " وهو من تأليف فينتشينز بياني، وقد ضمنه ذكريات الحرب وقدم له المشير بالبو بعبارات الاطراء والثناء .. يقول : " لقد استخدمت ذات مرة قنابل للغاز السام، كانت متروكة منذ زمن الحرب في مخزن قديم، وانما كانت الآثار المتمخضة عنها مذهلة الى درجة ان من اسقطت عليهم قد تهاقتوا على القاء اسلحتهم " .

3- جاء في تقرير اللواء تشيكونيتي يشرح توكيده على فعالية الغارات الجوية قوله :

( أ ) ان الخسائر في الرجال هي افدح بكثير – يقينا – من تلك التي ذكرناها والتي كانت تتعلق بمن سقطوا وجرى احصاؤهم في مواقع القتال والتي لم تشمل الجرحى ، الذين لا يمكن ان تخلو معركة منهم ، ولم تتضمن أولئك الذين ماتوا من جراء الآثار الفتاكة لعمليات القصف الجوي بالاضافة الى آثار الغاز السام التي تؤخذ في الحسبان، ولم يمكن الوقوف على حقيقتها في الحال . وكدليل على الفعالية الرهيبة لعمليات القصف الجوي نقتصر على القول بأن مجرد ظهور طائراتنا بالجو كان يدفع بجموع غفيرة من الناس الى اللوذ بالفرار والابتعاد أكثر فأكثر والاختفاء عن الانظار .

( ب ) وبالنسبة للمواشى ايضا يجب ان تضاف الى القطعان المحتجزة والمقتولة برصاص الرشاشات ، تلك التي أصيبت بالغاز السام وبالقنابل الملقاة من الجو والتي لم يتيسر حصرها حتى الآن ...

4- بتاريخ 4 فبراير 1928 حاكم طرابلس "دي بونو" اخبر رؤسائه بأن: ( جميع الطائرات من نوع كابروني توجهت في اليوم ذاته كما انبأناكم سلفا الى الجنوب من جيفة " .

وكان قد قام المجاهدون قبلئذ بإزالة نجوعهم من هناك " وشدوا الرحال بأبلهم المحملة نحو الجنوب الشرقي " وفيما كانوا يسيرون " ألقت عليهم طائراتنا وابلا من القنابل المتفجرة وقنابل الغاز زنة ثلاثة اطنان تقريبا وكانت عواقب ذلك ظاهرة جلية ) .

5- بتاريخ 12 فبراير 1928 نقل "تيروتسي" في تبليغاته: ( .. وبعد سبعة ايام قامت دورية من طائرات كابروني من مطار بنغازي وانجزت عملية القت في اثناها ثمانية قناطر من الغاز السام على نجع مؤلف من نحو مائة خيمة وقدر كبير من الماشية .. يبدو ان ( المتمردين ) تركوا بوادي الحليقة اربعين خيمة كان عشرون منها مخروطة الشكل وذلك في اعقاب القصف المتكرر بقنابل الغاز ) .

6- في عام 1930 ارسل "باضوليو" برقية من روما الى "سيتشيليانى" في بنغازى مع نسخة منها للاطلاع موجهة الى "دي بونو" ، وزير المستعمرات. واذ يشير الى الاوضاع في برقة يحذر باضوليو قائلا : (تذكروا أن لا بد من امرين بالنسبة لعمر المختار : اولا : جهاز جيد من الاستخبارات تانيا : مباحثة محكمة بالسلاح الجوي وقنابل الغاز السام . وآمل ان ترسل القنابل المذكورة اليكم في اقرب وقت ) .

7- في غرة شهر ديسمبر من ذات السنة ارسل المقدم لوردي الى روما نسخة من المعلومات المتعلقة بأثار قصف واحات تازربو بقنابل الغاز السام يوم 31 يوليو ، تلك المعلومات التي ( تم الحصول عليها من خلال استجواب احد المجاهدين الذي كان قادما من الكفرة ووقع في الاسر مند ايام ) ... ( بناء على تكليف قائد السلاح الجوي ببرقة ، قمت يوم امس باستنطاق المناضل محمد بوعلى الزوية من الكفرة بشأن الاثار التي خلفها القصف بالغاز في تازربو ... لقد وصل هذا الشخص الى تازربو قادما من الكفرة بعد ايام عديدة من حدوث القصف، وانه يعلم ان اربعة اشخاص قد لقوا مصرعهم في اعقاب القصف . ويبدو أنه شاهد عددا كبيرا جدا من المرضى الذين يعانون من اصابتهم بالغاز السام ، فقد رأى ضمن هؤلاء اشخاصا كانوا يكشفون عن ابدانهم المغمورة بقروح شبيهة بالحروق العميقة المبرحة ... انه يوضح ان بدن المصاب كان

في بادئ الامر تنتشر عليه حويصلات متورمة كانت تنفتح بعد مضي بضعة ايام مسفرة عن سائل عديم اللون . وهكذا كان يبقى لحم الانسان متورما لفقدانه البشرة السطحية الواقية . ويرى الاسير كذلك ان رجلا قد لقي عين المصير لمجرد لمسہ – بعد الغارة بايام كثيرة – لقنبلة لم تنفجر ، اذ تورمت ليس يداه فحسب وانما سائر اعضائه التي كان يضع يديه الملوثنين عليها . . .).

يضيف المؤلف : ( ... هذا وان نوع الغاز الذي استعمل يدعى ( ايبيريت ) وهو حسب ما جاء في الموسوعة الاميركية يمكن أن يسبب في امراض وراثية وقد يجوز ان يخلف آثاره ليس في المصابين به مباشرة فقط ولكن في عقبهم أيضا .. ان استعمال غاز الايبيريت، الذي قيض له ان يصبح بعد بضع سنين وسيلة ناجعة لآبادة السكان المدنيين في اثيوبيا ، كان بلا ريب خيارا عسكريا وسياسيا معا .. ولعل مخازن المحفوظات ما زالت تضم تلك الوثائق التي يمكن ان تقيم الدليل) .

كان "غراتسياني" يأمر طياريه بإلقاء قنابل الغازات السامة مثل غاز الفوسيجين، الذي هو مركب من الكربون والكلور، وهو من اشد الغازات فتكا، لأنه أثقل من الهواء ثلاث مرات ونصف، وبالتالي يبقى في شكل سحابة غاز ملامسة للأرض، كما أنه أكثر سمية من الكلور 15 مرة، ويوصف بأنه قاتل للانسان الذي يبقى عشر دقائق يتنفس هواء يحتوي على 45مم من هذا الغاز في المتر المكعب الواحد من الهواء، ويمكن ان يكون مميتا حتى ولو كان تركيزه اضعف من ذلك، ويورد المؤلف واحدة من الاحصائيات عن نشاط الطيران الإيطالي ضد الليبيين في الفترة ما بين يناير 1924 إلى يونيو 1925، وقذف الليبيين بالقنابل والغازات السامة وملاحقتهم بالرشاشات كما يلي: قام الطيران الإيطالي في تلك الفترة بـ 3103 طلعة في مجموع ساعات طيران بلغت 2630 ساعة، قطع خلالها 400 ألف كيلومتر، وقذف فيها 22770 أنبوبا متفجرا،

و47649 قنبلة حارقة ومتفجرة من بينها الكثير من الغازات السامة، وقد مات المئات من الليبيين خنقا بهذه الغازات المحرمة عالميا.<sup>76</sup>

#### 6-16: استخدام الاسلحة الكيماوية الايطالية في الحبشة:

في عام 1925 أجاز "بنيتو موسوليني" التخطيط لحملة غزو كامل للحبشة، منتظرا الظروف المواتية. ورغم انه وقع بروتوكول جنيف في عام 1928 ، الا ان ذلك لم يمنعه استخدام الغازات السامة. والواقع انه سمح قبلها بقصف الثوار الليبيين بالغازات السامة اواخر العشرينات. ورغم ان ذلك تم بمنتهى السرية والكتمان لكن اخبار الجريمة قد خرجت الى الرأي العام العالمي. كانت ايطاليا مجهزة جيدا ومستعدة لخوض حرب تستخدم فيها الغازات السامة لغزو الحبشة عندما عقد موسوليني العزم على احتلال الحبشة في ديسمبر 1934.

خزنت قنابل الغاز في ارتيريا، والصومال الايطالي، فيما بين 25 جوان الى 25 ديسمبر 1935. عبرت المعدات الكيماوية قناة السويس بحوالي 265 طن من الغازات الخائفة، و 45 طن من غاز الخردل، و 7483 قنبلة غاز. وفي 4 جانفي 1936 عبرت السفينة الحربية سيسيليا قناة السويس وهي تحمل 4700 قنبلة غاز خانق ومسيل للدموع.

عندما شن الايطاليون حملتهم في 2 اكتوبر 1935 كان الجيش على علم بنية استخدام الغازات السامة، وان النصر محقق قبل موسم الامطار التالي في الشمال، أي في شهر جوان 1936 لان من الصعوبة بمكان بعد ذلك القيام بهجوم حاسم والاحتفاظ بجيش كبير في الميدان. لقد وجد الضباط الايطاليون فرصتهم لاختبار التكتيكات التي لم يجربوها بحروب الغاز الا في المناورات. وكان بإمكانهم استخدام انواع متعددة من العوامل الكيماوية، وتجريب وسائل الاطلاق، وخاصة في الجو. ومن المواد التي استخدمت تبين ان المهيجات لم تكن ناجحة جدا،

<sup>76</sup> صدر مؤخرا عن مجلس تنمية الإبداع الثقافي بالجمهورية الليبية ( الطبعة الأولى 2004 ) كتاب موسوعي ضخم للأستاذ الدكتور وهيبي أحمد عقيلة البوري بعنوان: بنغازي في فترة الاستعمار الإيطالي. ..نقتطف منه: (.. قامت الطائرات الإيطالية بمهاجمة واحة تازربو وألقت عليها (21) قنبلة معبأة بالغازات السامة زنة الواحدة منها (21) كيلو غراما بالإضافة إلى (784) كيلو غراما من المتفجرات الأخرى وأحدثت الغازات والقنابل خسائر في الأرواح وتشويها في الأجسام).

واسقطت غازات الكلور اسيتوفينون CN وثاني فنييل الكلور ارسين DA وفنييل ثاني الكلور ارسين بواسطة القنابل، ويحتمل ايضا بواسطة قذائف المدفعية؛ الا ان صعوبة تحقيق تركيز عال من هذه العوامل يؤكد استخدامها بشكل متقطع وعلى نطاق ضيق.

عملت الاوضاع الجوية المحلية ضد استخدام العوامل القصيرة الاثر، مثل الكلورين، والفوسجين، والكلور بكرين. ولم يكن في الامكان التنبؤ بحركة السحب، حيث تتحول الرياح العاصفة فجأة الى سكون تام. اما في المناطق الصحراوية فيرتفع الهواء الاستوائي الحار في النهار ليبدد سحب البخار، او عندما تسقط زخات شديدة من المطر " تغسل " الغاز من الهواء. واصبح الخردل هو العامل الرئيسي المستخدم، رغم انه يتطاير بسرعة في الشمس الحارة، واصبحت الطائرات هي وسيلة الاطلاق الرئيسية. وقد استفادت ايطاليا من سيطرتها التامة على الاجواء.

وفي البدء، استخدمت خزانات معدنية "قنابل قابلة للكسر" لها جدران رقيقة كان يجري اسقاطها وتتمزق بمجرد ملامستها للارض مطلقة ملاطا من الكيماويات زنته ما بين (70 - 200) باوند. ورغم ان هذه الوسيلة من الهجوم كانت تلحق اصابات، فقد كان في وسع المحاربين المجريين تجنب ذلك الملاط.

ووجد ان القنابل التي تنفجر بواسطة مواد تفجير على الارض من زنة 100، و 200، و500 كغ هي اكثر فاعلية، وقادرة على بعثرة المواد الكيماوية فوق مساحة اوسع (على دائرة قطرها 200 يارد تقريبا). واخيرا كان استخدام الرش الجوي، لرش العوامل الكيماوية بشكل اكثر دقة وبتوزيع افضل على منطقة اوسع.

بشكل رئيسي كانت الحرب الايطالية على الحبشة حربا على جبهتين، فالهجوم الايطالي الرئيسي شن من ارتيريا في الشمال، تحت قيادة الجنرال "اميليو دي نونو"، تلاه بعدها المارشال بييترو بادوليو، وكان هدفه احتلال العاصمة الاثيوبية اديس ابابا. وقامت قوة اصغر يقودها

الجنرال "رودolfo غرازياني" بغزو الحبشة من الصومال الايطالي في الجنوب، وكان هدفها الرئيسي مشاغلة اكبر عدد ممكن من القوات الاثيوبية ومنع استخدامهم في الشمال.

حدثت هجمات الغاز الرئيسية في الشمال بعد ان خلف "بادوليو" القائد "دي بونو" في نهاية نوفمبر، وكان هذا التغيير بأمر من "موسوليني" الذي ازعجه ذلك التأخر واعطى اوامره بالتقدم واستعمال كل الوسائل الضرورية، وليس قصف القرى فقط؛ بل استخدام الغازات السامة وقاذفات اللهب وعلى نطاق واسع. وبعد ان استخدم "بادوليو" الغاز عند نهر تاكاز Takaze في 22 ديسمبر 1935 لتخفيف الضغط عن الفيلق الثاني، بدأ يعتمد عليه اكثر فأكثر بعد ذلك.

استخدام الغاز كان له عدة اهداف منها تعبوية تدريبية للقوات الايطالية، وحماية جوانب القوات الايطالية اثناء تحركها في الجبال، وبدلا من حراسة المرتفعات كانت المساحات المحاذية تلوث بالغازات وبذا يضمن الطليان حرق الاحباش الحفاو بالغاز اذا ما حاولوا دخول تلك المناطق. استخدم الغاز لمنع قوافل الامداد والذي لم يوقع اصابات كثيرة مباشرة بالقوات الا انه دمر الكثير من المواشي وحيوانات الركوب علاوة على بث الرعب بين السكان. وفي الوقت الذي كانت نيران الرشاشات تحصد ارواح الاحباش كان "بادوليو" يرش المناطق خلف العدو وخطوط تراجعهم المحتملة بالغازات القاتلة ثم يقوم باجبار الاحباش على التراجع بنيران المدفعية والمواد شديدة الانفجار ويحول تراجع وهزائم قواته الى هزيمة منكرة عندما يمر المحاربون الحفاة المجردون من اية وسائل الحماية من الغازات عبر الشعب الملوثة بالغازات.

شن موسوليني حملة اعلامية غير عادية لاختفاء حجم الضحايا من هجومات الغازات السامة، وهو يصور بذات الوقت ان ايطاليا هو البلد المتحضر القادم لاختضاع خصم وصفه الايطاليون بـ "الهمجي". وقد حاول "موسوليني" إخفاء الحقائق عن الشعب في ايطاليا والعالم. لم تطغ قضية سياسية متعلقة بالاسلحة الكيماوية مثل قضية الهجمات الايطالية بالغازات السامة خلال الحرب الايطالية - الاثيوبية (1935 - 1936). وبعد ان اعترض الامبراطور "هيلا سيلاسي" لعصبة الامم على الهجمات الايطالية في 30 ديسمبر/كانون اول 1935، تبعتها سيل من الاتهامات تقدمت

بها الحكومة الاثيوبية، ومسؤولوا الصليب الاحمر، والمراسلون الحربيون. كما تلقت اللجنة13 التي شكلتها عصابة الامم لبحث القضية الاثيوبية. وثقت هذه الشكوى ببيانات عن الهجمات، وبشهادات طبية، صور عن اصابات بغاز الخردل، وتفصيل عن شحنات القنابل والغازات السامة عبر قناة السويس.

ونظرا لاقتران هذه الادلة مع التقارير التوضيحية للهجمات الجوية بالغازات السامة، فلم يكن تجاهلها ممكنا. ورغم رفض ايطاليا في البدء تأكيد أو انكار التهم، لكنها أقرت ضمنا بها بالتأكيد (على حقها في الانتقام من "الفضائع" التي ارتكبتها الاحباش، وبالزعم بأن بريطانيا واسبانيا قد استخدمتا قبلها الغاز في النزاعات داخل مستعمراتهم). وعند بحث الاتهامات الاثيوبية، لم تنكر ايطاليا/ صراخة، استعمال الغاز، وقال ممثلوها امام عصابة الامم" ان البروتوكول لا يستثني الحق القانوني القائم فيما يتعلق بحق الانتقام"، ثم قدموا قائمة"بالجرائم الحبشية" التي تضمنت تعذيب الاسرى الايطاليين وقطع رؤوسهم وخصي القتلى والجرحى، وسوء استخدام شارة الصليب الاحمر واستخدام رصاص محرم دوليا من نوع "الذم دم"... الخ. حاول موسوليني التكتم على اخبار جرائم الغاز كسلاح، وخشي ان الفاشية قد تفقد بريقها. تفاوتت التقارير الصحفية المرافقة للحملة الايطالية بالمفارقات بين معارض ومؤيد وصار تسريب الاخبار حكررا على هذا وذاك، لكن الحقيقة النهائية عرت الفاشية باجتماع 120 صحفي وصلوا الى اديس ابابا في اكتوبر1935 تفاوتت تقاريرهم بسبب الولاءات الايديولوجية والاختلافات السياسية والمصالح الدولية وصعوبة فهم اللغة وفقدان الامن داخل اثيوبيا في المناطق التي تعرضت للغاز وانتهاء انهيار القوات الاثيوبية الذي تبعه فرار الامبراطور والاستيلاء على عاصمته يوم 5 ماي/ ايار 1936، بشكل مفاجئ واعطي تفسيرات متسرعة ومرجلة، الا ان الحقيقة التي لا شك فيها ان الغاز كان سلاحا حاسما. وان الاسلحة الكيماوية أكدت في الميدان انها اسلحة دمار شامل استخدمت ضد شعب أعزل وجيش من الحفاة العراة كانوا يمرون عبر مناطق

ملوثة بالغاز من دون اية وسائل استشعار بها وهم يجهلوننها تماما وقد تعرضوا اليها في وهج الشمس الاستوائية حيث بدت القروج التي سببها غاز الخردل بشعة.

كان الاثيوبيون لا يعرفون شيئا عن الاقنعة الواقية او الكمامات او الملابس الواقية سوى (1800 قناع غاز قدمها اتحاد المرأة الاثيوبية العاملة)، ولم تتمكن حكومة اثيوبيا من استيراد الادوية اللازمة الا تلك الخاصة بمعالجة الحروق، والتي لم تصل الا بكميات محدودة وفي نهاية الحرب في افريل/نيسان 1936. ومع كل الضجة التي اثيرت حول تلك الجرب البشعة فقد كانت الارقام الحقيقية لضحاياها محدودة، واكتفت الصحافة الغربية الى الاكتفاء لما توفر من مقابلات، منها مع اعضاء وحدة الصليب الاحمر البريطانية الذي صرح انهم "عالجوا ما لا يقل عن 2500 اصابة بالغاز بعد شهر واحد من وجودهم في المنطقة.

وبعد تمحيص مختلف التقارير الطبية والاعبارية استخلص هيربرت ماثيو من صحيفة النيويورك تايمز مايلي: (...حين تجمع هذه التقارير معا، فماذا يكون لديك في أفضل الظروف بضعة آلاف من الفلاحين والجنود احرقوا بدرجات متفاوتة بغاز الخردل)، وهي محاولة تتصل من نقل الحقيقة لان الضحية هنا افريقية سوداء، ولأن الحقائق تشير الى ان هناك اكثر من 150 صحفيا لحقوا بالقوات الايطالية، لم يبق منهم سوى 24 بحلول عيد الميلاد، كان اربعة منهم فقط من غير الايطاليين، وواحد من هؤلاء كان "هيربرت ماثيو" من النيويورك تايمز والذي ختم تقريره: (... لا يمكنني ان اتصور كيف يمكن لرجل مُدرك، يسترشد بالحقائق المتاحة ان يتوصل الى نتيجة ان الايطاليين حطموا المقاومة الاثيوبية بالغاز)، ومع ان "ماثيو" لم يشهد أي هجوم بالغاز ولم يقابل أي من ضحايا تلك الهجمات، ولا يتكلم اللغة الامهرية، فهو لا يستطيع ان يقيم تأثير الغاز على معنويات الاثيوبيين. وشأنه شأن حتى أولئك الصحفيين والمراسلين الحربيين الذين اجتمعوا في اديس ابابا في اكتوبر 1935 والذي بلغ عددهم 120 ولم يبق منهم سوى 12 فقط لعدم تمكن الاثيوبيون من ضمان سلامتهم واضطرارهم الى المغادرة بحلول كانون الثاني/جانفي 1936 لم يضيفوا شيئا لأنهم اعتمدوا على المخبرين المستأجرين واعتمدوا على

"تسريب" التقارير المتفائلة مثل كتابات "جورج ستير" من التاييمز وغيره. لذا كان الحديث عن معنويات الاثيوبيين وانهيار معنوياتهم الا تحصيل حاصل ويجافي مهمة الصحافيين التي جاؤوا من اجلها بعد اعلان الحكومة الاثيوبية فضيحة استعمال الغازات السامة امام عصبة الامم معززة بكل الوثائق والادلة غير القابلة للانكار.

يقدم العقيد "كانوفالوف"، المستشار العسكري للامبراطور "هيلا سيلاسي" وجهة نظر مختلفة تماما لما جاءت به التقارير الصحفية بقوله: (... فبعد ان راقب قوات الامبراطور تتعرض لقصف منتظم بالغاز لمدة شهر كامل قرب كورام Quoram من قبل الطيران الملكي الايطالي، قال بأن الامبراطور كان مضطرا الى خوض القتال لأن جيشه كان يتعرض لخطر التفكك. ولاحظ: ( بأن الجيش كان مرهقا من رشه باستمرار بغاز الخردل Yperite [نوع (إبييرتي) - نسبة الى المدينة الفرنسية المصنّع بها yepres] الذي كان يحرق اكتافهم واقدامهم، ويصيبهم بالعمى، وكان يحرق افواه رواحهم عندما كانت تمضغ الاعشاب الملوثة.... وقالت قبائل الشوان بأنهم يريدون العودة الى بيوتهم...) ، وحدثت عمليات هروب جماعية من الجيش في أمبا ارادام، تيميبين، وشير. وفي نهاية مارس/اذار). أخبر "ايفرت كولسون"، المستشار الامريكي للامبراطور "هيلاسيلاسي" الصحفي "جورج ستير" من "التاييمز": (...بأن الناجين من الجيش في راس امرور Ras Imru وراس اييلو Ras Ayelu قد عادوا الى بيوتهم" وقالوا بانهم لتا يستطيعون محاربة الغاز"... ورغم ان شراذم منى هذه القوات انضمت الى جيش "هيلاسيلاسي" في هجومها الاخير ضد ميكيو في 31 مارس/اذار فان النتائج كان يمكن التنبؤ بها بسهولة. فما ان احتوى الايطاليون الهجوم ودمروا القسم الاعظم منه بقنابل المدفعية والرشاشات، حتى شنوا هجوما مضادا بسبعين طائرة كانت تقصف بالغازات السامة والمواد شديدة الانفجار، وبعد ثلاثة ايام، كان الاثيوبيون قد تشتتوا نتيجة مذبحة بحيرة اشانجي).

(...استخدام الايطاليين الغاز في تلك المعارك، وفي قصف عدة مدن، يوضح ان الايطاليين اعتبروا الغاز سلاحا مثاليا لارهاب العدو. فغداة نصرهم في معركة بحيرة اشانجي اخضعوا

كورام لقصف متواصل بالغاز استمر طيلة اربعة ايام(4 - 7) افريل/نيسان 1936، حيث ذكر ان المدينة "اغرقت فعلا بالغاز". اتفق عدد من الاطباء الذين عالجوا ضحايا تلك الهجمات ان تأثير الغاز كان متفاوتا على معنويات رجال القبائل. ويصف "جي ماكفي": كيف ان الناس، ورغم تعودهم على القنابل شديدة الانفجار (بدوا مذهولين من تأثيرات الغاز. فقد كان امرا فوق احتمالهم، شئ شيطاني غامض). وكان "جون ميلي" اكثر رعبا حين قال: (... هذه ليست حربا، وليست حتى مذبحه، انها عملية تعذيب لمئات الالاف من الرجال والنساء والاطفال بقنابل الغاز السامة).

خشي السير "سدني بارتون" السفير البريطاني في اديس ابابا: (... من ان يكون للغاز مضامين تكتيكية حاسمة... وفي 10 افريل/نيسان 1936 ارسل برقية الى وزارة الخارجية منبها الى ان الايطاليين" ولمدة تزيد عن شهر مضى يعتمدون على الاستخدام المكثف للغاز لطررد الاثيوبيين من مواقعهم التي أقاموها على امل تحقيق نتائج حاسمة قبل تدخل عصبة الامم. ويمثل اسنخدام الغاز افضل الفرص لديهم لتحقيق تلك الغاية).

كان خطاب الاميراطور الاثيوبي مؤثرا وهو يعرض مأساة بلاده أمام الجمعية العامة لعصبة الامم: (... وصف غاز الحردل بانه "مطر يوزع الموت"، اوقع مئات الالوف من الاصابات).

يرى الكثير من المؤرخين والمراسلين الحربيين ان ايطاليا كانت قادرة على حسم الحرب لصالحها بما تمتلكه من جيش عال التدريب وحديث المعدات وتفوق جوي كاسح... الخ؛ لكن القائد الايطالي الجنرال "بادوليو"، وبضغط من "موسوليني" نفسه كانا يريدان اولا تجريب اسلحتهما الكيماوية في الحبشة، والانتصار بسرعة على الاثيوبيين (قبل حلول الامطار الموسمية وتساعد استخدام الغاز بعد ان افترض امره هو التعديل بحسم المعركة بإشاعة الرعب وانهيار القوات الاثيوبية قبل ان تتخذ عصبة الامم أية قرارات أو عقوبات اقتصادية او سياسية بحق ايطاليا. والدليل على ذلك ان موسوليني... فما ان سقطت اديس ابابا حتى امر جنرالاته ان يواصلوا استخدام الغاز لتهدة المناطق الاخرى من البلاد). واستمر الايطاليون في جرائمهم بعد

سقوط العاصمة الاثيوبية، لانهم يعرفون أن لا احد سيعاقبهم، ولا لايوجد أي رد انتقامي على جرائم الحرب الكيماوية التي نفذوها ضد الشعب الاثيوبي.

كان سكوت فرنسا وبريطانيا تواطئا مكشوفاً لحليفهم الايطالي في مؤتمر لوكارنو، بحجة الحفاظ على الامن الجماعي الاوربي. وهكذا تم تميع قرارات عصبة الامم في 18 نوفمبر 1935 التي سبق ان ردت على الغزو الايطالي بفرض عقوبات اقتصادية ضد ايطاليا. لكن لم تتوقف عنها امدادات الوقود، أو منعها مرور سفنها من قناة السويس في وجه تحركاتها العسكرية وغزوها.

ورغم احراج بريطانيا وفرنسا امام الاحتجاجات الاثيوبية، لكنهما حاولتا شراء رضى موسوليني خلال النزاع. وفي فرنسا كان الموقف من "الحرب الاثيوبية- الايطالية" قد قسم الرأي العام في فرنسا. دعمت كلتا الحكومتين تقرير اللجنة 13 لعصبة الامم، التي ذكرت المتحاربين " بأهمية التزاماتهم بموجب بروتوكول جنيف. وحتى هذا القرار، وبهذا الرد شكل استفزازاً لإيطاليا التي اعتبرت ان ذلك الامر عاديا وكرد فعل على ما وصفته الحكومة الايطالية على "الفضائع" التي ارتكبتها الأحباش، كما هو الامر مع بريطانيا واسبانيا في استخدامهما الغازات السامة داخل مستعمراتهما.

لم تتمكن بريطانيا من القيام بعمل بحري ضد ايطاليا دون دعم من فرنسا التي إنقسم فيها الرأي العام: فمن جهة اراد "بيير لافال"، الذي يمثل الجناح اليميني في الحكومة، الحفاظ على التحالف مع ايطاليا؛ في حين فضل الراديكاليون الذين يعتمدون على دعم مجلس النواب، الحفاظ على عصبة الامم والامن الجماعي، وكانت العلاقات الانجلو- فرنسية متوترة أصلاً بسبب الاتفاق البحري البريطاني - الالمانى في 18 جوان 1935، بسبب المعارضة البريطانية الشديدة لخطة هاوار- لافال، التي اعطت موسوليني الكثير مما كان يطلبه في الحبشة. واخيراً، اكد إحتلال "هتلر" لمنطقة الراين في 7 مارس 1936 مثل هذه الحقيقة " انه سيكون للقضايا الاوربية الأولوية، وان فرنسا لن تستفز ايطاليا، حتى وان شكلت فيها حكومة جديدة.

ورغم السخط الشعبي ضد استعمال الايطاليين للغاز، وخاصة في بريطانيا، إلا ان كلتا الحكومتين البريطانية والفرنسية قد ميعتا القرائن والأدلة الاثيوبية، رغم ان مجلس الوزراء البريطاني كانت قد توفرت لديه عينات من القنابل والسوائل الكيماوية التي سقطت قرب داغابور Daghabor يوم 30 ديسمبر 1935، وتبين منها انها "المسببات للبثور الناتجة عن التعرض لغاز الخردل"، كما اكدته دائرة أبحاث الدفاع الكيماوية البريطانية. ولم يجرأ احد من الوزراء البريطانيين على كشف الحقيقة، خشية الاعتراف، وأن: "ليس في مقدورهم عمل شئ لضمان إذعان ايطاليا لبنود المعاهدة".

اكتفى مجلس الوزراء البريطاني رفع القضية الى اللجنة 13 التي عينها مجلس عصبة الامم تحت عنوان عام: "بحث الاوضاع في الحبشة من كافة الجوانب"، و"القيام بتحقيق مستقل حول الاتهامات الاثيوبية". وعلى أي حال لم يحظ انتوتي إيدن بدعم كبير لإقتراحه باستثناء الدعم من مندوبي البرتغال والدنمارك واستراليا، وبلغ مجلس الوزراء البريطاني: (انه بالكاد، كان هناك من يفكر بالحبشة او افريقيا كلها).

اما "بول بانكو"، المندوب الفرنسي في عصبة الامم، فقد عمل على سد الطريق (على إجراء أي تحقيق، ذي قيمة، بالإصرار على ضرورة أن يشمل التحقيق "فضائع الحرب كلها، بما في ذلك استخدام الاثيوبيين لرصاص الدم دم"). وهكذا ساوت فرنسا بين الضحية والجلاد. وتجاهلت بريطانيا وجود كيان اسمه اثيوبيا، وقارة اسمها إفريقيا. والاعرب ان هاتين الدولتين تصران في بياناتهما المقتضبة تكرار عبارات من مثل: (... نذكر فيه المتحاربين "بأهمية" التزامهم بروتوكول جنيف)<sup>77</sup> ، وكأن ايطاليا واثيوبيا دولتان متجاورتان متحاربتان وعلى قدم المساواة من التقنية والسلاح، وليس الامر قضية غزو دولة اوربية لدولة افريقية، الاولى أرسلت جيوشها

<sup>77</sup> بروتوكول جنيف وقع في 17 جوان 1925 ووقعته 41 دولة، بما فيها الولايات المتحدة وفرنسا والمانيا وبولندا واليابان وبريطانيا، وقعا عمليا على اعلان استعادة توصيات معاهدة واشنطن، والتي وسعت لتشمل أيضا أسلحة الحرب الجرثومية، علاوة على الحرب الكيماوية. ولم يتضمن البروتوكول اية عقوبات لعدم الأذعان له، كما لم يطلب محاربة ومواجهة من لم يوقعوه. كما تجب المصادقة عليه، وهو امر بدا واضحا ان الولايات المتحدة سوف تنزعه لاحقا. راجع ص 68 و 69 من سيرز "الحرب الكيماوية".

وأسلحة دمارها الشامل عبر ممرات وبحار وارااضي لثلاث قارات. وعندما أُبلغ وسُئل "انتوتي إيدن" في مجلس العموم البريطاني عن سبب اخفاق بريطانيا بعمل ما يتعلق بالاتهامات عن استخدام الغاز في أثيوبيا؟. اكتفى بالرد: (... ان سياسة الحكومة البريطانية تقوم على العمل الجماعي، من خلال عصبة الامم؛ وبالتالي لا يسع ان تقوم بأي عمل تجاه هذه القضية من جانب واحد). لكن العارفين ببواطن الامور يعرفون ان ايطاليا تمسكت "بحقها" في الابداء للأحباش في الثلاثينات أسوة في "حق" جرائم الابداء التي قامت بها بريطانيا ضد الأفغان في العشرينيات من القرن الماضي باستخدام الغازات السامة في الحرق والخنق والتدمير، اذا ما شعرت ان قواتها واسلحتها الفتاكة "التقليدية" عاجزة عن إتمام مهمة الغزو والسيطرة والاحتلال لاراضي الغير.

وما بين سنوات العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وما قبلها تساوت دول وحضارة التمدن الاوربية بقيمها بتوزيعها حصص الموت وجرعاته على بقية القارات وممارستها الابداء الجماعية باسلحة الدمار الشامل "الكيميائي بالغازات السامة" على يد قوات فرنسا " في الجزائر" والمغرب، والبرتغال في مستعمراتها المختلفة، وبريطانيا العظمى في "الهند والعراق وافغانستان"، واخيرا ايطاليا "في الحبشة" وليبيا.

من ذلك كله دفع "ستانلي بالدوين" في خطاب ، ملئ بالتقارير، أن يتسائل: (... اذا كانت إحدى الدول الاوربية الهامة، ممن وقعت على بروتوكول جنيف لمنع استخدام الغازات السامة، قد استخدمته في أفريقيا، فما هي الضمانة من أنه لن يستخدم في أوربا؟).<sup>78</sup>

#### 6-17: قصف القبائل الافغانية بالاسلحة الكيميائية من قبل بريطانيا:

ما عدا الحالة الايطالية لا توجد حقائق موثقة عن استخدام البريطانيين والفرنسيين وغيرهم رسميا للاسلحة الكيميائية في البلدان المستعمرة. ولكن الارشيف البريطاني المسموح الاطلاع على بعض فتراته يشير الى طلب هيئة الاركان البريطانية، بدعم قوي من "تشرشل"، استخدام الغازات السامة ضد رجال القبائل الثائرة في افغانستان، ووجه الطلب بمعارضة شديدة من

<sup>78</sup> سبيرز ادوارد، الحرب الكيميائية، مرجع سابق، ص80.

السلطات العليا في بريطانيا وفي الهند. وقد خشي "ادوين مونتاجو"، وزير الدولة البريطانية لشؤون الهند من "النتائج السياسية والاخلاقية الخطيرة جدا" لاستعمال الغاز، في حين لم ير اللورد "كلمسفورد"، نائب الملك، ولا السير شارلز مونرو قائد القوات البريطانية في الهند، أية ضرورة لاستخدام الغازات السامة، طالما ان الجيش البريطاني قد انتصر في الحرب الافغانية الثالثة (نيسان - ماي 1919) باستخدام الاسلحة النارية التقليدية<sup>79</sup>.

وتشير الوثائق البريطانية ان الجنرال فولكس تمكن من حمل "كلمسفورد" و"مونرو" فيما بعد على تغيير رأيهم، بعد رحلة مكثفة الى الحدود وقيامه بحملة "تثني على الفوائد التكتيكية لغاز الخردل"؛ الا ان الادارة البريطانية في الهند تمسكت برفضها ومعارضتها للاستخدام شكليا. ان الوثائق البريطانية تشير ايضا الى حقيقة: (... والواقع ان مونتاجو حظي بدعم عدد من زملائه في مجلس الوزراء البريطاني، بما في ذلك اللورد "فيشرط وزير التجارة). قال "فيشرط في مذكرة مطولة: (... ان رد الفعل الاولي على حرب الغازات كان صحيحا: (... والجمهور البريطاني يعتقد بأن الغازات السامة هي لعبة دنيئة، وانه مازال يعتقد كذلك). وأضاف: (... انه طالما ليس هناك حرب قريبة فإن على الجيش أن يكف عن إستخدام مخزوناته من الغاز أو تطوير مواد جديدة، حتى يتم بحث إبعاد والغاء تلك الاسلحة بشكل موسع). كما وافق "اوستن شامبرلين"، وزير الخارجية البريطانية، على هذا التبرير، قائلا: (... من غير المستحسن ان نواصل دراساتنا عن استعمال الغاز، دون أن نبذل أولا جهدا لحث العالم على التخلي عن استخدامه).

## 18-6: استخدام اليابان الاسلحة الكيماوية ضد الصين خلال سنوات الحرب العالمية

### الثانية:

كانت السياسة اليابانية الخاصة باستخدام الغازات السامة واضحة، ولكنها حذرة، فكبار ضباطها العسكريين اعتبروا ان الغاز سلاح مفيد، فقد أباحوا استخدامه في الصين، وبالتالي لم

<sup>79</sup> المزاعم عن استخدام بريطانيا للغازات السامة ضد الافغانيين في العشرينيات من القرن الماضي نشرتها الدعاية الايطالية خلال حرب الحبشة، وصدقها بعض المعلقين، ولكن الاوساط البريطانية ظلت تنكرها .

يخشوا ان يؤدي عمل كهذا الى حرب كيمياوية في مكان آخر. وقد ادعت عدة تقارير صينية، صادق عليها اطباء محايدون وأيدتها آراء عسكرية، استخدام اليابان لعوامل كيمياوية قاتلة، الا ان الجنرال "توجو" والمارشال "شوندوكو هاتو" وضباطا يابانيين آخرين أصروا على ان القوات اليابانية قد استخدمت الغازات المسيلة للدموع والمعطسة فقط. وأصروا على أن الغازات غير القاتلة مسموح بها بموجب القانون الدولي. ومع ذلك اعترف الجنرال "توجو" [خلال استجوابه بعد الحرب] انه أخذ اعلان "روزفلت" عام 1943 على محمل الجد، وخشي من رد معاد؛ إذا ما استخدم الذخائر الكيمياوية ضد القوات الامريكية.

#### 6-19: استمرار إنتاج وتطوير الاسلحة الكيمياوية رغم بشاعتها:

##### اولا: الولايات المتحدة:

تعزز موقع الولايات المتحدة، بعد الحرب، وظهرت ايضا بخطاب مزدوج: فهي الداعية، على لسان رئيسها كولن ويلسون، من خلال شعار "الحرب لمنع الحرب". هذا المبدأ الذي أصبح دستوراً اخلاقياً لقادة الولايات المتحدة وسياساتهم في المستقبل. رغم محاولات التوصل منه وفق الخيارات البراغمية التي اتسمت بها السياسة الامريكية. لكنه عاد الان الى العالم تحت دعوى "شن الحرب الاستباقية". وعلى نفس المنوال سارت الولايات المتحدة في تطوير ترسانتها من الاسلحة الكيمياوية منتجة مركبات كيمياوية جديدة اكثر تنوعا واشمل ابادا.

تكفلت بابحاث وتطوير وانتاج الاسلحة الكيمياوية في الولايات المتحدة وزارة الداخلية "دائرة المناجم" وليس وزارة الحرب. فانشئ معمل ضخّم للابحاث والانتاج، عرف باسم ترسانة إدجوود على ارض مساحتها 3400 فدان على بعد 20 ميلا الى الشرق من بالتيمور، في ولاية ميريلاند، وبحلول اكتوبر/تشرين اول من عام 1918 كان هناك 233 ضابطا، و 6948 مجندا، و 3066 مدنيا، يعملون في إدجوود.

اقيم على ارض الموقع 550 مبنى، ومد 15 ميلا من الطرق، و36 من خطوط السكك الحديدية، ومعامل لانتاج الفوسجين، والكلورين، والكلوروبكرين، وغاز الخردل، وكلوريد

الكبريت، إضافة الى مركب كيميائي جديد اطلق عليه لويزايت Lewisite ، اكتشفه النقيب دبليو لي لويس، وهو مركب زرنخي فيه الكثير من الخواص المسببة للبثور ويسبب آلاما موجهة في العيون؛ الا أنه اسرع مفعولا، وأكثر فتكا، ويمكنه اختراق الجلد وتسميم الجسد اذا كانت الجرعات منه كبيرة بما يكفي. كانت الشحنة الاولى من هذا السلاح الكيميائي الجديد، المكونة من 150 طنا من اللويزايت، في طريقها بحرا الى اوربا لتزويد جبهات القتال، حينها تم توقيع اتفاقية الهدنة وتوقف القتال. وتم تسليح وحدات البحرية الامريكية منه بتطوير قذيفة خارقة للدروع تملأ بغاز غير قاتل او قاتل.

رغم ان الخطاب السياسي لقادة الولايات المتحدة ورؤسائها ظلت طوال سنوات الثلاثينيات يدعو الى الغاء الاسلحة الكيميائية، لأجل توجيه الرأي العام الامريكي نحو القناعة بان السياسة الامريكية، القوة الصاعدة في العالم، تسعى الى الغاء استخدام الغازات السامة وهو "هدف أساسي ومن احد المبادئ الثابتة في السياسة الامريكية"، وطرح هذا الهدف ضمن المبادرات الامريكية حينها بما سمي: مبدأ وارن جي. هاردينج الداعي : (... من أن على الولايات المتحدة "تساعد البشرية في جميع انحاء العالم في الوصول الى مستوى أعلى قليلا).

وبهذه "الوصاية الاخلاقية" تضع الولايات المتحدة نفسها قيمة على العالم، من خلال مقولات تؤكد عدم صدقيتها على المستوى الدولي وطرحت للاستهلاك المحلي في الولايات المتحدة لامتناس ضغوط ومطالب مجموعات السلام التي كانت ترى في استمرار التسلح وزيادة النفقات في مجال "خدمات الحرب الكيميائية" تتم على حساب دافع الضرائب الامريكي وتشكل خطرا على السلام<sup>80</sup> ، لكن الادارات الامريكية المتلاحقة في نفس الوقت واصلت تطوير ترسانتها من الاسلحة الكيميائية واعتمدت مبدأ "ضرورة الحفاظ على قدرات كيميائية دفاعية، في انتظار تحقيق نزع سلاح شامل".

<sup>80</sup> نظم استفتاء للرأي العام الامريكي حول الغاء الاسلحة الكيميائية فكانت النتيجة قد سجلت ان 366795 طالبوا بالغاء الاسلحة الكيميائية مقابل 19 فقط وافقوا على الابقاء عليها وفرض القيود على استخدامها.

في عام 1937 استعمل "فرانكلين د. روزفلت" حق النقض ضد مشروع قانون لتغيير إحدى مؤسسات ووحدات الجيش الأمريكي المسماة "خدمات الحرب الكيماوية" لتصبح باسم آخر: "القوات الكيماوية"، ونقضه كان خشية ان يؤدي التغيير الى "تجويل خدمات"، حيث كان هدفه النهائي القضاء عليها. إستمر جدل واسع في الولايات المتحدة عن جدوى انتاج مثل هذه الاسلحة، التي وصفت امريكا من قبل ضباط كبار من الجيش الامريكى بأوصاف بشعة، منهم من نقلوا مشاهداتهم عن آثار استخدام تلك الاسلحة في أوروبا، وتحدثوا عن مشاهدات لهم في باريس، عكستها معاناة نساء وأطفال رآهم الجنرال "بيتون سي مارش"، وعبر عن إحساسه تجاهها: ( ان هذه الحرب تحط من الحضارة الى مستوى الوحشية)، لذا حاول الضغط من أجل الغاء "خدمة الحرب الكيماوية"؛ ولكن جهود الجنرال "بيتون" وغيره عدد من السياسيين، من الذين حاولوا احتوائها، ان لم يكن الغائها، ظلت دون جدوى ، ومن دون نتيجة.

شكل الخامس من جوان/حزيران 1942 منعظفا في تفكير الولايات المتحدة وقناعتها بجدية قدراتها في تنفيذ تهديداتها في اسلحة الحرب الكيماوية عندما وجه الرئيس "روزفلت" تحذيرا الى اليابانيين ردا على شكوى صينية من استخدام اليابانيين الغازات السامة في هجماتهم على الصينيين جاء فيه: (... أحب ان اوضح بطريقة، لا لبس فيها، انه اذا ما استمرت اليابان في استخدام هذه الطريقة غير الانسانية ضد الصين وغيرها من دول الامم المتحدة، فإن حكومتي سوف تعتبر هذا العمل، كما لو أنه موجه ضد الولايات المتحدة، وسنعتيهم حصتهم كاملة من ردنا الانتقامي، ومن نوع السلاح الذي استخدموه).

قبل هذا التحذير بثلاثة اسابيع في 18 ماي 1942 قدم الجنرال "وليم ن. بورتر" رئيس خدمات الحرب الكيماوية تقريرا وصف فيه "عدم كفاية الاستعدادات الامريكية الدفاعية والهجومية" للحرب الكيماوية. وقال (ان الرد الانتقامي الفوري لا يمكن تنفيذه الا على نطاق محدود... واوصى بزيادة كبيرة في طاقة امريكا الانتاجية من المواد السامة، تترافق مع ادخال

تحسينات على التدريب وعلى الامدادات من المعدات الدفاعية للأفراد، ونسبة الكائنات الكيميائية في الفرقة.... الخ).

ومع اعلان التحذير الامريكي للرئيس "روزفلت"، حتى اقرت فرقة العمليات اقتراحات "بورتر"، فاقترحت تجهيز 14 كتيبة بنهاية 1942 و اعداد 28 فرقة منها في عام 1944. وباشرت في اصلاحات سريعة للقدرة الامريكية على الحرب الكيميائية، وكان للشرق الاقصى الافضلية الاولى في تلقي هذه المواد. وبذلك تعاونت الولايات المتحدة مع بريطانيا في التنسيق في جميع المجالات ووضعت هيئة اركان مشتركة للرد في حالة الازمة الانتقالي. حصلت الوحدات العسكرية الامريكية على كثير من الذخائر والاعتدة البريطانية لقواتها في بريطانيا ومنها الجيش الامريكي الثامن في بريطانيا (منها 10000 قنبلة زنة 500 باوند معبأة بالفوسجين، وسهلت حصوله على 15000 طن من عوامل القصر **Bleaching Agent** "مركب كيميائي مؤكسد من امثله كلوريد الصوديوم، وثاني اوكسيد الكبريت، وكبريتات الصوديوم الحامضية وفوق اوكسيد الهيدروجين").

وجراء النقص الذي شخصته الولايات المتحدة لاستكمال ترسانتها الكيميائية أنشأت 13 مصنعا جديدا خلال الفترة (1942 - 1945)، بما في ذلك ترسانة باين بلف في أركنساس، التي كانت تستخدم حوالي 10000 شخصا، لانتاج الذخائر المعبأة والعوامل الكيميائية، وترسانة جبال روكي كولورادو، التي كانت قد انتجت 87 ألف طن من الكيماويات السامة عند انتهاء الحرب. وفي عام 1942 افتتح الامريكيون موقعا جديدا للتجارب، عُرفَ باسم "ارض تجارب رجواي في يوتا"، بلغت مساحتها ربع مليون فدان، والتي سهلت لهم إجراء التجارب على نطاق واسع، ومكنت سلاح الجو الامريكي من اختبار تقنيات الرش للمواد الكيميائية السامة من ارتفاعات عالية.

وما ان استكملت الاستعدادات اطمأنت الهيئة المشتركة لرؤساء الاركان الى قاعدة انتاجية ضخمة ومرافق اختبارات واسعة، حتى بدأ التفكير في الخطط التي تمكن من تنفيذ تهديدات روزفلت بالرد الانتقامي الكيماوي.سواء على اليابان او المانيا.

### ثانيا: بريطانيا:

حال انتهاء الحرب، وتصاعد القلق حول مستقبل المانيا وأسلحتها، والموقف من مفاوضات الدول الاوربية المنتصرة في الحرب من قضية الاسلحة الكيماوية، التي عرفت باسم " استخدام الغازات السامة"، كانت الأوساط العسكرية البريطانية لا تريد الإلتزام بتصفية هذه الاسلحة والضغط على إجبار المانيا وحدها على نزع هذه الاسلحة؛ ولهذا عبر كبار الضباط في قيادة الاركان البريطانية عن خشيتهم " من ان يقوم مؤتمر السلم بمنع الحرب الكيماوية". وبتنسيق وبمساعدة من موقف مماثل لفرنسا، أعدوا مذكرة مشتركة لتوزيعها في مؤتمر فرساي. أعدوا اللواء السير "آرثر ليندن - بل"، مدير مهمات الاركان، واللواء "بي رادكليف" مدير المنظومة العسكرية.

ان أغرب ما في تلك المذكرة، هو الاعتراف المسبق لحاجة هذه الدول للاسلحة الكيماوية، وإستعدادها لاستعمالها في اية حرب؛ بل ذهبوا الى أبعد من ذلك، بالتصريح أنهم سوف لا يتوانون عن إستخدامها في الحملات الاستعمارية ضد الشعوب المُستعمَرة الاخرى. نختصر هنا اهم ما جاء في تلك المذكرة:

(...شككت المذكرة في قيمة فرض منع دولي على الاسلحة الكيماوية على ضوء فشل اعلان هوغو، واستحالة التحقق الكامل من تطبيق أي منع).

وأضافت المذكرة: (... بأن بريطانيا قد استفادت من اللجوء الى إستخدام الغازات السامة في العمليات الاخيرة، واستغلال الرياح الغربية السائدة، وانها استخدمت الاسلحة الكيماوية بشكل متزايد... ولو استمرت الحرب "فإن قذيفة من كل أربع قذائف تنطلق من خطوطنا...ستكون قذيفة كيماوية، وان الدبابات كانت ستستعملها بحرية").

وهذا كان يعني ايضا: ( ... يكون باستطاعة بريطانيا، من الآن فصاعدا، استخدام أسلحة الغازات "السامة" في حملاتها الاستعمارية الصغرى، سواء الغازات غير القاتلة، المسيلة للدموع، أو غاز الخردل، لمنع تحركات رجال القبائل، والقضاء على قدراتهم القتالية ). ومن قبيل هذه النصوص اشارت الى ذلك كتابات عدة حول الموضوع.<sup>81</sup> .

وكما يعترف كاتبها المذكورة، "آرثر ليندن - بيل" و "بي رادكليف" ويضيفان توضيحا لافكارهم: (... مهما كانت الآراء المغايرة، ومهما بدت عالية التحضر أو شبه متحضرة، فليس هناك أدنى فكرة في أن نرسل قواتنا الى الميدان دون ان نزودهم بأفضل وقاية ممكنة من الغازات، مهما كانت التعهدات التي قدمها العدو. لذا فإن علينا ان نواصل أبحاث وعلوم الغاز[الاسلحة الكيماوية و الغازات السامة ] بجميع أشكاله، من أجل الوقاية منه أولا، واستخدامه في الانتقام ثانيا.).

سرعان ما أيد "ونستون تشرشل" أفكار كبار ضباطه، "وقتها كان وزيرا للحرب والطيران" ، واوصى بالتعاون مع فرنسا باقناع المارشال "فرديناند فوش" بالأهمية المحتملة لحرب الغازات. والأخير هو الآخر يشارك بريطانيا قلقها من قدرة المانيا في الصناعات الكيماوية. وقد كتب في وقت لاحق: (... يجب أن تدخل الحرب الكيماوية في حساباتنا واستعداداتنا للمستقبل، اذا ما اردنا ان نتجنب مفاجأة كبيرة). في 15 افريل/ نيسان من نفس السنة، قدمت بريطانيا رسميا اقتراحا يقضي: (... بأن على ألمانيا أن تحول جميع المعامل الكيماوية التي استخدمت لانتاج الذخائر الى الحلفاء). وهو ما كان يقصد به البريطانيون بإذلال المانيا. وبعد جدل واسع حول هذا الاقتراح توصلت الاطراف المتفاوضة على مصير المانيا واسلحتها الى تسوية وسط في صيغة يقضي: (... يمنع استخدام الغازات الخانقة أو السامة، أو أي نوع من الغازات أو السوائل المماثلة، أو المواد أو الأدوات، كما يمنع منعاً باتاً إستيرادها أو صناعتها في المانيا) (البند 171).

<sup>81</sup> سبيرز، الحرب الكيماوية، مرجع سابق، ص 54.

وبهذا النص من البند 17 حُددت المانيا، دون غيرها من الاستيراد او التصنيع. وبذلك تم إشعار الالمان بالضيم والاهانة، وبقيت مصانعها الكيماوية تحت المراقبة والشكوك الاوربية. ظهرت تلك الشكوك في تقارير لجان الحرب بعد أقل من شهر من توقيع تلك المعاهدة. فقد جاء في تقرير الجنرال السير "آرثر هولاند" ، رئيس لجنة الحرب في بريطانيا: (...ان أمة غير مستعدة لحرب الغازات تجعل نفسها عرضة لكارثة مفاجئة لا مناص منها)؛ لهذا عززت بريطانيا من انتاج وتطوير اسلحتها الكيماوية من خلال الابقاء على معمل بورتون، وتجنيد فريق من العلماء الأكفاء، وزيادة مكافئاتهم، وضمان مناصبهم وتقاعدهم، كما ترك لهم حرية ترك العمل متى ارادوا، اضافة الى ضمان حقهم في نشر أبحاثهم شريطة "اذا كانت غير ذات أهمية عسكرية"، وان يحضروا لقاءات الهيئات التعليمية.

إتخذ مجلس الحرب البريطاني قرارا بالابقاء على منظومة اسلحة الغازات السامة، بحجة ان القوى العسكرية الاخرى، لم تبادر بعد بنزع اسلحتها الكيماوية؟! وفي بريطانيا أيضا، شهدت سنوات العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي جدلا واسعا حول الرغبة في وقف أو منع الأبحاث في مجال الاسلحة الكيماوية والجرثومية... الخ. لكن الحقيقة الناصعة التي تُعري مثل هذا النفاق السياسي والاخلاقي وتدحضه هي ازدياد معدلات النفقات في انتاج وتخزين وتطوير الاسلحة الكيماوية، واستمرار بريطانيا في الحفاظ على معمل بورتون، واستمرار أبحاث لجنة خدمات الحرب الكيماوية في الجيوش البريطانية.

سبق لمجلس الوزراء البريطاني أن تقبل، بشكل ضمني، وجهة نظر لجنة هولاند [الجنرال السير ارثر هولاند رئيس لجنة الحرب في بريطانيا]، الذي كان يرى: (... ومهما تكن أنظمة "قرارات" عصابة الامم حول مشروعية حرب الغازات، فان الامم ملزمة " من اجل السلامة العامة" أن تواصل أبحاثها عن الوسائل الهجومية والدفاعية لهذه الحرب؛ كي تتجنب على الاقل "تكرار احداث افريل/نيسان 1915" ) [يقصد الهجوم الالمانى على القوات الفرنسية].

ساد جدل اجتماعي واسع في اوربا عامة، وبريطانيا وفرنسا خاصة، لأجل عرقلة الابحاث في مجال تطويرالحرب الكيماوية، وكانت الإتجاهات المتضاربة داخل الاوساط العلمية والمؤسسات العسكرية تتبلور من منظور اخلاقي، وآخر عسكري صرف. ولم يكن الانقسام في الوسط العلمي هو الاقل أهمية؛ فمن جهة، تحدث السير "إدوارد ثورب" باسم العديد من زملائه، عندما وصف اللجوء الى الغازات السامة خلال الحرب العالمية الاولى بأنه : (حط من قدر العلم). وأكد في خطاب ألقاه بمناسبة توليه رئاسة الجمعية البريطانية للتقدم العلمي يوم 7 سبتمبر/ايلول1921: (...ان الحضارة تعترض ضد خطوة، جعلتها تتردى الى هذا الحد، ويجب ان تكون العلاقات بين الدول حسنة بما يكفي لوقف الاسلحة الكيماوية).

من جهة اخرى شن المتحمسون لاستخدام الغازات السامة، كسلاح كيماوي، حملة "التثقيف" الرأي العام البريطاني طوال سنوات العشرينيات من خلال الكتابات والخطب واصدار الكتب... الخ كانت تدعو الى مزيد من البحث والاكتشاف والتطوير لمثل هذه الاسلحة الفتاكة. يذهب السير "وليم بوب" الى القول، المجافي للحقائق الطبية والعلمية ووثائق الجيوش نفسها ، (بأن استخدام "الغاز كان أكثر رحمة من المواد شديدة الانفجار"). ويضيف : (...ان الأسلحة الكيماوية قد تصبح "العامل الحاسم الوحيد في حروب المستقبل"). كما وردت افكار مشابهة، وبشكل موسع في ثنايا كتاب " دفاع عن الحرب الكيماوية"، الذي كتبه "جون ب. س. هالدان" ، وحقق ذلك الكتاب حينها انتشارا واسعا، وأثار ايضا جدالا حادا.

لكن كل تلك الانقسامات في الرأي العام الاوربي والغربي، لم تمنع مصانع بورتون في بريطانيا، ولا معامل أدجوود في الولايات المتحدة من الإندفاع في تجنيد فرق أخرى من المهندسين والتقنيين والاحصائيين في مختلف فروع الفيزياء والكيمياء، وإجراء التجارب على آلاف الحيوانات في بورتون، من أجل التثبت من الآثار الوخيمة للسلاح الكيماوي وقدرة إبادته [نظمت حركة احتجاج لمناهضة تشريح الاحياء والتي جعلت من شعار الغاء حرب الغاز مطلبها الاول، جمعت حوالي 160 ألف توقيع قبل تقديمها للبرلمان].

ساعدت العديد من المصانع الكيماوية في برامج البحوث المختلفة. كما إشركت فيها نخب من الجامعات بابحاث تدعمها الدولة. وكانت دائرة البحوث والحرب الكيماوية البريطانية تضم في عضويتها دائما تسعة من العلماء البارزين. وشهدت سنوات الثلاثينيات رفع ميزانيات البحث ودفع مخصصات إضافية لتطوير طرق رش غاز الخردل بواسطة الطائرات وإستعمال قنابل غاز الخردل التي تنفجر في الجو والقنابل اليدوية التي تطلق الغازات.

في إجتماع عقد في معمل بورتون في 11 سبتمبر 1936، صنفت حينها، ثمانية أسلحة خاصة بالحرب الكيماوية، كأسلحة تستحق أن تتطور في المستقبل. تضمنت طرازا مُحسنا من قاذف ليفنز، يبلغ مداه 2500 ياردة، وصُنع شاحنات كيماوية وقنابل وقنابل يدوية وأجهزة أخرى متعددة. وبحلول نوفمبر 1936 أنزلت الأركان العامة البريطانية هذه القائمة الى النصف، لتجنب تحميل مرافق بورتون المحدودة أكثر من طاقتها وللإفادة من الاسلحة الموجودة الى أقصى حد ممكن.

في عام 1938 وافقت وزارة الحرب مع وزارة الطيران بأن يكون غاز الخردل هو الغاز الرئيسي المستخدم، وأرادتا تطوير نوعين من غاز الخردل "هـ س" HS الذي أثبت كفاءة في الحرب العظمى، وغاز محسن آخر "هـ ت" HT يمتاز "بانه أقل تأثرا بالتجمد" ، وهو بالتالي "أكثر فائدة للرش من الجو". وتساعد الإنتاج البريطاني بوتائر عالية، فقد طلبت وزارة الحربية طاقة انتاجية مقدارها 40 طنا من غاز "هـ س" ، وطنين من غاز "هـ ت" أسبوعيا؛ في حين طلبت وزارة الطيران 290 طنا من غاز "هـ س" و 180 طنا من غاز "هـ ت" أسبوعيا.

ولإنتاج هذه الكمية من الغاز، عرضت وزارة الحرب استخدام معملها التجريبي في سوتون اوك، قرب سان هيلينز. وتم إنشاء معملين آخرين، اكبر حجما، (واحد في كيميت في ميرسيسايت والآخر في مكان لم يحدد). قدرت تكاليف مصنع كيميت 1,436,247 جنيها ويتكلف المعمل الثاني 1,6 مليون جنيها.

وهكذا اندفعت بريطانيا، بشكل جنوني لانتاج وتخزين الغازات السامة، حتى وصل مخزون غاز الخردل الى 2000 طن في جانفي/كانون اول 1941. كانت وزارتا الدفاع والطيران، من خلال مذكرة قدمت الى لجنة الدفاع الامبراطوري، قد بنتا استراتيجيتهما على عقيدة عسكرية وإدعاءات كانت ترى : إن المانيا تعد بشكل موسع للحرب الكيماوية، وتتقدم على بريطانيا. وانها "تمتلك القدرة (وربما لا تكون لديها النية) على إستخدام الغاز ضد السكان المدنيين " كسلاح انتقامي" . وبعد سقوط فرنسا تحت الاحتلال النازي، أصبح التهديد لبريطانيا بغزو ألماني وشيك هاجسا، وأصبح التفكير باستخدام الغازات السامة، كخيار دفاعي، امرا جديا. كانت بريطانيا تحتفظ على أراضيها بحوالي 410 طن من الغازات السامة، و 1000 خزان رش، و 39000 قنبلة، وهو يمثل جزءا بسيطا قياسا الى الترسانة الالمانية ؛ لذا وجب التريث عن المغامرة. كانت بريطانيا حذرة، من أي انزلاق قد يؤدي الى الكارثة؛ فرغم تكرار تأكيدها على الردع الكيماوي اذا ما هوجمت؛ لكنها تحاشت الصدام أو الشك في نواياها في الهجوم؛ إذا ما اضطرتها الظروف. وعندما أبلغ قادة الاركان، بأن إيطاليا تستخدم الغازات السامة لآخامد ثورة في الحبشة إندلعت في كانون اول/ديسمبر 1940، كان المأزق واضحا تماما؛ فهئية التخطيط المشتركة، التي خشيت من ان يؤدي رد فعل انتقامي بريطاني الى "حرب غازات واسعة النطاق"، أوصت ان على بريطانيا (... ألا تقوم بالانتقام ضد الايطاليين وألا تهدد له، ولا أن تُذيع استخدام الايطاليين للغاز). وطلب من وزارة الاعلام، كإجراء احتياطي، ( أن توقف أية إشارة في الصحافة الى حرب الغازات الجارية في الحبشة).

وهكذا دفع الأحباش أرواحهم بالقتل بالاسلحة الكيماوية الايطالية مرة اخرى، ثمنا للتواطؤ لمصلحة الدول الكبرى، حتى وإن كانت تلك الدول الغربية فيما بينها في حالة حرب. هذه السياسة البريطانية أرعبت الجنرال البريطاني السير "ارشيبالد ويفل"، قائد القوات البريطانية في الشرق الاوسط، الذي إعترض واعتقد ، بأن مجرد التهديد البريطاني، برد انتقامي، قد يردع الإيطاليين، ويُطمئن الزعماء الاحباش. لكن لا رؤساء الأركان البريطانيين، ولا "تشرشل" وافقوا، على حتى

مجرد التصريح بالتهديد اللفظي لإيطاليا. ونصح رؤساء الأركان الجنرال السير "ارشيبالد ويفل" أن يماطل في محادثاته مع الأحباش، تاركا للحكومة البريطانية أمر: ( تسريب المعلومات الى الايطاليين بطريقة محسوبة... لردع الايطاليين، بطريقة توحى لهم إنطبعا بأن البريطانيين توصلوا الى إمتلاك تركيبة قوية جديدة من الغازات السامة قد تكون جاهزة للاستعمال ضدهم).

كررت بريطانيا مثل هذا الاسلوب، عندما شاعت الأخبار: إن ألمانيا تنوي إستخدام الأسلحة الكيماوية والغازات السامة في هجوم الربيع ضد روسيا، كما أبلغ به ستالين الى تشرشل، والآخر طمأنه: ( بأن بريطانيا، بعد موافقة لجنة الدفاع، سوف ترد بانتقام "من دون حدود" على ألمانيا؛ إذا ما استخدمت الأخيرة الغازات السامة ضد الاتحاد السوفيتي). لكن مثل تلك الوعود والتصريحات في الإجتماعات المغلقة بين قادة التحالف، لم تعد امورا جادة، خاصة بحلول عام 1942 ، حيث لم تنطلي مثل هذه الخدع على أحد.

تريثت بريطانيا مرة اخرى عندما تحرك الجيش الياباني الخامس عشر، عبر بورما الى ماندالي، مُهددا بقطع الطريق من بورما الى الصين. وكان إحتمال إدخال الحرب الكيماوية قائما. وكانت نصيحة رؤساء الأركان لجنة الدفاع البريطانية (في ان اللجوء الى حرب الغاز سيكون فيه "ضرر فادح" لبريطانيا لان اليابان، التي لم تصادق ابدا على بروتوكول جنيف، تستطيع الان"استخدام الغاز بشروط تميل لمصلحتها ضد الهند، حيث لا يمكن وضع ترتيبات جادة لمواجهتها).

### ثالثا: فرنسا:

بدأت فرنسا تجاربها ونتاجها لعدد من قنابل الغازات السامة لمختلف انواعها، ويبدو ذلك كان مبكرا جدا، نشير الى ذلك بحادثة الاغواط 1852 التي سبق عرضها بالتفصيل.<sup>82</sup> . ويبدو انها لم تمتلك وسائل الرد بالاسلحة الكيماوية عندما تعرضت قواتها الى هجوم كيميائي شنه الالمان عليها في 22 افريل 19 رغم أنها تمتلك العديد من الغازات الخانقة ومواد كيميائية أخرى.

<sup>82</sup> العبودي عبد الكاظم، جريمة قصف الاغواط بالكلوروفورم والغازات السامة، مرجع سابق.

بعد قرابة 50 سنة من التجارب ركزت فرنسا منذ عام 1922 أبحاثها ودراساتها التطويرية في معمل بوشيه للمتفجرات **Atelier de Pyrotechnie du Bouchet** قرب باريس، وتم إختبار العوامل الكيماوية في موقع للتجارب في ساتوري، وانتريسييه، وشاليه ميدو، وفي عام 1939 استخدمت مناطق من الصحراء الجزائرية لاجراء التجارب مثل بني ونيف الواقعة على بعد 100 كم عن ولاية بشار الجزائرية.<sup>83</sup> ومن الناحية الدفاعية اقامت معدات مضادة للغاز على طول خط ماجينو، وملاجئ جماعية في باريس.

وكان هناك منشآت لانتاج غاز الادماسايت، والخردل، واللوزايت، في لا بوشيه. الا ان معمل سوسين الذي صمم لانتاج كميات كبيرة من غازات الادماسايت واللوزايت، قد بقي دون انتهاء العمل فيه حتى جويليه/تموز من عام 1940. ورغم انه كان لدى الجيش وسلاح الطيران الفرنسيين الانظمة التي تمكنهما من اطلاق الذخائر الكيماوية، فإن سياسة الحرب الكيماوية الفرنسية كانت مقيدة بالفرضيات الاوسع للاستراتيجية العسكرية الفرنسية، خاصة افتراض ان أي هجوم كيماوي لا بد ان تسبقه مرحلة مطولة من العمليات الدفاعية. تجاوزت القدرات الفرنسية حدودا واسعة من انتاج وتنويع الاسلحة الكيماوية بشتى انواعها وبالتنسيق والتعاون مع الانجليز، على مستوى قادة الاركان للجيش؛ فخلافا لسلاح الجو البريطاني، لم يكن الفرنسيون يتوقعون رش الغازات من أعالي الجو، وكانوا على ثقة من ان دفاعاتهم المضادة للطائرات قادرة على التعامل مع الهجمات على ارتفاع منخفض.

كما اعتبروا المدفعية السلاح البري الرئيسي؛ رغم انهم طوروا قاذفا للغاز مداه 3 كم. والأهم من كل ذلك، انهم كانوا مازالوا يؤمنون بالفوسجين<sup>84</sup>، ويستخدمونه لملء قذائفهم وقنابلهم، وقنابل الطائرات الضخمة، وعرضوا استخدام الخردل في رمانات تطلق من الجو، تسقط في مجموعات،

---

<sup>83</sup> سبيرز، مرجع سابق، ص 97.  
<sup>84</sup> تشير تقارير ايطالية ان الايطاليين استخدموا غاز الفوسجين السام ضد الليبيين وهو من صنع فرنسي. راجع البند الخاص بالابادة الليلية.

تتكون كل واحدة من 50 رمانة، وكان لديهم 4,5 مليون رمانة جاهزو للتعبئة والكثير من غاز الخردل أُعد لها.

#### رابعاً: إيطاليا:

اعتبرت قدرات إيطاليا في مجال الحرب الكيماوية هائلة ايضاً، خاصة بعد الحرب الاثيوبية، وكانت تقوم على صناعة قادرة على انتاج كميات من غاز الخردل، واللوزيت، والفوسجين، والكلوربكرين، والادامسايت، وشبكة ابحاث تمتد الى مختلف الجامعات الايطالية ومختلف مراكز ومحطات الاختبار يديرها مكتب الحرب الكيماوية في روما. وكان "للخدمات الكيماوية العسكرية" فوجها الخاص. والحقت سرايا كيماوية في كل سلاح من اسلحة الجيش، وفصيلة مضادة للغازات في كل فوج. واستحدثت وسائل قذف للغازات تشمل رشها بریا من شاحنات كيماوية ومن مدافع هاون عيار 81مم والبنادق والقنابل اليدوية وقنابل غاز لستة انواع مختلفة من المدافع يتراوح عيارها ما بين 75مم الى 305مم وفوق كل شيء، الرش من الطائرات.

استسلمت إيطاليا في ايلول/سبتمبر 1943 دون ان تستخدم اسلحتها الكيماوية وخول الجنرال "دوايت ايزنهاور" من رؤساء الاركان بأن يحذر المانيا من أي هجوم بالغاز ضد الايطاليين (...سوف يستدعي ردا انتقاميا فوراً ضد المانيا بالغاز، مستغلاً الى اقصى حد تفوق الحلفاء الجوي). اتخذ الجيش الالماني احتياطات قبل اخلاء مدينة فوجيا الايطالية في ايلول/سبتمبر 1943، وطار الدكتور "ايهان" الى المدينة لتنظيم عملية تدمير معلمي غاز الخردل والفوسجين في معامل سابونيا الكيماوية، باختصار اراد الالمان تجنب أي حادث قد يعطي الحلفاء العذر في شن حرب كيماوية.

#### خامساً: الاتحاد السوفيتي:

كان الاهتمام السوفيتي بالحرب الكيماوية كبيراً وكان اشد وضوحاً، لأن روسيا تعرضت لأكبر قدر من الاصابات بالغاز خلال الحرب العالمية الاولى. (بلغت اصابات الروس 475340

بالغاز ، مات منهم حوالي 56 ألف شخص). تكاثف جهد الجيش الاحمر لتطوير قدراته الكيميائية في فترة ما بين الحربين، اشتمل في جزء منه على تعاون مع وزارة الحرب الالمانية.

هناك "اللجنة الكيميائية العليا" اخذت على عاتقها تقديم المشورة في جميع المسائل التقنية، فهي تضع خطط التعبئة العامة، وتوجيه التدريب، وتفتيش المصانع، وكان هناك لجنة فرعية، المعهد المركزي للدفاع ضد الغاز في موسكو، يشرف على مختلف اوجه الدفاع ضد الغاز، سواء الدفاع المدني او العسكري. أولى الجيش الاحمر اولوية لبرنامج الاسلحة الكيميائية خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين. فادارة الجيش السوفيتي للكيمياء الحربية اسست منذ1924، واجازت اجراء الاختبارات والابحاث في المختبرات العسكرية والجامعات والمعامل الكيميائية الكبرى، مستغلة الصناعات القومية الكيميائية الناشئة، خاصة معامل بونديزوسكي لصناعة الكلورين، وكابايفسك قرب كيوبيشيف، ومراكز بيزنيكي، وخيبوغورسك، وكرانجاندا، حيث انتجت عوامل كيميائية عدة مثل الغازات الخائقة(الفوسجين، وثنائي الفوسجين، والكلوربكرين) والغازات السامة (سيانيد الهيدروجين، و كلوريد السيانوجين)، والغازات المسببة للقروح (غاز الخردل، والخردل النيتروجينيHN-3 )، والغازات المعوقة ( الكلور اسيتوفينون، أدامسايت، وثنائي فنيل الكلوراسين). وقد تدربت مختلف اسلحة الجيش بشكل مكثف على تكتيكات الحرب الكيميائية(الرش بالطائرات، او اسقاطها بالقنابل، وبقاذف المدفعية، والهاونات، والخزانات الكيميائية والشمعات الدخانية). كما امتلك الجيش السوفيتي تشكيلة كبيرة من المعدات الواقية للأسلحة الكيميائية، وبذلك دخلوا الحرب العالمية الثانية وهم مجهزون بشكل معقول للحرب الكيميائية. ومع ذلك فانهم كانوا قلقون من حجم التسلح الكيميائي الالمانى وتفادوا اية شبهات حول نياتهم الى اللجوء لهذه الاسلحة عند الضرورة لهذا منعت القيادة السوفيتية حتى مجرد استخدام السواتر الدخانية خشية ان يتخذها الالمان ذريعة للهجوم بالغاز- وعند اضطرارهم الى الانسحاب من الجبهة الغربية دمروا جميع مواد التدمير السامة بما في ذلك القنابل الدخانية. وما

بين سنوات (1941-1945) خلال "سنوات الحرب الوطنية العظمى" كما يسميها السوفيت، بلغ انتاج الغاز خلال تلك الفترة، حسب تقديرات الاستخبارات الالمانية قرابة 8 آلاف طن شهريا. ويبدو ان "ستالين" ساورته الشكوك في كفاية المخزون الكيماوي السوفيتي، لذا طلب مساعدة الحلفاء في ربيع 1942. تمكن تشرشل من تقديم 1000 طن من غاز الخردل، و 1000 طن من عوامل القصر **Bleaching** التي ارسلت على عجل. وفي فترة ما بعد الحرب توسعت الاستثمارات السوفيتية في مجالات الحرب الكيماوية. واصبحت القوات العسكرية الكيماوية **VKhV** هي سلاح مستقل في المؤسسة العسكرية السوفيتية، يقودها ضابط برتبة فريق "الفريق في. ك. بيكالوف"، وفيها قوات متخصصة ومنظمة في وحدات رئيسية، واخرى فرعية، في مجالات الدفاع الكيماوي، الاستطلاع الاشعاعي والكيماوي، وعمليات قذف اللهب وتوليد السواتر الدخانية، وتقدير مواقع العدو الكيماوية، والاهداف الاخرى، للتحضير للضربة الكيماوية، وتطهير الافراد، والاسلحة، والمعدات، والابنية، والاراضي، من الاشعاعات والتلوث بالعوامل الكيماوية التي قد تكون تعرضت لها.

وبعد الحرب وخلالها واصل السوفيت برنامجهم في انتاج الاسلحة الكيماوية، وازدادت قدراتهم عند نهاية الحرب باستيلاء السوفيت على المخزونات الضخمة من العوامل الكيماوية التي كانت لدى المانيا، علاوة على تقنيات ومعدات انتاج غازات التابون والساارين، واحد معامل غازات الاعصاب، الذي تم الاستيلاء عليه، ثم فكك وشحن " مع العاملين فيه " وارسل الى الاتحاد السوفيتي في مدينة فولغاغراد.

اضاف السوفيت الى ترسانتهم الكيماوية ادخال التوكسينات "السموم". تم تأكيد ودعم اكتشاف التوكسينات في تورط الاتحاد السوفيتي باستخدامها. فللزراعة السوفيتية خبرة طويلة في مجال التسمم بالفطر التي تنتج عن الحبوب المتعفنة. فمنذ الثلاثينيات كان الترايكوثيسين موضع دراسات علمية سوفيتية مكثفة. وفي شتاء 1943/1944 اجتاح مقاطعة أورنبرج وباء لهذا

المرض ، اطلق عليه "الليوكيا التسمم الغذائي" **Alimentary Toxic Aleukia**، وقضى الوباء على 300 ألف نسمة.

وتم التعرف على عد كبير من النباتات الميكروبيولوجية التي يمكن استغلالها واستنباتها صناعيا في الاتحاد السوفيتي. والكثير من هذه النباتات مستغل في مجالات تغذية عادية لانتاج بروتينات تضاف الى الاعلاف. وبعضها ينتج المضادات الحيوية وغيرها من المنتجات الجرثومية **microbial** الا ان بعضها ينتج "منتجات ومركبات غير معروفة تماما". فالخواص الفيزيائية والكيميائية للتوكسينات، خاصة ثباتها في حالة الصلابة، تجعل منها أسلحة يمكن انتاجها بكميات كبيرة.

وقد لوحظ ان عددا كبيرا من المنشورات العلمية السوفيتية اهتمت بالتوكسينات والتعريف بطروف تخليقها الحيوي. (لاحظت وزارة الخارجية الامريكية خلال رصدها لعينة لما ينشره العلماء السوفيت ان هناك 50 مقالا عن الترايكوثيسين، يركز 22 منها على طرق التخليق الحيوي

**. Biosynthesis**

يرى بعض خبراء الاسلحة الكيميائية ان التوكسينات قد تكون أقل كلفة وأسهل عند التخزين والمناولة والنقل من غازات الاعصاب، التي تتطلب اجراءات سلامة مكلفة ومعقدة. ومن جهة اخرى ان الترايكوثيسين مبيد اقل فاعلية بكثير من غازات الاعصاب، لذا يجب اطلاقه بكميات كبيرة كي يكون مفعوله قاتلا. والتقديرات العلمية لمدى التأثير القاتل للترايكوثيسين على الانسان تتباين كثيرا<sup>85</sup>. وتدعي الدكتور شارون واتسون، وهي عالمة بالسموم من قسم الجراحة العامة في الجيش الامريكي: (ان الجرعة القاتلة من توكسين"ت-2" لا تزيد عن 35 مغ لشخص وزنه 70 كغ، والتي تعتبر أقل كثيرا من تقديرات أخرى)، وتقول ايضا: (... انه يبدو ان سمية الترايكوسيتين تزداد عندما تضاف اليه بعض المحاليل، خاصة محلول **DSMO** ؛ وبذا يمكن

<sup>85</sup> وهذا راجع جزئيا الى ان البيانات عن تأثيراته السمية مأخوذة من اختبارات اجريت على الحيوانات التي تم تعريضها للتسمم عن طريق مركبات نقية اعطيت عن طريق الفم للحيوان، او بالحقن تحت الجلد أو في الاوردة.

الجرعة القاتلة ان تكون أصغر اذا ما استنشقت، والتي قد تسبب نزيفا في الرئتين او المعدة). ومع ذلك فإن غاز الاعصاب قد يقتل بنسبة تركيز لا تزيد عن جزء من ثلاثين جزء من هذه الكمية. ويعتقد البعض ان الترايكوسيثين قد يكون أقل فاعلية اذا ما استخدم كسلاح مضاد للأفراد، ولا يمكنه إحداث اصابات الا اذا رش بكميات كافية ضد عدو غير محمي، لكن له ميزة هي ان من الصعب كشفه، كما انه يقاوم اللقاحات المضادة، والعلاجات، كما يصعب عزو الاصابة اليه، كما قال ستيوارت شوارتزنشتاين: (هناك ميزات عظيمة في استخدام عوامل دقيقة الحجم جدا، او ربما حتى لاينظر اليها على انها أسلحة" لايمكن تمييزها عن الظواهر الطبيعية، او هي ببساطة لا يمكن تفسيرها، حتى وان ساورنا الشك في أمرها" ، وان التحقق منها او تشخيصها صعب بحيث يبقى النقاش محتدما حول ما اذا كانت المزعمة عن استخدامها صحيحة). انكرت القيادة السوفيتية بشدة الاتهامات الامريكية حول انتاجه هذه السموم ثم حاولت تفسير وجود الترايكوثيسين بربطه مع موضوع بذر الامريكيين بذور أعشاب الفيل في الهند الصينية، كما رفض السوفيت السماح لفريق تحقيق من الامم المتحدة بالدخول الى افغانستان.

اعتبرت القوات العسكرية الكيماوية السوفيتية من اكبر الاسلحة المختصة في الحرب النووية والكيماوية والجرثومية، وتتباين التقديرات حول تعدادها (تقدر ما بين 80 الى 100 ألف جندي) وضباطها يتخرجون من اهم ثلاث مدارس للضباط او الاكاديميات الكيماوية العسكرية: كلية الهندسة العسكرية العليا للدفاع الكيماوي في ساراتوف، وكلية الراية الحمراء لقيادة العليا للدفاع الكيماوي في تامبوف، وكلية القيادة العليا للدفاع الكيماوي في كوستروما.

وهناك من الكليات ما تنظم دراسات عليا لضباطها للحصول على الماجستير والدكتوراه مثل الاكاديمية العسكرية للدفاع الكيماوي في موسكو، وتسمى باسم المشير تيموشنكو. والى فترة قريبة قبل سقوط الاحاد السوفيتي تفاوتت التقديرات عن حجم المخزون من الاسلحة الكيماوية. وتتراوح التقديرات المعلنة لذلك المخزون بحوالي 20 ألف طن من غازات الاعصاب، ومن 350 ألف طن الى 700 ألف طن من مختلف العوامل.

## سادسا: المانيا:

رصدت المخبرات البريطانية تشكيل مفتشية للغاز ملحقة بوزارة الحرب الالمانية، والتعاون مع الروس في اختبار غاز الخردل، والاحتفاظ بطاقة انتاجية عالية منه، وحدث تحت اسم I.G.Farben والاضر من ذلك وردت تقارير عام 1936 عن تجارب لوسائل مختلفة لاسقاط الغاز وتشكيل عدد من كتائب الغاز الهجومية وتم تضخيم حجم الاستثمارات في مجال الابحاث الكيماوية في مختبرات البحث والجامعات الالمانية، لكن واقع الحال كانت متخلفة بمقدار 15 سنة في مجالات التطوير عن منافسيها الاوربيين في مجالات انتاج الغازات السامة وفي تدريبات الدفاع المدني. كما لم يتخيل البريطانيون ان الدكتور "جيرهارد شريدار" قد اكتشف ، في أثناء بحثه عن مبيد حشري جديد، غازات الاعصاب، التابون عام 1936 والسارين عام 1938. ومع كل تلك الصعوبات كدست المانيا، ربما، 70 ألف طن من الغازات السامة بحلول عام 1945 الا انها كانت عرضة للهجمات الجوية بحيث ان أي مبادرة لاستخدام الغاز كانت بمثابة انتحار، وكان للغاز بعض المؤيدين لاستخدامه كخيار أخير يائس، مثل جوزيف غوبلز، ومارتن بورمان، و روبرت لي، ويبدو انه حتى هتلر فكر لوهلة باستخدامه لمواجهة التقدم السوفيتي، الا ان الفكرة لم تثر الا القليل من الحماس. وهكذا ظلت قيادة الاركان الالمانية تعارض استخدام الغازات السامة، كما تجاهل البرت سبير، الذي كان في ذلك الحين وزير التسليح والانتاج الحربي، أمر الفوهرر "هتلر"، وقلص من انتاج الغازات الحربية واليه تنسب عبارة: (... ان المانيا بمدمها غير المحمية، والتي تواجه تهديد رد انتقامي واسع، لا تستطيع استخدام الغاز، والقيام بذلك يعني"الجنون المطبق").

انتهت الحرب ورغم كل الاشاعات التي رافقت سنوات الجحيم فيها وانتظار اللحظات الحرجة ان كانت المانيا ستلجأ الى الانتحار الجماعي" باستخدام ترسانتها من الاسلحة الكيماوية" مع جبهات اوربا المتقاتلة معها لكل انواع الاسلحة، لكن لا شئ من ذلك لم يحدث، فحتى افريل/نيسان 1943 كرر الناطقون باسم القيادة الالمانية تصريحاتهم السابقة : ( بأن المانيا لن

تتورط في حرب غازات مالم يثبت انها "فعالة وحاسمة" لأن المانيا لن تفلت من الرد الانتقامي،  
بالسلاح ذاته).

كان الخوف من الرد الانتقامي هاجس الجميع بما فيهم المانيا. الجدير بالذكر هنا يرى البعض من المؤرخين العسكريين ان احد موانع عدم اللجوء الى اسلحة الغاز هو كره هتلر للغازات السامة، وربما كانت تجربته الشخصية معها انه تعرض للاصابة بالغاز في ايبير في اكتوبر/تشرين اول 1918، وكان مقت هتلر للغاز ملموسا ومعروفا للكثيرين.

يؤكد العديد من الالمان هذا الانطباع في استجابات قبل الحرب، وقد قدم البروفسور الالمانى "كارل براندت"، جراح هتلر السابق، اكثر الشهادات اقناعا؛ حيث شدد على ان هتلر، الذي لم يزر قط منطقة تجارب الاسلحة الكيماوية في راوبكمار، عارض دائما استخدام الغاز، الا في حالة رد فعل انتقامي ضد الحلفاء.

كما ان الاستراتيجية العسكرية الالمانية لاترى في امتلاك الاسلحة الكيماوية إلا لأجل ضمان توازن الرعب بها في حالة رد الفعل الانتقامي ولأن استراتيجية الحرب عند الالمان بنيت على اساس ضربات الحرب الخاطفة في احتلال بولندا وفرنسا، وكان من الممكن ان تعقد عملية غزو بريطانيا وربما تؤخر اجتياح روسيا لان نثر الغازات تتطلب مراعاة اتجاه الرياح وان تكون الرياح مواتية والطقس مناسباً وهناك حاجة الى نقل معدات ازالة التلوث مما سيضعف من حركية القوات المهاجمة. كذلك بدا الغاز مناسباً اكثر خاصة كوسيلة لمواجهة جماعات الانصار والفدائيين التي كانت تهاجم قوات المؤخرة الالمانية، ونظرا لان تلك الجماعات كانت تتخذ الكهوف والسراديب والتحصينات التي لاحصر لها، كقواعد ابواء او انطلاق لها فإن رش غاز الخردل على نطاق واسع في تلك الاماكن كان سيمنع الانصار من دخولها.

### سابعا: اليابان:

في البدء اشيع عن استخدام اليابانيين للأسلحة الكيماوية في الصين ، وقبل التأكد منها رفضت اليابان هذا الاتهام، لكن الدلائل بعدها أكدت ذلك الاستخدام. ورغم ان اليابانيين قد انتجوا

وطوروا اسلحتهم الكيماوية لكن لم يكن بمقدورهم التفكير بشن حرب كيماوية عندما بدأوا في مهاجمة الممتلكات البريطانية والقواعد الامريكية في الشرق الاقصى عام 1941.

لم يجرب الجيش الياباني اسلحة الغازات السامة قط في الحرب العالمية الاولى. لكنه بدأ في دراسة احتمالات استخدام الغاز في ميدان المعركة منذ عام 1919، وكذلك حذت وحدات اليابان العسكرية الاخرى مثل البحرية والطيران في الاعوام 1923 و 1931 على التوالي. وتفاوتت مكونات الجيش الياباني في تبنيها لمشاريع انتاج وتطوير واستخدام الاسلحة الكيماوية.

فلم تبدأ برامج تصنيع الاسلحة الكيماوية مثل "الغازات السامة" للطيران والبحرية الا في الثلاثينيات، وتوزعت في مواقع ابحاث و انتاج ومصانع مختلفة منها: في ترسانة تادانومي بالنسبة للجيش، وفي قاعدة ساجامي البحرية بالنسبة لسلاح البحرية. وكان الطيران والبحرية متخلفان عن الجيش في نوعية الاطقم العاملة في الابحاث، وفي المعدات، والتدريب على الحرب الكيماوية. فحتى عام 1939 لم يكن لسلاح الطيران مدرسة رسمية للتدريب على الحرب الكيماوية ولا حتى دورات تدريبية. ولم تبدأ اول دورة للوقاية من الغازات السامة لسلاح الجو الا في افريل 1940، حيث نظمت في الفترة (1940 - 1942)، ست عشرة دورة دربت 200 ضابط و 150 ضابط صف. كان الجيش الياباني أفضل تدريبا وتنظيما بالنسبة الى العمليات الكيماوية، فقد اكتسبت وحدات الحرب الكيماوية واستخدام "الغازات السامة" خبرة عملية في الصين ومنشوريا. نشط فصيل متخصص لأسلحة الغاز الكيماوية، قوامه 119 ضابط وجندي في الصين عام 1937. وقد استخدمت لأجل ذلك مرشات غاز محمولة، وشمعات تطلق دخانا ساما لنثر الدخان، وغازات تسبب الاصابات الجلدية والقروح والبثور.

وفي نفس العام الحقت كتيبة موريتا ديتشمنت في العمليات وقوامها 1031 ضابطا وجنديا بقوات حملة عسكرية توجهت نحو أواسط الصين. شاركت في العمليات مستخدمة شمعات الدخان السامة في الحملات حول سوشو، وهانكو، وجنوبي شنغهاي حتى أوت/أب 1940. كما شاركت اربع كتائب هاون في الهجمات الكيماوية اثناء الخدمة في الصين. كما قام فصيل كيماوي كبير

تعداده 1555 ضابطا وجنديا بمرافقة جيش كوانتونغ من مارس/اذار 1941 حتى نهاية الحرب. وانضم فصيل صغير مكون من 79 ضابطا وجنديا الى قوات حملة الصين في شباط/فيفري 1945. الا ان استخدام الغاز لم يكن بعد، قد استوعب تماما كسلاح ميداني عند اليابانيين، فقد كان القادة الميدانيون مستاءين حتى من عملية انتداب عددا من ضباطهم وجنودهم الى دورات التدريب على الاسلحة الكيماوية ، ووصفوا ذلك بـ "الخسارة" في وقت الضباط وضباط الصف بارسالهم الى دورات التدريب الخاصة بالحرب الكيماوية. وفي بعض الاحيان، كانوا يعارضون الضباط الكيماويين الذين يحاولون اجراء تدريبات على الغاز ضمن وحداتهم التي ينتسبون اليها.

ولم يكن للحرب الكيماوية وحدات منظمة منفصلة ومتخصصة داخل الجيش، ولم تكن وحدات الجيش مزودة بكميات كافية من الذخائر الغازية، كما ان اليابان لم تستغل الجامعات المدنية او خبراء الصناعة، او المرافق المدنية بدرجة معينة لهذه الاغراض لخدمة مستلزمات الحرب الكيماوية. لذا يرى بعض الخبراء ان اليابانيين قد فشلوا في تطوير انواع جديدة من الغازات السامة او الاسلحة الكيماوية، وكانت ملابسهم الواقية لا تقي من الغازات الجديدة عالية السمية (فقد كانت طبقة الفحم والمصفاة مصنوعتين بترتيب خاطئ داخل علبة قناع الغاز، وذلك يعتبر خطأ قاتلا بمعايير الوقاية من الاغازات السامة، وقد تم تصحيحه خلال سنوات الحرب). كما فشلت مرافق الانتاج اليابانية في الاحتفاظ بطاقة انتاجية عالية من الاسلحة الكيماوية وتوفيرها عند الحاجة.

ورغم ذلك كان في مقدور اليابان القيام بعمليات كيماوية ضد الصينيين الذين كانت تقصمهم، بشكل مفجع، اية معدات وقاية من الغازات السامة، ويفتقرون الى وسائل الرد الانتقامي. وبعد مهاجمة الولايات المتحدة خفضت اليابان من عدد الهجمات الكيماوية ضد الصينيين، ويبدو ذلك بأمر من الامبراطور؛ خوفا من ان تثير مثل تلك الهجمات رد فعل انتقامي من جانب الامريكيين.[في 5 جوان/ حزيران 1942 وجه الرئيس "روزفلت" تحذيرا الى اليابان ردا على شكوى صينية من استخدام اليابانيين الغاز في هجماتهم . جاء فيه: (... احب ان اوضح بطريقة لا

لبس فيها، انه اذا ما استمرت اليابان في استخدام هذه الطريقة غير الانسانية ضد الصين وغيرها من دول الامم المتحدة، فإن حكومتي سوف تعتبر هذا العمل كما لو موجه ضد الولايات المتحدة، وسنعتيهم حصتهم كاملة من ردنا الانتقامي ومن نوع السلاح الذي استخدموه).

### ثامنا : الصين:

ويتم التأكيد في هذا السياق أيضاً على أن الصين كانت قد كدست أيضاً كميات كبيرة من الأسلحة البيولوجية وقد أطلقت برامجها في هذا الميدان منذ عام 1940 بعد أن كانت طائرة يابانية قد ألقت كميات كبيرة من الأرز والقمح المحشوة بمادة الانتراكس السامة على مدينة شنسن الصينية في مقاطعة شيكانغ. وبعد عام فقط كانت مدينة صينية أخرى هي شانغ تيه في مقاطعة هوفان قد عرفت المصير نفسه ولكن تلك المرة بحبوب أرز وقمح مضمنة بجراثيم الطاعون. وكانت أعداد الضحايا كبيرة جداً في الحالتين ..

أثناء الحرب العالمية الثانية لقي الألوف من الجنود الصينيين حتفهم بسبب جراثيم متنوعة ألقتهما الطائرات المعادية، لكن لم ترد الصين على ذلك بالمثل أبداً.

### 6-20: تجنب استخدام الاسلحة الكيماوية في الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945):

اعلنت اغلب الاطراف الاوربية تمسكها ببروتوكول جنيف، لكن كل طرف قد أنذر وحذر، واعلن حقه في الانتقام اذا ما هوجم بالغازات السامة. وبقتاعة الجميع وعلمهم أن مخزون الاسلحة الكيماوية سيؤدي الى كارثة جماعية للكل. والمشكلة التي اكتشفها الجميع انه مامن دولة ستكون في مأمّن، وكل الدول ستظل عاجزة عن توفير وسائل الدفاع المدني من ملاجئ واقنعة واقية وجهل السكان بكيفية التصرف ازاء انتشار الغازات السامة وكيفية علاج واسعاف المصابين في حالة التعرض لهجوم.

### 6-21: استخدام الاسلحة الكيماوية في النزاعات الاقليمية : (1950 - 2008):

كما سبق ومن خلال البنود السابقة، سجلنا عدد من الحالات لاستخدام الاسلحة الكيماوية بعد الحرب العالمية الاولى، أي خارج نطاق الحربين العالميتين، في نزاعات استعمارية استخدمت

فيها دول غربية وشرقية أسلحتها الكيميائية، منها في افغانستان والعراق من قبل بريطانيا، وفي الحبشة وليبيا من قبل ايطاليا، وفي رواندا والجزائر والمغرب من قبل فرنسا، واليابان في الصين، ثم استخدمت من قبل دول اخرى، حصلت بعضها على الاسلحة الكيماوية من غيرها وابتاعتها واستخدمتها ضد غيرها، مثل خالة الجمهورية العربية المتحدة "مصر تحديدا" ضد قوات الامام يحيى في اليمن في ستينيات القرن الماضي.

وفي جنوب شرقي اسيا تعرضت فيتنام وكمبوديا ولاوس وافغانستان لأسلحة إبادة من قبل الولايات المتحدة، ومن قبل الاتحاد السوفيتي عن طريق فيتنام استخدمت ضد الكمبوديين واللاوسيين. كما شهدت الحرب العراقية الايرانية تلك الاسلحة واستعملاتها على نطاق واسع من قبل قوات الدولتين المتحاربتين، ضمن مناطق الاشتباك في جبهات الحرب، وخاصة في مواقع الحدود العراقية الايرانية، وضد التمرد الكردي شمال العراق سواء من قبل إيران أو العراق. ولكن التهمة وجهت فقط الى الحكومة العراقية في مجزرة حلبجة شمال العراق.

وفي جميع تلك الحالات لم يراع المتحاربون "المعتدون" التقيد ببروتوكول جنيف، ولم يعترفوا رسميا بأفعالهم الجرمية تلك. نتوقف هنا إزاء أهم المحطات البارزة من تلك الهجمات بالأسلحة الكيماوية والبيولوجية، التي لازالت تُثير حولها جدلا أخلاقيا كبيرا، ومنها عدد من الحالات نشير الى أهمها:

#### اولا: حروب الولايات المتحدة الكيماوية والبيولوجية في جنوب شرق لآسيا:

وخلافا لاستخدام أميركا لعوامل السيطرة على الشغب، ومبيدات النباتات، التي أقرت إستخدامهما علنا في الفيتنام، لكنها أخفت الكثير من كوارثها، وقد بحثت على نطاق واسع في العديد من محاور هذه الرسالة.

#### ثانيا: تورط الاتحاد السوفيتي في النزاعات الاقليمية الاسيوية وغزو افغانستان:

وتُطرح هنا هذا الموضوع كمثل حول الدياغوجيا السياسية للحرب الباردة، وتدني الموقف العلمي اللا أخلاقي للخبراء الامريكيين والغرب سواء في تكريس التهم أو دحض الإتهامات

الموجهة نحو السوفيت وتبرئة أنفسهم منها. وكذلك الطرق التي سار عليها السوفيت للإنكار حول استخداماتهم للأسلحة الكيماوية.

كثيرة هي "المزاعم" عن استخدام الأسلحة في مواقع ودول ونزاعات وهجمات آسيوية كثيرة، تشير الى بعضها: ومنها، كأمثلة، عن الإتهامات الامريكية للاتحاد السوفيتي وحلفائه في تنفيذ عدد من الهجمات الكيماوية في الصراعات الاقليمية التي تورط بها الاتحاد السوفيتي بصورة مباشرة كأفغانستان، أو تمت بالنيابة بمساعدته للفيتنام وحلفائه الآخرين في نزاعات جنوب شرق آسيا.

ترى المصادر الامريكية أن الخبراء السوفيت قد شاركوا في الاعداد للأسلحة الكيماوية، وفي نقلها وتحميلها وفي تفريغ شحنات كيماوية سوفيتية في ميناء هوشي منه الفيتنامي. كما تم تدريب ضباط فيتناميون وأفغان، مع تقديم المعدات اللازمة للاستخدام، كالبائرات والألغام الارضية... الخ وغيرها في افغانستان وعدد من مناطق ودول شرق آسيا.

وردت تقارير عن هجمات تمت بالأسلحة الكيماوية، نفذت من قبل "جيش تحرير لاوس" و"القوات الفيتنامية" ضد رجال قبائل همونغ H'Mong في لاوس، ومن قبل الفيتناميين وقوات الجمهورية الشعبية الكمبودية ضد الخمير الحمر في كمبوديا .

( وصف لاجنوا همونغ، الذين فروا الى تايلند من لاوس، تعرض قراهم الى هجمات جوية بالاسلحة الكيماوية، وإدعوا ان القذائف كانت تنفجر في الجو، أو أن مواداً كيماوية كانت تُرش جوا، وتُطلق سحباً من البخار فوق قراهم، منها لونها اصفر أو أبيض. وفي بعض الأحيان أحمر او أخضر).

اطلق الصحفيون الغربيون على السُحب الصفراء إسم "المطر الاصفر"؛ لأن دقائق صغيرة محمولة في تلك السحب كانت، عندما تسقط على سطح الارض والبيوت والاكوخ والحقول المجاورة، تُصدر صوتاً أشبه بتساقط قطرات المطر. وبعد تلك الهجمات، كان القرويون يُعانون من عدة أعراض صحية تؤدي ببعضهم الى الموت. وكان الذين يقيمون في المناطق القريبة من

مواقع الهجوم، او من يأكلون طعاماً، أو يشربون ماءً تعرض للتلويث، يعانون من أعراض صحية، كالدوار، وحكة شديدة في الجلد، وتكون لديهم تقرحات صلبة صغيرة على الجسم، ومنهم من تصاحبه حالات غثيان، وإسهالات دامية، وإستفراغ لكميات كبيرة من الدم من المعدة أو الرئتين.

مثل هذه التقارير كانت تصل متقطعة ومتفاوتة ومتواترة في الفترة (1975 و 1976)؛ إلا انها بدأت تتزايد بشكل يندر بالخطر؛ خاصة خلال العامين التاليين، تحمل أخبارها وتتناقلها ألسن وأسماع اللاجئين الهاربين من معازل الهمونج في الجبال في منطقة فوبيا **Phou Bia** .

في عام 1978 بدأت تصدر تقارير مماثلة لحالات من كمبوديا، زعمت: ( أن الفيتناميين كانوا يُطلقون عوامل كيميائية، بواسطة مدافع الهاون من عيار 60 مم، و 120مم، ومن مقذوفات من عيار 107مم، وقاذفات الرمانات من نوع (م - 79)، والتعرض للالغام الكيميائية، وما تسقطه طائرات (ت -28)، إضافة الى حالات جرى فيها تسميم المياه).

كما تواترت الأنباء أيضا من افغانستان عام 1979، مفادها ان القوات السوفياتية والأفغانية المتحالفة معها تستخدمان الغازات السامة ضد المجاهدين الافغان باستخدام طائرات الهليكوبتر، والطائرات المقاتلة العادية، وعن طريق القصف المدفعي، وبت الالغام الارضية، وضخ الغازات الصفراء في الممرات المائية وفي الوديان والممرات الجبلية التي يسلكها المجاهدون الافغان.

وروى ضباط أفغان، فارون من جيش الحكومة الافغانية المتحالفة مع الاتحاد السوفيتي آنذاك عن: ( معلومات دقيقة جداً، تتحدث عن استخدام انواع من العوامل الكيميائية المستخدمة في تلك الهجمات، وحددوا أين أُستخدمت، وكيف كانت تُخزن، وماهي الوسائل والطرق المتبعة في استخدامها). وأشاروا ( في إعتراقات ومقابلات سجلت لهم مع جهات غربية وأمريكية)، تلك الشهادات تُشير إلى أن السوفيت قدموا إمدادات من الاسلحة الكيميائية، منها الغازات القاتلة والمُعطلة، وتوفير الطائرات والهليكوبترات القاصفة لنثر المواد العوامل الكيميائية والعوامل السمية على مناطق من افغانستان. وتذكر تلك الشهادات الى أن هناك كتائب خاصة بالدفاع

الكيميائي السوفيتية بقيت ملازمة لفرق المشاة الآلية الثلاث التي كانت ترابط في مناطق كوندوز Qonduz وشندان Shindand وكابول.

ورغم إضطرار الاتحاد السوفيتي الى سحب 5000 جندي، ومعهم معدات القتال التي وصفت "غير الضرورية"، إلا ان السوفيت تركوا محطات لكوادر وفرق تطهير التلوث، ووحدات تطهير المناطق التي تعرضت لمثل تلك الاسلحة الكيميائية. كما شوهدت وحدات سوفياتية وأفراد، منها يرتدون ملابس واقية من العوامل الكيميائية.

حاولت الولايات المتحدة تأكيد ودعم فرضية إكتشاف بعض آثار من التوكسينات "السموم" التي إستخدمها السوفيت في افغانستان في هجوماتهم، من خلال عينات، زعمت أنها تحصلت عليها ونقلتها من مواقع الهجومات؛ لتؤكد من خلالها تورط الاتحاد السوفيتي باستخدام السموم في حرب افغانستان، إضافة الى استخدام الغازات السامة والخانقة القاتلة.

منذ البداية، رفض السوفيت الاتهامات الغربية، ومنعوا السماح للجان التحقيق وتقصي الحقائق بالدخول الى افغانستان حتى تلك المكلفة بالتحري بقرارات دولية صادرة من الامم المتحدة. يبرر البعض من العسكريين ان لجوء السوفيت الى إستخدام الأسلحة الكيميائية كان للأسباب التالية:

- ان الأسلحة الكيميائية تُعتبر وسيلة غير مكلفة لمحاربة رجال القبائل والعصابات الذين كانوا يتخذون في الأحرش أو الأراضي الجبلية الوعرة، مقارنة مع اللجوء الى إستخدام المدفعية التقليدية أو القصف بالمواد شديدة الانفجار أو القيام بعمليات الاجتياح أو القصف الجوي بالأسلحة التقليدية؛ فالأسلحة الكيميائية، اقتصادية أكثر، وتقلل من خسائر المهاجمين الى الحد الأدنى.

- كانت الاسلحة الكيميائية أشد فاعلية: " وفي وسع السُحب الكيميائية التسلل والانتشار خلال الأحرش الكثيفة، والغابات المتشابكة الاغصان، وأن تتسرب الى داخل الكهوف والمغارات

في الجبال". والفائدة التكتيكية للأسلحة الكيماوية هنا، وهي الأهم: هي التمكن من شن هجمات في مناطق بعيدة عن قوات المشاة والآليات، وبأقل قدر ممكن من الخسائر.

- كما يمكن استخدامها، كأسلحة ترهيب وتخويف تثير الهلع للمحاربين وللسكان؛ خاصة إذا كان الخصم متفوقا على الأجواء. وإن العوامل الكيماوية تترك أعراضا مرعبة وغريبة، مما ينشر الرعب لدى الخصم، وتدفعه إلى الفرار أو الإستسلام، كما حدث ذلك في اثيوبيا بعد الهجمات الإيطالية الكيماوية عليها أواسط الثلاثينيات من القرن الماضي، وهروب "هياسيلاسي" وسقوط أديس ابابا.

- تمنح فرصة إستخدام هذه الاسلحة المزيد من الفرص لتجارب وحداتها المتخصصة، ولتطوير وسائل واستخدام تجريبها وإستخدامها ومتابعة نتائج تأثيراتها العسكرية والبيئية والصحية على الخصوم.

لوحظ ان الجنود السوفيات كانوا يجمعون عينات من التراب والأنسجة والملابس والعينات الاخرى، علاوة على إعتقال أي من المتبقين من الاحياء من الذين تعرضوا لتلك الأسلحة، ونقلهم، حيث يتم إجراء المزيد من الفحوصات والمعاینات الطبية عليهم. وسعت الإدارات الأمريكية المتعاقبة الى تأكيد تلك المزاعم عن إستخدام السوفيت وحلفائهم في آسيا للأسلحة الكيماوية ونشرها. وكانت تهدف من وراء كل ذلك الى وقف الهجمات، والتشهير بالقطب الآخر، والسعي الى ضمان وضع معاهدة دولية، كما تدعي، يمكن تطبيقها لتمنع إنتاج المزيد من الأسلحة الكيماوية وتخزينها.

ولا شك إنها كانت إحدى وسائل الدعاية خلال الحرب الباردة في مواجهة الخصوم من المعسكر الآخر ومحاولة إسقاطه اخلاقيا في نظر الرأي العام العالمي. فمنذ صيف 1979، أعدت وزارة الخارجية الامريكية أول سجل منسق لهذا الملف، وزعمت أنه شمل مقابلات مع لاجئين من لاوس، كضحايا، تعرضوا إلى هجمات الأسلحة الكيماوية الروسية بواسطة القوات

الفيتنامية. وفي الخريف من نفس ذلك العام، قام فريق طبي عسكري امريكي بزيارة الى تايلاند لإجراء مزيد من المقابلات مع اللاجئين.

بحلول نهاية عام 1979، إعتقدت الولايات المتحدة، ( التي كانت قد أعربت عن قلقها لانتهاك حقوق الانسان لقبائل الهمونغ للحكومة اللاوسية في شهر اكتوبر/ تشرين اول 1978 )، إنها بلغت مرحلة من التحقيق في الموضوع، سيمكنها من تقديم وإثارة نشر التقارير عن الحرب الكيميائية لخصومها، مُتهمة حكومات لاوس وفيتنام والاتحاد السوفيتي باستخدامها.

وكالعادة دائما، في مثل هذه الاتهامات المحرجة، أنكرت هذه الحكومات قطعيا صحة مثل تلك التقارير، وبدورها ايضا ، لم تفتنع ادارة الرئيس الامريكي كارتر بتلك الإجابات الراضية لإتهاماتها، فاستمرت في حملتها السياسية والاعلامية، وأعلنت عن ورود تقارير أخرى عن استخدامات الغازات السامة، هذه المرة، من كمبوديا وأفغانستان.

وتصاعد موقف وحماس إدارة كارتر لإثارة الموضوع، بدءً في أروقة الكونجرس الامريكي<sup>86</sup>، ومن ثم تقدمت بالملف الى جلسات الامم المتحدة، حيث وافقت الهيئة العامة للامم المتحدة في ديسمبر/ كانون اول 1980، بضغط من الولايات المتحدة وكندا وآخرين، على تشكيل لجنة تحقيق بقرار من الامم المتحدة (القرار رقم أ/144/35، الذي أقر بأغلبية 78 صوتا وامتناع 36 عن التصويت).

واجهت اللجنة الاممية حول تقصي الحقائق عن استخدام الاسلحة الكيميائية، وكذلك الأميركيين أنفسهم، جملة من المشاكل لانجاز ذلك التحقيق، في مقدمتها:

- ان التحقيقات والتحليلات للأدلة المتعلقة باستخدام الغاز كانت صعبة الإثبات على اللجنة، كما على وزارة الخارجية الامريكية؛ لكونها جاءت متأخرة، وتطلبت تشكيل جهاز حكومي

<sup>86</sup> في اوت/آب 1980 نشرت خلاصة شاملة للتقارير مع معلومات استخباراتية مصنفة عن الهجمات الكيميائية.

متكامل من البنتاغون والإستخبارات وإدارات الدولة الأخرى. فكيف هو الحال مع لجنة محدودة  
الإمكانيات والزمن المتوفر امامها للتحقيق اضافة الى بيروقراطية العمل في المنظمات الدولية.  
كانت التحليلات العلمية بشكل خاص مثبطة للهمم والعزائم لمن تكلفوا بتلك المهمة. قالت  
كارولين ستينبر، من وكالة الرقابة ونزع السلاح: انه لم تكن هناك "آلية رسمية" معتمدة يمكن  
بواسطتها جمع "فريق من الخبراء"، كما لم يكن واضحا، أي من العوامل الكيميائية قد جرى  
استخدامها.

وقد فشلت الفحوصات على النماذج الأولية التي جرى جمعها وإستجلابها من مواقع الهجوم  
"المزعومة" في الكشف عن أي من العوامل الكيميائية المعروفة. (كانت العينات غالبا ما تُحمل  
من أماكن تبعد عدة أسابيع سيرا على الأقدام، لكي تُنقل الى أقرب حدود دولية).  
ورغم ان الأعراض الطبية قد بينت أن هناك إستخدامات لمواد كيميائية مهبجة، ومواد أخرى  
مُعَطَّلَةٌ . (بما في ذلك مواد كيميائية شديدة التأثير، وسريعة المفعول، ومنها قاتلة "قاضية" في  
بعض الحالات، ومنها تشير الى إستخدام غازات الأعصاب، ويُحتمل أيضا انها كانت على شكل  
تركيبة كيميائية ذات مفعول قصير الاثر. وفي أغلب الأحوال كانت مجموعة الأعراض المسجلة  
أو الموصوفة "غير عادية"؛ خاصة تلك المتعلقة بالنزف الدموي حتى الموت).  
توصلت الإستنتاجات إمكن ان تكون هناك عوامل أخرى قد أُستخدمت، إضافة للعوامل  
والأسلحة التقليدية.

في البدء لم يكن تقديم الأدلة سهلا ومقتعا لإدانة السوفيت، حول موضوع إستخدامهم للأسلحة  
الكيميائية، وخاصة في أفغانستان. وظل هذا الحال سجلا إعلاميا وسياسيا عالميا حتى 13  
سبتمبر 1981، عندما كشف وزير الخارجية الامريكية "الكسندر هيج" النقاب عن " زعم " جديد  
مفاده : (... توصل الولايات المتحدة الى تحديد ثلاثة أنواع قوية من التوكسينات الفطرية، وهي  
مواد سامة غير مألوفة، جُلبت من تلك المناطق، وهي شديدة السمية للإنسان والحيوان).

وَضَمَنَ الوزير هذه الملاحظات في خطاب له القاه امام إتحاد صحفيي برلين؛ محاولة منه إستباق أي تسرب لمعلومات وأدلة عن إستخدام السوفيت للتوكسينات الفطرية كان مُنتظرًا لإعلان عنها، ونشرها في مجلة "تايم" الامريكية التي كانت تُعده للنشر، وقبل نشر كتاب "المطر الاصفر" لمؤلفه "ستيرلنج سيجريف"، المتوقع صدوره. وفي اليوم التالي، وفي كلمة موجزة، القاها "والتر جي. ستوسيل"، مساعد وزير الخارجية للشؤون السياسية، قال لتأكيد إدعاءات الوزير "هيچ" ان : (... "ورقة شجرة وساق نبات أُحضرت كعينة" من كمبوديا، كُشفت وجود مستويات عالية، وبشكل غير عادي، من التوكسينات الفطرية والترايكوثيسين. وإن مستوى إرتفاعها يؤكد ان من غير الممكن حدوث ذلك بشكل طبيعي. والحقيقة ان تلك التوكسينات الفطرية لا تحدث بشكل طبيعي في جنوب شرق آسيا).

إستمر التسييب الاعلامي الامريكي بالحديث عن وجود آثار من عينات من تلك النباتات، منها: (ورقة شجرة أو جزء من ورقة نباتية، أو غصن صغير.. الخ) ، زُعم أنها تم إستجلابها ونقلها من مناطق، زُعم أنها تعرضت لهجوم بـ "المطر الاصفر" في كمبوديا، وعليها آثار من تلك التوكسينات الفطرية، منها من مجموعة الترايكوثيسين ( بتركيز مقدرة بحدود 109 ppm "جزء من المليون" من مادة النيفالينول Nivalenol و59,1 "جزء من المليون" من مادة الديوكسي نيفالينول Deoxynivalenol و3,15 "جزء من المليون" من توكسين"ت - 2 "). ونُسب كشفها الى بحث الدكتور "تشيسترجي ميروشا"، من "دائرة علم امراض النبات" في جامعة مينيسوتا. وقيل إنه حلل هذه العينات من دون أن ينتبه، أو يعرف مصدرها، مُستخدما تقنية التحليل الطيفي الكروماتوغرافي المعروفة بدقتها مخبريا.

وقيل أيضا: انه لم يكتشف أي أثر لمادة الترايكوثيسين في العينات التي راقبها سلبيًا واستنتج : (... ان التركيز الذي تم إكتشافه وتركيبه من تلك المواد لا يوجد بصورة عادية في الطبيعة، ويبدو ان تلك التوكسينات الفطرية قد وجدت طريقها الى تلك البيئة بفعل الانسان).

وقيل ايضاً: (...ان هذه النتائج جُمعت من كميات واسعة من العينات، مُقترنة مع شهادات الشهود ( من ضحايا يدعون أنهم رأوا، أو جربوا، أو عانوا من التعرض للهجومات الكيميائية مع تسجيل "تاريخ الهجوم، ومكانه، ونوعه"، وشهادات الفارين، والصحفيين، والأطباء، والمنظمات الدولية، و"الوسائل التقنية المحلية" لتحديد مكان الهجمات المُبلغ عنها). كما قيل أيضاً أنهم (... جمعوا إفادات من بعض العسكريين الفارين، "من ضمنهم طيار لاووسي، وأفراد هاربين من الجيش الافغاني، ومن أسير سوفيتي، خبير بالحرب الكيميائية، هو "يوري بوفارنيتسين". ودُعمت مثل هذه الشهادات بمعلومات استخبارية ورصد اتصالات لاسلكية... الخ).

اما العينات التي جُمعت فهي عن: (الإصابات من مواقع قيل انها هوجمت في كمبوديا، حيث عثر فيها على الترايكوثيسين موجوداً في عينات من دم الضحايا المزعومين، وفي بولهم، وبعض أنسجة أجسام، وفي عينات من الماء، وفي مسحوق أصفر، قيل انه كُشط عن سطح بعض الصخور. كما قيل ايضاً أنه تم العثور على دلائل تشير الى وجود غاز "توكسين ت - 2" على السطح الخارجي من قناع عسكري سوفيتي وجد قرب كابول. وتم إكتشاف توكسينات من نوع الترايكوثيسين على وصلة الخرطوم من قناع غاز نُزع عن جثة جندي سوفيتي ميت)... الخ.

وهكذا جمعت الولايات المتحدة ونشرت، ما زعمته من حشد للدلالة، التي قادتها الى الاستنتاج والتقدير: أن السوفيت قد نفذوا ما يقارب 261 هجوماً كيميائياً منفصلاً، تم في لاوس، مسبباً موت وقتل ملايين عن 6504 ضحية في الفترة من (صيف عام 1975 الى خريف عام 1981)، اضافة الى 124 هجوماً كيميائياً منفصلاً أخرى، تمت في كمبوديا، مُسبباً مقتل 981 ضحية أخرى للفترة (من عام 1978 الى خريف العام 1981).

وفي أفغانستان تم تقدير عدد الهجمات بالاسلحة الكيميائية ما يقارب 47 هجوماً كيميائياً منفصلاً مسبباً مقتل أكثر من 300 ضحية في الفترة (من صيف 1979 الى صيف 1981).

بطبيعة الحال كانت الحملة الأمريكية الواسعة والمستمرة، صاحبها التفخيم اللفظي بالترهيب والقلق من استخدام الاسلحة الكيماوية ضد المدنيين، وأضيف لها الكثير من الحجج والإدعاءات العلمية.

نُسبت التصريحات الى أسماء علمية وخبراء وعلماء بيئية وأطباء ومخابر بحث متخصصة... الخ، لزيادة قوة التأثير لأجل الإقناع بصحة الإدعاءات الأمريكية.

ومع كل هذا الجهد المبذول امريكا، لم تُمرر المزاعم بسهولة، فقد أبدى عدد من الصحفيين والعلماء شكوكهم بالأدلة التي حملها الخطاب السياسي والاعلامي والعلمي والأخلاقي للادارة الامريكية في عهد ريغان؛ "فورقة شجرة وساق نبات"، بدت عينات واهية التحقق من مصادرها الحقيقية؛ خصوصا أن العلماء طرحوا أسئلة عن تلك العينات، مصادرها، وطريقة جمعها، وكيفية حفظها، ونقلها، والجهة التي كُلفت بجمعها، وكيف جاءت بها،... الخ من الاسئلة العلمية الدقيقة.

وصلت الاتهامات والشكوك حدوداً كبيرة، فيما إذا كانت تلك الأدلة والعينات النباتية قد تكون تعرضت للتلوين أثناء شحنها وهي في طريقها الى مختبرات الولايات المتحدة. وجاءت الشكوك من خبراء المغزليات [نوع من الفطريات]، إن مثل تلك الفطريات قد توجد في أي مكان، بما في ذلك في المناطق الاستوائية (رغم انه مازال غير معروف، ما إذا كانت تلك الفطريات هي من توكسينات في المناطق الاستوائية).

استمر سيل الانتقادات للحملة الامريكية على السوفيت والمطالبة بمزيد من الادلة العلمية عليها. في العاشر من نوفمبر 1981 حاول "ريتشارد بيرت"، مدير مكتب الشؤون السياسية - العسكرية الامريكية ، يُساعده الدكتوران "واتسون وميروشا" الإجابة على بعض من تلك الانتقادات التي تناقلتها الاوساط العلمية والسياسية حول الاتهامات الامريكية للسوفيت. ففي شهادة قُدمت أمام اللجنة الفرعية للعلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ المختصة بمراقبة التسلح حاول "ريتشارد بيرت" أن يقدم الدليل المادي، في سياق تاريخي شامل، وكشف النقاب عن إكتشافات أخرى من التوكسينات التي ظهرت في عينات أخرى، جاءت هذه المرة من لاوس،

وتسجيل بعض النتائج السلبية من عينات مُراقبة أُخذت " من منطقة أخرى قريبة من المنطقة التي أخذت منها العينات الاولى في كمبوديا". كما تم تعديل وتصحيح بعض الملاحظات العلمية السابقة التي قدمتها وزارة الخارجية. وقال بصدد ذلك "ريتشارد بيرت" : ( ... ان الترايكوثيسين الذي تم العثور عليه " لا يوجد بشكل طبيعي في التركيبة التي تم التحقق منها في جنوب شرق آسيا" )، وشدد على العلاقة بين هذه السموم والأعراض التي جرى الإبلاغ عنها، وأصر على ان "القياس والفحص كان مضبوطاً". واختتم لإفادته بالقول: ( ... لدينا الآن البنديقية التي يتصاعد منها الدخان).

قدم البروفسور "ماثيو ميسلسون" ، وهو أستاذ الكيمياء الحيوية في جامعة هارفارد شهادته أمام اللجنة ذاتها. وأقر بأن: ( ... "الدلائل الاولية" تُشير الى إمكانية أن تكون التوكسينات الفطرية قد أُستخدمت في جنوب شرق آسيا. ( ألا انه أبدى حذره من البيانات غير المكتملة والمفرطة في الثقة. وتساءل عن إمكانية أن تكون هذه العينات قد "أُقحمت" في هذه القضية؟. وما إذا كانت التوكسينات الفطرية، في حال نثرها على شكل هباب خشن أو تطايرات، حسب وصف "ريتشارد بيرت"، سوف تُسبب النزف الشديد والموت؛ وما إذا كان من الحكمة إستبعاد أي تفسير طبيعي، طالما اننا لا نعرف شيئاً عن التوكسينات الفطرية في جنوب شرق آسيا).

واردف البرفسور "ماثيو ميسلسون" في شهادته : ( إن دراسة حديثة على نبتة برازيلية كشفت النقاب عن نوع آخر من الترايكوثيسين، مُركز بدرجة أعلى بكثير، من تلك التي وجدها الدكتور "ميروشا" في العينات الاسيوية). ولم يبدِ "ميسلسون" أي تأثير بالمقدمة العلمية التي قدمتها وزارة الخارجية الامريكية، لدعم حججها؛ فالانتقاد في مداخلته ظل قائماً، ومُحاطاً بالشكوك أيضاً.

ان نص مداخلته لم تحسم شيئاً لفائدة الخارجية الامريكية، ولم تدعم إدعاءات الدكتور ميروشا في هذا الشأن. وقد قبل البعض، بأن حجم الشهادة أكبر من أن يتم تجاهله، وإقتنع آخرون ، ان حربا كيميائية من نوع ما، لا تتضمن بالضرورة الترايكوثيسين، قد شنت فعلاً. كما وافق

آخرون مع "بيري روبنسون"، أنه لا يمكن إستخلاص شيئاً من الأدلة التي قُدمت علناً. وكان "جين ليونز" أكثر شكاً، حين رفض أن يقبل ذلك "الدليل المزروع الذي يعتمد على الثقة"، بالنظر الى ما أسماه "خُدع الاستخبارات" السابقة<sup>87</sup>.

انتهى عام 1981، ولم يتم حسم نفي أو تثبيت مزاعم هذه القضية الدولية، لا على الصعيد الأمريكي، بين العلماء والسياسة، ولا من خلال الامم المتحدة ولجانها وخبرائها الذين كُلفوا بالأمر. كما تشكلت لجنة خبراء للامم المتحدة أخرى برئاسة اللواء الدكتور "أ. ي. عز الدين" رئيس فرع البحث العلمي في الجيش المصري. لكن اعمالها تعرقلت لاسباب عدة، تنحصر بين بيروقراطية أجهزة ولجان الامم المتحدة، ومحدودية الزمن المقرر لإنجاز التقرير، ومنع السوفيت من دخول افغانستان ولاوس وكمبوديا، والصعوبات التي وجدها اللجنة في إجراء مقابلات ذات قيمة من خلال مترجمين ووسطاء.

ورغم تمديد عمل اللجنة بقرار أممي لمدة عام آخر،<sup>88</sup> شمل التحقيق الثاني مراجعة أشمل للمعطيات ولفرضيات إستخدام السوفيت لمادة الترايكوثيسين؛ خاصة فرضية إحتمال وجوده بشكل طبيعي، وعالي التركيز، في لاوس او كمبوديا. ومن الكتب العلمية التي درستها المجموعة واللجنة "لم تعثر على أي تقرير يُشير الى وجود طبيعي للترايكوثيسينات من نوع الفومي توكسين Vomitoxin أو "ت - 2"، وثنائي أسيتوكسي سكريبينول Diacetoxyscirpenol بتركيز يفوق 50 "جزء من المليون ppm"، في أي من المناطق التي جرى مسحها لهذا الغرض. من جهة أخرى فشلت المجموعة في كشف أي دليل إيجابي للترايكوثيسين في عينات النباتات، أو الدم، أو المواد العسكرية، التي جُمعت من الباكستان وتايلاند، والتي سُلمت الى المجموعة، قيل أنها جُمعت قبل عدة أسابيع أو أشهر من تسليمها الى اللجنة.

<sup>87</sup> تقارن هذه الحالة مع الحالة العراقية، في موقف "كولن باول" وزير خارجية الولايات المتحدة الاسبق في عهد الرئيس بوش الابن وخطابه في الامم المتحدة وهو يقدم مزاعم عن امتلاك العراق للأسلحة الجرثومية تمهيدا لشن الحرب على العراق وغزوه واحتلاله، لقد كانت أول وأهم فضيحة سياسية وعلمية للولايات المتحدة، سجلتها الدبلوماسية العالمية من على منبر الامم المتحدة في بداية القرن العشرين.  
<sup>88</sup> قرار الجمعية العامة لأمم المتحدة الرقم 96/36 سي في 9 ديسمبر 1981 بموافقة 86 صوتاً ومعارضة 20 وامتناع 32.

أضف الى ذلك ان اثنين من المختبرات الستة التي فحصت تلك العينات فشلا في كشف التراكوثيسين في عينات المراقبة التي جرى ادخالها. إستنتجت المجموعة من أكداس الادلة التي جرى جمعها، دون ان يكون لديها دليلا حاسما الى التصريح بعموميات قابلة للتأويل بقول اللجنة انها : (... لا تستطيع أن تتغاضى عن الأدلة الظرفية التي تُبين إحتمال إستخدام نوع من الكيمياويات السامة في بعض الاوقات).

خلال عمل فريق الامم المتحدة بتحقيقاته، كان الامريكيون والإعلام الغربي الذي يدور بفلكهم يخلقون اجواء من التصعيد في حملة إعلامية للتأثير على العالم، وعلى اللجان الاممية المكلفة في التحقيق. فمثلا جرى نشر "كمية كبيرة من الادلة"، من خلال ما نشرته محطة "آي. بي. سي. نيوز" من نتائج إدعت أن بعثتها الخاصة لتقصي الحقائق، المُرسلة الى جنوب شرق آسيا ونشرها : (.. انها وجدت عينة تحوي ثلاثة انواع من التراكوثيسينات، علاوة على أحد مشتقات غليكول بولي اثيلين **Polyethylene glycol** ، وهي مادة لا توجد في الطبيعة). وعرضت المحطة، ما أسمته الدليل والحُجة، من خلال برنامج عنوانه: "مطر الرعب" يوم 21 ديسمبر 1981.

وفي العام الذي تلا ذلك كشفت وزارة الخارجية الامريكية، قضية أخرى أكثر شمولية، هي الإعلان عن نتائج: قيل عنها أنها "تحليل لعينات دم لإثنين من ضحايا "المطر الاصفر" في كمبوديا"، أظهر التحليل عن وجود مادة " ه ت - 2 " ( HT - 2 ) ، وهي من الايضات الحيوية **mitabolite** الناتجة عن توكسين التراكوثيسين" ت - 2 ". ونشرت الاستخبارات الامريكية تقريرا في 32 صفحة وصف: ( ... بأنه أكبر بيان شامل نُشر حتى ذلك الحين)، إضافة الى تقرير آخر نُشر في نوفمبر 1982، زُعمَ فيه أنه: (... يصور البيانات عن تراكوثيسين التوكسينات الفطرية التي وجدت في 16 عينة طبية حيوية، و 5 عينات نباتية، علاوة على التركيز على وجودها على قناع سوفيتي).

في شهادة أخرى أمام مجلس الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ في 30 مارس 1982، قدمت الدكتورة شارون واتسون، والدكتور تشستر ميروشا، ما أسموه "الدليل العلمي للاتهامات التي قدمتها وزارة الخارجية الأمريكية". وفي جوان 1982 قدمت كندا تقريراً وصف أنه "غير رسمي" إلى الأمم المتحدة يعكس النتائج التي توصل إليها الدكتور برونو شيفر، وهو المرجع الكندي الأول في مجال التوكسينات الفطرية، والذي زار تايلاند خلال شهر فيفري 1982، وإستنتج من خلال زيارته لمخيمات اللاجئين هناك، ودراسته لعينات فُحصت ليُعلن: " أنه لأمر بعيد الاحتمال جداً ان تكون الاحداث التي أبلغ عنها اللاجئين ناتجة عن ظروف طبيعية". (رغم انه يعتقد بوجود تشابه أكبر بين " ستاكي بوتريو توكسي كورسيس *Stachybotryotoxicosis* و "المطر الاصفر"، أكثر مما بين *ATA* و "المطر الاصفر").

وأبلغت وزارة الخارجية الأمريكية أيضاً: ان هناك هجومات اخرى، تم تسجيلها عام 1982، وان توكسينات الترايكوثيسين قد وجدت في 20 عينة طبية حيوية *Biomedica* بحلول أوت/اب 1983. ورغم ذلك بقي هناك الكثير من الشك في تقارير وزارة الخارجية الأمريكية؛ لانها ظلت ترفض الكشف عن التفاصيل الكاملة حول مكان ووقت جمع العينات وإحتمال أن العينات قد تلوثت، خلال نقلها، كما أن النتائج التي توصلت إليها محطة لآ. بي. سي. نيوز تفنقر الى تأكيد علماء آخرين.

كما ان هناك 60 عينة فحصتها أنظمة المختبرات التابعة للجيش الأمريكي، كانت نتائجها جميعاً سلبية، والإدعاء بالعثور على التوكسين " ت - 2 " في انسجة بشرية بعد عدة أسابيع من تعرض مزعوم لأصحابها لتلك العوامل الكيماوية، يتعارض مع معظم الدراسات العلمية والبحوث التي أجريت على حيوانات في تجارب المخبر، التي بينت: ان التوكسين " ت - 2 " يطرح من الجسم خلال 48 ساعة، إذا تجرعه الشخص عن طريق الفم أو تم الحقن به من خلال الاوردة.

وفي عملية التشريح الوحيدة التي أُبلغ عنها (جرت على جندي كمبودي اسمه "شان مان" ) وجدت كميات عالية من "الافلاتوكسين ب<sub>1</sub>" Aflatoxin B<sub>1</sub> ، وهو توكسين فطري مُستوطن في جنوب شرقي آسيا" ، وكما وجدت ترايكوثيسينات في الجهاز الهضمي، وحيث ان المعدة والامعاء هي اولى الأعضاء التي تبدأ الهضم، لذا فسرت حالة الجندي الكمبودي "شان مان" إنه قد تناول طعاما متعفنا قبل يوم او يومين من وفاته.

رغم ان الأنباء المتناقلة من جبهات الصراع كانت تُشير الى أن الهجمات إستمرت في جنوب شرقي آسيا طيلة عام 1983 ؛ (إلا ان عددها حقيقة بدأ يتناقص في لاوس، كما تناقصت الاصابات القاتلة في لاوس وكمبوديا). ولم تؤكد هجمات الغاز في أفغانستان، رغم الإبلاغ عنها خلال عام 1983، ومع ان ضابطا أفغانيا كبيرا، إدعى انها استمرت حتى شهر جانفي / كانون ثاني من عام 1984 لكن الحقائق ذهبت بعيدا عن مثل تلك الادعاءات.

ورغم كل الجهد الامريكي لإدانة السوفيت، فقد ظل التجاوب الدولي مع الإتهامات الامريكية يتسم بالفتور. وبالرغم من أن عدة حكومات أخرى قد أجرت تحقيقاتها، الخاصة بها وبطرقها الخاصة، إلا أن أيا منها لم ينشر حصيلة ما توصل اليه من نتائج، ما عدا كندا التي قدمت تقريرها، ووصفته بعبارة "غير رسمي" كما أشرنا قبل ذلك.

وفي رأي آخر قدمته لجنة المحامين الآسيويين قالت فيه: " ان الدليل على استخدام أسلحة كيميائية... إتخذ شكلا يُجبر كل شخص عاقل أن يقر بأن هذه الاسلحة قد استخدمت ضد شعبي كمبوديا ولاوس"، ويُعاب على الامريكيين أنهم: "عرضوا القضية في المرة الاولى، في عهد ادارة ريغان بشكل، وصف، أنه كان أخرقاً وسابقاً لأوانه، وأساء الى مصداقيتها؛ بل أثار الشكوك حول سياستها الخاصة بمراقبة التسلح". وبدت أن التهمة بدأت مسيسة جدا، وأن أطرافا عديدة، سواء متحالفة مع السوفيت ام لا، لم ترغب في التورط في صراع سياسي وإعلامي بين الدولتين العظمتين، تعرفان حقا أغراضهما من مناورات الحرب الباردة.

لكن الحقيقة التي لا يمكن ان نتجاوزها في نهاية هذا العرض الموسع، أن "لا نار من غير دخان"، و"لا دخان من غير نار" كما يُقال ، فكيف وإن كلا الطرفين قد تورطا بجرائم أسلحة الدمار الشامل، حتى غرقا بالآثام حد الرقاب.

## 22-6: النزاعات الاقليمية: ساحات تجريب الاسلحة الكيماوية

### مصادرها غربية وشرقية الصنع:

وفي النزاعات الاقليمية، التي يمكن مناقشتها، كحالة التمرد الكردي في شمال العراق خاصة، حيث جرى استعمال غازات التابون والخردل في حلبجة. لذا نفرّد لها تفصيلا خاصا لأهمية كشف الحقائق المتعلقة حولها وتقديمها كنموذج في قضية ازدواجية المعايير الأخلاقية التي تعامل بها الغرب مع العراق.

### قصف مدينة حلبجة بالاسلحة الكيماوية: من الذي إستعملها وضد من؟

الحقيقة الوحيدة، التي يجب ان تُقال في حالة الحرب العراقية الايرانية ومدينة حلبجة، تلك المدينة البائسة وقبلها عدد من جبهات القتال بين العراق وإيران، راحت ضحية الأسلحة الكيماوية، بصناعة غربية "اوربية -أمريكية" ، حرب قتلت عربا واكرادا وإيرانيين في صراع تم بالوكالة عن مصالح وتدخل الولايات المتحدة الامريكية وأطماعها في المنطقة.

ومن أجل الحق والحقيقة العلمية فقط، سنناقش الموضوع هنا برؤية جديدة، وعرض الحقائق التي نُشرت مؤخرا عن هذا الموضوع، جاهدين بالابتعاد عن دغدغة المشاعر القومية، سواء عند العرب أو الأكراد أو الفرس، والابتعاد عن أسلوب الأملاءات المسبقة، في مجال الرؤية والفهم لما جرى فعلا، منطلقين من قاعدة محددة بأنه لا يسوغ لأحد احتكار الصواب والحقيقة من طرف ما، مهما كانت أهميته أو ظروفه الذاتية والموضوعية.

### حلبجة ومفهوم الإبادة الجماعية:

ظلت حلبجة منذ التسعينيات من القرن الماضي ، القاسم المشترك، في مناقشات موضوع تردد كثيرا بعنوان: "الإبادة الجماعية"، على المستويين العراقي والعالمي؛ لارتباطها باستخدام

السلاح الكيماوي، وهي القضية التي أخذت مساحات واسعة من تقارير ومناقشات لجان حقوق الإنسان.

كانت منظمة العفو الدولية، ومنظمة مراقب حقوق الإنسان الأمريكية، الخاضعتان بشكل ملموس للإدارة الأمريكية تتبنيان مزاعم معينة، وهما المنبران الرئيسيان لإثارة موضوع حلبجة في كل وقت ضمن تقاريرهما الفصلية والسنوية على مدى سنوات طويلة. وجهت الاتهامات حينها إلى الحكومة العراقية السابقة، لأسباب سياسية واضحة، تُغذيها نشاطات الأحزاب الكردية وبعض أطراف من المعارضة العراقية وإيران ورغبة الاطراف السياسية الدولية المناوئة لنظام الرئيس السابق صدام حسين.

أضيفت الى الهولوكوستات السابقة، مسمى جديد هو "هولوكوست حلبجة". أما الأمم المتحدة فقد أرسلت فرقا لتقصي الحقائق حول الموضوع للعراق وإيران، ولم تتمكن، كالعادة لجان الامم المتحدة، من أن تثبت حتى هذه الساعة رسمياً، من هو الفاعل الحقيقي؟ وما هي أدوار القوى الدولية والاقليمية في استمرار إثارة موضوع تلك المجزرة.

#### حلبجة "الهولوكوست الكردي" الجذور والمسببات:

بعد بيان الحادي عشر من مارس/آذار عام 1970، أصدرت الحكومة العراقية العديد من القرارات التي كانت في صالح الأكراد. والحقيقة، وكما يعترف الاكراد أنفسهم، أنه لم تحظ الأقليات الكردية في كل مناطق العالم بمثل تلك الامتيازات والحقوق التي حصل عليها الاكراد العراقيون، سواء في إيران أو تركيا أو سوريا وغيرها.

وخلال سنوات الحرب مع ايران يؤست الحكومة العراقية من استمالة أو تحييد قيادات الأكراد اليها، وسعت الى تجميع السكان في مناطق بعيدة عن الحدود وإلى عمق 15 كم عمقاً داخل الحدود العراقية، بالنسبة للقرى الحدودية مع ايران خاصة؛ بغية إبعاد المدنيين عن مناطق القتال من جهة، ولغرض تفويت الفرصة على القوات الإيرانية للإستفادة من بعض القوى الكردية كورقة ضاغطة على القوات العراقية، ومن ثم تأمين المناطق الإدارية لوححدات الجيش الخلفية

التي كانت قريبة من تلك القرى، وتفويت الفرصة من تسرب الأسرار العسكرية وتحركات الجيش إلى الأكراد الموالين لإيران.

قررت الحكومة العراقية إخلاء هذه القرى بالقوة، وبحملة عسكرية منظمة أطلقت عليها اسم "حملة الانفال". تم اجلاء سكان القرى الحدودية، وخاصة المتاخمة مع ايران.<sup>89</sup> وبدأ الترويج الاعلامي ضد هذه الحملة، مضخماً حول أعداد الأكراد المطرودين أوالمرحلين من أراضيهم، حتى وصل عدد النازحين بحوالي 750 ألف نسمة كمرحلة أولى، ثم تضاعف، من خلال تكرار وسائل الاعلام الامريكي، لاحقاً، حتى وصل الى ما بين (1- 1،5) مليون كردي، وهو رقم بعيد عن الواقع العراقي، وتدحضه الحقائق الميدانية والديموغرافية على الارض.

وحسب رواية كردية تقول: (...ليلة 1988/2/22 وقعت عدد من القذائف في وادي جفاتي، حيث مقر المتمردين الأكراد، وكان أمراً عادياً ومألوفاً عندهم، ولكن مع بزوغ الشمس وجد بعضهم صعوبة في الرؤيا، وظهور بثور وتقرحات في وجوههم وأجسادهم، مع سعال شديد وحالات من الغثيان والتقيؤ وغيرها من الأعراض).

وتشير رواية كردية أخرى، تتناقض تماماً مع الرواية الأولى: (...في الساعة الحادية عشر وسبع وعشرين دقيقة من صباح يوم 1988/3/16 حلقت الطائرات فوق مدينة حلبجة [الكردية] على الحدود العراقية الإيرانية وأمطرتها بأكثر من 500 طن من الغازات الكيماوية، كالساارين والخردل وغاز الأعصاب، وأدى ذلك إلى قتل أكثر من 5 آلاف شخص، وإصابة أكثر من 110 آلاف آخرين)<sup>90</sup>. وأشارت الروايات عن: (... بيانات عراقية وايرانية إلى إصابات كثيرة

---

<sup>89</sup> الكاش علي، الدور التخريبي الإيراني في العراق، ج7، حلبجة، هولوكوست الأكراد، موقع البصرة على الانترنت شهر اوت 2008 . أ. د. محمد العبيدي د. محمد العبيدي جرائم حلبجة !إيران وليس العراق تقرير مهم جدا(أرجو التثبيت)  
<http://www.sqr-al3rb.com/vb/showthread.php?p=2486>  
Halabja and the chemical weapons بثينة الناصري\* فضائح زعماء الأكراد \*  
<http://www.aljazeeraatalk.net/forum/archive/index.php/t-27425.html>

<sup>90</sup> الكاش، علي الدور التخريبي الإيراني في العراق، ج7، حلبجة، هولوكوست الأكراد، موقع البصرة على الانترنت شهر اوت 2008 . أ. د. محمد العبيدي د. محمد العبيدي جرائم حلبجة !إيران وليس العراق تقرير .  
<http://www.sqr-al3rb.com/vb/showthread.php?p=2486>  
Halabja and the chemical weapons بثينة الناصري\* فضائح زعماء الأكراد \*  
<http://www.aljazeeraatalk.net/forum/archive/index.php/t-27425.html>

حدثت بين صفوف قوات الطرفين، وتم أخلائهم إلى الوحدات الطبية القريبة. وأعلنت مصادر إخبارية بان حوالي 5000 كردي قتلوا نتيجة هذه الضربات الكيماوية، إضافة الى تعويق حوالي 10000 شخص آخر، معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ).

خلال تلك الفترة التاريخية، التي وردت فيها تلك التقارير الاعلامية، حسب مزاعم بعض المصادر الكردية، لوحظ أن تواريخ الحدث المسجلة، غير منطقية، وغير مترابطة، مع سير الاحداث في المنطقة وشمال العراق؛ لأن الحرب انتهت أوزارها في 1988/8/8 بإعلان وقف إطلاق النار بين العراق وإيران، وإعتبر الطرف العراقي نفسه رابحا للحرب، رغم جسامته وهول خسائرها عند الطرفين. ولكن بعد دخول العراق للكويت في اوت 1990، ومن ثم بدء الهجوم الثلاثيني الذي قامت به الولايات المتحدة في 1991/01/17 لإخراج القوات العراقية من الكويت، ومن ثم تم تدمير العراق، وبدأت سنوات الحصار على العراق لمدة 12 سنة. عاد الامريكيون الى حكاية حلبجة من جديد، لتوظيفها ضمن قضايا التفتيش عن اسلحة الدمار الشامل في العراق.

وعادت الصحف الامريكية، ومنها نيويورك تايمز، تنقل عن لسان الإدارة الامريكية وتحدث: ( ... أن التهم التي وجهت للنظام العراقي بشأن "الإبادة الجماعية" و"استخدام الأسلحة الكيماوية" في حلبجة عام 1988 قد توفرت الأدلة بشأنها، حيث تم جمع نماذج من التراب عام 1992 من قرب الحفر التي أحدثها سقوط قنبلتين في قرية بيرجني الكردية، جمعها فريق من "منظمة مراقب الشرق الأوسط". وإن التحاليل التي أجريت على التربة بمختبر بورتون نيفل في انكلترا، أكدت وجود آثار تُشير إلى استخدام غاز الخردل، وتُشير عينات أخرى الى استخدام غاز السارين).<sup>91</sup>

---

<sup>91</sup> الكاش علي ،الدور التخريبي الايراني في العراق، ج7، حلبجة، هولوكوست الاكراد، موقع البصرة على الانترنت شهر اوت 2008 . أ. د. محمد العبيدي د. محمد العبيدي جرائم حلبجة !إيران وليس العراق تقرير مهم جدا(أرجو التثبيت من)  
<http://www.sqr-al3rb.com/vb/showthread.php?p=2486>  
Halabja and the chemical weapons بثينة الناصري\* فضائح زعماء الاكراد \*  
<http://www.aljazeeraatalk.net/forum/archive/index.php/t-27425.html>  
"منظمة مراقب الشرق الاوسط" : منظمة معروفة بتوجهها الأمريكي الصريح والمكشوف.

يدعي الأكراد أنهم تمكنوا من الحصول، بعد أحداث آذار/مارس عام في العراق 1991 على 18 طن من وثائق المخبرات العراقية، تتضمن معلومات مباشرة عن إستخدام الأسلحة الكيماوية في حلبجة، إضافة إلى أشرطة صوتية ومرئية... الخ. والغريب إن تلك الوثائق والأدلة الجرمية لم تُعرض على الأمم المتحدة ووكالاتها، أو المنظمات الإنسانية، لتفكيك أَلغاز المسؤولية عن أحداث حلبجة لتنوير الرأي العام العالمي حولها في حينها رغم التداول الاعلامي المشتبك بشأنها. كانت الدبلوماسية الايرانية موفقة في خطتها لإتهام العراق، ففي مجال الأعلام، نجد من الضروري الاطلاع على بعض ما أوردته الصحافة حول حلبجة لمعرفة أين تصب ومن تخدم؟. ورد عن مراسل صحيفة الأوبزيرفر البريطانية مايلي : (...إن جلاوزة النظام العراقي أسروا أحد الثوار [تقصد الاكراد]، وإشاعة الرعب في نفوس السكان قاموا بربطه إلى سيخ [سفود من الحديد] وشيه حياً على النار). وجرى التأكيد على مسميات عديدة، منها بدلا من تسمية الجيش العراقي استعيض بها بـ "جلاوزة النظام"، وبدلا من "المتمردين الاكراد" تم اطلاق تسمية " الثوار الاكراد". وجرى تكرار توصيف النظام ورئيسه بعبارات مكررة، منها (النظام الذي يقتل ابناء شعبه)، كما كررت تقارير أخرى، مصدرها مكتب تمثيل السفارة الأمريكية في بغداد من مقر السفارة البولندية ببغداد، في برقيات لها ولحكومتها، منها في 19/4/1988 سُربت نصوص ومصطلحات موظفة جيدا: (... فالقرى الكردية، التي تم جمع الأكراد فيها، وسماها النظام العراقي "مدن النصر"، صارت تسمى "المحتشدات والمعتقلات البعثية" التي تم التأكيد على وصف سعتها، بأنها كانت تضم (5،1 مليون كردي). رغم أن هذا العدد مُبالغ به، كما أشرنا وما سيتضح لاحقا.

كما أنتج شخص يسمى "روزبياني" فلما سينمائيا عن حلبجة سماه "جيان"، عُرض في مهرجان لندن السينمائي ومُنح جائزة أو تنويها؛ رغم أنه لم يحظ بشهرة كبيرة، لضعفه من كافة النواحي الفنية من إخراج وقصة ومونتاج، إضافة الى ضعف أداء الممثلين، والتسرع في أنتاجه، حيث أنتج الفلك خلال 28 يوماً فقط في هوليوود، لكنه أُستغل، كورقة اعلامية رابحة لموضوع

أمريكي كانت تجري حبكته على نار هادئة. فقد تكرر عرض الفلم في أكثر من 20 مهرجان دولي، بدعم أمريكي وبريطاني وإسرائيلي لتثويته صورة النظام العراقي السابق وشيطنته. ومن الفعاليات ذات العلاقة بالتصعيد الاعلامي، المهرجان الذي أقيم في كلية الدراسات الشرقية والآسيوية في جامعة لندن بمناسبة الذكرى 17 لواقعة حلبجة، والذي شارك فيه "بيرفتن دوسكي" والبروفيسور "كيفين بويل" عضو مركز حقوق الإنسان والباحث الكردي "شورش حاجي" والبروفيسور "دلاور علاء" وصلاح الشبخلي و"هيرو خوشناو" من الاتحاد العلمي والطبي الكردي وعدد من الفنانين<sup>92</sup>. ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل أن الإعلام البريطاني خرج أيضاً ليحدثنا عن ظواهر غرائبية، تحدثت في حلبجة، وليست لها رصيد من الواقع العلمي، منها: (... عن ارتفاع نسب الموت في المدينة الناجم عن ارتفاع نسبة سمية لدغات الحشرات والزواحف بسبب تغذيها على رواسب الغازات القاتلة والكامنة في الأرض المنكوبة).

كما رددت صحيفة "جيروز اليم بوست" الإسرائيلية تناغماً مع الحملة الدعائية فنشرت خبر: ( إكتشاف مصنع للأسلحة الكيماوية جنوب العراق، وأن تحقيقات تجري بشأنه). ولم تكشف الصحيفة عن نوع الأسلحة الكيماوية المنتجة، كما لم تحدد مكان المصنع بشكل واضح. وفي لاهاي بدأت محاكمة "فرانس فان ارات"، تاجر المواد الكيماوية المتهمم (بالتواطؤ مع الحكومة العراقية في عمليات إبادة، لأنه سلمها مواداً كيماوية قيل عنها أنها أستخدمت في حلبجة). وكان آخر فصل في المسرحية الإعلامية هو إختيار القاضي رؤوف عبد الرحمن، ( وهو من مواطني حلبجة، ليكون القاضي الذي ترأس محكمة الرئيس صدام حسين، في قضية الدجيل تحت الحماية والحراب الامريكية ويحكم عليه بالاعدام.

عاد الإعلام الأمريكي لترويج رواية قيام الجيش العراقي بقصف حلبجة متخذاً منها ذريعة لإضفاء الشرعية والجانب الأخلاقي في الحرب التي شنها عام 1991. وفي تقرير نشر في

<sup>92</sup> يلاحظ ان اغلب هؤلاء حصلوا على مكافئات وجوائز ووظائف في اجهزة سلطة اقليم كردستان وفي الدولة العراقية بعد الاحتلال الامريكي للعراق ربيع 2003.

صحيفة "نيويورك تايمز" عام 2003 ذكر "ستيفن بليتيري"، نقلاً عن تحقيقات أجرتها وكالة المخابرات المركزية بالقضية باعتبارها : (... أن مسألة حلبجة لم تكن جريمة حرب؛ وإنما عمل حربي)، ولكونه محلل مخابراتي، سبق أن ترأس لجنة حول هذا الموضوع يرى: (... بأن إيران أيضاً تقف وراء ضرب حلبجة بالأسلحة الكيماوية )، وبهذا فإن الولايات المتحدة تستمر في استخدام ورقة حلبجة للإبتيزاز حسب حاجتها، سواء ضد النظام العراقي أو الإيراني كما سيعرض هنا لاحقاً.<sup>93</sup>

في مقال للكاتب الكندي "دون سيلار" نُشر في 2003/3/1 أشار إلى ضعف التقارير عن أحداث حلبجة، وأن مصدرها الرئيسي كان مكتب وكالة رويترز للأبناء من مقرها في قبرص، التي ذكرت: (... أن الأكراد يقاتلون الجيش العراقي إلى جانب القوات الإيرانية، وتمكنوا من احتلال حلبجة، ويتهم الإيرانيون الجيش العراقي باستخدام أسلحة كيماوية ضد الأكراد). و يستطرد بثت الوكالة خبراً نقطعه من نصه المتكامل في الحديث عن: (مقتل 5000 كردي بالأسلحة الكيماوية، عبر قنابل ألقتها طائرات عراقية مقاتلة). والإشارة إلى: (عرض الإيرانيون صوراً للضحايا). كما ينقل تصريح آخر : (...علق طبيب إيراني، بأنه تم استخدام غاز الخردل). ثم تناولت وكالة رويترز خبراً ب : (...إرسال الأمم المتحدة خبيرين إلى المنطقة)... وإنهما : (...لم يتمكنوا من تحديد الجهة التي استخدمت السلاح الكيماوي، أو كيف استخدم!... وبالرغم من إرسالها مرة أخرى فريقاً للمنطقة برئاسة الكولونيل "مانويل ديمنغويز"، فإنها لم تتمكن من تحديد أي من الجهتين المسؤولة، رغم أنها وثقت: بأن الجانبين أستعملا الغازات السامة ضد قوات الآخر). هذا ماتم تداوله اعلامياً تحت قيادة مايسترو أمريكي، نفذه مكتب وكالة رويترز في قبرص، بالتنسيق مع جهات اسرائيلية، وخلفهما يردد الخبر جوق إيراني وعربي خليجي.

<sup>93</sup> الكاش علي، الدور التخريبي الإيراني في العراق، ج7، حلبجة، هولوكوست الأكراد، موقع البصرة على الانترنت شهر اوت 2008 . أ. د. محمد العبيدي جرائم حلبجة! إيران وليس العراق - <http://www.sqr-al3rb.com/vb/showthread.php?p=2486>  
Halabja and the chemical weapons بثينة الناصري \* فضائح زعماء الأكراد \*  
<http://www.aljazeeraatalk.net/forum/archive/index.php/t-27425.html>

ولضلوع إيران في الموضوع يذكر الصحفي البريطاني "ريتشارد بيستون"، وهو يعمل في صحيفة التايمز البريطانية خلال تغطيته لأحداث حلبجة واقعة فريدة حول استغلال إيران للحدث: ( ... عندما استخدم الرئيس العراقي السابق صدام حسين أسلحة كيميائية ضد سكان حلبجة الكردية، كان ذلك أهم خبر استطعت تغطيته، فلم يكن الغرب يعرف خفايا نظام صدام بعد، وكنت ضمن مجموعة من 3 صحافيين بريطانيين في زيارة إلى طهران لتغطية الحرب العراقية - الإيرانية، فقد دعت القوة الجوية الإيرانية الصحفيين إلى زيارة جبهة الحرب، ونقلتنا طائرة عسكرية إيرانية إلى داخل الأراضي العراقية لقرية من دون سابق إنذار. لم أعلم أننا كنا سندخل الأراضي العراقية... ولا رؤية مشاهد الدمار هناك).

ولتقديم نموذجاً للتدني الأخلاقي العلمي، يطالعنا العالم العراقي النووي حسين الشهرستاني "وزير النفط الحالي" في حكومة الاحتلال الرابعة بشهادة غريبة. الجدير بالذكر هنا أن للشهرستاني دور في تدمير البرنامج النووي العراقي من داخله بوصفه عالماً نووياً، سبق أن تعاون مع الموساد وشبكات تجسس إسرائيلية وأمريكية خلال إشرافه على تنفيذ فقرات من بناء المفاعل في فرنسا.

يقول "الشهرستاني" بعد احتلال العراق 2003، بأن: (.. النظام العراقي استخدم الأسلحة الكيميائية ضد الإيرانيين المدنيين والعسكريين في الحرب العراقية الإيرانية).

وهذا الأمر يدخل في باب الغرابة؛ لأن إيران نفسها لم تعلن عن إصابات بين المدنيين، رغم تعرض قواتها إلى ضربات بالأسلحة الكيميائية داخل التراب العراقي. ويستمر الشهرستاني، فيدعي: (.. أن النظام العراقي استخدمها عام 1984، وليس كما أذعت إيران عام 1988). ويردد "الشهرستاني" مقولة ترددها إيران دائماً: (بأن العراق استخدم غازات الخردل والساارين والتابون). ويأتي الشهرستاني بخبر جديد مدعياً: (.. أن الإيرانيين قدموا المساعدات من خلال قواتهم العسكرية في حلبجة لإنقاذ عدد كبير من الأكراد الذين تم إخلائهم إلى إيران بعد الضربة الكيميائية). ولم يكتف بذلك، وإنما أضاف، ما يتناقض مع فروضه العلمية نفسها: (.. بأن النظام

العراقي أستخدم أسلحة كيميائية في ضرب مدينة كربلاء في أحداث عام 1991). وهذه قنبلة اعلامية لم يفجرها أحدا قبل الشهرستاني بما فيها الاعلام الأمريكي والاسرائيلي ولم تتناولها أي من وسائل الأعلام كافة.

وفي حين ينفي زميله عالم الذرة العراقي المعروف ممن عمل مع الشهرستاني في فترة سابقة في المشروع النووي العراقي البروفسور ضياء جعفر مثل هذه الاقتراءات، عندما سُئل فيما إذا جرى تحفيز العلماء العراقيين لصنع أسلحة فتاكة واستخدامها ضد إيران؟. أجاب ضياء جعفر: (... لا، أبدا، لم تكن إيران مستهدفة بهذا النوع من السلاح. لقد ابغنا الرئيس صدام حسين إن هذا السلاح له هدفان: أولاً، مواجهة التحدي الإسرائيلي في المنطقة؛ لأنه كان معلوماً أن الإسرائيليين يمتلكون السلاح النووي، فهو إذا لموازنة التفوق العسكري الإسرائيلي في الجانب النووي. وثانياً صار واضحاً أنه لا يمكن المضي في العراق في أي برنامج نووي سلمي..).

وفي سؤال آخر: (عن معرفة العلماء باستخدام الجيش العراقي الأسلحة الكيميائية في حلبجة)، أجاب البروفسور ضياء جعفر: (... نحن لم نكن على إطلاع، غير إنني استشهد بمقال نشر في 31 جانفي/كانون الثاني 2003 في صحيفة النيويورك تايمس، يقول فيه الكاتب "ستيفن بليتيري"، المسؤول عن مكتب العراق لدى وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية: ( أن حلبجة لم تكن مستهدفة بالأسلحة الكيميائية العراقية؛ بل كانت هناك معارك حول حلبجة أستخدمت فيها الأسلحة الكيميائية من الطرفين العراقي والإيراني). ويقول أيضاً: (... انه جرى تحليل أسباب وفاة بعض الأشخاص الذين قتلوا بالأسلحة الكيميائية، وتبين أن الوفيات سببها استخدام ما سُمي عوامل الدم التي تعتمد على عنصر السيانيد، الذي لم يكن موجودا لدى العراق. كان لدى العراق عوامل أعصاب وغاز الأعصاب وغاز (vx) بكميات قليلة).

وبالعودة الى ما نشرته صحيفة النيويورك تايمز في عددها الصادر بتاريخ 2003/1/31 عبر التقرير المهم الذي وضعه المحلل الإستراتيجي "ستيفن بليتيري" عن موضوع "قصف حلبجة"، أشار فيه: (... بأنه أطلع على تقارير من وكالة المخابرات المركزية، تشير إلى أن الإيرانيين هم

الذين قتلوا أهالي حلبجة)، ويجزم : (... بأن كافة التحقيقات والتقارير السرية تُشير إلى أن كلا الجانبين العراقي والإيراني أطلقا غازات سامة، ضمن سياق المعركة في مدينة حلبجة، مؤكداً بأن الأعراض التي ظهرت على سكان المذبحة البشرية المروعة ناتجة عن الإصابة بغاز هيدروجين السيانيد الذي عُرفت به ترسانة الأسلحة الكيماوية الإيرانية في ذلك الوقت، وليست ناجمة عن الإصابة بغاز الخردل كما أشيع لأن العراق كان ينتج كسلاح كيماوي؟.

وفي مارس/ آذار من العام الماضي 2008 صرح خليل الدليمي، محامي الرئيس صدام حسين بأنه يمتلك وثائق وصفها أنها : (تدل وتؤكد بشكل قاطع على أن الذي ضرب حلبجة هو الجيش الإيراني، وبغاز السيانيد، الذي لا تملكه أية دولة في الشرق الأوسط سوى إيران). وأضاف بأن: (... ألمخابرات الأمريكية أرسلت فريقاً بقيادة أحد الجنرالات- ولا أريد أن أذكر اسمه- وهذا الجنرال كان مسؤولاً عن منطقة الشرق الأوسط وإيران، وقام بأخذ عينات من التربة والمزروعات والمصابين وقام بتحليلها، وتبين له أن غاز السيانيد هو الذي أُستخدم في ضرب حلبجة. وإن العراق لا يمتلك مثل هذه المادة، كما جاء في تقارير المفتشين). ويضيف الدليمي بأن: (... هذه الوثائق هي ملك هيئة الدفاع، وهي وثائق قانونية... وستعرض في المحكمة).

التلاعب بأرقام ضحايا "الهولوكوست الكردي على قاعدة "الهولوكوست اليهودي":

كما تلاعبت الحركة الصهيونية وإسرائيل بأرقام ضحايا الهولوكوست في "المحرقة اليهودية" النازية، إتبع القادة الأكراد نفس الأسلوب مستفيدين من التجربة اليهودية في الدعاية، وربما تم ذلك بنصيحة منهم. فالتهويل والمبالغة بلغت إلى حد يثير السخرية والاشمئزاز معاً، سواء كانت تلك الإحصائيات صادرة عن الدوائر الأمريكية أو الإيرانية أو الجهات الأخرى المعادية للعراق، بما فيها الأرقام التي تداولها إعلام الحزبين الكرديين الرئيسيين الحاكمين اليوم في شمال العراق .

ولكشف حجم التلاعب، لابد من رصد الأرقام، وطريقة توقيتها وتسريبها وتضخيمها. كان أول من أعلن عن نتائج الضربة الكيماوية في حلبجة هي مصادر الحكومة الإيرانية، حيث إدعت

أن عدد القتلى بلغ 4000 شخصاً، من ثم، وبعد عدة أيام ذكر راديو صوت طهران: (... إن عدد القتلى بلغ 5000 شخصاً، وأضيف عدد من الجرحى الذي بلغ 4000 شخصاً)، في حين ذكر مندوب إيران في الأمم المتحدة محمد محلتي: (... بأن الطائرات الحربية العراقية ألقت قنابل غاز الخردل والسيانيد على المدن الكردية فقتلت 5000 وأصيب بقدرهم أيضاً)، بمعنى أنه أضاف 1000 ضحية إلى المصابين). أما وزير الخارجية الإيراني ولايتي فإنه إدعى: (بأن عدد القتلى بلغ 5000 كردياً، إضافة إلى 7000 جريح. وأن 75% من الضحايا كانوا من النساء والأطفال).<sup>94</sup>.

أما منظمة " مراقب حقوق الإنسان " ، وهي أداة فاعلة بيد وكالة المخابرات المركزية، فقد إدعت: (... أنها درست وحللت ما يقارب 18 طناً من الوثائق، والتقت بمئات الشهود، طوال ثلاث سنوات من الجهد المستمر، ونتج عنها : إن العراق هو من ضرب حلبجة، وإن عدد القتلى يتراوح ما بين(50000-100000) قتيل). ولإثارة العطف الدولي، كما أتبع في المحرقة اليهودية، أضافت معظم التقارير المعلنة أرقاماً كما تريد، وكررت معها عبارة " أغلبهم من النساء والأطفال".

والسؤال الذي يُطرح منطقياً في مثل هذه المفارقات: إذا كان أغلب الضحايا من الأطفال والنساء؟ ولكن أين الرجال والشباب؟ . ولماذا لم يكونوا من بين القتلى؟ هل هربوا جميعهم إلى إيران؟ أم كانوا يقاتلون معها ضد الجيش العراقي؟. لم يجب أحد بعد أي من كتبة التقارير والتصريحات السابقة، بما فيهم الاكراد، وعلى أي من هذه الاسئلة المحرقة؟.

العالمة البريطانية "كريستين جوسدن"، أستاذة علم الوراثة في جامعة ليفربول، تجاوزت، وفقاً لشهادتها أمانتها العلمية كباحثة، يفترض بها الموضوعية كأستاذة جامعية، فقد رفعت سقف

---

<sup>94</sup> الكاش علي ،الدور التخريبي الإيراني في العراق، ج7، حلبجة، هولوكوست الاكراد، موقع البصرة على الانترنت شهر اوت 2008 . أ.د. محمد العبيدي د. محمد العبيدي جرائم حلبجة !إيران وليس العراق تقرير مهم جدا(أرجو التثبيت)<http://www.sqr-al3rb.com/vb/showthread.php?p=2486>

Halabja and the chemical weapons بثينة الناصري\* فضائح زعماء الاكراد \*  
<http://www.aljazeera.com/forum/archive/index.php/t-27425.html>

الضحايا في حلبجة إلى قرابة 200000، ولم تنس القول: (... أن تُحمل الحكومة العراقية المسؤولية) فحسب؛ وإنما أضافت تهمة ثانية هي: (... أن "الحكومة العراقية"، استخدمت أيضا أسلحة بيولوجية، وإشعاعية، إضافة إلى الأسلحة الكيماوية).

ومثل هذا التقديرات الجرافية والتشخيصات الغربية لمثل تلك العالمية والباحثة يُسقط الاخلاقيات العلمية في الحضيض. لا شك أنها تكون قد اطلعت على الارقام التي كانت متداولة اعلاميا وسياسيا، وخاصة أرقام المصادر الإيرانية، وهي أول من أعلنت خبر حدوث الضربة الكيماوية، وقدرت القتلى بحوالي 5000 شخصا. ولا ندري من اين اضافت تلك العالمية البريطانية تعبير "بيولوجي واشعاعي" الى تقرير شهادتها " العلمية".

أما رئيس الوزراء البريطاني "توني بليز" فقد إختار لنفسه أرقامه الخاصة به، وإدعى أن عددهم بلغ 100 ألف كردي؛ في حين تشير إحصائيات منظمة العفو الدولية من لندن إلى رقم يقارب 5 آلاف كردي، وإصابة 9 آلاف آخرين. ويطلبنا مسعود البرزاني رئيس سلطة إقليم كردستان العراق، متحفظاً على البيان الختامي للاجتماع التحضيري لمؤتمر الوفاق العربي ويعلن: (... بأن صدام أودى بحياة 182 ألف كردي إلى مصير مجهول). أما وزارة البيئة العراقية فأنها: (... تتفق بأن عدد القتلى كان بحدود 5 آلاف كردي، لكن عدد الجرحى بلغ 10 آلاف فقط).

ومن الأمور التي تكشف زيف أرقام منظمات حقوق الأنسان، ما أصدرته منظمة مراقب حقوق الأنسان نفسها، في شهرنوفمبر/ تشرين الثاني عام 2004 من بيانات كذبت فيها ذات المنظمة بياناتها السابقة وتحدثت عن : (... وجود مقابر جماعية تضم رفات (100000) جثة في العراق، وان القوات الأمريكية فشلت في العثور على تلك المقابر "المزعومة"، سواء في شمال العراق أو جنوبه بعد 20 شهرا من البحث المتواصل).

يسخر "ستيفن بلتير"، المحلل السياسي لووكالة المخابرات المركزية، من كل تلك الأرقام المهولة حول اعداد الضحايا بقوله: (... حسنا إذا كان ذلك الأمر، وقد قُتل فيه مائة ألف كردي فعلا فأى هي جثثهم؟). فبعد نبش ثلاث مقابر، لم تتمكن "منظمة مراقب حقوق الإنسان" سوى أن

تثبتت من إخراج 26 جثة فقط ؛ لذا يبقى في ذمتها (99974) جثة أخرى؟ ، حسب ما ادعت به .  
كما أن إدعاء المنظمة المذكورة بأن القوات الإيرانية دفنت 3000 قتيلًا في حلبجة في مقابر  
جماعية بمنطقة " مجمع عنب" ، يتبين منه أيضا، إنه زيف، فلم يعثر أحد على أية مقبرة في هذه  
المنطقة بعد أن تم تفتيشها. وحسب رواية "بلتير" ، من خلال جمع الأدلة، فإنها تؤكد: ( بأن  
عناصر من حزب الطالباني ساعدوا القوات الإيرانية على التسلل إلى حلبجة ليلا، وفي الصباح  
شنوا هجوما على القوات العراقية، فاستخدم الجيش العراقي قنابل مدفعية "من غاز الخردل" ،  
فتراجع الإيرانيون إلى خارج حلبجة، وبسبب تهقر الجيش الإيراني ضُربت حلبجة من قبلهم ، "  
أي الجيش الإيراني" بقنابل من "مركبات السيانيد"). ويخلص التقرير: (... بأن المدنيين في حلبجة  
كانوا ضحية وجودهم بين وسطين متقاتلين، وليس بفعل حملة تطهير عرقي، كما ادعى  
البعض،... وإن القتلى كانوا بالمئات وليس بالآلاف). ويتوصل التقرير إلى: (... أن الدلائل تُشير  
بأن أفواه وأطراف القتلى كانت زرقاء اللون )، مما يدل على استخدام غاز من مركبات السيانيد.  
ولم يستعمل العراق على الإطلاق هذا النوع في حربه مع إيران، في حين استخدمته القوات  
الإيرانية).

ومن المفارقة أن تصدر وكالة المخابرات المركزية بنفسها تقريرا في شهر نوفمبر/ تشرين  
الثاني من عام 2002 مؤكدة به: (... بأن عدد القتلى يقدر بالمئات) و (...نفي قتل (100000)  
ألف كردي)؛ بل أن وزارة الخارجية الأمريكية، خلال هجوم حلبجة أعلنت ما نصه : (...إستعمل  
العراق وإيران الغاز، لهذا نؤكد بأن الإيرانيين هم من قتلوا الأكراد في حلبجة). ونفى الكولونيل  
"باتريك لانغ" ، مسؤول المخابرات العسكرية في وكالة مخابرات وزارة الدفاع الأمريكية في  
منطقة الشرق الأوسط : (... استخدام العراق للطائرات خلال تلك المعارك).

قرار مجلس الأمن في شهر ماي/مايس 1988 بشأن مجزرة حلبجة:

إن مجلس الأمن ( ... يأخذ بنظر الاعتبار تقرير البعثة التي أرسلها الأمين العام للتحقيق  
بإدعاءات استخدام الأسلحة الكيماوية في الصراع الدائر بين الجمهورية الإسلامية الإيرانية

والعراق والصادر في 25 نيسان/أبريل 1988 (S/19823) ، فإن مجلس الأمن، متخوفاً من نتائج البعثة، حيث أن الأسلحة الكيماوية لا تزال تُستعمل في الصراع، وإن إستعمالها كان على مستوى أعلى مما كان عليه سابقاً.<sup>95</sup>

وهكذا فإن هذا القرار، وبصيغته المثبتة أعلاه ينفي نفيًا قاطعًا تحميل العراق مسؤولية ضرب حلبجة بالأسلحة الكيماوية، رغم أنه صرح : بأن الجانبين استخدمها في الحرب، ولكنه لم يحدد الطرف الذي إستخدمها في حلبجة.

#### ملاحظات وتساؤلات مهمة عن ما يسمى "هولوكوست حلبجة" :

يؤكد العديد من الكتاب الأمريكيين بأن موضوع استغلال الولايات المتحدة الأمريكية لأحداث حلبجة له سابقة مماثلة، فقد استخدمته أمريكا خلال الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا، وضد اليابان، وبعد الحرب، في سنوات الثمانينيات حاولت استغلاله مرة أخرى، ضد السوفيت كما بينا ذلك في فصول سابقة.

ويستغرب عدد من الباحثين، عدم إدانة الولايات المتحدة لنظام صدام حسين، في حينها، وتجاهل ضحايا حلبجة؛ بل وتحريضها لعدد من وسائل الإعلام لإدانة إيران خلال فترة ما قبل حرب الخليج الثانية 1991<sup>96</sup>. وعند إجراء إستحضارات المعركة التالية إنصبت وسائل الإعلام الأمريكية والبريطانية، ومن ورائها اللوبي الإسرائيلي على إحياء الموضوع ثانية.

ومن الملاحظ أيضاً: إن الفترة التي سبقت الهجوم على العراق بحرب "عاصفة الصحراء" وردت إشارات إعلامية عابرة عن حلبجة، وعلى نحو (16) مرة في الولايات المتحدة الأمريكية، وأثناء التحضيرات لغزو العراق، حيث وردت إشارات عن أحداث حلبجة أكثر من (57) مرة في شهر واحد فقط. وعند إعلان الحرب على العراق ذُكرت حلبجة في شهر مارس/آذار من عام 2003 ما يقارب 145 مرة.

<sup>95</sup> قرار مجلس الامن الصادر في 25 نيسان/أبريل 1988 (S/19823)

<sup>96</sup> لها عدة مسميات منها : العدوان الثلاثيني على العراق"، حرب تحرير الكويت"، و "عاصفة الصحراء.

أن إدعاءات الولايات المتحدة، حول إمتلاك العراق أسلحة التدمير الشامل تُبين أنها أكذوبة، لشن الحرب عليه، وكذلك الأمر بالنسبة للمقابر الجماعية، فهي مُجرد أكاذيب ليس أكثر من ذلك؛ وعليه فأن موضوع حلبجة يُدرج ضمن الأكاذيب التي إختلقتها الولايات المتحدة لإدانة العراق، رغم معرفتها المسبقة، بأن إيران وليس العراق، من وقف وراء الضربة الكيماوية لحلبجة؛ لذا كان رد الرئيس العراقي عن اتهامه بفصف حلبجة قوله في المحكمة : "سمعت ذلك من الإذاعات"، وقد ولد كلامه هذا، الكثير من القلق لدى جمهور واسع من الأكراد، الذين يرون أن التهم الموجهة لصدام كانت غير كافية لإدانته فتم التعجيل باعدامه قبل ان يقدم دفاعه حول تهمة حلبجة. كما كشفت صحيفة الغارديان البريطانية بأن بريطانيا قدمت للعراق مُعظم الخبرات والمساعدات التقنية لمساعدته على إنتاج المواد والاسلحة الكيماوية، وإن أحد هذه المنشآت تُسمى ( الفلوجة 2)، بلغت تكاليف بنائها (14) مليون جنيه إسترليني لإنتاج غاز الخردل وغاز الأعصاب. كما تشير الصحيفة إلى أن وزير التجارة البريطاني " بول تشانون " ، أبقى الإتفاقات التجارية بين البلدين في مجال إنتاج الكولورين سراً على الإدارة الأمريكية؛ مبرراً الأمر: بأن حظر مثل هذه الصادرات، من شأنه أن يضر بالعلاقات التجارية بين بلاده والعراق. ومن الغريب أن يتحدث "توني بلير"، الذي ساعدت حكومته صدام حسين على إنتاج الأسلحة الكيماوية، أمام النقابات العالمية عن مقتل (100) ألف كردي؛ مستنداً في ذلك إلى إحصائيات منظمة العفو الدولية، متجاهلاً أن حكومته هي التي ساعدت العراق بهذا الشأن.

### تلك أسئلة تظل اجاباتها الاخلاقية رهن مستقبل العراق.

إذا كان العراق قد ضرب فعلاً حلبجة، وليس إيران، أو اشتراك الطرفين باستخدامها، لماذا عصي الأمر على الأمم المتحدة ولجان تحقيقها وفرق التفتيش التي عملت في العراق قرابة عشر سنوات. ورغم كفاءة الفرق والخبراء الذين أرسلتهم الامم المتحدة، وبعدها إدارة الاحتلال الامريكي للعراق التي زارت كل العراق، ومنها منطقة حلبجة، فلم تتمكن من تحديد الجهة المسؤولة ؟. ولماذا لم تصدر المحاكم الجنائية الدولية قرارا ضد أي من الطرفين بتهمة الإبادة

الجماعية؟. حسب اتفاقية منع الجريمة؟، من خلال تفحص بروتوكول جنيف والمعاهدات الدولية ذات العلاقة بالموضوع.

هل ارادت الولايات المتحدة من خلال التركيز على قضية " الهولوكوست الكردي" في حلبجة مسح آثار "هولوكوست الاشعاع النووي في العراق"، من خلال إستعمال اليورانيوم المنضب" في كامل أرجاء العراق؟. أن التقارير تشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية، المدافعة عن ضحايا حلبجة، وعن تحريم الاسلحة الكيماوية لم تتوان عن استخدام أعتدة اليورانيوم المحرمة دوليا في حرب الخليج الثانية، من خلال قصف العراق بأكثر من (940000) قذيفة مشعة، أي بما يعادل (7) أضعاف القدرة التدميرية التي تعرضت لها هيروشيما ونياغازاكي في الحرب العالمية الثانية. وإن عدد المصابين بالأمراض السرطانية من جرائها تزايد إلى (10931) شخص في نهاية عام 1991 ، إضافة الى عشرات أضعاف ذلك الرقم حاليا؟ وقد تجاوزت أعداد ضحايا اليورانيوم المنضب في العراق مليون ونصف إنسان.

وحسب شهادة البروفيسور الألماني "سنغريد غونتر" منتصف التسعينيات: بأن حوالي نصف مليون عراقي مصاب بأمراض ناجمة عن استخدام اليورانيوم من قبل الأمريكيين في الأشهر الست الأولى فقط بعد قصف العراق عام 1991، مع ملاحظة أن (130) ألف جندي أمريكي كان مصابا بأعراض شبيهة لما يعانيه سكان حلبجة من صعوبات في الجهاز التنفسي وأمراض الكبد والتعب الشديد وارتفاع الضغط وغيرها من الأعراض. بعد أخذهم عددا من التطعيمات ضد الجمرة الخبيثة خلال حرب " عاصفة الصحراء".

**6-23: اليورانيوم المنضب سلاح الإبادة الاشعاعي والكيماوي السُمي:**

**" هولوكوست العراق الاشعاعي":**

حذرت وثائق اصدرتها جامعة البصرة، مؤخرا من خطورة إرتفاع معدلات ونسبة الاصابات بالسرطان في المناطق الجنوبية من العراق ووصولها الى نسبة 70 إصابة لكل 100 الف من السكان. وبينت الوثائق التي كشف عنها خبراء واكاديميون في ندوة علمية: إن ازدياد هذه النسبة

يحصل نتيجة لتعرض المنطقة الجنوبية الى تلويث شعاعي خطير، حصل جراء الحروب الاخيرة التي وقعت في العراق.<sup>97</sup> وأشارت الدراسات الى ان هذه النسبة معرضة للزيادة الهائلة، بسبب إهمال السلطات الحكومية إجراء مسوحات شاملة، ووضع معالجات للحد من انتشار المرض. وأوضحت الوثائق: ان محافظة البصرة تعاني حالياً من ظهور انواع سرطانية غير معروفة سابقاً، إضافة الى ظهور التشوهات الولادية والخلقية.

وذكرت الوثائق إن نسبة الإصابة الحالية بالسرطان في محافظة البصرة اكبر من النسب المسجلة قبل عشر سنوات بمعيار الاصابات والوفيات؛ إذ كانت النسبة 40 إصابة لكل 100 الف من السكان ، فيما بلغت في العام 1995 بحدود 800 إصابة، ووصلت عام 2005 الى أكثر من 1600 إصابة، منها اصابات في سرطان الدم وسرطان الثدي والغدد اللمفاوية.<sup>98</sup>

وأشارت الوثائق الى ان عدد المواقع الملوثة في محافظة البصرة وحدها بلغت 100 موقع حتى عام 2004 . وتقول الوثائق إن أسباب ازدياد نسبة الإصابة بالسرطان تعود الى قرار إتخذته السلطات الحكومية عام 2004 سمحت فيه ببيع نفايات الحديد المتروك في ساحات المعارك الى تجار في عملية بيع غير خاضعة للسيطرة والمراقبة. وتؤكد الوثائق ان هذا القرار، غير المدروس، قد ادى الى قيام تجار ومواطنين بجمع وتقطيع الآليات العسكرية المُدمّرة في مختلف مناطق البصرة، وخاصة في منطقة الشعبية، الأمر الذي أدى الى حصول زيادة في نسبة الامراض الناتجة عن التعرض للاشعاعات التي تحملها.

#### 24-6: الأسلحة البيولوجية :

<sup>97</sup> اعمال الملتقى الدولي لاسلحة الدمار الشامل المنعقد في هامبورغ بالمانيا، اكتوبر، 2003، World Uranium Weapons Conferences,, The Trojan Horses Of Nuclear War, Hamburg ,Oct.2003.

<sup>98</sup> Al-Aboudi A. Kadhum,A comparison of Effects On Animals and Environment from Ionization Radiation from Above- Ground Weapons Testing in Algeria with DU Used in Iraq;World Uranium Weapons Conferences Hamburg ,Oct.2003,, The Trojan Horses Of Nuclear War,pp.69-71.

الأسلحة البيولوجية: عبارة عن مصطلح عسكري يقصد به جميع الوسائل والمسببات التي تستخدم لنشر الأمراض المعدية والفتاكة في صفوف القوات المعادية وذلك للتأثير على كفاءتها القتالية وبالتالي سهولة إلحاق الهزيمة بها وحسم نتيجة المعركة. ولا شك ان التقدم السريع في مجال البحث العلمي بصورة عامة وفي مجال الهندسة الوراثية بصورة خاصة له أثر كبير في تخليق خواص ومواصفات جديدة لمسببات الأمراض مع عجز واضح في مقدرة الطب الوقائي اللاحق بتلك التطورات ناهيك عن مجاراتها. وعلى الرغم من ان الجسم البشري يوجد لديه جهاز مناعي يعمل على مسارين: الأول عبارة عن خلايا دفاعية تُهاجم الجراثيم والفيروسات الغازية للجسم، وتُدمرها ، والثانية مقدرة الجسم على إنتاج أجسام مضادة تقضي على تلك المسببات، إلا ان كثافة وقدرة وتركيز تلك الجراثيم والفيروسات وخطتها مع بعضها البعض في سلاح واحد يجعل الجسم يخسر المعركة المناعية في كثير من الأحيان، بالإضافة إلى أنه متى ما أُصيب بعض الأفراد بداء المرض فإنه يساعد على انتشاره عن طريق العدوى؛ إذا لم يتم عزله في الوقت المناسب.

#### التاريخ المبكر للعدوى الجرثومية الحربية :

ترجع فكرة استخدام كائنات بيولوجية حية لاغراض حربية الى أزمنة قديمة، فرماتة السهام في آسيا وفي الجنوب الشرقي من أوربا، كانوا يعمدون في القرن الرابع قبل الميلاد الى غمس رؤوس سهامهم في دم الجثث المتعفنة، مما يجعل منها قذائف سامة ومُعدية.

أولاً: العصر اليوناني : - يُعتقد إن أول استخدام لذلك السلاح كان على يد القائد اليوناني سولون وذلك عام 600 ق.م ، حيث استخدم جذور نبات (الهيليوروس) في تلويث مياه النهر الذي يستخدمه أعداؤه للشرب ، مما أدى إلى إمرضهم ، وبالتالي سهل عليه إلحاق الهزيمة بهم .

ثانياً هانيبعل: - في عام 184 ق.م : إستعمل "هانيبعل" الثعابين كسلاح، وذلك عندما ألقى أكياس مملوءة بالثعابين على سفن الأعداء، مما أدى إلى نشر الذعر في البحارة وارتباكهم، وبالتالي هزيمتهم .

ثالثا : الحروب الصليبية - إستخدم الصليبيون السلاح البيولوجي ضد المسلمين خلال الحرب الصليبية، وذلك عن طريق إلقاء جثث الموتى المصابين بالأمراض المعدية داخل المعسكرات الإسلامية في محاولة لتشر الأمراض الفتاكة، مثل الطاعون والجذري والكوليرا بين صفوف المسلمين .

رابعا: المهاجرون الاوربيون في العالم الجديد: في عام 1763م إستخدم المهاجرون الأوروبيون إلى أمريكا بعد اكتشافها من قبل الرحالة كولومبس السلاح البيولوجي للتخلص من الأعداد الكبيرة من الهنود الحمر، أصحاب الأرض الأصليين، وذلك عن طريق نشر الأمراض غير المعروفة هناك، والتي لا توجد لها مناعة طبيعية لدى الهنود الحمر ضدها<sup>99</sup>. وقد كان لمرض الجدري دور رئيسي في القضاء على الأغلبية الكبيرة للهنود الحمر آنذاك، حيث تم إرسال مناديل وأغطية مجلوبة من مستشفى العزل لمرضى مصابين بالجدري كهدايا إلى رؤساء القبائل الهندية، فكانت النتيجة أن انتشر ذلك المرض بين الهنود وفتك بهم .

خامسا: الحرب الأهلية الأمريكية - أستخدمت الأسلحة البيولوجية خلال الحرب الأهلية الأمريكية، وذلك عام 1863م. وقد تم ذلك من خلال تلوين الأنهار والبحيرات بجثث الحيوانات الميتة المصابة بالأمراض المعدية والفتاكة. وقد كبد ذلك الأمر الأطراف المتحاربة خسائر فادحة .

#### 6 - 24 - 1: ترسانة الاسلحة البيولوجية في العالم:

تقانة "الحرب البيولوجية" بمعناها الحديث تتمثل في نشر فيروسات أو بكتريات أو ريكتسيات "فصائل من البكتريا" بواسطة قنابل بيولوجية أو برشها عبر فوهات أجهزة ترذيد ترجع الى سنة 1923 على الاقل، حين فجر علماء فرنسيون يعملون في مختبر أبحاث كيميائية تابع لسلاح البحرية، قنابل تحوي عوامل ممرضة فوق حقل وضعوا فيه بعض الحيوانات، في

<sup>99</sup> أرنولد، دافيد 1998، " الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية"، مرجع سابق، عالم المعرفة، العدد 236، الكويت، ص: 18 وما بعدها.

منطقة سفران- ليفري، على بعد 15 كم الى الشمال الغربي من باريس، وقد أدى هذا التفجير الى نفوق العديد من حيوانات الاختبار.

بدأ تطور وانتاج الأسلحة البيولوجية بصورة منهجية بعد الحرب العالمية الأولى وخلال الفترة بين (1936-1946) م، حيث بدأت الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية في إنشاء المختبرات والمراكز اللازمة لتحضير أنواع مختلفة من الجراثيم والفيروسات الصالحة للإستخدام كأسلحة بيولوجية ونشرها على نطاق واسع. وقد تزامن ذلك مع إنتاج الأمصال واللقاحات والوسائل الطبية المضادة لها.

### اولا: الولايات المتحدة:

تابعت الولايات المتحدة برنامجها الرئيسي الخاص بالحرب الجرثومية منذ 1943 وحتى سنة 1969، الى حين أوقفه الرئيس نيكسون. وخلال هذه الفترة صنع الجيش الامريكي عددا من منظومات الحرب البيولوجية (تشمل المنظومة العامل الفعال **hot agent** والذخيرة **munition** ، ووسيلة الاتصال **delivery system** منها عاملان يسببان مرضين قاتلين هما الجمرة الخبيثة **anthrax** و التولاريميا **tularemia** وثلاثة عوامل تُسبب امراضا مُعَدَّة هي الحمى المتموجة (داء البروسيلة **brucellosis**) وحمى كيو **Q fever** ، وحمى إلتهاب الدماغ الخيلي الفنزويلي. كما صنع الجيش الامريكي نسخة للإستخدام الحربي من ذيفان مميت هو البوتيولينوم (المسبب للتسمم الوشيقى) ، ومن ذيفان مُعَدِّ الذيفان المعوي **B** . كما أُعدَّ وحُزِنَ أكثر من 205 مليون غلاف لقنابل جاهزة للتعبئة بالعوامل البيولوجية المراد إستعمالها عند الحاجة.

إستخدم الأمريكيون السلاح البيولوجي خلال الحرب الكورية، وذلك عن طريق حقن الحيوانات الصغيرة، مثل الفئران والأرانب بالفيروسات والجراثيم المعدية مثل الكوليرا والطاعون والجمرة الخبيثة والحمى الصفراء وغيرها واطلاقها في المناطق المستهدفة.

### العامل البرتقالي:

تم تطوير (العنصر أو العامل البرتقالي)، الذي جرى استخدامه وتجريبه في حرب فيتنام عبر تجريب 26 ألف مادة أخرى مدمرة للغابات. وصل مخزون أميركا من الأسلحة الكيماوية والجرثومية إلى ما يكفي لإزالة مدينة كبرى من الخارطة. لقد كان أفضل منتج لترسانة الأسلحة البيولوجية الأميركية في فيتنام هو مادة كيماوية جرى تصميمها كي تؤدي إلى سقوط أوراق الأشجار في الغابات الفيتنامية، محاولة من الجيش الأميركي لتعرية الغابات الفيتنامية لكشف تحرك الثوار، وبالطبع عرضت تلك المواد إلى إصابة أي شخص يتعرض لها وشل فاعليته. سُميت تلك المادة بـ "العنصر البرتقالي"، نسبة إلى لون الصفائح التي وصلت فيها إلى فيتنام، وكانت عملية تصنيع تلك المادة قد تطلبت من خبراء "قلعة ديتريك"، أي القسم المختص في ذلك القطاع لدى وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في تجريب عدد مدهل من المنتجات الكيماوية التي وصل تعدادها إلى حوالي 26 ألف منتج قبل التوصل منها إلى تكوين الخليط المطلوب. وكانت الطائرات الناقلة من طراز "سي 123" البطيئة تطير على ارتفاع منخفض لتقوم بتعرية أشجار الريف الفيتنامي من أوراقها.

وكان الخلط بين مادتين كيميائيتين إحداهما تسمى "T - 245"، والأخرى ديوكسين، قد جعل من "العنصر البرتقالي" السلاح الأكثر فظاعة من دون شك الذي جرى استخدامه في فيتنام.<sup>100</sup> يؤدي رش العنصر أو العامل البرتقالي إلى تفجير الأشجار وتخريب المزارع خلال عدة ثوان فقط. وهكذا "تعرت" غابات كاملة من غطائها الأخضر، حيث كان الفيتناميون يطلقون على المساحات المخربة منها تسمية (أرض الأموات). كانت النتيجة قاسية أيضاً على ساكني المناطق التي وصلت إليها آثار العنصر البرتقالي؛ إذ ظهرت على أعداد كبيرة منهم أعراض مرض السرطان. وكان سبب ذلك وجود "الديوكسين" الذي ثبت أنه مادة مُسرطنة، ويتم التأكيد في هذا السياق إلى أن وضع عدة غرامات فقط في خزانات المياه، كانت كفيلة لتسميم سكان مدينة نيويورك كلها.

<sup>100</sup> العبودي عبد الكاظم، الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، مرجع سابق، ص78.

وتدل مؤشرات علمية وطبية على أن مادة الديوكسين السامة هذه كانت وراء حدوث تشوهات عديدة للمواليد في فيتنام بعد عام من استخدامها، بل زاد كثيراً من نسبة الوفيات بين المواليد. ودلت عمليات تشريحهم على وجود الديوكسين في دمائهم، ومع ذلك إستمرت عملية رش تلك المادة. ولم يقتصر أذاها على الفيتناميين فقط؛ بل ان ما لا يقل عن 40 قاعدة أميركية قد تعرضت لهذا الخطأ.

كان العسكريون يأتون إلى المراكز الطبية، وهم يعانون من أشكال خطيرة من الطفح الجلدي وسقوط الشعر. وعانى بعضهم بعد ذلك من سرطان الجلد ومن أورام أخرى.

### التجارب البيولوجية الأمريكية على البشر:

يصف بيل بوكلي، أحد أبرز المسؤولين في المخابرات الأمريكية في الفيتنام معايشته ورؤيته للعديد من التجارب التي أجريت على البشر ويصفها: (أن ما جرى في فيتنام كان فيلماً مرعباً من الدرجة الأولى... كنت أشجع رجالي على أن لا ينسوا أبداً حساب عدد الذين يقتلونهم، فرأس أحد الفيتكونغ أو أذنه أو حتى بطاقة هويته كانت كافية للحصول على جائزة قد تصل إلى عشرة آلاف بياسترز. لاشك أننا لم نقتل أحياناً المطلوب قتلهم، لكننا قمنا بإبادة الكثير من الأشرار).

لقد عملت مجموعات طبية متخصصة على القيام بتجارب تدفع الأفراد الى العنف والقتل بدوافع وحوافز موجهة كهربائياً ، وقد تم إعداد وحدات بدأت عملها بإشراف الدكتور الأمريكي غويكب وفريقه الذي وصل الى سايغون بمهمة خاصة. وكان بيل بوكلي يخشى كثيراً الأثر السلبي الناجن عن انتشار أخبار تلك الفرقة الطبية عندما تصل أخبارها الى الولايات المتحدة. خصوصاً وان الاوضاع في الفيتنام تنعكس تأثيراتها في الولايات المتحدة بسرعة؛ ذلك أن الحرب الفيتنامية قد أصبحت تحظى بأكبر قدر من تغطية وسائل الإعلام لها. ولم يعد القتل وحده هو المهم؛ وإنما كان من المهم أيضاً الحصول على أكبر قدر ممكن من الأسرى الفيتناميين من أجل إستجوابهم وإجراء التجارب عليهم.

ولأجل مشروع "الاستجاب" وصل إلى سايغون فريق الدكتور "غويكب" برفقة مجموعة من الرجال تم وصفهم في برقية "سرية للغاية" بأنهم مجرد (عاملين في عدة اختصاصات طبية). لكن هذه المجموعة، وخاصة رئيسها قد قدمت إلى فيتنام لجعل جزء من مسرح الحرب بمثابة حقل تجارب لمشروع أُطلق عليه "ام.كا - الترا"، الذي إعتدته وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، كانت بصدد تطويره في ميدان الحرب الكيميائية والبيولوجية يهدف الى التحكم بآليات السيطرة الذهنية على الآخرين، وكانت تؤمل نفسها بالحصول على ما يكفي من "السجناء والاسرى" لإجراء التجارب عليهم.<sup>101</sup>

وعندما وصل بيل بوكلي إلى سايغون، كان هناك خبراء وباحثون علميون تابعون لوكالة الاستخبارات المركزية قد شرعوا بتجريب عامل بيولوجي جديد من أجل إبادة أفراد الفيتيت كونغ. كان ذلك العنصر المعروف باسم "مرض الدماغ الفنزويلي"، شديد العدوى والاصابة، يؤدي إلى الغثيان مع ظهور جميع اعراض النزلة الوافدة "الزكام". وقد جرى تصميم ذلك السلاح، كي يجعل العدو غير قادر على القتال عندما يستنشق جنوده تلك الجراثيم. لكن الجانب السلبي لهذا السلاح البيولوجي أنه كان يصيب أيضا أفراد القوات الأميركية والفيتنامية الجنوبية المتحالفة معها. وبعد القيام بعدة محاولات باستخدامه جرى توقيفه. اثناء ذلك تم اللجوء إلى برنامج آخر عمدت اليه وكالة الاستخبارات المركزية أُطلق عليه اسم السحر الأسود "بلاك ماجيك"، وقد وافق عليه الجنرال "وسيت مورلاند" قائد القوات الأميركية في الفيتنام آنذاك، ويتمثل في رش غاز "سي.اس" على مساحات شاسعة من الغابات التي كان الفيتيت كونغ يتواجدون فيها، حسبما كان يُظن، وقد عانت قرى كثيرة وسكانها من الآثار المؤذية لذلك الغاز، كان الانجليز أول من أعده للاستخدام في ماليزيا؛ لكن الأميركيين "حسنوه" لغرض الاستخدام في فيتنام.

101 انظر كتاب " بانفورد جيمس " (الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية) و\_غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com).  
[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)-  
[www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net) -

كان ثوار الفيت كونغ يصابون بحروق جلدية عند التعرض له، جراء إنتشار ذلك العامل الذي يتسرب حتى الى مواقع مخابئهم وأنفاقهم تحت الارض، مما يضطرهم للخروج منها، حيث كانت تنتظرهم القنابل العنقودية التي تحصدهم، أين كان الجنود الأميركيون المجهزون بأقنعة حمائية واقية ينتظرون خروجهم لإبادتهم .

كانت هناك 20 جامعة أميركية على الأقل تعمل في ميدان تطوير و انتاج الاسلحة الكيميائية أو الجرثومية، بعدها توفر المصانع المتخصصة مخزونات هائلة موجودة في مختلف أرجاء الولايات المتحدة، وهي جاهزة للإرسال إلى فيتنام، منها ترسانة "روكي ماوتشين" في كولورادو الذي تضم عشرات الألوف من القنابل العنقودية المحشوة بغاز الخردل وغاز الفوسيجين والعناصر السامة للأعصاب. كما كان يوجد في مدينة تول مستودع يحتوي على ملايين اللترات من الاسلحة الشبيهة، موضوعة في صفائح معدنية خاصة، وقد دلت عملية حسابية على أن تلك الكمية كانت كافية وحدها لإبادة مدينة أميركية كبيرة وإزالتها عن الخارطة<sup>102</sup> .

#### تشريح البشر الأحياء في سايجون ومحاولة صنع القتلة :

تم إختيار سجن "بيان هوا"، الواقع على تخوم سايجون كي يمارس فيه الدكتور غويكب وجماعته تجاربهم على السجناء والأسرى الفيتناميين، وكانت زنانات ذلك السجن مكتظة بالسجناء. كان حراس السجن يجلبون احد السجناء إلى غرفة التخدير وبعد "تنويم الضحية" يحمله الحراس إلى "غرفة العمليات"، وأثناء ذلك يكون قد تم جلب سجين آخر للتخدير ليتم نقله بدوره إلى احدى طاولات الجراحة... وهكذا دواليك. كان أحد الجراحين يفتح جمجمة السجين، وعندما يصبح الدماغ باديا يقوم أحد الجراحين العصبيين بزرع "مولدات لموجات كهربائية" في انحاء مختلفة منه. في الوقت الذي كان يقوم فيه جراح آخر بإعادة إغلاق الجمجمة، و يكون سجين آخر قد واجه المصير نفسه، وبعد فترة قصيرة كانت الطاولات كلها مشغولة بالضحايا المخدرين.

<sup>102</sup> غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.  
- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)  
[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)  
[www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net) -

وصف بيل بوكلي ذلك المشهد بالقول: (...كان غويكب ينتقل من طاولة إلى أخرى ليقوم ببعض التعليقات، ويقدم التوجيهات أو يهز رأسه مستحسناً عمل الفريق. لم تكن هناك أية إضاءة خاصة من أجل عمل الجراحين. وكان عليهم أن يتدبروا أمرهم على ضوء المصابيح المعلقة في السقف. ولم تكن هناك أية محاولة لإجراء التعقيم المطلوب طبيًا. كان الجراحون يرتدون سترات وأقنعة، لكنهم لم يفعلوا ذلك في واقع الأمر إلا من أجل حماية ثيابهم من التلوث بالدماء. كانت هناك دماء كثيرة منتشرة في كل مكان، وغرفة العمليات شبيهة بمسوخ. وعندما كان يعاد إغلاق جمجمة أحد السجناء كان الحراس يأخذونه من جديد... إذ كان يتم نقل كل سجين بعد الانتهاء من "العمل الجراحي" إلى غرفة فارغة بجانب غرفة العمليات حيث يتم وضعه على الأرض لتركة "يستفيق" من التخدير. وهكذا وعند منتصف الليل كانت أرض تلك الغرفة مكتظة بالمساجين الذين استعادوا وعيهم بدرجات متفاوتة.)<sup>103</sup> لكي تبدأ عليهم التجارب المقررة.

وكان الدكتور غويكب يتجول بين عينات التجربة من السجناء، ويضع إلى جانب كل منهم حربة. ثم يعود إلى غرفة أخرى ومنها بدأ بتشغيل وربط الفواصل الكهربائية الموجودة على "علبة سوداء" من أجل "نقل اشارات" كهربائية إلى "المولدات" التي تم زرعها في أدمغة السجناء. وقد شرح الدكتور غويكب لبوكلي المنذهل: (بأنه يريد من عمله ذلك ان تثير مولدات الموجات الكهربائية تلك غضب المساجين، بحيث سيلتقطون الحراب الموضوعه بجانبهم ويقتلون بعضهم بعضاً). وأضاف: ( انه اذا نجح في ذلك يكون قد وجد القتلة الذين سيقومون بعمليات القتل المطلوبة عندما تصدر لهم الأوامر الكهربائية بذلك).<sup>104</sup>

ويروي "بوكلي" قائلاً: (.. كان - أي "غويكب" - يرقص من النشوة تقريباً. وكان يقول انه من الممكن تحسين عمل "العلبة السوداء"، بحيث يصل تأثير الاشارات الكهربائية التي تصدرها

<sup>103</sup> بانفورد جيمس، (الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، مرجع سابق)  
<sup>104</sup> رجب علي محمد ، [المخابرات الأمريكية تكشف فضاخ الحرب الباردة] الرابط الالكتروني لكلية الملك خالد العسكرية:

إلى مسافة كيلومتر ونصف. ومن مسافة كهذه يمكن إدخال قاتل إلى جوار هدف مطلوب دون اثاره شكوكه. وعندها يتم تنشيط الاشارات الكهربائية لقتله).

لكن حماس "غويكب" كان قصير الأمد جداً وخاب أمله؛ فالسجناء لم يفعلوا سوى إنهم تلمسوا جراح رؤوسهم دون ان تصدر عنهم أية اشارة توحى بالعنف، فطلب غويكب من الحراس أخذهم، وقتلهم بالرصاص. وهكذا كان مصير الذين خضعوا للتجربة - من الكوبيي - الرمي بالرصاص وأحرقت جثثهم<sup>105</sup>. كان عدد السجناء الذين أُجريت عليهم تلك التجارب 24 ضحية في اليوم الأول، من دون أن يصدر عن أي منهم أي موقف عدواني عنيف رغم كل محاولات الدكتور غويكب الرامية إلى تفعيل "العلبة السوداء" وأعيدت التجربة على 60 آخرين في اليومين التاليين وكانت النتيجة نفسها، وجرى قتل الجميع جميعهم كالعادة ومن ثم حرقهم. غادر غويكب سايغون إلى الولايات المتحدة على عجل. وعندما روى بوكلي لزميله وليام كولبي، المسؤول الكبير آنذاك في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في الفيتنام، إكتفى كولبي بالقول له: ( انك لم تر شيئاً ).

#### الاسرى والسجناء فئران تجارب الاستجواب في المخبر الامريكى في عصر الديمقراطية:

يؤكد بعض المراقبين على أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لجأت خلال عام 2006م إلى إبرام عقود مع العديد من الأطباء في بلدان مختلفة لحضور جلسات الاستجواب، التي حدد أشكالها دليان صادران عن الوكالة. ويتم التذكير فيهما على أنه عندما يتم تحضير صالة الاستجواب ينبغي أولاً القيام بدراسة جيدة للإنشاءات الكهربائية، كي تكون المحولات أو أجهزة تغيير قوة التيار الأخرى جاهزة في لحظة الشروع بالصدمات الكهربائية.

ويتم التحذير من إمكانية أن يؤدي الألم الجسدي الحاد إلى القيام باعترافات كاذبة، ولذلك، ينبغي حساب حدة الألم المثار بدقة، وبالتالي، فإنه من الأفضل حضور طبيب، ويمكن للمخدرات

<sup>105</sup>. رجب، علي محمد، المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة، الرابط الإلكتروني لكلية الملك خالد العسكرية.

أن تكون فعالة من أجل التغلب على المقاومة التي لم تنجح التقنيات الأخرى في قهرها. كما يجب أن تؤخذ بالحسبان شخصية الخاضع للاستجواب، وكمية الجرعة، ومدتها، والأشخاص الذين يسحقهم الإحساس بالعار، أو الإحساس بالذنب، فقد يستجيبون بسهولة لإراحة ضمائرهم بواسطة المخدرات. 106. ويعج سجن غوانتانامو بالسجناء الأفغان أو الباكستانيين، الذين جرى إعتقالهم من دون أسباب جدية، وهم في أغلب الأحيان رجال وشى بهم أشخاص يولون اهتماماً أكبر بالمكافأة المالية. ويؤكد المحامون المختصون بحقوق الإنسان أن 8% فقط من المعتقلين جرى تصنيفهم كأعضاء في تنظيم القاعدة، وإن أقل من نصفهم قاموا بأعمال معادية ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

لكن البيت الأبيض رفض القيام بأي تعليق حول ما يجري في معتقل جوانتانامو، أو في "المواقع السوداء" الأخرى، التي لا تتماشى مع إتفاقية الأمم المتحدة الموقعة عام 1984م، التي تمنع اللجوء إلى التعذيب، والموقعة من قبل حكومة الولايات المتحدة، والتي تُعرّف التعذيب بأنه: (... القيام بأي عمل بدني أو معنوي يستهدف قصداً شخصاً ما من أجل الحصول منه أو من شخص آخر على معلومات أو اعترافات، ومعاقبته أو معاقبته شخص آخر لأعمال يظن باقترافها، أو إبتزازه والضغط عليه). كذلك تمنع الإتفاقية إرسال المشبوهين إلى بلدان هناك أسبابٌ وجيهةٌ تدعو للاعتقاد بأنه سيتم تعذيبهم فيها.

وفي تقرير - أعدّه في نهاية يناير 2006م، المحامي المكلف من قبل المجلس الأوروبي للتحقيق في مسألة تحويل السجناء إلى "المواقع السوداء" ذكر أن مائة شخص، على الأقل، طالتهم تلك العملية منذ عام 2004م. وقد جرى منع هذا المحامي من زيارة مواقع الاستجواب، ولذلك إكتفى في تقريره بالمعلومات التي أدلى بها شهود مستقلون. 107.

106 غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com) - [www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com) - [www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net) - رجب علي محمد | المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة. 107

وعندما تولى الرئيس باراك حسين أوباما الادارة الامريكية قرر الشروع في أفريل/نيسان 2009 بالتحقيق حول قضايا التعذيب الذي مارسه أجهزة المخابرات الامريكية والجيش الامريكي، ومن هو المسؤول عن إصدار التعليمات المخالفة للدستور الامريكي حول قضايا التعذيب. وخلال شروغ الرئيس أوباما بتصفية هذا الملف فجرت أوساط المحافظين الجدد قضية جديدة عنوانها " انفلونزا الخنازير"، وينشغل العالم كله بها الآن وصولاً أن أعلن أوباما في 24 من اكتوبر 3009 حالة الطوارئ في الولايات المتحدة، كي يفلت رامسفيلد وديك شيني وبقية ادارة بوش من مسؤولية المتابعة القانونية ولأستثمار ريع بيع التطعيمات لهذا المرض الذي بدأ إنتشاره بشمل مريب.

وربما لا يعرف الا القليل من الناس أن " انفلونزا الطيور" **Avian influenza** التي سبقت " انفلونزا الخنازير" لم تجد لها علاجاً أو لقاحاً الا في تلك المضادات والادوية من نوع **Tamiflu** التي تنتجها حصرياً شركة أمريكية خاصة يمتلكها رامسفيلد وزير الدفاع الامريكي السابق، وخلال تلك الجائحة العالمية لم يصب طير واحد في الولايات المتحدة، بينما أقدمت بلدان عديدة على ذبح الملايين من طيورها ودواجنها خشية إنتقال المرض اليها. ان الجدل العالمي حول لقاحات مرض انفلونزا الخنازير والجهة المنتجة له وما يرافقه من حملة عالمية وتواطؤ بيوتات تجارية مثل روكفلر مع مواقف وتصريحات ممثلي منظمة الصحة العالمية تثير القلق من تدني المعايير الاخلاقية في البحث العلمي وفي المجال الطبي لخضوعها للابتزاز والفساد المالي المرافق للصفقات حول بيع مواد التطعيم واللقاحات ضد الجوائح ومنها انفلونزا الخنازير.

ورغم كل ذلك فإن كثيراً من الأبحاث العلمية تُبذل في سبيل اكتشاف أنواع من الجراثيم والفيروسات الأكثر فتكاً من سابقتها. ولم يقتصر الأمر على الدول الكبرى؛ بل إن هناك دولاً نامية كثيرة لديها مخزون كبير منها؛ وذلك لسهولة تحضيرها، وقلة تكلفة إنتاجها، ناهيك عن فعاليتها

في القتل الجماعي. وهكذا يكون أكبر مخزون من تلك الأسلحة الجرثومية المحرمة دولياً تملكه كل من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا الاتحادية وإسرائيل .

### استمرار البحوث السرية للأسلحة البيولوجية في عهدي كلنتون وبوش:

كتب "جوديث ميلر" و"ستيفن انجلبيرغ" و"ويليام برود" من صحيفة الواشنطن بوست: ( ان الولايات المتحدة الاميركية عكفت خلال السنوات السابقة على العمل في برنامج بحث سري في مجال الاسلحة البيولوجية، قال عنه مسؤولون أمريكيون: انه يخرق حدود إتفاقية حظر مثل هذه الاسلحة. يحضر إتفاق عام 1972 على الدول تطوير الاسلحة التي تنتشر الامراض أو الحصول على مثل هذه الاسلحة؛ غير أن الاتفاق سمح بالعمل في مجال التحصين والإجراءات الوقائية الأخرى.

يقول مسؤولون حكوميون إن البحث السري، الذي تركز اهتمامه على الخطوات الرئيسية التي تتخذها دولة أو جهة إرهابية لبناء ترسانة لهذه الاسلحة، يهدف في الاساس الى التوصل الى فهم افضل لهذا الخطر).<sup>108</sup>

وقال مسؤولون في الادارة الاميركية : أنه منذ مطلع 2001 رسمت وزارة الدفاع الاميركية خططا لإنتاج نوع فعال لمرض الجمرة الخبيثة عن طريق الهندسة الوراثية للبكتريا المسببة للمرض القاتل. وخصصت تجارب لإختبار مدى فعالية اللقاح الذي يعطى الآن للملايين من العسكريين الاميركيين ضد هذا المرض القاتل الذي أوجده لأول مرة فريق من العلماء الروس. وقال مسؤول في إدارة الرئيس بوش حينها: إنه من المتوقع ان يعطي مجلس الامن القومي موافقته النهائية في وقت لاحق لهذا المشروع .

الجدير بالذكر ان إثنين من المشاريع التي اكتمل العمل فيها خلال ادارة الرئيس كلينتون قد ركزا على تقنيات صنع الاسلحة الجرثومية. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية قد

<sup>108</sup> ميلر جوديث وستيفن انجلبيرغ وويليام برود ،خدمة «واشنطن بوست» - خاص بصحيفة «الشرق الأوسط، الأربعاء 16 جمادى الثاني 1422 هـ 5 سبتمبر 2001 العدد 8317.

<http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&article=56067&issue>

no=8317

ركبت وجربت، ضمن برنامج اطلق عليه "الرؤيا الواضحة"، نموذجاً للقنبلة الجرثومية التي صممتها روسيا، والتي يخشى مسؤولوا الوكالة ان يكون قد جرى بيعها في السوق العالمية. وأضاف مسؤولوا الوكالة ان نموذجها للقنبلة الجرثومية يفترق الى جهاز فاصم والأجزاء الأخرى التي تجعل منها قنبلة ذات فعالية كاملة. وكان خبراء بوزارة الدفاع الأميركية قد ركبوا مصنعا لإنتاج الجراثيم في صحراء نيفادا من مجموعة مواد متوفرة في السوق، يقول مسؤول في الوزارة عن تنفيذ ذلك المشروع: بأنه يوضح السهولة التي يمكن ان تبني بها أي مجموعة إرهابية، أو دولة معادية لأميركا، مصنعا ينتج كميات من الجراثيم القاتلة.

ويقول مسؤولون آخرون: إن مواداً غير خطيرة لها سمات مشابهة للجراثيم المستخدمة في القنابل الجرثومية الحقيقية استعملت في كل من القنبلة التجريبية والمصنع. وان كل المشاريع "منسجمة تماما" مع معاهدة حظر الاسلحة الجرثومية، مؤكداً حاجة الأميركيين لمثل هذا المشاريع لحمايتهم من الخطر المتزايد لهذا النوع من الاسلحة، وإن الادارة الأميركية الحالية ستسعى الى الحصول على كافة الطرق الممكنة في مواجهة مختلف اخطار الاسلحة الجرثومية. وهكذا أكد مسؤول اميركي آخر: ان المعاهدة تسمح للولايات المتحدة بإجراء تجارب على الميكروبات والجراثيم "لاغراض وقائية او دفاعية"، غير ان بعض مسؤولي ادارة كلينتون السابقة كانوا قد أبدوا قلقهم من احتمال أن يُشكل المشروع انتهاكا للاتفاق.

ويثير الاعلام الاميركي بمبالغة ملموسة المخاوف بشأن ما يروج عن إنتشار الاسلحة الجرثومية. ويدعي أنها قد تعمقت بإزدياد وانتشار الارهاب الموجه ضد الولايات المتحدة، بالإضافة الى التقدم الكبير الذي حدث في مجال هندسة الجينات، علاوة على أن إنهيار الاتحاد السوفياتي قد أدى الى ترك آلاف الخبراء في مجال الحرب البيولوجية بدون عمل أو مرتبات، ويصبح من الممكن تشغيلهم بواسطة أية جهة تعتزم تطوير مثل تلك الانواع من الأسلحة.

ومنذ منتصف التسعينات كثفت وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية ووكالات استخبارات اخرى البحث عن معلومات حول الدول التي تجري بحوثا في الاسلحة البيولوجية، مع التركيز على الاتحاد السوفياتي السابق وإيران وكوريا والعراق ودول اخرى.

وكالة الاستخبارات المركزية وتطوير "الاسلحة البيولوجية":

عرضت وكالة الاستخبارات المركزية CIA على موقعها الإلكتروني وثائق تكشف ممارساتها المشبوهة خلال عقود الحرب الباردة، بما فيها من خططٍ للتجسس، ومؤامرات قتل، ومحاولات تهريب، وتجارب استخدامت فيها المخدرات، وتفاصيل مخططات اغتيال وعمليات تجسس محلية، وتسجيلات هاتفية سرية، وحوادث خطف، وإجراء تجارب واختبارات على بشر لتعديل سلوكهم، دون علمهم بذلك<sup>109</sup>.

استخدام مسؤولوا الوكالة مذكراتهم، لملء صفحات التقرير البالغ عددها (693) صفحة، والذي يكشف عن الممارسات غير القانونية التي وقعت بين الخمسينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وكان يُشار إلى هذه الممارسات باسم (الهيكل العظمي)، ثم أُطلق عليها اسم "مجوهرات العائلة"، فصارت تُعرف بهذا الاسم منذ ذلك الوقت. ومُعظم ما تضمنته هذه الوثائق من معلومات كان معروفاً، لكن الجديد الذي تقدمه يتعلق بالنطاق الذي تسلط عليه الضوء.

يذكر أن أرشيف الأمن القومي الأمريكي - وهو هيئة بحوث مستقلة - قد نشر أوراقاً حصل عليها - وهي ذات صلة بالوثائق - اشتملت على تفاصيل محادثات حكومية، جرت عام 1975م، بخصوص انتهاكات الوكالة، حيث قامت بأشياء كان يتعين عليها عدم القيام بها، ومن بين تلك

<sup>109</sup> اللواء الدكتور- علي محمد رجب، المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة، مجلة كلية الملك خالد العسكرية،

<http://www.kkmaq.gov.sa/Detail.asp?InNewsItemID=262322>

غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)

[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)

[www.aljazeera.nnet](http://www.aljazeera.nnet) -

الأشياء العديدة التي قيل إنها تثير تساؤلات قانونية الأحداث والوقائع التالية المتعلقة بموضوع البحث في هذه الرسالة :

(احتجاز منشق من الاتحاد السوفيتي أواسط ستينيات القرن العشرين. وإجراء تجارب واختبارات لتغيير سلوك مواطنين أمريكيين، دون علمهم بذلك). وتُظهر الوثائق أيضاً حجم القلق المتصاعد في أواسط إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق (فورد)، بشأن ما كان يطلق عليه (الهيكل العظمية) لوكالة CIA، والتي كانت قد بدأت تطفو بشأنها تقارير في وسائل الإعلام.

كان هنري كيسينجر، وزير الخارجية ومستشار الأمن القومي حينذاك - يقف ضد خطوة إجراء تحقيق يتعلق بانتهاكات الوكالة، وضد حقيقة ما اعتبره "إفشاء لأسرار الوكالة"، ونُقل عن كيسينجر قوله في هذا الشأن: (...إن الاتهامات التي تظهر في وسائل الإعلام حول الوكالة أسوأ مما كانت عليه أيام مكارثي) <sup>110</sup>. بتاريخ 4 يناير 2006م، وفي يوم من أيام الشتاء في واشنطن، استدعى الرئيس الأمريكي "جورج بوش" الابن الملحقين الصحفيين في البيت الأبيض، وكلفهم آنذاك أن ينقلوا إلى العالم كله رسالة تقول: (إن الولايات المتحدة لم تسمح ولن تسمح أبداً بأعمال التعذيب المزعومة التي قامت بها القوات المسلحة والأجهزة السرية للبلاد، وبخاصة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، للحصول على معلومات مفيدة ضد الإرهاب، والتي قد بدأت قبل خمس سنوات بعد التفجيرات التي استهدفت برج التجارة العالمية في نيويورك، ووزارة الدفاع في واشنطن). <sup>111</sup>.

رغم أن وكالة الاستخبارات المركزية قد طوّرت - منذ بداية فترة الحرب الباردة عدداً من (برامج البحث)، على أساس استخدام التعذيب الجسدي والعقلي، وصولاً إلى الأسلحة

<sup>110</sup> اللواء الدكتور- علي محمد رجب، المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، <http://www.kkmaq.gov.sa/Detail.asp?InNewsItemID=262322>

<sup>111</sup> اللواء الدكتور- علي محمد رجب، المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، <http://www.kkmaq.gov.sa/Detail.asp?InNewsItemID=262322>.  
غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية".

- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)  
[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)  
[www.aljazeera.nnet](http://www.aljazeera.nnet) -

الكيميائية.<sup>112</sup> ومولت الوكالة في الخمسينيات مستويات أمريكية، قامت باستخدام كميات كبيرة من المخدرات لأشخاص أبرياء، يعانون من حالة إحباط نفسي، أو لمرضى عقليين، تم تعريضهم لصدمات كهربائية، مقترنة مع إعطائهم مخدرات ومواد صيدلانية عديدة، كان الهدف من ذلك هو الحصول على معلومات حول " آلية تصرف " أعداء الولايات المتحدة من الشيوعيين " آنذاك.

تردد الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون مدة شهرين قبل أن يعين وليام كولبي مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، لأنه كان مدركاً للتاريخ المخزي لكولبي في مجال الأسلحة البيولوجية وتجاربها في الفيتنام وغيرها، كما أشرنا عنها. لكن الوقت كان ضاعفاً على ظرف رئاسة نيكسون بتفجير فضيحة "ووترغيت" التي أدت إلى إعلان استقالة الرئيس نيكسون عبر التلفزيون، ليصبح نائبه جيرالد فورد رئيساً في اليوم التالي.

في ديسمبر من العام 1974 نشرت صحيفة «النيويورك تايمز» تقريراً كاملاً عن النشاطات غير المشروعة التي قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في ظل إدارتي الرئيسين جونسون وريتشارد نيكسون. أشار التقرير في بعض نقاطه إلى أن الفساد يضرب جذوره أبعد من ذلك، لذا طلب الرئيس الأميركي فورد، بغية كبح موجة الغضب العارمة، بتكليف لجنة برئاسة نائب الرئيس نلسون روكفلر بالتحقيق بذلك، وكان من بين أعضائها، رونالد ريغان، حاكم كاليفورنيا آنذاك. من مهامها تفحص الأبحاث الطبية البيولوجية التي قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية، واقتراح حلول لضمان عدم تكرار أي خطأ.

حضر ريغان عشر جلسات فقط، من أصل 26 جلسة التي جرى عقدها. وإتخذ فيها موقفاً مدافعاً بحزم عن نشاط الوكالة الاستخباراتية، وأقسم حينها: (... إنه إذا أصبح، ذات يوم، رئيساً

---

112 اللواء الدكتور - علي محمد رجب، المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، <http://www.kkmaq.gov.sa/Detail.asp?InNewsItemID=262322>.  
غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية".  
- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com).  
[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)-  
[www.aljazeera.nnet](http://www.aljazeera.nnet) -

للولايات المتحدة فسوف يجعل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية قادرة على محاربة العدو "مهما يكن، ومن يكن، وبالوسائل التي تختارها".

حول هذا الموضوع تسربت تقارير تشير الى أنه : ( قامت وزارة الدفاع الأميركية "البنتاغون" ببناء مصنع للأسلحة البيولوجية سراً يمكنه أن ينتج ما يكفي من العناصر القاتلة لإبادة ملايين من البشر). ثم يضيف كاتب أحد التقارير، بشيء من المزاح الأسود قائلاً : (... إن الأسلحة البيولوجية فظيعة إلى درجة أنها تجعلك تنظر إلى الأسلحة النووية بشيء من التعاطف). وهذه الأخيرة ويقصد بها " النووية": (... لا تفعل سوى أنها تشويك مرة واحدة؛ أما الأسلحة البيولوجية، فإن المرء لا يشك بأي شيء حتى اللحظة التي تدخل فيها بعض الكائنات المتناهية الصغر إلى الرئة، بعد ذلك يكون الخيار الوحيد هو طريقة موتك اختناقاً أو نزيفاً دمويّاً أو موتاً بطيئاً على مدى عدة أيام أو ربما خلال عدة أسابيع).<sup>113</sup> ثم يعدد المصدر نفسه أسماء بعض الأسلحة البيولوجية المكدسة في ذلك المصنع السري مثل: الجمرة الخبيثة والحمى المالطية والطاعون والجذري والكوليرا.. الخ. وبالطبع كلها أسلحة محرمة دولياً. لكن كان هناك ما هو أسوأ من ذلك، عندما شهدت نهاية فترة الحرب الباردة توصل الروس إلى المزوجة بين فيروس الجدري مع فيروس آخر اسمه ايولا الذي ظهر لاحقاً في افريقيا، لذلك بذل الأميركيون جهوداً لمعرفة كيف فعل الروس ذلك<sup>114</sup>. وحرصوا على استمرار البحوث أيضاً على كائنات مُعاملة وراثياً، بحيث يمكنها مقاومة أي دواء مضاد لها.

يرى البعض أن القنابل البيولوجية هي أقل كلفة بكثير من صناعة قنبلة نووية؛ فالتقنيات متوفرة لها بغزارة، ويمكنها أن تختبئ وراء الغطاء القديم الجديد، بحجة البحث في ميدان الأدوية والعقاقير الطبية من دون تدخل لمنعها او اكتشاف أهدافها. لكن المقاصد ظلت تسعى الى تطوير

<sup>113</sup> غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com).

[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)-

[www.aljazeera.nnet](http://www.aljazeera.nnet) -

<sup>114</sup> انظر كتاب "جيمس بانفورد" مرجع سابق وكذلك: عبد الواحد الجصاني .

<http://alressd.maktoobblog.com>

أجيال متقدمة من الاسلحة الجرثومية. حتى بات القول ممكنا : (... إن زمن نهاية العالم بيولوجيا قد اقترب). في ظل إدارة الرئيس بيل كلينتون استمرت الابحاث حتى عام 1997. ثم توسعت كثيراً في ظل إدارة جورج دبليو بوش، وتشير العديد من الدراسات الى وجود المعسكر رقم 12 في صدارة البحث الجرثومي، الذي كان استمرار البحث فيه وراء السبب الذي دعا بوش إلى رفض التوقيع على الاتفاق الرامي إلى تعزيز المعاهدة الخاصة بالأسلحة البيولوجية التي تعود إلى ثلاثين سنة خلت. وعندما صادقت على هذه الاتفاقية مئة وأربعون دولة، فإن تلك الدول كلها كانت تسعى إلى "تعزيز الاتفاقية" ؛ لكن بوش كان يعرف إن الولايات المتحدة ستكون مرغمة على الكشف عما يجري من ابحاث بيولوجية لها في المعسكر 12 . وكانت اتفاقية 1972 حول الأسلحة البيولوجية تمنع بشكل قاطع الدول الموقعة عليها إنتاج أسلحة قد تنتشر الأمراض، أو الحصول على هذه الأسلحة.

ومع ذلك فإن الباحثين في المعسكر 12 كانوا يستعدون لتصنيع نموذجاً متطوراً جداً من جراثيم الجمرة الخبيثة الفتاكة، بالإضافة إلى جراثيم أخرى. وهم يستخدمون نتائج التطورات الهائلة في حقل الهندسة الوراثية للوصول إلى تخليق عناصر وكائنات بيولوجية معدلة وراثياً، وتكون مُحسنة، ومكيفة للتجاوب مع المستوى المطلوب في معدات وأعتدة التسليح البيولوجي. والاتفاقية الخاصة بالأسلحة البيولوجية، على عكس الاتفاقية الخاصة بالأسلحة الكيميائية، لا تنص على أي رقابة، ثم ان كل العناصر والابحاث المستخدمة في الأسلحة البيولوجية يمكن ان نجدها في صناعات الأدوية، وفي حقل الزراعة والطب والزراعة والطب البيطري . وهذا ما يسمى بـ ( مشكلة الاستخدام المزدوج)، ثم ان التجهيزات التي تُستخدم في إنتاج تغذية الدواجن مثلاً، يُمكنها مع قليل من التعديل، أن تدخل في عملية تصنيع لكائن بيولوجي ما.

في محاولة للإجابة العديد من التساؤلات، إتصل غوردون توماس، مؤلف كتاب ( الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية) 115 بمكتب دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأميركي السابق، وقد أجابه أحد العاملين فيه بالقول : (إن كل عمل يتم القيام به من قبل الولايات المتحدة في هذا الميدان هو ذو طبيعة دفاعية بحتة). وعندما أعاد غوردون السؤال: (وهل كانت هي تلك أيضاً وجهة نظر الرئيس؟). واتصل المؤلف بالبيت الأبيض مباشرة. فكان الرد على لسان " آري فليشر"، الناطق باسم الحكومة الامريكية انه: ( نفذت الولايات المتحدة أثناء فترة ما برنامجاً مكرساً لحماية عسكريينا من أخطار الحرب الكيميائية أو البيولوجية).<sup>116</sup>

### ثانيا : التسلح الجرثومي في الاتحاد السوفيتي السابق:

في 1979 اوائل الثمانينيات تدهورت العلاقات الامريكية- السوفيتية بحدة حول موضوع الاسلحة الكيماوية والبيولوجية. وقد اعترضت إدارة ريغان بشدة حول ما زعم عن استخدام السوفيت للأسلحة الكيماوية والتوكسينات في افغانستان والهند الصينية<sup>117</sup> كما أشرنا الى ذلك. أدانت الولايات المتحدة في تقاريرها الى الامم المتحدة التوجهات السوفيتية في انتاج وتطوير تلك الاسلحة، وشنت حملة واسعة من الاتهامات والشكوك حول البرامج السوفيتية التسليحية. وما زاد في تفاقم الفلق الامريكي، الشكوك حول حادثة "سفيردولفسك"، ففي اواخر العام 1979 بدأت التقارير في الصحافة الغربية تُشير الى ان وباء كان قد إنتشر في "سفيردولفسك" في شهر أفريل/نيسان من ذلك العام إثر تسرب عرضي لجرثومة مرض الجمرة من مرفق يُشتبه أنه خاص بالحرب الجرثومية في المدينة المذكورة.

<sup>115</sup> غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)

[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)

[www.aljazeera.nnet](http://www.aljazeera.nnet)

<http://www.elaph.com/ElaphWeb/NewsPapers/2006/10/185138.htm?sactionarchive=NewsPapers>

<sup>116</sup> غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)

[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)

[www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net)

<sup>117</sup> سبيرز ، الاسلحة الكيماوية، مرجع سابق، ص: 14.

كان المبنى الموجود في المجمع 19 في مدينة سفيردلوفسك قد جذب إنتباه عناصر المخابرات الامريكية بسبب بعض المواصفات التي كشفتها صور الاقمار الصناعية (مثل نظام التصريف، وتوزيع حظائر الماشية، والمداخن، ومرافق التبريد، والسواتر القريبة التي يمكن وضع قذائف المدفعية فيها، إضافة الى الإجراءات الأمنية المشددة بوجود حراس يحرسون الممرات القليلة المحاطة بسياح مزدوج من الاسلاك الشائكة). ورغم ان مصدر الحادث المزعوم كان لم يزل غامضاً، وبعض التفاصيل المتسربة عنه مشوشة، (خاصة طول المدة التي استغرقها الوباء و" عدم " استعداد السوفيت لإستقبال خبير امريكي بدخول سفيردلوفسك خلال فترة انتشار الوباء) <sup>118</sup> .

تفاوتت التقديرات حول الحادث، فمنها ما يعتقد إن: ( سبب انتشار الوباء كان انتشار ما قدر بـ 10 كغ من الشكل المُعد من جرثومة الجمره لإستخدامات حربية في جو المدينة التي يبلغ عدد سكانها 1.2 مليون نسمة، وان عدد الوفيات لم يتجاوز 66 شخصاً) <sup>119</sup> . بينما ذهب تقديرات أخرى الى ان الوفيات ما بين (20-1000)، وعدد الإصابات يزيد عن 3000 اصابة <sup>120</sup> .  
وكالعادة سارع الاتحاد السوفيتي الى الإنكار للمزاعم الامريكية حينها، الا ان وكالة تاس إعترفت فيما بعد بخبرها: (إن انتشارا لمرض الجمره المعوي قد حدث، وكان سببه بيع جلود ولحوم مصابة في السوق السوداء). لكن الاستخبارات الامريكية إستمرت على الادعاء: (... إن لديها دليلاً من شاهد "غير مباشر" يبين ان الضحايا، ربما كانوا يعانون من وباء الجمره الرئوي ، بسبب إستنشاقهم لجرثومة الجمره " التي لا يمكن إلا ان تكون قد تسربت من مرفق عسكري) .

تلك الحادثة الجرثومية، وقبلها قضية "المطر الاصفر" وغيرها، أكدت استحالة التحقق والمراقبة على التسلح عند أي طرف، ويكون موقف الإنكار قائماً دائماً. في ذات الوقت تمنع الأطراف بعضها البعض من السماح بزيارات دورية لمصانعها ولمنشأتها العلمية والعسكرية ،

<sup>118</sup> راجع باب الاسلحة الكيماوية، و سبيرز، مرجع سابق، ص 270-271.  
<sup>119</sup> ايد ريجيس، تقييم التهديد الارهاب البيولوجي، العلوم، المجلد 18 العدد 4، 2002، ص 14-15] مؤلف كتاب "بيولوجيا القدر المحتوم: تاريخ المشروع الامريكي السري للحرب الجرثومية، هولت، 1999  
<sup>120</sup> سبيرز، مرجع سابق، ص 270

تحت باب الحفاظ على الاسرار العلمية والتجارية، وإن أي إتفاق حول الاسلحة الكيميائية والبيولوجية لا يمكن مراقبته بوسائل المراقبة التقنية (التصوير الاستطلاعي بالاقمار الصناعية، ووسائل التصوير الاخرى، والرادار، والمراقبة الالكترونية، وآلات رصد الزلازل، وأخذ عينات من الهواء.. الخ). ولا يمكن التحقق إلا بتفتيش الموقع نفسه، وبواسطة خبراء من ذوي الاختصاص العلمي البيولوجي أو الكيميائي.

أعدت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية تقارير حول المخزون الهائل الذي كان يمتلكه الاتحاد السوفيتي السابق في نهاية الحرب العالمية الثانية من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية، وخصوصاً في أوكرانيا، ومنطقة الأورال، والجمهوريات السوفيتية الإسلامية آنذاك. وقد أكدت تلك التقارير: إن السوفييت كانوا قد كدسوها هناك، تحسباً لإحتمال نشوب نزاع مع الصين، وقد وجدت وثائق عديدة تعود لأجهزة الاستخبارات الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية، كانت تتحدث بالتفصيل عن القدرات السوفيتية في مجال التسليح البيولوجي. وكانت أهم المختبرات السوفيتية موجودة على ضفاف نهر الفولجا.<sup>121</sup> ويتحدث أحد تلك التقارير عن أنه كان يتم حقن الفئران بجراثيم الطاعون، ثم يتم قذفها بصناديق تتحطم عند ملامستها الأرض، وبذلك تتحرر الفئران لتشتيع المرض على نطاق واسع.

فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي ظهرت شهادات عدة منها : في 17 سبتمبر 1996م، تقدم رجل متوسط العمر للمثول أمام لجنة من ممثلي الأمن القومي الأمريكي كي يدلي أمامهم بأغرب شهادة عن التجارب القاتلة التي أجريت على أسرى الحرب الأمريكيين أثناء الحرب الكورية. إسم ذلك الرجل هو "جان سينجا"، قيل عنه أنه الأمين العام السابق للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، وكان أيضاً مديراً للموظفين في وزارة الدفاع ببلاده.

<sup>121</sup> رجب علي محمد، المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة [الرابط الالكتروني لكلية الملك خالد العسكرية:..

بعد يومين فقط من هروبه، وصل إلى الولايات المتحدة ليحصل فوراً على الجنسية الأمريكية، وعلى وظيفة في أجهزة الاستخبارات. تحدث "جان سينجا" أمام اللجنة الأمنية، وما قاله يُشكل أحد أكثر الوثائق إثارة للذهول حول أسرار الحرب الباردة. وكان مما قاله: (... كنت تحت إمرة الروس عندما سمعت للمرة الأولى عن أسرى الحرب الأمريكيين والكوريين الجنوبيين الذين كان الأطباء السوفييت يستخدمونهم. ولن أزعم أنني أعرف مصير جميع سجناء الحرب المفقودين، لكنني أعرف ما حصل لعدد كبير منهم. اختصاراً أقول: إن المئات منهم قد جرى إستخدامهم لإجراء تجارب عليهم في كوريا وفيتنام. )

وحسب شهادة سينجا: (كان السوفييت يستخدمون الأسرى الأمريكيين أيضاً من أجل معرفة مدى قدرتهم على التحمل جسدياً ونفسياً، وكذلك لتجريب عدة أنواع من المخدرات التي تُساعد على السيطرة الذهنية على الآخر. وكان على تشيكوسلوفاكيا أن تبني أيضاً محرقة في كوريا الشمالية من أجل التخلص من الجثث بعد إجراء التجارب على أصحابها في حياتهم. ولم يُستخدم الأمريكيون والكوريون الجنوبيون وحدهم، كحقل تجارب بشرية، بل جرى أيضاً استخدام الآلاف من الأسرى) .

وحسب شهادة جان سينجا: ما بين عام 1961م وعام 1968 جرى نقل ما لا يقل عن (200) أسير حرب أمريكي عبر براغ إلى موسكو، وتلك العملية جرت في إطار من السرية التامة. وكانت المعلومات الخاصة بها مصنفة على أنها أسرار دولة، أي أكثر من "سري للغاية"، ويعتقد جان سينجا: أنه لم يكن في تشيكوسلوفاكيا كلها أكثر من 15 شخصاً كانوا يعرفون بنقل أسرى حرب أمريكيين إلى الاتحاد السوفيتي 122.

### ثالثاً : الصين والاسلحة البيولوجية والجرثومية:

122 غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. - موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com) - [www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com) - [www.aljazeera.nnet](http://www.aljazeera.nnet) -

رجب علي محمد: المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة.

<http://www.kkmaq.gov.sa/Detail.asp?InNewsItemID=262322>

أكدت تقارير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على أن الصين كانت قد كدست أيضاً كميات كبيرة من الأسلحة البيولوجية، وأطلقت برامجها في هذا الميدان منذ عام 1940م، بعد أن كانت طائرة يابانية قد ألقت كميات كبيرة من الأرز والقمح المحشوة بمادة (الانثراكس) السامة على مدينة صينية، وبعد عام فقط، كانت مدينة صينية أخرى قد عرفت المصير نفسه، ولكن هذه المرة بحبوب أرز وقمح مضمّنة بجراثيم الطاعون، وكانت أعداد الضحايا كبيرة في الحالتين 123.

وأثناء الحرب العالمية الثانية، لقي الآلاف من الجنود الصينيين حتفهم بسبب جراثيم متنوعة ألفتها الطائرات المعادية، لكن لم ترد الصين على ذلك بالمثل أبداً. وعندما اندلعت الحرب الكورية كانت خشية واشنطن كبيرة بعد ذلك من أن تستخدم الصين الأسلحة البيولوجية تلك المرة، مع التأكيد على أنه قد جرى اختبار جراثيم تؤدي للإصابة بأربعة أمراض من أجل إستخدامها ضد كوريا الشمالية من قبل الأمريكيين، وهي أمراض الجمرّة الخبيثة (الانثراكس)، والحمى المالطية (المتوجة)، و (الحمى التلرية) نسبة إلى منطقة تيار في كاليفورنيا، حيث ظهر المرض للمرة الأولى، (وداء البغاء) الذي يمكن أن يصيب الإنسان أيضاً.

وكان تقرير قد صدر عن اللجنة العلمية الدولية للتحقيق في الوقائع الخاصة بالأسلحة الجرثومية في كوريا والصين - وهو تقرير منشور عام 1952م، يتألف من (700) صفحة - قد وصل إلى نتيجة مفادها: أن السكان الصينيين والكوريين جرى إستهدافهم بالفعل بأسلحة جرثومية. كما تضمن التقرير قائمة بالأسلحة التي جرى استخدامها ضد كوريا الشمالية، وكان من أكثر الأسلحة استخداماً توزيع أقلام كانت تحوي حبراً ملوثاً بالجراثيم المسببة للأمراض، وريش مغطى (بالانثراكس) (جرثومة الجمرّة الخبيثة)، وبراغيث، وقمل، وذباب، تحمل كلها جراثيم الطاعون، والحمى الصفراء.

#### رابعا : المانيا:

123 رجب علي محمد ، المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة الرابط الإلكتروني لكلية الملك خالد العسكرية.:

<http://www.kkmaq.gov.sa/Detail.asp?InNewsItemID=262322>

خلال الحرب العالمية الثانية إتضح للحلفاء ان ألمانيا قد ركزت اهتمامها على السلاح الكيميائي. ولم تهتم بشكل واسع بالاسلحة الجرثومية رغم ان أطبائها وعلمائها قد قاموا بتجارب على الاسرى لدى القوات الالمانية.

#### خامسا : اليابان:

أما الجانب الياباني فقد كان مهتماً بالسلاح البيولوجي أكثر من غيره. وقد كان مقر المعامل اليابانية في هربن (قرب منشوريا والتي استولى عليها الاتحاد السوفيتي فيما بعد ونقل تلك المعامل إلى روسيا) .

#### سادسا : بريطانيا: كانت بريطانيا قد وضعت برنامجها السري قبل وخلال الحرب العالمية

الثانية. أشرف على البرنامج الجرثومي اللورد موريس هانكي. وقد إنذع البريطانيون نحو تنفيذ ذلك البرنامج بعد أن وردت تقارير تُعبر عن مخاوف السوفيت من احتمال وقوع هجوم بيولوجي الماني عليهم.. تم تطوير "قنبلة الجمره" Anthrax Bomb في العام 1941. وتم اختبارها في جزيرة جرونيارد عام 1942<sup>124</sup>، وقد بدأت بريطانيا بانتاج (كعك الماشية المُغمَس بفيروس الجمره Anthrax Filled Cattle Cakes لمواجهة احتمالات إستخدامه ضد المانيا كرد بيولوجي على هجوم بيولوجي مُحتمل تقوم به ألمانيا. وفي مارس/أذار 1944 طلبت الحكومة نصف مليون قنبلة زنة 4 باوند من الولايات المتحدة لتعبئتها، لتشكل الدفعة الاولى.

#### سابعا : إسرائيل قبل وبعد قيامها عام 1948:

العصابات الصهيونية استخدمت الاسلحة الجرثومية والكيميائية قبل قيام الكيان الصهيوني

في 1948/5/17] وبعدها الجيش الاسرائيلي:

<sup>124</sup> [الجصاني، مرجع سابق] و د. رجب علي محمد ، المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة الرابط الالكتروني لكلية الملك خالد العسكرية.

<http://www.kkmaq.gov.sa/Detail.asp?InNewsItemID=262322>

غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)

[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)

[www.aljazeera.nnet](http://www.aljazeera.nnet) -

## خطة بن جوريون لاستعمال الأسلحة البيولوجية:

لم يتردد بن جوريون لحظة عن استعمال الجراثيم واسلحة الحرب البيولوجية أو الكيماوية ضد العرب حتى قبل إنشاء الدولة الصهيونية. ويؤكد ذلك، بكل وضوح، تقرير للدكتور أفنير كوهين<sup>125</sup> ، وهو باحث أول في مركز الدراسات الدولية والأمن في جامعة ماريلاند الأمريكية، الذي عُرف بكتابه المعروف "إسرائيل و القنبلة". وقد نشر بحثه هذا في مجلة عرض الاسلحة<sup>126</sup>، و نظرا لخلفيته الصهيونية ، فإنه يبرر الكثير من أعمال إسرائيل الاجرامية، و يُعتبر في الوقت نفسه يعد مصدرا مهما للمعلومات، حيث أورد كثيرا من التفاصيل الهامة عن سعي اسرائيل لامتلاك اسلحة الدمار الشامل، ومنها الاسلحة الجرثومية. معظم كتاباته مستقاة من مصادر علمية منشورة، وقد اخذ قسم منها من إفادات بعض الضباط الذين استعملوا الأسلحة الجرثومية، أو عملوا على تطويرها في اسرائيل.<sup>127</sup>

بدأ بن جوريون مشروعه التسليحي البيولوجي، قبل إعلان الدولة الصهيونية بجمع العلماء اليهود الألمان، بعضهم من عمل مع النازيين في مجال السعي لانتاج الاسلحة البيولوجية والكيماوية، من أجل إنشاء وحدة في إسرائيل متخصصة في الحرب الجرثومية. كان هدف ومساعي بن غوريون واضحة ، إذ كتب لأحد عملاء الوكالة اليهودية في أوروبا يأمره بالبحث عن علماء يهود يحتمل لكي (يزيدوا قدرتنا على القتل الجماعي). وكان مستعدا دائما لإبادة العرب للخلاص منهم والاستيلاء على أراضيهم، فان لم يكن ذلك بالمذابح والطرذ المباشر ، فليكن بالإبادة الجماعية. من العلماء اليهود الذين لبوا رغبة الصهاينة في تطوير وإنتاج الأسلحة الجرثومية كان افراهام ماركوس كلينبيرج، الذي كان متخصصا في الأوبئة في الجيش الروسي، والثاني هو الألماني ايرنست دافيد بيرجمان، والثالث و الرابع هما الأخوان أهارون وأفرايم كاتاشالاسكي.

<sup>125</sup> أفنير كوهين :باحث أول في مركز الدراسات الدولية و الأمن في جامعة ماريلاند الامريكية، عرف بكتابه المعروف إسرائيل و القنبلة. وقد نشر بحثه هذا في [مجلة استعراض الحد من الأسلحة] **The Non Proliferation Review** ، عدد الخريف (2001).

<sup>126</sup> مجلة استعراض الحد من الأسلحة **The Non Proliferation Review** ، عدد الخريف

2001.

<sup>127</sup> <http://www.khiyam.com/> موقع هيئة أرض فلسطين.

وعندما أعلن الصهاينة قيام دولتهم على ارض فلسطين عام 1948، عملوا على تنفيذ مخططات تهجير العرب من 530 مدينة و قرية والاستيلاء على الاراضي العربية ، لذا توفرت لديهم أبنية ومساحات كثيرة خالية. إختار رئيس الأركان إيجال يادين مكانا منعزلا فيه مبنى فخم، بعيد نسبيا عن العمران، لكي يصبح المقر الدائم لأبحاث وإنتاج اسلحة الحرب الجرثومية . تم تغيير اسم المنظمة من "هد بيت" إلى (مركز إسرائيل للبحوث البيولوجية (IBR)، ولا يزال هذا المركز هناك حتى يومنا هذا.

قامت الصحفية "سارة ليوفيتس - دار" ( كانت تعمل في جريدة هارتس) باستجواب العالم افرام كاتاشالاسكي (الذي غير اسمه إلى كاتسير)، والعالم الكساندر كينان والضابط الكولونيل "شلومو جور" المسؤول عن وحدة الجراثيم في ذلك المركز<sup>128</sup> ، وفي تلك المقابلة تهرب هؤلاء من الإجابات الصريحة، ولكنهم اعترفوا: (...بأنهم وضعوا خططا لدراسة احتمالات الحرب الجرثومية).<sup>129</sup> أما الكولونيل "شلومو جور" فاكتمى بالقول : (...لقد سمعنا عن وباء التيفويد في عكا وعن عملية غزة ... كانت هناك إشاعات كثيرة، ولا ندري إن كانت صحيحة أم لا). توصلت تلك الصحفية الى خلاصة محاولاتها تسجيل تلك الحقائق وتهرب اصحابها عن الاعتراف الى تعليق لها حول تلك المقابلات : (... كل ما عمل في تلك الأيام كان بدافع الإيمان والتفاني واليوم أصبحوا يتسترون عليه كالعار. الأحياء منهم ، معظمهم فضل الصمت ، وبعضهم ألغى المقابلة في آخر لحظة، وبعضهم أقلل الخط عندما عرفوا بموضوع السؤال، أحدهم قال : "ليس كل ما عملناه في الماضي يستوجب المناقشة" (...).

عمل في ذلك المركز ما يقارب 300 موظف، منهم 120 من حاملي الدكتوراه في تخصصات مختلفة في علوم البيولوجيا والكيمياء والرياضيات والبيئة والفيزياء ، ويعاونهم حوالي 100 تقني مؤهل تأهيلا عاليا . وقد إحتج سكان مدينة نس تسيونا القريبة بأن المركز بات يُشكل

<sup>128</sup> نشرت المقابلة في مجلة حداثوت في 1993/8/13 صفحة 6-10 بعنوان "الميكروبات في خدمة الدولة"  
<sup>129</sup> سارة ليوفيتس-دار(1993)،مقالة بعنوان"الميكروبات في خدمة الدولة"، مجلة حداثوت العدد الصادر في 1993/8/13، ص 10-6. <http://www.khiyam.com/> موقع هيئة أرض فلسطين.

خطرا كبيرا على حياة السكان، في حال حدوث حادث؛ خصوصا وأنه سبق بوقوع حادث خطير، وكادت السلطات أن تأمر بإخلاء السكان. ورغم أن الموضوع المرتبط بقضايا المركز ظل يُعالج بتكتم شديد، إلا أن مصادر في اللجنة العلمية بالكنيست أفادت بأنه خلال 15 عاما، قُتل 3 وجرح 22 من العاملين في المركز.

ورغم الإنكار والمراوغة حول نشاط المركز، فإن تواتر الأنباء عن تطوير الأمراض والسموم في المركز تكشف حقيقة العمل الإجرامي الذي يتم فيه . وما بين التكتم والإعلان ، تحرص إسرائيل على تسريب المعلومات والأخبار المخيفة والمرعبة بين فترة واخرى، محاولة لردع العرب عن محاولة استعمال سلاح جراثومي مماثل.

قبل العدوان الثلاثي على مصر 1956 بقليل، طلب بن جوريون من العلماء الإسرائيليين أن " يضعوا خطا ثانيا"، للدفاع باستعمال سلاح وصفه بأنه (غير تقليدي ولكنه رخيص)، وطالبهم بالإسراع في تحضير مثل هذا السلاح [كأنما كان يعد العدة لعمل ما]، وكأنه يحتاج إلى بديل آخر، لو فشل السلاح التقليدي في مواجهة مصر والعرب. وقد اتضح فيما بعد أن هذا العمل المرتقب هو العدوان الثلاثي على مصر عام 1956<sup>130</sup>. وقد اعترف المؤرخ العسكري الدكتور "أوري ميلشتاين" بأنه : (...في كثير من القرى العربية التي جرى إحتلالها سُممت مصادر المياه فيها لمنع الأهالي من العودة إلى ديارهم) .

أما "نعيم جلعاوي"، فهو يهودي هاجر من العراق الى إسرائيل، جنده الموساد واستقر في إسرائيل وخدمها بإخلاص؛ إلا انه بعد فترة اكتشاف العنصرية التي يمارسها الاشكناز على اليهود الشرقيين من أمثاله، فقرر الهجرة إلى أمريكا ، ومن هناك صرح للصحفيين عن تجربته في إسرائيل<sup>131</sup>. ومن ضمن ما قال: (... إن موشي ديان أصدر أوامره بطرد العرب من قراهم وتدمير منازلهم وتسميم الآبار بالتيفوس والدوستاريا). وقال ايضا: (... أن الهاجانا وضعت

<sup>130</sup> العبودي عبد الكاظم، يراييع رقان "حول بدء التجارب الاسرائيلية الفرنسية المشتركة في الصحراء الجزائرية في منطقة حماقير من ولاية بشار" ص 28-114.

<sup>131</sup> انظر مجلة لينك عدد إبريل - مايو 1998 و <http://www.khiyam.com> موقع هيئة أرض

البكتيريا في المياه التي تُغذي عكا من نبع قرب قرية كابري، ويمر مجرى المياه قرب أحد الكيبوتزات "المستوطنات الصهيونية". وذكر أيضا حادث تسميم مياه غزة، وإن أحد الضباط قال : (ليس لدينا عواطف في الحرب).

تُشير الوثائق: انه وبعد سقوط حيفا في 1948/4/22، تدفق آلاف المهاجرين العرب من حيفا إلى عكا، و ازدحمت عكا بسكانها. كانت عكا لاتزال تحت الحماية البريطانية<sup>132</sup> في الأسبوع الأول من مايو 1948. بدأت القوات الصهيونية بمحاصرة المدينة، ثم أطلقت عليها وابلا من قنابل المورتر. كانت مياه الشرب تصل إلى المدينة من قناة تأتي من القرى الشمالية قرب كابري التي تبعد 10 كم عن عكا، وتُعرف محليا بقناة الباشا، تعترض طريق القناة إلى عكا مستعمرات صهيونية ، شرقي و غربي المزرعة التي تبعد حوالي 6 كم عن عكا. و في نقطة ما، عند القناة، حقن الصهاينة المياه بجرثومة التيفويد، وسرعان ما إنتشرت حمى التيفويد بين الأهالي، و حتى بين الجنود البريطانيين.

يُشير تقرير الصليب الأحمر المرقم (G59/1/GC, G3/82)<sup>133</sup> : انه في يوم 1948/5/6 توجه مندوب الصليب الأحمر دوميرون من حيفا إلى عكا بصحبة الدكتور ماكلين طبيب الصحة لتفقد أحوال اللاجئين بعد ورود أخبار عن تفشي التيفويد هناك . وجاء في التقرير: (...إن الوضع خطير، وأن تفشي المرض شمل المدنيين ورجال الجيش و الشرطة). و نقلا عن قول للبريجادير بفردج، مدير الخدمات الطبية العسكرية البريطانية : (إن هذه أول مرة يحدث فيها هذا الوباء في فلسطين رغم حالات النزوح و الهلع بين السكان في أنحاء فلسطين). و قال التقرير: (... إن هناك خوف من أن ينتشر الوباء عن طريق اللاجئين المتجهين إلى لبنان).

132 سلمان أبو ستة | 2007\6\30 | إسرائيل أول من استعمل الحرب الجرثومية في فلسطين وأكبر خازن لها موقع هيئة أرض فلسطين <http://www.khiyam.com/> [أحد تقارير ارشيف الصليب الاحمر في جنيف لمرقم (G59/1/GC, G3/82)

133 احد تقارير ارشيف الصليب الاحمر في جنيف لمرقم (G59/1/GC, G3/82)

و في أول إحصاء يُشير التقرير الى: ( إن عدد المصابين بلغ 70 مدنيا [من العرب الفلسطينيين] و 55 بريطاني) ، و (إن هذا هو الحد الأدنى المسجل للإصابات؛ لان كثيراً من السكان يخشون الإبلاغ عنها). و في نفس اليوم عُقد اجتماع موسع في مستشفى الصليب الأحمر اللبناني في عكا حضره البريجادير بفرج والكولونيل بونيت عن الجيش البريطاني، والدكتور ماكلين عن الخدمات الطبية المدنية و دي ميرون عن الصليب الأحمر والمستر كينيون قائم مقام القضاء، و السيد حكيم، حاكم صلح عكا والأطباء دهان والأعرج من الصليب الأحمر اللبناني و مهندسي البلدية وآخرون وقرروا الآتي : لقد انخفض عدد سكان عكا من 25ر000 إلى 8ر000 [بسبب النزوح] ، و قد اكتشفت 70 حالة من الإصابة بالتيفوئيد. و توصل الحاضرون الى: أن "الوباء محمول بالمياه"، وإن هناك حالات كثيرة مختلفة وأخرى متفرقة بين القرى. لذا بدأ الشروع بتنظيم عملية تطعيم لكل الأهالي ورش المدينة بالمطهرات وتعقيم المياه وتجهيز كل المستشفيات الخالية وإعداد أخرى، مؤقتة، لإستقبال الإصابات. كما تقرر تحديد تنقل الأهالي .

وفي تقرير بتاريخ 1948/ 5/13<sup>134</sup>، يذكر المندوب عدم تمكن السلطات البلدية، خصوصا بغياب رئيس البلدية ، من وضع حد لنزوح الأهالي من المدينة. و يمدح الأطباء والمرضين التابعين للصليب الأحمر اللبناني بعملهم الإنساني الكبير. وقد جاء ليساعدهم كل من الدكتور دباس من يافا والسيدة بهائي من حيفا. وفي تقرير آخر بتاريخ 1948/5/16<sup>135</sup> ، يشرح المندوب كيف إشتد هجوم عصابات الهاغاناه على المدينة بالمدافع وقذائف المورتر، وكيف طافت سيارات إسرائيلية بها مكبرات الصوت تنادي السكان العرب: (..أمامكم الاستسلام أو الإنتحار، سنبيدكم إلى آخر رجل) ، مما أدى إلى سقوطها، بتوقيع بعض وجهاء المدينة على وثيقة الاستسلام.

تم لإسرائيل ما تُريد من بث جرثومة التيفوئيد في عكا، إذ أخليت المدينة بكاملها، وهجرها معظم أهلها ، ولم يتمكنوا من العودة إليها أبداً، وهكذا تحقق الهدف الإسرائيلي من تلويث المياه في

<sup>134</sup> ارشيف الصليب الاحمر، مرجع سابق تقارير ارشيف الصليب الاحمر في جنيف لمرقم

( G59/1/GC, G3/82 )

<sup>135</sup> ارشيف الصليب الاحمر، مرجع سابق .

بث الرعب في اوساط السكان وإجبارهم على النزوح عن مواطنهم. وبعد هذا النجاح الذي تحقق، كرر اليهود بعد أسبوع واحد فقط محاولة تطبيق نفس الخطة في غزة في يوم 1948/5/22، لكن القوات المصرية قبضت على يهوديين كانوا مثلبيين بمحاولة تلويث مياه غزة. ذلك ما جاء خلال نص البرقية المرسلة من رئاسة القوات المصرية في غزة إلى قيادة الجيش المصري في القاهرة : (...الساعة 20ر15، يوم 24 مايو : ضبطت مباحث القوات المصرية إثنين من اليهود، هما دافيد هورين ودافيد مزراحي، كانا يحومان حول مواقع قوات الجيش، و بالتحقيق معهما إتضح أنهما مكلفان من القائد الصهيوني موشي بتسميم مصادر المياه التي يستقي منها الجيش (والأهالي) بميكروب التيفوس والدوسنتاريا، وقد ضُبطت معهما زمزمية مقسومة من الداخل بحاجز، ومن القسم الأعلى تحوي على مياه عادية صالحة للشرب والنصف الأسفل منها خلاصة الميكروب، وبه فتحة سفلى خفية. وقد إعترفا بأنهما جزء من فريق مكون من عشرين شخصا، أرسلوا من رحوبوت ، بمثل هذه المأمورية. وقد أعطى كل منهما إعترافا خطيا بيده باللغة العبرية وبإمضائه. وقد قمنا من جانبنا بالإجراءات الصحية اللازمة).

وترد هذه الحادثة في سياق مذكرات الحرب لدافيد بن جوريون من خلال النص الآتي في 1948/5/27 : (...التقطنا برقية من غزة جاء فيها: إنهم اعتقلوا يهوديين يحملان جراثيم الملاريا و أصدرنا تعليمات بعدم شرب الماء). وبمثل هذا الوصف الموجز في مذكرات بن غوريون ما يفي بالغرض لتأكيد الحادثة، لكن لا بد من الإشارة الى احتراس من كتابات بن جوريون من ذكر التفاصيل لأنه كان مدركا لمستوى المسؤولية التاريخية فيما يكتب عنه من أمور. لكن تفاصيل البرقية وخلفيتها جاءت بشكل أوسع في كتاب "يروحام كوهين"<sup>136</sup>. وبعد تحقيق القوات المصرية مع المجرمين وإدانتهم تم اعدامهما بعد ثلاثة شهور من القبض عليهما.

<sup>136</sup> يروحان كوهين، (1969) ، "في وضح النهار وظلام الليل" ، تل أبيب ، الصادر بالعبرية، ص 68-66.

في 1948/7/22 قدمت الهيئة العربية العليا في فلسطين تقريراً مفصلاً ومطولاً يقع في 13 صفحة إلى هيئة الأمم المتحدة، يتهم فيها اليهود بالتخطيط والتنفيذ وإقامة المختبرات لحرب الإبادة ضد العرب باستعمال الجراثيم والبكتيريا. ووصف التقرير سلاح الإبادة هنا بأنه : " سلاح غير إنساني". كما إتهم التقرير إسرائيل بنشر الكوليرا في مصر في خريف 1947 ،وفي سوريا في فبراير 1948<sup>137</sup>.

كتب البروفيسور سيث كاروس بحثاً مطولاً في أكثر من 220 صفحة عن (الإرهاب البيولوجي و استعمالاته منذ عام 1900). نشره مركز الحد من انتشار الأسلحة في جامعة الدفاع الوطنية بواشنطن عام 2001. عرج فيه الى استخدام إسرائيل للإرهاب البيولوجي، تحت عنوان "الإرهابيون الصهاينة"، ذكر فيه واقعة تسميم مياه عكا وغزة. وذكر أيضاً أن راشيل كاتزمان "أخت دافيد هورين"، اليهودي الذي أُعتقل في غزة سألت الضابط المسؤول عن أخيها قائلة له: لماذا سممت المياه؟، فرد عليها: ( تلك هذه هي الأسلحة المتوفرة لدينا). كما ذكر البروفيسور كاروس: إن الصحافة العالمية إهتمت بانتشار وباء الكوليرا في مصر، و نشرت حينها صحيفة التايمز اللندنية أول خبر عن ذلك في عددها الصادر بتاريخ 1947/9/26 على الصفحة الرابعة. وما أن حل شهر يناير 1948، حتى بلغت الوفيات 262ر10 شخص بسبب الوباء. و إنتشر الوباء أيضاً، ولكن على نطاق أقل، في سوريا، في 1947/12/21. وقد فرضت السلطات السورية حصاراً صحياً على القرى المتضررة، ومنعت الدخول إليها، بإستثناء أطواقم الصحية وإلإصال المياه والأغذية المعتمدة، وسجلت وفاة 18 شخص من أصل 44 إصابة. كما ذكر البروفيسور كاروس أيضاً: إن تلك المعلومات عن مصر وسوريا قدمتها الهيئة العربية العليا في فلسطين في تقريرها السابق ذكره.

فضيحة حادثة سقوط طائرة العال الاسرائيلية وتواطؤ التحقيق الهولندي حولها:

<sup>137</sup> نشر هذا التقرير الصحفي الأمريكي توماس هاملتون ، الذي حاز جوائز عدة لتحقيقاته الصحفية ، في نيويورك تايمز في 1948/7/24.

في أكتوبر من عام 1992 سقطت طائرة شحن تابعة لشركة العال الاسرائيلية على ضاحية في امستردام وسببت وفاة 47 شخص ومئات من الإصابات بالأمراض والاعراض الصحية الغامضة من مثل: (مشاكل في التنفس، وظهور بثور على الجلد، والاضطرابات العصبية وحالات من السرطان... الخ .)، وإتضح نتيجة التحقيقات بعدها: أن طائرة البوينج كانت تحمل 50 غالونا من مادة DMMP التي يصنع منها غاز الأعصاب، السارين. وهذه الحمولة كانت مُرسلة من شركة سولكاترونيك في موريسيفيل - بنسلفانيا إلى مركز البحوث البيولوجية في إسرائيل .

تكتمت حكومة هولندا على الأمر بالاتفاق مع إسرائيل، مُضحية بذلك بسلامة مواطنيها. لكن المحرر العلمي في صحيفة *NRC-HANDELSBLAD* اليومية التي تحظى بإحترام الرأي الليبرالي، واسمه كارل كنيب **Karel Knip** ، قرر التحقيق في هذا الأمر، فنشر في 27 نوفمبر 1999 واحداً من اهم التقارير عن أسلحة إسرائيل الجرثومية، مُستعيناً في بحثه بالإنترنت وبأساتذة مختصين في الأسلحة الكيماوية والجرثومية من جامعات استوكهولم وسيكس و برادفورد.<sup>138</sup> بدأ كارل كنيب باستعراض جميع أوراق البحوث المنشورة في العالم الصادرة من مركز البحوث البيولوجية الاسرائيلي منذ عام 1950، ورصد ما نُشر عن أساتذة وباحثي كلية الطب بجامعة تل أبيب ومثلها في الجامعة العبرية، فاكتشف أن معظم الباحثين يعملون بالتبادل في المركز والجامعة . كما رصد كارل كنيب منشورات وبحوث بأسماء 140 عالما، ولاحظ أنه من الصعب تتبع مواقع عملهم؛ لأنهم كانوا ينتقلون داخل إسرائيل وخارجها، خصوصا في مراكز بحوث الأسلحة الكيماوية والبيولوجية في الولايات المتحدة، مثل معهد والتر ريد العسكري وجامعة القوات المسلحة وجامعة اوتاوه ومركز البحوث البيولوجية و الكيماوية في ادج وود .

ووجد كارل كنيب: أن التعاون العلمي وثيق أيضا مع مؤسسات ومراكز وجامعات في هولندا وألمانيا وبريطانيا وكندا كان واضحا ولموسا، من خلال النشرية العلمية، وحركة الباحثين والعلماء الاسرائيلين.

<sup>138</sup> <http://www.khiyam.com/> موقع هيئة أرض فلسطين.

خلال الخمسينيات من القرن الماضي ظل إهتمام إسرائيل محصورا في تطوير اسلحة جرثومية تسبب أمراض التيفوئيد والطاعون. وتم التركيز بوجه عام على الفيروسات والبكتيريات المُمرضة التي يمكن نشرها عن طريق الجرذان والحشرات. وتطور الأمر إلى أمراض الحيوانات، وخصوصا الدواجن (التي تُؤكل). وشمل البحث أيضا مرض الجدري وأمراض الطفيليات. وهذه كلها أمراض تُسببها كائنات دقيقة، ولكنها قوية التأثير، وتصلح ان تكون سلاحا جرثوميا للإبادة وتدمير الخصوم .

توسع العمل فيما بعد الستينيات إلى تطوير إنتاج المواد السامة "التوكسينات"، حيث تبين أن لها درجة سمية أعلى بكثير من الفيروسات، ويصنع منها غازات الأعصاب مثل الطابون والسومان والساارين والعامل "في اكس" VX، وأكثر من 15 مادة سامة أخرى، ذلك كله تم بالتعاون مع وكالة الاستخبارات الأمريكية، CIA ومنها ما أُستعمل كأسلحة لتنفيذ الاغتيالات الفردية ضد الافراد المطلوب تصفيتهم . نُشير بهذا الصدد الى احد العمليات الاجرامية التي فشلت بعمان، وتم الكشف عنها واعتقال احد منفذيه من أفراد الموساد الاسرائيلي. ففي عام 1997 حاولت إسرائيل اغتيال خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس الفلسطينية في العاصمة الاردنية عمان، باستعمال السم المعروف بـ SEB0، وقد افتضح أمر الحادثة ووتر العلاقات الاسرائيلية- الاردنية، وأثار ردود فعل واسعة. حينها غضب الملك حسين غضبا شديدا لإعتداء إسرائيل على ما رآه الملك ( المس بسيادة الأردن والاتفاقيات المعقودة في مثل هذه الأحوال ) ، وقد اضطرت إسرائيل إلى تسليم الأردن الترياق الذي يلغي تأثير ذلك السم ليُعالج به السيد خالد مشعل.

على أن أحدث التطورات في البحوث الكيماوية الإسرائيلية هي في ميدان المواد التي تُسبب الشلل والتشنج والهلوسة والمغص وعدم القدرة على التحكم في الحركة والتفكير. وقد فحص المركز الإسرائيلي، في برنامج التعاون مع الولايات المتحدة ، مئات من هذه المواد، ولكن بقي استعمالها محدودا او غير معروف. ورغم تسجيل كثير من الحوادث التي تنسب إلى تخريب

وإجرام اليد الاسرائيلية كما اشرنا في كثير من دراساتنا ومقالاتنا السابقة كحادث رمي عدد من الحاويات المحملة بالمواد الجرثومية والكيميائية في نهر دجلة خلال سنوات الحصار على العراق ما بين (1991-2003) وبعدها<sup>139</sup>. كما أن هناك تقارير عديدة أخرى تُشير الى استخدامات الاسلحة الكيميائية المختلفة، كتلك التي استعملت ضد الجيش السوري من قبل القوات الامريكية ، كما أنها بدون شك استعملت في خان يونس ضد المتظاهرين في انتفاضة الأقصى . كما أن حرب غزة في بداية 2009 كشفت عن استخدامات مريبة من الاسلحة الفتاكة بنوعها الجرثومي والكيميائي وكذلك الاشعاعي.

ولا يزال الكثيرون يتذكرون صورة المصابين في المستشفيات على شاشات التلفزيون ، وهم يتلونون من الألم ويتسنجون ويتحركون لا إراديا ، وقد طلبت السلطة الفلسطينية آنذاك استقدام بعثة دولية لتقصي ماهية المادة المسببة لالام الضحايا، كما ان الكثير من الغازات المستعملة ضد المتظاهرين المدنيين الموصوفة "المسيلة للدموع"، كثيرا ما سببت الكثير من حالات الاجهاض والعقم لدى قطاعات واسعة من أبناء الشعب الفلسطيني. وفي كل مرة يطوى الأمر وتتوقف محاولات التحقيق فيها. كما يجري الآن من مواقف تجاه تقرير "كولدستون" الذي صادقت عليه اللجنة الدولية لحقوق الانسان التابعة للأمم المتحدة في منتصف اكتوبر 2009.

وللتعمية على البحوث البيولوجية لاغراض الابداء ، تُشجع إسرائيل علمائها على نشر أبحاث علمية تبدو ظاهريا بريئة المقاصد، لكي تحافظ على مكانة مراكزها ومعاهدها العلمية، وتسعى لإمكان التعاون مع مراكز مشابهة، والدعوة إلى المؤتمرات، لذلك يطلب من كل عالم من علمائها نشر بحث واحد إلى ثلاثة بحوث كل سنة في موضوعات تبدو عليها أنها بريئة المقاصد والأهداف، وخصوصا بتأكيد المبالغة في الدفاع عن قضايا البيئة ومشاكل التلويث وقضايا حماية المحيط. كذلك يسعى كل واحد من أولئك العلماء والباحثين الى تبادل المناصب وتبادل الزيارات ومنح صفة استاذ كرسي أو زائر في جامعة أخرى تقوم بأبحاث مساندة للجهد الاسرائيلي في مجال

139 العبودي في دراستين، تحت الطبع للنشر 2008 .

أسلحة الدمار الشامل، خصوصا دعم ومساندة كليات الطب وأقسام الميكروبيولوجيا في كل من الجامعة العبرية وجامعة تل أبيب. ورغم كل أساليب التكتّم والتورية فقد أصدرت الجامعة العبرية أبحاثا كثيرة عن غاز الخردل، و أصدرت جامعة تل أبيب أبحاثا كثيرة أخرى عن الجمرّة الخبيثة (انثراكس).

يدعو "كارل كنيب" في بحثه الشامل جميع الدول إلى تعقب أعمال ونشاط المركز الإسرائيلي، الذي يرأسه الدكتور "أفيجدور شافرمان"، وجميع علماء المركز، نظرا لخطورة الأعمال التي يقومون بها. ورغم ان هناك متابعة وترصد لأنشطة وأعمال مراكز البحوث البيولوجية في العالم، من مثل مركز المخابرات الطبية التابع للقوات المسلحة الأمريكية ونشاطات الأساتذة "كيث ياماماتو" في جامعة كاليفورنيا، و"جوناثان كنج" في معهد ماساتسوتش التقني في بوسطن، ولكن مثل هذا النوع من الرقابة والمتابعة لا يُطبق على أبحاث المراكز والعلماء في إسرائيل، خصوصا إذا ما كانت الرقابة أمريكية. كما أن إسرائيل لم توقع أو تصادق على ميثاق الأسلحة البيولوجية لعام 1972.

والخلاصة إن تاريخ إسرائيل مليئ بالجرائم المعروفة منها والخفية، وأخبثها استعمال أسلحة الإبادة الجماعية، وهو ما قامت به إسرائيل فعلا، سواء قبل قيامها وحتى اليوم. وإذا إستعرضنا تاريخ الخمسين سنة الماضية فيما يخص هذه الأسلحة بكل انواعها (النووية والجرثومية والكيميائية)، نجد انه باستثناء الحالات الهامة التي سبق شرحها، إن إسرائيل استعملت كثيرا من هذه الأسلحة، بصور وأشكال ومناسبات عدة<sup>140</sup>، ولكنها حرصت دائما أن لا تثير ضجة كبيرة عليها محليا أو عالميا. وأمثلة ذلك استعمالها للمواد والغازات الكيميائية في قمع المظاهرات أو ضد الطلاب والمنتفضين عند الهجوم على أي حي سكاني أو مدرسة أو مدينة، ولم تتوان عن تلويث مصادر المياه في الضفة الغربية خلال الانتفاضة، أو عند استعمالها المبيدات ضد المزروعات التي تخص أهالي عين البيضاء (1968)، وعقربا (1972) ومجدل بني فاضل

140 العبودي مراجع سابقة وكتاب بشر نعم فئران بشرية لا، 1996، دار الغرب، وهران، عدة صفحات.

(1978) وجنوب لبنان (1982) والنقب (2002) والعراق في (1991) و(2003) ، وما بين (2003-2008) <sup>141</sup> أو في تجارب إستخدام بعض المواد الفتاكة والمسرطنة ضد المعتقلين والاسرى العرب داخل المركز والمعتقلات الإسرائيلية، كما صرح بذلك عميل الموساد المنشق "فكتور اوستروفسكي".

تملك إسرائيل اليوم اكبر مخزون من الأسلحة البيولوجية والكيميائية في أوروبا وآسيا، مما يمثل خطرا داهما على المنطقة. وإذا أضفنا إلى ذلك أسلحتها النووية أيضا. ولكن ستبقى إسرائيل خارج طائلة القانون الدولي ، إلى أن تحمي الحكومات العربية شعوبها بإجراءات مضادة ، ولا تكتفي بالركون إلى العجز، الذي هو هدف إسرائيل من تسريب كثير من الأخبار عن مدى قدراتها التسليحية ، كما يجب أن تطور الحكومات العربية سياساتها بحيث يتضح لإسرائيل أنها لو استعملت هذه الأسلحة ستكون هي أول ضحاياها وأسهلها عندما يحاول العرب إمتلاك نفس الاسلحة .

## 6 - 25 : الارهاب والتهديدات البيولوجية في العالم خلال القرن العشرين:

يستدل من بيانات مأخوذة من معهد مونتوري للدراسات الدولية ان 262 حادثة بيولوجية وقعت ما بين العام 1900 ومنتصف العام 2001، من بينها 157 حادثة (أي مانسبته 60%) كانت نتيجة عمل ارهابي، و 105 حوادث (أي 40%) كانت نتيجة أعمال إجرامية، كالاقتزاز أو محاولات القتل، ولا علاقة لها بالسياسة. ويُستدل من البيانات على أن 66% من مُجمل حالات الإرهاب البيولوجي التي حدثت ما بين عام 1900 ومنتصف عام 2001 كانت خداعا أو مزاحا،

<sup>141</sup> العبودي عبد الكاظم ، الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، مرجع سابق ص 66  
القت الطائرات الاسرائيلية في الفترة من 9-22 فيفري 1991 وخلال حرب الخليج قنابل وحاويات وعبوات تشتمل على جراثيم وتوكسينات لنقل عدد من الاوبئة والامراض من خلال مياه نهر دجلة. كما استخدمت اسلحة جرثومية ضد المزروعات وخاصة بساتين النخيل في جنوب العراق. راجع نشرة دراسات تصدرها الدار العربية للدراسات والنشر والترجمة. العدد 65، القاهرة، ص 38-46، افريل 1991.  
كما القت الطائرات الامريكية في مناطق الحضر الجوي للفترة 1991-2003 شمال وجنوب العراق عدد من المواد الحارقة والتوكسينات على حقول القمح العراقية في محافظة نينوى، وعلى بساتين نخيل الجنوب. ولا تستبعد اليد الاسرائيلية عن المساهمة في مثل هذه الهجمات تحت المظلة العسكرية الامريكية راجع العبودي، اخلاقيات البحث العلمي والايخاطر الناتجة عن استخدام اسلحة الدمار الشامل، المجلة العربية للعلوم العدد 39، مرجع سابق، ص 72.

وإن 21% منها كانت تهديداً بهجوم لم يحدث، قام به أناس كانوا يملكون أسلحة بيولوجية، ويسعون الى إمتلاكها، وإن 13% فقط من تلك الحالات أستخدمت فيها عوامل بيولوجية. ومن بين الهجمات الارهابية الحقيقية التي وقعت كان 24% منها في الولايات المتحدة، إلا أن أيا منها لم يتسبب بأي وفاة، حتى منتصف عام 2001، ولكن بعض الإصابات المميتة حدثت في الشهر العاشر "أكتوبر" من العام نفسه 2001. وقد حصلت خلال الفترة المذكورة 77 إصابة مميتة خارج الولايات المتحدة، سببها الأحداث الارهابية أو الإجرامية<sup>142</sup>.

ان ما يسترعي الانتباه هنا في برامج تطوير الاسلحة الجرثومية التي جرت خلال القرن العشرين، هو أن أياً من الدول التي رعتها، لم تستخدمها سلاحاً في ساحات القتال، فهذه الكائنات البيولوجية الميكروبية، مع كونها وسائط مميتة مؤكدة، الا انها تُعتبر أسلحة ضعيفة، وذلك لأسباب عدة منها:

**اولاً:** طول فترة حضانة العديد من هذه الكائنات، مما لا يُتيح لإستخدامها تأثيراً مباشراً.

**ثانياً:** إحتمال الظن بأن الوباء الناجم عنها لم يتسبب به عدو، بل نتيجة لانتشار طبيعي للمرض.

**ثالثاً:** عدم التأكد من فعالية الحُلالات " الايروسولات" aerosols البيولوجية التي تبقى عُرضة لتقلبات الطقس المفاجئة ولهبوب الريح. لهذه الاسباب مجتمعة، لا تُعد الأسلحة البيولوجية سلاحاً فعالاً موثوقاً يسترعي الإنتباه، مثل المتفجرات القوية التقليدية. كما ان إمكانية الرد على هجوم بيولوجي بهجوم مضاد من نوعه تُعد عائقاً أمام اللجوء اليه، إضافة الى ما تنشره فكرة إستخدام الكائنات الحية لنشر المرض والعجز والموت بين الناس من نفور وإشمئزاز أخلاقي.

ومع كل هذا، فلا يظن احداً، أنه سيكون بعيداً عن أخطارها، أو قد يردع الارهابيين، (أفراداً، وحكومات، ودولاً) ، ممن لا يُقيمون أي اعتبار لوازع اخلاقي من الإقدام على مغامرات طائشة

<sup>142</sup> ايد ريجيس، 2002، (الارهاب البيولوجي، تقييم التهديد، هل ينذر الرعب البيولوجي بدمار شامل؟)، مجلة العلوم الامريكية، الطبعة العربية، الكويت، المجلد 18، العدد 4، افريل/نيسان 2002. "ايد ريجيس" ، مؤلف كتاب "بيولوجيا القدر المحتوم: تاريخ المشروع الامريكي السري للحرب الجرثومية، Holt, 1999.

كما قامت به مثلاً، أوساط من ادارة الولايات المتحدة في عهد الرئيس بوش الابن، لاجل اشاعة القلق والتخويف لتبرير شن هجمتها و حربها المعنونة "ضد الارهاب" بعد أحداث 11 سبتمبر 2001.

وتتجسد الاهداف من نشر العوامل البيولوجية أو الإعلان عن إكتشافها في بث الرعب والذعر لتمرير مخطط إرهابي أو سياسي أو إعلامي، لأن الجرائم قادرة على إحداث مستويات من القلق ترقى الى حد الهستيريا: ولأنها عوامل وكائنات لا تُرى، ولأنها تعمل ببطء وصمت وسرية مطلقة.

وتاريخ الارهاب بالعوامل الكيميائية والبيولوجية، ليس دائماً حافل بإستخدامات ناجحة، إذ لم تُسجل في الولايات المتحدة، التي شهدت ربع أحداث العالم من تلك الحالات التي أُستخدمت فيها العوامل البيولوجية سوى تسجيل حالة وفاة واحدة لروبرت ستيفنز، أحد المرسلين الصحفيين في مدينة اتلنتس بولاية فلوريدا بسبب إصابته بالجمرة الخبيثة. [تضاربت الانباء في حينها، ومنها ما اشارت الى موت 4 اشخاص آخرين] ، أي سُجلت حادثة الوفاة بسبب سلاح بيولوجي.

#### 6 - 26: توظيف الرعب البيولوجي لأغراض السياسات الاستعمارية:

مستوى الرعب الذي أحدثته حادثة موت الصحفي روبرت ستيفنز، وإصابة كثيرين آخرين في ولايات اخرى، كان أكبر بكثير من تعداد الضحايا، وقد وظفته حكومة الولايات المتحدة في حملتها الاعلامية والسياسية بشكل واسع ضد العراق في إطار ما سُمي بـ " الحرب ضد الارهاب" لاستكمال تعبئة حالة الغضب التي تلت أحداث 11 سبتمبر 2001 ، تمهيدا لغزو العراق في ربيع عام 2003.

موجة الهستيريا تلك قد وظفت إعلاميا للوصول الى مقاصد إستراتيجية لحكومة الرئيس الامريكي جورج بوش الابن عندما اندفعت موجة الهستيريا لملايين الأميركيين المدنيين لأجل شراء السيبرو Cipro "عقار معتمد لعلاج الجمرة الخبيثة" والأقنعة الواقية من الغازات، وأكدت بما لا يقبل الشك، مدى نجاح توظيف حالة الرعب البيولوجي في تحقيق أهداف الحرب النفسية،

باستخدام التهديد للبشر بأمراض الكائنات الميكروبية، وسيلةً للإرهاب الجماهيري، فمكنت الإدارة الأمريكية من تعبئة الغضب العام لشن واحدة من أكبر حروبها وغزوها لأفغانستان والعراق.

قادت أحداث الهجوم الذي وقع في 2001/9/11 على برجى مركز التجارة العالمي وعلى مبنى البنتاغون موجة من الرعب والهلع. وحال بدء خروج الأمريكيين والعالم من هول الصدمة كانت هناك تهيئة أخرى بدأ الإعلام الأمريكي يُسربها بآثاره الخوف من "إرهاب بيولوجي قادم لا محالة" لتهيئة الأذهان، إلى شئ يبدو كان مرتقبا، إن لم يكن مخططا لاستكمال التهيئة النفسية التي تمكن قادة الولايات المتحدة من خلالها شن ما يسمى حملتهم "الحرب ضد الإرهاب".

وعندما بدأ التلويع باحتمال أن يشن الإرهابيون حرباً كيميائية أو بيولوجية على المدن الأمريكية، كان هناك من يُشيع الإنطباع : بأن المؤسسات الطبية في الولايات المتحدة غير مهيئة لمجابهة، ما قد ينذر بكارثة ما، شاملة، تُلحق الأذى بملايين الأمريكيين، فتلزمهم الفراش أو تقودهم إلى حتفهم. تم توظيف الإعلام جيدا فأجج كل هذه المخاوف بتأكيد قضية وفاة الضحية الأولى في فلوريدا.

ولأهمية تسلسل الأحداث، لابد من رصدها، لتأكيد مدى السقوط الأخلاقي للمؤسسة السياسية والعلمية في الولايات المتحدة، وكذلك عدم مصداقية الإعلام الأمريكي الذي أثارها. فبعد أن تنالت الأخبار عن وصول الطرود البريدية المحملة بجراثيم الجمرة الخبيثة إلى مؤسسات وشخصيات ومكاتب هامة، كالكونغرس الأمريكي، جرت التهيئة إلى الإيحاء بأن ثمة أمر مُرتقب ووشيك قد يكون على شكل هجوم شامل تتعرض له الولايات المتحدة بسلاح بيولوجي من قبل الإرهاب.

لابد هنا من التذكير، أن الحادث الوحيد لحالة تعرض بيولوجي جرى على نطاق واسع نسبيا في الولايات المتحدة سُجل عام 1984، عندما عمدت طائفة راجنيش في ولاية أوريكون إلى تلويث الأطعمة في بعض المطاعم ببكتيريا السلمونيلا، مما تسبب في حدوث 751 حالة إسهال بين روادها، (مقابل ذلك فإن حوادث الإصابات العرضية في الولايات المتحدة الناجمة عن تناول

أطعمة ملوثة تصل الى 76 مليون حالة في السنة، من بينها 315 000 حالة إستدعت إدخال المصابين الى المستشفيات، إنتهت منها الى تسجيل 5000 حالة وفاة)<sup>143</sup> .

## **6 - 27 : وضع الاسلحة البيولوجية ما بعد احداث 11 سبتمبر 2001 :**

كانت تفجيرات 11 سبتمبر 2001 بمثابة منعطف حاد " غير العالم بالنسبة للجميع". واعتباراً من تلك اللحظات طرح المحافظون الجدد وادارة بوش: (فرضية سقوط الأسلحة البيولوجية بيد "المتطرفين" شبحاً مخيفاً). وإذا كان العالم يعرف الكثير عن الدمار الذي تسببه القنابل النووية منذ هيروشيما ونيازاكي عام 1945، فإنه لا يعرف حتى الآن بالدقة أثر الأسلحة البيولوجية وتأثيراتها القاتلة والمبيدة. ولا يزال الكثير يجهل أنه، من بين جميع الأسلحة المتوفرة، فإن تلك النوعية من الاسلحة البيولوجية يمكن أن تقترب أكبر الجرائم ضد الإنسانية .

تغلغت قضية الأسلحة البيولوجية في ثنانيا الوعي الجماعي الامريكي بعد تفجيرات 11 سبتمبر 2001 ، عندما شاع الإعلان عن وجود خطر التسمم بالجمرة الخبيثة في مختلف أنحاء الولايات المتحدة، وهي التي كانت قبل نصف قرن قامت بتجارب على الأسلحة البيولوجية عقب الحرب العالمية الثانية أولاً، ثم أثناء سنوات الحرب الكورية ثانياً .

وقد كذبت الحكومات الامريكية المتعاقبة على الكونغرس حول برنامج (ام كي - الترا)، وظللت الشعب الأميركي. وفيما هو أبعد على أمم العالم كلها، فإنها قد كذبت أيضاً حول إمكانية استخدام الأسلحة البيولوجية من قبل أي عصابة أو مجموعة إرهابية. يُضاف الى ذلك إن إدارة بوش، وفي مقتبل سنوات القرن الحادي والعشرين ظلت تتمسك بأكذوبة بالية تقول : (إن كل برنامج للحرب البيولوجية، الذي انخرطت فيه الولايات المتحدة، إنما كان دفاعياً صرفاً باستمرار). جاء ذلك على لسان وزير الدفاع عام 2001.<sup>144</sup>

<sup>143</sup> انظر: (مجلة العلوم، شبح الاسلحة البيولوجية، 1997، العدد 11، ص4) / وكذلك (مجلة العلوم، 1999، "الحرب البيولوجية ضد المحاصيل الزراعية، العدد 15، ص4.  
<sup>144</sup> غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.  
- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)

وقد نفذت الولايات المتحدة، برامج كبيرة في ميدان الأسلحة البيولوجية، بوجود رجال من امثال سيدني غوتليب<sup>145</sup>. وأثناء الفترة المشوشة التي عرفتها الولايات المتحدة بعد تفجيرات 11 سبتمبر، بسبب تزايد حالات الإصابة بالجمرة الخبيثة، برزت بعض الوقائع المزعجة بهذا الخصوص؛ فلقد تبين أنه في بعض الحالات القاتلة كانت الجراثيم المستخدمة من فصيلة، جرى إرسالها من انجلترا إلى المعسكر 12 ضمن إطار التعاون الوثيق والمستمر بين البلدين في مجال الأسلحة البيولوجية والكيميائية، لذا تغير الحديث الرسمي في التصريحات الامريكية خلال تلك الفترة؛ إذ بدلاً من تحميل المسؤولية لتنظيم القاعدة، تحدث "آري فليشر"، الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض، عن "عالم مجنون" وقال: (ربما يكون مصدر الجمرة الخبيثة هو طبيب يعمل في حقل الميكروبيولوجيا، ويمتلك مختبراً جيد التجهيز في الولايات المتحدة)<sup>146</sup>.

كانت أزمة الجمرة الخبيثة قد أثارت النقاش حول معرفة مدى حقيقة التهديد البيولوجي؛ كون أن إدارة الرئيس بيل كلينتون قد ضخمت كثيراً من ذلك التهديد. ويرى بعض الباحثين العلميين في هذا الميدان إن المقصود بذلك التضخيم الإعلامي هو لتحضير الشعب الأميركي بالإهتمام بالأسلحة الكيميائية والبيولوجية، ثم ان كلينتون نفسه هو الذي أيد إنشاء مصنع لها (المعسكر 12) في قاعدة ميلليس الجوية الامريكية.

6-28: البرنامج «كوست العنصري وسواه بين الافتراض والواقع الفعلي:

---

www.bbcarabic.com-  
www.aljazeera. net -  
<http://www.elaph.com/ElaphWeb/NewsPapers/2006/10/185138.htm?sectionarchive=NewsPapers>

<sup>145</sup> غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.  
- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)

www.bbcarabic.com-  
www.aljazeera.net -  
<sup>146</sup> غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.  
- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)

www.bbcarabic.com-  
www.aljazeera. net -

في عام 2001 نشر مركز منع انتشار تلك الأسلحة في قاعدة القوات الجوية الأميركية في ماكسويل بولاية الاباما تقريراً: أكد أن نظام التمييز العنصري في جنوب افريقيا كان قد نفذ برنامجاً يحمل اسم "كوست". كان أحد أهدافه هو اختراع "قنبلة إثنية" قادرة على مهاجمة؛ بل قتل سكان البلاد من السود من دون أن تسبب أي أذى للبيض. واجه رجال العلم ذلك المشروع بالشك في إمكانية التوصل إلى اختراع أسلحة بيولوجية ذات أهداف محددة وراثياً..

وفي عام 2003 أعلنت مجموعة ( أميركية - ألمانية) للبحث العلمي مختصة بتحليل دور علم المورثات في تصنيع نماذج جديدة من الأسلحة البيولوجية ذات الهدف المحدد إثنياً، وقيل عنه انه امر ممكن التحقيق بواسطة تقنيات جديدة تسمح بتحويل المتواليات الوراثية إلى صواعق لكل أنواع النشاطات البيولوجية. وقد أكدت التحليلات المقدمة ان "الأسلحة المحددة الأهداف إثنياً" قد لا ترمي إلى القتل؛ وإنما قد تؤدي إلى اعراض صحية مختلفة مثل : العقم أو التعب المستمر أو أية حالة أخرى غير قاضية: وإنما تكون منتقاة ومطلوبة او مرغوبة من وجهة نظر المعتدي، يمكن استخدامها خلال حرب مفتوحة في ساحة المعركة، أو ضد السكان المدنيين، كما يمكن استخدامها أيضاً في عمليات سرية، أو في حالات النزاع من اجل زعزعة استقرار مجتمع أو ضربه اقتصادياً أو إضعاف لقد استطاع مدير مشروع "سنشين" الذي تقوم به المجموعة الأميركية ان يسترعي انتباه الباحثين في ميدان علم المورثات بتحليله الذي اختتمه بالقول: (الأمر المقلق هو ان هذه الاكتشافات أصبحت قابلة للاستغلال في اطار التسليح العسكري).

هذا الاخبار وغيرها كان يجري تسريبها اعلاميا الا لأهداف مرسومة، فمثلا جرى التداول من أن نظام جنوب افريقيا العنصري قد حاول في سنوات الثمانينات اختراع قنبلة تقتل "السود" فقط. وتضيف التسريبات الاخبارية لمثل هذا الخبر: (... وإن مختبرات كوريا الشمالية قد شهدت في عام 2003 أبحاثاً مستمرة من اجل اختراع "قنبلة اثنية" أخرى، تستهدف هذه المرة ابناء العالم من العرق الأبيض).

وهكذا صنع الاعلام الامريكي في يونيو/ حزيران 2004 غولاً جرثومياً، يتربص بالولايات المتحدة هو المدعو " الدكتور ري شي " الكوري، موصوفا انه: ( يعمل في مختبره الموجود تحت الأرض، والمراقب بشكل دقيق بحيث لا يدخل إليه إي عنصر خارجي أو أي فيروس ). مكرسا وقته للعمل على انتاج القنبلة "المكرسة لقتل البيض". ويحاول الاعلام أسطرة امكانيات العدو المُفترض، في شيطنة النظام الكوري الشمالي، من خلال ما يُنشر عن مثل هذا الدكتور المجهول المدعو "ري" ووصفه: (...الدكتور "ري" يتقن اللغات الصينية واليابانية والانكليزية، إلى جانب اللغة الكورية، [بالطبع، لغته الأم]. وهو أحد العلماء الكوريين الشماليين العاملين في المشروع الأكثر سرية في بلاده إلى درجة ان السرية أصبحت جزءا من حياته؛ إذ تعلم ان يخفي عاداته ومسؤولياته وطبيعة عمله حتى عن أسرته نفسها).<sup>147</sup>.

مغامرات إعلامية أخرى مثل التسريبات بإسم الدكتور "ري" الكوري والدكتورة "رحاب

العراقية":

هل هم حقيقة علمية أم مجرد فبركة إعلامية في سياقات التحضير لـ "الحرب ضد

الارهاب"؟:

تم التهويل حول ابحاث " الدكتور العراقية رحاب " ، تماما كما جرى التهويل أيضا في قدرات الدكتور "ري" من كوريا الشمالية عن طريق تسريب الاخبار المفبركة عبر الاعلام. قرأنا الكثير من نصوص التهويل مثل هذا النص الاعلامي الذي نُشر على نطاق عالمي واسع : (...ان عملاء "سريين للغاية" يعملون لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية قد اكتشفوا انه جرى تجريب جراثيم الجمره الخبيثة للمرة الأولى في كوريا الشمالية خلال مايو 1998 على بعض السجناء في معتقل عسكري بالقرب من العاصمة بيونغ يان. كان قد جرى وضعهم في قفص واسع، ورشوا عليهم جراثيم الجمره الخبيثة . لقد ماتوا جميعهم، ثم كلفوا سجناء آخرين

<sup>147</sup> غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.  
- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)  
[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)  
[www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net) -

بنقل الجثث بعد ساعات إلى المعهد الذي كان الدكتور "ري" يعمل به. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها امام عينيه مدى الرعب الذي تحدثه الحرب البيولوجية.

لا أحد يعرف بالضبط حجم الترسانة البيولوجية الكورية الحقيقي أو الوهمي، الا من خلال ما يرسمه لها الاعلام الامريكي الذي يتحدث عنها وفق أغراض الولايات المتحدة من مثل هذا الخبر المُسَرَّب: ( .. وفي أوساط عقد التسعينات الماضي كانت كوريا الشمالية قد كدست ترسانة كبيرة من الأسلحة الكيميائية، وكانت هناك في نهاية عام 2000 اثنتا عشرة منشأة، جرى تمويلها على أنها مصانع تجارية تعمل على انتاج أنظمة لنشر الجراثيم تتضمن رؤوسا صاروخية وطائرات رش زراعي ورشاشاً محمولاً مصمماً لوضعه على ظهر شخص انتحاري). ويتم التأكيد في هذا الإطار: ( ... ان حوالي ثلاثين ألفاً من الباحثين البيولوجيين قد قدموا من بلدان الكتلة السوفييتية بعد انهيارها للعمل سراً في البرنامج البيولوجي لكوريا الشمالية). .

ومثل هذا النص لا يحتاج برأينا الى تعليق؛ فهو يحقق لناشريه نشر الرعب البيولوجي، لا في آسيا؛ بل في العالم كله. كما أن تضخيم قدرات العدو وابتغاء محدد للأسماء والبلدان تتضمن دعوة الى عنصرية العلم في تطبيقاته العسكرية وكأنه يرمي الى إستهداف البيض، وهو في ذات الوقت يبييت الأهداف الإستباقية لضرب هذا العدو المصنف والمتداول إعلامياً ضمن دول " محور الشر".

وهكذا تكتمل اسطورة صنع مثل هؤلاء العلماء إعلامياً، وتوضع نهايتهم أيضاً وفق سيناريوهات مُعدة مسبقاً لكل حالة بالتزامن مع ظرفها السياسي، كما هي حالة الدكتور "ري" الذي تم وضع لنهاية أسطوره بتسريب الخبر التالي : (في نهاية عام 1999 كان الدكتور "ري" قد التقى بباحثة في ميدان المورثات هي "ياي يونغ سو" التي كانت تعمل في إدارة أكاديمية العلوم الكورية الشمالية والمقربة من "كيم يونغ ايل"، الذي خلف والده على الحكم عام 1994/ قد أخبرت الدكتور "ري" في ذلك اللقاء انه قد جرى تعيينه مديراً لمشروع جديد، هو تصميم سلاح يستهدف حصراً "العرق الأبيض من سكان العالم".

وبعد أربع سنوات كان الدكتور "ري" قد صمم [حسب الروايات الامريكية] على الانتقال إلى معسكر "العدو" وان يحمل معه البراهين الداعمة، لما سيكشف عن الاعمال التي تقوم بها كوريا الشمالية في ميدان الأسلحة البيولوجية، لكنه لم يتحدث حتى يونيو 2003 لأي إنسان عن سر قراره الهرب إلى الولايات المتحدة سوى لشخص واحد، هي زوجته "شينغ لي"، بينما لم يتم اطلاق ولديهما المراهقين على ما كان يتم إعداده إلا في اللحظات الأخيرة من أجل الهرب خارج كوريا). (ولم يطلع الدكتور "ري" وزوجته على الوثائق التي جلب صور منها من مخبره والتي كانت تبلغ حوالي سبعمئة صفحة من الأبحاث. وقد كان بعض من تلك الوثائق يخص البرنامج الذي كان يربط بين كوريا الشمالية وجنوب افريقيا... كان مدير ذلك البرنامج هو "ووتر باسون"، رجل العلم الموهوب، قاسي القلب، الذي لا يولي الأخلاق أي اهتمام، كانت قدرته على انتاج الأسلحة البيولوجية قد جعلت منه "تلميذا" للشيطان كما يقال، يعمل على الجانب الأكثر شراً في التمييز العنصري "الابارتهويد"، حسب تعبير الكاردينال "توتو"، الافريقي الجنوبي، صاحب الشهرة العالمية، وكان ذلك البرنامج الذي يحمل تسمية "كوست" يختبئ خلف شركات - وواجهات تزعم أنها كانت تقوم بأبحاث مشرفة، يبحث عن اصطياد الأخبار العلمية في جميع ارجاء العالم).

وهكذا فان مثل هذه التسريبات الاعلامية هي جزء أساسي من الحرب النفسية لتشيويه بعض المقاصد السياسية وللابتنزاز الاخلاقي للدول باسم "الارهاب البيولوجي"، حتى ولو أساءت هذه التسريبات لمصداقية العلماء الامريكيين خاصة عند إشراك بعض الاسماء العلمية والباحثين والمؤسسات في ندوات ومؤتمرات وحلقات نقاش على الفضائيات وتوظيفهم لصالح تحقيق الهدف المطلوب أمريكيا. ومنها مثل هذا النص المشوق للقراءة لاتهام اطراف دولية كجنوب افريقيا ودفعها للتعاون الامني والعلمي مع الولايات المتحدة في حملة ظاهرها "الحرب ضد الارهاب"، ولكنها تخفي دوافعها الحقيقية لتجنيد العديد من العقول العلمية بنفس المشروع

المستهدف اعلاميا عند الخصوم مثل كوريا او ايران او سوريا او العراق او ليبيا مثلا وحسب الدور والظرف الذي تنظم به الحملة الاعلامية والسياسية. لنقرأ هذا النص :

( ...المقابل كانت هناك شخصية مرموقة تستعد للتعاون مع جنوب افريقيا وكوريا الشمالية تتمثل في الدكتور "لاري فورد"، عضو الهيئة العلمية في جامعة كاليفورنيا ببلوس انجلوس . لم يكن هناك في سلوكه المدروس مع مرضاه او في زيه ما يمكن ان يوحي بأنه كان في الواقع "رجلاً شريراً يستحق ان يكون احدي شخصيات الروايات البوليسية التي تقطع الأنفاس الموجودة في غرفة الانتظار"، لقد كانت له علاقات وطيدة مع "ووتر باسون" الذي ربطه بصلات مع باحثين كوريين شماليين وإذا كان يعمل لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، كما قيل فيما بعد، فإن جميع البراهين على ذلك قد جرى اتلافها بعناية).<sup>148</sup> (...بالتأكيد لم يكن أي من المرضى الذين عالجهم الدكتور لاري فورد قد شك للحظة واحدة انه كان ينقل بين أمتعته اثناء أسفاره إلى جنوب افريقيا سموماً قاتلة، ثم كيف كان يحصل عليها؟ ومن الذي كان يسمح بإخراجها من الولايات المتحدة الأميركية؟ ثم من كان يستخدمها في نهاية المطاف؟. إنها مجموعة من الأسئلة التي يصيغها مؤلف هذا الكتاب كي يشير بعد ذلك إلى ان الدكتور " لاري فورد " قد أخذ جميع هذه الأسرار معه إلى القبر.

غالبا ما تنتهي حياة مثل هؤلاء الابطال المغامرين في الاشتراك بالسيناريوهات الامريكية بالانتحار. اما اسباب وتوقيت واماكن موتهم، فغالبا ما تغطيها الاخبار بشكل ضبابي ومشكوك فيه ومتقطع ومناسباتي وغامض تماما.

و إذا كان الدكتور "لاري فورد" قد انتحر في ربيع عام 2000، وسط ضجة اعلامية، فان التسريبات الاعلامية التي يسمح بها المحققون في حالة "لاري فورد" مثلا في كاليفورنيا تستهدف إثارة قلق الرأي العام الامريكي، عندما يذكر مثلا: ( .... بعد انتحاره وجدوا في ثلاجته

<sup>148</sup> غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.  
- موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت [www.cnn.com](http://www.cnn.com)  
[www.bbcarabic.com](http://www.bbcarabic.com)  
- [www.aljazeera.nnet](http://www.aljazeera.nnet)

"عددا من القوارير التي تحتوي على كميات من السموم" تكفي لتسميم الولاية كلها تقريبا).  
وعندها يجب أن نُدرك أن الأمر، لم يكن يتعلق بحادث انتحار عادي لشخص، كما ينقل الاعلام  
عن أحد رجال الشرطة حرصه تسريب "معلومة" مفبركة من مثل: (...كانت تلك القوارير تحتوي  
على «مزارع» لجراثيم الكوليرا والتيفوس ... الخ) من تلك الحكايات شبه الاسطورية التي تتحدث  
عن عالم بيولوجي، يملأ ثلاجة منزله بالجراثيم والفيروسات القاتلة وعوامل الابداء.  
ان هدف نشر حكاية الدكتور "ري" عالم الابحاث البيولوجية بكل تفاصيلها حتى خبر محاولة  
هربه واعتقاله ومحاولة عادته الى بلاده او اللجوء السياسي في بلاد أخرى كالصين، انما يُقصد  
به استهداف كوريا الشمالية او الصين، سواء كان الدكتور "ري" وامثاله حقيقة هم من الأحياء ام  
الأموات أم انهم من صنع الخيال الاعلامي.

#### 6-29 : الارهاب البيولوجي في ممارسات اجهزة الدولة العظمى:

بعد شهر واحد من إحداه سبتمبر وخلال أكتوبر 2001، كانت الحرب البيولوجية  
والاعلامية ضد "مجهول" تلعب دورها في شحن الرأي العام في الولايات المتحدة . وفي الوقت  
الذي كانت فيه الولايات المتحدة والعالم تحت تأثير صدمة تفجيرات 11 سبتمبر، تصاعدت حملة  
وحالة من القلق العميق عندما تتالت الإنذارات التي لم تقطع عن وسائل الاعلام عن أخطار  
توزيع مسحوق لجرثومة الجمرة الخبيثة "الانثراكس" السام عبر البريد مستهدفا شخصيات  
ومؤسسات هامة كالكونغرس الامريكي وعدد من الصحافيين والاعلاميين.

أعلنت وسائل الإعلام الأمريكية في الأول من آب/أغسطس 2008 عن إنتحار العالم  
الأمريكي المتخصص في مجال الأسلحة البيولوجية "الجرثومية" "بروس إيفنز" ، الذي كان  
يعمل في مختبرات حكومية للأسلحة الجرثومية في فورت ديريك. وفور إعلان وفاته أصدرت  
وزارة العدل الأمريكية بيانا قالت فيه إن العالم " بروس إيفنز" كان المتهم الوحيد في سرقة  
الأنثراكس من مستودعات الجيش وإستخدامه في هجمات رسائل الأنثراكس التي حصلت في

ثلاث مدن أمريكية، بعد ثلاث اسابيع من هجمات الحادي عشر من أيلول 2001، والتي قتلت خمسة مدنيين أمريكيان واصابت العشرات.

وأضافت وزارة العدل الأمريكية أنها ستغلق ملف هجمات الأنثراكس لوفاة المتهم الوحيد فيها. وبإعلان قضية انتحاره غُلق ملف هجمات الأنثراكس، لأجل دفن واحدة من أخطر عمليات الإرهاب والقتل الجماعي وجرائم الحرب التي قامت بها إدارة بوش ضد شعبها والشعوب الأخرى. فالأنثراكس أو الجمره الخبيثة هو سلاح تدمير شامل محظور بموجب معاهدة عام 1972 التي وقعت وصادقت عليها الولايات المتحدة. وإقرار الولايات المتحدة أن الأنثراكس جاء من مستودعات جيشها، إنما هو إقرار منها أنها تخرق إلتزاماتها بموجب المعاهدة. أما إتهامها أحد علمائها بشن هجمات رسائل الأنثراكس فهو محاولة لدفن الحقيقة، فالدلائل تشير الى أن هذه الهجمات لم تكن عملا منفردا قام به عالم من اجل الترويج للقاح مضاد للأنثراكس، مثلما يدّعي المحققون الأمريكيان، بل كانت عملا إرهابيا خططت له ونفذته الأجهزة الإستخبارية الأمريكية لتبرير أعمال عدوانية لاحقة من بينها العدوان على العراق وأفغانستان<sup>149</sup>.

ومن أجل تثبيت الركن المادي في جريمة الإدارة الأمريكية بإستخدامها سلاح دمار شامل ضد شعبها، فهي دعوة الى ضحايا هذا العدوان، من أمريكيين وعراقيين وأفغان، "رسائل الإنثراكس" تلك، أصابت العشرات من المواطنين الأمريكيان بمرض الجمره الخبيثة، بضمنهم 31 موظفا في الكونجرس. توفي خمسة من المصابين، من بينهم الصحفي روبرت ستيفنز. كما أدت هجمات الأنثراكس الى إغلاق مبنى الكابيتول، مقر الكونغرس الأمريكي ومبنى المحكمة الإتحادية لمدة إسبوع لتعقيمها من الإنثراكس.

بعد اسبوع من أحداث 11 أيلول 2001، وتحديدا في 18 سبتمبر/أيلول 2001، أودع مجهول رسالتي أنثراكس في إحدى دوائر بريد ولاية نيو جيرسي الأمريكية، إحداهما موجهة الى الصحفي

149 الجصاتي عبد الواحد لماذا إستخدم بوش سلاح تدمير شامل ضد شعبه 2008/8/10 شبكة البصرة 10 شعبان 1429 / 11 آب/اوت 2008.

"توم بروكاو" من شبكة NBC الإخبارية والثانية موجهة الى صحيفة نيويورك بوست. وفي 2001/10/3 وصلت رسالة أنثراكس الى "روبرت ستيفنز" الصحفي في صحيفة الشمس في فلوريدا. وفي 2008/10/9 وجهت رسالتنا انثراكس الى مكتبي السيناتور "توم داشيل" رئيس الأغلبية في مجلس الشيوخ الأمريكي والى السيناتور "باتريك ليهي" .

وجرى تلقيح 200 موظف في الكونغرس بجرعات المضادات الحيوية كإجراء احترازي. وخلقت هجمات الأنثراكس حالة من الرعب والهلع لدى الشعب الأمريكي الذي رأى نفسه فجأة مستهدفا في عقر داره وبأبشع سلاح هو السلاح الجرثومي.

### 6 - 30 : الإدارة الأمريكية هي التي إستعملت سلاح دمار شامل ضد شعبها؟

ولماذا الأنثراكس بالذات؟ :

أولا: حصول هجمات بالأسلحة البايولوجية ضد المدنيين الأمريكيين هو أفضل سيناريو لإقناع المواطنين والمشرعين الأمريكيين بفرضية : (..أن برامج أسلحة الدمار الشامل لدى الدول "المارقة" تمثل خطرا داهما على الأمن القومي الأمريكي، حتى وإن كانت هذه الدول تبعد عشرات الآلاف من الكيلومترات عن الأرض الأمريكية، كون هذه الدول "المارقة" قادرة على تزويد المنظمات الإرهابية بهذه الأسلحة لضرب العمق الأمريكي في أي وقت وفي أي مكان).

ثانيا: تثبيت هذه الفرضية سوف يبرر اللجوء الى "الحرب الإستباقية"، خارج الشرعية الدولية. ومعلوم أن ميثاق هيئة الأمم المتحدة حرّم جميع الحروب عدا الحرب الدفاعية؛ تشريعا لحق الدفاع المشروع عن النفس، أو تلك التي تجري بموافقة مجلس الأمن وتحت علم الأمم المتحدة. وبغطاء تشريع "الحرب الإستباقية"، يعني أن أمريكا لن تكون بحاجة لإستصدار قرار من مجلس الأمن يخولها إستخدام القوة، وسيعطيها العلوية على ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي ويخلق قواعد جديدة في إستخدام القوة في العلاقات الدولية، حيث تصبح الحروب العدوانية بموجبها حروبا مشروعة، وهذا بالضبط ما سعى اليه المحافظون الجدد من أجل جعل القرن الحادي والعشرين قرنا أمريكيا.

ثالثاً: خلق القناعة بأن إستخدام "الدول المارقة" أسلحة الدمار الشامل ضد المدنيين الأمريكيين يوفر غطاء قانونياً وأخلاقياً، ليس فقط لغزو هذه الدول، ولكن أيضاً لإستخدام أسلحة الدمار الشامل، وفي مقدمتها الأسلحة النووية، ضد هذه الدول. ومعلوم أنه في ظل توازن الرعب النووي يصعب على دولة نووية إستخدام هذه الأسلحة ضد الدول الأخرى، لأنه يفتح الباب أمام الآخرين لإستخدامها، وتحصل المحرقة النووية، ولذا فإن إدعاء أمريكا أنها كانت ضحية إستخدام أسلحة دمار شامل سيبرر لها إستخدامها للأسلحة النووية.

هذا المفهوم عمل عليه الرئيس جورج بوش الابن، ومعه مجموعة المحافظين الجدد منذ وصولهم للحكم، حيث تبنوا سياسة نووية جديدة تحول بموجبها الترسانة النووية الأمريكية من سلاح ردع إلى سلاح ميداني يمكن استخدامه لإجهاض هجوم محتمل بأسلحة الدمار الشامل على أمريكا. بعد أحداث 2001/9/11 سعى المحافظون الجدد لإصدار قوانين وتشريعات تحدّ من الحريات الشخصية للمواطنين الأمريكيين، وتزيد من صلاحيات قوى الأمن الداخلي، من دون العودة للسلطة التشريعية أو القضائية : كالتنصت على الهواتف والانترنت والتفتيش والإعتقال بدون اذن قضائي وإيقاف العمل بالقانون الدولي الإنساني وإتخاذ إجراءات تعسفية ضد المهاجرين.

جوبهت مشاريع القوانين هذه بمعارضة الكونغرس الأمريكي، وكانت هجمات الأنثراكس على المدن الأمريكية وعلى الكونغرس نفسه، هي الحدث المثالي الذي أسكت المعارضين من النواب وغيرهم، وسمح بتمرير العديد من القوانين والتشريعات المخالفة للدستور الأمريكي ومنها قانون مكافحة الإرهاب المسمى "القانون الوطني" الذي أقرّ في 2001/10/26. وتجدر الإشارة هنا الى أن السيناتور داشيل رئيس الأغلبية في مجلس الشيوخ الأمريكي كان من أشد معارضي هذه القوانين قبل وصول رسالة الأنثراكس الى مكتبه، لكنه غير رأيه بعد ذلك.

أما لماذا أختير الأنثراكس دون سواه من أسلحة الدمار الشامل، فالسبب هو إن الإدارة الأمريكية قررت أن يكون العراق هو الهدف التالي للغزو بعد أفغانستان، وإن أفضل سلاح دمار

شامل يمكن إستخدامه ضد المدنيين الأمريكيين وإتهام العراق به هو الأنثراكس. فالرأي العام الأمريكي الذي سبق تعبئته بقصص وأهوال عن مخاطر الإنثراكس العراقي، وسبق وأن أعلن وزير الدفاع الأمريكي السابق وليم كوهين "بأن العراق قادر على تسميم نصف واشنطن". كما أن رئيس المفتشين السابق ريتشارد بتلر ذكر في آخر تقاريره عام 1998 "بأن الأنثراكس هو أحد أخطر القضايا المتعلقة في البرنامج البايولوجي العراقي الذي وصفه بـ "الثقب السود Black Hall"، تشبيها له بالظاهرة الفلكية التي حيرت علماء الفلك في حجمها وتأثيرها على بقية كواكب الكون.

#### الأدلة التي تثبت مسؤولية الإدارة الأمريكية عن هجمات الأنثراكس:

إن الحقائق المذكورة في الفقرة السابقة ترجح مسؤولية الإدارة الأمريكية عن هجمات الأنثراكس وفق قاعدة "إذا حصلت جريمة فابحث عن المستفيد"، وتُدرج في أدناه أدلة وقرائن إضافية تثبت هذه المسؤولية:<sup>150</sup>

1 - لو كانت هجمات رسائل الأنثراكس عملا فرديا قام به عالم يسعى للترويج للقاح الأنثراكس، ولما احتوت على بيان مكتوب بخط اليد، وبإنجليزية ركيكة، يتضمن هجوما على أمريكا وإسرائيل لإعطاء الإنطباع بأن مرسلها مسلم، ومن تنظيم القاعدة. وأدناه صورة البيان :

150 الجصاتي عبد الواحد لماذا إستخدم بوش سلاح تدمير شامل ضد شعبه.  
شبكة البصرة 10 شعبان 1429 / 11 آب 2008.

09-11-01  
THIS IS NEXT  
TAKE PENACILIN NOW  
DEATH TO AMERICA  
DEATH TO ISRAEL  
ALLAH IS GREAT

09-11-01  
YOU CAN NOT STOP US.  
WE HAVE THIS ANTHRAX.  
YOU DIE NOW.  
ARE YOU AFRAID?  
DEATH TO AMERICA.  
DEATH TO ISRAEL.  
ALLAH IS GREAT.

صور للوثائق التي سربت وأرسلت مع طرود الجمره الخبيثة في الولايات المتحدة الأمريكية.

صرح بوش يوم 2001/10/16. قائلا: (... ليس لدينا المعطيات الثابتة، لكن من الواضح أن بن لادن هو الرجل الشرير، ولا أرى سواه يقوم بهذا العمل)، كما هدد في تصريحه يوم 2001/10/17 الى أن هذه الهجمات سيرد عليها عسكريا بقوله : (سنحارب الإرهاب، وقد إدعى مكتب التحقيقات الفيدرالي أن العالم الأمريكي إنتحر بأخذ جرعة زائدة من الأسبرين، ولم يقدم دليلا يؤكد فرضية الإنتحار. ومن مراجعة سجل المؤسسات الإستخبارية. الجدير بالذكر أن الإدارة الأمريكية وضعت العالمين "بروس إيفنز" والعالم "ستيفن هاتفيل" في دائرة الإتهام، وفي وقت لاحق برأت العالم "ستيفن هاتفيل"، ودفعت له مبلغ ستة ملايين دولار كتعويضات عن الأصرار النفسية التي سببتها له هذه الملاحقة. وبقي العالم " بروس إيفنز" المتهم الوحيد في القضية، حتى إنتحاره المزعوم أخيرا في الاول من اوت/آب 2008.

لم تكلف الإدارة الأمريكية نفسها منذ حصول الهجمات، أي منذ ثمان سنوات، فحص بصمات وخط يد بروس إيفنز" لمعرفة هل إن الرسائل كتبت بخط يده أم لا. وإذا كانت بخط يده فلماذا لم تعتقله، وإذا لم تكن بخط يده فكيف يكون هو المتهم الوحيد؟ . لفقت الإدارة الأمريكية وثائق وأحداث عن علاقة العراق بالقاعدة منها لقاء مزعوم في حزيران 2000 بين دبلوماسي عراقي في براغ، ومحمد عطا، قائد المجموعات التي نفذت هجوم 9/11، ومنها أيضا ما فضحه مؤخرا الكاتب "فيرون سوسكايند" في كتابه (طريق العالم)، الصادر في آب/2008 والذي قال أن المخابرات الأمريكية زورت رسالة بخط اليد موجهة من طاهر جليل الحبوش مدير جهاز المخابرات العراقي الى الرئيس صدام حسين بعلمه فيها ان محمد عطا تدرّب في العراق على تنفيذ هجمات أيلول 2001.دون أن تسعى الحكومة الأمريكية لتطمين الشعب الأمريكي بأن الأمور تحت السيطرة. أعلن السيناتور "ليهى" يوم 2001/10/27 أن الأنثراكس الذي إحتوته الرسالة الموجهة الى مكتبه كان يمكن أن يقتل مائة ألف شخص 14 هذا لم يحصل وحصل العكس تماما، فقد أطلقت الحكومة الأمريكية ووسائل إعلامها حملة لتضخيم مخاطر هذه الهجمات، وتركت الشعب الأمريكي في إلتباس تام وخوف وهلع مطلق. وأخذت رسائل الأنثراكس مداها

الكامل في خلق حالة الرعب لدى الشعب الأمريكي. وأدناه نماذج من هذه التصريحات والمواقف<sup>151</sup> : وترجمة البيان هي: تستغرق الحرب ضد الإرهاب أكثر من عامين. فهناك عدة جهات، وطالما ان هناك احدا يقوم بترهيب حكومات قائمة فان الحرب ستكون ضرورية). صرح "جيمس وولسلي" مدير المخابرات الأمريكية السابق يوم 2001/10/18 قائلاً (إستطعنا ردع صدام عن إرسال صواريخه محملة بالأسلحة البايولوجية إلينا، لكنه أرسل إلينا أسلحته الجرثومية بدون وضع عنوان المرسل). ذكرت صحيفة أوبزيرفر بعدها يوم 2001/10/14 إن (المتشددین في البيت الأبيض يضغطون من أجل توجيه ضربات ضد العراق)، وأضافت أن المحققين الأميركيين (يعتق رسائل الأنثراكس تحمل علامات هجوم إرهابي، ويعتبرون العراق المتهم الرئيسي والمصدر الأساسي للمادة القاتلة).

---

151 الجصاني عبد الواحد، لماذا إستخدم بوش سلاح تدمير شامل ضد شعبه  
شبكة البصرة 10 شعبان 1429 / 11 آب 2008.

## الباب الثالث

### الفصل السابع

#### 7 - الإبادة وصراعات الهوية والثقافة والوجود

#### في ظل العولمة

#### المستقبل والسلام

## الفصل السابع

### 7 - الإبادة وصراعات الهوية والثقافة والوجود

#### في ظل العولمة

#### المستقبل والسلام

##### 7-1 : أخلاقية القوة الغالبة:

ربما يُسَطِّح البعض الأحداث، ويعتبر حملة المحافظين الجدد على العالم الإسلامي قد بدأت كرد فعل مباشر بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001؛ لِيَتَّخِذ رد الفعل طابع العدوان المسلح وشن الحرب والغزو طابعا رسميا، دشنته القوة العظمى في العالم بحملة سُميت "مكافحة الارهاب" ومن دون الحصول على موافقة دولية من مجلس الأمن أو الامم المتحدة.

وعند استبعاد فكرة وفرضية يائسة، ترى أن ما جرى: (سوى حادث او طارئ في سير العولمة)، وهي ايضا حسب "جان بودريار"<sup>1</sup> : (... إن ما جرى آنذاك أمر خارق وإنكاره؛ هو بمثابة إقرار بأن لا شيء، من الآن فصاعدا، قد يُشكل حدثا، وإنما منقطعون لمنطق قوة عالمية، لا صدع فيها، قادرة على إمتصاص كل مقاومة، كل تعارض، لا بل تجعله داعما لها- باعتبار ان العمل الارهابي إنما يُسرّع إحكام السيطرة العالمية لقوة ما ولفكر وحيد...تواجه هذه الفرضية صفر بالفرضية القصوى، أي الرهان الأقصى على الطابع الحداثي للحادي عشر من سبتمبر. بحسب الفرضية صفر، يبدو ان الحدث الإرهابي بالغ الدلالة؛ إذ كان ينبغي الا يكون. وفي العمق، هو ليس كائنا بمنظور الفكرة القائلة إن "الشر" ليس سوى وهم أو حدث طارئ في مسار الخير، أي والحالة هذه، في مسار النظام العالمي والعولمة السعيدة، فلطالما بُني اللاهوت على لا واقعية الشر بما هو

<sup>1</sup> بودريار جان ، مقالة جحيم السلطان، ضمن كتاب (ذهنية الارهاب، لماذا يقاتلون بموتهم) تأليف مشترك له مع جاك دريدا و إد فوليامي و امبرتو إيكو، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص(105) - (132).

كذلك. فرضية اخرى: إنهم انتحاريون معتوهون، مُضطربوا الشخصية أو العقل، متعصبون لقضية ضالة، هم أنفسهم، مُضللون من قبل قوة شريرة دأبها استغلال مشاعر الكراهية والحقد لدى شعوب مُضطهدة تلبية لرغبتها الجامحة في الثأر، الفرضية نفسها، ولكن أكثر إيجابية هذه المرة، هي التي تحاول ان تضي على الارهاب ما يُشبه العلة التاريخية: تلك التي ترى في العمل الارهابي تعبيراً حقيقياً عن يأس الشعوب المضطهدة"<sup>2</sup>..). بعد هذا العرض لـ "بودلايار" يصل الى النتيجة التالية ليقول: (... وحتى لو سلمنا جدلاً بأن الارهاب هو شكل متعين من الاختجاج السياسي على النظام العالمي، فإنما نفع، بعامة لكي نشير الى إخفاقه، وتالياً، الى تبعاته المضللة المتمثلة بترسيخ النظام العالمي، من دون قصد، ه تلك صيغة "أرونداتي روي"، التي عبر تنديدها بالقوة المهيمنة، إنما تندد بالارهاب، بوصفه توأمها، أي التوأم الشيطاني للنظام. من هنا ينبع الاعتقاد بأنه لو لم يكن الارهاب موجوداً، لكان النظام قد اخترعه...، ولم لا تكون هجمات الحادي عشر من سبتمبر من صنع الاستخبارات المركزية الامريكية CIA<sup>3</sup>.

لذا فان إعادة النظر بأنماط تفكيرنا وآليات ذهنياتنا وفق ما يسمى: "الهندسة البنائية للهوية"، ومراجعة القدرات الذاتية، وفق المعطيات الأنثروبولوجية المطروحة حولنا، سيفيدنا حتماً في إدراك خصوصيتنا كعرب ومسلمين، في إطار وحدة التنوع الثقافي العالمي؛ كما أن مراجعتنا وفق معطيات علم النفس الاجتماعي ستكشف عن تلك الأسباب اللاواعية الثاوية التي تُؤطر أزمة التواصل الثقافي الحضاري بين دول الشمال والجنوب، ونحن منهم، والتي تأخذ صبغة انفجارات فجائية: عرقية، دينية، عصبية، وعدوانية، وصلت إلى شن الحروب الدموية والإبادات الوحشية في العديد من بلداننا (لنتذكر فقط وعلى سبيل المثال، ما حدث في البوسنة، أو في الشيشان، أو في الجزائر، أو ما أحدثه نظام الفصل العنصري البائد في جنوب إفريقيا "الأبارتيد"، أو ما يحدث حالياً

<sup>2</sup> بودريار جان ، مقالة "جحيم السلطان"، المرجع السابق.  
<sup>3</sup> بودريار، ذهنية الارهاب، مرجع سابق، ص 106.

في كل من العراق وفلسطين والصومال ولبنان، من انتهاكات قانونية ومجازر فظيعة تقشعر لها الأبدان وتتوقف عن استيعابها العقول)<sup>4</sup>.

إن الحقيقة الصادمة والمخيفة لعصرنا، والتي تدخل ضمن تأزمات الهوية الثقافية والحضارية وصراعاتها الدّموية أيضاً، هي تلك، التي عبر عنها بعض علماء السياسة والفلسفة الغربيين الذين نظّروا لمفهوم الإبادة، من مثل "زيغmond بومان" و"والتر لاكور" و"حنّه أراندت"، حين أعلنوا أن الحضارة المعاصرة تحمل في طبعها وجوهرها وديناميتها، سمات يمكنها ضمن ظروف وزمان محددين أن تولد فعل إبادة.

قبل سنة من احتلال العراق، وبالضبط في 15 فيفري 2002 بورك الغزو والمجازر التي قامت بها قوات الولايات المتحدة وتحالف حلف الناتو لأفغانستان من خلال بيان وقعه نحو ستين مثقفاً وجامعياً ومفكراً أمريكياً<sup>5</sup>. ونشرت ترجمتها في جميع لغات العالم، ومنها اللغة الفرنسية [نشرتها صحيفة لوموند الفرنسية في عددها الصادر في 15 فيفري/شباط 2002]، حملت عنواناً: "رسالة من أمريكا، مبررات معركة". جاءت بهذا الاستهلال: (...تتويجا لإنجازات الولايات المتحدة في أفغانستان)، هكذا وصفت، ثم جرى مثل هذا التأييد والمباركة من "المؤسسة الفكرية" الأمريكية في ظل وقع وقعقة السلاح في أفغانستان، وتوافد وصول "العقب الحديدية" للقوات الأمريكية، وهي تتأهب لغزوات أخرى، كانت مبيتة إنطلاقاً من سواحل الخليج العربي لغزو العراق. حينها كانت الملايين من جماهير مدن العالم، بتصدر أبرز نخبة الفكرية والسياسية والاجتماعية تطالب الرئيس الأمريكي، وتحذر بوش بعدم شن الحرب على العراق.

<sup>4</sup> جاسم عبد العزيز، "الهوية والإبادة والتنوع الثقافي، - 17 يونيو - 2004 .

[http://www.grenc.com/show\\_article\\_main.cfm?id=286](http://www.grenc.com/show_article_main.cfm?id=286)

<sup>5</sup> ذيلت الرسالة بتوقيع مجموعة من يساريين، وليبراليين، ينتمون إلى المذاهب جميعها، إلى عدد من العلمانيين والملحدين الأمريكيين، ومبشرون بنهاية التاريخ "فرنسيس فوكوياما، وبصراع الحضارات" صموئيل هنتغون"، وميكانييل فالترز، مبتكر السؤال "حول حقيقة وجوب حروب عادلة وأخرى غير عادلة" نفسه في أحد مؤلفاته السابقة 1992.

جاءت "رسالة المثقفين الامريكين"، في عُمره ذلك التجاذب العالمي المحتدم، وانتفاضة الرأي العام العالمي ضد شن الحرب على العراق وخلال ذات الفترة من التجاذب الأمريكي - الأوربي حول مشروعية أو عدم مشروعية الحرب على العراق. ويبدو ان رسالة "النخبة الامريكية" جاءت كرد على بيان الـ "113 مثقف فرنسي"، الذي سبق نشره قبيل بدء الهجمات الأمريكية على أفغانستان والذي جاء فيه: ( ان مثل تلك الحرب الوشيكة لا تأتي طلبا للعدالة؛ بل طلبا للنثار، ما يجردها من أي سمة أو تبرير "اخلاقي" مزعوم"<sup>6</sup>.

مما لاشك فيه إن رسالة "المثقفين الأمريكيين"، [ام ينبغي القول انهم خبراء ومستشارون، بحسب التسمية الجديدة للمثقف العولمي] جاءت متأخرة عن لحظة احتدام السجال آنذاك بين المثقفين الفرنسيين، من "دعاة الحرب العادلة" على الإرهاب، الذين يصفون أنفسهم المدافعين " عن قيم الديمقراطية الغربية"، وبين أقرانهم الأمريكيين على الضفة الأخرى للأطلسي من: (دعاة شن حرب لا هوادة فيها على " الإرهاب" ممثلا بالدول التي ترعاه)<sup>7</sup>.

كان حرص هؤلاء لم يكن أقل من حرص نظرائهم الأمريكيين في لفت الرأي العام الى "ضرورة التمييز" بين الواجب الأخلاقي الذي يملي الفصل التام والمبرم بين "الإرهاب" والدين الذي ينتمي إليه "الإرهابيون" فيزعمون انهم يصدرن في ما يفعلونه من تعاليمه، او من فهمه لطبيعة الصراع الدائر في العالم.

مثل هذا التعليل إذ تستعيده "رسالة المثقفين الامريكين"؛ وهم يصرون على كونها "رسالة"، وليست بياناً، لما جاء في الرسالة من أسرار وحميمية، لا يضعان مقولاتها في إطار السجال الذي يفترضه كل بيان سياسي أو ثقافي، ليضع مجددا التساؤل عن النوايا الكامنة وراء "زلات لسان" الرئيس الاميركي جورج بوش، غداة الهجمات على واشنطن ونيويورك خلال حديثه عن "حرب صليبية"، أو عن "الخير الذي سينتصر حتما على الشر"، في جمل ما لا تُعد، عند البعض، مأخذاً،

<sup>6</sup> بودريار، ذهنية الارهاب، مرجع سابق، ص 136.

<sup>7</sup> بودريار، ذهنية الارهاب، المرجع السابق.

لأنه يرون في ذلك انه جاء عفويا، أو من قبيل ردة الفعل، الذي لا يبدل شيئا من الحسابات السياسية الاستراتيجية الأمريكية<sup>8</sup>.

إن وصف غزو افغانستان بـ "الحرب العادلة"، بحسب رأي بعض المثقفين الأمريكيين الذين وقعوا الرسالة، جاءت بالصد من قناعة أغلبية مثقفي العالم، من انها كانت غزوا مبيتا ومُعَدًّا من قبل البنتاغون والبيت الابيض والإدارة الامريكية وخارجيتها، وليست مجرد ردة فعل للرئيس الامريكي، إتخذها في لحظة ثورة غضب للإنتقام لضحايا 11 سبتمبر في نيويورك وواشنطن. لا يخوض موقعوا الرسالة، ومن بينهم مبشرون بنهاية التأريخ " فرنسيس فوكوياما"، وبصراع الحضارات "صموئيل هنتغون"، و"ميكائيل فالترز"، مبتكر السؤال: (حول حقيقة وجوب حروب عادلة وأخرى غير عادلة) في تفاصيل "التطبيقات غير السوية للسياسة الامريكية"، منذ ولاية الرئيس الامريكي الأسبق "رينالد ريغان" في اغلب الاحيان.

فمثل هذا العمل "غير الفكري" قد يبدو انه لا ينم عن دعاوى ثقافية شمولية، وهم في الاغلب، يبدون كمعارضين لنظرية الحرب الأهلية، خصوصا إذا خيضت من قبل قوة وحيدة، وبقرار احادي الجانب، وبشعارات ذات محتوى اخلاقي شامل<sup>9</sup>.

ويبدو ان مثل هذا الاعتراض، لم يكن ناتجا عن موقف أخلاقي بحت، من عدالة أو عدم عدالة مثل هذه الحروب، التي تشنها حكومة الولايات المتحدة الامريكية على العالم. فهم بَشَّرُوا لهذه الحروب<sup>10</sup>، ولكنهم ظلوا يوهمون أنفسهم والعالم: ان تلك الحروب، كما يبشر بها الإعلام الأمريكي والعولمي، ستكون: " حرب نظيفة"، و "حرب جراحية"، و"حرب عن بعد"، وإنها "حرب الصفر من القتلى" في صف المهاجمين من القوات الامريكية وحلفائها على حد زعم "توماس فريدمان". وان نيران هذه الحروب: "لا تقتل الا الإرهابيين والمارقين". اما العدد المعقول والنسبي من القتلى

<sup>8</sup> بودريار، ذهنية الارهاب، مرجع سابق، ص 137.

<sup>9</sup> بودريار، ذهنية الارهاب، مرجع سابق، ص 141.

<sup>10</sup> العبودي ومقالة هنتغون والحروب الدينية، مدونة العبودي [ar.netlog.com/aboudika/blog](http://ar.netlog.com/aboudika/blog) -

الأمريكيين وحلفائهم في تلك الحروب: فموتهم ناتج، إما عن " نيران صديقة" أو بسبب "خطأ تقني في تصويب طائرة أو صاروخ"، وغالبا ما يُذكر سبب موت الجنود في جبهات القتال او في معسكراتهم الا بسبب: "موت ناجم عن حالة حادث غير قتالي" مثل "حادث سير بمركبة او زورق" أو حتى "غرق في بركة للسباحة"، او "لاصابة بصعقة كهربائية" اثناء محاولة الجنود إداء مهمة اعمار في البلد المحتل، أو بناء منشآت ومستشفيات ومدارس لسكان البلدان المحتلة ... الخ من هذه الاخبار المتقطعة التي ترد في بيانات البنتاغون والوكالات الاعلامية العائدة له.

اما ما يسقط من الاعداء والحلفاء المحليين من العملاء في ساحة بلد الحرب، فهو ناتج عن خلافات وصراع بين "كيانات سياسية" و "احزاب" أو بين "قبائل" و "مليشيات" و "صحوات" و "اباطرة الحروب" من السكان المحليين، إضافة الى ما يسقط من الضحايا بسبب "عمليات انتحارية للقاعدة" و "المتطرفين" و "قتال بين المتمردين أنفسهم" <sup>11</sup>.

اما الجندي الامريكي، وجنرالات وقادة الحرب فهم بشر من نوع "سوبرمان" لانراهم في في القتال الا من خلال مقاطع ووصلات إعلامية تظهرهم بكامل معداتهم التقنية العالية المستوى وهم يؤدون المهام القتالية بطريقة إستعراضية. هم جنود شجعان، لا ينتحرون، يؤدون التحية العسكرية بثبات ورباطة جأش، صارمون، وهم يودعون رفاقهم العائدين في جثامين يلفها علم الولايات المتحدة الى امريكا. وهم مستعدون "للاعتذار" فقط عبر الاعلام إذا ما أخطأت طائراتهم أهدافها مسببة سقوط القتلى من المدنيين، ولان هؤلاء الضحايا من القتلى المدنيين ليسوا ابرياء دائماً؛ لأنهم من عداد الناس الذين يوضعون في دائرة الشك في الولاء للمحتل، ولم يتعاونوا إستخباراتيا مع القوات الامريكية الصديقة، أو لم يسلموا أولادهم من المتمردين على الاحتلال والدولة المحلية العميلة المنصبة بقوة سلاح المحتل. هؤلاء السكان مذنبون أيضاً، لأنهم لم يطبقوا التعليمات في الهجرة القسرية والنزوح والابتعاد من المواقع الساخنة في بلدانهم ويتواجدون في مناطق وصفت

<sup>11</sup> جميع هذه المسميات مقتبسة من مفردات البيانات العسكرية للبنتاغون التي يسربها الاعلام المعولم.

ساخنة من مثل " مثلث الموت"، المثلث السني"، "محيط غزة" و " الجنوب اللبناني" وغيرها من مناطق المقاومات الوطنية.

ان المواقف إزاء المجازر وقضايا الإبادة، وأسلحتها، وتمييز الحرب ونعتها بأنها عادلة ام غير عادلة تطرح الكثير من الأسئلة الأخلاقية امام أزمة ضمير حقيقية للمثقفين في الغرب، وخاصة الولايات المتحدة. ومن هذه الاسئلة: ما المعيار الذي تُقاس به قيمة الضحية؟ كقيمة إنسانية؟ وما الفارق في رأي مؤقعي " رسالة مثقفي أمريكا" بين روح أزهقت تحت ركام البرجين في نيويورك وأخرى تحت ركام الفلوجة او الضاحية الجنوبية لبيروت او غزة... الخ، ولا بد من التساؤل عن الكوامن التي حرصت فيهم مثل تلك الحمية الوطنية والمسألة الأخلاقية لعقاب الآخر في بقية أطراف الكوكب المعولم، أين تزهق طائراتهم وصواريخهم البشر ودفنهم تحت انقاض القرى والبيوت الآمنة في العراق وأفغانستان وفلسطين ولبنان والصومال بفعل القصف الهجمي؟.

وعندما نحاول الإجابة عن أسئلة مثل هذه من منظور أوربي آخر لا بد من العودة الى البيان حيث: (... يريد البيان ان يقنعنا أن الفرق الوحيد هو: أن الأمريكي أمريكي، وإن الفلسطيني فلسطيني، ولم يبلغ سمع أحد، الى اليوم؛ إن كون المرء أمريكيا هو قيمة اخلاقية، وان كون المرء فلسطينيا هو قيمة غير أخلاقية، حتى في الدعاوي الاسرائيلية)<sup>12</sup>.

لاشئ أخلاقي، بمبدأ القوة الغالبة، رغم أن هناك استثناءات لأصوات أمريكية أخرى احصت وتوصلت الى رؤى الكارثة الأخلاقية للولايات المتحدة. فقد أحصت الباحثة الامريكية "فيليس بينيس" من "معهد الدراسات السياسية" في ما ساشوستش بالولايات المتحدة إختراقات الدولة الأمريكية للقانون الدولي. فكانت المفارقة عندها: إن هذا القانون، الذي أسهمت الولايات المتحدة ونخبها القانونية في وضعه وإرساله، اصبح في خبر كان؛ لأن الولايات المتحدة في مقدمة الدول التي لا تحترم المواثيق الدولية؛ بل هي شرعت قوانيناً أمريكية مفروضة على العالم باستثناء قواتها

<sup>12</sup> بودريار، ذهنية الارهاب، مرجع سابق، ص 143.

ومواطنيها وشركات حماياتها ومرترقتها المجندين في وحداتها من أية إدانة، حتى لو اقترفوا اية جريمة، سواء كانت جريمة جنائية عادية، أو جريمة موصوفة ضد الإنسانية. أي ان الدولة العظمى تضع نفسها في موضع "الاستثناء"، وفوق القانون الدولي؛ طالما توفر لنفسها "أغطية التغافل" عن جرائم مواطنيها وجندها وقادتها العسكريين والسياسيين.

تريد الولايات المتحدة، من خلال درس العراق وافغانستان، ان تُحدد بمفردها، معايير الحياة أمريكياً، وليس فوق السياسات الدولية فقط. هو ذات المنطق الإمبراطوري الدكتاتوري الذي يحكم سلوكها، ويملي عليها ان تكون استثناءً في كل ما يطبق على الامم الاخرى. أبرز الامثلة على ازدواجية السلوك القانوني لحكومات وادارات الولايات على ذلك: رفض توقيع اتفاقية الألغام ضد الافراد، ووضع حد نهائي للقتل العشوائي الذي يؤدي الى موت مئات الضحايا يوميا، وهي التي صفق مندوبوها طويلا، حينها لهذه الاتفاقية لإدانة ما وصف حينها بـ "أمم غير مسؤولة" عام 199؛ بل طالب مندوبوها إلى "استثناء" الولايات المتحدة عن لجونها "لضرورات استراتيجية" لزرع ملايين الألغام في مناطق الفصل بين الكوريتين، وحول قاعدة غوانتانامو، في كوبا وحول قواعدها العسكرية في العراق.

كما رفضت حكومة الولايات المتحدة التوقيع على ميثاق "المحكمة الجنائية الدولية"، المنوط بها النظر في محاكمة جرائم الحرب. نشأت الفكرة أساساً من إقتراح تقدمت به الولايات المتحدة نفسها غداة الحرب العالمية الثانية، لمحاكمة المسؤولين عن جرائم الحرب، بصفتهم الشخصية كأفراد، ولكن حين وقعت على ميثاق إنشاء هذه المحكمة نحو مئتي دولة في جويليه/تموز 1998، كانت الولايات المتحدة إحدى تسع دول إمتنعت عن المصادقة على الميثاق الى جانب "اسرائيل" والصين والسودان وليبيا والعراق وقطر. واذا كانت اسرائيل من أكثر دول العالم تباكيا على "الهولوكوست اليهودي" أو "المحرقة اليهودية"؛ فان الولايات المتحدة تستغل نفوذها الدولي قنبتز خصومها وتطالب بمحكمة لقادة دول، منهم شركائها في الامتناع على ميثاق المحكمة، كما هي

الاحوال مع الرئيس الراحل صدام حسين واليوم عمر البشير، وغدا معمر القذافي، ولا يستبعد يوماً حتى أمير قطر نفسه؛ اذا ما أُعتبرت قناة الجزيرة القطرية، في نظر القادة الأمريكيين جزءاً من "ماكينة الإعلام التي تروج للارهاب".

وما قيل عن الاسلحة التقليدية والألغام والتنصل عن القوانين والإلتزامات الأخلاقية سجلت الولايات المتحدة نقضها لاتفاقات حول الحد من التسلح النووي، كانت معقودة مع الاتحاد السوفيتي السابق وفرنسا وبريطانيا واليابان والصين. وقد صرح ممثلها أكثر من مرة :

( ... رغم الاتفاق المعقود عام 1968، فإن مجرد التفكير بأن أمريكا سوف تتخلى عن ترسانتها النووية، لهو أمر أكثر من مضحك)<sup>13</sup>.

وهكذا فان تعلق وتمسك الولايات المتحدة بمبدأ "الأرجحية الاخلاقية" لها أو "الاستثناء" لمواطنيها وعساكرها من المحاسبة والعقاب أو حتى منح نفسها "حق النقض للمعاهدات"، ورفض المصادقة على موائيق دولية عديدة... الخ. من حالات الانتقائية والكيل بمكيالين يضع القانون الدولي والمجتمع الدولي في مأزق كبير. فمن ناحية تدفع السياسات الامريكية الدول الى الانضمام الى المعاهدات الدولية، وتصف الممتنعة منها بـ "المارقة" أو "الخارجة عن القانون" ؛ وهي في ذات الوقت قد امتنعت، إضافة الى ما اشرنا اليه اعلاه، عن توقيع ميثاق الامم المتحدة للحقوق الاقتصادية والاجتماعية 1966، وميثاق حقوق الانسان لمنظمة الدول الامريكية 1969، والموائيق الإضافية لعام 1977 لاتفاقية جنيف لعام 1949، التي توسع حماية المدنيين في زمن الحرب. كما رفضت الولايات المتحدة التوقيع على العديد من الاتفاقيات الدولية التي لا ينتبه لأهميتها سوى المختصين بقضايا القانون الدولي<sup>14</sup>.

<sup>13</sup> تصريح دبلوماسي امريكي في جنيف 1995.

<sup>14</sup> اجرت "نيويورك تايمز" بين 13 و 14 سبتمبر 2001 استطلاعاً للرأي العام اشارت به الى ان 67% من الامريكيين الذين وجه اليهم السؤال امام انقراض برجي "مركز التجارة العالمية" قد أقرّوا بأن سقوط "بضعة آلاف من الضحايا المدنيين الأبرياء" بفعل رد عسكري امريكي محتمل "لن يشفي غليلهم".

مهد الإعلام الأمريكي لخلق أجواء تدعو الى الثأر والانتقام<sup>15</sup>. وانجرفت معه أصوات نخب أمريكية وأوربية، وحتى عالمية أخرى، مطالبة بالقصاص والانتقام. ربما برر البعض انهم كانوا تحت ظل الصدمة النفسية، يشاهدون تكرار نقل مشاهد ضحايا الحادث في نيويورك، وعمليات الإخلاء بشكل درامي، يُعبر عن حالة مأساة إنسانية تستفز المشاعر وتدعو للتعاطف مع الامريكيين، وهم في حالة جرح واهانة لكبريائهم القومي.

لقد رفعت نخب سياسية وفكرية، أمريكية منها وغير أمريكية، صوت "كلنا أمريكيون" في إستجابات، منها عفوية وأخرى تعبوية تجاوبت مع صدى وطموحات الرئيس الأمريكي جورج بوش "الابن"، وخلفه وامامه "المحافظون الجدد"، عندما أعلن، غداة الهجمات على نيويورك: (... الآن وقد أعلنت الحرب علينا، فسوف نقود العالم إلى النصر)، والنص هنا يعبر عن بلاغته ومراميه ومقاصده المبيتة: فهو يقصد بـ "أعلنت علينا": أي "نحن الأمريكيين"، وربما يقصد "الغرب"، ولكنه يستمر لأخذ مبادرة شن الحرب من خلال معنى: "نحن الامريكيين" سنقود العالم الى النصر؟. ولا نظن ان النصر الموعود سيتكلل من خلال القضاء على حكومة الطالبان في أفغانستان او القضاء على منظمة [مُختلِّفة أمريكيا] عنوانها "القاعدة".

كان الهدف ابعد من ذلك بكثير، كما اكدتها مخططات وتنفيذ غزو العراق وإحتلاله والقضاء على دولة جمهورية العراق، والاسراع بطرح مخطط عنوانه: "شرق أوسط جديد"، وزج حلفاء الولايات الامريكية وقواتهم في هذه الحروب التي لم تتوقف حتى لحظات كتابة هذه الاطروحة.

ربما ان أهم ما جاء في "رسالة المثقفين الأمريكيين" من حكمة هي أنها: أشارت الى مخاوف من (خطر الوقوع في شرك الغطرسة، وحتى الشوفينية البغيضة، التي تغوي الامم التي تخوض حروبا وقد تستسلم لتلك المشاعر). وربما أنهم يكتشفون اليوم مقدار وحجم مشاعر العداة لبلادهم، الولايات المتحدة ولأوربا الناتو، في كافة أرجاء العالم؛ لأن سياسة الحرب التي قادها بوش

<sup>15</sup> بودريار، ذهنية الارهاب، مرجع سابق، ص 146.

كشفت فعلاً عن: "عطرسة" و"قسوة" و"شوفينية الدولة الاقوى"، وتجاوز لمشاعر البشرية كلها، وهي ترى ايضاً مشاهد "صور سجن أبي غريب" و"سجن قاعدة غوانتينامو" و"مجازر الحرب الأمريكية وحليفاتها الصهيونية في العراق ولبنان وفلسطين.

ان الضمانات الأخلاقية التي حاولت نخبة المثقفين الأمريكيين توفيرها من خلال تطابق "المثل الأمريكية والممارسة"، إذا ما شنت الحرب، تبخرت سريعاً أمام سلوك السياسيين الأمريكيين ودعاة الحرب من المدنيين والعسكريين على حد سواء حتى وصلت سياسة الحرب الأمريكية لا تخجل ان تسمى نفسها "الصدمة والترويع".

ان غياب الوازع الأخلاقي في صنع السياسات ورسم تطبيقاتها بألة السلاح يحتل مكانة رمزية عالية بدأ العالم يكتشفها في تناقض الخطاب الأخلاقي الأمريكي نفسه. انه الوهم الذي حاول الأمريكيون التمترس فيه ولم يخرجوا بعد. وهم في "يوتوبيا" يحاولون تحقيقها من خلال وهم القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية المطلقة التي يمكن السيطرة بها على العالم تحت واجهة التحضر والديمقراطية لمواقع "التخلف والشر" بالقوة العسكرية وتنفيذ سياسات الحصار الاقتصادي والتجوع والتلويح بصلبان المحافظين الجدد المُتصَهِّنة.

ان "الفضائل الشمولية" كانت غائبة في التطبيق خلف زحف الدبابات وجحيم نيران اسلحة الدمار الشامل، وعلى خطى سواها من الامبراطوريات اليونانية والرومانية والبريطانية البائدة سارت الامبراطورية الامريكية الصاعدة باعتبار مواطنيها وجنودها من صنف الملائكة المعصومين عن الشر وما خارج فهم أشرار و "برابرة"، وان الحرب تشن باسم الخير على الشر.

يتساءل "ريتشارد كابوشنسكي"، ويجيب قائلاً: ( ...تحديداً في اللحظة التي تحدث فيها قطيعة بين الثقافي والمقدس، أي عندما يضعف أو يختفي البعد الروحي لثقافة ما، وعندما يسيطر الخمول الأخلاقي على مجتمع ما فتضمحل حساسيته على الفراغ والشّر لتختنق وتدخل في سبات)<sup>16</sup>.  
للهولة الأولى، قد يبدو كلام "كابوشنسكي" صائباً ولا يحتاج لمناقشة، ولكن بعد التدقيق ملياً به ينكشف المستور عن ذلك الوهن الذي يعتري مثل هذا الكلام المغلوط ويبطله. فهو يُرجع أسباب اندلاع الإبادة، إلى تلك "القطيعة" التي تحدث بين "الثقافي والمقدس"، ولكنه لا يحدد لنا أي ثقافة هذه وأي مقدّس ذلك. إنه إذاً يشير إلى عموم الثقافة وإلى عموم المقدّس الديني بالضرورة، بوصفه خزان القيم الأخلاقية والروحية<sup>17</sup>..

وبما أنه يعتقد باحتمالية الفصل بين الثقافة والمقدّس الديني، فإنه بهذا يرتكب أول أغلاطه وأشنعها. فمن المعلوم اليوم، بخاصة إذا ما نظرنا للثقافة بمعناها الأنثروبولوجي الشامل، إن المقدّس الديني في الجوهر، هو جزء أساسي وكبير من مكونات كل ثقافة وليس بمنفصل عن ثقافته الأم في المطلق؛ كما أن الثقافة في المقابل ليست مقدّساً دينياً فحسب، بل هناك العادات والتقاليد والموروث الشعبي والمتخيل الجمعي والتاريخ الحضاري والمعرفي والآداب والفنون والتكوينات المجتمعية المختلفة وغيرها، والذين يمثلون جميعهم في المحصلة هوية القيم الثقافية لكل مجتمع ولكل حضارة. إن فصل الدين عن الثقافة، لا يشبه أبداً فصل الدين عن السياسة؛ لأن هذا الأخير يتمركز في مفهوم السلطة ونظام الحكم، بينما الأول وهو مستحيل عملياً فإنه يتمركز في مفهوم الهوية الجماعية ومكوناتها الروحية والمادية معاً. ولعلّ البون شاسع، كما نلاحظ، بين المفهومين المختلفين<sup>18</sup>.

<sup>16</sup> لوموند دبلوماتيك قرن من عمليات الإبادة، ، 2001-

<sup>17</sup> جاسم، "عبد العزيز الهوية والإبادة والتنوع الثقافي، 17 يونيو 2004 .

[http://www.grenc.com/show\\_article\\_main.cfm?id=286](http://www.grenc.com/show_article_main.cfm?id=286)

<sup>18</sup> جاسم عبد العزيز، "الهوية والإبادة والتنوع الثقافي، - 17 يونيو - 2004 .

[http://www.grenc.com/show\\_article\\_main.cfm?id=286](http://www.grenc.com/show_article_main.cfm?id=286)

صحيح مثلاً، أن هناك فئات متطرفة في العالم اليوم، تحاول استغلال الدين وتحاول تجييره لخدمة أهدافها الخاصة ومصالحها التدميرية؛ سواء داخل الولايات المتحدة والغرب أو خارجهما، إلا أن الدين في جوهره يظهر أكثر سماحة وبراءة وسمواً ممن يحاولون جره البعض إلى أفخاخهم ومصائدهم القاتلة؛ كما أن هذا الأمر بالضرورة لا يعني أن الشعوب التي خرجت من وسطها تلك الفئات الضالة، قد باتت يسيطر عليها "الخمول الأخلاقي" و"الشر" وأنها قد تجردت من القيم الإنسانية النبيلة التي بشرت بها الأديان والثقافات كلها لتصبح "حاضنة للإرهاب" أو "قائدة للحرب ضده"، كما يحلو للمحافظين الجدد نعت هذه الشعوب والمجتمعات وخاصة الإسلامية منها وما يمنحون لانفسهم الحق المطلق في وسم أي جهة تتعارض معهم بالإرهاب ويجيزون شن الحرب عليها<sup>19</sup>. إن هذا الطرح المغلوط لمفهوم الثقافة والدين، لا يمكن الاعتداد به، كما لا يمكن أن يكون حكماً إطلاقياً صحيحاً بالمرّة؛ بل يمكن التوكيد كذلك بأن هذا السبب لا يرقى لفهم لحظة انفجار الإبادات بين الشعوب.

هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فإن هناك دولا لا ينقطع فيها الثقافي عن المقدس أبداً، بل هي تعتبر من الدول التي تزوج بين الدين والديمقراطية أيضاً مثل "إسرائيل"؛ ولكنها باسم هذه الديمقراطية، وباسم الدين اليهودي، وحتى باسم الثقافة الهلينية المسيحية - التوراتية التي تدعي الانتماء إليها، فإنها ترتكب أبشع صنوف القتل والاعتقالات والمجازر والإبادات الجماعية في حق الفلسطينيين العزل، وبشكل يومي ومباشر. فهل هذه المزوجة العجيبة بين الثقافة والدين والديمقراطية، قد منعت هذه "الدولة" من ارتكاب الإبادات في حق غيرها؟ بالطبع لا.

إن مثل هذا الفصل الخاطئ الذي يتحدث عنه كابوشنسكي وغيره، لا معنى له على الإطلاق، أضف إلى أنه يراكم على غلطته السابقة غلطة جديدة، حين يقول: "لم تحصل أي عملية إبادة في بلد تسوده الديمقراطية، وتبدو هذه حتى الآن الحاجز الوحيد الفاعل في وجه نزاعات

<sup>19</sup> ذهنية الإرهاب... مجموعة من الكتاب الفرنسيين، صفحات مختلفة، مرجع سابق.

الإبادة”؛ ولكن ما رأيه بالديمقراطية “الإسرائيلية” التي ترتكب المجازر يومياً؟ بل ماذا يقول في إبادة الهنود الحمر على يد أكبر دولة ديمقراطية في العالم اليوم، الولايات المتحدة الأمريكية؟ ثم ماذا سيقول عن الحروب والمجازر والإبادات التي ارتكبتها هذه الأخيرة خارج أراضيها، في كل من فيتنام وهايتي ونيوازاكي والبلقان والصومال وأفغانستان والعراق حالياً، وفي كل مكان في العالم تقريباً؟ ألا تعد هذه الجرائم، في عرف كابوشنسكي وغيره، إبادات من أي نوع، أم أن هناك من يريد خلط الأوراق وتبرئة من يريدون تبرئته؟

إن كابوشنسكي وغيره، لا يشيرون مثلاً في مقالاتهم إلى أي إبادة وقعت في المشرق والمغرب العربي على مدار القرن العشرين كله؛ بل كل ما يتنسون له بالتركيز عليه والإشارة إليه، هو حادثة محرقة يهود أوروبا التي ارتكبتها النازيون الألمان. ويتجاهلون جرائم الإبادة في الجزائر على مدى 132 عاماً أبرزها مجازر 8 ماي 1945 التي راح ضحيتها أكثر من 45 ألف من الأبرياء.<sup>20</sup> فهل هذا جهل أم تجاهل متعمد وانتقائي من كابوشنسكي وغيره، عند تغيب الحقائق التي تمس العرب والمسلمين؟.

قطاع واسع من مثقفي الغرب يرون وجهاً واحداً من المرأة، ويريدون منا أن نصدق ذلك ونحن نستطيع أن نأتيه بعشرات الأمثلة والحوادث التاريخية التي تبطل هذه النظرة التي يدعون إليها، والتي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن أغلب المجازر والإبادات التي ارتكبت على مدار الكرة الأرضية وفي كل العصور، كانت ترتكب باسم الدين والدين منها براء، وباسم النزعات العنصرية والعرقية التي هي في جذرها ثقافية صرفة، في الشمال كما في الجنوب على السواء.<sup>21</sup>

<sup>20</sup> جرائم 8 ماي 1945 بشعة راح ضحيتها عشرات الألوف في سطيف وقلمة وخرطة لا لذب سوى ان جماهير الشعب الجزائري ارادت ان تعبر من خلال فرحة الانتصار على النازية ان تطالب بحقوقها المشروعة في تقرير المصير فرفعت اعلاما وطنية فواجهت الرصاص في واحدة من أبشع المجازر المسجلة عبر التاريخ الاستعماري الفرنسي البشع.

<sup>21</sup> العبودي عن بلاك ووتر [articles.abolkhaseb.net/maqalat/articles\\_280907.htm](http://articles.abolkhaseb.net/maqalat/articles_280907.htm) - k583.

ولعل المثال الصارخ على النزعة الإبادة الدينية، هو ما حدث مثلاً إبان القرون الوسطى والذي تمثل بأسطع صورته في الحروب الصليبية، التي ارتكبت باسم "السيد المسيح". إن شخصية القديس برنار من كليرفو مثلاً، وهو الإرهابي الصليبي الأول، الذي رَوَّحَنَ وَقَدَّسَ الحرب الصليبية، وابتدع "فرسان الهيكل" القتلة، أو ما كان يسمّى "ميليشيا الرب"، الذين كانت مهنتهم العادية هي "سفك الدّم البشري" الا تذكرنا الان بمجازر المرتزقة والمليشيات المرافقة للدبابة الامريكية غي العراق وفي مقدمتها عصابات المرتزقة في شركة "الماء الاسود" بلاك ووتر **Black Water**<sup>22</sup>.

نقول إن ذلك القديس وغيره من كهنوت الارهاب السياسي باسم الدين يدعون دائماً حبهم للسلام، وبكتهم شجّعوا المسيحيين على الحرب بعدما جبر دينهم لأغراض سياسية وعسكرية، فيما قام هؤلاء بتحويل الوصايا المسيحية الذهبية التي يستشهد بها "كابوشنسكي" وغيره الى وصايا ابادة للغير وحولوا عبارات مثل : أحب أخاك كما تحب نفسك"، إلى وصية إجرامية من نوع آخر: ( في موت الوثني "يعني به المسلم" يكسب المسيحي المجد، لأن المسيح إنما يجري تمجيده بهذا القتل)؛ أو "لا يظهر الوثنيون (المسلمون) بوصفهم من بني البشر، بل إن وجودهم نفسه كفر". ولعل من أهم الخلاصات التي ظهر بها "توماش ماستناك" في كتابه المترجم حديثاً "السلام الصليبي"، هو أن " الجغرافية الروحانية (الرهبانية والصليبية)، التي جاءت بالمسيحيين الصليبيين واليهود التوراتيين من بعدهم إلى فلسطين، لم تكن سوى بدوافع "محو أعداء الاسم المسيحي عن وجه الأرض"<sup>23</sup>.

أما الإبادات الثقافية التي خلفت ملايين القتلى في جميع البلدان، والتي اتخذت شكل حروب عنصرية وعرقية وعقائدية وتفوقية وانتقامية أحياناً، فهي أكثر من أن تحصى أو تعد، منذ النزعة

<sup>22</sup> اشرنا اليها في ثنايا الدراسة.

<sup>23</sup> ماستناك، 2003، 234، 247.

المركزية الغربية للاستعمار الكولونيالي في القرن السادس عشر، وحتى تخطينا حاجز الألفية الثالثة، اليوم. هذه الحروب التي يعاد إنتاجها بأشكال وأسماء وصيغ مختلفة، من مثل نزاع الهويات والإثنيات وصراع الحضارات والأديان والإرهاب ومحور الشر أو الدول المارقة وغيرها، والتي برزت أكثر ما برزت في محاولة الإدارة الأمريكية المستميتة والدامية، في فرض قيمها الثقافية والسياسية بقوة الاحتلال والنار وسفك الدماء من الجهتين والعمل على تدمير التراث الحضاري للعراق، ومحاولة غسل أمخاخ العراقيين عن طريق الترغيب والترهيب.

ولعل ما نريد الإشارة إليه هنا، هو أن هذه الحروب الثقافية أو الإنطولوجية التي يروح ضحاياها بالعشرات يومياً، تحدث في الوقت الذي وصلت إليه الثقافة العالمية العالمية إلى أوج تطورها وإبداعها، علمياً وفكرياً وحضارياً؛ ولكن بالرغم من كل هذا لم تتوقف مروحة الموت من إبادة الشعوب وحصاد رؤوسها أبداً.

الأمر الغريب والصادم حقاً في هذا الصدد، هو ما اكتشفه الأنثروبولوجي "أوتوكلاينبيرج"، في مقارنته الجوهرية بين حروب "البدائيين" الذين ينتمون لثقافة شفوية شبه أمية، وحروب المتحضرين الذين ينتمون للثقافة العالمية اليوم، فهو يقول: (... إن الحروب البدائية قليلة الخسائر في الأرواح عادة. البدائي ليس وحشياً ولا همجياً، بالدرجة التي تظهر في حروب المجتمعات الصناعية. في معظم الحالات تخضع حروب البدائيين لقواعد محددة في التعامل مع الأعداء، فالاستراليون مثلاً يقدمون أسلحة للبيض غير المسلحين قبل الهجوم عليهم، وآخرون يرسلون قوارب مؤن غذائية للأعداء. في كل الحالات تتخذ حروبهم طابع المباراة الرياضية، أما من ناحية أخرى، فإن الغارات المفاجئة "كما تتصف بها الحروب الحالية"، فهي غير معروفة تقريباً في الحرب البدائية). إن هذه المقارنة بين الحروب عند البدائيين والحروب الحالية، تبين أن البدائيين كانوا أكثر إنسانية واحتراماً للمبادئ الأخلاقية في الحروب، وذلك بخلاف المتحضرين الذين يبدون

أكثر وحشية وحقداً من الوحوش نفسها، في أثناء حملات الإبادة الجماعية وما يسمّى التطهير العرقي<sup>24</sup>.

لهذا يمكن القول: لا الثقافة في رسالتها وإنسانيتها ونبلها الحقيقي ولا الدين في نقاء قيمه الروحية وسلامة نياته السماوية، لهما علاقة بانفجار لحظات الإبادة في العالم، بل إن الإبادة تحدث بالضبط عندما يتم خطف الاثنین معاً وتعميمهما بعد بترهما وتسييسهما واختزالهما في تعاليم عقائدية وأيديولوجية وطائفية متطرفة، مثلما يلاحظ في النظم الشمولية الاستبدادية، وفي النزعات العرقية والعنصرية والطائفية، وفي المنظمات الإرهابية المسلحة في كل مكان.

يضاف إلى هذا، جملة من الأسباب الأخرى التي تجعل من النزعة الإبادية واقعاً ملموساً ولا يتوقف، مثل غياب تطبيق القانون الدولي الملزم لكل الحكومات وليس لبعضها، تهديدات التسليح النووي، تفرد دولة واحدة بمقدرات ومصائر بقية دول العالم، العالم الثالث بالخصوص "اندلاع الحروب الـ "نيو إمبريالية" من دون شرعية دولية وتحويل العالم إلى قرية بوليسية، تراكم الكوارث البيئية والفقر وغياب الحريات والعدل وحقوق الإنسان. كل هذه الأسباب مؤشرات قوية إلى مواقيت انفجار الإبادة في العالم المعاصر، وليست تكمن في قطيعة الثقافي عن المقدّس - كما اعتقد "كابوشنسكي" خطأ فحسب.

## 7 - 2 : تيارات التطرف في الولايات المتحدة وتراجع الاخلاقيات :

معرفة الصورة الكاملة والمركبة والديناميكية للتيارات الأصولية المتطرفة في الغرب عامة، والولايات المتحدة خاصة، التي تؤثر على السياسة الأمريكية وتدعم منظورها التوسعي، لا يجب أن تصرفنا عن الوعي بمعرفة القوى المقابلة من كنائس وقوى وشخصيات معتدلة تدعم للسلام وترفض التطرف وتدين الحروب وتشارك في أنشطة المجتمع المدني العالمي كافة من اجل وقف الحرب والعدوان والحد من التسليح والدعوة الى السلام. ظهرت وعُرفت كلمة "الأصولية" في

<sup>24</sup> الخالدي إبراهيم ، 2001، مستقبلات الدكتور المهدي المنجرة ، جريدة العصر، 2001.

الولايات المتحدة في مطلع القرن العشرين، نتيجة لعد أسباب متنوعة، أدت الى تمايز تيارات فكرية ثلاثة في الولايات المتحدة: التيار المسيحي الأصولي، والتيار المسيحي الليبرالي، والتيار العلماني<sup>25</sup>.

ومن بين تلك الأسباب، الهجرة الكبيرة للكاثوليك واليهود من اوربا الى الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، والحرب الأهلية في ستينيات القرن التاسع عشر، حين أصبحت الخلافات بين الشمال والجنوب متعددة في الفروق الاجتماعية والاقتصادية، إضافة الى مسألة الرق، وكفاح السود من اجل حقوقهم. وكذلك تصاعد بعض الدعوات لتنصير كل الأمريكيين. ومما زاد من حدة الصراعات هو ظهور التيارات العلمانية أيضا، كطرف ثالث أمام المسيحيين المتشددين والمسيحيين المعتدلين او الليبراليين.

نبه التيار العلماني من خطر الأصولية المسيحية على الولايات المتحدة في مجالات السياسة والقضاء والدين والصحة الجسدية والنفسية والبرامج الاجتماعية وتهديدها المباشر لكل الأغيار، سواء كانت تلك الغيرية من ناحية الدين او العرق، او حتى الجنس "المرأة"، بل حتى الاطفال، فعند الاصوليين ان الولايات المتحدة هي بلد "الواسب" WASP، أي، ( البروتستانت الأنجلوساكسون البيض White Anglo Saxon Protestant )، ولا ينفي هذا نشأة وتطور الكاثوليكية وتعاونها من حين لآخر مع الاصولية البروتستانتية في بعض القضايا، او تعاون نخبهما مع الاصولية اليهودية المتطرفة، كما هو الحال مع ظهور تيار المحافظين الجدد.

لقد بات مشروع الأصولية الدينية والمسيحية الصهيونية تهديدا للتيارات الليبرالية والديمقراطية والعلمانية<sup>26</sup>. ومن خلال دراسة افكار ورؤى هذه التيارات للاصولية المتشددة،

<sup>25</sup> بلاكر كيمبرلي، (2006) "اصول التطرف"، اليمين المسيحي في امريكا، مكتبة الاسرة، القاهرة، ص 7.  
<sup>26</sup> بلاكر كيمبرلي، "اصول التطرف"، اليمين المسيحي في امريكا، مكتبة الاسرة، ص 51-53. القاهرة (2006).

اليمينية، والمتطرفة يلاحظ انها وان تسترت بالدين وتدعي محاولتها استعادة روحانية العقيدة المسيحية في مواجهة الرأسمالية المتوحشة وثقافة الاستهلاك.. الخ. وهي بأفكارها تبنت دائما، من خلال منظومتها الأخلاقية البروتستانتية النمو والتطور الرأسمالي، واعتبرت الثراء قيمة مركزية، والمزج بين اليقين الديني والأساطير السياسية، مسارا براجماتيا، وهو ما نتج عنه اليوم إتجاهات تبرر السياسات التوسعية الامبريالية للولايات المتحدة السائدة<sup>27</sup>. وهي في تداخلها وتلاقحها مع أفكار اليهودية، ذهبت بعيدا في قبول "تهويد المسيحية"، بل اصبحت واجهة لما يسمى "المسيحية الصهيونية"، لذا فقدت الاصوليات المسيحية "روحها المسيحية" وأخذت تنهل معظم أفكارها ولغتها ورؤاها من مصدرها العهد القديم وليس العهد الجديد<sup>28</sup>.

فروى التيارات الاصولية والمسيحية الصهيونية لا تنكر دعمها للهيمنة الأمريكية على العالم، وقد يظن البعض، ان هذه التوجهات غريبة على الثقافة الأمريكية بما طرحته من قيم اخلاقية خاصة بما يتعلق بحقوق الانسان والديمقراطية؛ لكن واقع الحال ليس كذلك فهذه التيارات وفيه لتاريخ دموي قمعي يمتد الى أجيال وقرون من الأمريكيين الأوائل "الاوربيين الاصول" الذين اعتبروا أنفسهم في بلدان العالم الجديد هم "شعب الله المختار"<sup>29</sup>، ولديهم رسالة تنوير في هذا العالم حتى لو تم اجتثاث وقتل وابداء الاخرين.

من هنا نشأت عقدة وفكرة واسطورة "الشعب المختار"<sup>30</sup> للعالم الجديد وفكرة "الإستثناء الأمريكي" في كل شئ حتى في الحقوق والعدالة والمساواة. ان ما يثير الارتياح ان دعوات هؤلاء الاصوليين تسعى لاحداث تغيير سياسي واقامة مجتمع تسوسه ايديولوجيا لا تقيم وزنا للديمقراطية،

<sup>27</sup> مرقص سمير، الاميراطورية الامريكية: ثلاثية الثروة... الدين... القوة (من الحرب الاهلية الى ما بعد 11 سبتمبر)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، (2003).

<sup>28</sup> الخازن جهاد، المحافظون الجدد والمسيحيون الصهيونيون، دار الساقى، لندن، (2005).

<sup>29</sup> المعلم عادل، 2004، مقدمة في الاصولية المسيحية في أمريكا والرئيس الذي استدعاه الله وانتخبه الشعب الأمريكي مرتين، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.

<sup>30</sup> لونغلي كليفورد، الشعب المختار، الاسطورة التي شكلت انجلترا وامريكا، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، (2003).

وما شعار "الفوضى الخلاقة" التي يطبقها المحافظون الجدد على المستوى العالمي الا تعبير صارخ لهذه الفوضى التي لا تعير أي احترام للنظم الديمقراطية، ولا لحقوق الأغلبية في كثير من البلدان<sup>31</sup>، ولطالما تشبث "المحافظون الجدد" بمبدأ "الإستثناء الأمريكي"، من خلال السياسات الانتقائية، والكيل بمكيالين. يتجسد هذا من خلال ردود فعل الإدارة الأمريكية في ما يسمى " حرب امريكا الجديدة على الارهاب" التي تم التحضير لها وتبنيها رسميا بعد 11 سبتمبر من خلال خطاب جورج بوش: (..لنا – لخير هذا العالم – سوف نمحو اولئك الذين يهددون ارواحنا وامنا؛ بل وحتى من يقفون في طريق القبض على الارهابيين، لكن شريطة ألا يكونوا مسيحيين أو أمريكيين). وهكذا اتسم الخطاب الامريكي بتلك الازدواجية المثيرة للقلق<sup>32</sup>.

وفي الوقت الذي كانت وستبقى امريكا، ليست معصومة من تغذية مثل ذلك التطرف، بدليل قيام المسيحيين "تيري نيكولاس" و" تيموثي ماكفي" بتفجيرات أو كلاهما بدوافع متطرفة، وتحت تأثير "الهوية المسيحية" **Christian Identity** المتطرفة. وكان التفجير هو الطريقة التي اختارها "تيموثي ماكفي"، كي يعارض على الملاءمة غزو الحكومة لمقر جماعة "واكو برانش ديفيد يانز" **Waco Branch Davidians** "وكي يثأر لمقتل أسرة "ويفر **Weaver** " التي كانت تروج لفكرة السمو العرقي للبيض ويتبعون "عقيدة الهوية المسيحية" في روبي ريدج.<sup>33</sup>

<sup>31</sup> يلاحظ ان السياسة الامريكية دعمت حكم النخب العسكرية ودعم كثير من حالات تزوير الانتخابات في عدد من الانظمة الخاضعة للهيمنة الامريكية، رغم ديمقراطية النظام الامريكي في الولايات المتحدة.  
<sup>32</sup> لاحظ موقف الامريكيين من المحاسبة ورفض الانصياع لقرارات الدولية ورفض الاتفاقيات والمعاهدات او نقضها.

<sup>33</sup> شعار "الهوية المسيحية" تجمع يندرج تحته مجموعات متنوعة من الجماعات والكنائس ذات الميول العنصرية، وهم يروجون الى نوع من "المسيحية المسلحة" يؤمن بالتفوق العرقي للجنس الابيض، وتلتقي بافكارها وممارساتها مع مجموعات "النازيون الجدد"، يعتبر لاهوت "الاسرائيلية البريطانية" العقيدة التي تجمع مختلف تنوعات "الهوية المسيحية" حيث يروج هذا اللاهوت لفكرة "ان الاوربيين البيض هم الاسلاف الحقيقيون لبني اسرائيل، وان بني اسرائيل ما زالوا شعب الله المختار، ويذهبون الى تعميم عنصريتهم الاوربية الى القول ان الجنس الآري هو العرق المختار لدى الرب، وان الاوربيين البيض يشكلون القبائل الاسرائيلية العشر المفقودة.

ومن بين المجموعات الاصولية المتطرفة تنحدر مجموعات ارهابية مثل جماعة "جيش الرب  
The Army of God"، الصغيرة الحجم ، الراديكالية التوجه، اضافة الى نشاطاتها الإرهابية  
للمجتمع الأمريكي كا استهداف عيادات الاجهاض وعمليات خطف وتفجير وقتل، سجلت تحقيقات  
الشرطة والصحافة الامريكية انهم كانوا على صلة باستهداف تلك العيادات بارسال 280 رسالة  
ملوثة بجرثومة الجمرة الخبيثة "الانثراكس" في شهر اكتوبر التالي لهجمات الحادي عشر من  
سبتمبر 2001.<sup>34</sup>

لا يسود مبدأ التحررية في عقل هؤلاء، ففي التاريخ الامريكي إبادة وحملات استعمارية  
خارجية وفصل عنصري بدرجات متعددة، وفي الازمات تعود أفكار التمييز الانجلو-بروتستانتية  
للسعود، كما يبرز الجدل بشأن الدستور والقوانين فتذكيه التيارات الدينية وتسعى الى تعديله او  
تأويله. وعند هذه النقطة تتجلى بوضوح موقف "صموئيل هنتغتون" الصادر في 2004 بعنوان "من  
نحن؟"<sup>35</sup> والذي يحاول البحث في الهوية الأمريكية ويؤسسها على الثقافة الأنجلو-بروتستانتية،  
ويدعو الأمريكيين للتمسك بهذه الثقافة، على تنوع مشاربهم، وهو أمر توظفه التيارات المتطرفة  
لفرض تصور مسيحي عن أمريكا يستبعد الآخرين. وهو يرفض في كتابه فكرة "بوتقة الصهر"،  
ويرى في امريكا مجتمع مستوطنين لا مهاجرين، وعلى من يلحق بهم، عليه ان يقبل قيمهم. وهو  
يرى في الحرب خارج الارض الأمريكية الحل الوحيد لعدم إنهيار الولايات المتحدة الامريكية من  
الداخل لتعدد ثقافاتنا. ويُلمح: ان الاسلام المسلح بات العدو الأساسي. ويشرح الكتاب: كيف يفكر  
هذا العقل وكيف يرى العالم في هذه اللحظة الحربية-العسكرية من تاريخ الولايات المتحدة<sup>36</sup>.

<sup>34</sup> بلاكر كمبرلي ، اخطار الاصولية وتقويض الديمقراطية، فصل1، من كتاب اصول التطرف مرجع سابق، ص  
51- 23.

<sup>35</sup> Samuel Huntington, Who Are We : The Challenges to America's National Identity, Simon and Schuster, New York, (2004).

<sup>36</sup> عزت هبة رأفت ، من تقديم "اصول التطرف، مرجع سابق، ص 12-13.

احتضنت التوجهات المتطرفة للاصولية المسيحية ورعت التعصب والتمييز والتحيز العرقي والديني أو الجنسي أو الاتجاهات الجنسية. والتعصب الديني لم يأخذ منحى واحد، باتجاه معتنقي الأديان الأخرى فقط؛ بل حتى بين الكاثوليك والبروتستانت. وكان اليهود والمسلمون والملحدون ضحايا لعمليات التحيز. كان الاصوليون المسيحيون حجر الأساس للتفرقة العنصرية المنظمة. وضح "فورست جي. وود"، استاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا في باكرزفيلد، في مؤلفه كتاب "الرعب الاسود" Black Scare، انه قبل 1900 إعتق معظم المسيحيين رؤية الكتاب المقدس، على انه معصوم من الخطأ، وعلى الفهم الحرفي له، وتم استغلال قصة نوح.<sup>37</sup> لتبرير العبودية. وشهد القرن العشرين حركة الفصل العنصري، لكن الاصوليين حاربوا للمحافظة على الوضع القائم<sup>38</sup>، وعندما حكمت المحكمة العليا حكمها المشهود في 1954 بإنهاء الفصل العنصري في قضية "براون ضد مجلس التعليم" أعاد متطرفوا الكنيسة تأكيد إيمانهم بلعنة نوح، وأعادوا التذكير الى أهمية العبودية الى "حام"، كوفاء لقدره بأن يكون عبدا للعبيد.

على الرغم من كل ماحدث من إصلاحات وقوانين تلغي الفصل العنصري؛ إلا أن التحيزات ظلت واضحة، لوحظت حتى سبعينيات القرن العشرين، بأن حرمت حوالي مئة مدرسة دينية ميزة الإعفاء الضريبي عندما رفضت التكامل "بدخول الآخرين إليها". وحتى عام 1988 كانت نسبة الطلبة البيض في المدارس المسيحية أعلى من النسبة في المجتمع<sup>39</sup>. وكشف مشروع الحقوق

<sup>37</sup> جاءت القصة بنص الكتاب المقدس، كما يلي، تحت عنوان: "لعن كنعان ومباركة سام" والنص: (واشتغل نوح بالفلاحة وعرس كرما، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خيمته، فشهد حام ابو الكنعانيين غري أبيه، فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجا. فأخذ سام ويافث رداء ووضعاه على اكتافهما ومشيا القهقري الى داخل الخيمة، وسترا غري أبيهما من غير أن يستديرا بوجهيما نحوه فيبصرا غريه. وعندما أفاق نوح من سكره وعلم ما فعله ابنه الصغير، قال: "ليكن كنعان ملعونا، وليكن عبد العبيد لإخوته". ثم قال: "تبارك الله إله سام. وليكن كنعان عبدا له، ليوسع الله لياثت فيسكن في خيام سام، وليكن كنعان عبدا له". سفر التكوين- الاصحاح 27-9:20.

<sup>38</sup> بلاكر كيمبرلي ، المضامين الاجتماعية لمعركة هرمدون، اصول التطرف، مرجع سابق، فصل 5، ص 199-250.

Characteristics of Private Schools:1987-1988,p.2,tound in Susan Rose,"Christian Fundamentalism and Education in the United States,"

المدنية في جوان/حزيران من عام 2002 في جامعة هارفارد معلومات تؤكد استمرار ذلك الإتجاه. أظهرت المعلومات: ان المدارس الدينية بها نسبة من الفصل العنصري أعلى من تلك المدارس العلمانية او المدارس العامة، ومدارس الكاثوليك هي في صدارة وقمة مدارس الفصل العنصري الدينية.

هناك منشآت تعليمية معروفة بسياساتها في الفصل العنصري مثل جامعة "بوب جونز" المحافظة التي فقدت الإعفاء الضريبي منذ عام 1982، نتيجة لسياستها في تحريم التعارف والزواج بين الأجناس المختلفة. وظلت مستمرة حتى عام 2000 متمسمة بالحذر الخاص بالتعارف بين الأعراق المختلفة، باقية على اعتقادها من خلال شعار: (ان الله أراد أن تنفصل الاعراق). الجدير بالذكر ان "بوب جونز" الكبير، كان واعظاً أصولياً (وكان ناطقا باسم عصابات "كوكلوكس كلان" العنصرية، ويهاجم الكاثوليكية والأجانب)<sup>40</sup>.

اما "بوب جونز" الثالث فيقول مستندا إلى لعنة "حام" : (... أفضل ما يكون الزنجي عندما يخدم على المائدة، وعندما يقوم بذلك، فهو يقوم بأحسن ما يعرفه. أما الزنجي الذي إرتقى في مناصب في الحكومة أو التعليم، فأعتقد -بصفة عامة- انك ستجد دماء بيضاء قد سرت فيه. أنا لست عنصريا، وهذه الجامعة ليست عنصرية، لا استطيع تأكيد ذلك بما يكفي، ولكن ما أقوله، هو بكل إخلاص: ان ما تعلمته، وما استطعت ان أدرسه هو تعاليم الكتاب المقدس). كثيرة مثل هذه الحالات امتدت في عمق التاريخ الأمريكي الحديث وعبر عنها أصحابها بكل وضوح.

---

Fundamentalisms and Socity", Chieago:University of Chieago Press,  
<sup>39</sup>,462. Chieago,( 1993).

<sup>40</sup> Reeves,Jay ,Associated Press, Book Links found of Bob Jones University with Alabama Klan,(online),cited 14 june 2002 )  
;available at <http://www.geocities.com/hylesjack/bjuklan.htm>

صحيح ان عملية العبودية لم تنشأ هناك من اصول مسيحية؛ لكنها لاقت التفضيل لدى الأصوليين المسيحيين، حيث انهم قادوا القتال للحفاظ على العبودية مع إيمانهم بأن الكتاب المقدس شرعها. بعد ان انفجرت حرب الشمال والجنوب، وهم ان خسروا الحرب بصف الجنوب المتمسك بالعبودية. [استسلم الجنوبيون على مفض عام 1865 وتم تحرير كل العبيد]، لكنهم سعوا للمحافظة على الفصل العنصري.<sup>41</sup>

ما أن تم الإعلان عن تحرير العبيد واستسلام الجنوبيين عام 1865، كان هناك العديد من المتطرفين في شدة الغضب بسبب نهاية العبودية. وفي عام 1867، ومع الإدعاء بأن البيض المتدينين هم "شعب الله المختار"، تم تأسيس منظمة "كوكلوكس كلان"، لم يكن الغرض من تأسيسها سراً، كما يبدو للوهلة الأولى، سوى السعي الى تحقيق جملة من أهدافها من مثل : ترهيب السود، ومن كانوا يدافعون عنهم، ووضع السود في مكانهم " أي كعبيد"، لكن الفترة من (1889 - 1918) كشفت حركة "كوكلوكس كلان" من حجم كراهيتها وعنصريتها المقيتة، فقد أمسكت وشنقت 3224 رجلاً وامرأة وطفل، أغلبهم كانوا من السود.<sup>42</sup>

### 7 - 3 : الحرب الباردة وجرائم الابادة:

اتسمت سنوات الحرب الباردة بظهور وسائل الدعاية والتعبئة ضد الخصم الآخر. إن مبدأ الانتقام الفوري الذي انتشرت له الدعوة بصراحة في الغرب، يكون، من المحتمل ، ان الشرق أخذ به أيضا في معرض الخلافات القوية من الناحية العسكرية واستراتيجياتها المتقابلة.<sup>43</sup> وقد حولت الدعاية الأمريكية شعارات مثل: ( أعطني الحرية أو أعطني الموت) شعارا تردده أفواه المتعصبين ضد الشيوعية بصيغة: ( ان عالما بدون بشر خير من عالم شيوعي)<sup>44</sup>.

<sup>41</sup> Tindall George Brown, America :A Narrative  
Willam Martin, With God on Our ,History, vol.1, New :W.W.Norton &  
Side :The Rise of Religous Right in USA, p.568 NewYork , (1984)  
(:Broadway Books,1996),

<sup>42</sup>.Blaker, Kamberly « African-Americans, Who Took a Stand »

<sup>43</sup> رسل برتراند ، مرجع سابق، ص 52.

إن ظهور شعار وترويجه بهذه الصيغة والقصد؛ إنما هو دعوة للناس لقبول تبرير إستخدام الاسلحة النووية للانتقام، أو التهديد بها. وقد بات الناس يعرفون مدى دمارها الشامل على أعدائهم وعلى أنفسهم "أي نهاية الجنس البشري" وإبادته . والشعار السابق يعني القبول بـ "انهم يفضلون انقراض الجنس البشري على انتصار الشيوعية، او بالعكس يفضلون الفناء على انتصار الدعوة الى الشيوعية". في نفس الوقت، وفي الاتجاه المعاكس، عبأ الشيوعيون، وفي مقدمتهم ستالين "الجبهة المعادية للامبرياليين وأعداء الشيوعية".

ولوحظ ان الذين يتكلمون عن "العالم الحر"، كانوا من أنشط الدعاة في بث الكراهية ضد الشيوعية وخصومهم الذين يرفضون الليبرالية أو الديمقراطية أو اقتصاد السوق... الخ، كما ان الكيل بمكيالين ظل سمة من سمات القوى الغربية والليبرالية التي تطلق على نفسها " القوى الديمقراطية"؛ ويتجلى ذلك بسياسات غير ثابتة المبدأ، فالحكومات الغربية، وحتى بعض الاتجاهات السياسية الليبرالية، أيدت بعضها البعض عندما يتعلق الأمر والموقف من المجازر في دول العالم الثالث، فبريطانيا سكنت عن مجازر فرنسا في الجزائر، وعن ايطاليا في الحبشة وليبيا وعن البرتغال في أنغولا، وعن جنوب افريقيا وسياسات الميز العنصري "الابارتهايد". كما سكنت الدول الاوربية عن سياسات فرانكو في، بالرغم من انه إنتهج اتجاها عنصريا وقمعيا ضد الديمقراطيين واليساريين والشيوعيين الاسبان ومن ناصرهم من المتطوعين من كل العالم خلال ما سمي بـ "الحرب الاهلية الاسبانية".. وحالفت كل هذه الدول مع إسرائيل وسياساتها في فلسطين المحتلة. وفي كل هذه القضايا كانت هناك العديد من الجرائم تُرتكَب ضد الحرية وضد الأنسانية.

نفس الحال سكنت الدول الاشتراكية لفضاعات ومجازر الانظمة المتحالفة معها كما حدث في كمبوديا "الخمير الحمر نظام "بول بوت" واثيوبيا " نظام منغستو" والصومال " نظام زياد بري" وغيرها.

كَمَنْ وراء ذلك العداء المتبادل العديد من النوازع البشرية منها: الكبرياء، والريبة، والخوف، وحب السلطة والنفوذ. وفي حالات الرعب الشامل، لا يفكر معظم الناس تفكيراً سليماً؛ بل يتعرضون إلى انفعالات غريزية تدفعهم إلى ممارسة العنف تلقائياً بدافع الانخراط في الجمع أو "الحشود" أو "الغوغاء" أو "الجماهير"... الخ من حالات الاندفاع الجماعي في ممارسة العداء أو العنف. ربما يكون حب السلطة طموح فرد أو جماعة أو حزب مما يقود إلى دكتاتوريات دموية تستعمل حتى أسلحة الدمار الشامل لتصفية خصومها. أما التعلق والتمسك بالنفوذ وحب السلطة فمن المحتمل أن يكون دافعاً أقوى حتى في دفع الأمم والأقوام والدول لإتباع سياسات بعيدة عن التفكير السليم.

إن التمسك بالقوة من دون رسالة حضارية قادماً وحضارات إلى الهلاك والسقوط والعدمية السياسية، لعدم استعدادها للاعتراف بأن هناك حدوداً لسلطانها وبسط نفوذها. إن فتح بلدان العالم بالغزو المسلح خارج أوروبا والاستيلاء عليه بالقوة قد تم فعلاً، طالما كان يلبي إرادة حفنة من القادة المغامرين ممن قادوا أممهم إلى السقوط السياسي والأخلاقي. والامثلة عديدة: بدءاً من هولوكو وانهاء بنابليون وهتلر وبوش الابن. إن نشر الخراب والبؤس والموت في بلاد الفرد نفسه، علاوة على بلاد العدو، عمل مجنون.

ورغم معالم التحضر والتقدم العلمي، فهناك من يقول: (... إن الحرب جزء من الطبع البشري، وليس بالإمكان تغيير طبع البشر، فإذا كانت الحرب تعني نهاية الإنسان، فما لنا إلا أن نتنهد ونستسلم)، وهناك من يوصم أمماً كاملة بالعنف و"الارهاب". ولكن هناك حقائق أخرى في الجانب الآخر من هذه المقولات السوداوية لا تنكر أن في كل أمة رجال ونخب تعمل على تهذيب الجانب العدوانى لدى قادة أممها. وأنه لا يوجد في الطبع البشري ما يجعل من المستحيل كبح جماح أمثال هؤلاء الرجال وتلك الأمم. وكما يتم ضبط المجرمين بقوانين الجزاء يمكن ضبط الأمم والقوى

الداعية للحرب من خلال جهاز سياسي دولي لتسوية الازمات الدولية ومنع الحرب ونزع السلاح فيما لو توفرت ظروف العدالة والمساواة بين الامم.

#### 7 - 4 : التضليل وحجب الحقائق حول كشف جرائم الابدادة:

كثيرا ما تذكر قضية "كلود ايدرلي" **Cloud Eatherly**، كنموذج للتعامل اللا إنساني لمن يعلنون ندمهم واعترافهم بفداحة جرائمهم. هذا الشخص هو الذي أعطى الإشارة بإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما. نفذ ما طلب منه رغم انه لم يكن مزودا بأية معلومات بما ستصنع القنبلة بعد إنفجارها. ولكنه أصيب بمنتهى الذعر عندما اكتشف نتائج فعلته؛ لذا وتكفيرا عن جرمه وعن ذنبه، نذر نفسه ولمدى سنوات بالانخراط في شتى الفعاليات المناهضة للحرب النووية، بما فيها المشاركة في "العصيان المدني"؛ بغية إلفات نظر السلطات الأمريكية إلى فضاة الأسلحة النووية. تعاملت معه السلطة الأمريكية بالرفض والقمع. وقررت وجوب إعتبره مجنوناً، وانتزعت تأييد هيئة من أبرز علماء النفس التقليديين لوجهة النظر الرسمية بجنون الرجل.

كان شجاعا فاعترف بندمه على ما فعل، ولم تأخذه العزة بالاثم كما يُقال. المهم إعتراف "كلود ايدرلي" بذنبه؛ لكنه قيد الى السجن، ومن ثم الى مستشفى الامراض العقلية. اما "ترومان"، الرئيس الامريكي، الذي وقع قرار إبادة هيروشيما ونياغازاكي، فلم يندم، ولم يعترف بذنبه وظل فخورا بفعلته. المثال الثاني البروفسور "سينغريد غونتر"، طبيب الاطفال، ورئيس لجنة الصليب الاصفر الالمانية فقد حوكم وغرم وتعرض للاعتقال والاعتقال لأنه أفصح وكشف جريمة استعمال أعتدة اليورانيوم المنضب ضد العراق عام 1991<sup>45</sup> ولم يتراجع رغم الضغوط الممارسة عليه.

45 العبودي عبد الكاظم ، كتابنا: بشر نعم فئران مخبرية لا، مرجع سابق وكذلك كتاب " معدن العار" حول جرائم اليورانيوم المنضب في العراق.

كما اقتيد الى السجن، داعية السلام، والعالم الرياضي الفيلسوف برتراند رسل، وهو في الثانية والتسعين من عمره<sup>46</sup>. هناك أمثلة مشرفة عديدة، الا ان السمة الغالبة في مواقف العلماء والعسكريين هو التستر على حجم المأساة الكامنة خلف سباق التسلح النووي وخطر الفناء الشامل.

حول وضع "السلح النووي" في العالم تم نشر مقابلة أجرتها مجلة دير شبيجل **Der Spiegel** الألمانية مع الجنرال الأمريكي "لي بتلر **Lee Butler**" ، قائد القوة النووية الأمريكية الضاربة الاسبق، المسؤول عن تطوير الرؤوس النووية الاستراتيجية، ومصمم خارطة العالم النووية، التي تتوزع عليها اكثر من 12500 موقعا نوويا، تنتظر إحتمال تدميرها نووياً "يوم القيامة النووية"، وهي قواعد موجهة اليها اسلحة تدمير شامل مصوبة على مدى، الساعة والدقيقة، نحو 12500 هدف أرضي، موزعة على نقاط الارض في كل القارات، ويمكن الوصول اليها إنطلاقاً من نقطة معينة لها بوقت لا يتجاوز ثلث ساعة فقط ، وبخطأ لا يتجاوز 15 متراً. هناك خرائط تفصيلية لمسح مدن بكاملها من وجه البسيطة في أول ضربة نووية. هذا الجنرال، وجهت له المجلة سؤالاً حرجاً إستهلته به المقابلة :- أيها الجنرال " بتلر"، أكان من المحتمل، أن تضغط باصبعك على الزر النووي ؛ فتنتلق صواريخ الترسانة النووية الأمريكية بكامل طاقتها الجهنمية لتدمر الأرض عشرات المرات<sup>47</sup>. أجاب وقد اعتدل في جلسته، وهو يضع رجلاً فوق أخرى، لكي يعرف بنفسه على وجه الدقة:

(... نعم بكل تأكيد ، ربما "أنا" أعلم بذلك أكثر من أي انسان آخرعلى وجه الارض. كل مستقبلي وعملي العسكري كان مرتبطاً بالسلح النووي. كنت أدرّس نظرية الردع النووي في أكاديمية القوات الجوية لطلابي. وكنت أحوّق بالقاذفة **B52** وهي تحمل في أحشاءها الرؤوس النووية.

<sup>46</sup> رسل برتراند ومحاكمته، مرجع سابق، ص 3.  
<sup>47</sup> للمزيد راجع جريدة الرياض السعودية العدد 11077 تاريخ 22 اكتوبر 98 وكذلك مجلة الشبيجل الألمانية التي أجرت المقابلة العدد 32 \ 98 ص 138.

مؤخراً كنت "أنا" من يقود الزحف النووي العالمي، وتحت قيادتي كامل القوة النووية الاستراتيجية الأمريكية بما فيها : القاذفات، الصواريخ المساعدة في البر والبحر. كنت اساهم في تطوير الرؤوس النووية. وكنت "أنا" من يقرر كيفية استعمالها. وأنا من جلس في مفاوضات التسلح أو مراقبة نزع التسلح. كنت أقدم خدماتي لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية كخبير في الاسلحة النووية.

وأريد أن أفيدكم بإضافة معلومة: أن كل خطط الهجوم النووي، في حالة "القيامة النووية" كانت تحمل توقعي. كان تصرفنا "كالمخمرين"، بفارق أننا لم نكن نعي تماماً ما الذي سيحدث للكون في حال اندلاع الحريق النووي (!؟)، هكذا صرح الكاهن الأكبر السابق للسلاح النووي الأمريكي. أترك النص للمقابلة، كما هو لكي يستنتج القارئ كم كانت تلك "الانا" التي وضعناها بين قوسات [ مغروسة في اعماق إنسان كان بيده مصير البشرية كلها.

وكما اشرنا في فصول وأبواب اخرى من هذه الدراسة ان هؤلاء كما يصفهم "سارتر" من "المتقفين المزيفين" ينقلبون فجأة الى دعاة من اجل السلام بعد تقاعدهم، تاركين منصة القيادة والمصير العالمي لأيادي أخرى، لا تقل عنهم إستعدادا للإجرام والابادة الجماعية، عندما يُطلب منها أن تفعل، او عندما يطلبون لأنفسهم ولغيرهم حالة الانتحار النووي الجماعي : الجنرال "بتلر" وغيره كثيرون ؛ فما ان يغادروا مكاتبهم الى التقاعد، حتى ينقلبوا الى أشد المعارضين ضد إستخدام الأسلحة النووية، ويصبح داعية سلام في الوقت الذي يستمر في تقديم إستشاراته لجنرالات الحرب من بعده. ها هو يواصل ذكرياته التي نكتفها :

(... كانت رحلة طويلة على مدى نصف قرن تعرض فيها الرجل الى إهتزاز عاطفي ورعب وضغوطات أقرب الى الموت كما وصف نفسه، صرفت خلالها الولايات المتحدة ستة ملايين مليون دولار ( 6000000000000 "رقم ستة وأمامها 12 صفراً" ، وطورت خلالها ما يزيد عن سبعين

ألف رأس نووي ( **70000 Nuclear Head** ) ، بنماذج بلغت (مائة وست عشرة) 116 نموذجاً، بدءاً من قنبلة هيروشيما بطاقة تفجير 18 كيلو طن من مادة TNT ، ثم صعوداً وتكبيراً maximizing لحجم الهول النووي ، بتطوير القنبلة الحرارية النووية " الهيدروجينية **Hydrogen Bomb** - بعيار خرافي فلكي، وبقوة تفجير من مستوى (مليون طن - ميجابطن من مادة ت ن - ت) فوصلت جرعة التفجير في الستينات الى ما يفوق مضاعفة طاقة قنبلة هيروشيما بثلاثة آلاف مرة (قنبلة الجروباتس بعيار 58 ميجا طن).

وفكر البنتاغون بتطوير قنابل أخرى بعيار 100 ميجا طن،... وشعوره أن ما عنده كان يكفي لمسح البشر والمدن من سطح الأرض لعشر مرات. ثم جاء تطوير الجيل الثالث من الاسلحة النووية بتكثيف جرعة الاشعاع على حساب الضغط والحرارة؛ بحيث يقضى الاشعاع على البشر فقط، ويتسنى للمعتدي استلام مدن وآليات نظيفة من بني آدم المقتول "تأينا" بإشعاعات (قنبلة النيوترون **Neutron Bomb** ). ولم تكن هذه القنبلة نظيفة بأي حال من الأحوال، هي تقنية سعت نحو رحلة النزول بالطاقات المتفجرة وتصغير الحجم minimizing الى ما يكفي إلغاء الهدف من الوجود، بحيث أنتجت قنابل صغيرة من عيار أجزاء من قنبلة هيروشيما، يمكن استخدامها بحشوها بالمدفعية التقليدية بعد تعديلها تقنياً، وبعيارات من حجم كرات التفاح الصغيرة. هذه القنابل حملها الحلفاء في حرب الخليج الأخيرة، من كل فاكهة زوجان، ما يقرب من 600 رأس نووي صغير، على ماروته مجلة " الشيفرة Code " الألمانية.

ولا يستبعد أن يكون العراق قد هُدد باستخدام السلاح النووي، في حال مد يده الى السلاح البيولوجي أو الكيميائي الذي كان يمتلكه في 1990، وافتقده بعد 1991 عندما هوجم مراراً من قبل تحالف الولايات المتحدة بشراسة. كما لا يستبعد استعمال محدود لاسلحة نووية ضد العراق [معركة مطار صدام الدولي ببغداد في الاسبوع الاول من أفريل/نيسان 2003 تمهيدا لدخول القوات

الامريكية الى بغداد يوم 2003/4/9]، بموجب تقارير نقلت عن ارتفاع نسبة الأطفال المصابين بسرطان الدم في منطقة البصرة والفلوجة ، بفعل تسمم البيئة وآبار المياه باليورانيوم المنضب. وهناك أخبار عن تطوير ألغام أرضية نووية من حجم صغير ضد الفرق المدرعة، ولا يستبعد أن تكون مناطق من الجولان وسيناء وغيرها مزروعة بهذه الفصيلة من القنابل.

طورت أمريكا بجانب الرؤوس النووية، نظام حمل هذه الرؤوس، وهي التقنية التي ولدت من رحم النظام النازي، في نهاية الحرب العالمية الثانية ، عندما طوّر هتلر نظام الصواريخ (ف<sub>1</sub> وف<sub>2</sub>) ( V<sub>1</sub> & V<sub>2</sub> ) لضرب بريطانيا انطلاقاً من الساحل الفرنسي. أمريكا اليوم طورت ما يزيد عن 65 نموذج قاذف صاروخي .

مسحت أمريكا خلال نصف قرن الماضي فضاء الجو الخارجي بتطوير نظام التوابع الارضية "الساتلايت" ، الذي تحول الى شبكة المقمرات الهوائية الزاحفة على سطوح المنازل والبر من خلال تطوير نظام كمبيوتر وشبكة الانترنت، كما رسمت قيعان البحار بخرائط تفصيلية، استعداداً للضرب النووي من أعماق البحار، من غواصات نووية تجوب البحار والمحيطات، وتحمل مكونات الحريق النووي من صواريخ ورؤوس نووية .

خرائط قيعان المحيطات "الكارتو جرافي Cartography" التي يستفيد منها اليوم صيادوا الحيتان والاختبوط ، لكن تُصمم بموجبها غواصات من نموذج " الطائر العميق الجيل الثاني Deep-Flight II تتحمل الضغط الى عمق 11000 (أحد عشر ألف متر) ، ويكتشف بواسطتها في القاع عشرة آلاف مليار طن من مادة ( الميثان المُبلور Cristalized Methan ) وهي طاقة سوف لا تعرف النفاذ يوماً .

من الطريف التذكر: أن الجنرال "بتلر" سبق ان إعترف أنه : (... لا العسكريين ولا السياسيين، فضلاً عن الخبراء ، جلسوا يوماً ليحسبوا على وجه الدقة ماذا سيكون وضع العالم، عندما يزحف الرؤساء من المخابيء النووية بعد الحريق الأعظم، يخرجون من الأجداث الى سطح الأرض كأنهم جراد منتشر، مهطعين رؤوسهم مرتعبين؟؟). وكل ما فعله الجنرال، عندما سُئل ماذا كتبت في اوراقك حيال " قيامة قبل القيامة"؟.

قال: (...كانت هناك حسابات رياضية فقط عن كمية التدمير التي سوف تنزل على رؤوس البشر والمنشآت الحيوية. لا معلومات عن انقلاب وتغير المناخ، وكسوف الشمس الطويل، لا خبر عن الحرائق التي تلتهم الغابات فتحيل الأرض الى جهنم تتلظى، لا إحصاءات عن الاشعاعات التي ستفتك ببني آدم . لا مخبر عن تقطيع كامل النسيج الحضاري... لم تكن تقاريرنا تتضمن كلمة واحدة عن كل هذا. الحرائق، لا يعرف أحد مسبقاً ماذا سيحترق؟. الاشعاعات لا تقلقوا "مواد السقط النووية المشعة" سوف تنتشر مع اتجاه الرياح؟!... أما السؤال عن الضحايا فكانوا يستعملون وهم الرأسماليين، ومنطق جوزيف ستالين **Josef Stalin**: "مقتل انسان قضية تراجيدية، أما مقتل الملايين فهي مسألة إحصائية"!!؟؟). ولا تعليق هنا عن "حمافة القيامة النووية" فلا أحد سيقراً كل هذا الهول بعدها.

خصصت الولايات المتحدة في احد السنوات الاخيرة مبلغ 35 مليار دولار لتطوير سلاح نووي جديد، قيل عنه، (...يقتب الأرض ويفجر مراكز القيادات السياسية والعسكرية في المخابيء النووية تحت الأرض ... انه يحدث أقل قدر من التدمير والاشعاعات على وجه الأرض) ويبدو لنا إن أول تطبيقات مثل هذا السلاح تم تجريبه في قصف ملجأ العامرية ببغداد ليلة 13 فيفري/شباط 1991، قتل الامهات وبأحضانهن أطفالهن الرضع بدم ونار امريكية بدت باردة، طويت صفحة العامرية عندما اغلقت القوات الامريكية متحف العامرية بعد احتلالها بغداد ربيع 2003.

يصف الجنرال "بتلر" بصفته الخبير الأمريكي، والجنرال السابق والقائد الأعلى أهوال القيامة النووية متحدثاً بمصطلحاته عن "ألزحف النووي" أو يوم "النبأ العظيم"، كان مديراً للخطط الاستراتيجية النووية في البنتاجون، يحتل كرسي القيادة العامة في أوماها **Omaha** في نبراسكا **Nebraska** يقر بكلمات مختصرة الحقيقة التالية : ( إننا نضيع الفرصة الثمينة لتطوير قواعد جديدة للأمن في العالم، حيث لا يوجد مكان للسلاح النووي. لم يعد السلاح النووي حكراً على أيادي الكبار الخمسة؛ فالنادي النووي سيجبرنا على قبول الكثيرين القادمين وبأيديهم قنابلهم النووية) <sup>48</sup>.  
الباكستانيون والهنود ثملون اليوم بكأس الخمرة النووية، ووراءهم يجري الإيرانيون، والعرب قاعدون ملومون ومحسورون، يرون في هذا التطور النووي ظهيراً لهم في صراعهم مع "الجالوت النووي الجديد" في المنطقة "إسرائيل". المسلمون مستبشرون ويهللون مكبرين بولادة أي طفل نووي لهم غداً. والعالم سيعلم في أية لحظة عن ولادة قنبلة نووية "إسلامية" ثانية، ربما ستكون في إيران بعد الباكستان؟. مهما قيل عن نشوة "السُّكر النووي"، وميلاد "الطفل لنووي الجديد"، لهذا البلد أو ذلك، فإنه لن يكون إلا التحاق متأخر ومشؤوم بمحرقة الإبادة النووية؟، ذلك من بقايا الأساطير النووية التي لم تعد حكراً لأحد. لا ولم يكن للقبائل النووية دين في يوم من الأيام؟. ولا يحل مشكلة العرب اليوم أمام (جالوت الجبار ظهور فتى من بابل أو كنعان ليلجم بوابة الموت قبل اتساعها) وهم في إنتظار مهدي القيامة مهدي القنبلة النووية المنتظرة؟.

فكك المشروع النووي العراقي، ورَحَّلت ليبيا منشئاتها النووية طواعية من دون حرب على ظهر سفن أبحرت بصمت نحو ضفاف الولايات المتحدة مستسلمة من دون شروط.

بات السلاح النووي صنماً، والتسلح به خرافة، تنتمي إلى العهد القديم، والشعوب قوة لا تقهر إذا ما تسلحت بالعلم والمعرفة والعقل والتقانة التي تخدم الإنسان. أما الجيوش والانظمة فسهل

<sup>48</sup> حتى هذه اللحظة بلغ أعضاء النادي المعننين الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا وفرنسا والصين والقادمون باكستان والهند، ولا يستبعد ان هناك دول ساكنة على قائمة الانتظار، إسرائيل، وكوريا وإيران.

هزيمتها، والأسلحة المتطورة شرك لدولنا الفقيرة، وشعوبنا الأمية بشكليها الالفبائي والرقمي واقع مؤلم، والعالم ينتظر ولادة انسان الفكرة وتوديع أداة القهر، لنتعلم أن أفضل ما يستخرج من الانسان، نبوغه عند إقناعه بلا جدوى حروب الدمار الشامل، لا بتخويفه بها وهي ستبديد السادة والعبيد على حد سواء.

## 7 - 5: العبرة والعبور نحو ضفاف الوجود الانساني والهوية:

طبيعة العلم إنه يتقدم بالجهد ، وينمو بروح الفضول واكتشاف المجهول والعشق المعرفي، ويغذى بالمال، وينتج في مؤسسات البحث العلمي ، ويزدهر في جو من حرية التفكير والمعتقد من دون كوابح وعوائق وقمع. ولم يعد العلم يُكتشف بالصدفة والحظ، كما قيل لنا يوما في مدارسنا البليدة التي تحكي عن "حكايات سقوط تفاحة نيوتن" و" حوض سباحة أرخميدس" لتكتشف قوانين الجاذبية العامة وقانون دفع السوائل للأجسام. العلم مؤسسة تنمو وتزدهر بالتراكم المعرفي، ويتحقق التقدم التقني والنفع العام للبشرية بها عاجلا أم آجلا ولو بعد حين.

كان يمكن تحقيق السلام العالمي من عبرة ورماد هيروشيما، والتمسك بما ينفع الناس الذي يمكث في الأرض ، والزبد يذهب جفاء، وزكاه القرآن فمنح الثقة لاثنين : العقل والعلم ، وسحبهما من اثنين : الظن والهوى، وجمع المعنيين في نصف آية عن مزيج الضلال: ( إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ) ؛ فكان الهدى مزيج "العقل مع العلم" وكان الضلال خلطة " الظن والهوى".

نحن لا ننتسب الى هذا العصر بعد، لأننا لم نشارك في صناعته كعرب فاعلون في حراكه العلمي والمعرفي. نحن في منعطف تاريخي في هذا العالم العربي نقف أمام خيارات الوجود أو الإبادة. ولا بد من تكوين آلية نقد ذاتي كاملة لمسلماطنا العقلية المعاصرة وللتراث ايضا. وما حوى

تاريخنا من عبر وتجارب أيضا. لنعرف من نحن ؟ ونكتشف أنفسنا بالخصوص في طبقات أركيولوجية كاملة من المعرفة على حد مصطلحات الفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو".

ان إنهيار قيم التسامح وتصاعد التطرف والعنصرية في العلاقات الانسانية ناجم عن تضاعف فرط القوة المسلحة بيد الأقوياء. وجميع محاولات البحث العلمي ترددت في تناول موضوعات التعصب والتطرف، وعلاقتهاما بازياد هوة فرق القوة والفجوات لدى المجتمعات. وهناك من ينظر للموضوع من منظور العوامل الفردية، وآخر أخذ يراه من خلال البعد الاجتماعي والمحيط حول الفرد، وآخرون تعاملوا مع العاملين (الفرد والمجتمع) مُجمَعين، إضافة الى عوامل اخرى.

ربما كان "كلود ليفي-شترأوس" هو من قدم أبرع تعريف للعنصرية: (انها الاعتقاد بأن سلالة بشرية معينة [تكون عادة - وليس دائما- هي سلالة الفرد نفسه] هي سلالة فائقة بيولوجيا- ميزها عن غيرها ما حظيت به من جينات وكروموسومات ودنا متفوق). وهذا الحال الآن مع امريكا، وليس من قبيل الصدفة: ان عليك ان تضرب اولا الرقم 1 اذا اردت ان تتلفن الى الولايات المتحدة من خارجها. في اية لحظة معينة، قد يسود شعب برغم العديد من الشعوب والدول التي سادت قبله او ستسود بعده. طبيعي انه لا يلزم ان تكون متفوقا بالفعل كي تقتنع بأنك كذلك، فقد يرى الآخرون قوتك حتى في نجاح محدود. يعتقد الكثيرون ان البيولوجيا هي التي تكمن من وراء هذه السيادة.<sup>49</sup>

إيراد رؤية تكاملية لرتب الهوية، كحلول محتملة لازمة الهوية، تحدها الفروق الفردية في مدى قابلية اكتساب الاتجاهات التعصبية. باعتبار ازمة الهوية في نظر "اريكسون" ( أزمة نمائية تنشأ عن تغيرات فسيولوجية وتوهامات مجتمعية قد تهيئ أو لا تهيئ للتعصب في مرحلة الشباب خصوصا بأكثر مما تفعل في أية مرحلة اخرى). وان رتب الهوية الأقل نضجا (التشتت والانغلاق)

<sup>49</sup> كافلي لويجي لوقا ، ، الجينات والشعوب واللغات، مكتبة الاسرة18. ، القاهرة، (2004) .

ترتبط إيجابيا بالاتجاهات التعصبية؛ بينما ترتبط الرتب الأكثر نضجا، وهي "التحقيق والتعليق" عكسيا بالاتجاهات التعصبية<sup>50</sup>.

ان رتب الهوية التي تمثل حلولا غير سوية لازمة الهوية يمكن ان تجعل من الفرد أكثر استعدادا للتعصب، انطلاقا من تصوره الخاص للتعصب، أنه في جملة إجراءات دفاعي ضد الشعور بتشتت الهوية أو إرتباك الدور؛ بما يعني ان الاتجاهات التعصبية قد تمنح الفرد نوعا من الهوية ولو كان زائفا، فهو على الاقل يجنبه ألم الشعور باللاهوية، أو يمكنه من التهرب من إلحاح الحاجة الى الهوية<sup>51</sup>.

ورغم ان التعصب، بما هو قائم على الكراهية والازدراء والتمييز هو ضد الانسانية سيظل ممقوتا وتحاول الذاكرة التاريخية والحضارية لأي أمة التنصل من تبعاته السلبية الا ان الحقيقة التاريخية لا تخفي ابدا أن اغلب الافعال الوحشية التي ارتكبتها البشر، بسبب التعصب، لم تكن على يد مجرمين أو مجانين، وانما قام بها أفراد عاديون لصالح جماعتهم ضد جماعة أخرى.

وفي هذا الصدد يشير "تاجفيل, Tajfel" <sup>52</sup> : (اذا اعترفت انني في الاسبوع الماضي قتلت شخصين من اجل مصلحتي الخاصة، أو لأجل أسرتي، فلن يختلف إثنان في أي من المجتمعات التي نعرفها على انني مجرم. أما إذا اعترفت بأنني في الاسبوع الماضي قتلت، أو تسببت في قتل الفين من البشر لصالح جماعتي الدينية أو السياسية أو الاجتماعية أو العنصرية أو القبلية أو الوطنية، فأقل ما يمكن قوله انه في إطار بعض الجماعات سيكون هناك خلاف على مدى أخلاقية سلوكي، أما في باقي المجتمعات فقد لا يكون اللوم على هذا السلوك مطروحا أصلا)<sup>53</sup>.

<sup>50</sup> الدسوقي كما ل ،من تصدير كتاب"في اسباب التعصب" للدكتور هاني الجزار،ص 11. مكتبة الاسرة، القاهرة، (2006).

<sup>51</sup> الجزار هاني ،مصدر سابق،ص 11.

<sup>52</sup> Tajfel., H. ,Social Psychology of Intergroup Relations,Annual Review of Psychology,33,1-39, (1984).

<sup>53</sup> دكت جون ، علم النفس الاجتماعي والتعصب ، ط 1 ، دار الفكر العربي ص. 39 القاهرة،(2000).

ورغم أن الإنسانية تفاعلت بالعلم وتقدمه لإنقاذ البشرية من شرور التعصب إلا أن سنوات القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة تؤكد تراجع هذا التفاؤل بسبب تزايد معدلات الجرائم والمذابح بسبب العداة والصراع بين الجماعات بشكل غير مسبوق، وعلى نحو يجعل من مذابح وجرائم القرون السابقة متواضعة بالقياس الى ما جرى في القرن العشرين والسنوات الثمانية الاخيرة من مقتبل القرن الواحد والعشرين[حروب العراق وافغانستان والصومال].

والسؤال المطروح من جديد: هل ان عصرنا يوفر ميادين مؤاتية للتعصب ومن ثم العنف؟؟ وهل ان التقنية والسلاح والقوة والاعلام يدفع المجرمين والساسة الى واجهة السياسة لتنفيذ مآرب عصبوية؟؟.

ان الواجهات السياسية لبعض الايديولوجيات كالهتلرية والستالينية والماوية والمكارثية وحتى بعض الواجهات الاسلاموية والمذهبية في عالما العربي والاسلامي تشكل واقعا وبورا وحدثا مستمرا تجبرنا على الاعتقاد ان ثمة دوافع تعصبية كامنة حتمت الاندفاع للافراد أوالجماعات المرتبطة بهم الى تنفيذ الجرائم بحق الخصوم او بحق حتى الغير ولو كانوا مجرد غير مؤيدين لذلك التعصب.

وانه من المفارقة ان جميع لوائح هؤلاء وأولئك ورسائيرهم وخطبهم وكتبهم كانت ولا زالت تطرح تحريم قتل الانسان او ألمس بحريته أو على الاقل : (.ان الانسان ، باعتباره كائنا اخلاقيا، لا يعيبه او يعرضه للمهانة رأيه أو عنصره أو دينه أو جنسه أو طبقتة)، ومع كل هذا القول المجمل سطرت الانسانية صفحات سوداء من الخزي المخجل لها تحت باب التعصب والتطرف والانحياز.

تم هذا رغم ان جميع رسائير الدول والاحزاب والجماعات والكتب السماوية ظلت تجرم التعصب الاعمى وتلفظه. ولكننا نرى، وفي جميع الادوار والعهود، ثمة فجوة رهيبية بين ما يمارس وما بين ما يعلن او يكتب.هل نعفي امة او مجتمع او جماعة ما عن تهمة العنصرية او

التعصب؟، ام علينا ان نشخص الظاهرة من دون تعصب لهذا أو ذاك، ومن دون عقدة الخوف من خصومنا في الرأي، حتى ولو كانوا متطرفين أو متعصبين.

وكي لا تختلط المفاهيم والمصطلحات والمسميات في هذا الجزء من المبحث لابد من الايجاز وتناول العديد منها بقدر ما يقترب التعريف بموضوعنا وجوانبه من تناولها على قاعدة "فولتير": [قبل ان نتحدث معي حدد مصطلحاتك]:

## 7 - 6: العنصرية والتعصب والتمييز العنصري:

عرفت البشرية منذ القدم اتجاهات سلبية وتعصبا بين الافراد والجماعات والامم، مما شكل اساسا لحلقات لم تتوقف من الصراعات ومصدرا للتعاسات والشرور، وسوء التفاهم بين البشر. ولم يكن التعصب بشئ محدث او جديد على العالم الذي يعيش الآن موجة حادة من الصراعات، تنتشر في جميع أرجائه، وذلك بسبب صور عديدة من التعصب، أهمها التعصب العرقي والديني والطائفي<sup>54</sup>. والعنصرية: تعني الاعتقاد بان الارث الثقافي او العنصري لجماعة الفرد يتفوق فطريا على الارث الثقافي او العنصري للجماعات الاخرى، يصاحب هذا الاعتقاد اتجاهات التعصب ضد اعضاء الجماعات التي صنفت بوصفها " أدنى" أو " أقل ". وقد قادت هذه التصورات العرقية حول "التدني البيولوجي" اصحابها الى تبرير المعاملات غير العادلة لافراد تلك الجماعات وقادت الى سياسات التمييز العنصري والتطهير العرقي والابادات. كما ان المصطلح "العنصر" **Race** كما يذكر "بلوم مرجع سابق 1971" هو: ( مفهوم بيولوجي يشير الى الخصائص الجسمية التي تميز جماعة بشرية عن جماعة اخرى؛ وبالتالي فالجماعة العنصرية هي جماعة كبيرة من الجنس البشري تتميز بانها سلسلة ممتدة ومستمرة وتتسم بتكرار حدوث عدد كبير من خصال الجسم

<sup>54</sup> والعنصرية اكثر المفاهيم التي تتداخل ومفهوم التعصب، الى حد سيادة الاعتقاد ببان التعصب لا يعنى سوى العنصرية، وذلك راجع الى الجزء الاكبر من الادب السايكولوجي الخاص بالتعصب يقوم على الكتابات والدراسات التي تناولت العنصرية، بما هي تمثل اكثر ما عانت منه البشرية. غير ان العنصرية او التعصب العنصري كما يعتبرها السايكولوجيون ليست الا شكلا من اشكال الاتجاهات التعصبية الى جانب الاشكال الاخرى العديدة راجع أيضا: هاني الجزار، في اسباب التعصب، مرجع سابق، ص 31

الوراثية داخلها)، وبطبيعة الحال ونتيجة للمزج العنصري بين السلالات المختلفة لا يمكن القول بأنه توجد اليوم جماعة ما تمثل "عصر نقي" pure race وليس هناك من جمهور متجانس بشكل كاف في الملامح الجسمية او في السلالة الممتدة.

والتعصب في اللغة: من العصبية، ومعناها ان يدعو الرجل لنصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين<sup>55</sup>. وبمزيد من التحدد يبين د. جابر عصفور في مؤلفه "ضد التعصب" عبقرية اللغة العربية التي يمكن ان نستدل من توصيفها للتعصب على متضمنات الاصلاح على نحو ما كشفت عته الكتابات والدراسات الاكاديمية. إذ يقال عصب الشيء بمعنى شده، وعصب القوم به اجتمعوا واحاطوا به، وعصب الريق، بمعنى يبس عليه، وعصب الرجل بيته، أقام فيه لا يبرحه. والعلاقة اللغوية بين عصب و تعصب هي البعد الدلالي الذي يغدو فيه " التعصب" ثباتا متحجرا على أصل من رأي أو فهم أو تأويل أو اعتقاد، ومن ثم تصديقا مطلقا لكل ما ينقل عن "عصب" الجماعة او " المعصب" من اصول الرأي فيها، حيث مصدر السلطة التي " تعصب" بها امور الافراد من المجموعة الاصولية، او ترتد اليه مواقفها الفكرية وفعالها السلوكية، داخل مجالات من تراتب "العصبية" التي "تتعصب" بما هو "عصب" لها و "معصب" فيها<sup>56</sup>.

إذن الدلالة اللغوية للتعصب لاتخلو من إقترانها بالفهم الجامد للنصوص والافكار والمعتقدات والافكار النمطية والمسبقة. وتتضمن من معاني الثبات والجمود على الاصل اليابس وما يرتبط بمعاني الاجماع والقسر التي تدني بكلتا الداليتين الى أحوال القمع الذي هو نتيجة لاصولية التعصب، او تعصب الاصولية<sup>57</sup>. والعصبية من المصادر النسبية، نسبة الى قوم الرجل الذين

<sup>55</sup> ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، 1981. التعصب في العربية، مصدر مشتق من عصب الشيء عسبا، يعني طواه ولواه وشده. وفي "المعجم الوسيط" تفسر كلمة تعصب بمعنى شد العصابة... ويقول تعصب القوم عليهم، أي تجمعوا وصاروا عصابة. وفي "المعجم الاساسي" فان التعصب لشخص أو مبدأ يعني الغلو في التعلق به والغيرة عليه.

<sup>56</sup> عصفور- جابر مرجع سابق، ص 31. - جابر عصفور، ضد التعصب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، (2000).

<sup>57</sup> الجزار هاني ،، في أسباب التعصب ، مكتبة الأسرة، ص22 القاهرة، (2006).

يعززون قوته، ويدفعون عنه الضيم والعداء، فالتعصب وصف للنفس الانسانية تصدر عن نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه<sup>58</sup>.

والتعصب لشيء، بالمعنى اللغوي العام هو المتصف بالميل الشديد اليه، وبهذا المعنى كان من الممكن ان يطلق اسم المتعصبين على كهنة الآلهة القديمة، الذين كان من عاداتهم في عبادتهم ان يعترتهم هذيان يحملهم على طعن أجسامهم حتى يسيل منها الدم<sup>59</sup>.

ان المتدين يميل الى أن يتخذ الدين قناعا لكل اواع الافعال وردود الافعال القاسية التي يرتكبها ويمنح القناع تعابير جميلة من الورع والدين والايمان بالقيم، لكنه يخفي قرارة نفسه دوافع آثمة. ففي حملات الغزو والاستعمار التي اشرفنا اليها(من محاكم التفتيش الى الغزوات الاستعمارية الى الحروب الصليبية والمعاصرة)، كثيرا ما استغل الدين من اجل اضعاف قدسية على الافعال، وظل مصدرا للتعصب<sup>60</sup>. ولا يزال الاستعلاء الديني الذي تصنف بمقتضاه الشعوب الى كافرة ومؤمنة، وهو الذي يلهم الكثير من صور التعصب<sup>61</sup>. ويدفع الى العنف وشن الحروب حتى بين شعوب تنتمي الى حضارات وثقافات متقاربة. على سبيل المثال نشير الى تغير في موقف البابا جورج زابيلكا **Gorge Zabelka** عام 1980، من مباركته الدمار الشامل الذي أحدثته الولايات المتحدة الامريكية عند ضربها مدينتي هيروشيما زنياغازاكي في نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم ندمه على تلك المباركة المشؤومة بعد عدة سنوات وجاء ذلك في اعتراف شهير : (... ان التركيب الكلي للمجتمع العلماني والمتدين والعسكري أرشدني بأنه كان من الافضل أن نترك اليابانيين؛ لأن الله كان في صف بلادنا)<sup>62</sup>. وخطوة اخرى في الاتجاه نفسه تجعل المتعصب يُسخر عقله لهواه، ويجد

<sup>58</sup> الافغاني جمال الدين ، ومحمد عبدة، العروة الوثقى، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، (1993).  
<sup>59</sup> راجع كتاب "وليم جيمس [William James] في كتابه "قناع التدين Piety is the Mask، الذي نشر عام 1902.

<sup>60</sup> اسماعيل السيد علي ، ، اتجاهات طلاب كلية التربية بالمنيا "جمهورية مصر العربية" نحو المدافعة، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة عين شمس، القاهرة، (1992)

<sup>61</sup> الحفني عبد المنعم ، ، موسوعة الطب النفسي، المجلد الاول، ، مكتبة مدبولي، القاهرة، (1995).

<sup>62</sup> Myers,D), Social Psychology, , Mc Graw – Hill Companies,Inc. p.388 New York , (1993)

في نصره رأيه بالعنف ويضيق عن المناظرة بالحق، فالتعصب إذن نقيض الحرية والتسامح<sup>63</sup>. والمصطلح في اللغة العربية يشير الى معنى أكبر مما تشير اليه اللغات الاجنبية، فمفهوم التعصب مشتق في أصله الاوربي من الاسم اللاتيني "الحكم المسبق" *Praejudicium*<sup>64</sup>. ويعني بالانجليزية، *Prejudice* وبالفرنسية *Prejuge* وبالالمانية *Vorurteil* كذلك ليتطور حس المراحل<sup>65</sup>.

وقدم مر هذا المفهوم بثلاث مراحل، حسب "البورت" Allport هي:

- المعنى القديم: حيث كان ينظر الى التعصب على انه حكم مسبق قائم على اساس القرارات والخبرات الفعلية.

- ثم اكتسب المفهوم بالانجليزية معنى الحكم الذي يصدر على موضوع معين قبل القيام باختبار وفحص الحقائق المتاحة عن هذا الموضوع، فهو هنا حكم متعجل *Premature* ومبتسر.

- واخيرا اكتسب المفهوم الصبغة الوجدانية خاصة الانفعالية الحالية، التي تتسم بالتمييز *Favorableness* او عدم التمييز *Unfavorableness*. هذه الصبغة الوجدانية التي تصطبح الحكم الاولي "المسبق" الذي لايدعمه أي سند<sup>66</sup>. يعتبر مفهوم التعصب من المفاهيم التي تناولها العديد من علماء النفس، لذلك تعددت المضامين التي يشير اليها هذا المصطلح. يرى فيه العديد من الباحثين<sup>67</sup> إتجاهها، وحسب ("روبرت بارون" و "دون بيرن")، انه اتجاه، وغالبا

<sup>63</sup> عبد الباقي سلوى ، (1992)، التعصبيات القبلية في دولة حديثة "دراسة في التعصب"، مجلة الدراسات النفسية، ك 2، ج2، 203-228.

<sup>64</sup> Allport G.W., 1958, The Nature of Prejudice,  
Cambridge, MA :AddisonWesley

<sup>65</sup> الحنفي عبد المنعم ،موسوعة الطب النفسي، المجلد الاول، مكتبة مدبولي، القاهرة، (1995).  
<sup>66</sup> المرجع السابق،

Allport G.W., ,The Nature of Prejudice,  
Cambridge, MA :AddisonWesley1958.

<sup>67</sup> زايد أحمد، "سيكولوجية العلاقات بين الجماعات"، سلسلة عالم المعرفة، ص 61-126. الكويت، (2006).

مايكون سلبيا، ضد أعضاء جماعة ما ليس الا لعضويتهم وانتمائهم لهذه الجماعة<sup>68</sup>. ويتفق "دايفيد ميرز" مع "بارون وبيرن" بوجهة نظره حول التعصب على انه اتجاه سلبي، غير منطقي تجاه جماعة او اتجاه أعضاء هذه الجماعة. ويتفق تعريف "برغمان" مع التعريقين السابقين حيث انه يرى: (... ان التعصب اتجاه سلبي سائد تجاه اعضاء الجماعة الخارجية)<sup>69</sup>. ويتفق مع ما اشار اليه "براون": من ان التعصب تمسك باتجاهات تتسم بالازدراء، فالتعصب عنده (هو حكم غير عادل unjust " أو حكم خاطئ تجاه أعضاء جماعة معينة).<sup>70</sup> وينظر كل من "نيوكومب" New Comb و "تيرنر" Turner و "كونفيرس" Converse 1965 و "سكورد" Scord و "باكمان" Bacman 1964... وغيرهم<sup>71</sup>. على انه اتجاه، وان الجمود Ridity، والتفكير غير المنطقي، والتعميم المفرط Overgeneralization والظلم تعتبر كلها مكونات في الغالب يتضمنها تعريف التعصب<sup>72</sup>. ويذهب "برهمان" و "شربسكوزبي"<sup>73</sup>: "...من ان التعصب اتجاه سلبي ضد أعضاء في جماعات اجتماعية معينة)، وهذا التعريف: (يعني ان الناس تتعصب ضد أعضاء ديانات مختلفة، أو أحزاب سياسية، أو طبقات اجتماعية، أو حتى ضد فئات من ضعاف العقول، أو كبار السن، بالإضافة الى تعصبهم ضد الجماعات العنصرية او العرقية). ويرى "سيرز

<sup>68</sup> Baron, R. and Byrne D), Social Psychology : Understanding Human Interaction, Ed. Boston, Allyn and Bacon, Inc. .(1994

<sup>69</sup> Bergmann, W., , Prejudice and Sterotypes, Encyclopedia of Human Behavior, Academic Press, 3, 575-586., (1994).

<sup>69</sup> Baron, R. and Byrne D.(1994), Social Psychology : Understanding Human Interaction, Ed. Boston, Allyn and Bacon, Inc.

145 احمد زايد، (2006)، مرجع سابق، ص 61-126.

<sup>71</sup> Brown, R, Prejudice : Its Social Psychology, USA : Oxford and Cambridge Black Well, USA, (1995)

<sup>72</sup> Stephan, W. and Stephan C, Intergroup Relation, Madison: Brown and Benchmark's. .(1996)

<sup>73</sup> Perhman, D. and Chriscozby, P, Social Psychology, C.B.S. College Publishing, ,(1983).

وزملائه 1991" Sears et al.1991<sup>74</sup>. "... ان التعصب يشير الى اتجاهات سلبية ضد الجماعات الخارجية، وهو أيضا تقييم لجماعة أو فرد، هذا التقييم غالبا ما يكون سلبيا ومبنيا على أساس عضوية الفرد لجماعته).

من ذلك وغيرها الكثير من المراجع والدراسات الكاديمية يمكن ان تجمل التعريفات المختلفة لباحثين ينتمون الى عدة مجتمعات الى ان: التعصب هو اتجاه، وغالبا ما يكون سلبيا" اضافة الى بعض حالات الايجاب"، ومظاهر التعصب السلبي عموما ضارة، وهو ايضا يعني الحكم السلبي المسبق ضد أفراد او تجاه جنس Race او دين Religion او تجاه دور اجتماعي آخر، وهو في ذات الوقت تقييم سلبي غير عادل لجماعة أو لاعضاء هذه الجماعة، كما انه التفكير السئ المريض ill thinging حبال الاخرين دون وجود دلائل كافية<sup>75</sup>. وانه ايضا اتجاه وجداني جامد تجاه جماعة من البشر<sup>76</sup>. والتعريف الاخير يرى ان معظم الدراسات اشارت الى مكونين من مكونات التعصب هما "المكون المعرفي Cognitive والمكون السلوكي Behavioral " فاضاف اليها مكون ثالث سماه " المكون الوجداني Emotionality ". وأخيرا يتخذ التعصب شكل إتجاه عند" بلوم و ايكفور، 1989<sup>77</sup>. ويعرف بأنه : (... إستعداد Readiness للاستجابة بالتأييد "المحابة"، أو العدوان، بطريقة متنسقة تجاه أفراد أو جماعات أو أشياء، أو أفكار). يذهب" روبرت براون Brown, 1995" الى ابعاد من ذلك في وصف وتعريف التعصب من : (... انه التمسك باتجاهات تتسم بالازدراء، او

<sup>74</sup> Sears ,D,Peplae,L.,and Tylor,S. Social Psychology, Eds. Prentic-Hall International,Inc. New York: .(1991).

<sup>75</sup> (Allport,G.WThe Nature of Prejudice,Cambridge ,:Addison Wesley,p.7 M.A. .(1958),

<sup>76</sup> Rosenberg ,M.,and Turnner ,R.,(1981) ,Social Psychology:Sociological Perspective,New York:Basic books,Inc. Publisher.

<sup>77</sup> Bloom,L.and Egwu, E,Conise Lecture Notes on Psychology ,Mac Millan,Publishers., London, (1989)

معتقدات معرفية، أو أسلوب له أثر سلبي، أو إظهار سلوك عدواني أو تمييزي ضد جماعات بسبب عضويتهم في هذه الجماعات.<sup>78</sup>"). ويتميز هذا التعريف بأنه :

- يتخذ معنى ترادفيا مع المفاهيم الأخرى، مثل العنصرية **Racism** والجنسية **Sexism** من أكثر أشكال التعصب الدائمة الانتشار في العالم، العنصرية **Racism**، وتعني ان يكون التعصب موجها مباشرة تجاه اعضاء جماعة عنصرية معينة. والتعصب للجنس **Sexism** وفيه يكون التعصب موجها تجاه أحد الجنسين، وفي الغالب يكون موجها ضد الاناث<sup>79</sup>.

- لا يكون التعصب، وفقا لهذا التعريف، مقتصرًا على ملاحظة الظواهر المعرفية والسلوكية فيه فقط؛ ولكنه يشتمل أيضا على المشاعر "المكون الوجداني للتعصب".

اهتم معظم علماء النفس الاجتماعي بإبراز هذا الجانب، ويكاد أن يجمعوا على : (... ان صاحب الشخصية التعصبية هو نفسه صاحب الشخصية المضطربة)، وان أسباب التعصب تكمن في اضطراب الشخصية<sup>80</sup>. ويرى "زيور" : (ان التعصب ينشأ عن اضطرابات لا شعورية، وانه أشبه بسلوك العصابي). وانه يؤدي وظيفة نفسية خاصة تتلخص في التنفيس عما يختلج في النفس من كراهية وعدوان مكبوت، وذلك عن طريق عمليتي النقل والإبدال دفاعا عن الذات وعمَّن تُحبه، فالمتعصب يجني في موقفه كسبا، غير انه لا يختلف عما يجنيه العصابي من سلوكه الشاذ، أي أنه

<sup>78</sup> Brown, R ,Prejudice:Its Social Psychology,USA :Oxford and Cambridge Black Well. (1995).

<sup>79</sup> " راجع موضوع الايكولوجية النسوية وموضوعاتها في باب الفلسفة البيئية , Wartman et al. , Michael E. Zimmerman,2001, Enveronmental Philosophy, From Animal Rights to Radical Ecology,Prentice Hall, Upper Saddle River, , third Edition. New York , (1992).

<sup>80</sup> صفوت عبد الحميد والدسوقي محمد ابراهيم ، اسهامات البحوث النفسية المصرية في دراسة التعصب، مجلة دراسات نفسية، العدد الرابع، (429 - 477)، القاهرة (1993).

Allport G.W,The Nature of Prejudice Cambridge,MA :Addison Wesley ,(1958).

كسب وهمي يفوت على صاحبه فرصة حل إشكاله حلا واقعياً<sup>81</sup>. لا بد من الإشارة هنا الى ترادف مفاهيم اخرى مرتبطة بالتعصب ومنها "التمييز"<sup>82</sup>؛ فالتمييز مفهوم قريب الشبه من مفهوم التعصب، ورغم هذا التشابه، فهم مختلفان. والمتأمل في المكونات التقليدية للاتجاه والتعصب يرى ان التميز ترجمة صريحة للمكون السلوكي Behavioral Component الذي يشتمل على النزعة للتصرف بطرق سلبية تجاه الجماعة موضع التعصب، لكن على رغم ذلك لا يتحتم علينا ان نسلم بهذا الارتباط تماماً؛ فمن الممكن ان يوجد التعصب دون التمييز، او يوجد التمييز دون التعصب<sup>83</sup>، والتمييز هنا: (هو حرص افراد جماعة الاغلبية على منع افراد جماعة الاقلية من الحصول على الفرص نفسها، التي يحصلون هم عليها، باعتبارهم أعضاء في الاغلبية<sup>84</sup>. إن التعصب، بوصفه اتجاهاً يميز بالانحياز والسلبية، يتكون لدى الفرد من محصلة تجارب وخبرات وتفاعلات اجتماعية تزوده بها عملية التنشئة الاجتماعية Socialization وعلى وجه التحديد يمر التعصب بثلاث مراحل حتى يتكون عند الافراد ويصبح سمة غالبية على سلوكهم، وهي:

- مرحلة التمييز، فيها يتمكن الطفل من التمييز بين الجماعات المتعصبة.

- مرحلة التوحيد: يبدأ الطفل ينضم ويتوحد مع جماعته العرقية .

- مرحلة التقويم: تظهر فيها سلوكيات تشير الى نوع من التعالي أو الى شعور من النقص تبعاً

للحكم. انة التعصب ينشأ ويزداد كلما كلما كان هناك اختلاف او تباين بين الجماعات وان وجود

<sup>81</sup> زيور مصطفى، محاضرات في علم النفس، سيكولوجية التعصب، محاضرة منشورة، دار النهضة العربية، القاهرة، (1986). راجع ايضاً احمد زايد، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، سلسلة عالم المعرفة، ص(126-61)، الكويت، (2006)

<sup>82</sup> Bergmann, W. Prejudice and Sterotypes, Encyclopedia of Human Behavior, Academic Press, 3, 575-586. ., (1994).

<sup>83</sup> Perhman, D. and (Perhman and Chriscozby, 1983 (مرجع سابق).

Chriscozby, P, Social Psychology, C.B.S. College Publishing. (1983).

<sup>84</sup> الجوهرى محمد 1971 "علم الاجتماع ودراسة التعصب والتمييز العنصري، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثامن، العدد الثالث، 123-150. كذلك زايد احمد، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، عالم المعرفة ص 74. الكويت، (2006).

جماعات عنصرية تنتمي الى أعراق مختلفة أو اديان مختلفة او ثقافات مختلفة يعتبر ارضا خصبة لنمو التعصب<sup>85</sup>.

## 7 - 7 : عصر التعصب والعنصرية وجرائم الابادة والتمييز العنصري والعراقي:

لابد ان نذكر بامثلة الجرائم الكبرى ونترك لأولي الالباب تشخيص الدافع للقتل في كل منها: العنصرية الصارخة ضد الزوج في الولايات المتحدة وجنوب افريقيا وروديسيا، الاعتداءات على الاقليات في أوروبا، المذابح المتبادلة بين المسلمين والهندوس في الهند، الحروب القبلية في نيجيريا والكونغو وتشاد والصومال والسودان، مأساة التوتسي واليهود في بوروندي، مذابح رواندا، صراع الكاثوليك والبروتستانت في أولستر، مذابح الاتراك واليونانيين في قبرص، صدامات الصينيين والمسلمين في ماليزيا، صدامات الاكراد مع العرب والاتراك والفرس في العراق وتركيا والارمن، جرائم اليهود في فلسطين، حملات التطهير العرقي والديني ضد المسلمين في البوسنة والهرسك والشيشان. كلها امثلة تحتاج الى وقفات بفصول تظل في ذاكرة هذه المباحث بما يتعلق بالاسلحة والاخلاقيات والابادة فيها.

تشير أحد الاحصاءات الدولية لهذه الصراعات والتي تذكر ضحايا التعصب منذ عام 1945 يزيدون عن 16 مليون نسمة، وهو رقم يفوق ضحايا الحروب الدولية<sup>86</sup>. وفي دراسة اخرى، تناولت عقدين من القرن الماضي من 1945 الى 1967 كانت النتيجة في 34 حادثة دموية بشعة ومئات المناسي الاقل حدة تسببت جميعها في مقتل 7 ملايين ونصف انسان.

ان تنبؤات" فوكوياما 1993 " المستقبلية تشير الى توقع حدوث المزيد من شرور التعصب التي ستقود الى جرائم الابادة الجماعية الدموية وتذهب فرضية "هنتجتون 1998" (... اننا على وشك عصر جديد مظلم من الكراهية القبلية فيما أسماه "صراعات وحروب خطوط التقسيم الحضاري). ان العولمة بذاتها تثير مخاوفنا المستقبلية وستزيد بممارساتها الاقصائية من تزايد

<sup>85</sup> زايد احمد ، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات ، مرجع سابق، ص 61 - 126.

<sup>86</sup> السيد حنفي، 2000، مرجع سابق.

العصبية القومية والدينية والاثنية كمحاولات للحفاظ على الذات والاحتفاء بالهوية في مواجهة تجاهل الخصوصيات الذي تمارسه العولمة الراهنة. ان تعاضم هستيريا رفض الآخر المختلف قد تصل الى حد الارهاب لاقضاء الاخر. وتصل دراسة "هاني النجار 2006" الى حد وصف القرن العشرين بـ "قرن التعصب" <sup>87</sup>.

---

<sup>87</sup> النجار هاني، 2006، مرجع سابق.

## الخاتمة

### باب المستقبل وفرصة الوجود ؟

### بين اليوتوبيا والواقع والحلم المستحيل

#### هل بقي للانسان مستقبل؟؟

هو السؤال الهام الذي مهد له الكثير من الحقائق، وأجاب عنه الفيلسوف، الرياضي، داعية السلام العالمي البروفسور برتراند رسل<sup>1</sup>. ولا بد هنا من إعادة تناوله أيضا بطريقة علمية وحيادية صرفة بعد عقود من ذلك التحدي للمصير الانساني الناجم عن تطور أسلحة الأدمار الشامل.

وبمثل هذا السؤال رسم "بول جوجان" لوحته المعروفة المعنون "من أين جئنا؟... من نحن؟... الى اين المصير؟" وكذلك كتب الشاعر ايليا ابو ماضي المعنونة رائعة: "لست أدري"، ومقطعها: (... جئت لا أعلم من اين أتيت... ولكني أتيت.... وسأبقى سائرا... شئت ام أبيت)، كلاهما يتوغلان في سؤال الوجود. ولفهم وادراك مكانة الحياة لابد من الإشارة الى ان الفنان "بول جوجان" حاول الانتحار بعدها بمادة الزرنيخ، وشاءت الاقدار انه تقياً السم وظل على قيد الحياة. والانسانية بعد درس "بول جوجان" وقلق إيليا ابي ماضي وتساؤل برتراند رسل ليست بحاجة الى الانتحار الجماعي، بما انتجته بداها من اسلحة سوف لا تترك حتى فرصة التقى لكى يبقة البشر على الارض.

ومنذ أتىح للانسان كتابة وقراءة المدونات المكتوبة، ظلت هذه الاسئلة نفسها سمة جوهرية في سعي الانسان لمعرفة حقيقتها تضاف لها اسئلة اكثر تعقيدا... الى أين المصير؟. الاجابات المتاحة

<sup>1</sup> رسل برتراند ، هل للانسان مستقبل؟ مرجع سابق.

من المعطيات الفيزيائية والكيميائية والبيولوجيا، ترد بجواب واحد، هو إلى الفناء والابادة التامة لكل شكل من أشكال الحياة على الكوكب. وربما أن تلك الاجابات لم تشبع بعض العقول بعد، لكونهم تركوا الاجابة لعبث الاقدار أو حكمتها لتحديد وتقرير المصير الإنساني.

ويبدو ان تكهنات الاجابات الميتافيزيقية هي من الموروثات الفطرية للفكر الانساني، فحتى في أكثر القبائل والاقوام بدائية نجد في معطيات الاجابات لمثل هكذا أسئلة عن المصير لا تخرج عن مفهوم الاساطير الخرافية القديمة "الميثولوجيا" المتصلة بالحاضر والمستقبل<sup>2</sup>. ظلت هذه الاسئلة ذات اهمية قصوى بالنسبة الى الانسان المتحضر، وانعكست الاجابات عنها، ليس فقط في معتقدات وايديولوجيات مسهبة؛ بل في طرق حياة تتصل بهذه المعتقدات و اخلاقيات مصحوبة بقوانين وضعية تتنوع بين سلوكيات معتدلة يمكن ادراكها واخرى متطرفة يصعب تصديقها والوثوق بها<sup>3</sup>.

أدركت الانسانية اليوم وهي تتجاوز عصور الاساطير تلك، ان الالهة ذاتها، وبعد حدوث الكثير من التجاوزات على الطبيعة والبشر، بسبب اخطاء العرافة والكهانة، لم تسلم مصير الكون للجهلة من المشعوذين والعرافين سواء كان ذلك في فجر التاريخ عند ابراج بابل القديمة او في عصرنا هذا في قاعات ومخابر نخب الدراسات الاستراتيجية والمستقبلات الذين يريدون تسيير الكون لوحدهم . واذا كان الفكر القديم والمتوارث منه، قد وعى بالامس ويعي اليوم، ان الالهة لا تمنح ولو ادنى انابة عنها لاي كائن في مجال القدرة على تسيير الكون وعلى التنبؤ بالغيب فان الفكر المعاصر تتطلبه صحوة للخروج من مأزق المغامرة بالارض ومستقبل الانسانية.<sup>4</sup>

يقول الجنرال الالمانى "فون مولتكه" : (... ان السلام الدائم حلم، ولكنه مع ذلك حلم جميل... ومن الصعب تحقيقه، بل ان السلام في حد ذاته صراع من نوع ما من أجل التميز. أثنى ما يمتلكه

<sup>2</sup> فرانكفورت هـ. وفرانكفورت هـ. أ. و جون أ. ولسون و توركييد جاكسون، "ماقبل الفلسفة، الانسان في مغامرته الاولى" المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط3بيروت، ، 1982.

<sup>3</sup> كالتن سير روي، "عالم يفيض بسكانه"، عالم المعرفة، مرجع سابق، ص77.

<sup>4</sup> العبودي عبد الكاظم ، "أزمة الفكر الانساني بين البحث العلمي والوازع الاخلاقي"، فصل من كتاب(الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ، ص 66-113، تونس(2005).

الانسان هو روحه الوثابة، و ارادته للحياة، وشعوره بالكرامة. ولا يمكن ان يقوم سلام الا بتوازن القوى، هذا التوازن يتغير، دائما، بتغيير الظروف، لذلك لا بد من الأخذ بنظر الاعتبار توازن المصالح على المدى البعيد... كما ان اعتبار السلام طريقا واحدا للحياة مخاطرة مميتة، وتبسيط أكثر من اللازم . فاختيار طبيعة الحل يفرضه حجم المشكلة ( 5).

وإذا كان "بيكون" قد نال من التقدير والثناء لصالته افكاره الفلسفية، ولا ينكر عليه أحد انه تطلع الى تجديد المجتمع عن طريق العلم. وقد القي عبء هذا التجديد في البيوتوبيات السابقة على عاتق التشريع الاجتماعي او الاصلاحات الدينية او نشر المعرفة، وحتى عندما كان العلم يحتل مكانا مهما ، كما في "مدينة الشمس" أو "مدينة المسيحيين" 6 لم يكن اختيار الحكام على ضوء معرفتهم؛ بل على اساس فضائلهم الدينية والاخلاقية. والواقع ان للعلماء في اطلنطا الجديدة 7 كذلك حملوا مثالياتهم الى العلم ليجعلوا منها قوة من المثل. من الناحية الطبيعية وعلى ضوء قوانين الفيزياء والكون المكتشفة حتى اليوم لا يوجد ما يفلق حول المصير الانساني، مالم تمتد اليه يد العبث والخراب الشامل من داخل الارض وليس خارجها.

(ان الخطر لا يتأتى من محيط الانسان الفيزيائي او البيولوجي ولكن من نفسه. لقد بقي حيا حتى الآن من خلال جهله. فهل يستطيع ان يستمر بالبقاء الآن بعد ان فقد الدرجة المفيدة من الجهل). 8. ان الخطر المرتقب والمخيف ابدًا هو احتمال حدوث حرب نووية، وعندها لا يمكن الحديث عن الانسانية ليقنصر الرثاء عن حياة ما تبقى من الاحياء، من دون حضارة او امكانيات الوجود كبشر.

5 كول ليونارد ، " السلاح الحادي عشر"، سلسلة الالف كتاب الثانية، الهيئة المصرية للكتاب، من مقدمة الطبعة العربية- ص 9. القاهرة ، ( 2000 ).

6 نشرت اندريا لفالنتين " (1586 - 1654) مدينة المسيحيين" في عام 1619 بعد سبعة عشر عاما من كتابة كامبانيلا لمدينة الشمس وهي اشبه بيوتوبيات الاصلاح الاجتماعي التي ظهرت في القرن التاسع عشر.

7 هناك بعض الشك ان كانت "اطلنطا الجديدة" تعتبر مجتمعا مثاليا او وصفا لمعهد علمي مثالي، ولكن المؤكد ان يوتوبيا بيكون ليست متعددة الجوانب مثل يوتوبيا مور او كامبانيلا، ان وصف تلك الخرافة يدفع الى الاعتقاد بان المعهد العلمي او "بيت سليمان" لم يكن سوى تنظيم علمي واحد من تنظيمات اخرى كان بيكون ينوي ان يقدم لها وصفا]]ماريا لويزا برنيري، مرجع سابق، ص 187]].

8 رسل برتراند ، مرجع سابق، ص 86.

العودة الى نقطة الصفر الأولى عندما كان الانسان يلتقط غذائه ويحتمي بالكهوف ربما كان أرحما بعيشه في بيئة خالية نوعا ما من الاشعاع المؤين القاتل وبقايا المواد الكيميائية المنتشرة في البر والجو والارض إضافة الى انتشار محدد من الجراثيم والامراض القاتلة. لم يعد هنا من الحكمة ان نتكلم عن علم وتقانة وانتقال المعارف الى الاجيال القادمة. تلك صورة تظل قائمة بلا شك.

وتلك صورة تقابلها صور أقل قتامة، ولكنها بالطبع مزعجة، تُرسم في المخيلة المتصورة لها اشكالا من الكوابيس عندما يتعلق الامر بالعبث في رسم صورة الانسان والكائنات الحية وانماط الحياة التي فناها طبيعية ومريحة.

اما الصورة الثالثة فهي صورة الأمل بخلو الحياة عن شرور صنعها الانسان وطورتها التقانات المختلفة.

وإذا افترضنا ان الانسان سيبقى قادرا على التقنية العلمية فما هي السبل الممكنة التي يستطيع بواسطتها النجاة من الدمار الشامل؟.

من الذي يقرر بقاء الحياة ؟ أهم : أهل العلم والتقانة والفلسفة؟؟ أم السياسة والحرب والتجارة والاقتصاد الناهب للغير؟. هل البقاء الآن مجرد ضربة حظ ربما تفودها هفوة انسانية الى العقاب المنتظر؟. يقررها " الجنرال بتلر" أو "رامسفيلد" لان "ماكينة يوم النهاية" **Doomsday Machine** تعمل اليوم ويتحكم بها الانسان أو البرامجيات الحاسوبية. وفي الحالتين يمكنها القضاء علينا وعلى نفسها بخطأ تقني أو توهم حسابي رقمي يسببه فيروس حاسوبي مرسل عن بعد.

وما لم تبلغ الانسانية عصر رشدها وتحكم أمرها الى العلماء واهل الحكمة وتسعى الى العدل والمساواة بين الامم فإنها ستدفع ثمن حماقاتها في كل لحظة على يد العلم والتقانة نفسها.

يبدو ان كثيرا من الجهد والتأمل والتفكير الجاد قد أنضج آليات منع الانتحار الجماعي للبشرية ساهمت به عقول العلماء والحكماء انفسهم لتسليم قيادة العالم ووسائل تقرير المصير الكلي الى يد واحدة تمتلك بنتيجة احتكارها للسلطة قوة لا تقاوم وتستطيع التحدي بالحرب ووسائل السلم من

يتمرد على النواميس الأخلاقية المتفق عليها بين الأمم والشعوب بطريقة عادلة ومتساوية وديمقراطية.

هذا يتم فقط من خلال اتفاق طوعي بين الأمم بتجميع قواها المسلحة واخضاعها الى سلطة دولية متفق عليها على قاعدة لا غالب ولا مغلوب في جميع الحروب السابقة انها آمال مشتركة تقترب من يوتوبيا نزع السلاح الشامل.

وإذا كان البعض يرى في مثل هذه التصورات كما لو كانت تنتمي الى اليوتوبيا<sup>9</sup>؛ فلأن اليوتوبيا بنظر الكثيرين؛ وان كانت احلاما او أفكارا وخيالات، الا انها في كثير من الحالات عبرت عن رغبة في تغيير الواقع القائم وتجاوزه، والحلم بحياة ومجتمع أفضل وأكثر عدلا. وهي كما يقول "اوسكار وايلد" : (... ان خريطة للعالم لا تحتوي على يوتوبيا، لا تستحق حتى مجرد النظر إليها؛ لأنها تُغفل البلد الوحيد الذي تتوجه سفينة البشرية دائما اليه، وعندما ترسو على شاطئه، تتلف في الافق، فاذا لمحت بلدا آخر، انطلقت مبحرة اليه. ان التقدم هو تحقيق اليوتوبيات في الواقع).<sup>10</sup> وكما ان "برتراند رسل" حاول تقديم يوتوبيا لمستقبل الانسانية للتخلص من اسلحة الدمار الشامل، وانه لم يقدمها، لا في عمل روائي او ادبي؛ بل ساهم في تصوراته العلمية التي استنتجها من خبرته وانخراطه الى آخر لحظة من حياته في جهوده من اجل السلام العالمي ووضعها في كتابه (هل للانسان مستقبل) الذي استعرنا منه مستهل وعنوان الفصل الاخير لبحثنا هذا.

<sup>9</sup> برنيري ماريا لويزا ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مرجع سابق، كتاب يستعرض الفكر اليوتوبي عبر العصور لتثبت المؤلف "ان التفكير اليوتوبي يمثل بعدا مهما من ابعاد التجربة الانسانية في الحضارات والعصور القديمة والحاضرة على حد سواء.

<sup>10</sup> برنيري ماريا لويزا ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مرجع سابق ، ص 7.

وفي اليوتوبيات التي كتبت وتزامنت مع فترة تصاعد كفاح رسل من اجل السلام قدمت صورا مرعبة عن القلق النووي، كما هو الحال في كتاب "الفرد والماهية" لأولدس هكسلي<sup>11</sup>. وهي رؤية فاجعة للمستقبل، بعد الحرب النووية، عندما يتحول سكان كاليفورنيا الى عبادة الشيطان، ويقومون مجتمعا عقيدته الكراهية والحق. انه كتاب يحتل مكانته في التراث اليوتوبي، ويؤكد الدرس المستفاد منه لعصرنا النووي.

اما اليوتوبيا المضادة الثانية فهي رواية " عام 1984" لجورج أرويل، وهي رواية أكثر عنفا من الرؤية السابقة لعالم دمرته السلطة.<sup>12</sup> فالطبيعة الانسانية واليوتوبيا اقترنتا في كثير من الاحوال مع بعضهما. وعرف التاريخ العديد من اليوتوبيات. ويقوم جوهر اليوتوبيا على تصور امكانية تغيير المجتمعات إستنادا الي مثل عليا يؤمن بها الناس بحماسة واخلاص، مما يؤدي الي ايجاد العالم السعيد والحر والعاقل والمتناسق. كان هذا التصور موجودا في صميم الفكر السياسي اليوناني وما زال الكثيرون يؤمنون به الي يومنا هذا .

كان "توماس مور Thomas More (1478 - 1535)" هو أول من صاغ كلمة "يوتوبيا" أو "أوتوبيا" في نطقها اليوناني. وقد اشتقها من الكلمتين اليونانيتين Ou بمعنى "لا" و Topos بمعنى "مكان"، وتعني الكلمة في مجموعها باللاتينية لتصبح Utopia " لا مكان" ووضعها عنوانا لكتاب له هو أشهر يوتوبيا العصر الحديث<sup>13</sup>. واستخدم اللفظ منذ ذلك الحين في جميع اللغات الاوربية وفي

<sup>11</sup> هكسلي اولدس ، كاتب وشاعر انجليزي ساخر، ولد في انجلترا عام 1894. سخر من التقدم العلمي المذهل، وثار على زيادة نفوذ العلم وسيطرته على حياتنا اليومية، وقدم لنا في "عالم طريف شجاع" قصة تخيل فيها إنسان المستقبل، سوف يتناسل، لا عن طريق الالتقاء الطبيعي بين الرجل والمرأة؛ بل عن طريق تكوين الاطفال داخل قوارير باسلوب علمي معقد يدعو الي الاشمزاز. ربما كانت هذه الرواية إرهابا بما يحدث الآن بما يطلق عليه "أطفال الانابيب". صدرت الرواية عن دار الكاتب المصري، 1947 .

<sup>12</sup> أرويل جورج، (1903 - 1950 ) كاتب وروائي انجليزي شارك عام 1936 في الحرب الاهلية في اسبانيا فرأى فضائع وأهوال الاحزاب السياسية اليسارية، وعاد يحذر الاجيال القادمة من طغيانها وحذر من المستقبل المظلم للأنظمة الشمولية. اضافة لروايته "مزرعة الحيوان" اشتهرت عالميا بروايته " العالم 1984" كشفت عما يحدث في المجتمعات الشمولية من محاولات بشعة لتشكيل الانسان ومحاصرة حريته الفردية وحياته الشخصية الى الحد الذي تصبح جحيما مروعا. صدرت الرواية في القاهرة عن مكتبة الانجلو المصرية، 1956.

<sup>13</sup> Sir Thomas More 's Utopia, in Ideal Commonwealth, edited with an Introduction by Henry Morley, London,(1885).

ترجمته العربية ايضا، ليعني نموذجا لمجتمع خيالي، مثالي، يتحقق فيه الكمال او يقترب منه، ويتحرر من الشرور التي تعاني منها البشرية، ولا يوجد مجتمع كهذا في بقعة محددة من بقاع الارض؛ بل في أماكن وجزر متخيلة، في ذهن الكاتب نفسه وخياله قبل كل شيء. وأصبح للكلمة فيما بعد معان كثيرة غير التي استخدمها "توماس مور"، فصارت تطلق على كل اصلاح سياسي أو أي تصورات خيالية مستقبلية، أو احتمالات علمية وتقنية. ولكن تظل اليوتوبيا تصورا فلسفيا ينشد انسجام الانسان مع نفسه ومع الآخرين ومع مجتمعه<sup>14</sup>.

قد ينظر الكثيرون الى مثل هذه الافكار بمنظار طوباوي، وغريب، وغير واقعي، اليوم، وربما ان الكثير من الساسة المحليين والعالميين يرفضون الافكار البعيدة عن الواقع المعاش. وعبر التاريخ كتبت يوتوبيات عديدة حاولت ان تقترب من الأمل حتى وان دفع البشر لأجلها مقابل ذلك آلاما مضافة. وفي عصرنا الحديث جربت الانسانية الأمل، لمدى عقود حتى في التمسك لبقاء توازن الرعب النووي بين الشرق والغرب، كضمان لعدم المغامرة في حرب عالمية ثالثة تستعمل فيها اسلحة الدمار الشامل.

وعندما سقط القطب الاشتراكي كليا عام 1991 ظن البعض في الغرب خيرا : وكأن الطريق لمن ادعوا مسار الحرية والدفاع عن حقوق الانسان قد وصل الى الشمعة الوحيدة الباقية في نهاية النفق الانساني الاخير، وقد منحهم السماء، من حيث لم يفكر بذلك أحد لما فيهم أكثر اليوتوبيين تفاؤلا، فرصة قيام دولة عالمية، ولو بقيادة الولايات المتحدة. لكن القطب الغربي، ممثلا بالولايات المتحدة، نسي التزاماته ومسمياته وشعاراته "الأخلاقية"، وكشر عن أنياب أسلحته، وأخرج كامل

---

**Or, Utopia, or the best state of republic weal, first English translation by Ralph Robynson**

كتبت "يوتوبيا" باللاتينية ولم تظهر الترجمة الانجليزية الا عام 1551 وكانت الترجمة الفرنسية قد ظهرت بالفعل عام 1550.

<sup>14</sup> برنيري ماريا لويزا ، " المدينة الفاضلة عبر التاريخ"، سلسلة عالم المعرفة، ، ص 9. الكويت، (1997).

مخالبه التقليدية والنوعية معا، وبدأ غزواته على طريقة الإمبراطوريات القديمة البائدة لسحق كل من يراه خصما حتى ولو كان ضعيفا، لمجرد يعتقد انه يشكل شرا عليه.

وها هو الغرب بقيادة الولايات المتحدة يعبث بنفسه وقيمه واخلاق المصير الانساني كلها متجسدا في ممارساته في العراق وافغانستان وفلسطين والصومال. وهو يقود العالم الى المجاعات الحقيقية والازمات المالية والاقتصادية والاخلاقية معا.

وهنا يسقط جانب من التفاؤل لوحداية سلطة القوة من دون رسالة انسانية، وتلك بداية حقيقية ليوتوبيا الدمار الشامل. يشكل التماهي بين اليوتوبيا وبين القمع ايضا، من وجهة نظر تاريخ الأفكار السياسية، الاكتشاف الأساسي في القرنين الاخيرين. ففيهما تجلت، بمنتهي الوضوح ان اليوتوبيات التي بشرت بالاستعمار، والتمدن والتحضر كانت مهلكة للحضارة الانسانية، بكل ما للكلمة من معنى، إذا ما اتخذت أفكار الاستعماريين موجها للسلوك وفق ايدولوجيا مسطرة باتجاه واحد الا وهي سيطرة الغرب.

قبل القرن العشرين لم تمتلك أي من اليوتوبيات فعلا القدرات التي تمكنها من تحقيق ذاتها. أما في القرن العشرين، فقد امتلكت قدرات مكنتها من تجربة نفسها في غسل العقول بواسطة التكنولوجيا الحديثة والاعلام الموجه. اذ كيفت هذه الأخيرة آليات معرفية وثقافية وتجسسية ومراقبة للبشر والارض لا يمكن الافلات منها، وبذلك مكنت سلطات "الحكومة العالمية" التي تحكم العالم خفية<sup>15</sup>، من قوى قادرة على تنفيذ مهمة القمع بكل نجاح، وتترك جراحا نازفة في جسد العمق الانساني المستل. ومن دون ان تترك للأفراد تلك المساحات المطلوبة من الحريات التي كانت مؤمنة فيما سبق بفعل قصور فعالية السلطة.

<sup>15</sup> سيريدوفيتش شيريب، حكومة العالم الخفية، دار النفائس، ص7، وصفحات تالية. بيروت، (1984).

كانت فئات من العلماء تسهم في وضع التقانة في خدمة القمع والترهيب العالمي. ومنها الترهيب النووي وأسلحة الإبادة الشاملة، وبذلك تسهم التقانة والعلوم في التخطيط والمساعدة من قمع الأفراد الى قمع الامم والشعوب والمجتمعات والانسانية مجتمعة.

والى جانب القدرات التكنولوجية فان أنواع اليوتوبيا التي جربت نفسها في القرن العشرين بآليات تختلف عن نظيراتها في العصور القديمة والوسطى في ناحية جوهرية تتعلق بالموقف من الطبيعة الانسانية ذاتها<sup>16</sup>.

ان اشكالية الرق والعبودية التي كرسها عصور الكنيسة والاقطاع ثم تجاوزتها الثورات البرجوازية لترهن من جديد مصير الطبقات الاجتماعية بيد الرأسمال وشركاته الصناعية ترافقت مع تغيرات فكرية جارفة ؛ فقد أمكن نشوء وفرز الكثير من الاختلاف أو التمايز بفضل الفلسفة الحديثة، ولكن الفهم العلمي الجديد للدين سمح أيضا بولادة اعتقاد "من نوع ديني أيضا يتماثل معه " ويتجلى بمحاولة الانسان على أن يحل نفسه محل الله والقدرة المطلقة ، وبالتالي يبرر لنفسه ان يفعل كل شيء متاح تحت سيطرته، لكي يصبح تحقيق المستحيل ممكنا، والتغيير الجذري لوجه المجتمع والانسان متاحا كذلك ولكن بآليات ووسائل تقنية واسلحة جديدة مقابل المشروع التحرري الانساني المتجدد مع تجدد أليات القمع الطبقي والاجتماعي.

توضح مثل هذا الاعتقاد على نحو خاص لدى "ماركس". وهو داعية المشروع الاخلاقي الكوني الأكثر جاذبية في القرن العشرين. يشكل المشروع بمنطلقاته النظرية يوتوبيا ايضا تجسدت في البيان الشيوعي وشعاره "ياعمال العالم ويا ايبتها الامم المضطهدة اتحدوا". والواقع ان وصف انجلز لليوتوبيات الاشتراكية كان وصفا صحيحا في جوهره، فأغلبها كانت تريد ان تكون وسائل

<sup>16</sup> العبودي عبد الكاظم ، في تقديمه حول الخيال العلمي في رواية " جلاله الاب الاعظم ، للكاتب، مونسى الحبيب، دار الغرب، وهران، (2001).

الانتاج والتوزيع ملكا عاما مشتركا، ولكنها كانت ايضا لا تعتقد ان الثورة ضرورية لتحقيق هذا، وهي تتصور ان بإمكان الدولة ان تتولى تسيير الآلة الاقتصادية بطريقة سلمية، وذلك بموافقة اغلبية السكان.

اليوتوبيات السابقة للماركسية لم تؤمن بصراع الطبقات ولا بالبرولتاريا كطبقة وحيدة قادرة على القيام بالثورة. وعندما وصلت البرولتاريا الى الحكم وجدت جهاز الدولة البيروقراطي يتحكم بها وبحزبها ويفرز دكتاتوريات اخرى. وبالطبع ان الاشتراكيين الماركسيين تعلقوا بتسمية اشتراكيهم بـ "الاشتراكية العلمية"؛ رغم ان اليوتوبيا كانت تشكل منطلقاتها النظرية. وان السلطة السوفيتية خلقت لنفسها طبقة جديدة من التقنيين والمديرين والعمال مرتفعي الاجور وقادة الاتحادات العمالية من الذين تطابقت مصالحهم مع مصالح الطبقات الرأسمالية. لذا كان سباق التسلح بكل اشكاله سمة مشتركة بين الشيوعيين والراسماليين.

يتمثل جوهر الماركسية في امكانية الانسان على أن يعيد خلق ذاته بشكل مختلف عما كان عليه على الدوام بواسطة سلطة؛ حيث يترد عذاب الفرد الي تمزقه بين ما يريد وبين ما هو عليه في الأرض. وان بنية الأنظمة الديمقراطية الاشتراكية في كثير من البلدان التي توفرت فيها العدالة الاجتماعية حاولت ان تكون الاقرب الى تصورات "ماركس" مؤسس "الاشتراكية العلمية" والى أفكار الاشتراكيين اليوتوبيين في القرن التاسع عشر، التي استوحيت النظريات من سابقهم، وانها لم تعد تعترف بحتمية الصراع الطبقي. وانما تهدف الى تبني إصلاحات اجتماعية تدريجية يمكن ان تزيل الفروق الاقتصادية وتتجاوز قضايا الحرب والتسلح.<sup>17</sup>

<sup>17</sup> تأثروا آباء الاشتراكية العلمية من سابقهم من يوتوبيات القرن الثامن عشر مثل فورييه (1772 - 1830)، وسان سيمون (1760 - 1825)، واوين (1771 - 1858).

كانت يوتوبيات الاشتراكية في القرن التاسع عشر فاقدة الروح بصورة تدعو الى الحزن والاكئاب، فهي تهدف الى إقامة آلية اجتماعية ضمن الانتظام الكامل للحياة في المجتمع، تكفل الرفاهية المادية لكل فرد<sup>18</sup>. تفرد "ماركس" تكمن في محاولة قلبه لهذه المفارقة من مجال الطبيعة الانسانية الي مجال التاريخ. فحتى ذلك الوقت كان الفلاسفة يؤمنون بأن سر الانسان إنما يكمن في وضعه كمخلوق مركب من خير وشر. أما "ماركس" فقد جعل ذلك مسألة تاريخية، ظرفية، أي مسألة قابلة للحل. انها يوتوبيا تقدمية وثورية صادقة كخيرها من اليوتوبيات التي حلمت بسعادة البشر وحريرتهم. وهي في نفس الوقت تشير الى : اولاً: انه ليس كل اليوتوبيات التي كانت ثورية وتقدمية ستبقى عندما يمتلك كتابها وفلاسفتها السلطة. ثانياً: كذلك، وان كانت الغالبية العظمى منها تجمع الصفتين، لكن القليل منها كان أو ظل ثورياً بشكل كامل. نعم كان الكتاب اليوتوبيون ثوريين عندما دافعوا عن مشاعية السلع في وقت كانت تعد فيه الملكية الخاصة مقدسة، وعن حق كل فرد في الحصول على لقمة العيش، في وقت كان يشنق فيه الشحاذون، وكانوا ثوريين عندما دافعوا عن المساواة بين الرجل والمرأة في عصور كانت تعتبر فيها المرأة أفضل قليلاً من العبيد، كما دافعوا عن كرامة العمل اليدوي الذي كان ينظر إليه انه عمل مهين او مخز ومنحط<sup>19</sup>.

لقد افرزت اليوتوبيات الحاملة ايدولوجيات وعقائد كانت تشكل اهم واجهات الصراع في القرن العشرين هما الشيوعية والنازية وديمقراطية ليبرالية بمواجهتهما، إنها يوتوبيا "العالم الحر". وعلى الرغم مما بين الشيوعية والنازية من بون شاسع كعقائد سياسية؛ لكنهما كانتا تلتقيان في الايمان بامكانية اعادة خلق الانسان خلقاً جديداً بالكامل. كلتاهما تنفيان الخطيئة الأصلية عن الطبيعة الانسانية. لقد أحل " أدولف هتلر" في كتابه " كفاحي" فكرته محل أوامر الكنيسة التي تنص: على دعوة الناس لوضع حد للخطيئة الأصلية الحققة ولما تبعها من نتائج مستمرة، ولأن يقدموا للخالق

<sup>18</sup> برنيري ماريا لويزا ، مرجع سابق، ص 312.

<sup>19</sup> برنيري ماريا لويزا ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مرجع سابق، ص 18 .

الكلية البرهنة على وجود كائنات قوية كما أرادها هو وكما خلقها أصلاً. وهو يعني بالخطيئة الأصلية الحقبة المبنية على فكرة محرفة مفادها بأن المسيح جاء لتخليص اليهود، الوحيدين الذين كانوا يرزأون تحت الخطيئة الأصلية بينما الشعوب الأخرى كانت بريئة من امثال تلك الخطايا. كما تجاوزت الماركسية مؤسسة الأديان واعتبرتها افينواً مُحَرَّماً.

ومن جانب آخر ينسى البعض ان النازية كانت نتيجة فظة، ولكن منطقية في الوقت نفسه للداروينية الاجتماعية؛ إذ يلاحظ البعض اليوم، خصوصاً بعد سنوات السبعينيات، ان الشعوب التي يجري تهيتها، مرة أخرى لقبول سياسات تقوم على اساس نظريات مدعى بعلميتها "تثبت" ان هناك زيادة سكانية كبيرة وافراطاً تكنولوجيا على الارض. وفي التسعينيات تطورت الايكولوجية المالتوسية "اليسارية" بشكل سريع فطورت اساليب النهب التي يقوم به راس المال المالي الذي تجاوز حتى الانسان كسلعة في مضارباته وصار الحديث عن التخلف من قبل "خبراء" يجهدون انفسهم لإثبات ان الفقر والذكاء يقومان على اساس بيولوجية. كما بدأت التهياة لإشاعة مفاهيم تبشر بأنه إذا تم دمار شامل لبلدان بأكملها بسبب المضاربات المالية، وإذا قتل الجوع ملايين البشر فكل هذا ناتج عن القانون الطبيعي للتطور الذي يحتفظ ويكفل حق الحياة للأقوى، فرأس المال المالي يؤلف مع الداروينية الاجتماعية الذرائع العلمية للنظرية، تماماً كما فعلوا في الماضي مع "داروين" و"آدم سميث" و"مالتوس"<sup>20</sup>.

ان نفي الخطيئة الأصلية يعتبر أمراً خاصاً بكل ايدولوجيا ترمي الى كمال الانسان. وفي النازية، كما في الماركسية، يجد الانسان نفسه غير كامل وتعييس لأسباب ظرفية وعرضية: وباستطاعته اذا ما اراد، واذا ما اكتسب الوسائل، أن يحقق مثله العليا. وهذه هي ميزة اليوتوبيات

<sup>20</sup> دين ودي باولي، تشارلز داروين، ارتقانى أم مذهبي، الثقافة العالمية، العدد 90، ص 111-144. الكويت، (1998).

الشمولية التي عرفها القرن العشرين. أما اليوتوبيات الأقدم عهدا فان ابعدها خيالا كان ينطوي على احساس باشكالية الطبيعة الانسانية.

تقوم فرضية الخطيئة الأصلية على واقعة ازدواج الطبيعة الانسانية. فقدرات صنع الخير وابداء الغيرية وصنع الشر واطهار الأنانية والعنف. هذه كلها صفات ترتبط بالانسان، انسان كل العصور. وتعتبر الأديان السماوية عن فرضية الخطيئة الأصلية من خلال قصة آدم. وآدم مخلوق من طين الأرض، ومن نفخة الله في روحه: أي ان طبيعته التكوينية قائمة على استعدادات مشتركة للخير والشر.

والاسلام، مثلا، عبر عن هذه الرؤية في آيات قرآنية عديدة: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) (الأنبياء / 35) ، (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) (لقمان/34)، (ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملئن جهنم من الجنة والناس أجمعين) (السجدة/13)، وأخيرا هذه الآية الكريمة : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) (الشمس/8/7). مهما تكن التفسيرات التي اعطيت لفرضية تفاحة آدم، فان لها معنى أساسي يكمن في انتقال الانسان من السماء الي الارض، من الحلم الى الواقع، ومن الصفاء الي عالم يشوبه الفساد والانحلال الاخلاقي. قد نجد الأساس الواقعي الذي تقوم عليه هذه الانتقالة في فرضية الكينونة المزدوجة للطبيعة الانسانية، أو قد نجدها في استحالة انسجام القيم في هذا العالم الذي يقع تحت دائرة ادراكنا.

فبعض القيم او المثل العليا لا تستطيع إلا أن تتعارض مع بعضها الآخر. كما أن فكرة الكل المتكامل، الحل النهائي، أو الجنة التي تتعايش في إطارها كل الأمور الخيرة هي فكرة غير قابلة للتحقق. وبعض الفضائل الكبرى لا تستطيع أن تتعايش بعضها مع بعض. هذه حقيقة مفهومية. قدرنا أن نختار، وكل اختيار قد تتبعه خسارة لا تعوض.

والعدالة والاخلاق الصارمة بالنسبة لبعض الناس قيمة مطلقة، لكنها لا تتسجم مع قيم أساسية غيرها، ليست أقل أهمية، مثل الرحمة أو العطف أو الشفقة كما يبدو في بعض الحالات الواقعية المعاشة من خلال قيام الدول.

"ان وجود الدولة/الدول يتطلب مجموعتين من قواعد السلوك الاخلاقي، لأنها لا تقسم الشعب الى طبقات فحسب، وإنما تقسم البشرية الى أمم. فغالبا ما يتطلب الولاء للدولة إنكار مشاعر التكافل والتعاون المتبادل الذي يوجد بشكل طبيعي بين الناس. وتفرض الدولة انواعا معينة من قواعد السلوك التي تحدد العلاقة بين المواطنين والعبيد او "البرابرة"، فكل ما هو محرم في العلاقات القائمة بين المواطنين المتساوين، مسموح به تجاه أولئك الذين يعدون كائنات أدنى منزلة. وبينما يتجلى المواطن اليوتوبي بالرقّة ودمائة الخلق في تعامله مع من هم في نفس منزلته، فإنه يتسم بالفضاضة في تعامله مع عبيده، انه يحب السلام في وطنه، ولكنه يشن ابشع الحروب خارج الحدود. وقد سمحت جميع اليوتوبيات، التي حذت حذو أفلاطون، بهذه الثنائية في الانسان. ووجود هذه الثنائية في المجتمع، كما نعرفه، حقيقة معروفة بصورة كافية، ولكن عدم التخلص منها في "مجتمع كامل" هو الذي يبدو امرا غريبا. ان النموذج العالمي في جمهورية زينون الذي اعلن اخوة البشر من الامم كافة، هو نموذج ندر من تبناه من كتاب اليوتوبيا.

وتوافق معظم اليوتوبيات على الحرب بوصفها جزء حتميا من نظامها، والواقع ان الامر لا بد ان يكون كذلك، لأن وجود الدولة القومية هو الذي يولد الحروب على الدوام"<sup>21</sup>.

وعندما يرى كلا من "جبريل دي فواني" و"ديدرو" [1713 - 1784] قد ذهب الى أبعد من ذلك بإلغاء الحكومات الغاء تاما. وقد حاول "ديدرو" بصورة اكثر جدية، ان يقدم وصفا لمجتمع

<sup>21</sup> برنيري ماريا لويزا ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مرجع سابق، ص290.

بدائي جر لا يعرف الحكومات ولا القوانين<sup>22</sup>. فإن آخرين يرون : أن الحرية المطلقة للذئاب هي الموت للحملان. الحرية المطلقة للقوي والموهوب لا تتسجم مع حقوق الضعفاء والأدني موهبة في العيش اللائق.

قد تفرض المساواة الحد من حرية أولئك الذين يرغبون في السيطرة. ودون هامش من الحرية لا قدرة لنا على البقاء كأدبيين بما للكلمة من معنى، ولكن قد يصر الى تقليص الحرية إفساحا في المجال للرفاهية الاجتماعية وتأمين الطعام للجائعين والكسوة للعراة والمأوى للمشردين، وافساحا في المجال لحرية الآخرين من أجل تطبيق العدالة والانصاف في حقهم. كما ان النزعة المتطرفة لتصفية كل انواع اللامساواة تتعارض مع الحرية ومع العدالة. وقد رأينا كيف ان استخدام الشيوعيين لسلطة الدولة أستخدمت شعار تصفية اللامساواة الاقتصادية وتصفية خصومها الايديولوجيين وانتهت المواجهة الي تحطيم أساس الحياة الاقتصادية الحديثة والصدام مع الآخرين تحت واجهة مقولة " الصراع الطبقي" وذهب البعض الى تجاوز كثيرات من خطوط الفصل بين الطبقات والفئات الاجتماعية ممزقين الشعب الواحد والقومية الواحدة والدين الواحد الى جبهات صراع تنحاز أو تناوى ما سميت " سلطة الطبقة العاملة"، في حين أن أغلب التجارب والسلطات في دول سمت نفسها "إشتراكية" لم يكن للعمال سلطة حقيقية منتقاة من بين قادتهم الا ما ندر من الحالات. ولكن الصدام كان يستفحل بين فئات متقاطعة المصالح باسم العمال .

هناك اتجاهان رئيسيان يتكشfan في الفكر اليوتوبي عبر العصور:

اتجاه يبحث عن سعادة الجنس البشري من خلال الرفاهية المادية، وإذابة فردية الانسان في المجموع وفي مجد الدولة.

<sup>22</sup> برنيري ماريا لويزا ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مرجع سابق، ص25 .

واتجاه آخر يتطلب درجة معينة من المادية، لكنه يعتبر ان السعادة هي نتيجة التعبير الحر عن شخصية الانسان، ويجب الا يضحى بها لأجل قانون اخلاقي استبدادي او لمصالح الدولة. وتتطابق هاتان النزعتان مع التصورات المختلفة للتقدم، لأن اليوتوبيات المضادة للنزعة التسلطية تقيس التقدم كما يرى "هربرت ريد" : (... عن طريق درجة التمايز داخل المجتمع. فاذا كان الفرد وحدة في كتلة المجموع، فان حياته لا تكون فضة وقصيرة فحسب؛ بل تكون كذلك حياة متبلدة وآلية)<sup>23</sup>.

لقد ثبت في النهاية ان امكانية حل نهائي وهم، ووهم في غاية الخطورة. فاذا اعتقد المرء فعلا بامكانية حل كهذا من المؤكد ان أي ثمن يكون باهظا جدا للحصول عليه. بعض المتنبئين المزودين بالسلاح يسعى وراء انقاذ البشرية، والبعض الآخر يريد انقاذ العرق الذي ينتمي اليه فقط بسبب خواصه الأرقى والأرفع؛ لكن مهما اختلفت الغايتان فان الملايين من البشر ستذبح في الحروب او الثورات، وفي غرف الغاز والمجازر والابادة الجماعية، وكافة الأساليب التي سوف تذكر الأجيال بمئاسي القرن العشرين.

نتائج اليوتوبيات الشمولية طعنت في الصميم إمكانية حل نهائي. فليس هناك اجراء أو بنية تكون قادرة على تغيير الانسان، وعلى تحويله تحويلا كاملا. فكل محاولة من هذا النوع كان مصيرها الفشل. وليس ثمة من تنظيم اجتماعي سياسي أظهر قدرته بإمكانية تغيير الطبيعة في الانسان، ومع ذلك فقد زعمت الكثير من الايديولوجيات المعاصرة (الشيوعية، النازية وانواع من الفاشية والتنظيمات القومية وحتى الاسلامية). ان كل سياسة تعلن الحرب على الكينونة، هي بمثابة إعلان حرب تتسبب بخلق الارهاب وتشيع العنف.

لقد ظن البعض بأن الشمولية الشيوعية لم تكن تمرد الخير على الشر؛ بل تمرد الخير على الكينونة، باعتبار أن الشر موجود في الانسان، وانه بمثابة بذرة غير قابلة على الذوبان.

<sup>23</sup> برنيري ماريا لويزا ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مرجع سابق، ص19

إن العالم لم يعرف داعية أخلاقية أكثر تشدداً من كانت، إلا أنه نفسه قال في لحظة اشراق وشفاء مع النفس : (من نسيج الإنسان الفاسد لم يصنع أبداً أي شيء مستقيم).

نزلت النازية من اليوتوبيا الي حيث يجب أن تكون: في الحضيض، بل انها في الأصل كانت يوتوبيا مضادة أو جحيم. انها علامة مرهقة، ومقلقة، سعت الي الانحطاط الذي يمكن أن ينحدر اليه جنس البشر من خلال ممارسات عنصرية متزمتة.

وفي التطبيق تساوت الشيوعية مع النازية. ولكن الشيوعية وهي "خارج التطبيق" حافظت على اليوتوبيا الشيوعية بمكانة ما في مكتبة اليوتوبيات التاريخية، وهي مكتبة تعبر عن عظمة الطاقة البشرية على التخيل بالدعوة الي إعتبار الإنسان قيمة وهذه القيمة أثن رأس مال .

وليس هذا هو موقع البحث عن الأسباب الكامنة وراء ذلك، غير انه تمكن الاشارة على الأقل الى ان المشكلة التي واجهها ماركس كانت تقع في صلب ذلك التوتر الدائم بين الواقع المعيش والمثل الأعلى، أو بين الضرورة والحرية. وعبقرية ماركس تكمن في مواجهة مشكلة شبه مستحيلة، وفي تركها عند وفاته ظلت اكثر صعوبة مما كانت عليه حين وجدها. لقد بينت أعمال ماركس، طيلة حياته، ان العمل الانساني تحدده الظروف أكثر مما كان الانسان يتصور إيماناً بقدرته واستجابته الي المثل، وان التحرر الانساني بدوره ممكن أكثر مما كان يحلم به الفرد .

والمثل العليا، التي تأخذ بنظر الاعتبار الطبيعة الانسانية، هي شيء آخر غير ما بشرت به الايديولوجيات. انها بالذات ما يجعل الانسان انساناً، أي كائناً أخلاقياً يشرع لنفسه ولا يخضع للقوانين الطبيعية الصارمة كبقية المخلوقات. وقد لا تتحقق المثل العليا بالكامل، ولكن ليس هناك بديل منها لتحديد الاتجاه وتوليد الطاقة الانسانية لفعل الخير.

وعلي اية حال فان المثل العليا هي مجال الجانب الأخلاقي في وظيفة المثقف. وهو الجانب الذي قد تكون الروح الدينية أفضل تجسيد له: نعني بالروح الدينية ذلك النداء الملح بأن يكرس المرء نفسه لهدف أبعد من مجرد ارضاء شخصه. وفي هذه الوظيفة، بشكل خاص، يقع الافتراق بين الثقافة والعلم. فالعلم لا أخلاقي لأن موضوعه لا يدخل في نطاق الأخلاق؛ إذ ان قيم الخير والشر لا تمت بصلة لكيفية عمل العلم. لكن اذا كانت كيفية عمل العلم بعيدة عن مجال الأخلاق فهل ينبغي ان يكون العلم عامة متحررا من الاسترشاد بالأخلاق؟

ان الحل هو في سلطة تتخطى السلطات القومية وتخول قوة حقيقية. وتتجاوز فشل الامم المتحدة وعدم حيادها بين الاقوياء والضعفاء. تظل الطوباوية دائما عند البشر بحاجة الى الخبرات السياسية، ومن بين الكثيرين من الطوباويين، علماء وحكماء زهدوا بالسلطة واعطوها للسياسة والعسكر عقولهم وخبراتهم بأمل صنع الخير للآخرين.

وان أعاققت تحقيق هذا الحلم ممانعات السياسة والطموحات القومية فلا بأس ان يحتكم العالم الى دستور اخلاقي يحول دون وقوع الحروب، ويمنع العبث بمكتشفات العلم والتقانة. ان السلطة العالمية اذا ما أريد لها ان تكون، يجب ان تمتلك جهازا تشريعيا أخلاقيا فعالا، وله جهاز تنفيذي وقوة عسكرية عند الحاجة. وهنا لا بد من تحديد متى وأين تستخدم مثل هذه القوة.

ان التأخر في الوصول الى مراحل متقدمة من النضج الاخلاقي للانسانية، باتت تؤكد الاقتناع النهائي بحتميات قابلة للتحقيق، فسياسات الحرب والغزو والاحتلال والعقوبات ستسحق الضعفاء لكنها في ذات الوقت زادت من سرعة سقوط الدول العظمى، والأمثلة على بقاء الامبراطوريات الكبرى الحديثة شواهد على بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي، وبعدها سيأتي دور الولايات المتحدة.

والدرس المفيد هو الشروع في التخفيض الشامل للقوات العسكرية، وتوجيه الفائض منها الى البناء وعند توفر أجواء الثقة يشرع الجميع بتصفية أسلحة الدمار الشامل. وتأسيس وحدات عسكرية

مشتركة تخضع لقيادات ليس لها ولاء لطرف أو دولة أو تكتل إقليمي أو قاري تساهم في فض ما يظهر من النزاعات الإقليمية الطارئة والمحتملة.

ان العولمة في جوانبها الايجابية، وليست بصورتها الأمريكية، يمكنها ان تسهم في خلق دستور انساني عالمي، وجهاز تشريعي فدرالي للأمم وشعوب الأرض ودولها المهيكلة الان، يأخذ بنظر الاعتبار الخصوصيات للثقافات المحلية، ويمنحها حقوقا وواجبات للاسهام في بناء الحضارة العالمية وان طرق تمثيل الأمم والدول والمجموعات السكانية يمكن اعتماد طرق للتصويت والتمثيل متناسبة مع عدد السكان في العالم ومدى اسهاماتهم ودورهم الحضاري وإنتاجهم الفكري والعلمي والاقتصادي من دون تمييز.

والبيوتويات التي تنجح في مثل هذا الاختبار، هي تلك التي تعارض مفهوم الدولة المركزية، وتطرح مفهوم اتحاد فيدرالي عالمي للجماعات والامم الحرة، يستطيع الفرد والامم ان يعبروا عن شخصياتهم دون الخضوع لرقابة قانون مصطنع أو موضوع وفق مقاسات خاصة لاغراض مبيتة. لا يمكن الوصول إلى عدالة إنسانية مرة واحدة، ولكن يتوجب أن يكون هناك قانون دولي وعدالة وقوة تنفيذية غير منحازة الى جنس أو لون او عرق.

القانون الاخلاقي لحكم العالم: يعتمد أساسا على قناعة البشر والامم بالتنازل عن لذائذ سلطة التحكم بالمصير الانساني، كما أن التخلي عن مشاعر الاستعلاء القومي والعنصري هي الخطوة الاولى للنزول الى الفردوس الارضي البعيد عن كوارث الحرب والعنصرية والاستعمار والتمييز العرقي والديني. وهذا لا يتم الا عبر التربية والتعليم المشترك والموحد حول الاخلاق ونواميسها الانسانية.

لابد من تحديد عدو الانسانية المشترك الا وهو الجهل بالمصير الانساني، ومنح العلم فرصة محو الامية الأخلاقية المرتبطة بالبقاء وبتبصير الامم ونخبها وافراد شعوبها بوحدة المصير الإنساني.

ان التزمت الأعمى والتعصب لن يفضي الى شئ سوى الخراب الشامل. صحيح ان الوطنية هي الاقرب للإنسان بحكم الموقع الجغرافي يستنجد بها عند الأزمات "بأشقائه" والأقربين منه طلبا للحماية الا ان العالم بسرعة استجابته وتعاونه على مواجهة الكوارث الطبيعية والحروب والمساعدة الاقتصادية يكون اقرب من الأخ في العائلة الواحدة لأخية عندما يكون ذلك الاخ عاجزا ومحبطا عند الحاجة الفعلية له.

وإذا كانت القوة وسيلة من وسائل ضم الامم، فان الرسالة الأخلاقية مقترنة بالتربية والتعليم هما القادران فقط على إقناع الأفراد والامم على الانضمام الطوعي لأي مشروع إنساني وإشراك الامم في مضمار الحضارة الإنسانية المشتركة، شرط إلغاء أجواء الخوف والحرب والتعصب، والحاجة الى إثراء عوامل البقاء الإنساني، بدء من الخبز الى المعرفة والعلم والتقانة والمسكن والطاقة.

ان القوة التي بنت الإمبراطوريات، هي التي أسقطتها على يد القوى الأضعف منها، ذلك مرتبط بعوامل عدة، يلعب الزمن فيها دورا أساسيا . يدرك دارسي التاريخ الإنساني قبل غيرهم كم هي حالات الإشفاق تعترئهم وهم يقرئون سجلات حماقة والقسوة والبؤس الإنساني التي لازمت الحياة الإنسانية عبر العصور. وكم يخيفنا ان متعة المعرفة والاكتشاف لم تسلحنا بعد بكيفية إبعاد تلك الصورة القاتمة لمستقبل يطل علينا وهو أكثر قتامة من بعض صور التاريخ القريب والبعيد.

وكما يقال "ان لدى المتشائم نصف الحقيقة"، وهو نصف الاقل أهمية في نظر المتفائلين، طالما ان الانسان لا يمتلك فقط الطاقات المتصلة بالقسوة والمعاناة والاذى والتدمير، ولكنه يمتلك أيضا امكانيات العظمة والسمو والاشراق. وهي إمكانيات لم يتحقق الا الجزء الضئيل جدا منها. ان صورة المستقبل مبهجة ايضا، لو ان الانسان تنامى الى مستوى طموح العلم نفسه. وفي العلم يمكن تجاوز صعوبات الوهم في البيوتوبيا الانسانية ووضعها موضع التطبيق.

ان صور مستقبلية لانسان يتجاوز الحرب ويحتكم الى أخلاقيات البحث العلمي ويوجه التكنولوجيا الى مسار الرفاه الاجتماعي لكل البشر متجاوزا الهوة الغذائية والدوائية والمائية والرقمية ممكنة الوقوع، وهي لا تحتاج لأكثر من استثمار معقول في العقل البشري وإمكانياته الخلاقية.

وليست احلام الادباء سانحة، عندما عنونت يوما روايات باسم الواقعية الاشتراكية وقالت يوما "لنحول السيوف الى محاريث" ولنحول "الدبابات الى جرارات زراعية" لكن الرصد المخبراتي والاستعداد لاجل الحرب لاجل ونقل المعارف والتقانات من مجالها السلمي الى تطبيقات الفناء عطل من قدرات العلم الخلاقه واحبط الابداع الثقافي. وسوف لا نتجاوز عتبة الفناء الا عندها تكون السلطة للعلم والعقل معا كما حلم ببيكون وغيره من العلماء والفلاسفة.

## فهرس الاعلام

أ	
<p>ابن مسكويه: 51،            ابو الحسن عبد الجبار المعتزلي: 269،            ابو عثمان الجاحظ: 26            ادموند دي روتشيلد البارون: 316،            ادوارد تيلر: 270            إدوارد ثورب السير: 450،            ادوارد سعيد: 291،            آرثر ليندن - بيل: 440،            أرسطو: 35، 213،            أرشيفالد ويفل السير الجنرال: 452،            إرنست ماير: 188،            إرنست هيكل: 176،            آري فيشر: 524،            أريك فروم: 85، 86، 87، 88، 90،            أريوست: 346،            اسكانيو            اسكانيو سوبريو: 347،            الاسكندر الكبير: 91،            الاسكندر: 349،            اغسطس اوكتافوس الاميراطور: 323،            افراهام ماركوس كلينبيرج: 510،            أفلاطون: 32، 38، 42، 43، 44، 53، 54، 57، 61،            أفيجدور شافرمان: 522 .            أقليدس: 60،            إليوت، ت. س. : 181، 360،            الامام الغزالي: 28، 34.            إميل دوركهايم: 58.            إميلييو دي نونو الجنرال: 424.            انتوني إيدن: 431،            أندريه كرسون: 31، 58،            أنريكو فيرمي: 366، 367، 368،            انوسنس الرابع البابا Innozenz IV : 281،            اوباما: 288.            أوبنهايمر روبير Oppenhiemer R. : 371 ،            372، 377.</p>	<p>اوتمان فون فيرشاور: 143.            اوتوهان: 367،            اوجست كونت: 203،            اوربان الثاني البابا: 291، 292،            اولدس هكسلي: 179،            اوليفر وينديل هولمز: 154،            إيثيل وجوليوس روزنبرج "الزوجين": 398،            ايجال يادين: 513،            ايرل وارفيك: 303،            إيرنست دافيد بيرجمان: 512،            إيرين كوري: 367،            أينشتاين البرت Albert Einstein : 174، 179،            218، 236، 254، 270، 266،</p> <hr/> <p style="text-align: center;"><b>ب</b></p> <hr/> <p>باتريك ليهي السناتور: 483، 536،            باخر: 371،            بادوليو المارشال: 418، 424، 429، 425،            باراك حسين اوباما: 498،            باري بارينز Barnes B. : 177، 244 ،            باكسمان: 353،            باندورا: 94، 98،            باول اف، Powell C. F. : 271،            بيدرونافارو Navarro: 319،            بيرتا كينسكي: 324،            بيرثلوت مارسيلين Berthelot Marcellin :            412،            بيرجس: 376،            بيرفتن دوسكي: 476،            بيرلز: 369،            بيسولاتي: 418،            بيكالوف ك. الفريق: 448،            بيكون فرنسيس: 179،            بيل بوكلي: 492، 493، 495،            بيل كلنتون: 364،            بيليسي الجنرال Pelissier : 401، 402،</p>

<p>بيتر رودمان: 384، بيتر بادوليو المارشال: 437، بيثا: 393،</p>	<p>بين الكومندان: 405، بيجو الجنرال: 418، بيير لافال: 430، باولنك لينوس Pauling Linus: 244، 291، باولهوس: 95، بتلر: 385، برادلي هـ.: 110، برتا لانفي: 128، بردجمان Bridgman P.: 292، بركلي: 71، بروس ايفنز: 533، برونو بونتيكورفو: 397، برونو شيفر: 473، برونوفسكي جاكوب: 259، بريتشر: 392، بريدجمان بيرسي: 196، بريغوجين ايليا: 128، بفردج البريجادير: 513، بلور دافيد: 194، بليز دومونلوك: 346، بن غوريون ديفيد: 211، بن غوريون ديفيد: 510، 512، بنجامين نيلسون: 295، بهاء درويش: 151، بوير كارل: 188، 204، 205، 209، 217، 254، 297، بوتا، 391، بوزانكيت: 110، بوسكارين العقيد: 421، 426، بول ايرليش: 121، بول بانكو: 443، بول تشانون: 487، بول وولفويتز: 383، 384، بولاني ميكائيل: 194، بولبوت: 93، بولس الثالث البابا: 328، بولينك لينوس: 396، بونابرت نابليون: 234، بونومي: 432، بوهر نيلز: 216، 276، 390، 391، 393، بوير هـ.: 129، 188،</p>
<p style="text-align: center;"><b>ت</b></p>	
<p>تاجفيل Tajfel: 578، تايلور: 371، ترميلي العقيد Trumelet: 411، تريفيس: 418، تشارلز داروين السير: 169، تشر ميروشا: 463، تشرشل ونستون: 432، تشيكونيتي الجنرال: 420، توبجيف Topchiev A.V.: 265، توتو الكاردينال: 532، توجو الجنرال: 434، توراتي: 418، توم بروكاو: 536، توم داشيل السناتور: 536، توني بلير: 482، تيروتسي: 421، تيلر: 368،</p>	
<p style="text-align: center;"><b>ج</b></p>	
<p>جوناثان كنج: 522، جيرالد فورد: 358، جيريمي ريفكين: 109، جيفونز: 172، جيل دولوز: 71، 73، 74، جيمس وولسي: 360، جين ليونز: 467، جيوردانو برينو: 282، جاردنر هوارد: 234، جاك أول: 262، جان جاك روسو: 57، جان سينجا: 508، جاي كونين: 97، جبريل دي فواني: 603، جرازياني: 418،</p>	

<p>دي ماديئا سيدونا Medina Sidona : 319 ،  دي هيرش البارون : 316 ،  ديياراي النقيب: 406 ،  ديتسيت دي تراسي Destutt de Tracy : 215 ،  ديدرو: 192 ،  ديغول شارل: 202 ،  ديفيد جرينجلاس: 376 ،  ديفيد هيوم: 37 ،  ديكارت: 52 ، 68 ، 120 ،</p>	<p>جنكيزخان: 90 ،  جوبير Jobert : 409 ،  جوديث ميلر: 499 ،  جورج بوش: 502، 525 ،  جورج ستير: 428 ،  جوردانو برونو: 216 ،  جوزيف غوبلز: 451 ،  جوزيف مينجلي: 143 ،  جون اندرسون: 369 ،  جون باينس: 34 ،  جون بولتون: 359 ،  جون ديوي: 46 ،  جون رولز: 77 ،  جون ستيوارت مل: 203 ،</p>
ر	
<p>رابي: 393 ،  رادكليف بي. : 449 ،  راشيل كارسون: 176 ، 179 ،  الراغب الاصفهاني: 20  رافائيل ليماكين: 92 ، 362 ، 363 ، 365 ،  رايدر ريتشارد: 175 ،  راير Rayer : 424 ،  رحاب العراقية: 525 ،  رذرفورد Rutherford : 12 ، 275 ،  رسل برتراند Bertrand Russel : 188 ، 218 ،  244 ، 276 ، 277 ، 287 ، 288 ، 292 ، 305 ،  568 ،  روبرت ب. زروليك: 384 ،  روبرت بارون: 562 ،  روبرت ستيفنز: 521 ، 530 ،  روبرت كاغان: 384 ،  روبرت لي: 459 ،  روبرت مبرتن: 294 ،  روبرت ميرتون: 298 ،  رويسبير: 343 ،  روتبلات جوزيف Rotblat J. : 260 ، 288 ،  رودلفو غرازياني: 437 ،  روزفلت فرانكلين: 257 ، 391 ، 445 ، 461 ،  روكلو: 213 ،  رولف ايكيوس: 361 ،  رومل: 94 ،  رونالد ريغان: 249 ، 503 ،  ري شي: 530 ،  ريتشارد ارميتاج: 384 ،</p>	<p>حسين الشهرستاني: 478 ،  حمورابي: 54 ،</p>
	ح
	خ
	<p>خالد العلي: 140 ،  خرشلي: 172 ،  خليل الدليمي: 480 ،</p>
	د
	<p>دافيد كاي: 355 ،  دالامبير: 192 ،  دانتون: 320 ،  الداي حسين: 326 ،  دلاور علاء: 476 ،  الدوس هكسلي: 108 ،  دوميرون: 515 ،  دون بيرن: 583 ،  دون سيلار: 477 ،  دونالد رامسفيلد: 353 ، 360 ، 506 ،  دي باراي الجنرال Dubarrail : 410 ،  دي بونو: 418 ، 419 ، 420 ،  دي سيسنيروس Cisneros : 319 ،</p>

<p>ستيفن بلتير: 485،  ستيفن بلتيتير: 386،  ستيفن هاتفيل: 533،  ستيفين بلتيري: 480، 482،  سقراط: 27، 28، 40، 41، 51، 54، 59،  سكوت ريتز: 385،  سميلانسكي: 340،  سنغريد غونتر: 488،  سنو س. ب.: 188، 205،  سورين كيركيجارد: 46،  سوسي سنايدر: 408،  سيثشيليانى: 435،  سيجموند فرويد: 78، 79، 81، 83، 84، 86،  360،  سيدني برينر: 126،  سيرغي كارا مورزا: 266،  سيروس ايتون Syrus Eaton : 293،  سيكستوس الرابع البابا Sixtus IV: 307،  سيلفان ريتشارد" روتلي": 171، 174،  سيمون يوليان Julian Simon: 272، 273،</p>	<p>ريتشارد بايبس Richard Pipes: 383،  ريتشارد بتلر: 532،  ريتشارد بيرت: 470، 471،  ريتشارد بيرل: 384،  ريتشارد كابوشنسكي: 542، 544،  ريتشارد نيكسون: 502، 503،  ريشنيخ: 57، 67، 183،  ريفي الجنرال Rivet: 425،  رينالد ريغان: 538،  رينيه كيرارد: 101،</p> <hr/> <p style="text-align: center;">ز</p> <hr/> <p>زالماي خليل: 384،  زكريا ابراهيم، 59، 60،  زكي مبارك: 28،  زيلارد: 391،  زيمرمان مايكل: 170،</p> <hr/> <p style="text-align: center;">س</p> <hr/> <p>ساخس: 391،  سارة ليوفيتس دار: 511،  سارتر جان بول: 284، 301،  سارتر جان بول: 554،  ساليرنو ايريك: 433،  سايمون: 392،  سبنسر هربرت: 222،  سبيرز إدوارد: 428،  سبينوزا: 52، 359،  ستالين جوزيف: 401،  شوبنهاور: 57، 84،  شورش حاجي، 479،  شوندوكو هاتو المارشال: 445،  شينغ لي: 527،  ستالين جوزيف: 93، 456، 556،  ستان رو: 108،  ستراسمان: 391،  ستراوس الادميرال: 281،  ستوكس دونالد: 229،  ستيرلنج سيجريف: 468،</p>
<p style="text-align: center;">ش</p> <hr/> <p>شابين س.: 191،  شاتوبريان: 315،  شادويك: 393،  شاربون الرائد: 423،  شارل السابع الملك: 345،  شارلز مونورو: 444،  شارون واتسون: 457، 473،  شاكرا باتي: 128،  شان مان: 474،  شتيرن: 393،  شلومو جور الكولونيل: 511،  شليك: 35،</p> <hr/> <p style="text-align: center;">ص</p> <hr/> <p>الصادق حسين: 433،  صدام حسين: 384، 481، 480، 385،  482، 483، 486، 534،</p>	

فرانسوا الاول الملك: 350، فرانسييس فوكوياما: 384، فرانسييس كولينز: 122، فراي انتونيو مونترينوس Fray Antonio Montesinos : 327، فردريك جوليو كوري Curri J.: 12،288، 390، 391، فردريك نيتشة: 68، 69،70، فردينالد وايزابيلا: 326، 343، فرديناند فوش المارشال: 449، فرناندو الخامس: 307، فرنسيس بيكون: 196، 211، فرنسيس جالتون: 122، 153، فرنسيس فوكوياما: 538، فرومانتان ايجين Fromentin Eugene: 427، فريتجوف كابران: 126، فريتز ستراسمان: 390، فريتز هيدر: 99، فريتس لينتس: 154، فريش: 392، فريش: 394، فوخ كلاوس: 244، فورست جي. وود: 550، فوشتس كلاوس: 399، فوكو ميشيل: 235، فوكوياما: 232، فولبرت لويس: 196، فولتير: 211، فولف: 71، 71، فولكس الجنرال: 444، فون بالون: 338، فون مولتكه الجنرال: 569، الفونس ودي هوخيدا Alfonso de Hocdjeda : 307، فيشر اللورد: 444، فيشر يوجين: 154، فيلهم القيصر: 154، فيليب الثالث الملك: 309، فيليب فون اوكسفورد: 316، فينتشنز بياني: 434، فيالانت المارشال Vailant : 425،	صلاح الشخلي: 479، صموئيل هنتغون: 538، <hr/> <b>ض</b> <hr/> ضياء جعفر: 482، <hr/> <b>ط</b> <hr/> طومسون: 392، <hr/> <b>ع</b> <hr/> عادل العوا: 41، عبد الرحمن رؤوف: 480، عبد القادر الامير: 425، عز الدين أ. ي. اللواء، 472، علي القرداغي: 148، عمر المختار: 432، <hr/> <b>غ</b> <hr/> غابور دنيس: 180، غاري ديفيس: 251، غاليلو غاليلي Galilie Galiloe : 235، 305، غايجر: 391، غرانتسياني: 435، غوتليب سيدني: 523، غوردون توماس: 505، غوستاف لوبون: 100، 310، غويكب: 493، 495، 496، <hr/> <b>ف</b> <hr/> فؤاد زكريا: 69، 70، 108، فاغنر: 392، فايزيكر: 391، فايسكوف: 391، فايو Vaillant: 424، فرانتز فانون: 325، فرانس فان ارات: 480،
--	--

<p>كيورت ليفين: 93،</p>	<p>فيرمي: 393، فيرون سوسكايند: 534،</p>
<p>ل</p>	<p>ك</p>
<p>لادميرو الجنرال Ladmirau : 425، لاري فورد: 527، 528، لافوازييه: 347، لانغيمور: 393، لورانس: 393، لوردي المقدم: 435، لوك: 71، 188، لومبال Lamballe: 425، لوي كاردياك: 308، لويد البرت كوارتمان: 393، لي بتلر الجنرال Le Butler : 553، 554، 556، ليدرمان ليون: 256، 257، ليز مايتنر: 390، ليسينكو: 235، ليفى بريل: 39، ليهى، السناتور: 534، ليونارد كول: 386، ليونيد ايلين: 267،</p>	<p>كاتاشالافسكي أهارون وافرايم: 510، كارب بيرسون: 154، كارل براندت: 459، كارل كنيب Karl Knip : 516، 518، كاروس: 515، كارول فويتايللا "يوحنا بولس الثاني" Paul II : 311، كارين هورني: 85، كاليكوت بايرد: 174، كانت: 39، 42، 43، 44، 48، 53، 57، 65، 66، 71، 69، 217، 187، 72، كانوفالوف العقيد: 440، كانيفا الجنرال: 432، كبلر Kepler : 304، كريستوف كولومبس: 92، كريستين جوسدن: 484، الكساندر كنغ: 176، كستياكوفسكي: 393، كلوس فوتنشس: 397، كلاين م.: 81، 82، كلمسفورد: 444، كلود ايدرلي: 553، كوبرنيكوس: 305، كوفارسكي: 392، كوكروفت: 392، كوكلوكس كلان: 551، كولن ولسون: 445، كولونسكي Golounsky C. A. : 287، كولين بول: 367، 379، 380، الكونت برنادوت: 286، كومبتون: 393، كوندوايزا رايس: 385، كوهين أس: 129، كيث ياماماتو: 518، كيفين بويل: 479، كيم يونغ ايل: 526،</p>
<p>م</p>	
<p>ماتيو ميسلسون: 471، ماخ إرنست: 187، 188، مارتن بورمان: 459، مارتين القس: 316، ماكس شيلر: 50، 52، 54، ماكس فيير: 295، ماكلين: 398، 513، مالبرانس: 52، مالتوس روبرت: 271، مانهايم كارل: 238، مارسيل ميليا Marcel Melia : 421، مارك لابي: 150، 152، ماركس كارل: 222، 230، 232، ماري كوري: 390، ماكس بلانك: 194، 240، ماكس بورن Max Born : 292،</p>	

هـ	<p>مانوئيل ديمنغويز الكولونيل: 481،  محمد البرادعي: 385، 406،  محمد الثاني السلطان: 346،  محمد بدوي، 57،  محمد عطا: 534،  مردخاي روشفالد Mordecai Roshwald  :279،  المستعصم بالله الخليفة: 317،  مسعود البرزاني: 484،  مودي دانيال تايلور: 393،  موريس هانكي الجنرال: 509،  مورين: 186،  موسوليني بنيتو: 39، 430، 432، 436، 438،  441، 442،  مولر . Muller H. J : 288، 293،  مونتاجو: 444،  مونتسكيو: 211،  ميخائيل زابوروف: 324،  ميشيل بانتون Michael Banton : 250،  ميكايل فالتزر: 538،  ميكافيللي نيكولاي: 84، 95،  ميل: 188،  ميلجرام س. : 99،  مينسكوف جاكوبو: 226، 228،</p>
	ن
	<p>نايس آرنه: 171،  نعيم جلعادي: 512،  نوبل ايمانويل: 347، 400،  نوبل: 121،  نورمان براون: 84،  نورنبرغ: 155،  نيرون: 92،  نيقيتاس الخونياتي: 319، 320،  نيكمور بيرلاس: 114،  نيلسون: 221،  نيني: 432،  نيوتن اسحق: 234،</p>
<p>هابر العالم الالمانى: 417،  هابري مانا: 93،  هارغروف يوجين ي: 171،  هاري ترومان: 375،  هاري جولد: 398،  هاري ويلز: 91،  هالبان: 392،  هان: 12، 391،  هانس جوناس: 111،  هانبيعل: 490،  هايزنبرج: 392،  هتلر ادولف: 93، 97، 100، 360، 442، 459،  هيرت سينسر: 52،  هرتزل ثيودور: 338، 339،  هفستاند: 390،  هكسلي ت. ه. : 196،  هلفيسبيوس: 53،  هلموت كول: 360،  هنري كيسنجر: 502،  هوير: 86،  هوبس توماس: 234،  هورليات: 142،  هولاكو: 92،  هيچ: 468،  هيجلستين بيتر Hegelstien Peter : 246،  هيدكي يوكاوا Hideki Yukawa : 293،  هيربرت ماثيو: 439،  هيرمان كان Herman Kahn : 278،  هيرو خوشناو: 479،  هيروودوت: 349،  هيزنبرج: 240، 256،  هيغل: 38،  هيويل سيلاسي: 438، 440،  هيوم: 71، 58، 188،</p>	

---

و

---

والت رجي. ستوسيل: 468،  
وايزمان: 140، وليم بوب السير: 451،  
وليم جيمس: 359،  
وي وول: 188،  
ويلر: 390، 391،  
ويليام برود: 499،  
ويليام هرشل: 187،  
ويليام وول: 187، 203،  
وينبرغ ستيفن: 195،  
وينبيرغ ستيفن: 194،  
ولسون أ. أ.: 189،  
ولكنتون: 221،  
وليام كرستول: 384،  
وليام كولبي: 497، 502،  
وليم بروكسمير: 366،

---

ي

---

ياسبرز كارل: 46،  
يانيكود: 229،  
اليفانت: 392،  
يوري بوفارنيتسين: 469،  
يوسف الجنرال Vantine : 425، 426،

## المراجع باللغة العربية

### المصادر والمراجع من الكتب والمجلات الصادرة باللغة العربية:

#### أ. المصادر باللغة العربية:

- ابن فارس أحمد ، معجم مقاييس اللغة (2/214)، مادة (خ ل ق)، القاهرة : مطبعة الحلبي ، 1389 هـ .
- ابن مسكويه ابو احمد ، تهذيب الأخلاق لابن مسكويه" ، مكتبة صبح، القاهرة،(1959).
- ابن مسكويه ابو احمد، تهذيب الاخلاق، تحقيق قسنطين زريق، نشر الجامعة الامريكية، بيروت، 1966.
- ابن منظور، لسان العرب، (6 أجزاء) ، دار المعارف، القاهرة،(1981).
- احمد باي، مذكرات، ترجمة محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973.
- أرسطو طاليس ، منطق أرسطو، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، بيروت، (1980).
- أرسطو طاليس، في السياسة، نقله عن اليونانية وعلق عليه الاب او غسطينس بربارة البولسي، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت ، ط 2، (1980).
- أرسطو طاليس، ، كتاب الاخلاق ، ترجمة احمد لطفي السيد، ج 2 ، بيروت، (1969).
- الافغاني جمال الدين ، ومحمد عبدة، العروة الوثقى، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، (1993).
- ألمعتزلي عبد الجبار، شرح الاصول الخمسة، ج1، موفم، ، الجزائر، (1990).
- الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، مكتبة لبنان ط1، (1978)، ط2، بيروت، (1985).

- خوجة حمدان، المرأة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1982.
- سفر التكوين- الاصحاح: 20:9-27، ب.ت.
- الطبرسي، الذريعة إلى مكارم الأخلاق، منشورات الاعلمي - ط 5، بيروت، 1403 هـ .
- الغزالي محمد ابو حامد، احياء علوم الدين، 4 أجزاء، عالم الكتب، مكتبة الدروبي، دمشق، ب.ت.
- الغزالي محمد ابو حامد، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 5، (1983).
- الفارابي ابو نصر محمد، المدينة الفاضلة ومختارات من كتاب الملة، تقديم عبد الرحمن بوزيدة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، (1990).
- الماوردي، تسهيل النظر و تعجيل الظفر. ، دار العلوم العربية للنشر ،، ط1 ، بيروت، (1987).

## **ب - المراجع باللغة العربية:**

- أبو لغد ابراهيم ، تهويد فلسطين، مركز الابحاث، بيروت (1972).
- أحمد حامد خلف، المجين البشري الانعكاسات الاجتماعية والاخلاقية، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، (2005) .
- إدوارد سعيد، الاستشراق، ط2، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، (1984).
- أرلنتجتون فرجينيا، المؤسسة القومية للعلم، الفصل الثالث، قوة العمل في العلم والهندسة، والفصل الرابع، التعليم العالي في العلم والهندسة، كيف نتعلم العلم ، مكتبة الأسرة، القاهرة، (2000).
- أرنولد دافيد، مجموعة مؤلفين، الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية، سلسلة عالم المعرفة العدد 236، الكويت، (1998).
- ألبدوي عبد الرحمن، ، الأخلاق النظرية، الكويت، (1976) .
- ألجبر محمد، البنى الأساسية في علم الأخلاق، دار المعرفة، دمشق، (1994) .
- ألجبر محمد، الموجز في مفهومي الأخلاق والدولة عند هيغل، دار المعرفة، دمشق، (1994) .

- **أحديدي حلمي عبد الرزاق**، أخلاقيات العلم والتقانة الحديثة في مجال الطب، المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، تونس، (2008).
- **أحمراني أسعد**، الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، القاهرة، (ب ت).
- **ألسوقي كمال**، من تصدير كتاب في اسباب التعصب، للدكتور هاني الجزار، مكتبة الاسرة، القاهرة، (2006).
- **ألسيد علي اسماعيل**، اتجاهات طلاب كلية التربية بالمنيا "جمهورية مصر العربية" نحو المدافعة، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة عين شمس، (1992).
- **أشاذلي سعد الدين**، الحرب الصليبية الثامنة على العراق، في جزأين، ط2، الجزائر (1992).
- **أشيباني مصطفى الفيتوري**، اخلاقيات التقانة، اخلاقيات التعامل مع التقنيات الحديثة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، (2008).
- **أطبيبي محمد**، افق وحدود وتكنولوجيا العلاج الوراثي في المجتمعات الاسلامية، ندوة الانعكاسات الاخلاقية، الدوحة، إصدار الاليسكو، (2005).
- **أعبودي عبد الكاظم**، تأليف مشترك: كتاب الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، (2008).
- **أعبودي عبد الكاظم**، تأملات في الخطاب الجامعي، منشورات المجلس الاعلى للغة العربية. الجزائر، (2004).
- **أعبودي عبد الكاظم**، الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وجمعية الدعوة الاسلامية العالمية، تونس، (2005).
- **أعبودي عبد الكاظم**، أزمة الفكر الانساني بين البحث العلمي والوازع الاخلاقي، فصل من كتاب الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس (2005).
- **أعبودي عبد الكاظم**، يرابيع رقان وجرانم فرنسا النووية في الصحراء الجزائرية، دار الغرب، وهران، (2000).

- **ألبودي عبد الكاظم، كيجل مبروك، بت سلطان احمد، هني جمال، بوطيبة زيتوني، علم التربة، دار الغرب. وهران، (2000).**
- **ألبودي عبد الكاظم، مجموعات مقالات، حول الجرائم النووية الفرنسية في الجزائر، رياض العلوم، الجزائر، تحت الطبع.**
- **ألبودي عبد الكاظم، مقدمة رواية جلاله الاب الاعظم، للكاتب، مونسي الحبيب، دار الغرب، وهران، (2001).**
- **ألخوا عادل، الأخلاق والحضارة، منشورات جامعة دمشق، (1999).**
- **ألخوا عادل، الفلسفة الأخلاقية، منشورات جامعة دمشق، (1999).**
- **ألقره داغي علي محي الدين ، فقه القضايا الطبية المعاصرة، دراسة فقهية طبية مقارنة، دار البشائر الاسلامية، ط1، بيروت. 2005.**
- **ألؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني ، الحروب والحضارات، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، (1984).**
- **ألؤزوقي نجيب علي ، منظور اخلاقي لادوية العلاج الوراثي، بحث منشور ضمن اخلاقيات التعامل مع التقانات الحديثة، الاليسكو، تونس، (2008).**
- **ألؤظمة الاسلامية للعلوم الطبية، ندوة الوراثة والتكاثر البشري وانعكاساتها: رؤية الشرائع السماوية ووجهة نظر العلمانية، فبراير، القاهرة، (2006).**
- **ألؤظمة الاسلامية للعلوم الطبية، الميثاق الاسلامي العالمي للاخلاقيات الطبية والصحية، الكويت، (2005).**
- **ألؤعيمي نعمان سعد الدين ، ذرى العلم في القرن العشرين، دار الشؤون الثقافية، بغداد، (2001).**
- **ألؤونسكو، الاعلان الدولي بشأن البيانات الوراثة البشرية، من إصدار الاليسكو، تونس، (15 اكتوبر/تشرين أول 2003).**
- **ألؤين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب ، بيروت، (2000).**
- **ألؤريغا خوسيه ، تمرد الجماهير ، مؤسسة التقدم العلمي، الكويت، (2004).**

- **إيد ريجيس، بيولوجيا القدر المحتوم: تاريخ المشروع الأمريكي السري للحرب الجرثومية،** صادر عن هولت Holt. (1999) .
- **إيردل جنكنز، الفن والحياة،** ترجمة احمد حمدي محمود ومراجعة علي أدهم، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، ( 1963 ).
- **إيريك ساليرنو،، حرب الإبادة في ليبيا،** ترجمة الصادق حسنين، طرابلس، ( 1979 ).
- **أيلول جاك، خدعة التكنولوجيا ،** الاعمال العلمية، مكتبة الاسرة، القاهرة، ( 2004 ).
- **باجنوديز جاكلين مارتان، محاكم التفتيش، الاسطورة والحقيقة،** باريس. 1992
- **بارتريدج إرنست، مقدمة الى الاخلاق البيئية،** ضمن كتاب لمجموعة من المفكرين بعنوان " مدخل الى الفكر الايكولوجي" وزارة الثقافة، دمشق. 2007
- **باينس جون باينس، أُسس التعامل والاخلاق للقرن الواحد والعشرين،** دار علاء الدين ، دمشق. (2002).
- **بدوي محمد ، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع،** الكويت، ب ت.
- **بركات محمود ، السلاح النووي واخلاقيات العلم والتقانة،** الفصل الثامن من كتاب لعدد من المؤلفين والعلماء العرب: الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، من اصدار الاليسكو وجمعية الدعوة الاسلامية العالمية، تونس، ( 2005 ) .
- **برنال، ج، د، العلم في التاريخ،** المجلد الرابع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (1982).
- **برنتون كرين، تشكيل العقل الحديث،** سلسلة عالم المعرفة 82، الكويت، (1984).
- **برنييري ماريا لويزا ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ،** سلسلة عالم المعرفة، الكويت، (1997).
- **برونشو BRANCHU، مشاكل الأقليات في قانون العقوبات الدولي منذ الحرب الثانية،** رسالة لنيل الدكتوراه في جامعة ليون. (1959).
- **بهاء درويش وخالد العلي، مشروعية وحدود العلاج الوراثي"المورثي"،** اخلاقيات التعامل مع التقانات الحديثة، ص 239-260، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، (2008).
- **بوبر كارل، منطق البحث العلمي،** المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت ، ( 2006 ).

- بوير كارل، عقلانية الثورات العلمية، تحرير إيان هاكنج، ترجمة السيد نفاذي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، (1996).
- بوخنسكي، مدخل الى الفكر الفلسفي، ترجمة محمود حمدي زقزوق، مكتبة الانجلو المصرية، (1980).
- بودريار جان، بالاشتراك مع جاك دريدا و إد فوليامي و امبرتو إيكو، مقالة جسيم السلطان، ضمن كتاب ذهنية الارهاب، لماذا يقاتلون بموتهم تأليف مشترك له مع المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، (2003).
- بور نيلز ، الفيزياء الذرية والمعرفة البشرية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، (1997).
- بيومي رياض، التقدم الحديث في ميدان العلاج الوراثي، اعمال ندوة الانعكاسات الاخلاقية للابحاث المتقدمة في علم الوراثة، الدوحة، قطر، المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم، بالاشتراك مع جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، الرباط، المغرب، (1993).
- توبي أ. هف فجر العلم الحديث، عالم المعرفة، العدد 260، ط2، الكويت، (2000).
- ثيودور هرتزل، يوميات هرتزل الكاملة الترجمة العربية، مركز الابحاث والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (1973).
- جابر عصفور، ضد التعصب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (2000).
- جاردر هوارد ، مستقبل العلماء الاخلاقية، مجلة حوارات عدد يناير 1999، مترجم في كتاب "تعلم العلم في القرن العشرين"، مكتبة الاسرة، القاهرة، (2004).
- الجزائر هاني ، في أسباب التعصب ، مكتبة الأسرة القاهرة، (2006) .
- جمال الدين الافغاني ومحمد عبدة ، العروة الوثقى، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، (1993).
- جهاد الخازن، المحافظون الجدد والمسيحيون الصهيونيون، دار الساقى، لندن. 2005،
- جون ب. وولف، الجزائر وأوربا 1830-1500 ، ترجمة د. ابو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (1986).

- **جيروم ستولنتيز، النقد الفني** دراسة جمالية فلسفية، ترجمة فؤاد زكريا، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة. ب. ت.
- **جيمسون ماي سي، تعلم العلم وخيارات المجتمع، تعلم العلم في القرن 21**، مكتبة الاسرة، القاهرة. (2004).
- **حسين سيد سيف الدين، اخلاقيات الممارسات الطبية، الفصل العاشر من كتاب (الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية)**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وجمعية الدعوة الاسلامية، تونس، (2005).
- **الحفني عبد المنعم**، موسوعة الطب النفسي، المجلد الاول، مكتبة مدبولي، القاهرة، (1995).
- **دراز محمد عبد الله**، دستور الأخلاق في القرآن، ترجمة عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت،
- **دراز، محمد عبد الله**، "دستور الأخلاق في القرآن" ترجمة عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، (1973).
- **دكت جون**، علم النفس الاجتماعي والتعصب، ط1، دار الفكر العربي القاهرة، (2000).
- **الدواي عبد الرزاق**، اخلاقيات التعامل مع التقانات الحيوية، الاليسكو، المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، (2008).
- **دوبرينكوف ف**، الفرويديون الجدد، دار الفارابي، ط1، بيروت، (1988).
- **الديب فتحي**، الاتجاه المعاصر في تدريس العلوم، دار القلم، الكويت، 1986.
- **ديفال بل و سيشنز جورج**، النظرية المهيمنة الحديثة على العالم ونقادها، فصل من كتاب **لمجموع من المفكرين** بعنوان : مدخل الى الفكر الايكولوجي، وزارة الثقافة دمشق، (2007).
- **ديميري أديب**، نفي العقل، ج2 دار كنعان، دمشق، (2008).
- **رجب منصور**، تأملات في فلسفة الاخلاق. القاهرة. ب. ت.
- **رشيد فوزي**، الشرائع العراقية القديمة، دار الرشيد للنشر، بغداد، (1979).
- **رمزي زكي**، المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة، عالم المعرفة، الكويت، العدد 84، الكويت،

- رو ستان ، ما الذي على الارض يدعى بيئة، من مدخل الى الفكر الايكولوجي، وزارة الثقافة، دمشق، (2007).
- روز ستيفن وآخرون ، علم الأحياء والايديولوجيا والطبيعة البشرية ، عالم المعرفة العدد148 ، الكويت،(1990).
- ريشنباخ هانز، نشأة الفلسفة العلمية" ترجمة فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ،
- زابوروف ميخائيل، الصلبيون في الشرق ، دار التقدم / موسكو ، ( 1986).
- زايد احمد ، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ( 2006).
- الزغل فتحية ،التطور التقاني البيولوجي ومستقبل الانسان، اخلاقيات التعامل مع التقانات الحديثة، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس. 2008،
- زقروق محمود حمدي ، مقدمة في علم الاخلاق، ، دار الفكر العربي، القاهرة، (1993).
- زكريا ابراهيم، المشكلة الخلقية " : دار مصر للطباعة، القاهرة، ( 1980).
- زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، القاهرة، ب ت.
- زكي مبارك، الاخلاق عند الغزالي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ب ت.
- زيمرمان مايكل، الفلسفة البيئية، ج1، سلسلة عالم المعرفة،العدد 332 الكويت، ( 2006).
- زيمرمان مايكل، الفلسفة البيئية، ج2، سلسلة عالم المعرفة،العدد 333 الكويت، (2006).
- زينة حسني ، العقل عند المعتزلة ، دار الافاق الجديدة، بيروت ، ( 1980 ).
- زيور مصطفى ، في علم النفس، سيكولوجية التعصب، محاضرة منشورة، القاهرة، دار النهضة العربية،
- سبيرز ادوارد م.، الحرب الكيميائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، ( 1991).
- سبينوزا، رسالة في السياسة، ترجمة وتقديم عمر مهيل، موفم للنشر، الجزائر، ( 1995).
- ستولنتيز جيروم، النقد الفني، دراسة جمالية فلسفية، ترجمة فؤاد زكريا، ط1 مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ب ت. والطبعة 2 من اصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (1981).

- سلامة أيمن عبد العزيز، المسؤولية الدولية عن ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، بإشراف بطرس غالي، القاهرة، (2008).
- سيمون جوليان، الملاذ الأخير أو الإنسانية فرصتنا الأخيرة؟؟ له عدة طبعات وفي لغات عدة، بيروت.
- شوارتز ملفين ، مقالة حالة الثقافتين من كتاب " تعلم العلم في القرن الواحد والعشرين ، تأليف نخبة من المؤلفين الامريكيين ، القاهرة، مكتبة الاسرة، ( 2004 ) .
- شونو بيير، الحضارة الاوربية في عصر الانوار، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق ، (2003).
- شيريب سبيريديوفيتش، حكومة العالم الخفية، دار النفائس، بيروت، (1984) .
- طاهر علاء، نهايات الفضاء الفلسفي – الفلسفة الغربية بين اللحظة الآنية والمستقبل. مكتبة مدبولي ، القاهرة ، (2005).
- عبد الحميد شاكر ، التفضيل الجمالي ، سلسلة عالم المعرفة، العدد 267 ، الكويت، (2001) .
- عبد الحميد كامل ، الكائنات المعدلة بيولوجيا، ضمن [الاخلاقيات العلمية التكنولوجية] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ، (2005) .
- العبودي عبد الكاظم، " التجارب النووية الفرنسية في الجزائر، " المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954، التجارب النووية الفرنسية ومخاطر التلوث الإشعاعي على الصحة والبيئة، ص 81-186، الجزائر، ( 2000).
- العظم صادق جلال ، الصهيونية والصراع الطبقي، ، دار الطليعة ، بيروت، (1975) .
- غرانميزون أوليفي لوكور، الاستعمار والابادة، دار الرائد للكتاب، الجزائر، (2007).
- فؤاد كامل و جلال العشري و عبد الرشيد صادق، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت .
- فاوئر جون ، الغبار النووي ، بيروت، ( 2000).
- فرانكفورت هـ . وفرانكفورت هـ . أ. و جون أ. ولسون و توركيلد جاكبسون، ماقبل الفلسفة الانسان في مغامرته الاولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط3، بيروت، (1982) .
- فرويد سيجموند ، الانا والهوى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (1981).

- **كابرا فريتجوف Fritjof Capra**، مقالته "شبكة الحياة" ضمن كتاب من تأليف مجموعة من المفكرين، بعنوان (مدخل الى الفكر الايكولوجي)، وزارة الثقافة السورية ، دمشق، (2007) .
- **كاتي توب**، إبداعات النار، تاريخ الكيمياء المثير من السيمياء الى العصر الذري، عالم المعرفة العدد 266، الكويت، (2001) .
- **كارا مورزا سيرغي** ، جدلية الايديولوجيا والعلم ، 2005، دار علاء الدين، دمشق، (2005).
- **كاروزينا ارينا** ، مبادئ البيولوجيا ، دار مير للطباعة والنشر موسك، ( 1982).
- **كاشمان جرج**، لماذا تنتشب الحروب، الهيئة المصرية للكتاب، ج1، القاهرة، (2005).
- **كافلي لويجي لوقا** ، الجينات والشعوب واللغات، مكتبة الاسرة، القاهرة، (2004) .
- **كاكو متشييو**، رؤى مستقبلية ، عالم المعرفة، العدد 270، الكويت، (2001) .
- **كالن سير روي**، عالم يفيض بسكانه .عالم المعرفة، العدد213، الكويت ، (1996) .
- **كاليكوت ج. بايرد** ، الاخلاق البيئية الباب الاول من كتاب "الفلسفة البيئية" ، عالم المعرفة ، الكويت،(2007).
- **كانت إيمانويل** ، نقد ملكة الحكم ، ترجمة : غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، توزيع : مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ( 2005).
- **كانت إيمانويل**، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة، (1979) .
- **كرسون أندريه**، المشكلة الخلقية والفلاسفة، الاخلاق في الفلسفة الحديثة، مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة، (1948).
- **كليفورد لونجلي**، الشعب المختار، الاسطورة التي شكلت انجلترا وامريكا، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، (2003) .
- **كورنيلوس كوستريادس**، الطريق المسدود، العلم في نقد العلم دار المنتخب العربي، بيروت، (1995) .

- كول ليونارد، السلاح الحادي عشر، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ، (2000) .
- كوهين يرواحان ، في وضح النهار وظلام الليل ، صادر بالعبرية تل أبيب، (1969).
- كيجلس دانييل ج، من تحت معطف اليوجينيا، بحث في كتاب، الشفرة الوراثية للإنسان، سلسلة عالم المعرفة، العدد 217، الكويت، (1997) .
- كيجلس دانييل، الشفرة الوراثية للإنسان، القضايا العلمية والاجتماعية لمشروع الجينوم البشري، عالم المعرفة العدد 217، الكويت ، (1997) .
- كيمبرلي بلاكر، المضامين الاجتماعية لمعركة هرمجدون، اصول التطرف، مكتبة الاسرة، القاهرة، (2006).
- ليدرمان نورمان ج، البحث العلمي وطبيعة العلم كسياق له معناه من اجل تعلم العلم، تعلم العلم في القرن الواحد والعشرين، مكتبة الاسرة، القاهرة، (2006).
- ليونارد باتريك هار ، تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، (دراسة في كتاب الحضارة العربية في الأندلس التي أشرفت على إعدادها الدكتور سلمى الخضراء الجيمي). مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الأولى. (1998-1419).
- ليونارد كول، ، السلاح الحادي عشر ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ، (2000).
- ماستي والتر، المسؤولية العلمية "تعلم العلم في القرن 21، مكتبة الأسرة، القاهرة ، (2005) .
- ماستي والتر، المسؤولية العلمية، ورقة بحث القيت في ندوة " عن العلم والتكنولوجيا والمجتمع في القرن 21 " ، سانت اندر، اسبانيا، ( سبتمبر 2000) .
- مالكولم نيكولسون، الفصل الرابع من " الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية"، عالم المعرفة، الكويت ، (1998) .
- ماير أرنست، هذا هو علم البيولوجيا ، سلسلة عالم المعرفة العدد 277، الكويت ، (2006) .
- متي يوسف ، مباحث في فلسفة الاخلاق، القاهرة، ب ت .

- محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتتصرين الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي القاهرة ( 1408هـ/ 1987) .
- محمد عزت عبد العزيز، اخلاقيات العلم والتكنولوجيا، أمثلة عن الخروج عن القواعد الاخلاقية لاستخدام الطاقة النووية، عن كتاب: الاخلاقيات العلمية والتكنولوجية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس، (2005) .
- مرتاض عبد الملك، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954، ص: 31، الجزائر،(2003).
- مرقص سمير، الامبراطورية الامريكية: ثلاثية الثروة... الدين... القوة (من الحرب الاهلية الى ما بعد 11 سبتمبر)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ، (2003).
- مروة عدنان ،تقنيات الحمل المساعدة والبعد الاخلاقي لها، ندوة الاجتماع التاسيسي للجنة العربية لاخلاقيات البيولوجيا والتقانة، بيروت، وثائق الندوة صادرة بنفس العنوان من قبل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واللجنة الوطنية اللبنانية لتربية والثقافة والعلوم "اليونسكو" ، جمعية الدعوة الاسلامية، ط1، 2004 بيروت، (2003) .
- المعلم عادل ، مقدمة في الاصولية المسيحية في أمريكا والرئيس الذي استدعاه الله وانتخبه الشعب الامريكي مرتين، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، (2004) .
- مغنية محمد جواد ، فلسفة الأخلاق في الإسلام، ط3، بيروت، (1984) .
- منظمة الامم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم "اليونسكو" ، اعلان عالمي بشأن المجين البشري وحقوق الانسان، تونس، (ديسمبر 1997) .
- ميتشيو كاكو، رؤى مستقبلية ، عالم المعرفة، العدد 270، الكويت، (2001).
- ميد هنتر ، الفلسفة انواعها ومشكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا، القاهرة، ( 1975) .
- هاروول مارك ،جوزيف دري ، دوريا دوردن ، هربرت غروفر ، كرستين هارول ،ستيفن بانسكا ، دافيد بيمانتل ، الشتاء النووي ، دار الرقي ، بيروت (1986).

- هالبرستام ديفيد، الحرب في زمن السلم، بوش، كلنتون، والجنرالات، الفصل 24، التدخل في هايتي، رواندا اين الابداء، ص414-422، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس، ليبيا، (2003).
- هدسون مايكل، الرؤية الاستراتيجية الامريكية الجديدة للمنطقة العربية والعالم، سياسات السلام الامريكي في العراق والشرق الاوسط" ، عن كتاب احتلال العراق، اصدار مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (2004).
- واشنطون إيرفينج، سقوط غرناطة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (1988).
- وملينسون جون ت.، العولمة والثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان، عالم المعرفة، العدد 354، الكويت، (2008).
- وهبة مراد ، مستقبل الأخلاق، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، (1994).
- وولف جون ب. ، الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة د. ابو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (1986).
- ويتنر لورنس ، 29 مايو 2005، نحو إلغاء التسليح النووي: تاريخ حركة نزع السلاح النووي العالمية، من 1971 حتى الحاضر (مطبوعة جامعة ستانفورد) History News Network. (29 ماي 2005).
- وير جورج ، مبيدات الآفات، النشر العلمي والمطابع ، جامعة الملك سعود، الرياض، (2003).
- ياتج روبرت ، أساطير بيضاء كتابة التاريخ والغرب، مكتبة الاسرة، القاهرة ، (2005).

## • البحوث والمقالات المنشورة في الدوريات والمجلات والصحف والانترنت :

### 1- الدوريات والمجلات العلمية :

- أبو سته سلمان، إسرائيل أول من استعمل الحرب الجرثومية في فلسطين . تقارير ارشيف الصليب الأحمر في جنيف المرقم (G3/82, G59/1/GC, 630).
- الدار العربية للدراسات والنشر والترجمة، نشرة دراسات تصدرها. العدد 65، ص 38-46، القاهرة ، (افريل 1991).

- صلاح كرميان، الجزور السايكولوجية لجرائم الابادة الجماعية، ورقة مقدمة الى المؤتمر العالمي للتعريف بجرائم الابادة الجماعية ضد شعب كردستان المنعقد في هولير/ إقليم كردستان العراق للفترة من 2008/1/26 ولغاية 2008/1/28. هولير، "شمال العراق"، (2008).
- الصليب الاحمر الدولي، ارشيف تقارير ارشيف الصليب الاحمر في جنيف المرقم (G59/1/GC, G3/82).
- العبودي عبد الكاظم، الخوف من المستقبل، بحث مقدم الى جامعة فيلادلفيا عمان، المؤتمر الدولي حول الخوف ، ورقة بحثية قدمت إلى مؤتمر فيلادلفيا الدولي الحادي عشر "ثقافة الخوف"، جامعة فيلادلفيا، كلية الآداب، الأردن، 24-26/4.
- العبودي عبد الكاظم، الملتقى الدولي لاسلحة الدمار الشامل المنعقد في هامبورغ بالمانيا، اكتوبر، World Uranium Weapons Conferences Hamburg ,Oct.2003, The Trojan Horses Of Nuclear War, (2003).
- العبودي عبد الكاظم، ملف بحث مقدم الى المركز الوطني للدراسات التاريخية لثورة نوفمبر والحركة الوطنية، تحت الاعداد ضمن مشروع بحث حول الاسلحة المحرمة دوليا في الفترة الاستعمارية، (2007). (تحت الطبع).
- مركز دراسات الوحدة العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، استراتيجية تطوير العلوم والتقانة في الوطن العربي. التقرير العام، ص 45 و 46، بيروت، (1989).
- الجمعية العامة للأمم المتحدة ، القرار رقم 96/36 سي في 9 ديسمبر 1981، نيويورك.
- مجلس الامن، قرار صادر في 25 نيسان/أبريل 1988 (S/19823).

## 2- المجالات العلمية :

- ألبخاري حمانه، عن الحرية وعن الفلسفة في القرن الحادي والعشرين، المستقبل العربي، العدد 359، ص 121، (يناير 2009).
- أجوهرى محمد، علم الاجتماع ودراسة التعصب والتمييز العنصري، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثامن، العدد الثالث، 123-150، (1971).

- **أشوخ حسين مرتضى، الحروب الصليبية وعبرها في كفاأنا ضد الصهيونية، أفاق عربية، العدد1، السنة الخامسة، ص80-93، بيروت، ( أيلول 1979).**
- **إيد ريجيس، الأرهاب البيولوجي، تقييم التهديد، هل ينذر الرعب البيولوجي بدمار شامل، مجلة العلوم الأمريكية، الطبعة العربية، الكويت، ( 2002).**
- **جعفر ضياء، النعيمي نعمان سعد الدين، أسلحة الدمار الشامل الاتهامات والحقائق، احتلال العراق، من بحوث الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (2004).**
- **حسن طلب، الفن ورجل الأخلاق، مجلة فصول، العدد 58 ، القاهرة، (2002).**
- **حسيب خير الدين وآخرون، (مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، التنمية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ( 1987).**
- **دوتش ومونيز، الخيار النووي، مجلة العلوم، المجلد 22 العددان 11/12 نوفمبر/ديسمبر ص12-19، الكويت، ( 2006).**
- **رايدلي مات ، سنة الجينوم، نهاية لغز عظيم، البداية الحقيقية للبيولوجيا الثقافية العالمية، العدد ، 107، جويليه/اوت . ص 187-194، الكويت، (2001) .**
- **ريني، 2005، الخيمرات البشرية- الحيوانية، مجلة العلوم، المجلد 21 العدد 12 ص 32 ، الكويت، (ديسمبر 2005).**
- **ستكس جي ، الخلايا الجذعية ، الهندسة الى جانب الأخلاق، العلوم ، المجلد 21 العدد 12، ص 42، الكويت، ( ديسمبر 2005).**
- **ستيكس جي، تملك مادة الحياة Owining The Stuff of Life مترجمة عن مجلة "ساينتفك امريكان" لمجلة العلوم الطبعة العربية، المجلد 22، العددان 8/9، اوت/سبتمبر ، ص 60-68، الكويت، (2006).**
- **شابين، س.، مامعنى ان نكون مناهضين للعلم، مجلة الحوار الفكري، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة العدد 1، ص 112-125).**

- شتاين فنكل، دراسة منشورة في : Journal of Cunelform Studies, Vol.XXII, No. 3, and 4, pp. 66—82.
- صلاح الدين سليم، في تعقيب حول "موضوع اسلحة الدمار الشامل احتلال العراق" ، ندوة نظمها مركز دراسات الوحدة العربية حول احتلال العراق وتداعياته عربيا واقليميا ودوليا، بيروت، (2004).
- طالباني نوري ، جريمة الابادة ، مجلة (القضاء) ، تصدرها نقابة المحامين في العراق، العدد الثالث، بغداد، آب - ايلول 1970.
- عبد الباقي سلوى، التعصبات القبلية في دولة حديثة، دراسة في التعصب"، مجلة الدراسات النفسية، ك 2، ج2، 203-228، القاهرة، (1992).
- عبد الحميد صفوت ومحمد ابراهيم الدسوقي، اسهامات البحوث النفسية المصرية في دراسة التعصب، مجلة دراسات نفسية، العدد الرابع، 429-477، القاهرة، (1993).
- العبودي عبد الكاظم، البحث العلمي التكنولوجي بين موضوعية العلم وعنصرية التوجه، مجلة الحضارة الاسلامية، العدد الخامس، نوفمبر، ص 236 - 262، (1998).
- العبودي عبد الكاظم، التجارب النووية الفرنسية في الجزائر ومخاطر التلوث، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر، الجزائر، (1999).
- العبودي عبد الكاظم، كيجل مبروك، أخلاقيات البحث العلمي والأخطار الناتجة عن استخدام أسلحة الدمار الشامل ، المجلة العربية للعلوم، العدد 39، ص (72-94)، (2002).
- العزاوي يونس، حاجة المجتمع الدولي الى محكمة جنائية دولية، مجلة العلوم القانونية، المجلد الاول، العدد الاول، ص 141 ، (1969).
- كرنون Kernon، 1952، تحفظات بصدد الاتفاقية الخاصة بجريمة الابادة، مجلة القانون الدولي للعلوم الدبلوماسية والسياسة Rev. droit inter. Scic. Dip. Poli (عدد كانون الثاني- مارس (1952).

- كلارز وفون هيبيل، إحباط الارهاب النووي، مجلة العلوم "ساينتفك امريكان"، المجلد 22، العددان 9/8، اوت/سبتمبر، ص 46-53، الكويت، (2006).
- كنج، أ. المجلة الدولية حول وحدة العلوم، (1991).
- كوبر ر.س.، روتيمي و ر.وورد ن.س، اكتوبر، لغز فرط "ارتفاع" ضغط الدم لدى الامريكيين من اصل افريقي، مجلة العلوم الامريكية، الطبعة العربية، المجلد 15، العدد 10، ص: 48-55. الكويت، (1999).
- لوي كاردياك، الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (1983).
- مجلة العلوم Scientific American، مستقبل الخلايا الجذعية، المجلد 21 / العدد 12، ديسمبر، ص 28-57، الكويت، (2005).
- مجلة العلوم الامريكية، الخلايا الجذعية ملوثة ومائتة ولكن مصادق عليها امريكية، مجلة العلوم، المجلد 21 العدد 12، ص 34، الكويت، (ديسمبر 2005).
- مجلة العلوم، شبح الاسلحة البيولوجية، العدد 11، ص 4، الكويت، (1997).
- مجلة العلوم، الحرب البيولوجية ضد المحاصيل الزراعية، العدد 15، ص 4، الكويت، (1999).
- مجموعة من الكتاب، ملف خاص عن الوباء القادم، الثقافة العالمية، العدد 134 الكويت، (2006).
- المستقبل العربي، السنة 27، العدد 306، أوت/آب، ص 40/57، بيروت، (2004).
- مونجان أ، تقييدات حول تاريخ الاغواط، المجلة الافريقية "بالفرنسية"، نشرة أعمال جمعية التاريخ الجزائرية، العدد 38، أدولف جوردان للطباعة والنشر، الجزائر، (1894).
- نفادي السيد، التقدم العلمي ومشكلاته، عالم الفكر، العدد 2، المجلد 29، ص 13-4914، الكويت، (2000).
- والدماير، الخلايا الجذعية موقع المواجهة القادمة، العلوم، المجلد 21 العدد 12 ديسمبر، ص 41، الكويت، (2005).

### 3- الصحف:

- **أخالدي إبراهيم، مستقبلات الدكتور المهدي المنجرة،** ، جريدة العصر، الرباط، (2001).
- **بليتيتير ستيفن،** في 31 جانفي/كانون الثاني 2003، في جريدة نيويورك تايمز، نيويورك، (2003).
- **جريدة الرياض السعودية** 11091 و11098 و العدد 11105 بتاريخ 5 و12 و19 نوفمبر 98 الرياض. جريدة الرياض السعودية العدد 11077 تاريخ 22 اكتوبر 98 وكذلك مجلة الشبيجل الألمانية التي أجرت المقابلة العدد 32 \ 98 ص 138، الرياض.
- **جوديث ميلر وستيفن انجلبيرغ وويليام،** برود ،خدمة «واشنطن بوست» - خاص بصحيفة «الشرق الأوسط، العدد 8317. (الاربعاء 16 جمادى الثاني 1422 هـ 5 سبتمبر 2001).
- **صالح هاشم، هل تنبأ كائط بالعلومة قبل سقوطها،** الشرق الاوسط العدد ، لندن، 8669 الصادر في 2002/8/23 .
- **العبودي عبد الكاظم، جرائم الاسلحة الكيماوية في الجزائر،** عدد خاص، اسبوعية القادسية، العدد48 أواخر ديسمبر 2008.
- **لوموند دبلوماسيك،** قرن من عمليات الابداء، باريس، (2001).
- **مجلة "تايم"،** العدد الصادر بتاريخ 31 ديسمبر/كانون الأول 2005 .
- **مجلة حداثوت،** في 13/8/1993 صفحة 6-10 بعنوان "الميكروبات في خدمة الدولة"، اسرائيل.
- **مجلة دير شبيجل،** العدد 23 \ 98 ص 74 - 91 .
- **مجلة لينك،** عدد إبريل – (مايو 1988).
- **المطيري عبد الله ،** نقد العقل المحض و نقد العقل العملي ونقد ملكة الحكم، صحيفة الرياض السعودية، الرياض، (2006 /4/20) .
- **هاملتون توماس ،** نيويورك تايمز في 1948/7/24.

مواقع الانترنت:

- [ar.netlog.com/aboudika/blog](http://ar.netlog.com/aboudika/blog)، العبودي عبد الكاظم، الحروب الدينية، مدونة العبودي
- <http://www.alriyadh.com/2006/04/20/article147720.htm>
- <http://www.alriyadh.com/2006/04/20/article147720.htm>
- أبوسته سلمان، إسرائيل أول من استعمل الحرب الجرثومية في فلسطين وأكبر خازن لها موقع هيئة أرض فلسطين [<http://www.khiyam.com/>] احد تقارير ارشيف الصليب الأحمر في جنيف المرقم (G3/82, G59/1/GC, 2007\6\30).
- أجصاني عبد الواحد، 10 شعبان 1429 / 11 آب/اوت 2008، موقع شبكة البصرة .
- المهدي محمد، سيكولوجية الاستبداد. موقع المحانين على الانترنت، (2004)،  
<http://www.maganin.com/articles/articlesview.asp?key=168>
- أندريه\_لالاند موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة، تحقيق: خليل أحمد خليل  
[www.marefa.org/index.php/k48](http://www.marefa.org/index.php/k48)
- بانفورد جيمس، (الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية) موقع الوكالة.
- بشته عبد القادر ، جيل دولوز و فلسفة كانط النقدية/مواقع انترنت  
[www.veecos.net/portal/index.php?option=com\\_content&view=article&id=k42-=-548:-----12-&catid](http://www.veecos.net/portal/index.php?option=com_content&view=article&id=k42-=-548:-----12-&catid)
- جاسم عبد العزيز، الهوية والإبادة والتنوع الثقافي، - 17 مدونة، يونيو - 2004 .
- جلبي خالص، تراجميديا العلم والايمان، مواقع انترنت ومقالات عديده له في صحف عربية ومواقع الكترونية ومدونة شخصية.
- دوري ثائر ، موقع الجمل -06-15-2007 .
- رجب علي محمد، المخابرات الأمريكية تكشف فضائح الحرب الباردة، مجلة كلية الملك خالد العسكرية،  
<http://www.kkmaq.gov.sa/Detail.asp?InNewsItemID=262322>

- العبودي عبد الكاظم و اوبترون منتصر ، المحرقة الاستعمارية في الجزائر ، مجموعة مقالات في الصحافة الوطنية، <http://www.wata.cc/forums/blog.php?u=21512>، رياض العلوم/ الجزائر، تحت الطبع.
- العبودي عبد الكاظم، الخوف من المستقبل، بحث مقدم الى جامعة فيلادلفيا عمان، المؤتمر الدولي حول الخوف ، ورقة بحثية قدمت إلى مؤتمر فيلادلفيا الدولي الحادي عشر "ثقافة الخوف"، جامعة فيلادلفيا، كلية الآداب، الأردن، [www.startimes2.com/f.aspx?t=11462472](http://www.startimes2.com/f.aspx?t=11462472)، 2006/4/26-24
- العبودي عبد الكاظم، الاستبداد الثيوقراطي في العراق من إجتهات البعث الى اجتهات الشعب، (2007)، [http://www.iraq4allnews.dk/index.php?sec=articles&act=view\\_article&i.d=1614](http://www.iraq4allnews.dk/index.php?sec=articles&act=view_article&i.d=1614)
- العبودي عبد الكاظم، دوامة المتاهات في أرخبيل الاحتلال، مدونة العبودي(2007)، [ar.netlog.com/aboudika/blog](http://ar.netlog.com/aboudika/blog)
- العبودي عبد الكاظم، مجموعة مقالات، وتقرير تحت الاعداد والبحث ضمن مشروع بحث مقدم إلى مركز الدراسات التاريخية للحركة الوطنية وثورة نوفمبر 2008. تحت الاعداد، مدونة العبودي، <http://www.wata.cc/forums/blog.php?u=21512>
- العبودي عبد الكاظم، منظمات المجتمع المدني مساحيق بشعة على وجه الاحتلال، (2007)، <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=123478>
- العبودي عبد الكاظم، موقف اليسار الكلاسيكي الاوربي من القضية الجزائرية والعالم الثالث" الملتقى الدولي فرانس فانون ، جوان، 2008، ولاية الطارف، الجزائر، (2008).
- العبيدي محمد، جرائم حلبجة ، تقرير - <http://www.sqr-al3rb.com/vb/showthread.php?p=2486>
- العلوي أحمد بابانا نهاية الفضاء الفلسفي في الغرب ، (2006)، <http://www.doroob.com/?p=27128>

- غوردون توماس، كتاب "الأسلحة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية". - موقع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على شبكة الإنترنت (2008).
- لييوفيتس سارة دار، مقالة بعنوان الميكروبات في خدمة الدولة، [مجلة حداثوت العدد الصادر في 13/8/1993، ص6-10] ، <http://www.khiyam.com/> ، موقع هيئة أرض فلسطين، (1993).
- معرفي مصطفى، التقدم العلمي المعاصر، عالم الفكر، العدد 2، المجلد 29، ديسمبر 2000، ص 10 الكويت، (2000).
- الموسوعة البريطانية/ باب العنصرية ، **Encyclopedia Britannica,Racism** .
- موسى عبد الله، ، التحدي الحضاري وخيار التقنين، مجلة النبأ، العدد 47، 2000، <http://www.annabaa.org/nba47/tahadi.htm> .#

# Bibliography

---

## Sources , Books and References, Articles in Journals, Collections,Encyclopidas and Websites internet.

### (1) References : Books and, Articles in Journals,

#### A

- A bdel Aziz El Bayoumi and Khalid El Ali , Gene Therapy,The State of the Art , ISESCO 1421H/2000 ,( 2000).
- Al-Aboudi A. Kadhum, A comparison of Effects On Animals and Environment from Ionization Radiation from Above- Ground Weapons Testing in Algeria with DU Used in Iraq; World Uranium Weapons Conferences Hamburg , The Trojan Horses Of Nuclear War, pp.69-71. Hamburg , (2003).
- Albert Einstein , ,Ideas and Openions,New York,Crown Publishers. (1954)
- Albert Einstein, Out my Later Years, New York , Philosophical Library. ,(1950)
- Allport G.W.,(The Nature of Prejudic , MA ,AddisonWesley. Cambridge. 1958).

#### B

- Barnes, B.,Realism, Relativism and Finitism in Rayen and Thyssen and de Wolf (eds.): Cognitive -, Transaction Publishers. New Jersey. (1991).
- Baron,R. and Byrne D), Social Psycology :Understanding Human Interaction , Ed.,Allynand Bacon, Inc. Boston. .

- Barry Barnes, Interests and the Growth of Knowledge, Routledge and K. Paul, Social Epistemology, University Chicago Press, Chicago London,. (1977).
- Barton Gellman, Keeping the U.S First : Pentagon Would Preclude a Rival Superpower, »Washington Post, 11/3/1992 , (1992)  
Basil Black Well, . Bibliografía Selecta de los Estudios Sociales de la Ciencia y la Tecnología. Bibliografía de los Estudios Sociales y de la Ciencia y la Tecnología en España. (1987).
- Beacon,Becon Franz Baco's Neues Organom ,Art. 123,p.173. , (1837)
- Beaujeu –Garnier,J., Geo. De ls Pop.,Paris, ,Tom. 2,p.39. (1958)
- Benjamen Nelson, Sconscience and Civilizations ; Selected Writing by benjamen Nelson ;Litlfild 1981 chaps 5 and 13 ,(1981) .
- Benjamin N. Nelson, On the Roads to Modernity: Conscience, Science, and Civilizations : Selected Writings, Publisher: Rowman & Littlefield Pub Inc . (1981).
- Bergmann, W., Prejudice and Sterotypes, Encyclopedia of Human Behavior, Academic Press. (1994).
- Bloom ,L. and Egwu, E, Conise Lecture Notes on Psychology, ,Mac Millan,Publishers, London,(1989).
- Bridgman P.W.,Reflection of a Physicist ,2ed. Philosophical Library , New York. ,(1955).
- Bronowski, Jacob, Science and Human Values, Harper & Row, New York . (1965) .
- Brown, R. An excellent presentation of Milgram's work , Social Forces in Obedience and Rebellion, Social Psychology: The Second Edition, The Free Press, New York. (1986).
- Brown, R., Prejudice:Its Social Psychology,USA :Oxford and Cambridge Black Well. (1995).

- Bryant, J.A., Baggott la Velle, L.M. and Searle, J. (2005) Introduction to Ethics, Welly.
- Buckley, Peter, Essential Papers on Object Relations , Publisher: New York University Press. New York, (1986).

## C

- Canada Medical Research Council, Guidelines for Research on Somatic Cell Gene Therapy in Humans , Minister of Supply and Services. Ottawa . (1990).
- Carr-Saunders ,A, World Population, London, (1936).
- Charles D. Ferguson and William C. Potter, The Four Faces of Nuclear Terrorism , Center for Nonproliferation Studies, Published by: Routledge, Tylor and Francis group , (2005).
- CIOMS , International Guidelines on Ethics of Research Involving Human Subjects , Geneva ,(2002) .
- Clothier, C.M. Report of the Committee on the Ethics of Gene Therapy (HMSO, 1992).
- Crombie, A. C. , Designed in the Mind , Western Vision of Science Nature and Human Kind , History of Science 26, (1988).

## D

- David Bloor, Knowledge and Social Imagery , 2<sup>nd</sup>, Chicago University of Chicago press. Chicago. ,(1991).
- Delroy, L. Paulhus and Kevin M. Williams, , The Dark Triad of personality: Narcissism, Machiavellianism, and psychopathy, Journal of Research in Personality, Vol. 36, Issue 6, Dec. 2002, pp.556. Elsevier Science USA, ( 2002 ).
- Donald Stock, Pasteur' s Quadrant, Basic Science and Technological Innovation, ,Brookings Institutaion Press. Washington, D.C, (1977).

- Driver G.R. and John C. Miles, Edited with Translation and Commentary , 1952-1955. Two volumes, Hammurabi, King of Babylonia, Burger, Bal II (Babylonisch Assyrisch Lesestucke), Band II,. Babylonian Laws, The Babylonian Laws, Edited with Translation and Commentary. Vol. II(Oxford, Clarendon Press, Oxford(1955).
- Duhem Pierre, ,The Aim and Structure of Physical Theory, Princeton Univ. Press, New York, (1962).
- Durbin, Paul, T., Scintific Progress in Dictionary of Concepts in the Philosophy of Science, Greenwood Press Inc., USA. ,(1988).

## E

- Edward A. Tiryakian, Reviewed work(s): On the Roads to Modernity, Conscience, Science and Civilizations , by Benjamin Nelson; Toby E. Huff, (1995).
- Elon Amos, The Israelis :Founders and Sons, Weidenfeld and Nicolson, London. (1977).
- Eugene Fromentin , Un ete dans Le Sahara , Voyage dans les Oasis du Sud Algerien en 1853, Print, Ed . France Empire. (1922).
- European Commission , (2004), Ethical legal and Social Aspects of Genetic Testing : Research,Development and Clinical Applications , Brussels .

## F

- Feyerabend, P., K. , Philosophy of Science, A Subject with a Greet Past . In Historical and Philosophical Perspective of Science. Roger H. Stuewer (edi) , Gordon Breach Science Publishers, New York. (1989).
- Fire, Sketches From a Life before Nature, The Rockefeller University Press. New York. ( 1978).

- François De Fontette , *Que Sais – Je?*, Editeur : Puf - Collection Paris. (1984).
- Freud, *Creative Writers and day –dreaming in P.E.* Vernon, (ed) Creativity, Pernguin Books, London ,( 1973).

## G

- Gardner,H., (1983), "Frames of Mind", The Theory of Multiple Intelligences , Basic Books. New York.
- Gardner,H., M. Csikshentmihaly. And W.Damon ,(2001), "Good Work When Excellence and Ethics Meet, Basic Books. New York.
- George Brown Tindall,America ,(1984), A Narrative History,vol.1,New York :W.W.Norton & Company,1984/568.
- George F. Hourani ,(1956) , Ethics Values, University of Michigan Press, Ann Anbor . Oxford University Press.
- Glass Bentley , , Science : Endless Horizon or Golden Age Science,Vol.171, pp.23-29, (1 971).
- Gray, George W. "Sickle Cell Anemia." Scientific American. August 1951, 185(2): 56-59. ... "Identification of a Fourth Abnormal Human Hemoglobin." Journal of the American ... 1956, 35: 121-59. Itano, Harvey A. and James V. Neel..... Proceedings of the Rudolf Virchow Medical Society of New York., 21: 131-40.,New York, (1963).
- Gunther Stent, , Interview dans Lewis Wolpert et Alison Richard, A Passion for Science, Oxford University Press, (1988).

## H

- Hall, Calvin S. & Lindsey, Gardner, Theories of Personality: Wiley. New York, (1978) .

- Hammana Boukhari , Bio-Ethique et Défis Scientifiques, Actes du XXIX éme Congrès de l'ASPLF , Nice, France, édit. J. Vrin, Paris. (2004).
- Hammana Boukhari , Violence et Nouvelles Technologies de l'information et de la Communication, Publ. , Université d'Oran, Semaine Scientifique, Oran, ( Avril. 2004).
- Hanbury Brown The Wisdom Of Science: Its Relevance To Culture And Religion , Cambridge University Press (1986) .
- Hansard ,Official Report, Hous of Lords,Vol. 138, No.31,Wedensday ,28 November,Act. London ,(1945).
- Harriet Zuckerman Harrite;Scientific Elite , Nobel Laureates in the United States, (Foundations of Higher Education) , Transaction Publishers, USA , (1995) .
- Harry K. Wells, , The Failure of Psychoanalysis: From Freud to Fromm, First Edition, New York International Publ. New York, (1963).

## I

- Immanuel Kant,1999 ,Kritik der reinen Vernunft, edited by Jens Timmermann, Felix Meiner Verlag Immanuel Kant, Critique of Pure Reason, translated by Werner S. Pluhar with an Introduction by Patricia W. Kitcher, Immanuel Kant, Critique of Pure Reason, Springer, Erkenntnis, Volume 51, Number 2-3, 1999 , pp. 357-363(7) .

## J

- jacob Bronowski, Science is Human, dans The Humanist Frame,Julian Huxle , Harber and Brothers, New York , (1991).
- Jason Vest, The Men from JINSA and CSP , The Nation, (2002) .
- Jay Reeves,(2002) , Book Links found of Bob Jones University with Alabama Klan, Associated Press (online),cited ( 14 june 2002 ) .

- Jay Y. Gonen , , The Roots of Nazi Psychology: Hitler's Utopian Barbarism. University of Kentucky Press . Lexington, (2002).
- Jean Me'lia, Laghout Ou les Maisons entourees de Jordains Nourret et vie, Paris ,(1923) .
- Johnson,Oliver A., Ethics, Selections from classical and contemporary writers, , Editor Holt, Rinehart and Winston, U.S. (1978).
- Julian Huxley, A. C. Haddon and A. M. Carr –Saunders, We Europeans, Pelican Books ,(1939).
- Julian Simon, L'homme notre dernière chance ,PUF, Paris,(1985).
- Junko Morimoto, , My Hiroshima, Puffin books, New York , (1987).

## K

- Kamberly Blaker, African-Americans,Who Took a Stand. Black History Month Celebrates Those Who Blazed , Kimberly Blaker word 1500 P. O.,Copywrite By Kamberly, (2004) ,[www.kimberlyblaker.com](http://www.kimberlyblaker.com)..
- Kamin Leon J. , Not in our Genes: Biology, Ideology, and Human Nature, Pantheon books , New York, (1984).
- Kaplan,A, In pursuit of Wisdom, the Scope of Philosophy, Glencone Press,US, (1977).
- Karen Harney ,The Neurotle Personality of our time, New York , (1937) .
- Kary B. Mullis ,Questins on PLAST , Scientific American, (Apr. 1990), p.56 . [www.nslc.wustl.edu/courses/Bio192/09sched.pdf](http://www.nslc.wustl.edu/courses/Bio192/09sched.pdf).
- Klein, M. Rivere, J. , Love, hate, and reparation ,W.W.Norton and Campany New York, (1964).
- Kowalski, R. M. (Ed.), Behaving badly: Aversive behaviors in interpersonal relationships , American Psychological Association. Washington, DC(2001).
- Krystina A. Finlay, Walter G. Stephan ,Improving Intergroup Relations: The Effects of Empathy on Racial Attitudes,J. Applied Social Psychology ,

Volume 30 Issue 8, Pages 1720 – 1737(2006), Published  
Online: 31 Jul 2006, Journal Compilation Wiley Periodicals, Inc. ,( 2009)

- Kumagai, J, (2002), IEEE Spectrum, Weapons of Mass Destruction,pp.30-37,January, 2002.

## L

- Lappe Marc , Ethical Issues in Manipulating the Human Germ Line ,  
in Bioethics : An Anthology , ed. by ; Helga Kuhse Peter Singer,  
Blackwell Publishers(2001) .
- Laqueur W, A History of Zionism, Weidenfeld and Nicolson, London,  
(1972).
- Laurent Giroux, le Principe Responsabilité, L'Agora, vol. 7, no 2,  
janvier-février( 2000).
- Le Bon Gustave , The Crowd: A Study of the Popular Mind,Amazon  
Com.,(2002). Also; Electronic Text Center, University of Virginia Librar,  
(1895).
- Lederman, N.G., Students and Teachers' Conceptions of the Nature of  
Sciences , A Review of the Research. " Journal of Research in Science  
Teaching 29 /1992/331, (1992).
- Lennard Bickel, , The Deadly Element,the Story of Uranium, (Stein and  
Day, New York, (1977).
- Lewontin Richard, Rose Steven, Esterson Aaron, Not in our Genes:  
Biology, Ideology and Human Nature, Pantheon Books , Sociology,  
External, 1082. New York, USA,(1984).
- Lifton, JAY, The Nazi Doctors: Medical Killing and the Psychology of  
Genocide, Basic Books.New York, (1986) .
- Linacre Q , ,A new Wave Dialectic: the Reinvention of Human  
Embryology. ;61(4):66-81, (Nov 1994 ) .

## M

- Mackinder Halford, , Democratic Ideals and Reality, A Study in the Politics of Reconstruction], 1<sup>st</sup>. printed in the UK 1919, 1st American edition 1919, reissued in USA Published by Penguin Books, Pelican Books Series (1942).
- Marcello Pera, , In Praise of Cumulative Progress, In Change and Progress in Modern Science, J.C.P.H. Reideel(edi), Publishing Company, Verginia, USA, (1990) .
- Matt Ridley, The Year of the Genom, End of Great Mystery-The Real Beginning of Biology, Discover ,( 2001) ,
- Max Weber, The Methodology of the Social Science ,Free Press, Merton. New York, (1949).
- Max Weber, The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, Scribners, New York, (1930).
- Merton R., The Normative Structure of Science in The Sociology of Science , University of Chicago press. Chicago, (1973).
- Merton R , Technology and Science in Seventeenth Century in England, The Journal for Scientific Study of Religion 14 , no. 1 / 1975, p. 2-70.,(1975).
- Michael Banton, Sociologie des relations raciales , Payot, Paris, (1971).
- Michael, D. Jones and Jeffrey T. Feyerman, J. Chem. Ed.64/(1987) ,p.337 .
- Michael E. Zimmerman, Enveronmental Philosophy, From Animal Rights to Radical Ecology,Prentice Hall, Upper Saddle River, third Edition, New York, (2001).
- Milgram, S., Obedience to Authority: An Experimental View : Harper and Row. New York , (1974).
- More Sir Thomas, More 's Utopia, in Ideal Commonwealth,edited with an Introduction by Henry Morley, London,(1885).
- Myers, D. , Social Psychology , Mc Graw – Hill Companies,Inc. , (1993).

## N

- New York Times, Science is at End or Is it, The New York ; Times, 10, November, (1998), D5. New York.
- Nicolas Halash, Nobel, A., Biography, Orion Press, New York, (1959).
- Niels Bohr , Niels Bohr's Times, in Physics, Philosophy, and Polity , (Oxford: Clarendon Press, (1991).
- Nielson Torsten, Human Germline Gene Therapy , McGill Journal of Medicine, MJM, 3/1997 , p.126 ,(1997).
- Novak G. D., A Model for the Interpretation and Analysis of Concept Formation, in William D. Romey, Inquiry Techniques for Teaching Science, prentice Hal Inc., London, (1968).

## O

- Opler Paul C. and Herman A. Estrin, ( editors), , The New Scientist: Essays on the Methods and Values of Modern Science, Garden City, New York , (1962).
- Onas, Hans, Le principe responsabilité, une éthique pour la société technologique, trad.fr. par J. Greisch, , Flammarion, Paris , (1990).
- Oppenheimer J. Robert, , La Science et le Bonsens , Gallimard, (1963) Paris.
- Oppenheimer, J. Robert, Science and the Common Understanding, Simon and Schuster, New York , (1954).

## P

- Parker, Dewitt H), The Principles of Aesthetics, Greenwood Press Publishers, (1974).
- Perhman, D. and Chriscozby, P, Social Psychology, C.B.S. College Publishing. (1983).
- Peter B. Medawar, The art of the soluble. London: Methuen, (1967): Basic Books, New York, (1957).

- Petley Brian, The Fundamental Physical Constants and the Frontiers of Measurement. Bristol: Adam Hilger. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, New York, ( 1985) .
- Philip, E. Ross, Eloquent Remains, Scientific American, Vol 266, No.5, May 1992 , p.114.
- Pierre Parraf , La Racism dans Le Monde,Pbp, Paris(1981).
- Profan Ajdukiewicz, K. , Problems and Theories of Philosophy, trans. From polish by H.Skolimowski and A. Quinton, Cambridge Univ Press, (1973) .

## R

- Ralph Robynson, Utopia,or the best state of republic weal,first English translation by Oxford Clarendom Press, (1971).
- Rene Gortzen, , Duty and Inclination: The Phenomenological Value Ethics of Hans Reiner, The Journal of Value Inquiry Volume 25, Number 2 , Springer Netherlands , ( Avril 1991).
- Richard Lewontin, Steven Rose , Leon J. Kamin,(1984) , Not In Our Genes: Biology, Ideology and Human Nature, UK) , also, A book Danny Yee, (1992) .
- Richard Lewontin, , Billions and Billions of Demons, The New York Review, p. 31.New York , ( jan. 1997).
- Rifkin, Jeremy and Nicamor Parlas, Algeny:Viking, New York, (1983) .
- Robert Kagan, ,Of Paradise and Power : A merica and Europe in the New World Order, : Knopf, New York ,(2003).
- Robert Young , White Mythologies Writing History and the West , Routledge, London and New York, (2003).
- Rotblat,Joseph, Taking Responsibility , Science No. 289/ 2000, p. 729 ,(2000) .

## S

- Said, Edward, Orientalism, Penguin, London, (1977).
- Samuel Huntington, Who Are We: The Challenges to America's National Identity, Simon and Schuster. New York, (2004).
- Science Education in American Schools, 4<sup>th</sup>. year book, Part I, Chicago, University of Chicago press, (1947.)
- Sears, D., Peplae, L. and Tylor, S. Social Psychology, Eds. Prentic-Hall International, Inc. New York, (1991).
- Shapin Steven, Avril, Etre ne pas être anti Scientifique, La Recherche, No.319., (1999).
- Sidgwick, H., The Methods of Ethic, Lectures on Ethics of Green. London, (1930).
- Sigmund Freud, James Strachey, Peter Gay, Civilization and Its Discontents, Standard edition of the complete psychological works, Sigmund Freud, W.W. Norton, (1989).
- Sime, Ruth Lewin, Radiochemistry of the Fission Products, 367. Steinberg, Ellis P. Lise Meitner and the Discovery of Fission, 373. Part III. X-ray Crystal Structure Analysis/ J.Chem.Ed. Vol. 66, No5, p.373, (1989).
- Snow, C. P., The Two Cultures and Scientific Revolution, Cambridge, Mass Cambridge University Press, Reissue Edition (1960),
- Spencer and Martineau by Sidgwick H., Ed. E. C. Jones. Macmillan, Lectures on Ethics; 1902. London.
- Spinoza, B. Ethics, tr. Boyle A., (Everyman) Dent, London and Dutton, New York, 1955., . also: Spinoza, Ethique, Premiere Partie, Ed. P.U.F Paris, (1955).
- Stamp, L.D., Africa, A Study in Tropical Development, John Wiley, New York, (1953).

- Staub, E. The Roots of Evil: The Origins of Genocide and Other Group Violence , Cambridge, University Press. New York ,(1989).
- Sterling Seagrave, yellow Rain, Evans, Reprinting by permission of the publisher, M. Evans and Company Inc. New York , (1981).
- Svante Pääbo, "Ancient DNA." ,Scientific American, vol. 269, p. 86-92..,( November 1993) .
- Szebic Imre, Ethical Questions in Human Germline Gene Therapy, McGill University, Montreal, Quebec, (1999).

## T

- Tajfel., H.,Social Psychology of Intergroup Relations,Annual Review of Psychology ,33,1-39. (1984).
- Tehranian Majid, Religious Resurgence in a Global Perspective, Christian Fundamentalism and Education in the United States, , University of Chicago, Chicago ,(1993).
- The Bio Fab Group , Engineering Life : Building a Fab for Biology, Majallat Aloom,Vol.22, No. 11/12,/ .pp. 66-73,( dec 2006).
- Thomas Kuhn, La Structure des Révolutions Scientifiques , Traduction Laure Meyer, Flammarion, Champs Flammarion, (2008).

## W

- Wartman Steven A), Patricia S. O'Sullivan; and Michele G. Cyr, Improving the Congruence of Teaching, Learning, and Patient Care, Annals of Internal Medicine, Vol.116, No. 12, part 2, pp.1071-1075. (1992).
- Watt, W. M., The Formative Period of Islamic Thought, Edinburgh: Edinburgh University Press(1973), also; Shi'i Thought & History Islamic history.files.word press.com/.../islamic-history-bibliography.doc.

- WHO, Genomics and World Health :Report of Advisory Committee on Health Research , Geneva , (2002).
- Willam Martin With God on Our Side :The Rise of Religious Right in America:Broadway Book. , New York , (1996).
- William James, 'The Moral Equivalent of War , from book;"Gothals and Bramson, "War,Studies from Psychology,Sociology, and Anthropology, merican Literary Realism, Volume 41, Number 2, , pp. 95-111 Winter (2009).
- Woolf, Linda M. and Hulsizer, Michael R.). Psychosocial roots of genocide: risk, prevention, and intervention. Journal of Genocide Research, 7(1), 101–128. (2005).

## **(2): Websites Internet:**

- Birkshire Hathaway CEO Warren Buffett, Last Best Chance ,Docudrama produced by the Nuclear Threat Initiative on the danger of nuclear terrorism , (2005) Free DVD s from [www.lastbestchance.org/](http://www.lastbestchance.org/).
- Bochenski, Wege zum philosophischen Denken. Einführung in die Grundbegriffe . (1959), [www.springerlink.com/index/K1775Q4227587102.pdf](http://www.springerlink.com/index/K1775Q4227587102.pdf) .
- Bryant, J.A. and Morgan, C.L., Attitudes to teaching ethics to bioscience students: an interview-based study comparing British and American University teachers. *Bioscience Education E-Journal*, 9, (2007),<http://www.bioscience.heacademy.ac.uk/journal/vol9/beej-9-3.htm>.
- Cecil Clothes, , Report of the Committee on the Ethics of Gene Therapy, (1992) , [ww.imdb.com/title/tt0216882](http://www.imdb.com/title/tt0216882).

- Charles E. Bugge, William M. Carson, and John A. Montgomery, *Scientific American* (1993), also, (1996) by the Library, University of California, Berkeley. Document maintained on server: <http://www.lib.berkeley.edu/> by Gary Handman, Head, Media Resources Center. [www.lib.berkeley.edu/MRC/SixtiesVid.html](http://www.lib.berkeley.edu/MRC/SixtiesVid.html).
- Crane, John *The Psychology of Genocide*, (2007). Available at: [http://www.cranepsych.com/Travel/Bosnia/Genocide\\_psych.html](http://www.cranepsych.com/Travel/Bosnia/Genocide_psych.html).
- Edward O. Wilson, Margaret De Haas (Editor), Laura Simonds Southworth (Illustrator), *Naturalist*, (Paperback - Warner Books Edition) (1996), <http://search.barnesandnoble.com/Naturalist/Edward-O-Wilson/e/978044667>.
- Epstein, R.G, and Henkel, T., *Transfer of Genes to Human*, *histological progression of early atherosclerotic lesions, in vivo suppression*. *Obstacles to Success*, *Science* 270,404-410, (1995), [www.liebertonline.com/doi/pdf/10.1089/hum](http://www.liebertonline.com/doi/pdf/10.1089/hum).
- Frank Von Hippel, *Hippel in Science and Global Security*, vol.12, No.3 pp.137-164. (2004) Available at [www.princeton.edu/globsec/publication/pdf/von\\_Hippel\\_SGS\\_137\\_164\\_1.pdf](http://www.princeton.edu/globsec/publication/pdf/von_Hippel_SGS_137_164_1.pdf).
- George Hourani, *Islamic Rationalism: The Ethics of 'Abd Al-Jabbar*, Barnes and Noble, (1971), <http://www.jstor.org/pss/162550>.
- Horgan J., *The End of Science*, Reading Mass, Addison Wesley, (1996). [http://es.geocities.com/historalia/consejo\\_de\\_inquisicion.htm](http://es.geocities.com/historalia/consejo_de_inquisicion.htm).
- <http://library.fas.de/fulltek/id/00714014.htm>. WMD : Words of Mass Dissemination.
- <http://tharwacomcommunity.typepad.com/wheretosyria/2007/07/post-29.html>
- [http://www.archive.org/.../SaidEdward1977Orientalism.LondonPenguin\\_djvu.txt](http://www.archive.org/.../SaidEdward1977Orientalism.LondonPenguin_djvu.txt)
- <http://www.parliament.the-stationery-office.com/pa/ld/ldcomp/composo.pdf>.
- <http://www.geocities.com/hylesjack/bjuklan.htm>

- <http://www.aawsat.com/print.asp?did=122453&issueno=8669>
- [http://www.absoluteastronomy.com/.../Richard\\_Lewontin](http://www.absoluteastronomy.com/.../Richard_Lewontin).
- <http://www.accessexcellence.com/AB/CC/lederman.html>.
- <http://www.actu-philosophia.com/spip.php?article42>.
- <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=123478>
- <http://www.aljazeeraatalk.net/forum/archive/index.php/t-27425.html>
- <http://www.alriyadh.com/2006/04/20/article147720.htm>
- <http://www.amazon.com/Civilization-Its-Discontents-Sigmund-Freud/dp/0393059952>.
- <http://www.amazon.com/Roads-Modernity-Conscience-Civilizations-Selected/dp/0847662098>.
- <http://www.amazon.fr/LHomme-notre-derniere-chance-Julian/.../2130388507>
- <http://www.chapitre.com/.../francois-de-fontette,118140.aspx> .
- <http://www.crisismagazine.com/october2001/feature1.htm><sup>1</sup> .[http://www.infields.org/library/historical/robert\\_ingersoll/spain\\_and\\_spainard.html](http://www.infields.org/library/historical/robert_ingersoll/spain_and_spainard.html)
- <http://www.elaph.com/ElaphWeb/NewsPapers/2006/10/185138.htm?sectionarchive=NewsPapers>
- <http://www.elaph.com/ElaphWeb/NewsPapers/2006/10/185138.htm?sectionarchive=NewsPapers>.
- [http://www.grenc.com/show\\_article\\_main.cfm?id=286](http://www.grenc.com/show_article_main.cfm?id=286)
- <http://www.kkmaq.gov.sa/Detail.asp?InNewsItemID=262322>
- <http://www.ndsu.nodak.edu/instruct/mcclean/plsc431/students/dewolf.htm>
- <http://www.pdrciyiz.biz/adolescence-personality-moral-development-t4660.html>.
- <http://www.sociosite.net/topics/weber.php>.
- <http://www.solidarityeconomy.net/.../african-american/>.
- <http://www.springerlink.com/index/RL233123H753V254.pdf>

- <http://www.sqr-al3rb.com/vb/showthread.php?p=2486>
- <http://www.thawabitna.com/authors/abdulkadum/abdulkadum3.htm>.
- [http://www.thesocialcontract.com/.../article\\_244.shtml](http://www.thesocialcontract.com/.../article_244.shtml)
- [http://www.wikiberal.org/wiki/Raoul\\_Audouin](http://www.wikiberal.org/wiki/Raoul_Audouin).
- <http://www.answers.com/topic/propaganda>.
- [iss.sagepub.com/cgi/content/refs/16/3/406..](http://iss.sagepub.com/cgi/content/refs/16/3/406..)
- Lehrman, S. , Virus Treatment Questioned after Gene Therapy Death , Nature, 1999/ 7Oct ;401(6753): 517-8. , Publication Types: Case Reports; News. Mesh Terms, (1999), [www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/10524611](http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/10524611) .
- Linacre Q ,1990 Aug;57(3):11-4 , Taking pluralism seriously, or is the Ethics , Manual of the American College of Physicians unsympathetic to physicians with religious objections to abortion? Engelhardt HT. PMID: 11651026. [www.unboundmedicine.com/.../Risk\\_taking\\_and\\_professional\\_responsibility\\_?](http://www.unboundmedicine.com/.../Risk_taking_and_professional_responsibility_?).
- Linacre Q , ,A new wave dialectic: the reinvention of human embryology. 1994 Nov;61(4):66-81, [www.consciencelaws.org/.../Conscience-Bibliography-Periodicals-1990-94.html](http://www.consciencelaws.org/.../Conscience-Bibliography-Periodicals-1990-94.html).
- Mackinder Halford, , Democratic Ideals and Reality, A Study in the Politics of Reconstruction], 1st printed in the UK 1919, 1st American edition 1919, reissued in USA Published by Penguin Books, Pelican Books Series (1942). Middlesex(1944), [www.amazon.com/Democratic-Ideals-Reality.../B000ZIXVBM](http://www.amazon.com/Democratic-Ideals-Reality.../B000ZIXVBM).
- Marcello Pera, , In Praise of Cumulative Progress, In Change and Progress in Modern Science, J.C.P.H. Reideel(edi),Publishing Company,Verginia, USA, (1990) , [www.jstor.org/stable/187632](http://www.jstor.org/stable/187632).

- Matt Ridley, The Year of the Genom, End of Great Mystery-The Real Beginning of Biology, Discover ,( 2001) ,  
<http://discovermagazine.com/2001/jan/cover>.
- More Sir Thomas, More 's Utopia, in Ideal Commonwealth,edited with an Introduction by Henry Morley, London,(1885),[www.bartleby.com/36/3/](http://www.bartleby.com/36/3/).
- Niels Bohr , Niels Bohr's Times, in Physics, Philosophy, and Polity , (Oxford:Clarendon Press, (1991). Also , U. Roseberg, 'Hidden Historicity: The Challenge of Bohr's , linkinghub,  
[elsevier.com/retrieve/pii/1355219895967438](http://elsevier.com/retrieve/pii/1355219895967438) .
- Parker, De Witt , The Principles of Aesthetics , Silver Burdett Company, 1920 ..also, M Book by Henry Perkinson; Greenwood Press, (1984) ; Perrett, Roy ..... Book by H. Prichard, Jim Macadam; Clarendon Press, (2002), Book by H. Kirby-Smith; Southern Illinois University Press, (1997) ; The Philosophical Orations .... Book by David Marcell; Greenwood Press, (1974);  
[www.questia.com/collectionLandingPage?skuId=15&sort=title](http://www.questia.com/collectionLandingPage?skuId=15&sort=title).
- Peter B. Medawar, The art of the soluble. London: Methuen, (1967): Basic Books, New York, (1957).  
[www.garfield.library.upenn.edu/essays/v3p299y1977-78.pdf](http://www.garfield.library.upenn.edu/essays/v3p299y1977-78.pdf).
- Petley Brian, The Fundamental Physical Constants and the Frontiers of Measurement. Bristol: Adam Hilger. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, New York, ( 1985)  
[.journals.cambridge.org/production/action/cjoGetFulltext?fulltextid](http://journals.cambridge.org/production/action/cjoGetFulltext?fulltextid)
- Project for the New American Century, Letter to President Clinton, at 26 January 1998, <http://www.newamericancentury.org/iraqclintonletter.htm>
- Project for the New American Century, Statement of Principles , at 3 June 1997.Public Eye Political Research Association, Groupe Watch : Committee on the Present Danger ,  
[http://www.publiceye.org/research/group\\_watch/entries-42.htm](http://www.publiceye.org/research/group_watch/entries-42.htm)..
- Renner,G.T., Africa:A Study in Colonialism in World Political Geo.,ed. G. Etzel Percy and R. H. Fifield, N.Y., University of Illinois Press

Joins Current Scholarship Program (1951) ,

[www.jstor.org/stable/524173](http://www.jstor.org/stable/524173) .

- Richard Lewontin, Steven Rose and Leon Kamin , (1979), What is Race?. [http://en.allexperts.com/e/r/ri/richard\\_lewontin.htm](http://en.allexperts.com/e/r/ri/richard_lewontin.htm).
- Richard Lewontin, Steven Rose , Leon J. Kamin,(1984) , Not In Our Genes: Biology, Ideology and Human Nature, UK) , also, A book Danny Yee, (1992) , <http://dannyreviews.com/>.
- Sharon Begley, Here come the DNAsaurs, News week , p.57 ,( 14 June, 1993). [www.lib.berkeley.edu/MRC/spielberg.html](http://www.lib.berkeley.edu/MRC/spielberg.html).
- Sohns Torsten , Protection against Weapons of Mass Destruction . ASA Newsletter , Author Index and International Laboratories and ABC Schools, 1987 through 2004,( August 2000). <http://www.asanltr.com/newsletter/authors.htm>.
- Stamp , L D, Africa, A study in tropical development, John Wiley, New York,(1953), [www.iss.co.za/pubs/ASR/.../ConflictsInTheCongo.html](http://www.iss.co.za/pubs/ASR/.../ConflictsInTheCongo.html) .
- Stanislav Grof , Planetary Survival and Consciousness Evolution: Psychological Roots of Human Violence and Greed. Primal Renaissance: The Journal of Primal Psychology 2(1): 3-26, p. 23(1996), also; (Article reprinted on this website: [http://www.primalspirit.com/Grof\\_PlanetarySurvival\\_art.htm](http://www.primalspirit.com/Grof_PlanetarySurvival_art.htm)..
- Stephan,W. and Stephan C, Intergroup Relation, Brown and Benchmark's. Publisher.,(1996): Madison. [oi.wiley.com/10.1111/0022-4537.00144](http://oi.wiley.com/10.1111/0022-4537.00144).
- Szerkesztette Toldy Ferencz, [von Band II an) Gyulai PaL Kötet I— XVI. .... 60 Db.Babylonisch - Assyrisch nebst der Litteratur über Keilschrift im [www.archive.org/.../katalogderbibli00fiscgoog\\_djvu.txt](http://www.archive.org/.../katalogderbibli00fiscgoog_djvu.txt) ..
- Tracy Antoine Louis Claude Destutt, , Eléments d' idéologie, (1804) Paris,. [en.wikipedia.org/wiki/Destutt\\_de\\_Tracy](http://en.wikipedia.org/wiki/Destutt_de_Tracy).
- U.S Politics & Government , (2 September 2002). <http://www.thenation.com/doc/20020902/vest>.

- White Hous , The National Security Strategy of the United States , (Sep. 2002) , <http://usinfo.state.gov/topical/pol/terror/sectrat.htm>.
- [Wikipedia.org/wiki/Crowd\\_psychology](http://Wikipedia.org/wiki/Crowd_psychology),  
[www.answers.com/topic/propaganda](http://www.answers.com/topic/propaganda).

## المُلخَص

### أخلاقيات البحث العلمي

#### (البيولوجيا واسلحة الدمار الشامل نموذجين)

تُشكل تطورات العلوم والتكنولوجيا وتطبيقاتها في مجالات انتاج اسلحة الدمار الشامل أحد أهم المخاطر المستقبلية المحتملة. من أبرز سمات عصرنا التسلح واتساعه، وتعدد وتنوع اسلحة الدمار الشامل، وتساعد كلفة وميزانيات التسلح، وازدياد عدد الأزمات والحروب والصدمات المسلحة والصراعات المختلفة والابادات. والتصورات والمواقف الاخلاقية حولها، حتى اليوم، لازالت ذهنية صرفة، تترجمها مشاعر أخلاقية وروحية في الفعل والسلوك من دون ضوابط الزامية صارمة. وقد حاولت هذه الرسالة أن تتوقف في أهم محطاتها.

العلم ليس بتقنية فحسب؛ بل هو حالة فكرية ووجدانية وأخلاقية أيضا. لا بد أن تكون مرجعيتها حضارية، وأهدافها انسانية واضحة، خالية من الأغراض الأنانية والعنصرية والدينية المتزمتة. وانه من الواجب الإقرار بوجود أزمة عالمية في الأخلاقيات، لها من الشمولية والتمدد ما يُقلق الكثيرين؛ كونها لا تمس مجتمعا دون غيره؛ ولا ترتبط بثقافة وحضارة معينة، أو بجنس دون آخر. وهي أزمة قائمة، تتميز بعمقها، وتعدد أبعادها وتداخلاتها. سمتها القلق الواسع على مستقبل الوجود والمصير الانساني برمته؛ فالخراب بات يُحيط بحياتنا وطرق معيشتنا وبيئتنا من كل جانب وصوب وبالارتباط بين عناصر هذه الدراسة ومباحثها، فان البحث العلمي وأخلاقيات العلم، من منظور فلسفة الاخلاق، لاتحتمل الغموض في إطلاق الأفكار ومنطقها العلمي المحدد؛ فالحياة والبيئة والانسانية وما ينتظرها من احتمالات الدمار والفناء والقلق يستدعي الاهتمام بالجانب الأخلاقي عند النخب العلمية المسيرة لمؤسسة العلم، ومتابعة الممارسات البيولوجية والطبية المعاصرة في حقل الهندسة الوراثية. وهي موضوعات تتطلب مراجعتها بإمام، وفق بناءات عقلية ونظرية فلسفية وعلمية معاً. فلم تعد صياغة وتكوين المفاهيم من مهمة الفلاسفة والمفكرين وحدهم، بغياب العلميين. ولم يعد الموضوع مشروعا مرتبطا بالعاملين في الحقول العلمية والتقنية فقط؛ بل يشمل فئات وطبقات ومفكرين وفلاسفة أيضا، ومن جميع الامم والثقافات.

من هنا تُطرح قضية الأخلاق وفلسفة الأخلاق في البحث العلمي، وتستدعي مراجعة مفاهيمها المختلفة لدى الأفراد أو المجتمعات، عند الفلاسفة والعلماء المشتغلين في الجانب التطبيقي للعلم أيضا، باعتبار ذلك قاسما مشتركا لإدراك مستقبل الوجود والحياة على الأرض، كقضية كونية

وإنسانية لا يمكن تجزأتها أو معالجتها بشكل انتقائي داخل التخصص المعرفي المحدد، كمحاولة عند البعض، في الهروب بعينه من مواجهة سؤال المصير، بدلا من التمعن الدقيق في تفاصيلها، أو التسليم بتجريد شمولي، دون التوقف عند مفاصل العلاقات الهامة المتشابكة، خصوصا في الموقف الأخلاقي من الأسلحة المدمرة التي تتجاوز أضرارها ودمارها ساحات القتال، وصراع الأفراد في ساحات المعارك، وتنتقل أضرارها الى بقية أجزاء العالم وخاصة في مجاله الحيوي المفتوح.

إشكالية هذا المبحث في إطارها العام، تسعى الى تسليط الضوء على دور العلماء والفلاسفة الذين يؤرقهم مستقبل الوجود، ومدى إسهامهم معا في صياغة المبادئ الأخلاقية التي يجب أن تحكم البحث العلمي وتحديد توجهاته المستقبلية، في عالم يتسم اليوم بالصراع والإقصاء بين الدول وبين النخب العلمية والفكرية نفسها. وللأسف ان موضوعا مثل هذا لازال قليل التداول؛ بما حُكم عليه، في تفاصيله ومجالاته من غموض وارتباب، في حقيقة الأهداف العلمية التجريبية المعلنة في مجالات علمية معينة، وما يقابل البحث من غموض في الأفكار العلمية والفلسفية المتداولة حول الأخلاقيات التي ينبغي أن تسود أو السائدة فعلاً، وبما يُطرح عنها، في كثير من المفاهيم المتداولة في الفكر الفلسفي، بجانبه الاخلاقي خاصة.

تتألف الرسالة من ثلاث أبواب بسبعة فصول ومدخل وخاتمة ومسرد بالأعلام وبالمراجع العربية والاجنبية. وضع المدخل لها كفصل أولي تمهيدي عن المغامرة الكونية، وتساؤلات عن مسارات العلم والتقانة، وما يرتبط بهما من أخلاقيات، موضحين من خلاله أفكار ومنهجية البحث وإشكاليته ومفاهيمه ومنطلقاته والمصاعب التي واجهته.

**الباب الاول:** يشمل فصلين. **الفصل الثاني:** قضايا الاخلاق والموقف الفلسفي منها، في جانبه المجرد النظري التأملي والعملي بشكل خاص. **والفصل الثالث:** تناول الأخلاقيات في الحقل العلمي التطبيقي المعاصر، متوقفاً بشكل تفصيلي عند مغامرة توجيه مكتسبات العلم التطبيقية والتقانات المتطورة في خدمة صنع أسلحة الدمار الشامل وتجريبها على البشر والطبيعة، وما جرته التجارب والتفجيرات للأسلحة البيولوجية والكيميائية والنووية من مخاطر على الحياة والبيئة. كما توسع هذا الفصل حول أخلاقيات وآفاق الثورة العلمية التكنولوجية وتطبيقاتها واستقراء مستقبلها والنتائج المسجلة وما يجاريها من قلق عالمي عن آفاق هذه الثورة واندفاعها في حقول لازالت آفاقها مجهولة النتائج، خاصة في مجال الهندسة الوراثية والتلاعب بالجينوم.

**الباب الثاني:** ركز على العلم وآفاقه ومشكلاته. ضمن الفصل الرابع: يتوقف البحث عند تحديد معالم عصر المعرفة وقضايا الوحدة والفصل بين الفلسفة والعلم، والرؤى حولهما من منظور مواقف العلماء والفلاسفة، وجدلها حول دور العلم والفلسفة ومساراتهما وأخلاقيتهما ومستقبلهما المشترك.

اما الباب الثالث: عالج قضايا الحروب والغزو والابادات التي جرها تطور السلاح ونتائج الثورة العلمية والتكنولوجية على البشرية انطلاقا من تصاعد الثورة الصناعية وما افرزته من امتلاك القوة والسلاح دفعت امم معينة الى الغزو والاستعمار والاستيطان وظهور القوى الاستعمارية الكبرى في الغرب خاصة، وركز على العريف بصنع اسلحة الدمار الشامل واستخدامها وتجريبها في كثير من الحالات القاسية على شعوب أخرى، كانت الضحايا، وما جرته هذه الاسلحة من ويلات ومآسي ستمتد الى المستقبل البعيد .

تم توسيع هذا الباب ووضعه بثلاث فصول مستقلة هي:

الفصل الخامس: حول الغرب والابادة والحروب والاستعمار والاستيطان بفضل امتلاكه أسلحة الدمار الشامل وتجنيد العلم والتقانة لخدمة حروب الإبادة الشاملة.

الفصل السادس: تناول بالتفصيل أسلحة الدمار الشامل، أنواعها، ومواقع تجريبها واستعمالاتها الحربية ومخاطرها والاخلاقيات التي تحكم أصحابها ومواقفهم. وتوقف بشكل تفصيلي عند التاريخ المنسي لجرائم الابادة بالاسلحة الكيماوية والنووية في الجزائر والعراق وفلسطين وغيرها من بلدان العالم .

الفصل السابع : إطلالة على قضايا القلق من المستقبل في ظل صراعات الهوية وحوار الثقافات والوجود الانساني في ظل العولمة واحتكار أسلحة الدمار الشامل والتهديد والترهيب والابتزاز بها من قبل الدول الكبرى.

ثُركت الخاتمة خارج الابواب الثلاث تطرح قضايا المستقبل وفرصة الوجود الانساني الأخير والجدل العلمي والفلسفي الدائر حولها. كما ضمت مسردا بالمراجع العربية والاجنبية والأعلام وملخصات باللغات العربية والانجليزية والفرنسية.

## **Abstract**

### **The Ethics of Scientific Research**

#### **Biology and Mass Destruction weapons as two models to study**

Science and technology development and their application in the production of mass destruction weapons are one of the most important potential future risks. Widespread armament, mass destruction diversity, the rising military cost budgets, the increasing number of crises, and the multiplicity and armed conflicts, diversity of mass destruction weapons, wars and armed clashes and the various conflicts and genocides are the most well-known characteristics of our era.

Moral perceptions and attitudes still purely mental, show the feelings of moral and spiritual values in deeds and behavior without strict mandatory controls. We have tried to focus on its main points.

Science is not only technology; it is an intellectual, emotional and moral aspect as well. Its major reference is civilization. Its goals are humanitarian and clear free from selfish aims racial and religious prejudices. It should be acknowledged that there is a global crisis in ethics whose expansion worries more and more since it does not touch only one society; or one particular culture or civilization or a given race culture and civilization,. It is an existing deep crisis with multidimensional aspects. Its main feature Widespread concern over the future existence and human destiny as a whole. Devastation touches our lives and from all sides.

In relation to the subjects of this study, scientific research and the ethics of science should not be ambiguous as far as its ideas and logical strict reasoning are concerned, ; Life, man 's environment which may face destruction requires the attention of the elites on ethics and the follow up of contemporary biological and medical practices in genetic engineering .

These subjects need to be reviewed on the basis of reasoning and philosophical and scientific contemporary engineering. Those issues require the collaboration of not only philosophers and thinkers alone, but scientists as well . the subject matter is not only the concern of those who work in scientific and technological fields but encompasses all the classes of thinkers and philosophers , too from different nations and cultures . Here the question of ethics and the philosophy of ethics is raised in scientific research.

In concerning mass destruction weapons and their experimentation on nature and human beings. The use of biological nuclear and chemical arms has harmed life and environment. this chapter has widely dealt with the ethics of and application . the technological and scientific revolution. Research and the review of different by individuals philosophers and scientists concerned with the application of science since it is a common factor towards the understanding of the existence and future of life on earth and a humanization global issue that cannot be divided or treated separately in the specialized restricted knowledge by some people .

The latter try to escape from facing the determination question rather than analyzing its details deeply without thinking about the aspects of important intercalated links concerning the moral portion towards the devastating arms which are widely spread in war fields, than their dangerous effects are seen all over the world especially in the open biological domain.

Our problematic study aims at enlightening scientist and philosophers worried by the future of our existence and making their apply the moral principles and ethics, that govern scientific research thereby limiting the future perspectives of a world sharpened by conflicts among states and scientific and intellectual colitis .

Yet, our subject is still not really dealt with a large scale because it is ambiguous in its major applied scientific fields and in all the philosophical and scientific thoughts and ethics that should govern the world really and in all the concepts related to it.

The constituents of our study :

We have divided our thesis into three parts, including seven chapters : the first preliminary chapter deals with question raised by science and technology in our universe related to ethics . We have tried to show the methodology, the problematic its concepts and the difficulties that we have faced .

Our thesis consists of three parts with seven chapters with a preliminary a conclusion and bibliography .

Part one : it is divided into two parts. The second chapter is related to ethics and the philosophical position as regards the its theoretical and practical side. The third part treats ethics scientific and applied contemn parras research. Showing the details of applied and high technology and science .

## **Résumé**

### **L'éthique de la recherche scientifique**

#### **Biologie et autres de destruction massive comme deux modèles pour l'étude.**

Développement scientifique et technologique et leur application dans la production d'armes de destruction massive sont l'un des risques potentiels les plus importants à venir. L'armement à grande échelle, la diversité de destruction massive, le coût croissant des budgets militaires, le nombre croissant de crises, et la multiplicité et les conflits armés, la diversité des armes de destruction massive, les guerres et les affrontements armés et les différents conflits et les génocides sont les plus caractéristiques bien connues de notre ère.

Perceptions et des sentiments moraux encore purement mentale, montrer les sentiments des valeurs morales et spirituelles dans les actes et le comportement sans contrôles stricts obligatoires. Nous avons essayé de se concentrer sur ses principaux points.

La science n'est pas la seule technologie, c'est un aspect intellectuel, affectif et moral. Sa grande référence est la civilisation. Ses objectifs sont humanitaires et limpide, exempte de buts égoïstes raciale et les préjugés religieux. Il faut reconnaître qu'il ya une crise mondiale de l'éthique dont l'expansion inquiète de plus en plus car il ne touche pas uniquement une société ou une culture ou une civilisation ou une culture donnée, la race et la civilisation. Il s'agit d'une crise profonde existant avec les aspects multidimensionnels. Sa principale caractéristique inquiétude généralisée relative à l'existence future et le destin de l'homme dans son ensemble. Devastation touche nos vies et de tous côtés.

En ce qui concerne les sujets de cette étude, la recherche scientifique et l'éthique de la science ne doit pas être ambiguë quant à ses idées et un raisonnement rigoureux logiques sont concernés,; vie, l'homme de l'environnement qui exige la destruction mai face à l'attention des élites sur l'éthique et le suivi des pratiques contemporaines biologique et médicale dans le génie génétique.

Ces sujets doivent être examinés sur la base du raisonnement philosophique et de l'ingénierie et scientifiques contemporains. Ces

questions nécessitent la collaboration de non seulement des philosophes et des penseurs seul, mais les scientifiques aussi bien. l'objet n'est pas seulement la préoccupation de ceux qui travaillent dans les domaines scientifiques et technologiques, mais englobe toutes les catégories de penseurs et de philosophes, trop de différentes nations et cultures. Ici la question de l'éthique et la philosophie de l'éthique se pose dans la recherche scientifique.

Au sujet des armes de destruction massive et de leurs expériences sur la nature et les êtres humains. L'utilisation des armes nucléaires biologiques et chimiques a nui à la vie et l'environnement. Ce chapitre a largement traité de l'éthique et l'application. la révolution technologique et scientifique. La recherche et l'examen des différents individus par des philosophes et des scientifiques concernés par l'application de la science car elle est un facteur commun vers la compréhension de l'existence et l'avenir de la vie sur terre et une question de l'humanisation globale qui ne peut être divisé ou traités séparément dans le spécialisées savoir restreint par certaines personnes. Ces derniers tentent de fuir face à la question la détermination au lieu d'analyser ses détails en profondeur sans réflexion sur les aspects des liens importants intercalé concernant la partie morale envers les armes dévastatrices qui sont largement répandues dans les champs de guerre, que leurs effets dangereux ont été vus partout dans le monde, surtout dans le domaine biologique ouverte.

Notre étude problématique vise à éclairer et des philosophes scientifiques préoccupés par l'avenir de notre existence et de rendre leur appliquer les principes de la morale et l'éthique, qui régissent la recherche scientifique ce qui limite les perspectives d'avenir d'un monde aiguisé par les conflits entre États et scientifique et la colite intellectuelle.

Pourtant, notre sujet n'est pas encore vraiment traitée avec une grande échelle car elle est ambiguë dans ses principaux domaines de recherche scientifique appliquée et dans toutes les pensées philosophiques et scientifiques et l'éthique qui doit régir le monde réellement et dans tous les concepts qui s'y rattachent.

Les constituants de notre étude:

Nous avons divisé notre thèse en trois parties, dont sept chapitres: le premier chapitre est consacré à la question préjudicielle soulevée par la science et la technologie dans notre univers liés à l'éthique. Nous avons

essayé de montrer la méthodologie, la problématique de ses concepts et les difficultés que nous avons rencontrés.

Notre thèse se compose de trois parties, avec sept chapitres avec un préliminaire à une conclusion et bibliographie.

Première partie: elle est divisée en deux parties. Le deuxième chapitre se rapporte à l'éthique et la position philosophique en ce qui concerne l'aspect théorique et pratique de son. La troisième partie traite d'éthique scientifique et appliquée Parras mépriser la recherche. Montrant les détails de la technologie appliquée et de haute et la science.

## أخلاقيات البحث العلمي

### (البيولوجيا وأسلحة الدمار الشامل نموذجين)

تشكل تطورات العلوم والتكنولوجيا وتطبيقاتها في مجالات إنتاج أسلحة الدمار الشامل أحد أهم المخاطر المستقبلية المحتملة. العلم ليس بتقنية فحسب؛ بل حالة فكرية ووجدانية وأخلاقية أيضاً. لا بد من ان تكون مرجعيتها حضارية، وأهدافها إنسانية واضحة، خالية من الأنانية والعنصرية والدينية المتزمتة. وانه من الواجب الإقرار بوجود أزمة عالمية في الأخلاقيات.

تطرح الرسالة قضية فلسفة الأخلاق والأخلاقيات في البحث العلمي في البيولوجيا وأسلحة الدمار الشامل، من خلال مراجعة مفاهيمها المختلفة لدى الأفراد أو المجتمعات، والموقف الأخلاقي من عديد تطبيقاتها عند الفلاسفة والعلماء المشتغلين في الجانب التطبيقي للعلم أيضاً. كما قدمت فصلاً مستقلاً عن توجهات العلم المعاصر ومسار التطور في الحقول التكنولوجية المعاصرة.

تتألف الرسالة من ثلاث أبواب بسبعة فصول ومدخل وخاتمة ومسرد بالأعلام وبالمراجع العربية والأجنبية. وضع المدخل لها كفصل أولي تمهيدي عن المغامرة الكونية، وتساولات عن مسارات العلم والتقانة، وما يرتبط بهما من أخلاقيات، موضحة من خلاله أفكار ومنهجية البحث وإشكالياته ومفاهيمه ومنطلقاته والمصاعب التي واجهته، وتنتهي بفصل خاتمي حول المستقبل الإنساني.

## الكلمات المفتاحية:

الأخلاق، فلسفة الأخلاق، الأخلاقيات، أخلاقيات البحث العلمي، الأخلاقيات العلمية، المسؤولية الأخلاقية، الوظيفة الأخلاقية، توجهات العلم التطبيقي ، الثورة العلمية التكنولوجية، الثورة البيولوجية، البحث العلمي، اليوتوبيا، المستقبل الإنساني، التقانات العسكرية والحربية، الحرب النووية. أسلحة الدمار الشامل، الإبادة الجماعية.